

عالم الفكر

٣

أدب المراسلات

☐ رسائل انثربولوجية

☐ المراسلات في العصر الأموي

☐ الرسائل في الأدب الفرنسي

☐ رسائل مردث

المجلد الرابع عشر - العدد الثالث

أكتوبر - نوفمبر - ديسمبر

رئيس التحرير: أحمد مشاري العدواني
مستشار التحرير: دكتور أحمد أبو زيد

مجلة دورية تصدر كل ثلاثة أشهر عن وزارة الاعلام في الكويت * أكتوبر - نوفمبر - ديسمبر ١٩٨٣
المراسلات باسم : الوكيل المساعد لشئون الثقافة والصحافة والرقابة - وزارة الاعلام - الكويت : ص . ب ١٩٣

المحتويات

أدب المراسلات

- التمهيد - رسائل التريولوجية ٣
أدب المراسلات في العصر الأموي ٣١
أدب المراسلات في فرنسا ٥١
مصر والشرق في مراسلات جوستاف فلوبير ٧٣
رسائل مرمث و التمييز عن الصمت ٩٣

● ● ●

شخصيات وآراء

- شخصية البطل العربي في النثر البرفلسالي ١١٥
الدكتور جمال الدين سيد ١١٥

● ● ●

مطالعات

- الأحوال الداخلية في سلطنة الأشراف شهبان بن لارود ١٦١
الدكتورة حيلة الخجي ١٦١

● ● ●

من الشرق والغرب

- أهمية بناء الفكر الديني عند ابن المقفع ٢١٣
الوهمية والمستقبل ٢١٧
الدكتور سعيد معتز ٢١٣
الدكتور عبد الله سليمان ٢١٧

● ● ●

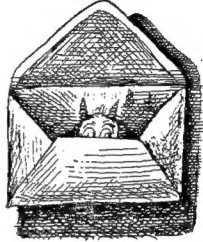
صداق حديثاً

- الحق والنظام في المجتمع المغربي ٢٨١
من هندسة الحفيد إلى هندسة المجتمع ٢٩١
الدكتور عادل مصطفى ٢٨١
السيدة ليبة موسى ٢٩١

الدراسات التي تنشرها المجلة تعبر عن آراء أصحابها وحدهم

تمهيد

الذين يتابعون عن كثب حركة الثقافة والنشر في الخارج لابد أن يكونوا قد لاحظوا مدى الاهتمام في السنوات الأخيرة بنشر الرسائل الخاصة بعدد من كبار رجال الفكر والأدب والسياسة والفن والحرب في القرنين الماضيين ، مع إعطاء مزيد من العناية بنشر رسائل الكتاب الذين توفوا حديثاً من أمثال فورستر E.M.Forester وإيفلين و Evelyn Waugh في بريطانيا وسارتر Jean — Paul Sartre في فرنسا . وهكذا يجد القراء الذين ينفلون هذا النوع من الكتابة - وهم كثيرون جداً في الخارج - أنفسهم أمام ذخيرة هائلة ومتنوعة من الرسائل التي تتباين في أهميتها وقيمتها الأدبية والفكرية والفنية كما تتفاوت في مدى عمقها ودلائنها تفاوتاً كبيراً ينعكس في الأغلب اختلاف المكانة التي كان يحتلها أصحابها في المجتمع والدور الذي لعبه كل منهم في الحياة الثقافية مع استثناءات قليلة . فبعض هذه « الكتب » يضم رسائل كتبها أناس لم يشغلوا مكانة ثقافية ملحوظة ، ولم يحظوا بكثير من الشهرة أثناء حياتهم ، ثم كشفت رسائلهم بعد نشرها عن ملكات إبداعية هائلة أو عن قدرات ضخمة على ملاحظة ما يدور حولهم من أحداث ، وتحليل هذه الأحداث والكتابة عنها لأقاربهم وأصدقائهم في أسلوب يجمع بين السهولة والبسرو (التلقائية) والدقة والعمق ، مما ساعد على أن تحتل هذه (الرسائل) مكانة مرموقة بين الكتب الخاصة بأدب المراسلات ، وأن يُعتبر أصحابها بالتالي من الكتاب ذوي الشأن الذين يمثلون علامات واضحة وبارزة في الحياة الثقافية بوجه عام .



رسائل انثربولوجية

ولقد كانت كتابة الرسائل تؤلف دائماً جزءاً هاماً في آداب الشعوب المختلفة مع بعض الفوارق في مدى العناية والاهتمام بنشرها وإتاحتها للقراء والدارسين والباحثين . وإذا كان الناس في الغرب يهتمون بنشر تلك الرسائل الخاصة ويعتبرونها ضمن الأعمال الأدبية

والفكرية الخليفة بالعناية والدراسة ، فالظاهر أن هناك كثيرا من المحاذير والاعتبارات التي تمنع من نشر هذه الرسائل الخاصة في العالم العربي ، أو على الأقل تخضع عملية النشر لكثير من القيود بحيث يصبح من الصعب اعتبار المراسلات جزءا أساسيا في الأدب العربي الحديث . ومع ذلك فقد كانت الرسائل تؤلف جانبا هاما من الأدب العربي في عصور سابقة . ويكفي أن نقرا ما جاء عن أدب المراسلات في أحد الكتب المدرسية التي كانت تدرّس في المدارس الثانوية في مصر في الأربعينيات لنذكر المكانة التي كانت تحتلها المراسلات في حياة الفكر والثقافة في تلك العصور السابقة . وأنا أعني بذلك كتاب (التوجيه الأدبي) الذي اشترك في تأليفه لتلاميذ المدارس - وليس للفقراء المثقف العام ، وهذه مسألة لها دلالتها العميقة فيها تتعلق بنوع الكتب التي كان يدرسها الطلاب في ذلك الحين - عدد من كبار الأدباء والمفكرين في مصر هم طه حسين وأحمد أمين وعبد الوهاب عزام ومحمد عوض محمد . يقول الكتاب :

« الرسائل قسمان : الرسائل العامة أو الرسائل الرسمية ، والرسائل الخاصة أو الإخوانيات .

أ - فاما الرسائل العامة فقد عرفت منذ العهد النبوي . كتب الرسول صلوات الله وسلامه عليه الى الملوك والأمراء يدعواهم الى الاسلام ، وكتب الخلفاء من بعده الى عمالهم وصارت منذ العصر الأموي فناً اختص به جماعة فرغوا له . ثم تولى الكتاب على مر الزمان وصارت الرسائل لسان الدولة في جلال الأمور ؛ بها تكتب عهود الخلفاء وأولياء العهد ، وبها يخاطب الجمهور في الدعوة الى الطاعة والتحذير من المخالفة ، وبها تسجل مآثر الملوك من فتح وتعمير وغيرها . وقد وضعت لها قوانين تبين طرائق الخطاب فيها وتحدد فوائدها ونحواتها . وبين أيدينا اليوم كتب تبين قوانين الرسائل وما بلغت من الاحكام والاسباب والتحديد ، وتتضمن نماذج منها في كل العصور الاسلامية . وحسبنا أن نذكر منها صيغ الأعشى :

وهذه الرسائل صورة لأحوال الدول المختلفة ولا سيما أحوالها السياسية .

قال ابن الأثير وهو من كبار كتاب الدولة في كلام له عن المقامات والرسائل :

« وأما المكاتبات فانها بحر لا ساحل له ، لأن المعاني تتجدد فيها بتجدد حوادث الأيام ، وهي متجددة على عدد الأنفاس . ألا ترى أنه اذا كتب الكاتب المفلح عن دولة من الدول الواسعة التي يكون لسلطانها سيف مشهور وبسمي مذكور ومكث على ذلك برهة يسيرة لا تبلغ عشرين سنة فإنه يدون عنه من المكاتبات ما يزيد على عشرة أجزاء ، كل جزء منها أكبر من مقامات الحريري حججا ، لأنه اذا كتب في كل يوم كتابا واحدا اجتمع من كتبه أكثر من هذه العدة المشار اليها ، واذا نخلت وغربلت واختير الأجود منها - إذ تكون كلها جيدة - فيخلص منها النصف ، وهو خمسة أجزاء . والله يعلم ما اشتملت عليه من الغرائب والمعجائب وما حصل في ضمعتها من المعاني المتبدعة » .

« وقد اشتهر من كتاب الدواوين أو كتاب الدولة جماعة من أئمة الكتاب ، كان لهم في اللغة والأدب فضل ظاهر ، منهم عبد الحميد الكاتب والحسن بن سهل وأبو اسحق الصابي وابن العميد والصاحب بن عباد والقاضي الفاضل والمعاد الاصفهاني وضياء الدين بن الأثير .

ب - وأما الإخوانيات أو الرسائل غير الرسمية التي يكتبها الكاتب الى صديق أو نحوه ، فهي أوسع مجالا وأعظم قدرا وأقرب الى الابانة عن فكرة الكاتب وعاطفته . وهي تصور كثيرا من آراء الناس ومنازعاتهم وعاداتهم وأخلاقيهم

وأحوال الأمة التي يعيشون فيها . ومن هذه الضرب رسائل الجاحظ والحوارزمي وديع الزمان وقاموس بن وشمكير والمعري وابن زيدون وغيرهم إلى العصر الحديث^(١).

وإذا كانت هذه الرسائل التي يزخر بها الأدب العربي في عصوره السابقة متاحة للقراء والباحثين فإن هذا لا يصدق - على الأقل بنفس الدرجة - على رسائل ومراسلات الكتاب والمفكرين المحدثين مما يجعل من الصعب على الباحث تتبع هذه الرسائل أو تقدير مكانة المراسلات في الأدب العربي الحديث بوجه عام . وإذا كانت هناك رسائل متبادلة بين هؤلاء الكتاب والأدباء والفنانين والمفكرين المعاصرين وأصدقائهم وأحبائهم فإنها في الأغلب لا تتضمن كثيرا من خفايا الحياة الشخصية لكتابتها أو دقائق وتفصيل العلاقات الحميمة التي تربط بين هؤلاء الكتاب والأشخاص الذين يرتبطون بهم والذين أرسلت إليهم هذه الرسائل ، وبخاصة إذا كانت هذه العلاقات الحميمة مع أشخاص من الجنس الآخر وذات طابع عاطفي خاص . فمثل هذه الرسائل ، إذا وجدت ، فإنها تعتبر سرا من الأسرار الخاصة التي لا يتاح للآخرين الاطلاع عليها والتي تقف كل الحوائل والعقبات والاعتبارات دون نشرها . ولا يقتصر مثل هذا الحظر على المراسلات العاطفية الخاصة بل إنه يمتد إلى الرسائل التي قد تضم بعض الأسرار السياسية والتي قد تلقي كثيرا من الضوء على بعض الأوضاع والأحداث التي يصعب فهمها بغير الاطلاع على ما قد تحتويه تلك الرسائل . وهذه كلها أمور لا تكاد تجد لها مثيلا في الأدب الغربي حيث تنشر الرسائل في الأغلب برمتها وبكل ما فيها من أسرار دون حذف أو تغيير ودون أية محاولة لمسح الحقائق ، حتى وإن كانت هذه الحقائق تتعلق بالحياة الشخصية الخاصة جدا بما في ذلك العلاقات العاطفية والجنسية . وهذه أمور تكشف عن درجة عالية من الجرأة أو الشجاعة العقلية من ناحية كما تكشف عن مدى الاحترام والتقدير للذين ينظر الناس بها إلى تلك الأعمال واعتبارها جزءا من التراث الثقافي والفكري الذي يجب أن يعامل معاملة الوثائق وأن ينظر إلى نظرة موضوعية لا يتم كثيرا بالتصرفات الشخصية أو الحياة الخاصة لأصحاب هذه الرسائل . وقد يكون في هذا كله ما يتعارض مع القيم ومبادئ الأخلاق التي تسود في مجتمعاتنا والتي تقرض القيود على نشر مثل هذه المكاتبات .

ويكفي أن نشير هنا إلى بعض هذه الرسائل التي نشرت في الشهور الأخيرة في الخارج لندرك نظرة الناس إلى مثل هذه الأعمال وعدم ترجمهم من نشر المكاتبات التي تضم أدق الأسرار وأكثرها خصوصية . والمثال الأول هو الرسائل التي أرسلها الكاتب الروائي الانجليزي فورستر من مصر إلى بعض أهله وأصدقائه وبالذات إلى إحدى صديقاته عن حياته في مصر أثناء الحرب العالمية الأولى وعلاقاته مع بعض الأشخاص ، والأزمات النفسية التي كان يمر بها أثناء تلك الفترة ، وبالذات العلاقة الجنسية الشاذة التي ارتبط بها مع « سائق ترام » مصري وتقويمه لهذه العلاقة . وقد ساعدت هذه الرسائل على الوصول إلى فهم أعمق لأدب فورستر وكتاباته والدوافع التي تكمن وراء هذه الأعمال الأدبية الرائعة التي تركها لنا^(٢) . والمثال الثاني ولعله أكثر دلالة وأهمية من رسائل فورستر هو مجموعة الرسائل التي أرسلها الكاتب الفيلسوف الفرنسي جان بول سارتر في الفترة من ١٩٤٠ إلى ١٩٦٣ إلى صديقة عمره سيمون دوبوفوار مع بعض رسائل أخرى قليلة إلى أناس آخرين والتي أشرفت الكاتبة الفرنسية بنفسها على نشرها أخيرا تحت عنوان « رسائل إلى كاستور Lettres au Castor^(٣) » . وكاستور أو القندس هو الاسم الذي أشتهرت به سيمون دو بوفوار بين أصدقائها

(١) طه حسين ، أحد لبن ، حيد الزمان ، محمد عوض محمد : « الترجمة الأدبية » للفرجة والتأليف والفرجة والنشر ١٩٤٠ ، صفحات ٢٦ - ٣٣ .

(٢) Selected Letters of E.M. Forster: vol. I, 1879 — 1920, Edited by Mary Lago and P.N. Furbank, Collins London 1983 .

Jean — Paul Sartre, Lettres au Castor et a quelques autres, édition établie, présentée et annotée par Simone de(٣) Beauvoir, N.R.F., Gallimard Paris 1983

ومعارفها . وتؤكد دو بوفوار أن سارتر هو الذي كان قد أشار عليها بأن تنشر بعد وفاته هذه الرسائل حتى تكون شاهداً وسجلاً عن حياته ، كما نذكر أنها من باب احترام الأحياء من الأشخاص الذين وردت أسمائهم في تلك الرسائل والمحافظة عليهم فإنها اكتفت بتغيير (القابيم) فحسب ، وتؤكد أنها فيها عداً ذلك لم تغير حرفاً واحداً فيما يتعلق بعلاقتها بسارتر ، وأن الرسائل بأكملها سوف تهدي للمكتبة الوطنية *Bibliothèque nationale* في باريس حتى تكون في متناول القراء والباحثين والدارسين . والطريف أن القارئ هذه الرسائل لن يلبث أن يتشكك ويتساءل عن نوع العلاقة التي كانت تربط سارتر بسيمون دوبوفوار وإذا ما كان حب الكاتب الفيلسوف لها هو الحب العاطفي العادي المؤلف الذي يمكن أن يقر بين الرجل والمرأة ، أو أنه نوع الحب الذي يربط الرجل بامرأة تكون صورة للألم وبديلاً لها . بل إن كثيراً من القصص والحكايات التي يسردها في رسائله لها عن علاقاته مع نساء أخريات غيرها قد تثير التساؤل حول مدى صدق هذا الحب وإلى أي حد كان سارتر أميناً معها ومع نفسه وصادقاً في تلك القصص والحكايات . وقد نشرت دوبوفوار تلك الرسائل بغير تعليق منها ، كما أنها لم تنشر رسائلها هي إليه حتى يمكن في ضوءها الوصول إلى تقييم أدق لتلك العلاقة . ولكن الواضح أنه في كثير من تلك الرسائل يخاطبها بأسلوب ينم عن مشاعر الاحساس بالبنوة ، إذ يصورها على أنها ملاك الحارس الذي يشرف على كثير من شؤونه بل ويتصرف فيها بحيث يبدو هو عاجزاً في كثير من الأحيان من مباشرة أموره وهو بعيد عنها . وهذه كلها مسائل يصعب ادراكها بغير قراءة هذه الرسائل . وهذا هو الذي يدفعنا إلى القول أن رسائل الكتاب والمفكرين والفنانين والمبدعين ورجال السياسة والحرب ومن إليهم تساعد على الوصول إلى فهم أعمق لبعض الجوانب الخفية والمستترة من حياة أصحابها كما تعتبر شاهداً ودليلاً على العصر الذي عاشوا فيه والظروف التي أحاطت بهم وأسهمت في تشكيل حياتهم وأفكارهم وأفعالهم وإنجازاتهم . وكثير من جوانب حياة كارل ماركس مثلاً ، بل وأفكاره ، يصعب فهمها بغير الرجوع إلى الرسائل المتبادلة بين بناته الثلاث والتي نشرت منذ عهد قريب ، وهي رسائل تكشف عن بعض جوانب الضعف الإنساني وعن نوع المآسي التي كانت تحيط بحياته مع أزواجه وعن المعاناة التي كان هو نفسه يعانيها من الفقر والمرض ، وهي كلها أمور لعبت دوراً هاماً في تشكيل حياة ذلك المارد الذي فرض نفسه وفلسفته على الفكر الإنساني اعتباراً من النصف الثاني من القرن الماضي .

والمهم من هذا كله هو أن « أدب المراسلات » يعتبر شكلاً من أهم أشكال الأدب في كل العصور ومختلف الثقافات خاصة وأنه يتميز عن بقية أشكال وصور « الأدب المنشور » بالصدق في التعبير عن العاطفة والأمانة في إبداء الرأي والأخلاص في الكشف عن خبايا النفس التي قد لا تظهر بنفس الدرجة من الصدق والعمق في الأعمال التي تكتب للنشر .

فالرسالة الشخصية أو الخاصة تخاطب الشخص الذي ترسل إليه في صراحة وإخلاص وصدق وتفترض فيه أنه عمل للثقة وأنه مؤتمن على أسرار صاحبها وخلجات نفسه ، كما تتوقع منه حسن الفهم والتعاطف ، ومن هنا فإنها تكشف في الأغلب عن أمور وجوانب وخفايا لا نجدها في الكتاب أو المقال الذي يكتب أصلاً بقصد النشر . وفي هذا بالذات تتركز أهمية « أدب المراسلات » وقيمتها وفائدته في دراسة حياة أصحابها وتكرهم وموقفهم من الحياة .



ولكن ما لهذا النوع من الرسائل قصدت . . وإنما الذي أقصده وأهتم به في المحل الأول هنا هو ذلك النوع من الرسائل الذي يصدر عن أشخاص يمتنون في حياتهم العادية أعمالاً أخرى غير حرفة الأدب والكتابة ، أو على الأقل لم تكن الكتابة هي مهنتهم الأساسية ، ولم يحققوا في مجالات الأدب والفكر والابداع شهرة واسعة عريضة قبل أن تُعرف

رسائلهم وتُنتشر وتُذاع بين الناس . بل أنني أقصد بالذات من بين هؤلاء تلك الفئة من الناس الذين بلغوا بغير شك درجة معينة من الثقافة ثم حملتهم ظروف حياتهم إلى أوطان أخرى غير وطنهم الأصلي فعرفوا مجتمعات وثقافات غير تلك التي ألفوها ، وأنهم هم العيش في شعوب غريبة عنهم فاختلطوا بالناس وأفلحوا في توثيق علاقاتهم بهم وفي التغلغل إلى أعماق ثقافتهم وفهم عاداتهم وتقاليدهم وقيمهم ، ونشأت بينهم جميعا تلك العلاقة القوية الحميمة التي يطلق عليها علماء الأنثروبولوجيا كلمة Rapport والتي يعتبرونها مبدأ أساسيا من مبادئ البحث الميداني الذي يقومون به في المجتمعات والثقافات الغريبة ، وشرطا هاما من شروط الدراسة الحقلية الناجحة . لأن مثل هذه العلاقة الحميمة القائمة على الثقة المتبادلة هي التي تساعد على الفهم العميق الصادق لثقافات هذه الشعوب ونظمهم الاجتماعية وأنماط سلوكهم والقيم التي تحكم هذا السلوك . وكثير من أصحاب هذه الرسائل التي كانوا يرسلونها من تلك المجتمعات الغريبة كانوا يحرصون على الكتابة بكثرة وباستمرار ، وعلى أن يضمنوا رسائلهم معلومات دقيقة وتفصيلية عن حياة تلك الشعوب بحيث تبدو رسائلهم الآن أقرب شيء إلى « اليوميات » أو المذكرات اليومية ، وبالتالي يمكن اعتبارها سجلا حافلا بالمعلومات عن هذه الشعوب . وتتميز بعض هذه الرسائل بالنظرة الموضوعية إلى الأشياء والأحداث وبالصدق في الحكم والتتبع عن الهوى إلى حد كبير ، فضلا عن دقة الملاحظة والوصف والانصاف في عقد المقارنات بين هذه الثقافة الغريبة وثقافتهم الأصلية التي ينتمون إليها بحكم المولد والنشأة ، ولم تصدر أحكامهم عن أية أفكار مسبقة على ما كان يفعل كثير من الرحالة والمبشرين في القرن الماضي الذين كانوا يقيسون سلوك الناس من زاوية الحضارة الأوروبية وبالإشارة إلى معاييرها الخاصة ، أو ما كان يفعله رجال الحكم الاستعماري في أوائل هذا القرن حين كانوا يترفعون عن الاختلاط بالأهالي في المستعمرات والمجتمعات الخاضعة للحكم الأجنبي وعاملوهم كما لو كانوا يحتلون مكانة أدنى بكثير من المرتبة الأدمية . والواقع أن بعض هذه الرسائل تشبه في مجموعها (السجل الأنثوجرافي) أو المذكرات اليومية التي يسجلها الباحثون الأنثروبولوجيون يوما بيوم أثناء دراساتهم الحقلية ، وبذلك يمكن إخصاؤها للتحليل الأنثروبولوجي للخروج منها بدراسة تحليلية على درجة كبيرة من الدقة والتفصيل ووفرة للمعلومات والمعنى . وي زيد من أهمية بعض هذه الرسائل أنها تسجل حقائق عن فترات تاريخية سابقة في حياة بعض الشعوب والمجتمعات ، وتزودنا بمعلومات فريدة لا نكاد نجد لها مثيلا فيها بين أيدينا من كتابات (علمية) .

وصحي هنا بالذات أن أشير إلى مجموعتين من الرسائل تسجلان كثيرا من وقائع الحياة في مجتمع واحد هو المجتمع المصري ، ولكنها ترجعان إلى فترتين تاريخيتين مختلفتين ومتباعدين ، كما أنها صدرتا عن شخصيتين مختلفتين إحداهما عن الأخرى في كل شيء ، ولكنها مع ذلك تتفقان معا في غزارة المعلومات والدقة في ملاحظة الحقائق ورصدها والصدق والأمانة في الوصف والتحليل فضلا عن الحرارة في التعبير ، مما ينم عن مدى التصق في فهم الثقافة التي تتورحوا هذه الرسائل ووقو العلاقة الحميمة التي ربطت بين صاحبيها و « الأهالي » .

(١)

الكتاب الأول أو المجموعة الأولى من الرسائل تعرف باسم « رسائل من مصر Letters from Egypt »^(١) وترجع إلى الفترة ما بين ١١ نوفمبر ١٨٦٢ و ٩ يوليو ١٨٦٩ ، أي أنها تغطي فترة سبع سنوات تقريبا في أوائل النصف

(١) Lucie Duff Gordon, *Letters From Egypt*, (First edition 1865, Centenary edition 1969, with a Memoir by her daughter Janet Ross and a New Introduction, by Sarah Sagrigh Virago, London 1983.

وقد نشرت الرسائل كاملة في صورها الحالية للمرة الأولى عام ١٩٠٢ من دار النشر R. Brimley Johnson ووضح أن مجموعة أولى من هذه الرسائل كانت قد نشرت أثناء حياتها عام ١٨٦٩ وأعيد طبعها عام ١٨٧٥ لها طبعه عام ١٩٦٩ فقد ظهرت بنسخة مرمقة على علم ولغها ولها نشرت الرسائل كاملة .

الثاني من القرن الماضي . وصاحبة الرسائل سيده بريطانية تنتمي لعائلة أرسطراطية جمعت بين عراقا الأصل وعراقا الثقافة ، وقد عرفت باسمها بعد الزواج وهو الليدي لوسي داف جوردون Lady Lucie Duff Gordon . وقد ولدت لوسي عام ١٨٢١ ، وكانت الابنة الوحيدة لأستاذ من أشهر أساتذة القانون في بريطانيا في القرن الماضي وهو جون أوستن John Austin . أستاذ القانون المدني بجامعة لندن ، بينما كانت أمها سارة أوستن Sarah Austin من الشخصيات في الدراسات الكلاسيكية . وعاشت لوسي معظم حياتها القصيرة (توفيت عام ١٨٦٩ وهي في السابعة والأربعين) في جو الارستقراطية البريطانية الراقى ، وإن كانت امتيازات تلك الطبقة قد بدأت تنهار وتنداعى نتيجة للتغيرات الأيديولوجية التي بدأت تجد طريقها بين الفئات المثقفة . وشاهدت لوسي تلك التغيرات وعاشتها ، خاصة وأن والديها كانا يميضان نفسيهما بعدد من كبار مفكرى ذلك العصر من ذوي الميول الراديكالية من أمثال جيرمي بنثام Jeremy Bentham وسيدنى سميث Sydney Smith ، وبذلك نشأت في وسط ثقافي متميز بتشكك في كل شيء ويناقش كل شيء ، مما ساعد على تنمية مواهبها وقدراتها منذ سن مبكرة . وتزوجت لوسي أوستن وهي في الثامنة عشرة من عمرها من أحد الارستقراطيين الفقراء وهو سير الكزاندر داف جوردون Sir Alexander Duff Gordon الذي كان يعمل حينذاك في وزارة الخزانة . ولم يلت سير الكزاندر وليدي داف جوردون أن أساطماهما أيهما نفسيهما بمجموعة أخرى من مشاهير الكتاب والمفكرين بحيث شملت دائرة أصدقائهما كتابا وشعراء وأديبا من أمثال تشارلي Thackeray وديكنز والشاعر تينسون Tennyson والروائي جورج مرديث John Meredith الذي كتب مقدمة لمجموعتها الأولى من الرسائل ، وكذلك كنجليك Kinglake وماكولي Macaulay . وقد استطاعت لوسي داف جوردون أن تفرض نفسها على هذا الوسط الثقافي الراقى بقدراتها الفكرية وذكاها وسرعة بديتها وجمالها وقوة شخصيتها وأرائها الجريئة للتحرة . كما بدأ اسمها يظهر في نطاق محدود بين أوساط المثقفين ثقافة رفيعة حين نقلت الى الألمانية - لأول مرة في بعض الحالات - بعض أعمال رانكه Ranke ومولتكه Molteke وفويسرياخ Feuerbach ونيبوهر Niebuhr وغيرهم .

في أوائل الخمسينات وقعت لوسي داف جوردون فريسة لمرض المل الذي أخذ يفتك بصدرها في غمرحة ، وكان لا بد لها من أن تترك بريطانيا وأجوامها الرطبة الباردة الى مناطق أكثر حرارة واقل رطوبة ، فسافرت وحدها الى جنوب افريقيا حيث كتبت مجموعة ضخمة من الرسائل الى أفراد عائلتها . وقد نشرت هذه الرسائل بعد ذلك بسنوات طويلة (عام ١٨٦٤) بعنوان Letters from the Cape . ولم تفدها هذه الرحلة كثيرا في استرداد صحتها فعدادت الى بريطانيا . وحين اشتدت بها العلة مرة أخرى رحلت من جديد عام ١٨٦٢ الى مصر ، وهناك عاشت سبع سنوات أمضت معظمها في الأقصر مع زيارات قصيرة الى القاهرة والاسكندرية ، بينما لم تزر بريطانيا ذاتها خلال كل هذه الفترة الطويلة سوى مرة واحدة عام ١٨٦٣ . وتعتبر الفترة التي أمضتها لوسي داف جوردون في مصر من أطول الفترات التي أمضاها أي أوروبي أو اجنبي عاش في الصعيد . وقد اختلطت أثناء هذه الإقامة الطويلة بالطبقات الفقيرة من الشعب وخبرت حياتهم وأخلاقيهم وعاداتهم وقيمهم عن قرب ، وعرفت الثقافة المصرية الشعبية من داخل ، وعقدت صداقات قوية مع عدد كبير من المصريين المسلمين الذي تشير اليهم في رسائلها في معظم الأحيان باسم (العرب) تمييزا لهم عن (الأقباط) وعن (البدو) . ولم تكن تخفي إعجابها بشمال مصر وتصرفات هؤلاء المصريين المسلمين وتفضيلها لهم على الأقباط ، وذلك بعكس ما كان يفعل معظم الأجانب الذين كانوا يزورون مصر أو يقيمون فيها والذين تربطهم بأقباط مصر رابطة الدين . فهي تكتب مثلا الى أمها يوم ٢١ ديسمبر ١٨٦٣ من فوق إحدى البواخر النيلية بالقرب من أسبوط تقول :

« إن هناك عددا كبيرا من الأقباط فوق سطح الباصرة ، وهم من الطبقة الدنيا ، كما أن صحتهم لا تدعو إلى الارتياح . إن السادة المسيحيين يتمتعون بدرجة عالية جدا من الرقة والدمائة ، أما الطبقات الدنيا فهي دنيا بكل معاني الكلمة إذا هم قورنوا بالمسلمين . والشعور الذي يفرج به المرء عنهم هو الاحساس بالقدارة حين يراهم وهم يتناولون طعامهم بين أكوام الفحم ثم يجلسون القرفصاء بعد ذلك ويخرجون مسابحهم لتسييح الصلاة دون أن يهتموا بغسل أيديهم . إنهم يبدون على درجة عالية من القدرة بالنسبة للمسلمين الذين لا يخرجون إلا بعد أن يغتسلوا وينظفوا أجسامهم ثم ينفقوا وقفة منتصبة فيها رجولة لكي يؤدوا صلواتهم . والأكثر من ذلك أن سلوكهم وتصرفاتهم وطريقة كلامهم لا تخلو من الفظاظ ، كما أنهم لا يميلون للمرأة نفس الاحترام الذي يديه العربي نحوها أنني أتكلم هنا بطبيعة الحال عن الأشخاص العاديين وليس عن الأقباط المتعلمين . . . »

وهذه العبارات تكشف لنا عن مدى تجردنا عن العوامل العاطفية التي كانت خليقة بأن تجعلها تتخذ مواقف مغايرة وتصدر أحكاما مختلفة . بل إن تعاطفها مع المصريين صوما يفتح عينها على كثير من مساوئ الحكم في ذلك العصر . فلم تبهرها الأعمال والإنجازات المادية التي حققها الخديوي اسماعيل (العظيم) والتي كانت أوروبا كلها تعجب بها (على الأقل في أول الأمر) وتعتبرها مقياسا تحكم به على صلاحية حكمه وعلى أفكاره التقدمية . وإنما كانت هي على العكس من ذلك تماما تنهي عليه سياسته الخاطئة التي سوف تجلب على مصر وشعبها الطب كثيرا من المصائب التي تحققت بالفعل فيها بعد . وحين زار سلطان تركيا مصر كتبت عدة رسائل إلى زوجها وأنها تأخذ فيها على السلطان التركي ترفعه على الشعب المصري وتكشف عن كثير من مظاهر التفرقة بين الأتراك والمصريين لدرجة أن « السلطان وكل أفراد حاشيته لم يأكلوا الخبز من هنا أبدا ، وإنما كان طعامهم يأتي خصيصا لهم من القسطنطينية » (من رسالة لأما من القاهرة بتاريخ ١٩ أبريل ١٨٦٣) . ولقد عبرت عن حيرتها في فهم معنى تلك الزيارة التي قام بها السلطان لمصر فكتبت لزوجها في ١٣ أبريل ١٨٦٣ تقول صراحة :

« إن جميع السلطان إلى القاهرة هو نوع من اللغز ، فلا أحد يعرف ما يريد . ولقد أمر الباشا بأن تحتجب كل نساء الطبقات الدنيا في بيوتهن أثناء وجود السلطان لأن النساء العربيات صريحات وربما يرفعن أصواتهن بالشكوى في وجهه وصوف يرحل السلطان اليوم حتى الماء الذي يشربونه كان يأتي من القسطنطينية كما أخبرني هيككيان بك وإذا كان هناك من يحاول أن يقتنع بأن كل حديث عن الحضارة في مصر هو مجرد لغو وهراء فأرجو ألا تسمع اليه وأن تنزأ منه . فالحياة الحقيقية والناس الحقيقيون لا يزالون يشبهون إلى حد كبير ما نجاهه في أكثر الكتب صدقا وأمانة وهو كتاب ألف ليلة وليلة . فلا يزال الطغيان كما كان دائما ، ولا يزال الناس على ما كانوا عليه يتمتعون بجاهزية فائقة إلى أبعد الحدود . ولو كان في استطاعتي فقط أن أتكلم لغتهم لأمكنني التغلغل إلى أعماق المجتمع العربي هنا بمعاونة بعض الأشخاص حتى أرى أكثر مما رأى الأوروبيون الذين عاشوا هنا كل حياتهم . فالمصريون المسلمون (العرب) يدركون تماما مدى التحيز القائم ضدهم ، ولكن حين يشعرون بالأمن والاطمئنان من هذه الناحية فإنهم يقلون بكل قلوبهم على الأعراب . . . »

ولقد ماتت لوسي دف جوردون في القاهرة يوم ١٤ يوليو ١٨٦٩ ودفنت فيها . وكانت أميتها في أول الأمر أنعمت في الأقصر أو (طيبة) كما كانت تدعوها في رسائلها وأن تدفن هناك بين (أهلها) كما كانت تسميهم . وقد كتبت

لزوجها في ذلك تقول « لو أنني عشت حتى سبتمبر فسوف أسافر الى اسنا حيث الهواء أكثر لطفاً وحيث يخف سعالى الى حد كبير . اننى أفضل أن أموت بين (أهلى) في الصعيد على أن أموت هنا . (أى في القاهرة) . وحين أحسست باقتراب أجلها كتبت إليه تقول ، كما لو كانت تزف إليه مقدما خبر موتها :

« لا تفكر في الحضور الى مصر . فالجوهنا لا يناسبك على الإطلاق ، كما أنه سيكون من أشد الأمور إيلاما لنفسي أن أفترق عنك مرة أخرى ، بينما يمكنني هنا أن أنتظر بكل الصبر مجيء النهاية بين قوم بلغت بهم الرقة والمحبة درجة تجعلهم يكتمون عني الكثير من مشاعر الألم بالنسبة للضراق . لقد كانت مغادرتي للأقصر مشهداً يبعث على الأسى ، إذ كان الناس يظنون أنهم لن يروني مرة أخرى . إن رقة الناس جميعا كانت تصل حفا الى أعماق أعماق القلب ابتداء من القاضي الذي بني بالفعل قبرا في مقبرة عائلته ، حتى أشد الفلاحين فقرا . . . »

وعلى أية حال ، فعين أدركت لوسي دف جوردون أنها لن ترى بالفعل (طيبة) مرة أخرى غيرت رأيها وطلبت أن تدفن في القاهرة في هدوء . . . وكان لها ما أرادت .



ولم تكن لوسي دف جوردون في هذا كله مجرد سائحة أو رحلة عادية بقدر ما كانت (مقيمة) في مصر . ولبن همنا هنا المعلومات والملاحظات التي تملأ بها رسائلها حول مشاهداتها في الآثار المصرية القديمة أو المساجد الاسلامية ، رغم دقة هذه الملاحظات وطرافة بعض التعليقات . وإنما الذي يهتما هوما تكشف عنه هذه الرسائل عن طبيعة علاقتها بها بالناس ورأيها في نظمهم الاجتماعية وفي عاداتهم وتقاليدهم وانماط سلوكهم ، وقدرتها ليس فقط على الوصف بل وأيضا إدراك وفهم العلاقة بين أجزاء الثقافة المصرية بعضها ببعض والعلاقة بين التنوع الثقافي الراهن والأصول التاريخية لهذه الثقافة ، ثم إبرازها لبعض أوجه الشبه بين الحياة المصرية في ذلك الحين والحياة في عدد من المجتمعات (التقليدية) الأخرى التي أتبع لها القراءة عنها . . . كانت تنظر الى الثقافة المصرية كوحدة متكاملة ومتصلة عبر التاريخ ، أي أنها كانت تهتم بما يطلق عليه الانثروبولوجيون المحدثون اسم (المتصل الثقافي) . وقد ساعدها على ذلك معرفتها الواسعة بالكلاسيكيات وتاريخ الأديان .

وربما كان أول ما يلفت النظر في هذا كله - وهو ما ساعدها بغير شك على التغلغل في أعماق الثقافة المصرية - هو عزوفها عن الأجانب وابتعادها المتعمد المقصود عن « المجتمع » البريطاني والأجنبي القائم حينذاك فوق أرض مصر ، والذي كان يتربع عن الاختلاط أو حتى الاتصال إلا في أضيق الحدود بالأوساط المصرية الصميمة وأثر أن يعزل نفسه عن تيار الحياة والثقافة التقليديتين . وكثير من رسائلها يأخذ على الأوروبيين بعامة ، والانتعاجيل بخاصة ، هذا الموقف المتعالي ويمتنع بالبقاء لانه - على أقل تقدير - لن يساعد الأجانب على فهم ذلك الشعب الذي قدر لهم أن يجيؤا معه على أرض واحدة . ومن هنا أخذت هي على عاتقها منذ البداية أن تدخل الى ذلك المجتمع وإلى الثقافة الوطنية وأن تعيش عيشة الأهالي أنفسهم ، فالتقت لها مسكنا بينهم سواء في القاهرة أو في (طيبة) حتى يمكنها أن تتخاطب الناس العاديين من الأهالي اسمه وسهولة ويسر وفي كل وقت ، دون أن يقوم بينها وبينهم أي حاجز مفتعل ، وأن تتخذ لنفسها خادما من الأهالي اسمه (عمر) يساعدها ليس فقط في قضاء حوائجها ولكن أيضا في شرح وتفسير ما يغمض عليها من أسرار الحياة المصرية الأصلية . ونشأ بينها بذلك نوع من التفاهم العميق والعلاقة القوية التي هي أقرب ما تكون الى العلاقة بين الباحث الانثروبولوجي والاخباري informant الرئيسي الذي يرتبط به ارتباطا وثيقا خلال فترة إقامته في المجتمع الذي

يدرسه ، والتي قد تطول الى ابعد من هذه الفترة . بل إنها كانت تحرص منذ البداية أيضا على أن تتعلم اللغة العربية فضلا عن اللهجة المصرية حتى يمكنها أن تدخل في حديث مباشر مع الأهالي دون حاجة الى وسيط ، وكانت تعتقد أن هذا كفيلا بأن يجعلها تصل في فهم روح الشعب وثقافته إلى ما لم يصل إليه غيرها من الأجانب العاديين ، أو حتى الأجانب الدارسين ، بما في ذلك ادوارد ويليام لين Edward William Lane نفسه . والذي يقرأ رسائلها الأولى حيث تشكو من عجزها عن الاتصال المباشر مع الأهالي عن طريق استخدام اللغة الوطنية ، ثم يقرأ بعد ذلك عن الجهود الجبارة التي كانت تبذلها وهي تحاول أن تتعلم اللغة العربية ، والمعاناة الشديدة التي كانت تمر بها وهي تتلقى دروسها على أيدي الشيخ يوسف في الاقصر ، والفرح الشديد الذي كان يتملكها حين تحرز أي تقدم في دروسها ، وحرصها الشديد على استخدام الكلمة التي تتعلمها في رسائلها ، سوف يدرك مدى اخلاصها وصدق رغبتها في فهم المجتمع الذي جاءت لكي تعيش فيه ولوالى حين . ولقد توجت هذا كله حين كانت تكشف عن فقرها رغم امتثالها الى الاسترقاطية البريطانية ، وكان ذلك أحد المفاتيح الهامة التي فتحت أمامها مغاليق القلوب ، وقامت بذلك علاقة قوية بين الفقير والفقير ، وأرتبطت بالأهالي العاديين وبخاصة في الصعيد برابطه « الأخوة في الفقر » رغم كل الفوارق الاجتماعية والعرقية والدينية والثقافية . ثم كان هناك الى جانب هذا كله استعدادها لأن تتعلم والى أن تغير نظرتها الى الأمور ، والى تبديل رأيها كليا تعصفت في الدراسة والفهم . فمصر التي تبدو في أولى رسائلها الى أمها (يوم الثلاثاء ١١ نوفمبر ١٨٦٢) صورة أخرى من مجتمع ألف ليلة وليلة لا تلبث أن تكشف لها عن بعض المآسي ، ولا يلبث واقعها المرير أن يصددها ويوقفها من خيالها . قالت لأمها :

« انني أكتب اليك من مجتمع ألف ليلة وليلة الحقيقي . . . انه عالم ذهبي تغمره أشعة الشمس ويسيطر عليه جو الشعر ، ولابد من أن أضيف انه مليء بالرقعة والدعامة » .

ولكن هذا كله لم يفلح في أن يخفي عنها بؤس الشعب وفقر الناس وتسلط الحكام غير المصريين . ومع ذلك فإنها لم تغير أبدا رأيها في الناس ولم تنزع عنهم أبدا الصفة الأساسية التي تميزهم ، وهي الخنوع والرقعة والدعامة .

بل الأكثر من ذلك أنها كانت على استعداد دائما لأن تصبح النظرة الحاططة التي كان يحملها كثير من الأوروبيين الى مصر وبخاصة فيما يتعلق بالعلاقات بين المصريين المسلمين والأقباط . وجانب كبير من رسائلها ينفي الفكرة الشائعة عن تعصب المسلمين . ففي رسالة من مدينة الفشن مثلا الى أمها (من فوق ظهر الباخرة النيلية يوم الاثنين ٣٠ نوفمبر ١٨٦٢) تقول :

« لقد تجتمعت خلال الأيام العشرة الماضية بهذا الأسلوب الرائع جدا من الحياة . ولقد تحسنت صحتي بغير شك الى حد كبير ، كما بدأت أقبل على طعامي وأستغرق في نومي مرة أخرى وبدأ السعال يخف كثيرا . ولقد توقفت الباخرة يوم الأحد أمام قرية بيا ، وهناك وقع بصري على كنيسة قبطية ، وانطلقت نحوها لأرى إذا ما كانوا سيسمحون لي بالدخول . وكانت الطريق تمر ببيت عمدة القرية ، وهناك كان يجلس القسيس كما كان يحيط به خدمه وماشيته . وقد نقشت على أبواب الكنيسة صليبا وأشكال هندسية على شكل مجموعات من النجوم وظهرت بها فتحات هي أقرب إلى الرموز الخاصة بعبادة الالهة ميثرا منها إلى أي شيء مسيحي . ولكن جرجس كان قبطيا وقد انتخب عمدة لقرية مسلمة . . وكان منزله نوعا فريدا من منازل الأثرياء . ولن أستطيع أن أصفه لك مهما حاولت ولكنني شعرت أنه بمثابة (فقرة) في (العهد القديم) . . . وفي الكنيسة ذاتها . . كان يوجد قبر أحد الأولياء للمسلمين تحت قبة مجاورة للمذبح ، وقد

دخلت هناك . وانحنى جرجس لتقبيل الغبر من جانب يمينها اكتفى عمر بإلقاء التحية والسلام على صاحب الغبر من الجانب الآخر . وكان ذلك منظرا يبعث على السرور » .

والطريف في الأمر أن الكنيسة كانت تجري فيها بعض الإصلاحات والترميمات وكان يتولى هذه العملية تطوعا ويدون مقابل عامل بناء مسلم قديم خصيصا ومن تلقاء نفسه لهذا الغرض من القاهرة ، بعد أن رأى الشيخ أو الولي ثلاث مرات في منامه يأمره بأن يترك عمله بالقاهرة ويتوجه إلى ببا لترميم (كنيسة) . وقد تولى الأقباط توفير مواد البناء اللازمة لهذا العمل .

« وبينما كنا نجلس نستمع إلى كل هذه العجائب والطرائف ، كانت الأغنام والماشية تدخل بين صفوفنا عائدة إلى البيت قبيل الغروب . وكان القسيس الشيخ الوقور يبدو أقرب إلى أبنائنا إبراهيم ، كما كان المنظر كله يقيم عليه روح دينية أصيلة للدرجة أنني كنت أشعر كما لو كانت رغبتي تحققت في أن أعيش في الماضي السحيق الذي يرجع لبضعة آلاف من السنين » .

وفي رسالة لأماها أيضا من جبل الشيخ مبارك (أو الشيخ إمبراك كما تكتبها مثلما ينطقها الأهالي) يوم الخميس ٣ ديسمبر ١٨٩٢ كتبت تقول :

« إن الشيء الذي يسترعي الانتباه أكثر من غيره هنا هو روح التسامح التي ألسها في كل مكان . فالتناس هنا يتكفون بأن يقولوا لي : أه هذه إذن هي عوائدكم . ثم لا يعطون الأمر بعد ذلك أية أهمية . كما أن المسلمين والمسيحيين يرتبطون حقا بروابط الصداقة . . . لازلت أنتظر أن أرى ذلك التعصب الذي يتكلم (الأجانب) عنه كثيرا ، ولكنني لم أرحق الآن أي علامة من علاماته . لقد كان هناك ثلاث عشرة عائلة قبطية في ببا بينما كانت أغلبية السكان من المسلمين ، ومع ذلك فقد انتخبوا جرجس عمدة للقرية ، كما أنهم ينحدون لتقبيل يده بصدق وإخلاص حين يمر بهم في شوارع القرية » .

ولكنها لم تنس مع ذلك أن الأقباط هم الذرية الحقيقية الخالصة نسبيا على الأقل ، للمصريين القدماء ، وتبدي رأيا في هذه المسألة في رسالة إلى زوجها أرسلتها من أسيوط في العاشر من مارس ١٨٩٣ :

« من الواضح أن الأقباط هم المصريون القدماء . فالأنف المعقوف قليلا والعيون المسحوبة هي نفس مآثره في رسوم القبور والمعابد ، كما أنها قريبة الشبه جدا بأقدم الصور البيزنطية . وفيها عدا ذلك فإن الرجة يتمتع بدرجة من الوسامه وإن كان لونه شاحبا بوجه عام ويكيل شيئا ما إلى الانتفاخ . . . كما يميل إلهام القدم إلى الاستطالة بينما القدم ذاتها تبدو مفلطحة كما هو الشأن في التماثيل المصرية » .

وكما هو الحال بالنسبة للكثيرين من الرحالة الذين رأوا مصر أو الكُتَّاب الذين أقاموا فيها بعض الوقت وأتيحت لهم الفرصة للدراسة والبحث كان الدين موضوعا من أهم الموضوعات التي استرعت انتباهها واهتمت بالبحث فيها وحاولت الوصول إلى فهم العلاقة بين الإسلام والمسيحية كما تتمثل في سلوك الناس وتصرفاتهم أزاء بعضهم بعضا ، مثلما حاولت التعرف على الملامح والعناصر والرواسب الدينية التي وجدت طريقها من أديان مصر القديمة إلى الطقوس والشعائر التي يمارسها المصريون في القرن التاسع عشر ، دون أن ينتبهوا للتناقض القائم بين تلك الأديان القديمة وأديانهم السماوية . وقد عرضت لهذه المسألة في عدد من الرسائل التي أرسلتها إلى أمها وزوجها وبعض أصدقائها .

ويكفي أن نستشهد هنا بعدد قليل من هذه الرسائل لتبين طريقة تفكيرها ونظرتها الى الأمور . ففي رسالة الى صديقها هو توم تيلور Tom Taylor يوم ١٨ ابريل ١٨٦٣ كتبت تقول :

« . ان أليك (زوجها) على حق فيما يقوله عن حيي لأسلوب حياة العرب (المصريين المسلمين) . ولقد بذلت الكثير لكي أرى وأعرف عن حياة العائلة المصرية أكثر مما يعرفه الكثيرون من الاوربيين الذين عاشوا هنا سنوات طويلة . . .

وحين يحس العرب أن شخصا ما يهتم بهم بالفعل فإنهم يردون ذلك من كل قلوبهم . ولو كان في استطاعتي أن أتكلم لغتهم إذن لأمكن لي أن أرى كل شيء . إن القاهرة هي ألف ليلة وليلة . وقد يكون هناك مسحة من البريق (الأفرونجي) هنا وهناك . ولكن الحكومة والأهالي جميعا لم يتغيروا منذ أن كتب ذلك الكتاب الصادق . لن يستطيع أي قدر من الكلمات أن تصف سفر المحصل المقدس والحجاج الى مكة . لقد أمضيت نصف يوم وأنا أنحول وأتسكع بين خيام البدو وأمتع ناظري بمراى هؤلاء الناس الأحرار ذوي الطلعة المهيبة . وإنه لمنظر رائع أن ترى الرجل البدوي وزوجته البدوية وهما يسيران في شوارع القاهرة ، وقد وضعت يدها على كتفه دون أن تهتم بتغطية وجهها المتكبر ، وهي تنظر بترفع وكبرياء الى المرأة المصرية المحببة التي تنوء بالأحمال الثقيلة التي تحملها وتسير خلف سيدها ومولاها . . .

... ليس ثمة ما يثير الانتباه أكثر من الأمور التي تدفع الانسان الى أن يتذكر هيرودوت بشكل دائم وباستمرار . فالمسيحية والاسلام في هذا البلد يحملان كثيرا من مظاهر العبادة القديمة ، بل إن الحيوانات المقدسة أصبحت الآن في خدمة الأولياء المسلمين . ففي المنيا يسخر الناس التماسيح لأغراضهم . وقد رأيت جُحش أفسى إيسكوليوسوس في جبل الشيخ هريدي . ولقد قدمت بنفسي الطعام

للطيور مثليا فعل هيرودوت ، وكانت الطيور تنقض على حبال المراكب التي تمنع عنها الطعام فتقطعها . وقد امكن للشيوخ نوع ان يسخر الطيور لخدمته كما انها لا تزال تتوافد وتحط بكثرة على باعرتنا طلبا للخبز دون ان يهرؤ (الرئيس) على ان يمنعه عنها . ولا تزال قطع بوسطنس تجرد طعامها في بلاط القاضي وعلى نفقة المال العام في القاهرة ، وتتصرف القطط بلباقة فريدة حين يقدم لها (خادما القطط) عشاءها . ومن بين كل الألفه فان آمون رع ، اله الشمس وقاتل التينين يسمى نفسه الآن مار جرجس (وهو نفسه سان جورج) الذي يقدهه المسيحيون والمسلمون على السواء وفي نفس الكنائس . كما ان اوزيريس لا يزال تقام اعياده واحتفالاته بنفس الصخب والفضيج في طنطا في الدلتا تحت اسم السيد البدوي . ولا تزال النساء الفلاحات يقدمن للثليل الاصحاحيات والقرابين ويطنن حول التماثيل القديمة من اجل الانجاب ، كما ان شعائر الولادة والموت ليست اسلامية وانما هي مصرية قديمة . .

وأقباط مصر أكثر عزلة وتحفظا واشد تحلفا من المصريين المسلمين كما انهم متنبذون من الاوربيين ولذا كانوا أكثر ابتعادا عنا . ويرفض الاوربيون هنا ان يوصفوا بأنهم (نصارى) بنس الطريفة التي يرفض بها العبراني الأرستقراطي اسم (يهودي) . اما انا فاني أقول عن نفسي صراحة وبشكل شجاعة (اني نصرانية والحمد لله) ، ويتقبل المسلمون والاقباط ذلك بكل الرضا والاستحسان . وثمة أمور كثيرة غريبة يصادفها المرء في الدين هنا . فقد يصلي المسلمون في قبر مار جرجس (سان جورج) وفي مزار سنتا مريم وسيدنا عيسى . . . »

ولا تلبث ان تعود الى هذا الموضوع ذاته في رسالة طويلة ارسلتها الى امها يوم ٢١ مايو ١٨٦٣ من (مصر القاهرة) حيث تقول : -

« لقد ذهب عمر وحسن في الخامسة صباحا الى قبر ستنا زينب ، وهي احلى بنات النبي ، لرؤيتها وقراءة الفاتحة على قبرها ، لأن يوم الاحد هو يوم الزيارة . وسوف يبدأ العيد الكبير يوم الجمعة القادم وفيه يتناول كل مسلم فقير بعض اللحم في دار جاره الأكثر غنى . انه يوم طلع الحجاج الى الجبل المقدس قرب مكة لسماع الخطبة التي تنهى الحج . . . بالامس زرت السيدة ويلكنسون وهي ارمنية تتبع الكنيسة اليونانية ، وقد ذهبت للصلاة في كنيسة مارجرجس (سان جورج) للتخفيف عن آلام الحمى الروماتيزمية التي تعاني منها في يدها . وواضح ان مارجرجس هو بكل بساطة أمون رع اله الشمس وقاتل التين ولا يزال يُقدّس في مصر من كل الفرق ، كما ان السيد البدوي هو بكل تأكيد احد صورا اوزيريس ، وتقام احتفالاته مرتين في السنة في طنطا ، ولا تزال هذه الاحتفالات تعكس رمز خالق كل شيء . . . هنا يمكن ان نتوقع اي شيء . . . النساء يندبن موتاهن مثلما كان يحدث على المذابح القديمة ، وكل الطقوس والشعائر لها طابع وثني واضح . . ان مصر هي « اللوح الممسوح » الذي سُطر عليه الكتاب المقدس فوق هيرودوت ثم جابه القرآن فوق هذا كله . . ففي المدين يسود القرآن بينما يسود هيرودوت في الريف . . والان بعد ان انتهيت من كتابة كل هذه الرسالة الطويلة فاني لا اكاد اعرف ان كانت تستحق ان ارسلها لك اذا كانت ملاحظاتى العابرة البسيطة عن الحياة الشرقية سوف تدخل السرور على قلبك . . سوف اذبح يوم الجمعة المقبل خروفا ويقوم عمر باعداد طبق ضخم للفلاحين الفقراء الذين يرقدون بجوار محطة السكة الحديدية في انتظار ترحيلهم للعمل في مكان ما . وسوف يكون هذا هو عيدي الكبير . وعمر يأمل ان يعود ذلك علي بالخير الجزيل . »

ثم تعود مرة اخرى الى الموضوع ذاته في رسالة ارسلتها الى زوجها يوم ٩ يناير ١٨٦٤ فتقول : -

« هذه اضافة الى الفولكلور اعتقد انها جديدة حتى بالنسبة الى لين Lane نفسه . . حين يشعل بائع القهوة موقفه في الصباح يبدأ بان يصنع قديمين من اجود اصناف البن ويضيف اليها القدر المناسب من السكر ثم يسكبها على كل اجزاء الموقد وهو يردد : (اللهم بارك على الشيخ الشاذلي وعلى ذريته) . وهذا الدعاء للولي الذي (اخترع) القهوة مسألة كنت اعرفها بالطبع من قبل ، وكثيرا ما كنت ارددها انا نفسي . اما مسألة سكب القهوة تقريبا للولي فانا جديدة بالنسبة لي . فانت ترى اذن ان الدين القديم يظل برأسه بشكل غير متوقع حتى من خلال الايمان القويم بالاسلام . ولو كان باستطاعتي ان اصف بالتفصيل حفل زواج مصري . وعلى الاخص حفل زواج قبلي . فسوف تظن انني اسرد عليك بعض الطقوس الخاصة بايزيس . لقد شاهدت في احد المنازل والدة العروس وقد امتقع وجهه واستبد به القلق ، وقال لي عمر : « اظن انه (ماسك بطنه بيده) حتى يخبره النساء ان ابنته قد بوضت وجهه » وهذا تعبير رائع لوصف حالة اضطراب القلب من القلق . وانه لأمر معقول بدون شك ان يؤدي سلوك المرأة المشين الى اسوداد وجه الأب أكثر من وجه الزوج . وهناك امور اخرى كثيرة طيبة يمكن ان نقال عن الحريم هنا . . . »

ولم تقتصر اهتمامات لوسي داف جوردون على ملاحظة الشعائر والطقوس والممارسات الدينية والسحرية الشعبية

في مصر وإنما امتدت الى مجالات أخرى كثيرة متنوعة من الحياة الاجتماعية حاولت ان تحللها وإن تعمق في فهمها ولم تكتف بوصفها وصفا سريعا ساذجا على ما يفعل الكثيرون من الرحالة . ولقد كان من الطبيعي ان يجذب اهتمامها علاقة الرجل بالمرأة واسلوب التعامل القائم بينهما وإن تقارن مكانة المرأة في المجتمع المصري بمكانتها في المجتمع الأوروبي وبخاصة ازاء ما كان يقال عن عبودية المرأة وخضوعها المطلق لسلطان الرجل . ومع انها لاحظت وسجلت في رسائلها الكثير من مظاهر السلوك التي تؤخذ في العادة على انها مؤثر على المكانة الدنيا التي تحتلها المرأة في المجتمع ، فالطريف في الأمر انها نظرت الى ذلك نظرة لا تحلو من رومانسية وكانت تعتبر امتداد سلطان الرجل وفرض حمايته على المرأة هو احد بقايا نظام فروسية القرون الوسطى الذي انقرض من أوروبا . وفي رسالة الى امها ارسلتها من الاسكندرية في الثاني عشر من مايو ١٨٩٣ تقول :-

« يجب ان يأتي المرء الى الشرق لكي يفهم معنى المساواة المطلقة (بين عامة الناس) . . . فللمسلمون يعتبرون انفسهم متساويين تماما بحكم الواقع ولذا فانهم ينظرون الى المال والى المثلثة الاجتماعية على انها امور عارضة ومن هنا لقيت طريقة سلوكي كثيرا من الاستحسان ، فقد كنت اجلس مع الفلاحين واعامل الجميع بنفس الطريقة التي يعاملون بها بعضهم بعضا . ولكن هذا كله يتخذ شكلا آخر مغايرا في الاسكندرية ، اذ ان الافكار والعادات الأوروبية افلحت في ان تقتل الافكار والعادات العربية وتزيلها تماما . وتلك التي نجحت في الصمود والبقاء لم يطرأ عليها اي تحسين عن طريق الاتصال . .

. . . لقد بدأت افهم كل شيء عن مكانة المرأة ومنزلتها . فهناك قدر من الفروسية من بعض الوجوه ، والنتيجة ليست سيئة على اي حال في الاوساط والطبقات الدنيا والوسطى المحترمة . اما في الطبقات الغنية فاني اشك ان الكثيرات من النساء يشعن بالسعادة ، وان كنت لا اعرف عن ذلك كثيرا ، كما انني لا اعرف شيئا على الاطلاق عن اساليب الأتراك » (في معاملة النساء) .

ثم انها تعود الى هذا الموضوع نفسه مرة أخرى في رسالة ارسلتها الى زوجها بمناسبة الكريسماس لعام ١٨٩٣ فتحاول ان تصحيح بعض الاخطاء السائدة في الغرب عن نظام تعدد الزوجات :-

« . . . لقد سمعت اليوم مثلا غريبا عن العادات العربية . فلقد قابلت حسن ، وهو احد حراس القنصلية الامريكية ، وهو رجل طيب ومحترم للغاية . وقد ذكر لي انه اتخذ زوجة ثانية له منذ العام الماضي . وسألته عن السبب فقال انها ارملة اخيه الذي كان يعيش معه دائما في نفس البيت وانه قد ترك وراءه طفلين ، وان تلك الازمة ليست صغيرة السن ولا هي جميلة ، ولكن حسن كان يعتبر ان من واجبه ان يعولها هي وطفليها والا يدعها تتزوج من شخص غريب فانت ترى اذن ان تعدد الزوجات ليس دائما مسألة اغراق في الجنس ، وان تصحبة الرجل في هذا العمل كثيرا ما تكون هائلة فهو لا يقنع بمجرد ابداء المشاعر والعواطف الطيبة نحو زوجة اخيه المتوفي . . . »



وتكفي هذه الامثلة لكي نتبين منها الى اي حد اهتمت لوسي دف جوردون بمعالم الثقافة والحياة في المجتمع المصري في الستينات من القرن الماضي واسلوب ملاحظتها للاحداث وتسجيل الوقائع التي تراها

بل والتي قد تشارك هي نفسها . فلم تكن مجرد سائحة تقف من الاحداث موقفا سلبيا يقنع بالمشاهدة والتسجيل ، وانما كانت تعيش بين الناس وتختلط بهم وتشارك في حياتهم اليومية وفي احتفالهم وكثير من مناسبتهم . لقد كانت تمارس ما يطلق عليه الانثربولوجيون اسم « الملاحظة بالمشاركة » دون ان تدري ، وقيل ان يطلق عليها الانثربولوجيا على هذا الاسلوب امما او مصطلحا علميا بوقت طويل . وليست مجموعة رسائلها او على الاصح كتاب « رسائل من مصر » عملا انثربولوجيا بالمعنى الدقيق للكلمة ولا يمكن ان نطبق عليه المحكات التي نطبقها على البحوث الانثربولوجية الميدانية . ولكنه يظل بعد هذا كله مثالا طيبا لنوع من ادب المراسلات الذي يرتفع بنفسه عن ان يكون مجرد سرد وتسجيل للأموور الشخصية والعائلية البحتة ، والذي ينبع في الاصل عن النظرة الواسعة المتفتحة ، واحترام الثقافات الاخرى ومحاولة فهمها كخطورة هامة لفهم الانسانية ككل .

(٢)

وقد نفتقر المجموعة الثانية من الرسائل التي نعرض لها هنا الى الروعة والاثارة وبراعة الاسلوب وحسن العرض التي تتمتع بها رسائل لوسي دف جوردون ، وقد ينقصها القدرة على التحليل والتفسير ورد عناصر الثقافة الراهنة الى اصولها التاريخية ومحاولة الكشف عن اوجه الشبه او الاختلاف مع بعض الانماط الثقافية والاجتماعية السائدة في المجتمعات الاخرى وقد لا تكشف لنا عن نفس الدرجة من الثقافة العالية الرفيعة المتنوعة التي تتمتع بها الليدي دف جوردون ، ومع ذلك فان هذه المجموعة الثانية من الرسائل لا تغل عن « رسائل من مصر » في الصدق ودقة الملاحظة وكثرة المعلومات وتنوعها حتى وان كانت طريقة عرض هذه المعلومات تخلو من العمق وتميل الى البساطة التي تصل احيانا الى حد السطحية . واذا كانت لوسي دف جوردون عاشت في مصر وفي الصعيد بالذات سبع سنوات بين عامي ١٨٦٢ و ١٨٦٩ وهي مدة طويلة اتاحت لها الفرصة للتعلم في فهم الحياة الاجتماعية في بعض انحاء المجتمع المصري ، فان صاحب هذه المجموعة الثانية من الرسائل عاش في مصر ، وبخاصة في القاهرة خمسة واربعين عاما من عام ١٩٠١ حتى عام ١٩٤٦ ، لم يكتب خلالها بغير شك بملاحظة الاحداث والوقائع والظواهر الاجتماعية او يتقن برصدها ، وانما شارك في صنع كثير من هذه الاحداث مشاركة فعلية وذلك بحكم الظروف والاضاع التي احاطت به وباقامته في مصر . فاذا كانت الليدي دف جوردون النبيلة الارستقراطية البريطانية قد جاءت الى مصر بقصد الاستشفاء والعلاج من المرض الطويل المحيت واستطاعت ان تقصر حياتها ونشاطها على توثيق علاقاتها بقطاع معين بالذات من افراد المجتمع المصري وتكرس وقتها كله للملاحظة والتفكير والتأمل والكتابة الى اهلهما حول ما تراه ، فان صاحب هذه المجموعة الثانية من الرسائل جاء الى مصر للعمل وكسب العيش في فترة كانت مصر خاضعة للنفوذ البريطاني في شتى صوره وكان كثير من الانجليز يفقدون عليها لتولي بعض المناصب في كثير من المصالح . وقد اتاحت له الوظائف والاعمال التي تولاها في مصر وبالذات في القاهرة الاتصال بفئات مختلفة من الشعب المصري والتعرف على كثير من جوانب الحياة في القاهرة الى جانب الاتصال بالمجتمع البريطاني او « الجالية » البريطانية وبعض الجاليات الاجنبية الاخرى داخل المجتمع المصري ومعرفة العلاقات التي تربط هذه الجاليات بعضها ببعض من ناحية وبالمجتمع المصري من الناحية الاخرى . الا انه كان مع هذا كله يدور رغبة عن الاندماج في ذلك الوسط الاجنبي الدخيل شأنه في ذلك شأن لوسي دف جوردون . وقد ساعده ذلك الى حد ما على الاقل ، على التغلغل في المجتمع المصري وفهم اعماقه واغواره .

صاحب هذه المجموعة من الرسائل هو جوزيف ويليام ماكفرسون Joseph William McPherson اسكتلندي

يتم بالدراسات الكلاسيكية واللغويات ومتخصص في العلوم الطبيعية ، ولكنه لم يكن عالما او باحثا بالمعنى الاكاديمي الدقيق للكلمة ، بل ربما كان على العكس من ذلك تماما . ولد في سمرست Somerset عام ١٨٦٦ في عائلة كبيرة العدد ومتماسكة كما هو شأن العائلات الاسكتلندية ، ولذا فانه يشير الى عائلته في كثير من الأحيان باسم (قبيلة ماكفرسون) حسب المؤلف في اسكتلندا . وقد ارتبط جوزيف ماكفرسون منذ صغره بامه ارتباطا وثيقا (وكان اصغر ستة اخوه) ، وسيطرت هذه العلاقة على كل حياته ، ولم تفلح - حسب ما يقول احد ابناء عمومته - ابنة امرأة اخرى في ان تحل محل الام وبذلك ظل طفلة حياته بغير زواج . اما ابوه فقد كان مديرا لاملاك دوق جوردون Duke of Gordon وعدد آخر من كبار ملاك الاراضي في اسكتلندا . ولما نزحت العائلة نحو الجنوب التحق ماكفرسون الصغير بمدرسة كليفتون (او كلية كليفتون كما تدهي) في بريستول حيث اهتم بدراسة اللغة اليونانية والمغة اللاتينية الى جانب بعض اللغات الحديثة ، اذ كانت لديه ملكة طبيعية لتعلم اللغات بسهولة وسرعة ، ثم التحق بالكلية العلمية الملكية في دبلن بايرلندا ، وبعد اربع سنوات التحق بجامعة اكسفورد حيث حصل على درجته الجامعية في العلوم الطبيعية . فكانه يجمع اذن بين الدراسات الكلاسيكية والتخصص في الفيزياء والرياضيات . وحين تخرج من الجامعة اشتغل بتدريس العلوم الطبيعية في بعض المدارس الى ان ماتت امه فاحس بالضيق والفراغ . وكان ذلك من اهم الدوافع التي دفعت الى البحث عن عمل بعيدا عن بريطانيا ، وبالتالي الى الالتحاق بوزارة المعارف العمومية (كما كانت تسمى حينذاك) في مصر . وجاء الى مصر في اكتوبر عام ١٩٠١ ، وارتبطت حياته ارتباطا كاملا وتاما وثيقا بمصر والمجتمع المصري والشعب المصري الى ان مات في مصر عام ١٩٤٦ وهو في الحادية والثمانين .

في الفترة من عام ١٩٠١ الى عام ١٩١٤ عمل ماكفرسون مدرسا بالقاهرة وبخاصة بالمدرسة الخديوية الثانوية التي يشهدها بمدرسة اينتون الشهيرة في إنجلترا ، باعتبارها المدرسة التي تضم ابناء الطبقة الموسرة في مصر ، كما عمل في الوقت ذاته كموظف اداري ومحاضر في وزارة المعارف العمومية ، وهو نفسه يقول عن ذلك ان طبيعة هذا العمل لم تكن واضحة كل الوضوح . وحين قامت الحرب العالمية الأولى التحق بالصلب الاحمر في جاليبولي ثم بسلاح المجانة في حملة سيناء ، ولكنه لم يلبث ان غير مجري حياته تغييرا تاما عام ١٩١٨ حين شغل وظيفة (مأمور ضبط) وهي ما يعادل منصب رئيس البوليس السري بالقاهرة . وحين تقاعد في آخر الامر من ذلك العمل عام ١٩٢٤ وهو في الثامنة والخمسين من عمره انصرف الى دراسة الدين الاسلامي واهتم اهتماما خاصا بما يسميه الانثروبولوجيون بالديانة الشعبية التي تتمثل في الاعياد والاحتفالات ذات الطابع الديني والتي لا تخلو من بعض الممارسات السحرية ، كما اهتم بدراسة التصوف والفرق الصوفية في مصر . ولقد كانت الفترة الطويلة التي عاشها ماكفرسون في مصر فترة مليئة بالاحداث والوقائع والتغيرات والتحولات في مختلف الميادين . فقد مرت مصر اثناء ذلك بحرين علميتين وشهدت احدى الثورات الوطنية الهامة التي كان لها اثرها البالغ في حياتها وتاريخها وهي ثورة ١٩١٩ وشهدت كثيرا من التغيرات الجذرية في الحياة السياسية . واتاح له ذلك كله ان يشاهد كفاح الشعب المصري ضد الاستعمار وان يرى ثورات الشعب وبخاصة ثورات - الطلاب سواء عام ١٩١٩ او في الثلاثينيات ، أي أنه لاحظ وشهد ولس عن قرب المجتمع المصري وهو في حالة الغليان الثوري ، مثلاً رأى عن قرب ايضا حياة الفلاح المصري الوادعة الهادئة البائسة الفقيرة وتسلب الطبقات الغنية الموسرة من ملاك الاراضي والاقطاعيين ، وعانين الفرق الشاسع في مستويات المعيشة ، وشاهد تضخم القاهرة وازدحامها التدريجي بالسكان ، فقد كان تعدادها حين وصل اليها عام ١٩٠١ لا يزيد على اربعمئة ألف نسمة بينما كان تعدادها حين مات عام ١٩٤٦ قد تعدى المليونين ، واحس بكل ما تحمله هذه الزيادة المطردة من آثار وخيمة وتعقيدات في الحياة اليومية والاجتماعية . وقد اتاح له عمله في التدريس في اول حياته العاملة بمصر ان يتعرف على عدد من تلاميذه بالمدرسة الخديوية كان منهم ابن الزعيم المصري احمد عرابي ، ولكنه ارتبط ارتباطا وثيقا بوجه خاص ببعض التلاميذ

الذين شغلوا فيها بعد مكانة مرموقة في الحياة الاجتماعية والسياسية . وترددت في رسائله اسماء معينة مثل ابراهيم زكي الذي أصبح طبيباً مشهوراً ، وحامد محمود الذي أصبح فيها بعد وزيراً للصحة . وعن طريق هؤلاء التلاميذ عرف هو طريقه الى البيت المصري والعائلة المصرية سواء في القاهرة او الريف وعرف كثيراً من المخاط العلاقات الاجتماعية في مختلف مستويات المجتمع المصري .

وقد اتاح له عمله في سلك البوليس السري ان يتصل اتصالاً وثيقاً باجواء الجريمة واطراف المجرمين وان يعرف كثيراً عن خباياهم وامكن مزاولتهم لانتشبتهم المختلفة والقواعد و(الاخلاقيات) التي تحكم سلوكهم بعضهم ازاء بعض كما اتاح الفرصة من الناحية الاخرى الى ان يعرف - الشيء الكثير عن خفايا النشاط السياسي والوطني في مصر ، اذ كان يحكم وظيفته الرسمية ويحكم انتمائه الى الدولة الاستعمارية ذات النفوذ في مصر يقف موقف المعارضة والمعاداة - للمطالب والامال والتطلعات المصرية نحو الاستقلال ، وكان يتصدى للمظاهرات ويعمل على تفريقها بالصف اذا لزم الامر- وهذا الجانب من نشاطه وعمله في مصر يكشف لنا بوضوح عن وجه البريطاني الاستعماري الضيق الاقلاق المحدودة النظرة . والغريب ان عمله في سلك البوليس السري هو الذي ارتبط اسمه به اكثر من عمله في سلك التدريس او حتى انشغاله فيها بعد بالدراسات الدينية والاسلامية ، على الرغم من ان هذا الاهتمام بالدين نجم عنه في آخر الامر تأليف كتاب طريف عن « الموالد في مصر » . فلقد عرف جوزيف ماكفرسون باسم « البباشي ماكفرسون » وحين نشرت رسائله من مصر ، او بعضها على الاصح ، ظهرت تحت عنوان « البباشي ماكفرسون : حياة في مصر Bimbash: McPherson: A Life in Egypt »^(٤) . بل ان الاذاعة البريطانية خصصت في العام الماضي (١٩٨٣) برنامجاً خاصاً من عدد من الحلقات تدور حول هذه الرسائل وكان عنوانها كلها هو « البباشي ماكفرسون » . وهذا معناه ان فترة عمله في البوليس السري افلحت الى حد كبير في اخفاء نشاطه في مجال التدريس ، بل انها القت ظلالاً قائمة كثيفة على جهوده العلمية او شبه العلمية التي بدأت بعد تقاعده وانصرافه لمتابعة النشاط الديني في مصر .

وياستثناء مجموعة الرسائل التي نتحدث عنها هنا فان كتاب « الموالد في مصر Moulids of Egypt »^(٥) الذي نشره ماكفرسون عام ١٩٤١ واعتمد فيه على المعلومات (الاثنوجرافية) التي جمعها خلال فترة عمله واقامته الطويلة في مصر يمثل اسهاماً طيباً لا يمكن انكاره فيها يتعلق بمحاولته فهم الحياة المصرية (الشعبية) والقاء بعض الاضواء عليها . ولقد كتب مقدمة هذا الكتاب احد كبار علماء الاثنوبولوجيا البريطانيين وهو المرحوم الاستاذ ايفانز بريشارد الذي عمل لبعض الوقت استاذاً بالجامعة المصرية القديمة ، وهي مقدمة تكشف عن قدرة (الاستاذ) على التحليل والتفسير وتختلف في ذلك اختلافاً كلياً عن اسلوب ماكفرسون في الوصف والسرود والذي يفتقر الى التعقيد . وكثير من رسائل ماكفرسون تشير الى ايفانز بريشارد ، كما ان الروائي البريطاني الشهير لورانس داريل Lawrence Durrell صاحب الرباعية السكندرية Alexandria Quartet الشهيرة ، والذي كتب مقدمة كتاب « البباشي ماكفرسون : حياة في مصر » وهو الكتاب الذي يضم مجموعة الرسائل التي نحن بصدددها يشير الى كتاب « الموالد في مصر » اشارات تدل على تقديره له واعجابه به . ويذكر لنا داريل في هذه المقدمة ان ماكفرسون كان قد اهداه كتاب (الموالد) حين التقيا في القاهرة لأول مرة في الاربعينات ، وانه اعتمد عليه اعتماداً كبيراً في التعرف على بعض مظاهر الحياة المصرية وذلك اثناء انشغاله هو بكتابة (الرباعية السكندرية) ، وان النسخة التي اهداها ماكفرسون اليه ، والتي اهداها هو بدوره فيها بعد الى مكتبة

(٤) Bimbash Mc Pherson, A Life in Egypt, edited by Barry Carman and John McPherson, Preface by Lawrence Durrell, B.B.BC Publications London 1983.

(٥) J.W. McPherson, The Moulids of Egypt, with an Introduction by E.E. Evans — Pritchard, Cairo 1941.

جامعة الينوي بأمريكا ، شاهد على مدى اعتماده عليها ، فهي مليئة بالملاحظات والتعليقات التي كتبها داريل بالقلم الرصاص على معظم صفحات الكتاب . وعلى اية حال فإن كتاب (الموالد في مصر) هو دليل واضح على مدى تغلغل ماكفرسون في البيئة المصرية الشعبية واهتمامه بالممارسات الشعبية في مجال هام من مجالات الحياة . ولكن الملاحظ بوجه عام ان ماكفرسون ، رغم كل ما فعله ورغم حياته الطويلة في مصر لم يحفل مكانة بارزة او يكتسب شهرة فائقة في المجتمع المصري ، ولم يفلح في ان يفرض نفسه على هذا المجتمع ، بل انه لم يفلح في ان يحقق نجاحا باهرا يجذب اليه الانظار في اي عمل تولا ، ولم تكد اوساط المثقفين تشعر بوجوده . ولولا كتابه عن (الموالد) لكان قد مر في تاريخ مصر الثقافي مثلما مر العشرات بل والمئات من الموظفين الاداريين والمدرسين الاجانب الذين عملوا في مصر ولم يتركوا اثرا بارزا واضحا . والغريب ان كتاب (الموالد) نفسه كتاب يكاد يكون غير معروف في مصر نفسها ، ولو ان احد تلاميذي القدامى رجع اليه في اعداد رسالته للدكتوراه من جامعة الاسكندرية حول الموضوع نفسه . وربما لا يوجد الآن سوى عدد قليل جدا من نسخ هذا الكتاب في مصر على الرغم من ان الكتاب يضم ثروة هائلة من المعلومات والحقائق التي تحتاج الى مزيد من التحليل .

ولقد اهتم ماكفرسون اثناء اقامته الطويلة جدا في مصر بالكتابة الى جميع افراد (قبيلة ماكفرسون) بغير استثناء ويصرف النظر عن اختلافات السن . وقد اهتم اعضاء (القبيلة) بدورهم بالاحتفاظ بتلك الرسائل كلها ، بل الاكثر من ذلك ان احد افراد القبيلة عني بكتابة الرسائل - اوجزه كثير منها على الاقل - بالآلة الكاتبة واحفظ بها في مجلدات بلغ عددها خمسة وعشرين مجلدا تضم اكثر من ثلاثة الاف صفحة كبيرة الى ان كشف احد ابناء اخوته عنها في العام الماضي وقام باختيار بعضها لتقديمه في الاذاعة البريطانية كما ذكرنا ، ثم لكي تنشر بعد ذلك في كتاب كأحد منشورات الاذاعة البريطانية ايضا . ويذكر لورانس داريل في مقدمته للكتاب ان هذه الرسائل عمل كلاسيكي لا يقل روعة او اهمية عن كتاب ادوارد ويليام لين (المصريون المحدثون) ، وانه يملأ الفراغ او الفجوة التي تفصل بين عمل لين والعصر الحديث . وايا ما يكون في كلام داريل من مبالغة ناجمة عن جهله بما كتب ونشر عن المجتمع المصري خلال هذه السنين وبخاصة في مجالات الكتابة الانثروبولوجية والسوسولوجية ، فان كلامه يدل على اهمية الكتاب وقدرة صاحبه على جمع المعلومات وتنسيقها في شكل رسائل ، وهو امر لا يمكن التهورن من شأنه .



حين وصلت الباخرة (الكونغو Le Congo) الى الاسكندرية يوم اول اكتوبر عام ١٩٠١ قادمة من مرسيليا وعلى ظهرها جوزيف ويليام ماكفرسون ، كان الانطباع الاول الذي خرج به والذي سجله في رسالته الاولى في نفس اليوم الى اخيه جيمس هو :

« اظن انني سوف احب المصريين . انهم شعب رقيق حلو الطباع ، ومظهرهم يدل على النبل ، ويبدو انهم يتحمون الى نموذج من البشرية افضل بكثير من نموذج الفرنسيين مثلا » .

ثم لا يلبث ان يرصد ذلك رسالة الى اخيه دنكان Duncan يبعثها اليه من القاهرة يوم ٩ اكتوبر بعد ان تسلم عمله في المدرسة الخديوية الثانوية ، وفيها يصف عمله وتلاميذه وزملاءه :

« ان الاولاد (والرجال) يسببون نحو امكانهم في خطوة عسكرية منتظمة وتحت اشراف ضباط المدرسة ، كما ان الاساتذة (كما يدعوننا) لا يكشفون عن نفس الدرجة من الارتباك التي نجدها في

المدارس الانجليزية . وهناك عدد كبير من الخدم ومن الضباط الذين يباشرون كل شيء باستثناء لقاء الدروس . وأنا مضطر لارتداء الطربوش ، شأني في ذلك شأن كل الأساتذة والتلاميذ ، وذلك بأمر مولانا السلطان . وحين يدخل الأستاذ الى الفصل او يخرج منه يقف التلاميذ ، ويرفعون ايديهم الى جباههم بالتحية على الطريقة العسكرية . وليس لدي حتى الآن ما اشكو منه من سلوك التلاميذ والعقوبة التي تفرض على التلميذ حين تشكوه لأول مرة الى الناظر هي اداء بعض التدريبات والتمرينات الرياضية الطويلة ، بينما تكون عقوبة الشكوى منه للمرة الثانية هي الحبس مع حرمانه من الطعام في الاغلب فيما عدا الحيز والماء . وعلى العموم فان التلميذ هنا اكثر اهتماما بدروسهم واشد اقبالا على الاستذكار من التلاميذ في إنجلترا ، ولذا فانهم اقل منهم إثارة للشغب والمتاعب وتقدم القهوة للاستذكار مجانا في منتصف الفترة الصباحية وكذلك في فترة ما بعد الظهر ، كما ان وجبة الغذاء تقدم لهم في منتصف النهار نظير مبلغ رمزي . . . ويعرف التلميذ هنا بعض الفرنسية والانجليزية بالإضافة الى اللغة العربية . . . ومعظم التلاميذ شباب في غاية اللطف (ولا يكادون يختلفون في شيء عن زملائهم الانجليز) .^{٢٤}

ويبدو ان مكافرسون ظل محتفظا بهذه الفكرة عن التلاميذ المصريين لفترة طويلة من الزمن وكان يجب ان يعود للموضوع من حين لآخر ويقارن بين سلوك التلميذ المصري وسلوك التلميذ الانجليزي سواء في الفصل او اثناء اللعب او اثناء تأديته لامتحانات . والمعلومات التي يذكرها في رسائله حول هذه المسألة خليقة بأن تثير الانتباه وتدعو الى المقارنة مع واقع الحال الآن في المدارس المصرية ، واكاد اقول في المدارس العربية بوجه عام . ففي رسالة بتاريخ ٣٠ يونيو ١٩٠٣ مثلا يكتب اثناء المراقبة في إحدى لجان الامتحان للشهادة - الابتدائية يقول : -

« بالإضافة الى كل ذلك العدد الهائل من المدارس الوطنية أو الكتاتيب حيث لا يكاد يدرس شيء سوى القرآن ، وفيها عدا الجامعة الاسلامية (الأزهر) الذي يدرس فيه خمسة عشر ألف طالب أو أكثر ، فإن هناك عددا من المدارس التي تتبع الإنجليزية وغيرهم من الاراسليات الكاثوليكية والاراسلية الأمريكية ، كما أن هناك مدارس ألمانية ويونانية وفرنسية (وإن كان من الغريب أنه لا توجد مدرسة واحدة بروتستانتية أو انجليزية في مصر) وذلك بالإضافة الى نظام التعليم العادي في المدارس الحكومية التي تعتبر المدرسة الخديوية أفضلها وأكثرها امتيازاً . . . ان امتحان الشهادة الابتدائية يعقد اليوم . والواقع أنه لشهد رائع في لجنة المدرسة الخديوية حيث يجلس ثلاثة آلاف تلميذ يرتدون الطرابيش الحمراء ويشغلون ثلاثة ملاعب لكرة القدم ويجلسون في خيام ذات ألوان زاهية ، كما أن النظام والترتيبات الأخرى على درجة عالية من الكمال ، بحيث إنه من بين الثلاثة آلاف طالب الحريصين أشد الحرص على أداء امتحانهم لا تكاد تجد واحداً على مائة من حالات الغش والفوضى التي تصاحب امتحان مائتي تلميذ في مدرسة ويكفيلد مثلا أو أي مدرسة انجليزية أخرى من المدارس التي أعرفها . فالسكون والنظام التام يسودان من البداية حتى النهاية » .

وقد عكف مكافرسون منذ البداية على تعلم اللغة العربية باعتبار أن ذلك هو أفضل وسيلة ليس فقط لمعرفة تلاميذه وفهمهم والاتصال بهم ، بل وأيضا لفهم المجتمع الذي يعيش فيه ويتعامل معه ككل . وقد ساعده على إتقان اللغة العربية قدراته الطبيعية على تعلم اللغات ، وبذلك لم يمر سوى سنوات قليلة حتى أتقنها وأصبح يتحدث بها في سهولة ويسر وطلاقة . وقد أعانه ذلك على الاختلاط بمختلف فئات المجتمع المصري ، وكانت وسيلته في بداية الأمر

على الأقل بعض تلاميذه كما ذكرنا من قبل . والحطاب الذي أرسله الى « دنكان والمائلة » من القاهرة يوم ٢٣ نوفمبر ١٩٠١ ، أي قبل أن يمر شهران على وصوله الى الاسكندرية ، دليل على مدى نجاحه في إقامة علاقات قوية مع بعض هؤلاء التلاميذ وعائلاتهم ، ويعطينا من ناحية صورة واضحة عن أسلوب حياة بعض الطبقات الموسرة في مصر في ذلك الحين ، كما يعطينا من الناحية الأخرى صورة واضحة أيضا عن (أسلوبه) هو في الكتابة وطريقته القصصية البسيطة في الوصف والسرد وعرض الأحداث .

« لقد عدت توا من اجازة قصيرة تعتبر من أمتع الاجازات والعطلات في حياتي وأكثرها أصالة . لقد جمعتني في البيت صباح يوم الخميس أحد تلاميذي ، وهو محمود صدقي محمود ومعه شقيقه حامد محمود وابن عمه إبراهيم زكي ومعهم (حرية) حملتنا الى محطة السكة الحديدية ، ومنها أخذنا القطار الى طرخ التي تبعد بحوالي أربعين ميلا عن القاهرة في اتجاه دمياط تقريبا . وفي طوخ كان في انتظارنا عربية (دوكار) يجرها جواد عربي رشيق . وقد سلموني أنا العنان حيث انطلقنا في رحلة مثيرة نحو البيت على بعد خمسة أميال تقريبا ، وهناك استقبلنا الأب محمد أفندي محمود بكثير من الود والترحاب . ولقد شاركت محمود صدقي وحامد محمود في غرفة فسيحة بها سرير ضخم ومزودة مثل بقية البيت بقضبان ومزاليج حديدية كما هو شأن قلاع وحصون القرون الوسطى ، كما كانت توجد المسدسات الى جوار كل سرير ، فلمنطقة لا تقصع تماما لحكم القانون (وأغلب الظن أن أقرب أوربي في المنطقة يعيش على بعد عشرين الى ثلاثين ميلا من هنا) ، كما أنه لا توجد أية بيوت أخرى سوى الأكواخ الطينية التي يسكنها الفلاحون والتي تبعد عن البيت بعدة أميال . ومع أن رئيس إحدى العصابات المشهورة التي تتألف من ستين لصا والذي يثير الرعب في المنطقة كلها (أكل عيش وملح) معنا جميعا في حديقة محمد محمود هذا المساء وبذلك كانوا يعتبرونه حاميا وحارسا لنا ، فإن هناك عصابات أخرى قد تكون أقل شأنا ولكن لها شهرة في ارتكاب حوادث القتل والسرقة بقصد التسلية . وكان يحوم حول المكان عدد كبير من كلاب الحراسة التي تشبه الثعالب في مظهرها .

كان الغذاء (في اليوم التالي) يتألف من الشورية وبعض الدواجن وطيائر السماء بصلصة الكاري ثم السمك المخبوز بلحم (الكابوريا) ثم لحم الضأن مع السلطة ثم لحم البقر المطهو مع الباذنجان والاسباجوس وغيرها ثم المكرونة ، وبعد ذلك التين والكمثرى والعنب ، ثم جبن الكامبير ومع هذا كله النبيذ والكونياك وغير ذلك كثير . وما كدنا ننهي من تناول القهوة والكونياك حتى جاء أحد موظفي دائرة الخديو الذي يملك عربة من أربعة آلاف فدان بجوار عربة محمد محمود ، وكان ينزل ضيفا على شخص يدعى حسن بك طينية (؟) - وكان ابنه أحمد عزيز حسن طينية قد شاركنا العشاء في الليلة السابقة - وطلب منا أن نزور حسن بك . وكان قد جاءه بفرس عربي أصيل من خيول الخديو لكي أركبه ، بينما أعطى الآخرون الخيول أو الحمير . وانطلقنا بين الحقول الى عربة حسن بك على بعد لمائة أميال تقريبا . . . وكان طينية قد أعد استقبالا مهيبا ، وفي قدموني لكل شيخ للمنطقة . وقام (السفرجية) بتقديم القهوة والشربات ثم مدت بعدها مأدبة ضخمة من الفواكه . ولست أدري كيف أمكننا أن نأكل هذا القدر الهائل من الفواكه بعد وجبة الغذاء الضخمة . . . وسكب الخدم بعد ذلك الماء والعمود على أيدينا وقاموا بتجفيفها بعناية . . . وقد عدت على ظهر الفرس نفسه . . . وقد قدموا لنا الشاي عند غروب الشمس وكان حفل شاي ممتازا حضره عدد من الضيوف كان بينهم علي أفندي بابا ، كما

أسميه حسب اسم زعيم عصاية اللصوص الشهير . . ولقد اضطررنا الى أن نختصر اسمية رائعة حتى نستطيع اللحاق بأخر قطار . . »

وكما هو المتوقع ، وكما كان الشأن بالنسبة لليدي دف جوردون والكثيرين من الأجانب الذين يزورون مصر ويعيشون فيها ، فإن الحياة الدينية والطقوس والشعائر والاحتفالات الشعبية حظيت بقدر كبير من اهتمام مافرسون الذي أتاحت له فرصة حضور عدد كبير من حفلات الزواج عند الطوائف المختلفة التي كانت تعيش في مصر في ذلك الحين بما في ذلك أقباط مصر والأرمن واليونانيين . وقد ذكر بسرور وفخر في إحدى رسائله أنه كان الأجنبي الوحيد في حفل زواج حضره حوالي خمسمائة مدعو . بل إن أصدقاءه المصريين كثيرا ما كانوا يصطحبونه معهم الى احتفالات ومناسبات دينية لم يكن من المفروض أن يحضرها غير المسلمين . وبذلك استطاع أن يحضر بعض حفلات الذكر ، وأهم من ذلك حفلات الزار التي لا يحضرها سوى النساء وأن يلاحظ عن قرب ما يحدث فيها ويصف مشاهداته بكثير من التفاصيل والدقة . ويكتفي أن نستشهد هنا بما ذكره عن إحدى حفلات الذكر التي حضرها في بولاق وذلك في رسالة له بتاريخ ١٩ أكتوبر ١٩٠٢ وإن كان يطلق كلمة « الذكر » فيها على المشتركين في احياء الحفل :

« الذكر هو لفيف من المسلمين الشديدي التدين الذين يستمدون ذلك الاسم من تكرار وذكر اسم « الله » . ويقع الذكر في كثير من الأحيان بالجلوس على الأرض حول « فانوس » وهم يرددون اسم الله بغير توقف ، ويتمايلون بروءهم وأجسامهم بما يتفق وترديد الكلمة . والمفروض أن الحكم البريطاني قضى على حالات المبالغة والمغلاة التي كانوا يلهون اليها في بعض الأحيان .

وحين وصلنا الى المنطقة المنعزلة في بولاق حيث يقام الذكر ألقينا أنفسنا في بقعة من الأرض تقرب مساحتها من مساحة ملعب التنس بين بيوت الأهالي ، وقد زينت بالأعلام واصطففت المقاعد المستطيلة في جانب منها وفرشت بالسجاد . وكان (الذكر) يجلسون على الأرض في شكل حلقة وهم ينشدون ويرددون (لا اله الا الله) بينما كان يجلس عدد كبير من المشايخ والناس العاديين أو يقفون حول (الذكر) ولم يكن بينهم أي أوروبي آخر .

وقد دعاني أحد المشايخ - وهو رجل متقدم في السن ولطيف - للجلوس في موضع ممتاز كما وضعت لنا الوسائد لكي تنكئ عليهما وقدمت لنا القهوة . وفجأة وثب رجل من بين (الذكر) وسط الحلقة وأخذ يصدر أصواتا عالية تتجاوب في تناغم مع الكلمات التي يرددها الآخرون ، وشيثا فشيثا انضم اليه أشخاص آخرون وأخذ الجميع يصدرون أصواتا عميقة كالفحيح من صدورهم . ثم جاءوا ببعض الآلات الموسيقية الوطنية (معظمها طبول ومزامير ودفوف) وأخذ وقع الأنغام يزداد في السرعة الى أن أصبح كل أفراد المجموعة يصدرون ذلك الصوت من صدورهم في شدة وعنف ، وكان معظمهم يتمايلون بأجسامهم بينما أخذ البعض ينورون بسرعة حول أنفسهم مثل المغازل ، وأخذ فريق ثالث يتلون حول أنفسهم بشكل مثير ، ثم بدأ عدد كبير من الحاضرين في الانشاد بأصوات عالية والباقيون يتبعونهم حتى أصبحت الضجة تصم الأذان . .

ويتابع مافرسون بكثير من الدقة البالغة وصف تفاصيل ما يحدث فيتكلم عن الأشخاص الذين يطعنون أجسامهم بالمدى والسكاكين والسيوف المعقوفة ، أو الذين يأكلون الزجاج والنار والعقارب ، والذين يمارسون بعض

الاجراءات والعمليات التي تكفل لصاحبها الوقاية من السموم ومن أذى الحشرات والحشرات القاتلة بيننا الجميع يرددون طيلة الوقت اسم الجلالة إلى أن يقول :

« وبعد منتصف الليل بقليل جاء الطعام والشراب من البيوت المجاورة ويكميات هائلة ، ودعونا للعشاء مع الذكر ، ثم تناولنا القهوة وبعض العنب وانصرفنا ، وحين وصلت الى البيت كانت الساعة قد بلغت الواحدة والنصف صباحا ولكنهم كانوا قد بدأوا يعودون مرة ثانية لاستئناف الذكر . وتوجهت الى سريري للنوم ولا تزال (لا اله الا الله) تردد في أذني » .

وربما كان أحد أهم الاحتفالات الدينية التي تعرض لها بالوصف في رسائله والتي اختفت ولم تعد تمارس في مصر هو الاحتفال بذكرى مقتل الحسين . وقد كتب عنه بالتفصيل في رسالة مطولة الى أخيه دوجال Dougal بتاريخ ٢٣ مايو ١٩٠٢ . وكما هي عادته اكتفى بالوصف والسر السيط للأحداث التي مرت أمام عينيه دون أن يحاول التعمق في فهم تلك المشاهد ، ولو كانت لوسي دف جوردون هي التي عرضت لهذا الاحتفال لكان لكتابتها شأن آخر . أما هو فيكتفي بالقول :

« لقد شاهدت منذ بضعة أسابيع احتفالا غريبا للغاية أقامه بعض الايرانيين من أتباع الحسين حفيد الرسول (فيما أعتقد) ، والذين يعتبرون في نظرية المسلمين من غلاة الطائفيين ولا يكادون يعترفون بهم ، لأن مقتل الحسين وأخيه كان بداية لتحول الخلافة . ومع ذلك فإن المسلمين يسمعون بهذا الاحتفال ويستخدمون مسجد الحسين لممارسة الجزء الأول منه . ويكي الايرانيون ويندبون استشهاد الحسين ثم يسيرون في موكب وسط الشوارع تحت وهج المشاعل وهم نصف عرابي في بعض الأحيان ويطعنون صدورهم بسيف حادة معقولة . وحين مر الموكب بنا لاحظت كيف كانت رؤوسهم تنزف بشدة من كل جانب وقد غطت الدماء أعينهم وأجسامهم بينا كانت ملابسهم يقطر منها الدم حتى أظلمت الشوارع لزجة من الدماء . وكان رجال الشرطة تحت قيادة بريطانية يرأسها مانسفيلد بك يحرسون الموكب ويصدون عنهم الجماهير الماثجة ويدفعونها بالسياط أو ببطون سيوفهم . . »

ولقد زالت هذه الاحتفالات وغيرها واختفت تماما من المجتمع المصري بعد أن كانت تؤلف جزءا هاما من الثقافة الشعبية في مصر . وليس لدينا معلومات وفيرة عن كثير من هذه الشعائر والطقوس والممارسات ومن هنا فان ما سجله ماكفرسون عنها في رسائله يسد بغير شك فجوة واسعة في معلوماتنا في هذا المجال ، وهو ما يعطي تلك الرسائل قيمة علمية عالية رغم كل ما يقال عن عجز ماكفرسون وقصوره وعدم قدرته على تحليل هذه (الظواهر) الثقافية .



وتغطي رسائل ماكفرسون فترة هامة من تاريخ مصر كانت مليئة بالأحداث الهامة التي غيرت من مجرى تاريخها السياسي ، وهي الفترة التي تلت الحرب العالمية الأولى وشهدت اندلاع ثورة ١٩١٩ وخروج الشعب المصري يندد بالاستعمار البريطاني وتعرض السلطة البريطانية لتلك المظاهرات . . وكما سبق أن ذكرنا فإن الدور الذي قام به ماكفرسون خلال تلك الفترة التي تمتد بالنسبة اليه حتى عام ١٩٢٤ كان مخالفا تماما للدور الذي لعبه قبل هذه الفترة وبعدها حتى وفاته . وقد كشف موقفه من مصر ومن شعب مصر ومن المجتمع المصري خلال هذه الفترة العصبية عن وجه المستعمر البريطاني الذي يجد سياسة لورد كرومر المتعجرف والذي ينعي على المصريين عدم تقديرهم للدور

الحضاري الذي كانت تقوم به بريطانيا في مصر ، وتسجل رسائله كثيرا من تفاصيل هذه الأحداث السياسية حتى قبل الحرب العالمية مثل حادث دنشواي ومقتل بطرس غالي . وكثير من هذه التفاصيل من شاهد عيان قد تفيد المؤرخين فضلا عن الموسيولوجيين والانتروبولوجيين ، كما أنها تزود القارىء بكثير من المعلومات عن الأساليب التي كان الانجليز يتبعونها في مقاومة ثورة الشعب المصري عام ١٩١٩ ، فكثيرا ما كان ماكفرسون نفسه يقف على رأس القوات التي تنصدي للمظاهرات ويقاومها بالعنف والقسوة ، كما تعرض للمقاومة السرية والجمعيات التي كانت تنبثق في كثير من الأحيان من الأزهر وتقوم بجمع الأموال والتبرعات التي كان يسميها في رسائله (الأتوات التي تفرض عن طريق التهديد والابتزاز) مثل جمعية « اليد السوداء » و « العين الحمراء » ، حتى يمكن الاتفاق منها على النشاط الثوري . وقد حاول في رسائله أن يلمص هذه الجمعيات التي يقول أنها بدأت في الأزهر كل أنواع الجرائم والمواقف ، وكان يرى في إضراب الموظفين واعتصامهم تجاهي مع الرأي العام الذي التف حول سعد زغلول نوعا من المهانة والأذلال لبريطانيا . والتفاصيل كثيرة جدا ، والرسائل طويلة جدا أيضا وكلها تعبر عن مرارة الفشل ، ولكنها خليقة بالقراءة والاهتمام ، خاصة وأنها تصدر عن رجل شارك بمعنى ما في تلك الأحداث ، ويعتبر بذلك شاهدا على العصر ، كما تعتبر كتاباته شهادات حية ، بهرف النظر عن الزاوية التي رأى منها تلك الأحداث .

ولكنه قبل أن يتقاعد عام ١٩٢٤ من عمله أو وظيفته « كامامو ضبط » اشترك في الحملات التي كان ينظمها (قومندان البوليس) رحيل باشا ضد مهربي المخدرات . ويعترف في رسائله بأن المسألة لم تكن سهلة أو هينة ، ليس فقط بسبب تحايل تجار ومهربي المخدرات وقدراتهم الفائقة على خداع (البوليس) ولكن أيضا لأن معظم المهربين كانوا من الأجانب الذين يتمتعون بالامتيازات الأجنبية ويحظون بنوع فريد من الحماية بحيث لم يكن من اليسور القبض عليهم الا بواسطة شرطة القنصليات التي يتبعونها . ويحكي في رسائله عن بعض مغامراته وعن الهجمات التي شنّها على أوكار الممتمين ، ولكنه ظل حتى النهاية يؤازر سياسة الامبراطورية البريطانية المتشددة في مصر ، وكان آخرها الاجراءات التي اتخذت بعد مقتل السردار وذلك قبل أن يتقاعد بوقت قصير .

ولكن حتى بعد أن تقاعد ظل يعيش في مصر ، وبدأ يعاوده حنينه الى الحياة المصرية الوادعة البعيدة عن مشاكل السياسة ، وظل يرسل أفراد عائلته حول كل ما يشاهده أو يقرأ على ذهنه من أفكار . وأعطى معظم اهتمامه وقتته لدراسة التصورات الشعبية للدين في مصر ، وازداد اتصاله برجال الدين ورجال الطرق الصوفية وأصدر كتابه عن (الموالد في مصر) الذي سبق الإشارة اليه . وفي الثامن عشر من يناير عام ١٩٤٦ أحس برعشة من البرد فاعتكف في البيت لمدة أربعة أيام وطلب في اليوم الرابع من خادمه (السيد) أن يقدم له شرابا ساخنا ، ولكنه استلقى فجأة على ظهره وقد فاضت روحه . ودفن جوزيف ويليام ماكفرسون في القاهرة وقد نقش على قبره كلمة واحدة فقط « وداعا » .



في مقدمته لكتاب (رسائل أيفلين وو) يقول مارك آموري Mark Amory^(٣) إن فن كتابة الرسائل يقتصر نتيجة لظهور أساليب ووسائل جديدة للاتصال بين الناس ، وأن أكبر أعداد فن كتابة الرسائل أو أدب المراسلات هو التلفزيون وأنها قد تشهد قريبا تسجيلات كاملة للمكالمات التلفونية التي تتم بين الشخصيات المشهورة البارزة محل محل أدب

المراسلات . وقد يكون في هذه النظرة غير قليل من التشاؤم . فمعها يطرق من تطورات على أساليب الاتصال أو (التواصل) فإن الكتابة سوف تظل في الأغلب أداة فعالة في تسجيل الحواطر والأفكار والملاحظات والتعبير عنها بدرجة عالية من الوضوح والتحليل العميق . ويصدق هذا بوجه خاص على الملاحظات والأفكار التي يسجلها أصحابها عن المجتمعات والثقافات الغريبة التي يتاح لهم الإقامة فيها أو الاحتكاك بها ودراستها عن قرب ، وتحليل عناصرها ومكوناتها كما هو الحال في رسائل لوسي داف جوردون وجوزيف ماكفرسون وغيرهما . فمثل هذه الرسائل لا تعتبر فقط عن خواطر شخصية عابرة يمكن نقلها أو (توصيلها) عبر التليفون أو أي وسيلة أخرى من وسائل الاتصال الحديثة المعروفة ، وإنما هي نظرات عميقة متأنية في الحياة والمجتمع وإن اختلف حظ أصحابها من القدرة على الملاحظة والوصف والتحليل والفهم . ومن هنا كانت نظرتنا الى هاتين المجموعتين من الرسائل اللتين ظهرتتا في كتاب (رسائل من مصر) وكتاب (الببشاشي ماكفرسون) على أنها سجل التوجراتي للمجتمع المصري ، أو بعض قطاعاته ، في فترتين مختلفتين من تاريخه . ففي الوقت الذي وهدت فيه لوسي داف جوردون الحياة (عام ١٨٦٩) كان جوزيف ماكفرسون يستقبل الحياة (ولد عام ١٨٦٦) . والفترة التي تفصل بين هاتين المجموعتين من الرسائل تقرب من نصف قرن ، كما أن رسائل ماكفرسون نفسه تغطي فترة تقرب من نصف قرن آخر ، وخلال كل هذه السنوات الطويلة (من عام ١٨٦٢ حين بدأت الليلدي داف جوردون تكتب رسائلها حتى عام ١٩٤٦ حين توفي ماكفرسون) مر المجتمع المصري بكثير جداً من التغيرات الجذرية العميقة في بنائه ونظمه الاجتماعية وثقافته الشعبية ، بل أن كثيراً من مظاهر الحياة التقليدية قد اندثر ولا نكاد نجد شيئاً عن تفاصيلها إلا في الرسائل والمذكرات الخاصة . ومن هنا كان اعتقادنا بضرورة أن يعطي علماء الأنثروبولوجيا بالذات هذه الرسائل شيئاً من الاهتمام والعناية . فمعظم الباحثين الأنثروبولوجيين في الوقت الحالي لا يزالون أسرى الموضوعات التقليدية التي بدأ بها الأساتذة الرواد ، ولم يحاولوا في الأغلب ارتداد مناطق ومجالات جديدة في البحث . وهذا لا يعني أبداً التهورين من شأن تلك الموضوعات التقليدية ، فهي رغم كل شيء هي الأساس القوي الثابت للبحث الأنثروبولوجي الأكاديمي ، كما أنه لا يعني أبداً إنكار الجهود التي يقوم بها بعض الباحثين الشبان لتجديد دعاء الأنثروبولوجيا ببحوث جديدة مبتكرة في مجالات لم تطرق من قبل . وكل ما أعتيه هو أن الرسائل والمذكرات الشخصية التي تسجل كثيراً من مظاهر الحياة في مراحل سابقة من تاريخ المجتمع تؤلف مجالا من أخصب المجالات التي يمكن للباحث الجاد أن يطرقها في بحثه لكي يلتقي بعض الأضواء على تلك المراحل ، مستعيناً في ذلك بأسلوب ومناهج البحث الحديثة مما يؤدي الى إثراء الدراسات السوسولوجية والأنثروبولوجية المعاصرة .

٥ . أحمد أبو زيد

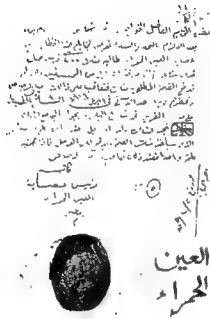




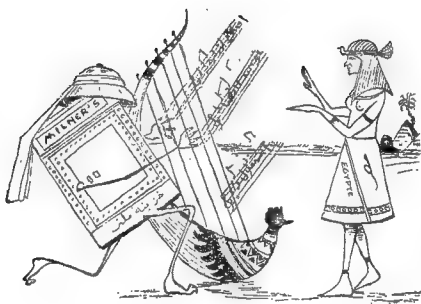
الليدي لوسى دف جوردون
(حين كانت في السابعة والعشرين من عمرها) عام ١٨٤٨
(من كتاب : رسائل من مصر)



خادم لومسى دى جوردهون وصديقها
(من كتاب : رسائل من مصر)



أحدى رسائل جمع الأصول التي كانت
تُرسلها جماعة العين الحمراء أثناء ثورة ١٩
(من كتاب البيهقي مآثره)



رسم كاريكاتيري يبين لورد ملتر يحاول التردد إلى مصر لكي تقبل

(تقرير ملتر) الشهير

(من كتاب البهاشي ماكفرسون)



علامة أحمد أصناف المخدرات

(الحشيش)

(من كتاب اليمبانشى ماكفرسون)

التراسل أمر بعيد موزل في القدم ، رافق - في ظني - نشأة الجماعة البشرية ، وظهور الحاجة الى التفاهم عن بعد . غير أن هذا التفاهم كان في نشأته الأولى شفافيا ، يتقله وسيط من المحتاج الى المحتاج اليه ، لأن الانسان لم يكن قد عرف التدوين . وعند ما عرفه واستخدمه في أغراضه ، كان من المواطن التي استخدمه فيها التراسل .

ومن أقدم ما أذكره تلك الرسالة التي يذكر التاريخ أن ملك الهكسوس في مصر أرسلها الى حاكم طيبة في الصعيد بتحرش به ، ويدعي أن تقيق الضفادع عنده يؤرقه .

واذا تركنا التاريخ البعيد الى جاهلية العرب القريبة من الاسلام وجدنا كثيرا من الرسائل تروي الأخبار أن أصحابها كتبوها ، وأرسلوها الى من أرادوا . وأمثل لها بالرسالتين اللتين يقال إن عمرو بن هند كتبها الى عامله على البحرين ، وأرسلها مع المتلمس وطرفة بن العبد ، يأمره فيها بقتلها ، وبالرسائل التي أرسلها لقيط بن يعمر الايادي وعبد العزي بن امرئ القيس الى قومها لتحذيرهم ، ثم بالرسائل المتبادلة بين كعب بن زهير بن أبي سلمى وأخيه أبحر بعد إسلام الثاني .

أدب المراسلات في العصر الأموي

حسين نصار

كلية الآداب بجامعة القاهرة

ولا يحتاج إلى تدليل أن أذكر أن التراسل انتظم واتسع نطاقه بقيام الدولة الاسلامية وامتداد رقعتها شرقا وغربا ، كما هو معروف ، ولكن الأمر الذي يحتاج الى ذكر وتأكيد العمل الذي قام به عمر بن الخطاب . فقد أنشأ نظاما ثابتا لنقل الرسائل سمي بالبريد ، ولم يقصره على البريد الرسمي ، بل أباحه لأفراد الشعب^(١) . ولا شك أن هذا العمل يسر الاتصال ، ودفع الناس الى كتابة الرسائل وتبادلها ، فازداد عددها ، واتسع مجالها .

ولكن هل كانت هذه الرسائل أعمالا فنية يمكن أن نضعها تحت عنوان الأدب . ذلك ما لا أقوله ، وأنفيه دون تردد . فالرسائل الأدبية - في رأيي - لا تسعى نحو التفاهم وحده ، ولا تصدر عفوية حاملة لغة الحديث اليومي منها بلغت من الفصاحة . وإنما أرى أن الرسالة الأدبية يجب أن ترمي الى امتناع المرسلة اليه ، ومن يطلعهما بعده ، وأن تحتوي على فيض قلّ أو كثر من مشاعر كاتبها ، وأن تقصد الى تفجير طاقات اللغة التي تكتب بها ، وفقا لوعي الكاتب بهذه الطاقات ، وقدرته على تفجيرها .

ولم يقع شيء من ذلك في الرسائل الجاهلية ولا الاسلامية الأولى ، وإن كشفت الرسائل الاسلامية المتأخرة عن بوادر بوعي فني .

قد يعترض معترض - عن حق - فيذكرني بأن كثيرا من الرسائل الجاهلية لم تشمل الا على قصائد من الشعر الجليد ، الذي لا يستطيع أن يماري أحد في فنيته . فاتفق معه ، وأعلن : حقا أذكر ، وحقا هي فنية ، غير أنها من فن آخر غير الذي أعنيه ، أريد أنها من فن الشعر ، وليست من فن المراسلات ، الذي ينتمي الى النثر . وقد فعل القدماء من الأدباء فعلي ، فوضعوا رسائل النابغة الذبياني في الاعتذار الى النعمان ، ورسالة سلامة بن جندل الى صمصمة بن محمود بن عمرو التي مدحه فيها لاطلاقه سراح أخيه أحمد ، وضعوها في ديوانها . بل عدوا رسائل النابغة أحسن شعره . وكذا فعلوا مع غيرها .



ازدهرت حركة التراسل في العصر الأموي ازدهارا رائعا . فقد توطدت سلطة الدولة ، وأمن الناس ، وبرزت طموحاتهم ، وتعددت حاجاتهم ، في عهود كثير من الخلفاء ، وخاصة معاوية وعبد الملك وابنيه الوليد وهشام .

فتنوعت الرسائل التي تبادلوها تنوعا كبيرا بغوت الحصر ، لأن كثيرا منها تبادلها الاصدقاء في شئون شخصية أو سقط من التاريخ . وعلى الرغم من ذلك فبما بقي ما يفتح ويرضي .

أود أن أبدأ بالرسائل التي أبجدها عن الفن لنحدد المجال أمانتا فتدق الدراسة . فأبدأ بالرسائل التي تبادلوها يطلبون فيها أمورا من العلم . فقد دون عبدالله بن عباس صحفا في الحديث والتفسير اشتهرت بين الناس ودأبوا على الرجوع اليها . قال موسى بن عقبة^(٢) : وضع عندنا كريب حل بعير من كتب ابن عباس ، فكان علي بن عبدالله بن عباس اذا أراد الكتاب كتب اليه : ابعث لي بصحيفة كذا وكذا . فينسخها ويبعث بها . وكتب عبدالعزيز بن مروان الى كثيرين مرة الحضرمي - الذي أهدك سبعين ممن اشتهروا في غزوة بدر من الصحابة - أن يكتب اليه بما سمع من الصحابة غير أبي هريرة فان أحاديثه عنده^(٣) . وكتب عبد الملك بن مروان الى سعيد بن جبير يطلب إليه أن يكتب له تفسير القرآن ، ففعل واحتفظ عبد الملك بهذا التفسير الذي اطلع عليه عطاء بن دينار ورواه^(٤) .

(٢) طبقات ابن سعد : ٢١٦ .

(٣) الطبقات ٢ / ٧ : ١٥٧ .

(٤) المرح والتلليل لابن أبي حاتم ١ / ٣ : ٣٣٢ .

وتبادل عبدالملك وعروة بن الزبير رسائل عدة خاصة بمسائل من التاريخ ، مثل هجرة الحبشة ، وغزوة بدر ، وفتح مكة . ومن حسن الحظ أن محمد بن اسحاق والواقدي والطبري احتفظوا ببعض الرسائل التي ليس فيها عروة طلبات عبدالملك . وتمثل تلك الرسائل أقدم نصوص النثر التاريخي العربي المدون . جاء في تاريخ الطبري^(٤) : « ثنا هشام بن عروة عن عروة أنه كتب الى عبدالملك بن مروان :

أما بعد

فانك كتبت الي في أبي سفيان ومخرجه ، تسألني : كيف كان شأنه ؟

كان من شأنه أن أبا سفيان بن حرب أقبل من الشام في قريب من سبعين راكبا ، من قبائل قريش كلها ، كانوا نجارا بالشام . فاقبلوا جميعا معهم أموالهم ونجارتهم فذكروا لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، وقد كانت الحرب بينهم قبل ذلك . فقتلت قتل ، وقتل ابن الحضرمي في ناس « بنخلة » . وأسرت أسارى من قريش ، فبهم بعض بني المخيرة . وفيهم ابن كيسان مولاهم . أصابهم عبدالله بن جحش وواقد حليف بني عدلي بن كعب ، في ناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثهم مع عبدالله بن جحش . وكانت تلك الواقعة هاجت الحرب بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين قريش . . . »

ولعل الأهم لهذا المقال ما تبادلوه من رسائل خاصة بشئون الأدب ، وإن لم تكن الرسائل نفسها فنية . وأول هذه الشئون تعليم الشعر . قيل : إن زياد بن أبيه أرسل ابنه عبيد الله الى معاوية بن أبي سفيان فسأله عن أشياء من العلم فوجده عارفا بكل ما سأله عنه . فاستنشد شعرا ، فقال : لم أرومه شيئا . فكتب معاوية الى زياد : ما منكم أن ترويه الشعر ؟ فوالله إن كان العاق ليرويه فيبر ، وإن كان البخيل ليرويه فيسوخو ، وإن كان الجبان ليرويه فيقاتل^(٥) .

وهذه الرسالة تأكيد للنصائح التي وجهها كثير من رجال العرب توصي بالناية بالشعر ، مثل عبدالله بن عباس ، وعبدالملك بن مروان الذي قال لمؤدب ولده : ووهم الشعر بمجدوا وينجدوا^(٦) .

ومن هذه الشئون استعداء رواة الشعر والعارفين به . قال ياقوت في معجم الأدباء^(٧) : كتب عبدالملك بن مروان الى الحجاج :

« انظر لي رجلا علما بالخلال والحرام ، عارفا بأشعار العرب واختبارها ، أستأنس به ، وأصيب عنده معرفة . فوجهه الي من قبلك » .

(٥) : ١ : ١٢٨٤ .

(٦) : المعجم الفردي : ٦ : ١٢٥ .

(٧) : المقدم : ٦ : ١٢٥ .

(٨) : ١ : ٩٩ .

فوجه إليه الشعبي ، وكان أجمع أهل زمانه . وعلى الرغم من ذلك قال الشعبي بعد أن التقى به : فلم ألق وألبا ولا سوقة ، إلا وهو يحتاج إليّ ولا أحتاج إليه ، ما خلا عبد الملك ، ما أنشدته شعرا ، ولا حدثته حديثا ، إلا وهو يزيدني فيه . وكنت ربما حدثته - وفي يده اللقمة - فأمسكها . فأقول : يا أمير المؤمنين : أبيع طعامك ، فإن الحديث من ورائه . فيقول : ما محدثني به أوقع بقلبي من كل لغة ، وأحل من كل فائدة .

وقال حماد الراوية^(٩) : أرسل الوليد بن يزيد إليّ بمئتي دينار ، وأمريوسف بن عمر بحملي إليه على البريد ، فقلت لا يسألني إلا عن طريقه : قرقيش وثقيف . فظنرت في كتابيها .

ومن هذه الشئون السؤال عما يتيسر من المعاني أو يشعر السائل بالحاجة إلى معرفته . قالوا : إن أبا عمرو بن العلاء - العالم الكبير - كان يرسل أخاه معاذا إلى الحارث بن خالد بن العاص ، الشاعر الغزل الذي تولى مكة ، ومعه رسائل فيها مسائل يسأله عنها^(١٠) .

وذكر الأصمعي^(١١) الامويين وشغفهم بمعرفة الشعر فقال : كانوا ربما اختلفوا - وهم بالشام - في بيت من الشعر أو غير أويوم من أيام العرب ، فيبردون فيه يريدا إلى العراق . وقال غيره : كنا نرى في كل يوم راكبا من ناحية بني أمية ينحى على باب قتادة بن دعامة السدوسي ، يسأله عن خبر أو نسب أو شعر ، وكان قتادة أجمع الناس .

وكتب عبد الملك بن مروان^(١٢) إلى الحجاج يوما : أنت عتدي كسالم . فلم يدر ماذا يريد . فكتب إلى قتيبة بن مسلم ، وكان راوية للشعر . فكتب إليه : إن الشاعر يقول :

يسدروني عن سالم وأديرهم
وجلدة بين الأنف والعين سالم

ومعها يكن من أمر ، فإن هذه الرسائل وثيقة الصلة بالأدب ، ولكنها ليست من الفن في شيء ، ولذلك لا يأبه بها هذا المقال ، وكان على أن أبدأ بإبعادها ، وإبانة أسباب ذلك الإبعاد .



وننتقل إلى الرسائل التي يحنأ أمرها . ونستهل الحديث عنها بالتقسيم الذي اعتاد الأدباء العرب أن يقسموا الرسائل الأدبية إليه . فهي عندهم صنفان : رسائل إخوانية ، وأخرى ديوانية . أما الإخوانية فالرسائل التي يتبادلها الأصدقاء والأقارب وأفراد الناس في شئونهم الخاصة . وأما الديوانية فالرسائل التي تتناول الشئون الحكومية ، وتصدر عن الهيئة التي تكل إليها السلطة صياغة ما تريد كتابته ، وسميت أحيانا ديوان الرسائل ، وأحيانا ديوان الانشاء .

(٩) الأغاني : ٦ : ٩٤ .

(١٠) الأغاني : ٣ : ٣١٢ .

(١١) الأغاني : ٣ : ١٣٣ .

(١٢) أمالي القتال : ١ : ١٥ . وانظر معجم الأبياء لبقرة : ٩٧ .

فإذا ما قمنا بهذا التقسيم وشرعنا في تطبيقه على العصر الأموي ، تم الأمر في سهولة في مجال الرسائل الأخوانية . أما الصنف الآخر فلا يتصاع لنا في مثل هذه السهولة . حقا نجد بين أيدينا عددا وافرا من الرسائل التي تتناول شعبن الدولة ، غير أننا لا نجد الديوان الذي أصدرها أو يتوه منا في الظلام فنجد حرجا شديدا في نسبة الرسائل إليه ، وتسميتها بالديوانية . ولو كان الأمر مجرد تسمية لها بعض الشيء . ولكن التسمية تعني وجود الديوان ، وهو ديوان غاية في الأهمية ، لأنه ضم الكتاب الذين احترقوا مهنة الكتابة ، بل ضم كبارهم ومشهورهم ، فاجتمعوا معا ، في عمل واحد ، تحت بصير السلطة ، التي فتحت أمامهم أبواب الترقى إلى أعلى المناصب . فتباروا وبذلوا الجهود في حيازة رضاها . فنقبوا عن طاقات اللغة العربية التي كتبوا بها ، واستغرغوا الوسع في صقل مواهبهم وقدراتهم واستثمارها . فبلغوا الغاية التي سعوا إليها : فثارت خالدا ، باهت العربية به وبأصحابه ومازالت تباهي .

فمن أين نشأت الدولة هذا الديوان ؟

انفرد القلقشندي بإرجاع هذه النشأة إلى العصر النبوي ، قال^(١٣) : اعلم أن هذا الديوان أول ديوان وضع في الاسلام ، وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يكتب أمرامه وأصحاب سراياه من الصحابة . . ويكتبونه ، وكتب الى من قرب من ملوك الأرض يدعوهم الى الاسلام ، ويحث إليهم رسله بكتبه . . وهذه المكتوبات كلها متعلّقة ديوان الانشاء ، بخلاف ديوان الجيش فإن أول من وضعه ورّبه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه في خلافته .

ولكن هذا القول غير صحيح . فلا تلازم بين ديوان الانشاء وهذه الكتابات ، فقد توجد هي ، ولا يوجد هو . كما أننا لم نسمع عن كتاب احترقوا الكتابة ، وإنما كان الرسول صلى الله عليه وسلم يلي على من يجده أمامه من يحسن الكتابة ، فيكتب كما يلي عليه . وقد بالغ القلقشندي في هذا الادعاء مبالغته في ادعائه أن ديوان الجيش والدواوين الأخرى أسست في عهد الرسول أيضا ، غير أنها لم تلق مثل شهرة ديوان الانشاء^(١٤) .

وأقدم ذكر للديوان جاء به الجهشاري^(١٥) في كتابه الوزراء والكتابات حين قال : وكان يكتب لعبد الملك على ديوان الرسائل أبو الزعزعة مولا . وأكد هذا القول حين ذكر سليمان بن سعد الحنثي ، وأعلن أنه تقلد ديوان الرسائل لعبد الملك أيضا^(١٦) . فدلنا هذان القولان على أن الديوان كان قائما في دمشق في عهد عبد الملك بن مروان .

ولكن الأمر لا يقف عند هذا بل يتعداه إلى التصريح بوجود دواوين للرسائل عند الحجاج بن يوسف الثقفي في العراق ، ويزيد بن المهلب في خراسان ، في خلافة عبد الملك نفسه^(١٧) . وإذا فلم يشهد عبد الملك ديوانا واحدا ، بل عدة دواوين ، أحدها في العاصمة ، ويقعها في الأقاليم .

(١٣) صبح الأمان : ١ ، ٩١ .

(١٤) نفس الموضع .

(١٥) ٣٥ .

(١٦) ٤٠ .

(١٧) ٤١ ، ٤٢ ، ٦٣ .

فهل أنشئت كل هذه الدواوين في خلافة عبدالمملك بن مروان .

أما أنا فقد قلت : لا . واستطعت بتحليل الأوصاف التي أطلقها الجهشيارى على بعض الكتاب أن أستنتج أن معاوية بن أبي سفيان هو الذي أسس الدواوين فيما أنشأه من دواوين إبان خلافته في دمشق . ثم احتذته بقية الأقاليم في أزمنة مختلفة .

فقد وجدت الجهشيارى يصف عبيدالله بن أوس بأنه « كان يكتب لمعاوية على الرسائل »^(١٨)، ويقول عن زياد بن أبيه^(١٩) : « يكتب له على الرسائل عبدالله بن أبي بكرة وجبير بن حية » . وقد استمر الجهشيارى في استعمال هذا الوصف بعد إنشاء ديوان الرسائل يقينا ، وأطلقها على من عرفوا بالتحاقهم به من أمثال عبدالله بن أبي فروة كاتب مصعب بن الزبير ، ويحيى بن يعمر كاتب يزيد بن المهلب ، بل على رشدين كاتب يوسف بن عمر والي العراق في عهد هشام بن عبدالمملك . وما يدعم هذا الاستنتاج أن نرى الجهشيارى قبل ذلك التاريخ يقول : وكتب لفلان فلان ، وبقي يستخدم هذا القول بعد إنشاء الدواوين أيضا .

وعلى الرغم من ذلك ، أوتر أن أعدل عن وصف رسائل هذا القسم بالدويانية ، وأن أصفها بالرسمية ، فطعا لكل خلاف . كذلك لا أقنع بالتقسيم الثنائي للرسائل ، وأوتر تقسيما ثلاثيا ، يجعلها أخوانية ورسمية ودينية . قد يقال إن الرسائل الدينية يمكن وضعها في القسمين الآخرين . فاقول : حقا يمكن ذلك في كثير منها ، ولكن بعضها يستعصى على هذا الرضع لسمات وأوضاع خاصة به .



ويلفت النظر - قبل التعرض للرسائل - أمور يحسن الحديث عنها لأثرها الواضح في التراسل والرسائل . وأول الأمور العناية الشديدة التي أولاها الخليفة معاوية بن أبي سفيان للبريد ، حتى ظن بعض المؤرخين خطأ أنه منشئه^(٢٠) .

الأمر الثاني تحور الكتاب من نظام الاملاء . فقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدون بعده يملون على كتابهم ما يريدون تدوينه ولا يعطونهم حرية صياغته كما يهون ، ولذلك جاءت رسائل كل منهم مخطا واحدا على اختلاف كتابتها . ولم يصرح المؤرخون بانفراد أحد بما كتب في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم الا عبدالله بن الأرقم ، الذي استقل أحيانا بما كتب ، وأجاز الرسول كتابته^(٢١) . ولكن بعض الكتاب التميزين - فيما يبدو - أخذوا يستقلون عن الاملاء في عهد الراشدين . فإذا جاء العصر الأموي تنابت الدلائل على استقلال الكتاب برسائلهم ،

(١٨) ٢٤ .

(١٩) ٢٦ .

(٢٠) الترتيب الادارية ١ : ١٩٧ .

(٢١) الترتيب ١ : ١٢٠ .

ومنذ عهد مبكر . وهذا الاستقلال هام لأنه يتيح للكاتب أن يتأن ويدير النظر في إثراء الأفكار وتعميقها وتجويد العبارة وتحسينها .

الأمر الثالث احترام الكتابة . فقد شرع الحكام منذ عهد عمر بن الخطاب يتخذون الكتاب الخاصين ، الذين يشتغلون بالكتابة ، وعرفنا أسماء بعضهم مثل زياد بن أبيه كاتب ولاية العراق ، وعبد الرحمن بن أبيزي كاتب نافع بن الحارث والي مكة^(٢٢) . وطبيعي أن الظاهرة استمرت في الاتساع ، وتكمن أهمية الاحتراف في كونه داعية التجويد والتنافس .

الأمر الأخير الشك . فقد أدت الفتنة العثمانية إلى فرقة المسلمين ، ويده المذاهب السياسية والدينية كالأمويين والعلويين والخوراج . والأمر الذي يؤسف له أن بعض رجال هذه المذاهب لجئوا إلى الكذب على رؤسائهم ورؤساء خصوصهم ، من أجل الدعوة لأرائهم وتفنيد آراء مخالفيهم . وانتشر هذا الفعل الدميم حتى شمل كل فنون القول عند المسلمين بل العرب قبل الإسلام أيضا . فصرنا نجد الرسالة التي لا نشك أنها واحدة ، ترد في مصدرين مختلفين ، متغايرة تغايرا كبيرا^(٢٣) . بل وضعت رسائل في عصور متأخرة ونسبت إلى رجال من العصر الذي اتحدث عنه زورا .



فإذا بدأنا بالرسائل الأخوانية وجدناها تشتمل على عدة موضوعات ، هي النصيح والعتاب والاعتذار والتعزية والشفاعة والرجاء والتوصية والطلب . ووجدناها في مطلع العهد الأموي بسيطة لا ترمي إلا إلى الإلهام دون شيء آخر ، فلا نعدّها من الفن في شيء . واعتقد أن التاريخ لم يحتفظ بما احتفظ به منها إلا لأنها صادرة عن أناس لهم شأنهم ، وأن أمثالها من الرسائل صدرت في زمنها ويعدّه - بل في العصور العباسية وما بعدها - غير أنها لم تحتو على ما بلغت أنظار المؤرخين فيدلّهم إلى تسجيلها وحمايتها .

ومنذ أواسط العصر الأموي يتجلى أن عددا من هذه الرسائل لم تقتنع بما كانت عليه ، وأن كاتبها سعوا إلى شيء آخر وراء الإلهام ، سعوا إلى استثمار طاقاتهم اللغوية وإمتاع القارئ . وفرقت هذه الغاية بين الساعين إليها فريقين . أما الفريق الأول في الوجود فأدى به الثاني الذي اعتمد عليه ، وإطالة التفكير فيها يكتب ، إلى الإيجاز القائم على الاحكام في التعبير .

يتضح ذلك في الرسالة التي اعتذر فيها بشر بن مروان لأخيه عبدالعزيز فقال^(٢٤) :

(٢٢) العقد الفريد ٣ : ٩ .

(٢٣) تاريخ الطبري ١ : ٣١٤ - مع البلاء ٢ : ٣ .

(٢٤) الجوهرة ٢ : ٢٢٤ .

بسم الله الرحمن الرحيم

لولا المغفوة لم أحتج إلى العذر ، ولم يكن لك في قوله مني الفضل . ولو احتمل الكتاب أكثر مما ضمنت لزدت فيه . وبقيّة الأكاير على الأصاغر من شيم الأكارم . ولقد أحسن مسكين الدارمي حيث يقول :

أخاك ، أخاك ، إن منلا لا أخاله كساع إلى الهيجا بغير سلاح
وإن ابن عم المرء - فاعلم - جناحه وهل ينهض السبزي بغير جناح ؟

فكل واحدة من جملة وراها تفكير طويل ، وتعطي معنى جديدا ، مع شعور قوي بوجود البعد عن الاطالة .

فإذا سرنا مع الزمن قليلا دون أن نفارق الرفاق الذين آثرنا البهيم بهم ، وجدناهم يلتزمون ما التزموه من إيجاز وإحكام وإعمال فكر ، كما نرى في رسالة سالم بن عبدالله - أستاذ عبدالحميد الكاتب - إلى أحد اخوانه ، التي قال فيها (٢٥) : « أما بعد ، فقد أصبحت عظيم الشكر لما سلف إليّ منك ، جسيم الرجاء فيها بقي لي عندك ، قد جعل الله مستقبل رجائي منك عونا على شكرك ، وجعل ما سلف إليّ منك عونا على مؤتف الرجاء فيك » .

وإن أبحت لنفسي الموازنة بين الرسالتين ، وجدنا - إضافة إلى الإيجاز والاحكام - الرسالة الأولى شاكلت بين ثلاثة ألفاظ ، فجاءت بها من صيغة واحدة هي أفاعل ، واعتمدت على بيتين من الشعر نسبتهما إلى قائلهما ، ووجدنا الرسالة الثانية اعتمدت على المشاكلة أيضا . ولكنها لم تشاكل بين ألفاظ بل بين جملي ، فجعلت الجملتين المتعاقبتين مبنيتين بناء واحدا . ففي الجملتين الأولىين تقابل جسيم عظيم ، والرجاء الشكر ، وفيها لا ، وبقي سلف ، ولي إليّ ، وعندك منك . فاستطاع أن يأتي بجسيم وعظيم ، من وزن واحد هو فعيل ، وأعراب واحد هو النصب على المفعولية ، وموضع واحد من الجملة . ووفق في الرجاء والشكر في توحيد الأعراب والموضع وأفلت منه الوزن . وتمكن في بقية الكلمات من الموضع وعجز عن الأعراب والوزن ، وإن لم يبعد عن الأخير كثيرا . وتمكن من قدر من المشاكلة في الجملتين التاليتين غير أنه لم يبلغ فيها المبلغ الذي وصل إليه في الأولىين .

وأما الفريق الثاني فتأخر في الوجود قليلا ، واتخذ من الاطالة مذهبا له ، ويتمثل واضحا في عقاب بن شبة وعبدالحميد الكاتب . كتب الاول إلى خالد بن عبدالله القسري في شفاعته فقال (٢٦) : « إن الله انتجبك من جوهر كرم ، ومنبت شرف . وقسم لك خطرا شهّرت العرب ، وتحدثت به الحاضرة والبادية . وأعان خطرك بقدره مبسوطة ، ومنزلة ملحوظة . فجميع أكفائك من جاهل العرب يعرف فضلك ، ويسره ما خاف لك . وليس كلهم أداله الزمان ، ولا ساعده الحظ . وأحق من تعطف على أهل البيوتات ، وعادلهم بما يبقى له ذكره ، ويحسن به نشره : مثلك .

(٢٥) البهري ٢ : ٣٦٩

(٢٦) البهري ٢ : ٣٥٧

وقد وجهت اليك فلانا ، وهو من ذنية قرابتي ، وذوي الهبة من أسرتي ، وعُرف معروفك ، وأحببت أن تلبسه نعمتك ، وتصرفه إليّ وقد أودعتني وإياه ما تجهده باقيا على النشر ، جيلا في القِب .

لم يعط كاتب هذه الرسالة كل فكرة جملة واحدة بل تترادف الجمل المتعاقبة أو تتقارب حتى تكاد تترادف . ثم أعقب كثيرا من جملة بما يرادف الجزء الأخير منها ولم يكتف بالمرادفة وحدها أحيانا فشاكل بينهما أيضا ، كما في جوهر كرم ومنبت شرف ، وفي قدرة مبسطة ومنزلة محفوظة . وقد وفر هذا العمل للرسالة قدرا ملحوظا من التنعيم .

ووصل تيار الاطنان في الرسائل الاخوانية إلى قمته الأولى في رسالة عبد الحميد بن يحيى الكاتب في وصف الاخاء التي استعملها بقوله (٢٧) : « فان أولى ما اهتزم عليه ذؤ الاخاء ، وتواصل عليه أهل المودات ، ما دعا أسبابه صدق التقوى ، ونبئت دعائمه على أساس البر ، ثم أنهد البناء خريز التواصل ، وشيده مستعذب العشرة فأدعم قويا ، وصفا موفنا ، وأخلصته المقة منقطعة ، وسكنت به القلوب أنيسة ، ونسنت من مواصلة المهم مستعالية ، عن كل زائغ محتاق ، وخوف عارض » .

وعندما ننظر في هذه الرسالة نجد المشاكلة تصل إلى ذروتها الأموية ، فالجمل المتعاقبة تبنى - ما أمكن - بناء واحدا ، تقابل كل كلمة في الجملة الأولى أختالها في الجملة الثانية ، ننظرها في الموقع ، وفي الموقع الاعرابي كثيرا ، وفي الوزن أحيانا ، يقول : « كان سرورهم باعلاقه وابتهاجهم بوجوده ، وانماؤهم صلته ، وبذلهم رعايته ، وحياطتهم محمودة . . لا يدخل مستحقها سامة ملال ، ولا كهامة مهنة ، ولا تشييط ونية ، ولا ضعف خور ، لنزول بائقة ، أو طروق طارقة ، من عوارض الأقدار ، وحوادث الزمان . . . فتلق ما وصفت لك بقلب : فهم عقول ذي ميزة بفظان ، وذهن جامعي ذي ثقافة راع ، أحضر لك الله عصمة التوفيق ، وسددك (الله) لاصابة الرشد ، ويمكن لك صدق العزيمة » . فانظر كيف وصف كلا من القلب والذهن بأربع صفات ، وكيف جعل ثلاثا منها مفردة ، وواحدة - هي الثالثة في كل موقع - مؤلفة من مضاف (ذي) ومضاف اليه . ولا تبدو للمشاكلة فيها جشث به من أمثلة بل في الرسالة كلها ، كما نستطيع أن نلمح في الأمثلة القادمة .

وأكثر الكاتب من الألفاظ التي تقع موقعا نحويا معينا ، أو تتخذ من بناء صرفي واحد . وأكثر الألفاظ التي تنتمي إلى الفئة النحوية ورودا هي الأحوال . يبدو مثال ذلك في شاهدي الأول بدءا من (ادعم قويا) إلى (مستعالية) ، وفي قوله أيضا : « كشف لهم عن نفسه مظهرأ أعلامه ، مبديا دفتيه ، طارحا قناع سره ، معلنا مكنون ضميره . . . مواسيا في إزمها ، متورطا غمرات قُحمها ، متدرا هائل بواقفها ، مستلحيا نواظر مقاطعها » .

وأكثر أيضا من المفعول لأجله ، كما يتجلى في قوله : « يحتر مريبوب المقة : ضنا بما استعذروا من محمود وثائقه ، وازديادا فيما تمطقوا به من حلوة جنه . . . واث في الحقب من المكارم : قياما لهم بالنصرة ، وحياطا للمودة ، وترغيبا في العشرة » .

ويلتقي الانتباه النحوي والصرفي في صيغ التفضيل التي أكثر منها متلوة بالمضاف إليه ، مثل قوله : « فكان أكهف لجأ ، وأحز حصن ، وأحصف جنة ، وأبقى ذخيرة ، وأعظم فائدة ، وأشرف كنز ، وأفخر صنعة ، وأتق منظر ، وأبنع زهرة » .

فإن ملَّ الكاتب هذا التعبير عدل عنه إلى التفضيل متلوا بالتمييز أو المفعول المطلق ، كما خرج من النص السابق إلى قوله : « أكثر الأشياء ريعا ، وأتمها وصلا ، وأمدتها سبيبا ، وأقواها أيذا ، وأحلاها ذوقا ، وأدعما ثباتا ، وأرساها ركنا » . ففجاء بها في هذا السياق مجتمعين ، وفرق بينهما في سياقات أخرى ، فأتى بالتعبير الأول وحده أو الثاني وحده .

ويتسمي إلى الفئة الصرفية أسماء الفاعلين والمفعولين التي تكثر عنده فتجذب الأنظار كما يبين في النصوص التي أوردتها .

وجاءت في الرسالة مقابلة خفيفة في قوله : « فأننا مصيخ السمع للفظه ، عُقل العقل عن سوى أمره ، محتضر الذهن في تدبيرهم ، ذهل القلب عن تفنن القول . . » .

وقد منحت هذه الأمور التي راعاها عبد الحميد في بناء عبارته كتابته تنغيبا وإفرا ، يجذب الاسماع ، ويغزو القلوب ، ويشيع النعمة ، كما أبرزها قدرة على التأنى والغوص وراء المعاني ، قدرة على التروي والبحث عن الطاقات الذاتية للغة ، قدرة على التعبير التصويري للأفكار أحيانا قدرتها على التعبير المباشر .

وأقسم الرسائل الدينية قسمين متميزين : أسمي أولها الرسائل الوعظية ، والثاني الرسائل الجدلية . وأريد بالقسم الأول ما أرسله رجال الدين والوعاظ والزهاد إلى الخلفاء والأمراء - والأصدقاء أحيانا - لوعظهم .

وتختلف الرسائل الوعظية عن بقية الرسائل اختلافا مبدئيا . فهي تصدر عن عاطفة دينية لا تريد الإفهام أو الإخبار فحسب ، وإنما تريد أن تدفع المرسل إليه إلى العمل بما فيها من مواعظ . ولذلك يطلب منها أن تؤثر في قارئها ، وتغريه أو تدفعه إلى تغيير وجهة نظره في الحياة ، والقيام بأعمال لم يعتد أن يقوم بها من قبل . ومن هنا يبحث عن تحميل ألفاظه شحنا من عاطفته الدينية الجليانة ، لتثير شعور القراء . وما تستطيع الألفاظ جميعا أن تحمل هذه المواقف ، وتؤديها الأداء الجميل . ولذلك يضطر الكاتب إلى اختيار ألفاظه وجملته وتعبيره كله . وليس ذلك إلا الفن على تفاوت درجته . ومن ثم يمكن القول بأن الرسائل الوعظية كانت منذ نشأتها أقرب من غيرها إلى النمط الفني ، ثم كانت أسرع الأنواع ولوفا إلى مملكة الفن .

وقد وصل البناء من هذه الرسائل في عصرنا أكثر مما وصل من الرسائل الأخوانية ، على حين لا تجذب الرسائل الأخوانية - حين تجلب - غير أنظار الأدياء والمؤرخين . والكثرة الفائرة من الرسائل التي وصلت إلينا أنتجها عهد عمر بن عبد العزيز الذي لم يزد على الستين ونصف السنة ، وكتب الحسن البصري - تلك الشخصية الدينية الرائعة ، التي كانت وما زالت مثالا للورع وحرية الرأي - الكثير منها .

وإذا أمعنا النظر في هذه الرسائل الوعظية وجعلناها تتحلل بما يأتي من سمات :

لعل أهم سمة تشيع فيها فتغلب عليها توازن الجمل ، أعني بذلك أن يسوي الكاتب بين أطول جمله أويقارب ، فيصنعها ذات أوزان متقاربة ، مما يجعلها تصدر تنغيثا ملحوظا . أمثل لذلك بقول عمر بن عبدالعزيز في رسالة إلى أحد أصدقائه (٢٨) : « يا أخي : إنك قد قطعت شطْم السفر ، وبقي أقله . . . وإليك أن تغرك الدنيا ، فإن الدنيا دار من لا دار له ، ومال من لا مال له - يا أخي : إن أجلك قد دنا ، فكن وصي نفسك ، ولا تجعل الرجال أوصياك » .

كذلك يشيع فيها الازدواج الآتي من توازن الجمل وإيمائها بكلمات من وزن واحد أو متقارب . فإن ترك الكاتب الازدواج فإثما يتركه إلى السجع في كثير من الأحيان ، مثل قول عمر بن عبدالعزيز في رسالته إلى أبي بكر بن حزم وإلى المدينة (٢٩) : « إن الطالبين الذين أنجحوا ، والتجار الذين ربحوا ، هم الذين اشتروا الباقي الذي يدوم بالفاقي المذموم ، فاشتغلوا ببيعهم ، وأحمدوا عاقبة أمرهم . فاطه الله وبدنك صحيح ، وقلبك مريح ، قبل أن تنفغي أيامك ، وينزل بك حمامك ، فإن العيش الذي أنت فيه يتخلص ظله ، ويفارقه أمهله . فالسعيد الموفق من أكل في عاجله قصدا ، وقدم ليوم فقره ذخرًا ، وخرج من الدنيا محمداً ، قد انقطع عنه علاج أمورها ، وصار إلى الجنة وسروها » .

ويشيع فيها الاقتباس الصريح من القرآن ، كما نرى في رسالة غيلان بن مسلم الدمشقي لعمر بن عبدالعزيز (٣٠) : « وربما نجت الأمة بالامام ، وربما هلكت بالامام ، فانظر أي الامامين أنت . فإنه تعالى يقول : (وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا) فهذا إمام هدى ، ومن أتبعه شريكاً . وأما الآخر ، فقد قال تعالى : (وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ، ويوم القيامة لا يُنصرون) ، لن نجد داعياً يقول : تعالوا إلى النار . إذن لا يتبعه أحد . لكن الدعاة إلى النار هم الدعاة إلى معاصي الله » .

فإن لم يبدُ الاقتباس الصريح بدا التضمين اللطيف مثل قول الحسن البصري في رسالته لعمر بن عبدالعزيز (٣١) : « وأعلم - يا أمير المؤمنين - أن لك منزلاً غير منزلك الذي أنت فيه ، يطول فيه ثؤاؤك ، ويفارقت أحيائك ، ويسلمونك في قعره فريداً وحيداً . فتزود له ما يصحيك (يوم يفر المرء من أخيه ، وأمه وأبيه ، وصاحبته وبنيه) . وإذكر - يا أمير المؤمنين - (إذا بعث ما في القبور ، وحصل ما في الصدور) . فالأسرار ظاهرة ، والكتاب (لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها) » .

ويشيع فيها تكرار الألفاظ معينة ، يجعلها الكاتب دفقات شعورية جياشة ، تستثير مشاعر القراء ، وتبيح نواياهم ، وتجعلهم قريبين من قول ما تأمر به الرسالة وتنفيذه ، كما نرى في الرسالة التي أرسلها الحسن البصري إلى عمر بن عبدالعزيز يصف فيها الامام العادل (٣٢) : « والامام العدل - يا أمير المؤمنين - كالرامي الشفيق على إليه ،

(٢٨) المجلد ٢ : ٣٠٥

(٢٩) المجلد ٢ : ٣٦٥

(٣٠) المجلد ٢ : ٣٣٦

(٣١) المجلد ٢ : ٣٢٥

(٣٢) المجلد ٢ : ٣٢٤

الرفيق الذي يرتاد لها أطيب المرعى ، ويلذودها عن مراتع الهلكة . . . والامام العدل - يا أمير المؤمنين - كالأب الحاني على ولده ، يسعى لهم صغاراً ، ويعلمهم كباراً . . . والامام العدل - يا أمير المؤمنين - كالأم الشفيقة البرة الرفيقة بولدها ، حملته كرمًا ، ووضعت كرمها ، وربته طفلاً . . . والامام العدل - يا أمير المؤمنين - وصي اليتامى ، وخازن المساكين . . . وهذا التكرار لازمة من لوازم الوعظ . ولذلك لا نراه في الرسائل وحدها بل نراه في الأحاديث الشفهية مثل قول الحسن البصري لعمر بن هبيرة وإلى العراق عندما سأله : أيطيع لأوامر الخليفة ويعصى الله (٣٣) ؟ : « يا عمر بن هبيرة : يوشك أن ينزل بك ملك من ملائكة الله تعالى ، فظ ، غليظ ، لا يعصى الله ما أمره ، فيخرجك من سعة قصرك إلى ضيق قبرك . يا عمر بن هبيرة : إن تتق الله يعصمك من يزيد بن عبد الملك (الخليفة) ولا يعصمك يزيد بن عبد الملك من الله عز وجل . يا عمر بن هبيرة : لا تأمن أن ينظر الله إليك على أقبح ما تعمل في طاعة يزيد بن عبد الملك . . . يا عمر بن هبيرة . . . »

وأدُلُّ من هذا سورة لقمان من القرآن الكريم ، فقد تكررت فيها عبارة (يا بني) في مقام النصيح والارشاد تكراراً له دلالة التي لا تحصى .

ونجد في الرسائل الطويلة خاصة القصص الوعظية التي يتكررها خيال الوعاظ فيصورون ما يريدون التعبير عنه من أفكار في شكل قصص واقعية ليكسبوا المستمعين ، كما نرى في رسالة سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب إلى عمر بن عبدالعزيز (٣٤) : « إن استطعت ألا تحس نفسك وأهلك يوم القيامة فافعل . فإنه قد كان قبلك رجال عملوا ما عملوا ، وأحيوا ما أحيوا من الباطل ، وأماتوا ما أماتوا من الحق ، حتى وُلِدَ في ذلك رجال ونشوا فيه ، وظنوا أنها السنة ، فسدوا على الناس أبواب الرخاء . فلم يسدوا منها باباً إلا فتح الله عليهم باب بلاء . . . فإنهم قد عابوا هول المطلاع ، وعابوا نزع الموت الذي كانوا منه يفرون ، فانشقت بطونهم التي كانوا لا يشعرون بها ، وانفتحت أعينهم التي كانت لا تنقطع لذاتها ، واتدقت رقابهم في التراب غير موصدين ، بعد ما تعلم من تظاهر الفرش والمرافق والسرور والخدم . فصاروا جيفاً في بطون الأراضى تحت مهادها . والله ، لو كانوا إلى جانب مسكين لتأذى برحيمهم ، بعد إنفاق ما يلقى عليهم وعلى خواصهم من الطيب . »

ويشيع في الرسائل الوعظية الطبايق والمقابلة ، يقول الحسن البصري في رسالة له إلى عمر بن عبدالعزيز (٣٥) : « وأعلم - يا أمير المؤمنين - أن الصبر - وإن أذاقك تعجيل موارته - فليشتم ما أعقبك من طيب حلاوته ، وحسن عاقبته ، وإن أهوى - وإن أذاقك طعم حلاوته - فليشتم ما أعقبك من مرارته وسوء عاقبته . »



وقد عثرت على أربع رسائل فقط من النوع الثاني الذي سميت الرسائل الجدلية ، وكلها تتناول مشكلة ارادة البشرية أو ما عرف في علم الكلام باسم القدر . وتداخل ثلاث منها عن حرية ارادة الانسان ، وتقيد الرابعة من هذه الحرية بعض التقييد .

(٣٣) - حلية الأولياء لأبي نعيم ٢ : ١٤٩

(٣٤) - الجوهري ٢ : ٣٧٢

(٣٥) - الجوهري ٢ : ٣٣٩

وأقدم هذه الرسائل تنسب إلى الحسن بن علي بن أبي طالب ، ويقال إنه أرسلها إلى أهل البصرة ، وقال فيها (٣٦) : « من لم يؤمن بالله وقضائه وقدره فقد كفر ، ومن حمل ذنبه على ربه فقد فجر . إن الله لا يطاع استكراما ، ولا يعصى لغلبة ، لأنه المليك للملوكهم والقادر على ما أقدرهم عليه . فإن عملوا بالطاعة لم يحل بينهم وبين ما فعلوا . وإن عملوا بالمعصية فلو شاء حال بينهم وبين ما فعلوا . فإذا لم يفعلوا فليس هو الذي أجبرهم على ذلك . فلو أجبر الله الخلق على الطاعة لأسقط عنهم الثواب . ولو أجبرهم على المعاصي لأسقط عنهم العقاب . ولو أمهلهم لكان عجزا في القدرة . ولكن فيهم المشيئة التي غيبتها عنهم . فإن عملوا بالطاعات كانت له المنة عليهم ، وإن عملوا بالمعصية كانت له الحجة عليهم » .

ويرى الناظر في هذه الرسالة أنها توجه ههما الأكبر إلى إقامة الدليل العقلي على حرية الإرادة البشرية مع الإيمان بقضاء الله وقدره ، دون كبير التفات إلى الرأي المخالف ، ومحاولة تفنيده . ولذلك تختفي فيها السمات الجدلية بعض الاختفاء وتظهر بعض السمات الوعظية شيئا من الظهور . فنجد في عبارتها إحكاما ، وفي ألفاظها انتقاء ، وفي أسلوبها سعيا وراء التجويد يصل إلى قليل من السجع الخفيف .

وأما الرسالة الثانية فنسب إلى عبد الله بن عباس ، ويقال إنه أرسلها إلى من يقولون بأن الإنسان مجبر من أهل الشام ، وقال فيها (٣٧) : « أتأمرون الناس بالثقوى ويحكم ضل المتقون ؟ ، وتتهون الناس عن المعاصي ويحكم ظهر العاصون ، يا أبناء سلف القتاتلين ، وأعوان الظالمين ، وخزان مساجد الفاسقين ، وصغار سلف الشياطين ، هل منكم إلا مقتري على الله يحمل إجرامه عليه ، وينسبها علانية إليه ؟ . »

ويرى قاري هذه الرسالة - منذ النظرة الأولى - ذلك السجع الغالب عليها ، الذي قد يجلي مكانه للازدواج . ويرى فيها الجميل متوازنة توازنا موسيقيا سهله الترادف الذي اعتمدت عليه . ويرى الرسالة خالية من الجدل بالرأي ، وإنما هي سب وتوبيخ لأعمالهم دون محاولة لاقتناعهم بطلانها .

وأما الرسالة الثالثة فمنسوبة إلى الحسن البصري - أستاذ وأصل بن عطاء رأس المعتزلة القائلين بحرية الإرادة - ويدافع فيها عن هذه الحرية . وقد استهل الحسن رسالته بإبانة موقف الصحابة من المشكلة ، وامتناعهم عن الخوض فيها ، واضطراره هو إلى ذلك الحديث بسبب خوض الناس وإنكارهم القدر ، قال (٣٨) : « وقد أدركتنا السلف الذين قاموا لأمر الله ، واستنوا بسنة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فلم يظلو حقا ، ولا أخطوا بالرب تعالى إلا ما أخطئ بنفسه . . . ولم يكن أحد في السلف يذكر ذلك ولا يجادل فيه ، لأنهم كانوا على أمر واحد . وإنما أحدثنا الكلام فيه لما أحدث الناس النكرة له . » .

ثم أخذ الحسن يفند أقوال المجبرة بالآيات القرآنية فقال : « فافهم - أيها الأمير - ما أقوله ، فإن ما ينهى الله عنه

(٣٦) الجهمرة ٢ : ٢٧

(٣٧) الجهمرة ٢ : ٢٨

(٣٨) الجهمرة ٣ : ٢٣٣

فليس منه ، لأنه لا يرضى ما يستخطه من العباد ، لأنه تعالى يقول : (ولا يرضى لعباده الكفر) فلو كان الكفر من قضائه وقدره لرضى عن عمله . . .

ولو كان الأمر كما قال المخطئون لما كان لتقدم حمد لما عمل ، ولا على متأخر لوم ، ولقال تعالى : (جزاء بما عملت أبديهم) ولم يقل (جزاء بما كانوا يعملون) . .

إن أهل الجهل قالوا : إن الله يفضل من يشاء ويهدي من يشاء . ولو نظروا إلى ما قبل الآية وما بعدها ، لتبين لهم أن الله تعالى لا يفضل إلا بتقدم الفسق والكفر لقوله تعالى : (ويضل الله الظالمين) أي يحكم بضلالهم ، وقال : (فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم) ، (وما يفضل به إلا الفاسقين) . .

فلا سب ولا شتم في الرسالة غير تسميته للمخالفين بأهل الجهل والمخطئين والمخالفين لكتاب الله ، ولكن هذا كله لا يعادل ما جاء في رسالة ابن عباس . وإنما نجد فيها أسلوبا جدليا بسيطا ، يعتمد على البراهين المأخوذة من الآيات القرآنية .

وأما الرسالة الرابعة فتنسب إلى عمر بن عبدالعزيز وتبتعد بعض الاعتماد عن الرسائل السابقة في تخفيفها القول بحرية الإرادة . وقد أرسلها إلى جماعة كذبوا بالقدر فقال لهم (٣٩) : « فإنكم كتبتم إلى بما كنتم تستترون منه قبل اليوم ، في رد علم الله والخروج منه إلى ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتخوف على أمته من التكذيب بالقدر . . . »

ثم يأخذ في مناقشتهم مبتعدا عن الشتم ومستعينا بالأدلة القرآنية فيقول : « وإنكم ذكرتُم أنه بلغكم أبي أقول : (إن الله قد علم ما العباد عاملون ، وإلام هم صائرون) فأنكرتم ذلك عليّ ، وقتلتم : (إنه ليس يكون ذلك من الله في علم ، حتى يكون ذاك من الخلق) . فكيف ذلك كما قلتم ، والله تعالى يقول : (أنا كاشفوا العذاب قليلا إنكم عائدون) يعني عائدنين في الكفر . وقال تعالى : (ولوردوا لعادوا لما نهوا عنه ، وإنهم لكاذبون) .

ويناقشهم بالأدلة العقلية في قوله : « وزعمتم بجهلكم أن علم الله تعالى ليس بالذي يضطر العباد إلى ما عملوا من معصيته ، ولا بالذي صدهم عما تركوه من طاعته ، ولكن بزعمكم (كما علم الله أنهم سيعملون بمعصيته ، كذلك علم أنهم يستطيعون تركها) ، فجعلتم علم الله لغوا ، تقولون : ولو شاء العبد لعمل بطاعة الله ، أن كان في علم الله أنه غير عامل بها . ولو شاء ترك معصيته ، وأن كان في علم الله أنه غير تارك لها ، فأنتم إذا شتمتم أصبتموه ، وكان عليا . وإذا شتمتم ردعتموه ، وكان جهلا . وإن شتمتم أحلثتم من أنفسكم علما ليس في علم الله ، وقطعتم به علم الله » .

ويستنبط الأدلة من الأخبار والآثار فيقول : « أن الله لم يجعل فضله ورحمته هَمَلا بغير تَسَمٍ منه ولا اختيار ، ولم يبحث رسله باطل ما كان في سابق علمه . . . فسميتم نفاذ علم الله في الخلق حيفا ، وقد جاء الخبر (أن الله خلق آدم ، فنثر ذريته في يده ، فكتب أهل الجنة وما هم عاملون ، وكتب أهل النار وما هم عاملون) .

ويتبين لنا من هذا أن رسالة ابن عباس انفردت بالاعتماد على الشتم ، ولجأت بقية الرسائل إلى الجدل . فأعتمدت رسالة الحسن بن علي الأدلة العقلية ، ورسالة الحسن البصري على الأدلة القرآنية . أما رسالة عمر بن عبد العزيز فتمثل قمة الجدل في العصر الأموي ، إذ توسع رقعة الأدلة فمن قرآنية إلى عقلية إلى أخلاقية . وبدو جهد الثاني والتحرير في رسالتي الحسنين أكثر مما يبدو في رسالة عمر . وتتفرد رسالة ابن عباس بالصنعة . لذلك كله فإني أميل إلى الشك في الرسالة الأخيرة ، وأشم منها رائحة سياسية مذهبية ، تناصر الشيعة ، وتهاجم الأمويين .



وقد منحنا العصر الأموي كثيراً من الرسائل الرسمية ، التي تتناول كل شئون الدولة في السلم والحرب ، وعند استتباب الأمن وانتشار القلاقل .

وإذا أمكن لنا أن ندعي أن رسائل العصور السابقة كانت بعيدة كل البعد عن الفن ، فإنا لا نستطيع أن نزع ذلك عن رسائل هذا العصر ، لأنها تلفت ما حدث في أواخر عصر الراشدين من تطور ، وصقلته وثمته ، فكانت منذ مطلع العصر في طريقها إلى الفن فالذروة الفنية الأولى في آخر العصر ، غير أنها لم تسلك جميعها درباً واحداً ، بل تشعبت بها المسالك الفرعية نحو الغاية الفنية ، وارتاد بعضها أكثر من مسلك .

وأود أن أبدأ بالمسلك الذي أخذت رسائل عصر الراشدين تسير فيه من قبل ، أعني به الأسلوب التصويري ، المعتمد على التجسيد والتشخيص والرمز : فإنه يتجلى منذ عهد مبكر . قال يزيد بن معاوية في رسالته إلى أهل المدينة يتوعدهم^(٤٩) : « وإني - والله - قد لبستكم فأخلقتكم ، ورفعتكم على رأسي ، ثم على عيني ، ثم على فمي ، ثم على بطني ، وأيم الله ، لئن وضعتم تحت قدمي لأطانكم وطأة أقل بها عددكم ، وأترككم بها أحاديث ، تنتسج أخباركم مع أخبار عاد ونمود » . فقد صور فيها إكرامه لهم ، وسعيهم فيما يحيط من قلوبهم عنده إلى أن بلغوا أدنى درجة ، ولم يبق إلا أن يسحقهم سحقاً فلا يبقى منهم بقية .

ولم تسر رسالة يزيد وحدها في هذا المسلك بل تابعتها فيه عدد من الرسائل مثل رسالة الحجاج وإلى العراق قبيل وفاته إلى الخليفة الوليد بن عبد الملك التي قال فيها :^(٥٠) « فقد كنت أرى غنمك ، أحوطها حياطة الناصح الشفيق برعية مولاه . فجاء الأسد فبطش بالراعي ومزق المرعى كل ممزق » .

ولكن المسلك الجديد حقا في هذا العصر ، والذي سارت فيه أعداد تفوق غيرها من الرسائل هو الاطالة . فالعربي في عصوره الأولى كان شغوفاً بالإيجاز ، غير أنه في أواخر عصر الراشدين أطال رسائله التي ناقشت فيها الفرق بعضها بعضاً . وجعل الرغم من ذلك لم يظهر الاطئاب الحق إلا في عصر الأمويين ، حتى صرح الطبري^(٥١) بأن عمرو بن نافع - كاتب عبيد الله بن زياد - أول من أطال الكتب . ولم تغف هذه الظاهرة عند حد بل أخذت في النمو حتى بلغت مبلغاً بعيداً في أواخر العصر الأموي . فقل إن عبد الحميد الكاتب كتب رسالة استوعبت مجاميع ضخمة من

(٤٩) الجهمرة ٢ : ٨٦

(٥٠) الجهمرة ٢ : ٩٩٢

(٥١) التاريخ ٢ : ٧٧٠

الصحف . (٤٣) فإذا شككتنا في هذا القول فليدنا رسالة عبد الحميد إلى ولي عهد مروان بن محمد ، (٤٤) التي يعلمه فيها نظم الحكم ، وتشغل خمسين صفحة من كتاب جمهرة رسائل العرب ، وذلك دليل كاف على الاطالة .

وقد فتحت لهم الاطالة الباب للعناية بصدور الرسائل ، وخاصة التحييدات . فقد اعتاد الرسول - صلى الله عليه وسلم - أن يبدأ رسائله بتحמיד قصير بسيط مثل قوله في رسالته إلى أهل هجر (٤٥) : « بسم الله الرحمن الرحيم - من محمد النبي إلى أهل هجر ، سلم أنتم ، فاني أحمد اليكم الله الذي لا اله الا هو . أما بعد ، فاني أوصيكم . . » . والتزمت الرسائل بعده هذا التحميد ، غير أنه بقي على بساطته هذه بل عبارته نفسها طيلة عصر الخلفاء الراشدين وسنين من العصر الأموي ، ثم شرع في التغير . فطال شيئاً عند كاتب المهلب الذي قال : (٤٦) الحمد لله الكافي بالاسلام فقد ما سواه ، المجل النعمة لمن يغاه ، الذي حكم بأن لا ينقطع المزيد منه ، حتى ينقطع الشكر من عباده . أما بعد . . » وازداد طولاً واعتناء عند غيره من الكتاب .

ثم جاء عبد الحميد فجعله موضع عنايته الخاصة ، ووفر له كل القيم الفنية التي عرفتها كتابته ، فوصل به إلى صورته التي عرفت عنه ، وخاصة تحميدات الفتوح ، حتى ظن بعض المؤرخين (٤٧) خطأ أنه أول من استعمله . قال عبد الحميد في أحد تحميداته : « الحمد لله العلي مكانه ، المنير برهانه ، العزيز سلطانه ، الثابتة كلماته ، الشافية آياته ، النافذ قضائه ، الصافي وعده ، الذي قدر على خلقه بملكه ، وعز في سماواته بعظمته ، ودير الأمور بعلمه ، وقدرها بحكمه ، على ما يشاء من عزه ، مبتدعاً لها بانثائه إياها ، وقدرته عليها ، واستصغار عظيمها ، نافذاً إرادته فيها ، لا تجري الا على تقديره ، ولا تنتهي الا إلى تأجيله ، ولا تقع الا على سبق من حتمه . كل ذلك بلطفه وقدرته وتصريف وحيه ، لا معدل لها عنه ولا سبيل لها غيره ، ولا يعلم أحد يخفاها ومعادها الا هو ، فانه يقول في كتابه الصادق (وعنده مفتاح الغيب لا يعلمها الا هو ، ويعلم ما في البر والبحر ، وما تسقط من ورقة الا يعلمها ، ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس الا في كتاب مبين) »

ونستبين في هذا التحميد خصائص أسلوب عبد الحميد من موازنة بين الجمل ، وازدواج ، وسجع ، ومشاكلة ، مما وفر له تنغييا لا تحطئه أذن ، إضافة إلى الطول الواضح .

وبرز السجع فوضح في بعض الرسائل واختفى من بعضها ، كما تؤكد لنا الأمثلة السابقة ولكن يجدر بنا الوقوف الخاص في موطنين . الموطن الأول عند رسائل المختار بن أبي عبيد الثقفي ، التي غالت في السجع ، وسعت وراءه

(٤٣) شرح العيون لابن ليثة ١٢٨

(٤٤) الجمهرة ٢ : ١٠٦

(٤٥) الجمهرة ٢ : ٥

(٤٦) الجمهرة ٢ : ١٦٤

(٤٧) مرجع الذهب للمسعودي ٣ : ١٧٨

(٤٨) الجمهرة ٢ : ٤٧٠

سعبا حشيشا ، حتى التزمته ، كما نرى في رسالته الى سليمان بن صرد بعد محاربه عبيد الله بن زياد ، قال : «^(٤٩) فان الله أعظم لكم الأجر ، وحط عنكم الوز ، بمقارفة الفاسطين ، وجهاد المحلين . انكم لم تنفقوا نفقة ، ولم تقطعوا عقبة ، ولم تخطوا خطوة الا رفع الله لكم درجة ، وكتب لكم بها حسنة . . »

وعلة هذا الالتزام نجدها عند المؤرخين الذين رووا أن المختار أراد أن يحيط نفسه بجو ديني خاص ، دفعه الى أن يحاكي الأسلوب القرآني حينا ، وأسلوب كهان الجاهلية حينا آخر .

والموطن الثاني الذي نشأ فيه السجع عند عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث . روى الدينوري ^(٥٠) أنه خرج على الحجاج ثم أمر كاتبه ابن القرية أن يكتب رسالة مسجعة يعرفه فيها سوءفعاله ، ويخلع فيها طاعته . فافتتح رسالته بقوله : « سلام على أهل طاعة الله وأوليائه ، الذين يحكمون بعقله ، ويفون بعهده ، ويجاهدون في سبيله ، ويتودعون لذكوره ، ولا يسفكون دما حراما ، ولا يعطلون الرب أحكاما ، ولا يدرسون له أعلاما ، ولا يتكبرون النج ، ولا يرمون السي ، ولا يسارعون في الفبي ، ولا يدللون الفجرة ، ولا يتراضون الجورة ، بل يتمكنون عند الاشتباه ، ويتراجعون عند الاساءة . أما بعد . . » فرد عليه الحجاج ردا مسجوعا .

فإذا صححت هاتان الرسالتان - اللتان أشك فيهما شكاً قويا - قلنا ان السجع وجد المناخ المناسب له كل المناسبة في الأوساط الدينية خاصة عند الشيعة ، والأوساط الحربية وقت الانتصارات خاصة . فغلب على رسائلهم غلبة جليلة ، ولم يفسح موضعه الا للزادواج .

وأخيرا انفراد يحيى بن يعمر العدواني - كاتب يزيد بن المهلب - بمسلك خاص لم يشاركه فيه غيره . فقد يمم نحو الاغراب ، فاعترف من الالفاظ النادرة التي لا تغرب علينا وحلنا بل غربت على معاصريه من الفصحاء . قيل انه كتب الى الحجاج ينيته بأحد الفتح التي حازها يزيد فقال ^(٥١) « اتا لقينا العدو ، فقتلنا طائفة ، ولحقت طائفة برائث الأودية ، واهضام الغيطان . وبتنا بمعركة الجبل ، ويات العدو يحضيه » . فلما أتت الرسالة الى الحجاج أعجب بها ، وسأل عن كاتبها ثم استدعاه للمداكرته .



وقد أثمر أدب المراسلات ، وخاصة المراسلات الرسمية ، أول مدرسة فنية في النثر العربي ، هي مدرسة سالم مولى هشام ، التي نعرف من تلاميذها ابنه وخته عبد الحميد بن يحيى . وقد تفوق عبد الحميد على أستاذه ، واستطاع أن ينتج أدبا فنيا رائعا ، حمل الخصائص الفكرية واللغوية التي بيثتها ، وصيغته بالتنسيق المنطقي والتنظيم الموسيقي ، وتقدمت به الى غاية لم يبلغها نثر عربي قبله مما جعل الأدباء يقولون : « بدت الكتابة بعبد الحميد . . » . وهو قول لا

(٤٩) الجمهرة ٢ : ١٣٢

(٥٠) الأخبار الطوال ٣٣٣

(٥١) الجمهرة ٢ : ٢٠٣

يصح ألا إذا فهمنا منه أن عبد الحميد استطاع أن يتمثل السمات الفنية التي تجلّت في الكتابة قبله ، وكانت نتيجة تطور طويل ، ثم يحسن إبرازها في أدبه ، إلى جانب ما جاء به من ابتكاره من سمات .



وتبقى نظرة لا بد أن تلقى على فن أدبي خاص ، غير أنه من ثمار فن المراسلات ، أعنى فن التوقيعات فقد ألف الخلفاء والولاة أو كتابهم أن يردوا على بعض الرسائل التي تصل إليهم في جمل حاسمة ، امتازت بالابحاز الشديد ونالت إعجابا متزايدا على مر الزمن . وحملت الاسم الذي ذكرته ، يكتبونها على الرسائل نفسها .

وأقصر ما وجدت من التوقيعات التي عثرت عليها في العصر الأموي ذلك التوقيع الذي كتبه زياد بن أبيه إلى من نظم إليه والفتح بحقه ، وألفه من فعل وضميره إذ قال : (٥٢) « كُفَيْت » . والحق أن توقيعاته بلغت الغاية في القصر ، (٥٣) مثل توقيعه في رسالة متظلم آخر : « أنا مملك » ، وفي رسالة سارق : « القطع جزاؤك » .

وطال كثير من التوقيعات فتألف من جملتين ، مثل توقيع عبد الملك في رسالة الحجاج التي شكّا فيها أهل العراق ، قال : (٥٤) « أبى لهم لحوما ، يعقدوا بها شحوما » ، وطال بعضها إلى ثلاث جمل ، مثل توقيع مروان بن محمد إلى ابن هيرة : (٥٥) « الأمر مضطرب ، وأنت ناظم ، وأنا ساهر » .

واستقى كاتبو التوقيعات عددا كبيرا منها من القرآن الكريم . كتب زياد بن أبيه إلى سعيد بن العاص يخطب إحدى بنياته ، فوقع على رسالته : (٥٦) « كلا إن الإنسان ليطغى » ، أن رآه استغنى » .

واستقروا عددا منها من الشعر . وقع عبد الملك بن مروان في رسالة من ابن الأشعث فقال : (٥٧) « فسا بال من أسمى لأجبر عظمه حفاظا ، وينرى من سفاهته كسرى »

وأدخلوا بعضها من الأمثال . وقع معاوية بن أبي سفيان في رسالة من عبد الله بن عامر يسأله أن يهبه مالا بالطائف (٥٨) : « عش رجبا ترى عجبا »

(٥٢) الجهمرة ٢ : ٥١ .

(٥٣) الجهمرة ٢ : ٥٠٠ - ٥١ .

(٥٤) الجهمرة ٢ : ٩٣ .

(٥٥) الجهمرة ٢ : ٩٨ .

(٥٦) الجهمرة ٢ : ٩٢ .

(٥٧) الجهمرة ٢ : ٩٤ .

(٥٨) الجهمرة ٢ : ٩١ .

واعتمدوا في بعضها على التاريخ . وقع معاوية في رسالة ارسلها اليه عبد الله بن عامر - من بني حبيب بن عبد شمس - يعاتبه فيها (٥٩) : « بيت أمية في الجاهلية أشرف من بيت حبيب في الاسلام ، فأنت تراه » .

ووجدت توقيعاً مأخوذاً من الحديث الشريف . وقع زياد ابن أبيه في رسالة محبوس (٦٠) « التائب من الذنب كمن لا ذنب له » .

وأهم خاصة في التوقيعات القصر والايجاز كما رأينا . وعندما نتأمل فيما وصل إلينا من توقيعات أموية نجد السمة التالية السجعة ، مثل توقيع عبد الملك في رسالة من تظاهر له بالصيحة : (٦١) : « ان كنت صادقاً أثبتك ، وان كنت كاذباً عاقبتك ، وان شئت أقتلك » .

ويتجلى فيها توازن الجمل وتشاكلها ، مثل توقيع يزيد بن معاوية في رسالة مسلم بن زياد والي خراسان (٦٢) : « قليل العتاب يحكم مرائر الاسباب ، وكثيره يقطع أواخي الانتساب » .

كما يتجلى فيها الطباق والمقابلة أحيانا ، كما نرى في التوقيع السابق ، وفي توقيع هشام بن عبد الملك في رسالة أحد المتظلمين : (٦٣) « أنك الغوث ان كنت صادقاً ، وحل بك النكال ان كنت كاذباً ، فتقدم أو تأخر » .



(٥٩) الجريدة ٧ : ٩١

(٦٠) الجريدة ٧ : ١٠٢

(٦١) الجريدة ٧ : ٩٣

(٦٢) الجريدة ٧ : ٥٢

(٦٣) الجريدة ٧ : ٩٧

(المراجع)

أحمد زكي صفوت : جبهة رسائل العرب في عصور العربية الزاهرة - مصطفى الباي الحلبي وأولاده بمصر ١٩٧١ .

الجهشياري : الوزراء والكتاب - تحقيق الأستاذ مصطفى السقا بالاشتراك

الحسن البصري : رسالة القدر - مخطوطة بدار الكتب المصرية رقم ٥٢٢١ أدب .

د . حسين نصار : نشأة الكتابة الفنية في الأدب العربي - مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٦ .

الدينوري : الأخبار الطوال - ليدن .

ابن سعد : الطبقات الكبرى - طبع اوريا .

السيد عبدالحفي بن عبدالكبير الحسني الكتاني : الترتيب الادارية والعمالات والصناعات والتاجر والحالة العلمية التي كانت على عهد تأسيس المدينة الاسلامية في المدينة المنورة - طبع الرباط .

الطبري : تاريخه - طبع اوريا .

ابن عديده : العقد الفريد - طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر .

ابو الفرج : الأغاني - طبع دار الكتب المصرية .

الغالي : الأمالي - طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر .

الغفلسندي : صبح الأعشى في صناعة الانشا - طبع دار الكتب المصرية .

أبو نعيم الأصبهاني : حلية الأولياء - طبع الخانجي .



نستطيع أن نقول في مستهل كلامنا وحين أن يجانبنا الصواب إن من تربع على عرش أدب المراسلات في الفترات التي ازدهر فيها خلال كل مراحل التاريخ ثلاثة أسماء عظيمة هي السياسي والخطيب الروماني « شيشرون » ، والأدبية الفرنسية « مدام دوسيفينييه » ، والنابليوس الفرنسي « فولتير » ولم ير هذا النوع من المكتاتبات الأدبية رواجاً وازدهاراً أكثر مما رآه في القرن السابع عشر فقد أحس الأدباء بميل القراء والجمهور لهذا الأسلوب الأدبي فاستقلوه وتبنوه واتبعوه في أعمالهم لأنه كان يتميز بتمكين الكاتب من التطرق الى كافة الموضوعات التي يريدها وذلك بحرية تامة ، كما لاقي هذا الأسلوب رواجاً كبيراً أيضاً خلال القرن الثامن عشر .

وقبل أن نبدأ في دراسة أدب المراسلات في القرنين السابع عشر والثامن عشر وهو موضوع بحثنا نجد أن من الواجب علينا أن نميز بين نوعين من المراسلات : النوع الأول وهو المراسلات الشخصية التي تتمثل في الرسائل والخطابات التي بعث بها كاتب شهير الى أصدقائه ومعارفه وأحبائه وتناول فيها بقلمه كافة الموضوعات ، أما النوع الثاني من المراسلات فهو الأعمال الأدبية التي كتبت على صورة خطابات واصطلاح على تسميتها الرسائل الروائية ، أو الرواية في صورة رسائل ، وهي عبارة عن خطابات متبادلة بين شخصيات الرواية وكل شخصية لها أسلوبها المميز الذي أراده لها الكاتب ويتابع القاري مسار أحداث الرواية من خلال هذه الخطابات .

أدب المراسلات في فرنسا في القرنين السابع عشر والثامن عشر

ضاحي محمد شيعه

أستاذ الأدب الفرنسي المساعد بكلية الآداب جامعة الاسكندرية

ولقد كان الأدب الفرنسي في القرنين السابع عشر والثامن عشر زاخراً بالأمثلة التي يمكن تصنيفها تحت أحد هذين النوعين . ولكن القرن السابع عشر يتميز بشيوع ووفرة النوع الأول أي المراسلات الشخصية فنجد أن

معظم الكتاب الكبار في هذا القرن قد تركوا وخطفوا للتراث الأدبي رسائل ترجع قيمتها الأدبية الى أننا نجد فيها الكاتب في صورة انسان بما يعتره من مشاعر وأحاسيس وليس باعتباره كاتباً ومؤلفاً للقراء ، ونسوق على سبيل المثال رسائل الشاعر المسرحي « راسين » ، والشاعر الناقد « بوالو » ، والمؤرخ والمفكر « بوسويه » . إلا أننا نجد أن الغالبية العظمى من كتاب هذا النوع من الرسائل المتميزين بأسلوبهم كانوا من المنتمين الى طبقة المجتمع الراقي ولم يكونوا من المنتمين الى فئة الكتاب أو الأدباء بمعنى الكلمة بالإضافة الى أن معظمهم كانوا من النساء : مثل مدام « دي مونتوسيه » ابنة الماركيزه « دي رومبويه » صاحبة الصالون الأدبي الشهير ، و « مدام » « دي سابليه » ، و « مدام » « دي سكوديري » ، و « مدام » « دي لا فاييت » .

وترجع أهمية هذه المراسلات الشخصية الى ما فيها من رقة ومشاعر جميلة وذكاء بالإضافة الى الكثير من المعلومات الثمينة التي تحتويها عن بعض المواقف والأحداث والشخصيات والتي لا يمكن أن نجدها في أي موضوع آخر غيرها مما يجعلها بحق أداة مكتملة لما وود في كتب التاريخ والحضارة الانسانية .

بالطبع لن يسمح لنا حجم هذا المقال أن نتناول بالحديث المسهب كل كتاب الرسائل الشخصية ولكن دون أن نسبب احباطاً للقاريء ، وبدون أن نبخس الموضوع حقه سنكتفي بالمعالجة المستفيضة لأعمال ثلاثة منهم اعتبرهم التاريخ الأدبي أمثلة يجتذى بها وهم :

« جيزدي بلزاك » ، و « فواتير » ، و « مدام » « دي سيفينييه » .

يعتبر « جيزدي بلزاك » أكبر مؤسس لفن النثر في القرن السابع عشر ، وتتميز فترة شبابه بالقيام بالعديد من الأسفار التي عاد منها ليعيش في شبه عزلة على أرضه المسماة باسم عائلة بلزاك والتي تقع على مسافة قريبة من مدينة انجوليم ، وهناك كرس كل وقته للمراسلات وعمل بجهد ونشاط بالغ مما أهله للحصول على لقب كاتب مراسلات فرنسا الأكبر ، وهو اللقب الذي أطلقه عليه النقاد فيما بعد ويعود الفضل الى هذه الرسائل في تربع بلزاك على عرش الأدب خلال معظم القرن السابع عشر .

توالت اعتباراً من عام ١٦٢٤ طبعات رسائل بلزاك وقد تضمنت موضوعات متنوعة مثل السياسة والأدب وعلم الأخلاق وقد قال عنها الناقد الفرنسي الشهير « لانسون » انها « خاوية لأنها تتكون في أغلب الأحوال من أفكار معروفة أخذها بلزاك من أعمال القدماء أو أعمال آباء الكنيسة » ^(١) كما اعتبرها المعاصرون منذ ظهورها « بياناً بالزعات العصرية » ^(٢) ويرجع السبب في ذلك الى أن هذه الرسائل كانت تعبر عن عدم الاكتراث بالقدماء فاستغل اعداء بلزاك هذه النقطة لولمه على ثورته ضدهم .

Gustave L'ANSON, Histoire de la Littérature (+) Française, Paris, Hachette, 1953, p. 167.

(١)

Antoine ADAM, L'âge classique, t 1, (1624-1660), Paris, Arthaud 1968, 367 p. 100.

(٢)

ومن الواضح فعلاً أن بلزاك كان يمتدح « راکان » RACAN لأنه استطاع أن يبرهن « أن اللغتين اللاتينية واليونانية أصبحتا بغير فائدة في فرنسا » ، كما أنه ليس مضطراً لأن يتبع قوانينهم وأمثلتهم ، وكانت أفكار بلزاك الأساسية متفقة تماماً مع أفكار حزب العصريين . ومثلما فعل سانت أمان SAINT-AMANT^(٣) وجودو GODEAU^(٤) ، وأوجييه OGIER^(٥) كان بلزاك يدافع أيضاً عن الفكرة القائلة بأن هدف العمل الفني هو المتعة ، ورفض أيضاً مثلهم فكرة التقليد وكذلك كان يلجأ إلى العقل مثلهم ، العقل والتفكير وهو شيء واحد عند جميع الشعوب ، وهو الذي ينير بنفس النور العقول الكبيرة عندما يطلب منها أن تتكلم عن نفس الموضوعات^(٦) .

أرسل بلزاك خطابه إلى كل كبار الشخصيات في عصره ولكن معظمها كانت مرسلة إلى شابلان وكونراد اللذين كان باستطاعتهم أن يتذوقا وأن يساعدا الناس على تذوق أسلوبه . وقد أوجز المعاصرون وصف أسلوب بلزاك في كلمة واحدة هي اللباقة أي فن الحديث . وفي الواقع لم تكن رسائل بلزاك رسائل تلقائية أو مكتوبة على عجل ، بل كانت رسائل مدروسة بعناية وكل كلمة ودعت بها تم انتقالها بعد جهد وتفكير عميق .

ويمكننا أن نقول ببساطة إن القيمة الحقيقية لرسائل بلزاك ترجع أساساً إلى أسلوبه القوي والمؤثر الذي حاز إعجاب جبل الشباب في عصره واستحق نقد مؤيدي إحياء الآداب الكلاسيكية وغيرهم ممن وصفهم بالمتحذلقين ويذهب بعض مؤيدي بلزاك إلى حد القول بأن فرنسا قد وضعت أسس علم البيان والبلاغة في عصره .

يعتبر فواتور VOITURE استاذاً هو الآخر لفن المراسلات في القرن السابع عشر . وقد اكتسب شهرة أولاً لكونه استاذاً للشعر الرقيق الذي ساد فرنسا اعتباراً من عام ١٦٤٠ .

تعرف فواتور على المركز دوراميوبي في عام ١٦٢٥ ومنذ ذلك الوقت أقام في بيت الركيزة الشهيرة وأصبح شغله الشاغل هو تسليية المركز والترفيه عنها وعن أصدقائها الكثيرين الذين كانوا يجتمعون عندها في صالونها الأدبي . وفي الواقع إن فواتور كانت لديه مواهب أخرى كثيرة تؤهلها لأن يلعب دوراً أرفع من دور الأنيس المتواضع ، فقد كانت لديه معلومات كثيرة عن الأدب القديم والأدب الإيطالي والأدب الإسباني كما كانت لديه أيضاً فكرة كبيرة واضحة عن الروايات والأعمال الأدبية القديمة ولكنه على الرغم من ذلك كرس كل وقته وجهده للقيام بلور أنيس المركزية وأصدقائها وأبدع تماماً في القيام بهذا الدور .

كان فواتور موهوباً حقاً فقد كان شاعراً رقيقاً للغاية والأكثر من ذلك كاتباً عظيماً للمراسلات ولقد اختلف

(٣) سانت أمان شاعر فرنسي ولد في مدينة دوان عام ١٥٩٤ وتوفي عام ١٦٦١ .

(٤) جودو كان اسقف مدينة جراس وشاعر فرنسي من رواد صالون مدام (دي رامبويه) .

(٥) أوجييه شاعر من رواد صالون مدام دي رامبويه .

A. ADAM, op. cit. p. 101.

أسلوبه في كتابة الخطابات عن أسلوب بلزاك ولكنه اشترك معه في كتابتها لكي تقرأ على الملأ في المجتمعات الراقية والصالونات الأدبية وكان يرسل خطابه إلى شخصيات توليه برعايتها أو يرسلها إلى أصدقائه له التقى بهم في بيت المركزه دي رامبويه ويقدر عدد هذه الرسائل بما يقرب المائتين ، وقد تم جمعها بعد وفاته بفضل ابن اخته بنشان .

إن رسائل فواتير تعيد إلى الذاكرة نوع الرسائل المسمى برسائل الحياة الخاصة فهو في رسائله لا يأبه برأي الأجيال القادمة من بعده ، والأكثر من ذلك إنه لم يكن ينتظر من الرسائل أو من أسلوب المراسلات بصفة عامة تحقيق أي نجاح اجتماعي معين فقد حقق ذلك بالفعل بفضل موهبته وبراعته في القيام بدور الأليس في بيت المركزه ، ومن ناحية أخرى لم تكن له تطلعات أدبية وهذا ما يبدو غريباً بالنسبة لرجل عادي لا ينحدر من أصل نبيل .

لقد لاحظت الباحثة ميشيلين كوينان في مقالها المنشور في مجلة تاريخ الأدب الفرنسي تحت عنوان « الرسالة المربية لرقعة الشعور : مثال فواتير » :

« إذا بحثنا في مجموعة مراسلاته عن أي تلميح عن الحياة الأدبية المعاصرة فلن نجد شيئاً »^(٧) .

لكن يجدر بنا قبل كل شيء أن نذكر أن فواتير كان يمقت الرسائل المعدة بعناية ودراسة والتي يبذل كاتبها فيها جهداً عظيماً في محاولة منه لإتقان أسلوبها ، فجنده يكتب إلى الكونت دافو معبراً عن رأيه عن هذا الموضوع بوضوح :

« باسم الرب ، أكتب إلى » بدون إتقان ، لكي تكتب لي بسعادة ، وكلمني في رسائلك بنفس البساطة مثلما تفعل عندما تكلمني وأنت في حجرتك (. . . .) »^(٨) .

لقد كان فواتير يكتب رسائله وفقاً للأحداث التي مرت به وشغلت فكره وملأت حياته الخاصة ووجدانه وحياة عائلته بالتي في منزل المركزه دورامبويه وهي باختصار الغراق ، والأحزان ، والأفراح المشتركة والتهاني أو المواساة التي كانت تفرضها عليه صداقاته العديدة . كما تمتاز أيضاً بمجموعة رسائل فواتير بأن كاتبها كان دائماً يتخيل شخصية من يكتب إليه رسالته ، كما أنه نجح في جعل هذه الشخصية الفريدة بالنسبة له شخصية حية ماثلة دائماً بالنسبة لنا ويمكن أن نحس بها من خلال كتاباته . ومن بين الشخصيات التي أرسل إليها رسائله العديد من النساء ذوات المكانة المرموقة في المجتمع نذكر منهن على سبيل المثال أخته مدام دي كمبانيول التي كان دائماً يحذوها عن تربية ابنتها ، وكذلك مدام دي لوج التي كان يقدح عليها المديح والثناء والاطراء المبالغ فيه . كما كان فواتير على اتصال مستمر صيفاً وشتاءً بمجموعة من النساء المرموقات التي كن يظنن أكثر نساء فرنسا جمالاً وذكاءً وحسباً ونسباً وشرفاً .

Micheline CUENIN, "La Lettre educatrice de la Sensibilité : L'exemple de Voiture" in Revue d'His- (٧) toire littere de la france, nov. dec 1978, p. 922 a 933, p. 325,

Voiture, Lettres Editions originales 1650 p. 514.

(٨)

وتعتبر مراسلات فواتور كما لاحظت الباحثة ميشلين كوينان « المجال المفضل للصدقة »^(٩) وكان يبدو جلياً من مراسلاته أنه يعرف جيداً شخصية وطباع من يرسل إليه وهذا ما جعل منه استاذاً في اللواسة والمديح على السواء ، ومن ثم نراه يخاطب كل شخص بالأسلوب الذي يعلم أنه يتفق مع طباعه . فعلى سبيل المثال كان فواتور مغرمًا بسيدة تدعى جولي دينجان ولكنه كان يعلم أنه سوف يخلص حياته إذا اعترف لها بحبه صراحة ولهذا كان يلجأ الى اتباع أساليب أخرى للخروج من حالة التمزق التي ألقت به فقد كان من ناحية يشعر بالتماسة والوحدة وهو بعيد عنها ومن ناحية أخرى كان يعلم أن من المحال أن يعترف لها بسبب تعاسته بصراحة لأن السيدة التي كان يرسلها لا تريد أن يصارحها بمشاعره ويحا يمحش في صدره ويحقق له قلبه فماذا يفعل للخروج من هذه الورطة ؟ . . . كان يكتب عواطفه ويلجأ الى التهكم والمزاح .

وتقول ميشلين كوينان في ذلك : « كان لزاماً عليه أحياناً عندما كان محرمًا عليه أن يعبر عن مشاعره التي تفيض بالحُب أن يلجأ الى أسلوب المزاح وأن يتهكم على نفسه . ولهذا كان تهكم فواتور تكميلاً غير قاس لأنه كان موجهاً الى نفسه أولاً »^(١٠) .

ومهما يكن من شيء فإن مراسلات فواتور الشخصية لم تخرج كل عن أن تكون مجرد مراسلات رجل مغمم بالحيرة بدرجة كبيرة ومتمكن للغاية من لغته ولديه قدرات هائلة على التفكير وإبداع الأسلوب .

أما الاسم الثالث الذي لم يجذب الاضواء في عالم أدب المراسلات في القرن السابع عشر فهو اسم مدام دي سيفينييه Madame de SEUIGNE فقد حظيت رسائلها بشهرة كبيرة وأصبحت منذ البداية مثلاً يحتذى به وقدره يقتدى بها .

لكن دعنا أولاً نسأل من هي مدام دي سيفينييه وما هي الأحداث التي مرت بها وأدت الى أن تصبح واحدة من أعظم نساء عصرها شهرة في عالم الأدب ؟

للإجابة على هذا السؤال نقول إنها ماري دو رابوتان شنتال التي أصبحت بعد زواجها المميزه دو سيفينييه ، وكانت تنتمي من جهة أبياً الى أكبر وأعرق العائلات في مقاطعة بورجوندي . ولدت ماري دو رابوتان في باريس يوم ١٦ فبراير ١٦٢٦ في القصر الذي كانت تقطنه عائلة كولونج ، وهي عائلة أمها وبه قضت كل سنوات طفولتها وعندما بلغ عمرها ثمانية عشر شهراً مات أبوها ثم مات أمها وهي في السابعة من عمرها فكفلها جدوها حتى بلغت العاشرة ولما وافته المنية تولى تربيتهما خالها فيليب دو كولونج فعاشت الفتاة في جو مليء بالحياة والمرح معه وذات كل أنواع التذليل والسعادة .

M. CUENIN, p p cit, p. 326.

(٩)

Ibid. p. 931.

(١٠)

تربت ماري تربية دينية في طفولتها واهتم أهلها اهتماما خاصا بتعليمها أصول المعيشة في المجتمع الراقي مع عدم إهمال الناحية الفكرية في نفس الوقت وكان ذلك على أيدي استاذين مشهورين ، فقد كان شابلان ثم مناج استاذتها المفضلين ، وقد أكسبها الاول حب الشعر والادب وتذوقها وعلمها الشافي اللغة الايطالية واللاتينية وقليلًا من الاسبانية .

عندما بلغت ماري الثامنة عشرة من عمرها تم زواجها من المركز هنري دو سيفينييه الذي كان يعرف بطبعه الهوائي المتقلب ، ولم تستطع زوجته الشابة على الرغم من محاسنها المتعددة أن تحتفظ به بجانبها . وبعد سنتين من الزواج أنجبت مدام دو سيفينييه ابنة اسمتها فرانسواز - مارجريت التي أصبحت منذ اليوم الاول لولادتها محبودة والدتها وفي نفس الوقت سبب قلقها وتعباتها . ثم رزقت مدام دو سيفينييه بعد ذلك بمولود اسمته شارل ، وفي عام ١٦٥١ تزل زوجها في مبارزة مع أحد النبلاء وقد تأملت زوجته كثيرا لوفاته على الرغم من الحياة المضطربة وغير المستقرة التي كانت تحياها معه .

بعد هذا الحادث بدأت المركيزة الارملة في توزيع وقتها بين الإقامة في باريس حيث كان صالونها يحظى بشهرة كبيرة ويؤمه كثير من الشخصيات العظيمة ، وبين قصرها المسمى « بي روشيه » أي الصخور حيث كانت تعيش حياة رغدة ولكن قليلة التكاليف .

وعندما كبرت ابنتها تم تقديمها الى البلاط الملكي وكانت تتمتع بنفس صفات أمها من الحسن والذكاء ، ورغم ذلك تأخرت في زواجها حتى عام ١٦٦٩ عندما بلغ عمرها الثالث والعشرين عاما وكان زوجها هو الكونت دي جرينيان الذي كان قد تجاوز الأربعين من عمره وتوفيت زوجته الاولى تاركة له ابنتين كبيرتين . لم يكن الكونت هو الزوج المثالي للابنة التسعة فقد كان ايضا قبيح الشكل ومثقلا بالديون ، ومما زاد في تعاسة الام انها كانت تمنح أن يحصل زوج ابنتها على وظيفة في البلاط الملكي حتى يتمكن من ابقاء ابنتها بجوارها ولكن لسوء الحظ عين الكونت دي جرينيان بعد شهر من الزواج في وظيفة بمقاطعة البروفانس . فتحايلت مدام دو سيفينييه بشق الوسائل على ابقاء ابنتها بجوارها والعمل على تأخير سفرها لكي تلحق بزوجها ، فتحججت تارة بمرض ابنتها وتحججت تارة أخرى بحملها وخوفها على جنينها . ولم تسافر مدام دو جرينيان لتلحق بزوجها الا في شهر فبراير من عام ١٦٧١ . وكان لهذا الحدث الفضل في خلق احدي روائع الادب الفرنسي ليس في القرن السابع عشر فحسب ولكن على مر العصور ! ونعني بذلك رسائل مدام دو سيفينييه الى ابنتها ، اذ لم تكن الابنة تفارق أمها حتى بدأت الاخيرة تعاني من الوحدة وتقاسي من آلام الفراق فبدأت في الكتابة الى ابنتها وقلقة كيدها تنبش الشوق والحزن « كلما بحثت عن ابنتي لا أجدها ، وكل خطوة أخطوها تبعدها عني » . . . وهكذا تنضح لنا من أولى رسائلها الفكرة الاساسية التي سوف تسود كل مراسلاتها وسوف تشغل بالها قرابة ربع قرن الا وهي فكرة الشوق والحزن للابنة العزيزة الغائبة . ولكي تغلب الام على شعور الملل والحزن الناتج عن الفراق ، ولكي تبقى قريبة من ابنتها رغم المسافة التي تفصل بينهما ولكي ترفه عنها أيضا في غربتها بدأت مدام دو سيفينييه في ارسال الخطابات اليومية التي تتضمن اخبار البلاط الملكي وأنباء المدينة وكل ذلك مصحوب بتعليقاتها الطريفة وآرائها المتنوعة .

وإذا قمنا نظرة شاملة على مجموعة رسائل مدام دو سيفينييه الشهيرة يمكننا أن نقول أنها أولاً وقبل كل شيء عبارة عن قصة حياة إنسان ، فيها تجسد أمامنا مدام دو سيفينييه ذاتها بصفاتها الشخصية الفريدة ذات الحساسية والذكاء والميل إلى التذوق كل مباحح الحياة . لقد كانت تشعر نحو ابتها بنوع من الحب الجارف الذي يغمر كيانها لدرجة أنها كانت تشعر أحيانا وهي السيدة التي تربت تربية دينية قوية أنها تعطي لابنتها مكانة في قلبها أكبر مما تعطي لله خالقها فصارت بعض القساوسة بهذا الشعور فلاموها على ذلك فالحب كله لله وحده .

وإذا اعتبرنا هذه الرسائل مجرد وسيلة تقوم بتعريف شخصية الكاتبة أو أنها ترسم لنا صورة لمشاعرها وأحاسيسها نكون قد ارتكبنا خطأ جسيما وبخسناها حقها بدرجة كبيرة .

فقد كانت لهذه الرسائل قيمة أكبر من ذلك وأخلد وهي القيمة التاريخية فقد كانت تمثل قصة مجتمع بأسره إذ أن هذه الخطابات لعبت في الفترة من عام ١٦٥٥ وحتى عام ١٦٩٦ دور الجريدة التي تحكي وتنتشر كل حادثة صغيرة وكبيرة عاشتها العاصمة باريس ويزيد من أهمية هذه الجريدة أن محررها ليس مجرد كاتب بسيط يسجل ما يصل اليه من أخبار أو قصص لم يعشها في الواقع بل أن كاتبها سيدة تنتمي إلى البلاط الملكي حيث تولد الأخبار . فكلما عادت من قصر اللوفر أو قصر فرساي أو سان سير حيث كانت تحاطل أفراد الأسرة المالكة وأحيانا تتحدث مع الملك نفسه ، وكلما عادت من إحدى سهراتها في أكبر صالونات العاصمة حيث تقابل أشهر نساء عصرها ، كانت مدام دو سيفينييه تكتب لابنتها وتقص عليها ما رأت وسمعت ولا يمكن أن ندعي بأنها كانت تشرح أسباب الحروب وتكشف الأسرار السياسية ولكننا نقول أن كل التفاصيل التي وردت في رسائلها من محاكمة فوكيه أو عن مشروع زواج اخت الملك لويس الرابع عشر التي كانت تعرف باسم الأنة الكبيرة وعن موت توران TURENNE وكوندي CONDE ولوفوا LOUVOIS تعتبر مكمله لما جاء في كتب التاريخ ولما ورد أيضا في مذكرات سان سيمون فهي تقص كل شيء بأسلوب يفرض بالحيرة .

كما نجد أيضا في رسائل مدام دو سيفينييه نشر أخبارية لما كان يجري في المجتمع . فعلى مر الأيام وبقراءة رسائلها عدة مرات نستطيع أن نتصور كيف كان الناس يعيشون في العاصمة باريس وفي الريف وما هي الموضوعات التي كانت تشغل بال الناس ويتبادلون الحديث عنها ، كما نجد فيها أيضا تعليقات وآراء لكثير من الناس ونقدمهم أيضا للكتاب والأعمال الأدبية الجديدة ، وما كان يجري في المسارح وكيف كان الناس يسافرون من مكان لآخر ، وكيف كانت تتم مراسم الزواج ، وكيف تنجح في كسب قضية ما أو تنجح في عقد صفقة تجارية . وما يعطي هذه الرسائل قيمة كبيرة أيضا أنها كانت صادرة من سيدة تكتب خواطرها حسيا تتوارد إلى ذهنها دون التقيد بالتفكير في رأي الأجيال اللاحقة وحكمهم على الكاتبة ، وكما هو الحال في معظم مراسلات القرن السابع عشر ، نجد في رسائل مدام دو سيفينييه الكثير من الآراء والتعليقات التي تخص الأدباء والأعمال الأدبية وهذه الآراء والتعليقات لها أهمية كبرى لأنها تعطينا فكرة عن التذوق الفني والأدبي لدى سيدة متعلمة ذكية من سيدات القرن السابع عشر وانطباعاتها عند قراءة أي عمل أدبي دون الاستناد إلى معايير وقوانين معينة مثلما يفعل النقاد الرسميون .

ومن الطريف أن نذكر أن مدام دو سيفينييه تحمست بشدة لبعض الكتاب والأعمال التي لم يكتب لها الدوام فيما بعد مثل روايات مدموازيل دي سكوديري ، ولاكبروناد LACALPRENEDE كما نلاحظ شغفها بأعمال فواتور ونيقول وجيها العظيم لكورنيي CORNEILLE والكتاب والفيلسوف الشهير باسكال والاسقف والمؤرخ بوسويه والكتاب لافونتين وقد عبرت عن حبها لهم وأعجابها بهم وتذوقها لأعمالهم بعبارات واضحة تدل على الفهم الدقيق والاحساس الفني السليم .

لقد كانت مدام دو سيفينييه تقضي جزءا كبيرا من وقتها في بيتها (لي روشي) في مقاطعة بريتاني فقد كانت تحب هذه المنطقة للغاية وتشارك أهلها أفراحهم وأحزانهم وكانت تشعر بقسوة الحياة التي يجيها فقراء هذه المنطقة الذين كانوا يشنون من وطأة الضرائب التي فرضها عليهم الملك والتي تتزايد كل عام وفي عام ١٦٧٥ اندلعت الثورة في مدينة ران ووصلت حتى ابواب لي روشي ولقد واجهت الدولة هذه الثورة بإجراءات ردة عنيفة للغاية . وإذا قرأنا رسائل مدام دو سيفينييه نجد صدى لهذه الأحداث الاليمة التي عاصرتها . . ولأول وهلة قد يشعر القاريء بشيء من الحرج ويشعر بأن مدام دو سيفينييه كانت تستخف بهذه الأحداث ويجدها تتكلم بعدم اكتراث عما اسمته « أعمال الشق » ولكن القراءة المتعمقة توضح لنا وجود كلمات تعبر عن شعورها الحقيقي ومشاركتها أحزان السكان الفقراء فمثلا نجدها تكتب قائلة :

« إني أشارك المنطقة كلها حزنها وتعاستها » وفي رسالة أخرى تؤكد انتماءها لبلدتها قائلة : « هانذا أجد نفسي انتمي فعلا لمقاطعة بريتاني » .

يبدو عدد كبير من رسائل مدام دو سيفينييه وكأنه إجابات متتالية على أسئلة وموضوعات كان قد استفسر عنها مراسلوها وفي مقدمتهم ابنتها مدام دي جرينيان ، كما أن الكثير منها أيضا لا يمكن أن يعتبر إجابة أو ردا على سؤال بل كان نوعا من الحوار يدور بين الكتابة وبين نفسها أو تفكيرها عميقا في موضوع يشغل بالها فدوته وأرسلته الى أحد مراسليها .

في يوم من أيام شهر إبريل من عام ١٦٩٦ أصيبت مدام دو سيفينييه أثناء إقامتها عند ابنتها بمرض الجدري وماتت في يوم ١٧ إبريل . وقد أبدت عند احساسها بدنو نهايتها شجاعة وتقبلا لقضاء الله وقدره بصورة لم تكن متوقعة من هذه السيدة التي تخاف كثيرا وتفكر كثيرا في يوم الحساب ، فعندما كانت في الخامسة والأربعين من عمرها كتبت في إحدى رسائلها قائلة : « ماذا سوف يكون موقفي مع الله ؟ ماذا سوف أقدم له ؟ هل سوف يساورني احساس آخر غير الخوف ؟ هل أنا جديرة بالجنة ؟ يا لها من احتمالات محيرة ! »^(١١)

لقد لاقت رسائل مدام دو سيفينييه رواجاً كبيراً ونالت إعجاب الناس جميعاً . . . وأثناء حياتها كانت هذه الخطابات تتداول بين معارفها واصدائها وكانوا يطلقون على كل خطاب منها اسماً خاصاً ، ففي أحد الأيام بعثت إحدى سيدات المجتمع وهي مدام دي تيانج خادمها ليحضر لها من سيده أخرى نسخة من رسالة « الجواد » نسخة من رسالة « المرعى » .

بعد وفاة مدام دو سيفينييه بعام واحد بدأ قريب لها يدعى بوسي BUSSY في نشر حوالي مائة رسالة تلقاها منها بصفتها قريباً لها . والسؤال الهام هنا هل كانت هذه الرسائل هي الرسائل الأصلية أم كانت موضع تحوير وتعديل ؟ للجاجة على هذا السؤال نقول إنه لا يمكن إعطاء إجابة محددة في هذا الشأن فالنسخة الأصلية قام بوسي بإعادتها في أغلب الظن لأن أحداً لم يعثر عليها .

وخلال عامي ١٧٢٥ ، ١٧٢٦ ظهرت في الأسواق ثلاث مجموعات من الرسائل كانت موجهة إلى مدام دي جرينيان وكانت هذه المجموعات غير كاملة ولكنها أمينة فيما يتعلق بالنص والمضمون وهذه الأمانة كانت السبب في إثارة جزع حفيدتها مدام دي سميان ودفعتها إلى محاولة تعديل بعض ما جاء في هذه الرسائل التي نشرت ولقد حرصت الحفيدة على تخفيف حدة بعض الآراء وعلى استبدال بعض الأسماء بالأحرف الأولى حتى لا يتسدى أحد إلى أصحابها الحقيقيين ، وأعطت هذه النسخة المحررة إلى قريب لها وطلبت منه أن ينشرها .

ولم تكف حفيدتها بذلك ولم تتوقف تصرفاتها عند حد فقد كانت تخشى أن تقع الرسائل الأصلية في يد إنسان فيكتشف الناس أن جدتها لم تكن على الدوام مثلاً يحتذى به في الرزانة والأتزان والأخلاق ولهذا قررت أن تزيحها . ولكن يبدو أنها أحست في اللحظة الأخيرة بوزن الضمير فتوقفت عن تزييقها وقامت بالمحافظة عليها ثم سلمتها في عام ١٧٣٧ وهي على فراش الموت لأحد أزواج بناتها وأخذت عليه المهد بالآموت قبل أن يقوم بحرقها ، وعاش هذا الرجل فعلاً قرابة نصف قرن بعد وفاة حماته وظلت الرسائل الموجودة لديه بحالة سليمة طوال هذه الفترة ، ولكن عندما أحس بقرب نهايته أمر بإحراقها . . . أما الرسائل القليلة الموجودة لدينا الآن والموجهة من مدام دو سيفينييه إلى ابنتها فما هي إلا بعض من الرسائل التي ربما نجت بمحض الصدفة من محاولات الإحراق خلال القرن الثامن عشر .

نجد من الواجب علينا في ختام كلامنا عن أسلوب مدام دو سيفينييه في كتابة هذه الرسائل أن نقول ليس لدينا أي دليل على أنها كانت تخالط رواد الصالون الأدبي الخاص بـ مدام دوروموييه أو أنها كانت تحاكي أسلوبهم في الكتابة ولحق أنها كانت اتبع أسلوباً متحلقاً ولكن هذا حدث في أحوال نادرة تماماً فقد كان أسلوبها شيقاً أنيقاً وكانت لغتها نقية تتخلل بالكلمات والتعابير الشقية التي تبذع في الوصف وتثير الخيال في نفس الوقت . ولقد كانت المركبة دو سيفينييه حريصة كل الحرص على أن تؤكد أن مجموعة رسائلها ليس عملاً أدبياً مدروساً . وكانت تقول إنها تركت لغتها العنان ليدون كل ما يجول بخاطرهما من أفكار وأحاسيس ولهم وتثير إعجاب أفراد عشيرتها والطبقة التي تنتمي إليها وإنها تقدم لهم مرآة تعطيهم صورة أمينة لحياتهم .

من بين الاعمال الروائية التي ظهرت خلال الفترة ما بين عام ١٦٦٠ وعام ١٦٨٠ عمل يستحق أن يمنح مكانة خاصة وهو العمل الذي عرف باسم « الرسائل البرتغالية » فهو عمل لا يشبه أي عمل روائي آخر ، وقد حازت هذه الرسائل إعجابا كبيرا منذ نشرها وأثارت مشاعر مليئة بالحزن والتأثر . وبما أدى الى زيادة الاهتمام بها الغموض الذي صاحب ظروف كتابتها ونشرها ، وإلى يومنا هذا تثير هذه الظروف وهذا الغموض العديد من التساؤلات وتدعو إلى القيام بالابحاث في محاولة للوصول إلى الحقيقة .

وفي مستهل عام ١٦٦٩ أصدرت دار النشر « بريان » كتابا من حوالي مائتي صفحة تحت عنوان يجذب الانتباه وهو « رسائل برتغالية مترجمة للغة الفرنسية » وقد قدم الناشر هذا الكتاب إلى القراء مدعيا أن الرسائل الخمسة التي تكون في مجموعها هذا الكتاب أن هي في الواقع الا مجموعة رسائل حقيقية أرسلتها راهبة برتغالية إلى رجل من نبلاء فرنسا وقال أيضا « انني لا أعرف اسم الشخص الذي أرسلت اليه ولا اسم الشخص الذي قام بترجمتها » وردا على هذين التساؤلين ظهرت طبعة أخرى في مدينة كولون بعد فترة وجيزة من ظهور طبعة بريان تقدم بعض التوضيحات مؤداه أن الشخص الذي أرسلت اليه هذه الرسائل هو فارس يدعى شاميي CHAMILLY والمترجم هو كويريك CUIller-AQUES وكان شاميي هذا فارسا معروفا وقد مات في عام ١٧١٥ بعد أن وصل إلى منصب مارشال فرنسي ، أما للمترجم فقد أخطأ الناس في كتابة اسمه لأن اسمه الحقيقي هو : جويريك Guillr RA Gues وليس كويريك .

وفي بداية القرن التاسع عشر عثر الباحثون على ورقة تلقي بعض الضوء على اسم الراهبة وهو ماريانا الكوفورادو وانها كانت تنتمي إلى دير يقع في مدينة بيجا . وعلى الرغم من هذا ترددت شائعات اعتبارا من عام ١٦٦٩ مؤداه أن الناشر كان يكذب ويخدع القراء وان هذه الرسائل في واقع الامر من نسج خيال كاتب فرنسي ، وقد قام هذا الادعاء بناء على عدم توافق وانسجام ما جاء في هذه الرسائل وما عرف أيضا عن الراهبة المذكورة .

إذا قرأنا هذه الرسائل المسماة بالرسائل البرتغالية لوجدنا أنها كلها تدور حول بعض الموضوعات المألوفة والشائعة مع اجراء بعض التعديلات عليها في التعبير مما جعلها تكتسب بعض السمات الموسيقية .

كانت هذه الموضوعات تدور حول الافراح والاحزان التي تصاحب الحب ، وقسوة ورقة الذكريات ، والثورة على الحياة ثم الاستسلام لما جاء به القدر ، والتعاطف والتعالي في الحب إلى آخر هذه الموضوعات والأفكار المألوفة في أي قصة حب . وإذا حاولنا أن نمرر فيها عن أي تفاصيل تدلنا على أنها قصة حقيقية أو أي إشارة إلى ظروف خاصة لصاحبة القصة فاننا لا نجد شيئا .

والاكثر من ذلك أنها تدفع القاريء إلى أن يتساءل في عجب كيف استطاع هؤلاء الاحبة أن يتغلبوا على المصائب والعقبات التي لا بد أن تكون قد اعترضت طريق حبهم وما هي الاساليب التي اتبعوها للتحايل على مشقة الحياة في الدير ؟ .

إن قراءة الرسائل لا تجمعنا نعر على أي إشارة تساعدنا على الإجابة على هذه الأسئلة بل على العكس من ذلك فهي تظهر لنا وكأن غرامهم كان مستقيماً هادئاً يسير بلا عقبات أو عوائق . وكل ما يمكننا الجزم به في الواقع هو احتمال حدوث قصة حب بين ضابط فرنسي وراهبه برتغالية . . . وربما كان هذا الضابط هو شامي نفسه الذي خدم في البرتغال في الفترة ما بين عام ١٦٦١ وعام ١٦٦٨ وبين الراهبة البرتغالية التي كان منها يتراوح في ذلك الوقت بين واحد وعشرين وثمانية وعشرين عاماً أوريجيا سمع جويراك عن هذه القصة واستوحى فكرتها ليكتب هذه الرسائل الخيالية التي لاقت رواجاً عظيماً وشغلت الأذهان فترة طويلة وما زالت إلى يومنا هذا .

إذا نظرنا إلى أدب المراسلات في القرن الثامن عشر نجد أنه قد ازداد رواجاً بالمقارنة بأدب المراسلات في القرن السابع عشر ، وقد استخدم الكثير من الكتاب هذا الأسلوب في صياغة أعمالهم الأدبية فمثلاً من بين أعمال فولتير التي لاقت نجاحاً ساحقاً العمل المسمى « الرسائل الانجليزية » أو « الرسائل الفلسفية » الذي ظهر في عام ١٧٣٤ . ثم تفنن الكتاب وتباروا فيما بينهم في صياغة الروايات ذات العقدة المحبوبة والمعدة في صورة مراسلات ، فظهر العديد من الأعمال التي اتخذت هذا الأسلوب سبيلاً لها في محاكاة من كاتبيها للكاتب الفرنسي الشهير مونتسكيو في عمله الشهير المسمى « الرسائل الفارسية » الذي يعد بحق من أهم الأعمال الأدبية التي ظهرت في القرن الثامن عشر من أدب المراسلات إلى جانب أعظم روايتين وهما « العلاقات الخطيرة » و « هيلويز الجديدة » وكلتاهما تمت صياغتهما في صورة رسائل أدبية .

حما سبق يمكننا أن نستنتج أن هذا النوع من الأعمال الأدبية لم يكن جديداً أو مستحدثاً في هذا القرن ولكن أخلاق هذا العصر والحياة التي كانت سائدة في مجتمعه كانت من أهم أسباب رواجها ولذلك عندما فكر مونتسكيو في كتابة عمله المسمى « الرسائل الفارسية » اتخذ هذا الأسلوب ويبدو هذا الأمر طبيعياً لأن بعض شخصيات روايته أقاموا في باريس والبعض الآخر كان ينتقل بين فينيسيا وباريس ؛ وكما يقول اتيمبل : **ETIEMBLE**

« يبدو أن الرسالة هي الحل الأمثل إن لم يكن الحل الوحيد وكذلك يبدو أنها الوسيلة الأكثر فاعلية لإعادة تكوين وحدة المكان التي يمزقها السفر والتنقل »^(١٢)

من أهم مميزات هذا الأسلوب أنه يوفر للكاتب قدراً أكبر من الحرية في الانتقال من موضوع إلى موضوع دون التقيد بأي قيد وذلك في محاولة منه لتوصيل أفكاره وانطباعاته للقاريء على مر الأيام وفقاً للأحداث التي تأتي بها الظروف أو حوادث الصدفة وحدها .

وتدور فكرة « الرسائل الفارسية » حول اثنين من أهل فارس هما ريكا واسبك حضرا إلى باريس ليقضيا فيها بعض الوقت لدراسة عادات وتقاليدهم أهل هذا البلد ومن باريس أخذاً يبعثان إلى ذويهم وأصدقائهم في فارس انطباعاتهم ومشاهدتهما .

وقد حرص مونتسكيو في مقدمة الكتاب على أن يؤكد صحة روايته وصدقها وحقيقة وجود هذين الشخصين في الحياة الواقعية ومقابلته لها فقال :

« ان هذين الرجلين الفارسيين اللذين يكتبان هنا كانا يسكنان معي ، وكنا نقضي حياتنا سويا وبما انهما كانا يعتبراني شخصا ينتمي الى عالم آخر فقد كانا لا ينفيان عني شيئا وكانا يعطيناني معظم رسائلهما لكي اقرأها وكنت انقلها .

« لقد استطعت ان اختلس بعض الرسائل التي كانا يريدان إخفاءها عني ، لانها كانت تسيء لكرامة وغيره اهل فارس فمهمتي اذن تقتصر على قيامي بدور المترجم » (١٣)

ان أول سؤال يخطر ببالنا هو من اين اتى الكاتب بفكرة الرسائل الفارسية ؟ فنجد ان الرد قد ورد في اول رسالة حيث كتب اسبلك قائلا : « ربما كنت انا وريكا أول أناس من أهل فارس يتركون بلادهم بحثا عن المعرفة ويستمتعون عن حلالة الحياة الهادة للسفر بحثا عن الحكمة » (١٤)

ربما كانا فعلا أول من سافر من اهل فارس ولكنها بالقطع لم يكونا أول من سافر وتجول بحثا عن المعرفة لاننا نجد اناسا سبقوا في هذا المضمار فمثلا في كتاب « المشاهد » لمؤلفه ادسون وكتاب « الجاسوس » لما رانا ، نجد اشخاصا تركوا بلادهم وقاموا بالاسفار لثل هذا الغرض واعطوا هم أيضا وصفا دقيقا لعادات أهل البلاد التي قاموا بزيارتها .

نستطيع أن نؤكد من جانبنا أن مونتسكيو كان قد قرأ اعمال من سبقوه ووجد فيها فكرة المقارنة بين العادات الفرنسية وعادات وتقاليد بلاد اخرى وبعد هذا الاسلوب اسلوا سهلا ولكنه اسلوب ذكي للنقد ومعارضة كل الامور التي لا يرضى عنها الكاتب في بلاده ولا يستطيع ان يجاهر فيها برأيه ويعلنه على الملأ فليجأ إلى الحيلة ويجعل نقده يأتي على لسان الغريب الذين يدهشون لما يرون من صور الفساد المتفشى في البلاد الغريبة . وهكذا صب مونتسكيو جام نقده اللاذع على عادات واساليب المعيشة السائدة في فرنسا كما هاجم بشدة النظام السياسي والاقتصادي والاجتماعي في رسائله الفارسية .

لكن ماذا كان رأي مونتسكيو في معاصريه من بني وطنه ؟ للجاجة على هذا السؤال نقول انه كان يرى ان فترة الوصاية تعد فترة اضطراب وانعدام توازن رهيب في حياة الامة بالنسبة للناحية الاخلاقية وقد تبين وجهة النظر القائلة بأن المواطن الفرنسي المعادي الذي كان يعيش في عام ١٧٢١ كان كل همه وشغله الشاغل الهدم والتخريب بدلا من البناء

MONTESQUIEU, les lettres Persanes, preface.

(١٣)

MONTESQUIEU, les lettres persanes, lettre 1.

(١٤)

والتشديد . وترجع المسؤولية في وجود هذا الخطأ الجسيم الى رجال السياسة الذين تخلوا عن اتباع الاساليب السياسية الامنية التي أوصاهم بها فنلون FENELON واتبعوا بدلا منها اساليب ميكافيلية دنية . وفي هذا العالم الاخلاقي المملوء بالفساد اعتبرت النساء أسوأ ما فيه لأنهن كن يتدخلن في سياسة البلاد ويقمن بحماية ومساندة الرجال الذين يقومون بلعب دور الدون جوان وليس الرجال الذين تتوفر فيهم المؤهلات والكفاءة والصفة الحميدة وهذا ما يكتبه اسبك في الرسالة رقم (٤٩) .

« ما رأيك في بلد مثل هذا البلد ، الذي توصل فيه الخيانة وعدم الأمانة والسرقة والكر والظلم الى أعلى المراكز ؟ » (١٥) .

ان هذا الشعب المشغول بلهوه والمنغمس في ملذاته الى أقصى الحدود ليس لديه أي وعي سياسي ، وهو بوضعه هذا يهدد الطريق للنظام الاستبدادي المطلق .

وجاء نقد مونتسكيو للنظام السياسي في فرنسا على صورة لاذعة قاسية فيقول أسبك لو مونتسكيو ان نظام الملكية ليس الأن نظام القوة المتضاربة . ويبقى الملك في الحكم لأنه يستغل سلطته المطلقة وأي محاولة للثورة عليه محكوم عليها بالفشل .

وضرب مونتسكيو مثلاً للحرية السياسية بالحرية السياسية السائدة في النظام الانجليزي حيث يربط العرفان بالجميل الشعب بالملك وإذا كلف الملك عن القيام بدور المصلح بالنسبة للأمور التي تخص شعبه انقطعت الصلة بينهما ويحصل الشعب على حريته الطبيعية .

كما انتقد مونتسكيو بالمثل النظم الدينية التي كانت سائدة في عصره ، فهاجم البابا ووصفه « بالساحر » وبتهكم على بعض رجال الدين الذين دفعوا الناس بسبب تصرفاتهم السيئة الى تفسير مبادئ الدين تفسيراً خاطئاً .

وصب مونتسكيو جام غضبه على العلاقات الفاسدة التي تربط بين أعضاء الأسرة الواحدة وفي رأيه أن الفساد المتفشي في المجتمع أثر تأثيراً ضاراً بروابط الأسرة التي أصبحت مفككة للغاية - يمكننا أن نقدر أهمية هذه الرسائل وخطورتها في ذلك العصر ، اذا تصورنا أنه من خلف قناع الشخصيات الأجنبية أصبح بمقدور مونتسكيو أن يعبر عن أخطر العقائد السياسية والاقتصادية وبناء على ذلك يمكننا أن نقول بدون أي مبالغة ان « الرسائل الفارسية » لم تكن إلا المقدمة الحقيقية لمؤلفه الكبير : « روح القوانين » L'Esprit deslois .



كان فولتير كاتباً آخر من أشهر كتاب القرن الثامن عشر وقد خلف لنا أعمالاً يمكن ادراجها ضمن أدب المراسلات ، فهو من ناحية ترك لنا مايربو على عشرة آلاف رسالة شخصية ومن ناحية أخرى كتب الرسائل الانجليزية التي تعتبر من أشهر الأعمال الأدبية التي تمت صياغتها في صورة خطابات .

إذا كان فولتير قد كتب ما يزيد عن عشرة آلاف رسالة فإن الرسائل التي لم تنشر له بعد تفوق هذا العدد - وما يدعو الى الدهشة ان هذا العدد الضخم من الرسائل كان موجهاً الى ما يزيد على سبعمائة مراسل ويرجع تاريخ أول رسالة بعث بها فولتير الى عام ١٧١٣ وكان وقتئذ قد بلغ من العمر تسعة عشر ربيعاً . . أما آخر رسالة بعث بها فكانت بتاريخ ٢٦ مايو من عام ١٧٧٨ أي قبل وفاته بأربعة أيام فقط ، أي أنه استمر في ارسال الخطابات على مدى خمسة وستين عاماً ولم يمر يوم تقريباً دون أن يرسل فيه فولتير خطاباً أو أكثر .

أما بالنسبة لقائمة الأشخاص الذين كان يرسلهم فولتير فهي قائمة طويلة ومتنوعة ، فنجد فيها اشخاصاً من جميع الجنسيات ينتمون الى جميع الطبقات والمستويات فمنهم الملوك والعلماء والفنانون . البعض منهم لم يرسل له فولتير إلا خطاباً قصيراً - أما البعض الآخر فكان بينه وبينهم مراسلات كثيرة ومتعددة ، ومن بين هؤلاء الأصدقاء الذين كان يكتب اليهم عن الموضوعات الأدبية الكتاب الناشئون أو المعجبون الذين كانوا يرسلونه فيبث اليهم بآرائه ونصائحه ومن بين هؤلاء هلفيوس ، وفوفناراج ، ولاهارب ، وسان لمار ، وكندروسميه .

ان أهم الرسائل التي بعث بها فولتير هي تلك الرسائل التي كان يكتب فيها مدافعاً عن فكرة أو قضية ما ، أو تلك الرسائل التي يبحث فيها بأوامر أو تعليمات محددة والتي يمكن أن نطلق عليها اسم رسائل الكفاح . هذا بالإضافة الى رسائل أخرى كانت تحمل الى صاحبها نقداً لاذعاً أو ردّاً صريحاً بلا جمالة مثل الرسائل التي بعث بها فولتير الى روسو أو باليسو وعلى الرغم من تعدد الشخصيات التي كان فولتير يرسلها فقد كان حريصاً على أن يتخاطب كل واحد منهم وفقاً لدرجة ثقافته ومكانته الاجتماعية ومهنته ، وبناء على هذا يمكننا أن نصف مراسلات فولتير بأنها كانت أكبر موسوعة لأفكار العصر . لقد كان أدب المراسلات بشكل بالنسبة لفولتير الأسلوب الأمثل الذي يتفق مع فكره وعقله وموهبته التي تألفت وبرزت في هذا النوع من الكتابات القصيرة أكثر مما تألفت في الأعمال الأدبية الطويلة وتعد مجموعة رسائله بحق من أكبر روائعه . والقاريء الذي يرغب في معرفة فولتير على سجيته وطبيعته وفي أنقى صورة يجب عليه أن يبحث عن بقيته في هذه المراسلات .

كتب فولتير أيضاً نوعاً آخر من المراسلات هي ذلك العمل المعروف باسم « الرسائل الانجليزية » أو التي تعرف أحياناً باسم « الرسائل الفلسفية » والسؤال الآن هو متى وكيف فكر فولتير في كتابة هذه الرسائل ؟ ولماذا سميت بالرسائل الانجليزية بالذات ؟ هذا ما سوف نقوم بالإجابة عليه في الصفحات التالية باذن الله .

في عام ١٧٢٦ كان فولتير قد اكتسب شهرة واسعة وحقق لنفسه مكانة أدبية كبيرة بعد أن نشر قصيدته الملحمية

المعروفة باسم « الهنرياد » La Henriade عندما وقعت حادثة كان لها أكبر الأثر في تغيير مجرى حياته بصفة عامة وكانت السبب في إقدامه على كتابة « الرسائل الفلسفية » . تلخص هذه الحادثة في أنه أجاب في يوم من الأيام إجابة تتسم بشيء من المعجزة على سؤال لأحد النبلاء هو الفارس دوروهان فجعلته يصمم على الانتقام منه ، وفعلًا تويعص له رجاله وفي ليلة مظلمة انقض رجاله على فولتير وأوسعوه ضرباً بالعصي ولكي تمنع السلطات الحاكمة فولتير من محاولة الانتقام لنفسه من روهان سجنته في سجن الباستيل أولاً ثم استجابة لطلب قدمه نفته إلى إنجلترا وكان ذلك في شهر مايو ١٧٢٦ .

وأثناء إقامته في إنجلترا كتب فولتير هذه الرسائل التي تعتبر أول قنبلة موجهة ضد النظام الحاكم ، وهكذا بدلاً من أن يكون المنفى تأديباً وتهذيباً وعقاباً لفولتير تحول في الواقع إلى فرصة أتاحت له العثور على اسلحة جديدة يحارب بها معركته الأدبية والفلسفية فقد أتاحت له الإقامة في إنجلترا حرية التفكير في العديد من المسائل السياسية والفلسفية التي تتعلق بالنظام الحاكم والأفكار السائدة في فرنسا . فلأول مرة في حياته ذاق طعم الحرية السياسية والدينية وعرف أهميتها وقيمتها للإنسان الذي يجب أن يعبر عن رأيه .

وعندما عاد فولتير إلى فرنسا مرة أخرى بعد أن قضى في المنفى عامين ونصف عام ادعى أنه انتهى من كتابة رسائله هناك ولكي يؤكد هذا الادعاء جعل رسائله مؤرخة بتاريخ واقعة بين عامي ١٧٢٧ - ١٧٢٨ في محاولة منه لنفادي أي عقاب تنزله به السلطات الحاكمة .

ويرى النقاد أن فولتير انتهى من كتابة هذه الرسائل بعد عودته من إنجلترا ، وما يجدر ذكره أن هذه الرسائل كانت اشتهرت حتى قبل نشرها ، وكان فولتير يشعر بقلق بالغ من الغضب التي سيجدها نشرها ولهذا تردد كثيراً قبل أن يصدر أمره بنشرها ، وتعتبر الظروف التي أحاطت بالنشر غريبة وطريفة في نفس الوقت وتدل على مكر ودهاء الكاتب وقد تم النشر فعلاً في عام ١٧٣٤ ، ولكن سرعان ما صدر حكم من المحكمة يأمر بأن يمزق الكتاب ويحرق بيد الجلاذ لأنه على حد قول المحكمة « فاضح ومخالف لتعاليم الدين والأخلاق الحميدة ومناف للاحترام الواجب تجاه السلطات » (١٦) .

زاد هذا الحكم من شهرة ورواج الكتاب ونلاحظ أنه على الرغم من جدية الموضوعات التي كان يدور حولها الكتاب وصعوبة الأفكار التي يناقشها فقد أعطاها الكاتب صبغة طريفة ، وتلور هذه الرسائل الانجليزية حول موضوعات مختلفة متنوعة مثل المذاهب الدينية المتعددة ، والاقتصاد ، والطب ، والعلوم الرياضية البحتة ، والأدب والشعر والأدباء قبل شكسبير وسويتس ، ويسكال .

ويتكلم فولتير في الرسائل الأولى عن أحد رجال الدين الانجليز من الكويكرز ويكتب على لسانه بعض التعليقات المنافية أحياناً لقواعد الأدب ولكنها لا تخلو من الطرافة ، فهي تتراوح بين التكلم بتوسع واسهاب في موضوع معين بغرض التعليم وبين الحكايات الظرفية والتعليقات اللاذعة وكل ذلك في أسلوب سريع لا يعطى للغاريء فرصة لكي يلتقط أنفاسه .

يقول الناقد أميل هنريو عن هذه الرسائل : « ان كل ما كتبه فولتير بأسلوب مرح في هذه الرسائل كان حكيماً للغاية ، ولهذا نحن ندهش من عنف المقاومة وشدة الأحقاد التي قوبل بها ، ويرجع السبب في الغالب الى أن حراس التقاليد الرسمية انزعجوا عندما رأوا هذا الشاب الوقع يستخدم بحرية حقّه في التفكير بصوت عال ومجاهراً بكل الأشياء التي كانت محجوبة عن النقاش العلني » (١٧) .

كانت هذه الرسائل موجّهة في الواقع ضد نظرية القدر وقد اضطر الكاتب على مضض ان يكبح جماحه ويخفف من وطأة هجومه لكي تصل رسائله الى القراء . فمثلاً نجد انه اضطر لاعادة صياغة رسالته التي تدور حول الفيلسوف لوك « لاني أريد في النهاية أن أعيش في فرنسا ، وليس مسموحاً لي أن أكون فيلسوفاً مثل الكاتب الانجليزي ، فيجب أن أخفي وأنا في باريس ما يمكنني ان أجهر به بصوت مرتفع وأنا في لندن » (١٨) .

ان من الجدير ان نتساءل عن قيمة وأهمية انجلترا في كل هذا ؟ نجيب على هذا التساؤل بأنه يبدو أن انجلترا لم تكن إلا حجة استغلها الكاتب لكتابة رسائله ، واعتبرها فرصة سانحة لتلقين فرنسا درساً قاسياً عن أفضل النظم الحكومية ، وعن الحرية ، وعن التسامح الديني ، وعن أولوية العقل . ولم يكن فولتير يتحمس ويبدى إعجابه للشديد الا بما يجده عند الانجليز ويصلح لأن يكون سلاحاً يستخدمه لهدم الأفكار والمعتقدات الفرنسية القديمة التي عُمي عليها الزمن . أما عن موضوع التعصب الديني الذي كان سائداً في فرنسا في ذلك الوقت ، فقد كتب ممتدحاً التسامح الديني السائد في انجلترا قائلاً :

« ان كان في انجلترا دين واحد وحشينا ان تتجه نحو الاستبداد وان تواجد بها اثنان ساد القتال بينهما ، ولكن يوجد في انجلترا ثلاثون ديناً وكلهم يعيشون في سلام وحب » وفي النهاية يمكننا أن نقول ان الرسائل الانجليزية تعد أول أعمال فولتير الفلسفية وانها كانت تحتوي على كل الأفكار التي طورها فيما بعد ، كما نجد فيها الأسلوب التهكمي والدعابة المرحة والنقد اللاذع الذي سوف تتميز به كل أعماله اللاحقة .



E. Henriot, op. cit. p. 153.

(١٧)

Ibid. p. 155.

(١٨)

يعتبر ديدرو DIDEROT من أهم وأعظم كتاب فرنسا في القرن الثامن عشر ويعتبر اسمه دائماً بدائرة المعارف *L'Encyclopédie* التي تمتد من أعظم ما أنجز في ذلك القرن . ولكي نحاول أن نتصور مقدار ما تكبده من عناء لإتمام هذا العمل الضخم لا يسعنا إلا أن نرجع إلى مجموعة رسائله المعروفة باسم « رسائل إلى صوفي فولان » وتعد هذه المجموعة من الخطابات من روائع ديدرو لأنه يلعب فيها الدور الأول ويظهر فيها حل حقيقة دون أي تكلف فهي حقاً بمثابة مذكرات هذا الكاتب الفذ .

لكن من هي صوفي فولان Sophie Volland وما الذي يربطها بديدرو ؟ انها امرأة عرفها الكاتب في عام ١٧٥٦ عند اختها مدام دي بلي وكان هو في الثانية والأربعين من عمره ولم تكن هي أيضاً في ريعان الشباب فقد كانت قد تجاوزت الأربعين من عمرها ولا تعلم عنها الكثير لتقدمه للفاري« بل كل ما لدينا من معلومات هو ما نجده في رسائله عندما يكلمها عن نفسها وأغلب الظن انها لم تكن جميلة ، فقد كانت ترتدي النظارات الطبية وصحتها ضعيفة كذلك ، كما يبدو انها كانت امرأة غيرة ، ونظراً لأن المائة والأربع والثلاثين رسالة الأولى اختصت غالباً بفعل صوفي نفسها التي ربما وجدها فاضحة بالنسبة لها لأن أسلوب الكاتب كان صريحاً فيها فليس لدينا إذن أي معلومات تروي بداية حبها ولكن يبدو أنه كان حياً جارفاً . والمجدير بالذكر ان هذين العاشقين الوالدين قضيا نصف حياتهما بعيداً عن بعضهما فقد كان ديدرو كثير التنقل والإقامة عند أصدقائه والمصحين بفته ، أما صوفي فقد كانت في أغلب الأحيان بصحبة والدتها التي كانت تمقت الكاتب وتبذل كل ما في وسعها لإبعاده عن ابنتها . ولكي يتغلب ديدرو على ألم الفراق والمعاناة كان يكتب إلى حبيبته يومياً ويشكك البعض كما يقول الناقد أميل هنريو « أنه بالرغم من حرارة التعبير عن الحب فقد كان في الغالب حياً بالمراسلة »^(١٩) وقد كان هذا الحب خليطاً من المشق والصداقة والاهتمام الفكري والعقلي فقد كانت « طبعاً مدموازيل فولان تتفق وهذا النوع من العلاقات كما يبدو من الخطابات .

كانت صوفي تحب الفلسفة والدراسة ويكتب ديدرو إلى صديقه جريم GRIMM عن حبيبته قائلاً :

« آه يا جريم ، يا لها من امرأة ، انها رقيقة وحسنة ومهذبة وذكية ، والمشكلة هي انني لا أدري متى ستكون سعيداء ، فهي تفكر وتحب التفكير بدرجة كبيرة »^(٢٠) .

وحيث أن مجريات الأمور لم تكن دائماً في صالح أوطوح إرادته فكان يلجأ إلى الخيال ويعلم بقصر وهي لا وجود له يستطيع أن يقيم فيه وينعم بالعيش مع معشوقته - والشيء الذي يثير دهشتنا أن رسائله كانت مليئة بالأحلام والخيال البعيد كل البعد عن الواقع رغم أن ديدرو كان بصفة عامة رجلاً يتسم بالواقعية ولكن الصراع الذي كان يعاني منه هو الذي دفعه إلى ذلك فهو يريد أن يعيش وهو بعيد عنها وكأنها موجودة بجواره وهذا ما يبدو لنا من واقع ما كتبه لها : « اني

E. HENRIOT, op. cit, p. 335 (Diderot et les lettres a Sophie Volland).

(١٩)

Ibid, p. 336.

(٢٠)

اتكلم وأنا أكتب اليك كأني بجوارك وذراعي يحيط بظهر مقعدك وكأنني اتحدث اليك . انني أحب أن أعيش تحت نظرك . . . » ونجده لا يخفى عنها شيئاً مهما كان فهو دائماً يتحدثها بصراحة تامة عن ميوله وعيوبه وأحلامه بل حتى انه كان يتحدثها عن مشاكله . وهكذا يمكننا ان نتبع خطواته يوماً بعد يوم في كفاحه المرير المتواصل الى ان تمكن من نشر الموسوعة .

ان قدرتنا على تتبع خطوات الكاتب وملاحقة تصرفاته هو ما يعطي لهذه الرسائل أهمية فائقة فكما يقول الناقد الفرنسي هنريو : « لقد كسبنا من هذه الرسائل شيئاً أكثر قيمة من أي خطابات عادية ، وأكثر قيمة من أي مذكرات فقد كسبنا أفضل ما يمكن أن يتركه لنا رجل يفيض حيوية مثله ألا وهي مذكراته اليومية ، لأنها مذكرات يومية بدون أي رباط يربطها ، ويدون جدول محدد ، وهي مليئة بالمشاكل التي تخلفها الحوادث اليومية سعيدة أم حزينة حسبما تقتضي الظروف والأحوال وهي مليئة بالأفكار وبحرارة المشروعات المتعددة ، ومليئة بالأحلام والنظريات ، مليئة بالغضب والحلم ، بالأفكار المجنونة والحماس » (٢١) .

وهكذا من خلال المجلدات الثلاثة التي تكون مجموعة رسائل ديدرو لصوفي فولان نكتمل أمامنا صورة الكاتب في جميع الأحوال والمواقف التي مرت به ، فتارة نراه سعيداً وتارة أخرى بائساً، ونجده يوماً حائقاً ويوماً آخر راضياً ، فمثلاً نراه يوماً في مدينة لاونجر بعد موت ابنه وهو يحاول ان يصلح بين أخيه وأخته ، ويوماً آخر نراه في بيته بجوار زوجته ذات الطباع الحادة وهي تحاول ان توقع بينه وبين ابنتها التي يحبها كثيراً الى درجة الجنون ، نراه يوماً يقرأ أو يحلم ، يتنزه أو يتحدث في الصالونات الراقية في باريس . وبالإضافة إلى ما سبق نرى صورة واقعية للمجتمع الفرنسي على مدى ستة عشر عاماً من عام ١٧٦٩ الى عام ١٧٧٥ ظل يرأس فيها عجبته صوفي فولان ، وهي في الواقع صورة صادقة لا تقل قيمة وواقعية عن تلك الصورة التي جاءت بها كتب التاريخ التي تصور لنا الحياة في ذلك العصر .



أما الكاتب الأخير من كتاب القرن الثامن عشر الذي نود أن نتكلم عنه في مقالنا هذا فهو الكاتب الشهير وفيلسوف الثورة الفرنسية جان جاك روسو ، وفيما يخص موضوعنا وهو أدب المراسلات فلن نتكلم عن رسائل روسو الشخصية أو عن الخطابات التي يبعث بها الى أصدقائه ومعارفه بل سوف نتكلم فقط عن عمل واحد من أهم أعماله الأدبية هو العمل المبسّم هيوليوز الجديدة (*La Nouvelle Heloise*) وهي عبارة عن رواية مكونة من مجموعة من الرسائل المتبادلة بين أبطال الرواية .

ويجدر بنا أولاً وقبل أن نتعرض لأي جانب من جوانب الرواية أن نوضح عنوانها والسبب الذي دعا مؤلفها

لتسميتها باسم « هيلويز الجديد » ؟ لقد اختار روسو هذا الاسم لروايته إشارة الى هيلويز التي كانت قد أحببت معلمها الفيلسوف ابيلار فاتخذها عشيقه له ثم تزوجها في العصور الوسطى .

ففي رواية روسو نجد بالمثل ان بطله الرواية التي تدعى جولي ديتائج تحب هي الأخرى معلمها الشاب الفقير المدعوسان برو ، ولكن الظروف الاجتماعية تحول دون زواجها فتتزوج من رجل آخر هو البارون دو فولمار الذي كان في سن والدها ولكنه واسع الثراء ، فابتعد عنها سان برو بعد زواجها وهو ناظم على القدر وعمل المجتمع وظل مسافراً لعدة سنوات حتى هدأت ثورته ، وبعد عودته أقام مع الزوجين فولمار في ضيعتها وعمل مربيةً لأولاد جولي ، ونستشف من الرسائل أن الحب القديم لم يمُت ولم تنطفئ جذوته تماماً - ولكن جولي تنجح جيداً في إخفاء ما تشعر به نحو حبيبها القديم ، وفي النهاية تموت جولي ويمشي باقي شخصيات الرواية على ذكرها . لم يسرد روسو أحداث الرواية بالطريقة التقليدية أي أن يتكلم هو شخصياً أو بأن يعطى الكلمة لأحد الأبطال ليقوم برواية قصة جولي وسان برو ولكنه فضل أن تكون جميع أحداث القصة مرتبطة فيما بينها عن طريق الخطابات التي يتراسلها الأبطال والتي يروون فيها الأحداث التي يتعرضون لها . والسؤال الهام الآن هو لماذا اختار روسو أسلوب المراسلات بالذات لكتابة روايته ؟ للإجابة على هذا السؤال نقول باختصار إن هناك عدة أسباب لذلك ، السبب الأول أن ابيلار وهيلويز كانا قد تبادلوا الرسائل في الماضي ، والسبب الثاني أن هذا الأسلوب الأدبي في الكتابة كان يلقى رواجاً كبيراً في ذلك الوقت ، أما السبب الثالث والذي قد يكون أكثر الأسباب صواباً فهو أن هذا الأسلوب كان الأسلوب الأمثل في نظر الكاتب بالنسبة للموضوع الذي يعالجه ، فالرسائل المتبادلة بين العديد من الشخصيات تتيح للكاتب الفرصة المناسبة لتقديم عدة تعليقات لموقف معين بالذات ، بقلم الذين عاصروا هذا الموقف أو الذين سمعوا عنه أو كانوا مشاهدين له . وقد ساعد هذا الأسلوب روسو على التعبير عن رأيه في أي موضوع معين مثل موضوع التقوى مثلاً بطريقة تختلف عن طريقة شرح النظريات فقد عبر عن أفكاره بإعطاء كل شخصية من الشخصيات الفرصة لإبداء رأيه فيها ، ولقد كان من دواعي سرور الكاتب أن أتاح له هذا الأسلوب أن يتقمص شخصية كل بطل من أبطاله وأن يوفر لكل بطل منهم الأسلوب الذي يلائمه ، ونظراً لأن أسلوب المراسلات كان يسمح لروسو بلعب كل الأدوار فقد كان يعني الشخصيات من التدخل في الأحداث فهذا الأسلوب هو في حقيقة الأمر عبارة عن أسلوب سرد يستبعد أي حوار بين الأبطال ويجعل زمن كل عمل يقوم به أحد أبطال الرواية هو الزمن الماضي أو المستقبل . وربما يفسر لنا هذا النوع من السرد وجود مكانة خاصة للذاكرة والخيال في سيكولوجية روسو ويقدم لنا سبباً رابعاً لاختياره هذا الأسلوب الأدبي لكتابة روايته .

أما بالنسبة للمقاريء العادي في يومنا هذا فإننا نرى أن أهمية هذا الكتاب لا تكمن في الموضوع نفسه لأن مثل هذا الموضوع لا يثير اهتمام المقاريء الحديث بل يجلب له الملل لما فيه من إطالة رومانتيكية ، وإننا تكمن أهمية الكتاب فيما يحتويه من وصف للمجتمع وخاصة مجتمع مدينة باريس ، وفي بعض الأفكار الفلسفية التي تناولها مثل فكرة الانتحار التي كانت تمثل موضوعاً حساساً للغاية في ذلك الوقت كثر الكلام فيه والكتابة عنه .

بعد ان انتهينا من استعراض ودراسة أهم الكتاب الذين اشتهروا بتفوقهم وتميزهم في مجال أدب المراسلات في القرنين السابع والثامن عشر نرى أن من الواجب لاستيفاء هذا الموضوع واستكماله ان نقوم بالتعرض لبعض المسائل والمصاعب المرتبطة بأدب المراسلات بوجه عام .

تمثل أول هذه المصاعب في المشقة المتعلقة بنشر مجلدات الرسائل ، فالناشر الذي يتولى نشر رسائل شخص ما أو أديب مشهور ، يبدأ أول ما يبدأ باستلام النسخة الأصلية التي كتبها الكاتب بخط يده ، فيجد أن هذه النسخة الأصلية تكون لسوء لحظ صعبة القراءة اما بسبب رداءة خط الكاتب أو بسبب سوء الحالة لحظة وصولها اليه لأسباب عديدة منها ما قد يكون بحسن النية ومنها ما قد يكون لغير ذلك ، فيخطيء الناشر في قراءتها وينشر بذلك رسائل محرفة مثلما حدث مع ناشر رسائل ديلرو للموازيل قولان .

أما المسألة التي ترتبط بأدب المراسلات فتتمثل خطورتها في الإضافات المتعددة المتعمدة التي قد يضيفها الناشر الى الرسائل الأصلية وأحياناً تكون هذه الإضافات قد تمت من جانب الشخص الذي وصلته الرسالة او من جانب عائلة الراسل نفسه ، وهذا ما حدث فعلاً كما ذكرنا بالنسبة لرسائل مدام دوسيفيه .

إن ما ذكرناه آنفاً يتعلق بالمشاكل التي تواجه عملية نشر المراسلات ، وبالإضافة الى ذلك نذكر ان فن المراسلات قد خضع أيضاً لعدة قواعد نحاول أن نستعرض أهمها باختصار شديد .

أول هذه القواعد هي وجوب اختيار الموضوع الذي يوافق ولائتم ويتمشى مع شخصية المرسل اليه وكذلك وينفس الدرجة من الأهمية وجوب اختيار الأسلوب الذي يوافقه مع مراعاة الظروف والملايسات التي تكتب فيها الرسالة .

وثانية هذه القواعد ان الرسالة هي الأسلوب الأمثل للتعبير عن الأمل والشكوى والأسف ولوعة الفراق والغيرة وعدم التفاهم الى آخر هذه الموضوعات العاطفية التي يصعب التعبير عنها في وجود الشخص الآخر الموجهة اليه الرسالة ، وهكذا تصبح رسالة الغرام أصعب أنواع الرسائل وأجلها وأندرها في نفس الوقت لأن من العسر العثور عليها لأنها تكون دائماً هدفاً للإخفاء بمعرفة شخص ما .

ورسالة الغرام تتميز دون غيرها من الرسائل بتوافر الوحدة والانسجام وذلك لأنها تكون موضوعاً واحداً ، وعلى الرغم من ذلك يجب أن يكون أسلوب رسالة الغرام غير منظم حتى يعبر تعبيراً صادقاً عن مشاعر وعواطف الراسل المحب الوهان واضطرابه الشديد عادة عند كتابة الرسالة ، فالاضطراب في الأسلوب يعد دليلاً قوياً على صدق المشاعر وقوة العواطف .

وثالثة هذه القواعد أن على راسل الخطابات الذي يكتب إلى اشخاص يريد أن يبههم أو يثير إعجابهم أن يكون

متمكناً من فن التلميح الذي يستلزم بدوره تمتع الكاتب بذاكرة قوية وبمعرفة تامة بالأعمال الأدبية ، فأحياناً أثناء كلام الكاتب في موضوع معين نجده يشير الى ما يتعلق بهذا الموضوع ويتصل به ويكون قد قرأه في إحدى الروايات أو المسرحيات أو القصائد الشعرية المشهورة لغيره من الكتاب ، وحول هذا الموضوع تقول مدام دو سيفينييه « ان من مصلحة هؤلاء الذين أحاط بهم أو كتب اليهم ان أقرأ كتباً جيدة » (٢٣) .

ان النقطة الأخيرة التي نحب أن نتطرق اليها تخص قاريء الرسالة نفسه ، وهي أن التطور في قراءة الرسالة من نهاية القرن السادس عشر حتى بداية القرن السابع عشر كان يتركز على العلاقة بين القاريء والنص وما طرأ عليها من تحول ، فيعد ان كانت الرسالة في نظر القاريء عبارة عن نص أدبي يثير إعجابه ومثل يحتذى به ، أصبحت وسيلة وأداة توصله الى تجارب الكاتب الشخصية وتسمح له بالوقوع الى أعماقه وتحليل شخصيته ، فاهتمام القاريء أصبح لا ينصب على أسلوب الكاتب ولا حتى على الموضوع فحسب وإنما أصبح منصباً على الرسالة باعتبارها تعبيراً عن ذات الكاتب أي ان القاريء أصبح يتناسى النص ويعتبره مرحلة شفافة لا سبيل الى الاستغناء عنها لكي ينصت الى الكاتب وهو يغاطبه . . . وبعد موت الكاتب وانتهاء حياته وانقطاع الصلة بينه وبين عالم الأحياء تستمر رسائله في الشهادة عليه وعلى تفوقه وعظمته ولكن أحياناً ينكشف فيها للقاريء أمور كان يفضل أن يجهلها عن الكاتب الذي يجبه لأنها تحس الصورة الخيالية التي رسمها له القاريء في ذهنه .

وبعد ، فمن هذا العرض الموجز يمكننا أن نقول إن أدب المراسلات يمثل مكانة مرموقة في تاريخ الأدب الفرنسي خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر ، فيفضل مجموعات الرسائل التي لعبت الصدفة دوراً كبيراً في الحفاظ عليها ويفضل مقدرة الناشرين على التغلب على الصعاب التي واجهتهم أثناء محاولتهم نشرها استمعنا نحن أن نعرف الكثير من أفكار وآراء ومواقف بعض الكتاب والتي لولاها لما توصلنا لمعرفة أبدأ ، كما ان هذه الرسائل تعتبر بمثابة مذكرات يومية وتعتبر أيضاً في كثير من الأحوال وثائق مكتملة لما جاءت به كتب التاريخ .



BIBLIOGRAPHIE

I. Oeuvres des auteurs traités.

1. MONTESQUIEU, *Les Lettres Persanes*, Paris, Garnier-Flammarion, 1956.
2. ROUSSEAU, Jean-Jacques, *La Nouvelle Héloïse.*, Paris, Garnier-Flammarion, 1953.
3. SEVIGNE (made), *Lettres Choïsies.*, Paris, Larousse, 1946.
4. Voltaire, *Lettres Philosophiques*, Chronologie et Preface par Rene Pomeau, Paris, Garnier-Flammarion, 1964, 188 p.

II. Ouvrages Generaux.

1. ADAM Antoine, *L'Age Classique*, t. 1 (1624-1660), Arthaud, 1968.
2. CLARAC Pierre, *L'Age Classique*, t. 11 (1660-1680), Paris, Arthaud, 1969.
3. HENRIOT Emile, *Courrier Litteraire, XVIII e siecle*, Paris, Albin Michel, 1961.
4. LANSON Gustave, *Histoire de la litterature française*, Paris, Hachette, 1953.

III. Ouvrages de critique sur les auteurs traités.

1. BAILLY August, *Madam de Sevigne*, Paris, Librairie Arthème Fayard, 1955.
2. DEDIEU (J), *Montesquieu*, Paris, Alcan, 1913.
3. MORNET Daniel, *Rousseau*, Paris, Hatier, 1950.
4. NAVES Raymond, *Voltaire*, Paris, Hatier, 1962.

IV. Revue d'Histoire Litteraire de la France, La LETTRE AU XVIIIe siecle, Paris, Armand Colin, Novembre-December 1978.

Ce numero comporte les articles suivants :

1. BEUGNOT Bernard, *Style ou styles epistolaires*, p. 939-957.
2. CUENIN Micheline, *La Lettre educatrice de le Sensibilite : l'exemple de Vulture*, p. 922 a 938.
3. DUCHENE Roger, *Le lecteur de lettres*, p. 977a993.
4. GERARD Mireille, *Art epistolaire et art de la conversation : les vertus de la familiarite*, p. 958a976.



في القرن التاسع عشر بدأ كثير من الأدباء والفنانين يحملون بالشرق ، مثل : شاتوبريان وفكتور هيجو ، ودبلاكروا ، وجيرار دونرفال ، ومكسيم دوكامب ، وفلوبير .

وبعضهم تحدث عنه حتى دون ان يجيشه قط شأن فيكتور هيجو الذي تعد مجموعته الشعرية المسماة « الشرقيات » (المنشورة سنة ١٨٢٩) نقطة تحول في الأدب الفرنسي ، وفيها نجد النزوع الى الصبغة المحلية والاهتمام بالتفاصيل - بدلا من تعميمات الأدب الكلاسيكي - والاحساس بالشرق .

يقول هذا الشاعر متغنيا بمصر :
« مصر تنشر حقولها المزركشة مثل البساط النفيس
وقد توجتها السناويل بالشفرة »

ان الجمال لا يرتكز في الشرقيات على سحر الشرق وحده ، ولكن أيضا على المهاجرة الى ما وراء الافق ، الى ما ليس هنا بل هناك .

وقد كثر التلميح الى أسلوب فيكتور هيجو في استخدام الضوء ، كما نجلى في الشرقيات . وبالفعل فان اللون فيها وضوحا أقوى مما في نصوص الأدب الكلاسيكي ، ولكن اللون ليس هو موضوع الوصف ، بل رمزا يعين الشاعر ، انه يعبر عن الجنوح والتضارب والغموض . والطابع الحقيقي للشرقيات هو أن الهروب فيها ليس هربا الى الشرق ولكن الى الخارج العالم الممكن بأسره ، انها محاولة لرؤية المستحيل وحلم خيالي وقصيد جسور الرؤية لا يحدد الطبيعة فيه خطوط الواقع وأحجامه ولكن يشكلها الغموض والحوار واللاواقع .

مصر والشرق في مراسلات جوستاف فلوبير

دولة صالح العرب

وعندما يحدث أن يلتفت فيكتور هيغو صوب الواقع فإن حديثه عنه يتسم بالهذيان فيقول :

دعوني لحال حين يخفى الأفق الغائم
جبهة متموجته بقوس من ضباب
حين يحمر الكوكب العملاق ويتسوارى
آه من سبعت فجاء بيننا أنا وحيد أحلم من النافله
وتتجمع الظلال خلفي في السردهة
من سيلد هناك مدينة مراكشية ، كأبارقة مدهشه
تمزق عندها قوس الضباب بشهب
كأنها أسهم ذهبية انفلتت من حزمته؟
أيها شياطيني ! .. فلتأت (هذه للمدينه) تلهمني
وتفسده أناشيد الغيرة كسماء الحريف
وتلقى في صبي بظلالها الحورية وتظل غسقيه
تزين طويلا الأفق البنفسجي بألف برج
لقصر جنية وألف قبل أن تنطفئ وتحول أقاويل غتلقه (١)

ان موضوع حلم اليقظه هذا ليس هروبا حقيقيا للشمس ولكن هذا الخيال يفجر منظرا طبيعيا يختلف عن المنظر الذي يراه فيكتور هيغو من نافلته ، ان المدينة الشرقية هي ايضا « غسقية » كالغسق الحقيقي الذي يراه الشاعر . فلا يوجد هنا ضوء وغسق ولكن فقط غسق من نوع آخر ذو طابع جسور الرؤى يترك في القارئ أثرا دامعا بفضل حصيلته اللغوية الملهمة . إنها الكلمة التي تعكس الوضع فتطوع في لها الفكر وتفجر الرؤى . أما عن الكلمة فمصدرها اللاتيني . وهذا تحول جذري في الأدب الفرنسي ، فحتى نرفال الشاطع به الخيال (٢) والحلم يحتمى بقيد الارادة . ان الشرق عند فيكتور هيغو ليس الا اطارا لشعره او خيطا فيه .

وهذا الكاتب جيراردو نرفال قد زار الشرق على العكس من فيكتور هيغو وقضى ثلاثة أشهر في القاهرة من سنة ١٨٤٣ ورأى القسطنطينية وهيلوبوليس وشبرا والاهرام ، ولكن ما كان يشغله خاصة في مصر هي المهرجانات في الشوارع ، وأعياد الزواج ، والمطامير ، والجنائز ، ومطامير الثعابين ، ورقصات العوالم ، ويفضل هذه الملذات التي قضاه في مصر ظهر لنا كتابه « رحلة الى الشرق » (٣) وهو واحد من أجمل كتب النثر الفرنسي في القرن التاسع عشر ، وصفه تروفيل

Victor Hugo, les Orientales, 'Reverie'

CF. dawlat ELL Arab, Aurelia de Nerval, Analyse stylistique Structurale, le cadre 1979 .

Edition charpentiers, 2 vol , 1851

(١)

(٢)

(٣)

لام بترجمة التقصيد - عن الفرنسية - احمد علي بدوي .

جوتيه بأنه « كتاب خلّاب يملؤه الحب واللازورد والنور »^(٤) ولكن كتاب نرفال « رحلة الى الشرق » ليس مفكره ، ولكنه سرد مشغول بعقريّة أثر عودته الى فرنسا وعلى أساس من ذكرياته ومذكراته ، وفيه من الشعر أكثر مما فيه من الصدق ، ان وصف نرفال يرتكز من ناحية على الملاحظة الشخصية ، ومن ناحية أخرى على كتاب « إدوارد ولیم لین » : « وصف طبائع المصريين المحدثين وعاداتهم » الذي كتبه في مصر بين سنتي ١٨٣٣ ، ١٨٣٥ ، ونشره بعد ذلك في لندن سنة ١٨٣٦ .

ويشهد نص كتاب نرفال « الرحلة الى الشرق » نفسه على صاحبه بقصد متعمد للبناء ، ويتضمن السرد بخصوص ذلك اعترافا أساسيا يبلي إلتينا به :

« أصبحو أن أشكل حياتي كى تشبه القصة وأضع نفسى باختياري في موقف أولئك الأبطال الفعّالين الطامعين الذين يريدون بأي ثمن أن يخلقوا حولهم الآثار ، والاهتمام ، والتحديات ، أى بكلمة واحدة : الفعل . »^(٥)

وبالفعل جعل نرفال من حياته قصة في كتاب الرحلة الى الشرق ، وسار عتالا بحداء قواعد هذا الفن وليس على درجها بحيث كان يجمع تارة عن الصرامه ليعود اليها تارة أخرى : هذه هي صيغة الرحلة الى الشرق ، وهي صيغة ستأخذ بنرفال فيها بعد الى كتابة أعماله الكبرى في سنواته الأخيرة دفعة واحدة ، والتي ستعطي لبنات التار (سنة ١٨٥٤) وأوريليا نفسها المميزه ، وعقريّة نرفال التي اكتمل بناؤها قد استهت الرحلة بخطوطها المتأرجحه .

فلنقرأ وصفه « لاشراق للشمس » في القاهرة :

« صوت التركي الذي يعلم من المثلثة المجاورة ، الجرس الصغير الذي يحركه الجمل بهرولته الثقيله ، وقد يزيد عليه زعيقه الغريب ، والرفيف والصغير المبهمان اللذان يسيان في الهواء والخشب والجدران بنا يرمس الفجر المعجول على السقف بالضوء آلاف الشقوق من بصيص النوافذ ، ونسيم مبكر يحمل يشذى مفعم يرفع سترابهي فأرى خلف حوائط الساحه رؤوس النخل تطفو ، كل هذا يأخذني : يطربني أو يشجيني باختلاف الأيام ، ذلك أن لا أريد أن أقول أن صيفاً خالدا يثمر حياة سعيدة الى الأبد ، إن شمس الحزن السوداء .. ترتفع أيضا على سهول النيل كما كانت ترتفع فوق ضفاف غير الزاين في منظر المائي بارد »^(٦) .

ان رؤى نرفال على عكس فيكتور هيجو تنصب على شروق حقيقى رآه ، ولكن الذي يترك فينا من تلك الصفحات أثرا دامغا قبل كل شيء هو الحزن انها اعترافات سرية لقلب لم يعثر على السعادة ، ان المنظر الطبيعي هنا ليس الا حالة نفسية ، والشرق ليس الا خيطا شعريا .

وساعة العودة الى أوروبا ينظر جيراردو نرفال ورامه .

J. M. Carre, voyageurs et écrivains Français en Egypt, 2 vols. Imprimerie de E. L.F.A.O

(٤)

Le Voyage en Orient ' 2 eme edetion 1860 'gornier, Flammarion 1980. ,p.42.

(٥)

Voyage en Orient, t. I . p.193 — 194

(٦)

« إن الشرق - ومن الآن - لم يعد في عيني الا حلما كاحلام الصباح التي تنسرب وشيكا لتتبعها هموم النهار »^(٧)
لقد جعلت « الرحلة » من الشرق حلما كبيرا كما لو كانت تفاصيلها دارت داخل غوامض النفس .

وجوستاف فلوبر مثل نرفال قد زار مصر والشرق اللذين قدمهما لنا في المراسلات^(٨) وهي التي سحرت عديدا من الكتاب من بينهم « أندويه جيد » الذي كتب قائلا :

« أحببت طويلا فلوبر كعالم وصديق وأخ وكانت المراسلات رفيقة وساذق . آه ! لقد قرأتها بعناية في سن العشرين .
واليوم ليس فيها جملة واحدة لا أعرفها ، وقد احتلت طيلة خمس سنوات مكان الانجيل على وسادتي وكانت معين الطاقة لي ، وكانت تسبق على حماسي نوعا جديدا من الورع »^(٩) .

لقد ظهر فلوبر طويلا بصورة معلم الواقعية الأكبر ، وقد يبدو غريبا للوهلة الاولى أن يوضع في صف فيكتور هيجو ، وجيرارد نرفال بين الرحالة الرومانسيين ، ولكن منذ نشر مراسلاته ومؤلفاته في شبابه وكذلك النسخة الاولى من كتابه اغواء القديس انطون لم يعد يسع النقد الا ان يعدل قليلا فقلبا عن هذا الرأي ، وكما يقول جون ماري كاريه :

« لقد وضع ان فلوبر لم يصبح دون مجهود كبير ومغالبة للنفس المصور الصلد لحياة الريف ومبدع الرواية الواقعية
« مدام بوفاري » ، ولم يعد اليوم مما يصدم شعور أحد أن نؤكد أنه ليس واقعيًا صرفًا بل رومانسيًا اشعث مقلقلًا وروى نفسه وضبطها بعسر . »^(١٠)

وربما أصبحت رومانسية فلوبر الاولى الآن في حكم المعروفة في حين أن الدور الذي لعبه سفره الى الشرق في تطوره من الرومانسية الى الواقعية ليس معروفًا بنفس الدرجة ، ذلك الدور الذي استكشفه لنا الرسائل التي كان يكتبها طوال رحلته في مصر وللشرق .



ان سنوات تأهيله لرحلته الشاقة تختلط عنده بسنوات ترحاله ، وتترك من خطباته أن للسفر هو تكملة لا غنى عنها
للاعداد لمهنة الكاتب ، فيجب ان يتعلم ان يرى جيدا ، وأن يلحظ ، وقد اورد موباسان في مقدمته لكتاب « بوير
وجان » المنشور سنة ١٨٨٥ النصيحة التي اسداها فلوبر إليه :

« يستحسن التمعن في كل ما يراود التعبير عنه طويلا ويعناية كافية لاكتشاف ملمح لم يقله أحد ، وفي كل شيء هناك
ما لم يكشف بعد ، ولكننا لا نعرف هذه البديعية لاننا تعودنا أن نستخدم أعيننا بذاكرتنا ونسأله فقط عما ظنه من رأوا
الشيء قبلنا ، ولكن أصغر شيء فيه قليل من المجهول ، فلنجلده ، لكي تصف نارا تظني وشجرة في سهل يجب أن

Ibid, t. I, p. 363

Gustave Flaubert, Correspondance, 2 Vol. Paris, Gallimard 1973

La Nouvelle Revue Française, Avril 1913

Voyageurs et écrivains Français en Egypte, t. P. 81

(٧)

(٨)

(٩)

(١٠)

تظل قبالة تلك النار وتلك الشجرة حتى لا يعود اليها ما يشبه لعينيك أي نار أو شجرة اخريين ، وهكذا تكون أصيلا » ويتابع موباسان كلامه قائلا : « لقد جعلني فلوبر أعبر في بضعة جل عن كائن أو شيء بشكل يخصصه وحده ، ويفرق بينه وبين كل الكائنات التي من نفس جنسه أو الاشياء التي من نفس نوعه لانه علاوة على مكتشفاته وضع يده على تلك الحقيقة وهي انه لا يوجد في العالم اجمع حبتا رملي او ذبابتان او يدان أو أنفان متطابقان تماما .

« كان يقول لي : : عندما تمر امام بقال جالس عند بابه أو بواب يدخن غليونيه او موقف لعربات المفكر أرى هذا البقال وهذا البواب وضعمهم وكل مظاهرهم البدنية بحيث تحتوي كذلك كل ما في طبيعتهم الاخلاقية موضحة بدقة الصورة ، وبطريقه تجعلني لا اخلط بين ايها وبين اى بقال او بواب آخر ! واجعلني أبصر بفضل كلمة واحدة كيف يختلف حصان عربة عن حسين حصان آخر يسبقه بعضهم ويتبعه البعض الآخر ! »

ويكفي أن نقرأ رسائل فلوبر ، وأن نفتح مخطوطه الذي لم ينشر بعد « كراسات السفر »^(١١) لكي نجد مئات الامثلة على تلك القدرة لالتقاط الملحم المتميز على الفور ونرى الصورة التي توضح « بدقتها » ، وتحكم الطابع الخاص للفرد الواحد او الشيء وتفرق بينه وبين نماذج أخرى لنفس الفرد أو الشيء ، وهي خصلة نادرة في كل الأزمنة والأماكن ، ولكن ايضا كم تزداد قيمتها حين يرثل الكاتب ! فاذا كانت شخصية « سالامبو » (بطله احدى روايات فلوبر) على ما تراها عليه ، اذا كانت تبدو رغم غموضها مخلوقا حيا وليست مومياء لم تزل محاطة بلقائنها فلنبحث عن تفسير ذلك في صفحات رحلته الى الشرق^(١٢) ، واذا كانت رقصة سالومي عجز الغارء غاما كما حركت قلب هيروودس ، وذلك في آخر قصة من « حكايات ثلاث » لفلوبر ، وعنوانها « هيروودس » ، فلنسأل عن السبب بين صفحات نفس الرحلة ، والرسائل المكتوبة من مصر .

ان شرق فلوبر هو على عكس شرق نرفال الذي عولج وصفه بعد انتهاء الرحلة بزم . فان الاول يعرض علينا تلقائيا يوما بيوم في اثناء الرحلة نفسها في رسائل فلوبر الى ذويه واصحابه . ان فلوبر يلبيح الاحداث ويصف الاشخاص والاطار الذي يحتويها وتتلج المعجائب صدره ، وهو ينظر بالطريقة التي تصح بها موباسان وفي نفس الوقت فان نوعا من الضيق يعترينا ونحن نقرأ الرسائل ، نعم الشرق تحت الملاحظة ، ويعنايه ، ومع ذلك لا يتجاوز الامر ذلك ، ان فلوبر يظل مجرد ملاحظ ، وكما قال عنه سارتر « لا يلتزم قط ويعبر بفكره عما يحيط جسمه » .



كان جوستاف فلوبر في السابعة والعشرين من عمره غادر فرنسا في خريف سنة ١٨٤٩ بنية السفر الى الشرق ، لا

Gustave Flaubert, Carnets de Voyage Bibliothèque que historique de La Ville de Paris.

(١١)

C.F. Giovanni Bonaccorso, L'Oriente nella narrativa di Flaubert, Messina, Edas, 1979.

(١٢)

P.M. Wetherill, Flaubert et la Creation Littéraire, Paris, Nizet, 1964, Jean Bruneau, Le Comte Oriental de Flaubert Paris Penod, 1973.

يعرفه احد خارج دائرة اصدقائه ، ولكنه كان ملفتا لنظر الاصحاب^(١٣) والاغراب على السواء بقامته ووسامته وعضلاته الممتلئة وكانت احد غزاة الشمال الشقر « الفايكنج » ، وله عينان سوداوان وفم دقيق ، وقد كتب بعد ذلك من مصر قائلا ان نساءها كن لا يقطعن عن لومه على اخفاء محاسن فمه تحت شاربته .

كان شهبانيا ولكن من نوع خاص . ففي سن الخامسة عشرة ، وقع في غرام امرأة متزوجة تكبره باحد عشر عاما وبطريقة عاطفية تذكر بروايات الحب العفيف . ويقول احيانا انه ظل يكن لها حبا افلاطونيا ، كان يغشى دور الدعاره وكان له في الدعاره « فلسفة » مستقلة ، فقد كتب يقول :

« قد يظن هذا انحرافا في التلوق لكنني احب الدعاره ، ولذا تبأ بصرف النظر تماما عن معاملها الجسديه . يأخذ قلبي في اللق كل مره ارى فيها احدى تلك النسوة ذات الاثواب القصيره تسير قرب واجهته زجاجه تحت المطر ، تماما مثلما كان الرهبان بلباسهم التي تلفها الحبال يلმسون دائما ركننا معينا عميقا زاهدا من روعي ، ان فكرة الدعاره هي نقطه التقاء عناصر عدة : الدنس ، والمراره ، وغياب الترابط الانساني تماما ، والسعار العفص ، وصليل الذهب . ما أكثر ما يتعلمه الانسان داخل الماخور ، ان المرء يخامره حزن بالغ ، ويعاود الحلم به بكثير من الحب واللوعة . »

لم يكن للجسد البشري أسرار تستعصى على فلوير فقد كان ابن جراح ، ويعرف هو نفسه كثيرا من الأطباء ، كما يعرف المشرحة التابعه للمستشفى ، وكان قد قطع قبل السفر الى مصر علاقة غرامية استمرت عدة سنين مع امرأة متزوجه وبجمله وواسعة الثقافة اسمها « لويزكوليه » وقد خصها بجانب كبير من رسائله البليغه الماجنه . وقد باعت ابنة لويزكوليه تلك الرسائل فيها بعد وتم طبعها ونشرها ، ولكنه كان يكتب لمعشيقته أكثر كثيرا مما يراها ، وتكاد لا تخلو احدى رسائله من فقرة تضم اعتذارا وتبريرا لتأجيل لقاءها الى وقت لاحق ، وكانت اشد محبته مكرسة لآخرين هم امه وبعض اصدقائه من عمره ، وكان احد هؤلاء واعزمهم « الفريد بوانفان » . وكان شابا حلما في مثل موهبة فلوير اخترمه الموت فھصر موته قلب فلوير ، وكان ضحية السل ومرض آخر شائع في ذلك العصر وهو السام ، وكانت تلك الوفاة حلقة اخيره في سلسله من الوفيات ، ففي السنوات السابقه كان قد فقد عزيزين اخرين من الصق اقربائه هما أبوه واخته « كارولين هامار » التي تركت بنتا صغيره اسمها كارولين ايضا حيل بين ابنيها المشتهر وبينها وربتها جدتها ام فلوير وفلوير بنفسه في بيتهم الرفيقي الصغير على ضفاف نهر السين في كرواسيه وهي احدى ضواحي روين في نورماندى حيث ولد فلوير نفسه .

نريد أن نقول ان منظر فلوير الحادح وملامح شكله الرياضي وتقليده لابناء جيله في غزوات الحب ليست الا مظاهر خارجية . فقد كان ذا حساسيه فائقة ، وعندما كان يتابع محاضرات القانون بعد تصميم من والده اصيب بسلسله من نوبات الصرع اجبرته او بالاحرى اتاحت له ان يھجر دراسة القانون وان يھيا حياة رخييه في بيت الاسره ، وأن يفعل ما يريد ، وقبل هذا وذاك أن يكتسب . ذلك ان جوستاف فلوير لم يكف يوما عن الكتابه . كان قد بدأ بسود السطور منذ

(١٣) Cf. Albalat, Gustave Flaubert et ses amis, Paris plon, 1977 Harry Levin the Gates of Horn : Astudy of Live French Realists New york , Oxford p.u.p 1963

أن تعلم الحروف الأبيدية على حد قوله ، وباقتراجه من سن الثامنة والعشرين كان على مكتبة عديد من الاقاصيص التي كتبها في صباه ، وروايتان وخلاصة رحلة قام بها على قدميه في اقليم « بريتاني » ثم عمل خيالي طويل اسمه « اغواء القديس انطون » . وقد سرت الى فلوبر رغبة في كل ماله سحر شرقي كما سرت الى العديد من معاصريه الذين كانوا اطفالا او في سن المراهقة ابان العصر الرومانسي ، اما هو فجاءته خاصة اثر قراءته لبايرون ولشوقيات فيكتور هيجو ولالف ليله وليله ، فمنذ طفولته اذن كان يحلم بالشرق كما كان يحلم به كل الرومانسين في اعقاب حلة يونانبر على مصر .

ان الشرق هو بغية حضارة « البقالين » . ففيه الحرية حيث ترتشف الحياة من منابعها ويحلو مذاقها كالاكسير . ويقول فلوبر عن العرب للوزير كولي : « احب هذا الشعب الفج المثار للمقاوم ، آخر طراز للمجتمعات البدائية ، الذي يسفر ، في الظل او تحت بطن الناقات ، وخلال دخان الشيوك ، من حضارتنا الباردة التي تقشعر غضبا من ذلك » .

ان فلوبر الشاب يلفظ عالم الغرب الضيق المتسكن ولا يحجم اكثر من مره عن ان يذهب فيلقى بنفسه في العجيج البشري بمدن الشرق . ان الشرق هو امكانية الخلاص القصوى : التي تتيح لفلوبر ان يعيش وفق هواه دون تضيق على ذاته الاخذه في التضخم حتى لتكاد تختلط بالكل المطلق ، ان الشرق هو العالم الاخر عالم مجهول غامض ، وقد عبر فلوبر عن حبه للشرق في اولى كتاباته ، في عبارة قوية يقول فيها : -

« آه اني لانزل غنارا عن كل نساء العالم في مقابل أن امتلك تمثال كيلوباترا » هي مثل على ذلك التدفق للشرق الذي عرفه شبابيه . والنسخة الاولى لمؤلفه « اغواء القديس انطون » ، والتي تمثل أنضج أوج لذلك التدفق انتهى منها قبل سفره الى مصر مباشرة . ان هذا المؤلف هو ذكر لما تعرض له القديس في ملانه بمصر من انتقاض جحافل من الوحوش والأوثان والمراطة وسائر الحطاة عليه ، وبينما كان فلوبر يشتغل به ويقضي أيامه في اكفهرار روين كان يستشعر رغبة قوية جدا في الشمس وتوقا الى القدم الكلاسيكي . كانت لاتينية لا بأس بها كما كان يعرف اليونانية القديمة ، ويبدو أن قرائه لم يدوت جعلته يكتشف مبكرا جدا الطريق الذي يفضي الى القدم الشرقي ، وقد جعل لكي يستطيع أن يكتب كتابه « اغواء القديس انطون » يقرأ مؤلفات عن أدیان الشرق وثبتا فثيتا غما اهتمامه به فصار شيئا أعظم من مجرد تذوق متحف . لم يكن بالسائح البسيط الذي سيذهب ليجوب الشرق ، وقد أدى غرامه بالشمس الذي هو سر ايمانه بوحدة الوجود ، وفهمه للحضارات التي تقاده الى اكتشاف الشرق القديم وجبه لاستطلاع كل ما يتعلق بالديانات الى تعميق مفهومه للشرق الذي بدأ بدوره يتخذ مكانا يزداد اهمية بالتدرج في تأملاته وفي كتاباته .

ان شرق فلوبر ليس فقط منظرا في حلم ولا هو مجرد مصدر للون الذي يثبت مكان القصيدة أو اقليمها . ان الشرق في حين فلوبر قد أصبح بالتدرج نوعا من وطن .

ولكنه وحتى عندما كان في الشرق كان ينتابه مرارا انطباع برتابه الظواهر فالشرق قد ظل الوطن الذي لم يكن رآه قط قبل ارتحاله اليه سنة ١٨٤٩ ، وكان لاحد اصدقائه المقربين وهو مكسيم دوكامب الذي كان قد التقى به أثناء دراسته في كلية الحقوق حظ أكبر من حظه ، فقد كان يستطيع وهو ثري يتيم أن يفعل كل ما يريد ، وفي سن العشرين سافر وحده

الى آسيا الصغرى ، وإيطاليا والجزائر ، وفي سنة ١٨٤٨ عندما كان قد بلغ سن السادسة والعشرين نشر ذكرياته عن السفر في كتاب عنوانه « ذكريات ومشاهد من الشرق » وجه في مقدمته الاهداء الى جوستاف فلوير الذي اجابه بدوره أن يديه ارتعشتا فرحا لحظة اخفض صفحات ذلك الكتاب . كان مكسيم هذا الميسور الحال النشط المرح الطموح المملوء حيوية والذي لا يحول عزمه هو الذي شجع فلوير على مصاحبته في رحلة ثانية أطول من الأولى في وقت كان فيه فلوير بدأ يستسلم لعاداته المنزلية التي بدأت تضعف فيه الحماسة للذهاب الى الشرق ، وكان هو أيضا بمثابة ودقة الذي أقتنع أم فلوير ، وقد اشتد جزعها ، بالموافقة على سفر ابنها وباعطائه النقود التي تلزمه للرحلة ، وقد فعل ذلك بعد مجهود شاق وقد استعان بطبيب الاسرة الدكتور جول كلوكيه لاقتناع فلوير بان زيارة ابنها لبلده دافئ ستعود بالخير على صحته .

كان هناك أيضا ثانی اصديق فلوير المقربين الباقين على قيد الحياة وإن اختلفت ظروفه مع ظروف فلوير ومكسيم دوكامب اختلافا شديدا وهو لويس بويه وهو شاعر مسالم قليل الامكانيات المادية ولم ينشر شعره قط ، وكان هجر دراسة الطب وعمل لكسب قوته مرييا في روين ، وكان يشارك فلوير في حبه للقدم وللشرق ، وكانا يلتقيان مرارا ويتناصحا في الادب ، وقد روى مكسيم دوكامب في كتابه « ذكريات اديبه » انه قبل السفر الى مصر كان الاصدقاء الثلاثة يلتقون في جلسات قد تستغرق احيانا الليل بأكمله (١٤) .

هذه هي باختصار ارضية وصف الرحلة الى الشرق الاذن التي قام بها فلوير ، واربعة من الشخصيات المائلة على هذه الارضية هي اهم شخصيات الرحلة نفسها : الرحالان فلوير ومكسيم دوكامب والمتنظران بالوطن ام فلوير ولويس بويه اللذان كانا يتلقيان خطابات فلوير ، وعلاوة على ذلك هناك شخصيتان يسميهما فلوير « الايكمان » : خادم اسمه « ساسق » من اصل كورسيكي كان يعمل سابقا في الخيالة العسكرية ثم اصطنعه مكسيم دوكامب في باريس هذه المهمة ومرشد « جيسي » الذي ولد في جنوة اصلا واكتسبه في القاهرة كما « فرنسوا اسمه فاصبح بكل بساطة « جوزيف » .

وخلال الرحلة بأسرها يظهر موظفون ورجال دين ومعتالون وراقصون وعاهرات ومخنفون ، والمسافران يتنقلان في القاهرة . ثم يركبان النيل ، ودائما في الحفلة البعيدة قرب نهر رقيق وان لم يكن عتيقا كنه النيل يقع قرب شرفة طويله تملؤها النباتات مكتب الشاب فلوير ينتظره كي يرجع ويكتب ، ولكن ماذا سيكتب ؟



كان فلوير قد فكر في كتابة رواية عن حياة الريف الفرنسي ، وقد تمت بالفعل سنة ١٨٤٧ بعنوان « مذام يوفاري » . وكان قد توقف خلال رحلته الى اقليم « بريتاني » التي تحدثنا عنها آنفا عند « بلورا » على ضفاف « اللوار » ، وقال في مذكراته عن هذه المدينة الهادئة إنها ألهمته بفكرة لاول مرة فيقول : « الشوارع في بلورا خالية والعشب ينبت

بين البلاطات المستديرة وعلى جانبي الشارع تحيط أسوار طويلة رمادية بجدران واسعة ومن هنا وهناك باب صغير محتشم يكاد يقتنعك بأنه لا يفتح الا ليلا للزوار الغامضين ، وهنا نشعر بأن كل الايام لا بد ان تشابه ، وبأنه في هذه الرتبة الهادئة (التي تملك مع ذلك رقتها كما يفيد رنين نواقيس الكنيسة في معرفة الزمن) لا بد وان يوجد حزن للذيد وروغبات رقيقة ونود لو تتخيل ان في وسط تلك البيوت الوداعة عاشت قصة عميقة يصعب البوح بها ، وعاطفة تكاد تشبه المرض المزمن الذي لا ينتهي الا بال موت ، ولحب الخالد المكنون الذي تجده عند عائس او امرأة متزوجة فاضلة ، ولا يستطيع ان امنع نفسي من التفكير في كون هذا الموقع نموذجيا لامرأة لها أصل وجمال شاحب ويدان مرهقتان اغافرها طوله متزوجه من رجل غيور بخيل خسيس يموت مسموما . انه ذلك الكاتب الشاب الذي يجب ان يتخيل ذلك النوع من الحكايات بقدر ما هو الرومانسي الذي أنجز لثوه النسخة الاولى لاغواء القديس انطون الذي منسجبه في حلمه للشرق .



تفتحت في مصر ابواب كثير من المسؤل الرسميين امام فلوير ومكسيم دوكامب ، ولم يكن في ذلك يرجع الى كونهم « مبعوثين فرنسيين » وانما مجرد فرنسيين ، فلم تزل لفرنسا مصالحها السياسية في مصر رغم سقوط نابليون الذي كان المصريون يدعونه بالسلطان الكبير ، وكان والي مصر محمد علي قد لفظ انقاسه الاخير له قبل وصول فلوير بأشهر معدودات وهو الذي شجع النفوذ الفرنسي : كان قد الحق بخدمته عدة فرنسيين ، وانعم على بعضهم بلقب البك ، وأحياناً الباشا فسلجما باشا مثلاً ، الذي اشار اليه فلوير في رسائله ، كان كولونيلا سابقا بالجيش الفرنسي اسمه سيف ، وكان قد اسهم مع ابن محمد علي في دحر جيوش السلطان العثماني في موقعة نزيب سنة ١٨٣٩ ، كذلك كان ، جاليس بك ، وبرانستوبك اللذان ذكرهما فلوير فرنسيين ايضا ، وكان الترحاب الذي لاقاه فلوير من كبار الموظفين مصدر اطمئنان لوالدته ، وذلك ما دعاه الى ان يسرع بالحديث عنهم في اولى رسائله اليها ، ولكن يبدو انهم لم يفارقوا ذاكرته سريعا ، فقد كتب بعد ذلك الى لويس بونيه يقول :

« ان سفلة الفرنسيين المغتربين تثير الدهشة ، واسمع لي ان اضيف انها كثيرة العدد ! ثم يذكر فلوير في رسائله موظفين فرنسيين اخرين يعملون بمصر مثل لومبير بك وهو « شارل لومبير » المهندس وأحد اتباع سان سيمون ، وايضا موجبل بك المهندس ولوير بك ياور البلاط ، وكلوت بك وهو الطبيب « انطون كلوت » وبكيريك الكورسيكي الاصل قائد الشرطة المصرية الخاصة بالاجانب ، وبالطبع لم يكونوا جميعا من السفلة ، وكان لاختلاق لومبير العالي وروح النبيلة اثر دائم على مكسيم دوكامب الذي اتجه بعد ذلك الى الصحافة التقدمية والنقد الاجتماعي ، كما كان كلوت طبيبيا عسكريا ممتازا ، انما كان من بينهم بعض المتفامرين .

كان والي مصر في نهاية سنة ١٨٤٩ هو عباس باشا حفيد محمد علي كما هو معروف .

وصل جوستاف فلوير ، ومكسيم دوكامب الى الاسكندرية يوم ١٥ نوفمبر ١٨٤٩ ، وفي يوم ١٧ نوفمبر وصف فلوير في رسالة الى والدته انطباعاته الاولى عن الاسكندرية قائلا :

« عندما وصلنا في الساعة الثانية الى شاطئ الاسكندرية صعدت مع قائد الدفة الى السطح ولحت سراى عباس باشا كثيفة سوداء على زرقة البحر ، وكانت الشمس تصب أشعتها عليها وخلفها رأيت الشرق أوروبيا رأيت في ضوء فضى اكبر اعتصر بين البحر والساء ولم يمس قليل الا وبدأ الشاطئ يرسم ، وكان اول ما رأيناه على اليابسة جبلين يقودهما الجبال ، ثم على طول الساحل عرب نشيطون يصطادون في ثنایا هواء لا حد لمسلته ، وساعة الزول كان ضجيج كانه مجموع دقوف الشرق كلها تذهب باللب ، وقد تصادف ان كان سليمان باشا رجل مصر القوي وقاهر نظم ، ومرعب القسطنطينية موجودا في الاسكندرية بدلا من القاهرة ، وقد قمنا بزيارة له أمس ، وقابلنا بما يثير الاعجاب . انه رجل ساحر وودد ، وكذلك رأينا مسيو جاليس المهندس بالعسكريه المصريه واليك برانستو وغيرهما ، وكفى لكى تفهمي الطريقه التى سنسافر بها أن أقول لك اننا اعطينا جنودا يفرقون حشودا تتكاثر علينا حيننا نلتقط الصور ، وأظن ذلك شيئا من الاناقه ، وترين أيتها المعجزة المسكينه اني لا استطيع أن أكون اسعد حظا ! » (١٥)

كان مكسيم دوكامب قد اخذ معه آلة تصوير ، وكان التقاط الصور في ذلك الوقت شيئا جديدا تماما ، واستحوذ على مكسيم دوكامب الى حد أنه عند عودته من الشرق نشر ألبوما بمائة وخمسين لوحة فوتوغرافية عنوانه « مصر والنوبة وفلسطين وسوريا » يصحبه نص تفسيري وتسبقه مقدمه . (١٦)

وفي يوم ٢٢ نوفمبر سنة ١٨٤٩ استقبل أرتين بك المسئول عن الشؤون الخارجية المصريه جوستاف فلووير ومكسيم دوكامب اللذين ارتديا زيا مهيبا : له سوداء وصداريا أبيض ونخا ، ومنحهما ما يسهل لها اجراءات رحلتها كلها ، وفي يوم ٢٣ نوفمبر غادرا الاسكندرية ، ويقول فلووير حين يكتب الى امه : -

« تبدأ الصحراء مباشرة عند ابواب الاسكندرية ، وهى تلال رملية مغطاة هنا وهناك بأشجار النخيل ثم سهول رملية لا تنتهى ، ومن حين لآخر تبدل عند الافق برك مياه بين السهول ، وعند الحد الاقصى الذى يظهر ملامسا للساء يمر بخار رمادى سريعا كقطار سكة حديد ، إنه السراب ، والكل يبتلى به : العرب والاوربيون ، أولئك الذين اعتادوا الصحراء ، وأولئك الذين يرونها لأول مرة . » (١٧)

غادر المسافران الاسكندرية يوم ٢٥ نوفمبر ويسجل فلووير في كراسات سفره : -

« تركنا الاسكندرية الى القاهرة على ظهر سفينة يديرها مركب بخارى صغير لا يحمل الا عكره : شواطىء المحمودية فطساء ميتة - الليله الاولى على ظهر النيل أشمر بالطرب والليل الى الغناء - أثرت وأثرك وأقرأ لتفسي بصوت عال سطورا

Correspondance , t. I , pp. 528 — 529

(١٥)

Ed. Glide et J. Baudry 2 vol , 1852 .

(١٦)

وجدير بالذكر ان قائمة المعتنقون بجمع الفنون بالقاهرة قد ألفت بين يوم ١٧ و ١٨ فبراير سنة ١٩٨٢ مدرجا للفنون الفوتوغرافية بعنوان « مصر في عهد فلووير ، تحت الشرف والوزارة المملات الثقافية الخارجية الفرنسية ، وكان بين مروضاته صورة لفلووير في القاهرة يوم ٩ يناير سنة ١٨٥٠ بملصقة مكسيم دوكامب .

Correspondance , t. I , p. 530

(١٧)

من شعر بوييه - لا أستطيع إرغام نفسي على النوم ... افكر في كيلواترا ... الماء اصفر ورقاق ، وبعض النجوم يشعان النوم على سطح السفينة على فراشي المتنقل بينما انا مدثر بمعطفى . يا للهنا ! الصحراء من ناحية ومن الناحية الأخرى الحقل الاخضر ، وهو مجزوعاته يشبه من بعيد أحد سهول نورماندى التى تنمو فيها اشجار التفاح ، ولون الصحراء رمادى عمر ، ويظهر اثنان من الاهرامات ثم ثالث يصغرهما وحلى يسارنا تظهر القاهرة قابعة على تل وقبة مسجد محمد على وورامها تلال المقطم العاليه . » (١٨)

وقد غنى فلوير ملاحظاته المدونة من قبل في رسائله وخاصة تلك التى بحث بها الى لويس بوييه وهى اكثرها تفصيلا وألفة وتمعنا وتأملا ، وفيها يدل الوصف الذى يتنوع ثلوة المرة لنفس المشاهد على الاهتمام الذى يحمله فلوير لتجاربه مثملا في هذا القصيد البريدى الذى بحث به من القاهرة يوم ١٤ نوفمبر سنة ١٨٤٩ الى رفيق ثقافته :

« أبداً ايها القديم العزيز بتقبيل رأسك الطيبة ، وبأن أنفع الورق كل مايلهم روحك كى توافنى ، وان كنت اعتقد على أية حال انك تكثر التفكير فيها . ذلك اننا نكثر التفكير فيك ، وتوحشنا مائة مرة في اليوم . وفي الساعه التى أكتب فيها اليك يسطع القمر على المآذن وقد صمت الكل ، ومن حين لأخر تنبح كلاب ، وأمامى من النافذة التى انحصرت عنها الستر كتل الاشجار تبدو سوداء في الحديقة تحت نقاء الليل الشاحب ، أكتب من فوق طاولة مريمه يزينا بساط اخضر وتضيئها شمعتان ، واستمد الخبر من آنية دهان ، وأسمع من خلال الحائط صديقنا الشاب مكسيم يعد جرحته لتحميم الصور ، والأيكمان : زاسقى والترجمان ينمان فوق السطح ، ولا أخفى عليك ان هذا الترجمان هو من أصدق وأغيب القوادين الممكن وصفهم ، اما سيادى فمكسو بقفطان نوبى طويل موشى بأشكال الغدد (ويطول وصف تصميمه) وهامقى حليقه تماماً ويعولها طربوش أحمر زاقق اللون كاد يهلكنى من فرط الحر في الايام الاولى التى ارتدبته فيها ، ولقد أصبحتا نبدو للناظر شرقيين للغاية » . (١٩)

ان فلوير مندهش من تغيرته الجديدة ويرتدى الزى الشرقي ، ولكن ذلك لم يكن الا لعبة أو استعراضاً ! ذلك ان أكثر ما يحبه هو الاستعراضات ، ومسارح الشوارع ، والمشاهد الشعبية ، والمشاجرات ، والتحطيط كما يدل عليه باقى الرسائل :

« ... ها أنذا ألخص في كلمة واحدة ما أحسست به : اندعاش قليل من الطيبة بارضها وسمائها وصحرائها وسرابها ، واندعاش هائل من المدن والبشر ، لو كان هيجوها لقال : كنت اقرب الى الله منى الى الانسانيه ، ولعل ذلك الاندعاش يرجع الى اننى كنت احلم وانتقب والتجمل كل ما هو افق وخضرة ورمال واشجار وشمس وفلق حتى ان اتوقع ما هو ديار وشوارع وازياء ووجوه ، فكان لى مع الطيبة لقاء ، ولكن كان لى فى غيرها وجد ، ولكن هناك عنصرا جديدا لم أكن أن انتظر أن اراه ويفرض وجوده هنا وهو يضحكك ببشاعته ذلك هو السحيق الغزلى من ضرب المبيد ،

ويائع الرقيق الذى يدلل على نسوة مكتنزات ، والتاجر الناصح - وقد عاد الى الشباب حقيقيا أخذاً ، وليس اكرم من العصا التى تنثر ضرباتها بينا وشمالا فى الشوارع وفى البيوت لسبب او لغير سبب . « (٢٠)

لم يخرج فلوير فى انطباعاته عن تلك الظواهر عن سلوك سائر الاوربيين الذين زاروا الشرق فى القرن التاسع عشر ورأوه بعين عابره ، وكأنه الركن الشرقي من متحف الشمع وقد عاد الى الحياة . وقد ذكرنا ان الرحلة الى الشرق - وكون فلوير كتب سجلا ادبيا لها - هما اللذان رسوا بسقيته بعد اهواء الرومانسيه على صخرة الواقع ، وقبل أن نواصل فى رفقته اكتشاف الاهرام فلننظر كيف وصف الرومانسي الشاب فى سنة ١٨٤٥ منظر الهرم الاكبر من اعلى معتمدا على خياله وقراءته فحسب ! ان الفقرة التاليه هى من النسخة الاولى من رواية فلوير المسماة « التأهيل العاطفى » ، وهى نموذج طيب للاستلوب الذى كان يكتب به فلوير عن الشرق قبل سفره :

« عندما يصل المسافر الى قمة الهرم تكون يده قد تمزقتا وركبته قد دميتا تحيطه الصحراء ويبتلعه الضوء ويحرق الهواء اخشن ريشته ، وقد نال منه التعب ، وأعماه الوميض ، فيخر على الحجر بين مداعبات الطيور التى جاءت هنا كى تموت . ولكن فلينظر ! فلينظر فوق رأسه يسارا ليرى تلك المدن ذات القباب الذهبية والمآذن من الفخار ، والقصور من الممر والحمامات من الرخام ، حيث يحى السلاطين ليفسحوا اجسادهم فى الساعه التى يجعل فيها القمر الغلال زرقاء والمياه فضيه تأخذ فى التآلق ، وليفتح عينه ! هذه الجبال اليابسه تحفى وديانا خضراء فى جوانبها ، وهناك اغاني حب فى تلك الاكواخ من البوص ، وفى تلك القبور يرقد ملوك المصور القديم وما زالوا يعملون تيجانهم . وليسمع النسر يصرخ فى السحاب ، ويعيدا تفرع نواقيس الاديره ! ولير القوافل تبدأ رحلتها والقواقع تطفو على النهر والادغال تزداد اتساعا والبحر يزداد عمقا والافق يزداد بعدا حتى يلامس الساء ويتحد بها ! فلينظر ! فليمر اذنا ! فليسمع ولينظر وعندئذ سيبروتى من ظمأ وكل حيائه وكأنها حلم لانه سيشعر بروحه يخرج من خلال الضوء وتحلق فى اللامنتهى » .

فلنقابل بين هذا القصيد الممل بوحى من مذهب وحدة الوجود ووصفه ذلك الاكتشاف بالفعل فى كراسات السفر ! لا شك ان الالتقاء بأبى الهول تجربه لا تنسى ، ولكن فى أدق لحظاتها وابلغها اناره لا ينسى فلوير ان يجلل وان يفصل ما يراه فيقول :-

« حوالى الثالثة والنصف كدنا نلامس الصحراء حيث تنتصب الأهرام ، ولم استطع ان اواصل تحكمى فى جوادى الذى انطلق بالقصى سرعته ، وحذا مكسبم حذوى بعد دقيقتين خائضا فى المستنقعات . كان سباقا مجنونا وصعدت من صرخات رغم انفى وشدنا هذا الاعصار حتى ابى الهول وفى البداية تبعنا العرب متصايحين باسمه العربى (هنا يكتب فلوير كلمة ابو الهول بحروف لا ثنية مرتين) كان يكبر ويكبر ويخرج من الارض مثل كلب أخذ فى النهوض ورأيناه : « والد الفزع » كما يعنى اسمه العربى ، كان هو والأهرام والرمال غارقين فى لون رمادى ذى طلعة وردية والسهل شديدة الزرقه ، ودارت النسور محلقه بطيئة حول قمم الأهرام ، وتوقفنا أمام أبى الهول ، كان ينظر الينا بطريقة مقزعة ، كان

مكسيم شاحيا جدا ، واحسست انا بخوف مما يمكن أن يفعله بي هذا الرأس ، وحاولت التحكم في مشاعري ، وعدنا على اعقابنا بجانبين مشتتين بين الأحجار ، وطفنا بالاهرام وعند سفحها لم تسعفتنا الاستنسا وحل الليل ونصبنا خيمتنا . (٢١)



كان فلوير يقدس أمه ويعاملها بحرارة فجة ! هي «عجوزة المسكينه» كما يخطأها في رسائله . يتخيلها وقد ظلت وحدها بعد سفره تبكي وقد تبدل ركنها فيها ، وكذلك جعل يكتب لها بانتظام ليحدثها عن أحداث يومه الصغيره خلال حياته في الشرق ، وفي رسالته اليها في يناير سنة ١٨٥٠ يقول لها :-

(ان رسالتك الطويلة الطيبة المؤرخة في ١٦ الماضي يا عزيزي العجوز المسكينه قد وصلتني كأنها هديه رأس السنة يوم الاربعاء الماضي . لقد تسابقنا بالجمال ، وماذا نلزمين ؟ لا يسبب الجمل غشايا او ألما كما قيل عنه ، ان الواحد منا يجلس عليه كأنه على مقعد وثير ويغير من وضعه كما يجب ، فيضع ساقا على ساق او يتمدد على رقبة البهيمة او يضعف في الهودج . يصعب على ان انتظر لكي انطق امامك كئيب !! أتعرفين بم يدعوني العرب حيث أن نطق الاسماء الفرنسيه يواجههم بصعوبة كبيره فيضطرون ان يبتلعوا لكل فرنسي اسما من وضعهم ؟ ختمية اذن هذا الاسم الذي اشتهرت به !! « أبو شنب » ا ومعناه والد الشوارب ! وعند العرب تستعمل كلمة أبو بمعنى المصاحب لوصف الشيء الاساسي المتعلق بالشخص موضع الحديث ، فمثلا يقولون أبو الأحملة وأبو الصمغ وأبو المسطرده ليعنوا تاجر الاحذية او تاجر الصمغ او تاجر المسطرده ، وقد اطلقوا على مكسيم اسما طويلا جدا لم اعد اذكره ، ومعناه الرجل بالغ النحافة ، ولك ان تحكمي على ابتهاجي عندما عرفت بالشرف الذي يسبقونه على هذا الجزء المتواضع من شخصي . (٢٢) وفي سطور تاليه يتحدث عن مستقبله كأي ابن يتحدث في ذلك مع والده او أحدهما ، على انه يضيف الى ذلك الحديث عن انتاجه الادبي فيقول « عندما افكر في مستقبل - ونادرا ما يحدث ذلك فاني لا افكر في أي شيء على الاطلاق بخلاف الافكار الكبرى التي يجب ان تهيب الانسان حال رؤيته للاطلاع - باختصار عندما اتساءل ماذا سأفعل عند الرجوع ، وماذا سأكتب وماذا سأريد وقتها ، وأين يجب ان اعيش الخ الخ يملؤني الشك والتردد ، وقد تراجعت دائما وعند كل سن على ان اواجه نفسي ، وسأهلك في الثمانين قبل ان اكون رأيا في نفسي ، وربما ايضا قبل ان اكتب عملا يعطيني ثقلا . القديس انطوان أهو جيد ام رديء ؟ هذا هو مثلا ما اتساءله مرارا ، أينا قد أخطأ انا أم الآخرون ؟ وفيها عدا ذلك لا يقلقني شيء . أحييا كالثبات وأترك الشمس والأضواء والألوان والهواء المعجم مخترقني . »

ولاول مره عبر فلوير عن شكوك ساورته بخصوص رحلته لحصر في خطاب للدكتور جول كلوكيه يوم ١٥ يناير سنة ١٨٥٠ فقال :

« ها نحن اولاء في مصر ارض الفراغه وموطن البطالة وموئل كليوباترا (كما يمكن ان يتعمد المرء في اسلوب راق) . نحن موجودون عليها ونعيش فيها ، وقد جعلت الحلاقه منا الرأس أنعم من الركب . تدخن في غلايين طويله ، وتشرب القهوه مضطجعين على ارائك . ماذا أقول وماذا تريد مني أن اكتب اليك ! لا أكاد افيق من دهشة الاولى ، انك لكأنت قد ألقي بك وانت نائم في وسط سيمفونية لبيتهوفن في الموضوع الذي تمزق فيه الآلات النحاسيه الاذن وتزعزع نغمات القرار ويتهدد المصفر ، يحتويك الملمح الدقيق ويأخذك ويلدغك وكلما يزيد ذلك يقل ادراكك للمجموع ثم قليلا يعود الانسجام وتعود الشجره الى الالتزام بقوانين الغايه » . (٢٣) . وجيلة جدا المقارنه بسيمفونية لبيتهوفن ، وفي نفس الوقت فان للفقره دلالتها فيها يختص بفلوير ، فرغم حدة ذكائه وقدرته الفائقة على الاستيعاب الفكرى فانه يشعر انه لا يستطيع ان يحيط بمصر في شموها ، ولكن عندما يعود الانسجام فانه لا يتجاوز الشكل الخارجي ولا يتيح قط لابن الغرب تمام المشاركة .



وبعد ذلك شرع مكسيم دوكامب في تشكيل مجموعة للذهاب لرؤية مصر الفراعنة ، وكانت إسنا التي مرا بها عند صعودهما النيل مسرح لقائهما « بالعالم » المخلدة كوتشوك هانم ، وقد صار هذا الحدث من رحلة فلوير الآن معروفا فقد سرده فلوير في يومياته وفي رسالة الى لويس بويه بتاريخ ١٣ مارس ١٨٥٠ ، وهكذا يصفها :

« ان كوتشوك هانم هي عظيمة ذائعة الصيت . وعندما وصلنا عندها ، وكان ذلك في الثانية ظهرا ، وجدناها في انتظارنا ، وكانت وصيبتها قد جاءت من الصباح الى المقارب وبصحبته خروف مستأنس لطخ في مجسوعه بالحنة الصفراء وعلى اتفه كمامه من القطيعة السوداء ويتبعها كالكلب وكان ذلك مضحكا للغاية . كانت قد خرجت لتوها من الحمام وقد غطت اعل رأسها بطريوش كبير انتشر زره على كتفيها العريضتين وعلى قمته شارة ذهبية مرصعة بحجر كريم اخضر ، وكان شعرها ينزل من تحت الطريوش عبر جبهتها في ضفائر رفيعة تلتقي على اسفل رقبته من الخلف بينا اخفض . اسفل جسمها تحت سروال ضخم وردي ، والصدر عار كله تحت شاش بنفسجي ، كانت واقفه على رأس سلمها والشمس وراها فاكتمل منظرها ، تحد اطرافه الساء الزرقاء . انها مخلوقة امبراطورية ذات ثدين ولحم ، وفتحتا انفها ضيقتان وعيناها مستمتان وفخذها فخمتان ويطبها يكسوها طبقة فوق طبقة شحم يتفاخر حين ترقص ، والركبتان والعتان ، ويدأت بأن عطرته ايدينا بماء الورد ، وكانت تنبعث من حلقها رائحة التريتين المحل بينا يحوطه مثلث من الذهب ، واهر بالموسيقين فاحضروا وبدأ الرقص » . (٢٤)

Ibid p. 563

(٢٣)

Ibid t. I, pp 605 — 606

(٢٤)

وهذه اللوحة التي رسمها فلوير نجدها مفصلة في مذكراته حيث يتم وصف رقصة كوتشوك هانم الوحشية فيقول : « وضعت لكي ترقص حزاما هو في الأصل شال أسمر فيه خطوط ذهبية حول بطنها وعقدته كربطة العنق بثلاث عقد ذهبية معلقة بشرائط وجعلت ترتفع من قدم إلى قدم يروعة ، فقدم يظل على الأرض والاخر يطفو بنا كيبا يدور قوس الساق في الهواء وخلفه عمود الساق الأخرى ، وكل هذا تغلفه قفزة رشيقه » . (٢٥)

وفي نهاية السهرة ظل مكسب وحيدا على أريكته بينما قضى فلوير الليل مع كوتشوك هانم على سرير مصنوع من سعف النخيل . والذي نستغريه هو أن هذه المرأة التي جعلت حير فلوير ينسكب وأوحى إلى لويس بويه بقصيدة بناها على وصف فلوير وحده تلوح وكأنها لم توجد إلا في خيال الكاتب ! فإن امرأة حقيقية حية - كما تبدو كوتشوك هانم - تتحدث عن نفسها وعن مشاعرها ، ولكن فلوير هو الذي يتحدث بالنيابة عنها ، ويقول : « المرأة الشرقية ليست إلا آلة » والمرأة الشرقية تتيج لفلوير أن يسلم نفسه إلى أحلامه المتقدة كما يقول في مذكراته . إن كوتشوك هانم بأنوثتها وأثوثها الدافقتين هي قلب حي لشخصيتي فلوير . . سلامبو ، وسالومي ، وكذلك لكل أنواع الاغراء الجسدى الانثوي التي تعرض لها بطله القديس انتوان ، كانت تستطيع أن تنطق بقول بلقيس سبأ « انا لست امرأة بل عالما بأكمله » (٢٦)

كذلك على صعيد النيل مر قارب فلوير ومكسب أمام طيبة وهنا يأخذنا ثراء الالوان في حصيله فلوير حيث نقرأ في مذكراته سفره وصف غروب الشمس على مدينة هابو :

« ان الجبال هي باللون التيل الداكن ، الازرق الملتحف بالرمادي المسود تتضارب فيها شرائع من النيبذ بينما تبدو النخيلات سوداء كالجبر ، والساه هراء والتيل كتضار بحيره من الرصاص المذاب » . (٢٧)

ان هذا المنظر الطبيعي يثير فيه انفعالا عميقا يحفظ به لنفسه ويحمله في نفس الوقت بكذا ويصفاه عقل يذكرنا بجبرار دونفال فيقول :

« حينما وان طرب بهذه الاشياء وانظر الى موجات ثلاث تتقلب الواحدة على الأخرى تحت الريح احسست بسعادة وقور تملو داخل بمناسبة هذا المشهد ، وشكرت خالتي في قلبي لانه اهبط لان اسر بهذا الشكل ، واحسست بنعمه الفكر مع اني لم احص انفي الفكر في شيء كانت متمه اليه شارك فيها كيانتي كله » . (٢٨)

وكان فلوير يبعد على ظهر قارب القاء اشعار صديقه لويس بويه ويذكر بالتحديد بيتي شعر يقولان :

« لم يكن أبناؤنا يعرفون العطر المخدر الذي يحمله النيل المتسكع على شطآنه » وقد كتب اليه في رسالة بتاريخ ١٣ من مارس سنة ١٨٥٠ يروي له نقاشا شهده قبل ذلك بشهور ، ويتعلق بذات البيتين فقال : -

Voyage en Orient , in oeuvres , completes ed . Societe des Belles Lettres p. 595

(٢٥)

Flaubert , la Tentation de saint A motine , in Oeuvres I.T.p 85

(٢٦)

voyage en orient , t . p . 590

(٢٧)

Ibid

(٢٨)

« أنا في حاجه سريعه لكي أؤكد لك شيئا بخصوص تشبيهك للنيل بالمتسكع ، لا يوجد تشبيه أوقع وادق وفي الوقت نفسه اشمل من تشبيهك ! انه نهر عظيم ومغرور يغلب عليه طابع المحيط اكثر من طابع اى شيء مائي آخر . تمتد على ضفتيه سهول من الرمال يفقد البصر مداها وإن كانت تمحدها الرياح كأنها خلجان . وابعاد ذلك هائله فلا تعرف الى اى طرف يجرى التيار ، وكثيرا ما تظن نفسك حبيس بحيرة كبرى » (٢٩)

ويتحدث فلوير الى صديقه ورفيق آدابه عن قلقه بشأن عمله والشكوك التي تساوره :

« أشعر ان اجوف جدا افطس جدا عقيم جدا ، ماذا افعل متى عدت ادراجى ، أنشر شيئا ام لا افعل ؟ ماذا سأكتب وهل سأكتب ؟ لا انفى عليك ان حكاية القديس انطون قد اصابني بضربه قاضي . لقد حاولت عبثا ان ابني ما يشبه حدوده شرقيه ، وكنت في الايام الاولى قد باشرت الكتابة قليلا ولكن - والله الحمد - ادركت فيها وبسرعة بلاهتها . يحسن ان يكون الواحد منا عينا وهذا حسبه » (٣٠)

أن يكون الواحد منا وهذا حسبه . . هذا يعنى مداومة الملاحظة كما أجادها فلوير منذ سفره الى الشرق .

ونزل المسافرين عبر النيل ، وهنا تبدأ استكشافات الآثار التي ينتظرها مكسيم دوكامب منذ زمن ليتعرف على المعابد ، ويرى فلوير المعابد ولكنه يرى أكثر الحياة التي تحوطها والضوء المصرى الأعظم فيكتب الى امه في ٢٢ ابريل ١٨٥٠ قائلا : « الآن نحن نهبط الى سطح النيل عالدين ببطء في عكس الانجاء الذي اتخذناه فوق هذا النهر العظيم بقلاعين أبيضين ، وتوقف امام كل الاطلال فيرسو القارب وننزل الارض ، وهناك دائما معبد يتوارى في الرمال الى كتفيه ، ولا يكاد يظهر منه الا جزء وكأنه رميم اهمل عليه التراب ، وعلى الحوائط البيضاء رسمت اوثان تحمل رؤوس التماسيح وصجول ابيض ، بينما زينت اطرافها بعصافير كأنها تسكن الشقوق التي تفصلها عن بعضها ، تنزهنا بين الاعمدة ، وازحنا التراب بعضى من خشب النخل ويمد من خيالنا المشحون ، ومن خلال ثنايا المعبد نظرنا الى الشمس التي تحرك الزرقة بينا تلوى النيل كالشعبان بين الصحراء وفاض على ضفتيه ، فجاءته كل ضفة بخصلة خضراء . مصر كلها هي هذا ! عادة يوجد حولنا قطع من الخراف السود يدبذب وغلام عارله عينا قطعة واسنان من عاج وفي اذنه اليمنى قرط فضى . انه الضوء وروعة التي تجعل كل شيء يالئ . ان ذلك يبهتنا دائما في المدن عندما تتضارب الالوان مثلا في حفل تنكري حيث تشتت الالوان بين الابيض والاصفر واللازوردي في فجاجة ثم تصفر بظلاما فتفشى عبق كل فنان » (٣١)

وراح فلوير ينتزه في الاقصر في ضوء القمر وقد القى بريقه على الاطلال الكبرى فيقول في مذكراته عن رحلته « تبرق في الظلام كتلة الاعمدة ويبدو القمر الذي يرتفع وراءها كأنه يرتكز على الافق منخفضا ومستديرا وثابتا » ومن اجلنا

نحن فقط ، ونقط لكى يهضمه الأرض المنبسطة امام الأفق ، والهواء دافئ ، والسياء تعمر بالنجوم التى تشبه فى الليل اقواسا كأنها عقود من الماس سقطت منها بعض احجارها ، بالزراية لغتنا اذ اضطررنا ان نقارن النجوم باحجار الماس !

وكان الكرنك هو الذى استرعى انتباهه بين غيره فيكتب الى امه بتاريخ ١٧ مايو سنة ١٨٥٠ قائلا :

« لن انسى قط اول انطباع لقصر الكرنك ! بدا لي كأنه صنع جن سكنوه ، وكانوا يتناولون طعامهم فى اطباق ذهبية تحوى انسا فى اسياف كالسمان » (٣٣) وكان لهذا الطابع الوحش لحياة الفراغة كما سجلها فلوير فى رسائله ، وفى مؤلفه «رحلة الى الشرق» (٣٤) اثر ملهم على روايته المقعمة ملحمة الشرق والى اسمها «سلامبو» . لقد راعه وادى الملوك . ولنقرأ خطابه الى امه حيث يصفه بما يذكرنا بجحيم دانتي فى الكوميديا الالهية فيقول :

« تصورى واديا بحاله منحوتا فى جبل لم يعد فيه نبت اكثر مما على مائدة من رخام وعلى كل من ناحيته دروب يجد كلا منها رمس ، وفى كل منها يمكن النزول بسلم يتلوه سلم فسلم ، وهكذا الى مالا نهاية ثم تدخل فى القاعات الكبيرة المنقوشة من اسفل الى اعلى وفى السقف حيث يسبح المرء ولا ابالغ ! تصورى كهوفا حوافها موهبة بالذهب واللازورد وغيرهما ! انها تصاوير خيالية اورمزية : ثعابين متعددة الرؤوس تسير على اقدام آدمية ، رؤوس مقصولة تطفو ، ويجمع بحر سفنا ، وملوك على عروشهم ، وجوههم خضرة وملاهم غريبة ، والرسومات طازجة كأنها صبحت لتوها ويخشى اذا لمسنا ان تقتشر ، وهناك عازب الحارب ، والراقصون واناس يأكلون ، انه شيء مبهل ، كفلك . . . ساعدنك عنه مرة اخرى » . (٣٥)

اى زاد يمكن لمخيلة فلوير الاعتراف منه ! سنرى ان تلك المناظر ليست فقط قدوة لرواية فلوير الشرقية اى «سلامبو» ، ولكن ايضا لروايته الريفية الفرنسية مدام بوفارى حيث ترمز الحية للقرام الجلب او القاتل .

كذلك سحر البحر الاحمر فلوير ، وقد نزل يستحم فيه باستلذاذ ثم ظل يرقب مدة وجزره طيلة ساعات . ونشر ثانيه الى فن فلوير الرسام الذى يهوى الف لون ولون فى رسالته الى لويس بويه فى ٢ يونيو سنة ١٨٥٠ :

« كان قاع الماء يحوى ألوانا بفضل اصدائه وقواقمه ومرجانه تفوق ما تحويه حقول الربيع ببراعمها ، اما عن لون سطح البحر فقد امتزجت فيه كل الاصباغ المحتملة وتدرجت بعضها فوق بعض ، وذابت معا ، بداءا بالبيكولاته وانتهاء بالزرد : يده بالوردي وانتهاء باللازوردى » . (٣٥)



Correspondance , t.I, p. 620

(٣٣)

Voyage en Orient , t. I, pp 135 — 156

(٣٤)

Correspondance , t.I, p. 621

(٣٥)

Ibid , p 627

(٣٥)

واخيرا تنتهي الرحلة ونقرأ في ملاحظات كراسات السفر :-

« اليوم الأخير .. وداعا .. ان حزني عند الفراق يجعلني ادرك مدى نشوق عند الوصول .. التسوه يجلبن الماء ، الفلاحون لن اراهم كلهم بعد ولا الطفل الذي يستحم في بركة الساقية الصغيره » .

وكتب من الاسكندريه بعد سفره قائلا :

« غادرت السفينه المنياء بينا انا نائم ، لم ار ارض مصر تتوارى وراء الافق ولم استطع توديعها .. ترى هل اعود

يوما ؟ »

ويجب التاريخ على سؤال فلوير بـ « لا » . فلم يعد قط ، وهو الذى قضى في سنة ١٨٥٨ بضعة اسابيع في تونس حول موقع قرطاج الأثرى بغية كتابة روايته سلاميو وكانت آخر مره رأى فيها الشرق .

وقد سافر فلوير ومكسيم دوكامب بعد ان غادرا مصر عبر فلسطين وسوريا وتركيا واليونان وإيطاليا حيث لاقتهما ام فلوير في ابريل سنة ١٨٥١ ، ولم ينس فلوير قط ان مصر أول ما افعمه بالالوان . وقال في رسالة كتبها الى لويس بويه من القسطنطينية في ١٤ نوفمبر سنة ١٨٥٠ ، وفيها يتحدث عن مؤلفات « اسفار تشيلدهار ولد » ، « وحكايات من تركيا » التي تضم كذلك قصة « خطيبه ابيدوس » « للورد بايرون » ، قال :

« فكرت كثيرا في بايرون امام ابيدوس ، هذا هو الشرق الذى رآه ، هو الشرق التركي ، شرق السيف المقوس والجزء الالبانية والنافذة المحصنة بالقضبان المطله على فيض ازرق ، أما انا فاحب حمرة شرق البدو في الصحراء ، احماق افريقيا المتلفه . قل لى ما هذا الشوق الكثيف للرجوع الى مصر ؟ » (٣٦)



لقد كان للرحلة للشرق في حياة فلوير مكانة كبيرة ليس فحسب للوقت الطويل نسبيا الذى كرسه لها هذا المحب لنزله ، ولكن ايضا للتأثير العميق الذى لها على فنه . فهو مدين لها بأكثر مما تنتظر عادة ان يدين به كاتب لرحلة ، وقد رصد منها موضوعات أهمته وأثرت من تلقاء نفسها بتفاصيل عديدة ، ويلمسات الألوان التي لولهاها نظلت فرشاته متحجرة ، بل وبإعادة بعض اهم مؤلفاته . وقد وجد في الشرق اتساعا لأفاقه ، كما جعلته انطباعاته عن الآثار الصامته الشاهدة على التاريخ والعروض المتحركة الشاهدة على الاختلاقيات والمعادن المختلفة ، جعلته يفكر عند عودته ، وتشهد بذلك رسائله التي تقول لنا بأثر الشرق القوي عليها ، ويدين كثير من مؤلفات فلوير سواء من حيث الأصل او تحديد التفاصيل لرحلته الشرقية ، وان كان اوضحها يتمثل في سلامبو سنة ١٨٦٢ وهيرودس سنة ١٨٧٧ ، وعدة صفحات من اغواء القديس انطون سنة ١٨٧٤ . وتبدولنا أهمية المكانه التي تتمتع بها رسائل الروائي وكراسات سفره التي تابع تدوينها نقول أهميتها لمعرفة عمله مجموعه .

وكما يقول فلوير نفسه في رسالة لاحقه الى أرنست شيفالييه :

« اي نعم لقد رأيت الشرق ان مرأى ابي الهول كان احد المباحج التي اعتدت بمقل اكثر من اى شيء في حياتي ، وإذا كنت لم ألقى حتى هنالك فذلك لان جوادى او الله لم يرد ذلك عن قصد » .

لقد فصل فلوير جيذا الملامح الخارجيه لبلاد الشرق ووصف طراوة شواطئ البحر المتوسط وشجنتها كما وصف سحر مدن السواحل عند انقشاع الفجر او حلول القمر . ويمكن لمن قرأ رواية سلامبو ان يعيد قراءة الصفحة التي وصف فيها قرطاجنه في النوم . ففيها كل سحر تونس والاسكندرية ، واسهب في وصف الشرقيين الذين جاوهم في وصف ملابسهم وازيائهم وعاداتهم وطرق معيشتهم .

ولا نستطيع مع ذلك ان ننحجم عن ابداء دهشتنا عندما نقرأ رسائل فلوير ! هؤلاء الشرقيون الا يتكلمون هم ابداء عن انفسهم بأنفسهم ؟ الا يهبرون هم اطلاقا عن مشاعرهم وعن حضورهم وعن تاريخهم ؟ ان فلوير هو الذي يتكلم بلسانهم ويمثلهم . أوليس هذا مسلك كل غربي في القرن التاسع عشر تجاه الشرقي او تجاه الآخر الذي لا يراه حقا ؟ ان روابط الغرب بالشرق يحكمها السيد والتسلط ، ويلتزم لم يكن مسلك فلوير الغربي في نهاية القرن التاسع عشر حالة منفردة ، فهو يعبر بها فيه الكفاية عن رؤيه الغرب للشرق ولغوره ، وللکلام القليل الذي يأبى الغرب أن يسمع من الشرق غيره .



المراجع

J.P. Sartre L. de la famille Gustave Flaubert, paris Gallimard, 3 vol. 1971 — 1978

BIEM, J 'langages de flaubert' Revue d, Histoire Française .

Septembre 1976 pp. 849 — 851

BONNACCO RSO, Giovanni, 'L influence de L orient dans la Trois les Amis de Flaubert, no 50 mai 1979 pp. 9 — 21, no 51 decembre 1979 — pp. 29 — 41

BRUNEAV, Jean ' le voyage en Egypte de flaubert et de langlois'

le pays d Auge, Fevren 1976 — pp. 3 — 8

COMBESCOT, Pierre. ' le mirage de L orient chez Flaubert Magazine no 106 Janvier pp. 18 — 19

CARLUT, charles essai sur Flaubert, paris Nizet 1979

EL - NOUTY, Hassan Le proche - Orient dans la Littérature de Nerval a barres, paris, Nizet 1958

NADEAU, Mourice Gustave flaubert, écrivain, paris, les lettres nouvelles, 1980

PROSCHW, TZ, Gabor von. flaubert dans ses lettres un Coeur amis a nu'

les Amis de flaubert, no 45, decembre 1974, pp. 20 — 22

PRUCHET, Aude La

SUFFEL, Jacques, quelque remarque sur la correspondance Flaubert et de Yonime du camp'

essais sur Flaubert, no 3616, 1979 pp. 23 — 61

VACCARO, Barbarei Pietro ' l arte flaubertiana attraverso la corrispondance

' Culture Française, Bari, Luglio agosto 1979, pp. 109 — 120



هذا هو الكاتب الذي قال عنه الناقد المعروف ديفيد ديكس David Daiches إنه أصعب كاتب انجليزي يمكن تقييمه من الناحية النقدية^(١) . ولا بد أن ديكس كان على وعي بأسلوب مردث المعقد في الكتابة عندما أطلق هذا التصريح النقدي في دراسة مطولة لتاريخ النقد الأدبي الحديث . وما دنا بصدد الحديث عن رسائله فالسؤال الذي يطرح نفسه هنا هو ما إذا كان أسلوب مردث في رسائله يختلف عنه في رواياته التي كان يكتبها ديكس في تعليقه ؟ ولكن قبل البدء في الموضوع لابد من عجلة تعرض سيرة حياة الكاتب سيما وأن الرسائل تكون عادة مرتبطة ارتباطا مباشرا أو شبه مباشر بحياة الكاتب التي يحاول جاهدا طمس معالمها الواضحة عندما يحولها الى فن .

ولد جورج مردث George meredith عام ١٨٢٨ في مدينة سوثهامبتون Southampton من أبوين متوسطي الحال ، وكان أبوه يعمل في حائوت يختص بتجهيز الزي لأفراد الأسطول البحري ، وهو وحيد أبويه ، وقد توفيت أمه قبل أن يبلغ السادسة من العمر . وتلقى علومه الأولية في مدرسة داخلية وذلك على نفقة تركة صغيرة كانت والدته قد خلفتها له . وفي عام ١٨٤٢ التحق بمدرسة تدمي Moravian تقع على نهر الراين بالألمانيا لعامين ، وقد رجع من ألمانيا الى بريطانيا في تموز ١٨٤٤ . وفي الثالث من شهر شباط عام ١٨٤٦ التحق بمكتب محام للتدرب على أعمال المحاماة فيه .

وعمل لمدة خمس سنوات بجانب محام يدمي Stephen charnock ولحسن الحظ أو لسوءه كان

رسائل مردث « التعبير عن الصمت »

محمد شاهين
الجامعة الاردنية

لدي عمامه ميول أدبية ساعدت مردوث نفسه على التعرف بعالم الأدب مما أدى الى أن يكتشف في نفسه ميلا أكثر الى الأدب ونتيجة لذلك هجر المحاماة في عام ١٨٤٩ وانتهى في نهاية الأمر الى الأدب ليتخذ منه حياة ومهنة استمرت حتى النهاية .

ومن خلال عمامه تعرف على شريكة حياته الأولى التي كانت من بين الأدباء الناشئين الذين شاركوا في اصدار مجلة محدودة الانتشار واسمها : The Monthly Observer وكان مردوث ومامه من بين المحررين للمجلة وقد وقع مردوث في غرام Mary Ellen من خلال النشاط الأدبي الذي كان يجمع الاثنين معا ، وهي ابنة الأديب المعروف Thomas Love Peacock وكانت تكبر مردوث بعدة سنوات وهي أرملة توفى زوجها البحار في حادث سفينة عام ١٨٤٤ .

وعاش مردوث بعد زواجه حياة هوز حيث أن دخله من الكتابة التي انكب عليها لم يكن كافيا ، وفي السنين الأولى من الزواج أقام مردوث في بيت والد زوجته الذي كان يتميز بعادات شخصية غريبة كخوفه الشديد مثلا من حدوث حريق بالبيت في أية لحظة ، وبما زاد حياة العوز إنجاب طفل اسمه Arthur عام ١٨٥٣ وفي عام ١٨٥٥ كتب مردوث قصته الأولى واسمها The Shaving of Shagpat وهي أشبه بقصة طويلة مستقاة من مصادر شرقية ولا توجد فيها خصائص الرواية وفي عام ١٨٥٨ تازمت العلاقة بين مردوث وزوجته ربما كان العوز فيها دافعا رئيسيا وفي نهاية العام هرب ميربي مع Henry Wallace الفنان الذي وقعت ميربي في شركه ، الى ايطاليا . وما هي الا بضعة أشهر حتى عاد الطرفان الى بريطانيا بعد أن فسدت العلاقة بينهما .

وقد بلغت حدة التأثير عند مردوث مبلغا جعله يعاني بالطفل الذي تركته ماري وراءها بنفسه ، دون الاستعانة بأية امرأة في هذا السبيل ، وقد منع أمه من رؤيته إلا في الأيام الأخيرة ، عندما كانت تشرف على الموت وبعد توصلات لاحد لها ، أما هو شخصيا فلم يرها طيلة سنوات الانفصال الأربع سوى دقيقتين في أمر يتعلق بابنها .

وقد سجل مردوث هذه التجربة في روايته الأولى التي تدعى The Ordeal of Richard Feverel والتي نشرت عام ١٨٥٩ ، وهي بلا شك رواية تحمل مكانة خاصة في الرواية الانجليزية وأثارت ضجة بين الجمهور ساعدت عنها في مكان لا حق هنا ، وقد نجح مردوث في تحويل المحنة الشخصية الى رواية فنية ، استطاع فيها أن يسيطر على مشاعره الشخصية الجارفة التي كانت تشعره بمأساة الحدث .

وفي عام ١٨٦١ توفيت ماري بعد هجر دام حوالي خمسة أعوام وقد اختتم مردوث هذا الفصل من حياته بمجموعة من القصائد نشرها تحت عنوان Modern Love وفيها يستعرض مردوث بب؟لوب شعري جلور المأساة التي يعتقد أن كلا الزوجين ساهم في المأساة بقدر متساو واعترف مردوث أن انشغاله في كتاباته قد أسهم في تحول قلب ماري عنه الى شخص آخر وأن العاطفة الزائفة التي كانت لدي ماري والتي ظن أنها كانت ضربا من الجنون الذي ورثته من أمها كان سببا آخر وقال قولته الشعرية المشهورة والتي تناقلها نقاده عنه من بعده (Passions Spin the plot)

وقبل ذلك بما يزيد من عقد من الزمن (١٨٥١) كان مردث قد نشر مجموعة من القصائد هي في الواقع قصيدة واحدة واسمها Love in the Valley وكانت تحية عطرة لمحافظة الحب الجياشة التي شعر بها مردث نحو ماري في أيام غرامه بها .

وبعد ذلك بأعوام تزوج مردث من فتاة اسمها Marie Vulliamy عام ١٨٦٤ ، وعاش معها حياة وادعة ململها الاستقرار النفسي الى ان توفيت عام ١٨٨٥ وكانت مثال الزوجة التي عرفت كيف تتعامل مع زوج يقضي جل وقته وهو يعيش الكلمة ويدون أن مردث نفسه تعلم من زواجه الأول فابتعد عن الهوى ومسبباته طيلة زواجه ورضي بما تقدمه الحياة الزوجية في الظروف العادية الواقعية .



انصرف مردث بعد الزواج الى تحقيق طموحه في الكتابة وحاول في الستينيات محاولة جامدة كسب شهرة في هذا المجال . وكان يعلم حق العلم أن الرواية التي تعرض حوادث مثيرة وقصصا تعتمد بشكل رئيسي على الحداث أكثر من اعتمادها على الشخصية هي الرواية التي كانت تلاقي رواجاً عند جمهور القراء وما كان منه الا أن حاول مثل هذا النوع من الرواية رغم أنه في الوقت نفسه يخالف معتقداته الأدبية ، وتوفرت لديه المادة سيما وأنه كان يعمل مراسلا لـ *Morning post* وذهب لعل الى إيطاليا ليغطي أخبار الحرب الإيطالية وليستخدم تلك الأخبار خلفته لروايته *Emilia in England* و *Vittoria* وتتميز رسائله التي كتبها في هذه الفترة بلهفة الى تحقيق الشهرة غير أن رغبته هذه ظلت بعيدة المثال وانصرف عنها الى الأبد .

وفي بداية السبعينيات كتب رواية حققت رغبته من ناحية فنية وفي الوقت نفسه جذبت أنظار الجمهور اليه أكثر من ذي قبل واسم الرواية Harry Richmond وتحكي قصة البطل نفسه ، وكيف أن تجربة الحياة هي التي تشكل نمو الشخصية على مر الزمن . والرواية في هيكلها العام تشبه رواية Richard Feverel من حيث إنها تدور حول قصة الصراع بين الأب وابنه ، فيما يتعلق بالأخلاق والعطاء في أمور التربية ، وكتب مردث هذه الرواية على غراما يعرف في الأدب باسم *Bildungsroman* والأصل في هذا النوع الأدبي - كما يشير الاصطلاح - ألماني ، وهو نوع كان جوته رائده وكانت روايته المعروفة Wilhelm Meister أساسا له ، وقد شاع هذا النوع الأدبي في منتصف القرن الماضي واستمر بعد ذلك يظهر عند أشهر الروائيين في هذا القرن وتتركز حوادث مثل هذه الرواية حول البطل الذي يروي قصة حياته بنفسه ، وبعض لنا تجاربه من الحياة العملية وتأثيرها على نمو شخصيته وضمن هذا النوع الأدبي كتب فيتكنز روايته *Great Expectations* وكتب توكري Henry Esmond

وفي هذه الفترة كتب مردث أيضا رواية أخرى من نوع آخر وهي : Beauchamp, s Career وهي على منوال رواية George Eliot التي ظهرت قبل رواية مردث بقليل وهي Felix Holt وكلتا الروايتين لها خلفية سياسية تتعلق بالانتخابات المحلية التي تشكل أهم جزء في تاريخ البلد السياسي وهي أيضا رواية تحكي الصراع بين فردية

الشخصية التقدمية وخلفيتها المعارضة مضافا الى ذلك الصراع بين واجب الفرد السياسي وهواه الشخصي ومن حيث الانجاز الفني لم تكن الرواية أقل من سابقتها .

أما في الثمانينيات فقد كتب مردث *Diana of the Crossways* وهي الرواية التي أقبل عليها الجمهور بشغف لا مثيل له في ذلك الحين والسبب أنها روت فضيحة سياسية نشر تلميح عنها في جريدة التايمز ولمخلص الأمر ان زوجة أحد المسؤولين السياسيين البارزين أفضت سرا يتعلق بقوانين بيع القمح وهي في عرف الشعب الانجليزي فضيحة لا أخلاقية كبرى ، وقد أثارت الرواية فضول الجمهور من حيث معرفة ديانا الأصلية ولم يتم مردث طبعا بكشف النقاب عن الشخصية التي استقى « بها الحادثة » ، كذلك لم تعطه الشهرة التي كسبها فجأة عند الجمهور تلك الرغبة التي كان يتوق إليها من قبل ، وهو أيدسا لم يكتب الرواية بقصد الشهرة ومن هنا تبدو المفارقة .

واختتم مردث أعماله الروائية في التسعينيات بمجلدين رئيسيين ، الأول : *One of our Conquerors* والثاني *The Amazing Marriage* ويبدأ الأول بأطول جلة في اللغة الانجليزية . وقد لغت الرواية التي تعتبر أعقد رواية في أسلوبها أنظار المراجعين للرواية وعلق الجميع على أسلوبها المعقد وجملتها الانتحاحية وتدور حوادث الرواية حول حياة رجل أعمال لم يفته غناه عن فراغ حياته الشخصية ، عاش حياة ملؤها القلق والحيرة ينتقل من مكان الى آخر مع غليلته التي أحبها وعاش معها كزوجة وكان يحشى نقمة المجتمع الذي كان يمكن أن يطيح بماله وجهه لو عرف عن سره هذا وقد عاشت *Nataly* حياة تفلور من الاستقرار النفسي وكان *Victor* يأمل أن يحل القدر المشكلة مع زوجته الأولى التي لم يحبها يوما واحدا والتي وجد نفسه زوجا لها بقوة التقاليد الاجتماعية ، ورغم اللحظات السعيدة التي كانت تجمع بين فيكتور وناتالي الا أن حياة الجحيم كانت هي التي تسيطر في أغلب الأحيان ، فكلاهما كان يشعر بخطورة المغامرة في الحياة الحاضرة وقسوة الغموض بالنسبة للحياة المستقبلية وكان فيكتور حل وعي بما تقاسيه ناتالي مما يزيد من معاناة نفسه بسبب أن ناتالي كانت عاجزة تماما عن السير في أي خطوة عملية كامرأة في ذلك العهد ، وكانت براءتها الملعوبة تعذبه أكثر من عجزه شخصيا عن السير في حل عملي . ويخلص فيكتور من هذا الموقف الى نظرة عميقة في الحياة ، نشر أنه يصل إليها بسبب المعاناة الحقيقية .

وتعرض الرواية الأخرى حياة بطل نرجسي ورومنيتيكي هجر زوجته بعد اليوم الأول من الزواج دون معرفة الأسباب . ويحلب هذا التصرف على نفسه دمارا عاطفيا حيث يعيش *Fleetwood* نتيجة هذا التصرف في حيرة من أمره وعندما يحاول أن يصلح الأمر يكون قد فاتته الأوان لأن *Carinthia* البرينة تكتسب خبرة من الحياة نتيجة القسوة والمقاساة .

بقي أن نذكر أن مردث كان في الأصل شاعرا وانجبه الى الرواية لأن كتابة الشعر لم تكن لتؤم له أي دخل مادي يذكر ورغم انشغال مردث بالرواية فقد ظل يكتب الشعر من حين الى آخر ، وإلى آخر أيام حياته ، وقد ظهرت أشعاره في مجلدين قامت بنشرهما مطبعة جامعة ييل قبل أعوام قليلة ، كذلك نشر مردث مقالة نقدية طويلة عام ١٨٧٨ تعالج

الكوميديا وتعتبر وثيقة هامة في تاريخ الكوميديا ، وفحواها أن الكوميديا قوة تبحث عن كل ما هو زائف في الإنسان لتشره به أولاً ثم لتشفيه منه ثانياً ويعتقد مردث أنه إذا وصل الإنسان إلى درجة أن يضحك على ما في نفسه من زيف فإن هذا سيكون هو بداية الخلاص عما هو زائف . وفي معرض الحديث عن الكوميديا يقول إننا عندما نضحك على غيرنا نحن نحجب لأن هذا لا يعني أننا ننقل عيبتنا إليهم . وحاول مردث تطبيق هذا الأمر النظري في روايته التي تكاد تكون أشهر ما يعرف عنه وهي *The Egoist* وقد تمجبت ذكرها لأن الحديث عنها يكون مرتبطاً بالحديث عن الكوميديا والذي لا داعي للحديث عنه هنا .



عندما توفي مردث عام ١٩٠٩ سارع ابنه وليم في الاعلان عل صفحات الجرائد عن نيته بشأن جمع رسائل والده ونشرها لتصبح في متناول الجمهور وبعد حوالي ثلاثة أعوام ظهرت الرسائل في مجلدين وحازت على استقبال حار من المراجعين الذين أدلوا بتعليقاتهم في مختلف الصحف والمجلات ، وقد ذكر أحدهم في الملحق الأدبي لجريدة *TLS* أن الرسائل تعرف القاريء عن قرب بعقل يتمتع بقوة غير عادية تجعل القاريء يتسامح فيها إذا كان هنالك عقل آخر يتمتع بمثل هذه القوة في الأدب الانجليزي بجانب عقل شكسبير .

وفي الوقت نفسه وجهت الصحيفة نقداً إلى عملية التحقيق ووصفتها بأنها ناقصة حيث إن وليم ضمن لهما من الجزء الأول حواشي مختلفة تفسر ما ورد في المتن ولكنه توقف عند ذلك الحد وجاء المتن في أغلبه بعد ذلك دون حواش وأبرزت الصحيفة نقداً آخر يتعلق بندرة الرسائل التي تتعلق بزواجه الأول الذي ما زالت تفاصيله تثير فضول المهتمين بأدب الكاتب وحياته^(١) .

ولا بد أن وليم أعطى نفسه الحرية في منع بعض الرسائل من الوصول إلى الجمهور عن طريق النشر على الأقل وتحويلها شك لم ينشر جميع الرسائل التي وردت إليه ، وهو بذلك كان يحافظ على قديمة أسرار والده الشخصية سيما وأن مردث نفسه كان فكتورياً إلى حد كبير فيما يتعلق بالأمور الشخصية ورغبته في إخفائها عن الجمهور ، ولا اعتقد أنه توقع في يوم من الأيام أن تنشر رسائله على الملأ

وعندما عرض عليه أحد الكتاب في ذروة شهرته مشروع إعداد سيرة حياته رفض المشروع بدون تردد^(٢) . كذلك لم يأذن لزوجته اللورد جوردن بنشر رسائله التي كتبها لها وهي شابة يانعة حتى بعد مضي ما يزيد عن الثلاثين عاماً على كتابتها وأجابها أن تلك الرسائل ربما شابهها يجب أن تظل بعيدة عن النشر والانتشار ومن الواضح أن مردث لم يكن يفكر

Meredith's letters *The Times Literary Supplement*, 10&17 October, P.58&60.

(١)

(٢) كذلك حاول أستاذ مردث بايهم اللورد موردي مصداقه الفاع السير جيمز باي ، أمية في هذا الأمر ، بكتابة سيرة حياة مردث ، غير أن السير جيمز رفض المشروع فلما إن مردث نفسه عارضه بقوله هذه الفكرة في حياته وكل ما كان يريد هو أن يترك الناس من خلال أعماله الفنية . وقد وردت هذه الخلاصة في كتاب :

Robert Emende Secourt, *The life of George Meredith* (London, 1929), P. vii.

في الشهرة على المدى البعيد ، ويكفي أن نعلم أنه كان يستخدم صفحات المخطوطات التي فرغ من نشرها لفافات يشعل بها التبغ ، كذلك تروي ابنته أنها رأته يعمل حريقة وقود نارها المخطوطات التي اعتقد أنها غير لازمة أو صالحة للنشر ، أما المخطوطات الثقيلة فقد وزع أغلبها على الأمة التي كانت تعتني به ، والجناثي الذي كان يعمل عنده في البستان .

كل هذا يجعلنا نعتقد أن مردث كتب رسائله بتلقائية بعيدة عن التحسب والتخوف وما وصلنا منها كان في تقدير مردث أنه سيظل طلي الكتمان ، أي أنه لم يكتب رسائله بمنظور يشبه منظور هنري جيمز Henry James الذي كان يكتب وهو يعلم أن الرسائل ستكون سجلا أدبيا للخلف ، وهذا ما جعله يكتب باستمرار وهو لا بد أنه كان على وعي بهذا ، فقد كتب مثلا ما يقرب من خمسمائة رسالة إلى Edmund Gosse لورده .

وفي عام ١٩٧٠ طلعت علينا مطبعة جامعة اكسفورد بثلاث مجلدات حوت بين صفحاتها حوالي ألفي رسالة ، علاوة على السبعمئة والسبع والثمانين رسالة التي ظهرت في المجلدين السابقين . وقام بجمع وتحقيق الرسائل الأستاذ كلاين C. L. Cline وقضى باعتزافه زهاء ربع قرن في هذه المهمة ، وجاء المتن هذه المرة ومن حوله الحواشي المفسرة والمرشدة أكثر دقة وانضباطا ، وقد عاب كلاين على وليم أنه لم يقيم بمهمته على الوجه الأكمل واتهمه مثلا أنه لم يرد بعض الرسائل التي وصلت إليه لنقلها ومن ثم نشرها كما وعد ، ومثل تلك الرسائل رسائل صديقه الحميم John Morley وخلال تلك الفترة التي قضها في جمع الرسائل لم تقع في يد كلاين رسالة واحدة أصلية من مورلي حتى يستطيع - مثلا - مقارنتها بالرسائل المنشورة ما أدى إلى نشرها في المجموعة الجديدة كما هي ^(٤) . وقد بالغ كلاين في حقن على وليم وأدعي أنه استعمل اسم مورلي ، صديق والده في الإعلان عن الاستعداد لنشر الرسائل كغطاء للحصول على الرسائل دون أن يدرك أن مورلي كان أحد الأوصياء الثلاثة الموكلين في شؤن وتركة مردث ^(٥) . كذلك ادعى أن القصور الذي بدا في جمع الرسائل ونشرها كان مرده إلى أن وليم كان منفصلا عن زوجته وكان يقيم أغلب الوقت في منزله خارج لندن .

غير أن الرسائل التي كتبها وليم في العشرينيات تدل دلالة واضحة على اهتمامه برسائل والده وقد كان في نيته أن يجمع ما تبقى من رسائل والده ويخرج طبعة جديدة ، ومن النظرة الأولى إلى تلك الرسائل يمكن أن نستدل أن وليم كان جادا في الأمر وعلى وعي تام بالمسؤولية وأنه لم يكن البيت مستهترا بالأمر ^(٦) .

ويبدو أنه غاب عن بال كلاين نفسه أن عمل أي محقق وجامع يظل ناقصا مهما حاول صاحبه الوصول إلى درجة الرضا أو الكمال ، مثلا هذه مقدمة كلاين لعمل أفني فيه زهاء عقدين من الزمن تحيي خالية من أي إشارة إلى القيمة

(٤) انظر مقدمة الرسائل : C.L. Cline (ed.) The letters of George Meredith 3 vols (London, 1970), pp. xdx - xxv.

ولقد كتب كلاين عن نفس الموضوع قبل وبعد ظهور الرسائل ، وفي أكثر من مناسبة خطبها وبالد في هذه المسئلة :

John Morley, Recollections, vol.I, (London, 1917) p.36.

(٥)

(٦) بدلا من نية وليم احسنه واعتدله الجدل نحو رسائل والده رسالة كثيرة ونسخت من الرسائل المطبوعة التي ضمتها اشياء كثيرة زائدة على ما جاء في المجلدين والمخطوطين في مكتبة جامعة اكسفورد .

الأدبية التي يمكن أن تضيفها الرسائل وتكتفي بتعجيد عملية الجمع والتحقيق نفسها حتى أن العملية تتحول إلى قصة شيقة في حد ذاتها ويؤكد ذلك أن كلاين كرر هذا التعجيد في مواقع كثيرة تمتد من الخمسينيات إلى نهاية السبعينيات .

كذلك غفل كلاين عن الاعتراف بجهد أكثر من اهتم بدراسة وتحقيق مردث واسمه Maurice Buxton Forman وقد قام فورمان في العشرينيات بنشر مجلدين من البليوجرافيا عن مردث كان لها الفضل في تدوين المصادر الأولية والثانوية التي تتعلق بأعمال مردث ، ولولاها لاختضت وربما إلى الأبد معلومات قيمة عن مردث ومازال المجلدان مرجعين هامين عن مردث ، هذا بالإضافة إلى كتاب نشره فورمان وجمع فيه مقالات نقدية كتبت عن مردث ، أضاف إلى ذلك بعض الرسائل التي نشرها في ملازم محدودة الانتشار ، وقد حاول كلاين أن يتخطى فورمان عن عمد لاعتقاده أنه ابن موريس Harry الذي كان شريكا للبليوجرافيا الشهير Wise والذي برع في تزوير عدد الملازم التي كان ينشرها بين الحين والآخر في بداية هذا القرن . وقد تصادف أن حصلت على بعض ما كان قد جمعه فورمان والذي تركه لابنته التي بعثت به إلى أكبر مزاد في بريطانيا واسمه Sotheby^{١٧} . وفي حوزتي مجلدا للرسائل مع أوراق كثيرة مختلفة كان فورمان قد وضعها بداخل المجلدين . ومن الملاحظ أن فورمان قابل كل رسالة مطبوعة مع الأصل الذي جهده في الحصول عليه من مصادر مختلفة والذي كان قد انتهى إلى مكتبات مختلفة في بريطانيا وأمريكا ومن الواضح أن فورمان كان ينوي إصدار طبعة جديدة للرسائل ، ولو قدر لها أن تخرج إلى حيز الوجود لجاءت عملا جيدا متميزا بالدقة والانتزان . ومن الطريف أن أغلب الرسائل التي جمعها كلاين وأضاع وقتا طويلا في الحصول عليها كانت موجودة عند فورمان ، إما منسوخة بخط يده أو مطبوعة على الآلة الكاتبة ، ولكنها لسبب أو لآخر بقيت محفوظة في مكتبة فورمان بعد أن قرر الانقطاع عن عالم البحث في أواخر الثلاثينيات من هذا القرن . وقد أشراني الحصول على ما حصلت عليه من أوراق فورمان على تجهيز مختار لرسائل مردث نواته العمل الذي قام به فورمان ، ولكنني أضفت إليه في السنوات الماضية شيئا من جهدي الشخصي بعد أن وصلت إلى كل ما يمكن الوصول إليه من أوراق ورسائل مردث ويضم المختار بعض الرسائل التي لم تظهر في المجموعة التي نشرها كلاين ورسائل أخرى ظهرت ، ولكنها لم تدقق لعدم تمكن كلاين من الحصول على أصولها ، وأمل أن تنشر هذه الرسائل في المستقبل القريب حيث إنها الآن جاهزة ومعدة للنشر .

ولا يعاب على محقق أن تكون مجموعة رسائله غير حافية لبعض الرسائل أو أن تكون بعض الرسائل غير مقارنة مع النص الأصلي ، حيث إن الأمر في أحيان كثيرة يخضع لعمل الصدفة . ولكن النقد الذي يمكن أن يوجه إلى كلاين هو أنه لم يحاول إبراز القيمة الأدبية لبعض الرسائل ، فهذه مقدمة مثلا تبجل مردث الأديب ولكن دون أية إشارة محددة ومفيدة للنواحي الأدبية ، كذلك الحواشي لم تتعرض لغبر حوادث السيرة الأدبية ، أي أن كلاين عامل الرسائل معاملة تكاد تكون متساوية من حيث أهميتها . وربما هذا هو الذي جعل الأستاذ Christopher Cricks يقلل من قيمة الجهد الذي بذله كلاين عندما راجع الرسائل المنشورة على صفحات جريدة التايمز في ملحق السبت عام ١٩٧٠ بعيد نشرها . ولا أقصد من هذا أن يتحول كلاين من جامع ومحقق إلى ناقد ومحلل ولكني أعني بشكل خاص أن ينوه على الأقل إلى ما في بعض الرسائل من قيمة أدبية تتميز على غيرها من الرسائل التي كتبت بقصد التفاهم على عمل أو أمر ما .

ومن المعروف أن رسائل الأديب تختلف عن رسائل غيره من عامة الناس من حيث ارتباطها غير المباشر بأدبه وهذه هي القيمة الحقيقية التي تظل محفظة بها . ولو كانت رسائل الأديب مهمة في حد ذاتها لتساوت في قيمتها مع أية رسائل أخرى ، أو لربما كانت قيمتها أقل . فهنالك من غير الأدياء من يكتب رسائل تكون شيقة أكثر من رسائل الأدياء . . . ويمكن أن يكون هذا هو السبب الذي يجعل بعض المحققين يشركون من لديهم الخبرة والتخصص في الناحية الأدبية وذلك ليتحقق التوازن المطلوب وليظل كاتب الرسائل في نظر القارئ أدبيا قبل كل شيء .



وفيما يلي عرض موجز لمختارات من رسائل مرثد كتبها في ظروف معينة ولها أهمية خاصة في حياته سواء ما ارتبط منها بالحياة الشخصية أو بالنشاط الأدبي^(٨).

هذه مثلا مراسلات مرثد مع R.H.Horne الكاتب الذي كان يعرف بنشاطاته الأدبية المتنوعة دون التخصص في نوع أدبي محدد وكان على صلة بالمجلات والمصحف الأدبية وهذه رسالة من أوائل الرسائل التي أمكن الحصول عليها والتي نشرها كلاين في مجموعته ولكنها كانت في متناول فورمان وقد كتبها مرثد في بداية حياته الأدبية في الثامن من مارس ١٨٤٩ .

سيدى ،

« أنت شاعر وناقد ومن خلال بعض كتاباتك تبين لي ما تكنه من عاطفة للشعراء الناشئين . ولما كانت هذه حقيقة نادرة بين رجال الأدب فقد أعطيت نفسي الحرية في الكتابة اليك بدون استئذان .

وأود أن أضع بين يديك بعض القصائد التي نظمتها لتعطيفي رأيك (الذي أستطيع أن أثق به) في قيمتها أو بشكل خاص فيها أمتلك من قوة شعرية .

وإذا كان هذا الطلب سيأخذ كثيرا من وقتك الثمين (الذي سعدت بالتعرف على ثماره) فلإني طبعاً سأكون قانعا ومنفعتها للوضوح أما إذا كان في مقدورك أن تساعدي بصيحتك فلإني سأكون مدينا لك بالشيء الكثير وشاكرا لفضلك » (I , ١ - ٢)

وفي رسالة أخرى كتبها اليه بعد ذلك تحوالي شهر أخبره فيها أنه كان سعيدا عندما وجد طلبه الذي أوصاه به وهو بعض أشعار جوته بالألمانية وشكره على ما أسداه من نصائح حول كتابة الشعر . وبعد ذلك بعام تقريبا أرسل له رسالة على شكل قصيدة مرفقة مع قصيدة طويلة كتبها مرثد نفسه ونشرها في أول مجموعة شعرية له عام ١٩٥١ . وقد كان هورن الفضل في تقديم مرثد إلى المجلة التي كان محررها تشارلز ديكنز وهي **Household Words** وقد أسهم مرثد وزوجته ماري في تحريرها خلال السنوات الأولى من زواجهما في الخمسينيات .

(٨) نرجع إلى رسائل مرثد التي ترد في الفن هو المجلدات الثلاثة التي ترد في الفن هو المجلدات الثلاثة التي حفظها زوجها البرفسور كلاين والتي نشرها جامعة أكسفورد عام ١٩٧٠م . والاشارة التي في الفن هي لرغم المجلد باللغة اللاتينية والصفحة بالإنجليزية العربية .

وبعد ما يقرب من عقدين من الزمن كتب مردث الى هورن رسالة يشكره فيها على مسرحيته التي عنوانها *Tragedy of Marlowe* والتي يقول مردث بأنه أجبر أصدقائه على قراءتها ويأمل أن يكون ثمن ذلك الاجبار هو أن يفعلوا مع غيرهم ما فعله هو معهم ، ثم يحتلر له عن عدم رده على رسالة كان هورن قد بعث له بها من استراليا . ويضيف قائلا بأنه لا تتوفر لديه صورة شخصية يبعث بها اليه تلبية لطلبه ولا نسخة واحدة من كتبه ، ويعزو السبب في الحالة الأخيرة الى أن الجمهور لا يقبل عليها بالدرجة التي يجعلها تنشر في طبعات متجددة ثم يؤكد أنه لم يعد يهتم بإرضاء الجمهور عن طريق كتابة ما يسليه من أدب لا يرقى الى المستوى الجاد الذي يتعامل هو (مردث) معه وأنه قانع بإرضاء ذوقه ، حيث يجد في ذلك سعادة ما بعدها سعادة (I, 400)

والذي يقرأ بين السطور يلاحظ أن الرسالة شبه رسمية وأنها تخلو حتى من اللهجة العادية التي ينتظر الصديق أن يستقبل بها صديقه بعد غياب ما يقرب من سبعة عشر عاما قضاها هورن في استراليا .

وفي الأول من أغسطس عام ١٨٧٥ يكتب هورن الى مردث فيقول :
« مضت على فراقتنا سنوات عديدة دون أن يرى أحدهنا الآخر كما تعودنا أن نلتقي في البيوت وجرح في الغابات ومازال الزمن يزحف علينا أو ينسل من بيننا » .

ثم يطلب من مردث أن يزوره وبعد ذلك يأتي عتاب مرّ من هورن يذكر فيه أن Wyse صديق الطرفين أخبره بصراحة عن حديث له علاقة بالقضية العائلية التي وجدها في انتظاره إثر عودته الى بريطانيا بعد طول غياب وأن الذي أدل بالحدث (يعني بذلك طبعاً مردث نفسه) كان يجب أن يكون آخر شخص يقذف بمثل هذا الحجر عليه حتى لو كان الكذب (القضية) حقيقة ثابتة ، ثم يستمر قائلا :

« أنا لم أقتد أبداً بالمثل السيء الذي ضربه ديكنز في استعراض أحزائي الشخصية ، لقد شعرت دائماً أن من واجبي كتمانها »^(٩)

وهذا هورن مردث على هورن في الثالث من أغسطس عام ١٨٧٥ .

عزيزي هورن ،

« إنني سعيد أن أسمع منك مباشرة ، أولاً دعني أكتب اليك بالنسبة لما جاء في رسالتك : لقد أخبرني وإيز أنك تأملت بعض الشيء لأنني لم أقم بالاتصال بك عند عودتك . لقد تصادف أنني ذكرت خبراً يتعلق بك ، وأود أن أعلمك أنني لا أغير انتباهي للفضائح العائلية وأنا لا تؤثر علي ولا أقول هذا تبريراً لما قلت ، فالذي ذكرته أنني تكلمت مع أناس أيدوا عدم رضىهم في تجديد علاقتهم معك ربما بسبب تلك القضية ولتعلم أن زمن الشهامة الفروسية في الدفاع عن المرأة من قبل المايطيين المتطرفين قد ولى .
ساكون سعيداً بأن أقوم بزيارتك عندما أجد نفسي حراً من قيود العمل ، لكنني الآن غارق في العمل إلى أذني ، وأن قضاء ليلة في لندن يعني سلمي من صباح هادئ في البيت » .

(٩) Letters of Horne to George Meredith, Letters from George Meredith to Richard Hengist Horne (Privately printed , Cape Town, 1919) pp. 5-6.

وبعد ذلك يعلق مردث تعليقا لا يخلو من القسوة لما فيه من الغمز واللمز الى الفرق بين منهج مردث في الكتابة ومنهج هورن فيقول :

« لو كنت كاتب نثر يباع على منصات القطارات أو مؤلف أشعار خفيفة لكان الأمر علي ، ولكني أكتب وأنا أدرس ما أكتب . . . »

ثم يعد أن يزوره ظهر يوم من الأيام ويخبره أنه من عشاق الجو الريفي وأنه لا يقوم بزيارات مجاملة لأصدقائه رغم أنه يودهم ويحبهم (I, ٥٥٥)

ولا يخفى على قارئ هذه المراسلات، أن أسلوب الرسائل الأولى يختلف عن أسلوب الرسائل الأخيرة فالأولى ودية والأخرى أبعد من أن تكون كذلك ، ومن هنا يبرز التساؤل . وأول شيء يخطر على البال هو أن الزمن باعد بين الصديقين وجعل أحدهما ينظر الى الآخر على أنه غريب ، ولكن الذي يبطل هذا الافتراض هو أن مردث شخصيا لا يدع للزمن ذلك الأثر الذي يمكن أن يحوله عن صديقه كذلك لا يمكن أن يرضى مردث لنفسه أن يظهر بمظهر المتعالي على صديقه حتى لو تصادف وأن الزمن جار على صديقه أو كرم عليه ، ومثل هذا السلوك (التكبر على الصديق الذي كان يثق بجانبه يوما ما على قدم المساواة) يعتبر معيبا ، على الأقل في التقاليد الانجليزية الاجتماعية وأكبر توضيح لمثل هذا الأمر يأتي من خلال تصور شخصية pip في رواية ديكنز « الأمال العظام » التي فيها يصور ضعف بب الذي يشار اليه عادة على أنه (Snob) في تحوله عن صديق صباه ، والافتراض الآخر هو أن يكون مردث قد تحول في ذوقه عن الصحفية التي تتميز بها كتابات هورن ، حيث كان هورن يكتب في أي موضوع كان ، وكتب فعلا في كل ما هب ودب ، ولكن هل هذا يوجد مبررا لمردث أن يهجر الكاتب الذي مد إليه يد العون عندما كان أحوج الناس إليها ؟

المهم أنه ليس من العسير على القارئ أن يتحسس اختلاف الموقف عند مردث . ماذا يفعل القارئ أو الباحث أو المحقق للرسائل في هذه الحالة من أجل أن يحاول ملء بعض الفراغ الذي نشأ في هوة تقرب من العشرين عاما ؟ في الحاشية يعلق كلاين على رسالة هورن لمردث من استراليا فيقول إن هورن أرسل لمردث من استراليا كتابا ورسالة وصورة شخصية معها في تشرين ثان عام ١٨٧١ « ولكني لا أعرف شيئا آخر » (I, ٥٥٥) . وفي ربيع القرن الذي قضاه كلاين في البحث عن رسائل مردث لم يستطع أن يجد رسالة واحدة لمردث في عام ١٩٥٢ . ولو نظرنا الى جميع كتب السيرة التي كتبت عن مردث لوجدنا أن المعلومات عن حياته في الخمسينيات قليلة جدا ، فهي مثلا لا تذكر شيئا عن علاقة مردث بهورن أكثر مما ورد في الرسائل المذكورة أعلاه . وقد كانت في يوم من الأيام أي عند ظهور مجموعة الرسائل التي نشرها ابن مردث تقتصر على الرسائل التي كتبها مردث في الخمسينيات .

وأول من لاحظ هذا النقص هو فورمان حيث حصل من مكتبة والده (الذي كان أميناً على تركة هورن الأدبية) على المراسلات بين مردث وهورن في السبعينيات ، كذلك حصل فورمان على رسالة مطولة كتبها زوجة هورن الى زوجها في نوفمبر ١٩٥٢ ويبحث بها اليه في استراليا بعيد مغادرته إنجلترا . جمع فورمان كل هذه الأوراق واستعملها في معاصرة

القاعا في بريتوريا بجنوب افريقيا^(١٠) . ولكن الرسالة نفسها لم تر النور بعد ذلك وهي الآن في حوزتي وستظهر قريبا في دراسة عن حياة مردث ستنشر في مجلة **Modern Language Review** .

كتبت الرسائل المذكورة كاترين Catherine المعروفة بـ Kate زوجة هورن وفيها وصف مفصل لازمة عائلية بين مردث وزوجته ماري شهدتها هي بنفسها عندما كانت تقضي عطلة نهاية الاسبوع مع الاثنين ، ونصف الرسالة مزاج ماري العصبي الحاد وموقف مردث المتسامح معها ويقدّر ما تلاحظ من نقص في ماري تلاحظ مقابله كاملا في مردث ولكنها تخشى عليه أن تضيع شخصيته مع كل هذا التسامح .

ولسنا هنا بصدد التعليق على الرسالة وقيمتها في سيرة مردث الادبية ولكن يمكن القول إن الرسالة تلقي ضوءا على أن العلاقة بين عائلة مردث وعائلة هورن تطورت بعد المراسلات الأولى وأصبحت علاقة ودية ، تلك العلاقة التي لا ذكر لها فيما كتب عن مردث . كذلك تكشف الرسالة بصراحة أن عواطف كاترين كانت مع مردث لا مع زوجته .

وعندما تأزمت العلاقة بين مردث وزوجته تصادف أن تأزمت العلاقة بين كاترين وزوجها في عامي ١٨٥٧ و ١٨٥٨ . ويبدو أن سلوك هورن كان مشابها لسلوك ماري فالأول وقع في غرام فتاة ولدت مولودا غير شرعي وهو مازال زوجا لكاترين والثانية وقعت في هوى ذلك الفنان وولدت له مولودا غير شرعي وهي مازالت زوجة لمردث . وفي الوقت الذي رفضت كاترين أن تبقى زوجة لهورن رفض مردث أن تعود ماري الى بيته . ولا بد أن مردث كان يرى في حالة كاترين ما كانت تراه في حالته من جور الشريك على شريكه .

ومعها حاول مردث التزام الموضوعية والحياد ، فلن يجحد عن مواساته لكاترين التي لا بد وأنه كان يعتبرها شريكة عائلية في الأحزان ، عانت بما عانى من تحول قلب الشريك عن شريكه . ولكن مردث كان يحافظ فعلا على الأسرار العائلية سواء أسرارها الخاصة أو أسرار الآخرين ، ولهذا نجده يتكتم على أسرارها مثلما يتكتم على أسرار الآخرين . وربما هذا هو السبب الذي جعله يخفي وراء الأسلوب بما فيه من إشارة وغمز ولز وقد أثر أن يثير حتى صديقه القديم عليه على أن يكشف له ظلمه لزوجه (كاترين) أرحبه وعطفه عليها . وعندما كتب في رسالته الى هورن الآتي :

The chivalry of the defence of women by Sentimentalists has gone greater lengths

كان يهدف ان ينفي عن نفسه تهمة الوقوف بجانب كاترين . وعلى أي حال فدافع الوقوف بجانبها كان أعقد من أن يكشف عنه في رسالة حتى لو أراد ذلك .



(١٠) لقد غطيت ابنة فورمان المسز B.Hobbes في رسالة لي في ١٥ يونيو ١٩٧٢ تلبد أن والداها اللذان تولى عام ١٩٥٧ كان قد لقي المحاضرة في بداية العشرينات . وقد ضمنت الرسالة أيضا معلومات مفيدة أخرى عن جورد والداها فيما جمعت عن مردث .

وهذه المراسلات وما شابهها تعطينا مثلاً على العلاقة بين حياة الكاتب الشخصية والمراسلات التي يمكن أن تكون حلقة وصل بين الأديب الشخص والأديب الفنان أو بين فن الأديب وبين ذاته . وقد تبدو العلاقة متشابكة يصعب علينا في بعض الأحيان النظر إلى كل واحد منها على حدة . ويمكن القول إن الأديب الذي يشعر عند الشدة أن الرسائل ليست هي الوسيلة للتعبير عن الموقف ، هو الأديب الذي لا يطول عليه الوقت حتى يجد نفسه على أبواب مدخل جديد أرحب أفقاً . ولو كانت الرسائل تتسع لايواء حلة الأزمة لما برزت الحاجة أصلاً للتعبير الفني . وعندما كانت الأزمة العائلية على أشدها في إبريل عام ١٨٥٨ كتب مردث إلى صديقه :

« كيف يمكن أن أسري عنك يا صديقي العزيز ، فلو بدأت الحديث الطويل ، يا صديق العمر ، لوجدت نفسي مندفعاً إلى التحدث عما أنا فيه ، وهو أمر يخلو من البهجة . . . »

ثم يختم الرسالة بقوله :

« أرجو أن تكتب لي مرة أخرى إذا تصادف وأن حل بك المقام بعيداً في أي وقت . ثم أرجو ألا تفاجأ بالنسبة لما في هذه الرسالة من ملل وسآوايفك في رسالتي القادمة بأخبار أكثر حيث إنني الآن في حالة مرض وإنهاك لكثرة العمل وغيظ شديد ولكنني أتمنى تدريجياً . وما عليك إلا أن تعتمد على حسن النية لدي » (I , ٣٤ - ٣٥)

ولأسباب لا نستطيع أن نتجزم في أمرها التزم مردث الصمت الذي يكاد يكون كاملاً في أمر الأزمة العائلية . وقد حافظ على سرية هذا الأمر لدرجة أن Hardman عندما التقى به في سبتمبر ١٨٦١ ونشأت بينهما صداقة بعد ذلك كان يظن أنه أرمل ، وربما استمر في ظنه لولا أن مردث كتب له بعد وفاة ماري بقليل يقول :

« عندما بُت إلى رشتي ووجدت نفسي في هذا العالم من جديد أيقنت أن شخصاً ودعه إلى الأبد حاملاً معه اسمي . وقد أيقظ هذا في نفسي ذكريات الميلاخوليا التي يندر أن أذكرها تسرب إلى نفسي ، ولحسن الحظ فإن ابني العزيز لا يحس بالصلمة لأن ظروفه تختلف عن ظروفني » .

وإنني أكتب هذا لأجد ما يبرر صمتي في الكتابة اليك . . . » (I , ١٠٨)

وعندما طلب مردث يد Marie Vulliamy طلب منه والدها أن يجيبه خطياً على عدة أسئلة منها مؤال يتعلق بطريقة انفصاله عن زوجته الأولى وهذه هي إجابة مردث :

« سوف يشرح لك مستر هاردمان الموضوع . أما الانفصال فقد كان من صنعها ، ولولا أمر طفلي لما تأسفت على هذا الانفصال . ولم يكن الانفصال رسمياً ، ولم اعتبره نهائياً إلا عندما توفرت لدي المعرفة التي جعلتني أرى ضرورة اعتباره هكذا . » (١١)

ويبدو أن مرث شعر أن غيبة الأمل في الحب أو في الصداقة تكون من الحيلة بمكان ما يجعل التعبير عنها أمرا سهيا . ولا بد من كسر حدثها أولا حتى يتم التعبير عنها . وهذا لا يتسنى الا بمحاولة انفصال بين صاحب التجربة والفنان . وعندما أصبح مرث الشخص يقف على بعد نسي من مرث الفنان ظهرت روايته الأولى وقصيدته الثانية . ولكن الجمهور لا يدع الأديب يستمتع بصمته مدى الدهر فعندما تظهر عواطفه الشخصية وهي مغلفة بغنه يبدأ الاستفزاز يلاحق الأديب من أجل الافصاح عن مكنون مشاعره في أدبه ويستسلم الأديب خصوصا عندما يجد القاريء أو الناقد أو المراجع (reviewer) أو من له علاقة ما بعمله الأديبي قد أساء فهمه أو عرقل سبيل انتشار عمله بطريقة أو بآخرى . ويمكن كذلك أن يكتب الأديب رسالة حول موضوع أدبه تحسبا من التجني على مضمونه أو أسلوبه أو طريقة عرض غرضه . وهذه أمثلة على ذلك .

عندما ظهرت رواية مرث الأولى *The Ordal of Richard Feverell* استقبلها المراجعون بشيء من السفط لأنها تعرض موضوعا مؤلما في التربية كذلك اتهم مرث من قبل بعض المراجعين أن الرواية تعمل على إفساد خلق الجيل الناشيء وخصوصا من الفتيات والاشارة هنا الى قصة الغرام بين ريتشارد الذي يحاول والده أن يحيطه بجميع أنواع الرعاية كي لا يحتلط بالجنس الآخر قبل سن معينة وماكان من ريتشارد الا أن وقع في غرام ابنة مزارع مجاور وبذلك يكون قد تخلى كل قيود الرعاية قبل الأوان وتزوجها بعيدا عن بيت أبيه ورغم معارضة كل من حوله . ونتيجة للمراجعات المعارضة أوقف Mudie (صاحب المكتبة المنتقلة التي كانت تتحكم في انتشار الكتب في ذلك الوقت) التزامه الذي كان قد التزم به من قبل بشأن شراء خمسمائة نسخة من الكتاب وتوزيعها على المكتبات . وقد غضب مرث كثيرا لأن ميودي أغل بالتزامه وكتب مرث عام ١٨٥٧ الى Samuel Lucas المحرر الأدبي لجمعية التاهز ورئيس تحرير صحيفة *Once a Week* التي كان مرث من بين المسهمين في تحريرها يقول :

« أما بالنسبة الى الرواية فيا للويل ! يبدو أنني أغضبت ميودي وجمهور الأمهات ، فهو الآن لن يمرؤ أن يعلن عني في كتالوج مكتبته وذلك بسبب المخالفات الاخلاقية التي أصورها . ياله من عصور مشين . إنني أتوقع بركانا جارفا يتبع ميودي الذي هو مترنخ Metternich وفي الوقت نفسه أود أن أخبرك أن ذكري أصبح محرما في جميع الصالونات المرموقة .

وعندما أعدت قراءة بعض أجزاء الرواية شعرت أنها عملة ضعيفة وبدأت أمزقها بأصابعي . ومع كل هذا فإن الهدف الرئيسي للكتاب يظل قائما على حاله ومن المؤكد أن أحدا من المراجعين لم يدرك كله حيث إنني بكل تأكيد أحطه بالغموض ف نظام التربية الخاص (الذي ابتدعه الوالد لتربية ابنه) نجح فقط من خلال الصدفة الحسنة التي ساعدت الابن على أن يجد مثل هذه الفتاة الرائعة . ويظل حب ريتشارد الخالص لهذه الفتاة نجاحا الى أن يهدم الأب ببيان النظام الذي أقامه هو بنفسه . فالأمل الذي بني عليه النظام ، كما ترى ، هو كره الأب لزوجته لا حبه لانيه وهكذا يجعل النظام في داخله جذور الفناء ، والمظة من ذلك انه لا يمكن مثل هذا النظام ان ينجح في اصلاح الطبيعة البشرية الا اذا تصوره صاحبه في الأصل بعيدا عن العاطفة الشخصية . فالنظام هو

طريقة ابتدعها Sir Austin الأب من أجل أن يشبع انتقامه من زوجته . ورغم كل هذا فالكتاب يحتاج الى قراءة ثانية لو أراد القاريء أن يتبين الغرض منه ، وقد أخطأت في أنني جعلت الكتاب عملاً الى درجة أنه لا يشجع على قراءة أخرى ، على الأقل بين نقاد الصحافة الأفاضل » (١٩٠٤)

وعلى أثر هذه الرسالة كتب لوكاس مراجعة مطولة في صالح الرواية ومبينة على ما ورد في الرسالة ولكن القاريء المتخصص للمراجعة يدرك أن قدرة لوكاس الأدبية والصحفية لم تنجح في إزالة الابهام الذي أدى الى سوء فهم القصد من وراء نظام التربية في الرواية . ويرجع السبب الى أن الرسالة نفسها لم تزد الامر توضيحاً فمثلاً كيف يكون النظام العقلاني ناجحاً من خلال الخطط للاعقلاني ؟ ومع أن مردث أشار الى أن الرواية تتمركز حول الواقع الاصلي من وراء النظام الا أن قراءة الرواية تتعدى ذلك بكثير ، ومع هذا تظل الرغبة في توضيح ما ساور فهمه بارزة عند الأديب حتى لو كان الأديب على يقين أن رسالته مستتهدية الى ما انتهت اليه روايته .

وحول روايته The Adventures of Harry Richmond التي تشبه في إظهارها الخارجي الرواية الأولى من حيث إنها تصور تاريخ حياة أب وابنه ، كتب مردث الى صليبه Augustus Jessopp قائلاً :-

« تهدف الرواية الى عرض الحياة الداخلية كما تكشفها عقول الشخصيات في فترات مختلفة من حياتها وهي على درجة عالية من النشاط والحياة . وهي تعرض نظرة شبه تأملية لتلك الشخصيات وتربط العالم الغالي ومبصره . أما بالنسبة للعوض المقدس فلن أتركه لاساطين اللاهوت ، فينظرهم الثاقبة يتمكون من التحدث عن الموضوع والاسهاب فيه . وأستطيع القول إن الرواية لن تستقبل استقبالا محمودا لكنني أعرف سبيلي وأقوم بواجبي . وإن بقيت في فقر دائم ، فلن أمل أن تدفع ديوني في الوقت المناسب . . . » (١٩١٤)

وقد هدف مردث من هذه الرسالة أن يبين لصديقه أن حوادث الرواية ما هي الا خلفية ، القصد منها أن تكشف عن حياة الشخصيات الداخلية وألا تكون هدفاً في حد ذاتها . وما كانت من المراجعات الا أن أشادت بالكتاب لما فيه من حوادث شيقة ومثيرة وأغلبها علق على شخصية الأب المغامرة والكوميدي وكأنها ضرب من الخيال . واستمر الموقف من روايات مردث على هذه الحال في الرواية التي تلت وهي Beauchamp's Career وقد حاول مردث بنفس الطريقة أن يبين في رسالته أن شخصية البطل لا تقبل أن تخضع لأمر صانعها ، لأنها شخصية مستقلة وتتصرف بمحض من مكونات شخصيتها . ولكونها شخصية مثالية فتنتج الحياة العملية يجب ألا تكون الحكم القاطع على الشخصيات . ولكن المراجعات قامت بالتركيز على فشل البطل في الانتخابات وقومته من خلال هذه النتيجة .



ولقد كان مردث عصرياً في نظرتة الى فن الرواية حيث اعتقد أن الصورة الروائية هي ما ترسمه الشخصية لا ما يرويه الحدث وقد سبق جيمز في نظرتة الى التلاحم بين الحدث والشخصية . ولم تكن لدى مردث القدرة على تضمين الرواية

حكمة محكمة وحوادث مثيرة بجانب الشخصية كما فعل ديكنز وجورج اليوت كتنازل للجمهور الكريم ، لهذا السبب ظلت رسائله حول الموضوع تدور في فراغ ولا تؤدي الرسالة النقدية المطلوبة . ولكنها ظلت شاهدا للقياري الحديث ينتفع منها أكثر من قاريء مردث المعاصر .

ومن الجدير بالذكر أن مردث كان على وهي مستمر أن الجمهور سيبيء فهم رواياته وأنه لن يستقبلها بحماس ، ومع ذلك فقد واصل كتابة الرسائل التوضيحية . هذه رسالته . الى R.L.Stevenson عن أشهر رواية من رواياته وهي The Egoist كتبها في أبريل ١٨٧٩ :

لقد فرغت من روايتي هذه قبل شهرين من الزمان ولكن Kegan Paul لن ينشرها قبل أكتوبر . ولا اعتقد أنك ستحبها وأشك أنها ستكون مقبولة من الذين يقبلون على عملي ويستمعون به ، ولهذا السبب وبعد أن بذلت قصارى جهدي في كتابتها فإني لن أكون في عجلة من أمري لرؤيتها مطبوعة . وهي كوميديا نصفي فقط فيها ، ولهذا فمن غير المحتمل أن تسترعي انتباه الجمهور أو الأصدقاء . هذا وقد أتممت ما يقرب من الربع من رواية The Amazing Marriage والتي أعد أنها ستعجبك أكثر . (II ٥٦٩) .

وكتب لصديق آخر حول نفس الرواية بعد ما يقرب من شهر ونصف : « لقد أتممت بسرعة رواية من ثلاث مجلدات وتعتمد على محاسبة العقل ولا شيء فيها يشير الخيال ولهذا كنت تواقفا الى أن أفرغ منها فور تصورها » (II و ٥٧٣)

ويمكن للنقاد أن يستخلص من رسائل مردث آراء نقدية كان له السبق في الوصول إليها ورغم مخالفتها لذوق العصر إلا أنها عاشت الى عصرنا الحاضر لتأخذ مكانة رفيعة في النقد الحديث وربما كان هذا هو مصدر الخلاف بين مردث وجمهور عصره . وقد قال لي شخصا أحد معجبيه المحدثين وهو E.M.Forster الذي تعلم من مردث الشيء الكثير في فنه الروائي أن مشكلة مردث تكمن في أنه كان تقدميا بالنسبة لعصره وأنه ولد مبكرا بالنسبة للعصر الفيكتوري (١٧) . وفي رسالة الى Bainton في سبتمبر ١٨٨٧ كتب مردث يقول :

أنا لا أصنع حبكة ولم تصادف ان شخصيات روايتي وجدوا أنفسهم مغفلين في حبكة عند بداية الرواية أو في مرحلة تصويري لما فإنه سرعان ما تبدأ ملامح هذه الحبكة تختفي . (II ، ٨٨٨)

هذا ما سارت عليه Virginia Woolf وليس من المستغرب ان تجد هذه الكاتبة في روايات مردث غونجا صالحا تقنني به . وعندما قرأت روايات مردث ، ربما في مكتبة والدها Leslie Stephen الذي كان يدخرها لتطيق أبنائه ويأنه أعجبت بها وكتبت عن مردث ما كتبته من نقد ميزته فيه عن معاصريه بعصرية متقدمة .

ولما كان القرن التاسع عشر يفتقد الى منصة يعبر الكاتب من خلالها عن آرائه النقدية فقد جاءت الرسائل لتعاضد هذا الفراغ . وبالنسبة لمردت فقد كانت أكثر أهمية من غيرها في هذا المجال لأن مردت بطبيعة الحال كان لا يبعد أن يكتب مقدمات نقدية لرواياته كما كان يفعل معاصروه ولذلك فقد كانت الرسائل هي المتنفس الوحيد وخصوصا في المرحلة الأولى والوسطى من تاريخ حياته الأدبية (وقد اعتمد مردت في بعض رواياته بعد رواية *Beauchamp's Career* على تضمين بعض الآراء النقدية في الرواية نفسها وهي تقليد اتبعه بعض الروائيين أمثال جورج اليوت وغيرها) ومن هنا أصبحت الرسائل المرأة التي يرى الكاتب نفسه فيها . كتب مردت مثلا الى لوكاس عندما كانت روايته *Evan Harrington* تنشر في مسلسلات أسبوعية :

« إن هذه الرغبة اللعينة التي تأسروني بالنسبة لعرض مسببات الأمور هي العائق الدائم في حرية الحركة في الرواية . » (I, ٥٧)

وكان مردت يدرك جيدا أن رغبته أصيلة من الناحية الفنية ، وأنه ثار ضدها لأنها لا توافق هوى الجمهور الذي كان آنذاك يتعشش الى الحوادث المثيرة التي تدفع بتواليها الحركة الروائية الى الأمام . وعندما حاول أن يكتبح جماع هذه الرغبة وكتب *Emilia in England* و *Vittoria* وضمن الروائيتين حركة روائية ظل أسلوب مردت هو المسيطر وكان الحركة الروائية لم تشفع له بالنسبة لأقبال الجمهور على رواياته .

ولمّا بعد تطور العائق الدائم في حرية الحركة وأصبح يتمثل في عرض العقل الباطني للشخصية وأكثر ما يظهر هذا في روايته *One of Our Conquerors* حيث تقع حوادث التي عشر فصلا في يومين فقط ولا يتحرك العمل الروائي من مكانه فوق لندن يردج الا بعد عدد من الصفحات .

ومن أهم القضايا النقدية التي كتب فيها مردت والتي كانت تشغل فكر معاصريه من الكتاب هي قضية الواقعية . والرسالة التالية توضح فكر مردت النقدي الذي تميز عن معاصريه بالنظرة المستقبلية :

« لا يوجد تباين حقيقي بين الواقعية والمثالية . إحداهما تكمل الأخرى فالواقعية هي الأساس عند البداية في الكتابة . ذلك الأساس الذي يتضمن الدراسة والملاحظة ووضع القوى الفنية موضع المحك . وينبغي على الكاتب الناشئ أن يكون واقعيا ، فهذا يساعدهم على الأقل في إنجاز عمل يركز على قاعدة صلبة . . . أما الكاتب العبقري فليعلم أن يستخدم وسائل المثالية لأنه يستطيع أن يجمع أطراف الصورة الكبيرة للواقع دون أن يتحركها مجسمة فيه خاضعة للإحماض الحسي . والمثالية هي جو تنتقل تأثيراته إلينا من خلال مجموعة من الإلهامات التي نحفظ بإحسانها عندما تكون منفصلة عن القاعدة الأساسية للواقع . والكاتب الذي يفصل الواقعية عن المثالية نفل كتاباته ناقصة . والكتاب الذين أنحني إليها اجلالا (مثل شكسبير وجوته وموليير) هم في واقع الأمر واقعيون . فهم يقدمون لنا أرضية صلبة ، ولكنها أرضية عماطة بجو المثالية . » (I, ١٦٠ - ١٦١) .

ورسائل مردت مليئة بالآراء النقدية التي يمكن أن نقرنها بآراء النقاد المحدثين أمثال باوند واليوت وريتشاردز

وغيرهم ، لنرى كيف أن مرث كان يشق طريق النقد الحديث وكيف كان يدفع الثمن بسبب جلدته فكره وأصالة أسلوبه .



ويمكن القول إن المراسلات عند مرث كانت حاجة عاطفية ملحة أكثر منها ضرورة للتوصيل ، والسبب في ذلك يرجع الى أنه قضى ما يقرب من نصف قرن منكبا على كتابة الرواية والشعر وهو يشعر أن الجمهور كان يعرض عنه لا لسبب إلا لأنه كان مجددا غير تقليدي ، وربما كان مرث نفسه مبالغا في هذا الشعور ولكنه عاش معه حتى آخر حياته وتكونت عنده مشاعر خيبة الأمل والضيق التي لا تقل في حدتها عن مشاعر الحب والاعتماد . ومن خلال العديد من رسائله نجد أن مرث يوميء الى شعوره بعدم الانصاف . والذي يقرأ بين سطوره بعض رسائله يلاحظ أنه كان تواقا لأن يجد من يحب ويستمع اليه ، ويستجيب الى صوته بأضعف وسيلة وهي الصمت والاستماع . وفي إحدى المرات كتب لمجلة محلية محدودة الانتشار رسائل تتعلق بموضوع تربية الأبناء في سن المراهقة ، وكان هو المرسل والمرسل اليه ونشرت الرسائل تحت أسماء مستعارة .

وفي خريف عام ١٨٨٦

أي بعد موت زوجته بقليل وجد مرث ضالته في هذا السيل ، وجد من يث اليها مشاعره بخيبة الأمل التي صحت عبر السنين ، وهي فتاة في الرابعة والعشرين (وكان هو آنذاك في السابعة والخمسين) من عائلة كندي عريقة كانت تقيم في ذلك الحين في جنوب فرنسا واسمها Hilda DE Longueuil وتعرف عليها عندما كانت تزور بيت أحد أقربائها الذي كان يسكن في المنطقة المجاورة لبيت مرث وهو في نفس الوقت صديق لمرث واسمه Grant Allen . وعندما قابلها مرث لأول مرة وقع في غرامها وتأثر بمسحة الحزن الجميلة التي كانت تظهر عليها نتيجة تخلي حبيبها عنها آنذاك ، وكان يظهر عليها الحفر والحساس الساخن الذي كان يساعد في أحيان كثيرة على التعبير عن نفسها بفكاهة وحيوية . ولم يخف على مرث ولا حتى على أصدقائه الذين كانت تقيم بينهم أنها كانت تبادل العاطفة وقد اعترفت هي نفسها لأقاربها بإحسانها الشديد بمرث ، وأخذ مرث يتردد على بيت أصدقائه أكثر من ذي قبل حتى يجد الفرصة لتجاذب أطراف الحديث معها .

وعندما رجعت الى فرنسا لم يجد مرث من وسيلة للتعبير عما في نفسه سوى المراسلة التي دامت قرابة عام كتب فيها مرث أرق رسائله وشعر أن الفرصة واثته لينقل ما في نفسه ليس فقط من صباية بل من أمور أخرى شغلت في عالم الأدب والحياة . وفي إحدى رسائله اقترح عليها أن تتعاون معه في التعليق والاجابة على رسائله حتى تنشر المراسلة في النهاية تحت عنوان « رسائل الى سيدة حول فن الرواية » ولكن المشروع لم يتحقق لأنه لم يكن فعلا هدفا رئيسيا عنده ولا رغبة ضرورية عندها .

ويبدو أن هيلدا أشعلت نار الهوى والشباب في مرث من جديد ورجعت به الى الوراء سنوات طويلة عندما كان يتغنى

بحب ماري ألن في Love in the Valley وفي إحدى المرات كتب لها رسالة هي قصيدة عنوانها « أشعار ليلدا تقرأها عند الصباح والمساء » وتتكون من تسعة مقاطع ، وفيما يلي المقطعان الأولان :-

Can another Love be born
In heart that love has left outworn;
Appearing dead to sweet desire;
Its mouths of earth once mounts to fire?

Question first, if thou wouldst know,
This wilful love that wasted so;
And ask one heart that wildly went
To ashes, why the flames are spent

أما المقطع الأخير ففيه دعوة إلى أن تتوجه إلى حب فيه نيل بدلا من ذلك الحب الذي خاب أملها فيه (ويعني هنا حبيبها الذي هجرها والذي لا يعرف مردث من أمره شيئا)

The past is dust, thy heart is blood;
It bears thy fate upon its flood,
Set it on nobleness, and soon
A nobler love will crown thy noon.

II (٨٥٣ - ٥٤)

وتبين أول رسالة بعث بها مردث إليها في ٢٨ نوفمبر ١٨٨٦ اهتمامه الشديد بتقديم ما في وسعه من إرشاد وتعليم من خلال التجربة العملية التي استوحى فلسفتها من تعليق بسيط عن الموت وصل إليه عن طريق أصدقائه :

« إن كلماتك إلى جرانت ألن فيما يتعلق بترحيلك بالنوم والموت تستحوذ علي وكأنها جزء من تاريخ حياتك ، وتكشف عن معاناة أو ضيق من المعاناة . ولكنها تبين لي أنك سائرة على درب الاستفسار مع رغبتك في الانعزال رغم أن الشوط الذي قطعت في الحياة ما زال قصيرا . وهذا يشير طبعا إلى أنك لم تفتك بعد القدرة على إخضاع الحواس لتفهم ثابت في الحياة . ويتأبنا جميعا مثل هذا التفكير عندما تبدو الحياة لنا بحيرة لدرجة غملي عندها إلى حب للنوم . ولن يكون باستطاعتنا الوصول إلى هذا التفكير دون أن نكون لدينا القدرة عليه أصلا . أما إذا استطعنا إلى ذلك سبيلا فأننا نتوصل إلى تصور عالم من الطبيعة يمكن أن نلذبه متى شئنا ذلك العالم الذي يستطيع السير قدما بحرية وجور فهو دائما في شغل شاغل وحياته هي في الفناء وراحته ما هي الا التجديد . ونصوّر أيضا بكل تأكيد عالما من البشر تحسن أحوالهم مع الزمن ولكن دون أن تتوافق رغباتهم أو قدراتهم ومن هنا تنشأ التعاسة .

وما زال أولئك الناس في وسط المعمة العاطفية ويعني ذلك أن الحواس تظل ملتصقة بالفكر الذي أنتجته دون أن تدع السعادة تطلق قبل ذلك . وعندما يتقدم بنا الزمن ندرك أنه لو تحرر الفكر من عواطفنا الشخصية فأننا نجد أنفسنا مع الطبيعة جنباً إلى جنب مشاركين في نشاطها المبهج . وفي النظرة إلى سير حياتنا الختلي في حياتك صورة واضحة للفهم . واعتزلي منذ البداية أن الحياة بهجة روحانية وهي شيء يتم بالمشاركة إلا بالتملك .

أرجو المعذرة على هذا الوعظ الذي يبدو وكأنه درس يوم الأحد وإن سمحت لي فاني سأكتب لك بين الحين والآخر وأعد ألا أنفل عليك كما فعلت هذه المرة وعندما تتوفر لدي التفاصيل فان كتابتي ستكون حيوية . أما الآن فاني أميل إلى التعميم » (II و ٨٤١)
ويبدأ رسالة أخرى لها في ٢٦ يناير ١٨٨٦ بقوله انه بدأ يشعر برغبة البيت الصيفي (الذي يأوي اليه عند الكتابة) ويظل ثقيل يسكن البيت بسبب رحيلها إلى فرنسا :
« إنني أتبع سير رحلتك خطوة بخطوة وساعة بساعة . . . »
وفي نهاية الرسالة يعبر لها عن لفة بالغة لتسلم رسالة منها قبل أن يغادر المكان إلى St. Ives ليحضر ابنته التي كانت تقيم مع عائلة لزي ستيفن . (II و ٨٤٤ - ٤٦) .

وفي رسالة أخرى (٣٠ ابريل ١٨٨٧) يتحدث إلى آتسته العزيزة عن السياسة والأدب :
« تعني السياسة شغل العالم الشاغل . ويمكن أن تصلح بعض السياسيين ولكنك لن تصلح المهنة نفسها نأ نتخيل ماذا سيحصل لو اسقطنا من اعتبارنا الحياة السياسية ونغفلنا عن الفنون والأدب . عندها سنجد أنفسنا أمام اختيارين :

الراهب أحدهما وثانيهما الصياد ، ثم تصوري التحول الذي سيحدث فيها بعد . . . »
مع أن مرثت وعد في رسالة سابقة ألا يتقل عليها إلا أن هذه الرسالة لا تقل ثقلاً عن سابقتها .
ويسر مرثت عندما يعلم من رسالتها أنها أحب قصائده التي أرسلها إليها . ويقول لها مقبياً على قصائده Bal-lads إن الألياذة وهي أعظم قصيدة وما هي إلا (Ballad) عظيمة . ثم يقول لها :
« أن الشعر القيم هو ما يتماثل فيه الفكر مع العاطفة كما هي الحال بين الرجل والمرأة . وفي هذه الحالة يلتحم أسمى ما في العقل مع أعمق ما في الطبيعة ولهذا السبب فان الشعر أرفع مكانة من الفلسفة » (II و ٨٦٦ - ٦٣) .

وفي رسالة أخرى يعرض مرثت على هيلدا هموم الأزل عندما يشكو لها من المراجعين ويرسل لها مع الرسالة مراجعة لمجموعة أشعاره Ballads and poems of Tragic Life

« أرفق طيه نموذجاً من ذلك النوع من الكتابة الذي أجلب دماره على نفسي من خلال ما أنشر ، وأنا لست من الناجحين عند المراجعين لأن وصيدي عند الجمهور قليل وأنا في الواقع لا أطالب بأي شيء منه ، كل هذا يدعو

أولئك المراجعين إلى معاملي بهذا الشكل من الظرف ، وأنا أعرف عندهم كهولان أو كصانع أشياء قديمة antics . وعندما أكتب فاني أختار التعبير الذي يملو خيالي مناسباً وهم يرفضون تعييري لأنه غير تقليدي كذلك يكون تعييري سلساً بالضرورة عند الأزمة العاطفية وهم يعترفون بهذا غير أنهم لا يسمحون لخيال الكاتب في المناسبات الأخرى أن يكون التعبير غير ذلك . وهكذا يستمر المراجعون في نفس كل كتاب جديد يظهر لي ولكنهم لا يساوون نعمتهم على الكتاب بكربي شخصياً حيث أنهم يترددون في اظهار الأمر .

وفي الوقت نفسه نجد كل مجلد يفيق تدريجياً من الضربة القاصمة عندما يصبح تحت الطلب ويذكره القراء بشيء من الاحترام حتى ولو بعد حين فيعود ثانية إلى الوجود . ولقد علمت أن المجلد الأول لأشعاري الذي ظهر عندما كنت كاتباً صغيراً يباع بمبلغ عشرة جنيهاً . وكل كتيبي يتضاعف ثمنها بعد حين ومع كل هذا فيعد أربعين عاماً من العمل المخلص ما زلت أتلقي نفس الضربة . انني أزعجك بمزاجي الحاد هذا ويكل تأكيد سوف أجد منك كل تعاطف ، مع علمي أن فتاتي العزيزة تفكر في نفسها أنه من غير المستحيل ألا يكون لدى أولئك المراجعين ما يقولونه عن النقد رغم وجود فضولهم بجانب تقديمهم .

وصديقي أنني لا أشكو إلا سوء الحلق . أنا لا أنكر أخطائي وجميع الكتاب عندهم بعض الأخطاء . ويقع الظلم عندما يرى المراجعون ما هو فاضل فقط فيها يحبون وما هو ضعيف فيها يكرهون . أرجو المعلد . فأنا لن أنشر كثيراً من الآن فصاعداً ، ولكن أن يلاحظني سوط المراجعين حتى النهاية فهذا متعب حتى لو من قبيل كونه محلاً . لماذا أنشر أشعاري ؟ لست أدري حقاً فأنا أتحمّل أعباء البشر المادية وملاحظات المراجعات السخيفة . لقد أرسلت لك نماذج شبه شتارة من أشعاري (II ، ٨٧٢ - ٧٣) .

وهكذا نرى مردث يخصص رسالة كاملة تستأثر بنظم المراجعين له الذي لم يرافقه طيلة حياته . ولو أرادت هلداه العزيزة أن تحكم ، بموضوعية لا تخلو من القسوة أو لو استطاعت أن تكون صريحة مع مراسلها العزيز لوقفت بجانب المراجعين حتى لو اقتصر حكمها على أسلوب مردث عن المراسلات بينها وبينه



ولا شك أن أسلوب مردث في الكتابة هو المصدر الرئيسي لموقف المراجعين الذين لا بد وأن مردث بالغ في معاداتهم له . ويرفض مردث بالفعل ، كما يقول في رسالته ، التعبير التقليدي جملة وتفصيلاً ، ولما كانت ثقافة مردث هي في أغلبها من تحصيله الخاص لا حصيله دراسة أكاديمية أو تدريب مهني في الكتابة فقد شعر بحرية في استخدام اللغة ووجدتها طيبة عند الاستعمال . كل هذا جعل مردث ينظر إلى اللغة على أنها أداة لتعبير جديد كلما دعت الحاجة إلى التعبير حتى لو كان مضمون التعبير فيها مألوفاً . وكتابات مردث شعراً ونثراً مليئة بالصورة الغريبة التي يشعر القارئ وكأنه يواجهها لأول مرة في حياته . وهذا ما يجعل أمر الأسلوب معقداً عند مردث لأن المرجع إليها لا هو في متناول المؤلف ولا في متناول اليد بل هو من صنع مردث وخياله . ولقد كان محققاً عندما قال عن نفسه في رسالته إلى هورن إنه يكتب ويدرس في آن واحد . وكذلك كان صديقه محققاً عندما سأله أمام مجموعة من الأصدقاء سؤالا تمجيباً وقال لماذا لا يكتب كما يتكلم وقد روي أنه يتكلم بطلاقة وسلاسة غير معمولتين .

وكثيرا ما علق المراجعون على لغة مردث أنها مردثية وأن أسلوبه مردثي أيضا ولو وجد مردث تشبيها أكثر من جمهور القراء والمراجعين لوصل التعقيد عنده ما وصل عند جويس مثلا ، ولساهم في إغناء اللغة الانجليزية كما أغناها جويس ، نجد كثيرا في معاجم اللغة الانجليزية اشارات الى أن مردث أول من استعمل هذا التعبير أو ذاك الاصطلاح . ويمكن أن يخرج المدارس للغة مردث بقائمة طويلة من المصطلحات العربية التي لم يصطلح عليها من قبل . ويعتقد بعض نقاد مردث المحدثين أن خير دراسة لمردث هي ما يعالج أسلوبه سواء في شعره أو في رواياته .

ورغم أن مردث عاصر ديكنز إلا أن أسلوبه لا يمت لأسلوب ديكنز بصلة ومع أنه أيضا كان يعلم أن جورج اليوت كانت تجذب الجمهور بشدة وكانت رواياتها تدر عليها من الربيع المادي ما يساوي أضعافا مضاعفة مما تجلب روايات مردث اليه . وقد عبر عن هذا التفاوت بحسرة عندما كتب لصديقه Frederick Maxse في يونيو ١٨٦٧ وقال :

« لقد علمت أن جورج اليوت حصلت على مبلغ طائل من المال لقاء نشر روايتها Adam Bede (حصلت على ثمانية آلاف جنيه Pound أو أكثر ، مع الاحتفاظ بحق النشر الى مالا نهاية)

ما شاء الله تعالى . هل سيحصل شيء من هذا القليل بالنسبة لي في المستقبل ؟ » (I - ١٤٩) .

إلا أن مردث لم يحاول تقليد أسلوبها . وهكذا ظل مردث نموذجاً فردياً احتفظ بأسلوبه كميز له بين كتاب عصره .

اذن لم تكن اللغة عند مردث توصيلاً عادياً يستعمله كبقية الناس ، بل كانت أداة تخضع لتعرجات العاطفة والفكر المعقدة . ومن أجل هذا السبب جاءت رسائله التي تختص بقضاء حاجة في العمل قصيرة ومقتضبة جداً وعند قراءتها تشعر كأنه كان يتعامل ببرقيات وقد كان الأستاذ Christopher Cricks غير حق عندما اقتبس بعض هذه الرسائل ليعمم حكماً قاسياً على الرسائل بأكملها . حيث كان مردث يدخر اللغة الى مناسبات أخرى تبدو فيها محاكمات العقل أو مشاحنات العاطفة على أشدها .

لقد اعتقد مردث أنه عندما تجتد العاطفة وتتعمق وتفصل عن الأهواء الشخصية (والانفصال دائماً يكون نسبياً) كما ذكر في رسائله الى هيلدا - عند ذلك نحىء اللغة سهلة سلسلة طيبة . ولكن هذا لا يتكرر كثيراً لا في حياة مردث ولا في كتاباته . وفي رسائله التي كتبها في بداية الستينيات الى Lady Duff Gordon ما يثبت ذلك لأنه كان فعلاً يشعر أنها بعيدة المثال ورغم كل حبه لها إلا أنه كان بعيداً في مطعمه عنها وكان ينظر اليها على أنها شيء جميل حقاً يستحق التقدير والتعير عنه بدون انفعال من النوع الذي يجعل العاطفة ملتصقة بصاحبها . ورغم أنها كانت تعيش مع أهلها على مقربة منه إلا أنه كان يشعر أنها ستظل بعيدة عنه من ناحية عملية .

والمشهد الأول من روايته Harry Richmond هو قمة في السهل الممتنع لغوياً ، ويعجب للمرء عند قراءته لماذا لا

يستمر مردث على هذا الحال في الكتابة . وهو مشهد جميل حقا يصور النزاع الحاد على الطفل بين أبيه الذي جاء ليأخذه وجده الذي يريد أن يحتفظ به والطفل في خلفية الرجلين مصدر نزاع مشترك .

ويمكن أن نعني مردث من اللوم اذا تذكرنا أن مثل هذه الحالات العاطفية لا تتوفر كثيرا ولا تدوم طويلا . ففي أغلب الأحيان تكون العاطفة حادة ولكنها لا تكون منفصلة عن صاحبها تماما كما يريد لها ليخف عنه عبء المعاناة فتظل المسألة معلقة دون أن يكون الأمر من اختيار صاحب الشأن . وهنا يصبح التركيب العاطفي أمرا معقدا ، يتطلب أسلوبا ولغة معقدين . ورسائل مردث الى هيلدا خير مثل على ذلك وخصوصا رسالته التي كتبها في ٢٦ ديسمبر ١٨٨٦ والتي تحتوي على صور يصعب فهمها وترجمتها . وروايته *One of our Conguerors* مثل بارز من كتاباته على هذا النوع من العاطفة . وقد كتب مردث كما ذكرنا سابقا روايته *The Egoist* بنظرة الفنان الحديث عندما جعل نصفه الفنان يسخر من نصفه الشخصي عن طريق ما يسمى في النقد بـ (*aesthetic distance*) . ولم يحقق مردث هذا الانجاز الفني الا بعد أن نجح في وضع حد بين الفنان المبدع والشخص الواقعي في الحياة .

وفي بعض الأحيان نجد أنه لا بد من الالتصاق بين العاطفة وصاحبها لأمر تخرج عن ارادته . والأمثلة على ذلك علاقة مردث بزوجه الأولى ، وعلاقة الصداقة بين مردث وهورن الذي ذكر سابقا ، وعلاقة مردث بأعز أصدقائه John Morley عندما فترت العلاقة بينهما ردها من الزمن ، في مثل هذه الحالات يفضل مردث ألا يعبر عن الموضوع مباشرة لأنه في نظره لا يحتمل المواجهة فمشاعر الصداقة والحب ليست من النوع الذي يستطيع المرء أن يتخلى عنها حتى لو طرأ عليها طارئ من الخارج وأوقف سيرها الى حين . في هذه الحالة كان مردث يفضل الصمت عن التعبير المباشر أو تحويل العاطفة الى فن في رواية أو في قصة قصيرة . وهذا ما فعله في روايته الأولى وفي مجموعة قصائده التي نشرت تحت عنوان *Modern Love* ففرغم كل ما كان يعلم مردث مثلا عن فضول الجمهور بالنسبة لزواجه الأول وبالنسبة لموضوع *Diana of the Crossways* إلا أن مردث آثر الصمت . ويمكن تحليل ذلك أن مردث كان لا يميل الى ما يميل اليه الجمهور وكتابهم من الحوادث المثيرة بما فيها من فضائح ومغامرات وهو ما يعرف تحت اسم *sensational* .

ولو أردنا مثلا أن ننظر الى رسائل مردث مقارنة مع رسائل معاصريه أمثال تشارلز ديكنز وجورج إليوت ونكري وغيرهم لوجدنا أن رسائل غيره تشترك في شيء واحد ألا وهو وظيفتها التوضيحية ، فهي في أغلب الأحيان توضح أمرا له علاقة بالحبكة القصصية أو بصورة الشخصية أو بتفسير أهمية حدث من أحداث الرواية فأت على القراء أو المراجعين قيمته الروائية . ومعنى آخر تكون الرسائل بشكل عام اخبارية في أسلوب عرضها للموضوع . أما رسائل مردث فهي في الغالب ما تكون بشكل أو بآخر امتدادا لعمله الأدبي والذي يشكل هذا الامتداد هو الأسلوب الذي لا يتنازل عنه مردث عندما ينتقل من الرواية الى الرسالة . وفي الوقت نفسه فلا يوجد لدى مردث حبكة ولا حوادث قصصية مسرودة لأنه كان من أول المعارضين لهذا الزوجه من الفن الروائي . ويمكن القول إن مردث كان يحاول تفسير ما كان يفوق فهم القارئ دون أن يدرك أن أسلوب المعالجة هو نفسه أساس المشكلة . ولهذا وجد مردث نفسه يدور في حلقة مفرغة بالنسبة للمراجعين حتى النهاية وكلما رد في رسائله على المراجعين ليفتح الباب بينه وبينهم وجد الباب يغلق عليه مرة أخرى . وربما هذا هو الذي جعل لمردث ترحيبا خاصا في فكرنا المعاصر .

تمهيد :

إنها بالفعل - لظاهرة تثير الاهتمام أن تقرأ رواية أو أقصوصة بقلم أديب يوغوسلافي - جعل بطلها شخصا عربيا ، ولا شك في أنها ظاهرة ملفتة لأنظارنا ومثيرة لانتباهنا تستحق الدراسة والبحث . وكان أول من لفت النظر الى هذه الظاهرة هو الناقد اليوغوسلافي والباحثة يوفان سكرليتش^(١) الذي لاحظ أن الأديب اليوغوسلافي يقرب إيجينا توفيتش كتب في الستينيات من القرن التاسع عشر قصتين هما « منصور ومجيلة » و « الدم من أجل عشيرتي » جعل أبطالها من الشخصيات العربية ، هذا فضلا عن أن هذا الأديب اليوغوسلافي لم يخف ميله الشديد الى العرب . ويمكن القول - الآن بكل تأكيد - أن يعقوب إيجينا توفيتش لم يكن الوحيد في هذا المضمار ولم يكن الأخير كذلك ، فقد لوحظ أن العرب يقومون بمختلف الشخصيات والأدوار في قصص وروايات لأدباء آخرين وفي فنون متنوعة أخرى .

الا أن الناقد اليوغوسلافي يوفان سكرليتش لم تكن لديه الامكانيات ولا بعد النظر - وربما الرغبة في المقام الأول - لأن يولي هذه الظاهرة اهتماما أكبر ويتمتع في بحثها ودراستها باستفاضة ، بل إن هذا الناقد نفسه هاجم بحدة هاتين القصتين من قصص إيجينا توفيتش بحيث أنه - حسباً يبدو - أغلق الباب أمام أية محاولات تالية جادة لدراسة هذه الظاهرة عند الأدباء اليوغوسلافيين الآخرين . وهكذا لم يرق أحد من النقاد أو الباحثين بأي شيء في سبيل دراسة هذه الظاهرة واستبطان النتائج الثابتة المؤكدة ، التي ستكون على جانب كبير من الأهمية والفائدة العلمية بالنسبة للدراسات والأبحاث في هذا المضمار ، وصل الأخص بالنسبة لتاريخ الأدبين اليوغوسلافي والعربي . وحتى قبيل هذه الدراسة التي بين أيدينا لم يحاول أحد القيام بدراسة وفيص الروايات والأقاصيص التي عن طريقها -

شخصية البطل العربي في الدستور اليوغوسلافي

جمال الدين سيد

(١) يوفان سكرليتش ، « مطرب ايجيناويش » ، بلغراد ١٩٧٢ .

فصلهما عن بعضهما ، بل ومن المستحيل تفسير هذه الظاهرة من جانب واحد فحسب لأن التفسير القائم على وجهة نظر واحدة سيقودنا - حتماً - الى أخطاء وأوهام .

أسلوب البحث :

أما بحثنا هذا فستعرض لظهور شخصية البطل العربي في النثر الروائي باللغة الصربوكرواتية ، وهي اللغة السائدة في يوغسلافيا^(٢) . بيد أنه لا يمكن أن يكون هناك حديث عن هذه الظاهرة قبل أن نستعرض جميع الأعمال الروائية المنشورة ، والتي لها ارتباط بشخصية العربي ، ثم بعد ذلك ينبغي أن ندرس بعناية كل ما تجمع لدينا من مادة عن العرب وذلك من طريق بحث وظائف ومهام وأدوار الشخصيات الرئيسية هذه الأعمال الروائية وبحث موضوعاتها وأفكارها ، وكذلك القاء نظرة على زمن كتابتها وعلى مؤلفها وعلى كل ما يتبع ذلك حتى نصل في النهاية الى نتائج مؤكدة قائمة على أسس ثابتة .

ونظراً لضخامة مجال وزمن البحث فقد كان من اللازم في بداية الأمر أن نحدد ونحصر الدراسة ونقصرها على فترة زمنية محددة حتى يسهل علينا جمع المادة الأساسية اللازمة من المجلات والصحف الأدبية والكتب الموجودة في متناول اليد ، وحتى يمكننا كذلك الخروج بنتائج تقوم على أسس صلبة متينة .

من أجل كل هذا تم اختيار النصف الثاني من القرن التاسع عشر كمجال للدراسة ، وبالتحديد الفترة الزمنية ابتداء من عام ١٨٥٠ وحتى عام ١٩٠٠ م . وقد

فحسب - يمكن الحصول على انطباع شامل وكامل عن مقدار انتشار هذه الظاهرة في الأدب اليوغسلافي وعن كل اللابسات والظروف المحيطة بها وعن أسبابها ودوافعها وما إلى ذلك .

ولكي تكون الصورة أكثر وضوحاً لا بد وأن نتوه هنا بأن هناك بعض الباحثين الذين بحثوا ظواهر مماثلة ، ومنهم الباحثة الروسية موريس بوتيلوف^(٣) الذي قام بمجهود لا بأس به ، وعلى الأخص عن القصائد الملحمية الخاصة بالصراع مع البطل العربي . ولكن بوتيلوف لم يفعل أهم شيء لدراسة هذه الظاهرة وهو جمع القصائد الشعبية التي تظهر فيها شخصية البطل العربي ، وهو ما يعد شرطاً أساسياً لاستخلاص النتائج المؤكدة .

كما أن هناك دراسة لأحد الباحثين الشبان الذي قام بالفعل بجمع القصائد الشعبية ودراستها^(٤) ولكنه كرر معظم ما ذكره بوتيلوف ولكن بشكل أكثر استفاضة وتضرعاً ، الأمر الذي جعل النتائج تتوه وبسط الزحام^(٥) .

وبناء على هاتين الدراستين فانه يمكننا أن نقول أن هناك راين يسفران هذه الظاهرة - أي ظهور شخصية العربي في الشعر الشعبي اليوغسلافي ، وهما راينان متباينان . فأصحاب الرأي الأسطوري يرون في شخصية العربي جلوساً للمعتقدات الغابرة . أما مثلو الرأي التاريخي فيرجعون سبب ظهوره الى التاريخ القديم وراقمه . وإذا كان لي أن أبدي رأياً في هذا المضمار فالي أقول أنه ينبغي تفسير ظهور العربي في الشعر الشعبي تفسيراً أسطورياً وكذا تاريخياً ، ولا يمكن

(٢) موريس بوتيلوف ، « القصائد الملحمية الروسية والسلافية الجبلية » ، موسكو ١٩٧١ ، ص ٤٤ - ٦٦ .

(٣) راداربرجوفيتش ، « العرب في الشعر الشعبي في المنطقة المنطقتة باللغة الصربوكرواتية » ، بلغراد ١٩٧٧ .

(٤) والي أختلف منه كثيراً في محاولته الظاهر على أن التأثير العربي على الشعر لشعبي اليوغسلافي وبالتالي على الأدب اليوغسلافي بوجه عام . كما أعجب عليه محاولته إبراز العرب في بعض أماكن بحثه الذي يفترض فيه الأمانة والدقة العلمية - بصورة غير مبالغة . وأرجو من الله أن تعجز في فرصة توضيح الغلطات الموجودة ببحثه هذا .

(٥) يوجه في يوغسلافيا ثلاث لغات رئيسية هي : الصربي كرواتية ويصعد بها سكان جمهوريات صربيا وكرواتيا والبوسنة والمهرسك والجبل الأسود ، والمملكة السلوفينية ويصعد بها سكان جمهورية سلوفينيا ، والمملكة المقدونية ويصعد بها سكان جمهورية مقدونيا ، حلاً حلاً على لغات ولهجات أخرى أقل أهمية .

٢ - المجموعة الثانية وتقع فيها المؤلفات الروائية التي يظهر فيها العرب أو المفاهيم الجغرافية والثقافية والحضارية ظهوراً ثانوياً . وبها ١١٧ رواية وقصة .

ولا شك أن التركيز الأساسي سيكون على قصص وروايات المجموعة الأولى ، من النصوص ، لأنها أكثر أهمية من نصوص المجموعة الثانية . ولكن هذا لا يعني على الإطلاق أننا سنستغل نصوص المجموعة الثانية ولكننا سنفرد لها فقرة خاصة ، فهي لها أهميتها وتستحق منا دراستها .

وينبغي أن أتوه على الفور ومنذ البداية إلى أن كاتب هذه السطور كان يرى التوسع في فهم وإدراك المفاهيم المرتبطة بالعرب وبكل ما يتعلق بهم من مفاهيم روحية وجغرافية ومادية وما شابه ذلك من المفاهيم المتعلقة بالعرب والتي وجدناها في النصوص اليوغسلافية . ولا شك أن هذا هو الأسلوب الأمثل الذي سيمكننا من استنباط النتائج المؤكدة عن طريق تحليل ودراسة النصوص الثرية المتوفرة بين أيدينا ، وعن طريق تحليل ودراسة الأفكار المضمنة في هذه النصوص وتحليل وظائف الشخصيات وأدوارها والمذلولات اللفظية لها وغير ذلك .

وكان من المحتمل على منذ البداية أن أحدد المهام والأهداف الرئيسية التي وضعتها نصب عيني في هذه الدراسة ، وهي إيجاد إجابات منطقية جلية على التساؤلات الآتية :

أ - من هو هذا البطل العربي الذي يظهر في الروايات والقصص اليوغسلافية ؟

ب - ما هو الأسلوب أو الكيفية اللذان ظهر بهما البطل العربي في النصوص المتوفرة أمامنا ؟

ج - ما هو الشكل الذي ظهر به البطل العربي وما هي خصائصه ؟

د - كيف وسلي أسلوب استطاع النثر الروائي اليوغسلافي أن يتحدث عن العرب ويذكرهم ؟

اخترنا هذه الفترة بالذات لأنها مفعمة بالروح والمزاج الرومانسيين . ففي بداية القرن التاسع عشر ظهرت الحركات الأولى والأفكار الأولية للرومانسية ، إلا أن قوتها لا تبرز إلا في العقد الرابع منه مع ظهور الحركة الأيليرية والحركة السلافية القومية وظهور كبار الشعراء أمثال نيجوش ويريثيون وساجو رانيتش ويريرو دوفيتش . وستحدث - فيما بعد - بالتفصيل عن الرومانسية في يوغسلافيا لأننا نرى أن ظهور شخصية العربي مرتبط على نحو ما بظهور الرومانسية في يوغسلافيا .

ولكي يتم جمع المادة اللازمة لهذه الدراسة ، أي بعبارة أدق لكي نمثل على النصوص الثرية الروائية التي تظهر فيها شخصية العربي أو أي شيء يرتبط به جغرافيا أو ثقافيا ، أو يرتبط بحضارته المادية والروحية ، اطلع كاتب هذه السطور وتصفح جميع المجلات والصحف الأدبية الموجودة في متناول اليد والمجموعات القصصية ، وفي بعض الأحيان اطلع على الأعمال الكاملة لبعض الأدباء المشورة باللغة الصربوكرواتية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر .

وعند جمع المؤلفات الروائية اليوغسلافية التي يجري فيها ذكر العربي من مختلف المجلات والصحف والكتب ، وقد بلغ عددها حوالي ١٤٨ أقصوصة ورواية ، وعند القصص الأولى لهذه المؤلفات تبين لنا أن شخصية العربي تظهر في بعض الأحيان بصفتها الشخصية الرئيسية - أي البطل - في السرواية أو الأقصوصة ، وفي أحيان أخرى تظهر على أنها شخصية ثانوية أو أنها تذكر بشكل عابر تماما . وبناء على ذلك قسمنا على الفور المؤلفات الروائية إلى مجموعتين :

١ - المجموعة الأولى وتقع فيها المؤلفات الروائية التي يكون فيها الإنسان العربي هو الشخصية الرئيسية . وتقع هنا أيضا المؤلفات الروائية التي يكون فيها للمفاهيم الجغرافية والثقافية المرتبطة بالعرب الدور الرئيسي الهام . وبهذه المجموعة ثلاث وعشرون رواية وقصة .

الجزائر . فوصف رحلة ملادن بطل الرواية إلى الجزائر يعد وصفا عاما يقتصر على التفاصيل^(٦) .

فالجزائر حسب ما رواه المؤلف في روايته كانت في ذلك الحين مستعمرة فرنسية ، وكان من الخطر أن يعيش الإنسان فيها بسبب هجوم كتائب البلبو - أي الجزائريين ، هذا فضلا عن أن الأجانب لم يكن باستطاعتهم أن يتحملوا شمسها المحرقة . وفي ذلك الحين كان سكان الجزائر مقاتلين ومخارين أشداء بحيث كان من المستحيل السير على انفراد إلا ضمن مجموعة عسكرية كبيرة^(٧) . ثم يعترف المؤلف للجزائريين بالشجاعة والاندحام ويعترف بشدة المعارك التي يستخدمون فيها الرصاص والرمح ، وكذلك بكثرة الضحايا في الجانب الفرنسي نتيجة هذه المعارك الضارية . ولذا فإن الفرنسيين كانوا ينعتون الجزائريين بنعوت غير طيبة^(٨) . ومن بين الصفات الطيبة للجزائريين أنه كان بإمكانهم أن يتعرفوا على الأجنبي حتى ولو كان يجيد التحدث بلغتهم وهي اللغة الفرنسية في تلك الأونة^(٩) .

وبناء على هذه المعلومات التي أوردها الكاتب عن الجزائر فانه يمكننا أن نفترض أن المؤلف ب . أ . كان في الجزائر لفترة من الزمن أو أنه ربما مر بها مرورا عابرا . ويمكننا كذلك أن نفترض أنه سمع بتلك المعلومات للالوفة عن الجزائر أو قرأها أثناء وجوده في باريس . وحيث أن المعلومات الخاصة بتاريخ حياة المؤلف تقيد أنه لم يسافر إلا إلى الجبل وسويسرا وإنجلترا وألمانيا وإيطاليا وفرنسا^(١٠) . فلنأخذ نرجح الافتراض القائل بأنه إما سمع بهذه المعلومات عن الجزائر ، أو قرأها خلال

هـ - ما مدى انتشار استخدام شخصية البطل العربي في النثر الروائي اليوغسلافي المكتوب باللغة الصربوكرواتية ؟

و - كيف وبأي أسلوب ومن أي مواقع أوزوايا يمكن أن نفسر وجود ذكر العربي واستمرار ذكره حتى وقت متأخر والاندماكات الأخرى المترتبة على ذلك ؟

ز - هل يرجع ظهور شخصية البطل العربي إلى تراكمات تاريخية وأسطورية ؟

ح - من أين أتت هذه الكمية الوفيرة من المعلومات الموجودة في النصوص الروائية التي تتحدث عن شخصية العربي ، وعن كل ما يتعلق به من عادات وثقافة وأمر حياته ولغته وآماله وعن كل ما يتعلق بثقافته الروحية والمادية ؟

ط - هل يمكننا - بناء على المعلومات المتوفرة في هذه النصوص - أن نستنتج ماذا كانت الشعوب اليوغسلافية تعرف عن العرب الذين اتصلوا بهم عبر التاريخ ؟

« المحبوسان »

لا شك أن الوصف المفصل لرحلة ملادن بطل رواية « المحبوسان » يكشف لنا عن أديب يعرض أمامنا انطباعاته ومشاهداته خلال هذه الرحلة^(١١) . وهذه الرحلة في معظمها هي رحلة المؤلف نفسه بنفسه في الجميلة والكاملة وعلى الأخص عند وصفه للأماكن التي مر بها بالفعل . ولكنه يتحدث في عبارات عامه وموجزة عن الأماكن التي سمع عنها فحسب ، أو التي كان بها لفترة وجيزة ، ومنها على سبيل المثال إقامة بطل الرواية في

(٦) اندرا جافروفيش ، « تاريخ الألبان الصربي والكرواتي » ، بلغراد ١٩٦٠ ، ص ٣٨٩ .

(٧) إيريك جيفافوفيتش ، « دوجويو أنتنكوفيتش » ، أصدا ب . أ . ، بلغراد ٧١ .

(٨) المصدر السابق ، ص ٧٥ .

(٩) المصدر السابق ، ص ٧١ .

(١٠) المصدر السابق ، ص ٧٦ .

(١١) الأصدا القدية ليرلان سكرافيتش ، بلغراد ، ١٩٧٧ ، ص ٩٨ .

السلطان مراد الأول وبين الصرب وحلفائهم . وقد كانت معركة ضارية قتل فيها السلطان مراد الأول ، ولكن ابنه بايزيد انتقم من الصرب وحلفائهم انتقاما رهيبا ، الأمر الذي جعل الرواة في يوغسلافيا يشدون القصاصد والقصص عن هذه المعركة . ومن هنا يتبين الخلط بين العرب والأتراك وهو ناتج عن أن كليهما كان يدين بالدين الاسلامي . ولم يكن مؤلف روايتنا وحيدا في هذا الخلط بين العرب والأتراك ، بل شاركه في ذلك كثير من الأدباء اليوغسلاف .

ويوجويوي أتنا تسكوفيتش مؤلف هذه الرواية مولود عام ١٨٢٦ - وتوفي عام ١٨٥٨ . وقد أنهى دراسته الثانوية في مدينة « بايا » بيوغسلافيا ، ولي بودابست ، وأنهى دراسة الحقوق في بودابست وبرجوت وفيينا . وبعد ذلك احترف المحاماة . وكان يكتب القصص الرومانسية الحزينة ، معالجا فيها موضوعات تتناول ماضي يوغسلافيا ، وكتب كذلك روايات عاطفية غرامية عالج فيها موضوعات من الحياة المعاصرة . وقد لفت بوجويوي نظر النقاد اليه بقصته هذه وامتلحه النقاد بحماس ، ورأى بعضهم فيه صورة نموذجية للشاعر الرومانسي بايرون .

وينبغي أن نشير إلى أن بوجويوي كان لديه من الحكمة والمهوية والمجرأة ما جعله يقدم على ما لم يقدم عليه غيره من الأدباء في ذلك الحين وهو اخفان موضوعات وأفكار ذلك الوقت التي كانت تنبع من مصادر التاريخ ومن الخيال الملتصق للأدباء المتأثرين تماما بالرومانسية الألمانية ، وإلحاحه الى بيته وجتمعته وعصره ينهل منها موضوعات وأفكارا لقصصه ورواياته فيلمس كل ما يراه الجميع ويصون به ويشعر بالحاضر وبالحياة اليومية لبني وطنه . ولذا كان بوجويوي أول من أخفل التفاليد الروائية لذلك العهد وانتقل الى مجالات

وجوده في احدي الدول المذكورة التي سافر اليها ، وعلى الاخص خلال وجوده في فرنسا التي كانت الجزائر مستعمرة لها حينذاك . غير أني لا أستبعد أن يكتشف الباحثون في تاريخ الأدب اليوغسلافي معلومات تفيد قيام مؤلف روايتنا هذه بزيارة الى الجزائر .

ويتلخص موضوع رواية « المحبوسان » أن الشاب ملادن والفتاة روجا يجب أحدهما الآخر ، وبعد ذلك تحدث عقبات مختلفة تفصل وتباعد ما بينهما ، منها سفره في رحلة الى بلاد بعيدة ومنها سجنه . وفي النهاية يثر أحدهما على الآخر . ويأتي عنوان هذه الرواية من أن بطلها ملادن يجب وطنه وحيبته . وفي الرواية كلها نجد الاحساس القومي والاحساس العاطفي يسيران جنبا إلى جنب ويتشابكان ويتحدان . وبعد عودة بطل الرواية من الجزائر وجد في انتظاره قبر والده . وهكذا انتهت القصة بالجزائر التي أراد لها المؤلف في كل فرصة أن يبرز ويؤكد فيها ما رآه أو سمعه . وعلاوة على ذلك قدم لنا المؤلف صورة صادقة لبعض الشخصيات الحقيقية لمعاصريه وبذلك تضيف الرواية قيمة جليلة علاوة على قيمها الأخرى ، فهي تقدم لنا معلومات تصلح - بلا شك - عند تسجيل التاريخ ووقائعه .

ومن التشبيهات الطرفية في هذه الرواية وصف المؤلف للمدينة اليوغسلافية سرمسكا كارلوفيتسا بأنها « القدس العربية » (١٢) . ثم ان الفصل الخامس عشر من هذه الرواية يبدأ بيت شعر مقتبس من قصيدة شعبية يجري فيها ذكر العرب (١٣) . وهذا البيت المقتبس يريد الأديب اليوغسلافي أن يقول ان المجريين فعلوا في سرمسكا كارلوفيتسا ما فعله العرب في معركة كوسوفو . وهو أمر يناهي الحقيقة التاريخية لأن العرب لم يكونوا على الاطلاق في معركة كوسوفو التي جرت حوالي عام ١٣٨٩ م ، وهي معركة جرت أساسا بين الأتراك بقيادة

(١٢) ويرجع أن المؤلف يريد بذلك أن يعني على بلدة سرمسكا كارلوفيتسا نوعا من القدسية لأنها كانت مركزا لرئيس الأساقفة الصرب .

(١٣) أمثال ب . أ . بلغراد ، ص ١٦٧ .

عشر وذكر فيه العرب) الذي يجبّ ذكر العرب وما يتصل بها .

وهناك اعتقاد سائد بين النقاد بأن بوجويوي كان واقعا تحت التأثير القوي للروح الفرنسية ، وأن الأدب الفرنسي الرومانسي في ذلك الحين أثر عليه تأثيرا قويا . ويؤكد الناقد اليوغسلافي ميلوش بيتوفيتش هذا التأثير الفرنسي^(١٦) ، ولم يكن هذا الرأي وليد وقته بل كان معروفا من قبل^(١٧) . ويعتقد الناقد ميتابوفيتش أن بوجويوي كتب مؤلفاته تحت تأثير المدرسة الفرنسية وأنه لم يستطع التخلص عن التأثير الفرنسي . أما الناقد يوفان سكرليتش فيعترف بأن هناك تأثيرا فرنسيا في رواية « المحبوبة » فحسب ، ودليله على ذلك أن بوجويوي لم يمكث في فرنسا إلا سنة واحدة وهي سنة ليست كافية لتقبل التأثيرات .

أما التأثير الأعم والأهم فهو في المقام الأول تأثير الرومانسية الألمانية وربما الرومانسية المجرية . فقد درس بوجويوي في المدارس المجرية والألمانية . وكان أول عمل أدبي له هو ترجمته لأحدى قصص الأدب المجرى في عام ١٨٤٤ ، علاوة على أن البيئة التي يصفها في أعماله الأدبية والروح والنغمة التي تسيطر عليها وكذلك اللغة التي تتحدث بها شخصياته والتشبه بالأسلوب الساذج للشاعر بايرون ، كل هذا يذكرنا بالتمازج المجرية والألمانية الضعيفة ويمؤلفات أدبائهم من الصف الثاني والثالث ، واللغة المكتوبة بها مؤلفاته الأولى تبدو وكأنها ترجمة سيئة عن الألمانية^(١٨) .

وفي ذلك الحين كانت الروايات العاطفية تنعم لمانيا الحائلة ، وفي نهاية الأربعينيات من القرن التاسع عشر

وموضوعات لم يمسهما أحد قبله . ففي روايته « المحبوبة » قدم لنا صورة للأفكار الثورية في ذلك العصر ، وتعرض المفهوم الوحلة الأخوية بغض النظر عن الاختلاف في الدين .

ويعترف معظم النقاد بأن هذه الرواية هي أول رواية يوغسلافية جيدة تأخذ مادتها من الحياة المصرية^(١٩) . ويمكن اعتبار الرواية مرآة للمسامي التي جرت خلال الحركة الشعبية في عام ١٨٤٨ وللمناقشات التي دارت بعدها . ومؤلف الرواية يأخذ الكلمة عدة مرات لكي يقول رأيه في بعض الأحداث ، وروايته للقصة والأحداثها بنفسه بوضوح ، أنه اشترك شخصيا في الحركة الشعبية^(٢٠) . والحقيقة أن بوجويوي كان متأثرا إلى أبعد حد بالأحداث الثورية التي جرت في صربيا في عام ١٨٤٨ الأمر الذي جعله يحاول أن يضيئ لونا من البطولة على أبطال روايته هذه وأن يجعلهم يقدمون العدالة الاجتماعية ويضعون يديهم من أجل وطنهم وأهلهم وبذلك يؤكد الكاتب رومانسيته .

وهناك أكثر من سبب لذلك المؤلف لمناطق عربية - أقصد الجزائر - في روايته . فنحن نجد بوجويوي متأثرا بالرومانسية شبه التاريخية التي أرسى قواعدها لدى اليوغسلاف الأديب ميلوفان فيداكوفيتش ، ولكن بوجويوي ليس تلميذا لفيداكوفيتش ولا مساكرا على دربه . وليست رومانسية بوجويوي مأخوذة من فيداكوفيتش وحده . فقد تعرف بوجويوي على الرومانسية من منابعها الأصلية في ألمانيا وفرنسا وغيرها من البلاد . وكانت الرومانسية تمجد الشرق ويلاده . ويتأثر بوجويوي كذلك بالشعر الشعبي اليوغسلافي (بيت الشعر الذي سجله في مقدمة الفصل الخامس

(١٤) اندرا جافربوفيتش ، تاريخ الأدبين الصربي والكرواتي ، بلغراد ١٩١٠ ، ص ٣٨٨ .

(١٥) المصدر السابق ، ص ٣٨٩ .

(١٦) ميلوش بيتوفيتش ، « بوجويوي الفتيكوفيتش » ، مجلة يراكوفو كراي ، ١٨٩٦ ، ص ١٤٩٣ .

(١٧) وهذا هو ما تؤكد صحيفته « الويوت المصرية » في نهاية لوجويوي في ٥ سبتمبر عام ١٨٥٨ .

(١٨) الأعمال النقدية ليرلان سكرليتش ، ص ١٢٤ .

النمساويين ، وتحرك لكي ينجق بسفنه قلب الأسطول النمساوي حتى يتمكن بعد ذلك من مهاجمته من الخلف . ولكن هذه المحاولة باءت بالفشل ، فقد أصيب القائد العربي بطلقة قاتلة ، وبعد مصرع القائد أدار الأتراك سفنهم وعادوا إلى بلغراد .

وكما نرى فإننا نجد في هذه الأقصوصة الأتراك والعرب المسلمين في جانب والنمساويين المسيحيين في الجانب الآخر . وهذا يعني بكل بساطة أن هذه الأقصوصة التاريخية تركز من بدايتها على الصراع بين حليين متباينين ، ويمكن أن نمر على آثار مشابهة لهذا الصراع في التراث الشعبي اليوغسلافي سواء أكان شعرا أم نثرا . وقد كانت قيادة السفن التركية موكولة إلى القائد العربي ، وهذا في حد ذاته شرف ومفخرة للقائد العربي ، ويشير إلى كثير من المزايا القتالية المعروفة عن العربي والتي تصورها الأقصوصة بجلاء ، ورغم أن القائد العربي كان يكافح بكل بطولية وشجاعة حتى اللحظة الأخيرة فقد انهزم ولقي مصرعه - بالضبط كما يحدث في القصائد والحكايات الشعبية . وبعد مصرعه أدرك الأتراك أن المعركة مفقودة وخاسرة وضاع كل أمل لهم في القتال والنصر فحولوا أديارهم عائدين إلى ديارهم . وبذا تكتمل في أعيننا الصورة المشرفة التي رسمتها هذه القصة لهذا القائد العربي .

وحسبما يبدو فهذه الأقصوصة تتضمن عناصر تاريخية حقيقية ولكن لا يترك قارئها الانطباع بأن هذه الأقصوصة من حيث موضوعها وأسلوب عرضها تشبه إلى حد كبير - الحكايات الشعبية . وعدم وجود مؤلف لها يؤكد هذا الافتراض ، ولا ريب أن هذه الأقصوصة التاريخية هي ثمرة من ثمار الرومانسية اليوغسلافية لأن الأدب اليوغسلافي في القرن الثامن عشر والنصف الأول من القرن التاسع عشر كان مفعما بهذه الذكريات التاريخية وقد أتت الرومانسية لكي تدغم - فحسب - تقليدا شعبيا قويا للغاية وعادة أدبية عامة^(١٩) .

كان التأثير الألماني على الأدب اليوغسلافي قويا ، ويتم ترجمة معظم مؤلفات الأدباء الألمان . ومعظم الأدباء اليوغسلاف في ذلك الحين كانوا يؤلفون أعمالهم الأدبية تحت تأثير ألماني قوي ، ولذا فاته من الطبيعي أن يتعرض بوجويوي لنفس التأثير الذي تعرض له كل معاصريه حتى أقوامهم وأكثرهم أصالة ، خاصة وأن تعليمه الألماني كان يشجع على تقبل مثل هذا التأثير .

« حصار مدينة بلغراد »

في نفس السنة التي أخذ فيها بوجويوي ينشر روايته « المحبوسان » ، أي في عام ١٨٥١ - نشرت مجلة لوفوجانكا التي كانت تصدر بفساحية ليهون في بلغراد أقصوصة تاريخية بدون مؤلف بعنوان « حصار مدينة بلغراد » . وهذه القصة القصيرة كما يتحدث عنوانها تمكي حصار مدينة بلغراد اليوغسلافية من جانب المهاجمين النمساويين الذين مكثوا عشرين يوما كاملة أمام بلغراد التي كانت واقعة في ذلك الحين تحت السيطرة التركية . وبالرغم من هذا الحصار لهذه الفترة الطويلة كلها فلم يمتلك سكان المدينة أدنى قلق أو جزع . وكان على الأتراك أن يواجهوا البحرية النمساوية .

وكان قائد عربي يقود القوة العسكرية التركية في مواجهة القوة النمساوية التي يقودها سفيدمان النمساوي الذي كان ينتظر في برود وثبات وصول القائد العربي لتباهاي وجنوده المغاوير . وكانت جميع القطع البحرية التركية تقصف وترعد دون انقطاع أو توقف ، وأخذت سحب الدخان تغطي نهر الدانوب كله في حين لا تزال البحرية النمساوية ملتزمة بالصمت والتريص . وأخيرا أعطى القائد النمساوي إشارة البدء ، وفتحة انطلقت جميع المدافع على السفن ودوت طلقاتها . وفقد الأتراك حماسهم وحاولوا النزول إلى الشاطئ إلا أن الجنود النمساويين أطلقوا نارا شديدة على الأتراك وأجبروهم على اللجوء مرة أخرى إلى السفن . وبعد ساعتين من القتال المتواصل تأكد القائد العربي من انتصار

(١٩) يولان سكرليتش ، « الشباب وأدبه » ، بلغراد ١٩٢٥ ، ص ١٥٣ .

« منصور وجيلة »

وأهله من الفرسان الأبطال الذين يسابقون الرماح والغزلان . وهم من أفضل المرشدين ، وإذا ما أتبعك الظمأ فانهم يتطلون الخيول ويميلون لك الماء في القرب خلال ساعات «^(٢٠)» . وبعد استيلاء الأتراك على الجزائر نقلوا « منصور » إلى تركيا حيث أجبروه على الانضمام إلى جنود الانكشارية وأصبح جنديا حاملا للراية .

تلك هي الصورة التي رسمها الأديب اليوغسلافي «عقوب إيجينا توفيتش لبطله العربي ، ومن هذه الصورة يمكننا أن نتبين أن إيجينا توفيتش كان على معرفة طيبة بتاريخ العرب بوجه عام وتاريخ الجزائر بشكل خاص . وقد جعل الأديب اليوغسلافي من منصور العربي في هذه القصة تمجيذا حيا للبطلوة والكرم العريين . فمنصور لا يصاب الموت أبدا ، وهو في مقدمة الجيش دوما إذ يقول : « منذ أن عشت معكم وأنا لا أنحس الموت مطلقا من أجل رفعة وشرف النبي . انني أول من رفع الراية على قلعة شاباتس وكان الأعداء يتساقطون من حولي . وأنا أول من دخلت بوابة بلغراد وفتحت لكم باب النصر » . وكان أصل منصور النبل لا يسمح له بالسرقة أو النهب . والوعد شيء مقدس عند منصور كما هي الحال عند كل عربي . وهو يقدر أحسن تقدير ضيوفه ويحترمهم ويحجلهم . ومنصور يطل همام يحمي البؤساء والضعفاء . وهو دائما يتذكر أيام العرب المجيدة إذ يقول : « انني عربي وخلفائنا وقادتنا السابقون كانوا سادة حتى في الأماكن البعيدة »^(٢١) . والجميع يتعرفون بحسن خلق منصور وعيونه بأجمل التحيات والأمان الطيبة إذ يقول أحدهم : « منحك الله الصحة أيها العربي ، ومنحك الليرة ، وأكثر من عشيرتك ، وندعو الله أن تتحول حالكم وسالنا إلى الأحسن » . وكل شخص يعجب بمنصور البطل الجميل وبحصانه السريع ، وكل شخص يقول ليس هناك ند للجندي العربي .

تغلغل الرومانسية بكل أفكارها إلى وعي الأديب «عقوب إيجينا توفيتش (١٨٢٢ - ١٨٨٩ م) وجعلت منه مدافعا متحمسا عن القومية الصربية ولذا فان المضمون التاريخي في قصته « منصور وجيلة » (منشورة في عام ١٩٦٠) و « الدم من أجل عشيرتي » (منشورة في عام ١٩٦٢) غشيب لأعلى درجة بحبه للوطن .

ورواية « منصور وجيلة » قصة رومانسية وطنية تلخص في أن ميلاكا بنت بوشكو باكيتش وقعت عند سقوط مدينة بلغراد أسيرة في أيدي الأتراك وجعلوا منها جارية لدى الحاكم التركي . وقد استطاع الشاب العربي الجزائري وحامل الراية العظيم أن ينقذها من بين براثن الجنود ، ولكنه لم يستطع أن يساعدوا أكثر من ذلك لانتقالها إلى حريم الحاكم التركي . وقد أحب منصور جيلة حبا شديدا ويمكن من إيجاد السبل والوسائل لمقابلتها سرا داخل جناح الحريم . وكان هذا بمساعدة إحدى الجواري العربيات الجزائريات . وكان منصور وجيلة خلال هذه اللقاءات السرية يتدبان حظهما وحظ بلديهما اللذين يقعان تحت سيطرة الأتراك وكانا يجدان السلى في الحب والغرام . وفي إحدى المعارك يلتقي منصور بأخوة جيلة السنة ، ويحكي لهم ما حدث لها ويتآخرون ويصلون « منصور » بتزويجه من جيلة . وينجح منصور فعلا في العمل على حرب جيلة من قصر الباشا التركي ويهربان معا إلى الجزائر .

وفي محاولة منا لالقاء مزيد من الضوء على شخصيات هذه القصة نلفت النظر إلى أن الشخصية الرئيسية في هذه القصة هو منصور العربي من بلاد الجزائر التي يمتدحها الأديب اليوغسلافي بأنها « بلاد الشرف العربي وبلاد الأبطال والفتيات الجميلات والخيول الأصيلة السريعة والأبل الأليفة » وأبو منصور من أمراء الجزائر

(٢٠) «عقوب إيجينا توفيتش ، الجزء الأول ، فيلي ساد- نيمشفار ١٩٨٤ ، ص ١١٣ .

(٢١) المصدر السابق ، ص ١٦٦ .

الإنسان العربي والإنسان المصري كانا من عشيرة واحدة في حين من الأحيان ، ليعيش المواطن المصري والمواطن العربي البطلان^(٢٣) . وقد تبدد إيجينا توفيتش عدة مرات على الصداقة بين الشعين العربي والمصري . ولا يفوتنا هنا أن تنزه بأن الأديب اليوغسلافي يعرف شيئا عن الاسلام وعن القرآن إذ يقول : « غير مكتوب في القرآن أن يسلم المسلم المسلمة أو أن تسلم هي نفسها كالدابة »^(٢٤) . ولكن اتضح لنا فيها بعد أن معرفته بالقرآن لم تأت من مصادر موثوق بها ، لأنه يورد بعض المعلومات غير الصحيحة عن الاسلام . ومن الغريب أن الأديب اليوغسلافي يعرف كذلك بعضا من العادات والتقاليد الاسلامية ، فهو يشرح بالتفصيل كيفية دفن الميت المسلم^(٢٥) . ويتحدث المؤلف على لسان منصور ليؤكد تسامحه الديني فيقول : « الله واحد والأنبياء كثيرون »^(٢٦) ويصرح الكاتب في هذه الرواية بكرهه وبغضه للشليدين للأتراك الذين احتلوا البلاد ، ويعبر أيضا عن رأيه في أنه لولا العرب ومساعدتهم لما ساد الأتراك العالم ولما كونوا امبراطوريتهم الكبيرة ، إذ يقول على لسان منصور : « انني عربي وهم أبطال حقيقيون ، ولولم يكن العرب يؤذون الأتراك لما راوا كوسوفو على الاطلاق ولا حتى بلقراة »^(٢٧) .

هكذا صور الأديب اليوغسلافي في روايته ثلاث شخصيات عربية متباينة في شكلها وتصرفاتها ولكنها كلها من الجزائر ، وهذا يدل دلالة واضحة على أن يعقوب إيجينا توفيتش كان يميل ميلا شديدا الى العرب بوجه عام ، وإلى الجزائريين بشكل خاص . ولكن إيجينا توفيتش لم يكن الأول في هذا المضمار ، فقد سبقه كما بينا بوجويوي أثناس تسكوفيتش الذي تحدث أيضا عن الجزائر والجزائريين . إلا أن الدوافع والأساليب تختلف لدى

وتأتي بعد منصور في الأهمية شخصية عربية ثانية هو خليل بن جانال من الجزائر أيضا . وهو كذلك من أصل نبيل وشريف ، ولكن ما أن تم أسره حتى اضطر الى الخروج والامستلام . ثم أخذ يشتغل بالتجارة ويأعمال الصرافة . وهو رجل طيب ولكنه أصبح يجب المال حبا جما ، فهو يشتري ويبيع الثمين من الأشياء ، ويقرض النقود لجوارى الحاكم ثم يقوم صراف الحاكم بدفع كل هيله النقود دفعة واحدة دون أن يسأل عن قلتها أو كثرتها . وكان خليل يستغل ثقة الأتراك به ويحاول أن يعوض الجوارى فيشتري هن كل ما تشتهيه أنفسهن ويملأ أيضا جيوبه بالمال فهو لا يهتم بالأتراك ولا يبالي برفعة شأنهم أو جدهم . لقد كان خليل قاسي القلب ، ولكن سمعه كان قويا لدرجة أنه كان يميز بين أنواع النقود من رنيتها ، وقد قدم إلى منصور مساعدات جليلة إذ كان يساعده في الدخول والخروج من قصر الحاكم غطيا داخل صناديق الملابس ، بيد أن « خليل » دفع حياته ثمنا لذلك في النهاية .

والشخصية العربية الثالثة في رواية « منصور وجيلة » هي المسئلة عن الجوارى في قصر الحاكم التركي . وهي كذلك عربية من الجزائر . وهي تحب أهل بلدها ، وتحب موطنها ومسقط رأسها الجزائر . وقد قدمت الكثير من المساعدات إلى منصور لأنه من أهل بلدها . ورغم أن هذه المساعدات عرضتها للأخطار ورغم ذكائها الفريد إلا أنها فقدت حياتها بسبب مفاخرات منصور مع جيلة في قصر الحاكم التركي .

ومن الممت أن نبرز هنا بعض النقاط التي لفت أنظارنا في رواية « منصور وجيلة » ، ذلك أن الأديب اليوغسلافي كان يستغل كل فرصة للتأكيد على التشابه بين الشعب العربي والشعب المصري فيقول : « لا بد أن

(٢٣) المصدر السابق ، ص ٢١٢ ، ١٦٢ .

(٢٤) المصدر السابق ، ص ١٤٨ .

(٢٥) المصدر السابق ، ص ٢١٣ .

(٢٦) المصدر السابق ، ص ١٧٨ .

(٢٧) المصدر السابق ، ص ٢٠٥ .

كلمات الأديب اليوغسلافي مأخذ الجدل فهي ليست مديحا أو اطراء ، بل هي كلمات صحيحة نابعة عن تجربة واقعية وهذا يضي عليها أهمية خاصة .

وكالمعادة اختلف النقاد حول رواية « منصور وجيلة » فمنهم من اعترف بأن هذه الرواية الرومانسية العاطفية تلهب على الدوام خيال الجماهير العريضة من القراء وتثير دوماً إعجابهم ، ومن جهة أخرى يزعمون أن مثل هذه الرواية التاريخية من روايات إيجينا توفيتش تمثل الجانب الضعيف من أعماله الأدبية . وكان أشد النقاد هجوماً على هذه الرواية هو الناقد اليوغسلافي يوفان سكرليتش ، إلا أن آراءه بشأن إيجينا توفيتش متناقضة ومتعارضة بشكل لا يتفق والموضوعية العلمية ، ويسمح لنا بالأنا نمول عليها كثيراً . فينظر موضوعية بعيدة عن التحيز والافتعال يمكننا ألا نقبل اليوم مثل هذه الآراء من جانب هذا الناقد اليوغسلافي ، لأنه في نقده أغفل السمة العامة للكتابة آنذاك وأغفل الظروف المختلفة التي أحاطت بكتابة هذه الرواية . من أجل ذلك نجد أن هناك نقاداً غير سكرليتش عارضوه في هجومه الشديد على إيجينا توفيتش وعلى أعماله الأدبية الأولى ، ونذكر على سبيل المثال لا الحصر الناقد اليوغسلافي سلويدان ماركوفيتش الذي ركز في نقده الموضوعي على النوعية الجيدة لهذه الرواية وعلى نباهت القراء على قراءتها وعلى الجوانب الإيجابية في هذه الرواية (٢٧) .

ولا خلاف في أن الأديب اليوغسلافي يعقوب إيجينا توفيتش كتب هذه الرواية الرومانسية الوطنية مستخدماً فيها التاريخ الفعلي بأقل درجة ممكنة . وركز على العناصر الثلاثة التالية : تعظيم التاريخ وحب الوطن والإعجاب بالششرق ، وهي من سمات الأدب الرومانسي الذي يمكننا القول الآن بأن يعقوب إيجينا توفيتش هو أحد أعلامه ، رغم أن النقاد ينكرون عليه هذه الصفة نظراً لأنه فيها بعد ترك الأدب الرومانسي ، وأصبحت رواياته التالية هي النموذج الذي يحتذى به في الأدب الواقعي .

الكاتين . ولكن مما لا شك فيه أن الإعجاب لدى إيجينا توفيتش أكبر وأعمق ، فهو معجب بالعرب وبأصفيهم وتاريخهم أيما إعجاب . ومن الأدلة على ذلك أنه كتب في عام ١٨٩٠ مقالة أدبية مطولة بمجلة « دانيتسا » عبر فيها بكل صراحة وبجلاء عن حبه الشديد للعرب وعن إعجابه بهم وتاريخهم وحضارتهم . ومن بين ما سجله إيجينا توفيتش في هذا المقال « أن الناس يسمون المواطن الصربي بالمواطن العربي الأوروبي . وهم على صواب في هذه التسمية . ولا تظن أنه ذلك المواطن العربي الذي يسر وراء سيده ويشمل له الغليون عند اللزوم . إن المواطن الصربي مشابه لذلك الإنسان العربي الذي كان في حين من الأحيان يحكم بغداد والذي همج على الشروق تحت إمرة محمد وخلفائه . . مشابه لذلك الإنسان العربي الذي ساعد بحكمته ويطولته الجنس التركي على أن يزيكيا أوروبا . مشابه لذلك الإنسان العربي الذي حارب الفرنسيين العاتة في إفريقيا منذ ثلاثين عاماً من أجل وطنه . إن دعاء الإنسان العربي من أشرف الدعاء ، مثله في ذلك مثل حصانه الأصيل . وذهن الإنسان العربي صاف على الدوام ، وهو يحب وطنه وأسرته ويسمى إلى المجد ويتحمل بصفات الفرسان » . ويغتم الأديب اليوغسلافي مقاله بجملته المألوفة : « لو لم أكن مواطناً صربياً لوددت أن أكون هربياً . وما دمت لا أستطيع أن أكون هربياً فأفضل أن أكون مواطناً صربياً » .

وليس بغير علنا أن نستخلص من هذه الكلمات الموجزة للأديب اليوغسلافي أنه يعرف الكثير عن تاريخ العرب وحياتهم وخصائصهم ، وهذا يذعنونا بل ويدفعنا إلى التأكيد بأن هذه الكلمات الصادقة لم تصدر عن كتابها من كليل الصلدة المحضبة أو من هوى عرضي في حنايا نفسه ، أو تعاطفاً منه مع الإنسان العربي الذي كان متخلفاً عن أجياده في ذلك الحين ، بل على العكس لقد صدرت هذه الكلمات المتقنة عن إيمان عميق بها وعن اعتناق أكيد بصحتها وصحتها . ولذا لا بد أن نأخذ

(٢٧) سلويدان ماركوفيتش ، الأعمال المختارة لمعقوب إيجينا توفيتش ، بلغراد ١٩٦٦ ، ص ٧ .

الدوافع التي دعت إيجينا توفيتش إلى الكتابة عن العرب - أي عن الجزائريين - يمكنني أن أضيف أن الباحثين اليوغسلاف من خلال كتاباتهم عن حياة وشخصية الأديب اليوغسلافي يعقوب إيجينا توفيتش ذكروا أنه سافر إلى بلاد الشرق ، وسافر عدة مرات إلى القسطنطينية في تركيا ، وأنه حارب في الجزائر ، ذلك لأنه في عام ١٨٤٩ كان مهاجرا إلى باريس حيث منحت له الفرصة آنذاك للانضمام في صفوف جيش الأجانب الفرنسي الذي كان يحارب في الجزائر وترقى به حتى أصبح ضابطا^(٢٨) . وكما يحكي إيجينا توفيتش بنفسه فقد أصبحت إحدى عينيه في معركة مع الجزائريين في الصحراء . وقد أدت هذه الإصابة إلى فقد عينه حتى أنه عاش طوال حياته لينا بعد يقرأ ويكتب بعين واحدة^(٢٩) . وهناك بالطبع من يشككون في مسألة إقامة إيجينا توفيتش بالجزائر . ويقول آخرون أن اتصاله بالجزائر ربما كان عن طريق غير مباشر ، أي أنه ربما تصادق أثناء إقامته في باريس مع بعض الجزائريين وعرف عنهم المعلومات التي ذكرها في روايته .

« الدم من أجل حشيري »

وهذه القصة الثانية لإيجينا توفيتش تتميز بميزا خاصة ، لا باعتبارها شكلا من أشكال قصص إيجينا توفيتش الرومانسية الوطنية فحسب بل باعتبارها النموذج الأول ، وربما مصدرا لجميع القصص اليوغسلافية الوطنية في الستينيات من القرن الثامن عشر . ونلاحظ في هذه الرواية ثلاثة مشاعر رئيسية : الكراهية الشديدة تجاه الأتراك ، وإبراز كفاح المناضلين في صربيا ، والملل الشديد تجاه العرب .

وتتلخص هذه الرواية في أن البطل فونو راديتش اقتيد من سراييفو إلى الجيش التركي في عربستان .

وقد نوهنا من قبل إلى أن الرومانسية اليوغسلافية تلمذت في مدرسة الرومانسية الألمانية ، بل إن معظم الأدباء في القرن الثامن عشر تعلموا في الجامعات الألمانية أو كانوا يجيدون اللغة الألمانية ويقرأون الأدب الألماني الرومانسي الذي ركز على الاهتمام بالشرق . وفي عهد الرومانسية كتب كثير من كتاب الغرب عن الشرق وعن تاريخه وعن عاداته وتقاليده . فقد كان الشرق بغرابه ومباهجه وأدبه مادة غريبة لأروباهم ولأشعارهم ، بل كان الشرق يوحى للأدباء بالأفكار ولهمهم بكثير من الموضوعات ، وفي هذا العهد حدث تقارب عجيب بين أوروبا الغربية والشرق ، ومعظم كبار الشعراء قرؤوا شعرا عن الشرق ومنهم جوتو وباهرون وبوشكين ولامارتين وغيرهم . وكانت الرومانسية كذلك تحيط بالماضي والتاريخ القديم بهالة عظيمة . وهذا التعظيم للماضي كان يمنع الجمالير أملا في مستقبل أفضل . وقد انتقلت هذه الأفكار من أفكار الرومانسية الألمانية إلى الأدب اليوغسلافي الذي امتلأ خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر والنصف الأول من القرن التاسع عشر بالموضوعات التاريخية في معظم الفنون الأدبية .

بضاف إلى هذا كله أن هذا الاهتمام الرومانسي بالشرق كانت ورائه في يوغسلافيا بعض الظروف المحلية الأخرى . حيث أسفر هذا الاهتمام عن اكتظاظ المجالات الأدبية اليوغسلافية بترجمات كثيرة عن العرب والشرق بوجه عام وبترجمات من الأدب العربي ، واهتم الأدباء اليوغسلاف بالشعر العربي للمسلمين اليوغسلاف ، رغم أنهم يفتقون الأتراك - كسليمن - وكل ما يمت لهم بصلة .

ويمكننا أن نؤكد أن السبب الأساسي الذي دفع إيجينا توفيتش إلى كتابة مثل هذه الرواية الرومانسية الوطنية هو تأثيره العميق بالأفكار الرومانسية التي كانت قد تغلغلت في الأدب اليوغسلافي . وللا لقاء المزيد من الضوء على

(٢٨) يولان سكرليتش ، يعقوب إيجينا توفيتش ، بلغراد ١٩٢٢ ، ص ٤٢ .

(٢٩) المصدر السابق ، ص ٤٢ .

نجلاله ويقتل رجب أنجليا يديده حتى لا يعذبوها ،
ويأمر السلطان التركي بختي رجب .

والطبيب العربي رجب - كما رسمه اجيناتوفيتش في
هذه الرواية ووضح معالنه - هو صورة مجسدة لكل
الصفات الطيبة للعرب . انه عربي يحترم وعده إذ
يقول : « العربي الذي يخلف وعده اليوم يحون شرف
شعبه »^(٣٠) . وهو شريف ونبل فيقول له أخو انجليا :
« انني أرى الآن أنك من عشيرة طيبة وليست هناك
عشيرة غير العرب تضحي بنفسها من أجل
الشرف »^(٣١) . وكان أهم مبدأ لديه هو القيام بأعمال
الحير فيقول : « أنت الفتاة التي أنقذتها من قبل وقد
جئت لتتقديني . لقد أرسلك الله لي . وقد كان الخليفة
الرشيدي على صواب حين قال : « افعل الخير ولن تندم
عليه »^(٣٢) . وكانت كرامة وكبرياء رجب فوق كل شيء
فيقول إجيناتوفيتش في روايته : « وكان رجب يعرف
فوينو ولكنه لا يريد أن يكلمه ، اعتقاداً منه بأن فوينو لن
يعرفه ورجب لا يطلب الرحمة من أحد »^(٣٣) . ولم يكن
رجب أنانياً فهو لا يريد الحرية طالما ظل زملاًؤه في الأسر
فيقول : « يا فوينو ، لقد حررتني ولكني لا أستطيع أن
أكون حراً ما لم تطلق سراح باقي الأبطال الأسرى .
هؤلاء وأولئك الذين سقطوا ناضلوا بشجاعة ، أما
الجنائنه فهم الذين تراجعوا . أطلق سراح هؤلاء الأتقي
عشر وإلا فسأظل معهم في الأسر وأشاركهم الموت ولا
ينسى إجيناتوفيتش أن يعترف ويشهد لرجب العربي
بالبطولة وقوة الشخصية .

ومن السهل علينا أن نلاحظ في هذه الرواية كما في
سابقها أنها تحوى معلومات وغيرة عن العرب وعن
حياتهم وعن الاسلام وعن المسلمين وعن عاداتهم وما
شابه ذلك . وليس هناك أدل شك في أن اجينا توفيتش

ورغب عثمان باشا التركي في الزواج من أنجليا خطيبة
فوينو ووحيدة القسيس لوكا . وحاول الأب دون جنوى
أن ينقذ وحيدته بتبريها ، إلا أن الجنود الأتراك لحقوا
بها وأشعلوا النيران في الدير الذي كانت تختبئ فيه
وقادوا الفتاة الى حريم الباشا . وجلس الفتاة تنسحب
حظها داخل حريم الباشا ولم تفقد الأمل في إمكانية
المهرب . وذات مرة دعت أنجليا رجب طبيب القصر
لكي يساعدنا ، وبالفعل تمكنت ، بمساعدته ، من
المهرب وذهبت الى خالها الذي أعادها الى ديارها .
ولسوء الحظ وشى به أحد الرهبان قتل الأتراك خال
الفتاة ونصبوا القسيس الرواسي رئيساً للدير . ويعلم
فوينو - الذي أصبح « عمر » بعد إسلامه - كل ما فعله
الأتراك بأنجليا وبخالها فيسرع مع أخوته لكي ينقذها
وينجسحوا في ذلك . ويعود فوينو أيضاً الى دياره
المسيحية ، ولكن لم تعد به رغبة في الزواج من أنجليا
التي أصبحت في حريم الباشا كالوردة الذابلة . ويتعاهد
الجميع على مقاتلة الأتراك حتى النفس الأخير وأن تسيل
دمائهم من أجل عشيرتهم .

ويستمر فوينو ورفاقه من المناضلين في قتال الأتراك
ولكن دون جنوى فعند الأتراك كبير ، وقوتهم عظيمة .
وفي إحدى المعارك تبحث أنجليا عن حبيبها فوينو فتعثر
على الطبيب رجب بين الجرحى فتضمد له جراحه
وتعاجله وتطلب منه البحث عن فوينو . ويجمع شملها
مع فوينو ثانية . وفي معركة أخرى مع الأتراك يخشى
فوينو أن تقع حبيبته أسيرة في أيدي الأتراك فيقطعنها في
صدرها . غير أن أصابها لم تكن قاتلة ويمالجها الأتراك
وتصبح جارية مرة أخرى . وفي قتال آخر يأمر الأتراك
فوينو ويعذبونه حتى الموت . وحينما تعلم أنجليا بذلك
يتملكها اليأس وتريد أن تنتحر فينصحبها رجب بأن
تنتقم أولاً من عثمان باشا . فتذهب اليه وتعلمته طعنه

(٣٠) لدم من أجل صديري ، ص ٣٠ .

(٣١) المصدر السابق ، ص ٢٩ .

(٣٢) المصدر السابق ، ص ١١٠ .

(٣٣) المصدر السابق ، ص ١٢٤ .

الثامن عشر. وحسب ما كتبه الناقد سلوبودان ماركويتش فإن المعلم الأول لإيجينا توفيتش في مجال الأدب كان الأديب ميلوفان فيداكوفيتش (١٧٧٠ - ١٨٤١ م) الذي كتب أيضا بعض الروايات التاريخية، وكان مدرسا ومربيا هادئا في حياته وفي قصصه للمسولة، وكان المعلم الثاني هو الأديب سيماميلوتوفيتش (١٧٩١ - ١٨٤٧ م) الذي كان على صلة شخصية بالشاعر جوتو الأكاني، ويكثر من الشخصيات الأدبية في أوروبا، والذي كانت حياته الشخصية تختلط بأشعاره الخالصة. وعلى الرغم من اختلاف طباع معلم إيجينا توفيتش إلا أنها كانتا يشتركان في خط واحد، وهو أن كلا منهما كان على طريقتة الخاصة مناضلا قويا وداعية للقومية. وربما هذا هو ما جذب إيجينا توفيتش إليها لأنه كان هو نفسه مشجعا بالروح القومية.

ولا بد أن نبرز أيضا هنا تعلم إيجينا توفيتش في المجر حيث انتقل إلى كثير من الأماكن وتعرف على مجموعة كبيرة من الناس. وتحت تأثير تربيته ومعلميه وعصره اشترك إيجينا توفيتش في الحركة الرومانسية اليوغسلافية، وأصبح أحد كتاب النثر الرومانسي النادرين. وقد ساهم مع زملائه من الأدباء في عصره في أن يكون للرومانسية - كملذهب أدبي، وللموضوعات والأفكار الرومانسية - أدباؤها البارزون في مجال النثر أيضا. ونتيجة لكل هذا ظهرت شخصية العربي في قصص إيجينا توفيتش.

« حياة المتحدرين »

في عام ١٨٦١ بدأ الأديب اليوغسلافي يوكسيم نوفيشتش أو توتشائين (١٨٠٦ - ١٨٦٨ م) ينشر في مجلة

يعرف الكثير عن تاريخ العرب والاسلام، بل هو يعرف كذلك عادات العرب في دفن موتاهم. (٣٤)

ووصف النقاد اليوغسلاف هذه الرواية بالسذاجة والضعف، وكان أشدهم هجومًا على هذه الرواية الناقد يوفان سكرليتش الذي يعتقد أنها رواية مفعمة بالسذاجة والتحييز الشديد للصرب والكراهية العميقة للأتراك (٣٥)، ومعظم أحداث الرواية خيالية رومانسية يظهر فيها الصرب كالملائكة في طهرهم وكالأسود في قوتهم. ويظهر الأتراك في صور قبيحة مشينة وكلها صفات تتنافى مع الواقع. وبالرغم من هذه العيوب وهذا الهجوم العنيف فقد اعترف النقاد بأن هاتين القصتين من قصص إيجينا توفيتش قد لاقتا قبولًا رائعا وأعجابًا شديدا من الجماهير اليوغسلافية عند صدورهما، وشهد النقاد بأن ما يذكرونه من عيوب ونقائص كانت تعتبرها جماهير القراء فضائل ومزايا في حينها. والحقيقة المهمة في كل هذا أن الأديب اليوغسلافي يعقوب إيجينا توفيتش لم يكتب هاتين الروايتين التاريخيتين باعتباره أدبيا فحسب، بل باعتباره وطنيا يحب وطنه أولا وقبل كل شيء وسوق كل شيء (٣٦). لقد كان إيجينا توفيتش يقصد أساسا من هاتين الروايتين أن يحكى لأهل وطنه مقتطفات من تاريخهم بأسلوب شاعري، حتى يستمتع أهل وطنه بماضيهم ويأخذوا منه العظة ويتحمسوا لحاضرهم ومستقبلهم. لقد كان إيجينا توفيتش يهدف إلى إيقاظ المشاعر القومية لقرائه وإلى دعم ثقة الشعب بنفسه ولقّنت أنظاره إلى القيم النبيلة في الحياة (٣٧).

ويعتقد النقاد اليوغسلاف أن روايات إيجينا توفيتش الرومانسية التاريخية هي استمرار للخط الذي سار عليه رواد القصة الرومانسية التاريخية في الستينيات من القرن

(٣٤) المصدر السابق، ص ٨٣.

(٣٥) يوفان سكرليتش، يعقوب إيجينا توفيتش، بلغراد ١٩٢٧، ص ١٨٠.

(٣٦) المصدر السابق، ص ١٦١.

(٣٧) جيفرين يوفسكوف، «الأصوات المختارة يعقوب إيجينا توفيتش»، الجزء الأول، توبلي ستو - بلغراد، ص ١٥.

بأنه لن يساجم الصرب إذا ما أخضع ماركو وقتل المتمردين الأتقي عشر في عربستان ، وجعل الهدوء مستتباً فيها . ولأن نظرة إلى الرد الطريف الذي ذكره مؤلف الرواية على لسان العرب مرسل إلى السلطان . يقول رد العرب على السلطان « ان الدولة العربية أعرق ، والعرب سادة ، والأترك ليسوا إلا خدما لهم ، لأن عمداً أيضاً كان عربياً وكان الخلفاء الراشدون والمسلمون كذلك من العرب . وكانت تركيا الشام والأناضول تحت السيطرة العربية ، في حين لم تقع الدولة العربية على الإطلاق تحت سيطرة الأتراك »^(٤٠) . ويمكن بناء على هذه الكلمات أن نستنتج أن المؤلف - أو الراوي الشعبي - كان على علم - من مصادر مختلفة - ببعض الحقائق التاريخية .

ويعترف ماركو في معرض حديثه أنه لو لم يكن هو مع الأتراك لهلكوا ، لأن العرب نالتوا بمتتهى البطولة ، وقطعوا الكثير من رؤوس الأتراك « كم هم مفتون للنظر وأبطال ، ولكن ماذا أفعل وعندى بلدى صربيا أهم من أى شيء في العالم »^(٤١) . ويوجه عام كان ماركو حزينا لاضطراره إلى مقاتلة العرب فيقول : « لن أنسى على الإطلاق كم هم أناس على قدر من الروعة والسمعة .

« دانيتسا » قصته « حياة المتمردين » وهي من ناحية الترتيب الزمني تقع بعد نشر قصة « منصور وجيلة » وقبل نشر قصة « الدم من أجل عشيتي » . ومؤلف هذه القصة يحاكيه للحكايات الشعبية كان يصف - باللغة الأدبية - حياة الشعب وحياة المتمردين^(٤٢) في البوسنا . وهو يروى ثانياً بأسلوبه بعض الحكايات الشعبية وربط بعضها ببعض الآخر عن طريق البطل الشعبي ستازين نوكا . وبالطبع كان للعرب مكان أيضاً ، لأن الحكايات الشعبية هي الأخرى مليئة بالقصص عن العرب .

وعلى سبيل المثال يحكي البطل الشعبي المشهور ماركو كرافيتش كيف أنه مرق اثني عشر وزيراً . وفي الحقيقة كان المؤلف يوكسهم بعيد سرد نفس القصة أو الحكاية الشعبية بلغة أدبية نقية جميلة . وبالطبع يوجد الكثير من التفصيلات عن العرب وعن شجاعتهم وبطولتهم وما إلى ذلك . وفي بعض الأماكن توجد كلمات طيبة كثيرة عن العرب ، فيقول البطل اليوسلاف ماركو كرافيتش عن العرب أنهم شعب شريف يدفع الناس إلى حبه ، والعربي طيب كشعبه ، وتسري في هروقه دعاء الأبطال^(٤٣) . وكان ماركو مضطراً إلى قطع رقاب هؤلاء العرب الأتقي عشر ، لأن السلطان التركي وعد

(٣٨) للمخبرين أو المخابراتي هي ظاهرة نشأت في يوسلافيا ابتداء من النصف الثاني للقرن السادس عشر وخلال السيطرة التركية على الأراضي اليوسلافية ، وقد بدأت ظاهرة التمرد في يوسلافيا حينها منذت سرده حال لتسليم اليوسلاف بعد إهبار النظام الإقطاعي التركي وضبط النظام والاحتياط والاحتياط المركزية التركية . وبعد تزايد المعاهدات الحربية وانتشار الأمراض والجلب الذي أصاب المعاصلي لعدة سنوات لم تجد الرحمة ما تدفع به الجزيرة والغرب الأخرى المقروضة واضطر أفراد الشعب إلى بيع أحطافهم حتى يسدوا hole الغرب . وسامت الأحوال كذلك في الأماكن الواقعة بالقرب من شرايين الاتصالات البحرية والتي كانت القوات التركية تتواجد فيها ، وسامت أيضاً في المناطق التي كانت توجد بها كتائب مستقلة من الجيود الأتراك . وعلى هذه الظروف والأحوال كانت فرض سارك وثلاث متكررا بين أفراد الشعب اليوسلافي وبين على السلطات التركية وفلا هذا تثيرا من هؤلاء الأفراد اضطر إلى الحروب إلى إهبار والذهبات القوية وأصبح يعلق عليهم لقب المخبرين أو المخابراتي .

وفي البداية كان هؤلاء المخبرون يتبعون من الظلم والطغيان الواليين على أفراد الشعب من جانب السلطة التركية . وكانوا يتبعون من الظالمين المحتل وإراضي الجزيرة ومن انتصار الأتراك ومن كل من كانوا يقدون للسلطة التركية . ويقال أن للمخبرين والعصائد الشعبية اليوسلافية ما الحصن الذي كانت تحمي به الرحمة . وعلى هذا المسلك من جانب المتمردين جعل مثل شمية كبيرة عند جاعليهم الشعب الذي كان يتلقى بأحسانهم في عديد من القضاة الشعبية .

وبسبب لسوء الظروف وبسبب معيشت الأتراك المتكثرة فقد شكل المخبرون كتائب ، وكل كتيبة مختار لنفسها قائداً أو زعيما يطلق عليه اسم « حرامي باشا » وكان يطلب من المتمرد أن يكون شجاعاً ولا يخشى الموت وأن يكون خالصاً لأزمته . وأصبحت ظاهرة التمرد موجودة تقريباً في جميع المناطق الأوروبية الواقعة تحت السلطة التركية . وظهور حركة المخبرين مثل أول شكل للكتائب المسلح ضد السلطات التركية .

(٣٩) يوكسهم أو يوكسلافين ، « حياة للمخبرين » ، مجلة «كافكا» ١٩٦١ ، ص ٣٥٥ .

(٤٠) المصدر السابق ، ص ٣٥٥ .

(٤١) المصدر السابق ، ص ٣٥٥ .

هذا الأمر لا يختلف عن الرواي الشعبي الأصلي الذي كان يتخذ موقفاً محايداً تجاه الأتراك والعرب . وكما هو واضح فإن هذه الحكايات في أساسها ليست حكايات يوكسيم ولا من تأليفه ، ولكن المؤلف عند إصداره لسردها أطلق العنوان لحياله المبدع ولقدرته على الابتكار .

من هذا يمكننا أن نستنتج أن يوكسيم قد استغل في الأغلب العرب كشخصيات رئيسية في رواية « حياة المتمردين » تحت تأثير التقاليد الشعبية البوغسلافية ونحت تأثير الأدب الشعبي . والأديب يوكسيم في هذه الرواية يعد راوياً شعبياً طيباً ورومانسياً ، لأنه حاول محاولة حصرية وكاملة في أن ينفذ الفكرة الرومانسية التالية : وهي أن يؤلف على أساس الشعر الشعبي وهل أساس الموضوعات والأفكار التي قدمها الأدب الشعبي - أقصوصة فنية روائية^(٤١).

ومن تاريخ حياة يوكسيم يمكننا أن نفصل بعض العناصر التي يمكنها أن تلقي مزيداً من الضوء عن أسباب ظهور شخصية في روايته هذه . فقد درس يوكسيم بالمدرسة الثانوية في سربسكا كارلوفيتسا وفي ساروش بوتوك وفي المجر ، ودرس الفلسفة في فيينا وجيتنجهاج ، ودرس الحقوق في فيينا في عام ١٨٢٤ . وقد انضم إلى المتمردين في جبال البوسنا والمهرسك ، وعاش بين الأرناؤوط وقضى سنتين في السجن . وفي عام ١٨٤٩ اشترك في المعارك ضد المجر ، وفي نفس الوقت حاول القيام بشورة في البوسنا . وأثناء قيامه بأعمال المتمردين في رومانيا وفي دورينيتور وخلال إقامته في قصور الباكوات البوسنيين وقضائه فصل الشتاء في المراعي الأرناؤوطية وفي مراعي الجبل الأسود ، في هذه الحياة الرومانسية خلق يوكسيم لنفسه - وهو ابن الضابط والنيل وخريج المدارس الألمانية - روحاً مغايرة تماماً ، وأصبح من أفراد الشعب ، وبطلاً من أبطال الحكايات

وكننت أغنى لو أنهم فكروا في ذلك الحين وتركوا القتال اللعين » .

وفي حكاية أخرى يجري قتال بين البطل البوغسلافي ماركو وبين العربي العملاق ، وهو ضخم الجسم وعظامه كبيرة بحيث أن أضخم الأتراك في ذلك الحين كانوا لا يبلغون إلا صدر العربي العملاق^(٤٢) . وكان الأتراك في صف العربي وضد ماركو ، وهذا يقودنا إلى الافتراض بأن المؤلف يريد أن يؤكد بشدة على فكرة الصراع بين عالمين ، وهي فكرة تتكرر على الدوام في الحكايات الشعبية .

وهاهي حكاية ثالثة عن إلغاء جزية الزواج وتروى أن ماركو قتل طاعياً حربياً عند صوبيا في بلغاريا ، وذلك لأن هذا العربي كان يفرض مختلف الجزيات ، وكانت آخر بدعة هي فرضه جزية على الزواج . والفكرة أو الموضوع هو نفسه الموجود في القصة أو الحكاية الشعبية التي تحمل نفس العنوان . وصلاة على اللغة الأدبية النقية فالغرض الوحيد هو أن يوكسيم قد عالج الموضوع بشكل أفضل وبمقاصيل طريقة أكثر . والمقارنة بين الحكاية الشعبية الأصلية وحكايات يوكسيم هنا نجد أنه لم يضيف شيئاً جديداً فيها يتعلق بالعرب .

والمؤلف يستخدم هنا تعبير « العربي الأسود » من أجل المقارنة بحسب^(٤٣) .

كما سبق وتبين لنا أن المؤلف يوكسيم قلده الحكايات الشعبية بلمحة الأدبية النقية ووصف حياة الشعب وحياة المتمردين في البوسنا وتعرض لبعض الأحداث التاريخية من الماضي القريب أو البعيد . وقد اختار عن عمد الموضوعات التي تمكنه من تحميس الشباب للمثاليات الوطنية وتربيته على التقاليد التاريخية النبيلة . وليس عسيراً أن نلاحظ في حكايات يوكسيم كراهيته الشديدة تجاه الأتراك وميله وتماطفه الجلي تجاه العرب . وهو في

(٤٢) المصدر السابق ، ص ٤١٤ .

(٤٣) المصدر السابق ، ص ٤٨٩ .

(٤٤) يولان سكرليش ، « تاريخ الأدب الصربي الحديث » ، بلغراد ١٩٢٥ ، ص ٣٩٩ .

الشعبية^(٤٥)، وما لا ريب فيه أن العيش في مثل هذه الظروف وهذه البيئات قدم الأساس والقاعدة لرواية « حياة التمردين »^(٤٦).

ومن العناصر الهامة الأخرى في حياة يوكسيم أنه أقام في فيينا فترة من الزمن في نفس الوقت الذي كان يقيم فيه بفينا المصلح اللغوي فوك كراجيتش . وقد قدم يوكسيم المساعدات لفوك بشأن اختيار القصائد الشعبية ، وكذلك بشأن اللغة ، لأن يوكسيم تعرض عن منيع هذه القصائد . وفي سرهم في منزل والد يوكسيم الذي كان شاعرا ملحما ، كان يتوافد كل يوم ضيوف أعزاء من عصبي القصائد الشعبية . هذا علاوة على أن يوكسيم كان يبيد معرفة اللغات اللاتينية واليونانية والسلافية القديمة وكان يفهم التركية ، ولا أحد أفضل منه كان يعرف الحياة الشعبية وعادات ولغة الشعب^(٤٧).

« الهوى لا يسمع »

منذ نشر رواية « حياة التمردين » التي نشرت نهايتها في مجلة « دانيتسا » في عام ١٨٦٣ ، وحتى عام ١٨٧٠ حينما تم نشر الأقصوصة التاريخية « الهوى لا يسمع » بقلم بطرس دمبوتوفيتش في مجلة « دانيتسا » أيضا لم ينشر أي شيء آخر فيها يتعلق بالعرب . ويتصلحت المؤلف في هذه الأقصوصة التاريخية عن بطولية وجسارة خارقة لامرأة عربية تسمى « قولة » . ولا يمكن بسهولة التأكد من هذه الشخصية وإثبات وجودها في الواقع خاصة إذا أخذنا أن هذه الأقصوصة حدثت في القرن الثامن . ومن ناحية أخرى أراد المؤلف أن يقدم موعظة بأن الهوى لا يرى ولا يسمع .

والمرأة العربية « قولة » انضمت إلى الجيش العربي الذي كان يحاصر دمشق بحيث أن المدينة كانت في أكبر

خطر . وقد عرض مواطنوه هذه المدينة على القائد العربي خالد بن الوليد الكثير من الذهب لأشياء إلا لكي يتخلل عن حصاره . وفي دمشق كان هناك الشقيقتان « بافلو » و « بطرس » ، وهما مشهورتان بطولتهما في كل الجيش اليوناني . ولكن منذ فترة من الزمن وقد سيطر عليهما شرود الذهب ولا تندفع رماحهما كالبرق كما كانت تندفع من قبل . وكان السبب في ذلك هو البطولة العربية ، « قوله » الجميلة . وبالرغم من بطولية الشقيقتين فقد كانا عاشقين ، ولذا فقد أجبرتهما أمهما على أن يقسما بأنهما سيطيعانها أثناء المعركة . وتم أسر شقيق « قوله » في القتال وهرب جميع العرب إلى أن وصلت إليهم « قوله » وجعلتهم يقدّمون عن الحرب . وبعد ذلك أخذت مجموعة صغيرة واستطاعت أن تنقذ أخاها من الأسر .

وفي معركة أخرى هجم « بافلو » بجنوده وخطم كتيبة الفرسان العربية غير أن « قولة » ظهرت على صهوة جوادها الجميل فأشعلت الحماس بين العرب الذين ما أن رأوا بطولتهم القوية حتى عادت إليهم حيويهم وهجموا بهمة شديدة على الكتائب اليونانية . وبمنظرة استطاعت « قولة » أن تأسر الفارس اليوناني الماشق الذي أخذ يهرول وراءها دون أن يسمع أو ينصت لصوت أمه . وأخذ الهوى الذي لا يسمع ولا يرى يلتهم في أعماقه . وهكذا تم القبض على الفارس « بافلو » ولم يكن شقيقه بأحسن حظا منه ، فبعد فترة وجيزة أسرت هذه العربية الجميلة بطرس أيضا الذي لم يسمع هو كذلك صوت أمه الذي كان ينهيه إلى واجبه ، بل على العكس كان يهرول هرولة عمياء وراء المرأة العربية الجميلة .

وأهم شخصية عربية في هذه الأقصوصة التاريخية هي المرأة العربية « قولة » . وحينا وصلت إلى الجيش العربي

(٤٥) يوهان سكرلش ، « الرومانسية والواقعية » بلغراد ١٩٦٢ ، ص ٩٦-٩٧ .

(٤٦) إميل تشوكرا ، « يوكسيم أوتوشاين » ، مجلة دانيتسا ١٨٦٨ ، ص ٣-٤١ .

(٤٧) المصدر السابق ، ص ٤٩ .

تشجع على الاهتمام بالشرق وبالموضوعات التاريخية ، وعلى وجه السرعة تحسّس الرومانسيون اليونانيون الذين كانوا يبحثون عن نماذج وقواعد الذوق في الأدب الألماني في ذلك الحين (٤٨).

وفيما عدا ذلك فقد كان بطرس ديسبوتوفيتش من العاملين في مجال التربية فهل كان يريد بقصته هذه أن يحبس الشباب المسيحي ؟ احتمال قائم ولكنه لم يثبت . والعجيب أن بطرس لم يستمر كثيرا في مجال الأدب ، فقد أسدلت عليه ستار النسيان بشكل سريع ، وواضح أن لذلك مبرراته ، فقدراته وإمكاناته الأدبية محدودة . وكان الجمهور ذو الذوق الأدبي غير المتطور يقرأ مؤلفاته . وما يذكر أنه قد أبدى دراسته الثانوية ثم التحق بمدرسة المعلمين في سوبسور وبعد انتهائه من الدراسة بها اشتغل بمدرسا في نفس المكان ثم مدرسا في مدرسة المعلمين في باهراتس . وبعد ذلك درس علوم الأحياء في لينين . ومن الغريب أنه مثل أمام المحكمة في فوفودينا بتهمة الخيانة العظمى ، وعلى أثر ذلك فقد وظيفته كمدرس . وكان يكتب كتب التربية والقصائد والأناصيص . وفي التربية التاريخية كان في الأغلب يعرض الحقائق بشكل موضوعي . وإذا ما تعمق في معالجتها فإنه يتخذ موقفا مثاليا (٤٩).

« بكم الدجاجة أيا الفلاح ؟ »

هذه الأقصوصة هي في الحقيقة الفصل الرابع من رواية « ليل التي جعلوها سلمة » تأليف الكاتب ميلان جاكوف ميليتشيتش . وفكرة هذه الأقصوصة بإيجاز أن المرأة العربية « نجية » كانت جارية عند ليل التي هربت من الدنيا وذهبت إلى « حسن أغايك » وأصبحت زوجته . ولفترة طويلة بحث عنها والداه إلى أن عرفا مكانها وحضروا إليها في المكان المخصص للحرير في

كانت ترتدي أجمل ثيابا وأثمنها التي لا توجد إلا في الشرق ، وكانت تحتل صهوة حصان جميل ضخم مغلف بغطاء موشى باللهب بدلا من السرج . وكان وجهها أبيض من وجوه العرب وكانت أشجع بطلية . وحينما رأت أهلها من العرب يربون صاحبت بأعلى صوتها بحيث إن الصحراء اهتزت لمسافة بعيدة وشجعتهم بالكلمات الجريئة حتى أقلموا عن الحرب . وكذلك حينما سمعت أن أخاها قد أسلم هدا إلا بعد أن أنقلته من الأسر . ومن المؤكد أن « قوله » كانت في غاية الجمال والجاهلية ما دام كل من بافلو ويطرس قد إفتتاها بهذا الشكل . وطالما لم تكن « قوله » موجودة في الجيش العربي كانت أمها تنام في هدوء ، ولكن منذ أن ظهرت « قوله » تلاشى هذا الهدوء وانهمز ابتلاءها ولم يزمها القائد الشجاع خالد بن الوليد ولم يعطيتها ضرار لئلا يصابها الفظيعة ، بل هزمتها امرأة ، هزمتها الهوى .

وهناك انطباع بأن هذه الأقصوصة التاريخية لها أساس تاريخي رغم أنه مشكوك في أصالتها . ومن الأرجح أن بطرس ديسبوتوفيتش قد عرف هذه الأقصوصة عن طريق طرف آخر ثم أعاد سردها ، أو ربما ترجمها إلى اللغة الصربوكرواتية ترجمة حرفية أو محرفة . والدليل على ذلك عدم وجود أية شخصيات يوغسلافية بالأقصوصة ، وكذلك إحساسنا في القصة كلها بنوع من التعصب الديني والنظر إلى كل شيء من خلال الصراع بين المسلمين والمسيحيين . وحسب روح ولحجة الأقصوصة ، وحسب بعض الإهانات الموجهة إلى العرب فليس صريحا أن نستنتج أن بطرس ديسبوتوفيتش كان في صف المسيحيين ، وأن آراءه كانت عتيقة متعصبة وكأنه لا يزال يعيش في عصر الحروب الصليبية .

ومن المؤكد أن بطرس ديسبوتوفيتش قد كتب هذه الأقصوصة التاريخية تحت تأثير الرومانسية التي كانت

(٤٨) يوفان سكرانيش ، « الشباب وأهله » ، ص ٢٩٦ .

(٤٩) دائرة المعارف اليوسلافية ، جزء ٤ ، ص ٦٩٤ .

ولذا فإن كاتب هذه السطور يعتقد أن هذه الأقصوصة قائمة على أحداث حقيقية واقعية ، وهي في الوقت نفسه تثبت وتؤكد الافتراضات المذكورة ، ومن هنا تأتي أهمية هذه الأقصوصة بالرغم من أن الدور الذي تقوم به الجارية الحربية « نجية » صغير في الظاهر .

ومن المعلومات التي تهمنا عن مؤلف هذه الأقصوصة يمكننا أن نذكر أن ميلان جاكوف (١٨٣١ - ١٨٧١ م) درس المدرسة الثانوية واللاهوت وقد بدأ نشاطه الأدبي بترجمة المقالات التربوية . وكان يجيد معرفة اللغتين الروسية والفرنسية . وبعد انتهائه من الدراسة عمل بوزارة الثقافة ، وقد سمح له هذا العمل بالتجول في أنحاء صربيا وبذلك سحت له الفرصة لأن يرى الشعب ويتأمله ويتعرف على آلامه وأمانته . ولذا فإنه ترك المؤلفات التربوية واشتغل بتصوير ووصف حياة الشعب ، وكتب عدة مؤلفات تاريخية وجغرافية وأثنوغرافية . وقد اكتسب معارفه بالقراءة والرحلات . وكان يمتاز بالملاحظة النشيطة ويسجل هذه الملاحظات والبيانات ويعالجها عندما تحين له الفرصة بلمغة نفية مفهومة للشعب .

« حاج بالقوة » :

نشر المؤلف ميلان يوقانوفيتش هذه الأقصوصة في مجلة « يافور » في عام ١٨٨٠ ويحكى فيها عن لورد شاب لم يذهب إلى فلسطين من أجل الحج بل بأمر من والده الجنرال لكي ينسى فتاة أحبها ، وهي من طبقة أدنى من طبقته وحتى لا يتخذها زوجة له ، وحتى لا تتدفق دماء الدماء في العروق الأرستقراطية لأحفادها بما قد يؤدي إلى طرد العائلة النبيلة من الطبقة الأرستقراطية . وقد قام اللورد الشاب بالانتحار في رحلته ما بين يافا ويوزمسيد وذلك لأنه في يافا وجد في انتظاره رسالة من حبيبته تودعه فيها الوداع الأخير لأنها تنوى الانتحار .

القصر . وعندئذ أحضرت لهم الجارية العربية القهوة وكذلك الهدايا .

وقد يظن أحد أن هذا الدور لجارية عربية دور صغير ولا يستحق أى اهتمام منا . ولكن على العكس من ذلك يعتقد كاتب هذه السطور أن الأمر متناقض لذلك ، وأن دور مثل هذه الجارية العربية مهم للغاية ويستحق دراسة مفصلة . فمن جهة يمكننا أن نؤكد أن مثل هذه الجارية العربية كانت وسيلة من وسائل انتقال الثقافة العربية الإسلامية ، ومن جهة أخرى كانت هي وأمثالها من العناصر المهمة بشكل لا مثيل له في نشر وتعميق التصورات المختلفة والحكايات المتنوعة عن العرب في جميع المجالات . وليس من المبالغ فيه أن نقول أن تصور الشعوب اليوغسلافية عن العرب كان مرتبطا في المقام الأول بمثل هؤلاء الجواري العربيات .

وفي القصة التي أمامنا دخلت الفتاة اليوغسلافية « يانا » الاسلام محض رغبته وأصبحت ليل . وتغير مسلكتها تماما وعاداتها وطريقة ارتدائها للملابس وما إلى ذلك . ويؤكد هذا كله الدهشة الكبيرة التي أثارها هذا التغير عند الدنيا اللذين - بكل بساطة - تسمرا في مكانهما حينما رأياها في قصر « حسن بك » . بل انهما لم يتمكنوا من التعرف على ابتها التي أنجبها . فمن اذن يقف وراء هذه التغيرات المذهلة في الملبس والمسلك والعادات وغير ذلك عند ليل ؟

ليس هناك أدنى شك ولا أى خلاف على أمثال هؤلاء الجوازي العربيات . . كن البطالات المجهولات وراء مثل هذه التغيرات . فقد كن مشغولات عن تعليم وتربية وتجهيز وتنظيف الفتيات حديثات العهد بالاسلام أمثال ليل . وليس من غافلة القول أن نوهنا بأن الجارية المشهورة « تودج » قد نجحت أمام علماء هارون الرشيد في امتحانات الطب والحقوق والرياضة وتختلف مجالات العلم والثقافة^(٥١) .

(٥١) غليب حى ، « تاريخ العرب منذ أقدم العصور » ، سرياف ١٩٦٧ ، ص ٣١٤ .

الرجل النبيل حمل في قلبه أرق الأحاسيس لهذه الفضائل ، التي تغلغلت وتعمقت جنودها في قلبه حتى أنه أصبح يعيش لأجل أمرين مقدسين ، من أجل حبيبته « لؤلؤة الصحراء » ومن أجل المشاعر والفضائل البشرية . ومن أجل زليخة كان محمد بن أبي بكر يرفض أية عروض للسياحة أو السلطة ، وكان يشعر بأنه غاية في السعادة لأنه يعيش في هدوء من أجل حبه ومن أجل شعبه . وحينما دعت طبول الحرب لكي يدافع عن شرف شعبه ولكي ترتفع أعجاد هذا الشعب كان يقف في مقدمة المناضلين ولا يخجل برخصه أو غاله في هذا المصمار . وحينما يتقطع صلب السيف يتعد على الفؤاد من المكان الذي يجري فيه تقسيم الغنائم وتوزيع الدية ، ويذهب إلى واحة في الصحراء حيث يستريح في نعيمته المتواضعة ويفكر في حبه وفي سعادة بني وطنه . ولم يك يفضي لحظة واحدة في العبث لأنه كان يعرف أن عمر الإنسان قصير للغاية حتى أن الإنسان يمكنه أن يفكر في الطيب النافع ويعقده لشعبه .

وكان يوسف صديق محمد يسيء استغلال صداقته بل يسيء سمعته أمام حبيبته زليخة . وكان يوسف قادرا على تزييف الأمور والحقائق بمهارة بالغة حتى أنقل حبه صديق باقتراءاته وكان آخرها إشاعته أنه هو - أي محمد - مدبر قتل الخليفة عمر . وصدقت زليخة هذه الافتراءات لأن يوسف كان يمس لها على مهل السم في قلبها بشكوكه المستمرة . وبذلك فقد محمد حبه وحياته من أجل سعادة بني وطنه .

والأقصورة كلها مكتظة بمختلف الشخصيات العربية المتنوعة ولذا فأننا ستحدث هنا عن أهمها . فحسب ، وعن أهم ملاحمها كتبها المؤلف في قصته .

ولم يقدم لنا المؤلف أية أوصاف مفصلة للمدن العربية المذكورة في هذه القصة ، ومعلوماته عن فلسطين وعن القدس معلومات عامة فيقول : « يعلم المسيحيون أن فلسطين بلد مقدس حيث يذهب إليها لكي يصل الله كل من لديه وقت ومال . وحينما نتحدث عن فلسطين فأننا نتذكر القدس والأردن وعبران والصليب وقبر المسيح ، ومن يذهب إلى هناك باعتباره إنسانا عاديا يعود إلى بلده وهو حجاج حكيم »^(٥١) .

وقد كان مؤلف هذه الأقصورة طبييا وكان يكتب عن رحلاته . ولا شك أنه كتب أقصوصه هذه متأثرا بالأفكار الرومانسية . فتحسن نلاحظ هنا أن أشخاص القصة كلهم أجنبيون . أي ليسوا يوغسلاف - كما أن أحداث القصة تقع في أماكن أجنبية . ويسمى الرومانسيون هذا النوع من القصص « بالقصص الأجنبية »^(٥٢) وهم لم يتدعوا هذا النوع من الأدب وإنما ورتوه من القرن الثامن عشر ، وقد ولعوا بهذا النوع من القصص لكي يرضوا به زعمائهم في الفرار من الواقع ، وإشباع الخيال بوصف بلاد أفنى مناظر ، وأحفل بالمخاطر وأكثر حيوية مما ألفوا في وطنهم .^(٥٣) .

« ابن الصحراء » :

هذه القصة من تأليف الأديب اليوغسلافي نيكو جرويتش أوجينيان ، وهي بالفعل أقصورة تاريخية تحكي الأحداث التاريخية الحاسمة في العالم العربي الإسلامي خلال عهد الخلفاء الراشدين عمر وعثمان وعلي . وتروي لنا هذه الأقصورة أن محمد بن الخليفة أبي بكر أحب زليخة التي كانت كل نجد تسميها « لؤلؤة الصحراء » وكانت هي أيضا تحبه ، وكانت تتحدث معه في حاسن فضائل الإنسان بحيث أن محمدا

(٥١) بيلان بولغاريتش ، « حجاج بالقاهرة » ، مجلة الباور ١٨٨٠ ، ص ٧٤

(٥٢) د . محمد فهدى حلال ، « الرومانتيكية » ، القاهرة ، ص ١٦٥

(٥٣) المصدر السابق ، ص ١٦٩ .

وظلوا أولياده لرغبته الأخيرة ، فهم يحيون حتى اليوم حياة متواضعة بسيطة .^(٥٥)

وخلافاً لمحمد كان يوسف يطلب الجنتون : جنة الأرض وجنة السماء . ولأنه اشتفى أن يأخذ زليخة لنفسه فقد كانت كل كلمة من كلماته تنتمى محمداً ، وكان دائماً يصبب السم على الجرح الذي لم يلتئم . وكان ماهرًا في إخفاء آرائه ، ولكن بمجرد أن امتلك زليخة وتزوجها ظهرت طباعه على حقيقتها ، فقد أصبح مغرورا وطاغيا وقاسيا . وأصبحت قبيلته المشهورة لا تخوف على طلب أي شيء من أميرها الجديد ، لأنه كان لا ينظر إلى أفرادها على أنهم بشر بل على أنهم عبيد مطيعون خاضعون . وكان يطلب لنفسه الحرية ولكنه يستأصل جدورها في كل مكان . وكان يتصرف في جميع الأمور بديكتاتورية وقسوة . وإذا ما ارتكب مظلمة من المظالم وسمعت زليخة بذلك كان يكذب أمامها ويقلب الأمر لصالحه . وبعد زواجه كان يعارض بصراحة كل ما يقوله محمد وزليخة . وعلاوة على ذلك كان يعاقب « لؤلؤة الصحراء » بتهدياته وكلماته القاسية .

وقد فقد يوسف هدومه وسروره حينما اتضح له أن جميع مؤامراته واقتراحاته التي حاكها ضد محمد سقطت كلها على رأسه . ولكن الجبان السافل ليس له حياة الأبطال وتسميتهم . والرجل الذي يكثر من الكلام الأجوف ليست لديه الجرأة لأن يثبت قوله بالفعل . فبمجرد أن عرف يوسف بافتراس سره وعمرته محمد لاقتراحاته عليه لم تبق لديه الجرأة لأن ينتظر مواجهته بل لاذ بالفرار حتى يحافظ على حياته . ولم يكن ليوسف أصدقاء على الإطلاق لأنه لم يكن يثق بأحد ولم يكن يحب فعل الخير .

وتكتظ الأقصوصة بالكلمات الجميلة المنتقاة من العرب ومن البدو وعن عاداتهم وتقاليدهم .

محمد بن أبي بكر رجل نبيل ، من خصائصه الأساسية حبه للعدل . وكان مسلما بقلبه وروحه ، ولم يكن يفسر الإسلام وتعاليمه بحيث يثير تفسيراته هذه حذاب وشقاء وسوء معاملة الآخرين ، وكان يعتبر أن من يفعل ذلك من المسلمين لص . كان قلبه رقيقا غير فاسد . وكان صديقه يوسف يقول عنه انه انسان كامل وصديق واثق ، وأن نجد كلها تمتنع بنبله^(٥٦) . وكان محمد يضع على اللوام حياته ونفسه كلها في خدمة تلك الحركة الشعبية التي كانت تهدف إلى جدد بني وطنه وعظمتهم . وبعد موت عمر اتفق أهلية أعضاء المجلس على أن يعلنوا محمداً خليفة فقد كانت تزيهه كل الفضائل الجسميلة ، ولكنه رفض .

وحينما علم محمد بالثورة حول مكة والمدينة ضد عثمان هاجم المتحدين على وجه السرعة . ولم يستطع عثمان أن يأمل في مثل هذا السمو ولم يعرف كيف يجد الكلمات التي يشكر بها محمداً . لقد كان محمد يعرف طهارة نفسه من كل رذيلة ، ولذا فلم يكن يفتش أي شيء ، ورفض مرتين أن يتم اختياره خليفة لجميع المسلمين .

وكان الشعب تحت أشجار الكستناء وأشجار النخيل يحكي وينشد ما شاء له من نبل محمد بن أبي بكر . وكان المنشدون ينتقلون من واحة إلى أخرى ويحكون وينشدون عنه الأعاجيب . وكانت أعمال محمد حميد على أنها مقدسات ، وكان اسمه يذكر باكبر فوجات الاحترام ، لقد كان أثرا لدى كل عربي ويدي . ولو أنه جلس على كرسي الخلافة لكان من الممكن ألا يكون محترما ومحبوا بهذا الشكل ، ولكن لأن الشعب يرى أعماله الوطنية الصادقة ويرى عدم أنانيته وتضحيته ، ويرى تفوقه الفعلي في المجال الذي يحتاج إليه فيه ، فقد كان يخلص له ويحبه بصديق . وقبل محمد الآن من المقدسات لدى البدو ، فهم يحترمونه أشد الاحترام ويمجدون أعماله ،

(٥٥) مجلة الفكر - ١٩٨٠ ، ص ٧٣٣ .

(٥٦) المصدر السابق ، ص ١٧٧٢ .

أخرى غير تلك التي يقيم فيها المؤلف . وهذه القصة كذلك تنطبق عليها سمات كثيرة من سمات الرومانسية فهي قصة تاريخية أجنبية تتعلق أحداثها بالشرق ، ويغضرننا الآن قول فريدرش شليجل « بأنه يجب علينا أن نبحث في الشرق عن أسس المواد والصور الرومانتيكية »^(٦٢) . والقصة التي بين أيدينا ما هي إلا دليل جليد على ولع الرومانسيين بالشرق وتاريخه . وبناء عليه يمكننا أن نؤكد أن هذه القصة مكتوبة تحت تأثير الرومانسية الألمانية وتأثير الأدب الألماني الذي كان يميل ميلا شديدا إلى الشرق وإلى حياته^(٦٣) .

« نيميا » :

الممثل فيليام ميلكويتش نشر في مجلة « يافور » في عام ١٨٨٦ هذه القصص الطويلة التي نختارها عن أن « ياكور » من قبيلة الملك بوسيت وأسر ابنته « نيميا » ولكنها نجحت في أن تقتله وأن تهرب مع العبد « إزرياض » إلى قبيلة نوبية . وقد وصلت « نيميا » العبد « إزرياض » بالزواج . ولكن بمجرد أن رأت الملك النوبي العربي نسبت وعلمها . واتفقت مع الملك على أن تكون زوجته وملكة على القبيلة . وسمع العبد « إزرياض » بكل هذا وأجبر « نيميا » على احتساء السم .

والملك النوبي العربي كان رجلا جميل الطلعة ، حسن القوام ، نظراته نارية ، وحيونه راحة اللون . وكان في مستقبل شبابه ، إذ لم يكن قد أمضى الخامسة والعشرين من

وهذه الكلمات يمكن أن تبين لنا معرفة المؤلف بالعرب ، فهو يعرف عن العرب أنهم يسلكون الطريق الذي يؤدي من واحدة إلى أخرى^(٦٤) وأن البدوي قليل الكلام ولكنه إذا قال شيئا وعود بأمر فانه يضمن كلمته بحياته^(٦٥) ، ويعرف الكاتب عن منطقة نجد أن نجوم الجمال ، والحكمة والانسانية تتلألأ في سماها^(٦٦) . ويعرف الكاتب أن أهل نجد طيبون وعاقلون وأنه بإمكان المرء أن يتصلح معهم من كل ما هو حكيم وأنهم ليسوا متعصبين على الإطلاق^(٦٧) . غير أنه علاوة على ذلك نحسب القصة على بعض المعلومات غير الصحيحة^(٦٨) مما يجعلنا نرتاب في أصالة وحياة المصدر الذي استلهم منه المؤلف مادة قصصه التاريخية .

وقد عرض المؤلف كذلك معلومة تاريخية غير صحيحة فيما يتعلق بمكتبة الاسكندرية . فهو يزعم أن الخليفة صمر قد أمر بأحراق كتب مكتبة الاسكندرية . ولكن المؤرخون يؤكدون أن مكتبة الاسكندرية أحرقت في عام ٣٨٠ م حسب أوامر الإمبراطور تيودوسيا . وبناء عليه ففي زمن الفتح العربي لمصر في عام ٦٤٧ لم تكن هناك أية مكتبات مهمة في الاسكندرية ، ولم يتم أي مؤرخ على الإطلاق القائد عمرو ولا الخليفة عمر بحرق مكتبة الاسكندرية^(٦٩) .

وفي الجملة فقد ظهر العرب في القصص ابن الصحراء في مكانهم الطبيعي لأنها قصة تاريخية من العرب فحسب . ونلاحظ أن هناك تشابها بين هذه القصة ومابقتها من حيث أن أحداثها تدور في بلاد

(٥٦) المصدر السابق ، ص ٦٧٨ .

(٥٧) المصدر السابق ، ص ٦٨٠ .

(٥٨) المصدر السابق ، ص ٧١٣ .

(٥٩) المصدر السابق ، ص ٧١٤ .

(٦٠) يذكر المؤلف أن لدى الجدار حاد بأن تحفظ النساء الثريات بأكثر من زوج ، وأن هذه العادة استمرت حتى بعد ظهور الإسلام (ص ١٢٠٣) وهو خطأ أمر بتأني الخليفة .

(٦١) فيليب جيبس ، « تاريخ العرب » ، ص ١٦٦ ، وكذلك Edward Gibbon, The history of decline and fall of the Roman Empire, London 1855, p 452 .

(٦٢) . صمد فيسي حلال ، « الرومانتيكية » ، ص ٦٤ .

(٦٣) يوفان سكرتش ، « الشباب وأبيه » ، ص ٢٩٣ .

عمره ولم يكن متوحش الطباع . وكان يقدر كل ما هو جميل ونبل وقد كان هو نفسه نبيلاً .

وكما نرى فإن مزايها هذا الملك العربي ليست معدلة أو بعبارة أخرى ليست مزايها عربية مائة في المائة ولا تقتصر على العرب فحسب . فآسيا الشخصيات وتصرفاتها في هذه الأقصوصة لا تسمح لنا بأن نؤكد إن كانت عربية أم نوبية . ولكن المؤكد أنه ليس لدى المؤلف تصور مسبق عن النوبيين أو عن العرب . ولا شك في أن ظهور هذه الشخصيات النوبية العربية هو وسيلة للفت الأنظار ، وهذا هو الأرجح في نظرنا . فقد تعمد كاتب هذه الأقصوصة - وهي الأولى والأخيرة - أن يلفت أنظار القراء بهذه الأسماء الأجنبية وهذا الجوف الغافض والمسلك العجيب لشخصياته . ويمكننا أن نرجح كذلك أنها تشبه بجوها هذا إحدى القصص الفرعونية أو أن فكرتها مأخوذة من قصة فرعونية . ويحتمل أن تكون القصة رمزية ، ولكننا لم نمض على ما يمكننا من حل هذه الرموز .

ولم تمكن على الإطلاق من العثور على معلومات مفصلة عن الممثل ميلكوفيتش يمكننا أن تلقى مزيداً من الضوء على نشاطه الأدبي . ، ومن هنا يمكن الافتراض بأن ميلكوفيتش لم يكرر هذه المحاولة غير الناجحة بسبب ضعف قدراته وإمكاناته الأدبية . وهذه الأقصوصة التي بين أيدينا هي - فيما يبدو - الدليل الوحيد الذي لا يقلل الجدل بالنسبة لهذا الافتراض .

و المولى محمد

الأديب اليوغوسلافي نيكو بيساروفيتش عاشق الحكايات الشعبية بدأ نشاطه الأدبي بتسجيل القصائد والمؤلفات الشعبية ، وبعد ذلك نشر عدة قصص من حياة منطقة البوسنة بيوغوسلافيا : «أولاً قصة» المولى محمد في عام ١٨٨٧ ثم قصة «عارف الوزير الكبير» وقصة «حورية من الجنة» .

ويمكن أن نوجز فكرة قصتنا في أن المولى محمداً كان يعمل في ترقيع الملابس بسرايفو . وقد تزوج سبع مرات ، وتوفيت ثلاث من زوجاته وطلق أربعاً منهن . وأقنعه جيرانه بأن يتزوج للمرة الثامنة . وكانوا يحذرون له ابنة لرجل عجوز كانت تعرف نقش الأغصان على النحاس وتكسب بذلك في اليوم خمس جروشات . وفي اليوم التالي للزفاف لاحظ أن زوجته سوداء كالعربية . وقد كانت بالفعل امرأة عربية نشيطة ، إلا أنها تعرفت على امرأة سيئة كانت تدفعها إلى عمل كل شيء ، ونجت تأثير هذه المرأة السيئة أرادت المرأة العربية أن تدبح زوجها ، ولذا فإن القاضي حكم عليها بالسجن ستة شهور .

وعما لا ريب فيه أن المؤلف هنا صور هذه المرأة العربية تحت تأثير الحكايات الشعبية التي كانت الشخصيات العربية تظهر فيها أيضاً ، ولذا سنفردها - مستقبلاً - دراسة خاصة . وفي بداية القصة وصفها بأنها سوداء كالعربية ، وهذه المقارنة كثيراً ما تظهر في الإبداع الشعبي . وهو بذلك يرسم ملامحها ، فالمرأة العربية في قصته «ضخمة وطويلة وأصابها طويلة وكأنها بسمع ، وشعرها أجعد وقصير وفمها منفصل كما في أنثى القرس» (٦٤) إنه وصف غريب أشبه بالحيلال وهذا يقودنا إلى التقرير بأن الغرابة والحيلال هي أجزاء لا تتجزأ من هذه القصة ، وهي بذلك تتشابه مع الحكايات الشعبية الخيالية التي ينبغي أن نبحت فيها عن جذور هذا الرأي الغريب للمؤلف فيما يتعلق بالنساء العربيات . وكان كاتبنا هذا قد رسم صورة كاريكاتيرية للمرأة العربية ، أي أنها صورة مبالغ فيها ، ولا شك أنها صورة ساذجة تعبر عن ضيق الأفق .

وكما كان راوي الحكايات الشعبية يفعل عند مرده لأية قصة فقد كان المؤلف يركز هنا في هذه الأقصوصة على سواد المرأة العربية . وقبل الزفاف رأى المولى محمد في حلمه «أن رجلاً حطم على رأسه سبع بضات والبيضة الثامنة كانت سوداء كالزفت» ، وعند لعبه

جيلة . ورغم أن أسلوبه كان بعيدا عن أية مدرسة واقعية أدبية إلا أن المؤلف استطاع من خلال تصوره للبيئة القديمة في سراييفو ، لا أن يضيف المزيد من الواقعية التي أعرب عنها بتنوع لغته فحسب ، بل أن يضيف موضوعات معينة من الحياة العائلية الخاصة ببيئة المسلمين في البوسنة^(٦٦) .

وفيا عدا ذلك فمن المعروف أن المؤلف كان يجمع المؤلفات الشعبية بجميع أجناسها وعلم نفسه بنفسه عن طريق القراءة واكتسب كذلك نوعا من الثقافة الأدبية ، وفيما بعد وصل بجهده الخاص الى مستوى طيب ، وتعلم بفكره اللغة التركية قراءة وكتابة ولغة حديث . وحينما جرى إصدار مجلة « حورية البوسنة » اشترك مع مجموعة عصرية ، وكانت الموضوعات التي تنشرها هذه المجلة ترتبط بالتراث الشعبي الاسلامي الخاص بمنطقة البوسنة والمهرسك وكانت متأثرة بالمرجة المتأخرة من الرومانسية وتعمل على ايقاظ الشعب ثقافيا بلغة شعبية نقية^(٦٧) .

« الملك فلادجير دوكليانسكي »

يؤكد فولفاج كاييز في كتابه « العمل الفني المعوي » أنه يوجد في تاريخ الأدب الألمان فصل خاص عن « روايات الأساتذة » يجري فيه الحديث عن أساتذة الجامعات الذين يكتبون الروايات وكان عددهم ليس بالقليل^(٦٨) . ويسود أن الأدب اليوغسلافي ستيفان سريجاتس ، وكان يكتب تحت اسم مستعار وهو « ستيثاشين » ، بقصصه التاريخية الذي كان يعتمد فيه على التراث الشعبي تمثل في كتابته هؤلاء الأساتذة الذين يكتبون الروايات . ومن المفيد أن نضيف أن التراث الشعبي عنصر هام للغاية للحضارة على الوعى القومي وتدميته لدى جميع الشعوب ، وهو الوعى القومي الذى

بأوراق اللعب كان لا يحصل إلا على الأمل الأسود أو الثمانية السوداء . وهكذا نرى أن السواد هنا قد أصبح رمزا ، الأمر الذي يجعلنا نؤكد أن تصور المؤلف عن النسوة العرييات مختلط ببعض عناصر المعتقدات الشعبية القديمة ويختلط بالتراث الروحي القديم وبعض المعارف الواقعية . وكل هذا يبين ويؤكد لنا إلى أي مدى كان المؤلف متأثرا بالأدب الشعبي عند كتابته هذه القصة . وبالرغم من هذا كله فلا نستبعد أن يكون لهذه القصة أساس واقعي .

« حورية من الجفة »

هذه القصة هي من أفضل ما ألف نيكوييساروفيتش ، وهي قصة لها نغمة عاطفية ، فكرتها مأخوذة من قصيدة شعبية معروفة^(٦٩) . وتروى لنا هذه القصة أن زوجة « بيجو » الأولى توفيت وذهبت الى الجفة وأصبحت حورية فيها ، وفي ليلة من الليالي رأى « بيجو » في منامه أن أنكا زوجته المتوفاة تأمره بأن يذهب الى الكعبة وأن يوزع على الفقراء أكبر كمية من المال ، لأنه ليس حتى الآن أهلا للجنة . وأدرك بيجو أنه لم يكن يحسن معاملة أنكا زوجته الأولى لأنه لم يكن يسوى بينها وبين زوجته الثانية . وبالفعل ذهب بيجو الى الحج ولكن إثر عودته من الكعبة أصيب بالمرض وتوفي بعد بضعة شهور . وفي الجفة أعادت الملائكة عقد قرانه على أنكا .

وتصور لنا القصة البيئة الاسلامية في البوسنة بأسلوب واقعي . ومن المعروف أن الأدب اليوغسلافي من البوسنة نيكوييساروفيتش علم نفسه بنفسه في مجال الأدب وكان يجاكي في أسلوب كتابته للقصص أسلوب الحكايات الشعبية اليوغسلافية . وكان يكتب أولا وقبل كل شيء لجمهوره الصغير المحدود في البوسنة سراييفو وعمل الأخص لجمهور المدن الذى يعرف مزاجه معروفة

(٦٥) يوفان كرشيتش ، مقالات خطيرة ، سراييفو ١٩٥٢ ، ص ٢١٧ .

(٦٦) للصغير السابق ، ص ٢١٥ .

(٦٧) للصغير السابق ، ص ٢١٤ .

(٦٨) فولفاج كاييز ، العمل الفني المعوي ، بلغراد ١٩٧٣ ، ص ٦٠ .

تقرب من روايات الكاتب الإنجليزي والتر سكوت رائد الروايات التاريخية (٧٣) .

وقد نوهنا فيما سبق الى أن من بين ما ركزت عليه الرومانسية هو تقدس الماضي . وعن طريق تعظيم الماضي الحريق وتمجيده يتم توليد وخلق إيمان بمستقبل أفضل (٧٤) . ومثل هذه الأفكار للرومانسية الألمانية في العشرينيات وفي الثلاثينيات من القرن الماضي انتقلت أيضاً عند العرب بحيث أن الأدب العربي ، في النصف الأول من القرن التاسع عشر ، كان مفعماً بالموضوعات التاريخية ، وقد أثبت الرومانسية لدى العرب لكي تدعم فصب تقليدا شعبيا وعادة أدبية عامة موجودة من قبل (٧٥) .

وعلى هذا النحو ظهر الشرقيون أو العرب في هذه الأقصوصة . لقد كان الرومانسي متفاناً سرعياً وفي غاية الوفاء لفكرة الرومانسية ، وكان يجب حياها ماضى بنى وطنه ، ولذا فقد كتب هذه الأقصوصة التاريخية التي يظهر فيها العرب في دورهم التاريخي والطبيعي . ومن المستصوب أن نصيغ هنا أن التاريخ في هذه القصة اختلط بالشعر ولكنه كان كان مخصصاً للتربية القومية (٧٦) كما سنبين فيما يلي .

« النوق الكبير تشاسلاف »

هذه القصة الثانية لسرميائس نشرت أيضاً في مجلة

تم الحفاظ على استقلاله عبر عديد من القرون . ويستخدم التراث الشعبي عبر فترات التاريخ والتغيرات المختلفة كوسيلة قوية للحفاظ على الاستقلال السياسي والقومي ، وفي نفس الوقت يعد هذا التراث هو المصدر الوحيد تقريباً للمعرفة الفريدة بالحياة الشعبية المتعددة الجوانب (٧٧) .

وسرميائس في هذه القصة التي بين أيدينا ، يحاول ، بأسلوب حيوي ، أن يرسم صورة رائعة لهذه المسألة التقليدية الطنيفة التي عاش فيها الملك دوكليان وترعرع وأهى فيها حياته أيضاً . إنها قصة عن الحب الحزين الكثيب بين الملك فلاذير دوكليان وبين كوسارا ابنة صمويل . والمهم بالنسبة لبحتنا هذا أنه يجري الحديث في هذه القصة عن الشرقيين ، وهو تعبير يطلق على العرب والمسلمين بوجه عام (٧٨) . وقد أرادوا الاستيلاء على الامبراطورية في آسيا وعلى قبر المسيح في الشرق . والأمير الذي يميز بشكل خاص هذه الأقصوصة لسرميائس هو « أنها ليست قصة خيالية مبتذلة عن ماضى منطقة صربية بل إن المؤلف اقتبس كل هيكل القصة من حقائق تاريخية ثابتة » (٧٩) .

وهو سطور القصة يتلأأ كقطع الكريستال سيل جازف من التلميحات الشعرية والمقارنات ، وهي تذكرنا إلى حد ما بمسألة شكسبير المشهورة « روميو وجوليت » (٨٠) . وهذه الأقصوصة بعناصرها الشعرية

(٧٤) جورج بلينتش ، من كتاب القديس ، الجزء الثاني ، مجلة ديار رقم ٣٤ ، ١٩٠٥ ، ص ١٣٤ .

(٧٥) في هذا المقام يقول : « إبراهيم علي طرخان في كتابه « للسليمان في أوروبا في العصور الوسطى ، ص ٢٥٠ وأن الأدب لم يقتصر على استعمال كلمة حرب للدلالة على الحرب وعلى المسلمين بعد ذلك ، بل أطلقوا أيضاً كلمة « سراكهي » والحرب والسليمان . وقد أراد اليونان والرومان بهذه الكلمة القبائل العربية الحبيبة على حدود الامبراطورية الرومانية في بلاد الشام والأطراف الشمالية للجزيرة العربية ، وفي شبه جزيرة سيدي . وكانت هذه القبائل كثيرة الألفاظ على حدود الامبراطورية . غير أن اليونان وأرومان لم يكتفوا بمبتدئين هذا المصطلح ، وإنما نقلوا عن العبرانيين ، فهم الذين استخدموا وأطلقوا على القبائل الاسماعيلية - نسبة إلى اسماعيل بن إبراهيم عليها السلام - القصة في شرق فلسطين والشام ، وكانت هذه القبائل لها حياة بدوية . ويعد المؤلف اشتقاقات المصطلح واستدلالات أصله ولكنه في النهاية يرجع أن كلمة سراكهي تصحيف لكلمة شرقيين . (ص ٢٧٠) .

(٧٦) جورج بلينتش ، من كتاب القديس ، الجزء الثاني ، مجلة ديار رقم ٣٤ ، ١٩٠٥ ، ص ١٣٣ .

(٧٧) علي بيريوليتش ، « تاريخ الشخصيات المشهورة » ، بلغراد ١٩٣٧ ، ص ٦٨ .

(٧٨) جورج بلينتش ، « من كتاب القديس » ، ص ١٣٤ .

(٧٩) يولان سكرلوتش ، « لكتاب والده » ، بلغراد ١٩٢٥ ، ص ١٥٧ .

(٨٠) المصدر السابق ، ص ١٥٣ .

(٨١) يولان سكرلوتش ، « دراسات » ، الجزء الأول ، في ساد - بلغراد ١٩٦١ ، ص ٣١٠ .

وعرض هاتين القصتين يذكرنا بشيء مماثل لدى يوفان جورجيتش^(٨١) وهو خيال المؤلف ، وبين أن ابن الأخت قد وجد نموذج كتابة مثل هذه القصص لدى خاله^(٨٢) .

ولا ينبغي أن ننقل أن مثل هذه القصص التاريخية للأديب اليوسفلائي ستيفان سريجاتس قد وجدت كبار المحبين المتحمسين لها . ويؤكد الناقد ليويمير نيليتش أن القصص المذكورة والتي نشرت فيها بعد في كتاب يحمل عنوان « من كتب القدماء » هو مؤلف سيمر لفترة طويلة بعد سريجاتس^(٨٣) . وحسب اعتراف رئيس تحرير مجلة « حورية اليوسا » نيكولا كاشيكوفيتش فقد كان القراء أنفسهم في طول اليوسا والموسك وعرضها يمتدحون هذه القصص مدحا عظيما وكانها القصص الراحنة التي تعجب القراء^(٨٤) . وهاتان القصتان المذكورتان تعجبان الناقد اليوسفلائي جورج بلينيتش أكثر من قصصه التي تتعالج موضوعات عصية^(٨٥) . وكان سريجاتس يضع كثيرا من الآمال على هذا القصص التاريخي ولذا فإنه ألفه بعناية فائقة وبضمير ووهي ، وأضاف عليها من أحاسيسه الشاعرية ورومانيته ولكنه راعى ألا تنتقص أو تشوه الحقائق التاريخية .

وهناك رأى آخر يقول إن سريجاتس وهو يكتب هذه القصص كان له علاقة على الإلهامات الشاعرية هدف تعليمي عمل مباشر . فإعتباره مدروسا للتاريخ أدرك جفاف الحقائق والمعلومات التاريخية التي تشتمل عليها كتب التاريخ ولذا بدأ بخياله المبدع أن يحيى مادتها ويكملها^(٨٦) . إلا أن الناقد اليوسفلائي يوفان

« حورية اليوسا » مثل القصة الأولى . وهي تحكي أن القيصر البلغاري « سيمون » ناضى باتحاد مع حاكم القبروان الخليفة « مظلوم » لكي يهاجما القسطنطينية المشابهة . ولكنهما لم يفلحا في ذلك لأن البيزنطيين أمسكوا في عرض البحر يرسل القبروان وألقوا بهم في عرض البحر . ويحاول الكاتب في قصته هذه أن يخرج بدرس مستفاد وهو أن الله والقدر موجودان لكي يحافظا على المثاليات وعلى العدالة .

وهبر سطور هذه القصة يجري حديث طويل عن الشرقيين أي العرب وعن هجاناتهم المطلقة من بصر السين . وهؤلاء العرب حسب كلام الكاتب شجعان وحكياء ، ويحكمتهم أصبحوا على قدر كبير من القوة^(٨٧) ، كما أنهم لا يخبرون المدوء والسكينة^(٨٨) . وفي بعض الأحيان يصنفهم بأنهم قراصنة متوحشون وما هو أسوأ من ذلك .

ويتجلى على أوضح وجه في هذه القصة الارتباط ، الذي لا ريب فيه على الإطلاق ، بين التاريخ الحقيقي وبين الأدب الجميل ، ذلك لأن الخيال الآخر والأسلوب الأدبي في عرض القصة إذا انضبا إلى الهيكل المأخوذ من حقائق التاريخ فإمكانهم جميعا أن يقدموا لنا صورة حية لفترة تاريخية سابقة أو أحدث مشهور^(٨٩) . ويمكن أن نلاحظ بسهولة في كلتا قصتي سريجاتس انها عسكدا ، وهو السمو بماضى الشعب وبظلماته وتجهيلهم . ويجري هنا تصوير الماضي بشكل شاعري وبألوان براقة أكثر مما يفعله التاريخ نفسه . ويعتقد الناقد اليوسفلائي بافل بوفوفيتش أن طابع وموضوع وأسلوب معالجة

(٧٧) مجلة حورية اليوسا ١٨٩٨ ، ص ١٠١ .

(٧٨) المختصر السابق ، ص ٦٩٠ .

(٧٩) جورج بلينيتش ، « من كتاب القدماء » ، ص ١٣٦ .

(٨٠) يوفان جورجيتش (١٨٦٦ - ١٩٠٠) أدب يوسفلائي اشتهر في محور ورواية تحرير حديد من المجلات اليوسفلائية وكان مدرسا لتاريخ العالم في المدرسة العليا في بلغراد ونظرا لأنه خال ستيبان سريجاتس فقد أثر عليه تأثيرا كبيرا .

(٨١) ميل بروفيتش ، « تاريخ الشخصيات الشهيرة » ، ص ٢٨ .

(٨٢) يوفان سكرلنيتش ، « دراسات » ، الجزء الأول ، ص ٣٦١ .

(٨٣) ميل بروفيتش ، « تاريخ الشخصيات الشهيرة » ، ص ٧١ .

(٨٤) من كتاب القدماء ، ص ١٣٦ .

(٨٥) ميهايل بوجور جيتش ، « سريجاتس كدورخ » ، مجلة العلم العربي ، رقم ١٨٣ ، ١٩٠٦ ، ص ٢ .

دراسات لغوية وتاريخية في المدرسة العليا بلغراد وبعدها أصبح مدرسا في المدارس بمدين نيش وببيروتا وبلغراد . وكما نرى فقد قادته مهنته الى مدينة نيش ، وهي في ذلك الحين مدينة صغيرة تشعّر فيها بروح الشرق وبراثة العصر التركي وبنكهة النظام العتيق . وبالنسبة له - وهو الروماني القومي التقليدي - كان لا بد أن يعجبه هذا الشرق الفاتن غير المألوف . وقد عاش سريمانس في نيش أكثر من عشرين سنة ، وتشيع بشدا المدينة المتميزة في جنوب صربيا وتامل وسجل التفاصيل والأحداث من حياة هذه المدينة (٩٠) . هذا علاوة على أننا نجد في قصصه صورة للتراث الشعبي وأساطيره وينعكس هذا أكثر في استخدامه الغزير للرموز والتشبيهات والمجازات وأساليب الأدب الشعبي بوجه عام .

« رحلة الى سيناء »

في عام ١٨٨٨ بالقاهرة كتب الحاج سافاكوساتوفيتش قصته هذه - التي وصف فيها رحلته الى جبل الطور بسيناء وكتب فيها أيضا بعض ذكرياته وانطباعاته وتجاربته أثناء السفر . وفي هذه القصة توجد شخصيات عربية كثيرة كتب عنها المؤلف . ومن المهم هنا أن نذكر أنه كان لدى الحاج سافا تصور مسبق عن مصر وعن أحوالها الجبلية ، فهو يعرف أن الثلج لا يسقط على الاطلاق في القاهرة وأن الأمطار تسقط مرة أو ثلاث مرات على الأكثر حل مدار العام ، وأثناء الشتاء تدفلك شمسها الساطعة الجميلة ، وفي الربيع تزدهر الورد والفواكه والزهور الأخرى (٩١) . وهو يعرف كذلك شيئا عن تاريخ الإسكندرية التي - كما يقول المؤلف - أنشأها الاسكندر الأكبر المقدوني في حوالي ٣٣٣ ق . م وأنه مع

سكرليتس يعتقد أن هذا القصص التاريخي لم يكن تاريخيا ولا أدبيا ، فبالنسبة للتاريخ لم يكن قائما على أسلوب علمي بالدرجة الكافية ولم يكن مؤسسا على الحقائق وعلى المعرفة بتفاصيل العصر الذي يتم وصفه . وبالنسبة للأدب فإن هذه القصص لم تكن أدبية بدرجة كافية لأن سريمانس لم يكن يمتلك الكثير من الخيال ومن الحساسية بل كان يصغر نفسه في الاستطرادات البلاغية المتحيزة ، وفي الحزن المصطنع ، وفي الصبغة المحلية السطحية الشاحبة ، وفي المؤثرات البهلة بالمبارات وبالكلمات الزائدة (٩٢) .

ومن المؤكد أن من بين الأسباب التي دعت ستيغان سريمانس الى كتابة هاتين القصتين التاريخيتين وأمثالهما من القصص التاريخية (٩٣) : تأثير الرومانسية عليه ، فقد كانت تشدد على تقليد التاريخ الماضي . وكان هذا النوع من القصص مجالا للتغنى بالوطنية الى جانب عرض القضايا الاجتماعية ، وكان له تأثير في دراسة التاريخ دراسة جديدة فكان جنسا أدبيا ذا طابع ذاتي (٩٤) . وكانت هناك أيضا بعض الظروف المحلية المساعدة على ذلك فلم يكن الصرب الذين عاشوا من الاستبداد والاحتلال - يملكون شيئا في حاضرهم ولذا وجهوا حيوتهم الى أيام الماضي يبحثون فيها عن العزاء في مواجهة بؤس وخسز الحاضر ، وكان هذا الماضي يمنحهم الدافع والحافز في كفاحهم ومعاركهم وينبهم الأمل في مستقبل أفضل (٩٥) .

وإذا تقينا في حياة ستيغان سريمانس (١٨٥٥ - ١٩٠٩ م) بحثا عن بعض الجوانب في حياته التي يمكنها أن تقدم لنا مبررات أكثر لظهور شخصية العربي أو الشرقي في قصصه ، فيمكننا أن نضيف أنه درس

(٩٢) يولان سكرليتس ، « دراسات » ، ص ٣٢٢ .

(٩٣) المؤلف قصة تاريخية أخرى بعنوان « التفكير » ذكر فيها الشرقيون إلى العرب والمسلمين فكرا ثقويا .

(٩٤) « حمد خيبي خلال » ، « الرومانسية » ، ص ١٦٨ .

(٩٥) يولان سكرليتس ، « الشباب وأدبه » ، ص ١٥٣ .

(٩٦) « ديمتري فيتشيف » ، « الأبناء القويرون للصرب ومن سيقومهم » ، بلغراد ١٩٧٠ ، ص ٢١٢ .

(٩٧) حاج سافاكوساتوفيتش ، « رحلة الى سيناء » ، سريانو ١٨٨٨ ، ص ٨ .

وأخيراً وصلاً إلى اللجنة أي إلى جبل الطور بسيناء حيث توجد كنيسة رائعة مزينة بالذهب والفضة تحمل كل شيء فيها يثير إعجابك . وفي الكنيسة وحولها كان يوجد الكثير من العرب الذين يملكون من أمهر الصيادين ، وما عليك إلا أن تقول لهم كلمة واحدة فيفتشون إلى أماكن يعرفونها ويعودون حاملين شمواة أو أرنباً أو حجلأ أو طائر السماء .

ويتحدث الكاتب بالتفصيل عن تاريخ هذه الكنيسة والجامع المجاور لها . ومن الطريف أن الكاتب وضع بعض الكتب اليوغسلافية في مكتبة سيناء^(٩٢) . ومحدثنا المؤلف عن القبائل العربية التي تعيش في شبه جزيرة سيناء . ويعد أن أهمي المؤلف مراسم حجبه إلى جبل الطور بسيناء انتقل إلى القاهرة التي يقوم بوضعها ووصف سكانها . ومن بين المعلومات الطريفة التي يعرضها المؤلف عن القاهرة هو أنه كان يعيش فيها في ذلك الحين حوالي ٣٢٧ شخصاً من اليوغسلاف أغلبهم من الصرب وأهل الجبل الأسود . وكذلك من الرومانيين^(٩٣) .

وقد جرى هنا تصوير العربي بشكل واقعي بدون أية إضافات ، ولذا فإن هذا الكتاب يمثل وثيقة ومستنداً غاية في الأهمية في مجاله . وقد كان مؤلف هذا الكتاب مطرانا لمدينة سراييفو وكان أدبياً أيضاً وكان يشغل بجمع الأشياء القديمة والكتابات الموجودة على قوائم القبور .

وجريفتا

في عام ١٨٩١ نشرت مجلة يافور و أنصوصة جريفتا التي كتبها جورج يوفانوفيتش . وهي قصة تاريخية تتحدث عن الثورة في البوسنة ، وتحكي عن البطلة جريفتا التي كانت تكافح مع أهل وطنها ضد الأتراك .

مصر قد عبرها كثير من الغزاة من السوريين والأثيوبيين والفارسيين واليونان والرومان والأتراك والعرب ، وفي الفترة الأخيرة احتلها الفرنسيون والانجليز^(٩٤) . وفي بعض الأحيان نحصل على انطباع بأن مؤلف هذه القصة قد درس بالتفصيل تاريخ الاسكتلندية فهو يعرف أنها ميناء هام ونقطة حيوية بالنسبة للتجارة لتوسطها بين الشرق وأوروبا وكذلك الهند خاصة إذا تم ربطها بالسلك الحديدية بالسويس على البحر الأحمر^(٩٥) .

الآن معرفة ليس مؤثوقاً بها وليست صحيحة من الناحية التاريخية على الدوام فهو ينسب إلى أتباع النبي محمد (صلعم) قرعهم مكتبة الاسكتلندية وأهم كانوا يستخدمون كتبها وقوداً للتدفئة بدلاً من الفحم^(٩٦) وقد بينا من قبل عدم صحة هذه المعلومة .

وكان للمؤلف أسلوب متميز فيمجرد وصوله إلى مكان من الأماكن كان يصفه ويتحدث بعض الشيء عن تاريخه وعن آثاره الثقافية . وحكايات المؤلف مكتظة بالمعلومات القيمة عن العرب وعلى الأخص أولئك الذين يعيشون في مصر . أما خلال رحلة الكاتب إلى سيناء فقد كان يرافقه مرشد عربي اسمه عيد كان يتم بشؤون الحمار وكان يسير أمامه ويعمل له العصا ويعلق في وسطه مصباحاً ويعمل كذلك سيفاً عربيّاً قصيراً معلقاً بالحزام ، وهو سيف حاد كالخية . وهكذا كان العرب الآخرون يتسلحون .

وكان المؤلف يتفاهم مع عيد في الأغلب بالاشارات وبعض الكلمات ، لأن عيداً يرافقه للزهيان تعلم بعض الكلمات اليونانية القديمة ، وحفظ الحاج سافا بعضاً من الكلمات العربية واليونانية القديمة كذلك . ويعد أن قتل عيد إحدى الحيات السامة يحكي المؤلف بعض انطباعاته وحكاياته عن الحيات .

(٩٢) المصدر السابق ، ص ١٨٠ .

(٩٣) المصدر السابق ، ص ١٤ .

(٩٤) المصدر السابق ، ص ١٩ .

(٩٥) يذكر المؤلف أنه وضع في مكتبة سيناء القصة الشعبية : السلاسل الجبلية ، للشاعر اليوغسلاف بطرس نيجوش ، المصدر السابق ، ص ٥٢ .

(٩٦) المصدر السابق ، ص ٨٦ .

وكان العربي هنا يعمل خادما لدى درويش باشا الشجاع ، وكان يطعم أوماره فحسب وينفذها وقليل ما كان يتكلم .

وقد تحدثنا من قبل عن الدور الذي يقوم به مثل هؤلاء العرب في نقل الثقافة العربية الإسلامية ، وفي نشر مختلف الحكايات عن العرب . ومن الملاحظ أن أمثال هؤلاء العرب كانتوا على الدوام مرتبطين بشخصيات تركية . وهكذا كانت الحال في قصة « ليل التي جعلوها مسلمة » . وهذا يدهونا إلى الافتراض بأن ظهور العربي في هذه القصة يحتمل أن يكون نتيجة طبيعية لقدم الأتراك إلى يوغسلافيا .

« الخادم الغريب »

لاحظ الباحثون أن عددا كبيرا من قصص الأدب يانكو فيسليوفيتش كان مشابها للقصص الشعبية من حيث لهجة السرد ومن حيث اللون والصوت والترسيم ، وبعض منها كان له الهيكل الانشائي للحكاية الشعبية^(٩٧) . وهذه الملاحظة تسري أيضا على قصة الأديب يانكو فيسليوفيتش « الخادم الغريب » التي نشرتها مجلة « ديلو » عام ١٨٩٥ . ومؤلفها يمتزج بنفسه بأنها حكاية شعبية خرافية^(٩٨) . وهي تحكي عن تاجر يدهي « يفتا » كان غنيا بملك الكثير من الأموال ، وبالرغم من ذلك فقد كان يخيل بجمع الذهب ولا يريد أن يعيش كإنسان . من أجل هذا فقد تقرر أن تلعب ثروة « يفتا » البخل إلى « بير » القصاب . وكان العربي الأسود يحرص هذه الثروة ورفض أن يلمسها « يفتا » لأنها لم تعد ملكه . وهذا هو ما حدث بالفعل فقد حصل « بير » القصاب ذو القلب الطيب على هذه الثروة كما كان مقدرًا .

يتضح من هذا الموجز للقصة أن مؤلفها كاتب شعبي بالمعنى الحقيقي لهذه الكلمة . وهذا ليس فحسب لأنه يضيف على الأقصوصة الروح الشعبية بل لأنه كان يكتبها في شكل الحكايات الشعبية أيضا . وبداية الأقصوصة تذكرنا بالفعل بالحكاية الشعبية ، والحوار أيضا مشابه لحوار الشعب لأن المؤلف يضيف عليه الصبغة واللهجة الشعبية ويصفه بمهارة بالغة ويشكل طبيعي بحيث يحصل المرء على انطباع بأن كل كلمة وكل صوت في مكانه . ومن المفيد أن نضيف هنا أن المؤلف قد أخذ فكرة هذه الأقصوصة من فكرة الحكاية الشعبية المسماة « بثروة بكري باشا »^(٩٩) .

سواد العربي :

وقد ضمن المؤلف في قصته اعتقادا شعبيا قديما بأن الإنسان العربي أسود اللون . ونظرا لتكرار هذا الوصف في كثير من القصص فإنه يحتاج إلى وقفة ونمعن . لقد كان يوجد بالمعتقدات القديمة للسلاف الجنوبيين - وهم أسلاف اليوغسلاف الحاليين - صراع بين الآلهة السوداء والآلهة البيضاء^(١٠٠) . وقد انعكس هذا الصراع في العديد من القصص الشعبية . ويعلمنا اكتشاف السلاف أن هناك عربا سود البشرة . ويبدو أن هذا الاكتشاف كان صدمة لهم . وقد ازداد عدد العرب السود منذ أن بدأ اختلاط مسلمي أفريقيا والبربر بالعرب ، ومن المرجح أن السلاف الجنوبيين عرفوا عربا سودا أكثر من معرفتهم للعرب غير السود وذلك خلال التعارف التاريخي بين العرب والسلاف الجنوبيين^(١٠١) في المعارك التي جرت بين العرب والبيزنطيين . كما أن للعباسيين دورا خاصا هنا يبرهنهم السوداء وكذلك بعياهم السوداء . وقد انطبع لوهم وشكلهم في ذهن السلاف الجنوبيين وذلك

(٩٧) الأديب اليوغسلافي العرب ، ص ١٤ .

(٩٨) مجلة ديلو ، ١٨٩٥ ، ص ١٩٩ .

(٩٩) مجلة « حرية البوسنة » رقم ١٩ ، ١٩٠٠ ، ص ٣٧٨ وما بعدها .

(١٠٠) فيسليان تشاكوفيتش ، « الأسطورة والفن عند العرب » ، بلغراد ١٩٧٣ ، ص ٣٥١ .

(١٠١) لكتاب هذه الأسطورة دراسة مفصلة عن العلاقات بين العرب والسلاف الجنوبيين عبر التاريخ سنشر في فرصة لاحقة ولا بد أن نرجعنا في نهاية هذه الدراسة .

مجلة « ديلو » عام ١٨٩٦ هي في الحقيقة جزء من رواية طويلة بعنوان « الناصريون » ونحكي عن « بوريفوي » الذي أنقذ أحد الرهبان ، فحدثه الأخير عن بيت المقدس وعن تلك المعجائب التي تحدث هناك وقص عليه الراهب كيف أن أعدادا غفيرة من الناس تذهب إلى هناك لكي يصرخوا أنفسهم ويتقبلوا الغفران لتوبتهم . ومنذ ذلك الحين ازداد إهتمام بوريفوي بالقدس إلى أن أعلن هو و « سيبا » بائع الخبز أنها يريدان أن يرمحا أنفسهما وأن يذهبا إلى القدس وأن يأكلا خبز البركة هناك . وقبل ذلك يريد كل منهما أن يستعد استعدادا لائقا لهذا الغفران ويصوم أكبر صوم للحيث وهو ثلاث سنوات متواصلة . إلا أن « سيبا » بائع الخبز لم يتحمل الصيام وبعد ستة شهور أقنع عنه ، وأخذ يدافع عن نفسه أمام الناس بأنه لم يستطع أن يتحمل اختبارات الشيطان الذي كان يأتي له كل ليلة . أما « بوريفوي » فلم يستسلم إلى أن ظهر له الشيطان الذي كان من بين ما وسوس له به أن زوجته تخرقه . ولم يستطع « بوريفوي » أن يتحمل أكثر من ذلك وقتل زوجته انتقاما لشرفه الذي لم يسر على الإطلاق ، وبدلا من أن يلعب إلى القدس ذهب لقضاء حقبة الأشغال الشاقة .

وفي هذه القصة تدور جميع الأحداث حول مدينة القدس التي - فيما يبدو - لا يعرف عنها المؤلف معلومات كثيرة ، فعمل سبيل المثال لا يعرف عن الطريق المؤدي إليها إلا أنه يمر عبر ممالك وصحارى ومدن وبحار^(١٠٥) . ومن الطريف أن رواية « الناصريون » مكتوبة كلها في السجن^(١٠٦) . والكاتب هنا لم يؤلف روايته حسب مبدأ الفن للفن بل حسب مبدأ الفن من أجل الأفكار . وذكره هنا للأماكن العربية الدينية مرتبطا أساسا بالفكرة الدينية التربوية لروايته .^{٢٠}

علارة على التأثير المحتمل لقصص البطولات الشعبية العربية التي يقوم بطولتها عرب سود البشرة مثل: حتره ابن شداد والظاهر بيريس . واختلط كل هذا بمختلف الأفكار الخاطئة المتعلقة بالمصائب التي يجلبها اللون الأسود والخرافات المتعلقة بهذا اللون . وما لا ريب فيه أن تصور وانطباع السلاف الجنوبيين عن العرب اختلط ببعض عناصر المعتقدات والتراث الروحي والواقع الحقيقي .

وقد كانت هذه الصفة تستغل في الأدب الشعبي فحسب . واستخدام المؤلف لنسب هذه الصفة يقرب قصته من الحكايات الشعبية . وفي هذا المصمار يعترف المؤلف نفسه بأن للفن الشعبي تأثيرا عظيما على تطور نشاطه الروائي ويعترف كذلك بأنه بدأ الكتابة متمثلا ومعتذرا بالحكاية الشعبية بهادته سرد أفكارها ومراحيا أن يكون صادقا في التعبير عن سميتها ولغتها^(١٠٧) . وزيادة في الإيضاح نضيف أن للمؤلف في حياته ثلاثة معلمين وهم : الشعر الشعبي وخادمه الخاص (نيكولا) وجدته « بويانا » . أما الشعر الشعبي فقد منحه الإلهام والخيال . وكان خادمه الخاص الذي زار علينا من البلاد يمكنه للمؤلف حكايات كثيرة عن هذه البلاد . ومن جدته « بويانا » تعلم المؤلف كثيرا من الحكايات الشعبية التي لا تنسى^(١٠٨) . وعند كتابته لأول قصصه كان المؤلف يجتهد في أن يفعل ذلك كما يفعله الشعب وكما سمعه من فم جدته . هذا علارة على أنه تعلم تعليما جيدا في مدرسة الشعب ، ففي خلال فترة تربيته بالتدريس حل في قلبه أقوى الانطباعات من حياة الشعب وكان هذا هو مصدر هذه الحكاية وغيرها من الحكايات الأخرى^(١٠٩)

« الصوم الكبير »

هذه القصة القصيرة مؤلفها ياشاقوميتش والمنشورة في

(١٠٧) يوران سكرتش ، « أيام وكتب » ، الجزء الثاني ، بلغراد ١٩٣٣ ، ص ١١٠

(١٠٨) ستيلان بيليشا ، « نيكولاي ياشاقوميتش حياته ومؤلفاته » ، بلغراد ، ص ١١٢-١٠٨

(١٠٩) المصدر السابق ، ص ١١١

(١٠٥) ياشاقوميتش ، « الناصريون » ، تولى سنة ١٨٩٦ ، ص ٣٧

(١٠٦) لاسيري القسطنطيني ، « تاريخ حياة ياشاقوميتش » ، بلغراد ١٩٣٨ ، ص ٥٥-٥٦

المربع من العربي الذي كان ينشر الملح والفزع بطغيانه وجبروته .

ولقد كان سكان منطقة الجبل الأسود هم الجنود المتأهبون على الدوام في الكفاح الدامي ضد الأتراك من أجل حريتهم واستقلالهم ، ولذا فإن قصائد البطولة ازدادت وفرة ونصوبة في ذلك الحين . وبناء عليه فإن المؤلف « يوفو توتا » لم يمتز بمحض الصدفة هذا الموضوع الخاص بالغاء جزية الزواج لكي يضمه في قالب مسرحي ، بل أراد أن يقدم بأسلوبه مثالا نموذجيا للطريقة التي يتم بها تأليف عمل أدبي جديد على أساس شعبي - أي قائم على فكرة مأخوذة من القصائد الشعبية أو من الأدب الشعبي بوجه عام . إلا أنه ليس من المفهوم على الإطلاق تجاهل النقاد في ذلك الحين - بل وحتى النقاد فيما بعد - وعدم تقويمهم لهذه المسرحية الدرامية رغم أنها كانت تمثل محاولة فريدة في نوعها وفي مجالها .

وحسب ما كُتب عن جملة « الشعلة » التي نشرت هذه المسرحية الدرامية يمكن أن نستنتج أن هذه المسرحية لم تحظ بالنقد الحقيقي المطلوب^(١٠٨) . وبغض النظر عن كل هذا فقد نجح المؤلف في أن يكون كاتباً مسرحياً جيداً وأن يحقق فكرته الرومانسية بتأليف مسرحية درامية على أساس فكرة مأخوذة من القصائد الشعبية .

« بلا هدف »

كاتباً هذه الرواية قدما في حينها عددا كبيرا من القصص المرتبطة بمنطقة البوسنا والمهرسك . وفي هذه القصص كان الكاتبان ، عثمان - عزيز ، لا يحاولان إحياء بقايا الأساليب الرومانسية ، بل حاولا أن يتحدثا بأعلى صوت لقدراهما على إصلاح بيتهما . وهكذا كانت أيضا روايتهما « بلا هدف » التي شرحا فيها على ما يقرب

وياساتوميتش (١٨٥٦ - ١٩٢٢م) اشتغل بالصحافة والسياسة وبالأدب وعقد درس الطب والأدب في فيينا وبراج ، ولكن شغله بالسياسة أبعدته عن الدراسة . ومعظم أعماله الأدبية تمثل محاولة القيام بمعالجة أدبية لموضوعات سياسية لها مضمون اشتراكي في البداية ثم مضمون راديكالي برجوازي فيما بعد . ومن المحتمل تأثره بالرومانسية من ناحية اهتمامها بالشرق .

« ماركو يلغي جزية الزواج »

من المعروف أن الأدب الحقيقي لكل شعب هو مرآة لحياته وصدى لمشاعره وموقفاً للأفكار العظيمة ، ونظرا لأن منطقة الجبل الأسود بيروغسلافيا ثرية جدا بالشعر الشعبي وبالمؤلفات الشعبية بوجه عام فلم يكن من العجيب أن يجلبها في ذلك الحين كانت تفسح على صفحاتها مكانا لنشر هذه الأجناس من الأدب الشعبي^(١٠٧) .

وعلى صفحات مجلة « الشعلة » التي تصدر في مدينة تسينيا بمنطقة الجبل الأسود وفي عهدها لعام ١٨٩٦م نجد محاولة لتأليف مسرحية أدخلت فكرتها من الشعر الشعبي ، فقد كتب المؤلف « يوفو توتا » مسرحية من فصلين تقوم على أساسها على نفس فكرة القصيدة الشعبية التي تحمل عنوان « ماركو يلغي جزية الزواج » .

ويركز الكاتب في مسرحيته هذه على أن عربيا أشتري منطقة كوسوفو من السلطان التركي بايزيد ، وقد منحه هذا حقا في أن يفرض قانونا وحشيا صارما على الصربي البائس . وقوة العربي وظلمه هنا أكثر بروزا وجلاء منها في القصيدة أو الحكاية الشعبية اللتين تحملان نفس العنوان . ونظرا لأن العربي كان - على نحو ما - ممثلا للسلطة التركية ، فقد كان الشعب يكرهه كما كان يكره الأتراك ، ومن هنا تأتي العداء الشديدة ، والخوف

(١٠٧) تريفون جوريتش : « عرض للنشاط الأدبي لمنطقة الجبل الأسود » ، تسينيا ١٩٥١ ، ص ٨٩ .

(١٠٨) دوشان فوكسان : « عرض للصحافة في منطقة الجبل الأسود من ١٨٧٤ وحتى ١٩٣٤ » ، تسينيا ١٩٣٤ ، ص ٧٣ .

الأصلية . وهذا يؤكد معرفة أحدهما أو كليهما باللغة العربية معرفة جيدة . ويؤكد هذا أيضا الكثير من التعليقات عن اللغة العربية وعن قواعد نحوها انتشارا في كل الرواية ^(١٠٩) . ويعترف المؤلفان - على لسان بطل الرواية - أنهم شاهدوا اختوما للمسلمين في أفريقيا وآسيا وأن بينهم تشابها كبيرا ^(١١٠) .

« المهاجر »

أسا قصة « المهاجر » لنفس المؤلفين فتحكي عن « هاسو » الذي يستعد للذهاب إلى استنبول لقضاء بعض الأعمال . ولكي يرى أكثر خلال رحلته فقد توجه إلى مصر ومنها بحرا إلى ترستيا . وقد زار الاسكندرية ومنها توجه إلى بورسعيد حيث ركب الباخرة المتجهة إلى ترستيا . وعلى ظهر الباخرة تعرف على قبطانها الكرواني الذي كان يعرف صديقه ورفيق صباه « رضوان » . وقد قص القبطان على « هاسو » كيف رأى « رضوان » منذ سنة في ميناء بورسعيد وهو يعمل حالا . وفي إحدى المرات انقلب « رضوان » بالحميل الذي كان يحمله وسقط به في البحر . وعند سقوطه ارتطم رأسه بالباخرة ولم يعد هناك أمل في إنقاذه . والمعلومات المذكورة عن هذه المدن المصرية فضيلة للغاية . ولا يمكننا على أساسها أن نقدر مقدار معرفة الكاتبين لهذه المدن .

ونجد في تاريخ حياة عثمان حاجيتش أنه يجيد اللغة العربية وأنه ترجم كثيرا من المؤلفات العربية ^(١١١) . أما عزيز (ليفان ميليتشيتش) فقد درس الحقوق في جامعة فيينا ^(١١٢) وكان محمرا ومؤسسا لبعض المجالات القانونية في زغرب ^(١١٣) .

من مائتي صفحة الفكرة الأساسية التالية : لا يمكن تقديم أية مساعدة على الاطلاع إلى الجيل الأول من الشباب الحالي ، لأن جلوده وأعماله أصابها الفساد ولن تنبت منها بعد ذلك أية نباتات فيها حياة ، ولكن لا بأس مع الحياة فلديها حل للمشكلة وهو أنه علاوة على التطبيق السليم للسلام - الذي حسب رأي الكاتبين لم يتفقه فيه العلماء بالدرجة الكافية - لا بد ألا يُقبل من الثقافة الغربية إلا كل ما هو طيب وجيد . وهذا الحل وحده يمكن أن ينقل مسلمي البوسنة والمهرسك .

وفي ذكرهما لمبررات هذه الفكرة الأساسية كان لا بد للكاتبين أن يتحدثوا عن العرب وعن ثقافتهم وحضارتهم . فتحكي لنا الرواية على سبيل المثال أن البطل قد التحق بالمدرسة بناء على رغبة والديه ورفضه هو أيضا لأنه كان يتمنى منذ صغره أن يكون واعظا وأن يكون بإمكانه أن يرتدي الجبة والقفطان اللذين عاقد ما يُعتبر عند المسلمين في البوسنة والمهرسك علامة على العلم في حين يرتديها كل عربي لديه ما يكفي من النقود لشرائها . ومن الجلي أن أحد الكاتبين أو كليهما يعرف اللغة العربية وأن معرفتها بالعرب على مستوى طيب ، ويمكن الاستدلال على ذلك بالناقشة التي جرت عن الاسلام بين شخصيات الرواية والتي نخرج منها بأن الكاتبين يعتقدان أن الاسلام لا يمنع أحدا من التمسك بقوميته ، أي أن يكون مسلما فرنسيا أو ألمانيا حسب ماضيه وجمعه ولغته ، ذلك لأن الاسلام ليس ديناً محصورا ضيقا ، وفي مقارنة بين الأدب الأجنبي والأدب العربي يدل المؤلفان برأيهما بأن كل شيء مسروق من العرب .

وبوجه عام يتحدث المؤلفان عن الاسلام على أساس معرفتهم الكاملة بالموضوع من مصداقه العربية

(١٠٩) عثمان - عزيز ، « بلا عطف » ، زغرب ١٨٩٧ ، ص ٣٧ ، ٦٩ .

(١١٠) المصدر السابق ، ص ٦٧ .

(١١١) كان من بين ما ترجمه عثمان حاجيتش من كتاب عن عهد عليه الصلاة والسلام تأليف أبو القاسم وصبر في سرايفر ١٩٠٣ ، واشترك كذلك في ترجمة بعض الكتب ليد وليف .

(١١٢) دائرة المعارف البوليسلافية ، الجزء السادس ، زغرب ١٩٥٥ ، ص ١١١ .

(١١٣) يفراسا ، « الأمل في منطقة الهرسك » ، مجلة أوروبا الجديدة ، العدد السابع والخمسين ١٩٢٥ ، ص ٢٧٣ .

« الدخول الأخضر »

يمكن أن تصيب أي شعب وأي بلد . والجانب الثاني من تاريخ حياته هو تقديسه للمعلم والتعليم والتعلم ، الأمر الذي يبرز في حيرته العلمانية^(١١٥) .

ويذكر النقاد أن المؤلف في وصفه لزوجته عمر أفندي ولأبنائها قد سجل المصنوع من المعلومات عن عائلته الشخصية بينما يؤكدون أن شخصية الابن الأصغر في الرواية ما هي إلا شخصية المؤلف نفسه . ومن المعروف أن المؤلف قد ولد في مدينة « ماجلاي » وفي خلال الحكم التركي لهذه المناطق أمضى دراسته الأولية ثم الرشيدية^(١١٦) . وبعد ذلك أمضى دراسته بمدرسة المعلمين . وبناء عليه فمن المؤكد أنه يعرف اللغتين التركية والعربية . وأدب المؤلف نابع من التقاليد الروائية الشعبية وكذلك من ملاحظاته للحياة المصرية . ومن جهة أخرى نرى أن أبه لا يعالج إلا المشاكل الراهنة للتطور الاجتماعي والثقافي للمسلمين في البوسنة والمهرسك . وبذلك فإن أدبه يجمع بين الماضي والحاضر ، بين التقاليد العريقة والواقع الحالي لمسلمي البوسنة والمهرسك إبان حكم النمسا المجرية . ولكنه يتعايش مع كل هذا بشكل ذاتي وشفوي وكأنه أجزاء مكملة لحياته ومصيره .

وعند قراءة تاريخ حياة المؤلف نحصل على انطباع بأن رواية « الدخول الأخضر » ليست شيئاً آخر سوى تجربة صادقة للمؤلف . وهذه التجربة تدفعنا إلى التسؤل : ألا يمكن أن تكون شخصية العربي في هذه الرواية حقيقية هي الأخرى . ورغم أنه من السهل للغاية أن نفترض ذلك إلا أن ذلك يصعب إثباته . وبالإضافة إلى ذلك يمكن أن يكون ظهور العربي في هذه الرواية رمزا للتعاون والوفاء مع شعب البوسنة والمهرسك . والعربي أيضا رمز للكفاح المستمر ضد المحتل النمساوي المجرية . وقد أثبت العربي ذلك بأنماطه فقد كان قلباً وروحاً في جانب الشعب وكافح معه

يتحدث الأديب اليوغسلافي « أدم مولو هيليتش » في هذه الرواية عن دخول الجيش النمساوي إلى البوسنة . وهذه الرواية في حقيقتها تجربة شخصية للمؤلف ، تجربة ذاتية موضوعية ، تجربة محزنة في جوهرها وبعيدة المدى باعتبارها تحولاً وفتحاً لحضارة جديدة واكتشافاً لأفق روحي جديد^(١١٧) . وقد عالج المؤلف هذه التجربة وطورها فنيا بشكل مؤثر في روايته .

وتحكي الرواية عن مدينة « ماجلاي » التي كان يوجد فيها مقهى صغير يسمى مقهى العربي . وكان مالك هذا المقهى عربياً حضر مع سيده من الكمية ، وبعد وفاته أصبح حراً وفتح هذا المقهى التي كان يجلس فيه الشباب ، ورغم فقر هذا العربي فقد حطم كل ما في مقفاه وذهب لكي يكافح مع الشعب ضد المحتل النمساوي . واشترك العربي بكل جرأة في هذا النضال ضد المحتل ، وكان على الدوام في المقدمة إلى جانب الرواية رغم أن المعارك كانت عنيفة ، وفي النهاية فقد العربي حياته في كفاحه البطولي ضد المحتل رغم هرب الكثيرين .

ونجد أن أدم مولو هيليتش اتخذ من بعض جوانب حياته وذكرياتها مادة موضوعية لأحداث روايته أو أنه أوجزها في أفكار طورها إلى مواقف ونظريات تتشابه في عمله الأدبي كله . وهذا يدلنا على صدق المؤلف وعلى خوضه هذه المواقف في الحياة وعلى معرفته لأبطال الرواية ولأرواحهم وأماهم ولعراشهم ونجاحاتهم . ويبدو لنا في بعض الأحيان أنه يريد أن يقدم موعظة مبنية أو أنه يدعو لفكرة معينة .

وأول جانب من تاريخ حياة المؤلف هو خوضه لغمار الاحتلال النمساوي المجرية للبوسنة والمهرسك . وقد عاش هذه التجربة بشكل مأساوي وكانت مصيبة كبيرة

(١١٥) حسن رزاق ، « الأصدال المختارة : أدم مولو هيليتش » ، الجزء الثاني ، ص ٨٠ .

(١١٦) المصدر السابق ، ص ٨٠ .

(١١٧) الرشيدية هي المدرسة الأممية وهي مستعربة من الكلمة العربية « رشيد » ، بمعنى ناضج .

الذكر الثاني :

رغبة منا في لقاء مزيد من الضوء على هذه الظاهرة قررنا أيضا دراسة ما أسميناه بالذكر الثاني للعرب وكل ما يتعلق بهم من ثقافة وحضارة وأماكن جغرافية وما إلى ذلك . فهذا الذكر الثاني يشمل جوانب عديدة من حياة العرب ويتناثر هذا الذكر في مؤلفات عديدة من مختلف ألوان وأجناس النثر ويتم عرضه بأساليب مختلفة وأشكال متباينة . ومن المؤكد أن هذا الذكر أيضا أهميته فهو ليس بالظاهرة اليومية المألوفة التي يمكننا أن نتغاضى عنها وألا نلتفت إليها .

ولابني أن تغفل الحقيقة القائلة بأن عدد النصوص الثرية التي وجدنا فيها ذكرا ثانويا للعربي بلغت ١٢٣ نصا يوجد فيها بهذا أو ذاك الأسلوب ذكر للعرب ولأشياء كثيرة مرتبطة بهم سواء من قريب أو من بعيد . ولابد أن تكون هذا كله دوافعه وأسبابه . ولاشك أن دراسة وتحليل هذه النصوص يمكن أن تقدم لنا أساسا لبعض الاستنتاجات الجديدة المفيدة الهامة أو على الأقل يدهم الاستنتاجات التي خرجنا بها من دراسة نصوص المجموعة الأولى .

وحسب قائمة النصوص الثرية التي تم جمعها يمكن ملاحظة أن هناك كتابا وأدباء يوغسلافيين يكثرون من ذكر العرب وكل مايتصل بهم ذكر ثانويا ، ولذا فإننا سنلقي نظرة مرجزة على أهم هؤلاء الكتاب حتى تكون الصورة أماننا أكثر وضوحا .

ولقد كانت الرومانسية خلال جشرين عاما هي الطابع الأساسي لمؤلفات الأدب « جورا » باكشيتش ، (١٨٣٢ - ١٨٧٨ م .) وكانت الأحداث الثرية التي جرت في الفترة من ١٨٧٥ وحتى ١٨٧٨م قد ملأت قلب « جورا » بحب الوطن ^(١١٨) ، وكل قصصه الرومانسية تعالج الأحداث التاريخية من الماضي البعيد أو القريب ويصور فيها « جورا » الوقائع كما يصور

ووافق أحمد بطل الرواية كظله الذي لا يفصل ، وحارب معا بشراسة وشجاعة ضد المحتل إلى أن ضحى العربي بحياته في النهاية من أجل استقلال مابلاي .

د الفاطرة »

وتحدث هذه الأقصوصة التي كتبها كذلك أدهم مولى عبديتش عن أول فاطرة بخارية تدخل المدينة ، وقد تم استقبلها استقبالا حافلا . وعند وصفه للفاطرة ذكر المؤلف أنه هبط منها عربان وتركها وحدها . ومثل هذا الرأي كان سائدا بين الناس الذين كانوا يعتقدون أن الفاطرة البخارية قد أتت من جهنم وكان يدفعها عربان وكأنها زبانية جهنم . والحقيقة أن سواد الدخان قد غطى وجهي السائقين بحيث أنها كنا يبدون كائنين من السود .

وقد وصف المؤلف العرب بأنهم سود اللون وهو في ذلك متأثر بالأدب الشعبي كما وضحا من قبل . والمقارنة هنا معبرة وتنبه التوابيل التي تضاهي إلى التمييزات من أجل إبراز عجايز معينة . ويورد أحد الباحثين في الأدب الشعبي أن الشعب قد أخذ المقارنة بالألوان من بيئته المباشرة عن طريق تداعي الأفكار والحواس . ولكن هذا الباحث لم يثبت لنا بالأدلة افتراضه هذا ، ولم يعالجه على نحو مفصل ، ولم يذكر لنا كذلك شيئا من المقارنة المشهورة : أسود كالعربي ^(١١٧) . وبغض النظر عن كل هذا فمن اليسير أن نلاحظ أن روح الأدب الشعبي بمعتقداته قد سيطرت على أدب المؤلف .

وأدهم مولى عبديتش (١٨٦٢ - ١٩٥٤م) قضى الجزء الأكبر من حياته في سرايفو عاصمة منطقة البوسنا والمهرسك المملوكة بالمسلمين وكان رئيسا لتحرير مجلة « بيهار » ، وكان يكتب القصص والروايات والمسرحيات الدرامية ويصور في مؤلفاته حياة مسلمي البوسنا والمهرسك .

(١١٧) ميليفر كتيبليتش ، « الأدب الشعبي » ، سرايفو ١٩٧٨ ، ص ٢٢٧ - ٢٢٨ .

(١١٨) برجي جيليتريتش ، « الأعمال الكاملة لجورا باكشيتش » ، الجزء الرابع ، بلغراد ١٩٢١ ، ص ٢٠١٦ .

كبير ولدرجة أنه يمكن تسميتها بالدراسة التاريخية في شكل رواية (١٧١).

أما الأديب لاذا لازاريغيتش (١٨٥١-١٨٩١ م) ، فبالرغم من أنه كان يكره كل ما هو لاثاني إلا أن أفكاره عن المجتمع والانسان تكونت في برلين بالذات . وهذا الأديب الذي فهمه النقاد وقدموه لفترة طويلة على أنه كاتب واقعي لم يكن هكذا على الإطلاق بالمعنى الكامل للكلمة . لقد كان لاذا في أساسه رومانسيا يعبر عن نفسه بلغة واقعية في الظاهر بالتكنيك الأدبي لعصره ، أنه روماني يشتر من رومانسيته . وقد حقق لاذا في مؤلفاته دقة التعبير وتوازنه وشفافيته العجيبة بشكل لم يعرف له مثل في الأدب اليوغسلافي (١٧٢)

وقد ذكرنا من المؤلفين عثمان - عزيز أن أكثر أقاصيصها من منطقة البوسنا والمهرسك التي حكمها الأتراك ما يقرب من خمسة قرون وتركوا فيها الكثير من عناصر الثقافة والحضارة العربية . وكان عثمان يعرف اللغتين العربية والتركية مما أتاح له أن يعرف الكثير من العرب وعن الاسلام ويتجلى هذا في قصصها .

وكان يوسيب توميتش يسمى في مؤلفاته إلى تركيز اهتمامه على الدقة التاريخية رغم روايته التاريخية كانت تلميحاً والمأخوذ إلى الظروف المعاصرة . أما فلاديمير بوروتا فقد كتب أقاصيص تعالج موضوعات من بيئة البوسنا وركز فيها على تميز البيئة ووصف التناقضات بين العادات الجديدة والتقاليد الاسلامية (١٧٣) .

وبالنسبة للأديب الرومانسي لويشا ميتروث (١٨٢٤-١٨٧٨ م) فقد كان يقرأ المؤلفات الايطالية في أصولها وكان مشغولاً بالأدب الايطالي (١٧٤) وكان

الرماس الواقع في لوحاته . (١٧٥) وإقاصيصه التاريخية ليست إلا تعبيراً عن الموضة الرومانسية في تصوير القرون الوسطى . وقد قدم لنا في قصصه صورة لليؤس الفظيع الذي كان على أفراد الشعب العربي أن يتحملوه وهم ينهون بعبيه سيطرة أضيائه المجر وسلطانهم . والعناصر الأساسية لأسلوبه هي التعبير العاطفي والكلمات الخطائية والوصف الجميل ، وهو أسلوب أصيل للغاية ومكتظ بالاشيياء ونهجه عاطفية على الدوام . والأديب الرومانسي جورا ياكشيتش يعرف كيف يعثر على التعبير الخاص بالرفقة والحنون وبالألم .

والأديب اليوغسلافي جبالسكي كساقر شانلور (١٨٥٤ - ١٩٣٥ م) الذي أكثر من ذكر العرب في مؤلفاته - روماني أيضاً . وهو يعد مؤسس الرواية الاجتماعية السياسية ، وهو الأديب الذي عقد صلة وثيقة بين فن القصة الكروايتية وبين الأدب الحديث لأوربا الغربية وبين الأدب الواقعي الروسي . ومؤلفاته وثائق تاريخية تقدم في كثير من الأحيان صورة موثوقاً بها أكثر مما تقدمه الدراسات السياسية أو الثقافية أو التاريخية (١٧٦) .

أما الأديب أوجوست شوتا (١٨٣٨-١٨٨١) فقد ورث في مؤلفاته جميع أفكار الرومانسية وكل إشكالاتها وقد أخذ من الرومانسية أيضاً اهتمامه بالرواية التاريخية . وفي قصة « اليهودي الأبدى في زغرب » قدم لنا شوتا صورة للكروات كما رأهم في طفولته وفي سنوات صباه وفي فترة دراسته بالجامعة ، ويصور كذلك تصرفاتهم على مر العصور . وفي قصة « ذهب الصائغ » حاول شوتا أن يعرض صورة للحياة الكروايتية القديمة ، أما رواية « ثورة الفلاحين » فهي رواية تاريخية إلى حد

(١٧١) سيميلوف لازاريغيتش ، « القصص العظيمة في الأدب المعاصر الحديث » ، بلغراد ١٩٣٠ ، ص ٣٣٦ .

(١٧٢) إميل تشامبر ، « جبالسكي ك » ، لانتور ، زغرب ١٩٥٢ .

(١٧٣) أنطون برانس ، « أعمال أوجوست شوتا » ، الجزء الثاني ، زغرب ١٩٥١ ، ص ٥٣٥ .

(١٧٤) بريجي جيفاريغيتش ، « الأعمال الكاملة لاثاني لازاريغيتش » ، بلغراد ، ص ٣٤٧ - ٣٤٨ .

(١٧٥) مازا لماروف اليوغسلافي ، الجزء الثامن ، زغرب ١٩٥٥ ، ص ٣٧٧ .

(١٧٦) كتاب القصة المعاصرة في صربيا ، « أعمال مازو بريجيتش » ، الجزء الأول ، زغرب ، ص ٧ ، ٨ .

شاب صربي وقتة تركية وهذا يكون فيها مجال لأشياء ترتبط بالعرب .

أما الأدباء الرومانسي يوجيوي أثانا تسكوفيتش فقد قضى - كما ذكرنا من قبل - فترة طويلة في فرنسا وألمانيا وسويسرا وإيطاليا وانجلترا . والوطنية تبرز من كل سطر من سطره ، وهناك صلة قوية بين كتاباته وبين الشعر الشعبي الذي يستعير منه الكثير من التفاصيل والموضوعات ، وهي كلها أمور كانت تحجب القراءة في أعماله . انه رومانسي وناحرا ما كان يتبعده عن رومانسيته ، ويعتقد الناقد يوفانا سكريفيتش أن قصة « الأم والأبنة » تدل على بعض أماكنها وكتابها ترجمة ألمانية عاطفية حمزة (١٧٨) .

وهكذا نرى أن معظم الأدباء الذين يذكرون العرب في أنفصوصهم ورواياتهم هم أدباء رومانسيون غاضعون لتأثير الرومانسية. سواء أكانت يوغسلافية أم ألمانية ، هذا علاوة على تأثير الأدب الشعبي على مؤلفاتهم وكذلك تأثير معرفتهم للغات الأجنبية . وقد قصدنا بعرضنا لمقتطفات من حياة بعض الأدباء الذين ذكروا العرب في كتاباتهم بشكل أو بآخر أن نؤكد هذه الأمور من واقع حياة هؤلاء الأدباء .

وإذا ألقينا نظرة على قائمة النصوص الشعرية التي جمعناها تبين لنا أن بعض النصوص منشورة في مجلات أدبية والبعض الآخر في كتب . ومن ثم تعين علينا إعادة ترتيب النصوص حسب نشرها ، وأوضح لنا على الفور أن مجلة الأكليل (فيتاس) (١٧٩) التي كانت تصدر في

يحتذي بالمعاطفة الأدبية والخيال الجامع لكتاب القصة البوفيسلاف الذين تتلمذوا على يد ضعاف الأدباء الألمان . انه رومانسي يحتذي بالرومانسيين الإيطاليين ، ومعروف عنه حبه ل لغة الشعب وعاداته (١٨٠) . وقصته « الحجر الملعون » هي تاريخ كامل عن المشعوذات وعن أعمالهن الشريرة ، وقصته الفتاة المفاضة « هي رواية تاريخية صغيرة قدم فيها صورة عريضة لفترة حكم عائلة باشتروفيتش. (١٨١) .

والأديب ملوراد بوبوليتش شابتشائين كان يقرأ منذ شبابه المبكر مؤلفات البوفيسلاف والأجانب ، وكان يقرأ على الأكثر باللغة الألمانية وكان يفضل قراءة كتب التاريخ اليوغوسلافية والأجنبية . وكان يجيد معرفة اللغة الألمانية ويتابع لمراجع التريوية والتخصصية عن طريق المؤلفات والمجلات الألمانية . وعلاوة على ذلك كان يقرأ باللغات الروسية والفرنسية والبولندية التي كان يترجم منها أيضا (١٨٢) . وقصته الطويلة « حسن أها » هي رواية كاملة تتالعج موضوع ثورة حسن أها ، وبعض أحداث من تاريخ البومنا . والقصة مجال كبير للرومانسية ويحتوي على قص ثنائية تضع فيها الأحداث والشخصيات الأساسية . وركز فيها المؤلف على الاتجاه الوطني ، وفي بعض الأحيان كان يكثر من تكرار الحقائق التاريخية فضع بذلك الفكرة الرئيسية للقصة . وقصة « الأسقف جينيلديا تحتوي على الكثير من الرومانسية والمعاطفة وتحكي قصة حب سطحي بين

(١٧٩) يوفان سكريفيتش ، « لويديستشيان ميثود » ، مجلة ليتيريس ماقينا صربكا لعام ١٩٠٨ ، العدد ٢٤٨ ، ص ٢٠ .

(١٨٠) ماروش سافكوفيتش ، « الأدب البوفيسالي » ، بلغراد ١٩٥٨ ، ص ١٢٨ .

(١٨١) أرووش جوفيتش ، « أرووش جوفيتش » ، الأصيل الكلمة ليلوراد شابتشائين ، بلغراد ١٩٣٢ ، الجزء الخامس ، ص ١٢ .

(١٨٢) الأصيل الكلمة ليوغان سكريفيتش ، ص ١٠٨ .

(١٨٣) مجلة الأكليل - ليفاس ١٨٩٦ - ١٩٠٣ ، تصور في زغرب وكانت - في حينها - هي المجلة الفكرية الرئيسية وكان غا دور وتشمل كثير في المجال الأدبي . ولعل الدور هذه المجلة كانت أفضل المجلات الأدبية في كرواتيا لصالح الأدب ممثلة لغوية فحسب أو لتعبره أنه وسيلة مساحت في الكفاح من أجل التحرر القوي . وكان شعار هذه المجلة أنها تعمل من أجل انسانية والحرة وهي تسعى في نفس الوقت إلى التفكير عن البيئة الثقافية في كرواتيا من طريق الأدب الجليل وسرعان ما أصبحت هي الحكم الرئيسي على الأدب علاوة على أنها كانت ترميه نصوص الأدب الأوروبي . وليس هناك كاتب كرواني لا ينشر أعماله الأدبية من خلال هذه المجلة بعض النظم من المذهب الأدبي الذي يتبعه أو يتبنى إليه . ونظرا لأنه لم يكن هناك تناقض منظم نشر الأعمال الأدبية فقد كان كل الأناج الأدبي في هذه الفترة مركزا على هذه المجلة بعض أو يمكن غا مناس أو مترجح في هذا المقصود . وظلت المجلة تعمل على جمع الكتاب والنسرين الجدد والنداس حوها ، وعلى نشر الأخبار الأدبية المحلية وكانت دورها هي التخليص للقصة عن أوروبا مسجلة كل الظاهر الثقافية العامة . ومجلة الأكليل أصبحت المجلة وثيقة ومستعانا لأخي عنه لكل من يقدم على دراسة الأدب البوفيسالي حلة والأدب الكرواني عامة في تلك الحقبة .

زغرب نشرت أكبر عدد من هذه القصص والروايات ويبلغ عددها ثلاثين نصاً وأغلبها بقلم مؤلفين كروات . وتليها مجلة « حورية البوسنا » (يوسانسكا فيلا) (١٣٠) التي كانت تصدر في سراييفو ونشرت تسعة عشر نصاً ، وتليها مجلة شجرة القيقب (يافور) (١٣١) التي كان يصدرها الأديب الشاعر يوفانوفيتش زماي في نوفي ساد ونشرت ستة عشر نصاً .

وقد وجدنا أن هذه القصص والروايات تحتوي على كمية ضخمة من المعلومات المرتبطة بالعرب ويكل مايتعلق بهم . وإذا جمعنا هذه المعلومات المذكورة عن العرب وعن كل مايرتبط بهم من مفاهيم جغرافية وثقافية ومادية وجدنا أن هذه النصوص الثرية قد قالت الكثير من العرب . ومن الأماكن الجغرافية العربية المذكورة في هذه النصوص : الاسكندرية ، الجزائر ، العربية السعودية ، عربستان ، بغداد ، الجليل ، دمشق ، اليمن ، القدس ، الأردن ، القاهرة ، المدينة المنورة ، مكة والمكة ، مصر ، النيل ، عدن ، الفرات ، النوبة ، الصحراء ، البحر الأحمر وغيرها . ومن الكلمات المتعلقة بثقافة العرب : الأرابيسك (الفسيفساء) واللغة العربية واسم النبي محمد (صلعم) والقرآن والأسلام وغيرها . ومن هذا يتبين لنا أن الأدباء اليوغوسلاف أكثر من ذكر الأماكن الجغرافية العربية عن ذكرهم للمفاهيم الثقافية العربية ، ولم تترك الأدباء الكرواتيون - بصفتهم خاصة - الحصان العربي دون أن يذكروه في مؤلفاتهم .

وينبغي أن ننوه إلى أن النصوص الثرية المذكورة ، لم تنشر في نفس السنوات بل في فترة زمنية طويلة تبدأ من عام ١٨٥٢ وحتى ١٩٠٠ ، ولاشك أن هناك أهمية معينة لسنة وتاريخ نشر هذه القصص والروايات . ولكن ينبغي على القارئ أن ننوه إلى أنه كان من العسير للغاية في بعض الأحيان التوصل إلى التاريخ الصحيح لنشر أو كتابة نص من النصوص ، وفي أحيان أخرى كان من المستحيل على الاطلاع على التأكد من دقة هذا التاريخ . وحتى لا تفقدنا المعلومات الناجمة إلى استنتاجات غير دقيقة فقد جمعنا النصوص الموجودة في كل عشر سنوات حسب الجدول التالي :

عدد النصوص

٢	١- من ١٨٥٢م حتى ١٨٦٠م
٢	٢- من ١٨٦١م حتى ١٨٧٠م
٢٢	٣- من ١٨٧١م حتى ١٨٨٠م
٣٥	٤- من ١٨٨١م حتى ١٨٩٠م
٥٦	٥- من ١٨٩١م حتى ١٩٠٠م

ومن هذا يتبين لنا أن عدد هذه النصوص كان في تزايد مستمر ، وعلاوة على ذلك يمكننا أن نخلص إلى أن القصتين الأوليين قد تم نشرهما في ١٨٥٢م ، وهناك كذلك سنوات لم يتم العثور فيها على أي نص يتعلق بالعرب ، وعلى الأخص في الفترة من عام ١٨٥٢ حتى عام ١٨٦٢ . وأخيراً نجد أن أكثر النصوص التي جمعناها موجودة في أعوام ١٨٩١ ، ١٨٩٦ ، ١٨٩٧ أو

(١٣٠) ومجلة حورية البوسنا - يوسانسكا فيلا (١٨٨٥ - ١٩١٤م) كانت تصدر في سراييفو وتنشر جميع الأعمال الأدبية من جميع مناطق يوغوسلافيا باللغة الصربوكرواتية . وقد ظهرت على متيلها من المجلات الأوروبية واكتسبت شهية خاصة منذ عام ١٨٨٢ وحتى ١٩٠٩ ، وبسبب اتساع شهرها حاولت الحكومة إصدار مجلة أدبية متضادة إلا أنها لم تستمر رغم الانتكازات المادية الكبيرة التي كانت متتالية لها . وفي عام ١٨٩٦ حصل رئيس تحريرها نيكولا كاشيكوفيتش على وسام من السلطان التركي بسبب جهوده في إبعاد بين الصرب والمسلمين . وخلال فترة صدورها كانت المسجلة تصدر لمرة الأدب والحياة الثقافية في يوغوسلافيا في تلك الفترة علاوة على جمعها للمصادر الشعبية والمؤلفات الشعبية ذات القيمة العلمية .

(١٣١) مجلة شجرة القيقب - يافور كانت تصدر في مدينة نوفي ساد منذ عام ١٨٦٢ من أجل التسلية والتعليم والأدب . وكانت من أهم المجلات الأدبية في صربيا في ذلك الحين . ومن خلالنا نشر أفضل الأدباء مؤلفاتهم الثرية أو الثرية علاوة على ترجمة الأعمال لألمانيون ويوجون وديون وشونين وديوجينييف وزولا وديستوفسكي ومارك توين وروبرتسون وغيرهم وكان لها اهتمام خاص بالشرق وتنشر هتلف الاعيان الثقافية والأدبية وينقلون حول مشاكل اللغة .

(١٣٢) من أجل مزيد من التفصيلات انظر : العربي في النظر باللغة الصربوكرواتية ، للمؤلف ، رسالة دكتوراه تم نشر ، جامعة بلغراد يوغوسلافيا ١٩٧٩م .

العلاقات التاريخية :

إذا ألقينا نظرة نحو الرواء في الحقبة الأولى لبلده الفترات الإسلامية وجدنا أن هناك علاقات متباعدة بين العرب وبين أسلاف اليوغسلاف ، وهم السلاف الجنوبيين ، في أحوال الحرب وأوقات السلم . وقد أدت هذه العلاقات إلى تعرض السلاف الجنوبيين لتأثيرات متنوعة لا حصر ولا حد لها من جانب الحضارة الإسلامية العربية ، وتشير المعلومات والحقائق التاريخية إلى أن التعارف بين العرب والسلاف الجنوبيين وما استتبع ذلك من تأثيرات محتملة قد تم أساسا من خلال السبل التالية :

١ - من طريق الامبراطورية البيزنطية : فلقد أصبحت شبه جزيرة البلقان بلادا سلافية بعد نزوح السلاف الجنوبيين وتدفقهم حل هذه المنطقة ابتداء من القرن السادس الميلادي ، وكانت شبه جزيرة البلقان تقع آنذاك تحت سيطرة الامبراطورية البيزنطية . وفي بداية القرن السابع احتاجت الامبراطورية البيزنطية الى تكوين جيش قوي جديد ، وحيث ان عدد الجنود البيزنطيين لم يكن كافيا فلم يكن من الممكن سد هذا الفراغ في الجيش الا بتجنيد السلاف الجنوبيين ، وبذلك اضمافوا دما جديدا الى الجيش البيزنطي (١٣٣) وتحول السلاف الجنوبيون الى قوات محارب وترد هجمات العرب المتكررة (١٣٤) الا انه في عام ٦٥٨م وفي عهد القيصر قسطنطين الثاني انتقلت وحدة عسكرية بيزنطية قوامها خمسة آلاف جندي من السلاف الجنوبيين الى صف القائد العربي عبد الرحمن واستوطنت في سوريا (١٣٥) ، وهذا يقودنا -توا- الى الاستنتاج بأن السلاف الجنوبيين كانوا يجارون مع البيزنطيين ومع العرب على حد سواء . وقد جرت على الحدود بين الدولة الاسلامية

في الفترة الزمنية من عام ١٨٩١ وحتى عام ١٩٠٠ (١٣٦) وهي فترة كانت تسودها الأفكار الرومانسية .

الاسباب الرئيسية :

كما سبق تبين لنا أن شخصية البطل العربي تظهر في الأدب الروائي باللغة الصربوكرواتية في مختلف الوظائف والمهام والأدوار الرئيسية ، وبأساليب مختلفة ، ولأسباب متنوعة ومتعددة . ويمكننا أن نؤكد أن شخصية البطل العربي صفورة حقرا عميقا في هذا الأدب الروائي ، الا أنه لم تتم حل الدوام معالجة هذه الشخصية بشكل متكافئ ، ففي بعض الأحيان تم تصويره من جوانب متباينة ، وفي أحيان أخرى صدرت عليه أحكام وتقديرات متضاربة . وغالبا ماظهرت هذه الشخصية في ثوبها التاريخي وفي بيئتها الطبيعية ، وقد أصدر كتاب هذه الأناصيص والروايات أحكاما وتقديرات متناقضة وغير متكافئة حل البطل العربي مما يجعلنا نستنتج أن كاتب الأقصوصة أو الرواية كان من خلال شخصية البطل العربي يتحدث عن ملاحظاته وانطباعاته عن العرب ، وهي ملاحظات وانطباعات تم التوصل اليها بالخبرة العملية أو تحت تأثير التقاليد الشعبية المنقولة من جيل إلى جيل . تلك التقاليد الشعبية التي ظهر تحت تأثيرها بعض الأوهام . ومثل هذا الظهور لشخصية العربي يعد أمرا منطقيا وطبيعيا للغاية لأن كل كاتب ينتهي بشكل مستقل موضوعاته وأفكاره الشخصية ويعالجها حسب قوانينه التأليفية الداخلية ، وهكذا تتشكل لدى الكاتب تصورات معينة عن العرب ، منها الجيد والسيء ومنها الصحيح وغير الصحيح .

من الدراسة المتقدمة يمكننا أن نوجز أسباب ظهور شخصية العربي كشخصية رئيسية أو ثانوية في الأدب الروائي باللغة الصربوكرواتية في الأسباب التالية :

(١٣٣) جورجي أوستروجرسكي ، « بيزنطة والسلافة » ، بلغراد ١٩٧٠ ، ص ٩ .

(١٣٤) تاريخ يوغوسلافيا ، بلغراد ١٩٧٢ ، ص ١٩ وكذلك Aleksandar Vasiliev, History of the Byzantine Empire 324 — 1453, I, Madison (١٣٦) تاريخ يوغوسلافيا ، بلغراد ١٩٧٢ ، ص ١٩ .

(١٣٥) قسطنطين برتليوك ، « تاريخ العرب » ، لجله الأول ، بلغراد ١٩٦٢ ، ص ٧٣ .

المعروف أن الحياة المشتركة قد تفرض على الأعداء في بعض الأحيان أن يتصلوا ببعضهم وأن يتعاونوا في جميع المجالات الممكنة ويحفظ الأشكال ، وبناء على ذلك فمن المنطقي تجلما أن نفترض أنه كان يوجد لدى البيزنطيين وجنودهم من السلاف الجنوبيين الموجودين على الحدود العربية البيزنطية شكل من أشكال قصص البطولات يشبه قصص البطولات العربية ، ولا شك أن الجندي السلافي قد حاول أن يحكي - على طريقته الخاصة في أيام السلم وفي لحظات الاعلمتان حكايات عما كان يحدث كما كان يفعل الجندي العربي أيضا . وهذا يدفعنا ببساطة إلى الاستنتاج بأن قصص البطولات الشعبية عند السلاف الجنوبيين لا بد أنها نشأت على الحدود بين الامبراطورية البيزنطية وبين الدولة الاسلامية العربية . وهنا تعرف السلاف الجنوبيون على الأدب والحضارة العربيين . وبالتوازي مع هذا كله كانت الخبرات والتقاليد الشعبية تنتقل من العرب إلى السلاف الجنوبيين في وقت الحرب وكذلك في زمن السلم .

٢ - من طريق حوض البحر الأبيض المتوسط : إذ من الحقائق المؤكدة أن الهجمات العربية على بحر الأدرياتيك خلال القرن التاسع الميلادي استمرت قرنين كاملين على فترات متقطعة بالطبع . وبما لاشك فيه أن هذه الهجمات العربية أثبتت بروز عنصر خارجي جديد له قوته الأمر الذي سيؤثر فيها بعد على تاريخ دول بحر الأدرياتيك . وقد جرت معارك قاسية بين البيزنطيين والفرنجة على شواطئ بحر الأدرياتيك في إطار الصراع الاستراتيجي العسكري والاقتصادي في منطقة البحر المتوسط من أجل التجارة بين غرب أوروبا والشرق (١٣٧) .

٣ - وقد قام بحار الدولة الفاطمية بدور بالغ في التجارة بين مصر والهند وكذلك مع أوروبا (١٣٨) ويذكر أنه كان

وبين الامبراطورية البيزنطية وحروب استمرت الى مايقرب من ثمانية قرون اشترك فيها السلاف الجنوبيون مع العرب للمسلمين ومع البيزنطيين . وتدفعنا هذه الحقيقة الى التقرير بأن استعراض العلاقات الحربية وغير الحربية بين العرب والسلاف الجنوبيين .

وعلى أساس هذه الحقائق يمكننا أن نؤكد أن أول اتصال مباشر مسجل بين العرب وبين السلاف الجنوبيين تم في بداية القرن السابع الميلادي وبالتحديد في عام ٦٢٩ م . على الحدود بين الامبراطورية البيزنطية والدولة الاسلامية (١٣٦) . وفي عهد الأمويين والمهاجرين وحتى بداية القرن العاشر الميلادي تقريبا جرت معارك مبررة على هذه الحدود من أجل كل شبر من الأرض ، وكانت تتكرر كل عام تقريبا الهجمات من كلا الجانبين ، ويتم أسر الجنود من الطرفين وتبادلهم . ومن المؤكد أن كل هذا كان يؤدي الى حدوث اتصالات مباشرة بين العرب وبين السلاف الجنوبيين وقد انعكس هذا فيما بعد على الأدب الشعبي ومنه على الأدب الروائي اليوناني ، وقد هرقت هذه الحدود أيام السلم أيضا عندما كان يمكن أن يتم بلاعقبات أو عوائق تبادل اللقضاءات والالامحات والافتكار الروحية وأسباب الحضارة والثقافة .

ولا شك أن العرب كانوا أول خصم للسلاف الجنوبيين عبر التاريخ ، علاوة على أن السلاف الجنوبيين كانوا يتحاربون مع العرب الذين كانوا في قوة قوتهم ومجدهم . وظل العرب على هذه الصورة في وعي كل سلافي جنوبي الذي نقل بدوره هذه الصورة إلى أحفاده وإلى الأجيال من بعده .

ولا خلاف على أن الحرب المديدة المتواصلة التي اشترك فيها كل من العرب والسلاف الجنوبيين قد سمحت بعلاقات ثقافية متنوعة متميزة بينهما . ومن

(١٣٦) فليب جلي ، تاريخ العرب منذ أقدم العصور حتى اليوم ، صرافير ، ١٩٦٧ ، ص ١٤٤ .

(١٣٧) A. Vasiliev, History of the Byzantine Empire, p.212.

The Cambridge history of Islam, Cambridge, 1970 p.157. (١٣٨)

كله ، لأن الحضارة العربية فيها بلغت ذروتها وكان عدد السلاف الجنوبيين بها كبيرا ، وكانوا يشكلون الحرس الخاص لبعض الحكام مثل الخليفة الحكم (١٤١) والخليفة عبد الرحمن الثالث (١٤٢) ، وبوجه عام كان الدور السياسي للسلاف الجنوبيين في أسبانيا دورا كبيرا للغاية وعلى قدر عظيم من الأهمية . وكان منهم بعض المحاربين والحكام أصحاب القصور الرائدة . وعلى الصعيد الثقافي يوجد عدد كبير من الشخصيات السلافية التي برزت بفضلها وخدماتها (١٤٣) ، ونذكر منها على سبيل المثال لا الحصر هرمان الدلماسي الذي يقال عنه انه أول من ترجم القرآن الكريم إلى اللغة اللاتينية (١٤٤) واستمرت الحضارة العربية بالأندلس تشع نورها الثقافي والاقتصادي والفني ، وظهر أثر ذلك واضحا في أوروبا في القرنين الثاني عشر والثالث عشر وما بعدها .

٦ - من طرقت طائفة الباشقود المسلمين بالمجر ، وكان عدد كبير منهم من المقاتلين الرحل ، وكان تعليمهم الاسلامي ممتازا (١٤٥) ، وكان هؤلاء المقاتلون الرحل علاقات متنوعة بالسلاف ، ولذا فمن البين أنهم نقلوا عناصر الحضارة الاسلامية والعربية إلى شبه جزيرة البلقان .

٧ - ومن المؤكد أن الامبراطورية التركية قد حلت محل الامبراطورية البيزنطية في دور الوسيط والناشر لعناصر الثقافة العربية الاسلامية بين السلاف في البلقان (١٤٦) ، وهنا كانت سبل نشر الثقافة والحضارة عديدة ومتصلة الجوانب . وقد قام بنقل عناصر الحضارة الاسلامية كل من الجنود والتجار ورجال الدين والحجاج وكذلك الحكام ورجال القلم .

لدى الخليفة المهدي حرص خاص أخيه من السلاف الجنوبيين القادمين من سواطى شبه جزيرة البلقان (١٣٩) وعلاوة على ذلك كان الخليفة المعز لدين الله الفاطمي يعرف اللغة السلافية وهذا يؤكد وجود عدد كبير من الجنود والضباط من السلاف الجنوبيين لديه .

٤ - وقد أعادت الحروب الصليبية الاتصال المباشر بين العرب والسلاف الجنوبيين . وقد اشترك الكروات بقيادة الملك أندريا الثاني الكروات والمجر في هله الحروب (١٤٠) التي كانت تعني الكثير بالنسبة للحضارة الغربية ، وأدت إلى ازدهار النشاط التجاري بين الشرق والغرب ، وأثر هذا النشاط على أحوال أوروبا سياسيا واقتصاديا واجتماعيا ، ونتيجة لنمو التبادل التجاري انتقلت كثير من المؤثرات العربية إلى الحياة الأوروبية . وفي هذا المضمار اهتم المؤرخون بأن التأثير العربي على الأدب الأوروبي كان قويا وشديدا حينا استمع الصليبيون ومن بينهم أسلاف اليوسفات إلى قصص من كتاب ألف ليلة وليلة ، وكليلة ودمنة ونقلوها إلى بلادهم . وأصبح الممالك - وعلى الأخص أوكشك الممالك الذين اشتركوا في الحروب الصليبية - صورة للبطل العربي المثالي الذي لم تنقطع الأساطير والأقاصيص عن تحميل مآثره كيا في قصة عنترة بن شداد وقصة الظاهر بيبرس ، ونفس الأسلوب أخذ المنشأ أو الراوي ينقل من المجتمع الطباع والعادات والتقاليد الشعبية التي يراها حوله في قاهرة الممالك .

٥ - وكانت قرطبة الأموية بأسبانيا من أعظم مدن العالم مركزا للحياة الثقافية والروحية بالغرب الاسلامي

(١٣٩) ل. آ. سميثولا ، من تاريخ صهي الناطية ، موسكو ١٩٧٤ ، ص ١١٨ .

(١٤٠) دائرة المعارف اليوسلافية ، الجزء الأول ، زغرب ١٩٥٥ ، ص ١٥٠ .

(١٤١) انظر فيليب جني ، ص ١٧١ وكذلك ، Cambridge history of Islam ، p. 413 .

(١٤٢) فيليب جني ، ص ١٧٨ ، وكذلك احمد عيناوي في المصطفى ل اسبانيا ، القاهرة ١٩٥٣ ، ص ١١٠ .

(١٤٣) يوردي انتراسي ، السلاف في اسبانيا منذ ألف عام ، مجلة ثريونا سترينا ، عدد ١٦ ، زغرب ١٩٧٨ ، ص ٨٨ وما بعدها .

(١٤٤) ميروجرير ، النشاط الأدبي لبربان الفيلسوف ، مجلة ليريس ، ١٩٩٦ ، ص ٣٠١ - ٣٠١ .

(١٤٥) History of the Byzantine Empire ، p. 316 .

(١٤٦) ميلونكو ليلوفيتش ، العناصر الشرقية في الحضارة الشعبية للسلاف الجنوبيين ، مجلة البيلوراجيا الشرقية ١٩٦٦ ، ١٩٧٧ ، ص ١٠٩ - ١٠٩ .

اليوغسلاف تأخذ شكلها ، الا ان التغيرات القوية المتعددة في حياة اسلاف اليوغسلاف كانت تحو باستمرار من ذاكرتهم الأشكال الادبية القديمة وتعمل عليها نصوصا جديدة . وقد خلف لنا بعض المؤرخين البيزنطيين من القرنين السادس والسابع الميلادي معلومات تشهد بوجود القصائد الشعبية لدى اسلاف اليوغسلاف الذين كانوا قد نزحوا الى مناطق البلقان الواقعة تحت السيطرة البيزنطية^(١٤٧) .

وسيطرة الأتراك في القرنين الرابع عشر والخامس عشر على معظم الأراضي اليوغسلافية أصبح الأدب الشعبي بألوانه وفنونه الثابتة هو التعبير الوحيد عن عواطف الشعب وآماله وأفكاره فحصل بذلك على موضوعات وأفكار جديدة تربط اساما بمقاومة الأتراك الغزاة . وكان اللون الأكثر بروزا من فنون الادب الشعبي هو الملحمة التي نجد آثارها منذ القرن السادس عشر تقريبا . وهناك مجموعات كاملة من القصائد الملحمة تحكي عن الأحداث والشخصيات الهامة في الصراع الرهيب بين الأتراك واليوغسلاف . وهناك - على سبيل المثال - مجموعة كاملة من القصائد عن معركة واحدة هي معركة كوسوفو وعن الأبطال الذين سقطوا في ساحتها ، وعن تفاصيلها ووقائعها وما الى ذلك . وتوجد ايضا مجموعة قصائد عن البطل اليوغسلافي ماركو كارليفيتش وعن مبارزاته ولقاءاته مع البطل العربي . وفي هذه القصائد تبرز روح الثورة والنضال والتضحية والبطولة . وهنا يتخذ الأبطال ملامح أسطورية لا تحي ، فالبطل ماركو كارليفيتش يتحول الى رمز للنضال من أجل العدالة والشعب والحرية ، ويصبح العربي رمزا للبطش والاستبداد والطغيان وما الى ذلك من الرموز التي سرعان ما اختلطت بالرموز الأسطورية . وكان المقصود اساما من هذه الرموز هو رفع الحال النضالية لدى جماهير الشعب واشعال حماسه لمواجهة أي مستعمر أو غزاة ، وهكذا يمتزج الواقع التاريخي الفعل بخيال المستعدين وبأحلام النضال ،

وتعرض لنا الكتب العربية القديمة معلومات عن مبعوثين ورسل وحملات رسائل الذين كان العرب والسلاف الجنوبيون يرسلونهم لتأكيد هتلف المهام . ومازال ثابتا حتى يومنا هذا ما كتبه العرب عن هؤلاء السلاف الجنوبيين . المهم انه لا خلاف على أن الرسل والمبعوثين كان لهم دور هام في تعريف السلاف الجنوبيين بالعرب .

الاعجاب بشخصية العربي :

كثيرة للعلاقات التاريخية والحضارية المذكورة أعجب السلاف الجنوبيون بشخصية العربي وأعربوا عن ذلك في قصائدهم وأقاصيصهم الشعبية التي تناقلتها الأجيال حتى وصلت الينا وفيها نجد تعاطفا وميلا نحو العربي . ونذكر في هذا المضمار كلمات الأديب اليوغسلافي يعقوب ايجيتوفيتش وهي كلمات لم تصدر عن فراق أو عن حب أمي أو هوى مؤقت بل هي تعبير عن معرفة حقيقية وعن اعجاب قائم على حقائق التاريخ .

الأدب الشعبي :

ذكرنا في معرض حديثنا أن صهيدا من الأدباء اليوغسلاف قد أبرزوا شخصية العربي في أدبهم الروائي تأسيا بالأدب الشعبي الذي يكثر من إبراز العرب . والمقصود بالأدب الشعبي اليوغسلافي الفنون الأدبية المختلفة ، شعرا ونثرا ، التي لم تربط باسم مؤلف معروف ، والتعبير الشعبي هنا يعني تبنيها للشعب ككل . وانتقلت هذه الفنون الأدبية شفاهة سواء باتشادها أو سردها وسكانتها من جيل الى جيل ومن بيئة الى أخرى . والمعروف أن بدايات هذا التقليد ترجع الى عصور سحيقة ، كما هي الحال لدى أي شعب من الشعوب ، حينما أخذت الحياة الاجتماعية لاسلاف

(١٤٧) مبراهيم بيريفيتش ، دارومسبة ، الجزء الأول ، بلغراد ١٩٧٤ ، ص ١٤٠ .

برباط قومي، جميع طبقات الشعب في جميع أنحاء البلاد وخلال القرن الثامن عشر أصبح شعر الملاحم الشعبي قوة تلقائية للشعب. وفي بداية القرن التالي فرض نفسه كآدب قومي رئيسي. وفي تسوية ١٨٠٤ - ١٨١٥ م سيكون هذا الشعر الملحمي رسولاً وأداة للثورة القومية والاجتماعية. وبوجه عام كان للآدب الشعبي أهمية قومية، ذلك لأنه لم يكن يعرف التقسيمات وكان يتجاوز الحدود الإقليمية والقومية^(١٤٩).

وفي النصف الأول من القرن التاسع عشر بدأ فولك كراجيتش يجمع ويسجل بشكل منتظم جميع المؤلفات الشعبية ويشرع في نشرها في كتاب تلو الآخر^(١٥٠). ويفضله ويفضل اتصالاته العلمية مع أوروبا أمسبح الشعر الشعبي اليوغسلافي على اهتمام رعاية كبار رجال الثقافة في العالم وعلى الأخص الرومانسيين منهم، وأخذ يدرسه ويترجمه كبار رجال الثقافة في العالم أمثال هرودو والأخوة جريم وجوته ويروسيرو وولتر سكوت وبوشكين وميتسكيفيتز وغيرهم، وأخذت الرومانسية الأوروبية - وعلى الأخص الألمانية والمجرية - تستوحي الألهام من الشعر الشعبي اليوغسلافي. هذا علاوة على اقتراب الآدب الشعبي من ناحية حريمه ولأحدديته وتحريره للذات الإبداعية للإنسان - من السروح الرومانسية ومن أفكارها التي أخذت تسيطر على الآدب العالمي في نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر.

وكانت لغة الشعر الشعبي لغة أدبية خصبة متكاملة، وبينما تفضى لغة الشعب بالخصب والجمال والنفاسة، لم يكن للآدب المكتوب لغة أدبية حقيقية مما جعل الجماهير المختلفة ثقافياً تقبل على تلوق الشعر الشعبي وتتملق به ويانشاده وتبنت أكثر فاكثراً عن الآدب الفني المثقف واتاحت زيادة انتشار الشعر الشعبي إلى أن يفرض لغته على الشعر الفني في يوغسلافيا خلال

وهكذا تمتزج قضايا ومعارك الماضي بقضايا الحاضر ومعاركه. وقد أبدع المبدعون في هذا المزج بين الواقع والخيال بحيث يصعب الفصل بينهما.

وخلال القرن الثامن عشر لم يكن الآدب الشعبي معروفاً لدى جماهير المثقفين اليوغسلاف. ويرجع أن الاهتمام الفعلي بهذا النوع من الآدب بدأ منذ عام ١٧٧٤ م حينما أطلع الكاتب الإيطالي البرنر فورتيس (١٧٤١ - ١٨٠٣ م) الرأي العام على القصائد الشعبية اليوغسلافية من خلال ترجمته للقصيدة الشعبية المشهورة عن زوجة حسن آغا^(١٤٨).

وعلى أثر ذلك أعيد الشعر الملحمي يتشتر ويتغلغل بين جميع طبقات الشعب، وأدى الانتشار إلى إثراء مضمونه وتكامل أشكاله بحيث أنه في نهاية القرن الثامن عشر وعلى الأخص خلال الثورة التي انفجرت من عام ١٨٠٤ وحتى عام ١٨١٥ م عاشت للملاحم عصرها الذهبي، خاصة أن المبدعين أخذوا يفرضون ذاتيتهم وبطولة الثورة على القصائد الملحمية مما صبغها بصبغة رومانسية وحيث أهم كانوا في أشعارهم يدهون إلى تغيير المجتمع الاقطاعي البالي عن طريق الثورة فقد كانوا بأشعارهم هذه يذكرون بالدعوة إلى عصر الرومانسية في الآدب اليوغسلافي بوجه عام.

وفي نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر كان للآدب الشعبي اليوغسلافي وعلى الأخص الشعر - التفوق على مؤلفات الأديباء اليوغسلاف من حيث الأصالة وعمق الأفكار والموضوعات ومن حيث الانتشار الاجتماعي والجغرافي. وبينما كان الأديباء اليوغسلاف للمثقفون يعبرون عن وحي الجزء المثقف من المجتمع، كان الآدب الشعبي وعلى الأخص شعر الملاحم يحمل بين جنباته روح وأمال الشعب كله. وعن طريق القصائد الملحمية كانت الأساطير القومية تربط

(١٤٨) للمجم الآدب اليوغسلافي، بلغراد ١٩٦١، ص ٣٥٦.

(١٤٩) ميودراج ديويوتش، الرومانسية، ص ١٢.

(١٥٠) الأعمال المختارة لفولك كراجيتش، بلغراد ١٩٦٤، ص ٣٦٠.

الفنية للمجتمع ، ذلك لأن الرومانسية روح عامة تسيطر على مشاعر الرومانسي ورائته وهي مرتبطة أشد الارتباط بالتاريخ والحياة الاجتماعية .

والرومانسية في يوغسلافيا انبثقت عن المدرسة الألمانية الرومانسية . وفي الوقت الذي يظهر فيه اليوغسلاف على ساحة الثقافة الأوروبية في نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر أصبحوا يجدون أسوتهم في الألمان المتفوقين عنهم ثقافيا . وبالرغم من أن الانسكولوبيديين الفرنسيين هم الذين لهم الشعبية الكبرى في العالم إذ أن المثقفين اليوغسلاف كانوا يتجهون إلى الجامعات الألمانية لتلقي العلم وإسماع معاضرات الفلاسفة الألمان أمثال فولف وإيرهارد ثم كانت وشيلنج وهيجل وخاصة الشاعر هررد الذي بلغ البلور لدى اليوغسلاف بأفكاره عن الشعر الشعبي وعن تنبؤاته وعن مستقبل السلاف . وفي مجال الأدب كما في مجال الفلسفة التأثير الألماني هو المسيطر وهو الأقوى بشكل خاص في النصف الأول من القرن التاسع عشر^(١٥٢) . وفي هذه الفترة تنشر الصحف في صربيا ترجمت من الأدب الألماني للأدباء هررد وفيلاند وشيلر وجوته وغيرهم .

وفي أغلب الأحيان كان الألمان هم الملهمون للكثير من الاتجاهات التقدمية في مجال الأدب . ولاشك أن اتجاه الجيل الرومانسي الجديد نحو الروح الشعبية ونحو الأدب الشعبي ونحو الأفكار الخاصة بالدفاع عن الثقافة المحلية وتقاء لغة الشعب . هذا كله كان تحت تأثير الرومانسيين الألمان ، وعدد كبير من الأساء البارزة في العلوم والآداب الألمانية يعضدون فوك كرايشتش في إصلاحاته اللغوية وفي فضائه من أجل ادخال الروح الشعبية في الأدب ، ومنهم جريم وجوته وتالفي وزانكه وجرهارد ويسرخ وفلتر ، وكذلك الجامعات في فيينا وجيتجن تعضده كذلك^(١٥٣) . ومن الجلي أن الألمان

القرن التاسع عشر ، وبذلك كان الشعر الشعبي مباحا إلى توحيد الشعب توحيدا لغويا وباليات توحيدا روحيا قبل جميع الحركات والأفكار الخاصة بتوحيد الشعوب اليوغسلافية .

وتميز الأدب الشعبي وخاصة الشعر بأسلوبه وبأفكاره وموضوعاته وبثقافته وسلامته لغته وبارتفاع قيمته الفنية والإبداعية ، ومن ثم فقد أخذ يؤثر على الأدب المكتوب الذي كان أقل في المستوى وأضعف في الأسلوب والأفكار والذي كان تنها بين الكلاسيكية والعاطفية .

الرومانسية والأدب الألمانيان :

ألمعنا فيما سبق إلى أن الفترة التي كثر فيها عدد المؤلفات المرتبطة بشخصية العربي هي الفترة التي كانت تسيطر عليها الأفكار الرومانسية ، وأن معظم كتاب هذه المؤلفات من الرومانسيين ، وبذلك يكون ظهور شخصية العربي واجسا إلى تأثر الأدباء المذكورين بالرومانسية وبأفكارها . والمعروف أن الرومانسية هي من الظواهر الأدبية التي سادت في نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر وظهرت أولا في ألمانيا ثم انتقلت منها إلى إنجلترا وفرنسا وروسيا وإلى باقي البلاد الأوروبية . ومن العسير أن نعطي تعريفا قصيرا لهذا المذهب الأدبي للعقد الجوانب . وكتب الأديب الألماني فريدرش شيلجل (١٧٧٢ - ١٨٢٩م) أنه جمع محاولات تعريف الرومانسية في مائة وخمسة وعشرين صفحة ، وقد أحصى بعض مؤرخي الأدب عام ١٩٢٥ مائة وخمسين تعريفا للرومانسية^(١٥٤) . ولاشك أن معرفة الرومانسية تحتاج إلى الألام بالجامعاتها ، وريط هذه الاتجاهات بالحقائق التاريخية والاجتماعية يمكن فهم الروح الرومانسية في خصائصها واستجاباتها للحاجات

(١٥١) د. محمد فتحي حلال ، "الرومانسية" ، ص ١ .

(١٥٢) مودراج يوروفيتش ، "تاريخ الأدب العصري" ، بلغراد ١٩٧٢ ، ص ٢٩ .

(١٥٣) مودراج يوروفيتش ، "الرومانسية" ، ص ١٥ .

انه كان يوجد بها الكثير من الترجمات . وكان ببعض المجلات الأدبية أجزاء أو أبواب ثابتة للشعر وللنثر المترجم . وهذا طبعاً تأتى بالمجلات الأدبية الألمانية . وعلى سبيل المثال لا الحصر تنشر مجلة « فوفوجانكا » اليوغسلافية في عام ١٨٥٢ مقالا عن الشعر العربي ، وتنشر مجلة « سيدفيتسا » ترجمة غير حرفية لبعض القصص العربية وبعض الأشكال الشعبية العربية والتركية^(١٥٧) . وكانت الترجمة تتم من جميع اللغات الأجنبية الهامة تقريبا . وفي بعض الأحيان كانت توجد صور لبعض المناطق أو الشخصيات العربية^(١٥٨)

ومن الأمور المتناقضة ان الكتاب الرومانسيين اليوغوسلاف كانوا يعشقون الشعر الاسلامي اليوغسلافي أي الشعر الذي كتبه للمسلمون اليوغوسلاف بينما كانوا قبل ذلك يكرهون الأتراك ويمتليء قلوبهم باليقين تجاههم^(١٥٩) . وتفسير هذه الظاهرة ان الرومانسيين الصرب في بحثهم عن قواعد التسلوب في الادب الألماني الرومانسي في ذلك الحين - الذي كان مفعيا أكثر من أي ادب اخر بليل نحو الشرق والتعاطف معه - تحمسوا هم أيضا للشرق ونسوا بعضهم وكرهتهم للاتراك . ولا ننسى ان الادب الرومانسي الفرنسي فيكتور هيجو رسم لاستبايرل التركية صورة كادتبديري يا باريس جمالا ولفتة^(١٦٠) .

وينبغي ان نذكر انه كان في يوغسلافيا خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر اهتمام خاص باللغة الألمانية وقراءة مؤلفات الكتاب الألمان . فالمجلات الأدبية الصربية تنشر عن طريق الترجمة من الألمانية كثيرا

يؤثرون على شكل الملامح الثقافية لليوغسلاف خلال هذه الفترة وتأثيرهم أقوى من تأثير الفرنسيين والانجليز والروس والوطنيين اليوغسلاف - اسوة بالألمان - يصرون على ايقاظ روح الشعب الذي يجدون منابعها في ماضيه ، ويركزون كذلك على المنصر الفولكلوري والقومي التاريخي . وهكذا اخذ اليوغسلاف يعرفون قيمتهم الذاتية الحقيقية تحت تأثير الألمان ، فالصحف الألمانية في فيينا هي أول صحف تكتب عن الأدباء اليوغسلاف حتى قبل الصحف اليوغسلافية نفسها وتنشر ترجمة القصائد الشعبية اليوغسلافية .

وهناك بعض الكتاب الأوربيين كتبوا بشعبية كبيرة عن الشرق باعتباره بلاد الخيال والاحلام ، ذلك لأن شعوب الشرق وعاداتهم وتقاليدهم - وعلى الأخص كما صوريتم لياني ألف ليلة وليلة - كانت تبدو غريبة في الطرافة ، وكانت مصدر الهام للأدباء والشعراء^(١٦١) ومعظم الأدباء المشهورين أمثال جوته وبايرون وبوشكين ولامارتين وميتسكينفيتش وغيرهم تحمسوا للشرق . في عصر الرومانسية ومن اقوال فريدريش شليجل واضح نظريات الرومانسية الألمانية انه « يجب علينا ان نبحث في الشرق عن أسس المواد والصور الرومانسية » . ووقع الرومانسيون بطبيعة الشرق الجميلة ومناظره المحيية وشمسها الوضاعة المشرقة ، وكان فلويريل يلذوب شوقا للشرق ليبحث فيه عن صور^(١٦٢) . أما في يوغسلافيا فان الاهتمام بالشرق كان علاوة على هذه الأمور مدفوعا بظروف محلية^(١٦٣) .

ونظرة واحدة الى المجالات الأدبية في يوغسلافيا تبين

(١٥٤) د . محمد طيمي حلال ، « الرومانسية » ، ص ٦٣ .

(١٥٥) المصدر السابق ، ص ٦٥ .

(١٥٦) يولان سكرليش ، « الغريب وأبيه » ، ص ٣٠١ .

(١٥٧) يولان سكرليش ، « يعقوب إيجيتوفيتش » ، بلغراد ١٩٢٢ ، ص ٦٦ .

(١٥٨) على سبيل المثال تنشر صحيفة « شومانيتكا » في عدد ٣٥ لعام ١٨٥٢ ، ص ١٢٧ صورة تظهر على بر التيل ، وتنشر مجلة « فيغور » في عدد ٣٠ لعام ١٨٦٢ ، ص ٢٢٩ - ٢٤٠ صورة لكساد أحد الأعراب في الصحراء ، ومجلة « فيتس » في عدد ٣٥ لعام ١٨٨٢ ص ٥٦٦ منظرًا للتل عند الغسق ، وفي جملة ٤٦ ، ص ٦٣٣ ، صورة للموصل بالعراق .

(١٥٩) يولان سكرليش ، « الغريب وأبيه » ، ص ١٥٤ .

(١٦٠) د . محمد طيمي حلال ، « الرومانسية » ، ص ٦٦ .

العصر التاريخي بمبادئه وتقاليده ومبادئه ومقوماته المختلفة . وقد اجتهد في احياء معالم العصور مع الاستمالة بخياله في ملء الفجوات الزمنية مستعينا بالمعلومات التاريخية الواسعة . وقد تأثر الأدب اليوغسلافي تأثراً كبيراً بهذا الاتجاه الرومانسي ، واكبر دليل هو ما بين ايدينا الآن من عرض للقصص التاريخية التي كتبها الادباء اليوغسلاف واعطوا فيها للعرب أدواراً رئيسية . وهناك من يعتقد ان الاهتمام بالموضوعات التاريخية في الادب اليوغسلافي له جذور أعمق من ذلك وانسه لا يمكن قصره على التأثيرات الخارجية فحسب^(١٦٦) .

٤. تأثير الأدب المجري :

كان التأثير المجري قوياً في الآونة التي نتحدث عنها ، ذلك لأن اليوغسلاف وهم يعيشون بين المجر وبلغاريا والعلم في المدارس والجامعات المجرية كانوا يتخلون المجر أسوةً وبغزوياً يحتلون به في حياتهم الخاصة والعامة وعلى الأخص في حركاتهم القومية والسياسية . وكان للتجديد السياسي والأدبي في المجر في حوالي عام ١٨٢٥ صدى كبير بين اليوغسلاف أيضاً ، وتأسياً بالمجر أخذ اليوغسلاف يصيغون حياتهم وادبهم بالصيغة القومية يؤسسون المؤسسات الأدبية والفنية . والكتاب اليوغسلاف الرومانسيون يتعرفون على الأدب المجري المزدهر في الفترة من عام ١٨٥٠ وحتى عام ١٨٦٠ م . ويحسب الشباب المجري واليوغسلافي الموجود في بودابست لقصائد الشاعر الثوري القومي الاجتماعي المجري شاندور بيتف . وبوجه عام تتم ترجمة أعمال الأدباء والشعراء المجريين الساعين إلى الحرية والاستقلال ويؤثرون تأثيراً كبيراً على الشعراء اليوغسلاف في الستينيات من هذا القرن^(١٦٧) .

من مؤلفات الشعوب الأخرى ، ومنها على سبيل المثال ترجمة مؤلفات بايرون وشكسبير وبيترستوف ودفوا وفولتير ولاسج وبلتشكي وبوشكين ولامارتين وغيرهم . وتصبح المراجع والكتب الألمانية مصادر لدراسة تاريخ الأدب . وأول كتاب لتاريخ الأدب الصربي كتبه مؤلفه شانفريك في عام ١٨٢٦ باللغة الألمانية ، وهناك كذلك كتب أخرى عن اليوغسلاف باللغة الألمانية . وهناك بعض الأدباء اليوغسلاف الذين ينشرون مؤلفاتهم باللغة الألمانية .

وهذا ناتج عن تعلم معظم المثقفين اليوغسلاف في ألمانيا ، فمنذ المهد واليوغسلاف يعرفون لغتين : لغة وطنهم واللغة الألمانية . وهم يدرسون الأدب الألماني في المدارس المتوسطة والعليا الجامعية . وفي المكتبات الشخصية نجد في الأغلب العدد الأكبر من الكتب والمجلات باللغة الألمانية . واليوغسلاف يقرأون مؤلفات الأدباء الألمان في أصولها وترجمون بعضها . وبعض الكتب يماكون المؤلفات الألمانية ، وبعض آخر يترجم الأعمال الألمانية ويشتري عليها الطلاب اليوغسلافي أي يماجلها ويصورها ويكتبها لاحتياجات القراء ودون تقيد بالأصل ، وفي أغلب الأحيان يفعل ذلك دون أن يذكر اسم المؤلف الأصلي .

والمعروف ان الأدب الرومانسي انصرف إلى احياء العصور الوسطى في القصص التاريخية وفي عنايته يبحث ماضي الأمة وتاريخها في مؤلفاته . وبعد الترسكوت رائد القصص التاريخية وسن لن بعده أصولاً ظلت هي النجمة دون تغيير في مختلف الآداب الأوروبية^(١٦٨) ، كان يختار أبطاله من الماضي البعيد ، وخاصة من أبطال العصور الوسطى ، ويجعل للشخصيات المكان الثاني في قصصه كتلا يتقيد بحقائق التاريخ ، ويجتهد في احياء

(١٦٦) المصدر السابق ، ص ١٢٧ .

(١٦٧) ميودراج برونيتش ، تاريخ الأدب الصربي ، ص ٢٩ .

(١٦٨) يولان سكرتش ، الرومانسية الغربية ، بلغراد ١٩٦٢ ، ص ٣٦ .

معرفة اللغات الأجنبية :

وقد لاحظنا أن عددا كبيرا من الأدباء الذين يكررون ذكر العربي في مؤلفاتهم ويمنحونه الأدوار الرئيسية في أعمالهم يجهلون بعضا من اللغات الأجنبية وعمل الأخص اللغات الألمانية والعربية والتركية والمجرية وغيرها . وليس من اللازم أن ندلل هنا على أهمية معرفة اللغات الأجنبية وعلى التأثير الذي يمكن أن يكون لهذه المعرفة على الأدباء اليوغسلاف وعلى أهمية هذا كله بالنسبة لظهور شخصية العربي في الأدب الروائي باللغة الصربوكرواتية . وقد دللنا على معرض حديثنا على اللغات الأجنبية التي يعرفها كل كاتب .

للتشبيه :

ثم إن هناك بعض الأدباء اليوغسلاف الذين ذكروا العربي في مؤلفاتهم من أجل التشبيه أي لكي يوضحوا فكرتهم بأفضل أسلوب ممكن وبأصدق ما يمكن ويشكل أكثر واقعية . وعلى سبيل المثال فإن الأديب اليوغانوف لم يذكر العربي مصادفة في تشبيهه : « يقول العربي إنها واحة ضئيلة للغاية »^(١٦٤) ، لأنه أراد أن يكون واقعا وصادقا في تعبيره ، فاستخدم هذا التشبيه للعربي . ومن جهة أخرى لا يمكن أن يكون هناك شك في أن معرفة الكاتب بالعرب على مستوى عال ، الأمر الذي مكّنه من أن يصل إلى مثل هذا التشبيه والمجاز الصادق . ومثال آخر يؤكد أن المثال السابق ليس وسيدا على الإطلاق ، وفي هذا المثال^(١٦٥) أراد الكاتب « يترو فيتش برالا » أن يصور كيف أن الشاب يوفو قد تغلب في بحثه عن الفتاة سميليا طوال حياته إلى أن وجدها في النهاية بالضبط كما يتغلب العربي في بحثه عن واحة إلى أن يجدها في النهاية . ولأنك إن هذا الكاتب كذلك أراد أن يعبر بشكل أكثر صداقا وواقعية فاستخدم هذا التشبيه التصويري .

الخلط بين العرب والأتراك :

أوردنا أن العرب كانوا على نحو ما ممثلين للسلطة التركية خلال سيطرتها على الأراضي اليوغسلافية ، وعند ذكر الأتراك يتعرض المؤلفون اليوغسلاف إلى ذكر العرب أيضا والأمور المتعلقة بحضارتهم المادية والروحية . وكثيرا ما كان يحدث خلط بين العرب والأتراك على أساس أن دينهم المشترك هو الإسلام ، وحينما يوجه المؤلف كلمات حادة إلى الإسلام فإنه يقصد بذلك الأتراك لا العرب ، والدليل على ذلك ما ذكر من أنه لولا العصب لما سيطر الأتراك ولما كرسوا امبراطوريتهم .

وهذه الأسباب كلها ترتبط مع بعضها وتتشابك بحيث يصبح في كثير من الأحيان من العسير للغاية أن نفصل سببا عن آخر .

الخاتمة :

وبناء على هذه الدراسة يمكننا - خلاصة على ما سبق ذكره - أن نفترض آراء اليوغسلاف في العرب . وقد لاحظنا أن اليوغسلاف يعرفون العرب معرفة جيدة وواقعية أقرب إلى الحقيقة وهو أمر طبيعي للغاية ومنطقي إذا أخذنا في الاعتبار الأسباب التي عدهاها وفرحناها لظهور شخصية البطل العربي في الأدب الروائي باللغة الصربوكرواتية . وقد نوهنا إلى أن هذه المعرفة لم تكن صحيحة على الدوام واشترنا إلى بعض الأوهام والأخطاء في الحكم على العرب وهي أساسا ناتجة عن الترجمات من اللغات الأخرى وعلى الأخص ترجمات بعض المستشرقين من العرب ، وناتجة كذلك عن أوهام الأدب الشعبي الذي اختلط فيه الواقع بخيال والحقيقة بالأسطورة . وكان الأدب الشعبي برومانسيته في كثير من الأحيان يصدر أحكامه الخاصة على الأحداث

(١٦٤) مجلة ليناكس ١٨٩٥ ، ص ١٠٥ .

(١٦٥) مجلة « حورية البوسنة » ١٩٠٠ ، ص ٣٦٠ .

ويضيف مضافته على الحقائق التاريخية، وبذلك يخلق نموذجاً الخاص به للتاريخ الذي يعتمد كثيراً جداً عن الواقع :

ويصرف النظر عن قبولنا أو عدم قبولنا لهذا التعرف اليوغسلافي على العرب وعن نقدنا لأراء اليوغسلاف عن العرب التي تضمنتها النصوص الروائية التي بين ايدينا ، فإن الحقيقة الجمهورية والحاسمة انه توجد اماننا كمية كبيرة من المعلومات عن العرب كتبها يوغسلاف .

واذا كان الأدب يتحدث بلغته الذاتية وبأساليب متباينة عن الناس وعن الحياة، فإن المعلومات اليوغسلافية المذكورة عن العرب في الادب الروائي اليوغسلافي هي حديث وحوار فريد عن كل ما رآه اليوغسلاف وسمعوه وجريوه في اتصالهم بالعرب خلال التاريخ . ومن الطبيعي ان هذه المعلومات كلها ليست حقائق علمية مؤكدة نستطيع ان نطبق عليها أساليب البحث العلمي الدقيقة . ولكنها بالتأكيد معلومات تتحدث بوضوح عن العلاقات الدولية وعن كثير من خصائص عصر وزمن .



لعمل أول ما يلتفت النظر في دراسة موضوع الأحوال الداخلية في سلطنة الماليك ، في عهد الأشرف شعبان^(١) ، هو أن هذا السلطان تولى الحكم وعصره عشر سنين^(٢) أي أنه كان طفلاً محدود التفكير ضيق الإدراك مما يجعلنا نتساءل عن الأسباب التي أوصلته إلى كرمي السلطة خلقاً للسلطان المزعول صلاح الدين بن محمد بن المقفر حاجي بن الناصر محمد بن تلاقون . وعلى ذلك ، فلتتناوّد أن نعرف لماذا باترى هُزل السلطان صلاح الدين محمد ؟ يقول أبو الحسن : « أشيع في هذه السنة (٧٦٢هـ / ١٣٦٠م) من السلطان الملك المنصور محمد أمور شتعة نفّرت قلوب الأمراء منه ، واتفقوا على خلعهم من السلطة ، فخلع في يوم الثلاثاء خامس عشر شعبان سنة أربع وستين وسبع مائة ، وتسلم بنده ابن عمه الملك الأشرف شعبان بن حسين ، وحسين^(٣) المذكور لم يتسلطن غير أنه كان لقب بالأجد من غير سلطنة . واخلوا الملك المنصور عمدا وحسبه داخل الدور السلطانية بقلمة الجليل . وكانت مدة سلطته ستين وثلاثة أشهر وستة أيام ، وليس له فيها من السلطة إلا مجرد الاسم فقط . والأتابك بليغا^(٤) هو المنصرف في سائر أمور المملكة^(٥) » .

ويضيف أبو الحسن قائلا : « وسبب خلعهم والذي أشيع عنه أنه بلغ الأتابك بليغا أنه كان يدخل بين نساء الأمراء ويخرج معهم ، وأنه كان يعمل مكاناً للجوراي ويكرهن ويجري هو وراء الجمار بالحوش السلطاني ، وأنه كان يأخذ زنيلا فيه كعك ويدخل بين النساء ويبيع ذلك الكعك عليهن على سبيل المجاعة . وأنه يفسق في الناس ويقتل بالصلوات ، وأنه يجلس على كرسي الملك جنباً وأنبياء غير ذلك ، فاتفق الأمراء عند ذلك على خلعهم ، فخلعوه وهم بليغا العمري الحاصكي وطغيخ الطويل^(٦) وأرغون الأسعوي وأرغون الأشرفي وطغيخ الملاي والنجاي اليوسفي^(٧) وأروس المحمدي وطيدمر البالي وقطلوبغا المنصور وغيرهم من المقمن والطلبخانات والعشروات^(٨) » .

الأحوال الداخلية في سلطنة الأشرف شعبان بن حسين بن محمد بن تلاقون

٧٦٤ - ٧٧٨ هـ - ١٣٦٢ - ١٣٧٦ م

حياة ناصر الحجبي

قسم التاريخ - جامعة الكويت

(١) النظر ترجمه ، القدر ، ج ٢ ، ص ٢٨٨ .

(٢) السلوك ، ج ٣ ، ص ٨٢ ، القرن ، دافع ، ج ١ ، ص ٢١٩ .

(٣) النظر ترجمه ، القدر ، ج ٢ ، ص ١٥٩ - ١٥٨ .

(٤) النظر ترجمه ، القدر ، ج ٥ ، ص ٢١٣ - ٢١٥ .

(٥) التاج ، ج ١١ ، ص ١٠٠ .

(٦) النظر ترجمه ، القدر ، ج ٢ ، ص ٣٣٨ .

(٧) النظر ترجمه ، القدر ، ج ١ ، ص ٤٤٣ .

(٨) التاج ، ج ١١ ، ص ٩٠ ، النظر كذلك دافع ، ج ١ ، ص ٢١٩ .

يتم بعد ذلك جلوس السلطان المُنقذ عليه على كرسي الحكم ، وتكمل الصورة بلبس عملة السلطنة واللقب السلطاني ثم الحلف له تصديقا لمياهه الخليفة العباسي بهلاله وأهليته لكرسي السلطنة وستورليها ، وتبلى مسألة إبلاغ ذلك الخبر في شخصية السلطان إلى الأقاليم والأعمال أماً حادياً ومقبولاً ومتوقفاً حدوده بين القبة والقبة خلال تلك الحقبة من تاريخ سلطنة المماليك . وعلى ذلك يكون الأمراء المماليك الأوليغاركية المحور الرئيسي للحركة لما يجري من حركات هتلفة على مسرح السياسة في البلاط السلطاني ، في حين تكون بقية الأطراف فروعا ثانوية ليس لها من الفعلية قيد أمثلة .

بالإضافة إلى كل ذلك يظهر لنا واضحا ذلك الدور المهم الذي قام به يلغا في خلخلة التصور وحد وتولية الأشراف شعبان بما بذل على قوة الصلاحيات التي كان يتمتع بها حينذاك ، ويعود أمر يلغا إلى عهد السلطان الناصر حسن بن محمد بن قلاوون^(٩) عندما « اشترى ملوكا يدهى يلغا ، ففريه وأذناه وأغاض عليه احسانه ، وأكرم مفواه ولبقه بالمخاضكي ، فكير شا بهلغا وعظم حاله »^(١٠) . ولكن قبل أن نستطرد في معالجة الأحوال الداخلية والعلاقات الخارجية في عهد الأشراف شعبان - ربما - يجوز أن نعرف شيئا عن شخصية هذا السلطان بقول المقرئ :

« مولده في سنة أربع وخمسين ، ومدة سلطته أربع عشرة سنة وشهران وخمسة عشر يوما . وعمره أربع وعشرون سنة . وكان ليثا يحب أهل الخير ويقتل عندما يحسن له من فعل الخير إلا أنه كان يحب جمع المال وتفرغته . جده في أيام دولته تفرقة الآتية الخير بالقرض الزركشي في كل سنة على الأمراء ، مع ركبهم الحبل وقت ليس الآتية المذكورة بالسروج الذهب ، والكتايش الزركشي ، فكان يعم بذلك السوف الأمراء والمطبخانة والمشارت والمساكن الحاصكية ، على قدر تربيهم . ولم يتقدم ملك لفعل ذلك . وكانت أيامه في هلود وسكون ، وأبطل مكين شينين كان يتحصل منها مال عظيم ، فبطلان من بعده ، ولم يكن فيه أذى ولا نكير ، بل يرفع يديه ويسأل الله تعالى أن يجرب ديار من يريده بالناس سودا . بالجملة فكان إلى التشبه بالنساء أبطل منه إلى التشبه بالرجال ، وترك من الأولاد سبعة ذكور : أمير علي ، وأمير حاجي ، وكلاهما

ومن لم يمكننا أن نستنتج حدة من الملاحظات حول طبيعة الحال في البلاط السلطاني حينذاك ، فنجد أولاً تسلط كبار الأمراء على صلاحيات السلطان الحاكم اسما ، والتفرد بإدارة شؤون الدولة دون الرجوع إليه . وثانيا حرص كبار الأمراء المماليك على تعيين سلطان قتل لا يتجاوز العاشرة من العمر حتى يتمكنوا من التصرف في شؤون الدولة دون معارضة أو تدخل منه . ثالثا استمرار هؤلاء الأمراء الأوليغاركية الملوكية على تعيين سلطان من البيت القلاووني على الرغم من أنه كان يوسعهم تعيين لهم سلطنة ، ولعل ذلك يعود إلى وفائهم في وجود سلطان شرعي من بيت حاكم معروف لسد أفواه الناس من الكلام ، بالإضافة إلى أن وجود السلطان الطفل حل كرسي السلطنة يتيح لهم جميعا فرصة التمتع بصلاحيات الحكم وامتيازات السلطة ، في حين أن وصول أمير قوي إلى كرسي الحكم يقيد إلى حد كبير ما يتمتع به الآخرون من سلطات في خلف للجلالات . رابعا حرص أولئك الأمراء الأقوياء على أن يكون السلطان الطفل « مصدور الصورة » حسن الأخلاق ملتزماً بأصول وقواعد الشريعة الإسلامية ليكون بذلك صفحة مشرقة فاضلة أمام الرعية ولا يثير بالتالي سخط الملأه ، أو مفت رجال الدين ، أو تفسد الرعية بمختلف طبقاتها ، مما يتيح لهم فرصة مناسبة لحكم البلاد كغيرها يشاؤون دون الالتفات لعضها جانبية ناتجة عن سوء أخلاق السلطان أو إصرار على سلوكه .

وفي ظل هذه المظالم والشروط التي كان الأمراء الأوليغاركية يهرجوها تم وصول السلطان الأشراف شعبان إلى حكم سلطنة المماليك .

وعلى ذلك يتبين لنا أهمية الدور الذي يلعبه الأمراء الأوليغاركية في خلخلة سلطان وتعيين آخر بما يتفق مع مصالحهم العامة والخاصة ، كما أن سر زمام الأمور متمثل بالافاق على شخص دون آخر دون يملك أي اعتبار لشدة الخليفة العباسي أو رأي القضاة الأربعة ، فسعى ثم الاتصال بينهم حصل الخلخ ، وتم تعيين الشخصية المناسبة ، وبقى استءاده الخليفة العباسي وقضاة القضاء الأربعة لغرض إضفاء طابع الشرعية على الحاكم الجديد مما يسر للأمراء الأوليغاركية إدارة شؤهم كغيرهم دون معارضة أي فئة في المجتمع .

وعلى ذلك يكون حضور الخليفة والقضاة الأربعة من أجل القرار خلق السلطان السابق ، وتأكيده شرعية السلطان الجديد ، حيث

(٩) القلار فرجه ، القدر ، ج ٢ ، ص ١٢٤ ، ١٢٥ .

(١٠) القلار ، ج ٤ ، ص ١٦٨ .

وفتح الأسواق ، ففتحت . وقد كان الناس قد أصبحوا على خوف شديد لما مر بهم في الليل^(١٠٩) .

وعلى ذلك بدأت تظهر إلى الوجود تلك العلاقة الودية بين الأشراف شعبان ورحبته من عملة الناس ، فأسس أهم يحدون فيه التصير الرحيم لحرفهم من أجل خلاصهم مما يعانونه من ظلم وقهر ، في حين أنهم بدأوا يدركون أن في القلعة سلطاناً يتعاضد مع قضائهم ويفتح صدره لشكاوتهم ضد كبار الولاة وأصحاب السلطة .

وتشير المصادر التاريخية المعاصرة إلى تلك الرابطة الوثيقة التي كانت قلعة بين الأشراف شعبان والعمامة حيث كان يكنى لهم الرد والرحمة ، ولعل ذلك يعود إلى يوم وقوف العمامة إلى جانبته في حركة الممالك الأجلاب ، لما تفصلوا أئني السلطان مع الأمير أسندمر الحصاصكي ، فاستجابت العوام وقتلوا الأجلاب ، وجعلوهم مطرئين على التراب ، وهم خلف بدير عتات ، فعلم بذلك أهم نصاري يحدون عن الأمان ، فصارت العوام عند السلطان في أمر مكانة بهمهم لنصرهم له ، وأقامهم معه ، فصاروا له جيشاً ملتزمين الطاعات من غير جورماك ولا إقطاعات^(١١٠) .

ويصف النوري الإسكندراني على هذه الواقعة بقوله :
فلما نصحت العوام للسلطان ، ألقى الله في قلبه حجة لم يفي جميع البلدان ، حتى أهل الإسكندرية تالوا من إحسانه أن نشر عليهم الذهب فالتفتوه وكل منهم بما حصل له منه أعله رغب ، تال به السب ، وتركهم يطرحون بابواً ملكه ، وشاهدون جمال حسنه ، من غير طرد ولا منع^(١١١) . وعلى ذلك يمكن القول أن الأحوال السياسية التي حالها منها الأشراف شعبان كان لها بالغ الأثر في تلك المشاعر الطيبة التي كان يعيها لرعايته من العمامة ، ولي نفس الوقت كانت تلك الأوضاع سبباً رئيسياً في تعاضد العمامة معه وبهجته أبناء واشفاقهم عليه .
ومع ذلك فإن بعض المؤرخين للعصر المملوكي كانوا يرون أن

سلطان ، وقاسيا ، ومحمداً وإسماعيل ، وأبا بكر ، وأحمد وسبع بنت^(١١٢) .

وبعد مرور قرابة عام على تولي الأشراف شعبان السلطنة ، بدأت سلسلة من الاتهامات الأضرية ، فيشير القرطبي ضمن حوادث سنة ١٣٦٥هـ / ١٣٦٣م إلى أن السلطان قد أتهم على جماعة بأسرابت طيلخانة ، منهم عمرقا المعري ، ومحمد بن قماري أمير شكار ، والطنبغا الحسدي ، وأقبا الصفاي . وأنتم على كسل من إمرأهم بن الأمير صرغتمش وطشتمش الصاي^(١١٣) طليهار من عوض ، وأرويس بلغ الحطلي ، ورجب بن كلفت أتركمالي بإمرة عشرة^(١١٤) كما يذكر مع بداية حوادث السنة التالية أنه :

« أنتم على كل من قتلونا البلباني ، وكسبنا الحصري ، وجنغرا السبي ، وأقبا الجعفري بأمر طيلخانة ، وعلى كل من سلجوك الرومي ، وأرويس السبي ، وستقر السبي بإمرة عشرة^(١١٥) .

فلذا كنا نعرف أنه الأشراف شعبان كان لا يندى الثانية عشرة من الحمر فلأبد لنا أن نذكر أنه أصبح يهد الاتهامات الأضرية على هؤلاء الممالك برسم من أولئك الذين كانوا يحكمون السلطنة بصلاحيات مطلقة وإماليات غير محدودة .

ولكن الطفل بكر ويوسع اندراكه ويتصق في التفكير والنظر فيما يدور حوله من حوادث ووقائع لاغير له بمنها ، وبالتالي يبدأ يأمل في العمل على أن يكون له رأي في مسار الأحوال في دولته . ويظهر أن العمامة التي كانت تقاسي الأمرين على يد كبار الأمراء الممالك الأريجاركية قد أدركت تلك السلطة القوية التي ابتدا الأشراف شعبان يمارسها في علاقته مع الأمراء وخاصة قطمعت في عطفه وشفتته وحمايته من أي وظلم كبار الأداريين في البلاد . وأصبح الناس وقد بلغ السلطان أخبر ، فشق عليه وأكثره وقال للأمير بكتر المومي ، وجعلت بالأضحية على الناس ، وتوصده فرجف لؤده وتحب قلبه ، ولما فلم يزل صاحب فرائش حتى مات . وأمر السلطان بالأفراج عن للسجوزين ، ونودي بالأمان ،

(١١١) السلوك ، ج ٣ ، ص ٢٨٦ ، ٢٨٧ ، ٢٨٨ ، ٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٢٩١ ، ٢٩٢ ، ٢٩٣ ، ٢٩٤ ، ٢٩٥ ، ٢٩٦ ، ٢٩٧ ، ٢٩٨ ، ٢٩٩ ، ٣٠٠ .

(١١٢) انظر ترجمه ، ج ٢ ، ص ٣١ .

(١١٣) سلوك ، ج ٣ ، ص ٩٠ - ٩١ .

(١١٤) السلوك ، ج ٣ ، ص ٩٧ .

(١١٥) السلوك ، ج ٣ ، ص ١٣٣ - ١٣٤ ، انظر كذلك بديع ، ج ١ ، ص ٢٢٦ .

(١١٦) الأقام ، ج ٦ ، ص ١٨ .

(١١٧) الأقام ، ج ٦ ، ص ١٩ .

زمام الأمور في السلطة مازال في قبضة كبار الأمراء المماليك مغربي
أحوال البلاد فيقول ابن حجر :

حرصوا على أن يقتدي بمن سبقه من سلاطين أسرة بني قلاوون ،
فاجتهد في عمارة مدرسته حيث يقول ابن حجر :

و في صفر (٧٧٧هـ / ١٣٧٥م) ابتدئ في عمارة المدرسة
الأشرفية تحت قلعة الجبل ، وهدم من جوارها عدة أماكن للناس ،
منها بيت كبير لستر الجمالي ونقل إليها عمودان عظيمان وجدوا في
بيت غوند الحجازية حمة السلطان برجة العيد ، وكان المشد عليها
إيتك (٧٠٠) ويؤكد المقرئ في ذلك بقوله أنه :

و في نصف صفر (٧٧٧هـ / ١٣٧٥م) ابتدأ السلطان بعمارة
مدرسة بالقصر تجاه الطبخانة من قلعة الجبل ، وشرع في هدم بيت
الأمير ستر الجمالي ، ليضيقه إليها .

وفي هذا الشهر وجد في قصر الحجازية من القاهرة - حيث كان
باب الزمرد أحد أبواب القصر القاطمي - تجاه رجة باب العيد
عمودان عظيمان إلى الغاية تحت ردم ، فرسم بسحبها إلى عمارة
السلطان (٧٦) .

كذلك كانت :

« غوند بركة أم السلطان الملك الأشرف شعبان وكانت ذات
حسن وجمال وذات دين وشير ولها بر ومعروف وهي التي أنشأت
المدرسة التي بالتيانة ورويت بها دورسا للمذاهب الأربعة وحضورا في
كل يوم للصوفية ومكتبا للأيتام وعرضا وسبيلا ولها مائت دنت بهذه
المدرسة (٧٦) .

كما عني معاصرو هذا العهد بإنشاء المدارس بكثرة حتى ازداد
علمها إلى درجة كبيرة (٧٧) . وهذا يدل على وفرة الأموال في أيدي
كبار رجالات الدولة ، إلى جانب ازدياد المطرد في أعداد طلاب
العلم والمعرفة .

ويبدو في أواخر حياة الأشرف شعبان أنه أخذ يؤسس لنسبه

وحل ذلك فان كلاً من الخليفة والسلطان كان دون سلطة أو قوة
تذكر ، في حين حظي الأمراء الأيوبيون بامتيازات مختلفة السلطات
والصلاحيات غير المحدودة ، وبما أن هؤلاء أصحاب الكلمة في
الدولة كانوا متشغلين بمصالحهم الخاصة ومتابعهم المادية (٧٨) فإن
الكثير من الأمور غير العادية والمفيدة كانت تقع في أثناء هذه
السنوات من حكم الأشرف شعبان حيث يذكر في عام ٧٧٤هـ /
١٣٧٢م « أنشد الحر بواقي الأعيان على الحاج الشامي وهم
رجوع ، فمات منهم جماعة عطشا ، وكان السبب في ذلك أن أمير
الحاج في الذهاب ضرب للمركبين على القسائي بسبب قلة ما يما من
الماء لما عاد الحاج لم يجدوا أوتك علوما في القسائي أصحلا حلقا
منهم على ما صنع بهم ، وكان في ظن الحاج أنهم يخون القسائي
ملأى ففقدوا معتمدن على ذلك حتى أن بعضهم سقي بنية ما معه
من الماء للجمال ، ولما وصلوا فلم يجدوا الماء اقتتلوا على البئر فمات
منهم خلق كثير من الزحمة ومن العطش ، ومات بعد ذلك منهم أكثر
من قتل بالعطش (٧٩) .

ولا شك أن وقوع هذه الحادثة يدل على أن نواب الأقاليم
للمملوكية كانوا لا يملكون الاهتمام الكافي لصلحة الأقليم وسكانه ،
كما توقع بهؤلاء الكثير من الأمور البغيضة في سلطة تميزت بالفناء
الفاسد في عزائنها مع انتعاش أسواقها التجارية وازدهار علاقاتها
الاقتصادية مع الدول الغربية والبيضاء .

وبالإضافة إلى صفر من الأشرف شعبان ، وانفراد كبار الأمراء
المماليك الأيوبيون بالسلطة والحكم ، وانتشال نواب الأقاليم
بمناقصهم الشخصية ، فإن مجلس الأشرف شعبان كان يفتقر إلى أهل
العلم والتبحر الطبية حيث اتصف أصحاب المنصورة بالمجهل
وسوء النصح ، ولكن رغم كل ذلك فإن الأشرف شعبان كان

(١٨) السيرة ، ج ٣ ، ص ٢٠٤ .

(١٩) تيه ، ج ١ ، ص ٣٢٠ .

(٢٠) تيه ، ج ١ ، ص ١٥٤ .

(٢١) السيرة ، ج ٣ ، ص ٢٠٤ ، انظر كذلك ، التبرج ، ج ١١ ، ص ٦٤ .

(٢٢) بلقيع ، ج ١ ، ص ٢٣٢ - ٢٣٨ .

(٢٣) تيه ، ج ١ ، ص ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٤٠ ، بلقيع ، ج ١ ، ص ٢٣٢ .

القاهرة، ورتبه السلطان، فبعد القلعة في يوم الأحد خلس عشرينه، فلما تحقق بلغنا الخبر مدى النيل من ساحة إلى البر الغربي، وتلاحق به أصحابه وتوجه بالقاهرة: من تلحرم من الاجتاد خذا حل دمه وماله فخرج الناس أفواجا، وسار السلطان بمسكوكه إلى الطرقة، وقدم مسكرا عليه الأمير قطوبغا المنتصوري والأمير كوكنداي، والأمير خليل بن قروصون ليذكروا أهل النفر، ففقدوا تعالي في ذلك أن أهل النفر كان قد بلغهم منذ أشهر اهتمام الفرنج بغزوهم فكتب بذلك الأمير صلاح الدين خليل بن هرام - مدعى النفر - إلى السلطان والأمير يلبشا، فلم يكن من الدولة اهتمام بأمرهم فلما توجه ابن هرام إلى الحج، واستناب عنه في النفر الأمير جنزرا - أحد أمراء العشرات - وجاءه أوران فقدم مرابك التباقة من الفرنج، لاح للتأطير عدة قلاع في البحر ثم قدم في بكرة يوم الأربعاء حاكي عشرينه إلى الميناء، ثمانية أفرية، وثلاثا من الأفرية والقرار ما بلغت عددا ما بين سبعين إلى ثمانين قطعة، فأعلق للمسلمون أبواب المدينة، وركبوا الأسوار بألة الحرب، وخرجت طائفة إلى طاهر البلد وباتوا يتحارسون، وخرجوا بكرة يوم الخميس يريدون لقاء الصلوة فلم يتحرك الفرنج فلم يطول يومهم، وليلة الجمعة تقدم بكرة يوم الجمعة طواف من عربان البحيرة وغيرهم، ومضوا جهة المنار، وقد نزل من الفرنج جماعة في الليل يخيمون وكنتم في التفر التي بظاهر المدينة، فلما تكاثر جمع المسلمين من العربان، وأهل النفر، عند المنار، برز لهم غراب إلى بحر السلطنة، حتى قارب السور، فذاعله المسلمون قتلا شديدا، قتل فيه عدة من الفرنج، واستشهد جماعة من المسلمين وخرج إليهم أهل المدينة وصاروا فرقتين، فرقة مضت مع العربان نحو المنار وفرقة وقفت لتقاتل الفرنج بالغراب، وخرجت الباعة والصبيان وصاروا في خو، وليس لهم أكثر من بالعدو فطرب الفرنج عند ذلك نفيرهم، فخرج الكمين وحملوا على المسلمين حلة منكبة، ودسى الفرنج من المراكب بالسهم فاشبهوا للمسلمين، وركب الفرنج أقيمتهم بالسيف، ونزل بقتلهم إلى البر فملكوه. بنير منع، وقدموا مراكبهم إلى الأسوار فاستشهد خلق كثير من المسلمين. وهلك منهم في الازدحام عند حدود باب المدينة جماعة. وعملت الأسوار من الحيلة، فغصب الفرنج سلام، وظلمو السور، وأصلوا نحو الصنعة، فحرقوا ما بها وألقوا النار فيها.

قاعدة متينة يرتكز عليها من أجل بداية عهد جديد يكون فيه صاحب الكلمة العليا في الدولة حيث يذكر القرظي أنه:

« في أشهر هذا الشهر (ربيع الآخر سنة ٧٧٨هـ/ ١٣٧٦م) استجد السلطان عدة خاصية من حاليه، وأسكنهم في بيت الأمير أنوكا (٢٤) بجوار باب الدار من القلعة، وقدم عليهم الطواشي شرف الدين خصص الأشراف وأمره أن يرفقهم بين يديه، ولا يدع أحدا معهم مجلس، فصاروا مضطربة منهم الأمير بشكك عبد الكريم الخاصكي (٢٥) (٢٦) ».

الا أن القدر لم يجهل الأشراف شيئا كي يناصر هذا العهد الجديد فالأمراء المالك الأوبليجاريه ما كانوا ليسمحوا له جدا لتخلصوا منه، وقد كانت مدة سلطة الملك الأشراف أربع عشرة وشهرين وعشرين يوما، ومات وعمره أربع وعشرون سنة. (٢٧)

وبعد هذه التيلة من حياة الأشراف شيئا وواقعة توليه الحكم في سلطنة الممالك لا بد لنا من الدراسة لحالات هذا العهد حتى يمكننا أن نتعرف بشكل موضوعي على علاقة الأشراف شيئا بما كان يحدث في الدولة من تغيرات ووقائع وإلى متى كانت الأوضاع الداخلية في السلطنة مرتبطة بشخص السلطان الجالس على كرسي الحكم، وبالتالي العوامل التي أثرت في مجرى الحوادث حتى أضحت هذا العهد طابعا خاصا يستحق الدراسة.



مع بداية حوادث سنة ٧٦٧هـ/ ١٣٦٥م يذكر القرظي بعض التفاصيل الخاصة بنزو القبارصة وبعض طوائف الفرنج الصليبيين لبلاد كندرية، بينا كان السلطان الأشراف شيئا والأتابك منشغلين بالصعيد خارج القاهرة، من ذلك قوله:

« وفيه سرح السلطان على الحالة إلى سرقيوس، وتوجه الأمير يلبغا الأتابك إلى الصعيد بالمباشرة. فورد الخبر في يوم السبت رابع عشرينه عنانزة القنطرة مدينة الاسكندرية، وأقيم قتلوا يوم الأربعاء حاكي عشرينه، فسرح الطائر بذلك إلى الأمير يلبشا، فتوهم أن تكون هذه مكيده يكاد بها فيلده ويدخل إلى داره خارج

(٢٤) انظر ترجمه، القدر، ج ١، ص ٤٤٧.

(٢٥) انظر ترجمه، القدر، ج ٢، ص ١٠.

(٢٦) السيلوك، ج ٣، ص ٢٦٦.

(٢٧) النجوم، ج ١١، ص ٨٢.

الاسكندرية حيث أن هذا الموضوع قد دوس أكثر من مرة على يد الباحثين من المسلمين والغربيين ، إلا أن ما يمتنا في هذا الموضوع هو علاقته بوجود الأشراف شعبان على كرسي الحكم ، أو بتبسيط آخر لماذا وقعت غزوة الاسكندرية في عهد الأشراف شعبان دون غيره من السلاطين للمالكيك ؟ لكي نعرف الإجابة على ذلك ينبغي علينا أن نطلع على الأسباب التي يمتدحها النويرى الاسكندراني ، وبالتالي حلت بطرس لوزجيان على غزو الاسكندرية^(٣٦) ، كما يشرح النويرى بالتفصيل كيفية نجاح هذه الحملة القبرصية في دخول الاسكندرية من أجل السلب والنهب والتخريب .^(٣٧) كذلك كان العامل المناجاة أثر إيجابي في حصول الفرنج على الكثير من الغنائم الثمينة والتفاسل الغالية ،^(٣٨) ولكن مع كل هذا الشر المفضل إلا أن هذا المؤرخ المعاصر لا يشير على الإطلاق إلى أى نوع من العلاقة بين وجود الأشراف شعبان على كرسي السلطة وبين وقوع هذه الحملة في هذا الوقت بالذات ، مما يجعلنا نتساءل ونحاول البحث عما يقيد هذه الظاهرة ، وما إذا كان باستطاعتنا أن نتمسك ببعض الحوادث كقيليل يهيد أى نوع من العلاقات التي يمكن أن تربط بل ونحتم لقدم هذه الحملة في هذه الفترة .

ويبدو أن وقوع الغزو الصليبي ضد الاسكندرية جعل سلطة المالكيك متخوفة دائماً من احتمال حدوث ذلك مرة أخرى^(٣٩) ، ولذا كان الأشراف شعبان دائم الاهتمام بحراسة نفري الاسكندرية ومحايط عسقية تعرضها لأي هجوم كما حدث ذلك سنة ١٧٧٢هـ / ١٣٧٠ م حينما أرسل د إلى الاسكندرية من الأمراء استنبا بن البويركى وقطليبا المنصوري والأمير المعروف بسيدى ابن عمه السلطان الملك الأشرف شعبان ، وإلى أيضاً لها أروس البشكي والأمير ابن قريمرس والأمير شرف الدين بن الأركشي والأمير اخواتبا جلب والأمير مبارك الغازي بأجدهم ومالكيهم ، فكان دخولهم الاسكندرية مستهل فنى القعدة سنة اثنين وسبعين وبسببهاة غير من بما مثل ملك الأمراء صلاح الدين خليل بن حرام وقرزاز أمير حاجيب ويكتور العلمي أمير حاجيب أيضاً بما معهم من الأجناد والمماليك إلى غير ذلك من قياد الصناعة ورملة القصاصات المصطوفة والعربان المركزة طاهر الاسكندرية وباطنيا أيضاً الألو

ومضوا إلى باب السدة ، وعلفوا الصليب عليه فأنحشر الناس إلى باب رشيد ، وأمرؤا ، وعمرؤا منه على وجوههم وتركوا المدينة مفتوحة بما فيها للفرنج ، وأخذ الأمير جنترا ما كان في بيت الملك ، وقاد معه خمسين تاجراً من تجار الفرنج كانوا مسجونين عنده ، ومضى هو وعامة الناس إلى جهة متعبور لدخل وقت الضحى من يوم الجمعة ، ملك قبرص - واسمه ريز بطرس ابن روك - وشق المدينة وهو راكب ، فاستلم الفرنج الناس بالسيف ، ونهبوا ما وجدوه من صاغت وقاطن ، وأسروا وسبوا خلائق كثيرة ، وأحرقوا عدة أماكن ، وهلك في الزحام بيناب رشيد ، مالا يلع عليه حصر ، فأعلن الفرنج بديهم ، وانضم اليهم من كان بالشر من النصارى ، ودلهم على دور الأتية فأعلنوا ما بها واستمروا كذلك يقتلون وأسروا ويسبون ، ويهبون ويغزون من ضحرة ديار الجمعة إلى بكرة ديار الأحد ، غرقوا بالسيف ، وبغزوا بالأسرى والغنائم إلى مراكزهم ، وأقاموا بها إلى يوم الخميس ثامن عشره ، ثم ألقوا وبمهم خمسة آلاف أسير فكانت إقامتهم ثمانية أيام ، وكانوا هذه طوائف ، فكان لهم من البائدة أربعة ومشروم غربا ومن الأجنبية غرباين ، ومن أهل روم عشرة أخيرة ، والفرنسيس في خمسة أخيرة ، وبقيّة الأخرية من أهل قبرص .

وكان مسيرهم عند لقدم الأمير بيلبا بن معه ، فلما قدم عليه الأمير قطولوبا المنصوري ، لم يجد معه سوى خشرين فارساً وعليه أقامة فارس ، فغضب عليه ، ووجد الأمر فأت ، فكتب بذلك إلى السلطان ، فعاد إلى القلعة ، وبعث بأبن حرام ، نائب الاسكندرية على عادته ، فأمر الأمير بيلبا بموارة من استشهد من المسلمين ورم ما أحرق ، وغضب على جنترا وعنده ، وعاد فاعمل في التأهب لغزو الفرنج ، وتبعت النصارى فقبض على جميع من بديار مصر ، وبلاد الشام وغربها من الفرنج ، وأحضر البطريرك والنصارى ، وأرسلوا بحمل أموالهم ، لتلك أسرى المسلمين من أيدي الفرنج ، وكتب بذلك إلى البلاد الشامية ، وتبعت ديارات النصارى ، التي بأعمال مصر كلها ، وأرسل سكانها بأظهار أموالهم وأدانتهم ، وعولبوا على ذلك .^(٤٠)

ولي الحقيقة نحن لا نريد أن ندخل في تفاصيل واقعة

(٣٦) السيرة ، ج٢ ، ص١٠٤ ، ١٠٧ ، نقل كذلك النويرى ، ج١٠ ، ص٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ ، ج٢ ، ص٢١٥ ، ٢١٦ .

(٣٧) الألام ، ج٢ ، ص٩٢ - ٩١ .

(٣٨) الألام ، ج٢ ، ص١٣٠ - ١٢٠ .

(٣٩) الألام ، ج٢ ، ص١٢٦ - ١٢٤ .

(٤٠) شذرات ، ج٢ ، ص٢٠٨ .

وأقيمت لهم قباه ، وقادروا في مساعدة صناع المراكب ، وكبب إلى طرابلس ، وبنوهم من بلاد الساحل بإتشاء مراكب حربية ، وجمع رجالها ، فكان عملا جليلا (٣٧) .

ويؤد أنه نتيجة لهذه الاستعدادات العسكرية الشاملة في القاهرة أن قدم الخبر بفرار جمال القرتنج من الاسكندرية من البحر ، فلم يقتدر عليهم (٣٨) .

يظهر لنا من هذه الحادثة أن الأمير يلخا كان صاحب الكلمة العليا في حقل الشؤون العسكرية والحربية بحيث أن تختلف القرارات التي تتخذ في هذا المجال كانت مقرونة براه الشخصي دون منازع ، بالإضافة لما يترتب على ذلك من مصروفات وموظفين ورتب عسكرية جليلة وقرارات حاسمة تحدد طبيعة الجهود الحربية الواجب عليها .

وبناء على دراستنا لحقيقة أحوال هذا العهد ، فإنا لا نستغرب هذه الصلاحيات العسكرية المطلقة التي تمتع بها الأتابك يلخا في حقل الشؤون الحربية ولكننا نسأل إلى أي مدى استطاع يلخا أن ينجح في القبض على زمام الأمور في هذا المجال الاستراتيجي داخل الجهاد الأخرى ؟ فنسؤل المقسوي في ضمن حدوث سنة ١٣٦٥هـ / ١٣٦٥ م :

« طلب نقيب أجناد الحركة ، وأزموه بأن لا يغفروا أسدا من أجناد الحلقة ، وهدوا ان اغفروا أحدا منهم ، فكتب كل نقيب مضافه وأحضروهم للعرض ، فلطم الأمير يلخا منهم جماعة (٣٩) .

وهذا بين أن الأمير يلخا لم يكن ذلك الشخص القوي المعبود الذي يستطيع أن يلزم نقيب الجيش بالحضرة لأوامره وتواهي ، ولذا فهم لا يتورعون عن إغفائه من تحت امرتهم من الجند ، مما يتطلب منهم بين بني يلخا كي يسموا التهديد الشخصي منه بالمقاب الشديد ما لم يبادروا إلى العمل القوي لحضور الجند وجمعهم للمعرض من أجل تصفيهم طبقا لما يتلهم مع الاحتياجات العسكرية للدولة .

ورغم كل ذلك فإن الأمير يلخا لم يفي في تكملة الاستعدادات الحربية لمحاربة القرتنج ، وبناء على ذلك :

استقر الشريف بكسر والى القاهرة في ولاية الاسكندرية حوصا

المؤلفة من أهلها والغرباء التي صارت مقبلة بها وبمهاة للحرب فيه وتكلم طبايون الجهاد في سبيل الله ، وما النصر إلا من عند الله . (٣٧) .

ترى ألا يدل هذا على أن الأشراف شعبان قد أصبح أكثر وعيا وادراكا لما يدور حوله من حركات ووقائع ؟ وإذا كان الرد بالإيجاب فلا بد لنا أن نتعامل مع مدى علاقة هذا الوعي والادراك الفكري عند الأشراف شعبان بمنزلة بعد فترة على يد كبار الأمراء للمالكي . على أية حال حتى نعرف الجواب على ذلك يجب علينا أن نؤكد بأن الخطر والقرتب قد أصبح من مسئوليات السلطة الملوكية تجاه الثغور المصرية من أجل حماية البلاد ضد غزوات الصليبيين ، مما يجعلنا نحس بشكل مؤكد أن صفحة من صفحات الجهاد الاسلامي بدأت تظهر مرة أخرى ضمن برنامج السياسة الاستراتيجية للحكم الملوكي ، ومن النتائج التي تترتب على واقعة الاسكندرية اهتمام سلطة المالكي تجهيز سفن حربية مناسبة للدفاع عن الثغور الملوكية من ناحية ، وغزو القرتنج في عقر دارهم من ناحية أخرى انطلاقا للاعتداءات الصليبية المتكررة ضد السواحل الاسلامية الأمر الذي كان يتطلب اتخاذ الإجراءات الحربية الحازمة من أجل استقرار وأمن السلطة بجميع أقاليمها السواحلية في مصر والشام ، يقول المقريزي :

« ولي هذه المدة اهتم الأمير يلخا الأتابك بعمل الشواني البحرية لغزو القرتنج بجميع من الأعشاب والحديد والآلات ما يجبل وصفه ، وشرع التجارون في عملها بجزيرة أروى المعروفة بالجزيرة الوسطى ، وتولى عملها الوزير فخر الدين ماجد بن قزوين (٣٩) لتمام في ذلك اتم قيام ، وبذلك همت ، واستخرج وسمه ، وتصدى له ليلا ونهارا ، واستقر شاد العمل الأمير علاء الدين طيحا العللى استدار الأمير يلخا ، ونظائر العمل جهاد الدين بن المقسر تقدم للعمل مائة شبي ، ما بين فراب وطريفة ، يرسم حمل الخيل ، فكان أمرا مهولا ، ولوى بالقاهرة ومصر بحضور البحارة والمناظرة ، ومن يريد الجهاد في سبيل الله ، إلى بيت الأمير يلخا الأتابك للعرض وأخذ الثقة للسفر في المراكب فلجئهم حلة من المنارة رجال البحر ، وكتب اسماءهم ، وقررت لهم الماعلم ،

(٣٧) الألام ، ج ٣ ، ص ٨٩-٨٨ .

(٣٨) نثر ترجمه ، القدر ، ج ٣ ، ص ٣١٨ .

(٣٩) السلك ، ج ٣ ، ص ١١٣ .

(٣٩) السلك ، ج ٣ ، ص ١١٦ .

(٣٩) السلك ، ج ٣ ، ص ١١٦ .

فسار السلطان بمساكنه من القلعة إلى جزيرة أروى ، وركب الخرافة ، وقد امتلأت تلك الأراضي بالناس ، فظفمت الشواطي ، ولعبت رجالها بالآلات الحربية ، كما يفعل عند لقاء العدو ، ودوت كوساتها ونضحت يوقاتها ، وأظفقت النضوط ، فكان أمرا مهولا وعتظرا جميلا ، وأمرأ حسنا لوتم^(٣٨) ومن جانب آخر :

رسم للأمير طيفا حبيب الحجاب بعرض أجناد الحلقة ، فاستدعاهم وجلس لعرشهم بجزيرة أروى حيث تعمل الشواطي الحربية ، وتشد عليهم ، وقطع منهم جماعة في عدة أيام ، حتى منهم ثلثهم^(٣٩) .

بالإضافة إلى ذلك :

« قدم الحاج محمد التازي المغربي رئيس البحر ، وقد تسلم من الشواطي التي صمها يلغا غربا كمله بالمد والآلات ، وشمته بالمقاتلة من رجال المغاربة ، وأخذ غربا آخر من الاسكندرية مكملا بالمد والرجال ، وهضى في البحر وهجم على الفرنج ، فملك منهم غربا قتل منه جماعة وأسر باليهم ، وقدم في تاسع عشرين شعبان فتلغاه من الأمراء بتجمل عظيم ، وخرج الناس إلى لقائه وسروا به ، فلما غلغل بين يدي السلطان خلق عليه ، وأتمم عليه بجميع ما أحضره من الغنائم^(٤٠) » .

ويبدو كذلك أنه من أسباب الاجتهاد في بناء السفن الحربية « أن جماعة من الفرنج صاروا يعيشون في البحر ويفطعون الطريق على التجار ، فحين هم السلطان بجريدة وأنشأ مائة غراب^(٤١) » .

حلاوة على ذلك كان الفرنج يقومون بعمليات التجسس لصالح حكوماتهم فيأتون إلى الشواطئ المصرية على هيئة تجار يحملون البضائع الغريبة لتيادها بضيائع الشرق الاسلامي ، في حين أنهم في حقيقة الأمر يتجسسون على الأوضاع الداخلية في سلطنة المماليك لمحرفة حقيقة القوة العسكرية والانقباض الاجتماعي داخل البلاد من أجل هدف خدمة أطماع دولهم في غزو سواحل السلطنة المملوكية ، وعمل ذلك يذكر للفرزي أنه :

« في خمس عشرينه (جغلي الأولى ٧٦٩ - ١٣٧٧ م) قدم الاسكندرية نحو مائة وخمسين من الفرنج في الحشب ، وذلك أنه

عن صلاح الدين خليل بن حرم ، وكانت ولاية حبيب ، فاستقر ليكثر نهاية بقتنه ألف ، وهو أول من باشرها نيابة سلطة ، وحصل منه حاجب أمير طبلخانة وإلى حرب امريه عشرة وخمس مائة فارس بالفترة^(٤٢) » .

ومن ثم ؛ فقد كان لواقعة الاسكندرية أثر كبير على التصنيف الاداري للاسكندرية من مجرد ثغر مثل دمياط إلى نيابة على رأسها نائب مثل نيابة الشام ، مما يدل على زيادة الاهتمام بها عقب ذلك الهجوم الصليبي المعروف ، وقد تبع ذلك تمييز في الكتابات الحربية اللاحقة على حاجتها ضد أي اعتداء مغربي^(٤٣) .

على أية حال يبدو أن الاستعدادات كانت قائمة على قدم وساق من أجل صدارة السفن الحربية للانطلاق لما وقع للاسكندرية حيث يذكر الفرزي معلقا على ما حدث في الاسكندرية بقوله :

« وكانت هذه الواقعة من أشنع ما مر بالاسكندرية من الحوادث ومبها انحلت أحوالها واضمح أهلها ، وقلت أسواقها ، وزالت نعمهم ، وكان الناس في القاهرة ، منذ أحوام كثيرة تجري على السنتهم جميعا ؛ في يوم الجمعة تزعج الاسكندرية ، فكان كذلك ، وصر ينخرج من الاسكندرية في وقت المنيعة ، من العريان بلاد لا يوصف^(٤٤) » .

ويضيف الفرزي قائلا :

« وفي هذا الشهر (ربيع الأول سنة ٧٦٩ هـ / ١٣٦٧ م) كملت صدارة الشواطي البحرية ، وعددا حاية قطعة ما بين غريان وطراب ، فاستعمل الأمير يلغا لها من الرجال ما يكتفيها ، وجمعهم ما بين مغارة وتراكمين وصعيدة ، ورتب لهم رؤساء وقباء ، وأتفق ليهم للعالم المقررة ، وضمن الأخيرة بالمد الحربية ، وجميع آلات السلاح ، فلما جهزت كلها غرستها الأمير يلغا على الأوامر ، فتمسك كل أمير ما خصه من الشواطي وزينها بأصلامه ، وأقام فيها الطويل والأوقاب وأترك بها عدة من مراكبه ، وقد ألبسهم آلة الحرب ، وأمرهم بالسفر فيها للفرز إذا سارت ، ثم ركب السلطان والأمير يلغا وسائر أمراء الدولة وأعيانها لرؤية الشواطي ، وقد كملت وتم أمرها ، وفيها من رجالها ، وخرج الناس من أنظار المدينة وأقرا من كل جهة في يوم السبت رابع عشرين ربيع الأول .

(٣٨) السيرة ، ج ٣ ، ص ١١٤ ، ١١٥ .

(٣٩) السيرة ، ج ٣ ، ص ١٠٨ .

(٤٠) السيرة ، ج ٣ ، ص ١١٩ ، ١٢٠ ، انظر كذلك : النجوم ، ج ١١ ، ص ٣٩٨ ، ٣٩٩ ، مشرقات ، ج ٦ ، ص ٢٠٨ .

(٤١) السيرة ، ج ٣ ، ص ١١٩ .

(٤٢) السيرة ، ج ٣ ، ص ١٥٩ ، انظر كذلك النجوم ، ج ١١ ، ص ٢٩٨ ، وبلغ ، ج ١ ، ص ٢١٧ .

(٤٣) وبلغ ، ج ١ ، ص ٢١٧ .

فلما سمعوا به رحلوا عن قلعة إيباس ثم قصدوا نحو طرابلس وكثروا ثلاثة ملوك وهم صاحب قبرص وصاحب رومس وصاحب الأستار فجاءوا في مائتي مركب حرية ، فلما جاءوا إلى طرابلس كان النائب خالياً عن المدينة فطمع الفرنج في أخذ المدينة ثم خرج إليهم بعض عسكر طرابلس فوقفوا معهم فالتكسر عسكر طرابلس ودخل الفرنج إلى المدينة وتجهزوا أسواقها وقتلوا بها جماعة مسلمين نحو ألفي إنسان فلما تسمع أهل البلاد بذلك جاءوا إلى الفرنج وحاربهم وقتلوا جماعة كثيرة منهم فالتكسر ملوك الأفرنج كسرة قوية ورحلوا عن ساحل طرابلس فلما جاءت الأخبار إلى القاهرة بما جرى اضطرب السلطان من ذلك والأمراء وقصدوا أن يمتنوا لهم بمهمة وكان في تلك السنة بالقاهرة وباء حطم حتى كان يخرج من أبواب القاهرة في كل يوم اثني عشر ألف جنازة وكان أكثر عمله في الأطفال والفرقاء ،^(٤٧)

ولكن رغم انشغال الأمراء للمالكة بمصالحهم الشخصية وتفرغهم ، وسوء الآوضاع الداخلية بسبب ارتفاع أسعار الغذاء وانتشار الأوبئة ، إلا أن الدولة المملوكية بدأت تجمد بحملة النفور المملوكية ، وبدأ السلطان الأشرف شعبان يدرك ضرورة تحصين هذه المناطق المفتوحة ، ولذا نجده يزور الاسكندرية حيث يقول التويزي الاسكندراني انه :

« في يوم الجمعة الرابع من جمادى الأولى سنة سبعين وبسببها دخل السلطان الملك الأشرف شعبان بن الحسين بن الملك الناصر محمد ابن الملك النصور قسلايون فشر الاسكندرية المحروس »^(٤٨) .

وقد فرح أهل الاسكندرية بزيارة الأشرف شعبان حيث « اجتمع الرجال والنساء والبيد والامام لرؤيته ، فصاروا يدهون له ، والنساء مصرون يزغفن قرحا به لشبابه وحسنه وجاله »^(٤٩) .

وفهم من كتابات المصارعين أن الحلف من زيارة الأشرف شعبان للاسكندرية هو الامتثال الشخصي على سير الأحوال فيها

وورد ميناء الاسكندرية عدة مراكب في هيئة أنها مراكب تحمل البضائع فدخل منها إلى المدينة نحو مائة وخمسين رجلا فموتهم الأمير أكسبنا النائب حتى يبيت له أمرهم ، فسلح الركب مقلعة وصارت من حيث أنت ، فمهر تخشيب ليدى الذكورين وحملهم إلى القاهرة ليرى السلطان فيهم رايه ،^(٤٥)

ويظهر أن غزو الفرنج للاسكندرية عام ٧٦٧هـ / ١٣٦٥ م كان سهلا هينا ومعنيا وفيرا ، مما شجع الفرنج على العزم للقيام بحملات هجومية أكثر . ضد النفور المملوكية من أجل التصريب والمقدم ناحية ، والسلب والنهب من ناحية أخرى ، من ذلك قول المقرئ :

« في أول صفر (٧٦٩هـ / ١٣٦٧ م) ورد البحر بوصول الفرنج إلى طرابلس في مائة وثلاثين مركبا ، ما بين شقي وقرنورة وضراب وطريسة ، وشتمتور عليها ممتلك قبرص ، وتملك رومس ، والأستار ، وكان النائب خاليا ، فقتلهم المسلمون قتلا شديدا ، حتى اقتحم المسلمون للمدينة وتجهزوا من أسواقها ، فتحامل المسلمون عليهم واشتعلوا في قتالهم ، حتى أخرجهم بعد ما قتلوا منهم نحو الألف ، واستشفوا من المسلمين نحو الأربعين رجلا . فركبوا سفنهم وانقلبوها خابرين ، فرموا بمدينة إيباس في مائة قطعة ، فسار اليهم الأمير منكلي بقا نائب حلب ،^(٤٦) وقد فر أهل إيباس عنها ، فدخلها الفرنج فلما قدم نائب حلب جلبوا عنها » .^(٤٧)

ونقاش ابن إيباس هذا الغزو الصليبي بأن الفرنج كانوا يستهدفون كافة النفور المملوكية بدليل قدومهم قلعة إيباس في بادئ الأمر فلما فصلت لهم العساكر المملوكية ترجعوا نحو طرابلس فكان فوزهم لها سهلا بسبب غياب نائبها في الوقت الذي كانت فيه الأورليجارية الحاكمة مشغولة بالرياء الذي كان منتشر في القاهرة ، مما أحاق إرسال نجدة عسكرية إلى النفور السورية لحمايتها ضد الهجوم الصليبي . إذ نجده يقول :

« ثم دخلت سنة تسع وستين وبسببها فيها جاءت الأخبار من حلب بأن الفرنج جاءوا إلى قلعة إيباس وحاصروها فخرج اليهم الأمير منكلي بقا الشمسي نائب حلب وصحبته العساكر المحلية ،

(٤٥) السلك ، ج ٣ ، ص ١٥٥ .

(٤٥) سفر فرجه ، القدر ، ج ٥ ، ص ١٣٧ .

(٤٦) السلك ، ج ٣ ، ص ١٦٩ - ١٥٠ ، انظر كذلك المجموع ، ج ١١ ، ص ٥٣ - ٥٢ .

(٤٧) بديع ، ج ١ ، ص ٢٢٢ ، انظر كذلك ، فلهات ، ج ٦ ، ص ٢١٢ .

(٤٨) الألف ، ج ٥ ، ص ٢٨٠ .

(٤٩) الألف ، ج ٦ ، ص ٢٠١ .

بعد هجوم الحملة الصليبية القبرصية حيث يذكر التومري الاسكندراني أنه :

« في ذلك اليوم لم يبق بالامكتندرية افرنجي تاجر ولا حليج غلام الا ومحصن بالمرابك غوليا من السلطان ... ثم ان السلطان شاهد للكان الذي صعدت منه العنوج والحدق الجديد الذي أنشأه الأمير صلاح الدين بن عرام مكان صودهم ، ولم يكن قبل ذلك المكان خندق ... ثم شامد السلطان أيضا الخندق الغربي المتجدد خلف الباب الأخضر المعروف بالمطرق »^(٥٠)

وعلى ذلك يمكننا أن نستنج أن احتمالات الدفوع قد تم اجتيازها جميعا على أتم حال عقب وقوع الغزو الفرنجي ، ولكن السؤال الذي يطرح نفسه هنا هو : هل تم ذلك بأمر من السلطان الذي كان منه حينذاك « دون الستة عشر »^(٥١) ؟

وقد كشفت تلك الزيارة الى الاسكندرية عن الكثير من صفات الأشراف شعبان ذلك أنه :

« لما طلع دار الطراز قلع قلوته ، وتوقف حتى صار في ملوطة وقع نورفاً يجعل يطوف على الأنوار يصورها ، ويدخل رأسه تحتها ، لينظر أسفلها ، ويخرج على الصانع كيف ينسجونه ، وإلى مكابهم كيف يرمونها ولما يرمون ، ويرفع رأسه يشاهد من أهل الأنوار الشاهين من الصيانه كيف يشيلون خيطان المسافر ولما يحطون وكيف تصنع الطيور للنسوجة والبدالات والشارونات وغيرها بتلك المحطات الطالعة والمراقبة إلى أن يكمل كل طائر وغيره »^(٥٢)

ولا شك أن هذا يدل على مدى حبه للمعرفة والرغبة الشديدة في التعرف على ما كان موجودا في السلطة من حرف وصناعة بقصد الاستفادة الشخصية لخدمة الصالح العام .

ورغم كل هذه الاستعدادات والاهتمام الكبير من جانب الحكومة للملوكة إلا أن الفرنج استمروا في غزوهم الصليبي ضد مدن الساحل الملوكية ، ففي سنة ٧٧٠ هـ / ١٣٦٩ م « كثر

الحوف ببلاد الساحل من الفرنج والعشير ، ووصل الى صيدا عدة من مراكب الفرنج فحاربوا المسلمين ، ورجعوا خائبين »^(٥٣) بالإضافة الى ذلك فقد حدث في :

« يوم الجمعة ثامن ذي الحجة (٧٧٠ هـ / ١٣٦٩ م) قدم الخبر بتزول أربع قطيع على الاسكندرية من الفرنج ، وأهم رما على المدينة بمنجنيق ، فخرج تلك الليلة ثلاثة وعشرون أميراً ، منهم ثلاثة من الألف وعشرة من الطلبة خيالة وعشرة من أسراء العشرات ، فقدم الخبر في عشية السبت أن المغارة والتركمان نزلوا في المراكب ، وقتلوا الفرنج وقتلوا نحو ثمان مائة وهنموا منهم مراكب »^(٥٤) .

الى جانب أنه :

« في أول المحرم (٧٧١ هـ / ١٣٦٩) ورد قاصد الأمير ناصر الدين محمد ابن الأمير طاز ، ومعه أربعة وعشرون من الفرنج ، أسروهم من ناحية الطيبة ، وكان مجردا بها »^(٥٥) .

الا أنه يبدو أن هذه الغزوات السريعة والمفاجئة لم تحقق للفرنج سوى بعض الغنائم ، وفشلوا في أن يحصلوا من ورائها على أي انتصار عسكري أو سياسي ، بل على العكس من ذلك تماماً ، فقد تشبعت العلاقات الاقتصادية بين دولة المماليك والدول الأوروبية ، وتجددت الروابط التجارية ، وحرر الفرنج من القدم الى الأسواق الملوكية الأمر الذي جعلهم يفكرون في إقامة الصلح مع السلطنة من أجل خدمة مصالحهم التجارية .

ومن جانب آخر بدأت الأوضاع في الدول ذات الاهتمامات الصليبية تتقدم السلامة والأمن داخل الأقاليم الملوكية .

اذ يقول ابن العماد :

« في رجبها (٧٧٠ هـ / ١٣٦٨ م) ملك صاحب قبرص الذي هجم على الاسكندرية وتولى ولده فارس بلدية بريدة وطلب الحفنة فوقع الصلح بالله الحمد »^(٥٦) .

ومن ثم بدأت وفود الدول الأوروبية تقدم الى البلاط السلطاني تسأل الصلح والصدقة ليدكر المقيزي أنه :

(٥٠) الأكام ، ج ٦ ، ص ٣٠٦ - ٣٠٨ .

(٥١) الأكام ، ج ٦ ، ص ٣٠٦ .

(٥٢) الأكام ، ج ٦ ، ص ٣٠٨ - ٣٠٩ .

(٥٣) السيرة ، ج ٢ ، ص ٢٧٤ .

(٥٤) السيرة ، ج ٢ ، ص ٢٧٤ - ٢٧٦ .

(٥٥) السيرة ، ج ٢ ، ص ١٨٠ .

(٥٦) فخرات ، ج ٦ ، ص ٢١٧ .

إليه هدية له ، يرسلهم إلى بلادهم رغبة في كسب صداقة سلطنة الماليك اذ يقول المغربي :

« فسلمت أيضا رسل ممتلك جنودا يستين أسيرا من أهل الاسكندرية ، وهدية للسلطان وللأمير بليسا ، وذكر أن هذه الأسرى كانت نصيبه ، واعتبر بأنه لم يعلم بواقعة الاسكندرية إلا بعد وقوعها ، وأنه استمر على الصلح ، رفق قدره على أخذ ممتلك قبرص قبضه وقتله . فظلت هدنة وأثنى الأسرى عليه غيرا ، وأن ممتلك قبرص لما عاد من الاسكندرية ، قسم ماخذه منها بين ملوك الفرنج ، وبعث جيولا إلى ممتلك جنود ، فرفضهم وتقدم لهم ، وأحسن إليهم ، وكساهم ، وأجرى لهم الرواتب حتى بعث بهم »^(١١٦) .

ولا شك أنه كان لصغر سن الأشراف شعبان وابنه المأمون الأمراء الماليك الألبانجارية بمصالحهم للدية بالغ الأثر في حدوث واقعة الاسكندرية وما تبعها من غزوات صليبية ضد الثغور للملوكية ، إذ وجد حكام الفرنج في تلك الأحوال الظروف المناسبة لتحقيق رغباتهم في الانتماء من سلطنة الماليك التي كان لها فضل القضاء على المقاتل الصليبية في الساحل السوري ، إلا أن هذه الممالك الفرنجية وجدت أنها قطعت بذلك علاقاتهم التجارية وروابطها الاقتصادية ببلد الماليك مما كان له آثاره الاقتصادية السلبية لما كان منها إلا أن جعلت بارسال السفارات والبثث للاعتذار مما حدث واسترضاء الحكومة الملوكية بتقديم الهدايا التمنية وأطلاق سراح الأسرى للمسلمين .

وهل ذلك يظهر لنا من سير الحوادث أن الفقه الحاكمة في سلطنة الماليك هي تلك الطبيعة من الأمراء الماليك الألبانجارية أصحاب الكلمة العليا في تسيير سياسة الدولة داخليا وخارجيا إذ أننا نعرف أن الأشراف شعبان كان لا يتجاوز العاشرة من العمر عندما تولى الحكم ، كما أننا ندرك أن ذلك تم من أجل هدف أن تحظى تلك الجماعة بما تريد من السلطة والقوة والصلحيات غير المحدودة ، وهل ذلك فإن اختياره لذلك المنصب الجليل لم يأت اعتباطا وإنما من قصد معين هدفت إليه الطبقة صاحبة الكلمة الفعلية في حكم البلاد ، وقد تربط على ذلك أن « استمر الأتابك

أول صفر ٧٧٢ هـ / ١٣٧٠ م) كلمت رسل الفرنج لطلب الصلح ، فحلفوا على ألا يفسدوا ولا يظنوا وتخلع عليهم ، وسالسروا ومعهم من يخلف ملكهم ، وأخذت منهم رسائل بالقلعة »^(١١٧) .

بل عبارة على ذلك عمل الفرنج على إعادة الأسرى للمسلمين إلى بلادهم رغبة في كسب رضى الحكام الماليك وعودة العلاقات التجارية إلى ازدهارها السابق حيث يقول المغربي :

وليه (جمادى الأولى سنة ٧٧٢ هـ / ١٣٧٠ م) عادت رسل الفرنج ومعهم عدة من أسروهم من المسلمين نحو المائة »^(١١٨) .

وقد تكررت مسألة إطلاق سراح الأسرى المسلمين بعد ذلك أكثر من مرة حيث « بعث الفرنج من بقي من أسرى المسلمين ببلادهم ، وتم الصلح وفتحت كنيسة القيامة بالقدس »^(١١٩) .

من ذلك يظهر أن الفرنج رغبوا بالاضافة إلى تحقيق المصالح الاقتصادية فتح كنيسة القيامة في القدس ، ولذا عمل سفراهم على متاشقة السلاطين الماليك لتحقيق ذلك ، قدم لهم ما أروا - رعا - رغبة من الدولة الملوكية في إرساء قواعد علاقات الصداقة بين الجانبين .

ورغم ذلك فقد كان يحدث بين فترة وأخرى أن تقوم جماعة صليبية بشن الغارات ضد السواحل الملوكية إذ يذكر ابن إياس أنه في عام ٧٧٥ هـ / ١٣٧٢ م « جاءت الفرنج إلى ريد فخرج إليهم الأتابكي منكم مع جماعة من المسكر فكسروهم وغربوا منهم إلى بلادهم »^(١٢٠) .

ولكن هل الرغم من حدوث ذلك إلا أن سير الحوادث يؤكد أن تلك الاحتفادات كانت تتم على يد جماعات صليبية صغيرة ، وأن الممالك المسيحية ذات الاعتمادات التجارية كانت حريصة على البقاء الودية مع سلطنة الماليك .

ويؤكد المغربي ذلك بالأشارة إلى حرص حاكم جنود على إطلاق سراح الأسرى المسلمين وإرسالهم إلى القاهرة عسكروا بالهدايا إلى البلاط السلطاني مع الاطمان لما حدث للاسكندرية على يد حاكم قبرص عام ٧٧٦ هـ / ١٣٦٥ م ، وأن ملك جنود كان حريصا على حسن معاملة الأسرى الذين بعث بهم حاكم قبرص

(١١٧) السيرة ، ج ٣ ، ص ١٩٨ .

(١١٨) السيرة ، ج ٣ ، ص ١٩٠ .

(١١٩) السيرة ، ج ٣ ، ص ١٩١ .

(١٢٠) بلاط ، ج ١ ، ص ٢٢٩ .

(١٢١) السيرة ، ج ٣ ، ص ١٢٣ - ١٢٤ .

يلينا العمري المحاصي مدير الممالك ومعه عجداده الأمير طيغا الطويل أمير صلاح على عاصمتها^(١٧٦).

فالذا كنا نعلم أن يلينا العمري هو الذي عهد بجلوس الأشرف شعبان على كرسي الحكم ، فليس لنا أن نستغرب استقراره في منصب الأتابكية وتبدير شئون المملكة ، ولكن لا بد لنا أن ندعش حين نقرا عن هبة الكاتنة التي يتمتع بها القضاء في نفس يلينا رغم ما كان يده من سلطات مطلقة إذ يذكر القريري أنه :

« في يوم الاثنين سادس عشر جمادي الآخرة عدى قاضي القضاة عز الدين ابن جماعة^(١٧٧) التل إلى بر الجيزة ، وقد عيى بها السلطان على المادة ، بكونه برا ، وسأل الأمير يلينا في اهضاله من القضاء ، وتشفع إليه بمحض معة ، وعزل نفسه ، وقلم ، وقد أقر الأمير يلينا نواب الحكم على حاكم فلما عدى السلطان التل وصعد القاعة في يوم الخميس تاسع عشرة ، وجه الأمير يلينا بالأمير جرجي أمير آنسور^(١٧٨) إلى ابن جماعة يدخل عليه في عوده الى وظيفة القضاء ، فامتنع خاية الامتناع ، فبعث اليه بكتائب السرعلاء الذين على ابن فضل الله فلم يجبه ايضا ، فركب الأمير يلينا بنفسه في يوم السبت حادي عشره ، واثا الى منزله بالجامع الاقمر واقع في سؤاله وهو محتج . فلما ايس منه سأل ان يعين من يصلح ، فاشار بولاية ابي البقاء ، ثم لعلى وزاده المغرب وانصرف . فاستدعى في يوم الاثنين ثالث عشره بآبي البقاء وفوض اليه السلطان قضاء القضاء ، فوحا عن ابن جماعة وخلع عليه واغضاب اليه ونظر وقبف الاشراف ، وخلع معة على بياه الذين احدث بين السبكي^(١٧٩) واستقر في قضاء المسكر فوحا عن ابي البقاء ، وخلع على تاج الدين محمد ابن بياه الدين ، واستقر في وكالة الخصاص زيادة على ما يهده من نظر للمراستان .

وفي يوم الخميس سادس عشره ، خلع على عز الدين بن جماعة واستقر في نظر جامع احدث بن طولون ، وتدرس الفقه ، وتدرس الحديث به ، وكتب له صل بيت المال في كل شهر اقب درهم^(١٨٠).

وهذا التصرف من ابن جماعة واصراره على ترك وظيفة القضاء برهان على رفضه لما كان يجري من وكالات على ارض السلطنة

الملوكية ودخل الجهاز الاداري الحكومي ، في حين كان الامير يلينا حريصا على استمرار هذه الشخصيات ووظائفها القضائية . ربما - لانه يرى ان رفض هؤلاء لتلك الوظائف يتضمن دلالة واضحة امام الرعية لرخص رجال الدين لسياسة يلينا وعدم التزامهم بمبادئ الشريعة الاسلامية ، فكان دائم الالتجاء على استرضائهم واستبقائهم في وظائفهم القضائية ، ولكن يبدو ان ابن جماعة كان مصرا على الامتناع عن ممارسة هذه الوظيفة والاقتصر على العناية بشئون تدريس الموضوعات الدينية بعيدا عما يجري على يد الامراء للممالك الاوليجاركية .

ومن جانب آخر تمتع هؤلاء الامراء الممالك الاوليجاركية بثروات كبيرة وهاشوا في رفاهية من العيش الكريم ، ولاشك ان ذلك قد حصل اما نتيجة لوصولهم الى خزائن الدولة بسهولة دون سؤال من احد ، واما بالتنازل على حقوق الرعية وظلمها والتعدي على امتيازاتها وثرواتها واراضها في حين كان الاشرف شعبان مجردا من كافة السلطات التي تتيح له التدخل والاستفسار ، بل كان لا يتاح له معرفة ضخامة تلك الثروات الا بعد وفاة اصحابها حيث يقول القريري :

« وفي ثمانية (جمادي الآخرة سنة ٧٧٧هـ - ١٣٧٢م) حضرت مالك الأمير الكبير الاتاك منكلر بنا الشمس على السلطان بعد موته وهم مائتان وواحد ، فحملهم في غنمة ولده امير على^(١٨١) . ومن ثم فانتا قليلا ما نقرا انه وصل الى تلك المناصب العليا في البلاد شخصيات تنصف بعمل الخير من اجل الصالح العام ، الا ان هذا لا يعني انه لم يصل الى تلك المناصب شخصيات من هذا النمط ، وقد كان من بين هؤلاء المخلصين على الماردني اذ يذكر ابن ابيس « وفي هذه السنة (٧٧٧هـ / ١٣٧٠م) توفي الامير علي الماردني^(١٨٢) الناصري نائب السلطنة بمصر وكان اميرا دينيا خيرا كثير البر والصداقات قليل الاتاك كثير الخير قريبا من الناس تولى نيابة دمشق ونيابة حلب ونيابة السلطنة بمصر ومات والناس راضون عنه وكثر عليه الاسف واخبرن من الناس ولما مات خلغ السلطان على

(١٧٦) التوجع ، ج ١١ ، ص ٢٤٤ .

(١٧٧) نظريه ، القدر ، ج ٢ ، ص ٤٨٨ - ٤٩١ .

(١٧٨) نظريه ، القدر ، ج ٢ ، ص ٧١ .

(١٧٩) نظريه ، القدر ، ج ٢ ، ص ٢٢٤ - ٢٢٩ .

(١٨٠) السلوكة ، ج ٣ ، ص ٩٨ - ٩٩ .

(١٨١) السلوكة ، ج ٣ ، ص ٢٠١ .

(١٨٢) نظريه ، القدر ، ج ٣ ، ص ١٤٩ .

نيابة الشام وحلب وطرابلس وصفد وحماه والكرك وغزة ، وكذلك في ولاية القاهرة وقطيا وابجيزة والاشموتين وسنوف ومصباط والقيوم .^(٢٢) ترى لماذا كان كبار الامراء يصرون على حدوث هذا التجديد مع تولي كل سلطان جديد طالما اننا نترك ان هذا التجديد يحدث بناء على طلب السلطان الذي لم يتجاوز عمره عشر سنوات ؟ ولا يفهم بالثاني اهمية هذه المناصب او حق طبيعة حصل من يتولاها ، هل يمكننا ان نترك ان السب وراء ذلك هو رغبة هؤلاء الامراء اصحاب السلطة في ايام الرعية بان عهدة جديدة قد بدأ ، ومن ثم ، فان ذلك يتضمن تغييرات في الجهاز الاداري للدولة . وعلى ذلك فان هذه الطبقة الحاكمة تفتقر الجمل في الرعية في مختلف الطبقات الاجتماعية فتضلل ادراكهم بان شيئا لم يتغير بولاية سلطان جديد لا يتعدى العاشرة من العمر ، وان الاحوال مستمرة على ما كانت عليه طالما ان جماعة الامراء الاوليجاركية مازالت تؤسس امور الدولة وفقا ليريد وتغرس الاسلوب المعتاد قبل ولاية السلطان الجديد ، وان كل الذي تغير ينحصر في خلع طفل وتعيين آخر بدلا منه على كرسي السلطة حسبما ينتسب مع مطامع هؤلاء الامراء ، ويؤيد ابرو للحسان هذا الاسلوب المتبع لدى اصحاب السلطة عند بداية ولاية اي سلطان جديد ، فيحدث تغيير شامل في شخصيات من يتولون وظائف الدولة^(٢٣) - ربما - من اجل تعين الراويل لهم والماملين على خدمة مصالحهم ، وربما ايضا كما سبق ان اشرنا لاسكات الالسنه من للتضولات المختلفة حول تلاعب اصحاب السلطة بتعيين سلطان ويخلع آخر كما فيه خدمة مظالمهم الشخصية .

كذلك نلاحظ انه عقب وقوع اية مؤامرة يقوم احد كبار الامراء المماليك الاوليجاركية وينتهي بالفشل وتظهر فئة متسلطة اخرى يحدث تغيير في الاشخاص الساعرين في الوظائف الادارية بالدولة ، كما يتم عزل جماعة ويسجن اخرين ، في حين يخلع البعض بالخلع السلطانية والمناصب الادارية العليا^(٢٤) مما يعني ان قرار دون شك ان الوصول الى تلك المناصب في ظل ذلك الوضع

الامير طشمر الملاكي واستقر به نائب السلطة بمصر عوضا عن الامير علي المارديني الناصري^(٢٥) .

وقد تعاقب على منصب الانابكية ونيابة السلطة عدد من الشخصيات المهمة التي حظيت بمصاحبات مملوكة ورواتب وفيرة ، فنلاحظ من ضمن حوادث عام ٨٧٧هـ / ١٤٧٣م : ان السلطان ارسل خلف المقر السنيي ايمر نائب طرابلس^(٢٦) فلما حضر خلع عليه واستقر به اتابك المساكين عوضا عن الجاني الروسي فقام ايمر في نيابة السلطة بمصر مدة مسيرة ثم تولي الى رحمة الله تعالى فراسل السلطان خلف المقر السنيي متجك اليوسفي نائب^(٢٧) الشام فلما حضر خلع عليه السلطان واستقر به اتابك العسكر عوضا عن ايمر ، واضاف اليه نيابة السلطة مع الانابكية وفوض اليه امور المملكة قاطبة من الديار المصرية والبلاد الشامية ورسم له بان يخرج الاطفاحات من غير مشورة السلطان من اربعمئة دينار الى ستمائة دينار ، وكانت عادة نواب السلطة من قديم الزمان ان لا يخرجوا من الاطفاحات اكثر من اربعمئة دينار الى مائون^(٢٨) . غير انه يبدو ان الاسراف شعبان عندما كبر وبدأ يدرك طبيعة مجريات الحوادث من حوله اخذ يصغر من تلك القوة التي تمتع بها اولئك الاشخاص ، ومن ثم ابطل في الاشهر الاخيرة قبل مقتله منصب نيابة السلطة^(٢٩) ، ولعل هذا الاندراك والوعي هو السبب الرئيسي الذي جعل الامراء الاوليجاركية يميلون على التخلص من الاسراف شعبان حيث يدركوا بحسبون انه اخذ يتعصب منجبا آخر خلفا لما اعتادوه منه ، وكان يرضي نفوسهم بما يتجه لهم من التلاعب بمصاحبات الحكم وسلطانه لما كان منهم الا ان يادروا بالتخلص منه بالقتل .

من الاسود التي تستحق الدراسة ايضا في هذه الحقبة تلك التغييرات الشاملة فيما يتعلق بالنائب الادارية العليا في الدولة ، فنجد عند تولي اي سلطان جديد لكرسي الحكم ان ذلك التنوير يشمل ايضا العديد من الوظائف الادارية ، وكان الجهاز الحاكم كله تغير . يشير بعض مؤرخي العصر المملوكي الى تجديد في وظائف

(٢١) بلقيس ، ج ١ ، ص ٢٢٦ - ٢٢٧ .

(٢٢) انظر ترجمه ، القدر ، ج ١ ، ص ٤٨٩ .

(٢٣) انظر ترجمه ، القدر ، ج ١ ، ص ١٣٠ - ١٣١ .

(٢٤) بلقيس ، ج ١ ، ص ٢٢٨ - ٢٢٩ .

(٢٥) السلوك ، ج ٣ ، ص ٢٧١ .

(٢٦) السلوك ، ج ٣ ، ص ٨٤٠ - ٨٤١ ، ٩٠ ، ٩١ .

(٢٧) التجميع ، ج ١١ ، ص ٢٤ - ٢٥ ، ٢٦ .

(٢٨) التجميع ، ج ١١ ، ص ٤٩ - ٤٨ .

« واستقر آل ملك السيفي في ولاية الشرفية ، وقصر الدين عثمان الشوفي في ولاية البهسا ، عوضا عن الشهاب أحد بن جبل واستقر ابن جبل في ولاية الأشموين ، واستقر شمس الدين ابن السدياري في ولاية القيسوم ، عوضا عن علاء الدين العمري » . (٨٤) .

وهذا الشيء يدل بشكل مؤكد على عدم استقرار الوضع الإداري والشؤون الداخلية في هذه الأقاليم ، مما يجعلنا نبحت عن السبب في ذلك ، وعلاقته بمسألة صغر سن السلطان الأشرف شعبان .

اعتمادا على مصادر التاريخ الملوكي يتبين لنا أن أصحاب السلطة في هذا العهد كانوا يبدلون إلى تغيير شامل لجميع الشخصيات في نيابة الأقاليم ولاياتها^(٨٥) ولعل ذلك يعود إلى رغبة الأمير يلغا في تعيين شخصيات جديدة تدبّر له بالطاعة والولاء ، ويعتمد عليها بالتالي في تحقيق ما يرغب به من مصالح . يؤكد ابن أبياس هذا الاستمرار في تغيير متوالي الوظائف الإدارية العليا بقوله :

« و لم خلت ستة خمس وستين وسبعمائة فيها أرسل السلطان بالبيض على قطلوبغا الأحدي نائب حلب وخلع على الأمير طشتمري المارديني واستقر به نائب حلب عوضا عن قطلوبغا الأحدي ثم خلع على الأمير خليل بن قوصون واستقر أمير مجلس عوضا عن الأمير طشتمري المارديني » . (٨٤) .

وهكذا نلاحظ أن المصادر الملوكية تشير بكثرة إلى التغيير في الوظائف الإدارية في الدولة سواء في الحسبة أو القضاء أو استيفاء الخصاص أو نيابة الأقاليم أو ولاية المدن^(٨٦) مما يدل على عدم الاستقرار الإداري في الأجهزة الحكومية ، هل يمكن أن تعتبر هذه الحلقية إشارة إلى عدم الاستقرار في الوضع السياسي داخل دولة المماليك حيث كان السلطان طفلا صغيرا في حين لم يعد يلغا قادرا

غير المستقر ليس دليلا على الكثافة والقدرة وإنما ذلك مرهون بمدى أهمية هذا الشخص في مجال تحقيق مصالح تلك الفئة الجديدة صاحبة السلطة في هذه الوثيقة أو ذلك المنصب .

ويصف ابن أبياس ذلك الوضع الإداري الجديد عند تولي الأشرف شعبان الحكم على أنه نتيجة طبيعية لتغير شخص السلطان الجالس على كرسي السلطة إذ أنه يقول :

« فلما تم أمر الأشرف شعبان في السلطة أقر الأتابكي يلغا أميرا كبيرا على عهده واستقر بالإمير قشتمر المتصوري^(٨٧) في نيابة السلطة على عهده كما كان يتم عمل التركيب وجلس على سرير الملك وخلع على من يذكر من الأمراء وهم المقر السيفي طينغا الطويل واستقر به أمير سلاح عوضا عن الأمير أزمير العمري الناصري^(٨٨) الشهير بالخازندار واستقر بالأمير أزمير المذكور نائب طرابلس وخلع على الأمير عشقمر المارديني واستقر به أمير مجلس على عهده وخلع على الأمير أرغون الشهير بالأسمردي واستقر به دواندارا كبيرا وخلع على الأمير أرغون الأقرعي واستقر به رأس توبة النوب وخلع على الأمير طينغا العلائي واستقر به حاجب الحجاب ثم عمل التركيب الثاني وخلع فيه على من يذكر من الأمراء وهم أرباب الوظائف وهم المقر السيفي منكلي بقا الشمسي واستقر به نائب الشام وأرسل القرايسم الشرقية إلى قطلوبغا الأحدي^(٨٩) بأن يكون نائب حلب على عهده ثم خلع على الأمير قشتمر المتصوري واستقر به نائب صفد وخلع على الأمير عرشاه وهو صاحب القنطرة واستقر به نائب حماه وخلع على الأمير عمر بن أرغون^(٩٠) النائب واستقر به نائب غزة ثم فرق الإقطاعات على جماعة من المماليك وجعل منهم أمراء طيلبانات وأمراء عشراوات ، ثم أنفق على العسكر وأرضى الجند بكل ما يمكن فاستقام أمره في السلطة وتقلدت أحكامه » . (٩١) .

وتتكرر عمليات الخلع والتعيين في وظيفة ولاية الأقاليم الملوكية في مصر والشام فيذكر المقرري :

(٨٧) نقر ترجمه : القدر ، ج ٢ ، ص ٣٣٦-٣٣٤ .

(٨٨) نقر ترجمه : القدر ، ج ١ ، ص ٣٧٨ .

(٨٩) نقر ترجمه : القدر ، ج ٢ ، ص ٣٣٦-٣٣٧ .

(٩٠) نقر ترجمه : القدر ، ج ٢ ، ص ٣٣٦ .

(٩١) يطلع : ج ١ ، ص ٢١٣ .

(٩٢) السليك : ج ٢ ، ص ٩٨ .

(٩٣) السليك : ج ٣ ، ص ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٢٠ .

(٩٤) يطلع : ج ١ ، ص ٢١٣-٢١٤ .

(٩٥) السليك : ج ٢ ، ص ٩٧-٩٨ ، ٩٩ .

قبل ابن حرب وظيفة وكالة بيت المال ، أما من أجل تحقيق منفعة مادية ، وإما رغبة منه في الإصلاح والحيلولة دون وقوع الظلم في ذلك الجهاز الإداري المهم .

وفي نفس الوقت حرص الأمراء المالكات الأريجابية على أن يكون أصحاب الوظائف ذات الاتصال المباشر بالناس من ذوي الأخلاق العليا والصفات المثالية حفاظاً على صورة الدولة في نظر الرعية ومنعاً لشكاري الظلم عند القضاة . ولعل أبلغ مثال على ذلك ما يذكره ابن حجر بقول :

« وفيها (٧٧٣هـ - ١٣٧١ م) كاتبة بمادة البعطي مشارف الموارث الحشرية ادعى عليه بأشياء منها أنه يهدم ترك الصلاة فيحكم بعض المالكية بقتله فقتل وطيف برأسه ، وكان الروهي قد تعصب له وألقى بحقن همه فلم يقبل منه »^(٩٦) .

بالإضافة إلى حرص بعض نواب الأقاليم على تطبيق مبادئه الشرف والفعيلة في المجتمعات المحلية التي يتولون إدارة شؤونها من ذلك إشارة ابن حجر ضمن حوادث سنة ٧٧٣ هـ / ١٣٧١ م إذ يقول :

« شدد منجك نائب الشام على أهل اللهور رأس بقطع أشجار الصنصاف التي بين النهرين وبتهريب المكان الذي أحدث بالشرف الأهل ، وأزال المتكرات من هذا المكان ومن الذي فوق الجبهة أيضا وهدم الأبنية والحوانيت المستجدة هناك »^(٩٧) .

إلى جانب ذلك يذكر المقرئ في أنه :

« في يوم الاثنين تسعة عشر (في الحجة سنة ٧٧٦ هـ / ١٣٧٤ م) قبض على المصاحب كريم الدين شاكرا ابن الشام وحمل حواشيه وحمل مقدم الدولة الحاج سيف وشريكه حيد البازراء ، وحمل الأمير شرف الدين حوزة شاد الدواوين ، وأبطل الوزارة ، وأمر فأعلن شيك الوزارة ببقاء المصاحب من قلعة الجبل فدخل على الأمير شرف الدين موسى بن الأركشي أطلسين ، واستقر مشير الدولة بأمره بطلخانة ورسم له أن يحصل الدولة والمرملة كما هي عادة الوزراء ، وتعلم على سعد الدين ابن الرتبة ، وعلى أمين الدين

على مسك زمام الحكم ، الأمر الذي كان يتطلب التغيير المتواصل في شخصيات الإداريين في الجهاز الحكومي في مصر والشام .

يروي المقرئ في أنه « في المرحم (٧٦٩ هـ / ١٣٦٤ م) استغنى الشيخ جمال الدين عبد الرحيم الأسدي^(٩٨) من وكالة بيت المال ، حثقا من الوزير فخر الدين بن قزوينه^(٩٩) ، فأعفي . وخلع على علاء الدين علي بن حرب^(١٠٠) واستقر عوضه في الوكالة والكسوة ، مضافا إلى حصة الفاعرة »^(١٠١) .

تري هل يمكن أن نعتبر هذا التصرف من الشيخ جمال الدين عبد الرحيم الأسدي على أنه رفض لسوء الأوضاع الإدارية ، وما كان يدور في ذلك الجهاز من تلاعب لتصلح فئة معينة في البلاط السلطاني ؟ ومن ثم هل نقبل رد فعل علاء الدين علي بن حرب على أن البعض كان يوافق تلك الفئة بما كانت تقوم به من أعمال في سبيل أن يحقق هو وبالتالي منفعة خاصة من وراء ذلك ؟ للاستجابة على هذه التساؤلات ينبغي علينا معرفة شيء عن أحوال الوزير فخر الدين ماجد بن قزوينه . يقول عنه ابن حجر :

« كان ظالما ، جماعا للعمال ، كثير الألفة مستظلا على الأكابر بجهاد يلبثها ، وقد خلف لما سكت بيوت الأحوال عامرة بالذهب والفضة ، والأهراء بالفلل حتى قيل أنه ترك ثكفية ثلاث سنين »^(١٠٢) .

ولا شك أن هذا القول بما يتضمنه من شرح لسوء سيرة الوزير ابن قزوينه دليل على أن هذا الوزير كان لا يتورع عن التراف المظالم ، ومصادرة أموال الناس ، وممارسة الظلم على الأغنياء المصفاه من أجل اكتسب الحرام ، وملء خزائن بيت المال بالذهب والفضة لغرض إشباع أطماع الأمراء المالكات الأريجابية وحمل راسهم يلبثا . وبالطبع فإن جمال الدين الأسدي الذي كان لقبها ماهرا ومعلما ناصحا ومفتيا ، صليحا مع البر والدين والشرف والفرافض^(١٠٣) لا يمكن أن يوافق على ما كان يأنه من المظالم فأعفي نفسه من وظيفة وكالة بيت المال حتى لا يكون مصهته وسكوته موافقا له على ما كان يرتكبه من مظالم في حق الرعية . ومن جانب آخر وما

(٩٦) انظر ترجمته ، الدور ، ج ٢ ، ص ٤٦٦ .

(٩٧) انظر ترجمته ، الدور ، ج ٣ ، ص ٣١١ .

(٩٨) انظر ترجمته ، الدور ، ج ٢ ، ص ١٥٨ .

(٩٩) السيف ، ج ٢ ، ص ٩٦ .

(١٠٠) الدور ، ج ٢ ، ص ٣١١ .

(١٠١) الدور ، ج ٢ ، ص ٤٦٤ .

(١٠٢) قباء ، ج ١ ، ص ١٠٠ .

(١٠٣) قباء ، ج ١ ، ص ١٤٢ .

ونتيجة لذلك كله يمكننا القول بأن الوضع الإداري في سلطنة الماليك كان غير مستقر في هذه الفترة بسبب تلاعب بعض كبار الإداريين بصلاحيات المناصب الإدارية العليا في الدولة ، في حين كان الأشرف شعبان صغير السن ، مقبوض الحق ، مجرداً من السلطة والقررة حتى لم يكن بمقدوره التدخل سواء بالرفض على تعيين شخص بعينه في منصب إداري ، أو حتى بالموافقة على ذلك فقد كانت كافة تلك الأمور تجري خارج نطاق كلمته وسلطانه الاسمي .

ولعله يجدر بنا أن ندرس وضع أحد أولئك الأشخاص الذين تولوا منصب الوزارة في عهد الأشرف شعبان كمثال على ما يذكره المؤرخون لأحوال سلطنة الماليك في هذه الفترة من أن هؤلاء كانوا غير جديرين في القيام بمسؤوليات هذا المنصب المهم في جهاز الدولة الإداري . يأتي على رأس هؤلاء « ماجيد »^(٩٨) ابن تاج الدين موسى^(٩٩) بن أبي شاكور القبطي المصري فخر الدين ، كان صاحب ديوان يليها ، ثم ولي الوزارة في دولة الأشرف ونظر الخاص ،^(١٠٠)

وعلى ذلك فإن ابن قزوينه من يأت هذا المنصب بناء على ما كان يتمتع به من خصائص وصفات مثالية ، وإثماً نتيجة لتلك الصلة الوطنية التي تربطه بمدير شؤون الدولة يليها العمري . وما يدل على سوء تدبيره في أحوال البلاد ما يذكره المقريزي ضمن حوادث سنة ٧٧٦ هـ / ١٣٧٤ م من أنه :

« ترك بالأهراء السلطانية ما ينيف على ثلثماية ألف أردب . وفي التواصي مثل ستمين . وكان يجمل إلى الأمير يليها بعد تكفئة السلطان ، وتكفئة الأمير يليها وصرف الرواتب في كل شهر ، ستمين ألف دينار . وكان أميناً عارفاً مهلباً ، عمر بيوت الأموال ووزائن الخصاص بأنواع الأموال ؛ إلا أنه كان كثير الترفع حتى على الأمراء ، فلعلم عديداً شنيحاً ، ضرب غير مرة بالمفارع ، ولقت أصابع يده اليمنى بالمشاق ، ولحمت في الزيت ثم أشعلت بالنار حتى احتركت يده كلها ، وحمل في حنقه الحديد ، وصار ير الأسواق ، وهو

مين ، واستقر في نظر الدولة ، ورسم لها أن يجلس من وراء شبك الوزارة وهو مقلق ، ويطلع على كرم الدين صهر الشويعلي فخر الدين ابن علم الطويل ، واستقر في استيفاء الدولة »^(٩٨) .

وعلى ذلك يتبين لنا قيام رجال الدولة بنوع من حيلة للتطهير شملت بعض الإداريين في الحكومة - ربما - من أجل الإصلاح والصالح العام . بل زيادة على ذلك تضمنت هذه الحملة إبطال الوزارة بسبب ما ارتكبه الوزراء من السابق من التطلوع على حقوق الرعية والتمتع برفاحية زائلة من العيش الوفير حتى اقتضى الوضع القبض على بعضهم ومن حوكم من الحاشية والصبيان . ولعله كان للأشرف شعبان دور فيما حدث للوزارة في هذه الفترة المتأخرة من تاريخ سلطته . إلا أن إبطال الوزارة لم يطل فبعد شهور تلاتل تم إعادة منصب الوزارة حيث يذكر المقريزي أنه :

« في يوم الاثنين لثمان عشرينه (ربيع الأول سنة ٧٧٧ هـ / ١٣٧٥ م) علم على صاحب تاج الدين التشو الملكي^(٩٩) وأعيد إلى الوزارة بعد إبطالها^(٩٨) وقد يكون ذلك بسبب الحاجة إلى وجود وزير في الدولة لإدارة بعض الشؤون المتعلقة بهذا المنصب الحساس . أولئك الأشرف شعبان قد وجد في شخص تاج الدين التشو فضائله من حيث الكفاءة والخلق الكريم مما جعله يقدم على إعادة منصب الوزارة في الحكومة للملوكية ، إلا أننا نستبعد هذا الرأي بسبب ما يرويه المقريزي من عزل تاج الدين الملكي بعد بعض شهور حيث يذكر أنه .

« في يوم الأحد ثلث عشرين ذي القعدة (٧٧٧ هـ / ١٣٧٥ م) عزل الملكي عن الوزارة . وخلع من القند يوم الاثنين ثالث عشره على أمين الدين مين ، واستقر في نظر الدولة ، وبقي وزير ، فاقدور صاحب شمس الدين أبو الفرج القلبي ناظر الخصاص بالتدبير وخلع عليه ، واستقر مشير الدولة ، وخلع على أمين الدين جميعه واستقر مسترقي الدولة »^(٩٧)

(٩٤) السرك ، ج ٣ ، ص ٢٤١ .

(٩٥) نظار ترجمه ، القدر ، ج ٢ ، ص ٧٨٤ .

(٩٦) السرك ، ج ٣ ، ص ٧٥٢ .

(٩٧) السرك ، ج ٣ ، ص ٢٤٩ .

(٩٨) نظار ترجمه ، القدر ، ج ٣ ، ص ٣٩١ .

(٩٩) نظار ترجمه ، القدر ، ج ٥ ، ص ١٤٤ - ١٤٥ .

(١٠٠) أليه ، ج ١ ، ص ١٤٨ ، نظار كلك ، السرك ، ج ٣ ، ص ٢٤٧ .

٧١٧ هـ / ١٣٦٥ م مع الأمير أبقيا العمري^(١٠١٢) الحجاب ، بأن يتوجه إلى دمشق نائب السلطنة بها ، وحمل معه التظليل والأشراف ، فلم يوافق على ذلك ، ورد الحجاب ردا غير جميل ، وكان الأمير بلبغا يتزعم ملكشمار الماروني^(١٠١٣) مقبلا على قريه ، فلما بلغه الحجاب جשוב الأمير طيغنا ، غضب ، وبعث إليه الأمير أرغون الأسعري ، والدواذر ، والأمير أروس المحمدي ، والأمير أرغون الأزقي ، والأمير طيغنا العلوي بالتحريف وتقليد النجابة ، وأكد عليها في ترجمه من الفتنة ، وأن لا يمشي فليقبضوا عليه . لما هو إلا أن مضوا حتى أبعدوا قليلا ، فاختار عدة من محاليك الأمير طيغنا العلوي ومحاليك أرغون الأزقي ، ووالى الأمير طيغنا فاستنعت من اجابتهم إلى السفر ، وقال : « ليس يبقى ويهجم إلا السيف » .

فعاد إليه أرغون الأسعري والأمير أروس ، وقبضوا على الأمير طيغنا العلوي ، ففر أرغون الأزقي إلى الأمير بلبغا ، وهو بالثيرة ، ثم لحق به الأمير طيغنا العلوي ، وأخبراه بما وقع ، فركب من فوره إلى قلعة الجبل ، وأمر فدفعت الكوسلت حريا ، ولبس السلطان وحرمة المسكر السلاح ، وركبوا ليلة السبت سابع عشر ، وعمل كميناً في خلف الجبل ، قريبا من قبة النصر ، لما طلع الفجر حتى ولى الأمير طيغنا الطويل قبة النصر ، فافتلتل الفريقان ، فاستظهر طيغنا الطويل على القوم وكانت النصر تسم له ، فخرج الكمين من ورائه . وهاد الأمير بلبغا بعدما أبعد قليلا ، فانهزم طيغنا الطويل ، وتفرق جمعه ، فاختفى بالقاهرة .

وحاد السلطان إلى القلعة ونسوى باحضر من وجد من المهزومين ، وهدم من أعطاهم ، فلم يسر وإلى القاهرة ، والنداء بين يديه ، من بين الصغرين - من القاهرة - غير قليل ، حتى دله بعض الناس ، على طيغنا الطويل فدخل خانكا ببروس وأغشه منها ، وصعد به القلعة ، فظله وسجن ، وظفر أيضا في آخر النهار بالأمير أروس ، وبالأمر أرغون الأسعري ، والأمير كوكنداي أغى طيغنا الطويل ، والأمير كليم ، ثم قبض على الأمير جركشمار السيفي متجنبا للمركندار ، والأمير أرغون عبد الملك شاد البراهخانة والأمير جق الشينوي ، والأمير تلك ، وأبقيا العمري الباسي ، وقرأ السلاح دار ، والأمير أركزة السيفي ، وجبرجى بن كوكندى ، وأزمق بن مصطفى ، وشمشتمر العلوي ، فحملوا إلى نهر

كذلك على حمار ، ويذكر أن تقبرا قدم له قصة في وزارته ، فمزتها وطرحه ، فدعا عليه ، وخرج ، فلم يمش سوى أيام حتى قبض عليه وعذب إلى أن مات .^(١٠١٤)

وعل ذلك فقد ارتكب الوزير ابن قزوينة مختلف أنواع المظالم في سبيل الفائدة المادية والمصلحة الخاصة عنحيا بسلطة الأتابك بلبغا الخاصكي ، إلا أن أمره لم يظل عيب وقلة بلبغا بسبب كراهية كبار الأمراء له فحملوا باسمه والقضاء عليه ، فجدد المقرئ يقول : « وتروى (سنة ٧٧٦ هـ / ١٣٧٤ م) الوزير الصباح ناظر الخاص فخر الدين ماجد ، ويدهى عبدالله ، ابن تاج الدين موسى بن علم الدين أبي شاكرب بن سعيد الدولة ، في يوم الجمعة عاشر ربي القعدة ، وأيوه سي »^(١٠١٥)

وعل ذلك فإن السؤال الذي ينبغي طرحه هنا هو إلى أي حد تأثر المحيط الإداري في سلطة المماليك في هذا العهد بمطامع كبار الأمراء المماليك في سبيل هدف التنعيع بالسلطة العليا في الدولة ؟ كذلك في ظل هذا الوضع الإداري غير الطبيعي لا بد لنا أن نسأل عن ماهية الحالة السياسية إبان هذه الحقبة ، وإلى أي مدى شهدت طابعها من الاستقرار والثبات في ظل حكم سلطان بلاسلطة وأمرها يدهم كل مقاييد الأمور لما يختص بمختلف أجهزة الدولة السياسية والعسكرية والإدارية ؟ للاجابة على هذا السؤال ينبغي علينا تنصص تطور الوضع السياسي خلال سنوات هذا العهد أخذين بعين الاعتبار ما وقع في أثنائها من مؤامرات وفتن إما من أجل مزبذ من السلطة ، وإما لسبب الاستئثار بجميع مقاليد الحكم ، وإما لقصد اطاحة حكم الأشرف شيمان . ويذكر المقرئ وقوع أول مؤامرة خلال هذا العهد ، وبالتحديد بعد ثلاث سنوات من تولي الأشرف شيمان حكم سلطنة المماليك . ويبدو أن الهدف منها كان التخلص من الأمير طيغنا الطويل بسبب رغبة بلبغا في الانفراد بحكم الدولة دون مناس ، وقد حاول طيغنا الطويل أن يستفيد من هذه المؤامرة بالتخلص من سفيرها بلبغا العمري ، إلا أن الأمير طيغنا الطويل فشل في تحقيق أهدافه وانتهى الأمر بالفقش عليه ، وقد بدأ ذلك عندما كان الأمير طيغنا الطويل أمير سلاح قد خرج إلى العباسية يتصيد ، فبعث الأمير بلبغا إليه مرسوم السلطان في يوم الثلاثاء ثالث عشره (جادى الآخرة سنة

(١٠١٢) السلوك ، ج ٣ ، ص ١١٧ - ١٤٨ .

(١٠١٣) السلوك ، ج ٣ ، ص ٢٥٧ ، نظر كذلك ، التجميع ، ج ١١ ، ص ٩٧ .

(١٠١٤) فخر ترجمه ، القدر ، ج ١ ، ص ٤٢٦ .

(١٠١٥) فخر ترجمه ، القدر ، ج ٥ ، ص ١٣٩ .

وغامر واتفق معه أرغون الأسعدي الدوادار وأرؤس المحمودى وهرب طيغما العلاني وأرغون الأزقي ولحقا بالأتابك يلبغا وأعلماه بالغرب فركب يلبغا في الحال ومعه السلطان الملك الأشرف شعبان بالساكر في صحبة اليوم المذكور وقد ساق طيغما الطويل من العباسية حتى نزل بقية النصر خارج القاهرة ليأتيه من له عنده غرض فوافاه يلبغا في حال وصوله بالساكر وقتلته فالتت ساعة وانكسر طيغما الطويل بين ماله وأسلم هو وأصحابه من الأمراء وهم أرغون الأسعدي وأرؤس المحمودى وكذلك أخو طيغما الطويل وجركم السقي منجك وأرغون من عبدالله وجق الشيقوى وكلم وأخو طيغما الطويل وتلك أخو بيضا الصالحى وأبيها العمري البلسي وبرجرجي ابن كوندك وأوزبك بن مصطفي وطشتمر الملاحي، وأرسلوا الجميع إلى سجن الاسكندرية، وأخذ يلبغا إقطاع ولدى طيغما الطويل ومها : علي وحزمة وكانا أسرى طيغماها (١١٧)

وفي هذا كله دلالة أكيدة على أن يلبغا العمري كان صاحب الكلمة العليا في الدولة مودن مناس، وكان يسعى إلى الأشرف شعبان أنه إما يحمل على التخلص من هذا الأمير وذلك الوزير رغبة منه في حماية الأشرف والأبقاء على حكمه . وقد كان يفعل كل ذلك مستغلا طيبة أخلاق الأشرف شعبان وقصر ادراكه لما يدور حوله بسبب صغر سنه ، ولذا كانت الأمراء تلجأ إلى السلطان لاتخاذ أي أمر يخالف رغبة يلبغا فيقول أبو المحاسن :

« ثم في يوم الاثنين الخامس عشرين شعبان من سنة سبع وستين وبسببها ، باست الأمراء الأرض للسلطان ويلبغا الأتابك معهم ، وطلبوا من السلطان الافراج عن الأسراء المسجونين بشتر الاسكندرية المقدم ذكرهم ، فقبل السلطان شفاعتهم ، وروسم بالافراج عن طيغما الطويل خاصة ، فأفرج عنه وروسم بسفره إلى القدس بطالا ، فسافر إلى القدس وأقام به ، ثم بعد ذلك في يوم عيد الفطر رسم السلطان بالافراج عمن بقي في الاسكندرية من أصحاب طيغما الطويل ، فأفرج عنهم وحضروا وافترحوا إلى الشام متفرقين بطالين وصفا الوقت ليلبغا العمري وصار هو المتكلم في الأمور من غير مشاركة والسلطان الملك الأشرف شعبان أنه أتى في السلطة ، وأتمم يلبغا باقطاعات أصحاب طيغما الطويل على جماعة من أصحابه ، فأنتم على الأمير أرغون بن بلك الأزقي بتقدمة لكف ، عوضا عن ملكتمر الماردني بحكم وفاته ، وأنتم على أهبك

الاسكندرية في النيل مقيدين ، وسجنوا هناك ، وأخرج الأمير حسين بن طوخان الساقى متفيا إلى الشام . وأجمع إقطاع ولدى طيغما الطويل - ومها علي وحزمة - وأنتم على يومه على الأمير طيغمر البلسي ، واستقر أمير سلاخ عوضا عن طيغما الطويل ، واستقر الأمير طيغما البيوكري للمهندار ، ودادارا بامرة طيغماها .

وفي ثاني عشره خلع على الأمير أرغون الأزقي ، واستقر استادار السلطان عوضا عن أرؤس ، واستقر الأمير فطوليغا الشيعاني شاد الشراب خاتنه ، بامرة طيغماها ، عوضا عن أرغون عبد الملك ، واستقر الأمير ثمرقيا العمري جركمندر ، عوضا عن جركم السقي ، وأنتم كل من الأمير أبيغا الأحمدى المعروف بالجلبج ، والأمير استمر الناصري بتقدمة لكف .

وفي يوم الأحد الخامس عشره ، نودي ببيتة القاهرة ومصر ، فزيتا أسخن زيتة (١١٧)

ويذكر أبو المحاسن مقالة المقرئ موضحا السبب وراء رغبة الأتابك يلبغا العمري في التخلص من خشدانة طيغما الطويل رغبة في السيطرة على جميع زمام الأمور في الدولة ، ورعا أيضا خوفا من ازدياد نفوذ طيغما فيبدأ في منافسة يلبغا والتخلص منه إذ أنه يقول : « هذا ، وقد نزل على يلبغا وماله خشدانة طيغما الطويل فأراد أن يستبد بالأمير وحده وأخذ يلبغا يدبر عليه في الباطن ولقد حكى لي بعض من رآهما قال : كانا يتزلان من الخدعة السلطانية معا ، فطور العادة : يا طول حاكم من هذا القصور ! فكان طيغما يلتفت إلى يلبغا ويقول له وهو يضحك : ما يقولون هؤلاء ! فيقول يلبغا : هذا شأن العامة يثيرون الفتنة . » (١١٧)

وهذا يبرهن بوضوح على أن الرغبة كانت تندرج نوايا يلبغا العمري الأتابك في الانقباض على طيغما وإبداءه السجن ، فبنت يترص به ، ولم يكن الطلب إليه أن يسافر إلى نيابة الشام الاخطوة أولى من أجل التخلص منه نهائيا ، ومن ثم بدأ بنشاط من أجل تحقيق هذا الهدف ، واستمر يلبغا على ذلك إلى أن خرج طيغما الطويل إلى الصعيد بالعباسية أرسلى إليه يلبغا جماعة من مقدمي الأتوفاء وهم : أرغون الأسعدي الدوادار والأمير أرؤس المحمودى الاستادار وأرغون الأزقي وطيغما الملاحي حاجب الحبيب ومهمم تشريف له بتبابة دمشق فسادروا حتى قنصوا على طيغما الطويل وأصبروه بما وقع ، فلما سمع طيغما ذلك غضب وأبى قبول الخلة ،

(١١٥) السيرة ، ج ٣ ، ص ١١٥ - ١١٧ ، أهر كلك ، يطلع ، ج ١ ، ص ٢١٦ - ٢١٧ .

(١١٦) النجوم ، ج ١١ ، ص ٣٠ .

(١١٧) النجوم ، ج ١١ ، ص ٣١ ، أهر كلك ، يطلع ، ج ١ ، ص ٢١٦ .

وعا - خشية الفتنة بين صفوف الأمراء المماليك ، وخرج إلى القدس حيث علش بطلا فترة من الزمن ، حتى انتهى الأمر بتوليته نيابة حاة .

يقول المقرئزي أنه :

« في تاسع صفر (٦٩٨ هـ / ١٣٩٦ م) استقر الأمير طيغا الطويل في نيابة حاة » .^(١١١)

ولكن يبدو أن كبار الأمراء المماليك استمروا بمشؤن فرد طيغا الطويل بعد الذي قاساه بسبيهم ، وبات الأشرف شعبان يتخوف من الفتنة حتى شاع الخبر بانطلاق الأمير طيغا الطويل نائب حاة ، والأمير القشمر^(١١٢) نائب طرابلس على المخامرة ، فتجهز الأمير أستمير الأتابك للسفر ، وتقدم بنهب الأمراء ، وبعت القصاد للكشف عن تلك حل البريد ، فعادوا باستمرار بآية التواب على الطاعة ، ما عدا المذكورين ، فكتب بالقبض عليها ، فقبضا وقبض معها حل إخوة طيغا الطويل ، وحلوا إلى الاستكندرية مقبدين .

واستقر استمير الزيفي في نيابة طرابلس ، وأعيد عمر شاه إلى نيابة حاة في أربال ذي القعدة ، واستقر أرغون الأتزي في نيابة صفد » .^(١١٣)

وبذلك يظهر واضحا أن تأثير طيغا المعري حل الأشرف شعبان استمر حتى عقب مقتل طيغا المعري وتولى استمير منصب الأتابكية إذ استمر الأشرف شعبان متخوفا من طيغا الطويل خشية أن يدبر فتنة تطيح بسلطانه ، ولذا بات يشك في تصرفاته وفكراته حتى انتهى الأمر بالقبض عليه وسجنه للمرة الثانية . وفي الحقيقة لا تشير المصادر للملوكية إلى أن طيغا الطويل قد فكر ولمرة واحدة في التمرد ضد الأشرف شعبان أو إثارة الفتنة . وبثبت أبو المحاسن حدوث هذه الوقائع ضد طيغا الطويل فتجده يقول :

« واستقر طيغا الطويل التامري وفق طيغا المعري الخاصكي المقدم ذكره في نيابة حاة وكان بطلا بالقدس في تاسع صفر فلم تطل مدته وقبض عليه فيها في ذي القعدة واعتقل بالاستكندرية ثانيا » .^(١١٤)

البدرى أمير أنحور طيغا المعري بامرة طيلخانانة واستقر استنادار استناد طيغا » .^(١١٥)

وعلى ذلك فكأنما الأشرف شعبان عمد إلى تقيض نفوذ طيغا الطويل وما كان ينتفع به هو وأصحابه من القاطعات من أجل أن يسبقها حل الأتابك طيغا المعري وأتباعه حتى بدأ ذلك بظهور مكانته السحب الرئيسي الذي جعل طيغا المعري يخطط من أجل القبض على خضفائه ، وإن كنا نعتقد بأن الرغبة الشخصية عند طيغا المعري في التمتع بنفوذ وسلطات مطلقة في الدولة دون مناس كانت أيضا عاملا مهما في قيامه بذلك الإجراء المقصود ضد طيغا الطويل ، ويضيف المقرئزي أنه :

« أخرج الأمير طغرلغا المعري الحليبي ، والأمير أحمد بن أبي بكر ابن أرغون التايي ، بعدما قطع لسان كل منهما ، ونفى إلى الشام » .^(١١٦)

وهكذا حمل طيغا المعري حل تايي كل من عمل على مساعدة طيغا الطويل ومساندته وكأنه يريد أن يترك كل من تسول له نفسه العمل على مساعده متمرد ضد الدولة ، أو مساندة مناس يرغب في مجاراته بما يخص به نفسه من سلطات غير محدودة وصلاحيات مطلقة في إدارة شؤون الدولة دون رقيب أو حسيب . كما اجتهد طيغا في نفي كل من يطلق سراحه من أتباع طيغا الطويل إلى الشام فلا يحملون على إثارة الأمراء الآخرين والقضاء وأهل العلم فسله . بالإضافة إلى أن هؤلاء لم يجدوا هم الأنصار الذين يأملون في بلاد الشام خاصة بعدما حرما الطعامهم وأروايمهم ، وبذلك يصغفوه الوضع السياسي الملائم لأطماعه الشخصية وتطلعاته في السلطة العليا في الدولة .

وعلى ذلك يذكر المقرئزي أنه :

« في يوم عيد الفطر رسم بالافراج عن الأمير أرغون الأسمرى ، والأمير أروس المصموي ، وبقية الأمراء للسجورين ، فخرج عنهم وأخرجوا إلى الشام متفرقين » .^(١١٧)

وهكذا لم تطل الوقت بطيغا الطويل في السجن إذ أفرج عنه -

(١٠٨) النجوم ، ج ١١ ، ص ٣١ ، القرن ، السرك ، ج ٢ ، ص ١٢٠

(١٠٩) السرك ، ج ٢ ، ص ١٢٠ .

(١١٠) السرك ، ج ٣ ، ص ١٢١ .

(١١١) السرك ، ج ٣ ، ص ١٢٢ .

(١١٢) نظر ترجمه ، القدر ، ج ١ ، ص ٤١٦ .

(١١٣) السرك ، ج ٣ ، ص ١٤٤ .

(١١٤) النجوم ، ج ١١ ، ص ٤٦ .

الرياسة ولقب نظام الملك ، وصار صاحب الأمر والنهي والحل والعقد ، وهو السلطان في الباطن والأشرف بالاسم ، وانتهى إليه أن آل صار العدد الكثير من عماليك نواب البلاد ومقدمي السوف واستكثر من الماليك الجلبان ويالغ في الاحسان اليهم والاكرام حتى صاروا يلبسون الطرز الذهبية العريضة يركب معه منهم نحو ألف نفس .^(١١٨) وبناء على هذه الحقيقة يمكننا أن نتبين الدور الذي قام به يلبغا للتخلص من استنفاد السلطان الناصر حسن الذي كان صاحب الفضل عليه لما وصل إليه من مكانته وسلطة - ربما - من أجل سيطرة أكبر وصلاحيات أكثر لكان سببا في تسلط المنتصور محمد ليصبح أتاك ، ولكن الرغبة في الوصول الى صورة سياسية للسلطنة تتناسب مع ما كان يتطلع إليه من سلطة وقوة كانت حاملا أساسيا في قيامه على خلع المنتصور محمد وتولية الأشرف شعبان ليمارس صلاحيات مطلقة في حكم سلطنة الماليك دون أية معارضة أو منافاة ، « فاصبح صاحب الأمر والنهي والحل والعقد وهو السلطان في الباطن والأشرف بالاسم »^(١١٩) ولكن الشعور بعدم عدالة ما اقترفه من أعمال الظلم والتآمر أدخل هواجس الحرف الى نفسه ، وباتت تزعج فكره ، فاجتهد بإحاطة نفسه بالماليك من أجل حراسته وحمايته ، بل لقد بلغ الأمر أن عدد عماليكه كان « ثلاثة آلاف »^(١٢٠) كما كان حرصا على تعيين بعضهم نوابا للأقاليم للملوكية فيكونون بذلك ركائز ثابتة له في كل مكان بحيث يعتمد على ولائهم له من أجل خدمة أهدافه الخاصة ومطامعه الشخصية في مختلف النواحي .

يقول ابن حجر : « كانت ليبلغا صدقات كثيرة على طلبة العلم ، ومعروف كثير في بلاد الحجاز ، وهو الذي حط المكس من الجباج بمكة وعرض أرامعا بلدا بمصر »^(١٢١) نرى هل كان يلبغا يبحث عن شبعة له بين الرعية في سلطنة الماليك ليجن طلاب العلم ، ويساعد الجباج ، ويوزع الصدقات ، أم أنه كان يفعل كل ذلك كي يضمن ما كان يحظى به من مكانة وثراء وسلطة ، فتصمت الألسن عن التعريض للثورة ضده أو التخلص

وهذا يدل على عدم استقرار الوضع السياسي داخل دولة الماليك حيث امتلأت القنوس بالقنوز والشكوك ، وباتت الثقة في الأمراء مهزوزة ، والأشرف شعبان حائرق معرفة مواقع الصدق فيها يحدث من اتهامات في التوايا الشخصية والاختلاص في العمل ، حتى أننا نقرأ عن إطلاق سراح طيغا الطويل بعد فترة وجيزة ، بل واستقراره في نيابة حلب إذ يقول المقرئ :

« وأخرج من الأمير طيغا الطويل ، واستقر في نيابة حلب عوضا من متكل بغا الشمسي » .^(١٢٢)

وهذا يثبت بشكل مؤكد عدم وجود الألفة الكافية لاختانة طيغا الطويل بالتآمر ضد السلطان أو إثارة الفتن ، الأمر الذي يدل على أن كل الاتهامات التي وجهت ضده كانت قائمة على الشكوك المجردة من أي برهان مما يبين عدم فعاء الجوى السياسي بسبب الاطماع الشخصية والتطلعات السياسية حتى ولو كان ذلك على حساب المصلحة العامة في الدولة . وقد استمر طيغا الطويل نائبا في حلب حتى وفاته فيقول المقرئ :

« ومات الأمير طيغا الطويل نائب حلب بجا ، في تاسع ذي القعدة (٧٦٩ هـ / ١٣٦٧ م) » ،^(١٢٣)

ومن ثم فقي « المششرين من ذي القعدة » سنة ٧٦٩ هـ / ١٣٦٧ م) استقر استيفان بن البريكري في نيابة حلب عوضا عن طيغا الطويل بعد موته^(١٢٤) .

وبذلك انتهت بولاية طيغا حياة شخصية ملوكية رغبت في خدمة الدولة بإخلاص ، إلا أن الوضع السياسي غير الطبيعي قد حال دون نجاحها في تحقيق ذلك الهدف في حقيقة طغت فيها المطامع الخاصة على خدمة المصلحة العليا .

ولكن من هذه الشخصية التي تسر لها أن تلعب هذا الدور الرئيسي في عهد خلاشرف شعبان ؟ هو يلبغا بن عبد الله الخاصكي الناصري الذي كان « رأس من قام على استنفاد الناصر حسن حتى قتل ، وتسلط المنتصور محمد بن حاجي واستقر أتاك ثم خلع له شعبان سنة أربع وستين ، وتسلطن الأشرف شعبان وتناحت إليه

(١١٨) السيفك ، ج ٣ ، ص ١٥٦ .

(١١٩) السيفك ، ج ٣ ، ص ١٦٥ .

(١٢٠) السيفك ، ج ٣ ، ص ١٥٩ .

(١٢١) القدر ، ج ٥ ، ص ٢١٣ .

(١٢٢) القدر ، ج ٥ ، ص ٢١٣ .

(١٢٣) القدر ، ج ٥ ، ص ٢١٣ .

(١٢٤) القدر ، ج ٥ ، ص ٢١٤ .

ذلك مقصرة للمصالح العامة للدولة ، ولكن لماذا يشتم الأمير عليها رغم ما كان يتمتع به من الصلاحيات بإرضاء هؤلاء « الفقهاء والصوفية » ؟! هل هو الخوف من أن يكون هؤلاء مصدر تحريض للزعمية ضده ، فيكون في ذلك بداية للتمزقة المالية التي كان يعطي بها ؟ أم هي الخشية من أن تحاول الزعمية أن تجهد من خلال هؤلاء الانتباه متغذا للثروة ضد حكم الطغمة من الأمراء الأوليغاركية ، بل وتحلص أولئك السلاطين الأطفال من لعبة العزل والتولية بما يتفق مع مصلحة الأمراء المماليك ؟ لهله يمكننا أن نقول انها كل هذه الأسباب مجتمعة حيث لا يمكن أن ننمق أن علينا قد انتهج ذلك المسلك بدافع من الرغبة في مساهمة الفقراء من أهل الدين إذ لا بد أن يحول دون اعتقادنا هذا ما كان يقوم به علينا من تلاعب بأشخاص أولئك السلاطين الأطفال من بيت قلاوون .

كذلك يشير المقرئ في ضمن حوادث سنة ٧٦٥هـ / ١٣٦٤م أن الأمير عليها الأتابك حفر « ترعة استجدها من البردوشين بالجزيرة فكثر النفع بها » . (١٢٦) وهل ذلك تتبدد الوسائل التي كان يتجهجها علينا من أجل للمصلحة العامة ، وإن كان يصعب علينا التكهين بطبيعة الدوافع الكامنة وراء مثل هذه الأعمال . ومن المحتمل كثيرا أن علينا كان يرى في غراب البلاد بداية لما كان يسعد به من مكانه وثره ورفاهية ، ومن ثم اجتهد في خدمة البلاد لحلف استمرار أسباب سعادته .

كذلك حتى الأمير عليها بتوزيع الرتب الأميرية على أتباعه المماليك (١٢٧) - ربما - من أجل أن يجهتوا في العمل على خدمته في مختلف ميادين النفع والمصلحة .

ولكن هذه الآية والرفاهية غير العادية لا تستمر حيث حصل عليها هل قطع أنصار بعض الأجداد ، إل جانب تسلطه على مماليكه الجبلان وتغلوه عليهم حتى أدى الأمر إلى تعاضيم من أجل هدف التخلص منه مما جعل يفرغ فتنة كبيرة مدحت بتعظيم سلطة المماليك في مصر لولا التضام مختلف الطوائف والفتن حول السلطان الأشرف حسين : « والتسكن بالتالي من مزينة علينا وأنصاره حيث يقول امقرئزي : »

« وكان الأمير عليها - لأمر يريد الله تعالى - قد شحت نفسه ،

من وجوده وأفعاله . يصعب في الحقيقة تعيين السبب وراء ذلك ، ولكن يمكن القول أن كل ذلك كان عنصرا أساسيا لا بد من عمله كي يستمر الوضع الذي كان عليها يريد نفسه بغض النظر عن نوعية الدافع وراء ذلك .

ويؤكد المقرئ في هذه الواقعة بقوله :

« وكتب مرسوم بإسقاط ما يؤخذ من مكس الحجاج بمكة فيها يجعل إليها من البضائع . خلا مكس الكرم تجار اليمن ، ومكس الخيل ، ومكس تجار العراق وعرض ليرمكة من ذلك أنقلها بمصر ، وحمل اليه مبلغ أربعين ألف درهم فضة ، هنا يرمض نحو الألفي مثقال ذهبيا » (١٢٨)

بالإضافة إلى ذلك :

« أبطل عليها الكوس من مكة والمدينة ورتب عوض ذلك من بيت المال مائتي ألف وستين ألفا » (١٢٩)

ومن جانب آخر فتح عليها بمظاهرة أشرف والرفاهية في العيش فكان موكبه من أعظم الموكبات ، ويقال أن حضر الدين بن قزوينه كان يحمل إلى عززاة عليها في كل يوم ألفي دينار . (١٣٠) ويذكر المقرئ في :

« وفيها (٧٦٤هـ) فرق الأمير عليها كثيرا من الغلال والمال في الفقهاء والصوفية . ودلى من ذلك جانبيا مرفورا للفاضل عجب الدين ناظر الجيوش ، فوافقه الناس بهذه الصدقات بحيث استغنى منها جماعة » (١٣١)

نرى هل يمكن أن نعتبر هذا المسلك من الأمير عليها محاولة منه في التقرب إلى أهل الدين ، فيسبب محبتهم ورضاهم منه ، وبالتالي يحدس شكوكهم حول مولفه المتأثر من السلاطين فيعزل هذا ويولي هذا بما يخدم مصالحه وأطماعه ، وأنه في يفعل ذلك الإبدائع من الخوص على مصالح الدولة والرغبة في خدمة أهدافها ، وأن ذلك لا يمكن أن يتم في ظل حكم سلطان لمرب ما جن ولا بد من استبداله بأخر ، وكان الناس لا تترك بأن كلا السلطتين طفل لا حيلة له ، وإن زعم الأمور مروه برأي الأمير عليها وتديره . وهل ذلك هل يمكن أن نعتبر تصرفه نوعا من الدعاية السياسية أو الرشوة الاجتماعية من أجل خدمة أهداف شخصية بحثه حتى ولو كان في

(١٢٦) السلوك ، ج ٣ ، ص ٩٨ .

(١٢٧) التوجع ، ج ١١ ، ص ٣٤ .

(١٢٨) ظفر ، ج ٥ ، ص ١١٢ - ١١٤ .

(١٢٩) السلوك ، ج ٣ ، ص ٥٥ .

(١٣٠) السلوك ، ج ٣ ، ص ٩٣ .

(١٣١) السلوك ، ج ٣ ، ص ١١٤ - ١١٨ ، انظر كذلك ج ١٠ ، ص ٢١٩ .

وأما يلبغا فانه سار ليلة من جزيرة الغط الى بولاق التكروري ، فلم يأتها الا عند نصف النهار من يوم الاربعاء فلم يجد مركبا يمدى به النيل الى الخرقة الذهبية فعادى فيها ، وقد عرفه الرئيس صدقة حتى وافى حاجب الحجاب بالجزيرة ، ومن انضم اليه من الامراء والاجناد ، فأكفد في للتح بالتصدي بأحد ، من بر الجزيرة ، وسار في جيشك كبير الى القلعة ، فمتمعت نائب الغيبة من دخولها ، ودأوا منعتها عليهم عن قولها من المقاتلة ، فعاد عنها بجمعه الى منزله بالكيش وظل فيه بقية يماره ، وبات ليلة الخميس ، وقد رجع الامير طيفا حاجب الحجاب الى الجزيرة لحراسة المعادى .

وأما المماليك فاتهم لما بلغهم فرار يلبغا نادوا « من أراد خلدومه يلبغا فليتمه » ، ومن أراد السلطان فليقيم معنا « . فتبع يلبغا طليقة وتأسر أكثرهم ، فأسرع القوم الى من فرارهم وأخذوهم ويدهم واقتسموا جميع ما معهم . ونجمهم بأسرهم عند وطاق السلطان ونزلوا من خيولهم ، ومشوا بين يديه ولبغا الارض ، وأعلموه بما كان من يلبغا في حقهم . وما رده من الكلام الخالي عليهم ، وسأله نصرته عليه ، فوجدتهم بشير ، وقوى عزائمهم ، فحللوا له . ثم ساروا به الى بولاق التكروري في ليلة الاربعاء ، حتى وافى شط النيل فلم يجد مركبا يمدى به النيل ، فقيم هناك بين يده ونوهى بالالامة ثلاثة ايام . وكتب البطريق الى الاسكندرية ومباط ورشيد الرئيس على أجنحة الحمام ، يقدمون من بها من الامراء والاجناد المراكزين في الفيزك على العادة لحفظ الثغور من الفرنج ، وكتب بحضور من بالوجه القبل والوجه البحرى ايضا ، فقدموا شيئا بعد شيء ، وأخذ ولاه الجزيرة في جمع المراكب من شاطئ النيل ، فجمعها منها عند ركب بها طليقة في الليل ، وأخذوا كثيرا من الشوان الحرية التي في وسط النيل وضموها بما باقي منها وصاروا بها جميعا الى بولاق التكروري ، ولها آلات الحرب ، فبأ مطلع النهار ، حتى زينت ونصبت عدها ، وهمرت بالرجال البحرية والمماليك السلطانية فكان الامير يلبغا الخا نصيب فيها لتكون مقاتلة له ومنزلة لثمته ، وصاروا للملك .

فلما كان يوم الخميس ، ركب الامير يلبغا في عسكر موفورا الى الجزيرة ، فبرزت اليه الشواني من بر الجزيرة حتى صارت في وسط النيل ودته المماليك السلطانية منها بالسهم ، والنظ لم ي زال القوم يترامون يمارهم ، ثم أمر يلبغا فحي اليه بالخليفة ، وأتوا بن حسين بن حميد بن قلاوون . وطلب يلبغا من الخليفة ان يفوض اليه السلطة عوضا عن اخيه شهبان ابن حسين ، فانتع الخليفة من

وسادت اخلاقه فانجعت ممالكه الاجلاب الى رؤ وس الثوب ، وشكروا ما يلقوه من الامير يلبغا وانه يحفهم ، ويصبرهم ، ويبلغ في معاقبة احدهم على اللتب اليسر ، حتى انه ضرب عدة منهم بالمقارع وقطع السنة جماعة ، وانهم قد صاروا يدا واحدة ، يريدون قتله ، وقتل من لم يوافقهم هل ذلك ، فأنشأ الاكابر منهم عليهم بالشمل قليلا حتى يأخذوا ما عند الامير يلبغا ويعدوه في شأنهم . والتدب منهم الامير اسندمر الناصرى . (١٢٨) والامير اليغا جلب الاحدى (١٢٩) . والامير قهساس الطزى ، والامير قبرى برمش الصلى ، والامير اليغا جركس اسير سلاح ، والاسير قرايضا الصرغمشى ، ومضوا الى الامير يلبغا ، وحذوه في امر المماليك ، وسأله الرق جهم ، فجههم . ورد عليهم ردا جافا ، وتهددهم ، وحلف بالامان المخرجة انه لا يد من ضرب جماعة من ممالكه بالمقارع ، وإشهادهم في الوطاق ، فشق ذلك عليهم وعرجوا من بين يديه وقد تورفت صدورهم وحذوا اخوانهم من المماليك بما كان من الامير يلبغا ، وانفقوا جمعا على الفتك به ومالغوا على ذلك ولبسوا سلاحهم ليلة الاربعاء الخامس ربيع الآخر ، وكسوا عيهم يلبغا وأحاطوا به ليأخذوه فمضى اليه بعض خواصه منهم ، وأعلمه الخبر ، فبادر الى الفرار على فرس وقصد بولاق التكروري في نفر من خاصته ، وبعث الى الامير طيفا حاجب الحجاب يعلمه بما هو فيه ، فلم يشعر الحجاب ، وقد جلس بكرة يوم الاربعاء لعرض الاجناد على عادته ، وهم منه على تحقوف ان يقطعهم كبا فعل بغيرهم ، إذ جاءه أحد ممالك يلبغا وأسر اليه طويلا ، ثم قام عنه ، وقد كبر حاله ، فامر الاجناد بالانصراف ، وأبطل عرضهم ، وركب الى داره ، فلبس آلة الحرب هو ومماليكه ، وهاد الى الجزيرة ، وتقدم يطلب أجنحة الحلقة ومن تأسر بالقاهرة من الأمراء ، فأتوه في السلاح ، وقد أرتجت القاهرة بأهلها وخرجت العامة من كل موضع الى الجزيرة ، وما حولها ، ومنع أرباب المراكب النيلية ان يمدوا بأحد النيل من بين ، وجمعت المراكب كلها الى بر مصر ، وضمو الشواني البحرية ، والقوا مراسيها في وسط النيل ، وأخرجوا ردا رجافا . وتقدم حاجب الحجاب الى فتح الدين صدقة رئيس الخرقة السلطانية ان يخرج الخرقة الذهبية من بر الجزيرة ، ولا يمدى الا بالسلطان والامير يلبغا فقط ومن يصحبها ، وكان الامير عمر بن النائب ، نائب الغيبة - قد اخذ ابراب القلعة ، وأبسن من بها من ممالك السلطان السلاح وأكلمتهم على الاصوار ، واستمد .

(١٢٨) انظر ترجمه ، الثور ، ج ١ ، ص ١٢٣ .

(١٢٩) انظر ترجمه ، الثور ، ج ١ ، ص ١٢٩ .

بالسلطان . ولم يتأخر مع يلبغا سوى على الدين طيغنا حاجب الحجاب . وكان العامة قد تقربوه تصانوسن . وفر محاليكه شيئا بعد شيء . فالتقى الزوال . وبعت بسلطان الجزيرة أتوك إلى القلعة ، وأصعد بكوساته إلى الطليخانة ، ونزل عن قمره تحت المجدان بسوق الخيل . وصلى ركعتين . وحل سيفه من وسطه ، وأمر طيغنا حاجب الحجاب أن يحضيه به ، ثم ركب قمره ومضى إلى داره بالكيش ولم يبق معه الا ذون المائة فارس ، والعامة تيزا به ونسبه ، وترجمه بالحجارة حتى وصل داره .

وقدم السلطان إلى القلعة في عساكره ، وعسكر يلبغا ، وعالم كبير من العامة ، لدخل من باب الاصطبل أول ليلة الأحد ، فنزل عند بابيه ، والكركسات تدق ، والعساكر واقفة تحت القلعة في الرملة . ثم أمر باحضار يلبغا ، فاحضر اليه في الخال ، مع عدة من الامراء والمماليك المتوجهين اليه من قبل السلطان . وأحضرهم طيغنا حاجب الحجاب ، فحسب بالقلمة . فخشيت المماليك منه ان يفرج السلطان عنه ، فيبيدهم ، فاصروا باجمعهم إلى أكابرهم والايهان منهم ، وهم الامير استمير ، والامير البقا جلب ، والامير قجماس ، وما زالوا يجمع حتى طلبوا من السلطان ان يكتمهم منه ، فخلاهم وإياه ، فأخرجوه من السجن ومشا به حتى قرب من باب السلسلة ، قدم له فرس ليركبه ، فعدت اراذ ركوبه ، بلوه من محاليكه كمرائر ، التي رأسه من بلنسه ، واتحمم بقتهم عليه بسيفهم ، حتى أتكفوا شاره ، وحلوا رأسه إلى السلطان ، وبين يديه مشعل قد اضمرت ناره وعلاطيه ، فألقوا الرأس في النار ، ثم اخرجوه وحملوه ، فحمله من هنالك بسلعة كانت تحت اخذه ، وحملت جثته إلى خلف القلعة . فعدت ذلك قام السلطان وصعد إلى قصره من القلعة ، فاعاد الامير طاشن ثمر - دواندار يلبغا - الرأس ، وتبع الجثة حتى وجدها في ليثته ، ثم غسل الجميع ، ودفعه بربته المعروفة بترية يلبغا ، خارج باب المحروق من القاهرة ، وبذلك ليلة الاحد عاشر شهر ربيع الآخر ، حتى أصبح نهار الاحد صعدوا إلى الخيمة بالقلعة . وقد تبين منهم الامير انبغا الفلقة والامير استمير والامير قجماس ، وأعلموا في تدبير امور الدولة وقبضوا على الامير قزاقبا البدرى . والامير يطوب شاه ، والامير يلبغا الداودار وقيلوهم ويشروا فحسبوا بالاستكندرية ، وأزمو الامير خليل بن قوصون بأن يقسم في داره بطلا .

هذا وقد امتدت ايدي العامة وأسافل الاجناد إلى بيوت الايهان فنهبوا بحجة انهم من حواشي يلبغا . حتى شنع الامر في ذلك ،

ذلك واحتج بأن الشوكة للأشرف شعبان ، فأمر يلبغا بالكوسات ، فعدت ، وأقام شعار السلطنة كله . وقال : أنا أعينه وآله ، ومن الشوكة خيرى ؟ فلم يجد الخليفة بدا من سلطنة أتوك . فأعلموه سلطانا لقبوه بالملك المنصور ، وأزكروه بالشعار السلطاني . واشتد الحروب بين الفريقين يوم الخميس ليلة الجمعة . وجلس المنصور أتوك بكرة يوم الخميس وبين يديه ارباب الدولة من الامراء وأرباب الاقاليم على الساحة ، فلما انقضت الخدعة وركب بالساكر مع الامير يلبغا للحرب ، واستمر الرمي من الشوالي طول نهار يوم السبت . ثم نزل عدة من الاشرفية في اربعة شوال يريدون جهة الروضة ، فتدب يلبغا جماعة من اصحابه إلى جهتهم حتى تمعومهم المصدرة إلى البر ، ثم خرجت ثلاث طرايد ايضا ومضت من بولات التكرورى تريد جهة جزيرة النيل وشبرا ، فسير اليهم يلبغا طائفة أخرى منهمم الزوال إلى البر ونهزم الامير طغاي ثمر النظامي ، والامير قزاقبا البدرى ، والامير طيغنا الجبلدى ، فالتقوا قريبا من الوراق وصار البدرى والنظامي في جملة الاشرفية ، فمشتوا بيا إلى بولات التكرورى ، ونزل الاشرفية إلى ناحية شبرا في نحو ثلاثة آلاف فملكوا البر الشرقي .

هذا وأسواق الشاهرة طول هذه الايام مغلقة ، والاسباب متصلة ، وليس لثناس شغل سوى التفرج في شاطئ النيل على للفتاتين من السلطنة واليهانوية ، وصاروا يلهجون كثيرا بفولهم « سلطان الجزيرة ما يساوى شعيرة » يريدون ان أسر أتوك لا يتم ويزاؤون به . وصار الامير قجماس الطازي يهرئ ثاوب لطيف ومعه طائفة ، حتى يقرب من البر ، ويمرر بالنشاب ، فيرموه ايضا ونسابوا ، وتمصبت العامة للسلطان ، وصلوا لهم رايات ، وسبوا اليه ، وصاحوا عنده والسلطان منصور بفائدة امر يلبغا ينحل فلما قدم البدرى والنظامي على السلطان ، وأعلماه بأخذ السلطنة البر الشرقي ، وتفرق اليهانوية في طلب الشوالي ، وأشارا عليه بتعدية النيل . وكتب في بنية الاغربة بن معه ، ومضى إلى جهة شبرا والعامة تحديه من البرين . وتشتيت بالداه له . حتى نزل شبرا ، وألقت عليه جموعه ، فصار يريد القلعة فتسل أصحاب يلبغا عنه . طائفة بعد طائفة ، فلم يجد يلبغا بدا من القرار ، وتوجه يريد القلعة ، وقد فرغه من كان قد بقي معه من الامراء ، وهم مطوب شاه ، وأزغون ططر (١٣٢) ، وبينما هم على السوادار ، وحسبوا بن قوصون . وأقيسوا الجوهري . (١٣١) وكشميشا . وبينما هم في شبرا ، وأيقبوا ، وحسبوا جميعهم

(١٣٠) ظهر ترجمه ، القدر ، ج ١ ، ص ٣٢٢ .

(١٣١) ظهر ترجمه ، القدر ، ج ١ ، ص ٤١٩ .

درهم فضة ، عنها يومئذ زيادة على خمسين مثقالا من الذهب ،
وحمل مالا جزلا إلى الأمراء حتى أعيد إليه انقطاعه .

وفي ليلة الأربعاء ثالث عشرة توجه الأمير تفرى برمش بعدة من
الأمراء والمماليك المقبوض عليهم إلى الاسكندرية فسجنوا بها .
وفي يوم الخميس رابع عشرة قدم الأمير الطنبغا البشتكي نائب
غزة .

وفي ليلة السبت سلس عشرة انخرج كمشيغا الحموي والقبغا
المجوهري من غزاة شمالا ، إلى الاسكندرية .

وفي يوم السبت المذكور خلع على الأمير طيلمر الباسي واستقر
استقرارا . وانعم على الأمير قرايغا العرفتمسي احد العشرات
بتقدمه الف . وفي عشرينه خلع على الأمير أسيفا القوسولي ،
واستقر لآلاغوسا بن القبا الأحمدي (١٢٣٧) . واستقر قراقر
المحمدي عاؤندارا عوضا عن ملكتمير المحمدي .

وفي قدم الطراشي سابق الدين مثقال الأنوكي (١٢٣٨) من قوص
لقربه السلطان واكرمه .

ونودي في الناس « من قطع طيغا حاجب الحجاب غيظه وقت
العرض فليحضر ويأخذه » ، فاجتمع كثير منهم في دار الأمير فاشمر
حاجب الحجاب فرد اليهم اغياضهم (١٢٣٩) . وهكذا انتهت حياة
الاثناك بليغا العمري ومن تبعه من الأنصار والأصحاب ، وقد
اظهرت هذه الحركة بعض الملاحظات التي تجدر الإشارة إليها :

١ (الجبروت الذي كان عليه بليغا في ادارته لشئون الدولة
والحكومة مما اثار روجا من الكراهية حوله .

٢ (كثرة المسارك والاجناد والممالك الذين كانوا يعملون لحكمة
بليغا وصيانة مصالحه الكثيرة .

٣ (تمرد عماليك بليغا عليه وخاصة طائفة الجلبان التي استمرى
اسرها ، مما جعل نهاية بليغا على يدهم ، بل أنهم نجحوا في كسب
السلطان الاشرف شعبان إلى جانبهم ضد بليغا بسبب ادراكهم
حقيقة موقف الاشرف من اتاكبة بسبب سلطه عليه وعلى حقوله .

ونهبوا بيت الأمير هلاي الدين والي القاهرة ، وصلوا من يريد ان
يبلغ من عدوه ما يريد يقول عنه انه يلهو في ، لما هو الآن تسمع
العامه عنه ذلك ، وإذا بهم اتركهم جراد متشر ، فبا يهفوا ولا
يكفوا ، وان صلفوا في طريقهم احدا سلبوه ثيابه . فحل بالناس
من هذا بلاء لا يمكن وصفه وتعرف كل أحد ان يصيبه بلائهم ،
فتصب داره ثم تحرب . وتفرق ألأنا في الأيدي كما فعل بيجاره او
قريبه أو صديقته ، فلما تجاوز العامة في السادم المشدار . وكب
الامير ضرووط الحجاب . وبمه إلى القاهرة في حشة النهار . ونودي
بالانان . وأن غريم السلطان قد اسك ومن تعرض لاحد من
الناس اوب شيئا حل ماله وبمه للسلطان وشقت ، فالتكفوا عن
السادهم .

وفي يوم الاثنين حادى عشر ، جلس السلطان بغار العدل من
القلعة على العادة ، وبلغ على الأمير فاشتمر المنصوري (١٢٣٩) ،
واستقر صاحب الحجاب . وتخلع على الأمير اسلمسر
الشامي (١٢٣٩) واستقر مقدم الف نافر الاحباس دودارا كبيرا ،
وعلى الأمير كجماس الغازي ، واستقر امير سلاح . وعلى الأمير
ضرووط ، واستقر حاجبا ، عوضا عن بيلور شاه ، وعلى الأمير
ناصر الدين محمد بن تلمارى . واستقر امير بشكار ، عوضا عن
جمال الدين عبيد بكتمير الحجاب (١٢٣٩) . وتخلع على الوزير فطر
الدين ما جند بن قزوين . واستمر على عاقته وقبض على الأمير
ارغون العزى ، والأمير أرغون ارغوني ، والأمير ائمر العزى ابو
فكر (١٢٣٩) والأمير يونس العسر الرصاع ، والأمير اقبسا
الجوهري . (١٢٣٩) والأمير كمشيغا الحموي رأس ثوية بليغا ،
وسجنوا بالقلعة ما عدا كمشيغا الحموي وأقبغا المجوهري ، فالبغا
سجنا بخزاة شمالا .

وفي يوم الثلاثاء ثاني عشرة قبض على الأمير ايتك البغدري
فصالح عن نفسه بأن يقن على الممالك الأجلا من ماله ، فاتفق
فيهم ، وكانوا ألفا وثمان مائة مملوك ، اعطى كل مملوك منهم ألف

(١٢٣٩) انظر ترجمه ، القدر ، ج ٣ ، ص ٣٣٣ - ٣٣٤ .

(١٢٣٩) انظر ترجمه ، القدر ، ج ١ ، ص ٥٨٨ .

(١٢٣٩) انظر ترجمه ، القدر ، ج ٢ ، ص ٦١ .

(١٢٣٩) انظر ترجمه ، القدر ، ج ١ ، ص ٣٧٨ .

(١٢٣٩) انظر ترجمه ، القدر ، ج ١ ، ص ٤١٩ .

(١٢٣٩) انظر ترجمه ، القدر ، ج ١ ، ص ٤١٩ .

(١٢٣٩) انظر ترجمه ، القدر ، ج ٣ ، ص ٣٣٣ .

(١٢٣٩) السلك ، ج ٣ ، ص ١٣٠ - ١٣٩ ، انظر تلك النجوم ، ج ١١ ، ص ٢٦ - ٤٠ ، وبلغ ، ج ١ ، ص ١١٧ - ١١٨ .

٤ في يوم الخميس تسعة عشرة (عشرون الأول) نزل جماعة الامراء من القلعة الى المدرسة للمسجورة ، فحملوها بها ، وخلع عليهم بالشراب على العادة ، وركبوا الى القلعة ، وقد زينت القاهرة لهم ، فكان يوما مشهودا^(١٤٠) كما تمت في ذلك اليوم نقل الامير علاء الدين والي القاهرة الى ولاية مصر ، واستقر عهده في ولاية القاهرة الشريف بكتصر ، فسر الناس بهزله ووزل دولة بلخا ، ويحيى ابن قزوينه ، واهلوا الزينة يومهم كله^(١٤١) .

وكان الاشرف شعبان كان يريد بذلك مكافأة العامة بسبب وقوفها الى جانبته ضد الاتراك بلخا ، فحقق لها مطلبها كانت ترغب فيه . وتذكرنا هذه العلاقة الودية بين الاشرف شعبان ورجالها من العامة بتلك التي ربطت بين الناصر محمد والامانة طوال عهده حيث اهتم طلقا وقفوا الى جانبته مناصرين له ، كما كان هو حرصا على تلبية مطالبهم من اجل كسب رضائهم .

كذلك من النتائج التي ترتبت على ولوع مؤامرة بلخا ضد الاشرف شعبان لم فشله والقبض عليه ان حدث تغير شامل في ولايات الوظائف الادارية^(١٤٢) . بما يتفق مع مصالح الفقه الجنبية التي وصلت الى السلطة من طائفة كبار الامراء المماليك حيث استقر الامير فخر الدين النظامي هو المتحدث في حل المملكة وهداها ومعه آقينا جلب الاحدي واستمر الناصري^(١٤٣) بالاضافة الى ذلك نجد انه :

٥ في يوم الخميس ثاني عشر جمادى الاولى قبض على فخر الدين مساعد بن قزوينه وسلم لفرارها الصرختمشي لستخلص منه الاموال^(١٤٤) .

وهذا يدل على ان ابن قزوينه كان ناهيا لكثير من الاموال بغير حق حتى امتلأت خزائنه بخروات الديار الى ان جاء الوقت لتخليصها من يده .

بالاضافة الى ذلك :

٦ اشتد الطلب على المماليك البلخاوية ، فقبض منهم على نحو الآلاف ، وحبسوا ، فبلغ السلطان الان الاخيرين بلخا آمن وتلكمتم يريدنا انخراج المذكورين وسكني بيت بلخا في الكشي ودكوبها بهم على السلطان وقته ، فبايد ويحيى على بلخا آمن من الصد يوم

٤ (نجاك بلخا في تعيين آتوك اخي السلطان الاشرف سلطانا جديدا لدولة المماليك وهي الامة التي كان يارسها بنجاك من اجل اهدافه الشخصية ، الا ان الوضع هنا يختلف بسبب وجود سلطان شرعي معترف به على كرسي الحكم ، ولا يمكن ان يستمر الحال بوجود سلطانين في دولة المماليك ، بل زاد ذلك من خطورة الموقف ، وان بدا وضع الحليفة المراسي ضميما حيث باهر باعطاء البيعة للسلطان الجديد المتصور آتوك بسبب ضغط بلخا .

٥ (مناصرة العامة للاشرف شعبان وتأديهم له من اجل استمرار سلطته بما يدل على شعبيته الواسعة .

٦ (تأثير الوضع السياسي داخل المجتمع المملوكي في مصر على الحياة العامة اذ تسببت هذه الفترة في تشجيع الحياة الاقتصادية وتجميد النشاط الاجتماعي اليومي حيث دأبت الرعية على متابعة مراحل هذا الصراع بين الاشرف شعبان واعلاء اتابكته وبين بلخا المصري وانصاره يوسيا ، فتوقفت الاسواق وانقلبت الدكاكين وانتشل الناس من ممارسة أنشطة موارد الرزق المختلفة .

٧ (كراهية العامة للاتراك بلخا المصري فوجدوا في هذه الفترة فرصة مناسبة للانتقام منه .

٨ (شيق الاشرف شعبان البالغ بسبب ما كان يتعرض له من الحبحر والتحطير على يد بلخا ليريد في هذا الموقف جهلا للانتقام منه بسبب ما حصل له في يده .

٩ (استغلال بعض العامة لحالة عدم الاستقرار السياسي وانتشال الحكومة والمسكر بالفتنة ، فعملوا على السلب والنهب ، والاعتداء على منازل الناس ودكاكينهم مما كاد ان يؤدي الى انفصالات زمام الامور لولا انتباه كبار الامراء لذلك الوضع ، وميلادهم للعمل على نشر الامان والاطمئنان في نفوس الناس ، مع الاجتهاد في العمل من اجل ان يتسبب النظام في المجتمع وتستقر الامور .

١٠ (نجاح المسكر السلطاني في القبض على انصار بلخا وعلى رؤسهم الوزير ماجد بن قزوينه الذي طلقا تطاول على حقوق الرعية ، وكذلك كل من عمل على مساعدة بلخا في حركته هذه . وهكذا انتهت هذه الفتنة بالتخلص من بلخا وابن قزوينه وغيرهم حيث كان لتلك المؤامرة نتائج عديدة فليذكر المفريزي انه :

(١٤٠) السليوك ، ج ٣ ، ص ١٤٠ ، فخر كلك ، يدافع ، ج ١ ، ص ٢١٩ - ٢٢٠ .

(١٤١) السليوك ، ج ٣ ، ص ١٤١ .

(١٤٢) التجميع ، ج ١١ ، ص ٤٤ .

(١٤٣) التجميع ، ج ١١ ، ص ٤١ ، فخر كلك ، يدافع ، ج ١ ، ص ٢١٩ .

(١٤٤) التجميع ، ج ١١ ، ص ٤١ ، فخر كلك ، يدافع ، ج ١ ، ص ٢٢٠ .

ولكن يظهر ان موقف الاشرف شعبان المناصر للمالِك الجلبان قد زاد من صلابة موقفهم وما كانوا عليه من تكرير وتسلط ، ولعل هذا هو السبب الذي جعل يلجأ بجهد في كبح جماحهم . وبعد ان خلدت هذه الفتنة استقرى للمالِك الجلبان اكثر واخذوا يتطاولون على حقوق الناس وجرماتهم ، الامر الذي هدد بانفلات الزمام لولا تدخل كبار الامراء الذين تجمعوا لمحاربة هذه الفتنة المستعصية الطائشة خشية ان يستحل امرها ويهدد استقرار المجتمع في تلك الفترة .

وبذلك تم التخلص مما كانوا يمارسونه في المجتمع من اعمال العنف والسلب . يقول المقرئ :

« في يوم الخميس سادس عشر من شهر رجب ركب الامراء للحرب بالسلاح ووقفوا تحت الفتحة ، وكان قد اشيع ان الاجلاب اليلباوية يريدون الحرب ، ويقبض الامراء ، واول ما بلوا به ان يقبضوا على الاسير قرايضا الصرغمشي وجيسره ، واقاموا على تخوف ، هذا وقد تباحث امر الاجلاب بحث سلبوا الناس في الطرقات ، وجبصوا الخيما على النساء ، واخذوهم بالفهر وقصدوا ارباب الاموال بالاضى ، حتى شمل الخوف الناس . فلما كان يوم الثلاثاء حادى عشر من رجب الامير تغري برمش للحرب في جامعة كبيرة من الاجلاب ، فركب الامراء لحريم ، وقبضوا على تغري برمش الملكور ، وعلى الامير اينيك البديري ، والامير قرايضا العزي ، والامير مقبل الرومي ، واسحق الرجبي ، وبعثوا بهم الى الاسكندرية ، وقبضوا ايضا عدة من الاجلاب ونفوههم من ارض مصر .

وفي سادس عشر من اتم على الامير اقطاي بتقدمة الف وعلى الامير تطلوينا جركس بتقدمة الف » (١٤٠) .

وبذلك انتهى امر يلجأ الذي كان ظلما حيث اصيبت « الطرقات في زمانه في غابة الفساد من العريان والتركان بالبلاد الشامية لقطعته اخبارهم ، واغرى بعض الامراء اسوان ففك بولاد الكبير فكر بعضهم على لسان فانرجها وفك في اهلها وصاروا يتطعون الطرق على المسافرين » (١٤١) .

الثلاثاء سابع عشرة (جمادى الأولى) ، وعلى تلكتبر للمحمدي وجماعة من المالِك ، وحل الاميران الى الاسكندرية ، فسجنا بها » (١٤٢) .

ومن ناحية اخرى نلاحظ انه :

« في ليلة الخميس ثامن عشرة (جمادى الأولى) اغرق السلطان في النيل جماعة من المالِك اليلباوية الذين انتفخوا على قتله وامر بقوة زيت القاهرة ومصر ، فبالغ الناس في تحسبها .

وفي بكرة يوم الخميس هذا سمر من الاجلاب اليلباوية مائة من اعيانهم ، ووسطهم ، واغرق جماعة منهم ، ونفى باقهم الى الشام والى اسوان ، فكان من نفى من اليلباوية يرفوق ويركة ، والطنينا الحوياني ، ويكرس الحفيلي (١٤٣) واقبض الماردني ، فتسلمهم الشريف بكتروالى القاهرة ، وابتقهم في داره وقد جعلت اينيم في الحبس ، وحضر خذلاء فلم يعلمهم شيئا ، ورسم عليهم من توجه بهم الى قلها ، فتسلمهم والى قلها وبعث بهم الى خزنة ، فارسلهم نالها الى الكرك ، فسجنا بعب مظلم في قلعتها هذه ستين . ثم اخرج عنهم ومضوا الى دمشق ، فخدموا عند الاسير متجك نائب الشام حتى استدى السلطان بالمالِك اليلباوية ليستخدمهم بديونا ولديه فحضر يرفوق ويركة وغيرهما الى القاهرة . وبعد يرفوق لم يجد عند ولدي السلطان حتى قتل السلطان بعد حودة من عقب ابلة ، وقام الامير اينيك بامر الدولة ، فصار يرفوق من جملة امراء الطليخانة ، وبها ملك الاصطبل ، واقام به حتى تسلم » (١٤٤) .

ومن ثم بدأت الأوضاع تستقر بعد هذه الفتنة التي حدثت بتسليم الدولة والحكم ، واعتدت الامور تعود الى وضعها الطبيعي حيث :

« اخلع الملك الاشرف في ثامن عشر من شهر رمضان على الامير اوفروان الازني باستقراره رأس نوبة كبيرا هورفا من تلكتبرين بركة واستقر تلكتبر المذكور امير مجلس هورفا من طغتمير العظمي (١٤٥) . » (١٤٦) .

(١٤٥) السيرة ، ج ٣ ، ص ١٥٣ - ١٥٤ .

(١٤٦) انظر ترجمه ، القدر ، ج ٢ ، ص ٧٠ .

(١٤٧) السيرة ، ج ٣ ، ص ١٥٥ - ١٥٦ .

(١٤٨) انظر ترجمه ، القدر ، ج ٢ ، ص ٣٢٨ .

(١٤٩) القديوم ، ج ١١ ، ص ٨١ .

(١٥٠) السيرة ، ج ٣ ، ص ١٥١ ، انظر تلكت ، القديوم ، ج ١١ ، ص ٤٢ .

(١٥١) القدر ، ج ٣ ، ص ٢١٦ .

ومضى نحو القرواة ، وبمر من وراء القلعة ، حتى واناهم من تحت دار الضيافة ، ووقفت تحت الطيلخانات فالتقى مع الامراء ، وانتقلوا فلهزمهم حين كان قد دير معهم من البلخارية في الليل تبش الامراء او قتلهم وبثت الامير الجايي اليوسفي^(١٥٤) والامير ابرهون ططر ، وقاتلوا استنمر الى قبل الظهر ، فلما لم يجدوا معينا ولا ناصر انكسروا الى قبة النصر ، وانفض الجميع بعدما قتل الامير شروط الحاجب ، وبصرح الامير قجمناس والامير اقبغا الجلب^(١٥٥) ، وكثير من الاجناد والعمالة ، فقبض الامير استنمر على الامير قجمناس ، والامير اقبغا الجلب والامير الطاي ، والامير قطلوينا جركس ، وهؤلاء امراء الوراء ، وقبض من امراء الطيلخانات على قرابغا شاد الاحواش ، واعتضى كثير من الاحراء ، ومرت محاليتك استنمر وطائفة من الاجباب في شلق كثير من المعاة ، فهبوا يهوت الامراء ، فكانت هذه الواقعة من اشنع حوادث عصر واسطلمها فسادا .

وفي يوم الثلاثاء غد الواقعة ، قبض على الامير ايدر الشامي اللوفا^(١٥٦) ، ففسره الامير استنمر ضربا مبرحا ، وعصفه على خلفته عليه ، ثم قبله مع بقية من قبض عليه ، ولبه اسك ايضا الامير الجايي اليوسفي احد امراء الاولوف والامير ياقير احد الطيلخانات ، فقيروا وحمل الجميع الى الاسكندرية ، فسجنوا بها .

وفي يوم الاربعاء قبض على الامير طياري عمر النظمي - احد الاولوف - وحمل الامير ابرهون ططر - احد الاولوف - وحمل قطلوينا الشهباني ، وابينمر الخطاي ، ولسراذ السلازي ، وهم من الطيلخانات ، ثم قبض على الامير الطينغا الاحدي احد ملدي الاولوف ، وحمل طابجر من هوش ، وآسن الناصري ، وقراشر الدحمدي . وقرباغا الاحدي ، من الطيلخانات ، وحمل جماعة اخرى ، فكانت هذه من قبض عليه استنمر خمسة وعشرين اميرا^(١٥٧) .

وبذلك تكون هذه الحركة قد حققت عكس الاهداف التي رغب

الا ان السؤال هنا هو هل يمكن بالقضاء على هذه الفتنة الخطيرة الوصول الى الاستقرار السياسي المطلوب من اجل استمرار مسيرة غنطة التيارات الحضرية والمظاهر الحيوية في المجتمع المملوكي ؟ يقول القرعزي :

« وكان الامير استنمر^(١٥٨) قد صار لي رتبة استنفة يليغا ، واليه تدبير امور الدولة ، وعنه يصدر ولاية اربابها وعزمه ، وسكن في دار يليغا بالكيش^(١٥٩) .

ويبدو ان الامير استنمر بدأ يهيج نفس سلوك يليغا العمري من الانفراد بالسلطة والحكم وهو السبب الذي لدى الى الاطاحة بالتابليغ يليغا العمري ، بل كان استنمر « عن ثلر حل استنفة » ، فلما قبض استنمر على المملكة^(١٥٩) .

الا انه « لما استقبل بتدبير المملكة اربادوا (الامراء) الثورة عليه فظفر بهم ، وقبض على خمسة وعشرين اميرا ، واقام غيرهم من جهته^(١٥٥) » .

وشرح القرعزي هذه الواقعة غير المعادية بقوله :

« فلما كان يوم الاحد سابع شوال (٧٦٨هـ / ١٣٦٦م) بلغ الامير استنمر ان جماعة من الامراء قد اتفقوا على الفتك به وبالاقلاب ، وهم اعضاءه ويسم بصول . فخرج ليلا من داره الى دار الامير قجمناس الطاي ، وبذل له مالا كبيرا حتى استماله اليه ، ثم فارقه ، وفي ظنه انه قد صار معه ، ولم يكن كذلك ، وعاد الى منزله بالكيش واستدعى خواصه من البلخاوية ، وقرر معهم انه اذا ركب للحرب يقتل كل واحد منهم اميرا ، او يقبض عليه ، وبذل لهم مالا كبيرا حتى وافقوه ، وما هو الا ان خرج استنمر من عند قجمناس ليدير ما قد ذكر مع الاقلاب ، ركب قجمناس الى جماعة من الامراء وقرر معهم القبض على استنمر ، فركبوا معه للحرب ، ووقفا تحت القلعة ، فنزل السلطان في الحال الى الاصطبل ، ودفعت الكوسات حوريا .

واما استنمر فانه بات هذه الليلة في اصطبله ، حتى طلعت الشمس ، وزكب من الكيش حين معه من البلخاوية وغيرهم ،

(١٥٢) انظر ترجمه ، القدر ، ج ١ ، ص ٤١٣ .

(١٥٣) السليك ، ج ٣ ، ص ١٤١ .

(١٥٤) القدر ، ج ١ ، ص ٤١٣ .

(١٥٥) القدر ، ج ١ ، ص ٤١٣ .

(١٥٦) انظر ترجمه ، القدر ، ج ١ ، ص ٤٣٣ .

(١٥٧) انظر ترجمه ، القدر ، ج ١ ، ص ٤١٩ .

(١٥٨) انظر ترجمه ، القدر ، ج ١ ، ص ٤٠٨ .

(١٥٩) السليك ، ج ٣ ، ص ١٤٢ - ١٤٣ ، انظر كذلك النجوم ، ج ١١ ، ص ٤٢ - ٤٥ ، وبلغ ، ج ١ ، ص ٢٢٠ - ٢٢١ .

طريق تأييد استنصر ضد الأمراء مزيداً من الامتيازات والحقوق والسلطة بحيث أصبح من الصعب السيطرة عليهما من أجل المحافظة على الاستقرار الاجتماعي بين طبقات الرعية ، بل أنه يبدو أن استنصر نفسه بات وهين اثارهم بدلل ما يذكره ابن حجر من أنه لما كانت فتنة الاجلاب والمفهم استنصر خفية منهم وتقوية بهم فكسروهم الله وكفى شرهم ، وسجن استنصر بالاسكندرية فمات بها في رمضان سنة ٧٩٦هـ (١٣٩٦) .

ومن ثم كان هؤلاء المماليك الجلبان سبياً في ضياع استنصر وما حظى به من سلطة وصلاحيات واسعة إذ يفصل القرينى ذلك بقوله :

« وفي يوم الجمعة سانس (صفر سنة ٧٩٦هـ / ١٣٩٦م) ركب المماليك الاجلاب البلبانية لمحاربة الأمير استنصر الناصري الأتابك ، وطلبوه أن يسلمهم يرم الدوادار (١٣٩٦) وازدعم ابو دقن (١٣٩٤) وجرنكتر (١٣٩٤) امير مجلس في عدة اخرى . فلم يجد بدا من ان يمت الى الأمراء ، فلما اتوه قبض على امير جرنتر والامير ازدعم ابو دقن امير سلاح ، والامير يرم العزي الدوادار ، والامير يلينا القوسولي امير الخور ، والامير بك الصرغتمشي الجوكندار ، وحملهم مقيدين الى الاسكندرية . فلم يقتنعهم ذلك ، وابتدوا بسلاحهم ، وغدوا يوم السبت على حريم ، وطلبوا منه خليل بن قوصون ، فسلمه اليهم ، فاقتدى نفسه منهم بمائة ألف درهم ، جعل منها ريعها ورسوما عليه ليقوم بباليتها ، وأهانته اهانة بالغة ، وزعزعا السلاح ، وفي باطنهم خل كثير ، ثم تجمع اكابرهم في ليلة الأحد وانفقوا على قتل الأمير استنصر وقتل السلطان ، واقامه سلطان غيره ، وتحالفوا على ذلك ، وركبوا من لياثهم وقصدوا القلعة ، شام السلطان بالكروسات ، فدخلت ليجتمع الأمراء والسكر ، وأحضر الأمير خليل بن قوصون ، وأركب معه المماليك السلطانية ، وهم نحو المائتين ، والاجلاب نحو الالف وخمسائة ، وفوجي في القاعة بركوب اجناد الحلقة ، وحضور العاصمة لقتال الاجلاب . وكثنت الضوضاء قد منهم لبيع سيرهم ، وكثرة شرهم ، وزيادة تسليح . فبادروا الى تحت

فيها قبلاً من التخلص من استنصر وما وصل اليه من سلطان ومطوعة ، ثم انقبض على عدد كبير من امراء الالف الذين كانوا يعارضونه حيث سجنوا وتمن بدلا منهم جماعة من مؤيدي استنصر ، ومن ثم يكون قد نجح في تثبيت ركائز له في مختلف الاجهزة الادارية في الدولة .

وهكذا انقضى البلاط المملوكي في هذه الحقبة مسرحا للصرعات السياسية بين طوائف الأمراء المماليك في سبيل النفوذ الشخصي والمصالح الخاصة .

وبلغت نظرتنا محاولة استنصر في التخلص من وجود عدد من الأمراء الكبار حيث يجهز بانهمهم امام السلطان الأشرف شعبان فيجد في ذلك مبرراً لنزجهم في السجن الى أجل غير مسمى مما جعل عملية اعتقالهم سهلة عند اصحاب السلطة العليا ، ولعل من اهم الوقائع المؤيدة لما نقول ما يذكره القرينى من انه في :

« يوم الثلاثاء ثالث عشرة (رمضان ٧٩٦هـ / ١٣٩٦م) قبض على الأمير طغاي ثمر النظامي والامير ارغون طغر ، وابها بالآثار فتنة على السلطان » (١٣٩٦) .

ولكن يبدو أن هذا الأهم كان قالياً على شكوك لا اساس لها من الحقيقة والدليل على ذلك ما يرويه ابن حجر إذ يقول :

« ارغون طغر بن عبيد الله التركي ، كان من مخالفين حسن ، وتقدم في دولة يلينا ، ثم ولي رأس نوبة ثم قبض بعد كاتبة يليناسنة ثمان وستين وخميس بالاسكندرية ، ثم أخرج عنه ، وولى امرأة حلة واستنصر بها الى ان مات في اوائل هذه السنة (٧٧٤هـ / ١٣٧٤م) » (١٣٩٦) .

وهل ذلك يمكن القول بأنه حدث عقب القضاء على هذه المؤامرة ووجود نوع من الاستقرار السياسي في سلطة المماليك في ظل حكم مجموعة جديدة من كبار الأمراء الأوليغاركية التي حرصت على استتباب الأمان والسلام في المجتمع المملوكي من أجل الأهداف التي لا بد انها استهدفت مع تغيير الجهاز الاداري ووصول مجموعة اخرى من الأمراء الى المناصب العليا في الدولة .

ومن ناحية أخرى حققت طائفة المماليك الجلبان لنفسها هن

(١٣٩٦) السليوك ، ج٣ ، ص ١٥٩ .

(١٣٩٦) تقيي ، ج١ ، ص ٤٥ .

(١٣٩٦) القدر ، ج١ ، ص ٤١٣ .

(١٣٩٦) نظر ترجمه ، القدر ، ج٢ ، ص ٤٧ .

(١٣٩٦) نظر ترجمه ، القدر ، ج١ ، ص ٣٧٨ .

(١٣٩٦) نظر ترجمه ، القدر ، ج٢ ، ص ٧١ .

بألة الحرب ، فاجتمع إليه الأمراء والمماليك السلطانية والعامة ، ويئت إلى استنصر وابن قوصون ليحضرأ إليه فاقنتما ، وصرحا بأهليهما يريدان نزاع السلطان من لذلك والقائمة فيه في السلطة لتضعم الفتنة . فلما عاد جوابا إلى السلطان ، بثت ثانيا بتوبنها عاقبة الغدر ، فافطروا انها اجابا ، وهما بالحضور ، ثم سلا سيدها ، ومرا ليجتكا بالسلطان . وقد ركب ووقف تحت الاصطبل ، فتبعها من معها من الاجلاب ، وهم شامرون السلاح ، ليعملا لعلها . فيأمر السلطان بالبناء في العامة « هؤلاء شامرون فارحوسهم » . فصاحت العامة باجمعها « عذارين » ورجوعهم بالمجاعة ، ودمتهم المماليك السلطانية بالشار ، فلم يكن غير ساعة حتى انكسر استنصر وابن قوصون ، وقتل عدة من الاجلاب ، فأخذهم العامة في هزئتهم ، وأتوا بهم إلى السلطان لرسالا وقد تزوا لياهم ، وكشفوا رؤوسهم ، وتألوا منهم ما شفى صدورهم ، لم فيضوا على خليل بن قوصون من ناحية المطربة ، وأتوا به . لم أخذوا استنصر من نحو وادي السدرى تجاه قبة النصر . وقبض على الأمير الطنطا البيلغوي ، والأمير سلطان شاه بن قرا . وهما من امراء الاولوف . وقبض على أحد عشر اميرا سوى هؤلاء من البيلغوية وقيدوا . وبضى بجم الأمير ملكنصر ، والأمير الطنطا الصلبي ، والأمير دوت بنأ الياسي إلى الاسكندرية .

ونودي في آخر النهار بالامان ، فلا يهب أحد شيئا ، فلقد ظفر السلطان بفرعائه ، فنزوا القاهرة ومصر ، فزينا احسن زينة ، وفرح الناس بزوال دولة الاجلاب (١٦٨) .

حلاوة على ذلك :

« أمر يديم بيت الأمير يلبغا الخاصكي بالكيش ، لهدم جميعه حتى لم يبق منه سوى بعض سور » (١٦٩) .

لعل الملاحظة الرئيسة التي تبتنها هذه المزاورة هو ضعف مكانة الأشرف شعبان حيث لا تقم له أية فئة شيئا من الاحترار ، فالجميع يرضون في عزله واقامة سلطات آخر ، وكان ذلك اسهل الامور ويبقى بعد ذلك معالجة الامور الاخرى ، الا انه يسترعي اهتمامنا ذلك التأييد الكبير الذي كان يحظى به الأشرف شعبان بين صفوف العامة الذين كانوا يجتهدون لمناصرة ودعمه ضد الأمراء والمماليك الآخرين بقصد حمايته واستمرار سلطنته ولعل في ذلك نروحا من

القلمة زمرأ زمرا ، وركب الأمير استنصا بن البريكري (١٧٠) ، والأمير قشمر المنصورى (١٧١) وغيره . فقتلوا العامة الاجلاب بالرجم من كل جهة ، وتقدم اليهم المماليك السلطانية والأمراء والجناد وقتلواهم فكسروهم فقصوا في كسرهم إلى الأمير استنصر بمنزله من الكيش ، وما زالوا به حتى ركب معهم في موكب عظيم ، ومر على القرافة حتى إلى من وراء القلمة ، كما فعل فيها تقدم ، فلم تثبت له المماليك السلطانية ، وانزمت عند رؤيته ، فتبثت العامة وحدها لقتله ، ووقفوا إليه ورموه بالمجاعة رميا متتبعيا ، وهو ومن معه يرموهم بالنشاب ، فكان بين الفريقين قتال شديد شنيع ، قتل فيه جماعة منها ، وطالت المعركة بينهما ، فصادت المماليك السلطانية والأمراء ، وحلوا هم والعاملة على استنصر والاجلاب حلة متكررة ، فلم يثبت لهم ، ودلى الأديار بن معه ، وامتتم باصطبل من الكيش وقت الظهور ، لقبض من اصحابه على الأمير قرمش الصرعشسي والأمير اقبيا أس الشيوخوي ، والأمير ارسلان عجا وسجنوا بخزانة شاميل في القاهرة .

وركب السوالي عن امر السلطان ، ونافى بالقاهرة ومصر وظواهرها ، « من قدر على أحد من الاجلاب فله سلبه ، ويعطى كذا من المال اذا احضره » فتبثت العامة عند ذلك الاجلاب في الاوكة والحارات ، وأحلوا منهم جماعة ، وركب الأمير خليل بن قوصون إلى الأمير استنصر ، فاقبله من داره وطلع به إلى القلمة ليقيده ويسجن ، فشنع فيه جماعة من الأمراء وقرروا عليه مالا ليقبض على ممالك السلطان ، فقبل السلطان شفاهتهم وعلم عليه ، واقره على حاله ، فنزل إلى داره في ليلة الاثنين ، ومعه الأمير خليل بن قوصون مرسيا عليه ، حتى يحضر من الغد بالبال ، ففدع استنصر ابن قوصون ووجهه بأن يقيمه في السلطة ، فانه ابن بنت السلطان الملك الناصر محمد ابن قلاوون ، فانخرج ابن قوصون ، وقال اليه وتحالفا على ذلك فيبث استنصر لجمع إليه الاجلاب . ويدل فيهم المال ، وودعهم وشامهم ، لما طلع نهار يوم الاثنين حتى ركب استنصر وابن قوصون في جمع كبير ، ووقفا تحت القلمة ، فصدعت الحروب وركب الأمراء والجناد ، وخرج حملة الناس ، فكان الأمراء اذا رأوا ابن قوصون بجانب استنصر انضموا إليه ، غنا منهم انه سلطان . فأمر السلطان لفتك الكوست ، ونزل إلى الاصطبل

(١٦٦) انظر ترجمه ، الدور ، ج ١ ، ص ٤١٢ .

(١٦٧) انظر ترجمه ، الدور ، ج ٣ ، ص ٣٣٣-٣٣٤ .

(١٦٨) السلوك ، ج ١ ، ص ١٥٠-١٥١ ، انظر كذلك فيهم ، ج ١١ ، ص ٤٦-٤٧ ، بلغ ، ج ١ ، ص ٢٢٢-٢٢٣ .

(١٦٩) السلوك ، ج ٣ ، ص ١٥٥ .

الجشع والطمع لم الرغبة في مزيد من القوة والسلطة والامتياز مما يمر الى وضع الخطط من اجل الاقامة بالسلطان ، ففتح الفتنة مرة اخرى ويبدأ الاشراف شعبان نفسه من جديد أمام مؤامرة ربما تؤذي الى القضاء على حياته وحكمه وحرته . وفي أحيان أخرى يبدأ الأمير صغيراً برتبة معتدلة ثم يكره تدريجياً حتى يصل الى أصل المنصب في الدولة ، وبالتالي يبدأ يخطط من أجل الاستحواذ الكامل على السلطة العليا بعيداً عن تدخل السلطان ، وهذا هو بالفعل ما حدث مع الجبلي اليماني اذ بدأ خلع حسب قول القريري عندما « خلع على الأمير الجبلي اليماني واستقر امير سلاح ، عوضاً عن لزمر » . (١٧٦)

ومن ثم أخذ يترقى في سلك المناصب الوظيفية العليا في الدولة مما يعني حصوله على مزيد من النفوذ والسلطة . ويصف القريري هذا الترقى المطرد الذي حظى به الجبلي بقول :

« الأمير الكبير الأتابك الجبلي اليماني ، أحد عماليك الناصر حسن ، ترقى حتى صار حاجب الحجاب ، ثم عزل في التاسع وجب سنة ثلاث وستين واستقر أمير جندار ، الى أن كانت فتنة الأمير أستمدر والأجلا ب ، تولى حربه وقتلته قتالا عظيما ، كانت يهيمها في ست عشرة وقعة ، فلما انتظر أستمدر قبض على الجبلي ، وسجنه بالاسكندرية الى أن زالت أيلام أستمدر أفرج عنه وعمل أمير سلاح ، ثم صار الأتابك واليه أمور الدولة كلها » . (١٧٧)

وقد حدث بعد ذلك انه « في يوم السبت عشرين (رمضان ٧٧٠هـ / ١٣٦٩م) تكرر السلطان على الأمير أقصر الخنيلي لكلام جرى بينه وبين الأمير الجبلي ، وأمر ينظر الى الختام » . (١٧٨)

وهذا يدل على أن السلطان الاشراف شعبان أخذ ينعس الجبلي اليماني برعايته وعنايته بحيث ينادي من يخاصوه ويقربه على حساب خصومه حتى جاء اليوم الذي وصل فيه الجبلي الى منصب الأتابكية حيث يقول ابن حجر : « وفيها (٧٧٤هـ / ١٣٧٢م) امر أن لا يزيد عدد الشهود في كل مركز على أربعة وأن لا يستناب أحداً من القضاة من غير مذهبه ، وذلك من قبل الجبلي اليماني ، المتحدث في المملكة » .

التعاطف الضمني معه بسب ما كان يمانيه من حجر وضغط وأمانة لشخصه وحقوقه على يد كبار الأمراء في الدولة . بالإضافة الى هذا وذلك بلغت نظرات الخوازيات التي كانت شائعة بين طوائف الأمراء وجعاعات للمالكية الأميرية والسلطانية والجليلان ، كل يهدف الى تحقيق المزيد من المنافع الخاصة والقوائد المالية .

كذلك يظهر ان السلطة العليا كانت الشغل الشاغل لتلك الجماعات كافة دون تلك اهل اهتمام بتطوير اجهزة الدولة او اصلاح المرافق وإنشاء مراكز العمل والفكر وكأنه لم يعد هناك في سلطة المالكية مسألة تستحق الاهم . ثم سوى السلطة واستنزائها ، فكان الجميع يعيشون في دوامة من النزاع والصراع الذي لا يكاد يتوقف حتى ينشئ مرة اخرى على يد جماعة جديدة ، والاشراف شعبان يصارع تلك الفتنة من اجل استمراره على كرسي الحكم والابقاء على حياته ، في حين انه كان مليون الخيرة بمختلف معانيها .

ومن ثم فقد تولى منصب الأتابكية بعد استمدر الأمير مكي بكاً بن عيبداه الشامي ، أتابك العساكر بعد قتل استمدر ، وكان قبل ذلك نائب السلطنة بمصر ، وولى امرأة دمشق وحلب وصغد وطرابلس في بوقات ، وتزوج بنت للملك الناصر ثم بنت ابنة حسين اخذت الملك الاشراف ، وكان مشكور السيرة (١٧٩) .

وقد توفي سنة ٧٧٤هـ / ١٣٧٢م ، وهو الذي فتح باب كيسان ، وكان له من عهد نور الدين الشهيد لم يفتح ، وجدده عطية في مسجد الشهورزوري . قلت : وفي يعلب جيلما ايضا ، وعمر الحان عند جسر الجعاج والخان بقرية سمع ، وهو والد خورنك زوج الملك الظاهر بقرق (١٨٠)

ومن الجدير بالذكر ان كل فتنة أو مؤامرة تخلق من وراءها شخصية كبيرة ينفذ ما ان تلعب دوراً مهماً في الحوادث التالية ، ومن ثم تكون هذه الشخصية السبب الاساسي في حدوث فتنة جديدة يكون لها بالغ الأثر على مجريات الأحداث . ولعل السبب في ذلك أن وجود تلك الشخصيات في المناصب العليا يتيح لها التمتع بالكثير من الصلاحيات والسلطات المطلقة تظهر نوازع

(١٧٦) كيد ، ج ١ ، ص ٧٠ .

(١٧٧) كيد ، ج ١ ، ص ٧٠-٧١ ، انظر كذلك شحات ، ج ٦ ، ص ٢٢٦-٢٢٧ .

(١٧٨) السيرة ، ج ٣ ، ص ١٥٥ .

(١٧٩) السيرة ، ج ٣ ، ص ٢٣٠ ، انظر كذلك ، النور ، ج ١١ ، ص ٥٥-٥٥ .

(١٨٠) السيرة ، ج ٣ ، ص ١٢٢ .

والخاصة بالأموال الوفيرة ، ويسمى بالتالي إلى سمة الحاكم الجالس على كرسي السلطة . كما يظهر أنه أخذ يصرف أمور الدولة دون استشارة الأشراف شعبان أن عائلة ممرة رأيه بذليل ما يرويه المغربي من أنه :

« في عشرته (جمادى الأولى سنة ٧٧٤هـ / ١٣٧٣م) قدم الأمير الكبير الجبلي البوسفي بمان لا يجلس في كل حانوت من حوانيت الشهود سوى أربعة ، وأمر القضاة ألا يجلس كل قاض من الشهود إلا من كان على مذهبه ، فانحصر الشهود من ذلك ، ثم تنجزوا مرسوم السلطان بأعادتهم إلى ما كانوا عليه ، فبطل ذلك » . (١٧٩)

ومع ذلك كله فقد استمرت مكانة القضاة الأربعة لها هيبتها التي يجترعها هؤلاء الأمراء المماليك الأريجانية رغم ما تيسر بين أيديهم من قوة وسلطة وصلاحيات . ومن ثم حظي القضاة الأربعة باحترام الأتابكة وتوابع السلطة حتى ولو أن هذا الاحترام قد جاء رغم عدم رضاء للنفس الطبيعي إلا أنه استمر موجودا ، وجد بالتالي من تلك الامتيازات المطلقة في السلطة التي كان كل أتابك يفسرها حسبما يريد وما يرضي أطماعه وجشعه في سبيل مزيد من السلطة المطلقة والمنظمة المادية . ولعل أبلغ مثال على ما نقول ما يذكره المؤرخ ابن حجر من أنه في أواخر ٧٧٤هـ / ١٣٧٣م :

« عهد الجبلي يجلسا بالعلياء في إقامة خطبة بالتصورية ، فأتاه البلقيني وابن الصالح وأخير بالجواز ، وخالقهم بالبولق ، فانتقل بالجلوس على ما قاله الجمهور » . (١٨٠)

وعلى ذلك يمكن القول أنه في كثير من الأحيان في أثناء هذه الحقبة كانت كلمة القضاة هي العليا التي لا يجزئ أي مسئول في الدولة على عدم احترامها والعمل بنهجها .

ونتيجة لذلك كان القضاة هم الملجأ الذي يبرح إليه الضعفاء من الرعية طلبا للمساعدة والاعتمادات النفسية التي لا بد أهم ويفقدونه في ظل تلك الأحوال غير المستقرة .

ولكن السؤال الذي يجب أن يطرح هنا هو ما السبب الذي جعل الأشراف شعبان يفضل الجبلي البوسفي ويرفضه على هذا النحو

وفيها استقر الجبلي أتابك السلطنة ، وبلى نظر للمارستان فاستجاب كريم الدين بن الغنام فيه . (١٧٩)

ولكن من جانب آخر يذكر المغربي :
« واستقر (٧٧٤هـ / ١٣٧٣م) الأمير الجبلي البوسفي أتابك المساكين وتناظر للمارستان ، عوضا عن الأمير متكل بننا الشمسي لسأل قاضي القضاة برهان الدين إبراهيم بن جماعة (١٧٩) في التحدث عنه في نظر للمارستان فلم يقل ، فولى الصاحب كريم الدين شاكسر بن إبراهيم بن خنسام بن نيابة النظر عنه بالمارستان » (١٧٩)

ونتيجة لذلك بدأ الأتابك الجبلي البوسفي يتدخل في كل صغيرة وكبيرة من شؤون الدولة . إلا أننا نجب من موقف قاضي القضاة برهان الدين إبراهيم بن جماعة من تلك التصائب التي يعرضها كبار السراء عليه ليفرض وكأنه يتدخل في العمل معهم ويشتع من التعاون معهم حيث أنه لا يمر ما يقدمون عليه من أعمال خلافة للدين في كثير من الأحيان من أجل خدمة المانع الشخصية . وفي نفس الوقت اجتهد الجبلي في تقريب أبناء وأهله وتعيينهم في المراكز العليا فيكون له خير مساعد على تحقيق ما يصبو إليه حيث يذكر ابن حجر :

« أرسل الجبلي أنحاء عظيمة الحسني إلى دمشق لمرض الأجناد بها فحصل أموالا عظيمة حتى قيل : أن الذي خصه بخون ألف دينار ، وأخذ من خاترات القلعة أشياء نفيسة ، وبائع في الظلم فاستغاث الناس إلى متجك نائب الشام ، لكاتب فيه . ثم توجه المذكور إلى جهة حلب ففعل في بقية البلاد أشد مما فعل بدمشق ولولا تطفل النائب وناظر الجيش بالثاس لمكروا معه ، واستجاب الجبلي في نظر الأوقاف الشريف بكنمر الذي كان والي القاهرة وصار يعمل إليه المعلوم » . (١٧٩)

وبذلك بدأ الجبلي يفتي من أموال الناس بالحق والظلم مما يعني الاسادة إلى الرعية دون علم السلطان الأشراف شعبان أو تدخله . وهذا يدل دون شك على عدم القيام بمسؤوليات المنصب كما يجب ، بل استغلال امتيازات هذه المراكز بما يناسب تحقيق الكثير من المانع

(١٧٩) أيه ، ١ ، ص ٢٨ .

(١٧٩) انظر ترجمته ، الدور ، ١ ، ص ٣٩ - ٤٠ .

(١٧٩) الشوك ، ٣ ، ص ٢٠٤ ، انظر كذلك ، بافع ، ١ ، ص ٢٢٧ .

(١٧٩) أيه ، ١ ، ص ٢٨ - ٢٩ .

(١٧٩) الشوك ، ٣ ، ص ٢٠٣ .

(١٨٠) أيه ، ١ ، ص ٣٩ ، انظر كذلك الشوك ، ٣ ، ص ٢٠٩ .

السلطان ، وختم ابنك عليه ، ثم ثار له العسكر السلطاني فهرب فساقوا خلقه الى اخراقاته من أعمال قلوب ، فرمى بنفسه في بحر النيل فغرق ، ثم أطلع من بحر النيل ودفن في تربته ، وكان أول أمره حاجيا في أول دولة بيلبا ثم استقر خاندانها ، ثم حبس في ابام استنمر ، ثم أخرج عنه بعد قتل استنمر واستقر أمير سلاح ، وتزوج أم السلطان وولدت كلمة الى أن صار هو الحاكم في الدولة كلها ، وكان تام الشكل حسن التودد الى العوام مع هرج فيه أداه الى أن ركب على العامة بالسيف في سنة سبعين ، فلو أنه كان في آخر البار لأخفى منهم خلفا كثيرا ، وذكر بعض خواصه أنه كان يتصدق في كل يوم اثنين وخميس بألف درهم غالبا ، وكان استنمره في الأتابكية بعد متكلي بها ، فلم تطل أيامه في ذلك وقبض على جماعه من حواشيته ، فقبل أن سبب خاتمته أنه كان بيت عند السلطان لولة للموكب فجاءه من أخبره أن السلطان يريد القبض عليه ، فناصر وأرسل فأسطر ثياب ميته ، فأرسل له السلطان يعاتبه فاعتذر ، ثم شرع في تفرقة السلاح على أتباعه ، فبلغ السلطان فأسر الأرواء بالاجتماع عنده ، فلما كان في السابع من المحرم ركب الجاهي بمن معه الى الرميثة ، والتقى مع أطلاب الأرواء وعاليك السلطان ، فاقتتلوا قتالا شديدا حتى قتل ائهم ائتقوا أحد عشر وجها وقتل جماعه وجرح جماعه ، وفي الآخر اجزم الجاهي الى قبة النصر وتفرق عنه الجيش وتردد الناس من عند السلطان اليه في الصلح فلم يتم ، وأرسل اليه خلمة بنهاية حملة فلم يقبل ، ثم قتل الجميع عنه الى أن صار في خمسمائة فخرج اليه أرغون شاه في جماعة من الخاصكية فقاتلوه فابذروا وتفرق من معه ، ونودي بالفاخرة : من أسك مملوكا من عاليك الجاهي أعط خلمة ، فقبض على أكثرهم وصور من كان في خدمته ، واستقر ايدمر ناكب طرابلس أتابك العساكر ، أحضره السلطان منها بعد قتل الجاهي في صفر ، واستقر في نياطة طرابلس بمقبوض شاه ، واستقر أقصر عبدالقي في نياطة السلطنة بمصر . (١٨٤٥)

وبذلك انتهت حياة الجاهي اليوسفي الذي حياه الأشراف شعبان بالمتاسب العليا ، والمالك الوفي والنسب السلطاني ، فكبرت نفسه وازداد طمعه حتى أدى ذلك الى أسوأ حال وأشنع عاقبة .

ثم قبض السلطان على عاليك الجاهي ونودي بالمدينة أن كل من

المادي ؟ نلاحظ أن الجواب على هذا السؤال يقع في حملة النسب التي كانت تربط الجاهي بالأشراف إذ كان الأول زوج والسنة السلطان ، ومن ثم حظي بجله الترتلة الرفيعة في بلاط الأشراف شعبان واستمر ذلك حتى عقب وفاة زوجته . ثم الأشراف - بقليل - ويشرح ابن حجر طبيعة هذه الرابطة مبينا أهمية مكانة أم السلطان فهقول :

« بركة خاتون (١٨١٦) بنت عبدالق المنوثة ، والدة الملك الأشراف تزوجت الجاهي في سلطنة ولدعا ، وماتت في حصته في ذي القعدة (٨٧٧٤هـ / ١٣٧٧م) ولها مدرسة بالتيانة ، وكان الأشراف كثير البر لها بحيث أنه علهام مرارا حتى تزوجة مقابل مصر ، وماتت في ذي القعدة ، فأراد الأشراف أن يزوج الجاهي ابنته ، فقبل : لا تحل له ، فجمع القصة فاتفروا بالنسب لأن بنت الريب ربيبة ، ففوض عنها بسيرة له وكان يجيها اسمها « بستان » فامتنع وزوجها له ، ثم وقع بينهما منازرة بسبب تركه أم الأشراف التي ماتت رحمها الله تعالى . (١٨١٦) »

ومن جانب آخر يقول المغربي :

« وتوليت خوند بركة أم السلطان ، في يوم الثلاثاء آخر ذي القعدة (٨٧٧٤هـ / ١٣٧٧م) وهي التي بنت المدرسة للمروفة بمدرسة أم السلطان ، بسط التبانة ، قريبا من قلعة الجبل ، وبنت الربع المعروف بربع أم السلطان ، وقبارة الجلود التي تحت الربع المذكور ، بسط الركن الملقب ، وكانت في جلة أوقاف مدرستها هذه حتى أخذها الأمير جمال الدين يوسف الاستادار فيها أخذ من الأوقاف والأموال . (١٨١٦) »

ومن ثم لم يمس قليل حل وفاة والدة الأشراف شعبان حتى دب النزاع بين الأشراف والجاهي بسبب الارث بما أثار الفتنة في البلاط السلطاني ، بل أن الجاهي طمع في السلطنة والحكم حتى أدى الأمر الى القتال بينها حيث يقول ابن حجر :

« فيها في المحرم (٨٧٧٥هـ / ١٣٧٣م) قتل الجاهي اليوسفي وكان قد تناحر هو والسلطان الأشراف بسبب منازعة وقعت بينهما في تركة والدة السلطان ، فركب الجاهي ، واقتتل مع عاليك السلطان بسوق الخيل لكسره ، فانهزم الى بركة الحبش ثم رجع من وراء الجبل الأحمر الى قبة النصر ، فهرب جماعه من أصحابه الى

(١٨١٦) انظر ترجمته ، الفكر ، ج ٢ ، ص ٧ - ٨ .

(١٨١٦) انظر ، ج ١ ، ص ١٨ - ١٩ ، انظر كذلك ، التجميع ، ج ١١ ، ص ٥٨ - ٦٠ .

(١٨٣٢) السلوك ، ج ٣ ، ص ٢١٠ ، انظر كذلك ، التجميع ، ج ١١ ، ص ٥٩ - ٦١ .

(١٨٤٥) انظر ، ج ١ ، ص ٧٦ - ٧٨ ، انظر كذلك ، السلوك ، ج ٣ ، ص ٢١٦ - ٢١٧ ، التجميع ، ج ١١ ، ص ٥٧ - ٦٢ .

ثم بعد ذلك بقليل « فتحت مدرسة الجبلي بعد موته ، وكان قد بقي من عمارتها شيء فأكمله الأوصياء ، واستقر في تدريس الشافعية بها الشيخ سراج الدين البلقاني ، وفي تدريس الحنفية جمال الدين محمود القيسري (١٨٩٤) » ، (١٩٠)

ونتيجة لذلك تميزت الملاحظة بأن منصب الأتابكية (١٩١) كان سببا في وقوع أكثر من فتنة في عهد الأشرف شعبان ، الأمر الذي طالما حدد مكانة الأشرف على كرسي السلطنة والحكم . ولعل السبب في ذلك أن صاحب هذا المنصب يعتبر بمثابة القائد الأهل للجيش ، فتكون جميع الكتابات ضمن كلمته وإشارته مما يجعله يشعر بأنه سيد الموقف ويده ما يرغب به من سلطات مطلقة وصلاحيات غير محدودة . ومن هنا تظهر النزعة الشديدة من أجل الاستحواذ على السلطة الرسمية والتخلص من وجود السلطان الشرعي الذي كان يمثل رغم سلطته الاسمية منافسا خطيرا لأتابك المساك خاصة إذا ما كنا نعلم قوة الرابطة الوجدية بين السلطان وبقية السلطنة ، في حين كان هؤلاء يمثلون المنصر الرافض لكل ما بيد الأتابك من صلاحيات وامتيازات .

ويلفت نظرنا أن سلطة أتابك المساك قد طغت على سلطة نائب السلطنة طيلة عهد الأشرف شعبان بعكس الحال إبان عهد الناصر محمد بن قلاوون حين بلغ من قوة نائب السلطان أن كانت لديه القدرة على عزل السلطان والجلوس على كرسي الحكم بدلا منه إلى أن بدأ العهد الثالث لسلطنة الناصر محمد وأضحى قويا قادرا على تسير زمام الأمور لعمل على الحد وبقية نيابة السلطنة كي لا تعود مصدرا لكثير من المصائب التي تحمل بسلاطين الدولة .

ولعله من الأسباب التي أدت إلى تزايد سلطة أتابك المساك ، وبالتالي تتفاقم خطورة هذه القوة على شخص السلطان هو ضعف السلطان الشرعي المجلس على كرسي الحكم ، فكان في هذا الوضع عنصرا مشجعا لكيل الأفراد من أجل الوصول إلى مزيد من النفوذ والسطوة ، بل العمل على خلع السلطان الصغير والجلوس بدلا منه على كرسي الحكم .

لقد أوحدا منهم يحضره إلى السلطان ويأخذ له خلمة . ثم أئخذ السلطان أولاد الجبلي وهم أئخذو إلهه ورثب فم ما يكفهم واحتاط على سائر موجود الجبلي وأئخذ جميع عماليكه وفتح عنهم وجعلهم في خدمة ولديه : أمير على وأبى راجح .

ثم قبض السلطان على جماعة من الأمراء ممن كان يؤيد بالأمير الجبلي وهم صراي الملاحي ولسطان شاه بن قراجا وطقتم الحسني وعلى بن كليك ومصادره ثم أسبك بيضا القوصوني وخليل ابن قماري الحموي فشقق فيها الأمير طشتمر الدودار .

ثم في آخر صفر رسم السلطان بتفي جماعة إلى البلاد الشامية ، وهم محمد شاه دودار الجبلي وخليل بن صرام المزلون عن نيابة الاسكندرية وعلى بن كليك وأبقيا البقمقدار خازن دار الجبلي وكان السلطان في التاسع الحزم رسم لبروي الحلبي الخازن دار أن يتوجه إلى طرابلس لأحضار تائبها الأمير عز الدين إيدمر الدودار الناصري إلى مصر ، فتوجه بوري إليه وأحضره ، فلما مثل بين يدي السلطان خلع عليه باستقراره بأتابك المساك بالنداء للصرة ، عوضا عن الجبلي اليوسفي وقول عوضه نائب طرابلس الأمير يعقوب شاه ، وبعد موت الجبلي أنعم السلطان على جماعة من الأمراء بالطعامات ووظائف فأعلم على الأمير صرفتمش الأشرفي باستقراره أمير سلاح خصاصيكيا مجلس بالأسوان في دار العدل واستقر أرغسون الأحدي (١٨٩٥) إلا أن أمير كير برانيا وأجلس بالأيوان ، (١٨٩٦)

ومن ثم بدأت الأوضاع تستقر وتعود الأحوال إلى نصابها حيث يشير المقرئ إلى أنه في عرم ٧٧٥هـ / ١٣٧٣م « استدعي بالواد الجبلي وأسكنوا بالقلمة ورثب فم كفايتهم ، وولدت الحوطة على جميع ما خلفه الجبلي ، فكان شيئا كثيرا ورتبت عماليكه في خدمة ولدى السلطان ، وقبض على محمد شاه دودار الجبلي ، وعلى أبقيا البقمقدار خازن داره ، وعلى مياشري ديوان وإزاهه ، وإزموأ جمال كبير ، فعملوا بعض ما أئزوا به وعلى عهده » . (١٨٩٧)

من جانب آخر نلاحظ أنه في ربيع صفر ٧٧٥هـ (١٣٧٣م) قدم الأمير إيدمر الدودار من طرابلس ، فخلع عليه واستقر أتابك المساك ، عوضا عن الجبلي اليوسفي . (١٨٩٨)

(١٨٩٥) كافر ترجمه ، الدور ، ج ١ ، ص ٣٣٣-٣٧٤ .

(١٨٩٦) النجوم ، ج ١١ ، ص ٩١-٩٦ .

(١٨٩٧) السلك ، ج ٣ ، ص ٢١٦ .

(١٨٩٨) السلك ، ج ٣ ، ص ٢١٧ .

(١٨٩٩) كافر ترجمه ، الدور ، ج ١ ، ص ١٠٥-١٠٦ .

(١٩٠٠) ليله ، ج ١ ، ص ٧٩ .

(١٩١١) كافر ، صبح ، ج ٤ ، ص ١٨٨ .

أهل المعرفة أنه لم يتقدمه يمثل ذلك نائب ، ومن جملة ما كان فيه اسدان وصيغ وإبل ونحو الخمسين من الكلاب المعلمة ونحو الخمسين من البخالي بلبوسها وخمسة من البخالي أيضا كل منها بستمين وكلها بجايب أطلس ونحو الأربعين حلا يشتمل على فمائل وحلوى وفكاكة ونحو الأربعين هجيناً ومن المشايخ الزركش والعرقيات الزركش والتي الخوري شيء كثير جدا ومن الصرف الملون والخوري والقرى لحسون بدجة الى غير ذلك ، (١٩٤٤)

وهذا يدل من غير شك على سمو المكانة التي حظي بها منجك في بلاد الشام ، فكان صاحب الكلمة العليا فيها خاصة وأن الأحوال السياسية لا تكاد تستقر في مصر بسبب التطلعات الخطيرة لدى الأتاكبة ، ومن ثم أدار منجك بلاد الشام بحرية وعدل ، فقال الكبير في المكانة والمزة في الجيش الكريم بدليل هذه الهدايا التي أهداها على الأشراف شعبان عند قدومه البلاط السلطاني في القاهرة .

ومن ناحية أخرى كان الأشراف شعبان يقدر نائب الشام ويدرك ما يتصف به من جميل الحصول وفضائل الصفات ، ولذا فتمتدأخل منصب نيابة السلطنة في عام ١٢٧٥هـ / ١٣٧٣م استعفى الأشراف شعبان نائب الشام كي يتولى مسئوليات هذه الوظيفة الحساسة في البلاط السلطاني حيث يقول ابن حجر :

« وفيها (١٢٧٥هـ / ١٣٧٣م) في شهر رمضان حضر منجك نائب الشام الى مصر لاستقر نائب السلطنة بها ، فوضعت اليه جميع أمور المملكة من الكلام في الوزارة والحاصل والأوقاف والأحياس وانخراج الإقطاع الى ستمائة دينار والوزل والولاية لأرباب المناصب بما يقتضيه رأيه ، وقرىه تقليده بذلك ، وكان النائب قبله أقصر عبدلغني ففني الى الشام في جمادى الأولى ، وكانت مدة نيابته أربعة أشهر ، ثم قرأ نائباً بطرابلس عوضاً عن محبوق شاه » . (١٩٤٥)

ونعجب في الحقيقة إذ نرى الأشراف شعبان يحمل منجك مسئوليات كل هذه الوظائف فأصبح نائب السلطنة والوزير وناظر الحفاص وناظر الأوقاف والأحياس ، وحده له مرتباً قدره ستمائة دينار ، وفوض اليه صلاحيات تعيين من يريد وعزل من لا يريد ، فكان منجك أصبح الشخصية الثانية في الدولة بعد الأشراف شعبان ولعلنا نستطيع أن نقرر نسب ذلك بالمعاني التي قاساه الأشراف على

ومن ناحية أخرى نجد أن مجتمع أثباتك العساكر بذلك التغوذ الواسع كان سبباً في اشتداد الصراع بينه وأتباعه وبين بقية طوائف الأمراء المالكية الأليجاركية بدافع من الحسد والطمع والحقد عما كان يمر الى التفت والحلاطات التي لا تكاد تنتهي حتى تشتمل مرة أخرى . وقد نتج من تلك الحلاطات ذلك القتال المتواصل بين طوائف المالكية السلطانية والأميرية والجليلان والليغاوية وغيرهم في مناطق البلاد حظيت كل فرقة بالكثير من التغوذ والامتيازات فوجدت في ذلك الوضع الكبير وسيلة مناسبة لزعمة هذه الطائفة أو تخريم تلك ، بالإضافة الى التناول على حقوق الرعية وحرماتها ، فكانوا يدخلون المنازل ويديروها ، ويحتلون على الناس ، ويسرقون الدكاكين ، مما أشاع جوا من عدم الاستقرار الاجتماعي خلال سنوات هذا العهد ، الى جانب الاستقرار السياسي الذي شهدته الدولة طواك هذه الحقيقة من تاريخ سلطنة المالكية .

والى جانب منصب الأتاكبة وجد أيضاً منصب نيابة السلطنة الذي تماقت عليه عدد من كبار الأمراء المالكية ، وإن كان يبدو أنه لم يكن بيد هؤلاء النواب سلطات واسعة كالتي تيسرت لدى الأتاكبة . ومن ثم قدم بعض أولئك النواب خدمات جليلة للدولة في أثناء حكم الأشراف شعبان ، ويأتي على رأس هؤلاء « منجك بن عبدلغني التركي » (١٩٤٦) ، تنقل في الولايات بالبلاد ، وولى الوزارة بالقاهرة ، واستقر في الأعز نائب السلطنة بمصر واليه اسود الملكة ، وقد حصر خانات نالفة وجوامع وأصلح إلبسور ، والطرقات ، مات في تاسع عشرين ذي الحجة ١٢٧٦هـ / ١٣٧٤م وقد جاوز الستين . ومن أسكنه مع ما كان - يعني به من تعمير المدارس والخانات والحانات والقناطر - أمره بكسر أواني الخمر ومنع حملها ، ومنع النساء من الركوب بين الرجال والخروج الى مواضع التزه والخروج في الليل ، وتضييق الأكام ، ومنع تعليق الأجراس بأعناق الخمر ، وألزم كل من يدخل الحمام بالتنستر بالماء وغيرها » . (١٩٤٦)

ولكن كيف تيسر لمنجك الوصول الى وظيفة نيابة السلطنة ؟ يشير ابن حجران منجك هذا كان نائباً للشام حيث يذكر أنه :

« في أول يوم من جمادى الآخرة (سنة ١٢٧٣هـ / ١٣٧١م) وصل قرد نائب الشام منجك يشتمل على شيء كثير جدا حتى اتفق

(١٩٤٦) انظر فرجه ، القرد ، ج ٥ ، ص ١٢٠ - ١٣١ .

(١٩٤٦) فله ، ج ١ ، ص ١٤٨ .

(١٩٤٤) فله ، ج ١ ، ص ١٢٠ - ١٢١ .

(١٩٤٥) فله ، ج ١ ، ص ٧٥ .

وقد دفن الأمير متجك اليوسفي في خانقائه التي أنشأها في رأس الصورة تحت القلعة . (٢٠١١)

وبولفة متجك خسر الأشرف شعبان شخصية مهمة كان يحول على وجودها الكثير في حقبة تكالفت فيها جميع الظروف على أن يكون الأشرف في حاجة إلى رجال لا تنطى على نفوسهم النظرة الخفية ، وإنما يحرصون من أجل العمل لحذف المصلحة العامة .

وإذا نظرنا إلى هذا العهد من زاوية أخرى مختلفة ندعش إذ نجد خشية الأمراء المماليك والأولياء في طبقة القضاء الذين يحتلون الركيزة الأساسية لتطبيق مبادئ الشريعة الإسلامية ، فهؤلاء الذين لا يهتمون وزناً لسلطان الدولة ، يحملون الكثير من الحساب لأولئك القضاء ، فيجتهدون من أجل كسب رضااتهم ، ويحاطون خشية إثارة غضبهم وسخطهم على ما يقومون به من أعمال منافية للحق والعدل . ويمكننا أن نلاحظ هذا كله مع تولي الحوادث مع يده سلطنة الأشرف شعبان بشكل يثير التسؤل والتمجب يقول المقيزي :

« وفي يوم الخميس ثالث عشرين رمضان عزل القاضي القضاء مولانا الدين الحلي نفسه من أجل أن الأمير يلبغا استدعاه ، فوافقه القاضي وهو تائب ، فلم يمهله عليه حتى يتب ، بل أمر به فأبقيت وقد انزعج ، فغضب لذلك ، وعزل نفسه ، وأبى أن يجيب القاضي أو يجتمع به ، فشق ذلك على الأمير يلبغا . وما زال يرسل إليه ويترضاها حتى رضي . ثم استدعي في يوم الاثنين سامع حشرته إلى مجلس السلطان ، وعلع عليه ، وأعيد إلى وظيفة القضاء على عادته . » (٢٠٦)

وهكذا يتكرر ظهور الأمير يلبغا في مجرى الحوادث بشكل ظاهر مما يؤكد أنه فعلا القاطم على إدارة شؤون الدولة في خفاء جلالته ، بل بلغ به الأمر إلى التناول على شخص القضاء القادمين على أمور الشرع الشريف من أجل خدمته لدى الخصال إلى راضهم هذا الأسلوب بالانتاع من عارضة مسؤوليات الوظيفة ، ولكن يبدو أن الأمير يلبغا كان حرصاً على رضا القضاء عنه ، ربما ، من أجل

بل يلبغا واستلهم وألبغا وما أناروه من فن وفرد وتكرار أحياهم به من مكانة وعزة .

ومن ناحية أخرى يشير ابن حجر إلى تلك الحفاوة التي استقبل بها متجك عند قدومه القاهرة كي يستقر ويزاول مسؤوليات مناصبه الجديدة ، فيذكر أنه في جمادى الآخرة سنة ٧٧٥هـ / ١٣٧٣م نقل متجك إلى القاهرة وكان دخول متجك إلى القاهرة في ذي القعدة ، وخرج جميع الماسكر للتلقاء ، ولم يتأخر عنه إلا السلطان وولاء النيابة . (١٩٩٦)

ويؤكد المقيزي تسلم متجك مقاليد هذه الوظائف ، وكذلك ما استقبل به من حفاوة وترحيب (١٩٩٦)

وهكذا ، فإن الأشرف شعبان يعد أن ضالته به الحيلة يلجأ إلى انصراف جده الناصر محمد لمعلمه يمينته له تأسيس حكم مستقر في الدولة لدرجة أنه يوكل إلى متجك المنصرف في « سائر أمور المملكة » ، وخاصة وأن متجك معروف فعلا جدير بالمسؤوليات التي أقيمت على عاتقه وغير ذلك من الأعمال الحسنة التي ضاعفت من أهمية وجوده في تلك المركز المهم (١٩٩٨)

وهكذا استمر متجك يزاول مهام وظائفه طيلة عام كامل إلى أن توفي إذ يقول ابن حجر :

« متجك الناصري ، أحد أكابر الأمراء ، (توفي سنة ٧٧٦هـ / ١٣٧٤م) وأول ما دعي امرأة حلب عقب طارسة تسع وخمسين ، ثم تنقل في الولايات وولي الوزارة وغيرها وله أوقاف كثيرة على وجوه البر وجاوز الستين . » (١٩٩٦)

وقد استمر طيلة نياحته جليل القدر في نفس الأشرف شعبان الذي كان يحترمه وعزه ، وعندما :

« مرض الأمير متجك اليوسفي النائب نزل السلطان لمباينته ، ففرض متجك تحت رجلي فرسه الشق الحمر وقدم له حشرة عماليك وحشرة يبيع وحشة خيول فقبلها السلطان ثم أنعم بها عليه ، وكان ذلك في يوم الثلاثاء سامع عشرين ذي الحجة ومات متجك بعد يومين . » (٢٠٠٠)

(١٩٩٦) أبجد ، ج ١ ، ص ٧٨ .

(١٩٩٧) السلوك ، ج ٢ ، ص ٢٢٤ - ٢٢٥ ، انظر كذلك ، التبرج ، ج ١١ ، ص ٦٤ - ٦٥ .

(١٩٨٨) السلوك ، ج ٣ ، ص ٣٢٥ .

(١٩٩٥) الجهاد ، ج ١ ، ص ١٩٠ .

(٢٠٠٠) التبرج ، ج ١١ ، ص ٦٥ .

(٢٠٠١) السلوك ، ج ٣ ، ص ٢٢٧ ، انظر كذلك ، بفتح ، ج ١ ، ص ٣٠٠ .

(٢٠٠٦) السلوك ، ج ٣ ، ص ٨٤ .

اذ يشير الى أن عمر بن إسحاق من أحد الفزنوي (٢٠٣) ، سراج الدين الهندي قاضي الحنفية بالقاهرة ، توفي سنة ٧٧٣هـ / ١٣٧١م (٢٠٤) ، وتكلم في أوقاف الشافعية لما ولي الجياي نظراً الأوقاف ، فلما حضر معه استعرض الدروس في الجامع الطولوني والمدرسة الأشرفية وضيقت عليهم ، فقام الهندي في ذلك قياماً عظيماً وأحفظ له القول حتى قال : اقتطعت يبلغ ألفي درهم وتستكثر على الفقيه المسكين هذا القدر ؟ فقال : أنا أتمد الاقطاع لحفظ بلاد المسلمين فقال : ومن علمكم الجهاد الا الفناء ؟ فسكت وترك كل أحد على حاله . (٢٠٥)

وهكذا كانت كلمة القضاة باستمرار تملو على كلمة رجال البلاط السلطاني دون خشية أو وجل ، وإلما على أساس من الاحترام والتبجيل .

كذلك مما يدل على مكانة القضاة وشيوخ الدين ما حدث أيام الشيخ المنطولي ولي الدين محمد بن أحمد السديسي (ت ٧٧٤هـ / ١٣٧٢م) (٢٠٦) حيث وكان ابن عقيل قد ولي درس مدرسة حسن قبل موت السلطان ، فلما قتل أراد إبليها عدم المدرسة ومنع ابن عقيل من تدريسها وولاهها الشيخ ولي الدين ، فغضب ابن عقيل وهجر ولي الدين ، ثم استرضى إبليها ابن عقيل بالخشاية واستمر التراضي بينهما . (٢٠٧)

وعلى ذلك يمكننا أن نتبنى قاعدة سلوكية ثابتة اشتهر بها رجال السلطة في هذا العصر ألا وهي الحرص على استرضاء القضاة ورجال الدين وشيوخ الشريعة الإسلامية - ربما - لأن هذا السلوك هو غير وسيلة توصلهم الى كسب رضى الرعية وسكوتها مما يترتب بعضها من ضياع الحقوق وإمتهان الحرمات .

ويصف للمقريزي بأسلوب غير مباشر استئثار بعض أصحاب السلطة لوظيفة القضاء من أجل خدمة مصالحهم ما كان له بالغ الأثر في اعتزال عدد من تولوا هذا المنصب ، فيقول عند سيرة حياة القاضي عز الدين أبو محمد عبدالعزيز ابن جماعة (ت ٧٩٧هـ / ١٣٩٥م) (٢٠٨) :

« ولي قضاء القضاة بديار مصر تسعا وعشرين سنة بأحسن

تحقيق الاستقرار الاجتماعي الذي يفيح له التمتع بما يرغب فيه من امتيازات فكان لا يرى بأساً في استخدام المجلس السلطاني وشخص السلطان لتحقيق ذلك الهدف . ويتم له ما يريد بشكل ربما بين صفه نقوس القضاة حينذاك ، أولعها الرغبة في المشاركة حتى من غير رغبة للاطلاع على ما يدور من أمور غير مشروعة في ظل حكم سلطان طفل . ومن المحتمل أن الأمر يلينا كان يبد في كسب رضاه القضاة إذنا له بالواقعة على ما كان يحظى به من صلاحيات ، بل لعله كان يرى في سكوتهم عما يمارسه من عزل وتولية لسلطان الدولة مع الاستفاضة البالغة مما يفيحه ذلك الظرف من مكاسب موافقة منهم على شرعية ما يقوم به ، فيطمئن فكره بأنه إنما يفعل ذلك من أجل صالح الدولة فحسب . ولكن مع كل ذلك انما بلغت نظرنا ما كان يعتبر حداً من حقوق القضاة ، ألا وهو عزل القاضي لنفسه من وظيفة القضاء دون الرجوع لأولى الأمر في الدولة ، الأمر الذي كان بالفعل مصدراً لقلق هؤلاء أصحاب السلطة ، فيعملون جاهدين من أجل تلافيه ، وعلى ذلك تختفي فعالية ذلك الحق في ممارسة كليل من الحرية الشخصية في ظل حكم الطغاة . ومع ذلك يظل وجود هذا الحق الشخصي في حرية ممارسة مسئوليات تلك الوظيفة مصدراً للألم لمعاصري ذلك العصر نحو مجتمع أفضل . بالإضافة الى ذلك ، فإننا نتمجّب كليفية استخدام السلطان الصغير في سبيل ترسية القاضي الذي يطلب بناء لأمر السلطان أو بالأحرى الأمر يلينا للخصور بين يدي المجلس السلطاني ، فيخلع عليه ويغاطيه برؤ كي يرمو الى ممارسة وظيفته كقاض ، وتستقر الأمور الى ما كانت عليه ويبقى أمر واحد مغفلاً ، ترى ما السبيل في عودة القاضي الى وظيفته ، هل هي الرغبة في الاستفادة من وجود سلطان طفل على كرسي الحكم ؟ أم هو العزم على الوقوف الى جانب السلطان الطفل ؟ لعل في ذلك حوتاً له وأصلاً للوضع ؟

لقد كان القضاة يحرصون دائماً على الوقوف الى جانب الضعفاء للدفاع عن حقوقهم أمام أصحاب السلطة بغض النظر عن علو مكانة وسلطات صاحبها فقد كانوا على أتم الإدراك بأنهم أقوى في المنزلة من هؤلاء الأمراء . ومن الأمثلة على ذلك ما يذكره ابن حجر

(٢٠٣) انظر ترجمته ، القدر ، ج ٣ ، ص ٢٢٠ - ٢٢١ .

(٢٠٤) القدر ، ج ١ ، ص ٢٩ .

(٢٠٥) القدر ، ج ١ ، ص ٣٠ - ٣١ .

(٢٠٦) انظر ترجمته ، القدر ، ج ٣ ، ص ٢٩٤ .

(٢٠٧) القدر ، ج ١ ، ص ٥٧ - ٥٨ .

(٢٠٨) انظر ترجمته ، القدر ، ج ٢ ، ص ٤٩٨ - ٤٩٩ .

استقلالاً بعد صرف ابنه تاج الدين السبكي مدة شهر واحد ، وذلك سنة تسع وخمسين ، ثم ولي قضاء طرابلس ، ثم رجع الى القاهرة وولي قضاء المنكر ، ووكالة بيت المال في سنة خمس وستين ، ثم ولي قضايتها في سنة ست وستين بعد عز الدين ابن جماعة بعد أن كان ينوب عنه وذلك في جمادى الآخرة ، ثم ولي قضاء دمشق ومات بها في ربيع الآخر . وكان الشيخ جمال الدين الاسنوي يلقبه ويغضله على أهل عصره ، وكان الشيخ عماد الدين الحسبي يشهد أنه يحفظ الروضة ، وكان الشيخ بدر الدين الطنبلي يحكي عنه أنه كان يقول : أعرف عشرين عالماً لم يسألني عنها بالقاهرة أحد ، ومع سعة علمه لم يصغ شيئاً . قال ابن حبيب : شيخ الاسلام وصاله ، وصاحب الحق وشيخه وشيخ الشريعة ويدرهما وحبر المعلوم وسحرها ، كان اماماً في الملعب ، حجة في التفسير واللغة والتحرر الأدب ، قدوة في الأصول والفروع ، رحلة لأرباب السجود والركوع ، مشهوراً في البلاد والأمصار ، سالكا طريق من سلك من سلكه الانتصار ، درس وألاد ، وهدي بنتابه الى سبيل الرشاد ، وياشر القضاء بمصر والشام .

ولما عزل من قضاء القاهرة وسعى في قضاء الشام بعد أن كان السلطان الأشرف أمر باعتراجه فاستقر بها ، ثم في هذه السنة (٧٧٧هـ / ١٣٧٥م) سعى أشد السعي حتى استقر ولده ولي الدين في قضاء الشام في حياته ، وصاح بعد ذلك قليلاً ومات (٧٩١هـ) في ربيع الأول سنة ٧٧٧هـ / ١٣٧٥م .

علامة على ذلك كان للسلطان الحق في عزل من لا يرغب به من القضاة لأسباب مختلفة رغم أننا نذكر عاماً بأن السلطان الأشرف شعبان كان يماي من المحبر عليه وهروما من جميع حوله حكاهم للبلاد ما عدا عزل القضاة ، وهذا بالمثل ما حدث مع القاضي أبي الياء السبكي حيث يذكر المقرئ :

« ولي يوم الاثنين ثمانية (جمادى الأولى ٧٧٣هـ / ١٣٧١م) كانت الخليفة السلطانية بدار العدل من القضاة ، وحضر قضاء القضاة على العامة ، ثم انقضت الخليفة ، فجلس القضاة على عديهم وجلسوا بالجامع من القضاة ، إذ اتاهم رجل من عند السلطان ، وأمر الى أبي الياء ثم انقضت الى بقية القضاة وبلغهم

سيرة وأجل طريقة ، ثم ترك ذلك تنزهاً وتعلفاً ، وجاور بمكة ، ففرض بها نحيه » . (٢٠٩)

بالإضافة الى ذلك يقول أبو الحسن :

« ولي هذه السنة وهي سنة ست وستين وسبع مائة عزل قاضي القضاة عز الدين عبد العزيز بن محمد بن جماعة نفسه من قضاء الديار المصرية في سادس عشر جمادى الأولى ونزل اليه الأتابك يليها بنفسه الى بيته وسأله بموده الى المنصب فلم يقبل ذلك وأشار على يليها بتولية نائبه بقاء الدين أبي الياء السبكي فولي بقاء الدين قضاء الشافعية عوضه » . (٢١٠)

وهكذا كان بعض القضاة يسعى لعزل نفسه من وظيفة قضاء الديار المصرية - ربما - بسبب أن كان يميل من تدخل كبار الأمراء في هذه القضية أو تلك من أجل منافعهم الخاصة مما يؤدي الى تكرار الصدام بين الجماعتين ، فيؤثر القضاء الإبتعاد عن هذه الوظيفة تزهذا وتعلفاً . ومن ثم كان القضاة في هذه الفترة مظهراً من مظاهر الحق والعدل والاصلاح في المجتمع الملوكي الذي كان يشهد تطامناً مستمراً بين طوائف الأرباب في سبيل السلطة والتفوق . ومن الجدير بالذكر أنه تعالاب على هذه الوظائف في مراكز القضاة الأربعة سلسلة من كبار الشخصيات المجلبة التي عرف أصحابها بالخلق الطيب والعلم الغزير . علامة على ذلك تجد الإشارة أنه عندما يهزل أحد القضاة نفسه من وظيفة القضاء يحرص على أن يرشح شخصية يميلها على تولي المنصب من بعده - ربما - بدافع من الخوف على نوعية القاضي الجديد بحيث يكون كفئاً لمسؤوليات المنصب فيقوم بها على غير ما يرام . وعلى ذلك نجد أن عز الدين عبد العزيز بن جماعة يرشح أبا الياء السبكي الذي كان يصنف بالخلق الكريم والسمة الطيبة والعلم الوفير حيث يقول ابن حجر :

« محمد بن عبد العزيز بن يحيى بن علي بن تمام بقاء الدين أبو الياء السبكي ، ولد سنة ثمان وسبع مائة - ولي معجم ابن رافع : سنة سبع وسبع مائة ، وتوقف على الخطب السبكي والمجد الزنكاري وعلاء الدين القزويني والزين الكتاني ، وأخذ عن أبي حيان ولأزمه والجلال القزويني ، وسمع من وزيره والمجابر والبراني واحتج وغرهم وحديث عنهم ، وانتقل الى دمشق سنة تسع وثلاثين وولي قريه بقي الدين القضاء وناب عنه في الحكم بدمشق ، ثم ولي

(٢٠٩) الطبرك ، ج ٢ ، ص ١٢٥ .

(٢١٠) المعجم ، ج ١١ ، ص ٢٨ ، نظر كذلك : القدر ، ج ٤ ، ص ١١٠ .

(٢١١) بقاء ، ج ١ ، ص ١٨٣ ، ١٨٤ ، نظر كذلك : المعجم ، ج ٤ ، ص ١٠٩ - ١١٠ .

من السلطان أنه قد عزل أبا اليقظة ، وأمره أن يلزم بيته ، فانفضرا على ذلك .^(٢١٦)

ولعل السبب وراء ذلك هو رغبة السلطان في اسناد منصب القضاء إلى برهان الدين ابن جماعة حيث وصل الخطيب في خامس جادى الأخيرة وكان برهان الدين حين عزل أبا اليقظة بدمشق زائرا لأهله من ربيع الأول ورجع بعد حشون يوما بعد أن فوض له النائب نظر القدس وأخيل فخالفه البريندي في الطريق فأمره النائب بلحاقه إلى القدس فلققه بخطيب في السادس عشر من جمادى الآخرة عطية بلقية تعرض فيها لتوبيخهم فأبىهم وتوجه على البريد ، فلما اجتمع السلطان عرض عليه المنصب فاشتراط شروطا كثيرا فالتزم له السلطان بما وليس الخطة وركب معه الحجاب والقضاة على العاقبة ومضى معه الجاني اليوسفي والأمير الكبير إلى باب القلعة وركب في حشمة عظيمة وأبىة زائكة ، فرأى الناس إلى تينتته حتى القاضي المزمول فرحا منه به لعلمه بسلامته وحسن سياسته .^(٢١٧)

وكانت مدة عطف الناس من ولاية قاضي القضاة سبعة وعشرين يوما ، وقد وقع مثل ذلك في أيام الناصر محمد بن قلاوون ، تعطلت القاهرة من بعض قضاء القضاة سبعة وعشرين يوما .^(٢١٨)

وبذلك تنضف القضية لأمر السلطان في تولي مهام وظيفة القضاء في مصر ويبدأ القاضي بممارسة مسؤوليات المنصب حتى يظهر الاختلاف بين رغبته في الإصلاح وإقبال كبار الأمراء على تحقيق المنافع المادية ، فيقع الصدام الذي ظللما انتهى بعزل القاضي لنفسه كي لا يكون باستمراره في المنصب عناءنا لرؤسائه عما يحدث على يد الأمراء ، أو إشارة لضعفه وعدم قدرته على مقاومة ذلك السلوك الشائن ، ومن ذلك نرى أنه :

و في ربيع عشرين ذي الحجة عزل القاضي برهان الدين ابن جماعة نفسه من القضاء بسبب تنقل بعض الأمراء عليه في أمر بعض المؤقنين ، فرأسه السلطان فامتنع ، فأرسل إليه سيافد أمير أعور^(٢١٩) فحلف عنده بالطلاق أن السلطان حلف بالطلاق أنه

أن لم يجب إلى العود نزل إلى بيته وألزمه به ، ولم يزل به إلى أن ركب معه إلى القلعة فاجتمع بالسلطان فسأله أن يعود وألح عليه ، فكان آخر كلامه الامهال إلى أن يستغفر الله تعالى في الليلة ، فلما أصبح طلع إلى القلعة في الخامس والعشرين من ذي الحجة واشتراط شروطا أجابه السلطان إليها ، ونزل في أبهة عظيمة إلى الغاية ، وازدادت مهابة وتصميمه في الأمور .^(٢٢٠)

ولا شك أن في هذا دلالة بالغة على علو المنزلة التي حظي بها القاضي في هذا العهد من تاريخ سلطنة المماليك . ولكن كان يحدث في بعض الأحيان أن يرفض البعض منصب القضاء محتجا بهذا الملأورذاك ، بل يبلغ الأمر إلى الاصرار على الرفض والامتناع كما حدث عندما « شخر قضاء الحنفية بموت قاضيه صدر الدين ابن التركماني ، فطلب الأشرف القاضي شرف الدين ابن منصور لذلك من دمشق فمضى فلم يتم له أمر ، وعرض السلطان القضاء على الشيخ جلال الدين التتائي ، فامتنع فألح عليه وأحضرت الخلة فأصر على الامتناع وقال : العجم لا يعرفون أوضاع أهل مصر ، فأتى استقرار صدر الدين ابن الكشك .^(٢٢١) »

الا أنه سببنا قبل البعض الآخر بهذا المنصب ، فانه يكون صامرا في تطبيق مبادئ الشريعة الاسلامية ، شديدا في الأمر بالمرءوف والنهي عن المنكر ، قويا مع ولاية الأمر في النصيح لهم بالاسلوب الأكثر ملائمة في معاملة الرعية حيث يذكر القريري :

« وفيه (عرم ٧٧٨ هـ / ١٣٧٦ م) طلب قاضي القضاة برهان الدين ابراهيم بن جماعة دوايدار الأمير أقتدر الخنيلي نائب السلطان ، وأتكر عليه ، وبره في مجلس حكمه ، ووضع من استأذنه بسبب ما يجري من أحكامه بين الناس ، فانه بلغه عنه أنه ضرب رب دين بحضرة مدنيته . فترقق له وتلطف به في الدلالة حتى غلب من جلسه وقد علمه قلية من غوفا .^(٢٢٢) »

ولعل من أهم التواهي التي لعب فيها القضاة دورا إيجابيا في خدمة المجتمع مسألة ابطال الضوابط المكوس التي كانت تشكل عبئا ثقيلا على بعض الطوائف اذ طلبا تدخل القضاة من أجل

(٢١٦) السرك ، ج ٣ ، ص ١٧٧ ، انظر كذلك ، بلانج ، ج ١ ، ص ٢٢٧ .

(٢١٧) تليه ، ج ١ ، ص ١٠ - ١١ .

(٢١٨) السرك ، ج ٣ ، ص ١٧٧ .

(٢١٩) انظر ترجمه ، القدر ، ج ٢ ، ص ٢٠ .

(٢٢٠) تليه ، ج ١ ، ص ٩٤ - ٩٥ ، انظر كذلك السرك ، ج ٣ ، ص ٢٤٩ - ٢٥٢ .

(٢٢١) تليه ، ج ١ ، ص ٩٢ - ٩٤ .

(٢٢٢) السرك ، ج ٣ ، ص ٦٤ .

« كان ابن أقيفاً أصم تكلم في إعادة ضمان المغاني ، فبلغ ذلك برهان الدين ابن جماعة فغضب ، وابتاع من الحاكم فتكلم الشيخ سراج الدين البلقيني وغيره مع السلطان في ذلك فأنكره السلطان وأمر بإبطال ذلك من مصر وقبض بهد مدة يسيرة على ابن أقيفاً أصم وبقى إلى الشام وصودر ، وكان ضمان المغاني من الفجاج الشنيعة ما كان أحد يقدّر يعمل همراً حتى يخرم كدر عشرين إلى ثلاثين مثقالاً ذهباً وكانوا يصعدون القاهرة لا تغيب مقبلة من بيتها ولو إلى زيارة أهلها إلا أن أخذ الضامن منها رشوة . ولما بلاد الريف لمكان للمغاني حارة مفرقة يعمل فيها من الفساد جهراً ما يبيع ذكره ، ومن اجتاز بها غلطاً ألزم أن يزيّن بخاطفة ، فإن لم يفعل فدى نفسه بشيء ، وأبطل الأشرف أيضاً ضمان الفرائط وكان مكسا يؤخذ من كل من باع داراً ولو تكرر بيعها في الشهر الواحد مراراً لا بد أن يأخذ الضامن على ذلك مكسا معلوماً ، ولا يستطيع أحد من الشهود أن يكتب غسطة في مكتوب دار حتى يسرى الحتم في المكتوب » . (٢٢١)

ومن جانب آخر يذكر المقرئ :

« في سنة ٧٧٨هـ / ١٣٧٦ م هزم الأمير ناصر الدين محمد بن أقيفاً أصم على إعادة ضمان المغاني فغضب من ذلك القاضي القضاة برهان الدين إبراهيم بن جماعة ، وابتاع من الحاكم ، وعوضوا دار العدل ، فاستدعاه السلطان وسأله عن امتناعه من الحكم ، فقال : « يلغي أن ضمان المغاني أحمق وهذا يوجب القس » . فحلف له السلطان أنه ما أمر بإعادته ، ولا عتد منه علم ، وبعث إلى ابن أقيفاً أصم يعلمه بذلك ، فاعتذر بعذر غير قاطل ، فرسم بإبطاله ، وكتب بذلك تواقع فرقت على الناس وسيرت إلى التواصي ، فبطل ذلك ولم يعد » . (٢٢٢)

وهكذا يظهر واضحاً أنه كان بإمكان كبار الأمراء المالكات أن يتلاعبوا بالقوانين السلطانية ، إلا أن القضاة ادوا للمجتمع الملوكة عظمة كبيرة في سد هذه الثغرة ، فوقفوا ضد تطاول الأمراء على السلطة التشريعية والتنفيذية التي تعتبر من أخص حقوق السلطان . كما اجتهدوا في مساندة السلطان ودعمه للمحد من تطاولات هؤلاء الأمراء في الاستفادة من ضعفه وقلة حيلته . وقد استطاع أولئك القضاة بجهودهم المستمرة في حقول العلاقات

التخفيف من هذه الثغرات رغبة في الإصلاح وخدمة للصالح العام حيث يذكر ابن حجر :

« وفيها (٧٧٥هـ / ١٣٧٣ م) في صفر أبطل الملك الأشرف ضمان المغاني ومكس الفرائط التي كانت في بيع الدور ، وقرره بذلك مرسوم على الناس ، وكان ذلك بتحريك الشيخ سراج الدين البلقيني وإعانة أكمل الدين وبرهان الدين ابن جماعة ، ويقال إن السلطان كان توحك فثاروا عليه بذلك لافتق أنه عوفي لمضي ذلك واستمر » (٢٢٣) .

والسؤال هنا ترى ما هو ضمان المغاني والفرائط ؟

يقول المقرئ : « آخر ما أدركنا بإبطاله ضمان الأفاخي وضمان الفرائط في سنة ثمان وسبعين وسبعمائة على يد الملك الأشرف شعبان بن حسين بن محمد بن ثلاثين . لما ضمان الأفاخي فكان بلاد عظيمة وهو عبارة عن أخذ مال من النساء البغايا فلو خرجت أجل امرأة في مصر ترد البغاء حتى تزلت اسمها عند الضامنة وقامت بما يلزمها لما قدر أكبر أهل مصر على منعها من عمل الفاحشة ، وكان على النساء إذا تنفس أو عرمن امرأة وغضبت امرأة بعدها بحتان أو أراد أحد أن يعمل فرجاً لا بد من مال بتقرير ثاعده الضامنة ومن فعل فرجاً بأفان أو نفس امرأة من غير إذن الضامنة حل به بلاد لا يوصف . ولما ضمان الفرائط فإنه كان يؤخذ من كل من باع ملكاً من كل ألف درهم عشرون درهماً وكان متحصلاً هاتين الجهتين مالا كثيراً جداً » (٢٢٤)

ولا شك أن هذا يعني أن الحكومة تشجع بطريق غير مباشر تعاملات البغاء بواسطة تعيين ضامنة تجمع الضرائب لصالح الحكومة من عمل البغايا حيث أن الحكومة بعد أخذ الضريبة تكفل لتلك المرأة فرصة تعاملية هذه المهنة الشائنة الأمر التي تعارض مع مبادئه الشرعية الخبيثة ، فعمل القضاة جاهدتين للحيلولة دون استمرار ذلك ونجحوا في تحقيق مقاصدهم حيناً أصدر الأشرف شعبان مرسوماً بهذا المنع .

ولكن يبدو أن بعض كبار الأمراء المالكات كانوا يستفنون من وراء هذه المكوس والضرائب ، وهز عليهم أن يبطل السلطان ذلك فيحرموا من هذا المصدر المالي للتنظيم ، ولذا اجتهدوا من أجل إعادة العمل بهذا الدخل خلف الفاتكة المدة من الضرائب المتحصلة منه ، وفي هذا الموضوع يقول ابن حجر :

(٢٢٤) إيد ، ج ١ ، ص ٧٥ ، نظر كذلك الفورك ، ج ٣ ، ص ٢١٧ ، يدافع ، ج ١ ، ص ٣٣٠ .

(٢٢٥) الخط ، ج ١ ، ص ١٠٩ .

(٢٢٦) إيد ، ج ١ ، ص ١٩١ - ١٩٢ ، نظر كذلك الفورك ، ج ٣ ، ص ٢٢٩ ، ٢٣٧ .

(٢٢٧) الفورك ، ج ٣ ، ص ٢٦٨ .

ارتفاع الأسعار وانتشار الأوبئة والمجاعات التي ابتلى بها بوجه خاص الطبقات الدنيا في المجتمع . فبعد اعتلاء الأشراف شعبان كرسي الحكم بوقت قصير يذكر المؤرخ أبو الحسن :

« ثم وقع الفناء في هذه السنة (٧٦٤هـ / ١٣٦٢ م) في البحر حتى هلك منها شيء كثير وأضر ذلك بحال الزراع » .^(٢٢٣)
ومن جانب آخر يشرح ابن المعاد حال الوضع الاجتماعي لسلطنة المماليك في بداية هذا العهد فيقول :

« فيها (٧٦٤هـ / ١٣٦٢ م) اشتد الوباء والطاعون بالبلاد الشامية والعربية »^(٢٢٤) كذلك من بين حوادث سنة ١٣٦٦هـ / ١٣٦٤ م يقول أبو المعاصي : « ثم وقع الوباء بالديار المصرية حتى بلغت عدة الموتى في اليوم أكثر من ألف نفس ، وأقام نحر الأربعة أشهر وارتفع » .^(٢٢٥)

ولا شك أن هذا يدل على عدم التفات الجهاز الحاكم لما يحدث في البلاد من أزمات ومصائب حيث يجب اتخاذ الاحتياطات اللازمة للحيلولة دون وقوع مثل هذه المصن وتكرارها . بالإضافة إلى أننا نلاحظ اهتماماً كبيراً في الرقابة والرعاية الصحية بدليل انتشار الأوبئة وتشبهها بشكل كبير حيث يذكر المقريزي أنه :

في سنة ٧٧٢هـ / ١٣٧٠ م « وكان الموت خيفاً كثرت الأمراض في الناس بالقاهرة ، والوجه البحري ، وتجاوز عدد الأموات بالقاهرة ثمانين في كل يوم » .^(٢٢٦)

وفي الحقيقة لا بد لنا أن نتوقع حدوث ذلك نتيجة لعدم الاستقرار السياسي الذي كانت تشهد السلطنة في هذا العهد إلى جانب اضطراب الأحوال الاجتماعية وأعمال كبار المسؤولين من الأمراء لواجبات وظائفهم .

ولم يقتصر هذا الوضع السيء على مصر بل امتد أيضاً فشمّل الشام حيث يقول ابن حجر :

« وفيها (٧٧٤هـ / ١٣٧٢ م) كان الوباء يمشق فدام قدر ستة أشهر ، ويبلغ العدد في كل يوم مائتي نفر . وفي ربيع الأول الموافق لشهرين الأول زادت الأتار يمشق فسدت أيوبيا فأكسر بعضها

الاستانة في المجتمع المملوكي أن يحلقوا نعراً كبيراً في سبيل خدمة الرعية وحمايتها من جشع الطبقة الأوليغاركية . بالإضافة إلى ذلك نلاحظ أنه :

« في يوم الاثنين فاني مشره (جاني الأعرسة سنة ٧٧٨هـ / ١٣٧٦ م) قبض على الأمير ناصر الدين محمد ابن أقيفا آس الاستاد ، وأحبط بموجبه مصر والشام ، وأمر بنفيه وولده إلى طرطوس . فلم يزل الأمراء بالسلطان حتى رسم أن يستقر بالقدس بطلاً لفساد أهلها من يومه ، وعلق به ابنه من القدر . هذا مع شدة تمكته من السلطان ، وكثرة اختصاصه به ؛ حتى أنه كان يقول لولده في الملأ إذا أدهاء « سيدي محمد » .^(٢٢٧)

ونعلم نجد في ذلك دليلاً على أن السلطان الأشراف شعبان بدأ يدرك أن انحصار المحيطين به من الأمراء لا يشيرون عليه إلا بما يخدم مصالحهم الشخصية دون النظر إلى ما قد يجر إليه هذا الفعل أو ذلك للرسم من ظلم وإسكان في حقوق الناس وتكرامهم ، بل أنهم في كثير من الأحيان كانوا يستغلون وجودهم قريباً منه في البلاط سبياً مشجعاً لهم على فعل الكثير من الأعمال المنكرة من أجل المنفعة الخاصة ، الأمر الذي يجعل دائماً سوء سيرة الأشراف بين الرعية والتي كانت لا تترك في أغلب الأحيان أن كثيراً من الأمور تقع دون علم السلطان . ويرجع الفضل في إدراك السلطان وضعه لما يقع حوله من أمور منكرة إلى الفضلاء الذين اجتمعوا من أجل تنبيه السلطان إلى ما يحدث حوله من أعمال يعاني منها الشعب الكثير من القلة والمهانة إلى جانب انحسار المادة .

كذلك أبطأ الأشراف شعبان المكس الذي يجمعه أمير مكة جعلان بن ربيعة بن أبي غر (٢٢٨) من المراكولات « ووضه عن المكس الذي كان يملكه من المراكولات بمكة بألف درهم فتح يحمل إليه من مصر » ؛ وقد استمر ذلك قائماً حتى وفاة جعلان هذا عام ١٣٧٧هـ / ١٣٧٥ م^(٢٢٩) .

أما بالنسبة للمجاعات والأوبئة في هذه الفترة فنلاحظ أن هذا العهد قد بلى بأزمات ومن عديده في هذا اللجال حيث توالي وقوع

(٢٢٣) السلك ، ج ٣ ، ص ٢٨٨ .

(٢٢٤) انظر ترجمه ، الجزء ٣ ، ص ٦٨ .

(٢٢٥) فقه ، ج ١ ، ص ١٧٢ - ١٧١ .

(٢٢٦) التجميع ، ج ١١ ، ص ٦٩ .

(٢٢٧) فخرات ، ج ٦ ، ص ٢٠٠ .

(٢٢٨) التجميع ، ج ١١ ، ص ٥٢ .

(٢٢٩) السلك ، ج ٣ ، ص ١٩٠ .

العليا من كبار الأمراء المماليك الأولوية صراعها السياسي للمعهود حيث تكون النتيجة الطبيعية لذلك أملاً لشئون المجتمع الاقتصادية والصحية فينبى الناس بلاه عالياً (٢٣٢) وهذا يدل على أن النشاط الاقتصادي والتجاري كان في حالة تجمد وتشنج نتيجة لعدم الاستقرار السياسي في المجتمع المملوكي في أغلب سنوات هذا العهد الأمر الذي أدى إلى البطالة والكساد حيث لا يجد العامل المال الكافي لثقله . وكثيراً ما أعقب ذلك ، بسبب ندرة الغذاء ، انتشار الأوبئة بين طبقات الشعب بشكل كبير حيث تكثر أعداد المرق في الطرقات ، ولا تجد جثث المسلمين من لديه المال الكافي للكفن والدفن مما جعل أحوال الصحي في أقصى درجة من السوء والأحوال حيث يقول القرظي :

و في أسوأه (ذي القعدة سنة ٧٧٦هـ / ١٣٧٤م) فشت الأمراض في الناس بالظلمة ، ولقي وجود الأموات الطرحاء ، ويسع الأرواح الضعيف من عشرين درهماً إلى ستة وعشرين درهماً . (٢٣٣)

وهذا بين الارتباط المتلازم في تغير طبيعة الأحوال الداخلية في مصر والشام فما أن طرأ أي تغير في أحوال مصر حتى يصرى ذلك على الأوضاع في بلاد الشام ، وهذا أمر طبيعي بسبب خضوع كلا البلدين لحكم واحد تشمل أفكاره مختلف الأقاليم السلطانية (٢٣٤) دون تميز أو اختلاف . وإذا حدث وقوع الاختلاف فإن هذا يعود دون شك إلى شخصية نائب بلاد الشام وما يمكن أن يقوم به من واجبات حيال الأوضاع الداخلية هناك .

ويظهر أن وقوع الأوبئة قد دل في أواخر عهد الأشرف شعبان وأن استمر الأحوال في الشئون الصحية حيث يسوق للقرظي ضمن حوادث الشهور الأخيرة من حكم الأشرف شعبان :

و في هذا الشهر (جمادى الآخرة سنة ٧٧٨هـ / ١٣٧٦م) بدت الأمراض بالحُميات في الناس ، واستمرت إلى آخر شعبان فمات خلق كثير . (٢٣٥)

كذلك نلاحظ كثرة عدد المرات التي يحدث فيها ارتفاع كبير في

فاتقلب على غير مرضى تليف بسبب ذلك شيء كثير وطلعت طواحين كثيرة وحمامات ، (٢٣٦) كذلك يقول القرظي :

و فيها (٧٧٤هـ / ١٣٧٢م) فشت الطواحين ببلاد الشام مدة ستة أشهر . (٢٣٧)

كما يقول القرظي :

و قدم الحفير بغلاء الأسعار بمكة ، حتى بيعت القرارة القمح - وهي مائة قدم مصري - بأربع مائة درهم ولما تين درهما . وبرز وجود الأقوات بها فهلك جماعة كثيرة جوعاً ، ونزح أكثر أهلها عنها ، فجهز الأمير بيلغا الأتابك في جمادى الأولى إلى مكة أئني أردب قمحا ، وواصل الإرسال حتى حل من مصر إليها اثني عشر ألف أردب ، ففرت كلها في الناس ، فعم النقع بها . (٢٣٨)

لا شك أن في هذه الواقعة دلالة على قلب سعر الغلال في الأقاليم المملوكية عما كان يحدد أهل هذه المناطق بالموت جوعاً ، في حين تولى بيد الأمراء المماليك الأولوية كميات هائلة من الغلال والجلبوب يرهنا على سوء تصرف الساسة أصحاب السلطة حيث نقصوا بكل شيء من أجل الرقاعية في العيش ، في الوقت الذي كانت فيه الرعية تعاني الملاك من الجوع نتيجة الأحوال والطمع وسوء الإدارة .

ومن ثم يظهر اسهام بيلغا في مكيه اللون لأهل مكة ليرسل إليهم و أئني أردب قمحا ، وواصل الإرسال حتى حل من مصر إليها اثني عشر ألف أردب . (٢٣٩)

ومع ذلك أما كان من الأجدى له أن يحول منذ البداية دون وقوع ذلك الارتفاع في الأسعار حيث هلك و جماعة كثيرة جوعاً (٢٤٠) .

خاصة وأنه صاحب الكلمة الأولى في السلطة المملوكية . ولكن رغم كل ذلك لا يستحى إلا الإشارة إلى أن قيام بيلغا بهذا العمل دليل على أن السلطة المملوكية بجميع أقاليمها كانت وحدة متكاملة تتشارك أجزاءها في المنفعة بما يحول دون وقوع الضرر .

وفي بعض الأحيان ارتبط وقوع الوباء بارتفاع الأسعار والغلاء الفاحش فيماني عامة الناس الجوع والمريض في حين تشهد الطبقات

(٢٣٢) ابنه ، ج١ ، ص ٢٢ .

(٢٣٣) السورق ، ج٣ ، ص ٢٠٢ ، انظر كذلك ، فطوات ، ج٢ ، ص ٢٣٠ .

(٢٣٤) السورق ، ج٣ ، ص ٩٧ .

(٢٣٥) السورق ، ج٣ ، ص ٩٧ .

(٢٣٦) السورق ، ج٣ ، ص ٩٧ .

(٢٣٧) السورق ، ج٣ ، ص ٢٣٣ ، انظر كذلك الجوع ، ج١١ ، ص ٦٦-٦٨ .

(٢٣٨) السورق ، ج٣ ، ص ٢٣٩ .

(٢٣٩) فطوات ، ج٢ ، ص ٢٠٧ .

(٢٤٠) السورق ، ج٣ ، ص ٢٣٨ .

وايندأت زيادة الأسعار في الحلال والجبوب من شهر ربيع الأول وهلم جرا إلى أن بلغ سعر الأرباب خمسين درهما تقدير دينارين هرجة ونصف وثلاث ، ثم تزايد إلى الستين والسبعين وهذا في الوقت نحو أربعة دنائير . (٢٤٠)

وهكذا كان كل من زيادة مياه النيل عن الحد المعقول وقت الفيضان ، وعدم حدوث الزيادة المتوقعة من ناحية أخرى سببا في زيادة الأسعار خاصة للمواد الغذائية مما كان يثير الفزع والازعاج بين الناس ، بل وتتفاقم نعمتهم ويقع اللوم على السلطان .

وفيها (١٧٧٥هـ / ٢٣٧٣ م) لازم شخص من العوام الصباح تحت القلعة : اقتلوا سلاطنتكم ترخص أسعاركم فلأخذ وضرب بالمقارع وشهره . (٢٤١)

ولكننا نعلم من دراستنا المتحصنة هذه أن السلطان لم يكن له يد فيها يقع من حوادث أو تغيير في شؤون البلاد ، وأن السلطة كلها كانت بيد الأتابك إلى جانب طائفة كبار الأمراء الأوليغاركية حيث كان السلطان مجرد صورة شرعية للموضع السياسي لا تتجاوز حقوقه إطار الرسمىيات والحكم الاسمي ، في حين مارس أولئك الأمراء مختلف فعاليات الحكم والتفوق (٢٤٢)

« ليلة السبت ثلث عشرة (ربيع الآخر ١٧٧٥هـ / ١٣٧٣ م) أرعدت السماء وأبرقت ، وسحت بأعطار غزيرة ، جمعت كثيرا من أراضي عصر بحيث زرع بعضها لربما من هذه المظرة البرسيم ، فسر الناس بذلك واتحل سعر القمح خمسة دراهم الأرباب ، وكان قد بلغ أربعين درهما . (٢٤٣)

ولكن ذلك لم يخلو إذ « أخذ سعر الفلال يرتفع وفي خماس عشر جمادى الأولى - وهو سابع هاتور - زاد النيل اثني عشر أصعبا ، وفي الغد ، وبعد الغد ثلث أصابع ، ثم نقص ، ولم يمهذ مثل ذلك . (٢٤٤)

واستمرت الأسعار تزيد حتى « بلغ سعر الأردب القمح إلى

الأسعار حيث يتنمر على متوسطي الحال الحصول على الغذاء اليومي . وقد كان لتدهور الوضع السياسي إبان هذا العهد أثر بالغ على عدم استقرار أسعار الغذاء ، والتقلب المستمر في أسعار مختلف السلع الضرورية للحياة اليومية ، ومن ثم قلنا نجد أنفسنا أمام سلسلة طويلة من الأزمات الاجتماعية الناتجة عن ارتفاع الأسعار . علاوة على ذلك كان لزيادة مياه النيل عن المعدل أثر كبير على عدم الاستقرار في الأسعار ، كما كان عدم وقوع الفيضان في مواعده سببا في ارتفاع الأسعار مما كان يثير الفزع بين طبقات الشعب خاصة العامة منهم .

ولعل أصدق مثال على ما نقول هو ما يذكره ابن حجر : « وفيها (١٧٧٣هـ / ١٣٧١ م) زاد النيل زيادة مفرطة وثبت إلى أيام من هاتور فاجتمع جماعة بالجامع الأزهر وجمعهم عمرو وسألو الله تعالى في هبطه وكروا ذلك فهبط ووزع الناس . (٢٤٥)

وهذا يدل على عدم الاهتمام بإنشاء القنوات المناسبة لتخفيف من ضغط المياه الزائدة وقت فيضان النيل ، وعدم تعمير النزع والسواقي على ضفتي النيل لتسهيل جري المياه الفائضة عما يدل على وجود تلاعب في أموال الدولة دون الإدراك بضرورة صرفها على الانشاءات اللازمة من أجل النفع العام .

ومن جانب آخر نلاحظ أنه في عام ١٧٧٥هـ / ١٣٧٣ م توقف النيل عن الزيادة وأبطأ الوفاء إلى أن دخل ثوبت أول السنة القبطية ، واستمر التوقف إلى تسع ثوبت فاجتمع العلماء والصلحاء بجامع عمرو بن العاص واستسقوا وكسر ذلك اليوم الخليلج من نقص أربعة أصابع من العانة ، ثم تزججوا إلى الآثار وأملروها إلى المقابر فألقوا من قبل العصر إلى آثر للهار يتوصلون إلى الله تعالى ويتهللون ويستقون ، فلم يزد الأمر إلا شدة ، ثم نوى بضيام ثلاثة أيام ، وعرجوا في ثالث ربيع الآخر إلى الصحراء مثلة ، وحضر غالب الأحيان ومعظم العوام وصبيان الكتائب ونصب المنبر فخطب عليه شهاب الدين ابن القسطلاني خطيب جامع عمرو وصل صلاة الاستسقاء ودعا وأبتهل وكشف رأسه ، واستغاث الناس وتضرعوا ، وكان يوما مشهودا .

(٢٣٩) ثوبت ، ١ ، ج ١ ، ٨ ، نقل تلك السلك ، ج ٣ ، ص ١٩٥ .

(٢٤٠) ثوبت ، ١ ، ج ١ ، ص ٧٦ - ٧٧ .

(٢٤١) ثوبت ، ١ ، ج ١ ، ص ٧٩ .

(٢٤٢) السلك ، ج ٣ ، ص ٢١٨ - ٢١٩ .

(٢٤٣) السلك ، ج ٣ ، ص ٢٢٠ .

(٢٤٤) السلك ، ج ٣ ، ص ٢٢٠ .

الغلاء يجلب وأعمالها تنجح ما وقع بمصر^(٢٤٩) بالإضافة إلى أن الطاعون كان قد انتشر بمشقة في رمضان السنة الماضية، فتزايد في المحرم إلى أن بلغ خمسة آلاف ثم تناقص بعد ذلك، ومات فيه جماعة من الأعيان^(٢٥٠).

وهكذا شهدت مصر وبلاد الشام أزمة كبيرة نتيجة لنقص الغلال، وارتفاع الأسعار، وانتشار الوباء^(٢٥١).

وبمع مرور الوقت تزايدت مرارة الأزمة حيث شهدت الشهور التالية ارتفاعاً هائلاً في الأسعار، ولكن يلفت نظرنا الدور الذي تلعبه به الأشراف في معالجة هذه الأزمة حيث يقول المقرئ:

« وفي شهر رجب وشعبان (٧٧٦ هـ/ ١٣٧٤ م) اشتد الغلاء، فبلغ الأردب القمح مائة وخمسة وعشرين درهما والأردب الشعير تسعين درهما، والأردب القمح ثلاثين درهما، والبطيخ الدقيق زنة خمسين درهما وأربعة وثلاثين درهما، وشعير الموت في الفقراء من شدة البرد والجوع والعمرى، وهم يستغيثون فلا يفتأون. وأكل أكثر الناس خبز القمح والتخال، عجزوا عن خبز القمح. وبلغ الخبز الأسود كل ورطل ونصف بدرهم وكثير خطف الفقراء له، ما قدروا عليه من أيدي الناس. وروى طين بالسجين لمصاراة حائل به، فأكله المسجونون من شدة جوعهم. وعجز رجوع الدواب لوطنها جوعاً.

وفي ربيع شرين شعبان انتدب الأمير متجك نائب السلطان لئسرة الفقراء على الأمراء وغيرهم، فنجس أهل الحسابة والمسكنة، وبعث إلى كل أمير من أمراء الألواف مائة لغير، وإلى من عدا أمراء الألواف على قدر حاله، وورق على الدوابين والتجار وأرباب الأموال كل واحد عدداً من الفقراء. ثم نوى في القاهرة ومصر بأن لا يتصدق أحد على حرفوش وإلى حرفوش شحذ صلب. فأوى كل أحد فقراءه في مكان، وقدم ثم من الغداء بما يسد رمقه على قدر حصته وسماحه، ومنعهم من التطواف لسؤال الناس. فخفت تلك الشاعات التي كانت بين الناس، ألا أن الموت عظم، حتى كان عورت في كل يوم من الطرقات على الطرقات ما يزيد على خمسة آلاف نفر، وطلعت من ديوان اللوازم ما

خسب درهما، والأردب من الشعير والقمح إلى خمسة وعشرين درهما، والحملة الدقيق - وهي ثلاثمائة ورطل إلى أربعة وثمانين درهما^(٢٥٢).

ومع حلول ذي الحجة سنة ٧٧٥ هـ/ ١٣٧٣ م كما يقول المقرئ: « تزايد سعر الغلة، فبيع الخبز أربعة أرطال بدرهم، بعدما كان خمسة أرطال. وفي ثالث عشر ذي الحجة قبض على رجل مغربي كان يقف في الليل تحت الغلة ويصيح: اقلوا سلطانكم ترخص أسعلاكم ويخبري نالكم، فضربه والى القاهرة بالقتل وتركه لحاله^(٢٥٣).

وإذا ما أدركنا أن كل ما فعله السلطان كان لا يندو أكثر من حل سطحي للتخفيف من معاناة الرعية، فإنا لا نجب إذا ما استمر حدوث تلك المحنة في أنثالية حيث يقول ابن حجر:

« فيها (٧٧٦ هـ/ ١٣٧٤ م) طلع النيل على عادته وأوفى في ربيع الأول ربيع أربع عشرة مسرى، واستهلت والغلاء قد تزايد جدا إلى أن بلغ الأردب مائة وخمسة عشر ثم بلغ في شعبان مائة وخمسة وعشرين، وقيمتها بالذهب إذ ذاك خمسة مثاقيل وربع، وبيع إذ ذاك دجاجة واحدة بأربعة دراهم، وصار أكثر الناس لا يقدر إلا على التذالة كل كرس أسود يتصف درهم وأكل الفقراء السلع والطين، وكانت الدواب أن تدمم لكثرة الموت بها، وأكلوا الميتات، وأمر السلطان بضرقة الفقراء على الأفياء فكان على الأمير المقدم على الألف مائة لغير، وعلى كل أمير بمقد حاله ذلك، وعلى الدوابين كل واحد بحصه، وعلى التجار كذلك، ونوى في البلد بأن من سأل في الأسواق صلب، ومن تصدق عليه ضرب^(٢٥٤).

وفيها عقب الغلاء وزيادة النيل وتكامل الزرع وقع الفناء فتزايد في الفقراء ما سبباً لما دخل البرد. وزاد ذلك إلى أن بلغ في اليوم من الحشرين مائتي نفس ومن الطرقات نحو خمسة آلاف، ثم بلغوا إلى نحو الألف، وتصدى الأمير ناصر الدين ابن القباصي والأمير سودون الشيوخون لدفن الطرقات من ألواميا^(٢٥٥). كذلك بلغ سعر كميال الشعير مائة درهم^(٢٥٦) كما وقد

(٢٤٩) السيلوك، ج ٤، ص ٢٢١.

(٢٥٠) السيلوك، ج ٣، ص ٢٢١، انظر كذلك بيان، ج ١، ص ٢٢٩.

(٢٥١) الباء، ج ١، ص ٩٢-٩٣.

(٢٥٢) الباء، ج ١، ص ٩٩-١٠٠.

(٢٥٣) الباء، ج ١، ص ١٠٠.

(٢٥٤) الباء، ج ١، ص ٩٩-١٠٠.

(٢٥٥) السيلوك، ج ٤، ص ٢٢٢.

ذلك إلى انخفاض الأسعار . بالإضافة إلى الدور الكبير الذي قام به ناظر الحسبة شمس الدين محمد العمري من تحديد سعر الحنيز وفرض رقابة صارمة على الطحّاتين والمخابز والأفران ، وإن ظل طمع التجار صفة في سبيل تطبيق أوامر للحسب بحيث كان عدم الصلح بين فئات المجتمع المملوكي هو إحدى الطبقات التي أثرت من طبيعة الاستقرار الاجتماعي في الأقاليم المملوكية من ذلك قول المقرئ :

« وفي رابع ذي الحجة (٧٧٦ هـ / ١٣٧٤ م) قطع الميمري للحسب سعر الحنيز ثمانية أرطال بدرهم ، وقد كان خمسة أرطال وثلاث بدرهم ، فامتنع الطحّاتون أن يشتروا القمح إلا بثمانية عشر درهما ، فأبى تجار الغلال الجلبلة بيع القمح بهذا ، وعادوا يتركب الغلال من حيث أتوا فمز وجود القمح وبلغ أربعة وثلاثين درهما الأردب ، وتعلم وجود الحنيز في الأسواق عدة أيام ، وبيع أقل من ستة أرطال بدرهم » .^(٢٥٥)

ولكن ما أن غشت الأزمة في مصر ، وأمكن الوصول إلى حلول ناجمة للحيلولة دون انتشارها حتى وصلت الأنباء بوقوع الغلاء العظيم بدمشق و (٢٥٦) ، بل لقد استعملت الحامية حتى أكلوا الميتة والقطاط والكلاب ، وباع كثير من المفلين أولادهم ، واقتصر خلق كثير .^(٢٥٧)

وبعث المقرئ حدوث هذه المحنة في بلاد الشام فيقول :

« وقدم ذي الحجة ٧٧٧ هـ / ١٣٧٥ م) البريد بفلاء الأسعار بدمشق ، وأن الفرارة القمح بلغت نحو خمسة درهم ، وبيع الحنيز بحلب كل رطل حامي بستة دراهم والمكوك النعم بثلاثمائة درهم ونيف . وأكلت الميتة والكلاب والقطاط . ومات خلق كثير من المساكين . واكتشف عدة من الأغنياء وهم الغلاء ببلاد الشام كلها ، حتى أكلت القطاط وبيعت الأولاد بحلب وأصهارا »^(٢٥٨)

وفي الحقيقة لم يتصغر وقوع تلك الأزمات الحاصلة بالغلاء والمرضى بين الناس داخل الأقاليم المملوكية فحسب ، وإنما كان يحدث أن يتعرض الحجاج وهم في طريق الحج إلى مثل تلك المصاعب

ينيف على مائق نفس . وتزايد في شهر رمضان مرض الناس وموتهم ، ونفذت الأقوات واشتد الأمر ، فبلغت عدة من يرد اسمه للديوان في كل يوم خمسمائة ، وبلغت عدة الطرحاء زهاءة على خمسمائة طريق . فقام بفرارة الطرحاء الأمير ناصر الدين محمد بن الأمير أبقيا أمي ، والأمير سون الشهبوزي ، وغيرها . وكان من أن يميت طريق أصحاب درهما ، فأتاهم الناس بالأموات ، فقتلوا بتسليمهم وتكفيمهم ودفنهم أحسن قيام ، بعدما شاهد الناس الكلاب تأكل المرق من الطرحاء .^(٢٥٩)

وفي الحقيقة أننا لا نلتفت عندما نقرأ عن هذا الدور الاجتماعي الذي لعبه السلطان الأشرف شعبان في سبيل مد يد المساعدة إلى رعيته في تلك الأيام المصيبة ، ولعل سبب عدم دهشتنا أن ذلك وقع أيام أتابكية منليك اليوسفي الذي عرف بالأخلاق الفاضلة ، والسمة الطيبة ، فبذل جهودا كبيرة من أجل التخفيف من وقع هذه الأزمة على مختلف الطبقات ويوجه عاصي الطوائف الفقيرة التي كانت عاجزة عن إيجاد ما يسد الرمق . وقد نجح في أن يجعل الأغنياء والمتقدمين على قدر المساواة في المساهمة للتخفيف من نتائج هذه المحنة الشاملة ، حيث أصبح كل واحد منهم مسئولا عن رعاية عدد من المعدمين والفقراء كي لا يقعوا أزمة سهلة للجوع والمرض والوفاء وفي هذا تحقيق هدف الشريعة الإسلامية في المشاركة الجماعية للرفع وقبح البلاد ، وحتى الفقير في مال الفئ خاصة في وقت الشدة والخرج .

كما يشير المقرئ إلى حدوث مثل ذلك في بقية الأقاليم المملوكية فيقول : « وقدم البريد بفلاء الأسعار بحلب ، حتى بيع المكوك القمح بمائة وخمسين درهما » و (٢٦٠) ولكن الأزمة انضجرت بعد أشهر وقبل انتهاء السنة إذ انخفضت الأسعار وتوفر الغلاء في الأسواق بأسعار معتدلة .^(٢٦١)

وهكذا تكاليف العناصر على تخفيف وقع تلك الأزمة على الناس ، ثم بناء على الأوامر السلطانية توزيع الفقراء على الأغنياء كل حسب منزلته وراثته ، كما وصلت تراويح القمح الجندى قاضي

(٢٥٩) السورق ، ج ٣ ، ص ١٢٥ - ١٢٦ ، انظر كذلك ، جامع ، ج ١ ، ص ٢٢٩ .

(٢٥٨) السورق ، ج ٣ ، ص ٢٢٨ ، انظر كذلك ، التجميع ، ج ١١ ، ص ٦٥ .

(٢٥٧) السورق ، ج ٣ ، ص ١٢٢ - ١٢٣ ، ٢٢٧ .

(٢٥٦) السورق ، ج ٣ ، ص ٢٣٩ .

(٢٥٥) إنبه ، ج ١ ، ص ١٥٤ .

(٢٥٤) إنبه ، ج ١ ، ص ١٥٤ ، انظر كذلك ، التجميع ، ج ١١ ، ص ١٣٩ ، طرقات ، ج ٩ ، ص ٢٥٠ .

(٢٥٣) السورق ، ج ٣ ، ص ٢٥٩ .

- ٢ - وقوع الوباء بين المواشي والأغنام كان يؤدي بالحمى إلى زيادة سعر الغلال . (٣٦٤)
- ٣ - انتشار أجداد والفساد على المزارع وتلى أي إقليم من أقاليم سلطنة الماليك كان على الدوام سببا رئيسيا من أسباب ارتفاع أسعار الغلال والحبوب . (٣٦٥)
- ٤ - نفث الطواحين والأمراض الحادة بين الناس كان يتبع حته دائما ارتفاع في سعر الغلة . (٣٦٦)
- ٥ - طمع وجشع كبار الأمراء الأغنياء وحرصهم على تجميع الغلال والحبوب بحيث يمز وجودها في الأسواق فترفع أسعارها ، ومن ثم يعمل هؤلاء على إخراجها بشكل قليل ومنقطع من أجل الريح الكبير ، وهذا هو السبب في أن المؤرخين المعاصرين دائما ما يشيرون إلى بعض هؤلاء بعبارة : وانكشف حدة من الأغنياء ، الذين كانوا دائما يظهرهم القفر ويدهون عدم الثراء ، فإذا حلت المصيبة تبين أنهم أثرياء بما يكفي عدم تضررهم .
- ٦ - كذلك جشع السلطان الأشرف شيمان (٣٦٧) وسبه الشديد لجميع المال ، في حين كان يجب عليه العناية بشئون البلاد الداخلية وأصلاح المرافق العامة والمنشآت الاجتماعية ، وإن كنا لا ننكر سلامة النية عند الأشرف ، ولكنه انفق إلى الأسباب التي توفر له فرصة العمل من أجل الصالح العام .
- ٧ - الاعتماد الكلي على مياه النيل وانتظار احتمال حدوث الفيضان ، وكذلك على المطر الذي قد لا ينزل ، في حين أنه كان من الأجدي الاهتمام بانشاء الترع والجسور والبرك والقنوات المؤدية للأراضي الزراعية بحيث يمكن المحافظة على مياه النيل في أثناء حدوث الفيضان لمدة عام أو أكثر من أجل استخدامها على مدار السنة ، ولكننا نقرأ شيئا في كتابات المعاصرين عن الاهتمام بهذا الموضوع .
- ٨ - عدم وجود جهاز اداري قوى يعمل من أجل مصلحة البلاد ، فتم توزيع الطحين بانتظام على الطحانيين ، وتراقب

وارتفاع الأسعار ونفثي المرض . ويشير ابن حجر إلى « حب الخراج المصري في رجوعهم » (٣٦٨) من الخراج عام ٧٧٧ هـ / ١٣٧٥ م . بالإضافة إلى ذلك :

« جرى للحاج الشافعي أشد ما جرى للمصري ، فاتهم جاههم سبيل بخليص تلف منهم بسببه شيء كثير ، وفي الترجمة حيث عليهم ربح حاصف ، ثم اشتد عليهم الغلاء في السطريق حتى بيعت الغرارة الشجر بمائة درهم » (٣٦٩)

ومن ناحية أخرى يذكر المقرئ :

« وفي هذا الشهر (ربيع الآخر سنة ٧٧٧ هـ / ١٣٧٥ م) ارتفع سعر اللحم ، فبيع الرطل من لحم الضأن بدرهم ونصف ، والرطل من لحم البقر بدرهم وثمن . » (٣٧٠)

كذلك من الأسباب التي كانت تؤدي إلى ارتفاع الأسعار عدم استتباب الأمن في الطرق التجارية ، وكثرة قطاع الطرق ، فتم الاستيلاء على مختلف أنواع البضائع حيث يندر وجودها في السوق مما يزيد في ارتفاع أسعارها . وهذا دليل على إهمال السلطة في ملاحقة وتذيب هذه الجشاعات الاقطاعية إذ يقول المقرئ :

« قدم الخبير بكثرة فساد أولاد الكنز ، وطائفة المكارمة بأسوان ، وسواكن وأهم منعوا التجار ، وفيرهم من السسر ، لظلمهم الطريق ، وأخذهم أموال الناس . وأن أولاد الكنز قد غلبوا على ثغر أسوان ، وصحراء عذلب ويريبة الواحات الداخلية ، وصاهروا ملوك النوبة ، وأسرا المكارمة ، واشتدت شوكتهم » . (٣٧١)

من دراستنا لأحوال هذه الخفية يمكننا أن نصل إلى بعض العناصر المؤثرة في ارتفاع أسعار :

- ١ - زيادة النيل في وقت الفيضان كان لها أثر فعال في عدم استقرار الأسعار إذ حوينا لا يصل فيضان النيل إلى الزيادة المطلوبة لتوفير الماء للزراعة فإن ذلك يعني ارتفاعا في سعر الغلال . (٣٧٢)

(٣٥٩) نيل ، ج ١ ، ص ١٥٧ .

(٣٦٠) نيل ، ج ١ ، ص ١٥٧ .

(٣٦١) السلوك ، ج ٣ ، ص ٢٤٢ .

(٣٦٢) السلوك ، ج ٣ ، ص ١٠٩ .

(٣٦٣) السلوك ، ج ٣ ، ص ٨٨ .

(٣٦٤) السلوك ، ج ٣ ، ص ٩١ .

(٣٦٥) السلوك ، ج ٣ ، ص ٩٢ .

(٣٦٦) السلوك ، ج ٣ ، ص ٩٢ .

(٣٦٧) السلوك ، ج ٣ ، ص ٩٢ .

الأفران من أجل بيع الحبوب والأسعار المحددة لكي يتمكن العامة والفقراء من الحصول على حاجتهم بسعر يتقنون على دفعه .

٩ - عدم كفاءة شخصية الأشرف شعبان بحيث لو كان على درجة من القوة والمهابة لعمل على منع الأمراء من تخزين الحبوب في الأجران وتقسيمها ببعضاً بأسعار مرتفعة في حين كان المعدون يوتنون جوفاً في الطرقات .

١٠ - للأعب بعض رجال الحسبة مثل علاء الدين بن عرب الذي لم يتعمق بمصلحة العامة وبعثتهم فقطالوا السلطان بعزله ، فخلع في عام ٧٧٥ هـ / ١٣٧٣ م .

١١ - عدم وجود استراحتات حكومية عامة على طرق طريق الحج توفر للحجاج الغذاء ولقاء والحاجات الضرورية بأسعار معتدلة فلا يتعرضوا لارتفاع الأسعار وشح الطعام والمطبخ الميت ، ولكن يبدو أن البلاط السلطاني كان مشغولاً بما يحال فيه من مؤامرات سياسية تهدف إلى خلع السلطان والاستحواذ للسلطان على السلطة والحكم ، فكانت نتيجة ذلك أبعد ما يكون عن التفكير في تلك الشغور العامة المتصلة بتوفير الرعاية اللازمة للرعية .

كل هذه العوامل تكاد أن على أن يشهد هذا العهد سلسلة طويلة من الأزمات والمحن المتعلقة بارتفاع الأسعار وقلة الغذاء في الأسواق ، وبالتالي انتشار الجوع والمرض الذي كثيراً ما يؤدي إلى كثرة الوفيات ، في حين حظى كبار الأمراء المماليك بثروات طائلة وأموال وفيرة إلى جانب كثرة ما تحث أيديهم من المماليك والحاشية .

ولعل هذا الضغوط الكبيرة في الحالة المالية يعود بالدرجة الأولى إلى عدم قدرة السلطان الحاكم على الوصول إلى نظام اقتصادي للبلاد يوفر للفرد من كافة الطبقات مختلف حاجاته الضرورية وبخاصة الغذاء بأسعار معتدلة .

أما فيما يتعلق بالوضع الإداري في سلطنة المماليك ، فنلاحظ حدوث بعض التغييرات الإدارية مثل تحويل القدس من ولاية إلى نيابة حيث يقول ابن حجر :

« وفيها (٧٧٧ هـ / ١٣٧٥ م) استقر تمراز في نيابة القدس ، وهو أول من ولي نيابتها ، وكانت قبل ذلك يكون فيها والي من جهة والي الولاية بمنشق » . (٣٦٨)

كما كانت العلاقات ودية بين آل مهنا وسلطنة المماليك إذ يقول ابن أبياس :

في عام ٧٦٧ هـ / ١٣٦٥ م « حضر إلى الأبواب الشريفة الأمير حيار بن (٣٦٩) أمير آل فضل من عربان الشام فلما حضر أكرمه السلطان ونبعل عليه واستقر به على عادته وكان له مدة طويلة وهو عاص قلم يؤاخذاه السلطان وحلم عليه » . (٣٧٠)

أما فيما يخص بالعلاقات بين سلطنة المماليك وآل فضل فيذكر القرطبي أنه في سنة ٧٧٠ هـ / ١٣٦٩ م « اتفق ألبسا أن يبي كلاب (٣٧١) كثر فسلحهم وقطعهم الطريق فيما بين حما وحلب ، واندخلوا بعض الحجاج ، فخرج إليهم الأمير قشتمر نائب حلب بالعسكر ، حتى اتوازل السلطان بظاهر حلب ، فإذا عدة من مضارب حرب آل فضل ، فاستأق العسكر جالهم ومواشيهم ومالوا على بيوت العرب فتهبوا . فشارت العرب بينهم وقتالوهم ، واستجلبوا من قرب منهم من بني مهنا ، واتاهم الأمير حيار وولده نعيم بجمع كبير ، فكانت معركة شتية ، قتل فيها الأمير قشتمر النائب وولده وعدة من عسكره ، وأجزم بالهزم ، فركب العرب اقتبهم فلم ينج منهم عرباً إلا من شاء الله ، فكان ذلك وهنا في الدولة ، جره إليها طمع عساكرها » (٣٧٢) .

ونتيجة لذلك تجمعت العلاقات بين آل فضل وسلطنة المماليك مدة خمس سنوات حيث يبدو أن حيار أمير آل فضل ندم على ما ألقى عليه نحو دولة المماليك ، ومن ثم قدم إلى البلاط السلطاني يسأل عفو الأشرف شعبان إذ يقول ابن حجر :

« وفيها (٧٧٥ هـ / ١٣٧٣ م) وصل حيار بن مهنا أمير آل فضل إلى باب السلطان طالما ، فخلع عليه واستقر في إمرة العرب وكان السلطان قد غضب عليه بسبب قشتمر بحلب قبل هذا التاريخ » (٣٧٣) .

(٣٦٨) آية ، ج ١ ، ص ١٥٨ .

(٣٦٩) انظر ترجمته ، القدير ، ج ٢ ، ص ٢٩٩ .

(٣٧٠) بفتح ، ج ١ ، ص ٢١٦ .

(٣٧١) بنو كلاب ، بان من عامين من مصحة وكلفت يداهم في جهات الفجة لفترة ثم انقلبوا بعد ذلك إلى الشام . السلوك ، ج ٣ ، ص ١٧٤ ، حاشي (١)

(٣٧٢) السلوك ، ج ٣ ، انظر كذلك ، بفتح ، ج ١ ، ص ٢٢١ .

(٣٧٣) آية ، ج ١ ، ص ١٧٨ .

ومن ناحية أخرى نلاحظ أن دولة الأشراف شعبان قد حققت بعض الفتوحات العسكرية في الحدود الشمالية حيث تم - على سبيل المثال - فتح مدينة سبب التي كانت تحت حكم الأرمن حلفاء الدول الصليبية ، لفتحها لشقمر المارديني نائب حلب حيث يقول ابن حجر :

« وفيها (٧٧٦هـ / ١٣٧٤م) فتحت سبب - وكانت قد بقيت في يد الأرمن النصاري - على يد الشقمر المارديني^(٢٨١) نائب حلب ، وكان قد تجهز إليها بمسكرب حلب لئلا تهاجم شهرين إلى أن قلت عنهم الأقوات ، فنصب عليها المجانيق وقدم في القتال التركمان من جميع الأصناف الأربع فيه والبوزقية ، وكان الذي نصب المجانيق يقال له : للمعلم خليل الدسائي ، وهو عن المشعر بالمعركة فيه ، فأبلى فيهم فأحسوا بالبوراء ، فطلب صاحبها تكفير الأمان وسلم القلعة ، فقلت كلمة أهل التوحيد بتلك البقرة بعد دهر طويل ، وبجهاز الشقمر فاحتلوا . ولغرض الأشراف نبابة سبب ليعقوب شاه ، وهو أول من حكم فيها من ملوك الترك ، ثم استقر عهده في هذه السنة البغيا هيداه^(٢٨٢) واستقر نجم الدين ابن الشهيد كاتب السرى ، ثم جعلت مملكة بمراسها وسميت « الفتوحات الجاهلية » وأضيف إليها طرسوس وإفنة وإياص وغيرها واستقر في أمرها شرف الدين موسى بن محمد بن شهري^(٢٨٣) واستقر بها^(٢٨٤) .

ومن ثم بدأ تنظيم الجهاد الأشرافي حسب النمط الإسلامي المعروف إذ يقول للمقريزي :

« في ثالث المحرم (٧٧٧هـ / ١٣٧٥م) خلع على نجم الدين بن الشهيد موقع السبت واستقر كاتب السرى بسبب^(٢٨٥) . كذلك يظهر لنا واضحا حرص دولة المماليك أبان هذا العهد على فتح جميع المدن والبلاد الواقعة في الحدود الشمالية ، ولعل أبلغ

ومن جانب آخر أرتبطت دولة المماليك في عهد الأشراف شعبان بعلاقات طيبة مع اليمن حيث حرص حكام اليمن على إرسال الهدايا إلى البلاط السلطاني المغربي ترطيدا لعلاقات الصداقة مع دولة المماليك منذ أيام المجاهد حل بن داود^(٢٨٦) الذي كان حريصا على تلك الرابطة الودية إلى أن توفي عام ٧٦٧هـ / ١٣٦٥م^(٢٨٧) . ولما تسلطن ولده الأفضل عباس استمر يثب الرسل إلى البلاط السلطاني إذ يقول المقريزي :

« وقدم وزير ممتلك اليمن جديدة من جعلتها غيل^(٢٨٨) بالإضافة إلى ذلك يذكر المقريزي :

« في يوم الخميس ثالث المحرم (٧٦٨هـ / ١٣٦٦م) قدمت رسل الملك الأفضل عباس بن المجاهد صاحب اليمن بدية سنة على العادة ، وهم وزيره شرف الدين حسين بن علي الفارقي ، وأمر إنشوره ناصر الدين فوفقوا بين يدي السلطان وأدوا رسائلهم ثم أتلوا في الميدان الكبير على شامليء التيل ، وقدموا هدية مرسلهم في يوم السبت خامسة^(٢٨٩) .

وهكذا ظلت العلاقات الطيبة قائمة بين الجانبين في أيام الأفضل بن المجاهد مما يؤكد أن تلك الأسرة الحاكمة في اليمن كانت حرصية على استمرار الروابط الودية مع سلطة المماليك إذ يقول ابن حجر :

« وفيها (٧٧٥هـ / ١٣٧٣م) وصلت هدية صاحب اليمن الملك الأفضل بن الملك المجاهد إلى الديار المصرية صحة ناصر الدين ابن الفارقي وغيره^(٢٩٠) .

ويؤكد المقريزي حدوث ذلك فيقول :

« وفيه (عام ٧٧٥هـ / ١٣٧٣م) قدم شرف الدين حسين الفارقي وزير صاحب اليمن بكتابه وصحبه أمير آخره ناصر الدين محمد ، ومعها هدية سنة^(٢٩١) .

(٢٨٤) انظر ترجمته ، الدور ، ج ٣ ، ص ١١٨ - ١٢٠ .

(٢٨٥) فدايات ، ج ٦ ، ص ٢٠٩ .

(٢٨٦) السلوك ، ج ٣ ، ص ١٢٧ .

(٢٨٧) السلوك ، ج ٣ ، ص ١٢٧ .

(٢٨٨) آباء ، ج ١ ، ص ٧٨ .

(٢٨٩) السلوك ، ج ٣ ، ص ٢٢٢ .

(٢٩٠) انظر ترجمته ، الدور ، ج ١ ، ص ٤١٦ .

(٢٩١) انظر ترجمته ، الدور ، ج ١ ، ص ٤١٩ .

(٢٩٢) انظر ترجمته ، الدور ، ج ١ ، ص ٤١٩ - ٤٢٠ .

(٢٩٣) آباء ، ج ١ ، ص ٩٧ - ٩٨ ، انظر كذلك السلوك ، ج ٣ ، ص ٢٢٢ - ٢٢٣ ، النجوم ، ج ١١ ، ص ١٦٩ ، وبلغ ، ج ١ ، ص ٢٢٩ - ٢٣٠ .

(٢٩٤) السلوك ، ج ٣ ، ص ٢٣٠ .

نائب السلطان ببغداد . ان نصره الله عليه وان تكن الاخرى ، قدم الى ابواب السلطان فاكومت رسله . ووجه له تشريف جليل واعلام خلقيته واعلام سلطانيته . وكتب له تقليد بناية بغداد . ووجهز ايضا عدة خلع لامراله واكابر دولته ، وشمل على رسله . واعيد^(٢٨٥) .

وعلى ذلك يمكننا ان نستبط ان الحكم المغولي في بغداد قد ضعف ايام سلطنة اويس بن حسين بن حسن بن آقبا المغولي الذي تسلم سنة ٧٦٠هـ / ١٣٥٨م^(٢٨٦) مما حدا بنائيه في بغداد الى الاستقلال عنه . الا انه يبدو ان خواجا مرجان كان متخوفاً بعض الشيء من حركته الاستقلالية الانفصالية هذه ، فظهر الولاء لسلطنة المماليك والاشرف شعبان ، وبعث رسله الى البلاط السلطاني في القاهرة ، في حين خطب في مساجد بغداد للاشرف شعبان وسكت النقود باسمه . بيتاً من ناحية اخرى رحب اصحاب السلطة المماليك برسول خواجا مرجان واكرموه ، وكتب للنائب المنفصل اقرار سلطاني علوي بناية بغداد ، بالإضافة الى عدد من الخلع ل كبار رجال دولته ونجد انفسنا ندهش في الحقيقة لما يجري ، ولكن في ضوء طبيعة الوضع السياسي لسلطنة المماليك في هذه الفترة (٧٦٧هـ / ١٣٦٥م)^(٢٨٧) يمكن القول بأن ضعف دولة منول فارس كان عاملاً مشجعاً لخوaja مرجان للتكبر في الانفصال الا ان دعامه جعله يفكر بضرورة الاستناد على مساعدة دولة اخرى مجاورة تحسباً لما قد يقع من نتائج حركته الانفصالية ، مما يندلج الى انه بالرغم من صغر سن الاشرف شعبان في هذه الفترة الا ان دولة المماليك كانت لا تزال تحتفظ بتفلقها السياسي بين جيرانها من الدول القريبة ، مع الاعداء بالاعتبار ان النائب المنفصل كان ينظر لهذه التيمة لسلطنة المماليك كنوع من الحضور الاسمي لدولة قوية بحيث يكون هذا

مثال على ما نقول ما يذكره المغريزي من انه و كتب الى الامير جرجي نائب حلب^(٢٨٨) ان يسير لاعداء قلعة غوت بروت من ديار بكر ، واخذ صاحبها خليل بن قرباجا بن دلفادر^(٢٨٩) مقدم التركمان ، فنزل قلعتها نحو اربعة اشهر ، وعاد بشير طائل ، خنتها وحصانتها ، ثم ان ابن دلفادر طلب الامان ، فامن ، وقدم الى القاهرة^(٢٩٠) .

بالاخص الى تلك الجهود يسوق ابن حجر : وفيها (٧٧٧هـ / ١٣٧٥م) تسلم نواب السلطان ستجار واحضر صاحبها الى القاهرة واستأبط السلطان بياحدر بن يونس المعروف بابن المسكري^(٢٩١) .

كذلك ربطت العلاقات الطيبة بين سلطنة المماليك ومدينة ماردين منذ بداية حكم الاشرف شعبان حيث توالت على حكم ماردين الملك الصالح بن المنصور شاذي^(٢٩٢) الذي توالت على ٧٦٩هـ / ١٣٦٤م^(٢٩٣) ، ثم حكمها ابنه داود^(٢٩٤) الذي توالت على ٧٧٨هـ - ١٣٧٦م^(٢٩٥) ، ثم في اواخر عهد الاشرف حكمها الظاهر حمص بن داود الذي كان حرصاً على طيب الروابط مع دولة المماليك^(٢٩٦) .

كذلك يشير المغريزي من بين وثائق سنة ٧٦٧هـ / ١٣٦٥م الى حادثة تثير الكثير من التساؤلات ، اذ يقول :

وفيها حصلت وحشة بين السلطان اويس مشكك ببغداد وتوزيز^(٢٩٧) وبين نائبه ببغداد ، خواجا مرجان ، فعصى عليه مرجان ، وصطح ببغداد للسلطان الملك الاشرف ، وبعث رسله بذلك لقدموا في اربل جافى الاول ، ومعهم كتابه بأنه قد خلع اويس ، واقام الخليفة ، وضرب السكة باسم السلطان الاشرف ، واخذ له البيعة على التماس ببغداد ، وعزم على محاربة اويس وانه

(٢٨٥) انظر ترجمته ، القادر ، ج ٢ ، ص ٧١ .

(٢٨٦) انظر ترجمته ، القادر ، ج ٢ ، ص ١٧٨ .

(٢٨٧) السيلوك ، ج ٣ ، ص ١٢٠ ، انظر كذلك ، بدائع ، ج ١ ، ص ٦٦٤ .

(٢٨٨) انباء ، ج ١ ، ص ١٥٦ .

(٢٨٩) انظر ترجمته ، القادر ، ج ١ ، ص ١٥١ .

(٢٩٠) بدائع ، ج ١ ، ص ٢١٤ .

(٢٩١) انظر ترجمته ، القادر ، ج ٢ ، ص ١٨٩ .

(٢٩٢) انباء ، ج ١ ، ص ٢٠٧ .

(٢٩٣) انباء ، ج ١ ، ص ٢٠٨ .

(٢٩٤) انظر ترجمته ، القادر ، ج ١ ، ص ٤٤٨ .

(٢٩٥) السيلوك ، ج ٣ ، ص ١٦٢ .

(٢٩٦) القادر ، ج ١ ، ص ٤٤٨ .

اويس في ترويز ، فسارع من اجل الوصول الى بغداد وتحملها من يد خواجه مرجان وعودتها الى حكم المغول اذ :

« قدم الخبير بمسير السلطان اويس من ترويز الى بغداد ، ولبسه على خواجه مرجان وسمل عينيه ، وحسبه . وان حارب من مهنا ، لما خرج عن الطاعة ، ثم فر الى العراق ، وطردته حربه من بلاد الشام ، خدم اويس زيادة على سنتين ، حتى خالف عليه خواجه مرجان ببغداد ، وقبض عليه ، فرمته بعض امرائه الى حيار . فلما طلبه منه اويس ، لم يستطع به اليه فبثت اويس يطرده من بلاده ، فسار عنها ، وسأل الامير عمر شاه ، نائب حماه ، ان ينسحب الى السلطان فيه ، ويسأله رد القطعة اليه . لكن بك ذلك عمر شاه ، فاجاب الى قبول شفاعته وان يميزه الى الأبواب السلطانية صحته . فقدم الامير عمر شاه ، وسمه الاثير حيار في يوم الخميس غلص عشرة . وقدم عقب ذلك رسول السلطان اويس يطلب الامير الذي فر الى حيار وان لا يمكن احدا من فر من مملكته ان يعبر الشام ومصر ، فلم يجب الى قصده . وتسلع على حيار وولده الامير نعيم وخواصه ، واعاد الى الامرة ، وتسلع على الامير عمر شاه ، واعدوا الى حل ولايتها .

وفي اول ذي القعدة قدم رسول متصلا مرادين بان يرمع عجا التركمان قد تغلب على الموصل منذ سنتين وبلغ عسكره نحو الثلاثين الفا . فلما اخذ السلطان اويس نايه مرجان بعت الى الموصل جيشا ففر منه يرمع عجا الى بلاد المعجم ، وملكها اويس ، وقد هزم على اخذ ملادين ، ووقع ملكها تمندى منها الى حلب . وطلب نهضة ، فخرج من يكشف من هذا الامر (٢٩٨) . ونتيجة لذلك تلاحظ انه :

« يوم الخميس ثالث عشرين صفر خلع على الامير متكلي بقال الشمسي ، واستقر في نايه حلب عوضا عن جرجي الايروسي ، فصار نايه حلب اكبر رتبة من نايه دمشق ، واصف من عسكر دمشق في حلب اربعة الاف فارس (٢٩٩) .

وهكذا يظهر واضحا ان سلطنة المماليك بدأت تنحسر احتمال هجوم السلطان اويس على حلب ، فانجذبت في تكثيف الدعم العسكري في حلب لرد اي هجوم مباغت من اويس . ولكن يبدو ان السلطان اويس لم يكن راغبا في مهاجمة حلب بل في توطيد روابط العلاقات الطيبة من جديد مع سلطنة المماليك ، ولذا نجده يبادر في

الخصم مصدرا دائما لمساعدته ضد دولة مغول فارس ، ونصيرا له من اجل تدعيم سياسته في بغداد . وعلى ذلك فهو يستبدل سلطة فعلية من مغول فارس بسياسة اسمية من سلطنة المماليك مستفيدا بذلك من عامل استعداد دولة المماليك لمساعدته على تثبيت حكمه المنفصل بالمال والسلاح والجند .

ومن ناحية اخرى اذا كان هذا الذئاب الثائر على ادراك تام بطبيعة الاحوال السياسية داخل دولة المماليك ، فلا بد انه كان يعلم حقيقة عدم جدوى الاعتماد على مساعدتها ، وانه لم يتخذ تلك الخطوات بالتقرب اليها الا بدافع من التلويح الذي يتضمن عهدها لدولة مغول فارس بان السلطة يترحبها برسلة المامي على اتم الاستعداد دائما لمساعدته على الاستمرار بحكمه المستقل في بغداد ، ولذا تأثر المغول بهذا الموقف السياسي يكون ضمن نفسه حكما مستقلا ثابتا في بغداد ، اما اذا ادرك المغول حقيقة اللعبة ، وان المماليك لن يتجدد وهم على ما كانوا فيه من عدم استقرار فيكون بذلك قد ضمن لنفسه شخصيا ولاسيماه مكانا يصحح للهجرة اليه طلبا للحماية والنجدة ، ولي كذا الخاتين يكون قد حقق لنفسه شيئا من النفع بالاعتماد على سلطنة المماليك والتقرب اليها .

ولكن الامور لم تسر وفق خطط خواجه مرجان اذ : « قدم قاضي تبريز في جماعة برسالة السلطان اويس ان مرجان قد عصي عليه ، وانه قصد السير لقتاله ، فلا يمكن - لذا فر - من دخوله الى الشام ومصر ، فاجيب بما لا يريد ، وانه ان اراد نجدة سيرنا اليه المساكين لنصرتهم ، واهين رسوله واهيد عاليا (٣٠٠) .

ولا شك انه كان لا يقدم هذه السفارة للمغولية الى القاهرة وقع المفاجأة على نائب بغداد ، لولا ان سلطنة المماليك حافظت على وعدها له بالمساعدة وانما ستسلمه بالجند اللازم لمقاومة السلطان اويس ، وبالتالي هادت السفارة المغولية الى بلاط السلطان اويس خاتبة دون ان تحقق هدفا واحدا من الاهداف التي قمت من اجلها ، وباتت على يقين بان اصحاب السلطة في دولة المماليك حاضرون على القتال الى جانب خواجه مرجان ضد جند السلطان اويس ، وعلى ذلك يجب عليه ان يكون مستعدا في السلاح والاساكر لمحاربة دولة المماليك .

ولكن تطور الوضع على مجهل خواجه مرجان كي يشأ بحركته الانفاضية اذ سرعان ما بلغت اخبار هذه الحركة بلاط السلطان

(٢٩٧) السيرة ، ج ٢ ، ص ١٤٨ .

(٢٩٨) السيرة ، ج ٣ ، ص ١٢١ - ١٢٢ .

(٢٩٩) السيرة ، ج ٣ ، ص ١٣٧ ، انظر كذلك ، المعجم ، ج ١١ ، ص ٢٤ .

وتغريبها وبنيها ، فعادر الرسل البلاط السلطاني دون أن يفتقروا
المطالب للملّة حيث يقول القريزي :

« وفي أول شهر رجب قدم الخبر ، بوصول رسل الفرنج إلى ميناء
الاسكندرية ، وانبس طليوا رهاثن عندهم ، حتى يتزولوا من مراكبهم
ويؤدوا رسالتهم ، فلم يؤمن مكبلهم ، واقتضى الحال اجابتهم ،
فلخرج من سجن البولي - المعروف بخزانة شاملي - جماعة وجب
قتلهم ، وضلوا بالخداع ، والبسوا ثيابا جميلة ، وسفروا إلى
الاسكندرية . فأكرمهم النائب . واشاع انهم من رؤساء الثغر ،
ويبعث بهم إلى الفرنج ، وشيع عطفهم نساء وصيانا ، يصيرون ،
ويكون ، كأنهم حيالهم وهم يتنافون الفرنج عليهم ، فمضى ذلك
على الفرنج ، وعلى اهل الثغر لانتظام حال المملكة ، وملاك
امرها ، وبجودة تدبيرها فسلم الفرنج الجماعة وزلت رسلهم من
المراكب . وقدموا إلى قلعة الجبل ، وقد عدى السلطان إلى سرحة
كوم برأ بالجزيرة ، فوصلوا إلى هناك . وجلس لهم الأمير يلبشا
الانليك ، وقام الامراء والحجباء بين يديه وادخلوا عليه فهاهم
مجلسه وغفروا انه السلطان ، فقبل لهم هذا مملوك السلطان .
لكتشفوا عن رؤسهم ، وغربوا على وجوههم يقبلون الأرض ،
ثم قاموا ، ودنوا إليه ونالوه كتاب ملكهم ، وقدموا هدية اليه ،
لفرق ذلك بحضرتهم فبمن بين يده ، واختار منه طشتا واربعا من
ذهب ، وصنعتا لم يعرف ما فيه ، وقصبت رسالتهم ، انهم في
طاعة السلطان ومساعدته على تملك قبرص ، حتى ترد الاسرى ،
التي اخذت من الاسكندرية ، ويعوض المال . وسألو تجديد
الصلح . وإن يمكن تجارهم من قدم الثغر ، وإن تفتح كنيسة
القيامة بالقدس ، وكانت قد غلفت بعد واقعة الاسكندرية .
فاجابهم ، بأنه لا بد من غزو قبرص ، وتقريبها ثم امسجروا فاقاموا
بالوطاق ثلاثة ايام ، وحملوا إلى دار القضاة بجمار قلعة الجبل . فلما
عاد السلطان من السرحة ، وقلوا بين يديه ، وقدموا حديثهم وادوا
رسالتهم ، فلم يجابوا ، واعيدوا إلى بلادهم خائبين ^(٣٠١) .
ورغم ذلك ، فان للملك الأوروبية حرصا على استمرار بعث
السفراء والرسل إلى البلاط السلطاني في دولة المماليك في سبيل
ارساء اواصر الصداقة بين الطرفين . ففردوا عن وصول رسل جنو
في عام ١٣٦٨هـ / ١٣٦٦م يسألون السلطان ان يسمح بتقديم

بعث الرسل إلى البلاط السلطاني لترقيق الروابط الودية بين الدولتين
اذ يقول القريزي :

« وفي حادي عشرين ذي الحجة ، قدمت رسل السلطان اويس
من بغداد ^(٣٠٢) ومن ناحية اخرى حرصت سلطنة المماليك على
بناء العلاقات الطيبة من جديد مع دولة السلطان اويس بعد ان
فشلت محاولة مرجان الانصاف حيث يقول القريزي :
« وفيه (ذي الحجة سنة ٧٧٠هـ / ١٣٦٩م) توجه الامير ناصر
الدين محمد بن الامير سرتقطي في الرسالة إلى اويس متملك
بغداد ^(٣٠٣) .

بالاضافة إلى ذلك عفا اويس عن ثأليه في بغداد مرجان ، بل
واسع عليه المنصب نفسه في حكم بغداد اذ يقول ابن حجر :

« مرجان بن عياد الخادم ، نائب السلطنة ببغداد لاويس ،
وكان قد تغلب عليها فقصده اويس من تبريز ثم حضر اليه طاعما
لفطامه وذلك في سنة سبع وسعين ، واستمر نائبا ببغداد إلى هذه
الغاية . وكان لها شجاعة ، كانت الطرفا قد فسدت بسبب
مزله ، فلما اعيد اصلحها ^(٣٠٤) .

وبعد ذلك توفي مرجان هذا سنة ٧٧٤هـ / ١٣٧٢م . وقد
استمرت العلاقات الودية بين الدولتين حتى وفاة السلطان اويس بن
الشيخ حسن الملقب عام ٧٧٦هـ / ١٣٧٤م ^(٣٠٥) .

ويؤيد ان اخبار هذه الاستعدادات الحربية قد بلغت بلاطات
الممالك الأوروبية ، فغضب بعضها فداحة الخسائر التي قد تصيب
قبرص فيما لو قرر حكام السلطنة غزوها ، ومن ثم رأى اصحاب
السلطة في هذه الممالك العمل على اهلولة دون ذلك عن طريق
اوسال سفارات اوروبية إلى بلاط الاشرف شعبان لاسترضائه ،
فان امره على محاربة القبارصة فانهم يتعهدون له بمساعدة دولهم
مشايل اطلاق سراح الاسري الصليبيين ، وتجديد الصلح ،
وصلاحية التبادل التجاري الا ان بين الجانبين ، وقصت كنيسة القيامة
بالقدس ، الا ان السلطان الاشرف شعبان رفض لافراد هذه
السفارة الدبلوماسية عزمه وتصميمه على محاربة القبارصة في
بلدكم ، وأنه لن يقبل على اي تعامل معهم ما لم يحقق اولاً ما يرجوه
من نصر ضد القبارصة ومن مساعدتهم على مهاجمة الاسكندرية

(٣٠١) السليك ، ج٢ ، ص ١٦١ .

(٣٠٢) السليك ، ج٢ ، ص ١٦٩ .

(٣٠٣) قبل ، ج١ ، ص ٧٠ .

(٣٠٤) قبل ، ج١ ، ص ١١١ ، السليك ، ج٢ ، ص ٢٤٥ ، الفرج ، ج١ ، ص ٦٦ ، لفراند ، ج٦ ، ص ٢٢١ - ٢٤٢ .

(٣٠٥) السليك ، ج٢ ، ص ١١٨ - ١١٩ .

تجارهم الى الاسكندرية حيث اجاب عليهم^(٣٠٥) كذلك تكور
 قسوم و سئل الامبراطورية البيزنطية في السنوات
 ٨٧٧هـ / ١٣٦٨م^(٣٠٦) ، ٧٧٧هـ / ١٣٧٥م عملين بالمدايا
 عنوانا للتنمية الخاصة في ارساء روابط السود مع سلطنة
 الماليك^(٣٠٧) . كذلك قدمت في عام ٧٦٧هـ / ١٣٦٥م و سئل
 الملك ابراهيم بن عثمان حاكم الروم مصرية عن رغبته في نجدة
 سلطنة الماليك ضد ملك قبرص^(٣٠٨) .
 وقد انتهى حكم الاشراف شعبان بداية متوترة حيث تأمر عليه
 عدد من عماليكه من فئة من كبار الاسراء ، فاطسوا بحكمه ،
 واستولوا على القلعة ، ثم تخلصوا منه شخصيا بالقتل ، وبأعض
 ابن حجر هذا الحادث بقوله :

« ولها (٧٧٧هـ / ١٣٦٦م) تجهز السلطان الملك الاشراف الى
 المسح فارسل اخوته والاولاد اصمعه جميعا الى الكرك فسجنوا بها
 وارسل معهم سرورن الشجعون ليقم عندهم احتفظا بهم وارسل
 اقتصر الخنثي الى الصعيد في جماعة امراء لحفظ البلاد من العرب ،
 وارسل عدة من الامراء الى سائر القصور لحفظها ايها^(٣٠٩) .

ولها عرج السلطان في تحمل زائد الى الداية طالبا للمسح ، فأتاه
 بسيفيوس يوما ثم سافر في الثاني والعشرين من شوال ، فلما وصل
 حقة ايلة في مستهل ذي القعدة خاضر عليه الامراء الذين صحبه
 واكثر مالكة ، وكانوا طالبا منه ان يفتح عليهم نفقة اختصروها
 فامتنع فداروا حل الامراء فمن اجابهم الزوم بالركوب معهم ومن
 امتنع يهدوه بالقتل وركبوا بفتح خاوشهم الخاصكية القتال الى
 الليل ، فلما بلغه ذلك هرب راجعا الى القاهرة ، وكان الذين
 خلفهم بالقلمة قد اعدوا مع الذين خاضروا عليه بالمعجة اهم
 يسطنون ولده حليا فاضلوا ذلك بان انفروا وجاموا الى الزمام
 فاعبروه ان السلطان مات وطلبوا منه ان يخرج فم ولده عليا ،
 فامتنع فهجموا عليه وكسروا بابا وبابا بينه واسكوه واخرجوا
 الصعي قهرا فاقصدوه بباب السائرة ، ثم تركوه الى اليونان ،

مفترا في ذي القعدة عام ٧٧٨هـ / ١٣٦٦م عن اربع وعشرين سنة
 .^(٣١٠)

(٣٠٥) السرك ، ج ٣ ، ص ١٤١ .

(٣٠٦) السرك ، ج ٣ ، ص ١٦٩ .

(٣٠٧) آية ، ج ١ ، ص ١٦٩ ، السرك ، ج ٣ ، ص ٢٥٤ .

(٣٠٨) السرك ، ج ٣ ، ص ١٦١ .

(٣٠٩) تاريخ السرك ، ج ٣ ، ص ٢٧٢ .

(٣١٠) انظر ترجمه ، القوم ، ج ٤ ، ص ٢١٥ - ٢١٨ .

(٣١١) آية ، ج ١ ، ص ١٩٢ - ١٩٥ ، انظر كذلك ، السرك ، ج ٣ ، ص ٢٦٩ ، ٢٧٠ ، ٢٧١ ، ٢٧٢ ، ٢٨٢ ، القوم ، ج ١١ ، ص ٦٩ - ٨٠ ، بلخ ، ج ١ ، ص ٢٣٠ - ٢٣٢ ، ٢٣٥ .

٢٣٦ .

(٣١٢) آية ، ج ١ ، ص ٢١٠ .

بالحجاز ونذب إلى الثغور - مثل الاسكندرية وحماط ورشيد والبرلس - جماعة من الأمراء والأجناد يكونوا مركزين بها لدفع العدو من الفرنج . ونذب عدة أمراء للمبيت كل ليلة في أماكن عينت لهم من خارج القاهرة ومصر . ونذب الأمير إيدر الشمسي للاقامة بقلمة الجبل لحفظها . وجعل نائب الخبزة بالقاهرة الأمير القصر عبدلغني ، ورسم له ولجميع الأمراء المقيمين أن يحضروا في أيام المراكب الخفمة عند باب الستارة من القلمة ، ويقبلوا أيدي ولدي السلطان ، ويقفوا ساعة لطيفة . ثم يقوم أمير علي ابن السلطان من مجلسه ويقول للأمراء بيده « باسم الله » فيصرفوا بعد أن يسقوا مشروباً .

ولما قوي العزم على السفر أشار على السلطان جماعة من أهل الصلاح بأن لا يسافر ، فلم يقبل وصمم على السفر^(٣١٤) . وجدا يظهر لنا أن الأشراف شعبان كان يعرف جهداً الوضوع في البلاط للملوكي مما جعله يندب و عدة أمراء للمبيت كل ليلة في أماكن عينت لهم من خارج القاهرة ومصر^(٣١٥) طوال فترة خيبرته . كذلك نرى أنه « لما قوي العزم على السفر أشار على السلطان جماعة من أهل الصلاح بسان لا يسافر ، فلم يقبل وصمم على السفر^(٣١٦) » . وهذا يدل دون شك على وجود جماعة من النصحاء للمخلصين الذين كانوا يرغبون حقاً في مساعدة الأشراف شعبان واستمرار بقاءه في كرسي السلطنة حيث أنهم كانوا على وحي تام بتوايأ بعض كبار الأمراء المحطين بالسلطان وخططاتهم في سبيل التخلص منه ، وأنهم يبتغون من أجل إيجاد فرصة مناسبة في سفره للمصالح لقلته .

كذلك يتبين لنا من خلال الترتيبات التي اتخذت من أجل سفر السلطان للمصالح تلك الرعاوية والعيش الكريم الذي كان يحظى به السلطان^(٣١٧) ، في حين كانت الأزمات الاقتصادية تتراعى على عامة الشعب الذين يمارتون الجرع ، وقلة الغذاء ، وارتفاع الأسعار ، والمرض والوباء ، بحيث يبرز هذا التفاوت الكبير في الحالة الاجتماعية الاقتصادية عدم اهتمام السلطان بالصرف من ماله وما يتمتع به منترف من أجل أسماء الطبقات الوسطى والدنيا في المجتمع . ولعل هذه المبالغ والمثع في العيش هي الشيء الوحيد

ومن الجدير بالذكر أنه « لما فر السلطان من العبقة اضطرب الناس ، فالتجمل القاضيان برهان الدين الشافعي وجار الله الخنفي إلى القدس ، فألقيا فيه إلى أن سكنت الفتنة ثم قدما القاهرة يوم الاثنين سادس عشر ذي القعدة ورجع أكثر الرؤساء إلى القاهرة . وتوجه جوائر المشرف بمن بقي إلى مكة وأخذت خزائن السلطان فثبتت ورجع طشمير والحليفة ونقي الدين ابن ناظر الجيش وكان سافر معهم عرضاً من أبيه لقمعه ويذر الدين كاتب السر ويذر الدين الأتاني قاضي المالكية والشيخ سراج الدين البلقلي وصحبتهم حرم السلطان إلى أن دخلوا القاهرة ، فلما دخلوا انكر طشمير ماجرى وركب إلى قبة النصر وأراد أن يسلطن الحليفة فلم يوافق على ذلك . فالتفتوا معه فأنكر ثم أعطى النجاة بدمشق وتوجه إليها في عاشر ذي القعدة . وجعلت البيعة في ثامن ذي القعدة للملك للتصديق ثم ثار المماليك الذين أماتوا الأمراء على قتل الأشراف فطالبوهم بالنفقة التي وعدوهم بها وهي على ما قيل لكل نفر خمسمائة دينار فمطالوهم فجاءوهم بالسر ، فلما عشوا على أنفسهم أسروا بمساعدة الباشيرين والتجار وداه ذلك مدة وكان ما أخذ من الموضع الحكمي مائتي ألف دينار فيما قيل ومن مطلق الجسدي مائة ألف دينار ومن صلاح الدين ابن هرام نحو خمسين ألف دينار وما أخذ من الوزير وناظر الخصاص وغيرها من الدواوين جعل مستكثراً . وصعد قرطاي إلى الخزانة فالتفتها على النفقات والمباني وكان كثير السخاء وافترق على الممالك كل واحد خمسمائة دينار وعشرة آلاف درهم فضة نقرة وكانت صدهم ثلثة آلاف من الأجلاب وغيرهم ، وقيل بل الفين وقيل بين ذلك^(٣١٨) .

من سير الحوادث الأخيرة من حكم الأشراف شعبان ، نلاحظ أنه لم يكن يثق بأحد على الإطلاق حتى اخترعه وولاد أصنامه حيث كان يترك تطلع كل منهم للوصول إلى الحكم . كما كان يشي قيام حكام الأقاليم للملوكية بمركات انفصالية بدليل إرساله الأمراء لحفظ الأقاليم المهيمنة شمالاً وجنوباً .

ويسر للمؤرخي هذه التحفظات التي عمل بها الأشراف شعبان بقوله : « ونذب الأمير القصر الخنفي أن يخرج إلى بلاد الصعيد ، ومعه عدة من الأمراء والأجناد ، ويقيم به لحفظه مدة خيبة السلطان

(٣١٣) آية ، ج ١ ، ص ١٩٦ - ١٩٨ .

(٣١٤) السيرة ، ج ٣ ، ص ٢٧٢ .

(٣١٥) السيرة ، ج ٣ ، ص ٢٧٢ .

(٣١٦) السيرة ، ج ٣ ، ص ٢٧٢ .

(٣١٧) السيرة ، ج ٣ ، ص ٢٧٢ - ٢٧٣ .

السلطان ويقولون : « قد مات السلطان ونحن نريد نسلطان ابنه الأمير علي » . فقبلهم قل : « من كبيركم حتى نعلم إليه ابن السلطان » . فتأخروا فيما بينهم ساعة وجعلهم يكثر ، ثم كسروا شباك الزمام للطفل على تلك الجهة وصعدوا منه فهدبوا ما في بيت الزمام ، ونزلوا إلى رعية باب السائرة ولبضوا على الطواشي مقال الزمام ، وعلى الأمير جليلان ، ودخلوا من باب البشارة بأجمعهم ، وأخرجوا الأمير علي ، وأجلسوه بباب السائرة . وأحضره الأمير أبيهم الشيسي ، وألزموه بتبديل الأرض ، فقبلها ، وأركبوا الأمير علي إلى الأيون المعروف بدار العدل ، وأجلسوه على تحت الملك ، ولقبوه بالملك العادل ، (٣١٨) .

ونلاحظ أن هذه المرة لمرة ثلث على يد فئة صغيرة من كبار الأمراء الأريجارية بمساعدة المماليك الطاعنين في أموال السلطنة ، وقد انتهزت بشكل فوضوي يدل على عدم التخطيط الرأسي . كذلك يتبين لنا رفض بعض الأمراء لما حدث والرفضية في تولية الخليفة العيسوي سلطاناً لدولة المماليك . وشلال كل تلك الحوادث كانت الكلمة العليا للفرقة والسلاح ، كما كان الجلبع والطعن هو السبب في مشاركة عدد كبير من المماليك المفرزين إلى الأشراف شعبان من أجل الحصول على حصة من المال من الخزانة السلطانية ، حيث يذكر المقرئ :

« فلما أصبح عيار الأحد وابيه ، غيروا لقب الأمير علي وجعلوه للملك المنصور ، وأعلموا خطوط جميع العلياء والأمراء إهم رضوا به سلطاناً ، ونادوا بالقاهرة وأصلها ثانياً بالأمان والإطاعتان والدعاء للملك المنصور ، وشرج البريد لأحضر الأمير المنصور الخنيلي من بلاد الصعيد . وتلقسوا الأمراء ، فأخذ عظمير القلاف قلعة أرغون شاه رأس نوبة ، وأخذ قرطاي تقدمه صرغتمش ، وأخذ أيتك تقدمه بيضا السنجي ، وأخذ أستمير الصرغتمشي تقدمه ، وأخذ بلاط الصغير تقدمه ، حتى معوا من أروادهم منهم بالأمريات . واستقر الأمير شهاب الدين قرطاي أتابك العساكر . وتصوا لهم خليفة من بني عم الخليفة المنوكل . وأقاموا عز الدين حمزة بن علاء الدين علي بن محيي الدين بن فضل الله في وظيفة كتاب السر ، حتى يهضر أخوه بدر الدين » (٣١٩) .

ثم وقع ذلك التبديل غير المحدود في مال الخزانة السلطانية حيث كان نصب كل مملوك من الأجيال قدراً كبيراً يفرق ما وعدوا به ، عما يدل على عدم وجود الشعور بالمشورية تجاه الصالح العام

الذي حظى به السلطان من سمات الحكم والسلطة إذ عاش عروما من ممارسة حقوقه كسلطان لدولة المماليك ، وبلغ من عشقه على نفسه أنه أوصى بتولية ابنه علي فيما لو حدث له شيء ، وكانه كان يقرأ ما في صدور الخائضين من التواييا المكيدة ، واحتمال التآمر ضده للإطاحة به والقضاء عليه ، فتمتكون من عارسة ما يربون فيه من السلطة المطلقة والحكم دون عيقة أو قيد . ويؤداه أصبح من الصعب عليهم تخليق ذلك في ظل حكم سلطان في الرابعة والخمسين من العمر مدركاً لما يدور حوله من التفتن والمؤامرات ، ولذا أصبح يحكم الضرورة لديهم أن يتم تعيين سلطان طفل لتتبع بالصلاحيات المطلقة ، والامتيازات غير المحدودة .

كذلك يتبين لنا بوضوح أن الأمراء الذين حوله ، وكذلك بعض المماليك كانوا يتحنون الفرصة من أجل الانقضاض عليه والتخلص منه في سبيل السلطة العليا ، ولا نجد سبباً لذلك سوى أن الأشراف شعبان قد بلغ الرابعة والخمسين ، وأصبح شاباً بالغاً يتطلع إلى ممارسة مقاليد السلطة والحكم وهو الأمر الذي يرفضه كبار الأمراء الأريجارية ، فابتدأ بتصديق مناسبة ملائمة لقتله وتعيين سلطان صغير سهل الراس . وظاهر حله ثانية واضحة في تسلطن علي ابن الأشراف شعبان الذي كان لا يتجاوز الثامنة من العمر . أما الأمراء الذين رفضوا المشاركة في هذه المؤامرة فتم القبض عليهم وأودعوا السجن ، كما تم الاستيلاء على الخائض والغاشي الذي كانت بحوزة السلطان ، وفي هذا الموضوع يقول المقرئ :

« فلما كان يوم السبت ثالث ذي القعدة استلب لاثارة الفتنة بالقاهرة أيتك البغددي ، وأستمير الصرغتمشي ، وقرطاي ، وعظمير القلاف ، ومشوا فيمن تأخر بالقلعة من المماليك السلطانية ، وفي ممالك الأسياد ولدى السلطان ، وفي ممالك الأمراء المسافرين حصة السلطان ، وفي جماعة من المماليك البطالة وواعدهم جميعاً على القيام معهم ، وواعدهم بأن يتفقدوا فيهم خمسة آلاف دينار ، عنها عارة آلات درهم ، لكل واحد منهم فعالموا اليهم وأعلموا جميعاً على الانفاق وركبوا بألة الحرب .

ونزل المماليك السلطانية الذين باليقين من قلعة الجبل وصعد الذين كانوا أسفل القلعة إليها ، وصار الجميع بباب السائرة ، وفي داخله الطواشي سابقين الذين تبذل زمام اللدور ، والأمير جليلان لالا الأسياد ، والأمير أيتك جركس اللالا ، فأعلموا باب السائرة . وأخذ القوم يحرقون عليهم الباب ، ويطلبون الأمير علي بن

(٣١٨) السوك ، ج ٢ ، ص ٣٧٥ - ٣٧٦ .

(٣١٩) السوك ، ج ٢ ، ص ٣٧٦ .

عارسة نشاطاتهم الاقتصادية في ظل تلك الظروف التي لا تكاد تستغرق تضطرب مرة أخرى . ونتيجة لذلك فمن غير المعقول أن نتوقع ازدهار النشاط الاقتصادي والتجاري في ظل مثل هذه الأحوال .

كذلك يتضح لنا الموقف المهزوز الذي وصلت إليه الحالة العباسية في هذا العهد ، فالخليفة مجبور على إعطاء البيعة لأي شخص يرضى به الأمراء المماليك حتى ولو كان هناك سلطان آخر جالس على كرسي الحكم ، فلم يكن عندهم مانع من وجود سلاطين والعلية للأقوى . كما كان من السهل كثيراً خلق خليفة وتعيين بدل منه من العائلة العباسية على حسب المنهج الذي يرضى ويتمشى مع رغبات الأمراء . لقد وصلت سلطة المماليك في هذه الفترة إلى موقف سياسي خرج للغاية حيث فلت الزمام من يد السلطان الحاكم وتركزت السلطة بيد طائفة من الأمراء المماليك الأوليغاركية الذين وجدوا أن القوة هي الطريق الأنسب الذي يمكنهم مما يرغبون فيه من صلاحيات مطلقة في مجال السلطة والحكم ، وقد توفر لهم ذلك بالفعل في ظل سلطنة طفل ، ولكنه عندما كبر ووجه في ظل عدد كبير من الفتن والمؤامرات أخذ يعمل من أجل المسحبة الفعالة في مجال الحكم ، وهنا ظهر الصراع الذي لا بد أن يظهر بينه وبين أولئك الطامعين ، وانتهى بمقتله وهو في مطلع الشباب لكي يتسلطن ولده ويحاصر حبة مائلة في أحداثها ولعالياتها .

للدولة ، بل بلغ من سوء الحال أن الأمراء أصحاب السلطة في العهد الجليلي صعدوا إلى مصادة كبار المسؤولين الإداريين والمبشرين ، والتجار في سبيل جمع أكبر قدر من الأموال والنفائس .

ونجد الإشارة إلى أنه :

كان حدوث هذه الفتنة السياسية في القلعة بالغ الأثر على اضطراب الوضع الاجتماعي في القاهرة وعدم استقرار الناس حيث يقول المفريزي :

« فأمرنا أن ينادى في الناس بالأمان ، فنودي في القاهرة ومصر بين يدي وإلى القاهرة والأسان والإطمشان ، اقتضوا دكاكينكم وبيعوا واشتروا ، وترهقوا على الملك الأشرف والدعاء لولده للملك العادل علي ، ونائبه الأمير اقترع الخنبل ، فكثرت الفاقة بين الناس » (٣٢١) .

ولكن الناس لم يبدأوا إذ استمر الوضع السياسي غير مستقر والأمراء على أهبة الحرب حتى وصل الأمر أن :

« اضطرب الناس بالقاهرة ، وأغلغوا ما فتح من الخوانيت ، وكثر تحلفهم للحديث في أمر السلطان والقائمين بالدولة . ونودي بالقاهرة ومصر على السلطان ، وتوعد من اعتصاه ، فاضطرب الناس ، وبناتوا ليلة الاثنين على تحرق وللق شديد » (٣٢١) . وعلى ذلك فقد كان لا يمكن أن تستقر أحوال الناس ويستمرروا في



(٣٢٠) السطوك ، ج ٣ ، ص ٣٢٧ - ٣٢٨

(٣٢١) السطوك ، ج ٣ ، ص ٢٨١

قائمة الاختصارات

الأرقام هنا تدل على رقم المصدر في قائمة المصادر والمراجع .

٨٠	التويري	اللائم
١٥	ابن حجر	انباء
٣	ابن أبياس	بدائع
٧٥	المقريزي	الخطوط
١٤	ابن حجر	المدور
٧٦	المقريزي	السلوك
٥٥	ابن العماد	شذرات
١٠	ابن تغري بردي	النجوم
٦٥	القلقشندي	مآثر

المصادر والمراجع :

- الأدقوي : أبي الفضل كمال الدين جعفر بن ثعلب (ت ٧٤٨هـ / ١٣٤٧م) .
- ١ - الطالع السعيد الجامع أنساب نجبائه الصعيد .
تحقيق سعد محمد حسن .
القاهرة ، ١٩٦٦م .
- ابن الأقطبي : محمد بن إبراهيم (ت ٧٤٩هـ / ١٣٤٨م) .
- ٢ - نصب السعالي في أحوال الجواهر .
تحقيق أ. م. الكرملي .
القاهرة ، ١٩٣٩م .
- ابن أبيس : محمد بن أحمد (ت ٩٣٠هـ / ١٥٢٤م) .
- ٣ - بدائع الزهور في وقائع الدهور .
٣ أجزاء ، القاهرة ، ١٨٩٣ - ١٨٩٦م .
الطبعة : حسن .
- ٤ - الألقاب الإسلامية ، القاهرة ، ١٩٥٧م .
- ٥ - الفنون الإسلامية والوظائف ، ٣ أجزاء ، القاهرة ، ١٩٦٥ - ١٩٦٦م .
- ابن بطوطة : محمد بن عبد الله (ت ٧٧٩هـ / ١٣٧٧م) .
- ٦ - تحفة النظار في غرائب الأمصار وصحائب الأصفار .
القاهرة ، ١٢٨٧هـ / ١٨٧٠م .
- ابن قفري برقي : أبو الحسن يوسف (ت ٨٨٧هـ / ١٤٧٠م) .
- ٧ - حوادث الدهور في منى الأيام والشهور .
جزئين تحقيق وإليام بوير .
لوس أنجلوس ، ١٩٣٠ - ١٩٤٧ .
- ٨ - المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي .
الجزء الأول ، القاهرة ، ١٩٥٦م .
- ٩ - مورد السلطنة في من ولي السلطنة والخلافة .
بالخراف ج. د. كارليل .
طبعة أوروبا ، ١٩٧٧م .
- ١٠ - المنجم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة .
١٢ جزء ، القاهرة ، ١٩٢٩ - ١٩٥٦م .
- الجبرتي : عبد الرحمن (ت ١٢٣٧هـ / ١٨٢٢م) .
- ١١ - صحائب الآثار في التراجم والأخبار .
الجزء الأول تحقيق حسن محمد جويري وآخرين .
الطبعة الأولى ، القاهرة ، ١٩٥٦م .
- ابن الجهمان : يحيى بن شاذل (ت ٨٨٥هـ / ١٤٨٠م) .

- ١٢ - التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية .
بإشراف د. موزز .
القاهرة ، ١٩٩٨ م .
- ابن الحجاج : محمد بن محمد (ت ١٧٣٧هـ/١٣٣٦م) .
١٣ - المختل .
٤ أجزاء ، القاهرة ، ١٩٢٩ م .
- ابن حجر : أحمد علي (ت ٨٥٢هـ/١٤٤٩م) .
١٤ - الدرر الكفنة في أعيان المائة الثالثة .
٥ أجزاء ، القاهرة ، ١٩٦٦ م .
- ١٥ - أنباء العمر في أبناء العمر .
جزءان ، حيدرآباد ، ١٩٦٧ م .
- ١٦ - فتح الباري بشرح صحيح البخاري .
١٣ جزء ، القاهرة ، ١٣١٩هـ/١٩٠٩م .
- حسن : علي إبراهيم .
١٧ - مصر في المصور الوسطى من الفتح العربي إلى الفتح العثماني .
القاهرة ، ١٩٦٤ م .
- ١٨ - تاريخ المسالك البحرية .
القاهرة ، ١٩٦٧ م .
- ابن خلدون : عبد الرحمن بن محمد (ت ٨١٨هـ/١٤٠٦م) .
١٩ - كتاب العمر وديوان لبناء وأخير .
٧ أجزاء ، بيروت ، ١٩٦٥ م .
- ٢٠ - المقفلة .
القاهرة ، طبعة دار الشعب .
هواج : أحمد .
٢١ - المسالك والفرنج .
القاهرة ، ١٩٦١ م .
- ابن مقلق : إبراهيم بن محمد (ت ٨٠٩هـ/١٤٠٦م) .
٢٢ - الانتصار بواسطة عقد الأصهار .
جزءان في كتاب واحد .
القاهرة ، ١٨٩٣ م .
- الدوايري : أبو بكر بن عبد الله بن أبيك (معاصر لتناصر محمد بن قلاوون) .
كتر الدرر وجامع الفرد .
٢٣ - ج ٨ الدرر الزكية في أخبار الدولة التركية .
تحقيق و. هارمان ، القاهرة ، ١٩٧١ م .
- ٢٣ - ج ٩ الدرر الفخر في سيرة الملك الناصر .
تحقيق هـ. و. روبر ، القاهرة ، ١٩٦٠ م .
- الذهبي : شمس الدين محمد بن أحمد الشافعي (ت ٧٤٨هـ/١٣٤٨م) .

- ٢٥ - المعبر في خبر من غير .
- ٥ أجزاء ، الكويت ، ١٩٦٠ - ١٩٦٦ م .
- ٢٦ - خلاصة تليد الكامل في أسماء الرجال . تحقيق أ. أ. الحزرجي . القاهرة ، ١٣٢٢ هـ / ١٩٠٤ م .
- ٢٧ - كتاب دول الإسلام . جزآن ، حيدر آباد ، ١٣٣٧ هـ / ١٩١٨ م .
- ٢٨ - سير أعلام النبلاء . ٣ أجزاء ، القاهرة ، ١٩٥٦ - ١٩٦٢ م .
- ٢٩ - تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام . ٦ أجزاء ، القاهرة ، ١٣٦٩ - ١٣٦٨ هـ / ١٩٤٩ - ١٩٤٨ م .
- ٣٠ - تذكرة الحفاظ . ٤ أجزاء ، حيدر آباد ، ١٨٩٧ م .
- الزبيدي : محمد مرتضى الحسيني (ت ١٢٢٥ هـ / ١٧٩١ م) .
- ٣١ - تاج العروس من جواهر القاموس . طبع منها ١٦ جزءاً ، الكويت ، ١٩٦٥ - ١٩٧٧ م .
- زبير شتين :
- ٣٢ - تاريخ سلاطين الماليك . نقرة كارل ف. زبير شتين . لبنان ١٩١٩ م .
- السبكي : تاج الدين أبي نصر عبد الوهاب . ٣٣ - معبد النعم ومعبد النعم . طبعة دأود ولهم موهرن . لبنان ١٩٠٨ م .
- السخاوي : شمس الدين محمد بن عبد الرحمن (ت ٩٠٢ هـ / ١٤٩٧ م) .
- ٣٤ - الضوء للامع لأهل القرن التاسع . ١٢ جزء ، القاهرة ، ١٣٥٣ - ١٣٥٥ هـ / ١٩٣٤ - ١٩٣٦ م .
- ٣٥ - التبر المسيرك في ذيل السلوك . القاهرة ، ١٨٩٦ م .
- السيوطي : جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (ت ٩١١ هـ / ٥٠٥ م) .
- ٣٦ - حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة . جزآن ، تحقيق م. أ. إبراهيم . القاهرة ، ١٩٦٧ - ١٩٦٨ م .
- ٣٧ - تاريخ الخلفاء . تحقيق م. م. عبد الحميد . القاهرة ، ١٩٦٤ م .
- ابن شاهر : محمد بن أحمد الكشي (ت ٧٦٤ هـ / ١٣٩٣ م) .

- ٣٨ - فوات الوفيات والدليل عليها .
 ٤ - أجزاء ، تحقيق إحسان عباس .
 بيروت ، ١٩٧٤ م .
 الشوكاني : محمد بن هلي (ت ١٢٥٠هـ / ١٨٣٤م) .
 ٣٩ - البدر الطالع يمحاسن من بعد القرن السابع .
 جزءان ، القاهرة ، ١٣٤٨هـ / ١٩٢٩م) .
 الصلبي : خليل ابن أبيك بن عبد الله (ت ٧٦٤هـ / ١٣٦٣م) .
 ٤٠ - إمارة دمشق في الإسلام .
 دمشق ، ١٩٥٥ م .
 ٤١ - الوالي بالوفيات .
 ٨ أجزاء ، ١٩٣١ - ١٩٧١ م .
 نشره Bibliotheca Islamic
 الصفاي : فضل الله بن أبي القهر .
 ٤٢ - تالي كتاب وفيات الأعيان .
 تحقيق جاكولين سويك .
 دمشق ١٩٧٤ م .
 الظاهري : خليل بن شاهين (ت ٨٧٢هـ / ١٤٦٨م) .
 ٤٣ - زبدة كشف الممالك .
 تحقيق بول ريفز .
 باريس ، ١٨٩٤ م .
 عاشور : سعيد عبد الفتاح .
 ٤٤ - العصر المالكي في مصر والسلام .
 القاهرة ، ١٩٦٥ م .
 ٤٥ - مصر في عصر دولة المالكي البحرية .
 القاهرة ، ١٩٥٩ م .
 ٤٦ - مصر في العصور الوسطى من الفتح العربي الى الفتح العثماني .
 القاهرة ، ١٩٧٠ م .
 ٤٧ - المجتمع المصري في عصر سلاطين للمالكي .
 القاهرة ، ١٩٦٢ م .
 ٤٨ - أوروبا العصور الوسطى ، الجزء الأول ، التوزيع السياسي .
 القاهرة ، ١٩٦٦ م .
 ٤٩ - بعض أخطاء جديدة على العلاقات بين مصر والحبيشة في العصور الوسطى .
 مقالة في المجلة التاريخية المصرية - العدد الرابع عشر ٦٦ - ١٩٦٧ م .
 عبد السيد : حكيم أمين .
 ٥٠ - قيام دولة المالكي الثانية .
 القاهرة ، ١٩٦٦ م .
 ابن عبد الظاهر : يحيى الدين أبو الفضل عبد الله (ت ٦٩٢هـ / ١٢٩٢م) .

- ٥١ - تشریف الأیام والمعمور في سيرة الملك المنصور .
تحقيق م. كامل .
القاهرة ، ١٩٦١م .
- ٥٢ - الروض الزاهر في سيرة الظاهر .
تحقيق عبد العزيز الحویطر .
بحث دكتوراه ، لندن ، ١٩٦٠م .
- ٥٣ - الألقاب الحقیة من السيرة الشریفیة السلطانیة الأشریة .
لبنج ، ١٩٠٢م .
الحریری : البسائر .
٥٤ - المالک .
بیروت ، ١٩٦٧م .
- ابن الصمد : حید الحی أحد (ت ١٠٨٩هـ / ١٦٧٩م) .
- ٥٥ - شذرات الذهب في أخبار من ذهب .
٨ أجزاء ، القاهرة ، ١٩٣١ - ١٩٣٢م .
- الصمری : ابن فضل الله (ت ٧٤٩هـ / ١٣٤٩م) .
- ٥٦ - التشریف بالمصطلح الشریف .
القاهرة ، ١٨٩٤م .
حنسلیان : محمد حید الله .
- ٥٧ - معبر الاسلاویة وتاریخ الخطط المصریة .
القاهرة ، ١٩٦٩م .
- الحید روسی : حید القادر ابن الشیخ بن حید الله (ت ١٠٣٨هـ / ١٦٦٩م) .
- ٥٨ - کتاب تاریخ النور السافر .
بغداد ، ١٩٣٩م .
- أبو القفا : اسماعیل بن حلی (ت ٧٣٧هـ / ١٣٣١م) .
- ٥٩ - المختصر في أخبار البشر .
٤ أجزاء ، القاهرة ، ١٣٣٥هـ / ١٩٠٧م .
- ٦٠ - تقويم البلدان .
تحقیق م. رینود ، م. سلان .
باریس ، ١٨٤٠م .
- ابن الفرات : محمد بن عبد الرحیم (ت ٨٠٧هـ / ١٤٠٥م) .
- ٦١ - تاریخ الدول والملوک .
ج ٨ ، تحقیق لسنطین زروق وأعرین .
بیروت ، ١٩٣٩م .
- ابن أبي الفضائل : مفصل .
- ٦٢ - التبیح السلیط والذو الفرید فیما بعد تاریخ ابن العمید .
ج ٣ ، ٤ ، تحقیق أ. یلوشیة .
باریس ، ١٩٢٨م .

- لهمي : نعيم زكي .
- ٦٣ - طرق التجارة الدولية ومطاطها بين الشرق والغرب .
القاهرة ، ١٩٧٣ م .
- الغوطي : عبد الرزاق بن أحمد (ت ٧٧٣هـ / ١٣٢٣ م) .
- ٦٤ - الحوادث الجامعة .
تحقيق مصطفى جواد .
بغداد ، ١٩٣٧ م .
- القلشندي : أحمد بن علي (ت ٨٢٩هـ / ١٤١٨ م) .
- ٦٥ - مآثر الأناقة في معالم الخلافة .
٣ أجزاء ، تحقيق عبد الستار أحمد فراج .
الكويت ، ١٩٦٤ م .
- ٦٦ - صبح الأحرار في صناعة الانشا .
١٤ جزء ، القاهرة ، ١٩١٣ - ١٩٢٢ م .
- ابن القيم : شمس الدين محمد بن أبي بكر (ت ٧٥٩هـ / ١٣٥٠ م) .
- ٦٧ - أحكام أهل اللغة .
دمشق ، ١٩٦١ م .
- كازانوف : بسوك .
- ٦٨ - تاريخ ووصف قلعة القاهرة .
ترجمة وتقديم أحمد دراج .
مراجعة جمال حمز .
القاهرة ، ١٩٧٤ م .
- ابن كثير : اسماعيل بن عمر (ت ٧٧٤هـ / ١٣٧٣ م) .
- ٦٩ - البداية والنهاية .
١٤ جزء ، ١٩٣٢ م .
- المأوردي : أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب المصري (ت ٤٥٠هـ / ١٠٥٧ م)
- ٧٠ - الأحكام السلطانية .
الطبعة الثانية ، القاهرة ، ١٣٨٩هـ / ١٩٦٦ م .
- مصمد : مصطفى .
- ٧١ - الإسلام والثورة في المنصور الوسطى .
القاهرة - ١٩٦٠ م .
- المريزي : أحمد بن علي (ت ٨٤٥هـ / ١٤٤٢ م) .
- ٧٢ - البيان والاعراب ما يروى مصر من الأعراب .
تحقيق م . هابدين .
القاهرة ، ١٩٦١ م .
- ٧٣ - أخالة الأمة بكشف الغمة .
مصر ، ١٩٥٦ م .

- ٧٤ - الألام بأغنيابن من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام .
القاهرة ، ١٨٩٥ م .
- ٧٥ - المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار و الخطط القريزية .
جزءان ، القاهرة ، ١٨٥٣ م .
- ٧٦ - كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك .
ج ١ ، ٢ ، تحقيق محمد مصطفى زيادة .
ج ٣ ، ٤ ، تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور .
القاهرة ، ١٩٣٩ - ١٩٧١ م .
- ابن منظور : جمال الدين محمد بن مكرم الأنصاري (ت ٧١١هـ / ١٣١١م) .
٧٧ - لسان العرب .
٢٠ جزء ، طبعة بولاق .
موسى : محمد يوسف .
٧٨ - ابن تيمية .
القاهرة ، ١٩٦٢ م .
- التويري : أحمد بن عبد الرهاب (ت ٧٣٢هـ / ١٣٣٢م) .
٧٩ - نهاية الأرب في فنون الأدب .
١٨ جزء ، القاهرة ، ١٩٢٣ - ١٩٣١ م .
- التويري : محمد بن قاسم بن محمد التويري الاسكندراني .
(توفي بعد سنة ٧٧٥هـ / ١٣٧٢م) .
٨٠ - كتاب الألام بالأعلام لها جرت به .
الأحكام والأمور للقضية في وقعة الاسكندرية .
تحقيق أمين كريب عزيز سوريال عطية .
٩ أجزاء ، حيدر آباد ، ١٩٦٨ - ١٩٧٣ م .
- ابن الوردي : صهر بن مظفر (ت ٧٤٩هـ / ١٣٤٨م) .
٨١ - تكملة المختصر في أخبار البشر .
جزءان ، القاهرة ، ١٨٦٨ م .
- اليقطيني : عبد الله بن أسعد (ت ٧٦٨هـ / ١٣٦٧م) .
٨٢ - مرآة الجنان وحبرة الحفاظ .
٤ أجزاء .
حيدر آباد ١٣٣٧ - ١٣٣٩هـ / ١٩١٨ - ١٩٢٠ م .
- ياقوت : شهاب الدين بن عبد الله الحموي (ت ٦٢٩هـ / ١٢٢٩م) .
٨٣ - معجم البلدان .
٨ أجزاء ، القاهرة ، ١٩٠٦ م .
- اليوزنكي : توفيق سلطان .
٨٤ - تاريخ تجارة مصر البحرية في العصر للماليكي .
للموصل ، ١٩٧٥ م .

نريد أن نبدأ هذا البحث بما انتهى إليه أحمد أمين في آخر حديثه عن ابن المقفع في ضحى الإسلام ليكون ذلك في الوقت نفسه امتداداً لبحث سابق^(١) عن دور العقل في أدب هذا الكاتب الأديب المفكر كما يمثل كتاب الأدب الصغير .. غير أننا ننتقل هنا نقلتين ، نقلة من العقل إلى الدين . ونقطة أخرى لتضم الأدب الكبير إلى الأدب الصغير ولاتريد هنا أن نتجاوز هذا القدر إلى غيرها من كتابات ابن المقفع لأسباب كثيرة تنضج لنا خلال خطوات البحث غير أن الذي لا بد أن نشير إليه الآن من هذه الأسباب أن الكتّابين يشملها لون من ألوان الوحدة الفكرية يصطبغ بروح واحدة تسري عبر كلماتها ، لاشك أنه إذا كان يطبع كتابات ابن المقفع بطابع عام إلا أنه يتبلور في الكتّابين على نحو خاص .. هذا سبب أول .. وسبب ثان يتمثل في صعوبة القضية .. قضية الدين في فكر ابن المقفع .. فهي قضية شائكة معقدة محيرة إلى أبعد حد .. تضاربت فيها الآراء وتكررت فيها التهم في القديم وفي الحديث أيضاً .. وإذا كانت في القديم قد أدت الزندقة بحق أو بغير حق إلى مقتله .. وتناقلتها الروايات والأخبار عما حشدته الكتابات الحديثة في كل كتاب أو فصل أو مقال أو مجموع من الصفحات يتناول ابن المقفع من قريب أو بعيد . إذا كان هذا شأن القضية في القديم فهي في الحديث قد اختلف الباحثون في أمرها أيضاً .. وإن كان منهم من دافع عن الرجل خاصة أنه لم يعلن إسلامه إلا في مرحلة متأخرة من حياته .. ونحن لانريد أن نخوض في هذه الأمور كلها الآن ، وإن كنا قد اتفقنا على أن تكون نقطة بدئنا هي ما انتهى إليه أحمد أمين في قوله عن ابن المقفع :

إِعَادَةُ بِنَاءِ الْفِكْرِ الدِّينِيِّ
عِنْدَ ابْنِ الْمَقْفَعِ
مُفْرَمٌ لِدِينِهِ فِي أَدَبِهِ إِصْفِيرٌ لِكَبِيرِهِ

للمعيد حسين منصور
أستاذ بقسم اللغة العربية جامعة قطر

(١) دور العقل في أدب ابن المقفع - مجلة كلية الآداب والعلوم الاجتماعية - جامعة قطر (الدور الخاص - ١٤٠٣ / ١٩٨٢) - ص ١٢٥ - ١٦٥

« ان نبه وعلو خلقه أنما من طريق الفكر والفلسفة ، لا من طريق الدين ، ووجال الخلق قد يكون خلقهم تدنينا ، وقد يكون خلقهم ترفسفا . فأخلاق الحسن البصري العالية - مثلا مبعثها الدين ، يتجلى ذلك في حكمه وأقواله وسيروته . فهو يصدق ويحسن ويعدل لأن الله أمر بالصدق والعدل والاحسان ، أما ابن المقفع فباعثه الخلقي فلسفي ، يصدق لأن في الصدق شرفا ورفعة ، ولو لم يأمر به دين لكان في نفسه حسنا ! يظهر ذلك في حكمه ، فضل أن يستند في قوله الى آية أو حديث ، ولما يعلى ذلك تحليلا حقيقيا ، فهو رجل مدني وعالم مدني ، لا رجل دين ولا عالم دين . يتجلى في أقواله ايمان بالله ، وايمان بدين ، لكن لا يتجلى فيها ايمان بتفاصيل دين (٣) .

نريد أن نضع هذا كله على بساط البحث ، وأن يكون بذلك منطلق نظرنا في الأمر . وأن ينحصر النظر في الآدين كما ذكرنا ، حتى أن تتضح الملامح في دائرة أحكممت ، حلقاتها إذ لاشك أن الأمور تشبه وتختلط إذا تركناها تتسع على مساحة أوسع . والقضية شائكة . وإن كانت المساحة كلها لا بد أن يشملها النظر . ونحتاج المساحة إذن الى أن ترتب عبر مراحل . . . وأن تستدرج الخطي في كل مرحلة منها . . . فليكن أول ما يكون النظر في أمر الخلق والمخلوق .

(١)

من أول الأمور التي تشغل تفكير ابن المقفع في الآدين قضية الخلق ، بل ان قلناه ليلهج يذكر الخلق والمخلوق . . . وليس الخلق سيحانه في حقيقة الكتاب المفكر غير الله تعالى . . . قدرت قدرته على الخلق . . .

فكان المخلوق . . . ولا يبدأ كتاب الأدب الصغير الا بهذا . . . فيسفر أول كلمة فيه على هذا النحو يقول : « أما بعد ، فان لكل خلق حاجة ، ولكل حاجة غاية ، ولكل غاية سبيلا ، والله وقت للأمور أقذارها ، وهما الى الغايات سبيلها ، وسبب الحاجات ببلاغها » (٣) .

ولا نكاد نمضي في قراءة هذا النص بعد ذلك أسطرأ قليلة حتى نرى الأشياء في الخلق لا تحدث الا باذن الله وحده . . . فهو جل شأنه صاحب الاذن والأمر والقدرة ، ولا تحدث القوة والحيلة في الحبة المدفونة في الأرض ولا تخرج الحيلة من يسها الا باذن الله يقول ابن المقفع :

« فكما أن الحبة المدفونة في الأرض لا تقدر على أن تخلع يسها ، وتظهر قوتها ، وتطلع فوق الأرض بزهرتها ونضرتها ورييحها ونماها ، الا بمونة الله الذي يخور بها في مستودعها ، فيذهب عنها أذى الموت ويحدث لها باذن الله القوة والحيلة ، فكذلك سلبية العقل . . . » (ص ٥) .

وابن المقفع في هذا انما يقتبس من قوله تعالى في كتابه الكريم :

« انما أمره اذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون » (سورة يس ٨٢)
« كهية الطير فانفخ فيه فيكون طيرا باذن الله » (سورة آل عمران ٤٩)

« والبلد الطيب يخرج نباته باذن ربه » (سورة الأعراف ٥٨)
« واذا كان كل ما يحدث انما يكون باذن الله ، فانظر بعد ذلك خاصة في قوله تعالى في هذه الآية الكريم :

(٣) نفس الاسلام - الجزء الأول (بيروت - الطبعة المائنة) - ص ٢٢٧ .

(٣) رسائل البلاء - تحقيق محمد كرد علي - (القاهرة - الطبعة الثالثة - ١٣٦٥ / ١٩٤٦) - ص ١ (مكتب أرواح الصفحات بعد التصويص المقتربة من هذه الرسالة) .

وطعاما وشربا منسوب إليها ، المذكورا به أمرها وصنعتهما . (ص ٦) .

مرة أخرى يتدرج موضوع النحل هذا في صميم عملية الخلق التي نقف عندها ، وإذا كنا قد وصلنا مع الخلق الى دائرة النحل ، فانظر الى قوله تعالى :

وأوحى ربك الى النحل أن اتخذ من الجبال بيوتا ومن الشجر وما يعرشون . ثم كلي من كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذللا يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس ان في ذلك لآية لقوم يتفكرون »

(سورة النحل ٦٨ ، ٦٩)

فهل خرج قول ابن المقفع هنا عن كلام الله تعالى في شيء ، أليست الفاظ المعجم القرآني نفسها هي التي استخدمها ؟ بل هو المعنى بعينه ، الاتبع هذا أن تكون هي العقيدة الدينية التي نص عليها القرآن في قضية الخلق ١٤

وليسنا نخص قضية الخلق أيضا بعرض ابن المقفع لاثبات وجود الله والسبيل الى معرفته عن طريق دلالة الخلق على الخالق . . . وسنرى من النص الاتي أنه يتضمن نفيا لقدم العالم ومعارضة الدهرية ، حتى هؤلاء الذين أصابهم الشك في الله تعالى لا يرى ابن المقفع الا أنهم قد أقرروا بانهم أنشأوا حديثا . . فهذا هو السبيل الموصل عنده الى الحق . . والحق هو الله تعالى . . يقول في الأدب الصغير :

« وما يدل على معرفة الله ، وهو سبب الايمان ، أن وكل بالغيب لكل ظاهر من الدنيا ، صغير أو كبير ، حينما فهو يصرفه ويحركه . فمن كان معتبرا بالجليل من ذلك فليتنظر الى السماء فيعلم أن لها ربا يجري فلكتها ، ويدير أمرها ، ومن اعتبر بالصغير فليتنظر الى حبة الخردل فيعرف أن لها مدبرا يبتئها ويتركها ، ويقدر لها ألوانها من

« ولا حية في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس الا في كتاب مبين »

(سورة الأنعام ٥٩)

ويظهر من هذا أن الحية المدفونة في الأرض كما جاءت عند الكاتب ليست غير الحية في ظلمات الأرض كما وردت في الآية الكريمة ، وهي لم تتخلع يسها عنده الا لأنها جاءت في الآية بابسة وقد رأينا أن العقل نفسه عند ابن المقفع لا يعمل الا تحت ضوء الدين ، فهو يعمل بإذن الله وأمره ، يقول :

والعقل بإذن الله هو الذي يحسز الحظ . . . (ص ١٧) فلولا إذن الله وأمره للعقل أن يعمل ، ما بدأ العمل ولا سار فيه ولا يخرج هذا كله عن الرؤية الاسلامية في شيء ، على نحو ما عضي بعد ذلك في قوله :

« وذلك دليل على أن الناس لم يبتدعوا أصولها ، ولم يأتيهم علمها الا من قبل المعلم الحكيم » (ص ٥)
فابن المقفع في هذا لا يقول الا بما جاء في قوله تعالى :
« قالوا سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا إنك أنت المعلم الحكيم »

(سورة البقرة ٣٢)

وقوله تعالى :

« ولا يحيطون بشيء من علمه الا بما شاء »

(سورة البقرة ٢٥٥)

وبذلك تسلك الأساليب البلاغية والصور البيانية القرآنية طريقها الى أسلوب الكاتب ، لا لترجعه عنه الأدبي من ناحية الشكل فحسب ، بل لتعينه على بلورة الفكرة أيضا من ناحية المضمون ، والفكرة هنا فكرة دينية . ولنتنظر معي بعد ذلك في قوله :

« وكان النحل وجدلت ثمرات أخرجه الله طيبة ، وسكنت مبيلا جعلها الله ذللا ، فصار ذلك شفاء

يروي البخاري بسنده عن عائشة أم المؤمنين « أنها قالت أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح »^(٥) والحديث الشريف أيضا يقول :

« الرؤيا جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة »^(٦)

وتتمثل في النبوة اذن وفي الأحلام والرؤيا الصادقة صور العلاقة التي تربط بين الخالق والمخلوق ، كما تبدو في نظرة ابن المقفع الى الوجود

(٢)

نصل من هذا بعد قضية الخلق وإثبات وجود الخالق الأعظم ، والامان بالغيب ، الى العلاقة بين الخالق والمخلوق ، تلك العلاقة التي لا تقوم عند ابن المقفع إلا بالدين فلا يعني الدين عنده سوى أن يكون حبلًا جعله الله ليعتصم الناس به ، والافتكاك عن هذا الحبل عنده أيضا لاشك يلقي بالانسان من حائق ، فلا يدري بعد ذلك أين يكون موضع قدمه . والكاتب الأديب المفكر حين يقدر القفل حق قدره لا ينفصل به عن حظيرة الدين ، أبو يعتمد عنه . وما هو ذا يتبلور مفهوم الدين واضحا في هذه الصورة حين يقول :

« الدين أفضل المواهب التي وصلت من الله تعالى الى خلقه ، وأعظمها منفعة ، وأحدها في كل حكمة ، فقد بلغ فضل الدين والحكمة أن مدحا على ألسنة الجاهل على جهالتهم بها وعصاهم عنها » .

(ص ٢٠)

فما دام الدين هبة من الله تعالى كما يرى ابن المقفع تمنحها للسان ليربط به ما بينه وبين خالقه برباط

الأرض والماء ، يوقت لها زمان نباتها وزمان تجمشها ، وأمر النبوة والأحلام وما يحدث في أنفس الناس من حيث لا يعلمون ثم يظهر منهم بالقول والفعل ، ثم اجتماع العلماء والجهال والمهتدين والضلال على ذكر الله تعالى وتعظيمه ، واجتماع من شك في الله تعالى وكذب به على الاقرار بانهم أنشؤا حديثا . ومعرفتهم أنهم لم يبدؤوا أنفسهم . فكل ذلك يهدي الى الله ويدل على الذي كانت منه هذه الأمور ، مع ما يزيد ذلك يقينا عند المؤمنين ، بأن الله حق كبير ، ولا يقدر أحد أنه باطل » .

(ص ٢٢-٢٣) .

لا يحتاج هذا النص على نحو ما نرى الى كبير جهد لسرقة الاثر القرآني في أسلوبه وبلاغته ، وفي فكره وفلسفته معا ، من تأمل في الكون وتحديق في أرجائه من السموات الى الأرض بل من فلك السهائم الى حبة الحرد . . من أجل الاهتداء الى الصانع الأكبر ، عالم الغيب ، مدير الأمر ، وبهذا يصل ابن المقفع الى معرفة الله ، والامان به . . مثلما جاء في قوله تعالى :

« ثم استوى على العرش يدبر الأمر »

(سورة يونس ٣)

« وقضى الأمر والى الله ترجع الأمور »

(سورة البقرة ٢١٠)

« والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم »

(سورة البقرة ٢١٣)

ومن صور الامان بالغيب يذكر ابن المقفع في النص السابق مسألة النبوة والأحلام ، فهو يؤمن بالنبوة وإن لم ينص هنا على نبوة محمد عليه الصلاة والسلام ، لكنه يقرن النبوة بالأحلام تشبيها مع الفكرة الاسلامية ، اذ

(٥) صحيح البخاري - (دار احياء التراث العربي - بيروت - بدون تاريخ) ج ١ ص ٣ .

(٦) صحيح مسلم - الجزء الرابع - (دار احياء التراث العربي - بيروت - الطبعة الثانية - ١٩٧٢) - ص ١٧٧٣ .

ساعات أربع يقسم وقته بينها ، يكون أولها : ساعة يرفع فيها حاجته إلى ربه (ص ١٣) .
ومن هنا لا يكون الإنسان عاقلاً إلا إذا اتصل بالله .
ويقول :

« قد بلغ فضل الله على الناس من السعة ، وبلغت نعمته عليهم من السيوف ، مالمو أن أعظمهم حظاً ، وأقلهم منه نصيباً ، وأضعفهم علماً ، وأعجزهم عملاً ، وأعياهم لساناً ، بلغ من الشكر له والثناء عليه بما خلص إليه من فضله ، ووصل إليه من نعمته ما يبلغ له منه أعظمهم حظاً ، وأوفرهم نصيباً ، وأفضلهم علماً ، وأقوامهم عملاً ، وأبسطهم لساناً ، وكان مما استوجب الله عليه مقصراً ، وعن بلوغ غاية الشكر بعيداً . ومن أخذ بحظه من شكر الله وحده ، ومعرفة نعمة الثناء عليه ، والتحميد له ، فقد استوجب بذلك من أداؤه إلى الله ، والقرية عنده ، والوسيلة إليه والمزيد فيما شكره عليه ، من غير الدنيا وحسن ثواب الآخرة . »
(ص ٧٠)

ويؤكد الكاتب على هذه المعاني الدينية السابقة ، بل إنها لتصلح أحياناً بصيغة صوفية ، معاني القرب من الله ، وحب الله ، وحب حكمته ، والشكر له ، والطاعة والصلاح ، فلا يكون أحكم الناس إلا أبعدهم من الشك في الله ، ولا يكون أسويهم إلا أولقهم به تعالى ، ولا يكون أحقهم بالنعم إلا أشكرهم لما أوتي منها . بل أنه يعبر عن معاني الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وهي معاني كلها أصلية في الإيمان ، لا تكون إلا وليدة الدين ، يقول :

وليق ، فهو اذن هبة إلهية ، أو هو صنع رباني ، وليس بتاج عقل انساني ، فالعقل البشري لا يستطيع أن يشرع لنفسه الدين ، بل إن محاولة ذلك لا تؤدي إلا إلى فقدان الدين . يقول :

« فصل ما بين الدين والرأي أن الدين يسلم بالإيمان ، وأن الرأي يثبت بالخصومة . فمن جعل الدين خصومة فقد جعل الدين رأياً ، ومن جعل الرأي ديناً فقد صار شارحاً ، ومن كان هو يشرع لنفسه الدين فلا دين له . » ويقول :

« قد يشبهه الدين والرأي في أماكن لولا تشابهها لم يحتاجا إلى الفصل . » (ص ٢١) .

هذه قضية سبق أن عرضنا لها وبيننا أن ابن المقفع - حل عكس ما كان يفتنه الكثيرون - يرفض الشريعة العقلية^(١) . ولكننا ونحن نترك جانب العقل هنا لننتقل إلى جانب الدين لنترى ألا أن الفكرة الدينية تتغلغل في ذهن الرجل كما تتغلغل عقيدته وتتمثل بإيمانه . ونحن لانفعل سوى أن نستخلص من الكلمات معناها ، وأن نستشف من هذا المعنى ما يمكن أن يكون وراءه من أشياء ، لانضيق إليه شيئاً من هنا أو هناك ، أو نفتتح جزءاً من شيء . وضعه الكاتب في موضعه غير متقطع ، غير أننا بطبيعة الحال نعمل على تنظيم الأفكار وتنسيق هيكلها وبناء طبقاتها طبقة فوق طبقة عسى أن تميزنا هذه المحاولة على إعادة بناء التفكير الديني عند ابن المقفع بما يمكن من التوصل إلى حقيقة الرؤية الدينية عنده . ومداها وإبعادها وهو إنما يؤكد على هذا بما لا يختلف كما نرى - على أقل تقدير - عن الرؤية الإسلامية . وما هو ذا يوطد العلاقة الدينية بين الإنسان وخالقه ، وهي علاقة بين المبد والرب المبدود ، وهو إذ يجعل للعقل

(١) البحث المشار إليه سابقاً - حولة كلية الآداب - جامعة قطر - العدد السادس من ١٥٢ ، ص ١١٢ - ١١٥

« أفضل ما يعلم به علم ذي العلم وصلاح ذي الصلاح ، أن يستصلح بما أوتى من ذلك من استطاع من الناس ، ويرضيهما فيما رغب فيه لنفسه من حب الله ، وحب حكمته ، والعمل بطاعته . . وأقرهم من الله أنفذهم في الحق علما ، وأكملهم به عملا ، وأحكمهم أبعدهم من الشك في الله ، وأصومهم رجاء أوتقهم بالله وأحكمهم بالنعم أشكرهم لما أوتي منها » ويقول : « وليكن شكورا ! يستوجب الزيادة » . (ص ٢٠ - ٢١ ، ٢٤)

فالكاتب في هذا كله لا يرى الا أن الآيات القرآنية تتلأأ أمام عينيه وهو يسطر كلماته ، « ولأن شكرتم لأزيدنكم » ، في حين أنه المتهم بمعارضة القرآن ، ولي الأدب الصغير وحده أقام الكاتب عرابا من الفكر الديني الذي إذا ما أعيد بنائه وجدناه يصعد في خط واحد عمودي لا يميل عنه ، ومع أن الأدب الصغير وحده يهض بهذا كله خير نهوض ، فلتنظر معي فيما يقوله الكاتب أيضا في الأدب الكبير ، فلا يكاد يبلوّه بعد مقدمته الا بباب في أصول الأدب في الدين ، وإن كان موضوعه قد شغل أكثر ما شغل بغير الدين من أمور ، يقول :

« أصل الأمر في الدين أن تعتقد الإيمان على الصواب ، وتجنب الكبرياء ، وتؤدي الفريضة ، فالزم ذلك لزوم من لاغناء عنه طريقة عين ، ومن يعلم أنه أن حرمة هلك . ثم إن قدوت على أن تجاوز ذلك إلى التفقه في الدين والعبادة فهو أفضل » (ص ٤٧) .

وأضح أن في هذه الاسطر القليلة - على إيجازها - شيئا من تفاصيل الدين ، ف فيها من مظاهر الإيمان

الصحيح ، ومن الصواب في الاعتقاد لزوم العبادة ، وإداء الفريضة ، وتجنب الكبرياء . بل إن في الالتزام بالخلود من الأوامر والنواهي نجاة من الهلاك . ولا يقف هذا عند حد الدعوة إلى الاعتقاد في الدين بل يتجاوز به إلى الحث على التفقه فيه ، وكلام ابن المقفع لا يعني الا أن المزيد من العلم بالدين يؤدي إلى المزيد من الإيمان ومزيد من العبادات ، فتتوثق الصلة بين الإنسان وخالقه ، وهي صلة وسيلتها الدين ، ومن هنا ترسخ منزلة الدين وتتوطد دعامة ميزانه . وتتعدد صور هذا في أدبه ، ولتنظر في صورة الإمام في الدين كيف تكون منزلته ، وعلى أي نحو تكون الحقيقة فيه مما يتصل بمعاني القدوة والأسوة والسيره ، وهي معان استمدت أول ما استمدت في الاسلام من شخصية رسوله عليه الصلاة والسلام ممثلة في سته ، لكن ابن المقفع يقول :

« ومن نصب نفسه للناس إماما في الدين ، فعليه أن يبدأ بتعليم نفسه وتقويمها في السيرة والطعمة والرأي واللفظ والاخوان . فيكون تعليمه يسيره أبليغ من تعليمه بلسانه . فانه كما أن كلام الحكمة يوثق الاسماع ، فكذلك عمل عمل الحكمة يروق العيون والقلوب . ومعلم نفسه ومؤدبها أحق بالاجلال والتفضيل من معلم الناس ومؤدبهم » . (ص ١٤) .

فلذا كان في هذا النص السابق أمور تتصل بالاخلاق العملية ، من تمييز بين اللسان والسيرة ، أو بين كلام الحكمة وعمل الحكمة ، فإن انتباه هذا كله إنما هو انتباه إلى الدين ، والمثال الذي يحتث به يتشثل في الإمام في الدين . وإذا لم يكن قد ورد ذكر لفظ القرآن أو ذكر الرسول عليه الصلاة والسلام أو التصريح باسم الدين الذي يتحدث عنه في هذه المواضع الآن ، فإن لهذا شأنا

الآن في هذا الموقف كما ينبغي أن يشار إليه في كل موضع هو أنه لا يصح أن تسبق الزمن فتسرع بالخروج على ما سبق بيانه لتحثي بذلك على أن نتجمل الأحكام . . فلا خير في عجلة تؤذي بصاحبها إلى فساد الأمر كله . . وقد اتفقنا على أن نسير في الأمر على مهل فتلتزم الآتاة مبتعدين تماما عن أي اندفاع . . مما اندفع فيه بعض الدارسين في الحكم على ابن المقفع حتى غدا الأمر يشبه المسرح الذي تتردد في جنباته أصداء الحشاش ورنات التصفيق أو كالتزحام الذي تتدافع فيه الأيدي وتتلاطم الأقدام . . وسنرى أمثلة لهذا مما لا ينبغي عنسك معرفته . . كما لا ينبغي عني أنك تريد أن تثير من الأسئلة الآن ما ترى أنه لا بد أن يثار . . لكننا ينبغي ألا نشغل في هذا الموضوع بغير ما شغلنا به من كلام الرجل نفسه ، حتى لا تختلط الأمور اختلاطا يسوقنا إلى مسرح أو زحام . . والذي لا شك فيه أننا ما دعنا قد أخذنا نسير معا في هذا الطريق الذي سار فيه الكثيرون منذ أيام ابن المقفع إلى اليوم ، فلا بد إذن والأمر كذلك أن نضفي معا جنبات الطريق ليكون كل شيء أساسا واضحا غير مظلم . . وإن كان هذا لا يعني أن تكون وسائلنا في اجتياز الطريق ينبغي أن تكون هي بالضرورة وسائل الآخرين ممن دافع عن الرجل أو بمن اتهمه أو بمن أغلظ في التهمة حتى قتل فكر الرجل مقتلا فوق ما كان من بشاعة مقتله . . الا يكون إذن من حق الحقيقة أن تعيد النظر معي في هذا الفكر بعبرك وأناقك دون أن ندافع عنه من حيث أسباب دفاع أو تنهمه حيث لا يكون دواعي التهمة ، عسانا نستطيع أن نقيم البناء على أساس من خطة أو رسم جديد ، وكل محاولة قد يفشل المراء فيها وقد لا يكون مألغا الفشل ، لكنك توافقني على أن الحروف من ذلك ان كان ثمة خوف لا ينبغي أن يحول بيننا وبين أن نحاول ، وسيلتنا في ذلك كله لا يخرج عما سارنا عليه من قبل من اعمال ما أمكن من طرائق الفهم أو التفهم

آخر سنراه فيما بعد ، . لكن الذي تراه معي هنا هو أن المعاني قد سبقت الالفاظ ، فقد رأينا المعاني القرآنية بكل ما تنبثق به من فكر وبيان تسبق الاستشهاد بالنص القرآني نفسه من الآيات .

ومن هنا فإنه إذا لم يكن قد جرى فيما مضى من كلامه أي الذكر الحكيم يتلوه لسانه فانه قد سرى في أعماق تفكيره وجرى لفته ومسالك أسلوبه ليوجه تيار أدبه وجهة لا تختلف عن الوجهة الدينية الإسلامية . وإذا كان ابن المقفع قد ذكر أنه وضع في هذا الكتاب أو في غيره من كلام الناس المحفوظ حروفا ، فيها عون على صدارة القلوب وصقلها وتجليها أبصارها ، وإحياء للتفكير ، وإقامة للتبجير ، ودليل على عماد الأمور ومكامم الأخلاق (ص ٨) . . مما يمكن أن يكون في كلام الناس هذا من أخذ عن الثقافة الفارسية ونقل عن حكماء الفرس أو من غيرهم ، فإن هذا لا يمنع - بكل ما رأيناه من أدلة دون أن نقصد إلى الإحصاء أو الاستقصاء - أن تكون له ثقافة إسلامية وفكر ديني وأن يقتبس من البلاغة القرآنية وهو الذي لا يكتب الآن الا بلغة الاسلام ولا يعبر الا بالبيان العربي . . ومع هذا كله فنحن لا نقول انه كان عالما من علماء الدين أو أنه كان داعية من دعائه وهو الذي لم يسلم الا في مرحلة متأخرة من حياته . . وإنما هو كاتب أديب مفكر كان صاحب فكر ديني لا شك كما كان صاحب فكر اجتماعي وأخلاقي وسيلسي كذلك . . ونحن إنما نتعرف على وجهة هذا الفكر الديني من خلال تنظيم حركته وروصد اتجاهاته ورد ما يمكن أن يرد منه إلى مصادره الإسلامية .

وأنا أرى أنك تريد أن تنكر ذلك لتقيم فكر الرجل على غير هذا كله . . اتفق بذلك تحت تأثير أحكام وأفكار مسيئة . . لكن الذي ينبغي أن أشير عليك به

سبق ، فلا يرى آفة الدين شيئا غير التهاون ،
فإذا جاز التهاون في أي أمر من أمور الحياة فإنه لا
يجوز التهاون في أمر الدين . ويقول :

« فصل العلم في غير الدين مهلكة ،
وكثرة الأدب في غير رضوان الله ومنفعة
الأنهار قائلد إلى النار ، والحفظ الذكي
الواحي بغير العلم النافع مفسر بالعمل
الصالح ، والعقل غير الوازع عن الذنوب
خازن للشيطان » . (ص٣٧)

ويقول :

« ولستنا بالكف في طلب المتاع الذي يلمس به
دفع الضر والعيلة بأسبق منا بالكف في طلب العلم
الذي يلمس به صلاح الدين والدنيا » (ص٨)

وقد رأينا من قبل دعوته إلى التفقه في الدين ، وإن
كان العلم الذي يصلح به الدين لا يتنافى مع العلم
الذي تصلح به الدنيا ، لكن هذا لا يمنع من أن يكون
للاخرة علمها ، وأن يكون للدنيا علمها : يقول :

« من أراد أن يبصر شيئا من حلم الأخرة
فبالعلم الذي به يعرف ذلك ، ومن أراد أن يبصر
شيئا من حلم الدنيا فبالأشياء التي هي تدل
عليه » . (ص٢٤)

ويقول :

« ليكون المرء مستوياً ، وليكن فصولاً بين الحق
والباطل .. وليكن ذا حياء لئلا يستند للعلماء ،
فإن خفاة العالم مذمة العلماء أشد من خفائته عقوبة
السلطان » . (ص٢٥)

واستخدام وسائل الاستقراء والاستنباط وأهوات البناء
الفكرية المختلفة قدر ما يمكن عمل ذلك والقيام به .

ولقد شغل ابن المقفع كما رأينا بمنزلة الدين ، ورأى
الدين أدق ميزان للعمل في الحياة ، لا تنحرف به كفة ،
أو تميل به إلى غير ما ينبغي أن ترجع به حل الأخرى ،
فهو مقياس لا يذهب ولا يفسد عمله ، عمله عمل
دائم ، واحصاؤه دقيق ، ومع هذا فهو لا يسل على
الدهر . لذلك كان لا يما المره عنده في الحياة إلا بدينه
وعقله ، والعقل عنده لا يكون إلا عقلا مذهبه الدين
ونماه وهده ، ولا يمكن أن يكون الدين عنده في واد
والعقل في واد آخر ، وإنما لا يرى العقل إلا في موقعه في
رحاب الدين ، وهو هو العقل نفسه الذي عمده ابن
المقفع وأطال الوقوف عنده ، غير أن العقل ما كان
ليعمل أو يشع منه ضوء دون أن يكون قد استمد هذا
الضوء نفسه من الدين ، وهو في اختزان هذا الضوء
واحتفاظه به والحرص عليه والامتنال له والصدور عنه
والانبثاق منه ، إنما يسلم من الآفات سلامة الدين منها
وسلامة العقل كذلك . ومن هنا لا تكاد تختلف الآفة
التي تؤدي إلى هلاك الدين عن الآفة التي تؤدي إلى
هلاك العقل . يقول :

« كان يقال : عمل الرجل فيما يعلم أنه خطأ
هوى ، والهووى آفة المغاف ، وتركه العمل بما
يعلم أنه صواب عتاون ، والتهاون آفة الدين ،
واقدامه على ما لا يبصر أصواب هو أم خطأ
جراح ، والجراح آفة العقل » . (ص٢٧)

ومن هنا كان حرص ابن المقفع على العلم
بالدين يسلف إلى حفظ الدين من كل شائبة
تشويه ، حتى أنه ليمد آفات كل شيء كما

لم تعرف التقوى .. والدين والمروءة الآن عند ابن المقفع
توأم متجانس ، لا يصلح عقل بغيرهما ، فهو يقول في
الأدب الصغير :

« أمور لا تصلح الا بقرائنها : لا ينفع العقل
بغير روع .. ولا المروءة بغير تواضع . »

ثم يقول :

« أمورهن تبع لأمور ، فللمروءات كلها تبع
للعقل » . (ص ٢٨)

وإذا كان للدين أهله فإن للدين كذلك اخوانه ، وهم
عند ابن المقفع أفضل الاخوان ان كنت تبحث في أمر
الاخاء لتتبع من صداقة السوء .. يقول في الأدب
الكبير :

« اذا نظرت في حال من ترتبه لاختالك ، فإن
كان من اخوان الدين فليكن فقيها ليس بمراء ولا
حريص ، وان كان من اخوان الدنيا فليكن حرا
ليس بجاهل ولا كذاب ولا شرير ولا
مشنوع . (ص ٧٧)

هذا وأنا أعلم ما سيدور بخلدك حين تنظر في ذكره
لاخوان الدين ، فستقول انه يذكر اخوان الدين ولا
يصرح بذكر المسلمين ، فاي دين ذلك الذي يتحدث
عنه ؟ ولكنك لا تنس أنه يوازئ بين اخوان الدين
واخوان الدنيا ، فالقابلة في الأصل بين هؤلاء وأولئك
وأهل كل منهما .. وان كنت لا زلت أرى أن قضية
التصريح أو التلميح هذه من الأمور التي لا زالت قيد
بحث ، وموضع نظر .. فلم المجلة عما لا يمكن أن تصل
منه الى شيء .. الا اذا أردت أن تسرع الخطو لتعود بنا
من حيث أتينا ، وما هذا الذي أرتضيه أو ترتضيه .
وعلى ذلك فإن عليك أن تنظر كذلك في قوله :

والعلماء الذين تحاف ملتهم ليسوا عنده الا علماء
الدين ، أو هم الاتقياء على نحو ما يعود بعد ذلك فيقول
حين يضع الاتقياء قبل غيرهم من الناس :

« لا يستخلم ذو العقل بأحد ، وأحق من لم
يستخف به ثلاثة : الاتقياء ، والسوالة ،
والاخوان . فانه من استخف بالاتقياء أهلك
دينه ، ومن استخف بالولاء أهلك دينه ، ومن
استخف بالاخوان أفسد مروءته » . (ص ٢٩).

بل أنه حين يصنف أصحاب السلطان من الملوك
لإبراهيم الا ثلاثة ، ولا يكون أولهم الا ملك دين ،
يقول في الأدب الكبير :

« أعلم أن الملوك ثلاثة : ملك دين ، وملك
حزم ، وملك هوى . فلما ملك الدين فانه اذا
أقام لأهله دينهم ، وكان دينهم هو الذي يعطيهم
الذي لهم ويلحق بهم الذي عليهم ، أرضاهم
ذلك ، وأنزل الساعط منهم بمنزلة الراضي في
الاقراء والتسليم ... » . (ص ٤٩)

ويقول في آداب السلطان :

« ولكن حجابك في السوالية الى ثلاث
خصال : رضى ربك ، ورضى سلطان ان كان
فوقك ، ورضى صالح من تل عليه . ولا عليك
أن تلهم على المال والذكر ، فسيأتيك منها ما
يكنفي ويغيب .. » ويقول : « أعرف أهل
الدين والمروءة في كل كورة وقريه وقبيلة ، فيكونوا
هم اخوانك وأصوانك ويطانتك وثقاتك » .
(ص ٤٥)

والمروءة اذا لم يست زى الدين لم تكن في الاسلام شيئا
غير التقوى ، فقد عرفت الجاهلية المروءة .. لكنها

« لا يثبت دين المرء على حالة واحدة أبداً ،
ولكنه لا يزال اما زائداً واما
ناقصاً » . (ص ٢٦) .

ان نظرك في هذا القول لا شك يثير أشياء كثيرة ، غير
أننى هنا سأعفيك من القول وقد استجبت لما طلبته
منك . . ولم أكن أريد كما عرفت منذ أول هذا الحديث
أن أشغلك بالأراء والأحكام التي طالما أسرع الباحثون
للادلاء بها والتوصل اليها والتأكيد عليها . . لكنني وقد
أعفيتك من القول سأدعك تستمع معي الى مثال من
أمثلة تلك الآراء والأحكام ، وبمسن أن نضع الصورة
بكامليها - ما أمكن - حين نظر الدكتور عبد اللطيف حزة
في هذا الأمر الذي نحن فيه ومضى ليقول (٧) :

أما كتاب « مزدك » فقد نسب في الفهرست الى ابن
المفجع . ويحل أن أبان بن عبد الحميد اللاهقي قد نظمته
كما نظم « كيلة ودمنة » . ثم لا يكاد الباحثون يعلمون
عنه فوق ذلك شيئاً . ومن أجل ذلك آفرت أن أشير اليه
فيما أشير اليه من الآثار التي يمكن أن تكون موضعاً
للشك . ولست أدري هلام اعتمد العلامة « نولدكه » -
كما نقل عنه ذلك الاستاذ « براون » في كتابه تاريخ
الأدب الفارسي - حين قال الأول « انه كتاب أدب وضع
للتسلية ويعتبر بمصاف كيلة ودمنة ولا تفسر قراءته
مسلياً » . لست أدري - في الحق - كيف قال هذان
العلمان الكبيران ذلك . والى أي شيء استندا في هذا
القول . والكتاب نفسه مفقود ، ولم يكند يشير اليه
مصدر من المصادر القديمة عدا الفهرست . وغاية القول
عندي في هذا الكتاب أن اسمه قد يدل عليه ، ومن
يدري لعل ابن المفجع كتبه في الفترة التي كان يستعرض
فيها الأديان دينا دينا . وهو بسبيله - كما ذكرت ذلك من

قبل - الى البحث في هذه المشكلة الهامة التي شغلته وهي
مشكلة « حرية الآراء » . فهل صحيح أن الانسان
يعتبر حراً في ارادته فهو مسئول حقاً عن هذه الأفعال التي
تصدر عنه وهو يختار لنفسه هذه الأفعال ولا يختارها الله
له ؟ يظهر أن ابن المفجع كان يلقي على نفسه حيناً بعد
حين مثل هذا السؤال . ويظهر أنه كان حريصاً في هذه
الفترة على أن يسجل نزاعه تسجيلاً دقيقاً يستفيد منه في
الوصول الى حل واضح لهذه المشكلة التي أثارها على هذا
المثال . ومن يدري لعله ابتداءً بالاسلام ، وهو دين
الدولة ، فعرضه على عقله وكتب في فضائله ؟ ثم نظر في
المزكية وهي دين آباءه وأجداده فكتب مثل هذا الكتاب
الذي سألنا مرة أخرى الى الكلام في الزندقة ، ومن
يدري لعله بعد ذلك لم يشأ أن يفتح بجواب عن هذه
المسألة في هاتين الديانتين ، وانتهى به الأمر الى أن كتب
في « الماتوية » فجاءت كتابته في هذه الديانة دالة على
ارتياحه اليها ، وظفرو فيها بالجواب الذي أراد ؟ ولا
تعجب أن تمر بالرجل كل هذه الاطوار فهو القائل في
كتابه « الأدب الصغير »

« لا يثبت دين المرء على حال واحدة أبداً ،
ولكنه لا يزال اما زائداً واما
ناقصاً » . (ص ٢٦) .

وبذلك تكون قد عدنا الى عبارتنا ، ويعودتنا اليها
بعد كل ما مرنا لا شك أنك تستعجب معي من كل ما
رأيت من افتراضات لا طائل وراءها يتلو بعضها بعضاً
دون أن تؤدي الى شيء يمكن الافادة منه . وإذا كان
الأصل في الكلام السابق هو كتاب « مزدك » فإن
الكتاب نفسه قد صرح أنه يشير اليه - والكتاب مفقود -
باعتباره من الآثار التي يمكن أن تكون موضع الشك . .

بالرأى أتسركهم للهوى ، . . . وأحقهم بالنعم
أشكرهم لما أوى منها » (٧١) .

ومن كان هذا قوله لا يمكن إلا أن يكون رأيه هو
الرأى الغالب بحرية الإرادة ، فالاستطاعة عند الإنسان
قادرة إذا أراد أن تغلب الشهوة والحرص ، وأن تأخذ
بالرأى وتترك الهوى ، وأن تفصل بين الحق والباطل ،
فتتبع الحق إذا أرادت وتترك الباطل إن شأته ، وهي
بعد هذا كله شديدة على الشيطان قادرة عليه ، لأن الله
تعالى وقد خلق الشيطان فقد خلق في الإنسان العقل
المهتدى القادر على اختيار طريقه فلا يتدرج في حزب
الشيطان أو يتبع هواه . والذي بين أيدينا من كلام ابن
المقفع يدل على ذلك ، بل إن الأدب الصغير والأدب
الكبير والأدب كلها ليست إلا غذاء يقوم به الكاتب
العقل ليمنه على المضى في طريق الصلاح ، هذا فيما
يخص العقل ، وأما فيما يخص الدين فهو ما نحن فيه منذ
بدأنا القول فيه ، وسنرى بعد قليل كيف يعرض ابن
المقفع لأمر النفس في مجاهدتها الأهواء وصراعها معها ،
مبيناً السبل الذي تستطيع بسلوكه أن تنجح في ذلك . .
وهو السبل نفسه الذي تسلكه حرية الإرادة .

ولقد كنت حريصاً منذ بدأت معى النظر في القضية
أن أغضي معاً في محاولتنا حتى نفرغ من إصاحة البناء
الفكرى عند ابن المقفع استناداً إلى ما يقوله الرجل من
ناحية واعتماداً على استخدماتنا لأدوات البناء من ناحية
أخرى دون أن ندخل في شيء من ذلك الزحام الذي
سبقته الإشارة إليه ، غير أن مثالا صغيراً كهذا ربما يزيل
عنك بعض الشكوك التي قد تترسب الطريق لنمضي
بعد ذلك فيما نحن فيه ، وقد رأيت أن هذا المثال أخذ
يفترض أن ابن المقفع ابتداءً بالإسلام ، وهو دين الدولة
فعرضه على عقله وأنه نظر بعد ذلك في « الزردكية » وهي

وكان هذا الشك كثيراً في أن يجوز بيننا وبين أن أغضي
طويلاً في مثل هذه الافتراضات . . وأما بحث ابن المقفع
في الأديان واستعراضها ديناً ديناً ، ثم بحثه في المشكلة
الحامة التي كانت تشغله وهي مشكلة حرية الإرادة . .
فليس بين أيدينا شيء يمكن أن يدل على ذلك . .
فالترجمات التي تنسب إلى ابن المقفع هي أعمال قصد
منها الترجمة ، أما ما وصلنا من كتابته مما يمكن أن يكون
من تأليفه فليس فيه ما يدل على حيرة في مشكلة حرية
الإرادة . . فقد رأينا ابن المقفع بمجد العقل ورأيناه
يعمل على تأديبه وتهذيبه حتى يحقق بصحته وسلامته
وعمله في ظل الدين صلاح الدين والدنيا ، ومعنى ذلك
كله أنه كان يرى أن الإنسان حر في إرادته وأنه لم يكن
ليقبل شكلاً من أشكال العقيدة الجبرية وهو الذي آمن
بالثواب والعقاب وآمن بالجنة والنار وأن في قدرة الإنسان
التي وهبها الله إياه أن يختار الإنسان طريق الصلاح أو غير
هذا الطريق . . بل أنه كان يؤمن بالنسب كما رأينا ،
ويؤمن من صور هذا الخوف بحقيقة الشيطان ، وما
يبحث عليه من ذنوب تسوق الإنسان إلى جهنم . . يقول
في الأدب الصغير :

« حياة الشيطان ترك العلم ، وروحه وجسده
الجهل ، ومعذته في أهل الحقد والقساوة ومثواه في
أهل الغضب ، وحيثه في المصارمة ، ورجاؤه في
الاصرار على الذنوب » . (ص ٢٥) .

ويقول : « ليكون المرء ستولاً ، وليكن فعولاً بين الحق
والباطل . . وليكن ووداً لئلا يكون معدناً لأخلاق
الشيطان » . (ص ٢٤) .

ويقول : « أشجعهم أشدعهم على الشيطان ،
وأقلعهم بالحجة أغلبهم للشهوة والحرص ، وأعلمهم

في نفس الكتاب (أي الأدب الصغير) ، وقد اتبعه الشك وأضناه العذاب : « المؤمن بشيء من الأشياء وإن كان سحرا خير من لا يؤمن بشيء ولا يرجو معادا » (رسائل البلغاء ص ٢٥) . فما أقرب الشبه بين ابن المقفع في هذا الكلام وبين أحد فلاسفة الاسلام ، وكان ممن يصطنعون الشك في تفكيرهم وفلسفتهم ، حتى كاد الشك أن يضلهم ويذهب بعقولهم ، فصاح في نفسه قائلا « اللهم إيماننا كإيمان المجازي » .^(٨)

ليس في قول ابن المقفع هذا ما يصور شكاً كاد أن يضلّه ويذهب بعقله حتى نقي إيماناً كإيمان المجازي ، لأن كل ما بين أيدينا إنما يدل على أن إيمان ابن المقفع كان يستند إلى العقل ويحكمه الدليل والبرهان ، وقد رأينا كيف حلق في فضاء الوجود ليصل من ذلك إلى الخالق الأعظم ، وكيف آمن بالغيب وذكر النبوة والأحلام وأكد العلاقة بين الخالق والمخلوق واعتبر « الدين أفضل المواهب التي وصلت من الله تعالى إلى خلقه » . ومن هنا فلا تشابه بين ابن المقفع في هذا وبين أحد فلاسفة الاسلام مما كانوا يصطنعون الشك في تفكيرهم وفلسفتهم . هذا شيء ، وأما الشيء الثاني ، فليس في قول ابن المقفع ما يدل على أن الشك قد اتبعه وأن العذاب قد أضناه ، وقد رأينا يقول في هدوء في نفس الكتاب ، ولعل الموقف يستدعي أن نعيد قوله :

« بما يدل على معرفة الله ، وهو سبب الإيمان . . . اجتماع من شك في الله تعالى وكذب به على الاقرار بأنهم أنشأوا حديثاً ومعرفتهم أنهم لم يحدّثوا أنفسهم فكل ذلك بيدي إلى الله ويدل على الذي كانت منه هذه الأمور ،

دين أجداده فكتب كتاب مزدك - وهو موضع شك - مما قاده إلى الزندقة ، ثم لما لم يقتنع بهذا ولا ذاك ، كتب في « المانوية » فجاءت كتابته في هذه الديانة دالة على ارتياحه إليها وظفّره فيها بالجواب الذي أراد . ولكن الذي نعرفه مما ذكرته المصادر القديمة وردته المراجع الحديثة أن ابن المقفع نشأ ماثوياً أو مجوسياً ثم أعلن إسلامه في قصة كثير ترددها ، فاعتدله إلى الاسلام كان آخر ما توصل إليه ، وربما أمكننا التوصل إلى شيء من ذلك في محاولة الاقتراب من الحقيقة استناداً إلى ما بين أيدينا من النصوص ، على ما يكتنف هذا بطبيعة الحال من صعاب .

أما حيرة ابن المقفع السابقة في عدم ثبات دين المرء على حالة واحدة وتعرضه للزيادة والنقصان ، ليس هذا دليلاً على مسروره بهذه الأطوار المعابدية التي سبق تصورها ، وإنما فيها دليل على تلك القضية التي كان قد بدأ يجادل فيها عليه الكلام حينما دار الجدل في مسائل العقيدة . مما حاصره ابن المقفع . . والقضية هي قضية الإيمان فيها إذا كان شيئاً ثابتاً بمعنى أن يكون إيماناً أولاً يكون ، أو أن يكون شيئاً متغيراً يقبل الزيادة والنقصان . وفي آيات القرآن ما يشهد بصحة ما ذكره ابن المقفع ، إذ نقرأ قوله تعالى « فإزدادوا إيماناً مع إيمانهم » (سورة الفتح) « فإيمانهم إذن لم يثبت على حال واحدة ، وإنما قبل الزيادة ، فإزدادوا إيماناً مع أنهم كانوا قبل الزيادة في إيمانهم مؤمنين . وقول ابن المقفع في العبارة السابقة لا يعكس شيئاً غير هذا ، ولا علاقة له بآية أطوار أو شكوك دينية يفترض المفسرون أن يكون قد تنقل بينها .

وما دنا قد طرقتنا هذا المثال ، فلنمنس معاً إلى آخره حيث يقول الدكتور عبد اللطيف حزة : « ثم هو القائل

(٨) ابن المقفع - ص ١٥٨ - ١٥٩ .

مما يدل على معرفة الله ، وهو سبب الايمان ، ان
وكل بالغيب لكل ظاهر من الدنيا ، صغير أو
كبير ، عيناً فهو يصرفه ويحركه » (ص ٢٢)

فصاحب هذه العيون هو الله علام الغيوب ، « عالم
الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم » (سورة
الحشر ٢٢) ، ومن هذه العيون المحركة المتصورة لمفاتيح
الغيب « وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها الا هو » (سورة
الأنعام ٥٩) ، « عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً »
(سورة الجن ٢٦)

وإذا كان العلم المادي تتركه الحواس ، فإن عالم
الكائنات اللامرئية هو من الغيب الذي إن غاب عن
الحس فهو لا يشيب عند ابن المقفع عن دائرة الايمان . .
ولذا كله تنقل تفكيره الديني في حركة دائبة نشطة قوية
ما بين الدنيا والآخرة ، أو بين المالمش والمعاد ، أو ما بين
الظاهر والغيب ، في صورة واحدة لا يفصلها إلا ليجمع
بينها ، ولا يفرق بين هذا وذلك إلا ليسلك بها سبيلا
يخرج به الخطو من هنا إلى هناك . . « ومن كان في هذه
أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا » (سورة
الاسراء ٧٢)

وعند كل نقطة على طريق الحركة المستمرة يوازن
ويميز ، لا يلقى بنظرته بمة إلا لتكون في اليسار نظرة
أخرى ، في نقلة سريعة تقابل بين هذه
وتلك . . « وما يستوى الأعمى والبصير ولا
الظلمات ولا النور » (سورة فاطر
١٩ ، ٢٠) « ولا تستوى الحسنة
والالسية » (سورة فصلت ٣٤) .

ومن هنا تبلورت في فكر ابن المقفع المفاهيم الدينية في
أدبيه جميعا متتابعة متلاحقة لتكسو المعاني الأخلاقية ببرقة

مع ما يزيد ذلك يقينا عند المؤمنين ، بأن الله حق
كبير ، ولا يقدر أحد أنه باطل » . ص ٢٢ - ٢٣

كل هذا ورد في الأدب الصغير ، ومن هنا فإن هذه
العبارة من كلام ابن المقفع تلك التي أدت إلى مثل هذا
التصور البعيد للشك الذي أتبعه والمذاب الذي أضناه
لا يمكن إلا أن يكون مضمونها عكس ذلك تماما ، فابن
المقفع يجادل هؤلاء الذين أتبعهم الشك وأضنهم
العذاب ، فهم لا يؤمنون بالله ، ولا يعتقدون الآخرة ،
ولما يؤمنون بالبحر بمعنى أنهم لا يؤمنون بشيء ، وهم
مثل هؤلاء الذين صورهم الله تعالى في قوله : «
(وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما
يهلكنا إلا الدهر)

(من سورة الجاثية ٢٤)

يجادل ابن المقفع إذن هؤلاء ليوافق بين أمرين حتى
يضعهم أمام أنفسهم ليروا حقيقة ما هم فيه من ضياع .
ذلك أنهم وهم لا يؤمنون بشيء ولا يرجون معادا
سيجدون خيرا منهم أولئك الذين يمكن وضعهم في أدنى
الدرجات لانهم قد آمنوا بشيء من الأشياء وإن كان
سحرا . . ومن هنا يصحب الذين لا يؤمنون بشيء في
الدرك الأسفل من الخسيفى ولا يسمعون إلا أن تمضي مع
ابن المقفع وهو الذي كان يرجو معادا لتري صورة
الطريق في عينه من المعاش إلى المعاد

(٣)

يشمل الوجود في عقيدة ابن المقفع حيتين : الحياة
الدنيا الظاهرة التي لا يجادل أحد في أمرها شيئا ، والحياة
الآخرة في الغيب التي يؤمن بها المؤمنون وينكرها
الجاحدون والدهريون . . مما يتصل بقضية الخلق التي
مرت بنا . ولقد كان في عقيدة الرجل إيمان بالغيب .
شهدانه في مثل قوله :

قرآنية امتزجت بالآيات الكريمة ، وصبغت بالسوانيا ، دون أن يستشهد بتبصها ، كما سبق أن بينا ، حتى ليمكن القول إن المعاني القرآنية قد امتزجت بروحه ، وسرت في دمه ، وانتفض بها بيانه ، على الرغم مما اعتلا به عقله الكبير من ثقافة الأمم وتراث الشعوب . وإليك الدلائل من النصوص الأدبية الدينية التي اتفقتنا منذ البداية على أن نقرأها معا قراءة غير صامتة ولا خافتة ، صساها تسمع داخل المسرح أو وسط الزحام .

لقد قلنا إن الرجل رأى الدنيا طريقا للأخرة ، بل رآها زوالا يؤدي إلى بقاء ، ووقف عند كل منها وقفات طويلا ، لا يفتأ يردد ويؤكد ، فتتعدد صور الدنيا والأخرة لتلتقي بالأصوات تنسكب عليها من كل جانب من جوانب فكره وعقليته معا ، دون أدنى تضارب بين العقل واليمان ، يقول :

« من لا عقل له فلا دنيا له ولا آخرة » . (ص ٣٤)

ويقول : « لا عقل لمن أهفله عن آخرته ما يحده من لذة دنياه ، وليس من العقل أن يحرمه حظه من الدنيا بصره يزوالها » . (ص ٣٥)

وكانه يقول بذلك « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا ، واصل لأخرك كأنك تموت غدا » .

ويقول : « السعيد يرغب الله في الأخرة حتى يقول : لا شيء بعدها ، فإذا هضم دنياه وزهد فيها لآخرته لم يحرمه الله بذلك نصيبه من الدنيا ، ولم ينقصه من سروره فيها » . والشقي يرغب الشيطان في الدنيا حتى يقول : لا شيء غيرها ، فيجبل الله له التنقيص في الدنيا التي آثر مع الخزي الذي يلقي بعدها » .

(ص ٣٥)

وليست رغبة الإنسان في الدار الآخرة مع أخذ نصيبه من الدنيا سوى ما يدعو الله إليه في قوله تعالى :

(وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا ، وأحسن كما أحسن الله إليك ، ولا تبغ الفساد في الأرض ، إن الله لا يحب المفسدين) (من سورة القصص ٧٧)

وأما التنقيص في الدنيا والخزي في الآخرة ، وهما شيء واحد ، لأنه خزي قائم هنا ، وخزي دائم هناك ، فقد جاء في آيات كثيرة مثل قوله تعالى :

(ذلك هم خزي في الدنيا ولم في الآخرة عذاب عظيم)

(من سورة المائدة ٣٣)

(... ذلك الخزي العظيم)

(سورة التوبة ٦٣)

وأكثر من هذا أن الكاتب حين يصنف الناس يقيم هذا التصنيف على أساس نظرة الإنسان إلى دنياه وآخرته ، ولذلك صار المقياس في ذلك مقدار نصيبه منها ، يقول :

« الرجال أربعة : جواد ، وبخيل ، ومسرف ، ومقتصد . فالجواد الذي يوجه نصيب دنياه جميعا في أمر آخرته ، والبخيل الذي لا يعطي واحدة منها نصيبا . والمسرف الذي يجمعها لدنياه ، والمقتصد الذي يلحق بكل واحدة منها نصيبها » . (ص ٣٥)

ويقول : « فإذا هو قد أبصر فضل الآخرة على الدنيا ... » . (ص ٩)

وكانه ينتهي بقوله تعالى :

(وللآخرة خير لك من الأولى)

(من سورة الضحى ٤)

أو هارا ، فجعلناها حصيدا كأن لم تكن
بالأس ...)
(سورة يونس ٢٤)

وقوله تعالى :

(اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو
وزينة وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور)
(سورة الحديد ٢٠)

ثم قوله تعالى :

(وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب ، وإن
الدار الآخرة لدى الحيوان ، لو كانوا يعلمون)
(سورة العنكبوت ٦٤)

هذه إذن هي الرؤية الإسلامية لحقيقة الحياة ،
وطريق الانسان فيها في أبسط صورها ما بين طرفيها أو
الدارين فيها . . . وهي كذلك عند كاتبنا المفكر في رؤيته
الدنية ، لا يسير إلا في هذا الطريق ، طريق الحيوانين ،
ولا يصل إلا الى هذه الحقيقة ، ولا ينظر إلا بهذه النظرة
الإسلامية نفسها ، لا يتردد ولا يتلعثم ، لا يمل القول
فيه ، ولا يرتد عن المضي به ، يقول :

للدنيا زخرف يذلل الجوارح مالم تغلبه
الآليات ، والحكيم من لم يفض عليه طرفه ، ولم
يشغل به قلبه ، اطلع من أدناه فيها ورايه ، وذكر
في بطنه لوساقت شربه ، فأكمل مره ، وشرب
كدره ، ليحلولي له ويصفو في طول من إقامة
العيش الذي يبقى ويلوم . .
(ص ١٩)

ويقول : « قد انتزعت الدنيا من قد استمكن
منها واعتكفت له ، فأصبحت الأعمال

أما الذين لا يرون ذلك فهم - في قوله تعالى -
(الذين يستحيون الحياة الدنيا على
الآخرة . . .)
(سورة ابراهيم ٣)

وفي قوله تعالى :

(بل تؤثرون الحياة الدنيا ، والآخرة خير
وأبقى)
(سورة الأعلى ١٦ - ١٧)

ويسر الدين والعقل في ذلك كله جنباً إلى جنب ،
لذلك رأى ابن المقفع أن « من أحسن ذوى العقول عقلاً
من أحسن تقدير أمر معاشه ومعاده ، تقديراً لا يفسد
عليه واحد منها الآخر . فإن أعياه ذلك رفض الأدنى ،
وأثر عليه الأعظم » . (ص ٢٥)

لكن الطريق من الدنيا إلى الآخرة ، أو ما بين
المعاش والمعاد ، طريق قصير ، مهما طالت أيامه
وتعددت لياليه ، فهو طريقة عين . والنفس الانسانية
عند ابن المقفع في هذا الطريق لا بد أن تصحو وتتبه :

« فانه لا مال لها إلا أيامها المعنوية التي ما ذهب منها
لم يستخلف كما تستخلف النفقة ، وما جعل منها في
الباطل لم يرجع إلى الحق » . (ص ١٠)

إن الطريق حل قصره وسرعة السير فيه طريق
صعب ، وهو المسلك ، كثير المشاق ، مقل بالأعياء ،
عصفوف بالمخاطر . . . وهو مع ذلك أبضا قد زين
بالزخرف ، فزخرته الزينة ، وعلاء الاغراء ، وماج فيه
التنازع والذهو ، يقول تعالى :

(حتى إذا أغلخت الأرض زخرفها وأزيتت ،
وظن أهلها أنهم قادرون عليها ، أنما أمرنا ليلا

« وعمل العاقل ألا يكون رغبيا إلا في إحدى ثلاث
خصال : تزود لمعاد ، أو مرمة لمعاش ، أو لذة في
غير حرم » . (ص ١٣)

ويقول في الأدب الكبير :

« وأصل الأمر في المعيشة أن لا تنى عن طلب
الحلال ، وأن تحسن التدبير لما تفيد وما
تنفق » . (ص ٤٣)

وهو حين يبدأ الأدب الكبير لا يبدأه إلا بمقدمة يثني
فيها على السابقين من الناس قبلنا :

« فكان صاحب الدين منهم أبلغ في أمر الدين
علما وعملا من صاحب الدين منا ، وكان
صاحب الدنيا عمل مثل ذلك من البلاغة
والفضل » . (ص ٥٠)

وهو إذ ينظر في كتب الأولين ليأخذ من حكمهم
وينقل من أقوالهم إنما يلتفت نظره من ذلك كله ما ذكره
من تعظيم الله وترغب فيها عنده ، ومن تصغير للدنيا
وتزهيد فيها ، يقول :

« فمتهى علم عالما في هذا الزمان أن يأخذ من
علمهم ، وغاية إحسان محسنا أن يقتدي
بسيرهم . . ولم نجدهم غادرو شيئا يجد واصف
بليغ في صفة له مقالا لم يسبقوه إليه إلا في تعظيم
الله عز وجل وترغب فيها عنده ، ولا في تصغير في
الدنيا وتزهيد فيها . . ولا في وجوه الأدب
وضرور الأخلاق » . (ص ٤١)

ونقول إن الأمر الذي لا شك فيه أن الكاتب الأدبي
الفكر كان يرجع في بعض ما يصدر عنه من حكمة وما
يلتفت إليه من رؤية خلقية إلى آداب الفرس وحكماتهم

أعمالهم ، والدنيا دنيا غيرهم ، وأخذ متاعهم
من لم يحمدهم ، وخرجوا إلى من لا يعلمهم ،
فأصبحتا خلقتا من بعدهم ، نتوقع مثل الذي نزل
بهم . فنحن إذا تدبرنا أمورهم أحقنا أن ننظر ما
نعيظهم به فنتبعه ، وما نخاف عليهم منه
فنتجنبه » .

(ص ١٩)

وعلى ذلك فإن الألباب إذا استطاعت أن تغلب
زخرف الدنيا ، فلم تغض عليه الطرف ، حرصا على
المعيش الذي يبقى ويدوم ، من غير زخرف زائل ، لا
يلت أن يتنزع من يد من ظن أنه قد استمكن منه . .
فإن العاقل هو الذي لا يحزن على شيء منه ، يقول :

« وعمل العاقل أن لا يحزن على شيء فاته من
الدنيا أو تولى ، وأن يتزل ما أصاب من ذلك ثم
انقطع عنه منزلة ما لم يصب ، ويتزل ما طلب من
ذلك ثم لم يدركه منزلة ما لم يطلب » . (ص ١٢)

وهو في هذا يقتبس من الأسلوب القرآني في قوله
تعالى :

« لكيلا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم »
(سورة آل عمران ١٥٣)

بل إنه لا ينفى ما في وجهته نحو التزهيد في الحياة
الدنيا من أثر لأقوال الحسن البصري ونظرائه ، ونغمات
عمر بن العزيز الدينية في ثوبه ومواعظه . . ويتضح من
ذلك كله أن العاقل لا يكون في رأي ابن المقفع إلا إذا
أشياء عقله قبس وهاج من الدين ، يصلح به أمر دنياه أو
معاشه ، ويتزود منه لأخرته أو معاده ، ويفصل في كل
ذلك فصلا بين الحلال والحرام ، يقول :

لحظاته من المعاني الاسلامية .. والمفاهيم الدينية ..
تتبلور الواحدة بعد الأخرى في رؤيته أو نظريته الشاملة
الى الوجود .. والطريق كما هو معروف على نحو ما
شهدناه طريق وعر عصفوف بالمخاطر ، فيه الخير والشر ،
فيه الحق والباطل ، فيه الصلاح والفساد ، فيه الرشد
والغنى ، فيه الرأى والموسى ، فيه الأمر والنهى ، فيه
الحسنة والسيئة ، فيه التوبة والذنب ، فيه الثواب
والعقاب ، فيه البر والحياء والمعروف والمروءة
والعفاف ، كما أن فيه الحرص والشره والرفيلة
والعدوان .. وتقع النفس الانسانية - أياما معدودات
من حياتها الدنيا - بين حومة ذلك الصراع أو بين شقى
الرحى - لكن حقيقة الصراع .. ليست بين هذه القوى
المتضاربة ، ولا بين هذه المنازع المتناقضة ، وإنما الصراع
الحقيقى هو فى داخل النفس ذاتها ، أو هو بين النفس
ونفسها ، حين تتجاذبها القوى ، وتتقاذفها المنازع ..
فكيف يكون أمر النفس وهى على ما جاءت فى قوله
تعالى :

« ان النفس لأمارة بالسوء الا ما رحم رى »

(سورة يوسف ٥٣)

وفى قوله تعالى :

« بل الانسان صلى نفسه بصيرة ، ولو ألقى

معاذيره »

(سورة القیامه ١٤ - ١٥)

وفى قوله تعالى :

« ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم

وفرتمكم الامانى »

(سورة الحديد ١٤)

وليست النفس عند ابن المقفع شيئا يختلف عن

وترائهم فى وجوه الأدب وضروب الأخلاق على نحو ما
قال .. ومعروف أنه يجمع من ذلك ثقافة واسعة كما كان
يضيف الى ذلك كله ثقافة يونانية وهندية وغيرها .. ولم
يكن فى ذلك نسيج وحده فقد كان كذلك سلفه عبد
الحميد بن يحيى الكاتب ، وشغله أبو عثمان عمرو ابن
بحر الجاحظ . بل كان كذلك أيضا من بعدهم امام أهل
السنة الفقيه المحدث المفسر ابن قتيبة على الرغم مما حل
عليه من بعض ألوان الثقافة . وكذلك كان عصرنا
العباسى كله بكل ما انصهر فيه من ثقافات وامتزج فيه
من عصابات بل اختلط فيه من الشعوب والأجناس
تحمّل اليه عقولها وتنقل تراثها ، وتخرج الثقافة الاسلامية
فى ذلك العصر بعد هذا بكل ما تبع من داخلها وكل ما
أضيف اليها من خارجها لتتوسع ذلك كله ، فيقوم لها
بذلك كيان فنى تحفظ به شخصيتها وتعلو به همتها ..
قوة الملامح بارزة الخصائص .. لا تنطوى تحت لواء
غير أن يكون لواءها .. وكذلك كان كاتبنا ابن المقفع
على الرغم من كل ما كان من تالد فارسيته .. وكل ما
كان من قديم جورسيته أو مانويته .. لكن هذا كله لم
يكن ليحول بينه وبين أن تنسكب هذه الثقافات فى وعاء
الفكر الاسلامى بحيث تبلو الصورة كما رأينا عند كل
نقطة على الطريق صورة دينية تتفق مع الوجهة الدينية
الاسلامية فى أقل ما يمكن أن يقال عنها ، وهى تلك
الوجهة التى كانت تتوجه اليها البيعة وسير نحوها
المجتمع .. وهى نفسها البيعة التى كان يعيش فيها
الكاتب ويتوجه بالحديث اليها .. يأخذ منها كما
يسطرها .. ويستقى من قيمها ويبذلها بقدر ما يعود
لنمحتها من فكره وخلصة حكمته وفلسفته بما لا
يتعارض فيها نقرأه مع أصول الدين وروغ العقيدة فقد
كان على الرغم من ماضيه لما يعيش حاضره .. ولذلك
كنا دائما نراه على طول الطريق .. طريق الحياة الدنيا الى
ما بعدها .. لا تخلو خطرة من خطراته .. أو لحظة من

هذا ، بل هي النفس كما رأينا النظرة الاسلامية ، بل هي الفاظ المعجم القرآن حين يقول :

« ... فان من طباع النفس الامارة بالسوء أن تدعى للمصادير فيها مضي ، والأمان فيها بقى » (ص ١١)

وإذا كان هذا شأن النفس ، فما السبيل الى انقاذها من الضلال ، أو من سوء : سها .. لا شيء غير ما خلق الله فيها من قدرة عمل نفسها .. واقتدار هل نوازعها .. ومن هنا كان جهاد النفس .. وكان جهاد النفس في الاسلام هو الجهاد الأكبر .. وليس القوى من غلب الناس ، وإنما القوى من غلب نفسه ..

(٤)

مضى ابن المقفع في هذا السبيل الى آفاق بعيدة ، يجهل التحليل فيها ، ويطول الحديث عنها ان مضينا نجول آفاقه ، وتتبع أبعاد التفكير الديني في أدبيه .. وقد نال الدين من فكره نصيباً أولى حتى لتبدو رسالة الأديب الصغير وحدها لا تفارق العقل الا لتصبح الدين ، ولا تفارق الدين الا لتصبح العقل .. وليس لهذا معنى سوى أن فكر الرجل لم يكن لينأى عنها لحظة .. في هذه الرسالة وحدها .. ومن هنا يتأكد لنا في كل خطوة نخطوها أن لا بد من إعادة قراءة ابن المقفع والاعتراف اليه بعيداً عن سلسلة الآراء والأحكام التي تبدو أحياناً كأنها سلسلة من الرواية والأستاد دون ما رواية أو أستاد .. وإنما هو ترميد وتكرار .. فكان لا بد أن يفرغ الناظر في الأمر الى النظر في الأمر وحده دون أن يلتفت بمنة أو بسيرة ، فلا ينظر الى الطريق في استقامته وحل امتداده لا يجعل الخطو دون حاجة الى العجلة .. ولا يكف عن السير والهدف لم يبلغه بعد ..

ونحن لم نصل بعد الى نهاية الطريق ، ولا وصلنا الى القطع بحكم من الأحكام .. وكان علينا أن نهجد السير وأن يستحثنا السعي من أجل الوصول الى الحقيقة في محاولة إقامة بناء فكري ربما ثبت أركانه في أرض تعاورتها العواصف وأريد فيها وجه البسيرة ، وبهاوى الفكر فيها تحت الخطام المتراكم من وراء السنين ، كما تدعى كيان الحقيقة وارتعشت صروعها خلف ضباب الدهر وظلام الزمن ولكم أخفت سحب الزمان من حقائق الفكر وطوته أو تترته في الفضاء البعيد ... من ذا الذي يستطيع بعد هذا أن يلحق ببساط الريح يجمع ما تناثر أو يقرب مما شرق وما غرب والأيام تجري سراعاً تلفت منها عصور من حولها عصور حتى لتفصل بيننا وبين العصر القديم حلقات يشتد من حولها سياج عتيق كيف يثقل الحاضر وقد ضعفت حيلته عبر حلقات تشابكت أوصارها وتقلصت مسالكها وتجمدت مفاصلها ببرودة ليالي الدهر السحيقة ترى هل يملك المرء أن يزعم قدرة على فك الطلاسم أو حل الرموز أو ضرب حاجز الزمن لرؤية عمق التاريخ بما قد كان يجري فيه إن هي الا محاولة محدودة الحيلة مقيدة بسلاسل الخطو تسعى الى الفهم وقد تخطى الفهم أو قد تصبو الى الافهام دون أن تحقق منه الكثير .

ولقد كنا اتفقنا على أن نمضي في الطريق ولا يصح أن أنفض ما اتفقنا عليه مهما تكن شدة المصاعب أو هول المشاق ولقد كنت تقرأ معي لابن المقفع كلاماً كثيراً في جهاد النفس ولكنك لاحظت - وأنت على حق فيها تلاحظه - أنه على كثرة ما قاله في هذا الموضوع لم يذكر لفظة الجهاد ، وإن أكثر من مترادفاتنا ولا شك أنك تريد أن تأخذ عليه أمراً بعد أن أطلت الصبر وأجدت الانتظار غير أني

الحلقة العملية التي تحتاج الى مران وتدريب دقيق كما تحتاج الى ذأب وأناة ، حتى تدعن النفس بعد هذه الرياضة الطويلة وتستجيب لحكم العقل وتتبد سلطان الهوى . يقول :

« وعمل العاقل غاصمة نفسه ، وعمايتها ،
والقضاء عليها ، والاثابة لها ، والتكنيل بها . »

أما المحاسبة ، فيحاسبها بما لها ، فإنه لا مال لها الا اياها المدودة التي ما ذهب منها لم يستخلف كاستخلف النفقة ، وما جعل منها في الباطل لم يرجع الى الحق . فيتنبه لهذه المحاسبة عند احوال اذا حال ، والشهر اذا انتقضى ، واليوم اذا ولى ، فينظر فيها أفنى من ذلك وما كسب لنفسه فيه ، وما اكتسب عليها في أمر الدين وأمر الدنيا ، فيجمع ذلك في كتاب فيه احصاء وجد ، وتذكير وتبكيث للنفس ، وتذليل لها ، حتى تعرف وتلدن .

وأما الحصومة ، فإن من طباع النفس الأمانة بالسوء أن تدعى للمعاذير فيها مضى ، والأمانى فيها بقي ، فيرد عليها معاذيرها وعللها وشبهاتها .

وأما القضاء ، فإنه يحكم فيها أرادت من ذلك على السينة بأنها فاضحة مريضة موفقة ، وللحسنة بأنها زائنة منجية مريحة .

وأما الاثابة والتكنيل ، فإنه يسر نفسه بشذرك تلك الحسنات ، رجاء عواقبها وتأمين نفعها ، ومعاقب نفسه بالتذكر للسيئات ، والبشع بها ، والاقشعرا منها ، والحزن لها .

« فأفضل ذوي الألباب أشدهم لنفسه بهذا أخذاً ، وأقلهم عنها فترة » . (ص ٩٠ - ٩١)

أقول لم لا نؤجل الحكم حتى نفرغ من القراءة وننظر الى الكلمات من جميع زواياها . . . وإلى الأفكار مجموعة كلها في اطار .

ذلك أنه ان لم يصرح بذكر الجهاد جهاد النفس فقد أكثر من ذكر معانيه . . . ومن القول بمحاسبة النفس . . . وأطال السير في هذا الطريق متوجها فيه الوجهة التي تتفق مع روح الاسلام ، وتسلك سبيله . ثم انه ان لم يصرح بلفظ الجهاد فقد ذكر الاجتهاد . يقول في الادب الصغير :

« أمور لا تصلح الا بقرائها ، لا ينفع العقل بغير ورع ولا الاجتهاد بغير توفيق » .
(ص ٢٨)

ويقول : « من حاول الأمور احتاج فيها الى ست : الرأي ، والتوفيق ، والفرصة ، والأعوان ، والادب ، والاجتهاد . وهن أزواج : فالرأي والادب زوج ، لا يكمل الادب الا بالرأي ، ولا يكمل الرأي بغير الادب . والأعوان والفرصة زوج ، لا تنفع الأعوان الا عند الفرصة ، ولا تنفع الفرصة الا بحضور الأعوان . والتوفيق والاجتهاد زوج ، فالاجتهاد سبب التوفيق ، وبالتوفيق ينجح الاجتهاد » . (ص ٢٩) .

ثم يقول : « يسلم العاقل من عظام الذنوب والعيوب بالقناعة ومحاسبة النفس » . (ص ٢٩) .

لكنه يقف وقفة خاصة عند محاسبة النفس ، يرسم لها المنهج الذي تتبعه ، وهو منهج يقوم على فهم دقيق لأحوال الناس وسبل معالجة هذه الأحوال بالتدرج المنطقي خطوة بعد خطوة ، حتى يستقيم أمرها في النهاية ، وهو إذ يذكر هذه الخطوات مجملة يعود عليها بالتفصيل ليشرح ما يتصل بكل واحدة منها ، مبيها

والأسباب ، وتزعم الشبهات ، فتكون هذه المرحلة من أجل أن يقف الانسان فيها خصيصا لنفسه ليردعها « فيرد عليها معاذيرها وعللها وشبهاتها » .

وفي المرحلة الثالثة ، من مراحل الجهاد ، جهاد النفس يتمثل دور القضاء ، لتقف النفس أمام منصة العدالة فتسمع حكم القضاء ، ويتم الاعلان عن السببة « بأنها فاضحة مردية موقفة » ، وعن الحسنات « بأنها زائفة منجية مريحة » .

ثم تكون المرحلة الرابعة والأخيرة فيها يسميه ابن المقفع « الأثابة والتتكيل » ، وهي مرحلة الشواوب والعقاب فيها يكون بين الانسان ونفسه ، فتبدو الأثابة في صورة « من يسر نفسه بتذكر تلك الحسنات ، رجاء عواقبها وتأميل فصلها » ، ويكون نفي ذلك حين « يعاقب نفسه بالتذكر للسببات ، والبشع بها ، والاقشعرار منها ، والحزن لها » . فهذه وسائل اثابة النفس أو عقابها ، وقد جعل الانسان هنا خصيصا وحكما في الوقت نفسه ، ويكون حساب الانسان لنفسه بيقظة الضمير وحركته قبل أن يتولى الله تعالى أمر الحساب . ونصل الى النتيجة المنطقية في نهاية هذه المراحل جميعها التي تشبه السلم الصوفي بأن يكون « أفضل ذوي الألباب » هو « أشدهم لنفسه بهذا أخذا ، وأقلهم عنها فترة » .

ويتضح من ذلك كله مدى حرية الإرادة عند الانسان فيها سبق أن عرضنا له ، فالنفس قادرة على أن تكبح جماح هواها إذا أرادت ، غير أن الأمر قد لا يكون سهلا . . ومن هنا يكون الوحي بحقيقة الأوامر والنواهي ، فقد تهورى النفس ما تقرر النبي عنه ، وقد تكبر النفس ما تأكد الأمر به ، ويلعب الشيطان دوره الكبير عند مفترق الطرق ، فيدفع النفس في طريق لا ينيها أن تسير فيه هو

وواضح أنه معالجة أحوال النفس وترويضها لتسلك سبيل الحق قد مرت عبر مراحل تنظمها تلك السلسلة المتصلة الحلقات بحيث تؤدي كل حلقة الى تاليتها دون أن تحتل أجزاء السلسلة أو تفقد عنصر التدرج والتنسيق اللازمين لها في تصاعد من الأدنى الى الأعلى . . . وتمثل المحاسبة المرحلة الأولى لتشمل عملية الاحصاء لكل ما كسب الانسان لنفسه وما اكتسب عليها ، وهو في هذا - يأخذ - من الآية الكريمة في قوله تعالى في ختام سورة البقرة :

« لا يكلف الله نفسا الا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت » . (سورة البقرة ٢٨٦)

ومع الاحصاء يتم جمع كل الأعمال مما يتصل بأمرور الدنيا وأمرور الدين ، ليكون ذلك كله في كتاب ، ومع التدوين تتوالى الحسنات والسببات الواحدة بعد الأخرى ، وتصحب ذلك كله حركة دائبة تراقب الانسان فيها قدمت يدها وما لفظ به لسانه . . . ومع كل فعل وكل قول تتوهج شعلة وضاعة لتكشف عما سجلته الصفحات من خير ومن شر ليتقدم هاتف الضمير ، ولا تملك النفس سوى أن تنصت اليه في تذكيره وتبكيته وتذليله لها « حتى تعترف وتلعن » .

وليس هذا مما يجري فترة من الزمن ثم يتوقف وإنما هي دورات من المحاسبة لا يتقطع عملها في التنبيه والترويض على مدى العمر « عند الحول اذا حال ، والشهر اذا انقضى ، واليوم اذا ولى » .

وتتبع ذلك مرحلة ثانية هي مرحلة الخصومة يقتضيها ادراك طبيعة النفس وما تأخر به من سوء وما تنجذب اليه من ذنب وما تشتهيه من شر ، ومع كل ذلك تخفي النفس لتسلم للمعاذير ، وتلوذ بالأمان ، وتخلق الملل

الكتاب ، لأن تدوين الأعمال ادعى الى أن تكون المراقبة والمراجعة دقيقة ، وإلى أن ترى النفس الصفحة السوداء وترى كذلك البيضاء من غير سوء . . وهنا تكمن أهمية المراقب العملي في متابعة ذلك كله وانقضاء آثاره في سبيل جهاد النفس . . يقول مرة أخرى :

« وعمل العاقل أن يحصى على نفسه مساوئها في الدين وفي الرأي وفي الأخلاق وفي الآداب ، فيجمع ذلك كله في صدر أو في كتاب ، ثم يكثر عرضه على نفسه ، ويكلفها إصلاحه ، ويوظف ذلك عليها توظيفاً ، من إصلاح الخلقة أو الخلقين والخلال ، في اليوم أو الجمعة أو الشهر فكلما أصلح شيئاً عمه ، وكلما نظر الى عمو استبشر ، وكلما نظر الى ثابت أكتاب » . (ص ١١ - ١٢)

وكأنما السبيل الى اصلاح النفس وتربيتها أشبه ما يكون بتقويم طفل صغير ، تقوم بتربيته ليتجنب الخطأ ، ونسعى الى حثه على عمل الصواب . . ويضي ابن المقفع في منبجه هذا ليستخدم وسائل التحليل النفسي في علاج أمور النفس . . ويتبع في ذلك كله عدة سبيل ، السبيل الاولى تهدف الى أن تزن النفس أعمالها ، فلا تترك شيئاً دون وضعه في الميزان مع متابعة حركة كفتيه والمضي في عملية التقييم من ناحية والاصلاح من ناحية أخرى . والسبيل الثانية تسعى الى أن يؤلف لها من ذلك كله كتاب احصاء يتابع حركة التنويم وتطور الأمور ما بين الحسن والقبيح ، والسبيل الثالثة تتابع حركة الانفعال في داخل النفس ازاء التغيرات القائمة ، لترصد لها مشاعر الاستبشار عند زوال القبيح وأحاسيس الاكتئاب عند ثبات الحسن .

ولا ينسى ابن المقفع حقيقة ضعف النفس وانحسار قدرتها عن المضي في الطريق الى نهايتها ، فلا يتردد من

طريق الشر ، ويحول بينها وبين طريق ليس لها نجاة بدونه هو طريق الخير . . وهنا تكون القدرة ، وتكون الاستطاعة ويكون امتحان النفس فيها يمكن أن يقول اليه أمرها من فلاح أو فشل .

يقول ابن المقفع :

« كان يقال : ان الله تعالى قد يأمر بالشئ ويبطله ، ويبطله ، وينهى عن الشئ ويبطله ، وينهى عن الشئ ويبطله بشهوته . فاذا كنت لا تعمل من الخير الا ما اشتيت ، ولا تترك من الشر الا ما كرهت ، فقد اطعتم الشيطان على عورتك ، وامسكته من أزمتك ، فأوشك أن يقتحم عليك فيما تحب من الخير فيكرهه اليك ، وفيما تكرهه من الشر فيحببه اليك . ولكن ينبغي لك في حب ما تحب من الخير التحامل على ما يستثقل منه ، وينبغي لك في كراهة ما تكره من الشر التجنب لما يجب منه » . (ص ١٩)

ويقول : « وعمل العاقل أن يعرف أن الرأي والهموى متعاديان ، وأن من شأن الناس تسويق الرأي واسعاف الهموى ، فيخالف ذلك ويلتمس أن لا يزال هواء مسوفاً ، ورأيه مسعفاً . وعمل العاقل اذا اشتبه عليه أمران فلم يدر في أيهما الصواب أن ينظر أهواهما عنده فيحلره » . (ص ١٤) .

ومع شدة وطأة الأهواء على النفس وقوة تيار الشهوات من حولها . . لا يني ابن المقفع بكل ما يملك من طاقة فكرية عن اللقاء مزيد من الضوء أمام ملعب النفس وفي طريق مجراها . . يعينها به على نفسها . . ويقودها في مسالك المراقب الشديد ، ولا يلبث أن يعود عليها مرة بعد مرة بالتنوير والتلهيب ، وتتبدل من ذلك كله فكرة

المقفع عملها الفعال في نسخ الذنوب .. التي تولدت في النفس من صنع الشيطان .. يقول :

« لا تؤذى التوبة أحدا إلى النار ، ولا الأصرار على الذنوب أحدا إلى الجنة » . (ص ٢٥)

ومن هنا كان لذكر النفس للموت في رأيه أثر قوي في توجيه خطاها نحو خير الدنيا وحسن ثواب الآخرة .. ذلك أن ذكر الموت عنده لا يوقع النفس في اليأس كما يمكن أن يرى شيء من ذلك في شعر أبي العتاهية ، وكأن عناصر الزهد أو التزهيد عند أبي المقفع عناصر إسلامية خالصة ، فذكر النفس للموت بل كثرة ذكر ذلك لا يلقى بها في غياهب الكآبة واليأس والظلام .. وإنما يفتح أمامها باب الأمن والأمان .. لأنها النفس المطمئنة .. الراضية المرضية .. يقول :

« وعلى العاقل أن يذكر الموت في كل يوم وليلة مرارا ، ذكرا يباشر القلوب ، ويقذف الطماح ، فان في كثرة ذكر الموت عصمة من الأشر ، وأمانا بإذن الله من الملح » . (ص ١١)

وهو حين يتحدث عن صلاح ذي الصلاح من حب الله ، وحب حكمته ، والعمل بطاعته ، والرجاء لحسن ثوابه في المعاد إليه ، يقول :

« ليلحقه اجره من بعد الموت .. » (ص ٢٠)
« أما النفس النادمة ، فهو يذكر منها حسا تكون احداها نفس الجريء على الذنوب اذا حضرة الموت » . (ص ٢٨)

ليس الموت اذن نهاية الحياة ، وإنما الحياة تبدأ بعده ، هو جسر يربط بين الدنيا والآخرة ، والحياة متصلة ، ان انقطعت الأولى بالموت ، فالآخرة دار بقاء ..

أن يقدم لها القوة والعون من الخارج ، فيقيم لها حرسا من ذوي الألباب يقفون عند السمع والبصر والفؤاد ، فاذا هو غفل عن نفسه أدرك أنهم لا يغفلون . يقول :

« وعلى العاقل أن يؤنس ذوي الألباب بنفسه ويحرمهم عليها ، حتى يصيروا حرسا على سمعه وبصره ورأيه ، فيستقيم إلى ذلك ويرجع له قلبه ، ويعلم أنهم لا يغفلون عنه اذا هو غفل عن نفسه » . (ص ١٢ - ١٣)

هذا وليس من غرضنا ان نستقصي كل معاني جهاد النفس التي ادار ابن المقفع حولها فكره الاخلاقي وهو فكر ديني في وقت واحد معا .. لأن العقل عنده كما رأينا دائما لا ينأى عن الدين .. وفكرة الكتاب التي طالما وقفت عندها وهو كتاب النفس التي تحصى فيه أعمالها .. هي الفكرة القرآنية التي تفيض بذكرها الآيات الكريمة من قوله تعالى :

« وكل شيء أحصيناه كتابا » (سورة النبأ ٢٩)

« اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا » (سورة الاسراء ١٤)

« فاما من أوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حسابا يسيرا » (سورة الانشقاق ٧ - ٨)

« وأما من أوتي كتابه وراء ظهره فسوف يدعو ثبورا » (سورة الانشقاق ١٠ - ١١)

« فمن أوتي كتابه بيمينه فأولئك يقرؤن كتابهم ولا يظلمون شيئا » (سورة الاسراء ٧١)

ولما كان كتاب النفس هذا على طريق الحياة الدنيا قد سجلت فيه الحسنات ودونت فيه السيئات ، فإن الحسنات يذهبن السيئات ، ويكون للتوبة عند ابن

وإذا كان هذا شأن الدين عند ابن المقفع في أدبيه ، فإن الأمر لم يكن ليُقف عند هذا الحد . . وإنما تطورت التفكير الديني في أدبه تطورا بعيد المدى فيما يمكن أن يرد إلى الفترة الإسلامية من حياته . . والإسلام يجب ما قبله وإن كان لم يصلنا له مما قبله شيء يمكن أن يكون زندقة أو شيء يتعارض في كثير أو قليل مع الفكرة الإسلامية . . ويكفي أن نشير مجرد إشارة - عما يمكن أن يرد إلى عهد إسلامه - إلى ما ورد من كلامه فيها نشره بعد الأديبين مصنف رسائل البلاء تحت عنوان « نيسمة ثانية لابن المقفع » . . فإن فيه ما يوضح أن طريقا جديدا قد أخذ يشق مجراه في تفكيره ليتبلور فيه الجانب الديني مع وضوح الرؤية الإسلامية بكل التصريح وضوحا كاملا . . وذلك حين يتوجه بالخطاب إلى أمير المؤمنين . . وهو فيها يبدو الخليفة المنصور المؤسس الحقيقي للدولة العباسية يقول :

« غير أنا بهمد الله قد أصبحنا نرجو لأنفسنا الإصلاح بصلاح إمامنا ، ولا نخاف عليه الفساد بضادنا . فقد رأينا حظه من الله عز وجل في التثبيت والعصمة . فلم يبرح الله يزيد غيرنا ، ويزيد به رعيته مذ ولاد ، فمتدنا من هذا وشائق من غير وبنات . ونحتسب من الله عز وجل أن لا يزال إمامنا يسارع في مرضة ربه بالاستصلاح لرعيته ، والصبر على ما يستتكر منهم ، وقلة المؤاخلة لهم بلنوسهم ، حتى يقلب الله له بصلاحه قلوبهم ، ويفتح له أسماعهم ، وأبصارهم فيجمع ألفتهم ، ويقوم أروهم ، ويزهزم مرشدهم أمورهم ، ويتم نعمة الله على أمير المؤمنين ، بأن يصلح به وجل يديه ، فيكونوا رعية خير راع ، ويكون راعي خير رعية ، إن شاء الله ، وبه الثقة .

والذي أصبحنا نحمد من أمير المؤمنين لكثير ، أنا ذاك ما تسر منه فالتنا قلنا تلقى من أهل العقل

تلك هي فلسفته في الحياة والموت ، وبذلك تكتمل في فكر ابن المقفع رؤية متكاملة تتفق تماما مع الرؤية الإسلامية أن لم تكن هي نفسها هذه الرؤية .

(٥)

غير أنه يبقى بعد هذا شيء . . مما سبق أن لاحظناه مما من خلو الأديبين من التصريح باسم الدين الذي يتحدث عنه الكاتب فيها ، أو اسم الرسول صاحب هذا الدين . . أو اسم القرآن الذي نزل به . . إلى غير هذا مما أشرنا إليه . . ذلك أننا لا نرى علة لذلك سوى أن يكون تاريخ كتابة الأديبين إنما يرجع إلى الفترة التي سبقت إسلام ابن المقفع حينما كان لا يزال على ما نوتيه أو مجوسيته . . وقد كان في ذلك صادقا مع نفسه إذ لم ير حاجة لكي يذكر ديننا لم يكن قد آمن به بعد . . غير أن ذلك كله شيء وتأثره بالثقافة الإسلامية وصدوره عن الفكرة الإسلامية شيء آخر ، وهو الذي عاش في المجتمع الإسلامي وكتب ليخاطب هذا المجتمع بلغة البيان الذي نبغ فيه وصورت البلاغة العربية الذي صلح به وتغنى بالحائنه بأساليب لم تكده تشهدها لغة التأليف قبله وظل بها من بعد استاذ البلاء وسيد امراء البيان . . فقد استمدت بلاغته من المعاني القرآنية كما استمد فكره الديني من الاسلام صورة كاملة للحياة والكون . . بحيث امكن رد الكثير من اتجاهاته الفكرية الدينية في الكثير من تفاصيلها إلى مصادرها الإسلامية . . وليس هذا بغريب فقد كان الأخطل وهو نصراني شاعر يبي أمية وكان يعبر عن الفكر الإسلامي كما كان غيره من شعراء النصرانية ، لأن الثقافة الإسلامية هي الثقافة التي كانوا يتمتعون إليها الانتباه الأكبر سواء أسلموا أو لم يسلموا أو كانوا من أصل عربي أو كانوا غير ذلك ، ولقد أثبت هذا البحث حقيقة المصدر الإسلامي للتفكير الديني عند ابن المقفع .

والمصايبة منكروا لنعمة الله بأمير المؤمنين علي المسلمين ومن أشد جهلا وأقطع علما ، من لم يعرف النعمة ، ولم يقبل العافية ، نعوذ بالله من الذين لا يعقلون . . .

. . . فلمعري ان الشيطان من أهواء الناس وألستهم في الأمر لمصيب ، وان له لستراحا حين يستوفي أمنيته ، ويصدق عليهم ظنه ، ويوحى اليهم بمكايده . فجعل الله كيده ضميئا ، وحزبه مغلوبا ، وجعله وأياهم نصيبا بلهتهم ، من أجزائها المقسومة لأبوابها ، وحطبهها ووقودها وحصبها الممد لها . فمن كان سائلا عن حق أمير المؤمنين في معدنه ، فإن أعظم حقوق الناس منزلة ، وأكرمها نسبة ، وأولادها بالفضل ، حق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، نبي الرحمة ، وإمام الهدى ، ووارث الكتاب والنبوة ، والمهيمن عليها ، وخاتم النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، بعثه الله بشيرا ونذيرا ، وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا ، ثم هو باعته يوم القيامة مقاماً محموداً . شرع الله به دينه ، وأتم به نوره على عهده ، وعين به رؤوس الضلالة ، وجبارة الكفر ، وخوله الشفاعة ، وجعله في الرفيق الأعلى ، صلى الله عليه وسلم . (ص ١١٠ - ١١١) .

عند هذا يكون الفكر الديني عند ابن المقفع قد دخل في طور اسلامي جديد ، وكأن الأمر لم يكن ينتظر سوى أن يعلن الكاتب الحكيم المفكر اسلامه من أجل أن

تتضح تفاصيل دين - على غير ما ظن الاستاذ أحمد أمين في أول هذا البحث - ذلك الدين الذي سارت خطاه من قبل كما اتضحت من بعد في مدارج الفكر الاسلامي لم تختلف عنه وان لم يصرح به . . . وذلك كله في نطاق ما وصلنا وما عرفناه من كلامه . . . لأننا لانملك أن نحكم على غير هذا . . . وإذا قيل ان ابن المقفع كان يجاري المجتمع الاسلامي ويتعلق بالخليفة العباسي الجديد - وقد رأى زوال دولة وقيام أخرى - فكيف يمكن القطع بذلك ونحن لا نعلم ما تحفي الصدور ، ولا من سرائر الناس من حولنا شيئا ، فكيف بالماضي عن قطع الدهر بعدهم ما يزيد عن اثني عشر قرنا ونصف قرن من الزمان ، نحاول بعدها أن نقيم بناء الفكر الديني عند الرجل على أساس جديد من كلماته ، والجدير بالذكر أن أكثر ما كان اعتمادنا في ذلك على كتاب الأدب الصغير الذي لم يلق من الباحثين أية عناية تذكر من حيث ظن بعضهم أن غيره هو الجدير بذلك على نحو ما يقوله الدكتور طه حسين : « والأدب الكبير خليف بالعناية ، فهو كتاب منظم له مقدمة وبابان ، أحدهما في علاقة الإنسان بالسلطان ، والثاني في علاقة الإنسان بالإنسان » . (٩)

إذا كان هذا شأن الأدب الكبير ، وكان لذلك جديرا بالعناية ، فإن الأدب الصغير وإن بدا غير منظم في توزيع كلماته وتباعد نظراته عما أعدنا بنائه ، فإن فيه على الرغم من ذلك كله نظرة شاملة للحياة ، وكان أهم ما يشتمل عليه يتمثل في علاقة الإنسان المخلوق بالخالق الأعظم .



إذا كنت سعيد الحظ واكتسبت خصائص الانسان السوي ، فلا بد أنك ستهتم بالمستقبل ، وإذا ابتسمت لك الحياة وأصبحت تعيش في تحقيق مستمر لذاتك ، فتكتشف أن النظرة إلى الأمام ، إلى ما يمكن أن يكون ، وإلى ما تريد أن يحدث هو إطار حياتك . فالاهتمام بالمستقبل والتفكير فيه هما من خصائص الانسان السوي ، وهي خصائص تشتق من الطبيعة الفريدة للانسان التي تميزه عن غيره من الكائنات الأخرى . ومن خصائص الانسان التي تميزنا عند تحليل العلاقة بين الانسان والمستقبل ، قدرة الانسان على استخدام الرموز^(١) ، التي تمكنه من اختزال الخبرة واستعادة الخبرة ، وبذلك تمكنه من استحضار الماضي والاستفادة منه في التفكير في الحاضر وفي تصور المستقبل .

فالانسان هو الكائن الوحيد الذي يستطيع أن يتصور المستقبل ويفكر في تحقيق عالم أفضل ، وبذلك يكون له مثلاً يسعى إلى تحقيقها . ويتم الانسان بالمستقبل منذ منى حياته الأولى . وإذا لاحظنا الأطفال في مرحلة ما قبل المدرسة ، لوجدنا أنهم يدرسون المستقبل حيناً يقومون بلعب الأدوار المختلفة أثناء لعبهم التلقائي . فالأطفال في سن الستين وبن الثلاث سنوات يجهدون إشباعاً كبيراً في لعب دور الأم ودور الآباء وغيرهما من أدوار الراشدين^(٢) . وهم إذ يلعبون هذه الأدوار إنما يتدربون على ما يمكن أن يقوموا به في المستقبل حين يجارسون هذه الأدوار في الواقع .

التغير والتفكير في المستقبل

لعل حياة الانسان وما فيها من انتظام واضطراب ، وتفاعل ، وإشباع لحاجات الانسان أو عدم إشباع لها ،

الموهبة والمستقبل

عبدالله مأمود سليمان

أسطة علم النفس للمناهج بجامعة الكويت

Shoben, E.P., Jr. Toward a concept of normal personality. *American psychologist*, 1957, 12, 183, 189.

Torrance, E.P. Sociodrama as a creative-solving approach to studying the future. *Journal of Creative Behavior*, (1) 1975, 9, 182-195.

(1)

(1)

فيتنام ، فقد أدت الى تمزيق الأمة الأمريكية ، وإشارة الخلافات بين أفرادها وجماعاتها .

٢ - العنف في أمريكا : وهو العامل الثاني من عوامل صلدة الحاضر في المجتمع الأمريكي . وإذا ما سأل الانسان عن أسباب العنف وانتصاره ، فسيجد أسباباً متعددة منها :

(أ) يجد العنف والقتل في حرب فيتنام تبريراً له فيما يحدث في داخل أمريكا .

(ب) إختيار الاتصال بين القطاعات المتنازعة في المجتمع الأمريكي كالبيض وغير البيض ، والصغار والكبار ، والذين يمثلون السلطة والذين يعضون لها . كل ذلك يجعل العنف ضرورياً لكي « يفهم » الطرف الآخر . وما أن الكلمات أو الوعود ، أوحى الرغبة في أن ينصت الآخر إلى قبل أن يتحدث لم تمزُذ إلى أن يفهم الآخر موقعي ، فربما كان الخيار الوحيد الذي يتبقى لي هو العنف .

(ج) يؤدي الخوف الى العنف . فخوف الأغلبية ، وخوف الراشدين ، وخوف السلطة ، خوف كل أولئك مما يمكن أن تحدته الثورة في المجتمع ونظمه ، يؤدي الى تشريع قوانين صارمة تعمل على إخضاع الناس للنظام ، مما يؤدي الى الشعور بعدم العدالة ، ويؤدي الى مزيد من العنف . وهكذا تسير الأمور في دائرة مفرغة .

٣ - صراع الأجيال : ولصراع الأجيال مغزى خاص .

هو ما يدفع الانسان الى التفكير في المستقبل . فما يحدث لنا ، وما يحدث في العالم من حولنا يؤدي الى استشارة أفكارنا عن المستقبل ، ويؤدي بنا الى التفكير في تصور ما يمكن أن يترتب على أحداث اليوم من نتائج ، ويحفزنا الى بذل الجهود بهدف العمل على تحقيق نتائج معينة أو منع أخرى من الحدوث . ويقدر ما يكون المجتمع واعياً بما يحدث فيه وما يحدث حوله ، بقدر ما يسهل عليه محاولة التأثير في مجرى الأحداث . لذلك نجد أن الباحثين والمفكرين يهتمون برصد الظواهر الاجتماعية ومحاولة التنبؤ بما يمكن أن يترتب عليها من أحداث في المستقبل . ويتم العاملون في ميادين الارشاد النفسي والتخطيط الاجتماعي وغيرها ، بدراسة ما يحدث في مجتمعاتهم وفي العالم ، ثم توقع ما يمكن أن يترتب على ذلك من نتائج ، والتخطيط لمواجهة هذه النتائج . وهل سبيل المثال ، كتب س. جلبرت رن عام ١٩٧٠ من « العالم من حولنا والارشاد النفسي » يحلل بعض القضايا الاجتماعية التي كانت تشغل المجتمع الأمريكي في ذلك الوقت ، فتحدث عن : (٣) .

١ - الحروب : يلاحظ « رن » أن عام ١٩٦٩ يتميز بتصعيد العنف في داخل أمريكا وخارجها . وعلى خلاف كل الحروب كانت حرب فيتنام تعمل على إثارة الاضطرابات ، وتصعيد العنف في الداخل والخارج . ففي الحرب العالمية الأولى والحرب العالمية الثانية كان المجتمع الأمريكي متحداً وراء اهداف المشترك . وفي سنوات الكساد الاقتصادي في الثلاثينيات كان الأمريكيون يشعرون بمشاكل بعضهم بعضاً . أما حرب

Wrenn, C.G. The world about us and counseling. in Van Hoose, W.H. & Pieteroff, J. (Eds.) Counseling in the ٢٠th century: Reflections and reformulations. Boston : Houghton-Mifflin, 1970, Pp. 317-333.

علم النفس الارشادي أو الارشاد النفسي هو أحد فروع علم النفس التطبيقية الذي يهدف الى مساعدة الأفراد على النمو وتحقيق أقصى مستويات الفاعلية الإنسانية الممكنة لكل منهم . وهو يساعد الأفراد على تحديد أهدافهم واتخاذ القرارات بأسلوب حياة ملائم بما فيه من نوع التعليم أو المهنة أو الأنشطة الأخرى ، ولكي يحقق ذلك يحاول مساعدة الفرد على أن يفهم ذاته ويفهم العالم من حوله . ويعد أفضل مكان له في هذا المجال (أفضل تعليم أو مهنة أو أسلوب حياة ممكن) كما يساعده ذلك على تنمية مهاراته المختلفة .

٦ - تأثير الثراء : ولوفرة النقود تأثير كبير . فلناس يركزون على الأشياء ويتمنون بها دون الاهتمام بالإنسان . ويؤدي الرخاء الاقتصادي الى أن تعمل النساء ، كما يمكن أفراد الأسرة من أن يعضوا أوقاتاً كبيرة خارج المنزل مع جماعات أخرى من غير أفراد أسرهم ، مما يؤدي الى تغيير نمط حياة الأسرة . ومن تأثير الثراء أيضاً ، توفر العمل للعمال المهرة والمتخصصين دون غيرهم ، فالحاجة الى الذين يقومون بأعمال كالنظافة مثلاً ، أخذت تقل نظراً لتوفر الأدوات الكهربائية ، مما يعني تعطل عدد كبير من الذين لم تنح لهم ظروفهم التخصص واكتساب المهارات أو الذين ليست لديهم القدرات على تعلم المهارات .

ولعلك تسأله : هذه مشكلات مجتمع غريب عنا في عاداته وتقاليده وقيمه ، فلماذا نقلق نحن ؟ حين نشأ في بلادنا حرب ، فلما نغزو ، ولغرض شريف ، والعنف لا يمثل مشكلة عندنا ، فبلادنا آمنة مطمئنة ، وليس لدينا صراع أجيال ، فلقد ربينا أبناءنا على احترامنا واحترام تقاليدنا ، ونحن لا نسمع لهم بأسباب السعادة الوقتية ، بل الواقع أنه لا توجد عندنا سعادة وقتية ، فلقد عودنا أبناءنا على الصلاح والتفري . أما وسائل الاعلام ، فمقص الرقيب كفيف تهذيبها ، وأما الثراء فليس بمشكلة ، إذ هوليس ظاهرة تنتشر بين عامة الناس .

التفري سمة العصر

شيء هام يجب أن نتنبه اليه ، هو أننا لا نعش في عالم متعلق ، « فشبكة العلاقات الاجتماعية اليوم متشابكة تماماً ، حتى أن نتائج الأحداث المعاصرة يكون لها صدى

هناك قطاعات في المجتمع الأمريكي لم تنق في بعضها أبداً ، غير البيض لم ينفوا أبداً في البيض ، والفقراء لم ينفوا أبداً في الأغنياء ، وغير المتعلمين لم ينفوا أبداً في المتعلمين . لكن الشباب أظهروا دائماً احتراماً للقيم من الكبار . فالشباب لم يوافقوا الكبار دائماً ، بل ثاروا عليهم أحياناً ، ولكنهم في النهاية كانوا يصغون اليهم . أما الآن ، فما أقل إعصاف الشباب للكبار . ولما هم يقومون باختيارهم بالأمر الواقع . وما يحدث الآن هو أن الشباب لا يثقون في الكبار ، في أهداف الكبار وقيمهم وانجازاتهم . ويعتقد الشباب بأن الكبار لن يفهمهم حين يتحدثون اليهم . لذلك فهم (أي الشباب) يحبرون هيا يريدون بالفعل ، إما انسحاباً ، كما في حالة المي ، أو بالاحتجاج ، كما نرى في حالة الشباب الذي ينظم المظاهرات ، أو بالعنف والسلوك البناء وهو ما يمثل الاتجاه الذي يقوم بالفعل والتصرف .

٤ - السعادة الوقتية : هنا يتم « دن » بما يداع عن اهتمام بعض الشباب بما يسمى بالسعادة الوقتية ، ويعتقد أن هذا يرتبط بعدم ثقة الشباب بما يمكن أن يتعلموه من الماضي ، وعدم تأكلهم من المستقبل ، وشعورهم بأن أشياء كثيرة تحدث من حولهم دون أن يفهموها . ومن أجل ذلك فهم يقولون : « فلنمش اللحظة الراهنة بتمامها » وما يدعم هذه الفلسفة توفر النقود للكثيرين ، ومرونة القوانين الأخلاقية الراهنة ، وتوفر عقاقير المولسة . ويقزع الكبار من هذه الحال ، ومع ذلك فلا يستطيع المجتمع أن يفيد حرية الشباب .

٥ - وسائل الإعلام : ويرتبط بانتشار العنف تأثير وسائل الإعلام التي تتسم بعدم المسؤولية . ولا يحتاج القاريء الى التذليل على هذا ، شاشة التلفزيون تزخر بمشاهد العنف والسلوك اللا أخلاقي واللا مسئول ، كما أن الصحف تنشر أخبار الجريمة في صفحاتها الأولى .

كذلك فإن معظم الأدوات والمنتجات التي نستخدمها اليوم لم تنتج إلا في آخر دورة من الدورات الثمائية ، أي في حياة الإنسان المعاصر .

ويمثل الدورة الـ ٨٠٠ أي الـ ٦٧ سنة الأخيرة نقطة تحول هامة في كل الخبرات الانسانية السابقة . ويتضح هذا أكثر ما يمكن ، في مجال النمو الاقتصادي . لأنه في هذه الفترة من حياة الإنسان فقدت الزراعة سيادتها باعتبارها أساس الحضارة الانسانية ، حتى أن العاملين في الزراعة في عدد كبير من البلاد أصبحوا يمثلون أقل من ١٥٪ من مجموع القوى العاملة . وفي الولايات المتحدة الأمريكية التي تطعم مزارعها ٢٠٠ مليون أمريكي ، بالإضافة إلى ١٦٠ مليون إنسان في بلاد العالم المختلفة ، تربط هذه النسبة إلى ٦٪ وما زالت تنقص . وفي هذه الدورة أيضاً قامت نسبة كبيرة من العمال الذين يرتدون الياقات الزرقاء ويعملون في المصانع أو في الأعمال اليدوية بخلع هذه الياقات . وقد كاد عدد هؤلاء العمال يفوق عدد العاملين في ما يسمى بمهن أصحاب الياقات البيضاء مثل تجارة الجملة والإدارة والاتصال والبحث والتربية وغير ذلك من المهن . وهكذا نجد أن المجتمع في فترة واحدة وقصيرة من حياة الإنسان تخلص من استبعاد الزراعة كحرفة ثم تخلص من سيطرة العمل اليدوي ، وقد شهدت هذه الفترة مولد اقتصاد الخدمات . لقد ظلت الزراعة تسود الاقتصاد عشرة آلاف سنة ، وسادت الصناعة قرناً أو قرنين من الزمان . أما الآن ، فنحن نشهد مولد عصر جديد ، هو عصر الصناعة الكبرى Super-industrialism أو عصر ما بعد الصناعة .

في الحال حول العالم ^(٤) فما يحدث في بلد تنقله الأقمار الصناعية في ثوان إلى بلاد أخرى . كما أن انتشار وسائل الاتصال وسرعتها وقلة تكاليفها ، وإقبال شباب اليوم على السفر والتنقل بين مختلف البلاد ، يعرضهم لثقافات وعادات وتقاليد وأساليب حياة مختلفة . وأكثر حقائق الثلث الأخير من القرن العشرين وضوحاً هي « التغير » . وهو جامع جارف يضر الجبال ويطوي المحيطات ، ونخطي الظن لو اعتقدنا أننا ستكون بأمن عنه .

فإذا كانت حياة الإنسان في الماضي قد سارت رتيبة بطيئة ، فإن حياته في السنوات الأخيرة قد شهدت تغيراً هائلاً في شتى مجالات الحياة ، مما دعا الاقتصادي كينيث بولدينج إلى أن يعتبر أن القرن العشرين يمثل نقطة تحول في تاريخ البشرية ، بحيث يمكن تقسيم حياة الإنسان إلى ما قبل القرن العشرين وما بعد القرن العشرين . ويوضح ألفن توفلر في كتابه « صدمة المستقبل » ذلك . بتقسيم الخمسين ألف سنة الأخيرة من حياة الإنسان إلى دورات حياة طول كل منها ٦٧ سنة لتصل إلى ٨٠٠ دورة حياة ^(٥) . ويوضح « توفلر » أن ٦٥٠ دورة حياة من هذه الدورات الثمائية دورة قد أمضاها الإنسان في الكهوف . أما أكثر الانجازات الحضارية فقد حدثت في السنوات الأخيرة من حياة الإنسان . ففي السبعين دورة الأخيرة فقط ، أمكن للإنسان أن يتصل بفاعلية من دورة حياة إلى دورة أخرى . ولم يمر الناس أبداً كلمة مطبوعة إلا في الست دورات الأخيرة ، كما أن قياس الزمن بأي قدر من الدقة لم يحدث إلا في الأربع دورات الأخيرة . ولم يستطع أحد في أي مكان من العالم استخدام محرك الكيروي إلا في الدوريتين الأخيرتين .

التغير وعلم المستقبل

الأطفال الذين سيولدون في عام ١٩٧٥ سوف يعيشون في عالم ^(٩) :

- يتطلب باستمرار أن ينمي الأفراد فيه طاقاتهم الى أقصى مدى لهم .

- وأن يخلقوا باستمرار إمكانيات للعمل متعددة ومختلفة وعديدة ، ومن هذه الامكانيات ما لا يوجد اليوم .

- وان يوجدوا فرصاً جديدة وتحديات للنمو الشخصي والاجتماعي من خلال أنشطة أوقات الفراغ . والمغزى المباشر لهذه التنبؤات هو أن الحاجة الى التفكير الابتكاري سوف تكون أكثر مما حدث في أي وقت مضى . إذ أن العالم يتجه الآن الى ما يسمى بمجتمع ما بعد الصناعة والذي نشاهده خاصة في البلاد المتقدمة . ويصف بعض المستقبلين هذا المجتمع ، فيرون أن المورد الأساسي في هذا المجتمع سوف يكون المعرفة ، وأن مركز القوى يتحول الى الجماعات ومراكز البحوث ، وسيكون الأفراد الأكثر أهمية هم العلماء والباحثين ^(١٠) .

وقد حدد مستقبلي آخر ^(١١) . تحول الاهتمام في المجالات الآتية :

- من التجانس الى التباين .

لقد أدى انتشار التغير في شتى مظاهر الحياة ، كما أدى ازدياد سرعته بشكل فائق ، الى التفكير في مستقبل الإنسانية ، وأصبح السؤال الملح هو : كيف سيكون مصير الانسان في المستقبل ؟ ومن ثم أخذ الباحثون والمفكرون يفكرون في الصورة التي ستكون عليها الحياة على هذه الأرض في السنوات القادمة ، فبدأوا يلاحظون اتجاهات الأحداث ، ويحللونها ، ويخططون لها . ومن ثم نشأ علم المستقبل ، وشهدنا بداياته في بحوث العمليات وتحليل النظم ، والتخطيط على المدى الطويل ، ولقد بدأت هذه الجهود في مجالات الدفاع والأعمال والصناعة . وأخذت بعض المنظمات تنبئ إيجاباً تلوياً نحو المستقبل ، فأسست إدارات للتنبؤ والتخطيط ، كما أخذ المخططون يعمقون النظر في المشكلات الاجتماعية والنفسية والسياسية ^(١٢) .

لقد أدت تنبؤات العلماء بالمستقبل الى زيادة الاهتمام بدراسته والتخطيط له . كما أبرزت هذه التنبؤات الحاجة الى تنمية الموهبة والابتكار لكي يحيا الانسان ويستمر في التوافق مع العالم الذي يتغير بمعدل سريع ^(١٣) ويستعرض « توارنس » عدة أمثلة للتنبؤات التي ترد في كتابات المستقبلين ^(١٤) ففي تقرير لكتاب التربية بالولايات المتحدة (وزارة التربية) يتنبأ تري نويل أن

Weber, R.E. Human potential and the year 2000
art I. *Journal of Creative Behavior*, 1973, 7, 2, 133 . 151 .

Torrance, E.P. Creativity and futurism in education :
Retooling. *Education*, 1980, 100, 298-311 .

ibid.
Newell, T. Why career education? In *Career education: The state of the scene*. Washington, D.C.:
Office of career education, United states office of education 1974. Torrance 1980 .

Torrance, 1980 .
Maruyama, M. The post industrial logic. In A.A.
spekies (Ed.) *The next 25 years : Crisis and opportunity*.
Washington, D.C. World Future society, 1975.
Torrance, 1980 .

(٩)

(١٠)

(١١)

(١٢)

(١٣)

(١٤) من المصدر السابق

- تضاعف السكان كل أربعين سنة إذا لم يكن التحكم في معدل الخصوبة .

- قوى عاملة تتميز بالنمط التالي « . . أقلية تعمل بجد في القمة ، وأغلبية زائدة عن العمالة في الوسط ، وأقلية مستعدة في أسفل سلم العمل » .

هذه التغيرات تجعل العالم اليوم يواجه مجموعة من الظروف لم تواجهها أية ثقافة من قبل ، مما يجعل التفكير في المستقبل والتخطيط له قضية أساسية في عصرنا . هذه الظروف هي : (١٣) .

- التعامل مع آراء الحياة دون إفساد الكرة الأرضية .

- التهديد بالابادة النووية .

- قابلية أجهزتنا المعقدة (الانساق ، والنظم) للتخريب .

- التعامل مع التطور بحيث يؤدي الى مجتمع متزن .

- انتاج كميات كبيرة من السموم بدون ضوابط محددة .

- التخلص من فاقد المواد الاشعاعية المتراكمة منذ زمن طويل .

- تكرار المعرفة .

- الكثافة السكانية الفائقة .

وهكذا نجد المستقبل محملاً بمشكلات كثيرة . ومن أجل ذلك يجب أن نفكر فيه ، ونعرف على مشاكله ،

- من التيقن الى عدم التيقن .

- من التنافس الى الاعتماد المتبادل .

- من التنظيم الهرمي الى التفاعل .

- من الاشباع المادي الى الاشباع الثقافي .

- من الفاعلية الى التلوق الجمالي والأخلاقي .

ومن التفكير الذي يقوم على التصنيف الى التفكير في السياق الاجتماعي .

وفي الوقت الذي ينتبأ فيه المستقبلون بهذه الاتجاهات ، وفي الوقت الذي يتعرفون فيه على هذه التحولات في الفكر والسلوك ، فانهم يلاحظون في حياتنا المعاصرة من مظاهر الانهيار والاضطراب الكثير . ولا يحتاج المرء أن يدرك على ذلك « فحق بالنسبة لأولئك الذين لا يفكرون أساساً توجد أدلة عديدة على وجود إنبهار حقيقي وإنبهار في مراحله الأولى . فالأنظمة التي تهتم بالاقتصاد والرفاهية والجريمة والسياسة تظهر عليها كلها علامات التوتر والانحراف . وقد أجريت توقعات وتنبؤات بالإضافة الى ما نجده يحدث الآن ، سواء في مراحله المبكرة أو ما هو حقيقة واضحة . ولنذكر الآن بعضاً من ذلك » (١٤) .

- يقترح وليس هيرمان غمط مستقبلياً للأمة يتميز بـ « غياب الحكومة ، ودولة عسكرية تمثل قمعاً شاملاً للنضال ، والعدوان العابت يتبعه إعادة بناء المجتمع ، وتقييم تدريجي ، وقمع للعدوان مع عود الى توازن القوى السابق » .

- مع افتراض عدم الوصول الى تقدم في استخدام الطاقة النووية للأغراض السلمية في العشرة آلاف يوم القادمة ، فإن هناك احتمالاً بضرورة التخلص من ٤٠٠٠ طن من فاقد المواد الاشعاعية في العام .

- الأنظمة الحالية تبدو غير معدة لتقديم إجابات قابلة للتطبيق .

- فشلت التربية تماماً في أن تعلمنا لكي نتعامل مع أنواع ومقايير التغير في مدى زمني لم نعرفه من قبل .

وهكذا نرى أن القضية الأساسية التي تواجه الإنسان ، سواء فكر في مستقبل الحياة أم لم يفكر فيه ، يمكن أن تلخص في كلمة واحدة هي التغير . ويمكن أن يستجيب الإنسان للتغير بأسلوبين . أما الأسلوب الأول فهو أن يخلق الإنسان حواسه وإدراكه عن التغير ، لا يستمع اليه ، ولا يتم بالظروف الجديدة التي يأتي بها . غير أنه لا يلبث أن يجد نفسه في وسط ما أتى به التغير من ظروف تتنازع وتؤثر عليه ، فلا يلبث أن يقف حيالها عاجزاً لا يعرف ماذا يفعل . وقد يحمل الإنسان الاهتمام بالتغير ، غير أن الجديد الذي يأتي لا يلبث أن يصدمه ويؤثر فيه ، فلا يملك الإنسان الا أن يفعل بالظروف الجديدة ويحاول أن يستجيب لها ، ومن ثم يكون متفاعلاً مستجيباً Reactive للتغير . لكن الإنسان الفعال هو الذي يتم بمستقبل الحياة ويفكر فيه ، ويتوقع ما يمكن أن يأتي به هذا المستقبل ويتنبأ به ومن ثم يسارع الى التخطيط لمواجهته والتأثير فيه محاولاً أن يتفادى ما يمكن أن يكون له من آثار ضارة ، وبإذلاً الجهود لكي تحدث نتائج إيجابية تفيد الحياة والناس . ومن ثم فهناك حاجة شديدة الى مثل هذا الإنسان الفعال Proactive الذي يستجيب مقدماً بإيجابية في إحداث التغير المطلوب وهذا هو الأسلوب الثاني للاستجابة للتغير . وهكذا نجد أن جهود المستقبلين تفيد في : إبطاء سرعة أنواع مختلفة من التغير ، أو إسراع التغير المطلوب ، أو تجنب مستقبل غير مرغوب ، أو خلق

ونحاول فهمها . ومن مبررات التفكير في المستقبل أيضاً ما يلي : (١٤) .

- بعض التغير غير مرغوب فيه .

- بعض التغير يحدث بسرعة هائلة للدرجة أننا لا نستطيع التعامل معه (خاصة التغير الذي يتضاعف بسرعة كبيرة) .

- بعض التغير المرغوب فيه بطيء الحدوث .

- تنقصنا في الوقت الحاضر القدرة على التخطيط على نطاق واسع لبدائل مستقبلية .

- بعض التغير يؤدي الى الاضطراب .

- تمييز بعض الأنظمة بالاستتارة الذاتية وتمنع على التحكم والتنظيم .

- الأنظمة الموجودة تظهر عليها أمارات الانهيار والاجهاد .

- أصبح الأفراد والمجتمعات أكثر اعتماداً على بعضهم البعض .

- تتطلب حلول كثير من المشكلات بالتأكيد تعاوناً بشكل أكثر مما نستطيع تقديمه .

- قد تصبح قدرة الإنسان على التكيف في نهاية الأمر بداية سقوطه (على سبيل المثال) : التكيف لصور عديدة من التكيف للتلوث والافساد .

- نفقرو في الوقت الحاضر الى الوسائل التي تمكن من خلق الثبات الدينامي .

دقائق حتى تحمل وسائل الاتصال لنا خبراً عن شيء جديد . ولقد جعلت هذه التطورات الإنسان يتساءل : ماذا بعد ؟ وماذا نحن فاعلون ؟ كما خلقت عنده مشاعر القلق والضيق من أنه قد لا يستطيع أن يلاحق هذه التغيرات الهائلة . . فلقد أصبح من المعتاد أن نسمع عن « تحدي التغير للإنسان » . ومع ذلك لا يشعر كل فرد بمخطورة هذا التغير الذي يحدث في شتى مجالات الحياة . فهناك الملايين من البشر الذين يسرون في حياتهم كالثائمين والذين يشعرون وكأن شيئاً لم يتغير منذ الثلاثينيات ، أو كأن شيئاً لن يتغير . وهم يحاولون الانسحاب من التغير ، وكأنهم يستطيعون إيقافه بتجاهله . أو كأنهم في انسحابهم إلى حياة هادئة منعزلة يكتسبون مناعة دبلوماسية ضد التغير . ويرى المرء أمثال هؤلاء البشر في كل مكان ، هم أفراد تقدم بهم العمر رغم صغر سنهم يستقبلون من حياتهم ، وان ظلوا يذهبون كل صباح إلى أعمالهم ، ويحاولون تجنب الجديد بأي ثمن ، أفراد عجائز في الخامسة والثلاثين أو الخامسة والأربعين من عمرهم تتورأ أعصابهم من تظاهر الطلاب أو الجنس أو إنتشار الملابس القصيرة ، فيحاولون بكل جهد أن يقتنعوا أنفسهم أن الشباب كان دائماً ثائراً ، وأن ما يحدث اليوم لا يعد مختلفاً عما حدث في الماضي . والمشكلة الأساسية هي أن الكثيرين منهم يشعرون بأن التغير يهددهم فينبذلون كل الجهد لتجاهله (١٦) .

غير أن من العلماء والمفكرين من يرى أن التغير هو حقيقة العصر التي يجب أن نوجه إليها كل اهتمام . ذلك أننا إذا لم ننتبه إلى هذا التغير ، ونحاول أن نفعل شيئاً للتعامل معه ، فسيجرفنا التيار إلى أرض غريبة قد لا نرضى عن وجودنا فيها فنبذل عن قدرتنا على الحياة

مستقبل بديل أفضل ، أو زيادة التحكم في الظروف المستقبلية ، أو وضع علامات التحذير عندما تلوح عوامل التهديد في المستقبل (١٧) .

ومن الطبيعي أن نتصور أن التفكير في المستقبل والتحكم فيه يحتاج إلى عقل غير عادي ، عقل يستطيع أن يتصور سير الأحداث في بدايتها الأولى ، ويتخيل ما يمكن أن يترتب على ما نفعل اليوم من نتائج . ماذا يمكن أن يحدث لو استمر الاسراف في استهلاك الطاقة ؟ ماذا يمكن أن يحدث لو استمر تكاثر السكان بهذا المعدل الكبير ؟ ماذا يمكن أن يحدث لو استمرت كراهيتنا لبعضنا البعض ؟ ماذا يحدث لو استمر التنافس للمريض بين الأفراد حتى لكي ينجح الفرد يجد أنه لا بد أن يدس للأعور ويشي به ، بدلاً من أن يركز على تحسين مهارته وزيادة فاعليته ؟ ماذا يحدث لو استمرت الدول والمنظمات تعتمد على أهل الثقة بدلاً من أهل الخبرة ؟ وهل من سبيل إلى جمع الثقة والخبرة في الفرد الواحد ؟ وكثيرة هي الأسئلة التي تثيرها مشكلات اليوم .

عالم متغير - إلى أين ؟

هكذا نجد أن العالم يتغير بمعدل هائل . في فترة قصيرة من حياة الإنسان حدث كل هذا التحول ، فماذا بعد ذلك ؟ أليس لهذا التغير من نهاية ؟ نخطيء لو تصورنا أن التيار سيقف في مكان ما ، فإن ذلك سيعني نهاية البشرية . فماذا إذن نحن فاعلون ؟

لقد أصبح التغير حقيقة هذا العصر التي فرضت نفسها على إدراك الإنسان . فلا تكاد تمر ساعات بل

(١٥)

Ibid.

(١٦)

Ibid.

الأفكار القديمة والمرجحة صالحة . لذلك سيتوقع الكثير من تلاميذ اليوم الذين لديهم استعداد للإبتكار . فالأخطار التي تهدد بقاء الانسان تتحدانا وتدفعنا الى أن نفكر في أفضل ما يمكن أن يصير اليه الانسان وإلى أن نبحث عن طرق جديدة لمساعدة الأطفال على تحقيق إمكانياتهم الإبتكارية . (ونحن لا نعرف ما يمكن أن يصير اليه الانسان) . ولكن ليس هناك ما يشير إلى أن التطور الانساني يدخل مرحلته الأخيرة . ولأن نموت تفكير الانسان ، ونمو تفكيره الإبتكاري مستمر ، فإن انسان السنينات سيبدو للأجيال القادمة ساذجاً واهقاً ، مثلاً يدلونا الآن إنسان الكهف ،^(١٨) .

الإبتكار والموهبة هما الحل

من حسن حظ الانسان أنه تعلم أن يفكر في المستقبل . ولا يجب أن يدع ذلك إلى الدخسة ، ففكرنا التجارب التي كان يقدم لها الطعام أحياناً ونعنع عنها أحياناً أخرى ، تعلمت أن تقتصد بعضاً من الطعام الذي يقدم لها ثم تحفظه في مكان آمن . لكن الانسان الذي نما ذكؤه نمواً هائلاً ، تفرق فيه على أقرانه من أفراد المملكة الحيوانية ، تعلم ألا يقتصد بما يمتلك اليوم للغد فحسب ، بل تعلم أيضاً أن يفكر مقدماً في ما يمكن أن تصير اليه الحياة في الغد ، فأخذ يرصد ما يحدث في حياته من تغيرات ، ويدرس اتجاهات هذه التغيرات ، ويتصور الطريق التي يمكن أن تسلكها هذه التغيرات في المستقبل ، ثم أخذ يحاول الاحتياط لهذه التغيرات والتأثير فيها .

والبقاء فيها . ولنستمع الى كارل روجرز أحد علماء النفس البارزين ، وهو يوجه أنظارنا الى ما يحدث في عصرنا من تغير ، وإلى ما يمكن أن يترتب عليه من نتائج لو لم نتعامل معه بأسلوب خاص . يقول كارل روجرز :

« في الوقت الذي تتقدم فيه المعرفة سواء كانت بنامة أو مخربة في وثبات وقفزات كبيرة الى عصر ذري هائل ، يبدو أن التكيف الإبتكاري هو الاحتمال الوحيد الذي يمكن الانسان من أن يصبح متمشياً مع التغير المتعدد الجوانب في العالم الذي نعيش فيه ، وفي الوقت الذي تتقدم فيه الاكتشافات العلمية والاختراعات على أساس متوالية هندسية ، يصبح الأفراد السليبيون الذين يخضعون لثقافتهم عاجزين عن التعامل مع القضايا والمشكلات المتزايدة . وما لم يستطع الأفراد والجماعات والأمم أن يتخللوا ، وينتروا ، ويراجعوا بابتكار أساليب تعاملهم مع التغيرات المعقدة فإن النور سينطفئ » ، وما لم يستطع الانسان أن يتأقلم بأساليب جديدة وأصيلة للتكيف مع بيئته بسرعة تماثل سرعة العلم في تغيير بيئته ، فإن ثقافتنا ستضمحل . وسيكون الثمن الذي ندفعه لانتقارنا الى الإبتكار ، ليس فقط سوء تكيف الفرد ، وتوتران الجماعة ، بل أيضاً الإبادة الدولية .^(١٧) .

ولنستمع الى رائد آخر من واد التفكير الإبتكاري هو إيسول تورانس يؤكد على أهمية الإبتكار في مواجهة التغير :

« ان عصر الفضاء يأخذنا الى أماكن لم تعد فيها

Rogers, C.R. Towards a theory of creativity : In P.E. Vernon (Ed.) Creativity. Middlesex, England : Penguin (1970) Books, 1970, pp 137-151 .

Torrance, E.P. Education and the creative potential. Minneapolis, Minnesota: The University of Minnesota Press, 1963, P.3.

الموهبة والابتكار

لكي يستطيع الانسان التفكير في المستقبل ، والتنبؤ بما يمكن أن يحدث فيه ، فانه يحتاج الى عقل غير عادي ، وأساليب في التفكير غير مألوفة يحتاج الى أن يكون مبتكراً وموهوباً .

لكن ما هي الموهبة ؟ وما هو الابتكار ؟

الموهبة

كانت الموهبة موضوع الاهتمام عبر العصور . ويشهد تاريخ الانسان على ما انتجته مواهبه من فن وأدب وعلم . لكن العصر الحديث يتميز بالاهتمام بدراسة الموهبة وفهمها ومحاولة الوصول الى طرق لاكتشافها بشكل مبكر حتى يمكن رعايتها والاهتمام بها . لقد أدى اهتمام علماء النفس بالموهبة الى أن يشعروا بالقلق بالنسبة للمواهب التي تعيش دون أن يلحظها أحد أو يتم برعايتها . لنستمع الى القصة الطريفة التي رواها دونالد ماكنون في كتابه « في البحث عن الفاعلية الانسانية » :

« هناك قصة رواها في البداية مارك توين ، ولو كان والتر فان دايك بنهجهم قد سمعها لكانت من أكثر ما يجب من القصص . كانت هذه القصة عن رجل يبحث عن أعظم جنرال عاش على ظهر الأرض . وعندما أخذ

يسأل : أين يمكن أن يجد مثل هذا الجنرال ، أخبروه بأن الرجل الذي يبحث عنه مات وذهب الى السماء . وعند الأبواب الملؤفة أخبر الرجل القديس بطرس عن طلبه ، وعندئذ أشار القديس بطرس الى روح قريبة منها . لكن الرجل قال عتجاً : « لكن هذا ليس بأعظم الجنرالات قاطبة . اني أعرف هذا الرجل حينما كان يعيش على الأرض ، فقد كان يعمل أسكافياً ، وأنا أعرف ذلك ، أجاب القديس بطرس : « لكنه لو كان قد عمل جنرالاً لكان أعظم الجنرالات جميعاً » (١٩) .

ومغزى هذه القصة هي أن هناك من البشر من يعيش حياته دون أن يحقق ما هو قادر على تحقيقه . وإذا عاش الانسان حياته دون أن يحقق ما يستطيع تحقيقه ، فان الخسارة لن تقتصر عليه وحده وإنما ستكون خسارة لمجتمعه الذي يحتاج الى كل من فيه من مواهب . لذلك كان الاهتمام بالمواهب سمة العصر الحديث ، وسبيل المجتمعات للتقدم والرفي . وقد ترتب على ذلك أن أخذ العلماء يهتمون بدراسة المواهب لفهمها والكشف عنها ورعايتها .

ويعتبر لويس تيرمان الأب لحركة دراسة الطفل الموهوب ، وتعد دراسته لأطفال كلفورنيا الموهوبين والتي تباع فيها نمو هؤلاء الأطفال أساساً هاماً لهذه الحركة (٢٠) . ولقد كان الاعتقاد السائد في العشرينيات من هذا القرن أن الموهبة هي نتاج عوامل تكوينية ، ومن ثم كان يعتقد أنه يمكن الكشف عنها بواسطة اختبارات الذكاء (٢١) . وعلى أساس هذا الاعتقاد

Mackinon, D. W. In Search of human effectiveness, Great Neck, N.Y.: Creative Synergetic Associates, 1978, p.35.

(١٩)

Gowan, J. C. Creativity and gifted child movement. Journal of Creative Behavior, 1978, 12, 1, 1-13.

(٢٠)

Gallagher, J. J. Issues in education for the gifted in A.H. Passow (Ed.) The gifted and the talented : Their education and development: The seventy-eight Yearbook of the National Society for the study of education. Chicago : The University of Chicago Press, 1979, 28-44.

(٢١)

دراساتها عن أن الأطفال الذين يكونون مرتفعين في الابتكار ومنخفضين في الذكاء يمكنهم أن يحصلوا مثل الأطفال الأذكاء جداً^(٢٢) ، كما أن دراسات تورانس المتعددة للابتكار والتي اهتم في بعضها بخصائص الأطفال المبتكرين أدت الى تغيير التصور المحدود للموهبة^(٢٣) . وقد كان للدراسات التي تناولت تأثير الثقافة والبيئة على الشخصية أثر في توجيه الاهتمام الى أبعاد أخرى غير الذكاء لفهم الموهبة ، وإلى النظر إليها باعتبارها ذات أبعاد متعددة وقد أدى هذا الى تبنيها الجو للبحث عن تعريف شامل للموهبة . . وقد ظهر مثل هذا التعريف في تقرير للكونجرس الأمريكي أعده سيني مارلاند الابن الذي كان مفوضاً للتربية . وقد ظهر هذا التعريف في كثير من التشريعات الفيدرالية ، التي تمت الموافقة عليها ، كما أنه يمثل أول اعتراف رسمي على المستوى الفيدرالي بمشكلات تربية الأطفال الموهوبين ، وفيها يل نص هذا التعريف^(٢٤) :

« الأطفال الموهوبون أصحاب المقدرة هم أولئك الذين يتعرف عليهم المتخصصون ، والذين بسبب تميز قدراتهم يستطيعون الوصول الى أداء ممتاز . ويحتاج هؤلاء الأطفال الى برامج تربوية وخدمات خاصة غير

قامت دراسات تيرمان والتي ظهرت في خمسة أجزاء من كتابه دراسة البقرية^(٢٥) لكن المفزى الخطير لهذا الاعتقاد هو أنه ما دامت الموهبة ولادية ، فإن التغيير الذي يطرق عليها يتقدم العمر لن يكون كبيراً ، لأن تدخل البيئة عن طريق تعريض الفرد لخبرات تعليمية ومؤثرات بيئية تهدف الى تنمية مواهبه لن يحدث تغييراً كبيراً في هذه المواهب . بل ان هذا الاعتقاد أدى الى نتائج أخطر تمثلت في الايمان بصحة الفروق التي توجد في المواهب بين الجماعات والشعوب ومن ثم أدى ذلك الى تدعيم حركات اجتماعية مثل حركة التعصب العنصري^(٢٦) .

غير أن جهود الباحثين من أمثال جيلفورد . وجاكسون وجاكسون ، وتورانس ، الذين حاولوا التمييز بين الأذكاء والمبتكرين ، ساعدت على تغيير هذا التصور الضيق للموهبة ، فلقد شجع جيلفورد في خطابه الرئاسي لرابطة علم النفس الأمريكية الباحثين على أن يتخلوا عن الافتراض بأن اختبارات الذكاء مثل تلك التي وضعها تيرمان يمكن أن تسهم في الكشف عن جميع الأطفال الموهوبين^(٢٧) . كما ميز جيلفورد وجاكسون بين الأطفال الأذكاء والأطفال الموهوبين ، وكشفت

Terman, L. M. et al. Genetic studies of genius, Vol. I, Mental and physical traits of a thousand gifted children. Stanford, Calif.: Stanford University Press, 1925.

(٢٢)

Gallagher, 1979.

Gullford, J. P. Creativity. American Psychologist, 1950. 5. 444-454.

(٢٣)

Getzels, J. & Jackson, P. Creativity and Intelligence.

(٢٤)

New York: Wiley, 1962.

(٢٥)

Torrance, E. P. Guiding creative talent. Englewood

Cliffs, N.J.; Prentice Hall, 1962. Torrance, E. P.

(٢٦)

Rewarding creative Behavior. Englewood-Cliffs, N.J. :

Prentice-Hall, 1965.

Marland, S. P. Jr. Education of the gifted and talented.

(٢٧)

Vol. I. Report to the Congress of the United States by the

U.S. Commissioner of Education. Washington, D.C.:

U.S. Government printing office, 1972, P.2

متوسط نسبة ذكائهم هو ١٢٧ ، وهي درجة تؤهلهم للاتضمام الى برامج الموهوبين أكاديميا في معظم الولايات الأمريكية .^(٢٩) وكذلك يرى بياجيه أن الذكاء أساسى بالنسبة للمواهب المختلفة ، فالأطفال الموهوبون يكون لديهم العقل الذى يستطيع أن ينظم الخبرات ويربط بينها^(٣٠) . وبالمثل يرى تورمان أن المواهب الخاصة يجب أن يستلها قدر مرتفع من عامل سيبرمان العام الذى يتميز بالقدرة على تكوين كثير من المفاهيم المجردة ومعالجة هذه المفاهيم وإدراك العلاقات بينها ، ومعنى آخر القدرة على القيام بالتفكير المجرد^(٣١) . ويؤكد تيرمان وجهة نظره بالملاحظات التى أجريت في مدرسة فنون الأداء في مدينة نيويورك والتى أثبتت أن معظم التلاميذ الموهوبين في الموسيقى والدراما والرقص كان تقديرهم عاليا في اختبارات الذكاء العام الأمريكية . لكن هناك من الباحثين من يرى أن الذكاء باعتباره أحد المحكات التى يستند إليها في تحديد الموهبة والابتكار يجب أن يكون فوق المتوسط ، وليس بالضرورة ذكاء غير عادى^(٣٢) . فدرجات الذكاء التى تتعدى المستوى المتوسط لا تكون أساسا سليما لاتخاذ قرارات بالنسبة لمستقبل التلميذ^(٣٣) وإنما يجب أن تؤخذ محكات أخرى في الاعتبار . ويمكن القول ان الذكاء

تلك التى تقدمها المدارس العامة في العادة حتى يستطيع هؤلاء الأطفال تحقيق اسهاماتهم للوطن ولجتمعاتهم . والأطفال الذين يستطيعون الوصول الى أداء عال هم أولئك الذين يثبتون انجازاتهم أو تكون لديهم قدرات ممكنة في أى من المجالات الآتية :

- (أ) القدرة العقلية العامة .
- (ب) استعداد أكاديمي خاص
- (ج) التفكير الابتكاري أو المنتج .
- (د) القدرة على القيادة .
- (هـ) الفنون البصرية وفنون الأداء .
- (و) القدرة الحركية النفسية .

وقد لا يوجد اختلاف كبير على تصور وتحديد الفئات الثلاثة الأولى والفتة الخامسة ، لكن هناك من يصرف النظر عن الفتة السادسة .^(٢٨) ومن الباحثين من يرى أننا في اهتمامنا بتحديد أبعاد جديدة للموهبة أسرفنا في تصور هذه الأبعاد باعتبارها منفصلة عن القدرة العقلية . فأبحاث جتسلز وجاكسون التى سبقت الإشارة إليها ، والتى تحدثت عن المرتفعين في الابتكار المنخفضين في الذكاء ، لم تقم في الواقع بدراسة أفراد منخفضين في الذكاء ، إذ كان هؤلاء الأفراد منخفضين في الذكاء بالنسبة للمجموعات الأخيرة ، حيث كان

Interview with E. Paul Torrance, Educator and Psychologist, U.S. News & World Report, December 51, 1980, 67-68. Gallagher 1979.

(٢٨)

Piaget, J. The origin of intelligence in children (translated by M. Cook.) New York : International University Press, 1952.

(٢٩)

Terman, L.M. The discovery and encouragement of exceptional talent American Psychologist, June 1954, 9, 221-230.

(٣١)

Renzulh, J.S. & Smith, L.H. Developing defeasible programs for the gifted and talented. Journal of Creative Behavior, 1978, 12, 1, 21.

(٣٢)

Wallach, M.A. Tests tell us so little about talent. American Scientist, 1976, 64, 57-63.

(٣٣)

لاستعداداته وقدراته الأصلية . وكما أدى ارتباط كلمة talenton بالتفوق إلى مفهوم الموهبة باعتبارها قدرات واستعدادات عقلية ذات قيمة ، كذلك أدى معناها الأصلي باعتبارها وحدة وزن تستخدم للموازنة إلى اعتبارها قوى وجدانية ودافعية في الفرد . وبهذا المعنى استخدمها تسوشر لتعني الميل والرغبة والشهرة والإرادة . وفي القرن الرابع عشر ، كان الشخص الموهوب يعتبر قويا ومدفوعا بقوة للفعل . ومن ثم ، فإن ماكتون يقبلنا بأن استخدام الموهبة عبر المسنين كان يشير إلى العوامل غير العقلية (الوجدانية والدافعية والدينامية) كما يشير إلى العوامل العقلية (الإدراكية والمعرفية) في الشخصية بالرغم من أن استخدام الكلمة لتشير إلى الحالات الوجدانية والدافعية قد بطل منذ زمن طويل .

وبالرغم من أن اصطلاح الموهبة giftedness قد ارتبط في أوائل القرن العشرين بالقدرة العقلية العالية ، إلا أن دراسات جيلفورد وجيتسلر وباكسون وتورانس ، أوضحت أهمية الابتكار للموهبة ومن الباحثين ، من يشير إلى الطفل الموهوب بمصطلح gifted, creative, talented ، وكذلك صدرت دوريات تحمل هذا العنوان^(٣٦) . وحتى الآن لا يوجد اتفاق على التمييز بين هذه الألفاظ ، لكن الباحثين لا يزالون يحاولون التمييز بين هذه المصطلحات . فمن التعريفات التي قدمت تعريف جوان^(٣٧) الذي يقول

المرتفع ليس الشرط الوحيد للموهبة ، فتحقيق الابتكار يتوقف على توفر الدافعية والمهارات بالإضافة إلى القدرات (الاستعدادات)^(٣٨) .

لقد أسهمت آراء الباحثين ودراساتهم في النظر إلى الموهبة باعتبارها ذات أبعاد متعددة وليست متطابقة مع الذكاء المرتفع . ولقد كان دونالد ماكتون^(٣٩) من أوائل الذين عملوا على توضيح هذا التصور للموهبة . فلقد عمل قبل سدي مارلاند بعقد من الزمان على توضيح الأبعاد المتعددة للموهبة وهو يحدثنا أنه بالرغم من أن الباحث عن مصطلح Talent في مجلة المخلصات السيكولوجية ، في الثلاثينيات كان يحال إلى مصطلح « القدرة العقلية العامة » إلا أن كلمة talent لم يكن ينظر إليها هذه النظرة الضيقة . فكترة استخدام علماء النفس لهذا المصطلح في السنوات الأخيرة ، يكشف عن اعتراف بأن هذا المفهوم يشير إلى شيء أوسع وأعمق من مجرد القدرة والاستعداد مهما كانا متميزين . وكلمة talent التي جاءت من الكلمة الإغريقية talanton تعني في الأصل وحدة وزن وتقود ، وكانت أمثل وحدة وزن تستخدم لأغراض مالية ومعاملات ، ومن ثم فهي شيء ذو قيمة . أما الاستخدام المجازي للكلمة باعتبارها مواهب طبيعية ومنحة من الله للإنسان ، فقد جاء متأخرا نتيجة تحريف في فهم ما ذكر من المواهب . ومن ثم فإن الإشارة إلى اتجبل متى كانت إلى الاستخدام الحكيم للتقود لا إلى التذكير بضرورة رعاية الفرد

Torrance, E.P. The search for satori & creativity.
Great Neck N.Y. : Creative synergetic Associates, 1979.
Mackinnon, D.W., 1978.
Gifted/Creative/Talented/Children.
Gowan, J.C., 1978.

(٣٤)

(٣٥)

(٣٦) على سبيل المثال دورية :

(٣٧)

والبحث عن الحلول وعمل تخمينات ، أو تكوين فروض عن أوجه النقص ، ثم اختبار هذه الفروض وإعادة اختبارها ، ثم تعديلها ، وإعادة اختبارها إذا تطلب الأمر ، ثم توصيل نتائج هذا كله إلى الآخرين « (٣٩) . وتستلزم قدرات الإنسان الابتكارية عندما يواجه مشكلة ، أو يصادف شيئاً غامضاً أو غير كامل أو غير منسجم . عندئذ يشعر الإنسان بتوتر وعدم ارتياح ، ويحاول أن يتخلص من هذا التوتر بأن يجد حلاً للمشكلة ، التي يواجهها أو يستكمل النقص الذي يصادفه . على أن الطرق وأساليب السلوك المتعارف عليها عادة ما تشغل بالنسبة لكثير من المشكلات ، لذلك يلجأ الإنسان إلى البحث عن حلول جديدة . لكن التوتر لا يزول ، حتى يجتهد الإنسان هذه الحلول ، ويعدلها ، ويعيد اختبارها حتى يتأكد من فاعليتها ، ويوصل ما انتهى إليه من نتائج إلى الناس (٤٠) .

ونستطيع أن نتبين مغزى هذا التصور لعملية الابتكار حين نفكر في المستقبل . وفي ما يمكن أن يقال به من أحداث بناء على مالدنيا اليوم من مؤشرات . فتوقع حدوث ظواهر معينة في المستقبل يحتاج إلى عقل حساس يستطيع أن يتبين بدايات هذه الأحداث في منابعها الصغيرة كذلك فإن التخطيط للمستقبل والتأثير في المستقبل يحتاج إلى عقل مبتكر يستطيع أن يفكر في طرق غير مألوفة وبدائل تنجح في التعامل مع هذا القادم الغريب : المستقبل .

فيه : « الطفل الموهوب gifted هو الطفل الذي يكون لديه الامكانية كي يصبح مبتكراً لفظياً ، أما الطفل المبتكر talented فهو الطفل الذي يكون لديه الامكانية لكي يصبح مبتكراً بطريقة غير لفظية » . ويتضح من هذا التعريف أن الباحث يطابق بين الموهبة والابتكار . فما هو إذن الابتكار ؟

الابتكار - ما هو ؟

توجد عدة مداخل وعدة نظريات في تفسير الابتكار . فهناك النظريات الخاصة للابتكار التي تصدق فقط في مجال معين من مجالاته . وهناك النظريات العامة التي تهتم بتفسير الأسس والعوامل التي توجد في كل عملية ابتكارية بصرف النظر عن نوع النتائج الابتكارية (٣٨) . وإذا كنا بصدد دراسة الصلة بين الابتكار والمستقبل ، فيصبح من الضروري أن نهتم بالنظريات العامة في فهم الابتكار . من هذه النظريات ، تلك التي توصل إليها علم النفس خاصة النظريات التي اهتمت بالابتكار كعملية . process وبهذا المدخل ، فإن سأتناول واحدة من النظريات السيكولوجية ، التي اهتمت بتحليل عملية الابتكار ، وهي نظرية إيل تورانس . يعرف تورانس الابتكار بأنه « العملية التي يصبح فيها الفرد حساساً للمشكلات وأوجه النقص والعجوات في المعرفة والعناصر الناقصة وعدم الانسجام ، وهكذا . ويقوم بتحديد الصموية

Arieti, S. Creativity. New York : Basic Books, 1976, P.14.

(٣٨)

Torrance, E.P. Torrance tests of creative thinking:

(٣٩)

Norms technical manual. Lexington, Mass:

Grinn and Company, 1974, P.8.

ibid.

(٤٠)

الهدف أبداً ، وإنما هم ببساطة يبحثون عن أسلوب آخر لتحقيق الهدف »^(٤٢)

٣ - الأصالة *originality* وتتميز الاستجابة الأصيلة بالجددة ويعدها عن المؤلف . ويصف تورانس الأطفال الذين يأتون بأفكار أصيلة بأنهم « قادرون على أن يتعدوا عن الواضوح والمألوف وعن الطريق المطروق . وهم يرون علاقات ويفكرون في أفكار وحلول مختلفة عن حلول وأفكار زملائهم في المدرسة وعن الحلول والأفكار التي ترد في الكتب المدرسية وكثير من أفكارهم - وليس كلها - ثبتت فائدته . ويعرض هذه الأفكار يذهبون إلى الدهشة برغم صحته »^(٤٣) . والأفكار الأصيلة هي الأفكار النادرة احصائياً .

٤ - التفاصيل *elaboration* : لا يتم عمل بنجاح إلا إذا أمكن تحديد تفاصيله ، وكذلك لا يمكن تنفيذ فكرة ما إلا إذا حددنا أبعادها وتفصيلها . وهكذا يتطلب النجاح في حل المشكلة ابتكارياً أن نحدد تفاصيل الحل ، ونعد خطة لتنفيذه ، لكن درجة التفصيل والتنميط يمكن أن تكون كبيرة إلى الدرجة التي تفرق بها التفاصيل الفرد المبتكر . ولقد كشفت الدراسات أن الشخص الذي يتم بالتفاصيل عادة ما يضحى بأبعاد الطلاقة والمرونة والأصالة . بل أن هناك أدلة على أن الاغراق في بعد التفاصيل يقلل من فاعلية الفرد في عمله . برغم ذلك فإن القدرة على وضع التفاصيل ورسم المخطط وتنفيذها وتقديم الحلول هي قدرة هامة ، ويجب أن يتدرب الفرد عليها^(٤٤) .

لكن ما هي خصائص العقل المبتكر ؟ لقد كشف التحليل العلمي عن عدة خصائص أو مكونات للعقل المبتكر . وقد بنى تورانس مقياسه للابتكار على أساس عدة أبعاد اعتبرها مكونات الابتكار ، وهي :

١ - الطلاقة *fluency* : وهي سهولة إنتاج الأفكار . والشخص الطلق هو الذي يفيض بالابتكار ، بالرغم من أنه قد لا يكون أكثر الأفراد حديثاً ، كما أن بعض أفكاره قد لا تبدو جيدة^(٤٥) وهناك طلاقة لفظية ، تبدو عندما نطلب من الفرد أن يأتيها بمرادفات كلمة ما ، فيأتيها الفرد الطلق بعشرين مرادفاً ، بينما لا يأتيها الفرد غير الطلق إلا بمرادف أو اثنين أو ثلاثة على أكثر تقدير . كما أن هناك طلاقة عملية . تتضح في اختبار الدوائر أو المخطوط المتوازنية من اختبارات تورانس ، حيث يقدم للفرد عدد كبير من الدوائر المتكررة أو الخططين المتوازيين المتكررين ، ويطلب منه أن يرسم أكبر عدد من الأشكال مستخدماً الشكل المتكرر كأساس في رسم كل شكل .

٢ - المرونة *Flexibility* . والفرد المرن هو الذي يكون قادراً على اتباع أساليب مختلفة لعلاج مشكلة ما ، وعلى أن يأخذ أنواع مختلفة من الأفكار . ويعرف تورانس الأفراد الذين يتميزون بالمرونة بأنهم أولئك « الذين إذا فشلت خطة لهم أو طريقة ، فسرعان ما يأتون بطريقة مختلفة . وهو يستخدمون استراتيجيات مختلفة أو مداخل مختلفة في حل المشكلات ، كما أنهم يدركون سريعاً المداخل غير المنتجة دون أن يشركوا

ibid, p. 73.

ibid, p. 73.

ibid, p. 74.

Torrance, E.P., 1979.

(٤١)

(٤٢)

(٤٣)

(٤٤)

واستخدام منظور غير عادي ، وتوسيع الحدود ،
واستخدام الفكاهة والنظر الى المستقبل .

الموهوبون في الولايات المتحدة : نظرة تاريخية

تكشف الدراسة التاريخية للموهوبين في الولايات المتحدة الأمريكية عن حقيقة هامة هي أنه لا سبيل لمجتمع ما كي يتقدم وينمو ، فضلا عن أن يستمر وجوده الا بالاهتمام بالموهوبين ورعايتهم . كذلك تكشف هذه النظرة التاريخية عن أن الذين يعملون في الدرس والبحث والاختراع يجب أن يتحلوا بصفات التواضع ، وأن يعتقدوا دائما أنهم اذا كانوا قد وصلوا الى كشف جديدة وهامة ، فما زال هناك الكثير من الظواهر التي تحتاج الى الكشف والدراسة . ومن ثم يكون على العلماء أنفسهم كما يكون على الدولة نفسها أن يستمروا في نشاط دائم لا يهدأ لفهم الظواهر واكتشاف الجديد فيها . ولن يتحقق ذلك الا اذا كانت رعاية الموهوبين الذين يمكن أن يصلوا الى الكشف والاختراع موضع الاهتمام المستمر . هذه الدروس نتعلمها اذا ما استعرضنا تاريخ الاهتمام بالموهوبين في الولايات المتحدة الأمريكية منذ فترة ما قبل اطلاق القمر الصناعي الروسي (١٨) .

لقد مثل اختراع القنبلة الذرية انجازا علميا

هناك قصص كثيرة عن أفراد اخترعوا شيئا ، أو ذكروا في فكرة عظيمة . ولكنهم لم يجدوا تفاصيل تنفيذ الاختراع أو تلك الفكرة العظيمة ، لكن شخصا آخر اخترع نفس الاختراع أو يفكر في نفس الفكرة العظيمة في وقت لاحق ويصنع تفاصيلها ، ويحصل على المكافأة على انجازه . إذ ليس يمكن أن نخلق أو نخترع شيئا ، أو نصل الى كشف علمي ، أو نفكر في قصة عظيمة ، أو نتج فكرة كبيرة لحل مشكلة مستقبلية ، إذ لكي يكون للفكرة أو الاختراع قيمة يجب أن نحدد تفاصيلها . (١٥) والافراد الذين لديهم هذه القدرة هم « الذين يستطيعون أن يأخذوا فكرة أو عملا ويمدوا تفاصيله . وهم يستطيعون أن يأخذوا فكرة بسيطة ويزخرفوها لكي يجعلوها تبدو ساحرة أو جذابة . كما تكون رسومهم مفصلة تماما ، وهو يستطيعون أن يضعوا خططا أو مشروعات مفصلة ومتكاملة » (١٦) .

على أن تورانس توصل بعد ذلك الى أبعاد أخرى للتفكير الابتكاري ناقشها في كتابه « البحث عن الساتوري والابتكار » (١٧) ، منها الانفتاح ، والوعي بالمشاعر ، ووضع الأفكار في سياق ، والربط والتأليف ، وإثراء الصور وتلوينها ، واستخدام الخيال والاستمتاع به ، والتمييز عن الحركة والصوت ،

ibid, P.65.

Torrance, 1974, P. 74.

Torrance. 1979.

(١٥)

(١٦)

(١٧)

(١٨) اعتماد ل هذا القسم على الدراسة التالية :

Tannenbaum, A.J. Pre-Sputnik to Post-Watergate concern about the gifted. In A.H. Passow (E.D) The gifted and the talented: Their education and development. The seventy-eight yearbook of the National Society for the Study of education. Chicago : The University of Chicago Press, 1979, 5—17.

بأن أخذوا يذيعون في كل أمة على الأرض نجاحهم أخيراً بأن يعملوا أمريكا قوة من الدرجة الثانية»^(٤٩).

وهكذا كان الاختيار واضحاً أمام الأمريكيين ، أما أن يسارعوا إلى الاهتمام بالموهوبين من أفرادهم ، أو أن يتفقهروا إلى زوايا التخلف . وبذلك كان إطلاق القمر الصناعي هو العامل الذي أثار أولى الأمر إلى بذل أكبر الجهود في الاهتمام بالموهوبين ورعايتهم . لكن الحدث الروسي لم يكن هو العامل الوحيد الذي أثار الاهتمام بالموهوبين ، إذ لو لم تكن قد سبقته عوامل أخرى تساعد على هذا الاهتمام وتشجع عليه ، لما أخذت رعاية الموهوبين هذا الشكل الجدى الذي سيكون له أثر كبير فيما بعد . وتوضح هذه العوامل في النقد الذي وجه إلى المجتمع ككل وإلى التربية بوجه خاص نتيجة عدم اهتمامهم بالموهوبين . ففى وقت مبكر من الخمسينيات عبر المربون عن استيائهم من عدم اهتمام الجمهور بالأطفال الموهوبين . وفى عام ١٩٥٠ انتقدت لجنة السياسات التربوية بشدة تجاهل المدارس للأطفال المتأخرين عقلياً مما يؤدي إلى انكماش الطاقات البشرية في مجال العلوم والفنون والمهن .^(٥٠) ويعد عام كشفت لجنة أوهايو للأطفال والشباب عن أن ٢٪ فقط من المدارس في هذه الولاية توجد بها فصول خاصة بالموهوبين ، وأن ٩٪ فقط من هذه المدارس أفاد أنه يوجد به نوع ما من إثراء الفصول المدرسية العادية . وكذلك وجه الأكاديميون النقد للتعليم الابتدائي

وعسكرياً كبيراً في الولايات المتحدة ، مما أدى بالقوات المسلحة إلى أن تعتمد على اختراعات العلماء وابتكاراتهم .^(٥١) ولقد اعتمد الجيش الأمريكي على عدد كبير من العلماء أثناء الحرب العالمية الثانية . وقد لا يوجد طالب واحد من طلاب الجامعات في الولايات المتحدة الأمريكية لم يسمع من أكثر من استاذ من اساتذته أنه كان جندياً في الحرب العالمية الثانية ليجند جيش بلاده في ميدان تخصصه . كذلك تقوم القوات المسلحة الأمريكية بتقديم الكثير من المخصصات المالية للانفاق على البحوث العلمية التي تجري في مجالات مختلفة من المعرفة تهتم القوات المسلحة بنتائج دراستها . ولقد أدى اختراع القنبلة الذرية إلى اعتقاد الأمريكيين بأن بلادهم تحتل مركز الصدارة في ميادين العلم والتكنولوجيا ولذلك توقع الأمريكيون أن يكونوا دائماً المتقدمين في شتى مجالات الحياة . ويعترف الأمريكيون بفداحة الصدمة التي أصابتهم حينما نجحت روسيا في إطلاق القمر الصناعي سبوتنيك ، وذلك أثناء الحرب الباردة التي كانت تقوم بينهم وبين روسيا . ولم يكن إطلاق القمر الصناعي مجرد انجاز علمي تكنولوجي وعمل بطولي يعمل على خفض الروح المعنوية للأمريكيين ، وإنما كانت له تطبيقاته العسكرية . وكما يقول أحد الباحثين الأمريكيين « ولجأة أصبحت مكانة الأمة ووجودها في خطر ، لأن عقول العدو الكبيرة قد فاقت عقول علمائنا ، وقد استثمر الروس هذه الضربة

Ibid.

(٤٩)

Ibid.

(٥٠)

Educational Policies Commission. *Education for the gifted*.
Washington, D.C. National Education Association, 1950.

(٥١)

وزاد الأمر سوءا فتوقع أن يزداد النقص في هذه المجالات في أواخر الخمسينيات إلا إذا نجحت المدارس في تشجيع التلاميذ الموهوبين على الاستمرار في الدراسة في المستويات العليا . وترجع هذه الظاهرة التي تدعو إلى الانزعاج إلى حرص المدارس على التعامل مع متوسطي القدرة . وليس مع الممتازين ، إذ كان المدرسون يهيئون للعمل مع التلاميذ المتوسطين أو مع الأقل من المتوسطين ، وكان من نتيجة ذلك أن أصبح التلاميذ ذوو القدرات العالية موضع التجاهل (٥٥) .

وقد كانت جهود العلماء من العوامل الهامة التي ساهمت في إثارة الاهتمام بالموهوبين في وقت مبكر من الخمسينيات . فقد ألقي جيلفورد خطابه الرئاسي في مؤتمر رابطة علم النفس الأمريكية السنوي والذي عقد في كلية ولاية بنسلفانيا في ٥ سبتمبر ١٩٥٠ (٥٦) وكان موضوع هذا الخطاب : « الابتكار » . وقد بدأ جيلفورد خطابه بقوله : « أتي أناقش موضوع الابتكار بتردد كبير ، لأنه يمثل مجالا خشى علماء النفس - سواء كانوا ملائكة أو غير ذلك - أن يدخلوه » وأشار جيلفورد إلى تجاهل علماء النفس المروع للابتكار . وأنه لم يتحقق من مدى هذا التجاهل إلا في وقت متأخر . ولكني يحصل على تصور واقعي لمدى تجاهل علماء النفس للابتكار ،

والتعليم الثانوي (٥٧) . ففي عام ١٩٥٣ نشر بستانور اتهامًا صارخًا للتعليم العام للممارسة نوعا خاصا من الخداع للأطفال أمريكا (٥٨) . وقد كان يستور مقتنعا بأن المدارس تقدم غذاء عقليا أو تشجيعا على التفكير ضعيف القيمة خاصة للموهوبين الذين يأخذون في عدّ الأيام حتى يغلصهم التخرج من الملل الذي يجيم على حياتهم المدرسية . أما سبب ذلك فقد كان وضع السلطة في أيدي التربويين الذين لا يعرفون شيئا .

كذلك كان قادة السياسة والاقتصاد يشعرون بالقلق بسبب انخفاض رصيد أمريكا من القوى البشرية ذات المستوى المرتفع في العلوم والتكنولوجيا ، ومن ثم فقد أخذوا يشجعون على الاهتمام بزيادة رصيد الأمة من المواهب البشرية . وعلى سبيل المثال أكد ولغر رئيس لجنة المصادر الانسانية والتدريب المتقدم أن الولايات المتحدة الأمريكية فشلت في أن تعد عددا كافيا من الرجال والنساء في مجالات العلوم الطبيعية والصحة والتعليم والهندسة (٥٩) . فخرىجو المدارس الثانوية الذين كانوا يلتحقون بالجامعات ليحصلوا على دبلوماتها كانوا يمثلون ستة من عشرة طلاب في أعمل ٥٪ ونصف أعلى ٢٥٪ من المتخرجين . أما في ميدان الدراسات العليا فقد حصل على درجة الدكتوراه ٣٪ فقط من الأفراد الذين لديهم القدرة للحصول على مثل هذه الدرجة .

(٥٦) Ohio Commission on Children and Youth. *The status of the gifted in Ohio*. Columbus, Ohio: department of Education. 1951.

Bestor. A. E. *Educational wastelands*. Urbana, Illinois: University of Illinois Press, 1953.

Wolfe, D. *Americas resources of specialized talents*. New York : Harper & Row, 1954.
Tannenbaum, 1979.

Guilford, J. P. *Creativity*. *American Psychologist*, 1950, 5, 444-454.

(٥٧) من المصدر السابق

(٥٨) من المصدر السابق

(٥٩) ١٠٤١

العام هو الابتكار . وقد كان ذلك موضع ترحيب كبير ، مثل ترحيبنا اليوم باكتشاف مصدر جديد للطاقة ^(٥٦) . وبالرغم من تحذير المتخصصين ودراساتهم ، وبالرغم مما كان يتواتر من أخبار عن جهود روسيا في بناء رصيدها من المواهب ، إلا أنه لم يكن هناك عمل جاد في المدارس الأمريكية حتى أطلقت روسيا القمر الصناعي سيوتنيك . في ذلك الوقت بدأ النقاش يزداد والبحوث العلمية تكثر ، مما أدى إلى تغييرات جذرية في التعليم العام . فلقد اقنع الأمريكيون أن الروس قد سبقوهم في تكنولوجيا الفضاء لأهم (أي الأمريكيين) لم تكن لديهم القوى العاملة التي تميل على تقدم العلم . لذلك اهتم الأمريكيون بالتعليم السوفيتي الذي يؤدي إلى إنتاج العلماء وقارنوا بينه وبين التعليم الأمريكي . وعلى سبيل المثال ورد في أحد التقارير أن التلميذ قبل أن يتخرج من المدرسة الثانوية في روسيا يكون عليه أن ينجز خمس سنوات من الدراسة في علوم الطبيعة والبيولوجيا واللغة الأجنبية ، وأربع سنوات في الكيمياء ، وستة في الفلك ، وعشر سنوات في الرياضيات . وبالمقارنة بهذه المتطلبات تحقق المربون الأمريكيون من أن تلاميذهم دون هذا المستوى العلمي بكثير . وأسوأ من هذا ، فإن عدد التلاميذ الأمريكيين الذين حصلوا على درجات جامعية في العلوم ، وانتظموا في مهنة ترتبط بالعلوم كانوا أقل من زملائهم الروس بكثير ^(٥٧) .

قام جيلفورد بفحص مجلدات مجلة الملاحظات السيكولوجية منذ نشأتها . وقد وجد أنه من بين ١٢١٠٠٠ عنوان تقريباً في هذه المجلة صدرت في الثلاثة والعشرين عاماً الماضية ، كان هناك ١٨٦ عنواناً لدراسات لها صلة بموضوع الابتكار . وبذلك تمثل الكتابات التي اهتمت بهذا الموضوع الحوي أقل من ٢ ٪ من الكتب والمقالات المذكورة في مجلة الملاحظات السيكولوجية . وحتى ذلك الوقت كان الافتراض السائد أن الطفل الموهوب هو الطفل شديد الذكاء ، وأن اختبارات الذكاء التي طورها تيرمان تمكنت من أن تحدد الأطفال الموهوبين . غير أن الأفكار التي عرضها جيلفورد في خطابه وفروجه في « بناء العقل » جعل الدارسين يتحققون من أن هناك استعدادات أخرى غير الذكاء العام يمكن أن تستخدم لاكتشاف الموهوبين من الأطفال ، ومن بين هذه الاستعدادات التفكير الانفرادي *divergent thinking* . وقد توصلت جهود جيلفورد وزملائه إلى أنه يمكن قياس الابتكار ، كما استطاعوا وضع الاختبارات التي تكشف عنه . وقد طور جيتسل وجاكسون هذه الأفكار حين قاما بدراسة العلاقة بين الذكاء والابتكار ^(٥٨) . كما قام تورانس بدراسة المشكلة في وقت لاحق ^(٥٩) . وقد برهنت هذه الدراسات على أنه يوجد مصدر آخر للموهبة غير الذكاء

Getzels, J. W. & Jackson, P. W. *Creativity and Intelligence*, New York John Wiley, 1962.
Torrance, E. P. 1962.
Tannenbaum, 1979.
Soviet commitment to education. Report of the first U.S. Educational Mission to the USSR, Bulletin 1959, No. 16, office of education, U.S. Department of Health, Education, and Welfare.
Washington, D.C., U.S. Government Printing Office, 1959.

(٥٧)

(٥٨)

(٥٩)

(٦٠)

وبالإضافة الى وفرة الأنشطة والبرامج الخاصة التي بدأت في الخمسينيات وبداية الستينيات فقد كانت هناك طفرة في البحوث العلمية التي تهتم بخصائص الموهوبين وتربيتهم . ولقد ركزت البحوث في ذلك الوقت على موضوعات مثل مدى فاعلية بعض الخطط الادارية لمعاملة الموهوبين ، المكانة الاجتماعية للموهوبين في المدرسة وأثرها على دوافعهم للتعليم ، أسباب وعلاج التأخر الدراسي عند التلاميذ ذوي الموهبة العالية ، دوافع الانجاز وغيرها من العوامل غير العقلية في التعليم ذي المستوى العالي ، والعوامل النفسية والاجتماعية المرتبطة بعمليات التفكير الاقترافي . وقد غمرت الدوريات العلمية بالبحوث والمناقدة بتوفير امكانيات خاصة للموهوبين مما زاد من الكتابات المتخصصة عن الموهوبين حتى أن أحد الكتاب زعم بأنه كان هناك من المقالات التي نشرت في الفترة ما بين ١٩٥٦ وحتى ١٩٥٩ أكثر مما كان في الثلاثين سنة الماضية (١١) .

في هذه الفترة اهتمت المدارس بتأكيد المعايير الأكاديمية العالية والتقدم الأكاديمي والتفكير في المستقبل المهني . وأصبح الطفل الموهوب لا يترك اطلاقاً في أن يترك المقررات الجادة ويدرس المقررات ذات المطالب المحدودة . فلم يكن ذلك هو الزمن الذي يتصرف فيه الشباب على هواه أو لا يعمل شيئاً على الإطلاق . وإنما نشأ الشباب في وقت تشغل فيه المواهب ، حيث يطلب من أكثر العقول أن يحققوا امكانياتهم ويضعوا قدراتهم النامية في سبيل خدمة الأمة .

في ذلك الوقت كان على الأمريكيين أن يسارعوا الى بناء الطاقة البشرية ذات المستوى العالي « أو أن يخطروا برؤية حالة من الطوارئ القومية تنقلب الى كارثة قومية » . في ذلك الوقت بدأ المختصون يعترفون بأنه يجب أن يحدث كثير من الاصلاحات . فبالواقع أن الانتقادات كانت توجه الى التعليم الأمريكي باستمرار ، ومن ثم كان رد الفعل لاطلاق سبوتنيك سريعاً وقويًا ، ونتيجة لهذا المناخ سارع المربون الى الاهتمام بالموهوبين ، ومن ثم تولفت الاعتمادات المالية من الدولة والمبات المالية من الأفراد للمساعدة على اكتشاف الموهوبين والعمل على توفير الامتياز في القوى البشرية . وقد أعيد تخطيط المقررات الأكاديمية بحيث أصبحت أكثر عمقاً وشمولاً حتى يمكن اختبار القدرات العقلية للموهوبين ، كما أن بعض المقررات التي كانت تقدم على المستوى الجامعي ، أخذت تقدم كبرامج لتنمية الموهبة على مستوى المدارس الثانوية والابتدائية . وبالرغم من أنه لا يمكن التأكد من عدد المدارس التي كانت تقدم برامج خاصة للموهوبين ، وبالرغم من أن بعض البرامج التي كانت تقدم لهم لم تستمر طويلاً ، الا أن بعض البرامج التي بدأت كبرامج اثنائية للموهوبين فقط ، استمرت بعد ذلك وأدت الى تغيير المنهج الدراسي للتلاميذ جميعاً . وكثيراً ما يدرس الآن في الرياضيات والعلوم هو في الواقع ميراث فترة ما بعد اطلاق سبوتنيك من البرامج التربوية التي صممت للموهوبين .

French, J.L. (Ed) *Educating the gifted*. New York :

Henry Holt, 1959. Tannenbaum.

(١١)
من العصر السابق .

المجتمع . فالدراسات التي أجريت تكشف أنه كان من السهل في ذلك الوقت أن يكتسب التلميذ مكانة بين زملائه إذا كان بطلاً في الرياضة البدنية أكثر مما لو كان في قائمة الشرف . ولكن سنوات حكم كيندي كانت تقدم أملاً في الحصول على مدعمات اجتماعية واقتصادية لأولئك الذين يريدون تنمية قدراتهم العقلية الممتازة (٦٦) .

وقد كانت روح العصر في حكم كيندي ترجع من كفة العلوم . فقد كان هناك شعور بأن العالم يستطيع أن يخدم الأمة أفضل مما يستطيع الشاعر وقد كشفت خطط الأطفال الموهوبين في الخمسينيات وأوائل الستينيات عن أن الطلاب شديدي الذكاء تخصصوا في العلوم ، وكثير منهم كان يخطط للتخصص في التكنولوجيا التي تُخدم أهداف الدفاع (٦٧) .

ومع ذلك فإن الاهتمام برعاية الموهوبين والجهود التي بذلت من أجلهم لم تخل من بعض المثالب . فلم يكن التهديد الروسي الذي تمثل في إطلاقي سيوتنيك ، ولم يكن الحماس الذي ساد في عصر كيندي ، كافيين للاستمرار في رعاية الموهوبين في المدارس . ويبدو أن عصر كيندي لم ينجح في إرساء دعائم الفلسفة التي تؤكد الاهتمام بالامتنياز في القوى البشرية والبحث عن هذا الامتنياز وبذل الجهود من أجل تنميته . فقد اعتبر آراء المنهج الدراسي بمثابة حلي يسارع المربون إلى التخلص منها حين تزداد تكاليفها . كذلك فإن كثيراً من الطلاب الذين عمل المرشدون في المدارس الثانوية على توجيههم إلى التخصص في مجالات العلوم غيروا تخصصاتهم حينما

الستينيات وعصر جون كيندي

بدأت الستينيات بانتخاب جون كيندي رئيساً للولايات المتحدة الأمريكية . وقد صاحبت انتخاب كيندي أحلام ووعود بتحقيق دولة مثالية حديثة . ولقد أكد كيندي في خطبه وتصريحاته أن العقل والاخلاص للدولة هي أهم رصدين للأمة . كما أعلن إصراره على أن يرسل انساناً ليهبط على القمر في عام ١٩٧٠ ، وكان ذلك يعني قبول تحدي روسيا للنزول في استكشاف الفضاء . وأعلن أنه سيجند لذلك أبرز العلماء لكي يعملوا على تحقيق ذلك . وكان هذا يعني تشجيع أقدر التلاميذ على أن يدرسوا العلوم حيث يقدم لهم أفضل البرامج الخاصة ، إذ كان المتوقع أن يخرج من بين هؤلاء التلاميذ الموهوبين مجموعة من العلماء الذين يعملون على تحقيق تصميم الرئيس .

ومن الأمثلة التي تكشف عن اهتمام جون كيندي بالموهوبين أنه جمع أفضل عقول أمريكا كي يعملوا مستشارين له . وكان بعض هؤلاء قد اكتسب شهرة كأساتذة في الجامعات أوقادة في مجالات الصناعة . وكان كل منهم يمثل تمثيلاً عقلياً وحساساً لمعالجة أكثر مشكلات الدولة صعوبة . وقد برهنت هذه السياسة على أنه أصبح أمام الأطفال الموهوبين نموذجاً يتمثل في هؤلاء المستشارين الذين كانوا بدورهم أطفالاً موهوبين والذين اكتسبوا نتيجة لمهبتهم الشهرة والقوة المرتبطتين بالمراكز التي كانوا يشغلونها .

ومع ذلك فلا يجب أن نتسرع فنستنتج من ذلك أن العقل الموهوب قد وجد أخيراً مكانه اللائق به في

Tannebaum, 1979.

ibid.

(٦٦)

(٦٧)

والاهتمام بالمحرومين اجتماعيا . وقد أدت هذه الحركات الى تركيز الهجوم على اختبارات الذكاء باعتبارها الأساس الذى يحدد ما اذا كان الطفل موهوبا . كما وجه النقد أيضا الى جمع التلاميذ في فصول الموهوبين على أساس هذه الاختبارات . فقد اعتبرت هذه الاختبارات من عوامل التمييز العنصرى ، لأن أفراد الأقليات لم يكونوا يحسنون الأداء على هذه الاختبارات لاعتمادها الكبير على اللغة وثقافة البيض . ومن ثم فإن حصول أطفال البيض على درجات عالية في هذه الاختبارات كان يعطى الانطباع بأنهم أكثر ذكاء من أقرانهم من الأقليات .^(٦٥) وكان ذلك من العوامل التى ساهمت في تقهقر الاهتمام بالموهوبين في أواخر الستينيات ، لكن هذا الاهتمام برز من جديد ، وبشكل أقوى في السبعينيات . ففي عام ١٩٧٠ .

أضاف الكونجرس تعديلات لقانون التعليم الابتدائي والثانوي يتيح توفير امكانيات للموهوبين ، وقد كان ذلك تعبيراً عن اهتمام المشرعين بالموهوبين ، وفى عام ١٩٧٤ أسس مكتب الموهوبين في وزارة التربية الأمريكية ، كما خصص ٥٦ مليون دولار لابتكار برامج لرعاية الموهوبين . وأعيد تخصيص ميزانيات لهذا الغرض في عام ١٩٧٧ . وفى حين أنه في عام ١٩٧٣ كان ٤٪ فقط من الموهوبين يحصلون على نوع من الاهتمام في مدارسهم الا انه يمكن القول بأن كل مدرسة وكل ولاية تظهر الآن اهتماما بالموهوبين . وبالرغم من أن تراث الستينيات وما اتسم به من تحول الاهتمام بعيدا عن الموهوبين كان ثقيلًا ، إلا أن الرغبة في السعى الى

وصلوا الى الفرقة الثالثة في دراستهم الجامعية ، كما أنه لم تبدل جهود كبيرة للاهتمام بالتلاميذ الموهوبين في المجالات غير الأكاديمية كالفنون والميكانيكا وقيادة الجماعات . كما أن الجهود العلمية التى بذلت في دراسة وقياس التفكير الانترافى الانتاجى ظلت حبيسة معامل البحوث . وقد اتجه قليل من الجهود الى ابتكار وسائل لتنمية هذا النوع من الأداء العقلي وترجمته الى مناهج دراسية . وأخيرا فإن البرامج القوسية للبحث عن المواهب فشلت في أن تصل الى الأقليات المحرومة اجتماعيا ، والى كان أداؤها أقل من المستوى القومى ، إذ كان من الصعب الوصول الى هؤلاء الطلاب الموهوبين لأن بيتانهم لم تكن تقدم لهم التشجيع الكافى الذى يمكن مواهبهم من الظهور .^(٦٦)

عوامل مضادة

كان النضال لالغاء التمييز العنصرى من العوامل الهامة التى أثرت في الاهتمام بالموهوبين ، فلقد قررت المحكمة العليا في الولايات المتحدة الغاء التمييز العنصرى في المدارس العامة في عام ١٩٥٦ ، تحقيقا للديمقراطية ، ومن ثم برز الاهتمام بتحديث الدستور وخاصة قانون الحقوق المدنية ، لتحقيق هذا الهدف . وبطبيعة الحال ركز الاهتمام على التربية . لكن الدوافع الى هذا الاهتمام لم يكن في هذه المرة اكتشاف المواهب وتنميتها ، بل كان تحقيق العدالة الاجتماعية ،

وكان مخترعوننا كثيرون الإنتاج . وأجريت تغييرات هامة في المناهج والكتب المدرسية . كما كان المناخ القوي للابتكار يتحسن . لكن يبدو الآن أن هذه الاتجاهات تنقلب رأساً على عقب . ففي عام ١٩٧٩ هبطت براءات الاختراع التي صدرت لمواطني الولايات المتحدة إلى أدنى مستوى خلال خمسة عشر عاماً . كما ارتفع العجز في ميزاننا التجاري إلى ٢٨ مليون دولار في عام ١٩٧٨ ، ويتوقع أن يزداد هذا العجز في عام ١٩٧٩ ، كما يتوقع أن يستمر هبوط انتاجنا للبضائع ، وهذا يشير إلى أن لدينا مشكلة قومية في انخفاض الانجاز تشبه مشكلة الانجاز المنخفض الذي أثار اهتمام المعلمين بتربية الطلاب الموهوبين وللمتازين لعدة سنوات .

ولقد أوضح تورانس في دراسته كيف أن اليابان قد تفوقت على الولايات المتحدة وغيرها من الدول المتقدمة في مظاهر عديدة من الحياة ، حتى أصبحت تسمى « اليابان باعتبارها الدولة رقم ١ : دروس لأمريكا » وهو عنوان أحد الكتب التي صدرت عن اليابان وطبعته مطبعة جامعة هارفارد في عام ١٩٧٩ (٦٨) . وقد كتب تورانس دراسته هذه بعد أن عاد من زيارة علمية لليابان استغرقت ثلاثة شهور في بداية عام ١٩٧٩ ، ولي هذه الزيارة درس تورانس العوامل التي أدت باليابان إلى التفوق في كثير من المجالات . وما يمكن أن نستخلصه من دراساته هو : إنهم في اليابان يدعمون الابتكار في شتى مظاهر الحياة إلى أبعد حد ممكن ، كما أنهم يدعمون المثابرة على العمل وبذل الجهد .

تحقيق الامتياز في تنمية المواهب عاد من جديد في السبعينيات (٦٦) .

يتضح من الاستعراض السابق أنه يوجد عدة عوامل ساهمت في جعل الاهتمام باكتشاف المواهب وتنميتها جزءاً أساسياً من عمل التربية :

١ - جهود العلماء في التنبيه إلى أهمية المواهب واكتشافها وتنميتها ابتداء من دراسات تيرمان حتى جهود جيلفورد وتورانس وغيرهم ، وقيامهم بالدراسات والبحوث التي ألقت كثيراً من الضوء على طبيعة الموهبة وساعدت في الكشف عنها وابتكار برامج لتنميتها .

٢ - التناقص بين أمريكا وروسيا ونجاح روسيا في إطلاق القمر الصناعي مما أشعر الأمريكيين بتخلفهم علمياً وتكنولوجياً .

ولقد أصبح نجاح روسيا في إطلاق القمر الصناعي عام ١٩٥٦ درساً من الصعب أن ينسى . فالفكرون يأخذون على عاتقهم اليوم بأن يعملوا على زيادة وعي المجتمع الأمريكي بما يحدث فيه . وما هو واحد من العلماء المؤثرين الذين أسهموا في الدراسة العلمية للموهوبين وابتكار البرامج لتنميتهم يكتب في عام ١٩٧٩ (٦٧) .

« كانت الولايات المتحدة في الستينيات تبدو في مقدمة العالم في ميدان الابتكار ، وكان علماءنا يقومون بانجازات هامة . فقد هبطنا على القمر الصناعي ،

Ibid.

Torrance, E.P. Lessons about giftedness and creativity from a nation of 115 million overachievers. Gifted Child Quarterly, 1980, 24 (1), 10-74.

ظهرت ترجمة هذا المقال لعدم كماله في اللغة العربية ، ١٩٨١ ، (٦) A ، ١٢٣ - ١٧٧٤ .

Vogel, E.F. Japan as No. 1: Lessons for America. Cambridge: M.A.: Harvard University Press, 1979.

(٦٨)

التربية والمهوية والمستقبل

التربية ، بكل مؤسساتها سواء في ذلك المدرسة أو الأسرة أو غيرها من مؤسسات المجتمع .

د - أن نقطة الانطلاق في التربية التي تستجيب للتغير هي أن يكون لدى المجتمع والأفراد صور قوية وإيجابية للمستقبل ، سواء كان مستقبلا للفرد أو مستقبلا للمجتمع ، فالستقيليون يثيروننا بأن المجتمعات التي كان لديها صورة ضعيفة عن المستقبل انقضت ، أما المجتمعات التي نمت وازدهرت فهي التي كان لها صور قوية وحية عن المستقبل . وفي التنبؤ بسلوك الفرد ، تنضج أهمية تصوره للمستقبل إذ يبدو أن تصور المستقبل يحدد إلى حد كبير الأشياء التي سيكون الفرد مدفوعا إلى تعلمها وإنجازها ، وكيف سيحبس ويتكيف ويتعامل مع المجتمع الذي يتغير بدرجة كبيرة ^(٧١) .

وحين تبرز في مجتمع ما ظواهر سلبية ، تشير أصابع الاتهام عادة إلى التربية ولقد شاهدنا كيف تركز الهجوم على المدارس في أمريكا حين أشار إطلاق القمر الصناعي الروسي إلى تحلف الولايات المتحدة في ميادين العلم والتكنولوجيا . والواقع أن التربية هي انعكاس لما يحدث في المجتمع . فإذا كان المجتمع يدعم الابتكار والاختراع فسهم التربية بتنشئة التلاميذ لكي يكونوا مبتكرين ومخترعين ، وإذا كان المجتمع يدعم التقليد والمادة والعرف ، فسعمل المدارس على تدعيم ذلك . لكن التربية لا تقوم بها المدارس فقط . فالمؤسسة الأولى للتربية هي الأسرة . وكل مؤسسات المجتمع وقطاعاته التي تتعامل مع أفرادها في شتى مراحل حياتها لها دور في تربية أفرادها . وكل دراسة لدور التربية في المجتمع يجب أن تأخذ اسهام كل مؤسسات التربية في الاعتبار ، غير أن الاهتمام كان دائما منصبا على دور المدرسة ، فالمدرسة هي المؤسسة التي تديرها الدولة لتنشئة أفراد المجتمع . والسؤال الآن هو : ماذا فعلت المدرسة لتنمية المواهب ؟

الحقيقة التي لا يجب أن تغيب عن ذهن أي مجتمع هي أن معدل التغير أصبح سريعا في عدد من المجتمعات ، وأن المجتمعات تتسابق في التقدم نحو التحكم في الحياة وما فيها ، ونحو تنمية طاقاتها وخاصة البشرية . والمجتمعات التي يكون فيها معدل التغير بطيئا ، لا تنف منزعجة من هذا المناخ . بل إنه حتى في المجتمعات المتقدمة يشاهد الشباب ما يحدث في هذه المجتمعات من تغيرات وما يوجد فيها من تنظيمات ويعلمون أدوارا إيجابية ، ويتخذون مواقف بازاء هذه التغيرات . وثورات الشباب في أمريكا على حرب فيتنام ، ولي فرنسا وغيرها من البلاد المتقدمة ليست بعيدة عن البلدان ، ولقد ثار الشباب حتى على أساتذتهم ، وحرقوا ملفات بحوث أحد أساتذة جامعة كولومبيا ، محاولين أن يبرزوا أن عبقرية الأستاذ كان يمكن أن تستغل بشكل أفضل من العمل في البحوث العميقة التي يقوم بها والتي لم توصلهم إلى المجتمع العليل الذي ينشدونه ^(٧٢) . والدرس الذي يمكن أن نتعلمه من ثورات الشباب ومن الحروب ومن تقدم بعض المجتمعات أو تأخر بعضها هو أنه لا خيار أمام أي مجتمع بازاء التغير ، إذ لا بد لأي مجتمع من أن يمي ما يحدث فيه ولحقا حوله من تغير ، وأن يرصد هذا التغير ، وما يمكن أن نستخلصه من كل ذلك هو :

١ - أن التغير هو حقيقة العصر . وأنه يحدث سواء أردنا أو لم نرد .

ب - من الأفضل أن ندرس هذا التغير ، وننتبه به ، ونحاول الاستجابة له بشكل يحقق فاعلية الانسان والمجتمع وتكاملهما .

ج - أن نقطة البداية في الاستجابة للتغير هي

Tannenbaum, 1979.

Toffler, A. (Ed.) Learning for tomorrow: The role of the future in education. New York: Vantage Books, 1974.

(٧١)

(٧٢)

دور التربية في تنمية الموهبة في الولايات المتحدة

كان من نتيجة اطلاق روميا للقمر الصناعي ، وشعور امريكا بتخلفها في ميدان العلم والتكنولوجيا ، والنقد الذي وجه الى المدارس ، والبحث عن بدائل لأساليب التربية القائمة ، أن حدثت في الستينيات ثورة في التربية ، أخذت ثمارها تظهر في السبعينيات وقد اشتملت هذه الثورة على الجوانب الآتية (٧١) :

١ - حدثت تغيرات أساسية في أهداف التربية . وتكشف دراسة أهداف تدريس المواد الاجتماعية عن أنه لم يكن ثمة اهتمام بتنمية أي نوع من مهارات التفكير . فطلاب الدراسات العليا والباحثون الذين كانوا يريدون دراسة أساليب حل المشكلات والتفكير الابتكاري لدى التلاميذ قلما كانوا يجدون مثل هذا السلوك لكن الاهتمام بالتفكير الابتكاري أخذ يزداد بعد ذلك ، وعلى سبيل المثال قام تورانس بمراجعة ١٤٢ دراسة تجريبية صممت لتيسير التفكير الابتكاري في المدارس الابتدائية والثانوية وتكشف هذه الدراسات عن اهتمام المربين والباحثين بابتكار أساليب لتنمية التفكير الابتكاري . وقد كشفت مناقشة تورانس لهذه الدراسات عن أنه يمكن تدريس مهارات حل المشكلات الابتكاري ، وأنه حيث يتدرب التلاميذ على هذه الأساليب ويأرسلونها فإنهم يكتسبون هذه المهارات ، ويصبح في إمكانهم إنتاج حلول ابتكارية للمشكلات . ويشير تورانس الى دراسات أجريت في

الستينيات تكشف أن المدرسين لم يكونوا يدعمون أو يشطون أساليب السلوك والظروف البيئية التي تؤدي الى تنمية السلوك الابتكاري . لكن دراسة أجريت بعد ١٥ سنة أي في عام ١٩٧٥ تكشف أن ٩٩٪ من ٤٠٨ مدرس في خمس مدن كبيرة كانوا يرون أن نشاط الفصول يجب أن يخصص لتدريس التفكير الابتكاري وحل المشكلات ، وأن ٨٧٪ منهم رأوا أن تدريس الابتكار وحل المشكلات يجب أن يتم من خلال المجالات المنهجية العادية (٧٢) .

٢ - حدثت تغييرات هامة في أساليب التدريس وفي علاقة المعلم بالتلاميذ . فقد انتشرت في الستينيات حركة تعديل السلوك Behavior Modification وعُني المعلمون بالتفكير الابتكاري أن تؤدي هذه الحركة الى أن تبني المدارس الأساليب التي تمكن المدرسين من التحكم في سلوك التلاميذ عما يتعارض مع الجهود التي تهدف الى تنمية السلوك الابتكاري . لكن الذي حدث هو أن المربين تعلموا الكثير من أساليب التحكم في السلوك والبيئة لصالح تنمية السلوك الابتكاري . ولقد أنتج الكثير من الأفلام والشرائط والكتب ، وغيرها من وسائل الاتصال التي يمكن أن تستخدم في البرامج التي تهدف الى تدريب المدرسين على اتقان مهارات تنمية التفكير الابتكاري (٧٣) .

٣ - تأثرت أساليب التدريس بإنتاج مواد تستخدم في المنهج الدراسي في عدد من المجالات مثل القراءة ،

Torrance, E.P. Creativity and futurism in education: Retooling, Education, 1980, 100, 298-311.

(٧١)

Torrance, E.P. & Torrancia, J. Pansy. Is creativity teachable. Bloomington, Indiana: Phi Delta Kappa, 1973.

(٧٢)

Torrance, E.P. Can we teach children to think creatively? Journal of Creative Behavior, 1972, 6, 114-143.

راجع أيضا

Torrance, E.P., 1980.

راجع أيضا

Torrance, E.P. Students of the future: Their abilities, achievements, and images of the future. Creative Child and Adult Quarterly, 1976, 1, 76-90.

(٧٣)

راجع أيضا

والدراسات الاجتماعية ، العلوم ، الفنون ، الرياضة ، الموسيقى وغير ذلك . ومن أهم هذه المواد كتاب المعلم ، وكتاب التلميذ المرتبطان بمجال ما ، فقد كانت هذه الكتب تساعد كلا من المعلم والتلميذ ، على القيام بالأنشطة التي يمكن استخدامها قبل وخلال وبعد دروس القراءة لتيسير التفكير الابتكاري والمهارات التي يمكن توقعها في مراحل العمر المختلفة^(٧٤).

٤ - أنتجت مواد للتعليم في المنهج تساعد على تيسير التفكير الابتكاري وهناك أمثلة عديدة لهذه المواد التعليمية^(٧٥).

٥ - تآزرت جهود الباحثين مع تنبؤات المستقبلين بالتغيرات المتوقعة في السلوك الإنساني والمتصلة بقدرات الإنسان على التعلم . وقد تنبأ المستقبلون بأن كثيراً من تعلم الإنسان في المستقبل سيكون موجها ذاتياً - self directed learning وفي نفس الوقت أخذ الباحثون يبتكرون برامج للتعلم الموجهة ذاتياً وبرامج لحل المشكلات الابتكاري والمستقبلي . كذلك أخذوا يعملون على ابتكار وسائل تمكن من تقدير القدرات والمهارات والدوافع اللازمة للتعلم الموجه ذاتياً ومساعدة التلاميذ على اكتسابها^(٧٦).

٦ - من أهم العوامل التربوية التي أثرت في تنمية الموهبة ابتكار اختبارات سيكولوجية وأساليب ملاحظة

تمكن من اكتشاف الموهوبين . وقد أشار تورانس في عام ١٩٥٩ إلى أن اختبار أعلى ٢٠٪ من تلاميذ المدارس باعتبارهم موهوبين على أساس اختبار ذكاء يؤدي إلى عدم اكتشاف ٧٠٪ من الموهوبين الذين يمكن اكتشافهم بواسطة اختبارات في الابتكار . وقد بنى تورانس رأيه هذا بناء على دراسات في عدد من المدارس أجزأها في عام ١٩٥٨ ، ١٩٥٩ وقد دلت الدراسات التي أجراها في السبعينيات على أن استنتاجه ما زال قائماً^(٧٧) . وما هو جديد بالذكر أنه حتى عام ١٩٦٠ لم يكن هناك اختبارات منشورة تجارياً تستخدم في الكشف عن الموهبة^(٧٨) . أما الآن فتوجد عدة اختبارات يمكن شراؤها واستخدامها على نطاق واسع في الكشف عن الموهوبين^(٧٩) . كما أن بعض هذه الاختبارات أجاز استخدامها في عدة ولايات أمريكية للكشف عن الموهوبين وللاستخدام في عدد من برامج الموهوبين الخاصة .

٧ - تركز الاهتمام في الأعداد مستقبل الحياة Career Education على استشارة القدرات الابتكارية للتلاميذ بهدف المزج بين التعليم المدرسي والخبرات المرتبطة بالعمل ، وفهم الذات . وقد اهتمت المناهج التي صممت للأعداد مستقبل الحياة بالكشف عن التفضيلات ، والوصول إلى تغييرات والتنبؤ بانتهائات ، ونتائج القرارات . وتفصيل البدائل وإثارة أسئلة مرتبطة بالفضاء ، واتخاذ القرارات والحصول على

Ibid.

(٧٤)

Ibid.

(٧٥)

Ibid.

(٧٦)

Torrance, 1980 & 1962.

(٧٧)

Torrance, 1980.

(٧٨)

(٧٩) راجع المصادر الآتية للإطلاع على اختبارات الابتكار المنشورة :

(1) Guilford, J.P. *Creativity tests for children : A manual of interpretation* . Orange, Calif. : Sheridan psychological services, 1971.

(2) Khatena, J. and Torrance, E.P. *Novus-technical manual Thinking creatively with sounds and words*. Lexington Mass. : Personnel 1973.

(3) Schaefer, C.E. *Stimulus test manual*. Goshen, N.Y. Research psychologists Press, 1971.

(4) Torrance, 1974.

يعرفون ويفكرون بشكل أفضل مما كانوا عليه منذ خمس أو عشر سنوات مضت . وقد توصل تورانس إلى هذا الرأي خاصة وأنه يشرف على تصحيح اختبارات تورانس للتفكير الابتكاري ، حيث يصبح في كل عام ما يقرب من ٢٥٠٠٠ إلى ٣٠٠٠٠ اختبار من الولايات المتحدة وكندا ، ومن ثم كان يلاحظ الزيادات في قدرات التفكير الابتكاري لدى التلاميذ . لكنه عشي أن الاختبارات التي ترد إليه من أنحاء أمريكا وكندا المختلفة ربما أجريت على أطفال موهوبين حيث إنه من المعتاد أن تجري هذه الاختبارات على الموهوبين . لذلك اهتم تورانس بقياس قدرات التفكير الابتكاري لتلاميذ الفصل السادس الابتدائي في مدرسة كان قد أجريت اختبارات التفكير الابتكاري على كل تلاميذها في عام ١٩٦٧ . وقد اختار تورانس هذه المدرسة لإعادة قياس قدرات التفكير الابتكاري للتلاميذ فيها عام ١٩٧٦ لأنها كانت مدرسة عادية في إقليمها غيرهما من المدارس العادية ، فتلاميذها يأتون من بيئة تتميز بتعدد المستويات الاقتصادية الاجتماعية ، كما أنها تتميز بالاستقرار في الفترة بين عام ١٩٦٧ وعام ١٩٧٦ . فقد استمر في هذه الفترة كثير من المدرسين ، وبقى المرشد المدرسي ، ووقى مساعد الناظر قصار ناظر المدرسة . وفي خلال هذه الفترة لم تقدم أية برامج مما يشجع التفكير الابتكاري ، باستثناء بعض مواد المنهج التي أدمجت الابتكار مع محتوى المنهج التقليدي . وقد وجد تورانس أن أداء تلاميذ الفصل السادس الابتدائي على اختبارات تورانس للتفكير الابتكاري عام ١٩٧٦ كان أفضل من أداء أقرانهم على نفس الاختبارات عام ١٩٦٧ . ومن دراسة الفروق بين أداء المجموعتين من التلاميذ نجد أن أكبر تحسن طرأ في حالة الأبعاد الكيفية للابتكار وهي الأصالة والتفصيل ، وقد وجد تورانس تأييدا لنتائجه في نتائج دراسة فلانجان المشهورة والتي أجريت على

معلومات جليدية والتعرف على إمكانيات الفرد وفهمها ، وتغيير الفرد لخصائصه ، وهكذا ونجد في كل هذه المهارات وأنواع السلوك هذه ابتكارا كما نجد فيها توجيها مستقبليا ^(٨٠) .

والآن كيف أثرت كل هذه العوامل التربوية على قدرات وانجازات التلاميذ ، وصورهم المستقبلية ؟

يشير تورانس في مقاله عام ١٩٧٦ ^(٨١) إلى الصورة التي تتسم بالخلط والاضطراب عن التلاميذ وقدراتهم وتحصيلهم . فتقارير شركات نشر الاختبارات النفسية تشير إلى أن التلاميذ أصبحوا أقل ذكاء وأنهم يعرفون أقل مما كانوا يعرفون في الماضي . في نفس الوقت تشير دراسات أخرى إلى أن التلاميذ في الجامعة يحصلون على درجات أفضل مما كانوا يحصلون عليه في الماضي . ويشير تورانس إلى عدد من الدراسات التي كشفت عن انخفاض في تحصيل التلاميذ المدرسي وقدراتهم ، وقد وجه النقد إلى الاختبارات التي انخفض أداء التلاميذ عليها فوصفت بأنها أصبحت غير حديثة ولا صلة لها بأهداف التربية اليوم ، كذلك اتهمت الجامعات بأن متطلباتها أصبحت تتسم بالتساهل . وأخذ كل من الفريقين ينكر ما يوجه إليه من اتهامات ويبحث عن تفسير لتناقض الدراسات في أداء التلاميذ وبالنسبة لأداء التلاميذ في الجامعة فقد كشفت إحدى الدراسات عن سبب يبدو معقولاً لارتفاع تحصيل التلاميذ . فالجامعات اليوم تسمح للتلاميذ باختيار مقرراتهم ومعنى هذا أنه أصبح بإمكان التلميذ اليوم أن يختار مقرراته الجامعية التي يشعر بجل إلى دراستها ، ومن ثم تكون لديه دوافع لتعلمها والنجاح فيها .

وقد شعر تورانس بالحيرة بآزاء هذه التقارير التي تشير إلى انخفاض في قدرات التلاميذ ، لأنه بدله ، كما يبدو لغيره ، أن التلاميذ اليوم في كل المستويات التعليمية ،

Torrance, 1980.

Torrance, 1976.

(٨٠)

(٨١)

من يعتقد أن لكل منا حظه من الابتكار ، وأن قدرات الإنسان الابتكارية قابلة للاستزادة والتنمية في أي مرحلة من مراحل حياته . فالابتكار أسلوب في التفكير والحياة يمكن تعلمه . والعقل المبتكر يتميز بأنه يتجه الى المستقبل . ولقد قام تورانس بقياس قدرات التفكير الابتكاري للتلاميذ في مرحلة الدراسة الثانوية ، ثم طلب منهم بعد اثني عشر عاما ان يصفوا له انجازاتهم الابتكارية يضع التلميذ علامة على ما أنجزه منها . كما طلب أن يعبروا عن طموحاتهم عن المستقبل . ومن النتائج التي انتهت إليها تورانس (٨٣) .

- التلاميذ الذين كشفت نتائج اختبارات الابتكار التي أجريت عليهم في المرحلة الثانوية عن أهم مبتكرين يميلون الى أن يكونوا مبتكرين في مرحلة الرشد بعد تخرجهم من الجامعة .

- اختار التلاميذ الذين يتميزون بابتكار مرتفع مهنا غير عادية . وقد أثبتت الدراسات المتتالية عن أن المهنة التي اختاروها تميل الى أن تتحقق في المستقبل .

- يميل تلاميذ المرحلة الثانوية قليلتيرون الى أن يسيروا في مستقبل مهني يشتمل على انعطافات تتطلب تدريباً وخبرة ذات عناصر غير عادية ، ولكنها مرتبطة ببعضها .

وهكذا نجد أن التلاميذ الذين يكون لهم استعداد للابتكار ، يميلون الى تحقيق أفكارهم في المستقبل حين يخرجون الى الحياة العملية . كذلك نجد أن اختبار هؤلاء التلاميذ لمهن غير عادية تتحقق في المستقبل يكشف عن رؤية ابتكارية للمستقبل ، لا يستطيعها الا عقل مبتكر .

وإذا كان المستقبل يتطلب عقلاً ابتكارياً . فإن واجب

مستوى الولايات المتحدة والمعروفة باسم Project TALENT^(٨٤) . فقد قارن فلانجان بين أداء تلاميذ الفرقة العاشرة في عام ١٩٦٠ وأداء أقرانهم في عام ١٩٧٥ على مجموعة من الاختبارات . وقد وجد فلانجان أن تلاميذ الفرقة العاشرة في عام ١٩٧٥ احتفظوا بمستوى أقرانهم في عام ١٩٦٠ في الفهم والقراءة والرياضيات ، لكن أدائهم كان منخفضاً عن أداء أقرانهم في الكلمات واللغة الانجليزية والحساب في الرياضيات . لكنهم تفوقوا على أقرانهم عام ١٩٦٠ في الابتكار والتفكير والاستدلال المجرد . ويفسر فلانجان هذه الزيادة بازدياد الاهتمام بأسلوب حل المشكلات في المنهج . ويعلق تورانس على هذه النتائج بأن الانخفاض في الأداء على اختبار المفردات كان نتيجة أن مفردات تلاميذ عام ١٩٧٥ أصبحت مختلفة عن مفردات أقرانهم عام ١٩٦٠ ، ويعتقد أن تلاميذ ١٩٦٠ سيكون أدائهم منخفضاً على اختبار مفردات وضع على أساس المفردات السائدة عام ١٩٧٥ . كما أن انخفاض الأداء في حساب الرياضيات يرجع الى انتشار الحاسبات الآلية التي يستطيع التلميذ أن يحملها معه في جيبه ، مما يجعله غير متحمس للتدريب على الحساب . ويلخص تورانس هذه النتائج فيقول أنه يتوقع أن تلاميذ الجامعة في المستقبل سيكون أدائهم منخفضاً على الاختبارات التي تقيس القدرات المدرسية والانتاج المدرسي ، بينما سيكون مرتفعاً على الاختبارات التي تقيس التفكير الابتكاري وحل المشكلات .

تنمية قدرات الإنسان على التصور المستقبلي :

العقل الذي يستطيع تصور المستقبل هو العقل المبتكر . ومن المفيد أن نشير الى أن هناك من المفكرين

Flanagan, J.C. Change in school levels of achievement: Project TALENT ten and fifteen years retests *Educational Researcher*, 1976, 5(8), 9-12.
Torrance, E.P. *The search for satori & creativity*. Great Neck, N.Y. : Creative syngentic Associates, 1979.

(٨٣)

راجع المصدر السابق
(٨٤)

المفتوحة التي تزخر باحتمالات لا حدود لها . ويقترح تورانس الأنشطة التالية التي تتميز بأنها فعالة في خلق نهايات مفتوحة في كل مجالات المنهج الدراسي .

- اللعب بالغامض وغير المحدد .
- تحرير الأطفال من العوامل والتوقعات التي تعمل على كبح تفكيرهم .
- خلق الوعي بعدم اكتمال المعلومات التي تقدم .
- جعل التفكير الافتراضي شرعياً .
- استخدام الخيال للبحث عن حلول للمشكلات اليومية .
- تشجيع الافتراضات المتعددة .
- جعل الشيء يؤدي إلى آخر .
- تشجيع تحويل المعلومات .

٢ - الربط بين المياديين التي تبدو متباعدة

إذا تطلب الأمر ربط مبدئين أو أكثر غير مرتبطين ، فإنه يحتمل أن تؤدي الوتيرة العقلية التي ستحدث إلى شيء أصيل . ومن التدريبات التي تعطي للأطفال تدريب « كون قصصك » ، حيث يعطى للطفل ثلاثة شخصيات أو حيوانات أو موضوعات ، ويطلب منه أن يكون قصة .

ومن الأساليب التي تستخدم لتشجيع الربط بين المياديين غير المرتبطة والتي يمكن أن تطبق في كل مجال من المجالات تقريباً :

- البحث عن الحلول الأنيقة (الحلول البسيطة التي تأخذ في اعتبارها أكبر عدد من العوامل)
- استخدام التشابهات للبحث عن الحلول .
- تحرير ومعالجة الموضوعات والأفكار .
- تشجيع الأطفال على استخدام المعرفة في مجال ما لحل مشكلات في مجال آخر .
- تطلب إعادة تنظيم المعلومات والموضوعات . . . الخ .

التربية أن تعمل على استشارة قدرات الموهوبين والمبتكرين بحيث تنجبه هذه القدرات إلى المستقبل . غير أن ذلك يتطلب بيئة من نوع خاص . ولستمع إلى تورانس يصف لنا هذه البيئة ^(٨٤) .

« لكي نتيح للأطفال في المنازل والمدارس أن يحصلوا على لمحات من السلانية ، وأن يعملوا تصوراتهم للمستقبل ممتداً وغنياً ودقيقاً ، يجب أن يكون لدى البيئة درجة من الانفتاح . وكذلك يجب أن تعمل مواقف العمل ومنظمات الجامعة وإدارات الحكومة وأماكن العبادة وغير ذلك من المؤسسات على خلق نهايات مفتوحة ، إذا أردت هذه المؤسسات أن يحقق هؤلاء الأفراد إمكاناتهم وأن يخلقوا مستقبلاً أفضل . ففي المدارس يمكن لمواد المنهج وأساليب التدريس ذات النهايات المفتوحة أن تتيح للتلاميذ أن يستجيبوا بحسب ما تمكنهم قدراتهم وخبراتهم منها كانت . ويعتبر بعض المدرسين وأساليب التدريس خطرة . لكن حينها يستجيب التلاميذ بحسب ما تمكنهم قدراتهم وخبراتهم ، فإن ذلك يأخذ المدرسين أنفسهم إلى عالم أرحب من قدراتهم وخبراتهم . والبرامج ذات النهايات المفتوحة لا يمكن أن تنحصر مقدماً ويرخص بتوفر الأمن فيها . إذ يجب أن يؤدي فيها شيء إلى آخر ، حيث لا يمكن للمرء أن يتأكد إلى أين توصل هذه النهايات المفتوحة » .

ويناقش تورانس عدداً من الأساليب التربوية التي تهدف إلى تنمية قدرات الإنسان على تصور المستقبل والحصول على لمحات من اللانهاية . وهذه الأساليب هي :

١ - النهايات المفتوحة وعدم الاكتمال

من أبسط الطرق التي تساعد الأطفال على أن يحصلوا على لمحات من اللانهاية الكتب واللصص ذات النهايات

- التأليف بين الموضوعات والأفكار غير المنظمة في تنظيمات ذات معنى .

٣ - إنتاج المبادئ والربط بينها

يمكن زيادة ما نحصل عليه من لمحات مستقبلية بأن نجعل الأطفال يتجون المبادئ التي سيقومون بالربط بينها في قصة أو دراما أو صورة أو أية وسيلة اتصال أو تعبير ابتكاري .
ومن الأنشطة التي تساعد على إنتاج المبادئ ثم الربط بينها :

- دراسة مشكلة أو معلومة أو موضوع من عدة نواحي ثم الربط بين ما نصل إليه من أفكار .
- البحث عن كل الحقائق المرتبطة بشيء غامض ثم محاولة إيجاد حل له .
- عمل سلسلة من التنبؤات على أساس تراكم المعلومات .
- تعلم المهارات التي يتطلبها عمل معقد ثم الربط بينها للقيام بهذا العمل .
- إنتاج عدة مشاهدات ثم الربط بين الأفكار التي نصل إليها من استخدام هذه المشاهدات .

٤ - إنتاج الأفكار من خلال بناء معين

يمكن استخدام هذا الأسلوب لإنتاج عدد لا نهائي من الأفكار في كل الأساليب السابقة . وعلى سبيل المثال يمكن استخدام هذا التكنيك في كتابة خامسة شعرية بأن نطلب من الفرد أن يتبع البناء الآتي :

السطر الأول : كلمة واحدة (العنوان) .
السطر الثاني : كلمتان يصفان العنوان .
السطر الثالث : ثلاث كلمات تصف الفعل المرتبط بالعنوان .
السطر الرابع : أربع كلمات تعبر عن شعور .
السطر الخامس : كلمة أخرى تعبر عن العنوان بحيث تصف جوهره .

٥ - خبرات التهيئة

يمكن أن تكون خبرات التهيئة مفيدة جدا في تحرير خيال الأطفال ويطهرون باللائحية . ويمكن أن تكون هذه الخبرة رحلة ميدانية أو تسجيل موسيقا أو سوسودراما ، أو مقطوعة شعرية ، أو تعبير ابتكاري استجابة لمقطوعة شعرية ، أو أية خبرة تؤدي إلى استنارة التفكير والشعور بشكل كبير .
وتساعد الأنشطة التالية على التهيئة ، ويمكن تطبيقها في أية مادة دراسة أو منهج في أي مستوى من مستويات التعليم :

- إثارة التوقع .
- إثارة الاهتمام بمشكلة .
- استنارة حب الاستطلاع والرغبة في المعرفة .
- جعل هدف النشاط واضحا ذا دلالة .
- إعطاء أقل قدر من المؤشرات والاتجاهات .

٦ - تحديد الفجوات في المعرفة

لا يتفق الاتهام اللائحي مع الاكتمال . لكن الأطفال حينما يتعلمون القراءة ، ويتقدمون في الدراسة ، يميلون إلى أن يتقبلوا ما يقرأون على أنه مكتمل . ولكني يتغلب المعلمون على هذا الموقف ، ويساعدوا التلاميذ على أن يشعروا بالراحة مع اللائحية يمكنهم أن يعرفوا التلاميذ عند مناقشة موضوع ما بأنه يبقى دائما عدد لا نهائي من الأسئلة المرتبطة بهذا الموضوع . ويستطيع المدرسون استخدام التمارين التي تنمي مهارات توجيه الأسئلة المرتبطة بالصور أو الموضوعات أو القصص أو لعب الأدوار أو غير ذلك .
ويذكر لنا تورانس أن من أفضل القصص التي نخدم هذا الهدف قصة ولد صغير يريد أن يصادق أرنبيا . ويتساءل هذا الولد في القصة عما تفعله الأرانب وكيف تعيش في الغابات ويقول تورانس إنه بعد أن يقرأ هذه القصة المثيرة للأطفال يصبح هو الأرنب الذي يتكلم من خلال دمية ، ويبدأ الأطفال في توجيه الأسئلة التي يريد الولد أن يعرفها ويريدون هم الإجابة عليها .

ولاشك أن المجتمع العربي اهتم ببعض الموهوبين من أبنائه ، والا فقيم استمرار هذا المجتمع ؟ لكن السؤال هو : هل يعد هذا الاهتمام كافياً ؟ لنرجع ، الأجابة على هذا السؤال ، ولنحاول الآن التعرف على طبيعة اهتمام المجتمع العربي بالموهوبين من أبنائه .

الاهتمام بالموهوبين في البلاد العربية :

كان كثير من الأفراد الموهوبين موضع الرعاية في البلاد العربية على مر العصور ، فقد كان حكام هذه البلاد يرفعون الأدباء والشعراء والفنانين والعلماء والفلاسفة ، ويتحنون لهم الشرع لأدابهم ونسبهم وعلومهم . ولعل من الحكام من أدرك أن الدولة لا تقوم الا على انجازات الموهوبين ، إذ نجد السلطان سليم الأول يجمع الموهوبين من الصنائع المهرة وغيرهم من المنجزين من أبناء مصر ويرسلهم إلى الأستانة . كما نجد محمد علي والي مصر يقبل الدولة العثمانية ، فيرسل إلى الكتائب في أنحاء البلاد والي الأزهر الشريف ليجمع التلاميذ الموهوبين ، وكان يستند في الحكم على تفوقهم إلى آراء مدرسيهم^(٨٥) وقد أرسل محمد علي من هؤلاء التلاميذ البشاش إلى البلاد الأوربية ليتلقوا العلم ويتخصصوا في مختلف المعارف والفنون ، وقد عادوا إلى الوطن وأسهموا أسهاماً كبيراً في نهضة .

وفي العصر الحديث نجد مظاهر عديدة لرعاية الموهوبين في البلاد العربية فمصر تقيم عيد العلم في كل عام حيث يقدم رئيس الدولة الجوائز لمن أنجزوا في مجالات الفن والأدب والعلم . وتُنح الجوائز الدولة التقديرية والتشجيعية للعلماء الذين حققوا انجازات في هذه الميادين . وتقدم مؤسسة التقدم العلمي بالكويت جوائز لعلماء الكويت وعلماء العرب وفنانيهم وأدبائهم ، وكذلك تقدم المملكة العربية السعودية جوائز مماثلة . وما من شك في أن هذه المجهودات تستحق كل تقدير .

٧ - اللعب بالأشياء غير المحتملة

هذا نوع آخر من الخبرات التي تعطي الأطفال لمحات من اللانهاشي . ويمكن أن يتخذ اللعب بالأشياء غير المحتملة عدة صور منها أن نوجه إلى الأطفال السؤال : ماذا يمكن أن يحدث اذا (ونضع حدثاً أو شيئاً غير محتمل الحدوث) وقد استخدم تورانس وميرز هذا الأسلوب في اختبارهما : هل تتخيل ؟ ومن أمثلة هذا الأسلوب :

- ماذا يمكن أن يحدث اذا اضطرت السماء دائماً يوم السبت ؟
- ماذا يمكن أن يحدث اذا كان الغناء مخالفاً للقانون ؟ ومن الأمثلة الأخرى أسلوب « افترض أن » الذي استخدمه تورانس في اختبارات تورانس للتفكير الابتكاري . ومثال ذلك :
- افترض أنك تستطيع أن تخلق نوع المناخ الذي تريده بأن ترقص بطريقة خاصة .
- افترض أنك تقوم بزيارة قسم ما قبل التاريخ في المتحف ، ثم دبت الحياة في الحيوانات .
- ويمكن استخدام هذه المواقف في تداعي الأفكار وفي التمثيل ، وبعد ذلك يصبح من السهل على الأطفال أن يؤلفوا قصصاً شيقة وأغاني وأشعاراً عن هذه المواقف الغير محتملة الحدوث .

الموهبة في البلاد العربية :-

لا يحتاج العالم العربي اليوم إلى شيء أكثر من حاجة إلى رعاية الموهبة وتنميتها وأرجو أن تلاحظ أنني أقول « الموهبة » ولا أقول الموهوبين « فانا مع الرأي القائل بأن لكل منا حظه من الموهبة ، ويحتاج الفرد الموهوب إلى المناخ الذي تستلزم فيه قدراته الكامنة ، وإلى الظروف البيشية التي تساعد على تنمية هذه القدرات ومن ثم يكون الهدف هو خلق مناخ تربوي وأساليب تعليم تتيح لكل فرد تنمية حظه من الموهبة .

تنشئة الموهوبين ورعايتهم في البلاد العربية :

الموهوب تعود بالخير عليه هو وحده ، لقنا انه ليس من العدل أن تنفق عليه الأموال الطائلة وتقتصر عليه الجهود الكبيرة . لكن العائد من تربية الموهوب ورعايته يفيد المجتمع بأكمله ويساعد على تحسين الوجود الانساني كله ، هذا فضلا عن أن تصوري للموهبة يقوم على التسليم بأن لدى كل منا نصيبه من الموهبة ، ومن ثم فإن رعاية الموهوبين لن تقتصر على فئة دون فئة أو فرد دون آخر . إذ أن الموهبة التي تستمع الظروف باكتشافها ستكون موضع الرعاية . وربما يتحقق في يوم ما الحلم بأن تعمل المجتمعات كلها على خلق الظروف التي تساعد على إبراز موهبة كل فرد من أفرادها .

تصور الموهبة والكشف عنها :

وربما كان القصور في رعاية الموهوبين يرجع الى صعوبة التعرف عليهم والكشف عنهم في سن مبكرة . ويرتبط هذا بانفتارنا الى فلسفة تربيت تصورنا للانسان ودراسته . فللأسف خصائص كالقدرات والاستعدادات وسمات الشخصية وغيرها ، يمكن الكشف عنها وتقديرها باستخدام أدوات علمية . ومن الواضح أننا في العالم العربي نفتقر الى الإيمان بأهمية وجدوى أدوات تشخيص السلوك الانساني . فلست أعرف وزارة تربية واحدة في العالم العربي تجري على كل تلاميذها اختبار ذكاء في مرحلة ما من مراحل التعليم . ولا يلقى على التربين العرب أن تشخيص قدرات التلاميذ وميولهم وسمات شخصياتهم وغير ذلك من الخصائص قد أصبح جزءا من العملية التربوية في كثير من البلاد وخاصة المتقدمة . ومن ثم فالحاجة شديدة الى أن يدرس المربون العرب دور التشخيص في العملية التربوية ، والفوائد التي تعود على تربية المواطنين من

رعاية الموهوبين وهم في مرحلة التكوين والنمو ، لا تكاد تكون معروفة في العالم العربي الا في حالة بعض الأفراد الذين يسلمهم الحظ فتظهر موهبتهم في وقت مبكر وتسترعي انتباه بعض المسؤولين . ولكن رعاية الموهوبين كلفة لم تلق الاهتمام في العالم العربي وبإستثناء مدرسة المتفوقين في مصر ، فلا تكاد تعرف في العالم العربي برامج لرعاية الموهوبين ، أما نصب الموهوبين من البحث العلمي فيإستثناء دراسة محمد نسيم وأنت للطلاب المتفوقين (٨٦) ، وجهود بعض الباحثين (٨٧) ، فلا تكاد نجد اهتماما بدراسة الموهوبين . عم يكشف هذا القصور في رعاية الموهوبين في البلاد العربية ؟ هل يكشف عن عدم وعي بأهمية الموهبة لتنمية المجتمعات ؟ أم يكشف عن عدم اهتمام بتنمية المجتمعات العربية أصلا ؟ أم أن هذا القصور هو نتيجة لاحتجاج البعض بأنه مما يتناقض الديمقراطية أن نتم بفترة على حساب الفئات الأخرى ، ومن ثم فليس من العدل أن تخصص ميزانيات خاصة لتربية الموهوبين ورعايتهم ؟

لو كان هذا القصور في رعاية الموهبة هو نتيجة لعدم الوعي بأهميتها لتنمية المجتمع ، فما أشد الحاجة الى أن يقوم عليها التربية والاجتماع والنفس والاقتصاد وغيرهم من المهتمين بتوعية المسؤولين بأهمية الموهبة للتنمية . ولو كان القصور في رعاية الموهبة يرجع الى عدم الاهتمام بتنمية المجتمعات أصلا ، فما أشد حاجتنا الى أن نوضح أن استمرار الحياة على الأرض ، واستمرار المجتمعات في البقاء هو رهن بالتنمية المستمرة وأن العقول التي تستطيع تحقيق التنمية هي العقول الموهوبة . أما العامل الثالث الذي يجتج به أحيانا لعدم الاهتمام بالموهبة فسنتكشف أنه سبب غير منطقي . إذ لو كانت رعاية

(٨٦) وأنت ، محمد نسيم . رعاية الطلبة المتفوقين . في جامعة الدول العربية ، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (ندوة التربية) . حلقة تربية الموهوبين والمتفوقين الموهوبين في البلاد العربية ، الكويت ١٧-٢٢ مارس ١٩٧٣ ، ص ٥٥ - ٦٩ .

(٨٦) وأنت ، محمد نسيم بحث الطلبة المتفوقين ، الجزء الأول . القاهرة :

الجنة الدائمة للبحوث بوزارة التربية والتعليم ، ١٩٦١ .

(٨٧) على سبيل المثال انظر

عبدالمظفر ، عبدالسلام . التفوق العقلي والابتكار . القاهرة : دار النهضة العربية ، ١٩٧٧ .

القائد يعتبر من العوامل الحاسمة في عمل وإنتاجية أية مؤسسة في مجتمعاتنا على وجه الخصوص .

الأرقام تكلم :

على مستوى العالم العربي يوجد قدر من الوعي بأهمية الموهوبين فقد عقدت الجامعة العربية ، عقدت أولاهما في القاهرة من ١٠ الى ١٥ مايو ١٩٦٩ ، وعقدت الثانية في الكويت من ١٧ الى ٢٢ مارس ١٩٧٣ ، ويلاحظ أن الموهوبين والمعوقين يوضعون في إطار واحد . وقد اشتمل تقرير الحلقة الثانية على متابعة توصيات الحلقة الأولى . وقد رد على الاستفتاء الذي أرسل لثلاثة هذه التوصيات تسع دول عربية هي : الأردن ، والكويت ، ومصر ، وسوريا ، والسعودية ، وقطر ، واليمن الديمقراطية الشعبية ، وليبيا ، والسودان . وتكشف هذه المتابعة عن أن نصيب المعوقين من الاهتمام كان أكبر . فعدد التوصيات التي خصصت للمجموعتين معا كان ٣٠ توصية ، وكان نصيب المعوقين فيها هو الأكبر ، وعدد التوصيات التي أفرحت للمعوقين كان ٢٦ توصية ، أما عدد التوصيات التي خصصت للمتفوقين فقد كان ٧ توصيات (٨٨) .

ويلاحظ أنه من بين الدول التسع لم تقم سوى دولة واحدة بتنفيذ توصيات الحلقة الأولى الخاصة بالمتفوقين ، وهذه الدولة هي مصر ، وتجدر الإشارة هنا بأن كثيرا من التوصيات كان منفذا فعلا في جمهورية مصر العربية قبل انعقاد هذه الحلقة . والتوصيات التي نفذتها مصر هي :

- ١ - إنشاء فصول أو مدارس ثانوية للمتفوقين .
- ٢ - ضرورة وضع مناهج اختيارية ذات مستوى رفيع .
- ٣ - رعاية طرق تدريس المتفوقين بفرديّة كل تلميذ .
- ٤ - وضع شروط لاختيار التلميذ المتفوق حسب المستوى التحصيلي .
- ٥ - تجهيز فصول ومدارس المتفوقين بالأدب الصالحة والمعامل وغيرها .

استخدامه . وهذا يعني أن تتبنى الدول تطوير أدوات للتشخيص وتعميم استخدامها ووضع السياسات التي تضبط إجراءاتها . وتجيب الإشارة هنا إلى أن هناك جهودا لكثير من العلماء العرب الذين اهتموا بتطوير أدوات لقياس السلوك البشري . غير أن هذه الجهود الفردية غير كافية لأن كثيرا منها قام على ترجمة اختبارات أجنبية تقيس متغيرات على أساس تصورات قد لا توجد في مجتمعاتنا . كما أن الكثير من هذه الأدوات قد درس وجرب على عينات محدودة لا تمثل كل قطاعات المجتمعات العربية التي يمكن أن تجري عليها مستقبلا . ولا يعتبر الباحثون الذين طوروا هذه الأدوات مسئولين عن هذا النوع الثاني من القصور . إذ أن المسئول عنه هو عدم توفير الاعتمادات المالية الكافية التي تمكن من العمل الجاد على تطوير أدوات تشخيص السلوك .

ولا يقتصر الأمر على الانتقار إلى أدوات الكشف عن المواهب ، بل يرتبط به ، وربما يكون مسئولا عنه ، عدم وجود تصور صحيح لطبيعة الموهبة في بلادنا - ويتضح هذا من النظر إلى الدراسات التي تناولت الموهبة إذ يكشف استعراض هذه الدراسات عن أنها في أغلبها قد اقتصر على فئة واحدة من فئات الموهوبين هي فئة المتفوقين عبقليا ، أو المتفوقين في التحصيل . لكن التفوق في التحصيل قد يفقد انتماءه إلى التصور الحديث للموهبة ، إذا كان التحصيل المتوقع يعتمد على الحفظ ومعرفة المعلومات دون معالجتها ، وإذا كانت أساليب التقويم تؤكد هذه المهارات . وبالتالي فإن حفظ الفئات الأخرى للموهبة من البحث ، كان قليلا أو معدوما . فالباحثون الذي اهتموا بدراسة الابتكار باعتباره أحد فئات الموهبة أو باعتباره - كما يرى البعض - أحد العوامل العامة في الموهبة ، يعدون على أصابع اليد الواحدة ، وحتى الآن لا يبدو أن هناك وعيا بأهمية الابتكار لمستقبل العالم العربي ، كذلك لم ينسج الباحثون بدراسة القيادة الابتكارية Creative Leadership التي نحن في أشد الحاجة إليها في مجتمعاتنا . وكلنا يعرف أن نوع

٦ - ارتباط تعليم المتفوقين بالتطبيق العملي الى جانب الدراسة النظرية .

أما التوصية التي لم تنفذ في مصر أو في غيرها من البلاد فهي :

٧ - متابعة المتفوقين خلال دراستهم الجامعية وتوفير الرعاية الاجتماعية لهم .

من الواضح إذن أننا لا نستطيع أن نزعم أننا في البلاد العربية نهتم برعاية الموهبة رعاية تربوية منظمة تقوم على الكشف عن الموهوبين في وقت مبكر من حياتهم ثم رعاية مواهبهم وتنميتها حتى تحقق ذاتها وتعود بالخير على الموهوب وعمل المجتمع ، فما هو السبب ؟

رعاية الموهبة والتفكير المستقبلي :

للإجابة على هذا السؤال . أقدم فرضاً لا أؤمّن أنه متأكد من صحته ، وإنما هو احتمال على أية حال . فأننا اعتقد أن عدم اهتمامنا بالموهبة هو نتيجة عدم اهتمامنا بالتفكير المستقبلي . ويسجل الأنثروبولوجي إدوارد هول (٨٩) انطباعه بأن العرب لا يجهذون التفكير في المستقبل فيروي قصة أمريكي متخصص في الشؤون الزراعية ذهب الى القاهرة ليعلم الفلاحين المصريين أساليب الزراعة الحديثة . وفي إحدى جولاته طلب من مترجمه أن يسأل الفلاح الذي كان يزوره عن المحصول الذي يتوقع أن يجنيه من حقله هذا العام فاحتاج الفلاح واستشاط غضباً ، وحاول المترجم أن يلطّف الموقف ، فقال للزائر الأمريكي أن الفلاح يقول بأنه لا يعرف . ولقد أحس الزائر الأمريكي من خلال استجابة الفلاح المصري بأنه قد حدث خطأ ما ، ولكنه لم يعرف طبيعة هذا الخطأ . . لكنه عرف فيما بعد بأن العرب يعتبرون أن كل من يحاول النظر في المستقبل يجنون الى حد ما . وحين سأل الأمريكي الفلاح المصري عن محصوله المستقبل غضب لأنه اعتقد أن الأمريكي يعتبره مجنوناً . فالعرب يعتقدون أن الله وحده هو الذي يعرف المستقبل ، وأنه ليس من المقبول حتى مجرد التفكير في

المستقبل ، ويحلل فؤاد زكريا (٩٠) هذه الظاهرة في مقالة « العقل العربي والتوجه المستقبلي » ويوضح العوامل الكامنة وراء الاتجاه الذي يقول بأن المستقبل ليس نتيجة منطقية للحاضر ، وليس تطوراً طبيعياً له . ويعطي أمثلة عن غياب النظرة المستقبلية عند الأفراد أو الحكومات على حد سواء ، ويرد هذه الظاهرة الى عدد من الاتجاهات الدينية . والأسباب الحاضرة من الاجتماعية والسياسية .

وإذا كانت هناك أسباب تكف تفكيرنا في المستقبل ، وإذا كانت هناك عوامل تجعل تصورنا للمستقبل متشائماً وقائماً ، فكيف نفكر في الاهتمام بالموهوبين صنع المستقبل .

خلاصة :

اهتمت هذه الدراسة بتوضيح العلاقة بين الموهبة والتفكير المستقبلي ومن النتائج التي يمكن أن نستهي إليها :

- ١ - أن العالم يتغير بمعدل هائل .
- ٢ - أن استمرار بقاء النوع الانساني وقف على التفكير في هذا التغير وفي توقيعه والتنبؤ به ومحاولة التحكم فيه لصالح الحياة والانسان أي في تبني الاتجاه المستقبلي .
- ٣ - أن التفكير المستقبلي يحتاج الى عقل من نوع خاص هو العقل الموهوب .
- ٤ - أننا في العالم العربي لا نهتم اهتماماً منهجياً بالكشف عن الموهبة في مراحل العمر المبكرة ، كما لا توجد لدينا فلسفة أو تصورات دقيقة عن الموهبة ، ومن ثم نفتقر الى البرامج التربوية التي ترمي الموهبة وتربى العقل على الابتكار .
- ٥ - أنه يوجد لدينا عوامل تعطل النظر المستقبلية للحياة والانسان .
- ٦ - أن بقاءنا كأمة ، وتقلعنا ، رهن بتدعيم الموهبة والابتكار والتفكير المستقبلي .

صَدْرُ حَدِيثًا

تميل كثير من الدراسات الأنثروبولوجية الأمريكية إلى الاهتمام بعرض أكبر قدر من البيانات والمعلومات الوصفية عن ثقافات المجتمعات المحلية التي تعالجها ، بل إن بعض ما ينشر منها يعتبر البيانات والمعلومات الوصفية هدفاً في ذاتها . ومثل تلك الدراسات تعتبر دراسات الأنثروبولوجية أكثر من كونها دراسات أنثروبولوجية ، تستخدم المعلومات المتراكمة أساساً كوسيلة للتحليل والتفسير .

والكتاب الذي نحن بصدد عرضه « المعنى والنظام في المجتمع المغربي » هو واحد من تلك الكتب الأمريكية التي تجمع كماً هائلاً من المعلومات الأنثروبولوجية حول ثقافة إحدى المناطق بالملكة المغربية . لكنه في الحقيقة وفي أكثر من موضع منه حاول أن يرقى من مجرد الوصف للوقائع المشاهدة إلى مستوى من التجريد الذي يسمح بالتحليل العميق . وسنرى أن ذلك التحليل قد قام على رموز ثقافية تعتمد في أغلبها على التاريخ من جهة وعلى المفاهيم السيكولوجية « كمفهوم محتوى الذات وعوامل النزوع والامكانات الوراثية على سبيل المثال » من الجهة الأخرى . وهذا هو شأن الدراسات الأنثروبولوجية التي تتخذ من الثقافة موضوعها لاهتماماتها ، عكس الحال بالنسبة للدراسات الأنثروبولوجية الاجتماعية التي تهتم بالمجتمع - العلاقات الاجتماعية فيه والنظم والأنماط المتفاعلة فيها بينها والتي تكون بنائه الاجتماعي - والتي تحاول تفسير كل تلك الوحدات على المستوى الاجتماعي البحت .

ويضم الكتاب عدداً من المقالات المنفصلة التي لا يربط بينها رابط سوى اتخاذها مجتمع إقليم ومدينة « صفرو » - في إحدى المناطق الشمالية الوسطى من

المعنى والنظام في المجتمع المغربي

عادل مصطفى

معهد البحوث والدراسات الأفريقية - جامعة القاهرة

• Geertz, C. & Geertz, H. & Rosen, L., Meaning and Order in Moroccan Society, Cambridge U.p., U.S.A., 1979.

المملكة المغربية - ميدان بحث ومجال دراسة ، وموسى أنها حاولت جميعا - رغم انفصالها - أن تعطي صورة للحياة الاجتماعية في ذلك المجتمع ، من خلال التعبيرات الثقافية التي يتضمنها سلوك الناس - في شكل رموز ثقافية أو أنساق للمعنى تعمل على حفظ وبقاء ، النظام ، القائمة عليه حياة ذلك المجتمع - ولكن من زوايا ومداخل مختلفة .



وقبل أن نعرض للمقالات التي يحتوي عليها الكتاب ، نود أن نشير إلى الظروف التي أدت إلى إخراجها إلى حيز النشر بهذا الشكل .

فقد بدأ الاهتمام بدراسة المنطقة (إقليم ومدينة صفرو) في عام ١٩٦٥ ، حين أوفدت جامعة شيكاغو عددا من علمائها وباحثيها للاقامة دوريا بفرض دراسة الأحوال المعيشية لسكانها . وقد استمر إيفاد المبعوثين إلى المنطقة حتى عام ١٩٧١ ، قضى كل واحد منهم فيها فترة زمنية معينة من السنوات الست التي حددتها الجامعة . ولم يصادف أن اجتمع الباحثون معا - ولو لمرة واحدة - ككل في الميدان ، كما لم تكن أسامهم « نخطة محددة أو مشتركة » للعمل الميداني كفريق بحث ، ولكن تركت الفرصة أمامهم ليدرس كل منهم ثقافة المجتمع من وجهة نظر معينة ، تتناسب وتخصصه وخبراته . ولذلك فإن التقارير التي جمعت في النهاية - والتي تعد موضوعات الكتاب الذي بين أيدينا جزءا منها - كانت تمثل صورة عامة عن تلك المنطقة من زوايا ومداخل متباينة . فمثلا قدم « توماس ديتشار » تقريرا عن ثقافة المراهقين والشبان وهن النسق الدراسي ، واهتم « كليفرود جيرتز » بدراسة الدين والسوق والعلاقات المتبادلة بين الإنسان والبيئة (الايكولوجيا)

وقامت « هيلدرد جيرتز » بدراسة نسق القرابة والأسرة ودور المرأة في المجتمع إلى جانب اهتمامها أيضا بدراسة الشعر الشفاهي ، وامتد اهتمام بعض الباحثين إلى دراسة بعض القرى المنتشرة في الاقليم ، فقدم « لورانس روزين » تقريرا - إلى جانب تقريره عن البناء الاجتماعي الحضري وعن القانون - عن تنظيم إحدى قرى البربر المنتشرة هناك ، كذلك اهتم « بول رابينو » بدراسة الحياة الدينية والسياسية والاقتصادية لاحدى قرى الاقليم ، وإلى جانب كل ذلك قدم « بول هيمان » - وهو مصور محترف أكثر منه انثروبولوجيا - تقريرا مصورا يحتوي على مجموعة ضخمة من الصور الفوتوغرافية عن مجتمع صفرو .

وقد اتفق أخيرا ثلاثة من الباحثين المذكورين - ربما لأغراض التدريس - وكذلك المصور المحترف ، على نشر تقاريرهم في شكل كتاب ، هو الكتاب الذي بين أيدينا ، وذلك على الرغم من أنهم - على حد قولهم - لم يكونوا يوما يعتزمون ذلك . ووضعوا مقدمة له تعرض لما يحويه الكتاب ، لكنها لم تستطع أن تربط بين المقالات الثلاثة في كل واحد ، كما اعترفواهم بذلك أيضا. فضلا عن أن الكتاب - كما هو معتاد في الكتب المسائلة في الأغلب - لم ينته بإخائه تؤكد وحدة أجزاءه ، إلى جانب ما يمكن أن تضفيه من قيمة علمية .

(١)

ومهما يكن من شيء ، فإن المقال الأول « الشخصية الاجتماعية المميزة ونقاط الارتباط - مدخل إلى التنظيم الاجتماعي » والذي كتبه « لورانس روزين » ، أستاذ الأنثروبولوجيا بجامعة برنستون ، يتيم بالأسس الأيكولوجية والاجتماعية للمجتمع المحلي الحضري (مدينة صفرو) ، والريفي (إقليم صفرو) معا . ومن خلال تلك الأسس يستعرض الباحث الأنساق الإدارية

أسلوب «دراسة الحالة» لشبكة العلاقات الشخصية التي نسجها أحد أفراد المجتمع حوله داخل منطقة البحث، وامتدادها في مناطق أخرى.

وحين تناول الباحث مفهوم «الايكولوجيا» والبناء الاجتماعي، لم يكف بالوصف التقليدي^(١) للظروف والعوامل البيئية والجغرافية في المنطقة، وإنما امتد اهتمامه - وهو هنا يؤكد المفهوم العلمي للايكولوجيا - إلى دراسة العلاقات المتبادلة (أو التفاعل) بين الإنسان والبيئة «فلا البيئة وحدها»، ولا الأساليب الثقافية بمفردها، يمكن أن تفهم الواحدة منها بعيداً عن الأخرى، كما أن كلاهما يفتردها لاستطيع أن تعطي صورة صحيحة للشخصية المميزة للمنطقة ولسكانها في علاقاتها المتبادلة»، ولذلك فهو حين عرض للنظريات الجغرافية الثلاثة^(٢) التي تميز المنطقة، ومن خلال عرضه لسماها الناحية شديدة التمايز^(٣) حاول الباحث أن يربط كل تلك العوامل البيئية والطبيعية بالأنشطة الاقتصادية المحيطة لسكان المنطقة المتباينين جميعاً وكتلة وعرقاً^(٤)، وبأنماطهم السلوكية المتباينة، وعناصر حياتهم الثقافية المختلفة، بحيث قدم صورة رائعة لنوع المواءمة الحادث بين الإنسان والبيئة، والذي يضمن للمجتمع بقاءه واستمراره.

والقاسونية والسياسية، باعتبارها فئة تنظيمية تؤدي وظائفها المختلفة في محيط الموضع الجغرافي للمجتمع. وتساؤل الباحث عن العوامل التي تؤدي إلى تزايد الناس في إقليم ومدينة صفرو، ويجيب على تساؤله من خلال تقديمه الصور الثقافية الجمعية التي يصنفها في فئتين رئيسيتين، تقسم الأولى بعض المفاهيم الثقافية كالأصل والموطن الإقليمي والقرابة، وهي العوامل التي تسهم في تحديد ورسم سمات الشخصية الاجتماعية المميزة، وتضم الفئة الثانية بعض المفاهيم الثقافية الأخرى كقوى الالتزام (أو القهر أو القسر) والالتزام (أو الطاعة أو الخضوع) وعوامل الميل (أو النزوع) إلى جانب علاقات التفاوض، باعتبارها جميعاً قوى أو عوامل أو إمكانات متصلة في الأفراد، وتتحدد عن طريقها - ومن خلال أدائها لوظائفها المختلفة - العلاقات المتبادلة بين الأفراد، فتتشعب وتوسع من ناحية، أو تضيق وتتكسب من الناحية الأخرى.

ولم يكف الباحث هنا بحصر وعرض الأطر التنظيمية ومفهوماتها الثقافية المحددة، وإنما اهتم بالتأكيد على العمليات الثقافية التي ينظم من خلالها أعضاء المجتمع أساليبهم الاجتماعية ليمتكنوا من نسج شبكات من العلاقات الاجتماعية المجمعمة، فعرض من خلال

(١) المنظر بالجغرافيين، والذي لا يتم بإزاء الدلالة الاجتماعية أو الثقافية لكل تلك العوامل والظروف.

(٢) الأول هو السهول الممتدة من قرب ساحل المحيط الأطلنطي إلى حافة جبال أطلس الوسط حيث توجد مزارع الحبوب المكثفة، والثاني هو جبال أطلس تانيا والتي تقع فيها الزراعة بشكل ملحوظ. وهم وجود بعض الحدائق المنزلية - وتعمل عليها مراععي الأغنام والماعز، أما النطاق الثالث فهو تلال السهوح (أو الدوير) الذي يترصد انطلاقين السباكين، ويضمين بوفرة بتابع الجبل اللازمة للزراعة وللحفاظ على واديه تقع الزراعة التي تضم مدينة صفرو.

(٣) تتفاوت نسبة الأمطار ودرجات الحرارة والضغط في المنطقة تفاوتاً حاداً خلال السنة الواحدة ومن سة إلى أخرى ليس فقط بين المناطق الثلاثة، وإنما أيضاً في النطاق الواحد من تلك المناطق.

(٤) طبقاً للتمايز العرقي بين أهل صفرو وينقسم السكان هنا إلى مجموعتين هما العرب والبربر، ولكل مجموعة منها سماتها الثقافية والاجتماعية المميزة. ولقد سبق أن عرضنا تفصيلياً لهذا الموضوع في منطقة المغرب العربي والمصحراء الكبرى - انظر - عادل حل مصطفي - التضخم في موريتانيا - دراسة في الآثار الأوروبوية الحضارية لمدينة تانكسوط (وسيلة مكتوله غير منشورة) - مكتبة الأناضول - جامعة الإسكندرية، ١٩٨٠.

المختلفة والدين والبناء الاجتماعي الكلي من تأثير على محو - أو على الأقل التقليل من - تلك التمايزات .

(٢)

أما المقال الثاني المعنون « السوق - اقتصاد البازار في صفرو » ، فقد كتبه « كليفورد جيرتز » ، أستاذ العلوم الاجتماعية بمعهد الدراسات العالية ببرنستون . وتنصب الدراسة هنا على السوق من ثلاث زوايا مختلفة :

فمن ناحية ، باعتباره مكانا فيزيقيا تتم فيه عمليات البيع والشراء ، كما تتم فيه بعض عمليات التبادل أو المبادلة المعروفة « بالمقايضة » . وهو كمكان تغد إليه أعداد غفيرة من التجار والمشتريين وكذا الحرفيين ، من أهل صفرو والمناطق المحيطة بها لممارسة العمليات التجارية المختلفة . وينقسم السوق في صفرو - وهي سمة مشتركة بين جل إن لم يكن كل المناطق في المملكة المغربية - إلى ثلاثة قطاعات رئيسية ، أولها : المراكز التجارية الدائمة في المدينة القديمة^(١) وخارجها بما تضمه من حوانيت تعرض سلعا وبضائع متنوعة ، وثانيها : هو السوق الدوري الذي يعقد أيام الخميس من كل أسبوع ، وتعرف أقسامه المختلفة بما يعرض فيها من سلع وما يقدم فيها من خدمات حرفية مختلفة ، وأخيرا : منطقة الاعمال التي تقع في محيط المدينة الحديثة ، وتكتسب الطابع الغربي ، وهي تضم بعض المحال التجارية والورش والمصانع الصغيرة التي تعرض أو تنتج سلعا مختلفة كالادوات الكهربائية وقطع غيار

وينظرة مقارنة بين مجتمعين متقابلين ، المجتمع الريفي (الأقليم) والمجتمع الحضري (المدينة) عرض الباحث للتنظيمات المختلفة التي تؤلف البناء الاجتماعي من منظور سياسي بحث ، فقدم عرضا مستفيضا لنظام الحكم الرسمي وغير الرسمي ، ولطرق التقاضي للمنظمة والتصالح الودي ، وللقانون والعرف ، وباختصار لكل ما يؤدي إلى حفظ النظام الداخلي ، أو ما من شأنه أن يمنع الصراع العنيف للممر بين الأفراد .

ويخلص الباحث من كل ذلك إلى أن الفرد في « صفرو » يكتسب سمات شخصية مميزة من خلال عوامل الأصل والموطن الأقليمي والقرابة ، وكلها عوامل متداخلة يصعب تمييزها بدقة ، وإن كان في مصطلحات السكان المحلية ما يشير إلى إمكان تمييز الواحد منها عن الآخر ، كأن يشار إلى أحدهم مثلا باسم المنطقة التي وفد منها - أو بمعنى أدق التي ولد فيها - أو باسم القبيلة التي ينتمي إليها ، أو العائلة التي انحدر منها . . . ويرى الباحث أن تلك العوامل تكسب الشخص السمات المميزة حتى بعد أن يهاجر من موطنه الأصلي أو يتفصل عن جماعته القرابية أو القبيلة ، ويظل يحمل تلك السمات إلى أن تلويب شيئا فشيئا في مجتمع المدينة الذي يتسم هو ذاته بسمات أخرى حضرية تطفئ على الأصل والموطن الأقليمي والانتها القرابي . وهنا يخرج الباحث بنتيجة مؤداها أن تداخل تلك العوامل معا (وإن كان كل منها على حدة يؤدي إلى التمايز الشخصي) « يلعب دورا هاما في الحد من التوكيد على التمايزات بين الأفراد ، فضلا عما للمفهومات الثقافية

(١) - تضم كل مدن المملكة المغربية عمورا إلى تسعون : أحدها يطلق عليه « المدينة القديمة » وهي المدينة الوطنية التي أسسها ويسكن فيها أهل المغرب الوطانيون من العرب والبربر . وتسمى باباتها القديمة الخلاصة وشوارعها الضيقة للثوية وتفضل بين الأحياء فيها أسوار عالية ذات أبواب ضخمة . ولعل من أهم ما يميز تلك الأحياء هو وجود « الحداد العام » . والحداد الثاني هو ما يطلق عليه « المدينة الحديثة » وهي التي أسسها الفرنسيون ويسكنها الأجانب وبعض التوسرين من المغاربة . وتفتقر بالمعنى الأوروبي عموما .

رجال القبائل من العرب والبربر وهم يمثلون - باعتبارهم أفرادا وليسوا جماعة أو فئة أو طبقة - حشدا ثانويا أو هامشيا ، بالنسبة لغيرهم من أفراد المجموعة الأولى .

ولا يكتفي الباحث بسرد صور السوق الفيزيائية والثقافية والاجتماعية مسالفة الذكر ، وما قدمه من بيانات احصائية - وملاحق - مختلفة عنها ، ولكنه يحاول أن يربط السوق كنظام اقتصادي بنظام آخر ، ربما يبدو أنه على طرف نقيض من ذلك النظام الاقتصادي ، وهو النظام الديني ، وعلى الأخص « الإسلام » . . . ثم « اليهودية » ، وما يربط بينهما من نظم فرعية أخرى . إلا أنه حين تحدث عن المجتمع المحلي اليهودي ، لم يتحدث عنه باعتباره نظاما دينيا ، وإنما باعتباره « جماعة عرقية »^(٦) لها دورها المؤثر والفعال في السوق وفي عديد من جوانب النشاط التجاري في صفوه على وجه العموم .

ومن النظم التي قدمها الباحث باعتبارها نظما فرعية تندرج تحت الإسلام ، كنظام ديني أكبر ، فضلا عن تأثيره في سلوكيات الممارسين^(٧) - ولها دورها الاساسي في مكونات النظام الاقتصادي - نظام (الحبوس) أو الوقف ، ونظام الزاوية (أو الاخوان أو الطريقة الصوفية) . فمن ناحية يرى الباحث أن النظام الاول (الحبوس) له تأثير على الملكية أو بمعنى أصح على حق الانتفاع والايجابات ، وكذا على الزايدات التي تتم على أملاك الحبس . ومن الناحية الأخرى ، فإن نظام الزاوية يؤثر على نظام تقسيم العمل ، وعلى الأخص على الجانب الحرفي منه ، وعلى ترتيب الحرف على سلم

السيارات والاثاثات الخديثة . . . فضلا عما تضمنه من هيئات الخدمات كمكتب البريد والمصرف . . .

وعتمة الدراسة من الناحية الثانية برسم صورة ثقافية للسوق تبرزه متمایزا عن بقية الأسواق الشرقية الأخرى (البازار) التي تنتشر في شمال افريقيا وفي الشرق الأوسط عموما . فهو يعتبر معرضا لفن الزخرفة والنقش العربي « الارابيسك » وربما لا يدانبه في هذا المجال سوى القليل جدا من أسواق شمال افريقيا وعلى الأخص في مصر حيث توجد على سبيل المثال منطقة خان الخليل ، والمتخصصة في تجارة العاديات . كذلك يتميز السوق في صفوه عن بقية أسواق الشرق باعتباره ليس نسقا ثقافيا في ذاته بقدر ما هو جزء من نظام ثقافي أكبر ، أو باعتباره جزءا متكاملًا ومتلاحقا ومتفاعلا مع بعض النظم الفرعية من نظام أكبر هو « الإسلام » . وأخيرا - وربما تكون هذه هي السمة المميزة والأكثر وضوحا لسوق صفوه وأسواق المملكة ككل على الأقل حتى الآن - هو سيطرة المجتمع المحلي اليهودي على السوق وتأثيره القوي على وظيفته وعلى التجارة وتطورها فيه .

ومن الناحية الثالثة ، تهتم الدراسة بالسوق كمجال أو كوسط اجتماعي تنتمي فيه جماعات وثقات (أو أفراد) متغايرة ، يصنفها الباحث في مجموعتين رئيسيتين ، الأولى وتضم اليهود وأهل صفوه « الاصليين » ، وهم قلب السوق ومحور النشاط فيه ، اذ هم المسيطرون على كل أنواع الأنشطة فيه (تجارة - حرف - سمسة - مزادات - صلفيات والثانية وتضم

(٦) الجماعة العرقية هي جمع من الناس ، يتوحد الى جماعة أكبر أو الى شعب أكبر ، ويشاركون في اللغة سلوكية معينة متميزة عن تلك التي يشارك فيها غيرهم من اعضاء الجماعات الأخرى ، وتقوم بينهم وبين هؤلاء الغير علاقات من نوع معين في إطار تسن اجتماعي عام يجمعهم جميعا .

(٧) يرى الباحث أن بعض الصور التالية المؤثرة الى حد كبير في نظام السوق ولي المسلمات التجارية حودا معروفة من الإسلام أصلا أو على الأقل متأثرة به . ومن هذه الصور : الصلح ، والفلة ، واللائة ، والقدرة أو الإنكابة . .

المجتمع - فهي ما زالت تؤثر في نشاط السوق والتجارة ، فمثلا تحولت الفنادق إلى بيوت تجارية ثابتة تضم مئات المحال والورش في السوق الدائم ، وتحول نظام القروض إلى عمليات وإجراءات مالية أكثر تنظيماً - كنظام الشركات - يتقاسم فيها الممول والتاجر الربح والخسارة معا ..



بعد . . فانه من الجدير بالذكر هنا هو أنه على الرغم من أن مدخل الباحث هو المدخل الاقتصادي ، فإن التركيب البنائي للظواهر الثقافية ، أمل عليه ضرورة التعامل مع ظواهر أخرى غير اقتصادية ، فضلا عن أنه مكثه من أن يعطي صورة شاملة ومتكاملة عن المجتمع ، من خلال الدراسة الاقتصادية .

(٣)

والموضوع الثالث الذي يحتوي عليه الكتاب ، والذي يشير مؤلفوه إليه - في اصرار - باعتباره « مقالا » ، فهو مجموعة ضخمة من الصور الفوتوغرافية التي التقطها « بول هيمان » عن « أهل صفرو وأطلس الوسط » . ويول هيمان ليس واحدا من العاملين في الحقل السوسولوجي أو الميدان الأنثروبولوجي ، وإنما هو - على نحو ما سبق أن أشرنا - مصور محترف ، رافق مؤلفي الكتاب في ميدان البحث لمدة أربعة أشهر خلال عام ١٩٦٩ ، وإنكب على التقاط الصور بنفسه وبدون توجيه من أحد . ويحساسه الفنية استطاع أن يقدم مجموعة مكونة من أربع وستين صورة تعتبر - على حد

متدرج^(٨) إلى جانب ما يستتبع ذلك النظام من عمليات تكافلية - في المجال الحرفي أيضا - تقوم بين جماعات المساعدة المتبادلة التي يطلق عليها (الحنطة) .

وإذا كان الباحث قد استطاع أن يحلل بعض النظم الاسلامية الفرعية ويربطها بالنظام الاقتصادي ، ويوضح تأثيرها على السوق ، فانه بنفس المقدرة استطاع ان يقف على دور المجتمع المحلي اليهودي في التأثير الموجه والمطور لنظام السوق والتجارة عموما في المنطقة .

ومن خلال عرض تاريخي بارع ، قدم الباحث صورا لبعض النظم الرئيسية التي كانت تنظم التجارة بوجه عام في مجتمع صفرو مثل نظام « الفتنة او التزل » الذي كان يعتبر مركزا تجاريا هاما في طريق القوافل يؤمه كثير من المشاركين في النشاط التجاري ، ونظام « القروض أو السلفيات التي كانت تعطي للتجار من قبل الممولين - وأغلبهم من اليهود - لتعود اليهم مع نسبة ربح متفق عليها سلفا في حالة نجاح التجارة أو ليحملوا وحدهم (أي الممولون) الخسائر في حالة فشل العمليات التجارية التي تمت عن طريق التجار الذين كانوا يتمتعون بكامل الحرية في توظيف تلك القروض سواء كانت من القروض أو السلع ، وأخيرا نظام « الزطاطا » الذي يعنى اقتصاديا « رسوم الصبور » وكانت القوافل التجارية تدفعها لرؤساء القبائل أو لحكام المناطق حين تعبر أقاليمهم نظير المرور والحماية والضريبة معا .

وعلى الرغم من ان تلك النظم قد اخضعت تلمعا الآن في مجتمع صفرو ، فإن الباحث استطاع ان يكشف عن استمرارية ومخالفاتها - بعد ان تطورت بما يتلاءم وتطور

(٨) تبدأ من الجبلين وبالي الملائس وبحار الحرير والصوف باختيارها حركا أو مهنا حليا وثقاة (وتنتهي بالبيد الفاتكة والآخر والباية الجبلين عموما ، فضلا من الحدادين باختيارها مهنا أو حركا دورية أو مهنية) .

« يعني اللفظ حركيا عند البربر : قطعة صغيرة من الخشب .

التعبير عنها بالصورة أصدق تعبير ، بل ان الكلمة المكتوبة قد تقف أحيانا عاجزة عن الوصف الدقيق لها . لكن هل عناصر الثقافة المادية تعنى في ذاتها - أو بمعرفها - شيئا ، وبدون أن ترتبط بعناصرها الأخرى اللامادية؟ وثانيتهما هي معلومات وحقائق ذات دلالة كيفية أو نوعية أو لا مادية ، وأمامها تقف الصورة - حتى الآن - عاجزة عن التعبير عنها أو وصفها . ان مثل تلك الحقائق والمعلومات تحتاج الى باحث ماهر ، يلتقط صورا لها « بحواسه المدربة جميعا » ، والتي تعتبر حتى الآن الوسيلة الفعالة في البحوث الأثروبولوجية ، ان أحكم استخدامها .

وإذا كانت الصورة لا تستطيع أن تعبر إلا عن الحقائق المادية الملموسة ، فلها من ناحية أخرى بعيدة عن أن تكون أداة تحليل وتفسير (١٠) فلاهتمام بتفسير سلوك الناس ، بمقارنته بما يقابله في نفس المنطقة أو بمجمله في مناطق أخرى ، أو في ضوء المواقف الاجتماعية المختلفة ، يتطلب نوعا من الدراسة المركزة الثانية - عبر فترة طويلة نسبيا - والقائمة على ما اصطلح على تسميته بالطريقة الأثروبولوجية التي تتيح جمع البيانات والمعلومات ، عن طريق المقابلات الحرة أو المفتوحة والتي ترتبط ارتباطا شديدا بالملاحظة بالشاركة ، كما تستخدم كل الوسائل والأساليب المتاحة ، ومن بينها الصور وأيضا البيانات الاحصائية . وتعتبر وسيلة جمع البيانات والمعلومات عن الحقائق والمواقف الاجتماعية المختلفة هي خطوة أولى (فقط) تأتي بعدها خطوات أخرى ، لترتقي بالمعلومات الوصفية الى مستوى أعلى من التجريد ، أي بتحويل تلك المعلومات الى رموز ذات دلالات ومعان ، تتيح الفرصة للتحليل الدقيق

قول المؤلفين - بجالا مرتيا للحياه فى صفرو دون حاجة الى تعليق مكتوب (٩) .

والواقع أن الغرض من الصور والرسوم والأشكال التي « يزين » بها الباحثون عادة مقالاتهم ، هو في المحل الأول محاولة لتوضيح شيء ما ، أو لتقديم دليل أو برهان على شيء ما فهي وسيلة لإيضاح أو تدعيم لحقيقة قائمة أو لموقف معين . لكن المؤلفين هنا يقولون إن مجموعة هيمنان المصورة « تريد أن تقول شيئا ... أنها رؤية ... ورمز ... وتأويل ... لصفرو ولحياة الناس فيها » . فهل هي بالفعل كذلك ؟

ان الصورة - وبخاصة الثابتة - لم تستطع حتى الآن - ومعرفها - أن تقول شيئا ، وإن هي استطاعت ، فإن ذلك لا يتعدى مجال العناصر المادية من ثقافة شعب ما أو مجتمع ما . فمثلا الصور التي بين أيدينا تقدم لنا شكل الملابس والمسكن وأدوات العمل ونوعه ، وأماكن ممارسة بعض أوجه النشاط في المجتمع ، كاللمدرسة والسوق والمرعى والمسجد ، كما أنها توضح بعض السمات والملامح الفيزيائية الظاهرية لأهل صفرو ، لكنها لم تقل شيئا عن العلاقات المتبادلة بين الناس في كل تلك المجالات ، ولم تقدم لنا شيئا هاما عن النظم والانساق الاجتماعية التي يتألف منها بناء ذلك المجتمع . إنها تبرز فقط « المظاهر الثقافية الخارجية » ، أما ما وراء تلك المظاهر ، فما زالت عدسات المصور قاصرة عن ادراكه أو الوصول اليه لاستخلاصه وتوضيحه . ان السلوك البشري ، والثقافة الانسانية يمدانا بفتحتين من المعلومات والحقائق ، احدهما معلومات وحقائق ذات دلالة مادية بحتة ، وهذه يمكن

(٩) كاجراه تنظيمي يتعلق بالشعر وضع مؤلف الكتاب في حافة المجموعة المصورة كالمجموعة تصف كل صورة على حدة .

(١٠) باستثناء تلك التي تستخدم في الاختبارات الاسقاطية .

والتفسير الصحيح ، وهو ما لم تستطع مجموعة هيمان أو غيرها من الصور أن تقترب منه

وهكذا يتضح أن صور هيمان « العشوائية » لم تكن رؤية ورمزا وتأويلا لصفرو وحياة أهلها كما يقول عنها مؤلفو الكتاب ، ولكنها كان من الممكن أن تقول شيئا لو أنها كانت موزعة على المقالات التي يحتوي عليها الكتاب ، ولاستطاعت أن تسهم بطريقة فعالة « كوسيلة » للتوضيح والتوكيد لبعض ما جاء في تلك المقالات من حقائق ومعلومات وبيانات .

(٤)

أما المقال الأخير « معاني الروابط العائلية » الذي كتبه هيلدرد جيرتز « رئيسة قسم الأنثروبولوجيا بجامعة برنستون ، فيدور حول الحياة العائلية المغربية ، وما يحكمها من قواعد ومعايير ثقافية تنظم أنماط السلوك والتصرفات داخلها ، وتحدد شكلها الخارجي ، وذلك عن طريق تحليل شبكات العلاقات الشخصية القائمة بين أعضاء إحدى العائلات المغربية كبيرة الحجم ذات الأصل العربي الممتد والتي تتمتع - كوحدة كلية - بثراء واسع وملحوظ في منطقة صفرو . وقد قدمت الباحثة - من خلال تلك العائلة ، والوحدات الأصغر (الأسر) التي تتكون منها ، والتي تتمركز في أحد أحياء المدينة في بيروت متلاصقة ، وإن كان لها امتدادها في كل المملكة المغربية ، وأيضا في خارجها^(١١) - صورة حية للتفاعل العائلي اليومي في صفرو (كالعلاقات التي تجمع بين

النساء في العائلة ، وعلاقات تجنب الذكور داخل السكن للأنثى اللاتي يتجنبن دالها من الأعراب ، وعالم الأطفال المرتبط بعالم النساء . . .) ، والدور الذي يلعبه كل عضو من أعضاء العائلة ومكانة كل منهم بالنسبة للآخر . ولم تقف الباحثة عند حد رسم صورة وصفية لحياة العائلة ، بل حاولت أن تفسر في أكثر من موضع المواقف الاجتماعية المختلفة التي يشترك فيها أعضاء العائلة ، والأفعال وردود الأفعال المختلفة بينهم أو طرق التعامل والسلوك والتصرفات فيها بينهم ، من خلال « مصطلحات القرابة » المحددة والوصفية ، مستعينة في ذلك ببعض الصور والمبانيء الثقافية التي تحكم مثل تلك العلاقات ، ومنها على سبيل أمثال « الصداقة » التي تقوم على أساس التماثل بين الأعضاء المشتركين فيها ، و « المعاضدة » التي تقوم على العكس من ذلك تماما ، أي على أساس من التفاوت والتمايز^(١٢) وتؤكد الباحثة أيضا على عامل « المصلحة المشتركة » أو « الهدف المشترك » بين وحدات العائلة الأصغر والتي (أو الذي) تتمثل في الكسب المادي أو الدخل الذي تقوم عليه حياة كل أسرة ، كما يتحدد عن طريقة « العائل » الذي يستطيع أن يحصل على الدخل لمصلحة أعضاء الأسرة ككل ، ومن ثم يصبح المحور الأساسي الذي تدور حوله كل شئون تلك الأسرة ، فهو مصدر الفعل الاجتماعي ومركز العملية الاجتماعية فيها ، بالنسبة للمعتمدين عليه . لكن هذا العائل في نفس الوقت يعتبر « معولا » بالنسبة لغيره من كبار أو أثرياء العائلة الآخرين ، وتقوم بين الطرفين علاقة « معاضدة » ، يصبح فيها العائل « الجديدي » مسيطرا ،

(١١) تؤكد الباحثة على أن الزيارات للخدمة بين أعضاء العائلة ، تؤدي إلى تغيير واعتزال المسافة القريبة التي تصل بينهم .

(١٢) للمقصد بعلاقات المعاضدة هي تلك العلاقات التي تقوم بين طرفين غير متكافئين - كالعلاقة بين الوالدين وطفلهما - والتي تلخص في إما علاقة سيطرة من ناحية ، وخصوص من الناحية الأخرى ، أو هي علاقة رعاية أو رعاية من ناحية ، واعتماد من الناحية الأخرى . وسرر أن مثل تلك العلاقات تعتبر من العوامل الثقافية الهامة التي تعمل على تدعيم واستمرار الجامعة العائلية الكبرى كوحدة واحدة متميزة .

مثل ذلك الشخص الخاصة أو بمأونة الآخرين . وإذا كانت ثروته - عند مماته - توزع بين أكبر عدد من أقربائه ، فإن مركزه الاجتماعي أو السياسي أو الاقتصادي لا يورث بل يظل لصيقا به حتي بعد الممات . لكن هذه الفردية وإن كانت تؤدي إلى التفاوت بين الاعضاء داخليا ، فإنها تضفي على الأسرة أو العائلة من الخارج (أو ككل) سمة مميزة ترتبط بالمركز الذي حصل عليه أحد أعضائها .

وربما من أطرف الموضوعات التي تطرقت إليها الباحثة في مقالها المضطرب^(١٤) هو موضوع « الأسماء والألقاب » التي تطلق أو تخضع على الشخص منذ ولادته وفي مواقف أخرى مختلفة . فالشخص في الأسرة المغربية يطلق عليه اسم « شخصي » عند ولادته ، يؤخذ عادة من بين أسماء الرسل والأولياء وأبطال الاسلام ، ويظل ينحادي به داخل حدود الأسرة ، ولكن حين تتسع دائرة أو شبكة علاقاته ، تطلق عليه أسماء أخرى تضاف إلى اسمه الشخصي لتمييزه عن الآخرين الذي يشتركون معه في نفس الاسم . وهذه الأسماء الجديدة ترتبط بقلب العائلة التي ينتمي إليها أو بموطن إقامته أو بمهنته أو سمة مميزة فيه . وهناك فئة أخرى في هذا المجال هي « الألقاب » وهي في أغلبها ألقاب تشريف إن لم تكن مرتبطة بمهنة أو بحرفة معينة ، كالشريف ، أو سيدي ، أو مولاي . . . ولعل من أهم الوظائف التي تؤديها تلك الأسماء والألقاب - إلى جانب دورها في تحديد شخص بعينه من بين أشخاص آخرين يشاركونه نفس الاسم الشخصي - هي أن بعضها قد يضيف على الشخص أو

ويصير « المولود » معتمدا عليه ، وتمتد سيطرة العائل إلى أعضاء أسرة المولود حتى في غيابه الفيزيقي عنهم . وترى الباحثة أن ترحيب كل عائل بزيادة عدد المعتمدين عليه ، لا يعود فقط إلى أن هؤلاء المعتمدين يعتبرون معاونين له في شؤونه الخاصة ، أو إلى ضمان استمرار فرض سلطانه عليهم ، ولكن أيضا - وأساسا - لأن مثل تلك العلاقات تعطي للعائلة ككل وحدتها ، باعتبارها تتألف من وحدات تعتمد بعضها على البعض الآخر ، رغم ما فيها من تمايزات داخلية ، ورغم التفاوت الحاد بين وحداتها^(١٥) وتعتبر هذه هي أهم وظيفة لمثل تلك العلاقات .

وقد اهتمت الباحثة بإبراز التفاوت أيضا في الأسرة الواحدة ، من خلال عناصر فيزيقية كالسن والجنس ، فالنساء والأطفال ، وحتى البنات من الأخوة والأخوات - إن لم يكن لبعضهم مصدر خسارجي للدخل - يظلون خاضعين لسلطة « العائل » الذي يجمع في يد كل مصدر للثروة في الأسرة ، وفي اليد الأخرى كل السلطان على شئونها .

لكن ليست العناصر الفيزيقية وحدها هي سبب التفاوت بين أعضاء كل أسرة وأعضاء العائلة ككل ، فهناك عامل آخر - ربما أكثر أهمية في تأكيد ذلك التفاوت - هو عامل « الفردية » . فالفردية - ليس في الأسر أو العائلة فحسب ، بل وفي المجتمع المغربي ككل - لها دور هام في إكساب الشخص مركزا اقتصاديا واجتماعيا وسياسيا معينا ، ويتوقف ذلك على جهود

(١٣) نتم الباحثة بإظهار تلك التفاوت من خلال مظهر مالي يسهل تشكيل للمبصر وثلاث للسكن . .

(١٤) عرضت الباحثة لمهام العلاقات والنظم التي تنتج تحت انبساط القرابة والمصاهرة ، كالزواج والأجارات التي تسبق أو تلتق به كالحفلة والمنهر (الملاك) ، والطلاق والارث والملاقات بين العائلات والأصهار المباشرين وغير المباشرين . . . وقد عرضتها لاحقا هنا .

الكتاب ، وكلها - رغم انفصالها وكما سبق أن أشرنا - تعطي صورة واضحة للحياة الاجتماعية في صفرو من مداخل وزوايا مختلفة . والكتاب وإن كان قد أسرف في عرض حقائق وصفية عن المجتمع المغربي - إلى جانب ما جاء في الملاحق العديدة (١٥) - فإنه في نفس الوقت قد نجح في تحليل وتأويل بعض تلك الحقائق والبيانات ، تحليلًا وتأويلًا ثقافيا عميقًا .

يؤكد فيه سمة معينة ، وبعضها الآخر يحدد المكانة الاجتماعية التي يحتلها الشخص . وهي بذلك تؤدي دورا هاما في تحديد الطريقة التي يمكن أن يعامل بها هذا الشخص ، وما ينبغي أن يراعى الآخرون في سلوكهم وتصرفاتهم إزاءه .



هذه باختصار ، أهم الموضوعات التي جادت في



(١٥) يضم الكتاب ٥١٠ صفحة من الحجم الكبير ، فضلا عن ٦٤ صفحة أخرى مصورة .

لعبت ثنائية المصادقة والأوضاع دورا ظاهرا في حياة العالم الإيطالي باريتو . فقد ولد لأب من جنسية . . وأم من جنسية ثانية . وولد في دولة . . ثم دفن في دولة ثانية وحصل على مؤهل علمي . . ثم نقل تخصصه نقلا تاما الى مجال ثان مختلف تماما .

وتزوج مرة أولى . . . ثم مرة ثانية .

وقضى معظم سنوات عمره يدافع عن مبدأ الحرية . . ثم شايخ وأيد قرب وفاته مبدأ ثانيا مختلفا تماما .

وحق الكتاب الذى نحن بصدد تقديمه تحت عنوان :

باريتو الآخر **The other pareto** كان كل هم كاتبه **placido bucolo** أن يظهر الصورة الأولى الحقيقية لباريتو والتي تختلف تماما عن الصورة الثانية التى رسمت في ذهن معاصريه الإيطاليين ومن تبهم وهي صورة غير محيرة رسمتها اتجاهاته الأخيرة . قبل وفاته مباشرة ، عندما أيد الفاشية كنظام للحكم في إيطاليا ، وامتنح زعيمها موسوليني ، فارتبطت ذكراه في غيلة الإيطاليين بهذا النظام الدكتاتوري الكريه ، وزعيمه المستبد الذى قاد إيطاليا الى الأزمات والحرب - والهزيمة .

وهكذا شادت ثنائية الأوضاع والأقدار أن تشيع باريتو بعد وفاته بصورة ثانية أيضا غير الصورة الأولى التى عاش في إطارها مدافعا عن الحرية .

وقد بذل الكاتب **Bucolo** جهدا كبيرا لإظهار الصورة الحقيقية لباريتو كعالم اجتماع واقتصاد وسياسي

من هندسة الحديد إلى هندسة المجتمع

لبيبه موسى

• **Piqcido Bucolo , The Other Pareto , Scolar Press London, 1980**

جورجوفيلي **Georgofili** بفلورنسا تناولت موضوع « التمثيل النسي في البرلمان » . وكانت هذه المحاضرة نقطة تحول في حياته وبداية تحوله من تخصصه الأصل في هندسة الحديد الى السياسة والاقتصاد والاجتماع . وكرس باريثو نفسه للدفاع عن الحرية الفردية واتسعت آفاق اهتماماته بالحرية لتشمل الحرية السياسية والقانونية والاقتصادية .

كما اهتم بموضوع القوة والتأثير والاتقاع في اتخاذ القرارات وتشكيل السياسات الاجتماعية الفعالة . وكانت المحاضرة الأولى لباريتو في أكاديمية جورجوفيلي فاتحة محاضرات ودروس متتابعة في هذه الأكاديمية وغيرها فضلا عن مقالات متعددة شملت السياسة والاقتصاد والاجتماع لغتت نظرك الكتاب والصحافة اليه ، وكانت سببا في أن يدعو رئيس تحرير جريدة الاقتصاديين لأن يشترك معه في تحرير الجريدة في عام ١٨٨٧ ، وكانت تلك نقطة تحول ثانية وكبيرة في حياة باريثو اذ هجر تخصصه الهندسي وكرس نفسه للدراسات الاقتصادية والاجتماعية وكتب مقالات أدخلته من أوسع الأبواب الى مجتمع الكتاب الاقتصاديين حيث تعرف بالمشاهير منهم .

وعندما تزوج من زوجته الأولى عام ١٨٨٩ اعتزل في فيلته في فيزول عام ١٨٩٠ واستغرق تماما في دراساته وصدرت له أبحاث ومقالات عديدة تناولت المشاكل الاقتصادية والسياسية والاجتماعية ، فضلا عن مؤلفات اقتصادية واجتماعية كان أولها في عام ١٨٩٦ تحت عنوان « دروس في الاقتصاد السياسي » . . وقد درس هذا المؤلف في جامعة لوزان ، وكان مؤلفا رائدا في الاقتصاد والاجتماع فضلا عن مؤلفه الهام في علم الاجتماع الجديد . وقد قادت هذه المؤلفات اسم باريثو

بارع يمتاز بأسلوبه الذاتي المبتكر في البحث والتأصيل والكتابة ، ودفاعه عن الحرية معظم سني حياته .

وكان **Bucolo** موضوعيا ومحايدا في تقديم باريثو الحقيقي الى القارئ ، وذلك من خلال عرض مقالاته وموجز عن مؤلفاته ليستظهر القارئ بنفسه شخصية باريثو وأبحاثه وأفكاره الاجتماعية والاقتصادية والسياسية .

وقبل أن نستعرض مقالات باريثو ومؤلفاته وتلسم أفكاره واتجاهاته ، سنعرض لتاريخ حياته عرضا موجزا .

حياة باريثو **Vilfredo pareto**

ولد في باريس في ١٥ يوليو سنة ١٨٤٨ لأب إيطالي وأم فرنسية . وكان أبوه المهندس الإيطالي رافائيل يعيش في فرنسا لاجئا سياسيا ثم عاد الى إيطاليا قبل سنة ١٨٥٤ حيث استمرت حياة باريثو في وطنه إيطاليا الذي يفخره ويدافع عنه ويموت ويدفن فيه بعد حياة حافلة استمرت خمسة وسبعين عاما كان ختامها في أغسطس عام ١٩٢٣ .

وفي باديء الأمر تخصص باريثو في علم الهندسة . وحصل على شهادة فيها من مدينة تورينو عام ١٨٦٩ . وحصل مهندسا في شركة روما للسكك الحديدية بفرعها الموجود في فلورنسا في المدة من ١٨٧٠ الى ١٨٧٣ حيث ترك عمله بتلك الشركة وانتقل الى شركة أخرى لصناعة الحديد . وعاش مع عمال المناجم والحديد ولمس فقرهم والظروف الصعبة التي يعيشون فيها . وكانت اهتماماته ودراساته في الاجتماع والاقتصاد والسياسة حافزا لربط مشاهداته العملية بدراساته وقراءاته . وبدأ التعبير عن ذاته بمحاضرة ألقاها في ٢٩ يونيو/ ١٨٧٢ في أكاديمية

تفكك المجتمع الإيطالي واضطراباته . فكتب مقالات يؤيد فيها نظام الحكم الفاشي - ويمتدح فيها زعيمها موسوليني . وكان هذا معجبا بكتابات باريتو ونكره ، ويعتبره ملهمه ومعلمه فعينه شيخا **Senator** في البرلمان .

ومن هنا ارتبطت ذكرى باريتو بذكرى الفاشية البغيضة وزعيمها الدكتاتور موسوليني وظلت هذه الذكرى عالقة بصورة باريتو عندما توفي في أغسطس عام ١٩٢٣ ، وغطت على صورته الأولى التي بدأ بها وعاش في إطارها مدافعا عن الحرية .

ان مؤلف **Placido Bucolo** بعنوان باريتو الآخر **the other pareto** يحاول أن يقدم لنا الصورة الحقيقية لباريتو ، والصورة الموضوعية له كعالم اجتماع واقتصاد وكاتب سياسي يتميز بذاتية الفكرية وأسلوبه الخاص في البحث والتأصيل ، وسعة أفقه وأسلوبه اللاذع القوي في الكتابة . وبلغت **Bucolo** نظر القراء إلى أن باريتو يترك لدى قرائه انطباعات متضاربة بل ومتعارضة أحيانا حسب وجهة نظر القارئ فيها يقرأ . فقد ينتهي الأمر بوصف باريتو بأنه مفكر عقلاني **rationalist** أو غير عقلاني **Liberal** **irrationalist** أو فاشي **fascist** مؤيد للجماعية أو الفردية **individualism** متخذًا خط نكر الفيلسوف الألماني هيغل **Hegel** أو منحازا لفكر الفيلسوف الفرنسي بسكال **Pascal** وسنحاول نحن من جانبنا أن نعرض لأفكار باريتو في شتى الموضوعات التي تناولها كتاب **Placido Bucolo**

محتويات الكتاب

قسم **Bucolo** كتابه إلى ثلاثة أجزاء .خصص الجزء الأول لمقالات باريتو ومؤلفاته التي تدور حول

ليوضع مع كبار المفكرين في علم الاجتماع خلال السنوات الأولى من القرن العشرين . فأصبح اسم باريتو يوضع إلى جانب أسماء العلماء من أمثال تونيز **Tonnies** ، ودركايم وماكس فيبر وزيمل وغيرهم . وكان تحليله للصفوة قد جذب الكثير من الانتباه ويصفه خاصة في علم الاجتماع السياسي مثلما حدث بالنسبة لأفكار موسكا وميشلز . بل لقد ذهب البعض إلى مقارنة أفكار باريتو وتحليله خاصة لموضوع الرواسب والمستنقعات بدراسات فرويد . وقال عنه آخرون أنه كارل ماركس الفاشية بسبب كتاباته التي اعتبرها الفاشيون أساسا لنظامهم .

وفي عام ١٩٠٠ حدثت تغيرات هامة في إيطاليا وكذلك في حياة باريتو ، فقد ورث ثروة عن عمه المتوفى فاشترى من ميراثه فيلا جديدة في سيلجنى وانتقل للإقامة فيها عام ١٩٠١ وهو نفس العام الذي شهد انفصال زوجته الأولى عنه . وحزن باريتو إذ هربت زوجته مع خادم واضطربت حياته وسمى للحصول على الطلاق الذي سمح له بالزواج مرة ثانية من المرأة التي وقفت إلى جانبه السنوات العديدة التي ظل خلالها مريضا بالقلب .

وقبل سنوات قليلة من وفاة باريتو كانت إيطاليا تعيش حالة من القفرى يتنازعها فيها الشيوعيون والفاشيون والمخبريون ، وقساع القانون والنظام في زحمة الاضطرابات والاضطرابات والمظاهرات وعمليات الاعتداء على الأفراد والممتلكات .

وبدا لباريتو أن إيطاليا تحتاج إلى حكومة قوية حديدية تفرض احترام القانون والنظام والضغط في المجتمع ، وتضع حدا لهذه الفوضى . وذلك ما دعاه لتأييد الفاشية عندما وصلت للحكم في أكتوبر عام ١٩٢٢ آملا في أن تكون المنقذة لإيطاليا من الفوضى التي تعيش فيها ومن

الحرية الاقتصادية والسياسية . ويتضمن هذا الجزء منه عشر موضوعا .

أما الجزء الثالث فقد شمل واحدا وأربعين موضوعا تحت عنوان مشاعر وأرستقراطيات **Sentiments and Aristocracies** ثم كان الجزء الثالث والأخير من الكتاب واشتمل على ثلاث فقط تحدث فيها الكاتب عن المعاصرين لباريتو والناقدين له . وحاول في النهاية استخلاص الوجه الحقيقي لباريتو كما قصد في البداية عند صياغة عنوان الكتاب « **the other pareto** باريتو الآخر .

عرض موجز

وحق يمكن التعرف على فكر وشخصية باريتو بغير إيحاء خلل أو تطويل على فائنا منتخار بعض الموضوعات التي تحدث عنها باريتو ، وستكشف من خلال هذا العرض مسار أفكاره وفلسفته ومنظوره الشخصي للأمور . وعلى ذلك فائنا نعرض فيما يلي للموضوعات المختارة من الكتاب .

الموضوع الأول

التمثيل النسبي - **proportional representation**

تحدث باريتو عن التمثيل النسبي في البرلمان الإيطالي وذلك في محاضرة ألقاها يوم ٢٩ يوليو سنة ١٨٧٢ بأكاديمية جورجوفيلي **Georgofili** بمدينة فلورنسا . وطلب باريتو في هذه المحاضرة بتعديل نظام الانتخاب للبرلمان الإيطالي عن طريق السماح بتمثيل مختلف الأحزاب والأفهامات السياسية حسب نسبة الأصوات التي حصل عليها كل حزب أو لفهم . وبذلك يكون

البرلمان ممثلا لجميع فئات والأفهامات الشعب ، ويضم بصفة خاصة صفوة المثقفين الذين يمكنهم عندئذ المشاركة في المناقشة وإسارة الطريق أمام قرارات الحكومة . ويوضح باريتو أن صفوة المثقفين والأذكيا في إيطاليا هي أقلية صغيرة ، وإنا لن نتحكم في إصدار القرار ولكنها ستسهم في إيضاح أفضل السبل لإصدار القرارات عن طريق مناقشاتها الواعية في البرلمان ، ومعاونتها للأغلبية البرلمانية في استجلاء معالم الطريق قبل التصويت على القرارات .

وكانت تلك المحاضرة بداية شهرة باريتو وبداية اهتمامه بمعرض المشاكل بطريقة تأصيلية تقوم أساسا على معايير عقلية ويمكن القول بأن المهندس باريتو قد تحول بهذه المحاضرة من فنه الهندسي الأصل إلى السياسة والاجتماع .

وقد ذهب باريتو في هذه المحاضرة إلى القول بأن كل مواطن ليس من حقه فقط أن يختار نوابه بل إن من حقه أيضا أن يختار برامج النواب . فال مواطنون لا يحتاجون إلى حراس **Guardians** ولكن إلى مندوبين ينوبون عنهم بوكالة محددة . فمن حق كل إنسان التعبير عن آرائه ومعتقداته بحرية حتى ولو كانت هذه المعتقدات والآراء تمثل وجهة نظر أقلية وتبدو غير مقبولة ظاهريا .

وهكذا اتجه باريتو في خطابه إلى دعم الأقلية التي ينظر إليها كصفوة ثقافية **cultural elite** والتي يعتبر نفسه منتسبا إليها . فقد استعمل محاضراته بهذه العبارة التي يقول فيها :

« إن موضوع هذه المحاضرة يشجعني على الحديث اليكم لأن النظر إلى مشاكل تمثيل الأقلية قد يكون حافزا لتسامحكم معي وأن تصبوا بصبر وتعاطف إلى واحد من يتسبب إلى الأقلية بسبب معتقداته من ناحية ، وربما أيضا بسبب كونه الوحيد غير المعروف . بين أناس مشهورين شهرة واسعة » .

في الشعب الايطالي كان دائما اقلية صغيرة جدا tiny minority وانه من الضروري تتكون هذه الاقلية من ارسال بعض الممثلين عنها الى البرلمان حتى لا تقتصر العضوية فيه على رجال متواضعي الذكاء والكفاءات .

ويقصد بباريتو في ذلك الى تطعيم البرلمان بعناصر مثقفة ومستنيرة وعلى مستوى عال من القدرة وذلك عن طريق الاخذ بمبدأ التمثيل النسبي الذي يسمح بتمثيل الاحزاب الصغيرة والتي تضم اقلية مثقفة ثقافة جيدة .

ويرى باريثو انه توجد ثلاث طرق لحث الآخرين ودفعهم الى فعل شيء ما . وتمثل تلك الطرق في : القوة ، الخداع ، الاقتناع ، force, deception, Persuasion والنسبة للطريقتين الاولى والثانية فانها ليسا من طرق الحضارة والمدنية ، بينما الطريقة الثالثة هي الوحيدة التي تتفق مع المدنية . ولهذا يجادل باريثو الاتجاه لطريقة الاقتناع في الحكم وليس الاقتناع على طريقي القوة والخداع اللتين سادتا في ايطاليا ويعتبر التمثيل النسبي في البرلمان احدي طرق الاقتناع التي ينبغي التمسك بها لصالح الحكم في ايطاليا .

٢ - وبالنسبة للنقطة الثانية التي ذكرها باريثو والتي تتعلق بمصدر سلطة الحكومة فان البرلمان عندما يمثل كل افكار ومعتقدات المواطنين بنسبهم الصحيحة أي بنسبة كل فكر الى مجموعة المواطنين المتدين اليه فان قرارات البرلمان حيثئذ الصادرة بأغلبية الأصوات سوف تكون متمشية مع تمثيل هذه الأفكار والمعتقدات . والفائدة المؤكدة التي تستفيد منها الأقلية من تواجدها داخل البرلمان تبعا لتطبيق نظام التمثيل النسبي هي فائدة معنوية تتمثل في السماح لهم بأن يتحدثوا في البرلمان وأن تسمع كلماتهم وأن ينفروا الطريق أمام قرارات الجمعية التشريعية . ومفاد هذا ان الحكومة تصبح مستمدة

ثم يتابع باريثو عرض حجته في تأكيد التمثيل النسبي قائلا :

إنه حتى يمكن الحكم على مبدأ التمثيل النسبي فانه من الضروري قبل كل شيء أن نتضح لنا رؤية واضحة عما نعتبره أفضل وسيلة للتمثيل النيابي عن المواطنين ، ثم نخلص عندئذ الى أفضل الطرق لتحقيق هذا الهدف .

ولا شك أن الآراء حول الحكومات وتمثيل المواطنين مشار خلاف بين الناس ، ومن الصعب تعدد تلك الآراء .

ويرى باريثو انه توجد ثلاث نقاط يجب النظر اليها عند اختيار افضل الاشكال لتمثيل المواطنين في البرلمان وهذه النقاط هي :

- ١ - دور الحكومة .
- ٢ - مصدر سلطاتها .
- ٣ - حدود هذه السلطة .

١ - وفيما يتعلق بالنقطة الاولى فان البعض يريدون من الحكومة ان تكون نشطة وإيجابية بصفة اساسية . فتقدم الخير للمواطنين وتقود شعبها في طريق الرخاء . وعلى العكس من ذلك فان آخرين يريدون من الحكومة ان تكون سلبية يتحدد دورها في كونها ضد الشر فقط . أي ان تقوم بدور الحارس ليس الا .

والذين يؤيدون الغرض الأول يطالبون دائما بنصيب اوfer من الذكاء والجهد والمثابرة لدى الحكومة . وهو نصيب لا يستحق به المشايرون للغرض الثاني السلمي . ولهذا فان الفئة الاولى أكثر تأليدا من الفئة الثانية لفكرة التمثيل النسبي باعتباره الانسب لتكوين برلمان يتكون من أكثر العناصر المتعلمة والذكية في الامة كلها تضم صفوة أبناء المجتمع . وعندما يصل باريثو الى الصفوة المثقفة فانه يعترف بان الجماعة المثقفة او الشطر المثقف

التأثير على أعضاء البرلمان قبل التصويت على القرارات بما قد يضمن تعديل مسار مشروعات القرارات في الاتجاه الصحيح الذي تدافع عنه الصفوة المثقة .

الموضوع الثاني

الاقتراع العام **Universal Suffrage**

ويرتبط هذا الموضوع بالموضوع السابق عليه مباشرة اذ يتحدث باريتو عن أسلوب الانتخاب في إيطاليا ويطلب بإصلاحه وذلك في خطاب مفتوح نشره في جريدة الشعب **gazzeta del popolo** ويتضمن هذا الخطاب الهجوم على الاقتراع المقيد الذي يقوم على قصر حق الانتخاب على المواطنين الذين يدفعون ضريبة مباشرة للحكومة كالملك وأصحاب المشروعات . . فقد كانت الثروة هي معيار الحكم على المواطن بصلاحيته مشاركته في شئون البلاد عن طريق استخدام حقه في الانتخاب واختيار النواب الذين يحكمون البلاد فهو لاء الملك وأصحاب المشروعات الذين يدفعون الضرائب المباشرة هم في نظر مؤيدي الاقتراع المقيد أصلح من يشترك في توجيه دفة الحكم اذ أن لهم مصالح حيوية يخافون عليها ويهمهم الدفاع عنها ولذلك يكونون أكثر حرصاً على استخدام حق الانتخاب واختيار أصلح النواب لدخول البرلمان .

ويعترض باريتو على ذلك ولا يقر بأن معيار الثروة هو أصلح المعايير لاشتراك المواطنين - في الانتخاب بل يفضل عليه معيار التعليم ويحدد اشتراط حصول الناخب على الشهادة - الابتدائية **elementary** بحيث تتواجد هيئة ناخبين واعية لأهمية الصوت الانتخابي وقدرة وكفاءة النائب عنها . ولذلك يطلب باريتو بجعل نظام

سلطاتها من مجموع الشعب بمختلف أفكاره ومعتقداته . ويصبح الشعب حقيقة مصدر السلطة .

٣ - وأخيراً فإنه بالنسبة لحدود سلطة الحكومة فيذهب البعض الى القول بأنه لا توجد حدود لسلطات الجمعية النيابية بينما يذهب الآخرون الى ضرورة وجود حدود لازادة الأغلبية بل واستبدالها المحتمل الذي قد يعصف بالحرية الفردية ويحطم كل مبدأ للعدالة .

ويعد أن عرض باريتو لهذه الأفكار هاجم السياسيين الذين يريدون إبقاء الحال على ما هو عليه في إيطاليا في تلك الأيام وطالب بقوة بتعديل نظام الانتخاب وجعله بنظام التمثيل النسبي . فإذا كان هناك مثلاً مائة ألف ناخب يتمتعون لحزب واحد وخمسون ألف ناخب يتمتعون لحزب آخر فإن الحزب الأول سيكون له مائة نائب والآخر خمسون نائباً وهذا يسمح بوجود المعارضة .

ونستخلص مما عرضه باريتو في محاضراته أنه كان مدافعاً قوياً عن الصفوة المثقة في البلاد باعتبارها أقلية لا ينبغي إلغائها وجودها وتأثيرها في اتخاذ القرارات بسبب اقتصاف البرلمان على ممثلي أحزاب الأغلبية الذين قد لا تتوافر فيهم الكفاءات الكافية .

بينما أن الأمر يختلف تماماً لما لوفحت أبواب البرلمان لتمثيل الأقلية المثقة والتي تضمها أحزاب صغيرة اذ ستساهم هذه الأقلية في عملية إصدار القرارات المستترة بحكم قدرتها على الاقتاع . وهذا يدخل عنصر الاقتاع **Persuasion** كعنصر مؤثر في الحكم ولا يقتصر الأمر على عنصرى القوة والحداد المستخدمين على نطاق واسع في ساحة الحكم ان مشاركة أسلوب الاقتاع كوسيلة في إصدار القرارات سوف تيسر في ظل نظام التمثيل النسبي الذي يكفل حل ممثلي الأقلية المثقة الى داخل البرلمان حيث تستخدم علمها وقوا حجتها في

السيطرة على الشؤون العامة . وأنا أعتقد مثلاً بقول مل Mill إن ممارسة حق الانتخاب يجب أن ينظر إليه على أنه وظيفة في الدولة . ومن أجل هذا فإنه ينبغي أن من يحمل حق الانتخاب يجب أن تتوفر فيه الثقافة والمعرفة الضرورية للقيام بمهامه بكفاءة بصرف النظر عن السوية . ولهذا فإني استبعد الشخص الأعمى من التصويت في الانتخابات . وأفضل أن يكون حق التصويت إذا أمكن هؤلاء فقط الذين اتقوا التعليم الابتدائي بنتائج طيبة . ويجب أن يكون من حق كل شخص أن يتعلم في المدارس الابتدائية . ومن هنا لن يكون الاقتراع العام مجرد كلمة خارية بل حقيقة مفيدة . كما أن فرض التعليم الابتدائي على جميع الأبناء لن يكون انتهاكاً لحرية الآباء في تعليم أو - عدم تعليم أبنائهم . فالأب الذي لا يعلم ابنه تعليمياً ابتدائياً على الأقل لا يمارس حقاً وأخيراً وإنما يرتكب أثماً في حق ابنه .

ونستخلص من خطاب باريتو إيمانه بحبوبة التعليم وضرورته للإنسان واعتباره ليس فقط وسيلة لتطوير المجتمع في مدارج الحضارة والمدينة وإنما وسيلة لإصلاح الحكم عن طريق توفير هيئة ناخبين مثقفة . تكون نافذة على اختيار هيئة نواب صالحة لحكم البلاد . كما أن باريتو لم يعتبر شرط الحصول على الشهادة الابتدائية لكل ناخب انتهاكاً لحرية الانتخاب للمواطنين وهي الحرية التي ظل مدافعاً عنها معظم أيام حياته قبل أن ينحاز إلى الفاشية في الفترة القليلة قبل وفاته .

الموضوع الثالث

الاشتراكية والحرية Socialism and Freedom

لقد تحدث باريتو عن الاشتراكية والحرية في مقال نشر في صحيفة *Il pensiero Italiano* للفكر الإيطالي

التعليم الابتدائي إجبارياً ولا يعتبر ذلك خرقاً لحرية الآباء في تعليم أو عدم تعليم أبنائهم بل هو ينظر إلى حق الأبناء أنفسهم في التعليم واعتبار ذلك حرية لهم لا يجوز مصادرتها عن طريق عدم فرض التعليم الإلزامي على الآباء وهكذا يقف باريتو بقوة إلى جانب التعليم باعتباره إحدى الطرق إلى نظام الحكم المستدير . كما أنه لا يعتبر شرط تحصيل العلم في المدارس الابتدائية شرطاً ينفي وجوده مبدأ الاقتراع العام في الانتخاب الذي يتنادى به .

وفياً يلي مقتطفات موجزة من خطاب باريتو الذي يقول فيه بأسلوبه الساحر :

سيدى العزيز :

نرجو أن تسمح لأحد المتواضعين من أتباع حزب الحرية **Freedom** أن يبدى بعض الملاحظات على أفكاره بشأن الاقتراع العام المنشور في هذه الجريدة .

« ... انني أرى أن الخطأ الذي وقع فيه الذين يريدون التطبيق المباشر لحق الاقتراع العام ، وكذلك الذين يرغبون نوعية الناخب بالثروة إنما ينبع من حقيقة كونهم يعتبرون الصوت الانتخابي حقاً **Right** أكثر منه مجرد ممارسة لواجب **duty** ضروري لمصلحة المجتمع المتمدين وطبقاً لرأي الفئة الأولى فإن كل مواطن يجب أن يتمتع بحق الانتخاب لأنه يشارك في الدفاع عن الوطن . كما أنه يدفع نصيبه في النفقات العامة للدولة عن الضرائب غير المباشرة .

أما الفئة الثانية فإنها تعرض حجتها القائلة بأن المواطنين الذين يشاركون في النفقات العامة هم فقط الذين يجب أن يتمتعوا بحق المشاركة في الحكم ومن ثم يقصرون حق الانتخاب على من يدفع ضرائب مباشرة للدولة .

ولن أذكر هؤلاء الذين يرون في الأغنياء طبقة عليا أسمى **Superior** يجب أن تكون لها شرعاً حق

نطاق واسع أما ثالثها فيركز على الحرب والاستعداد لها بالسلاح أو ما يسمى بالسلم المسلح .

أما الحماية الجمركية فانها تفيد الرأسماليين الذين وضعت الحماية الجمركية من أجل مشروعاتهم . بينما هي تضر بسائر المواطنين حيث يحرمون من ميزة المنافسة مع سلعة الرأسماليين وهي منافسة قد تشمل الجودة والأسعار . وينتهي الأمر بأن تقتصر الفائدة من وراء الحماية الجمركية على ما تحققه الصفوة المسيطرة ورأسماليا من أرباح طائلة وهي ذات الصفوة التي تؤثر على الحكومات لاستصدار قرارات الحماية الجمركية بحجة المصلحة الوطنية ولكنهم هم المستفيدون منها في النهاية .

ونفس الأمر نجده في الاحتكارات **monopols** فهي تضر بالثروة الوطنية لدرجة كبيرة وتزيد من نسبة فقر الشعب أكثر مما تفعله الحماية الجمركية بينما هي تفيد الصفوة الرأسمالية التي تتمتع بهذه المشروعات بقرارات من السلطة الحكومية . ويقدر ما يستفيد الأغنياء من الحماية الجمركية والاحتكارات فانهم يستفيدون كذلك من الديون العامة إذ يحصلون على عائد لرأسامهم أعلى مما كانوا سيحصلون عليه لو استخدموا هذا المال في الصناعة أو التجارة حيث أنهم سيقترضون الحكومة بفوائد عالية . وهكذا يزيد العبد على عامة الشعب من الفقراء نتيجة زيادة ديون الدولة ويزيد في نفس الوقت من ثراء الطبقة الرأسمالية الغنية . وكان المفروض في المشروعات العامة التي تنفذها الحكومة أن تحقق مصالح المواطنين غير أن هذا المهدف لا يتحقق لأن هذه المشروعات العامة تلمي رغبات وزفاهية الطبقات الحاكمة إذ أن نفوذ هذه الطبقات يطغى عند اقرار المشروعات والأشغال العامة بحيث تتجه الفائدة الحقيقية منها إلى صفوة الحكام والأغنياء .

في أبريل عام ١٨٩٦ وأبدى في ذلك المقال لأول مرة اهتماما كبيرا - بالاشتراكية التي أصبحت بعد ذلك إحدى الموضوعات الرئيسية في كل كتاباته - ويوضح بارييتو في هذا المقال العلاقة بين الاشتراكية ومذاهب الحماية الاقتصادية والمذاهب الحرة الأخرى وأثر كل هذه المذاهب على مستوى حياة الناس ، وتتبع القصد الحقيقي من تطبيق كل مذهب وهل هو في مصلحة عامة الشعب من الفقراء أم في مصلحة صفوة الحكام والأغنياء . فيقول في هذا الشأن إن الاشتراكية تهدف إلى تدخل الدولة لأجراء تعديل في توزيع الثروة ، على أن هذا المهدف نجده أيضا في نظم أخرى مثل نظم الحماية **protectionism** إذ تفكر بنفس طريقة تفكير الاشتراكية بصفة عامة ، ولكن لا يطلق عليها لفظ اشتراكية . ويخلص بارييتو إلى جمع الاشتراكيين وأصحاب نظام الحماية **protectionists** تحت اسم أصحاب القيود **restrictionists** وهم يختلفون عن أولئك الذين يريدون أن يكون توزيع الثروة قائما فقط على المنافسة الحرة ويطلق عليهم الأحرار **Liber-ationists** أو أصحاب مذهب الحرية .

ويرى بارييتو أن الاشتراكيين الحقيقيين يرغبون في تدخل الدولة من أجل إعادة توزيع الثروة لمصلحة الفقراء بينما أن أصحاب مذهب الحماية يعملون لمصلحة الأغنياء حتى ولو لم يقصدوا ذلك وهذا عن طريق تأييدهم للحماية التجارية والتنظيم الاجتماعي ذي الطابع العسكري **military type**

ويعد بارييتو طرق تدخل الدولة لتعديل توزيع الثروة ويقسمها إلى ثلاثة أقسام يشمل أولها الحماية الجمركية والاحتكارات والمشروعات العامة والدين العام .

ويتجه ثانيها إلى فرض الضرائب غير المباشرة على

أو الاحتكارات كما هو الشأن في احتكار صناعة الدخان والسلك الحديدية مثل تلك التي كان يعمل بها أو عن طريق اشغال الحكومة التي تطرحها من مناقصات أو مضاربات أخرى تحوها الدولة أو المجالس المحلية أو ما تجنيه تلك الطبقات من مكاسب نتيجة للحروب والاستعداد لها وما يستتبعه ذلك من نفقات حكومية وديون يستفيد من ورائها الرأسماليون . ولا يخفى باريثو نقله في هذا العرض لطبقة الصغرة المستفيدة من سياسات الحكومة التي تزيدهم ثراء . وهو يقر بضرورة تدخل الحكومة في الشؤون الاقتصادية وإعادة توزيع الثروة ولكن ليس كما هو موجود أماسه في ظل البرجوازية التي يطلق عليها بورجوازية اشتراكية **bourgeois socialist** والتي تعمل لمصلحة الأغنياء ويطلب بحكومة اشتراكية حقيقية تعمل لمصلحة الفقراء وليس الأغنياء .

ويرفض باريثو أن تسود إيطاليا صورة من صور الاشتراكية المتطرفة **excessive** فهو يقيم معادلة متوازنة بين الاشتراكية والحرية .

وعندما يصل باريثو الى هذه النقطة فإنه ينتقل الى الحديث عن النظم الحرة **liberal** ويقسمها الى نظم بدائية **apriori** وتمثل في تلك النظم التي تريد العودة بالانسان الى حالته الطبيعية البدائية وتشمل مذاهب **anarchist** **nihilist forms** والفوضوية **Herzen** **form** مثل المجتمع الذي يتحدث عنه **Herzen** هرزن وهو مجتمع بدون حكومة ودين بدون إله .

أو مثلاً يذهب **Bakunin** الذي كره الشيوعية لأنها تقضى على الحرية وتعطى الدولة ملكية الأرض ووسائل الانتاج .

وبعد أن فند باريثو كل طريقة من الطرق السابقة في تدخل الحكومات لاعادة توزيع الثروة وأوضح أن الهدف منها ليس لمصلحة عامة الشعب من الفقراء وإنما مصلحة صفوة الرأسماليين والحكام انتقل باريثو الى مناقشة استخدام الحكومة لأسلوب الضرائب غير المباشرة كوسيلة من وسائل الحصول على موارد تمديد توزيعها لمصلحة الشعب . وقال إن هذه الضرائب غير المباشرة تضاعف أعباء الحياة على الطبقات الفقيرة التي تدفع الضريبة غير المباشرة عند شراء السلعة وهي مسألة لا يحس بها الأغنياء كما يحس بها عامة الشعب الفقراء وانتهى باريثو من الحديث عن أساليب التدخل الذي تقوم به الدولة في شؤون المجتمع الاقتصادية بالحديث عن موضوع الحرب والسلام المسلح واضعاً إياه بأنه أغل أنواع الترف **most expensive Luxuries** التي تتم بها الطبقات الحاكمة ضد مصلحة الشعب ويذكر أن البريطانيين ما زالوا يدفعون ديون الحروب التي جلبتها عليهم الطبقات العليا في حربها مع الجمهورية الفرنسية ودفاعها عن ملوك أوروبا وحكمهم المطلق . ويندد باريثو في نفس الوقت بالحكومة الإيطالية بسبب النفقات الباهظة التي تنفقها استعداداً للحرب والتي لا يستفيد منها إلا أقلية صغيرة بينما زداد معاناة الغالبية العظمى من الشعب فيما يتحمله الأغنياء من نفقات الحروب لا يتناسب مع ما تتحملة غالبية الشعب في هذه النفقات . ولا يدفع الأغنياء بنسب ثروتهم نظراً لأن نفقات الحروب يتم تغطيتها معظماً بالضرائب غير المباشرة التي يتحمل عبئها سواد الشعب ولا يحس بها الأغنياء .

ويخلص باريثو من تحليله لحال المجتمع الإيطالي الى القول بأن معظم الثورات الكبيرة في إيطاليا ترجع الى إحدى وسائل تدخل الدولة في صورة الحماية الجمركية

عرض فيها لوسائل تدخل الدولة ولذاذهب الحرية الاقتصادية وانتهى الى وجوب دراسة واقع المجتمع الايطالي الذي يعيش فيه لمعرفة أصلح النظم لتطبيقها بحيث تجمع بين الاشتراكية المعتدلة والحرية التي يعيشها ويدافع عنها ، ويطالب بالاعتماد على التجربة أولا قبل تعميم أى نظام فإذا ما نجحت تجربة هذا النظام في نطاق محدود . من المجتمع الايطالي أمكن تعميمه على سائر المجتمع . وتلك كانت طريقة باريتو في التفكير التي تعتمد على المذهب التجريبي أو الأسلوب والطريقة التجريبية حيث لكل مجتمع ظروفه الخاصة والتي تتطلب استجابات مناسبة في التطبيق لأى نظام اجتماعى أو اقتصادى . وقد دفعه حرصه على استيعاب المجتمع للنظام المقترح أن يطالب بتجربة هذا النظام في قطاع صغير من المجتمع فإذا ما نجح أمكن تعميمه .

وإذا كان باريتو في تلك المقالة التي نشرها عام ١٨٩١ قد دافع عن الحرية وعن عامة الشعب بقدر ما دافع عن الاشتراكية المعتدلة وليس الاشتراكية المتطرفة ، فإنه كان يعبر في ذلك الوقت عما تتطوى عليه نفسه من ميل للحرية حيث كان على نحو ما ذكره رونالد فليشر **Ronald Fletcher** بأن باريتو بدأ كتاباته متخذاً جون ستوارت ميل **J. stuart Mill** نموذجاً له . كما يصر **Bucolo** على تأكيد هذا الوجه الحر لباريتو قبل أن يتحول من نهاية حياته الى اتخاذ جانب الفاشية ولعل **Bucolo** قد نجح في تقديم هذا الوجه الأخر لباريتو من خلال عرض وتحليل محاضرات ومقالات باريتو منذ بدأ فيلقاء أول محاضرة في ٢٩ يونيو ١٨٧٢ وبذل جهوداً مضنية في جمع هذه المحاضرات والمقالات وتبويبها وخطوط فكر باريتو وانتهى الى أن باريتو تخلص للحرية ومدافع عنها وظل **Bucolo** يكرر ذلك في صفحاته ١٩ و ٤٣ و ٧٤ ثم استشهد بقول **Zuccarini** في

فإنه الى أقصى النقيض وطالب بتعطيل الدولة وتعطيل أى تنظيم قائم في المجتمع . وهذا الذى يذهب اليه المدميون **nihilists** لا يختلف عما يذهب اليه أما القسم الثاني من النظم الحرة الذى يتحدث عنه باريتو فهو النظم التجريبية الحرة **experimental liberal systems** التى يفصح عنها التاريخ والتجربة والتي تضمنها كتابات الاقتصاديين والسياسيين والفلاسفة الواقعيين من أمثال سبنسر **Spencer** وبكيل **Buckle** ومولينارى **Molinari** ويحذ باريتو هذا الاتجاه العملي القائم على التجربة وتلمس المشاكل الواقعية للمجتمع واختيار النظام الاقتصادى الملائم له والممكن تطبيقه . فالاعلان مثلاً عن المبدأ المجرد الذى ينادى بالملكية الجماعية لوسائل الانتاج كما هو الشأن في الاشتراكية الماركسية لم يفيد شيئاً على الاطلاق اذا لم يضع في الاعتبار المشاكل الخاصة بتنفيذ ذلك المبدأ من الناحية العملية .

ويصر باريتو عن خشيتي من اعطائه هذه المهمة - أى مهمة تحقيق الاشتراكية كما يراها - الى الحكومات المعاصرة التي لا يثق في قدرتها على حل المشاكل وتقبل معاناة الشعب وينادى بضرورة دراسة كل خطوة تلزم لتقدم المجتمع الايطالي وأن يستخلف في هذه الدراسة كل الوسائل التي تسيرها العلوم الاجتماعية من أجل معرفة حقائق الأمور فإذا لم تكن تلك الوسائل كافية فيجب الاعتماد على التجربة واستخدامها بعناية في أصغر جزء من المجتمع الايطالي . فإذا ما نجحت تلك التجربة أمكن تعميمها . وهو أسلوب متبع في سويسرا والولايات المتحدة . إذ أن كل كانتون **Canton** وكل ولاية ترأب ما يحدث في باقي الكانتونات والولايات وتقلد أو تطبق كل شيء تتم تجربته بنجاح .

تلك كانت مقالة باريتو عن الاشتراكية والحرية

في الحكم أو تستند إلى حكم العادة للتوارث أو قد ترجع هذه الأسس إلى اختيار الفئة الحاكمة من جانب الأغلبية بطريقة نيابية شرعية .

ويربط باريتو بذلك الدولة بالواقع العملي للموسم للمجتمع وحياة افراده حكما ومحكومين كما يرفض الجميع الميتافيزيقية التي يستند اليها البرفسور كوليتي والاشتراكيون في اصطلاح الدولة الاخلاقية . وبهذا يكون منيج باريتو في البحث منسجعا من أسلوبه العلمي التجريبي في معالجة مشاكل المجتمع .

الموضوع الخامس

الجامعة

مقال منشور في اول مارس عام ١٨٩٥

يتحدث باريتو في هذا المقال عن الاضطرابات والقوضى وعدم احترام القانون في ايطاليا ويضرب مثالا لذلك بالجامعات الايطالية حيث تسود فيها الاضطرابات من جانب الطلاب مما يدفع السلطات لاذلال الجامعات . ويقارن باريتو حال الجامعات الايطالية بالجامعات السويسرية التي يسود فيها النظام والانضباط واحترام القانون مع التمتع بالحرية . وان الطلاب والاساتذة يجتزمون نظم الجامعة فاذا ارادوا تعديلها فان لهم الحرية الكاملة في المطالبة بهذا التعديل وتستمع لهم السلطات وتستجيب لمطالبهم اذا كانت عادلة . ومن هنا يسود السلام والنظام واحترام القانون في الجامعات السويسرية ويطالب باريتو بان يسير المجتمع الايطالي على نهج المجتمع السويسري من حيث احترام القانون وسيادة الحرية فالحرية لا تعني عدم التقيد بالقوانين كما ان التقيد بالقانون لا يعني اننا قيدنا الحرية اذ يجب ان تكون هناك ضوابط للحرية في صالح المجتمع .

صفحة ٣٠٣ من أن هذا الاتجاه الحرظ ملازما لباريتو الذي كان على يقين بأنه لن يتحقق تقدم في المجتمع بدون حرية وان كان هذا الاتجاه يمتد أحيانا تحت السطح .

الموضوع الرابع

Ethical state الدولة الاخلاقية

ينتقد باريتو في هذا المقال الادعاء القائل بأنه لا يمكن تحقيق الحرية في ايطاليا بسبب تعارضها مع مصالحها الطبقة الحاكمة . فالطبقة السائدة **dominating class** في المجتمع تعارض الحرية الاقتصادية لأنها تضر بمصالحها .

وكان باريتو في تلك المقالة يرد على ما كتبه البرفسور **Coletti** كوليتي ويتقدمه قائلا :

« أنه إذا سلمنا أن الدولة هي أداة تستخدمها الطبقة الاجتماعية الأقوى فأى فائدة يجنيها أصحاب مذهب الحرية من دعوتهم المستميتة إلى الحرية وفي نفس الوقت يثرون اليأس من امكان تحقيق هذه الحرية » .

لقد كان باريتو يدافع عن الحرية الاقتصادية ويتحدث عنها من منطلق الواقع والموسم في الحياة الايطالية دون أن يأخذ في الحسبان . وهذا مادفعه إلى انتقاد البرفسور كوليتي عندما تحدث عن الدولة الحرة **Liberal state** واصفا اياها بأنها دولة أخلاقية **ethical state** مثل التي ينادي بها الاشتراكيون .

ويرد باريتو على ذلك بأن كوليتي والاشتراكيين إنما يستندون على حجج ميتافيزيقية بينما أن الحديث عن الدولة هو حديث عن واقع وعن منظمة يحكمها الناس في ظل اسس مختلفة قد ترجع إلى القول بوجود حق الهي

ان بارتو في هذا المقال يعني حال المجتمع الايطالي ويغبط السويسريين على مجتمعهم الذي لا تمكره فوضى الاضطرابات ويضع بارتو يده على مصدر الداء في المجتمع الايطالي والمتمثل في الفوضى وعدم احترام القانون مع عدم توفر الحرية الكافية . وينادي باصلاح المجتمع الايطالي ليتبدل حاله الى افضل مما هو عليه .

الموضوع السادس

ما للاشتراكية وما عليها For and against Socialism

Socialism

كان عام ١٨٩٦ عاما سيئا في ايطاليا اثر الهزيمة الساحقة للحملة الايطالية على اثيوبيا اذ تعرضت القوة الايطالية للهزيمة واضطر رئيس الحكومة Crispi لتقديم استقالته وساد البلاد جو عام من الاستبداد الحكومي ، وزاد تقييد الحريات الفردية وتعرض السياسيون والكتاب للاضطهاد والاعتقال وكان اغلبهم من الاشتراكيين والاحرار حيث تعاون الفريقان في مقاومة استبداد الحكومة وطمعائها مما اكسبها عطف الشعب وعطف بارتو الذي وجد فيه المناضلين والمدافعين عن الحرية ضد الظلم وضد النزعة الحرية التي سادت ايطاليا وكانت مسئولة عن تخريب ميزانية الدولة وزيادة اعباء الفقراء .

وفي هذا الجو العام نشر بارتو مقالا في ٢٠ يونيو عام ١٨٩٦ تحت عنوان ما للاشتراكية وما عليها For and against socialism وقد قارن بارتو في تلك المقالة بين الاشتراكية المعارضة والبورجوازية الحاكمة في ايطاليا موضحا خطأ القاعدة الاقتصادية الاشتراكية على اساس ان الملكية الخاصة هي اساس التقدم الحضاري للشعوب . ولكن بالرغم من خطأ اساس الاشتراكية فان ما يذكره بالفضل انها التفت مع وجدان الشعب

الايطالي في شكواه من ظلم وعيوب واخطاء البورجوازيين الذين يحكمون ايطاليا . اذا فشل هؤلاء البورجوازيين في تحقيق العدالة التي يأمل فيها الشعب وكانوا يرددون شعارات جوفاء لا تجذب طريقها الى التنفيذ حيث تصطبغ بمصالح فئات كثيرة مستغيلة من نظام الحكم السائد .

ويوجه بارتو في تلك المقالة نقده للطبقة البورجوازية كما يقدم لها نصيحة بان تعدل من اسلوبها في الحكم حتى تنصهر على الاشتراكيين وتغلق امامهم ابواب استبداد عطف الشعب وتأييده لمدحهم .

ويضرب بارتو امثلة للبورجوازية الشاحجة في سويسرا حيث يوجد بورجوازيون يستجيبون لرغبات الشعب ولهذا لا يوجد ميل شعبي نحو الاشتراكية والاشتراكيين بدليل ان الشعب السويسري يرفض في الاستفتاءات تلك القوانين التي تشوبها شبهة الاشتراكية . بينما يختلف الامر في اسبانيا حيث نجد الاشتراكية ويحد الاشتراكيون مرتعا خصبا بين صفوف الشعب بسبب ظلم البورجوازية الحاكمة .

ويوجه بارتو في هذه المقالة نقدا بناء للطبقة الحاكمة في ايطاليا اذ يظهر عيوبها موضحا الطريق السليم الذي ينبغي ان تسلكه ويفتح اعينها للمخاطر التي تتعرض لها بسبب زيادة التأييد الشعبي للاشتراكيين . كما ان بارتو لا يخفي تقديره للاشتراكيين الايطاليين الذين برزوا من بين جماهير الشعب الايطالي ليعارضوا ويقاوموا السياسة الخاطئة للحكومة ، ويطلبوا بتحقيق العدالة متحملين رد فعل الحكومة المتمثل في الاعتقال والاضطهاد .

خطر الاشتراكية

مقال منشور في جريدة الاقتصاديين في شهر مايو عام ١٩٠٠ .

يستحقون الاحترام لاختلاصهم في البحث عن الحقائق . وبلي هؤلاء الاشتراكيون الاورثوذكس Orthodox Socialists وهم يتمتعون بنفوذ على الساحة العملية ويعترفون فعلا بأهمية رأس المال مثلاً يفعل الاقتصاديون كل ما هنالك انهم يريدون فقط ان يصبح رأس المال جماعيا وليس فرديا ثم يأتي في النهاية الاشتراكيون المتطرفون radical Socialist وهم الأكثر عددا والاقوى نفوذاً والأشد خطراً على المجتمع .

ويتمتع باريتو الاشتراكيين المعتدلين Ortho-Soc dox . وينظر اليهم على انهم هم وحدهم الذين سيكونون في يوم ما المدافعين عن الحرية والتفكير للمجتمع الإيطالي ويعترف بفضلهم في الدفاع عن الحرية في إيطاليا ويقر بأنهم هم وحدهم الذين يطالبون باحترام القانون والدستور والذين يقاومون الحكومة التي تزور الانتخابات بأسلوب عصابات الماليا .

ومع ان باريتو يتمتع هؤلاء الاشتراكيين المعتدلين الا انه يبدي مخاوفه منهم اذا ما وصلوا الى السلطة إذ يخشى ان يضنوا على الناس بالحرية عندما ينقلون من فئة المضطهدين الى فئة الحكام .

ولم يفت باريتو في هذه المقالة ان يشن هجوماً على الطبقة البورجوازية الحاكمة منها ايما بالعجز والجبن والتقص في مواجهة خصومها الاشتراكيين الذين يزداد نفوذهم ويطلق باريتو لأول مرة على هذه الطبقة الحاكمة عبارة « البورجوازية الجبانة » Cowardly bourgeoisie . ويحذر باريتو طبقة الحكام من ان إيطاليا في طريقها الى ثورة اقتصادية بسبب جهل وسطحية Superficialty وإهمال الطبقة المالكة التي ستجردها الثورة من كل ما تملك .

مع بداية القرن العشرين ظهرت تطورات هامة في الحياة العامة للمجتمع الاوربي والحياة الخاصة لباريتو ، وكان لذلك اثره وانعكاساته الواضحة على فكر باريتو . ففي إيطاليا تم اغتيال الملك البرتو الأول على يد احد القوميين الذين سموا الحياة الإيطالية في نظر باريتو . وفي انجلترا ماتت الملكة فيكتوريا في يناير ١٩٠١ . وقد صاحب هذه التطورات في القيادات العليا تطورات اخرى على مستوى الحكومات والجماعاتها وظهور ثقل الطبقات العاملة في أوروبا . فقد حصلت هذه الطبقات العاملة working classes على مزيد من السلطة . فقد ولد حزب العمل في بريطانيا ، بينما تشكلت اول الحكومات الحرة بمساندة وتأييد الاشتراكيين في ثلاث دول هي بريطانيا وفرنسا وإيطاليا .

والى جانب هذه التطورات العامة حدثت تغييرات خاصة في حياة باريتو إذ استثمر ميراثه من عمه في شراء فيلا خاصة في غابة سيليجني Celigny وعاش فيها حتى وفاته متحميا وجدانيا الى البورجوازيين ولكن مع رؤية صافية للتفاعلات الاشتراكية في المجتمع وفي تلك الواحة من واحات السلام والسكون في وسط غابات الصنوبر كان باريتو يتأمل الحياة بأعصاب باردة وإن كان يشارك ويشاع الجو العام السائد حينذاك والذي يقوم على الثقة المتبادلة بين الاحرار والاشتراكيين . ومع ان باريتو كان ينظر الى الاشتراكيين من ناحية كونهم حلفاء للاحرار في الدفاع عن الحرية الا انه كان يتوجس خيفة منهم اذا ما وصلوا السلطة واستولوا عليها .

فقد حذر باريتو من ضياع الحرية في ظل الاشتراكية التي يقودها الاشتراكيون المتطرفون radical social-ists اذ يفرق باريتو بين ثلاثة انواع من الاشتراكيين يذكر في مقدمتهم الاشتراكيين العلميين Scientific Socialists وهم قلة وليس لهم نفوذ سياسي ولكنهم

وتعكس تلك المقالة فكر باريتو عن دور الصفوة التي تبدو كحقيقة واضحة في كل المجتمعات والتي تتميز بحركة الأفراد وحراكهم من الطبقة الدنيا الى الطبقة العليا الحاكمة حيث لا تندوم الارستقراطيات aristocracies do not Last وتزول حتما بعد فترة من الزمن . ويعتبر باريتو ان التاريخ مقبرة الارستقراطيات ويعطي امثلة لذلك من تاريخ مختلف المجتمعات البشرية كمجتمع اليونان والرومان والجرمان وغيرها كما يرى باريتو ان الاقليات لا تزول في عددها فقط ولكن في صفاتها وميزاتها كذلك حيث تفقد تلك الاقليات قوتها Vigour ويصيبها الوهن بسبب ضعف نسبة الرواسب التي مكتنتها من كسب السيطرة والسلطة وعندئذ تكون الفرصة سانحة ومواتية لعودة صفوة جديدة للحكم من بين الطبقات الأدنى Lower يكون لها قوتها الخاصة ونصيبها من الرواسب او الصفات اللازمة التي تمكنها من الاحتفاظ بالسلطة والبقاء في الحكم الى ان تضعف ويحل غيرها محلها . فدورة الصفوة تكون في حالة تحول دائم كالنهر لا تبقى على حال ولا تصير اليوم على ماكانت عليه بالأمس حيث يحدث من وقت لآخر تطور لنظم الحكم قد يكون هذا التطور بطيئا او قد يحدث على شكل اضطراب مفاجيء وعنيف كفيضان الانهار فتتولى مقاليد الامور صفوة حاكمة جديدة لتستقر الامور وتعود لمجراها الطبيعي والمتعاد وهكذا . .

الفاشية وتعديل النظم الدستورية

Fascism and constitutional re — organisation

كانت الفوضى تسود ايطاليا لما دعا ملكها الضعيف بأن يعهد الى موسوليني في اكتوبر عام ١٩٢٢ بتشكيل حكومة جديدة . وكان البعض ينظر الى الفاشية على انها

ان باريتو في هذه المقالة يجذر البورجوازيين ويرفع لواء الخطر من الاشتراكية وسيادتها لنظم الحكم ، وهو يقصد بذلك الاشتراكيين المتطرفين وليس الاشتراكيين المعتدلين الذين يدافعون عن الحرية ويصونون المجتمع المتحضر وهكذا فان باريتو كما يقول عنه Bacolo His heart still ينض بنض الحرية beat for freedom .

هل يمكن للبورجوازية ان تجش ثانية ؟

Can the bourgeoisie rise again?

يتحسر باريتو في هذه المقالة على البورجوازية وما وصلت اليه من ضعف شديد امام الاشتراكيين الذين يتكسبون باستمرار مساحات جديدة في ساحة الرأي العام . وقد نشرت هذه المقالة في يناير ١٩٠٤ خلال فترة تجرأت بالمرارة الشديدة والتشاؤم deep bitterness and pessimism الذي ترك اثره على فكر باريتو وكتابهات ودخل باريتو في مناظرات وحوار مع كتاب آخرين على صفحات الجرائد من بين هؤلاء الكتاب Prezzolini الذي كان لا يزال يأمل في معركة حاسمة قادرة على اعادة نهضة البورجوازية ومثاليات الحرية التي كانت تدافع عنها . بينما كان باريتو يرى ان الوقت قد فات وان البورجوازيين الذين كانوا من قبل تقدميين Progressivists ويعرضون افكارا جديدة عندما كانوا صفوة لا يعد لديهم جديد يقدمونه ، وانهم دخلوا في زمن الفولم وانبيائهم ، وان مكانهم سوف تحتله صفوة جديدة ناعضة من عامة الشعب ويستبدل على ذلك من الفارق الكبير الذي يلاحظ في ايطاليا بين نشاط وحسوبة الاشتراكيين وخمول وضعف وتراجع البورجوازيين امام خصوصهم قائلا : بأن قلة من الاشتراكيين اقوياء وذو عزيمة قد همزوا الاغلبية في البرلمان الايطالي .

اذا كانت ايطاليا قد دخلت عصرا جليدا أم أنها متكرر الأخطاء القديمة التي قادت الى الفوضى . وامتلح باريتو زعيم الفاشية موسوليني ووصفه بأنه زعيم بارع ومقتدر في سياسته وإن كان باريتو قد تحفظ بعض الشيء عندما قال ان الحكم على السياسة الداخلية للفاشية يعتبر امرا سابقا لأوانه وإن كانت البداية طيبة وتنتهي بمسقبل سعيد لايطاليا .

غير ان باريتو لم يقف عند حد امتداد الفاشية وزعيمها وإنما عبر عن خوفه من استمرار الاجراءات الاستثنائية المقيدة للحرية ولهذا طالب بأن تكون تلك الاجراءات مؤقتة ولا تستمر طويلا وإن تعمل ايطاليا على حل مشاكلها الدستورية الخطرة .

وكان باريتو قد نشر تلك المقالة قبل وفاته بخمسة اشهر فقط وهذا كانت ضمن اسباب اتهامه بمشايعة الفاشية وتأييدها وهي النظام الذي نادى ايطاليا الى الحكم الدكتاتوري الاستبدادي الذي ادى في النهاية الى توريط ايطاليا في الحرب وهزيمتها واهدام زعيمها موسوليني .

كل ذلك الحق بذكرى باريتو سمعة لم تكن في صالحه وقد حاول المحبون لباريتو ان يجردوه من هذه السمعة السيئة فكانوا يؤكدون دائما ان باريتو كان محبا للحرية ومدافعا عنها وإنه لو عاش بضع سنوات اخرى لكان قد غير رأيه في الفاشية وعارضها . ويستخلص Bucolo هذا الرأي ايضا من مقال آخر لباريتو كتبه قبل وفاته ولكنه نشر بعدها في ٢٥ سبتمبر ١٩٢٣ ويدور حول مستقبل تعديل النظام الدستوري في ايطاليا وقد اتضح من هذا المقال ان باريتو لا يؤيد استمرار الفاشية لدرجة تجعل Bucolo يذهب الى القول بأنه : « من الاهانة لباريتو ان يقال عنه انه كان فاشستيا fascist .

ملاذ ايطاليا ومخرجها من الاضطرابات والفوضى التي عمت البلاد .

وقيل وصول الفاشستين fascists الى الحكم في ايطاليا كان باريتو ناظرا على الأوضاع السائدة ويقول : « انه من الصعب على شعب متمدن ان يعيش بدون قوانين وان النظام ضروري ولا غنى عنه للحياة المتقدمة المتحضرة » وكان يدعو الى قيام نظام حكم جديد في ايطاليا اما من الفاشستين او خصومهم ، وتكون مهمة هذا النظام الجديد اعادة الاستقرار للبلاد .

وكانت تلك الافكار التي يعلنها باريتو في ذلك الوقت متمشية مع منهج الفاشية الذي يدعو الى فرض النظام وقمع اعمال الشعب والاضطرابات واعادة حكم القانون الى ايطاليا مثليا قال موسوليني Mussolini في يوليو ١٩٢٢ بأن حزبه هو حزب النظام وأنه هو الذي سيميد النظام الذي هدمته الحكومة القائمة بضعفها وتعباؤها وتركة البلاد للمشايخين والمتظاهرين وأعداء النظام وهكذا كانت افكار الفاشية عن النظام وجوب عودته لايطاليا وحمائته للقوة افكارا متماثلة مع افكار باريتو المعلنه قبل تولي الفاشية للحكم في ايطاليا وهذا ما دفع بعض الكتاب للقول بأن كتابات باريتو هي التي مهدت الطريق للفاشية . وذهب آخرون الى ان باريتو كان في ايطاليا بمثابة كارل ماركس الفاشية . وقد اكد موسوليني ذلك في عام ١٩٢٤ عندما ذكر ان باريتو كان اكبر مرشد له وفعله .

وقد ساهم باريتو في رسوخ هذا الاعتقاد لدى معارضيه عندما نشر مقالا في ٢٥ مارس عام ١٩٢٣ تحت عنوان : « الامة » ذكر فيه ان الفاشية تحاول ان تقيد حلا لمشاكل ايطاليا وان المستقبل القريب سوف يظهر عما

الحرية :

كتب باريتو هذا المقال قبل وفاته بأيام قليلة معبرا عن تأييده لوضع قيود على الحرية في الظروف الاستثنائية بل لقد ذهب الى حد تبرير الدكتاتورية وتسويقها حيث كان يرى ان معنى الحرية قد اسيء استخدامه حسب وجهة نظر المتحدث عنها . واعتبر ان دكتاتورية البروليتاريا لا يتعين رفضها لمجرد انها دكتاتورية ولكن بسبب المساويء التي ترتبت عليها وعمل العكس من ذلك فان الوحدة الايطالية قد تحققت على يد دكتاتورية بورجوازية طيبة بالنظر الى آثارها الجيدة . كما ان النظام الفاشي ليس طيبا لمجرد انه دكتاتوري ولكن لأن نتائج الفاشية في ايطاليا حتى الآن كانت جيدة اذا ما قورنت بالظروف السائدة في ايطاليا قبل اكتوبر عام ١٩٢٢ خاصة في السنوات ١٩١٩، ١٩٢٠ التي تميزت بالارهاب الاحمر red tyranny الذي قاده الشيوعيون .

ومع ان باريتو قد انحاز الى الفاشية في تلك المقالة إلا أنه لم يقطع بأنها ستحقق كل الخير لاطاليا في المستقبل وان كان قد رجح نتائجها الطيبة على ضوء ما شاهده فعلا في الفترة القصيرة التي عاشها في ظل الفاشية .

غير أن باريتو مات في اغسطس عام ١٩٢٣ قبل ان تظهر له مساويء الفاشية كحكم استبدادي دموي اوقع ايطاليا في الازمات ثم الهزيمة . ولذلك ارتبطت ذكرى باريتو بذكرى الفاشية البغيضة وهذا ما حدا بالبرفسور Bucolo الى بذل جهود مضمينة لكي يظهر الوجه الآخر لباريتو وهو الوجه المؤيد للحرية والمدافع عنها .

ولعل Bucolo قد نجح في مهمته اذ أظهر لنا حقيقة هذا الوجه الآخر لباريتو من خلال عرض مقالاته العديدة التي استعرضنا اهمها فيما سبق .

العدد الثاني من المجلدة

العدد الرابع - المجلد الرابع عشر

يناير - فبراير - مارس

قسم خاص عن

الاعلام والرأى العام

بالإضافة الى الابواب الثابتة

طَبَعَ فِي
مَطْبَعَةِ حُكُومَةِ الْكُوَيْتِ

ليرات ٣	سوريا	ريال ٥	فلسطين
دينار ٢٥٠	العراق	دينار ٥	لبنان
دينار ٢٥٠	السودان	دينار ٤٠٠	البحرين
دينار ٢٥	ليبيا	دينار ٤٠٥	البحرين الشمالية
دينار ٤٠٠	مصر	دينار ٤٠٠	البحرين الجنوبية
دينار ٥	الجزائر	دينار ٢٠٠	عمان
دينار ٥٠٠	تشاد	دينار ٢٠٥	البحرين
دينار ٥	المغرب	دينار ٢٥٠	البحرين

لاشترابات :

لبنان العربية ٢٥٠٠ دينار

لبنان الاجنبية ٢٠٠٠ دينار

لبنان قيمة الاشتراك بالبريد الكويتي لمساهمة وزارة الاعلام بموجب هوائى مصرفية خالصة المصاريف
لبنان بنك الكويت المركزي، وترسل مصرية عن الهوائى مع الاسم وعنوان المشترك إلى :

وزارة الاعلام - المكتب الفني - ص.ب. ١٩٣ الكويت

عالم الفكر

٤

☐ الثورة الحالية في أساليب الاتصال

☐ النظام الجديد للإعلام الدولي

☐ الرأي العام في الدول النامية

☐ المسرح السياسي

المجلد الرابع عشر - العدد الرابع
يناير - فبراير - مارس ١٩٨٤

عالم الفكر

رئيس التحرير: أحمد مشاري العدواني
مستشار التحرير: دكتور أحمد أبو زيد

مجلة دورية تصدر كل ثلاثة أشهر عن وزارة الإعلام في الكويت * يناير - فبراير - مارس ١٩٨٤
المراسلات باسم : الوكيل المساعد لشئون الثقافة والصحافة والرقابة - وزارة الإعلام - الكويت : ص.ب ١٩٣

المحتويات

الاعلام والرأي العام

٢	إقليم : مستشار التحرير	العميد
١٣	الدكتور صلاح الدين طلبة	الثورة المحلية في أساليب الاتصال
٤٧	الدكتور خليل صبايات	النظام الجديد للاعلام الدولي
٦٥	الدكتور كمال القرني	الرأي العام في الدول النامية
٧٩	الدكتور أمين العموي	الشرح السياسي
٩٩	الدكتور مصطفى أحمد زكي	رسائل الاعلام وأثرها في شخصية القراء
١٢٥	الدكتور عوزة جلالين	الصحافة الانجليزية بين التهمة والاستغلال

مطالعات

١٤١	الدكتور سليمان الشطي	الاسلام والابتداع الشعري
-----	----------------------	--------------------------

من الشرق والغرب

١٧٧	الدكتور عبد كمال فوفيل	الجمع العربي الاسلامي في باريس
١٩٧	الدكتور تامر صالح	المنهج في البحوث المستقبلية

صدر حديثا

٢١٥	عرض وتحليل السيد أفل حركة	الشرح السياسي
٢٢٧	عرض وتحليل السيد محمود حدي	الحرية والقلق
٢٣٥	عرض وتحليل الدكتور كمال وضوان	أبياء بلا كرامة
٢٤١	عرض وتحليل السيد ياسر الفهد	كيف تكتب الأخبار للاذاعة والتلفاز والصحافة

الدراسات التي نشرها المجلة تعبر عن آراء أصحابها وحدهم

تمهيد

من المشكلات التي تشغل بال المهتمين بدراسة الاعلام وأساليب الاتصال الجماهيري البحث فيما إذا كانت وظيفة الاعلام هي التعبير عن الرأي العام أو السيطرة عليه والتحكم فيه وتوجيهه وجهات معينة بالذات . وقد تبدو هذه المشكلة قضية أكاديمية قليلة الجدوى نظرا لصعوبة الفصل بين التاحيتين فصلا تاما أو تعيين الحدود الفارقة بين تكوين الرأي العام وصياغته وتشكيله ، والتعبير عنه وإبرازه وتوكيده . ولكن الواقع أن هذه القضية أكثر أهمية وعمقا وأشد تعقيدا مما تبدو لأول وهلة ، خاصة وأن الاعلام يرتبط ارتباطا وثيقا ببناء المجتمع ككل ، ويتأثر تأثرا مباشرا بالأوضاع الثقافية والاجتماعية والتنظيمات السياسية والأنساق الأيديولوجية السائدة في ذلك المجتمع المعين . فهذه كلها عوامل تتدخل في رسم السياسة الاعلامية وفي تحديد أهداف العملية الاعلامية بل وفي اختيار المادة الاعلامية ذاتها ، وبذلك فإنها تعتبر مسئولة إلى حد كبير عن ذلك الاختلاف في الرأي حول وظيفة الاعلام ودوره في المجتمع . ومع أن معظم الكتابات تحاول التمييز بين ثلاثة أهداف رئيسية للاعلام هي نقل وتوصيل المعلومات للآخرين ، ومحاولة التأثير في آرائهم وأفكارهم وتشكيلها ، ثم الترفيه والتسلية وتمضية أوقات الفراغ ، فإن هذه الأهداف الثلاثة تتشابك معا وتتفاعل ويكمل بعضها بعضا في الحقيقة بحيث يمكن القول إن المادة الاعلامية - أيما كانت - قد تحقق هذه الأهداف الثلاثة معا في وقت واحد ، وإن يكن بدرجات متفاوتة . ومع ذلك فإن السياسة الاعلامية التي ترسمها الدولة لنفسها كثيرا ما تعطى أولوية نسبية لأحد هذه الأهداف على حساب المهدفين الآخرين ، وتسخر كل

الاعلام والرأي العام

وسائل وأجهزة وأساليب الاعلام والاتصال الجماهيري بها لخدمة هذا الهدف . ولكن سواء أكان محتوى العملية الاعلامية هدفها هو الكشف عن أهم الاتجاهات والآراء والمواقف السائدة بالفعل في المجتمع ، أو إصدار « تعليمات » وتوجيهات تعبر عن سياسات وايدولوجيات معينة تريد الدولة عن طريق أجهزة الاعلام نشرها بين الناس وتغيير الآراء السائدة فعلا بينهم ، أو أن يكون المحتوى مادة ترفيهية يراد بها شغل أوقات الفراغ والتسليّة والترفيه ، فإن جوهر العملية الاعلامية يقوم دائما على الاتصال ، أو التواصل ، وعلى توصيل المعلومات ونقلها ونشرها على أوسع نطاق ممكن . وربما كان هذا هو ما يقصده عالم الاجتماع الأمريكي الشهير تشارلز رايت ميلز C. Wright Mills حين يقول في كتابه المشع العميق 'The Power Elite' إن جانباً يسيراً فقط مما نعرفه عن الحقائق الاجتماعية عن العالم توصّلنا إليه بأنفسنا وبطريق مباشر ، بينما معظم التصورات والأخيلة التي في أدمغتنا عن العالم وصلت إلينا عن طريق وسائل الاعلام والاتصال الجماهيري » (١)

وثمة تعريفات كثيرة جدا للرأي العام . وأحد هذه التعريفات السائدة الآن ينظر الى الرأي العام على أنه « مجمل وجهات النظر والاتجاهات والمعتقدات الفردية التي تحتفظها نسبة لها دلالتها من أعضاء المجتمع حول موضوع معين بالذات » . (٢) وتكاد كل هذه التعريفات تجمع على أن التعبير عن الرأي العام من ناحية ، ومحاولة تفسيره وتوجيهه والتأثير فيه أو حتى تكوين رأي عام من جديد من الناحية الأخرى ، لن تتم الا عن طريق الاقتناع الذي يتطلب التواصل بكل ما يستلزمه من مناقشة لمختلف الآراء وفحصها ونقد الأفكار المعارضة مع الاستعداد لقبولها إن ثبتت صحتها . ففرض الرأي أو الفكر عن طريق القهر والفسر والاملاء ومطالبة الآخرين باعتناقه والأخذ به بغیر اقتناع منهم لا يعني أبداً تكوين « رأي عام » بالمعنى الدقيق للكلمة . أي أن حرية التفكير وحرية التعبير وحرية إبداء « الرأي » هي الأساس الذي يقوم عليه الاتجاه العام في المجتمع الذي يمثل الحد الأدنى من الاتفاق حول موضوع معين أو قضية معينة أو أوضاع معينة بالذات . وواضح من هذا أن « الرأي العام » لا يعني أبداً « الرأي » الواحد أو « الرأي » الموحد لكل أفراد المجتمع ما دام الأساس الأول في تكوين الرأي العام وظهوره هو الحوار الحر الذي يترك الباب مفتوحاً طيلة الوقت لاختلاف الآراء وتباين وجهات النظر وإمكان التعبير عن هذه الاختلافات . وربما كان هذا هو السبب وراء ذلك الاعتقاد السائد لدى الكثيرين من أن وظيفة الاعلام في النظم السياسية الليبرالية (التي يقصد بها عادة الديمقراطيات الغربية) هي التعبير عن الرأي العام ومؤازرته ومساندته ، على افتراض أن هذه النظم تبيح درجة أكبر من حرية التعبير عن الرأي وأن وسائل الاعلام فيها أقرب الى أن تكون أداة للتعبير عن الرأي العام والدفاع عنه في مواجهة السلطة الحاكمة إذا أودت أن تتخذ قرارات لا تتفق مع « مجمل وجهات النظر والاتجاهات والمعتقدات » السائدة في المجتمع ، وذلك بعكس الحال في النظم الشمولية (التي يقصد بها عادة الدول الشيوعية) التي تتخذ من وسائل الاعلام أداة للتعبير عن رأي أجهزة الحكم وليس عن رأي الجماهير ، وتنتول نشر المبادئ والاكتشافات والفلسفات التي يؤمن بها النظام الحاكم . ويساعد على ذلك أن الدولة هي التي تملك كل وسائل الاعلام هناك ، وذلك على عكس الوضع في المجتمعات

C. Wright Mills, The Power Elite; O.U. P., P. 311

(١)

Micropaedia, Vol. VIII; 'Public Opinion'

(٢)

الليبرالية حيث تكون الصحافة - عل الأقل - مملوكة في الأغلب ملكية خاصة ، سواء للأفراد أو الأحزاب السياسية أو بعض المؤسسات المستقلة التي قد تمارس أنشطة مختلفة الى جانب النشاط الاعلامي والثقافي .

ولسنا هنا على أية حال في مجال الدخول في مناقشة هذه الآراء لتبيين ما بها من صدق أو زيف . إنما الذي يهنا هنا هو إبراز تلك العلاقة القوية بين الرأي العام وحرية التعبير واستقلال أجهزة الاعلام وقدرتها على ترجمة ونقل آراء الجماهير والدفاع عنها ، وعدم الخضوع لسيطرة الحكومة ، بل والقدرة على معارضة سياسة الحكومة حين يتطلب الأمر ذلك . ومن هنا كان الاتجاه السائد في معظم الكتابات التي تدور حول العلاقة بين الاعلام والرأي العام أقرب الى الزعم بوجود رأي عام قوی ومتفتح في المجتمعات الليبرالية دون المجتمعات الشمولية ، تشكل في وجود رأي عام مؤثر وناصح وواضح المعالم في مجتمعات العالم الثالث أو المجتمعات النامية حيث يقف دون ذلك انخفاص المستوى الثقافي وفجاجة أساليب وطرائق الاعلام والاتصال الجماهيري وخضوعها لاشراف الدولة وتحكمها ، وقلة البديل الثقافي وضحولة وضيق التجربة والخبرة . فهذه كلها أمور وعوامل تؤدي إلى سهولة الانقياد لكل ما تلقينه أجهزة الاعلام الحكومية على الناس من آراء وأفكار وتعليمات وتوجيهات ، وتقبل هذه الآراء والتوجيهات بدون مناقشة أو بحث أو اعتبار لمبدأ ما تتضمنه من صدق وما تستند اليه من منطق .

وليست هذه المشكلات المعقدة وليدة اليوم أو أنها ظهرت نتيجة لتقدم وتعدد وتشابك وسائل الاعلام وأساليب الاتصال الجماهيري في العصر الحديث ، وإنما هي مشكلات قديمة نجد لها مثيلا في العصور السابقة ولكن على نطاق ضيق . وكثير من كتابات المفكرين والفلاسفة والاجتماعيين في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر في أوروبا بالذات كانت تتعرض لمسألة العلاقة بين قوة الرأي العام وسلطة الحكام وكيف يمكن تطويع هذه القوة وترويضها وإخضاعها لمصالح هؤلاء الحكام ولما فيه خير الحكومة . ولكن زاد الاحساس بوظيفة الرأي العام وتأثيره بعد ظهور الطباعة ، وبوجه خاص بعد ظهور الصحافة التي تتخاطب الجماهير على نطاق أوسع من جمهور الكتاب . والمؤلفات التي تتناول بالدراسة دور الاعلام بعمامة والصحافة بخاصة في المجتمع ، وهل هي أداة السلطة في تكوين الرأي العام والسيطرة عليه والتحكم فيه أو أنها أداة المجتمع للتعبير عن وجه آرائه وأفكاره ومعتقداته ، كثيرة جدا . ولعل من أحدث وأمتع هذه المؤلفات التي تتميز في الوقت ذاته بدرجة عالية جدا من الدقة العلمية والاحاطة بكل جوانب الموضوع مع الموضوعية في العرض والتحليل كتاب الأستاذ ستيفن كوس Stephen Koss هن « قيام الصحافة السياسية وسقوطها في بريطانيا » . وقد ظهر الجزء الاول من الكتاب عام ١٩٨١ وفيه يعالج الموضوع في النصف الثاني من القرن التاسع عشر (٣) ، بينما ظهر الجزء الثاني في أوائل هذا العام (١٩٨٤) ويعرض للصحافة السياسية في بريطانيا خلال النصف الأول من القرن الحالي . والذي يهنا هنا الآن هو الجزء الأول الذي يعرض للمشكلة في وقت كانت فيه الصحافة - وبالتالي بقية وسائل الاعلام - لا تزال على درجة كبيرة من البساطة التي قد تبلغ أحيانا حد السذاجة - مع بعض استثناءات فيها يتجنب بعض

الصحف الكبرى ، والدور الذي لعبه بعض رجال الصحافة الأفاضل في تحديد المسار الذي تسير فيه الصحافة والذي أدى بها الى المكانة التي تحتلها الآن في حياة المجتمع الحديث ، والدور الذي تلعبه سواء في تشكيل الرأي العام وتوجيهه أو في التعبير عنه . وقد حرص الأستاذ كوس على أن يرجع الى كل الصحف والمجلات ، بل والجزائرات والقصاصات والاحاديث والتصریحات والتعليقات والرسائل والمكاتبات التي صدرت عن مشاهير رجال الصحافة ورجال الدولة والسياسيين في تلك الفترة ليقارن بينها ويحلل ما تتضمنه من معلومات . بل إنه رجع إلى مائة وعشرين مجموعة ضخمة من السجلات والمحفوظات (الارشيف) ليتعرف منها على وضع الصحافة في ذلك الحين ، وكانت نتيجة كل ذلك العمل الضخم هذا الكتاب الذي يجمع بين غزارة المعلومات ودققتها وعمق التحليل وروصاته والذي لا يغفل عن ذلك من براعة العرض ووضاقة الأسلوب .

والنقطة المحورية التي يدور حولها الكتاب هي : كيف كان رؤساء تحرير الصحف يصوغون الآراء والافكار التي يعبرون ، عنها في مقالاتهم الرئيسية وفي (الافتتاحيات) بالذات ، والأساليب التي كان يتبعها رجال الدولة كي يضمنوا أن تأتي هذه المقالات متمثلة مع آرائهم هم أنفسهم أومع متطلبات الحزب أومع وجهة نظر الحكومة القائمة . وهذا في حد ذاته مؤشر كاف على أن الصحافة كانت أكثر ميلا الى أن تكون أداة في يد الحكومة وسيلة لتوضيح سياسة الدولة ، وشرح وجهة نظر رجال الحكم في المشكلات التي يعاني منها المجتمع ، وتبرير القرارات التي يتخذونها وإقناع (الرأي العام) بصواب هذه القرارات . وهذا معناه بقول آخر أن الصحافة كانت في خدمة الدولة أكثر مما كانت في خدمة الجماهير أو الشعب ، مع وجود بعض حالات استثنائية هامة بطبيعة الحال . ولقد انتشرت الصحف انتشارا واسعا في ذلك الحين وزاد الاقبال عليها بعد أن انخفضت أثمانها نتيجة لانخفاض أسعار الورق بعد رفع كل الضرائب عنه . وكان المصدر الرئيسي للأخبار هم رجال الدولة والسياسيين أنفسهم ، وكان الكثيرون منهم يختارون من بين رجال الصحافة أو رؤساء التحرير أشخاصا معينين بالذات يختصونهم بالأخبار الهامة نظير أن يجهدوا لديهم التأييد والتعصيد والدفاع عن سياساتهم . بل إن بالمرستون كان يتولى بنفسه كتابة بعض المقالات الرئيسية والافتتاحيات التي تعبر عن آرائه وأفكاره ووجهة نظره في كثير من الأمور ؛ وكثيرا ما كان يضمن تلك المقالات بعض عبارات من أقواله ومن خطبه ليستشهد بها على صحة هذه الآراء والافكار والسياسات . وهكذا كان كل شيء يبدو سهلا وميسورا أمام رجال الصحافة فيما يتعلق بالحصول على ما يحتاجون اليه من أخبار ودون أن يضطروا الى الالتجاء الى الأساليب التي يتبعها زملاؤهم في الوقت الحالي . فقد كان رجال الدولة أنفسهم يقدمون لهم كل ما يستطعون تقديمه بما في ذلك « أسرار » السياسة العليا للدولة اذا لزم الحال نظير تلك المؤازرة والدعاية لهم . ولقد حصل عدد كبير من رجال الصحافة في مقابل « خدماتهم » على مكاسب أخرى خاصة وشخصية الى جانب الحصول على الاخبار ، كما تولى بعضهم عددا من المناصب الرفيعة في الدولة ثمنا لهذه الخدمات مع أنهم لم يكونوا مؤهلين لشغل تلك المناصب .

والمهم هنا هو أن الصحافة كانت في أغلب الأحوال في خدمة رجال الحكم أكثر مما كانت في خدمة القراء أو الشعب . ولكن لم يلبث أن طرأ على هذا الوضع كثير من التغيير باقتراب القرن التاسع عشر من نهايته ، فقد زاد الميل الى الاهتمام بإبراز وجهة نظر الجماهير والتعبير عن آراء الناس في المشكلات والقضايا التي كان يعاني منها المجتمع . ويرى

الاستاذ كوس أن هذا التحول في موقف الصحافة واهتماماتها يعتبر ثورة هائلة على الأوضاع القديمة وانقلابا شاملا في تصور الصحافة لوظيفتها ، وأن هذا التغير كان هو البداية التي رسمت الطريق الذي تسلكه صحافة القرن العشرين وحددت لها الدور الذي يمكن أن تقوم به باعتبارها أداة للتعبير عن الرأي العام والدفاع عنه ، حتى ولو اقتضى الأمر الوقوف موقف المعارضة الصريحة من الحكومة . وساعد على التغير ، وبالتالي التخلص من سيطرة رجال الحكم وتسلب الدولة على الصحافة ، عدة أمور لعل أهمها تقدم وانتشار استخدام التلغراف التجاري على نطاق واسع يتجاوز حدود الدولة الواحدة مما أدى إلى سهولة الحصول على الاخبار والمعلومات من كل أنحاء العالم دون حاجة إلى الاعتماد المباشر وشبه الكامل على المصادر الشخصية المتمثلة في السياسيين ورجال الدولة . ولعبت وكالات الأنباء العالمية الكبرى دورا هاما في نقل الاخبار وتزويد الصحف بها حال وقوع الأحداث . وجاء قانون التعليم الأولي الذي صدر في بريطانيا عام ١٨٧٠ ليكون بمثابة الحرب المباشرة ضد الأمية وأدى إلى توسيع قاعدة التعليم وإزدياد المتعلمين زيادة سريعة ومطردة . وكانت هذه كلها بغیر شك عوامل أساسية وفعالة ليس فقط في الاقبال على قراءة الصحف بل وأيضا - وهذا هو الأهم - في ظهور ما يعرف باسم « الصحف الشعبية » وزيادة الوعي والادراك بأحوال المجتمع وأوضاعه لدى كثير من الطبقات والفئات التي كانت محرومة من التعليم والتي أصبحت نتيجة لذلك أكثر قدرة على مناقشة هذه الأوضاع وإبداء الرأي فيها ومناقشة الاخبار والتصریحات الرسمية ونقد سياسة الدولة ومعارضتها . واستجابات الصحافة بدرجات متفاوتة لهذا التغير وأصبحت أكثر اهتماما بالتعبير عن الرأي العام . ومع ذلك فإن الاستاذ ستيفن كوس يرى أن العامل الرئيسي والحاسم في حدوث هذا التغير الجذري كان اتساع قاعدة التنظيمات الحزبية ونموها وارتكازها على أسس قومية وسلیمة أدت إلى انضمام عدد كبير من رجال الصحافة إلى الأحزاب جنباً إلى جنب مع رجال السياسة ، ولو أنه يزعم أن وراء ذلك الاقبال على عضوية الأحزاب كانت تكمن أسباب ودوافع عديدة ومتباينة تتراوح بين الرغبة في تحقيق المكاسب الشخصية والالتزام الفكري والسياسي . وقد تعمقت العلاقات بين رجال السياسة والصحافة نتيجة لذلك وأصبحت مزيجاً غريباً من المداينة والخوف والتواطؤ . ولكن الذي يهنا من كل ذلك هو التغير الذي طرأ على موقف الصحافة من الرأي العام باعتبارها أهم وسائل الاعلام وأكثرها فاعلية في ذلك الحين .



ولا يرجع اختيارنا لكتاب ستيفن كوس إلى أنه مجرد مثال طيب لدراسة ممتازة عن علاقة إحدى وسائل الاعلام المهمة بالرأي العام في بلد له شهرته الراسخة في احترام حرية الرأي وحرية التعبير والمحافظة على حرية وسائل الاعلام لدرجة أن هيئة الاذاعة يتمتع باستقلال كامل في رسم سياستها الاعلامية ولا تخضع لتوجيهات الحكومة على عكس المؤلف حتى في (الديكتراطات الغربية) ذاتها . وإنما يرجع اختيارنا لهذا الكتاب بالذات إلى ما يمكن أن نستخلصه من دروس تستحق أن نتوقف أمامها ، وهي دروس تتجاوز الصحافة إلى بقية وسائل الاعلام وتصلق عليها .

وربما كان أهم هذه الدروس هو أن العلاقة بين وسائل الاعلام والرأي العام هي في جوهرها علاقة تفاعل وتكامل واعتماد متبادل ، أو علاقة تساند وظيفي كما يقول الأنثربولوجيون . ويتقضي التساند الوظيفي أن تكون العلاقة بين الأطراف المختلفة على نفس المستوى من التأثير والتأثير ، بمعنى أن كل طرف في العلاقة يؤثر في الأطراف الأخرى ويتأثر

بها في الوقت ذاته دون أن يكون أحد الأطراف علة أو معلولا لأي طرف آخر ، وأن ما يبدو في الظاهر على أنه علة أو سبب لظهور أحد أطراف العلاقة إنما هو في الحقيقة مجرد شرط أساسي لازم لقيام تلك العلاقة وأدائها لوظيفتها . فإذا كانت وسائل الاعلام المختلفة من صحافة أو إذاعة مرئية أو صوتية وما إليها تلعب دورا هاما في تشكيل الرأي العام ومحاولة توجيهه والتأثير فيه عن طريق تقديم مادة إعلامية معينة بالذات وترديد هذه المادة وتكرارها وإعادة في أشكال مختلفة كي ترسخ في أذهان الناس وتصبح جزءا من نسقهم الفكري ، فإن الرأي العام نفسه ، من حيث هو « بمجمل وجهات النظر والاتجاهات والمعتقدات » السائدة في المجتمع ، يلعب هو أيضا دورا في توجيه الاعلام نحو الاهتمام بمواد إعلامية من نوع معين والكف عن غيرها ، ويلجأ في سبيل تحقيق ذلك الى وسائل وأساليب وطرق مختلفة تتراوح بين الانصراف عن المادة الاعلامية التي لا تتفق مع « وجهات نظره واتجاهاته ومعتقداته » ، الى السخرية من تلك المواد الاعلامية والاستهزاء بها والتهمك عليها ، إلى النقد العنيف القائم على الدراسة والفهم والتحليل العميق . فكان هناك إذن نوعا من « الحوار » المستمر بين وسائل الاعلام والرأي العام يهدف الى تحقيق درجة من الاقتناع المتبادل برسالة الاعلام من ناحية ومتطلبات الرأي العام من الناحية الأخرى . ويتوقف نوع الحوار الى حد كبير على مستوى التعليم ومدى انتشاره في المجتمع ، كما يتدخل التعليم في تحديد المادة الاعلامية بحيث تتلاءم مع المستوى الثقافي العام الذي يعتبر التعليم أحد مكوناته الأساسية . وبالمثل فإن تعدد المنابر - التي تتمثل في كتاب الأستاذ كوس عن بريطانيا في تعدد الأحزاب وتقدم الحركة الحزبية واتساع نطاقها - يعتبر شرطا آخر من شروط قيام علاقة التفاعل المتبادل أو التساند الوظيفي ، بين الاعلام والرأي العام وقيام ذلك الحوار الذي يؤدي الى الاقتناع القائم على عرض مختلف وجهات النظر ومناقشة كل الافكار ونقدها واتاحة الفرصة لكل ذي رأي للدفاع عن رأيه . ويقول آخر أبسط وأوضح ، فإن التساند الوظيفي بين الاعلام والرأي العام من حيث هما طرفان في علاقة واحدة متكاملة يترجم عن نفسه في حرية التعبير عن الفكر وعن المواقف ووجهات النظر . ومع الاعتراف بأن حرية التعبير عن الرأي هي إحدى الحريات التي يكفلها إعلان حقوق الانسان ، فإن هناك من الكتاب من يرون أنه من الصعب المناذاة في مجال الاعلام بالحرية المطلقة في نقل الاخبار . إذ لا بد من التوفيق بين طرفين هامين هما حرية وسائل الاعلام من ناحية ، والمصلحة العامة بما في ذلك المحافظة على أسرار الدولة العليا من الناحية الأخرى . وبين هذين الطرفين يقوم كثير من التنازع داخل دائرة ونطاق الاعلام .

وربما يكون فيما جرى في الشهور الأولى من هذا العام (١٩٨٤) في بريطانيا أيضا من أحداث تدور حول حرية الصحافة ما يلقي الضوء على ما أريد أن أقول . وأود أن أشتهد هنا بحادثين يكشفان عن مدى صعوبة تحقيق تلك الحرية المنشودة للاعلام ، وكيف تصطدم هذه الحرية أحيانا مع مصلحة الدولة العليا وموقف الرأي العام من هذا كله . أما الحادث الأول فهو تسليم إحدى الموظفات في وزارة الخارجية البريطانية بعض الوثائق السرية التي تتعلق بنشر الصواريخ الأمريكية في أوروبا الغربية لجريدة « الجارديان The Guardian » وتقديم الفتاة للمحاكمة وإصدار الحكم عليها بالسجن لمدة ستة شهور . وقد أثار الحادث والحكم على السواء ضجة ضخمة في بريطانيا وفي الخارج ، وانقسم الرأي العام على نفسه حول حق الصحافة - ووسائل الاعلام الأخرى بالتالي - في الحصول على المعلومات بكل الطرق الممكنة ، وحتى نشرها لتعريف الرأي العام بما يدور في سرائير ودهاليز السياسة ، وما تتخذه الدولة من قرارات قد تلحق الأذى والضرر بالمجتمع ، وحتى الحكومة في إخفاء ما تعتقد أنه من الاسرار العليا المتعلقة بأمن الدولة . ولم تسلم

صحيفة الجارديان ذاتها من اللوم لأنها كشفت عن (المصدر) الذي قدم لها تلك الوثائق وأنها خلذت بذلك الفعل أحد المبادئ الأساسية المتعلقة بأخلاقيات المهنة ، خاصة وأن تاريخ الصحافة في بريطانيا ذاتها شهد بعض الحالات المماثلة التي رفض فيها رجال الصحافة الكشف عن مصادر معلوماتهم وعرضوا أنفسهم للأيذاء والضرر نتيجة لتمسكهم بهذه المبادئ .

ويمثل الحادث الثاني في تصادم المصالح الاقتصادية لأصحاب جريدة The Observer مع مبادئ حرية التعبير عن الرأي الذي يتمسك به كبير محرري تلك الجريدة ذات السمعة الطيبة . فقد زار كبير المحررين زيمبابوي منذ بعض الوقت وكتب بعد عودته مقالا طويلا عن أنواع التعذيب الذي يخضع له معارضو الحكومة الحالية في إحدى المقاطعات . وادرك أصحاب الجريدة أن هذا المقال قد يسيء إلى مصالحهم الاقتصادية الواسعة في زيمبابوي ويعرضها للخطر ، فأرسلوا خطابا لرئيس وزراء زيمبابوي يحتدرون فيه عن المقال ، كما وجهوا اللوم إلى كبير المحررين نفسه على خروجه على قواعد اللياقة . وأثار ذلك (التدخل) من أصحاب الجريدة كثيرا من رد الفعل على اعتبار أنه يمثل نوعا من التمدي والاعتداء على حرية الرأي وحرية الكتابة وحرية التعبير . وانتقلت الثورة من صحيفة الأوبزرفر إلى غيرها من المجلات والصحف وكان لها صدى واسع في الصحافة العالمية . ووقف الرأي العام « المثقف » إلى جانب حرية الرأي بحيث لم يجد أصحاب الجريدة مفرًا من التراجع عن موقفهم .

وهذان المثالان المستمدان من الصحافة البريطانية ، باعتبارها من أعرق الصحف في العالم ومن أشدها تمسكا بالقيم والأخلاق والمبادئ المهنية التي تنظم حرية الرأي ، يكشفان عن الدور الذي تقوم به الصحافة في الوقت الحالي كوسيلة هامة من وسائل الاعلام في تنوير الرأي العام والافصح عن كثير من خبايا السياسة وخفاياها وفضح الأسرار والقرارات الخفية المحاطة التي قد تحاول بعض السلطات الحاكمة إخفاها عن الرأي العام حتى لا تثير عليها غضبه ونقمته ، وكيف أن الرأي العام من الناحية الثانية يؤازر الصحافة الحرة في تصديها لمثل تلك السياسات والقرارات ويساندها في دفاعها عن القضايا التي تتعلق بمصير الشعوب وأقدارها ، وكيف أنه يتخذ من الصحافة ذاتها أداة ووسيلة للتعبير عن موقفه عن تلك السياسات والقرارات وعن نظره إلى المشكلات الأساسية التي يعاني منها المجتمع . وهذا هو ما كنا نقتضيه حين قلنا إن العلاقة بين الاعلام والرأي العام علاقة تفاعل وتكامل وتساند وظني ، وأن الاعلام يؤدي ، نتيجة لذلك ، دورا مزدوجا جوهره الاتصال أو التواصل ، سواء أكان ذلك يتخذ شكل نقل المعلومات أو التعبير عن الرأي .



وقد يصدق هذا كله على المجتمعات الأكثر تقدما ورقيا وبخاصة « الديمقراطية الغربية » حيث تتمتع وسائل الاعلام بقدر كبير من الاستقلال ، وحيث تضمن الأوضاع العامة والتقاليد والقوانين السائدة ما يكفل لها حق حرية التعبير عن الرأي . ولكن الأمر لن يلبث أن يتكشف عن بعض المفارقات الصارخة حين ننظر إلى العلاقة بين هذه المجتمعات المتقدمة والمجتمعات النامية في مجال الاعلام وتبادل المعلومات وتدفقها من ناحية ، والعلاقة بين الاعلام

والرأي العام داخل هذه المجتمعات النامية ذاتها من الناحية الأخرى ، وهي مفارقات خفيفة بأن نعطيها بعض العناية والاهتمام .

وتمثل المقارنة الأولى في تحكم الدول الكبرى ، دون غيرها ، في مصادر المعلومات وعملية بث الأخبار على نطاق واسع ، وساعدها على ذلك ما حققته من تقدم علمي وتكنولوجي في مجال الاتصالات ، مما يعطيها القدرة بالتالي على نقل وتوصيل المعلومات ، أو حجبتها ومنعها أو تزيفها أو تحويرها ، وبذلك يمكن لهذه الدول عن طريق التحكم في الأخبار وصياغتها أن تلعب دورا أساسيا في تشكيل آراء وأفكار الشعوب الأقل تطورا وإخضاعها لقيمتها الخاصة . . . يظهر ذلك واضحا في البرامج التليفزيونية بوجه خاص ، إذ تأتي معظمها من مصادر غربية وبالأخص من مصادر أمريكية ، وهي تصور بطبيعة الحال أساليب الحياة وأنماط السلوك وأتساق القيم والأفكار والأيدولوجيات والمعتقدات التي تسود هناك والتي لابد أن تؤثر بشكل أو بآخر في الأنماط الفكرية في المجتمعات التي تتعرض لتأثير ووطاة هذه البرامج . ولكن الأمر لا يقتصر على مجال التلفزيون ، وإنما يمتد إلى كل مجالات الاعلام والاتصال الجماهيري بما في ذلك الصحافة نفسها . فالمعروف أن وكالات الأنباء العالمية الكبرى وكالات أجنبية ، أربعة منها تابعة للغرب والخامسة للاتحاد السوفيتي ، ومن الطبيعي أنها تعبر عن سياسة هذه الدول والأيدولوجيات السائدة فيها . والعادة أن الصحافة في الدول النامية تنشر مايرد إليها من هذه الوكالات دون محاولة جدية للتأكد من مدى صحتها أو زيفها أو اكتمالها أو نقصانها أو تحريفها ، بل ودون محاولة لقراءة هذه الأخبار من زوايتها ووجهة نظرها الخاصة . بل إنها كثيرا ما تنشر ما تتلقاه من تعليقات وتحليلات للأخبار تعبر عن وجهات النظر الأجنبية . ومن هنا فإن الرأي العام في هذه المجتمعات المتخلفة يتأثر بغيره بنوع المادة الاعلامية التي تصل إليها عن طريق هذه الوكالات وبالأسلوب والطريقة التي تُعرض بها هذه المادة الاعلامية . ومن ناحية أخرى فإن إشراف الدولة في المجتمعات المتخلفة إشرافا تاما على وسائل الاعلام معناه خضوع المادة الاعلامية للرقابة الحكومية الشديدة التي تحد نوع المادة التي يباح تداولها مما يضع قيودا على نحو الرأي العام . ويزيد من خطورة هذا الوضع نفس حالة التخلف والانزوال الفكري الذي تعيشه هذه المجتمعات وعدم اتصالها بالعالم الخارجي ، وبالتالي عدم إدراكها أدراكا كافيا لما يدور في العالم من حركات فكرية وسياسية . وهذا يسهم بدوره في سرعة تقبل شعوب العالم الثالث لما يعرض عليها من مواد إعلامية تهدف إلى صب عقول الناس وأفكارهم في قوالب محددة جامدة تتلاءم مع رغبات الحكومات القائمة . وبذلك فإن أجهزة الاعلام تكون أدوات فعالة في المحافظة على حالة التآخر والتخلف التي تترسخ تحتها هذه الشعوب ، بدلا من أن تكون أداة تفتح وتقدم . وهذه على العموم مسألة خلافية قابلة للجدل والمناقشة والنقد وحتى النقص . ولكن الذي لا شك فيه هو أن إدراك شعوب العالم الثالث لما يتهدها من أخطار نتيجة لتركز النشاط الاعلامي في أيدي الوكالات والمؤسسات الكبرى في الدول المتقدمة كان وراء الدعوة التي ظهرت في السنوات الأخيرة نحو ضرورة قيام نظام اعلامي جديد ، وكانت إحدى نتائجه انشاء ما يعرف باسم Pan African News Agency في مايو ١٩٨٣ كمظهر من مظاهر الرغبة في التحرر ، ولو جزئيا ، من السيطرة الغربية على الأخبار . وكان من الطبيعي أن تواجه هذه الحركة بكثير من الاعتراض من الدول الغربية ووكالات الأنباء والمعلومات الكبرى ، بل ومن بعض حكومات العالم الثالث ذاتها .

وتمثل المقارنة الثانية في أنه على الرغم من كل ما يقال عن دور وسائل الاعلام في مخاطبة الرأي العام ومحاولة التأثير فيه وتغييره فإن كل ما تفلح فيه في معظم الأحوال هو تقوية المواقف والاتجاهات السائدة بالفعل بين الجماهير ، قلبا

تنجح في خلق وإيجاد تيارات فكرية أو مواقف أيديولوجية جديدة تماما ، إلا إذا كان الرأي العام مهيا من قبل ، ونتيجة لعوامل وظروف أخرى كثيرة ومعقدة ، لنقبل هذا التغير . وقد أثبتت بعض الدراسات التي أجريت في أمريكا مثلا حول مدى تأثير الرأي العام بالمواد الاعلامية الموجهة على أن الرجل العادي قلما ينتبه أو يعطي أهمية خاصة لوسائل الاعلام أو المادة الاعلامية ، الا تلك التي تنعكس أفكارا ووجهات نظر مشابهة لتلك التي يعتقدونها ، بينما يعرض عن تلك التي تتعارض بشكل واضح وصارخ مع أفكاره وآرائه ومعتقداته . ومن هنا كان الرأي الذي يعتنقه بعض العلماء من أن المهمة الأساسية الحقيقية للاعلام هي ترسيخ القيم والأفكار أكثر من تغييرها وتعديلها أو استبدالها . بل إن بعض هؤلاء العلماء يرون أن القدر الضئيل الذي قد تحققه هذه الوسائل في مجال تغيير الرأي وتعديله هو في حد ذاته دليل ومقياس لعملية الترسيع والتقوية وليس المكس كما قد يتبادر إلى الذهن لأول وهلة . فالفرد لا يغير رايه إلا بالنسبة للآراء والمواقف والسياسات التي كان يدرك مسبقا - بشكل أو بآخر - أنه يرفضها ولا يرضى عنها ، ثم تأتي وسائل الاعلام لكي تقوي عنده هذا الاتجاه . فالتغيير الذي تحدثه وسائل الاعلام لا يمكن أن يأتي من فراغ أو أن يحدث في فراغ ، وإنما لا بد من أن تكون هناك تربة صالحة ومهيأة لتقبل هذا التغير . والملاحظ على أية حال أن تحويل (الرأي العام) الى أفكار وأيديولوجيات جديدة إنما يتم في الأغلب في المجالات التي لا يكون لدى المجتمع عنها آراء ومعتقدات ثابتة أو واضحة . فهذا هو المجال الحقيقي الذي يمكن لوسائل الاعلام أن تقوم فيه بدور فعال ومؤثر ومثمر . ولكن حتى هنا أيضا ، فإن الملاحظ أنه بمجرد أن يتم قبول هذه الآراء الجديدة ويتم ترسيخها وتثبيتها يصبح من الصعب تغييرها لأنها أصبحت جزءا من كيان المجتمع أو الجماعة . وكل هذا معناه أن ثمة نوعا من المقاومة الخفية أو المستترة من الرأي العام لأية مادة إعلامية جديدة ، وأن تغيير اتجاهات الرأي العام ليس يمثل تلك السهولة التي يظنها الكثيرون ، كما أن عملية خلق الرأي العام تكون أقوى ما تكون حين لا يكون أمام الفرد أي مصدر آخر للمعلومات عن ذلك الموضوع يمكن أن يتخذ منه محكا ومقياسا يقيس اليه هذه المادة الاعلامية الجديدة ، فلا يجد مناصا من أن يعتمد اعتمادا كليا على مصدر الاعلام المتاح له .^(٤) فالفرق الكبير بين المجتمعات المتقدمة والمجتمعات المتخلفة أو النامية في مجال الاعلام هو توفر مصادر المعلومات في المجتمعات المتقدمة وتنوع المادة الاعلامية ذاتها وتباينها مما يتيح الفرصة أمام الجماهير للمقارنة والاختيار سواء بين وسائل الاعلام التي يستمدون منها معلوماتهم ، أو بين المواد الاعلامية التي تتدفق في كثرة وسهولة ويسر من مختلف المصادر . وهذا أمر نفتقر اليه المجتمعات المتخلفة . ومن هنا كان إمكان تأثير الرأي العام بوسائل الاعلام وأساليب الاتصال الجماهيري في المجتمعات المتخلفة أسهل وأوضح منه في المجتمعات المتقدمة التي تناقض وتجادل وتفحص كل ما يقدم لها ولا تقبل شيئا الا عن التنازع تام . وهذه على أية حال مسائل تحتاج الى مزيد من الدراسات الميدانية حتى يمكن الحكم فيها حكما قاطعا .



وأيا ما يكون الأمر ، فالذي لا شك فيه هو أن العصر الذي نعيش فيه هو عصر الاعلام وعصر الانتمال

Joseph T. Klapper, ' Basic Research in Persuasion and Motivation ' in F.H. Voelker and L.A. Voelker (eds.) *Mass Media : Forces in Our Society*; Harcourt, Brace and Jovanovich, N. Y. 1978, p. 333 (٤)

الجماهيري بكل معاني الكلمة . ولقد أدى النمو والتطور الهائلان في وسائل الاعلام وعلوم الاتصال في السنوات الأخيرة إلى أن أصبح الاعلام جزءا أساسيا من حياتنا اليومية . ولكن من الخطر أن نأخذ كل ما يقدم على أنها أمور طبيعية ومسلم بها ولا نقبل المناقشة أو الاختيار . إذ لا بد من أن يدرك الفرد الدور الذي يمكن أن تقوم به هذه الوسائل والأساليب والمواد الاعلامية في تشكيل حياته وكيانه والبيئة التي يعيش فيها . وإذا كانت وسائل الاعلام والاتصال الجماهيري المختلفة تؤلف قوى هامة وفعالة ومؤثرة في المجتمع الحديث بفضل ما تقدمه لنا من معلومات وما توفره من أسباب الترفيه فإنها تحمل في الوقت ذاته بين ثناياها قدرة هائلة على الاقتناع سواء بشكل واضح صريح أو بشكل خفي ومستتر ، بحيث يمكنها أن تدخل كثيرا من التعديلات على حياتنا وأفكارنا^(٩) ، ولو أن هذه التغييرات لا تتم بسهولة أو بغير مقاومة . ولكن المقاومة يمكن أن تقل وتضعف وتتضاءل ، بل وتتلاشى ، نتيجة للتكرار والترديد والالحاح والمثابرة من وسائل الاعلام . ولعل أكبر خطر يمكن أن ينجم عن ذلك هو أن ينفصل الفرد بأفكاره وآرائه الجديدة المكتسبة عن واقع الحياة الذي يحيط به فتحدث ازدواجية رهبة في سلوكه وفي موقفه من الحياة . وقد تختلف وسائل الاعلام في تأثيراتها ومدى عمقها نتيجة لقوة الصلة بينها وبين الناس وتغلغلها ، في حياتهم ، وسهولة المادة التي تقدمها لهم ونوع المقاومة التي يبذلونها نتيجة لدخولهم في حوار معها . فإذا كانت الصحيفة أو الجريدة تتيح للفرد فرصة أكبر للتفكير والتأمل والتحليل وبالتالي للقبول أو الرفض ، فإن ذلك قلما يتوفر في التلفزيون الذي يدخل إلى كل بيت ويغاطب بشكل مباشر وبسيط كل فرد ويتسلل في سهولة ويسر إلى كل ذهن ، ليس فقط عن طريق البرامج الاعلامية التي يبثها ، ولكن أيضا وبشكل خاص عن طريق المادة الترفيهية . وهذا هو مكن خطورته على « مجمل وجهات النظر والاتجاهات والمعتقدات الفردية » . ومهما يكن من أمر هذه المقاومة ، فإن كثيرا من التغييرات التي تحدث في المجتمع الحديث لا يمكن فهمها الا في ضوء وسائل الاعلام ودورها في المسارعة بحدوث هذه التغييرات . والمشكلة التي تواجه المرء الآن إزاء ذلك وإزاء تدفق المادة الاعلامية الضخمة التي تنهال عليه من كل وسائل الاعلام هي : كيف يختار ؟ وماذا يختار ؟ حتى يتم التغيير بطريقة مدركة وواعية ومقصودة . وليس هذا بالأمر السهل على أي حال .

دكتور أحمد أبو زيد



١ - مقدمة

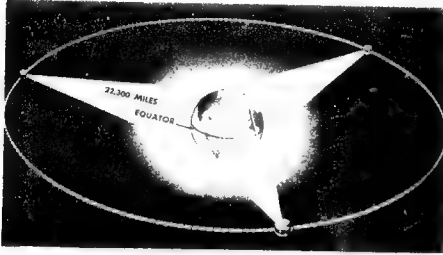
في ربيع القرن الماضي شهدت ميادين العلم والتقنية فتوحات جديدة أدت الى تغييرات شاملة في طبيعة الاتصالات . ففي سنة ١٩٥٧ بدأ عصر الفضاء بإطلاق الاتحاد السوفياتي لقمرة الصناعي الأول « سبوتنيك ١ » ، وفي سنة ١٩٦٠ بدأ عصر الضوء المتناسق Coherent Light باختراع الليزر نتيجة جهود مجموعة من العلماء السوفيت والأمريكيين . وقد جاء عصر الفضاء بالتمار الاتصالات البعيدة ، وأدى اختراع الليزر الى تطوير صناعة « الألياف البصرية » وتطويرها لخدمة تلك الاتصالات . وإذا كان الناس قد يهرم ما تحقق حتى الآن في ميدان اتصالات الأقمار الصناعية ، فالدور قادم على انبهارهم بقتوات الاتصال العظيمة السعة التي ستجيء بها تلك الألياف . ويتعاون أقمار الاتصالات التي تعمل بمثابة متابعات في الفضاء لمحركات الراديو الدقيقة ، والألياف البصرية التي تعمل بمثابة أنابيب توجيه لموجات الليزر وغيره من أشكال الضوء البالغ الشدة ، مستشعب شبكة الاتصالات الكبرى التي تغطي العالم اليوم لتصل أي مكان بكل مكان .

الثورة الحالية في أساليب الاتصال*
كيف كتبنا الانضمام للزراعة والنفاز والصحافة
صليح الرزيق طه

ولا يعرف أحد كيف نشأت فكرة اتصالات الأقمار الصناعية ، ولكن أول من اقترح استخدام القمر الصناعي الذي يبدو ثابتا في السماء لخدمة الاتصالات هو آرثر كلارك محرر المجلات العلمية ومؤلف قصص العلم الخيالية . فقبل إطلاق « سبوتنيك ١ » بآثني عشر عاما ، وبالتحديد في فبراير ١٩٤٥ ، كتب كلارك في مجلة Wireless World يقول :

* كتب هذا المقال عام ١٩٨٦ . وقد طأ تأثير كبير منذ تلك الحين على عدد الأقمار الصناعية التي تجوب الفضاء التي اشترك في حملتها عدداً من الدول . كذلك حدث تقدم هائل في مجال الألياف البصرية بحيث تضاعفت المسافة بين محطات تقوية الإشارة الى ثلاثة أضعاف ما كانت عليه قريبا ، وبمكنت الى مجال استخدام الألياف البصرية دول أخرى أيضا . وترجي أن تعود الى ذلك في مقال آخر .

« إذا وجد قمر صناعي على الارتفاع الصحيح من الأرض فإنه يستطيع أن يقوم بدورة كل ٢٤ ساعة ، أي أنه سيبقى ثابتا في نفس النقطة ، وسيكون في مدى البصر لنصف سطح الأرض تقريبا . وبإمكان ثلاث محطات موجودة بفواصل ١٢٠ درجة في المدار، الصحيح أن تقوم بتغطية هذا الكوكب بالتلفزيون والمحطات الدقيقة » .



شكل (١) . كيف تصور آرثر في سنة ١٩٤٥ تغطية سطح الأرض بالتلفزيون والمحطات الدلقة

باستخدام ثلاثة أقمار صناعية على الارتفاع الصحيح

وقد مضى الى الآن ٣٦ عاما على حلم آرثر كلارك ، ولكن ١٦ عاما منها شاهدت تشغيل نظم تجارية لاتصالات الأقمار الصناعية على المستويات الوطنية والاقليمية والدولية . وفي هذه المدة أطلق أكثر من ٨٠ قمرا من النوع الذي تصوره كلارك ثابتا في السماء ، بالإضافة الى الأقمار الكثيرة الأخرى التي تبدو متحركة وتؤدي دورا في الاتصالات الوطنية . ويمكن أخذ فكرة عن معدل اطلاق أقمار الاتصالات من جدول (١) الذي يمتدني على بيانات عن ٢٠ قمرا للاتصالات كانت ضمن ٧٢ قمرا صناعيا رئيسيا أطلقت في المدة من ١/١٠/١٩٧٧ الى ٣٠/٩/١٩٧٩ .

وفي السنة عشر عاما التي مضت منذ ٦ ابريل ١٩٦٥ يوم أطلق قمر الاتصالات التجارية الأول « ايرلي بيرد » تغيرت طبيعة الاتصالات تغيرا جذريا . فعلى الصعيد الدولي ما زال يهرتنا ما يقدمه التلفزيون العالمي من الاذاعة الحية للحوادث الهامة مثل الألعاب الأولمبية ورحلات الفضاء وجلسات مجلس الأمن والمؤتمرات الدولية . على أن الاتصالات التلفزيونية تستنفد معظم الارسال عن طريق الأقمار الصناعية . وهذه الاتصالات التي تقدمها الأقمار لأكثر من ١٠٠ دولة أكبر وقع على الأعمال والأفراد على السواء . وعلى الصعيد الوطني في البلاد ذات المساحات الشاسعة تقدم تلك الأقمار قنوات الاتصال المختلفة للقرى النائية . وفي قطاع الحركة تناف الآن بفضل الأقمار الصناعية قنوات يوثق بها للاتصالات بين البر والبحر والجو . أما في القطاع الحربي فقد أصبحت اتصالات الأقمار جزءا حيويا من النظم الاستراتيجية التكتيكية للدول التي تطلق هذه الأقمار .

جدول (١) أقمار الاتصالات المشرون ضمن ٧٢ قمرا رئيسيا
أطلقت في ٢٤ شهرا (١٠/١ - ١٩٧٧/٩/٣٠)

اسم القمر	الهيئة أو الدولة	تاريخ الاطلاق	الوزن (كجم)	البعد عن الارض (كم)		زمن الدورة (دقيقة)
				الأصغر	الأكبر	
SAKURA	اليابان	٧٧/١٢/١٥	٦٧٦	٣٥٥٦٧	٣٦١٥٧	١٤٣٩,٩ (١)
INTELSAT 4A (F-3)	الولايات المتحدة	٧٨/١/٧	١٥١١	٣٥٧٦٨	٣٥٨٠٦	١٤٣٦,١
FLTSATCOM 1	الولايات المتحدة	٧٨/٢/٩	١٨٨٤	٣٥٥٢٢	٣٥٦٦٦	١٤٢٦,١
Navstar 1	الولايات المتحدة	٧٨/٢/٢٢	٧٣٦	١٩٧٥٥	١٩٩٥٣	٧٠٤,٧
OSCAR 8	الولايات المتحدة	٧٨/٣/٥	٢٧	٩٠٣	٩١٧	١٠٣,٢ (٣)
INTELSAT 4A (F-6)	الولايات المتحدة	٧٨/٣/٢١	١٤٨٠	٣٥٧٦٨	٣٥٨٠٦	١٤٣٦ (٤)
YURI	اليابان	٧٨/٤/٧	٦٧٨	٣٥١١٤	٣٥٦٦١	١٤١٥,٨ (٥)
OTS 2	الوكالة الأوروبية للأقمار	٧٨/٥/١١	٩	٣٥٧٨٢	٣٥٧٩٤	١٤٢٦,١
Navstar 2	الولايات المتحدة	٧٨/٥/١٣	٤٣٣	٢٠٠٨٣	٢٠٢٨٠	(٦)
COMSTAR D3	الولايات المتحدة	٧٨/٦/٢٩	١٥١٨	٣٥٧٨٤	٣٥٧٨٧	١٤٣٦,١ (٧)
RADUGA 4	الاتحاد السوفياتي	٧٨/٧/١٨	٥٠٠٠	٣٦٤٧٣	٣٦٧٣١	١٤٧٨
RADIO 1	الاتحاد السوفياتي	٧٨/١٠/٢٦	٩	١٦٨٥	١٧٠٦	(٨)
RADIO 2	الاتحاد السوفياتي	٧٨/١٠/٢٦	٩	١٦٨٥	١٧٠٦	(٩)
NATO 3-C	الناتو	٧٨/١١/١٩	٣٧٥	٣٥٤٦٠	٣٥٨١٤	١٤٢٨,٥
ANIK 4	كندا	٧٨/١٢/١٦	٥٤٤	٣٥٧٨٢	٣٥٧٩١	١٤٢٦,١
الأنق ١	الاتحاد السوفياتي	٧٨/١٢/١٩	٩	٢٢٥٨١	٤٨٣٦٥	١٤٢٠
MOLNIYA 3 (11)	الاتحاد السوفياتي	٧٩/١/١٨	١٥٠٠	٤٧٤	٤٠٨٠٦	٧٣٦
AYAME	اليابان	٧٩/٢/٦	٣٦٠	٣٣٩٦٦	٣٥٤٢١	١٣٨٠,٦ (١٠)
RADUGA 5	الاتحاد السوفياتي	٧٩/٤/٢٥	٥٠٠٠	٣٥٩٠٢	٣٥٩٠٢	٣٥٩٠٢ (١١)
الأنق ٢	الاتحاد السوفياتي	٧٩/٧/٥	٩	٣٦٥٥٠	٣٦٥٥٠	٧٥٧

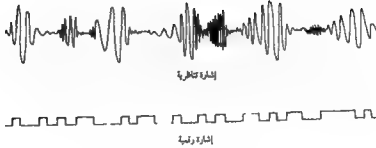
(١) تجريبى متزامن مع الأرض (٢) للملاحة (٣) حلقة الراديو (٤) فوق المحيط الهندي (٥) أول قمر اتصال ياباني متزامن مع الأرض (٦)
للملاحة (٧) حلقة الاتصالات الوطنية (علي) (٨) و (٩) متزامن مع قمر حلقة الراديو (١٠) تجريبى .

ويدعو لتحقيق حلم آرثر كلارك بهذا الشكل إلى التأمل ، خاصة وأن رجال العلم لم يكونوا يتصورون امكان تحقيقه بهذه السرعة ، كما أن بعضهم لم يكن يتصور امكان تحقيقه على الاطلاق . فبعد ١٠ شهور من ظهور مقال كلارك قال الدكتور فانيفر بوش ، الاستاذ بمعهد ماساتشوستس للتقنية MIT ومخترع الكمبيوتر الضايفي differential-computer ، ما يعني ذلك . ففي شهادته أمام مجلس الشيوخ الأمريكي في ديسمبر ١٩٤٥ قال بوش ان صنع صاروخ يحمل قنبلة لمسافة ٣٠٠٠ ميل (٨٠٠ كيلومتر) مستحيل . . . ومن الوجهة التقنية ، لاظن أن أحدا في العالم يعرف كيف يصنع شيئا كهذا . . . وأظن أنه يمكننا أن نترك هذا الشيء من تفكيرنا . وقبل ذلك ببضعة أشهر كان الاستاذ ف . أ . لينديمان ، مستشار ونستون تشرشل العلمي ، قد قال كلاما بنفس المعنى أمام مجلس اللوردات البريطاني . وصحيح أن آرثر كلارك بنى حلمه على أساس انجازات الألمان في صناعة صواريخ « V » التي أطلقوها من شواطئ بحر الشمال الجنوبية على لندن في أواخر الحرب العالمية الثانية ، إلا أن مسافة ٣٠٠٠ ميل التي جاءت في شهادة بوش شيء آخر . والأهم من ذلك أن الارتفاع الصحيح الذي ذكره كلارك للأقمار الصناعية التي تحملها هو ٢٢٣٠٠ ميل ، أي ٣٥٧٠٠ كيلومتر ، فهذا هو تقريبا الارتفاع الذي توجد عليه اليوم أقمار « اتلسات » الدولية ، و « أنيك » الكندية ، و « راداجو » السوفيتية ، و « ساكورا » اليابانية ، وغيرها .

ومن المعلومات الأولية في علوم الاتصالات أن الموجات الأقصر تستطيع أن تحمل اشارات أكثر في نفس الزمن . ومن هنا كانت قيمة الموجات الدقيقة . فهي ، بقصرها البالغ بالنسبة لموجات الراديو الأخرى ، تستطيع أن تمدها بقنوات اتصال بالغة السعة . على أن موجات الضوء أقصر من بعض الموجات الدقيقة المستخدمة في الاتصالات بمائة ألف مرة . فلو استطاع الإنسان تحميل اشاراته على موجات الضوء لحصل على قنوات اتصال ذات ساعات خيالية ، لذلك أدى اختراع الليزر سنة ١٩٦٠ الى بدء سلسلة من البحوث لانيجاد قنوات يمر فيها الليزر بعيدا عن الظروف الجوية التي تؤثر فيه كما تؤثر على غيره من أشكال الضوء الأخرى . وتدل أخبار الستين الماضيتين على حدوث تطور هائل في هذا الاتجاه ، فقد استطاعت شركتان أمريكيتان وشركة انجليزية وأخرى يابانية انتاج أربعة أنواع مختلفة من الألياف الزجاجية الشفافة للاتشاء في كل الاتجاهات دون أن تنكسر (بسبب دقة قطرها الذي لايزيد على قطر الشعرة إلا قليلا) ، والقادرة على الاحتفاظ بإشارات الضوء داخلها بعد قطعها عدة كيلومترات . ومعنى هذا الكلام أنه باستخدام المتابعات يمكن إرسال الاشارات الضوئية لمسافة آلاف الكيلومترات داخل كابلات هذه « الألياف البصرية » . وقبل نهاية العقد الحالي سيكون هناك كابلات منها ممدودة تحت مياه المحيط الأطلسي بين أوروبا وأمريكا الشمالية . وبالإضافة الى ذلك تقوم الخطوط على قدم وساق في أمريكا الشمالية وأوروبا واليابان على مد شبكات الألياف البصرية عبر أراضيها وداخل مدنها لتحل محل « الكابلات للتخدة المحور » الممدودة حاليا .

وهكذا بعد أن كان معظم الاهتمامات في ميادين الاتصالات موجها الى الاتصالات القمرية ، ها هو ذا الانتباه يعود بنقله مرة أخرى الى الاتصالات الأرضية .

ولا تقتصر التغيرات التي تحدث الآن في ميادين الاتصالات على ادخال وسائل جديدة ، إذ أن التغير يشمل طرق الإرسال أيضا . فالتحول جار الآن ، وأن يكن ببطء بسبب عوامل اقتصادية مؤقتة ، من الإرسال « التناظري » الى الإرسال « الرقمي » لما في ذلك من التحسين الكبير للإرسال من الناحيتين الكمية والكيفية .



شكل (٢) . الإرسال الرقمي والإرسال التناظري

والإرسال التناظري هو الذي تتغير فيه الاشارات تغيرا مستمرا طول الوقت مثلما يتغير ارتفاع سطح الماء عن نقطة معينة من سطح البحر الشموع مارا بجميع الارتفاعات الواقعة بين قمة الموجة وقاعها .

والإرسال الرقمي هو الذي يتم باستخدام نبضات يبينها فواصل بنظام يتوقف على المعلومات المرسله .

والاشارات من كلا النوعين تضعف كما تصيبها « الضوضاء » مع طول المسافة . ولعلاج الضعف نوضح على طول طريق الإرسال متابعات تقوم بتقوية الاشارات . فإذا كانت الاشارات تناظرية فإن الضوضاء تقوى أيضا ، وهذا عيب في الإرسال التناظري ويصعب التخلص منه . أما إذا كانت الاشارات رقمية فانه من الممكن ، في الظروف العادية ، أن يعاد توليدها كما كانت قبل أن تصيبها الضوضاء ، وهذه ميزة كبرى للإرسال الرقمي تنجح الإرسال عبر آلاف الكيلومترات بدون ما ضوضاء تقريبا ، ما لم تقع حوادث غير عادية . أما الميزة الثانية للإرسال الرقمي فهي أنه يسمح بمضاعفة استغلال قنوات الاتصال الواسعة التي أصبحت متاحة بعد تطويع الموجات الدقيقة والضوء لحمل الاشارات .

والقناة المملدة للإرسال الرقمي لاتصلح للإرسال التناظري . فإذا كانت الاشارات الاصلية تناظرية ، كما هو الحال عند إرسال الصوت أو الصورة ، فانه يلزم أولا « تعديل » الاشارات بترجمتها الى اشارات رقمية بشفرة ما ، ثم إرسالها على القناة الرقمية ، على ان يعاد تعديل تلك الاشارات الرقمية في نهاية الإرسال بحيث تنتج اشارات تناظرية قريبة بقدر الامكان من الاشارات الاصلية ، الا اذا أريد غير ذلك . وتعرف عمليات التعديل الأول باسم التعديل بشفرة النبضات

Pulse code Modulation (PCM)

على أن معظم منشآت الاتصالات الحالية مبنى على أساس الإرسال التناظري . ومن الوجهة الاقتصادية يجب استغلالها لأطول فترة ممكنة . وهذا ما يؤخر التحول الكامل الى الإرسال الرقمي .

وللمبيوتر الرقمي الالكتروني عدة أدوار في ثورة الاتصالات ، فهو لازم لعمليات اطلاق الأقمار الصناعية ووضعها في مساراتها المحسوبة ، ولمراقبة سيرها وضبط مداراتها كلها تأثرت بالجاذبية والاشعاعات الشمسية . وهو لازم أيضا في المقسمات الآلية التي تنظم العمل في شبكات الاتصالات الجالية الشديدة التعقيد . كما أن له الدور الأساسي في استخراج المعلومات في بنوكها والحصول عليها في الحال عبر قنوات الاتصال التي يكون طولها شيئا بين بضعة أمتار وآلاف الكيلومترات .



٢ - الموجات وشرائط التردد

الموجات الكهرومغناطيسية electromagnetic waves

عندما نتحدث ذبذبات كهربائية فإنه ينشأ عنها موجات كهربية وأخرى مغناطيسية . ويطلق على مجموعتي الموجات الناشئة اسم « الموجات الكهرومغناطيسية » . وتنتشر هذه الموجات بسرعة الضوء ، أي أنها تسير في الفضاء بسرعة ٣٠٠ ألف كيلو متر في الثانية .

ويطلق اسم « الطيف الكهرومغناطيسي electromagnetic spectrum » على مجموعة الموجات الكهرومغناطيسية .

و « التردد frequency » هو عدد الذبذبات في الثانية . ومن المعلوم أن :

سرعة انتشار الموجات = التردد × طول الموجة وحيث أن سرعة انتشار الموجات الكهرومغناطيسية لا تتغير بتغير التردد فإن طول الموجة ينقص بزيادة التردد .

وتستخدم كلمة « هرتز » hertz بمعنى « ذبذبة في الثانية » . فمثلا « ٣٠٠٠ هرتز » أو « ٣ كيلو هرتز » تعني « ٣٠٠٠ ذبذبة في الثانية » و « ١٠٠ ميغاهرتز » تعني « ١٠٠ مليون ذبذبة في الثانية » ، و « جيجا هرتز » معناها « ٤ آلاف مليون ذبذبة في الثانية » .

ويتوقف نوع الموجات المغناطيسية على مقدار التردد الذي تنشأ عنه . فعندما يكون التردد واقعا بين ٢٠ كيلوهرتز ، و ١٠ ميغاهرتز تنشأ موجات الراديو . وعندما يكون التردد واقعا بين ١٠ ميغاهرتز ، و ٣ جيجا هرتز تنشأ الموجات الدقيقة . وهكذا حسب ما هو مبين بجدول (٣) .

ويطلق اسم « شريط تردد frequency band » أو اختصارا ، « شريط band » على أية مجموعة من الترددات المتتالية القيمة . فمثلا الشريط « ٢،٣،٤ جيجا هرتز » هو « مجموعة الترددات التي تبدأ بتردد قدره ٢،٣ جيجا هرتز وتنتهي بتردد قدره ٤ جيجا هرتز » .

جدول (٢) بعض الوحدات المستخدمة في العد

الوحدة	الرمز	القيمة	القوة العشرية
كيلو	Kilo	ألف	٣١٠
ميجا	mega	مليون	٦١٠
جيجا	giga	ألف مليون	٩١٠
ميكرو	micro	جزء من مليون	٦-١٠
نانو	nano	جزء من ألف مليون	٩-١٠

جدول (٣) - الطيف الكهرو مغناطيسي

نوع الموجة	طول للموجة (بالتقريب)	التردد بالتقريب (هرتز)
كهرو مغناطيسية طويلة	فوق ١٦ كم	تحت ٢٠٠٠٠
موجات الراديو	١٦ كم إلى ٣٠ م	١٠٠٠٠٠٠٠ إلى ٢٠٠٠٠
الموجات الناقية	٣٠ م إلى ١٠ م	١٠ إلى ٣ × ١٠
الأشعة تحت الحمراء	١٠ م إلى ٠.٠٠٠٧٥ مسم	٣ × ١٠ إلى ٤ × ١٠
الضوء المنظور	٠.٠٠٠٧٥ مسم إلى ٠.٠٠٠٣٨ مسم	٤ × ١٠ إلى ٨ × ١٠
الأشعة فوق البنفسجية	٠.٠٠٠٣٨ مسم إلى ١٠٠ مسم	٨ × ١٠ إلى ٣ × ١٠
الأشعة السينية *	١٠٠ إلى ١٠ م	٣ × ١٠ إلى ٣ × ١٠
أشعة جاما *	تحت ١٠ م	فوق ٣ × ١٠

* د ١ : اختصار التجسرم وهي وحدة طول تساوي جزء من مائة مليون من السنتيمتر .

وهنا بعض الشرائط التي يطلق عليها أسماء . وبعضها يوجد في جدول (٤) .

و « عرض الشريط » **bandwidth** هو الفرق بين أدنى الترددات وأعلىها في الشريط . فمثلا عرض « الشريط - ح » ، وهو الشريط الثالث في جدول (٤) يساوى ٦ ، ٩ - ٣ أى ٣ ، ٣ جيجا هرتز .

والشريط ذو العرض الصغير جدا يسمى « شريحة » **slot**

والوحدة المستخدمة في قياس عرض الشريط هي ، غالبا ، « القناة الصوتية **voice channel** وتساوى ٤ كيلوهرتز .

وإذا كان الشريط أعرض كثيرا من القناة الصوتية ، أى إذا كان عرضه أكبر كثيرا من ٤ كيلوهرتز ، فيقال له « شريط واسع » **broad band** .

الارسلات التلفوني

عندما يتكلم شخص فإن أوتاره الصوتية تهتز معا في نفس الوقت بترددات مختلفة قد يصل أعلاها إلى ١٢ كيلوهرتز أو أكثر . على أن الذبذبات التي تحدث بتردد تحت ١٠٠ هرتز أو فوق ٣١٠٠ هرتز تكون ذات طاقة ضعيفة جدا . لذلك يمكننا تمييز صوت من يحدثنا على التلفون مع أنه قد يكون كل ما يرسل لنا هو الشريط ١٠٠ - ٣١٠٠ هرتز ، وهو بعرض ٣ كيلوهرتز . على أن الارسلات التلفوني يحدث عادة بتخصيص شريحة عرضها ٤ كيلو هرتز لكل متكلم . وهذا هو السبب في إطلاق اسم « قناة صوتية » على ذلك العرض .

وتحتوي الشبكة التلفونية الكبيرة على ما يلي :

- دوائر المشتركين **subscriber loops** (وتسمى أيضا « الدوائر المحلية ») ، وتحتوى الدائرة منها على زوج من الأسلاك . ويعمل السلك ترددات من صفر إلى ٤ كيلو هرتز .

جدول (٤) بعض شرائط التردد ذات الأسماء

الترددات في الشريط	اسم الشريط
390 — 1.550 GHz	L — band
1.550 — 3.900 GHz	S — band
3.900 — 6.200 GHz	c — band
6.200 — 10.900 GHz	X — band

- مقسمات (مسترالات) محلية **local central offices** وتتصل المقسم المحلي بكل المشتركين ، ويصل أي مشترك بآخر عند الطلب .

- مقسمات رئيسية تصل بين المقسمات المحلية .

وقد يوجد من المقسمات ما هو أكبر فيصل بين المقسمات الرئيسية .

- ترنكات **trunks** وهي خطوط تصل بين مقسم وآخر . ويجعل الترنك شريط تردد مساويا عددا كبيرا من القنوات الصوتية .

نسيج الاشارات **multiplexing** عندما تتجمع إشارات تليفونية (واردة من دوائر المشتركين) في المقسم المحلي بفرض ارسالها إلى مقسم آخر فالمادة أنها تحزم معا بطريقة ما وترسل كإشارة واحدة . ويطلق على عملية ارسال مجموعة من الاشارات واحدة اسم « نسيج الاشارات » .

وهناك طريقة شائعة الاستعمال لنسيج الاشارات تسمى « النسيج بتقسيم التردد » **frequency division multiplexing FDM** ويتم بتقسيم شريط الارسال إلى قنوات صوتية بترددات متتالية الارتفاع . فإذا كان الارسال يحدث على شريط ٦٠ - ١٠٠ كيلوهرتز مثلا ، فإن الإشارة التليفونية الأولى ترفع الى ٦٠ - ٦٤ كيلوهرتز والثانية إلى ٦٤ - ٦٨ كيلوهرتز ، والثالثة إلى ٦٨ - ٧٢ كيلوهرتز ، وهكذا

وقد تمح الإشارة التليفونية بمقسمين أو أكثر . وعند وصول الإشارة المنسوجة إلى المقسم المحلي الأخير يعاد فصل القنوات الصوتية وتخصص كل قناة إلى التردد الأصل لها (أى إلى ٠ - ٤ كيلوهرتز) وترسل على الدائرة المحلية الخاصة بها .

الارسال على الترددات المرتفعة

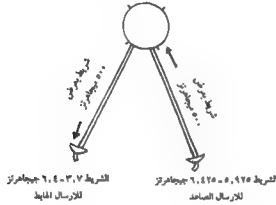
من المعلومات الأولية في الاتصالات أن مقدار الاشارات التي يمكن ارسالها باستخدام قناة ما يتوقف على عرض شريط الترددات المستخدم . والضغط يزداد باستمرار على قنوات الارسال . فالمحادثات التليفونية في مدينة كبيرة تتم بالآلاف في نفس الوقت ، والقناة التليفونية الواحدة تحتاج الى ١٢٠٠ قناة صوتية . ولذلك يحدث البحث دائما عن قنوات كبيرة العرض للاتصالات .

والموجات الدقيقة تعطي قنوات اتصال عريضة بدرجة لم يكن يحلم بها الانسان قبل إمكان توليد تلك الموجات . أما موجات الضوء - إذا أمكن استخدامها للاتصالات بنجاح - فتعطي قنوات اتصال ذات سعات خيالية . فكما يظهر من جدول (٣) ، فإن عرض طيف الموجات الدقيقة يساوى الفرق بين ٣ آلاف جيجا هرتز و ١٠ ميجا هرتز ، أى أكثر من ٢٩٠٠ جيجا هرتز ، وهو عرض كبير . فإذا قسم إلى شرائط ذات عرض نصف جيجا هرتز (أى ٥٠٠ مليون هرتز) فإن عرض الشرائط يكون أكثر من ٥٠٠٠ . ولكن على أنه توجد صعوبات تقابل محاولة استخدام الشرائط ذات الترددات المرتفعة في ذلك الطيف . منها التأثير بالظروف الجوية . وكلها ذلت العقبات التي تقابل استخدام شريط مرتفع التردد أتيح للإنسان قنوات واسعة إضافية .

ارسال الأقمار الصناعية على الموجات الدقيقة

للإرسال باستخدام الأقمار الصناعية تستخدم شرائط تحددها الاتفاقات الدولية والميثاق التنظيمية الوطنية . ومن الشرائط المخصصة لأقمار الاتصالات المدنية نجد الشريط ٣,٧ - ٤ جيجا هرتز للموجات الهابطة ، والشريط ٥ - ٤,٢٥ جيجا هرتز للموجات الصاعدة . ويلاحظ أن عرض كل من الشريطين نصف جيجا هرتز أي ٥٠٠ مليون هرتز . وهناك شرائط أخرى مخصصة للأقمار الصناعية مثل الشريط ٩,٥ - ١٠,٢٠ جيجا هرتز وعرضه ربع جيجا هرتز ، أي ٢٥٠ مليون هرتز .

ويشار الى الشرائط المخصصة بعبارات مثل 4/6 — GHz band; 11/14 — GHz band; 21/16 gh z dand band أي شريط ٤/٦ جيجا هرتز ، شريط ١٤/١١ جيجا هرتز . ١٦/١٢ جيجا هرتز وفي أي من هذه العبارات يشير العدد الأول الى شريط ترددات الموجات الهابطة ، والعدد الثاني الى شريط ترددات الموجات الصاعدة .



شكل (٣) قمر اتصالات مدالية يستخدم الشريطين ٤/٦ - جيجا هرتز

٣ - أقمار الاتصالات

يعمل قمر الاتصالات بمثابة متابع من نوع فريد للموجات الدقيقة . فهو ، بوضعه العالي في الفضاء ، يستطيع متابعة الاشارات عبر المسافات الطويلة التي قد لا تستطيع تغطيتها وصلة واحدة تقدمها أية وسيلة أخرى للاتصالات . ولعل أهم مزايا أقمار الاتصالات قدرتها الفريدة على تغطية العالم . وقد بقيت شبكات الاتصال في العالم شبه منعزلة بعضها عن بعض ولم يتيسر ضمها كلها في شبكة واحدة إلا بعد مجيء تلك الأقمار . واليوم لا يلزم لضم أي مكان ناه في العالم الى تلك الشبكة الا اقامة محطة أرضية هناك . ولا يستلزم ذلك وقتا طويلا ولا يحتاج الى رؤوس الأموال الطائلة التي يلزم توافرها لوصل أي مكان ناه بشبكة رئيسية من شبكات الاتصالات .

ومن مزايا أقمار الاتصالات الأخرى أنها تتيح شرائط تردد أعرض من أي شيء كان معروفا من قبل . وقد بقيت الإرسال التلفزيوني عبر المحيطات معلقا حتى مجيء الأقمار الصناعية .

فالكابلات البحرية الحالية لا تقدم شرائط التردد العريضة التي تكفي الاتصالات التلفزيونية والإرسال التلفزيوني معا . ولم يكن من المتيسر مد كابلات إضافية تحت الماء لسد العجز في قنوات الاتصال إذ أن ذلك المذ يحتاج إلى أموال طائلة وجهود مضيئة . ولقد كان الغرض الأساسي من الاتجاه إلى الأقمار الصناعية من أجل الاتصالات هو تسير الإرسال عبر المحيطات .

وقد كانت الأقمار الأولى للاتصالات صغيرة الحجم قليلة الوزن بسبب ضعف الصواريخ الأولى بالنسبة للمصاريف الحالية . ولذلك لم تكن تحمل الأجهزة الإلكترونية اللازمة لتعديل موجات الإرسال وتقوية الموجات المعدلة وإرسالها ، وكان عملها مقتصر على عكس الإشارات الصادرة إليها من الأرض . وبعبارة أخرى كانت تلك الأقمار « سلبية » . على أنه سرعان ما أمكن صنع صواريخ قوية . وبذلك أمكن مد أقمار الاتصالات بالتجهيزات الكافية لتعديل الإشارات التي تستقبلها وتقويتها ثم إعادة إرسالها . وبعبارة أخرى أمكن صنع وإطلاق أقمار اتصالات « إيجابية » . وقد حدث ذلك التقدم في سنوات قليلة . وما تم في تلك السنوات أيضا التوقف عن استخدام البطارية الكيميائية لمدة الأقمار بالطاقة اللازمة ، فقد كانت البطاريات الشمسية قد اخترعت . وبعد أن كان عمل البطارية في الأقمار الأولى لا يستمر إلا أسبوعا أو أسبوعين ، أصبحت الأقمار تستمد الطاقة اللازمة لها طوال سنوات عملها من البطاريات الجديدة .

الأقمار المتزامنة مع الأرض geosynchronous satellites

كانت أقمار الاتصالات الأولى تحلق على ارتفاعات منخفضة نسبيا (بسبب الضعف النسبي لصواريخ ذلك الوقت) ولذلك كانت دورتها تتم في ساعات قليلة مما يجعلها لا تظهر في السماء إلا دقائق معدودة . بالإضافة إلى ذلك كان من اللازم استمرار تحريك أطباق المحطات الأرضية لتكون مواجهة لقمر الاتصال طوال مدة ظهوره . على أنه في أوائل الستينات أمكن صنع الصواريخ التي تستطيع أن تدفع القمر الصناعي إلى ارتفاع ٣٥٧٠٠ كيلومتر ، كما تقدمت التقنية في كل شيء لازم لتصبح مسار القمر عند ذلك الارتفاع وإعطائه السرعة اللازمة (أي ١١٠٠٠ كيلومتر في الساعة) لكي يدور حول الأرض في نفس الزمن التي تدور فيه حول محورها ، أي في ٢٤ ساعة . وإذا كان القمر فوق نقطة من خط الاستواء ويسير بتلك السرعة في اتجاه دوران الأرض فإنه يبدو ثابتا في مكانه في السماء ويقال إنه « متزامن مع الأرض » . وقد كان القمر الأمريكي « سينكوم ٢ SYNCOM II » الذي أطلق في سنة ١٩٦٢ هو أول قمر له هذه الصفة .

المحطات الأرضية

تتألف المحطة الأرضية من طبق كبير ، طول قطره عدد من الأمتار ، يشير إلى قمر الاتصالات . وقد كانت المحطات الأرضية الأولى على شيء كبير من الضخامة . فقد كان للمحطة التي تشير إلى « ايري بيرد » - أول أقمار

جدول (٥) زمن دورة القمر الصناعي حسب ارتفاعه

ارتفاع القمر عن الأرض (كم)	زمن الدورة (ساعة)	زمن البقاء في مدى بصري المحطة الأرضية
١٦٠ - ٤٨٠	١,٥ تقريباً	١/٤ ساعة أو أقل
٩٥٠٠ - ١٩٠٠٠	٥ - ١٢	٢,٤ ساعة
٣٥٧٠٠	٢٤	مدى عصر القمر

الاتصالات - قبة ارتفاعها ١٨ طابقاً تحتوي على هوائي على شكل بوق يتحرك بالادارة ويزن ٣٨٠ طناً ، وتصحبه دوائر الكترونية تبرد بالمليوم السائل . على أنه سرعان ما ظهر أن الاحتياطات الكبيرة التي سببت ضخامة المحطة كان مبالغاً فيها فبطل بناء القباب فوق المحطات الأرضية . كذلك ظهر أنه في الامكان التحكم في ثبات القمر في مكانه الظاهري في الفضاء ولذلك استبعد لزوم الادارة المستمرة للمحطة . وكل ما يلزم الآن هو إعادة توجيه الهوائي بين الحين والآخر .

وبالتقدم الهائل الذي حصل في الالكترونيات في الستينات والسبعينات أمكن مد أقمار الاتصالات بأجهزة أقوى كثيراً من سابقتها ، وبذلك أصبح في الامكان استخدام محطات أرضية أصغر من المحطات الكبيرة الأولى التي كان قطرها ٣٠ متراً . واليوم توجد محطات ذات أقطار مختلفة : ٣٠ متراً ، ١١ متراً ، ٥ أمتار ، وغيرها . وبينما بقيت أثمان المحطات الكبيرة مرتفعة كما كانت (من ٦ مليون الى ٨ مليون دولار) نجد أن المحطات الصغيرة ذات أسعار منخفضة إلى حد كبير . وفيما يلي بعض الأسعار السائدة حالياً في الولايات المتحدة الأمريكية لبعض أنواع المحطات الأرضية :

نظام (أ) بقطر ٣٠ متراً	٦ - ٨ مليون دولار
نظام (ب) بقطر ١١ متراً	٨,٠ - ١,٢ مليون دولار
نظام لاستقبال ارسال الأقمار الوطنية	أقل من ٣٠٠٠٠ دولار
نظام لاستقبال الراديو والتلفزيون بدون ارسال	أقل من ١٠٠٠٠ دولار
نظام لاستقبال الراديو بدون ارسال	أقل من ٥٠٠٠ دولار
نظام لاستقبال الراديو في المنزل (ما زال خطه)	أقل من ٢٥٠ دولار

وقد أدى انتاج النظم الصغيرة للمحطات الأرضية الى إمكان اقامتها قريباً من المستخدم النهائي . فحيث لا يخشى تدخل الموجات يمكن إقامة المحطة في الأرض الفضاء الموجودة خلف المبنى ، وكذلك يمكن وضعها فوق أعلى المنزل .



شكل (٤) محطة أرضية متوسطة على شكل طبق

وكما هو ظاهر من النظم السابقة ، تقوم المحطات الكبيرة بالارسال والاستقبال . على أنه من اللازم وجود محطة تقوم بعمليات التحكم في القمر الصناعي ، وربما بتشغيل محطة أرضية أو أكثر مما لا يوجد بها أشخاص لتشغيلها .

الترانسبوندر transponder

في علم الاتصالات يعرف الترانسبوندر بأنه تسهيلات للاستقبال والارسال وظيفتها إرسال الاشارة أوتوماتيكيا عند تلقي الطلب الصحيح . وفي الأقمار الصناعية تقوم الترانسبوندرات باستقبال الاشارات الواردة على موجات الراديو الدقيقة في شريط تردد معين ثم تعيد ارسالها بتردد آخر ، وذلك تلافا لتداخل الاشارات القوية الصادرة من القمر مع الاشارات الضعيفة الواردة إليه .

ولأغلب أقمار الاتصالات الحالية أكثر من ترانسبوندر . ويختلف عرض الشريط الذي يتيح الترانسبوندر من قمر صناعي إلى آخر . وللقمر الصناعي « انتلسات ٤ » مثلا ٢٠ ترانسبوندر وعرض شريط تردد كل منها ٣٦ ميگاهرتز . ويتوقف استخدام الشريط على تجهيزات المحطة الأرضية . ففي بعض النظم يمكن استخدام الشريط بعرض ٣٦ ميگاهرتز في حل أي مما يأتي :

- قناة تلفزيونية واحدة مع صوت البرنامج .

- ١٢٠٠ قناة صوتية .

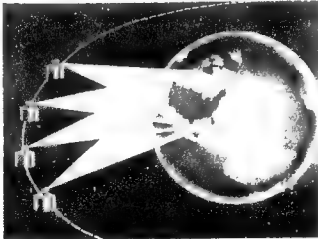
بيانات بمعدل ٥٠ مليون رقم ثنائي (واحد أو صفر) في الثانية - الأربعة والعشرون ميجاهرتز الوسطى من كل شريط يمكن أن تقوم بمتابعة أي من :

- أ - ١٦ قناة ذات ١,٥٤٤ مليون رقم ثنائي في الثانية .
- أوب - ٤٠٠ قناة ذات ٦٤٠٠٠ رقم ثنائي في الثانية .
- أوجد - ٦٠٠٠ قناة ذات ٤٠٠٠ رقم ثنائي في الثانية .

الهوائيات في الفضاء antennas

توصف هوائيات الموجات الدقيقة بأنها توجيهية directional لأنها تستطيع أن تقوم بتوجيه تلك الموجات . ويحتاج توجيه الموجات الأقصر إلى هوائيات أصغر . ولم تكن هوائيات أقمار الاتصالات الأولى توجيهية بدرجة عالية . على أن هوائيات « ايرلي بيرد » - وهو أول أقمار الاتصالات التجارية وكان إطلاقه في سنة ١٩٦٥ - كان يحمل هوائيات على درجة لا بأس بها من القدرة على التوجيه . وكانت تلك الهوائيات توصف بأنها « حواء » لأنها كانت موجهة إلى شمال المحيط الأطلسي مع جزء من شواطئه الأوروبية والأمريكية دون باقي القارتين وذلك بغرض احتفاظ الإرسال بقوته لخدمة الاتصالات بين شاطئيه شمال المحيط .

وفي المدار المتزامن مع الأرض تقابل الأرض زاوية مقدارها ١٧° أو ١٨° وإذا كان التوجيه نحو الأرض كلها فإن الهوائيات توزع الإرسال على هذه الزاوية . وإذا كان الهوائي يغطي زاوية أقل من ذلك فإن الإشارات التي تستقبل على الأرض تكون أقوى (إذا لم تتغير قوة القمر) . ويحمل القمر « انتلسات ٤ » هوائين يقابل كل منهما ٥° ، وذلك بالإضافة إلى هوائي ذي ١٧° . والقمر الوطني الصناعي المصمم لخدمة دولة معينة (ويسمى قمراً وطنياً) مثل كندا أو البرازيل يحتاج إلى هوائي يغطي تلك الدولة .



شكل (٥) زوايا توجيه الإرسال من قمر صناعي

والقمر ، NASA ATS 6 الذي أطلقته ناسا سنة ١٩٧٤ كان يحمل هوائيا ذا زاوية ٢٥° ، مما كان يجعله يستطيع توجيه ارسال الى بقعة Spot تساوي مساحة انجلترا . (وقد كان ذلك القمر تجريبيا . ومن التجارب الكثيرة التي صمم لخدمتها مساعدة الحكومة الهندية في برنامج تعليمي يذاع على ٥٠٠٠ قرية هندية ، وكان لدى نصفها مراكز استقبال مباشرة) . وكان هوائي ذلك القمر على شكل مظلة تفتح في الفضاء (حتى تأخذ حيزا صغيرا أثناء الاطلاق) ليصير قطرها ٣٠ قدما . وكان تحت المظلة أجهزة تغذية ، تبث الارسال عبر الهوائي الذي يوجهه في شكل حزمة بقعة ، وكانت المظلة تقوم بالاستقبال أيضا وتبث بالاشارات الواردة إلى التغذية * .

وتجبه التصميمات الآن إلى أن يكون ارسال القمر على شكل حزم ضيقة متعددة . فبالإضافة إلى ما يؤديه ذلك من تقوية الارسال فإنه يتيح استعمال نفس التردد للارسال إلى بقع مختلفة من الأرض ، كما يتيح للأقمار المختلفة إعادة استعمال نفس التردد .

التأخير

يجب الارسال باستخدام الأقمار الصناعية حدوث تأخير يسببه أن الإشارة تقطع المسافة من الأرض إلى القمر ثم من القمر إلى الأرض ، وبمجموع المسافين أكثر من ٧٠٠٠٠ كيلومتر بالنسبة للأقمار المتزامنة مع الأرض . ويتوقف التأخير على البعد بين القمر وكل من نقطتي الارسال والاستقبال ، ولكنه يكون حوالي ٢٧٠ مللي ثانية .

وفي المكالمة التليفونية إذا كان الارسال في كلا الاتجاهين يستخدم القمر الصناعي فإنه يكون على المتحدث أن ينتظر نحو ٥٤٠ مللي ثانية حتى يسمع الرد . ولذلك أثر نفسي سيء ولكنه يقل بالتمود . ومن الطرق المتبعة في بعض النظم للتخلص من نصف التأخير أن يكون الارسال في أحد الاتجاهين عبر القمر الصناعي ، وفي الاتجاه الآخر باستخدام الكابلات التليفونية .

على أن أهم ضرر للتأخير هو ما قد يحدث عند ارسال البيانات . ويستلزم الأمر أخذ احتياطات معينة عند تصميم نظم ارسال البيانات في الاتجاهين باستخدام أقمار الاتصالات .

مدارات أقمار الاتصالات

يكون مدار القمر على شكل دائرة مركزها عند مركز الأرض ، أو على شكل قطع ناقص (بيضي) تقع الأرض عند إحدى بؤرتيه . (ويمكن اعتبار الدائرة قطعاً ناقصاً تنطبق بؤرتاه) . وعندما يكون المدار قطعاً ناقصاً فإن بعد القمر عن الأرض يتغير باستمرار ، ويكون له قيمة صغرى تسمى البعد الأصغر Perigee وأخرى كبرى تسمى البعد

* كان القمر المصمم للقمر ستير وكان وزنه ١٣٦٠ كيلو جراما منها ٢٣٤.٥ كيلو جراما لخدمة الاتصالات موزعة كالآتي :

ماتس على شكل قطع ناقص	٨٧ كجم
تغذية الهوائي	٢٩.٨ كجم
ترانسولدر	١٢٠.٦ كجم

الأكبر apogee وأقمار النظام السوفييتي «مولنيا» MOLNIYA من هذا النوع . فمثلا القمر MOLNIYA 3(11) الذي أطلق في ١٨/١/٧٩ يتراوح بعده عن الأرض بين ٤٧٤ كيلو مترا و ٤٠٨٠٦ كيلو مترا . ويدور هذا القمر حول الأرض في ١٢١/٤ ساعة تقريبا ، ولكن شكل مداره يتيح بقاءه أطول مدة ممكنة في مدى بصر معظم محطات الاتحاد السوفييتي الأرضية .

هيئات ونظم أقمار الاتصالات

يوجد في الوقت الحاضر عدد كبير من أقمار الاتصالات التي تقوم بعمليات مختلفة . وهي تجريبية أو عاملة . ويمكن تصنيف نظم أقمار الاتصالات العاملة كما يأتي :

بحرية	تجارية
١ - ثابتة	١ - ثابتة
٢ - متحركة	أ - دولية
	ب - إقليمية / وطنية
	٢ - متحركة
	٣ - إذاعة

ويوجد نظامان دوليان من النظم الثابتة وهما :

- انتلسات INTELSAT وهو نظام ناجح تمام

- انترسپوتنيك Intersputnik وهو نظام سوفييتي محدود الامكانيات بالقياس إلى النظام الأول .

ومن النظم الإقليمية / الوطنية غير الأمريكية يوجد ما يلي :

- تيليسات كندا TELESAT Canada

- أي أس إيه (أوروبا) ESA (European Satellite Agency)

- بالايا (إندونيسيا) PALAPA

- سيريو (إيطاليا) SIRIO

- عربسات ARABSAT

- سيمفوني (ألمانيا - فرنسا) Symphonie

- إنسات (الهند) INSAT

أما النظم التابعة للولايات المتحدة الأمريكية فبعضها يظهر في جدول (٦) الذي يحتوي على خطط اطلاق الأقمار الصناعية على مدى ٦ سنوات تقريبا .

ومن النظم المتحركة يوجد :

- ماريسات (COMSAT General) MARISAT

- ماروتس (الوكالة الأوروبية) (ESA) MAROTS

جدول (٦) خطط إطلاق أنماط الاتصالات الأمريكية الوطنية لسبع شركات
خلال السنوات القليلة التي تبدأ من نوفمبر ١٩٨٠

تاريخ الإطلاق	القمر
نوفمبر ١٩٨٠	sbs 1
يناير ١٩٨١	sbs 2
نوفمبر ٨٢ - سبتمبر ٨٣	sbs 3
يونيو ١٩٨١	RCA SATCOM 3-R
أكتوبر ١٩٨١	RCA SATCOM 4
أكتوبر ١٩٨٢	RCA SATCOM 5
مارس ١٩٨٣	RCA SATCOM 1-R
سبتمبر ١٩٨٣	RCA SATCOM 2-R
مارس ١٩٨١	COMSTAR D-4
مارس ١٩٨٣	AT & T TELSTAR I
مارس ١٩٨٤	T & AT TELSTAR II
مارس ١٩٨٦	T & AT TELSTAR III
مارس ١٩٨٢	WESTAR 4
	(WESTERN Union)
أغسطس ١٩٨٢	WESTAR 5
١٩٨٣	ADVANCED WESTAR-A
١٩٨٣	ADVANCED WESTAR-B
١٩٨٢	HUCHES H-1
١٩٨٢	HUCHES H-2
١٩٨٣	HUCHES H-3
	SPCC 1
	(SOUTHERN Pacific)
١٩٨٣	SPCC 2
١٩٨٤	GTE 1
١٩٨٤	GTE 2

كومسات Comsat

في فبراير ١٩٦٣ تأسست شركة أمريكية باسم « شركة اتصالات الأقمار الصناعية » Communications Satellite Corporation (COMSAT)

وتعرف باسم « كومسات » . وذلك لتشغيل والاطلاق في أمريكا للأقمار الصناعية التجارية مع تغطية عالمية واسعة . وتعمل الشركة لتحقيق ذلك وللسمامة في ملكية وتشغيل نظام عالمي للأقمار الصناعية والمحطات الأرضية . ويستفح ليا يلى دور هذه الشركة الأساسي في الاتصالات العالمية عن طريق الأقمار الصناعية .

انتلسات INTELSAT

في ٢٠ أغسطس ١٩٦٤ وقعت ١١ دولة ذات سيادة على اتفاقيات أدت الى إنشاء هيئة فريدة في نوعها باسم « الاتحاد الدولي لأقمار الاتصالات » وتعرف باسم « انتلسات » International Telecommunications Satellite Consortium (INTELSAT)

وذلك بهدف تصميم وتطوير وإنشاء وإقامة وتشغيل القطاع الفضائي من نظام عالمي تجاري لاتصالات الأقمار الصناعية . وتنص الاتفاقيات على أن تساهم الهيئة التي تسميها الدولة العضو في تمويل وامتلاك الأقمار الصناعية وأجهزة المتابعة والتحكم اللازمة لها ، ولكن الدول الأعضاء تمتلك وتدير المحطات الأرضية التي تقع في أراضيها . ومن حق أية دولة أن تنضم للاتحاد نظير اشتراكها في الاستثمارات . وتحصل كل هيئة على أرباح استثماراتها في النظام . وكلها انضمت دولة أخرى تقل نسبة مساهمة باقي الأعضاء . ويوجد في الوقت الحاضر أكثر من ١٠٠ عضو في الاتحاد . وتشارك الولايات المتحدة الأمريكية عن طريق « كومسات » التي تمتلك الآن ٣٧٪ من الاستثمارات . ويساهم معظم الأعضاء عن طريق هيئات البريد والبرق والهاتف لديهم . والدول التي ليست أعضاء في الاتحاد ولم توقع على الاتفاقيات يمكنها أن تستخدم أقمار الهيئة نظير دفع تكلفة استئجار دوائرها .

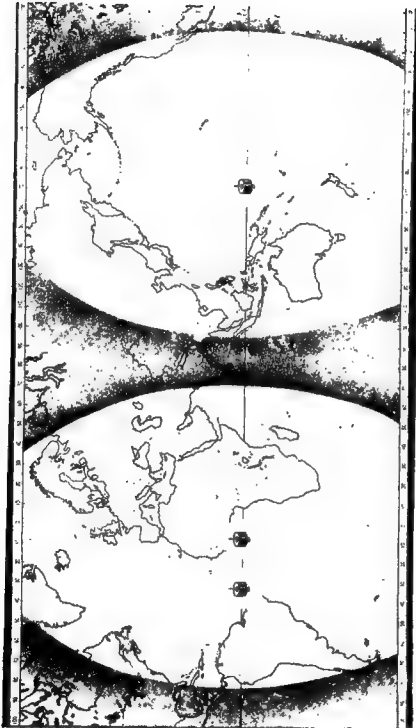
ولشركة « كومسات » الأمريكية اليد العليا في أمور « انتلسات » ، فهي تقوم بإدارتها بالنيابة عن جميع الجهات التي تسميها الدول الأعضاء ، وهي التي تتولى تصميم الأقمار الصناعية المطلوبة لها .

وتقدم « انتلسات » في الوقت الحاضر بتقديم خدمات اتصالات الأقمار الصناعية على أساس عالمي للمناطق المحيطات الأطلسي والهادي والهندي . وتوجد للهيئة ثلاثة أقمار عاملة فوق الأطلسي بالإضافة إلى قمر احتياطي ، ويوجد قمر عامل فوق كل من المحيطين الهادي والهندي بالإضافة الى قمر احتياطي لكل منها . وتستخدم أقمار النظام نحو ٢٠٠ محطة أرضية قطر طبقها ٣٠ متراً وتعمل على الشريط ٦/٤ جيجا هرتز .

وقد أطلقت شركة « كومسات » الأمريكية حتى الآن أربعة أجيال من الأقمار الصناعية لحساب « انتلسات » وهي : « انتلسات ١ » الذي عرف باسم « إيرلي بيرد » و« انتلسات ٢ » ، و« انتلسات ٣ » ، و« انتلسات ٤ » . وتوجد خطة لاطلاق الجيل الخامس « انتلسات ٥ » في أواخر هذا العام .

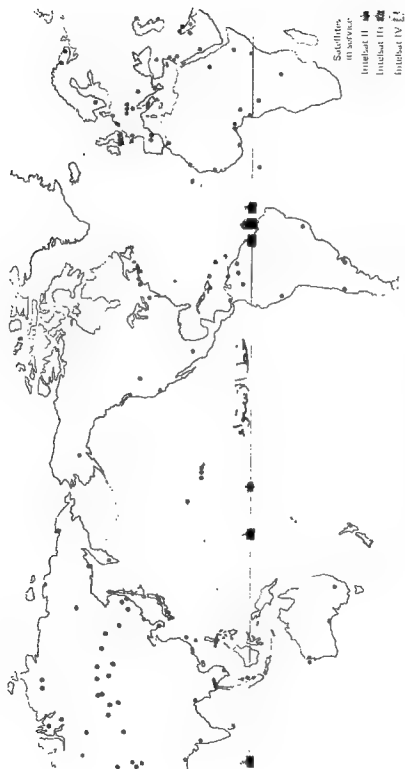


شكل (٢١) : توزيع البورة في السبب الانكسار في السبب الانكسار ، بتاريخ ١٩٩٤ .

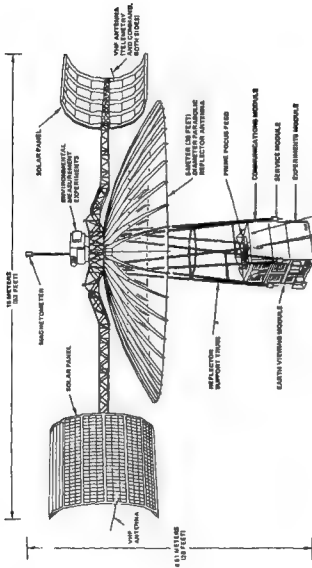




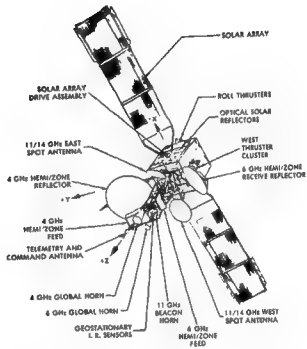
شكل (٥) - نظام عالمي متكامل - سنة ١٩٦٨ .



شكل (١١) - نظم القمر الاصطناعي ٢، ٣، ٤، ٥ في مرافقها فوق خط الاستواء



شكل (١١) . مكونات القمر الصناعي ٦ ATS الذي أطلقته وكالة ناسا للتجربة في ٣٠ مايو ١٩٧٤ من قبة كينيدي في فلوريدا



شكل (١٢) . مكونات القمر ٢ اتصالات ٥ ، حسب توصيات شركة Ford Aerospace Com-
munication Corporation

وقد كانت أقمار « إنتلسات » معدة في الأصل للاتصالات الدولية . على أن عددا من الدول تستخدم تلك الأقمار لاتصالاتها الداخلية ، ومنها : أوغندا ، والبرازيل ، وبيرو ، والجزائر ، وزائير ، والسودان ، وشيلي ، والعراق ، والمملكة العربية السعودية ، ونيجيريا ، واليمن . على أن بعض الدول التي كانت تلجأ إلى « إنتلسات » لتغطية اتصالاتها الداخلية قد أنشأت لنفسها نظما وطنية ، مثلما حدث لاندونيسيا . وهناك خطط مماثلة لكل من أستراليا ، والصين ، والمكسيك ، والهند ، وغيرها .

جدول (٧)

بيانات أقمار أجيال « إنتلسات » الخمسة

الجيل	١	٢	٣	٤	٥
سنة الاطلاق	١٩٦٥	١٩٦٧	١٩٦٨	١٩٧١	١٩٨
الوزن كجم	٣٨٥	٨٥	١٤٦	٧٠٠	٩٠٠
العمر المصمم (سنة)	١٥	٣	٥	٧	١٠
عدد الترانسبوندرات	٢	١	٢	١٢	حوالي ٥٠
عرض شريط الترانسبوندر					
(مليون هرتز)	٢٥	١٣٠	٢٢٥	٣٦	متغير
عدد الدوائر	٢٤٠	٢٤٠	١٢٠٠	٦٠٠٠	٦٠٠٠٠
تكلفة القمر (مليون دولار)	٣٦	٣٦	٤٥	١٠٥	
تكلفة الاطلاق (مليون دولار)	٤٦	٤٥	٦	١٦	
التكلفة الكلية (مليون دولار)	٨٢	٨١	١٠٥	٢٦٥	٢٨٥
التكلفة السنوية للدائرة (دولار)	٢٢٨٠٠	١١٣٠٠	١٨٠٠	٦٠٠	٣٠

• تقدير .

ماريسات Marisat

تقوم شركة « كومسات » الأمريكية بتشغيل النظام التجاري الذي أنشأته في سنة ١٩٧٦ باسم « النظام البحري لاتصالات الأقمار الصناعية » المعروف باسم « ماريسات » Marine Satellite Communications Sys-tem (MARISAT) ويتكون هذا النظام من ثلاثة أقمار صناعية فوق المحيط الأطلسي والمحادي الهندي ، وثلاثة

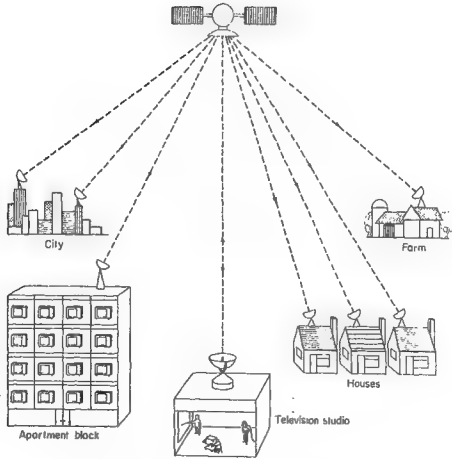
محطات أرضية في كونيكتيكات وكاليفورنيا واليابان . ويوجد حاليا نحو ٤٠٠ مركز اتصال أنشأتها «ماريسات» على ظهر السفن ونحو ١٠٠ طلب في انتظار إنشاء مراكز أخرى . وتقوم «ماريسات» بخدمات إرسال الصوت والبيانات والمستندات المصورة والطباعة عن بعد ، وبالإضافة إلى ذلك تقدم خدمات للأسطول الأمريكي .

ويوجد في قمر ماريسات ثلاثة ترانسبوندرات تعمل على الشرائط التالية :

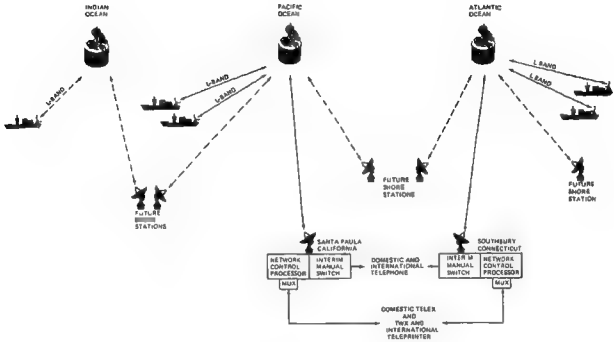
٤ - ٦ جيجا هرتز للاتصالات بين المحطات الأرضية والقمر

٥ ، ٦ ، ١ جيجا هرتز للاتصالات بين القمر والسفن

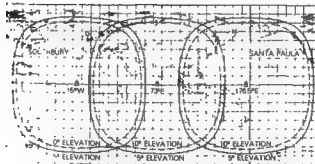
وتستعمل مراكز الاتصال بالسفن هوائيات بقطر ٣ ، ١ م



شكل (١٣) . البث المباشر من قمر صناعي . إطلاق ذات قطر هـ قدم فوق الأسطح تستقبل الاشارات تلفزيونية أو البثبات ذات الهاد واحد من قمر قمرية



شكل (١٦) . الأعداد الصناعية : ماريست : للاتصالات البحرية



شكل (١٧) . تنطية نظام الأعداد : ماريست :

٤ - الألياف البصرية

في سنتي ١٩٦٠ و ١٩٧٠ تم إنجازان كان كل منهما فتحا رئيسيا في ميدانه . وباستخدام ما يقدمه هذان الانجازان معا يتاح للانسان قنوات اتصال من نوع جديد تماما تستخدم فيها الفوتونات الضوئية محل الالكترونات في حين تستخدم « الألياف البصرية » محل أسلاك النحاس . والمهم أن القنوات الجديدة لها من السعات ما لم يكن يحلم به الانسان . فهذه الألياف الجديدة تعمل بمثابة موجهات للضوء ذي التردد الذي يقع بين مائة ألف جيجا هرتز ومليون جيجا هرتز . ويزيد ذلك عن ترددات الموجات الدقيقة عشرات الآلاف من المرات .

ففي سنة ١٩٦٠ اخترع الليزر وأتيح بذلك لأول مرة مصدر للضوء « المتلاصق » *coherent light* الذي له من القوة ما لم يتح للانسان من قبل ، فهو إذا فقد ٩٩٪ من هذه القوة فإن ما يتبقى منها يكفي لاكتشافه بغاية السهولة . وفي سنة ١٩٧٠ استطاعت مصانع كورننج الأمريكية للزجاج انتاج « ألياف بصرية » على درجة غير عادية من الشفافية ، إذ أنه لو دخل الضوء إحدى هذه الألياف من أحد طرفيها وسار داخلها مسافة كيلومتر فإن ما يتبقى لا يقل عن ١٪ من ذلك الضوء . والمعنى الواضح لذلك أنه لو كان ذلك الضوء من نوع الليزر لأمكن استخدامه في إرسال إشارات لمسافة لا تقل عن كيلومتر . ويوضع أجهزة الاعادة على الطريق يمكن بعث تلك الاشارات إلى ما نشاء من المسافات .

ومنذ اختراع الليزر كان كل شيء في ميدان الضوء يعاد دراسته من جديد . وقد نتج عن ذلك اكتشاف مصادر أخرى للضوء غير المتلاصق لها من القوة ما لم يكن متاحا إلا من الضوء المتلاصق . ولما كان اختراع الليزر قد جاء في وسط الثورة الالكترونية فقد أفاد ذلك في اختراع أنواع جديدة من كاشفات الضوء لها حساسية بالغة . وهكذا أصبح لدى الانسان مصادر الضوء العظيم القوة ، وقنوات الاتصال الضوئية البالغة الاتساع ، والكاشفات الضوئية الشديدة الحساسية . ولم يبق هناك عائق أمام التطبيق الاقتصادي لاستخدام قنوات الاتصال الضوئية الجديدة . وقد تعزز صحة هذا الكلام بالتجارب الكثيرة التي أجريت في الولايات المتحدة الأمريكية وكندا وانجلترا واليابان . وبالإضافة إلى ذلك فإن التجارب تجري الآن في ألمانيا والداينرك لاختيار النظم التي تقوم على الارسلات الرقمي في قنوات الاتصال الضوئية الجديدة ، وهو شيء ينتظر أن يحدث وحده ثورة أخرى في ميادين الاتصالات .

وفي الوقت الذي كانت تجري فيه هذه التجارب كانت المختبرات في أمريكا وانجلترا واليابان تتنافس على إنتاج أنواع أفضل من الألياف البصرية . وهناك الآن شبكات من تلك الألياف لا يفقد من الضوء بعد سيره فيها كيلومترا إلا ٤٠٪ من قوته ، كما أن هذه النسبة بلغت في إنتاج بعض المختبرات ما يقرب من ٢٠٪ . أي أن التقدم في خلال ١٠ سنوات نقل الشفافية من درجة فقد ٩٩٪ من الضوء في الكيلومتر إلى فقد ٢٠٪ فقط من نفس المسافة .

والألياف البصرية هي ألياف من الزجاج الشفاف سمكها حوالي سمك شعر الرأس ، ويمكن ثنيها دون أن تنكسر ، وذلك بفضل دقة قطرها . وهي متينة أيضا ، فالاجهاد اللازم لكسر ليفة قطرها ٠,٠٢٥ مم من المليمتر قد يصل إلى معدل ٨٠٠٠ كيلو جرام للمستيمتر المربع . ويمكن ضم عدد من هذه الألياف في كابلات مرنة تشبه « الكابلات المتحدة المحور » التي تستخدم في الوقت الحالي . إلا أن كابلات الألياف أقل قطرها ووزنا .

وهناك الآن أربعة أنواع من الألياف البصرية تخضر بطرق مختلفة . ويتبع الثان من هذه الأنواع في الولايات المتحدة الأمريكية ، بينما يتبع نوع مختلف في كل من إنجلترا واليابان .

وبما يعطينا فكرة عن سعة قنوات الألياف الضوئية أن علماء « مختبرات بل للتليفونات » الأمريكية قد عرضوا في سنة ١٩٧٩ إمكان استخدامها في إرسال المعلومات بمعدل ٢٠٠ ألف مليون رقم ثنائي في الثانية ، وهو معدل لم يسبق السماع عن شيء مماثله ويزيد ٢٠٠٠ مرة عما عرضته نفس المختبرات في شيكاغو في سنة ١٩٧٨ . كما أنه قد حدثت تطبيقات ناجحة منذ سنة ١٩٧٩ تشمل استخدام الألياف بطول من ٦ إلى ٨ كيلومترات للإرسال الضوئي بدون إعادة على الطريق ، بينما أنتجت في المختبرات ألياف تقوم بالإرسال لمسافة ٤٠ كيلومترا بدون إعادة . وتقوم شركة « ابي تي » الأمريكية بدراسة صنع كابلات من الألياف الزجاجية لمدها تحت مياه المحيط الأطلسي في أواخر الثمانينيات لتكون الجيل الخامس من كابلات ذلك المحيط (الجيل الأول مد سنة ١٩٥٦ والرابع سنة ١٩٧٦) . وسوف يتيح ذلك الجيل إرسال الاذاعة التلفزيونية على قنوات كثيرة باستخدام الكابلات .

وليس استخدام الكابلات في توصيل الاذاعة التلفزيونية شيئا جديدا . فمذ سنة ١٩٧٢ يوجد في أمريكا ما يسمى « تلفزيون الكابلات » . فحيث توجد منطقة بين الجبال يصعب وصول الاذاعة التلفزيونية إليها يمكن إقامة محطة أرضية فوق أحد الجبال لتلقي الاذاعة التلفزيونية من مختلف المحطات ثم إعادة إرسال ما تلقيه (عن طريق الكابلات المتحدة المحور) إلى المشتركين . ويوجد حاليا في الولايات المتحدة الأمريكية ملايين المشتركين في مثل هذه النظم . وبالإضافة إلى ذلك تقدم هيئات « تلفزيون الكابل » بإرسال برامج محلية وتعليمية ، كما أنها تختار ما تشاء وتبثه ما تشاء من البرامج التي تصل إليها عبر الهواء .

وفي الستين الماضيين أجريت تجارب ميدانية لاختبار أداء الألياف البصرية في دول مختلفة . منها كندا حيث شملت تجربة في « ابلي » ٣٥ منزلا موجودة في حدود ٥ كيلومترات من مقسم يتصل مباشرة بكل من هذه المنازل بواسطة ليفتين . والليفية تنقل الإرسال التليفوني والتلفزيوني والبيانات . وتقدر تكاليف إنشاء خط لأحد المنازل بما بين ٢٠٠٠ و ٣٠٠٠ دولار (حسب الأسعار المقدّر أن تسري سنة ١٩٨٥) . ولما كانت تكاليف الدائرة التليفونية العادية الواحدة تقع بين ٥٠٠ و ١٠٠٠ دولار فهذا يدل على أن المشروع ليس باهظ التكاليف إذا أدخل في الحساب أن تكاليف الخط ستوزع على خدمات عديدة .

ومن التجارب الناجحة أيضا نظام ياباني للألياف البصرية أنشئ في إحدى ضواحي مدينة أوساكا يشتمل ١٥٨ منزلا . وفي هذه التجربة يقوم النظام بإمداد المنزل بخدمات مختلفة كما هو الحال في النظام الكندي . إلا أنه فريد في نوعه لأن كل العملاء خاصون ، على أن الخط في هذا النظام يقل طوله عن كيلو متر .

على أن الاستخدام الواسع للألياف البصرية سينتظر نشوء الاحتياجات الفعلية للقنوات الواسعة التي يقدمها . ومن تجربة كندا نجد أن الليفية الواحدة تكفي لأغراض كثيرة ، ولكن تكاليفها ، بمقياس متوسط الدخل ، ليست قليلة . وإذا لم تكن هناك حاجة لكل ما تقدمه الليفية من الخدمات فليس هناك ما يحث على إحلال الليفية محل الخطوط البسيطة العادية .

• - الليزر واتصالات الفضاء

الليزر LASER كلمة تتكون من الحروف الأولى من كلمات عبارة انجليزية معناها « تضخيم الضوء بالحث المحثوث عليه للاشعاع » Light Amplification by Stimulated Emission of Radiation وتطلق كلمة ليزر على عملية التضخيم كما تطلق على الجهاز المستخدم في ذلك . ويحتوي كل جهاز ليزر على مادة معينة هي التي تحث ذراتها على إطلاق الطاقة في شكل إشعاع يتردد معين يتوقف على طبيعة تلك المادة . وأول مادة استخدمت في عملية ليزر كانت الباقوت الصناعي . ومنذ ذلك الوقت استخدمت مواد أخرى في ذلك ، منها ما هو صلب وما هو سائل وما هو غازي . وفي عملية الليزر تقوم الذرات بإطلاق الطاقة في الوقت الصحيح لكي تقوي الموجات الناتجة بعضها بعضا . ويمكن تشبيه تلك الموجات بجند يسرون يلقاها واحد وينفس طول الخطوة وفي صفوف متتالية ، أو بعبارة أخرى ، يسرون بخطوات متزامنة وفي مواقع متلاصقة . ومن هنا فإن ضوء الليزر يسمى « ضوءا متلاصقا » - coherrent light ويكون أشعة الليزر « وحيدة اللون » monochromatic أي أن لها ترددا واحدا (بالنسبة لكل مادة مستخدمة) . ولا يقتصر الليزر على الضوء المنظور . فعملية « التضخيم » ممكنة عند ترددات تقع في مدى الأشعة دون الحمراء ، وعند ترددات تقع في مدى الأشعة فوق البنفسجية .

وبالرغم من أن الليزر اخترع سنة ١٩٦٠ فإن الناس - فيما عدا أفراد قلائل - لم يعلموا عنه شيئا حتى مارس ١٩٦٢ . ففي ذلك الشهر قام علماء معهد ماساتشوستس للتقنية بتصويب حزمة ليزر خلال تلسكوب إلى قمر الأرض واستقبلوا ما انعكس من تلك الحزمة . وقد كرروا ذلك بنجاح في ثلاث ليال متتالية . وقد صنعت تلك التجربة هناوين الصحف في العالم كله في ذلك الوقت وعرف معظم الناس باسم الليزر لأول مرة . والأمر الذي كان مشيرا في أتباء



شكل (١٦) . خمسة من علماء الفيزياء الأمريكيين والسوفييت عن « حبريا مؤثر » الكهرومغناطيسية ، في ولاية نيويورك سنة ١٩٥٩ . ومن هؤلاء ثلاث يمدد اليهم التفضل في اختراع الليزر وهم : بازوف (الثاني من اليمين) . بروكهوروف (الرابع) . تاونز (الأخير) .

N.G. Basov (2nd), A.M. Prokhorov (4th), C.H. Townes (5th).

التجربة أن حزمة الليزر أضاعت بقعة على سطح القمر قطرها ميلان فقط مع أنه كان على بعد ربع مليون ميل من الأرض ، كما أن ضوء الحزمة كان من القوة بحيث أمكن استقباله بعد قطع مسافة نصف مليون ميل في ذهابه وإيابه . . وفي سنة ١٩٦٨ اتضحت قوة الليزر بشكل أكثر جلاء . ففي أوائل تلك السنة هبطت مركبة الفضاء الأمريكية « سرفيور ٧ » Surveyor 7 على سطح القمر وعندما واجهت الجانب المظلم من سطح الأرض كشفت عدستها التلفزيونية حزمي ليزر صادرتين من الأرض ، إحداهما من كاليفورنيا والأخرى من أريزونا . وقد كانت الصورة المرسلة تحتوي ما يشبه رأسي دبوس صغيرين وحادين جدا .

ويتضح من تجربتي ١٩٦٢ و ١٩٦٨ أن التفكير في استخدام الليزر في اتصالات الفضاء بدأ مبكرا ولم ينقطع . لكن هناك مشكلة تقابل ذلك الاستخدام هي امتصاص السحب والضباب والمطر الغزير له . على أنه توجد « نوافذ » في الغلاف يقل فيها الامتصاص . وتوجد إحدى هذه النوافذ عند تردد ليزر ثاني أكسيد الكربون ، أي عند ٣٠٠٠ جيجا هرتز ، وهو يقابل طول موجة يساوي ١٠ ميكرومتر (والميكرومتر جزء من مليون من المتر) . وعرض هذه النافذة ٤٠ جيجا هرتز . و « الأضواء » attenuation الذي يحدث لأشعة الليزر عند هذه النافذة أقل منه عند أي تردد في الضوء المنظور أو فوق البنفسجي .

وقد كانت الفكرة الأولى في صدد استخدام الليزر في الاتصالات البعيدة أن يكون ذلك في الفضاء العميق . إلا أنه اتضح في النصف الأخير في الستينيات أن أهم الاستخدامات سيكون في الفضاء القريب من الأرض ، وخاصة في بعثات الاستشعار عن بعد . وقد حدثت محاولة لوضع نظام لاتصالات الليزر على قمر « الناسا » الصناعي ATS 6 ولكن المحاولة ألغيت بسبب قيود الميزانية . ولكي لا يتكرر إلغاء مثل تلك المحاولة أجريت دراسة لاختبار مدى صحة الشكوك التي أدت إلى إلغاء المحاولة الأولى . وقد ابتدأت تلك الدراسة سنة ١٩٧٠ واستمرت خمس سنوات . وفيها يلي بعض نتائجها .

استخدام ليزر ثاني أكسيد الكربون في اتصالات الاستشعار عن بعد :

يقوم قمر الاستشعار عن بعد بتصوير شريط Swath من الأرض من ارتفاع مناسب أثناء سيره في السماء . وإذا افترضنا أن التصوير لا ينقطع فإن معدل جمع القمر للبيانات يتوقف على عوامل معينة منها سرعته وعرض شريط الأرض الذي يصوره . وإذا كان ذلك العرض ١٨٥ كيلومترا ، وهو شيء عملي ، فإن معدل البيانات قد يصل إلى ألف مليون رقم ثنائي في الثانية (ولو أنه يمكن انقاص هذا العدد بطرق فنية) . ولكن الاحتياجات الفعلية في الثمانينات قد تصل إلى شيء بين ٣٠٠ ، ٥٠٠ مليون رقم ثنائي في الثانية . فكيف ترسل هذه البيانات من قمر الاستشعار إلى الأرض ؟ هناك ثلاثة طرق يمكن اقتراحها في هذا الصدد .

في الطريقة الأولى تسجل البيانات على شرائط مغناطيسية موجودة على قمر الاستشعار على أن ترسل إلى الأرض حالما تظهر محطة أرضية مناسبة في مدى بصر قمر الاستشعار . ولكن التجارب علمتنا أنه لا يمكن الاعتماد على هذه الطريقة ، إذ أنها تتضمن عمليات ميكانيكية مما يجعلها عرضة للمعطل بالإضافة إلى عجزها عن مجاراة سرعة الجمع الإلكتروني للبيانات .

وفي الطريقة الثانية تعالج البيانات على سطح قمر الاستشعار باستخدام كميوتّر يكون موجودا عليه ولكن المشاكل الفنية التي تقابل هذه الطريقة لم تحل بعد .

وفي الطريقة الثالثة ترسل البيانات من قمر الاستشعار بمجرد الحصول عليها الى قمر اتصالات يكون في مدى بصره ، على ان يقوم الأخير بإرسالها الى محطة ارضية معدة لاستقبالها ، أو الى قمر آخر يتولى إرسالها الى تلك المحطة . وتكون كل الاتصالات بين الأقمار الصناعية باستخدام ليزر ثاني أكسيد الكربون ، بينما يكون الإرسال من قمر الاتصالات إلى المحطة الأرضية باستخدام الموجات الدقيقة بدون ليزر (وهو ما يسمى بطريقة « تردد الراديو ») . وفي هذه الطريقة يكون على كل من قمر الاستشعار وقمر الاتصالات ان يكتشف موضع الآخر في الفضاء ويتابعه أثناء تحركه ، وذلك لأن قمر الاستشعار سيوجه إرساله الى قمر الاتصالات ، كما ان الأخير سيوجه هوائياته الى الأول . ويمكن ادراك صعوبة الأمرين عندما نقارن حجمي القمرين الصناعيين بالفضاء السحيق الذي يسيران فيه . على ان المصاعب الفنية التي تقابل هذه الطريقة امكن حلها واستقر الرأي على اتباعها .

عربسات :

في سنة ١٩٧٦ تأسست « المؤسسة العربية للاتصالات الفضائية » أو « عربسات » بهدف انشاء نظام للاتصالات عبر الأقمار الصناعية بين الدول العربية . وتضم هذه المؤسسة كل الدول العربية تقريبا ، ومقرها الرياض . وقد بدأت فكرة انشاء المؤسسة باقتراح قدم في سنة ١٩٧٤ من الكويت التي تساهم حاليا بنسبة ٨٪ من رأس المال . على أن نسب المساهمة سوف تعدل فيما بعد حسب استخدام الاعضاء لتسهيلات النظام ، ويشمل ذلك البث التلفزيوني والاذاعي والاتصالات التلفونية والتلغرافية وإرسال الصور والبيانات (بما في ذلك الانباء) وقد وقعت المؤسسة عقدا مع شركة فرنسية لصناعة ثلاثة أقمار صناعية خلال ٣٠ شهرا اعتبارا من مايو ١٩٨١ . وتقضي الخطة باطلاق اول الأقمار الصناعية في سنة ١٩٨٣ وثانيها بعد ٣ أشهر . اما القمر الثالث فسيفي (على الأرض) احتياطيا . وسيكون الاطلاق من جزيرة « كورو » بأمريكا الجنوبية على أن يحمل القمران فوق مدينة طبرق الليبية لتوسطها بين بلدان الوطن العربي . وسيكون في قيام اتمار « أراب سات » بالخدمة تخفيف كبير عن أقمار « انتلسات » الدولية التي تعتمد عليها البلاد العربية في شؤون الاتصالات الفضائية في الوقت الحاضر . على أن أقمار « أراب سات » ستكون اقليمية ولن تنقل أية برامج من خارج الوطن العربي وسوف تقدم القنوات التالية :

- قنوات تلفزيونية بين الدول العربية .
- قنوات للاتصالات بين الدول العربية
- قنوات للاتصالات الداخلية ولبث البرامج التعليمية المحلية في الدول العربية ذات المساحات الواسعة كالسعودية والجزائر وعمان وليبيا .

ومن خطط المؤسسة انشاء محطة ارضية أو أكثر في كل بلد عربي لاستقبال من الأقمار العربية بالإضافة الى محطتي مراقبة من السعودية وشمال افريقيا . وتتطلع المؤسسة الى الاستعانة بالخبرات العالمية المتخصصة من أجل تصنيع وتركيب المحطات الأرضية في الدولة العربية .

المراجع

- (1) Harvey J. Hindin, "Telecommunication", *Encyclopaedia Britannica Book of the Year 1980*, PP 453-454.
- (2) Cleo D. Anderson, Robert F. Gleason, paul T. Hutchinson and peter K. Runge, *An Under-sea communication System Using Fiberguide cables* Proceedings of the IEEE, Vol. 68, No. 10, October 1980 pp 1299-1303.
- (3) peter C. Schuitz, *Fabrication of OPTICAL Wareguides by the Outside Vapor Deposition Process*, Proceedings of the IEEE Vol. 68, No. 10 october 1980 pp. 1187-1190.
- (4) John B. Mac Chesney, Materials and Processes for Preform Fabrication-*Modified Chemical Vapor Deposition and Plasma Chemical Vapor Deposition* Proceedings of the IEEE, Vol 68, No. 10, October 1980 pp 1181-1183.
- (5) Keith J. Beales, clive R. Day, Anthong G. Dunn and Sally Partington, *Multicomponent Glass Fibers for Optical Communications*, Proceeding of the IEEE, Vol 68, No. 10, October 1980 pp 1191-1194.
- (6) Tatsuo Izawa, *Material and Processes for Fiber Preform Fabrication- Vapor-phase Axial Deposition*, Proceedings of the IEEE, Vol 68, No. 10, october 1980, pp 1184-1187.
- (7) John E. Midwinter, *Poteential Broad-Band Services*, Proceedings of the IEEE Vol. 68, No. 10, october 1980 pp 1321-1327.
- (8) James Martin, "PcM : A Revolution Begine" in *Telecommunications and the computer*, 2nd edition, prentice-Hall, 1976, PP 263-278.
- (9) S. Ramabhadran, *Telecommunications, Principles, Circuits and Systems*, Khanna, Delhi, 1976, pp 408-419, 439-446, 728-732.
- (10) Mitchel R. Sharps, "Major Satellites and Space Probes Launched Oct 1, 1977-Sep. 30, 1978" *"Encyclopaedia Britannica Book of the Year 1979*, p 623.
- (11) Mitchel R. sharpe, "Major Satellites and space probes, launched oct 1, 1978-sep. 30, 1979, *"Encyclopaedia Britannica Book of the Year 1980"*, p 629.
- (12) Guy W. Breakley "Satellite Communications Growth and Future", *ICS Telecommunications*, NO v 1980, pp 19-24.

وافق المؤتمر العام لمنظمة اليونسكو الذي انعقد في مدينة بلغراد عاصمة يوغسلافيا في خريف عام ١٩٨٠ ، على مشروع لنظام عالمي جديد للإعلام والاتصال ، وضعت لجنة مكونة من ستة عشر خبيراً إعلامياً برئاسة الأستاذ شون ماكبرايد - هو إيرلندي حائز جائزة نوبل وجائزة لينين للسلام وميدالية اليونسكو الفضية - والجدير بالذكر أن هذه اللجنة العالمية ضمت عضوين عربيين هما الدكتور جمال العطيفي (مصر) والدكتور مصطفى المصمودي (تونس) . وقد عقدت اجتماعات هذه اللجنة طوال ما يقرب من ثلاث سنوات ، أسفرت عن وضع أسس نظام عالمي للإعلام والاتصال نواز بموافقة الدول الأعضاء بمنظمة اليونسكو ، بعد أن بذلت محاولات ضخمة لتضييق شقة الخلاف بين الأنظمة السياسية المختلفة حول بعض المبادئ التي أثارت خلال اجتماعات هذه اللجنة والتي سوف نشر إليها في هذه الدراسة .

وتعود فكرة إقامة هذا النظام الإعلامي إلى مؤتمر اليونسكو الذي عقد في مدينة نيروبي (كينيا) في شهر نوفمبر من عام ١٩٧٦ ، فقد طرحت البلاد النامية الأعضاء في هذا المؤتمر تساؤلات تدور حول الإعلام ... من يملكه ويتصرف فيه ؟ . من أين يأتي وإلى أين يذهب ؟ . هل الدين « يتجنون » الإعلام هم أنفسهم السليين « يستهلكونه » ، ان صح أن نستخدم « إنتاج » و « استهلاك » عند الكلام عن الإعلام ؟ وألا تؤدي تكنولوجيا وسائل الاتصال الحديث إلى أن تحتكر البلاد الصناعية المتقدمة الإعلام وتسيطر عليه سيطرة كاملة ؟ وسالت البلاد المتقدمة بدورها عما إذا كانت البلاد النامية لا توضع العراقيل أمام تداول الأخبار لأسباب إيديولوجية أو قومية فتجعل من حكوماتها الرقيب الذي يسمح بمرور خبر ويمنع مرور

النظام الجديد للإعلام الدولي

فيلسفة صابات

خبر آخر . . ؟ ولاشك في أنه خلال السنوات المقبلة سوف تفرض هذه التساؤلات الملهية نفسها على المحافل الدولية ، مثلها في ذلك مثل الحوار الذي يدور بين الشمال والجنوب .

والواقع أن صعود العالم الثالث على المسرح الدولي وانتشار الثورة النفطية في خريف ١٩٧٣ قد حثا قيام نظام اقتصادي دولي جديد^(١) . ولكن مطلب [البلاد النامية لا يقتصر على المجالين الاقتصادي والاجتماعي ، بل انه يشمل كذلك قطاعات متنوعة أخرى ، مثل التربية والتعليم والتغذية واستغلال أعماق البحار والمحيطات وإدارة الانصال الصناعية والتبادل الثقافي وسياسات الانصال وما إليها . .

ان قضية ضرورة إقامة نظام عالمي جديد للاعلام قد طرحت بمناسبة المؤتمر الرابع لرؤساء دول وحكومات البلاد غير المتحازة الذي انعقد في مدينة الجزائر في سبتمبر (أيلول) ١٩٧٣ . وفي إطار اليونسكو احتلت هذه القضية مكان الصدارة في المؤتمر الاقليمي الذي عقد في سان خوزيه (كوستاريكا) في يوليو (تموز) ١٩٧٦ ، ثم في مؤتمر اليونسكو العام الذي عقد في نيروبي خلال شهري أكتوبر ونوفمبر (تشرين الأول وتشرين الثاني) ١٩٧٦ ، كما سبق الإشارة إليه .

وقد حاولت منظمة اليونسكو جاهدة أن تعد « مشروع اعلان يتعلق بالمبادئ الرئيسية لاستخدام وسائل الاعلام في دعم السلام والتفاهم الدولي وتعزيز حقوق الانسان ومكافحة العنصرية والفصل العنصري والتحريض على الحرب . وأمام استحالة التوصل الى موافقة اجماعية على هذا المشروع في نيروبي ، أجل المؤتمر مناقشته الى المؤتمر العام التالي له والذي انعقد في ١٩٧٨ ، باعتبار أن هذه المهلة سوف تسمح للدول الاعضاء بمراجعة مشروع اعلان بروية وامعان ، وفي مناخ تكون الأعصاب فيه أهدأ .

وقد أضفى الحوار حول المشروع بعدا وضوءا جديدين عليه والواقع أن هذا الجدول لم ينقطع منذ عام ١٩٤٥^(٢) ، وقد وضع الديمقراطيات الغربية في مواجهة الاتحاد السوفيتي وحلفائه . وما للمؤتمر الذي تناول الأمن والتعاون في أوروبا إلا حلقة من حلقات الحوار بين الشرق والغرب حول الاعلام . وان عقد هلسنكي النهائي الذي وقعته خمس وثلاثون دولة في أول أغسطس (آب) ١٩٧٥ قد نص على « التعاون في المجالات الانسانية وغيرها » - وعلى عدد من الاجراءات التي من شأنها تعزيز الاعلام وتطويره وتشجيع التعاون والتبادل في حقل التعليم والثقافة .

غير أن عقد هلسنكي ، ولو انه تضمن عناصر غاية في الايجابية ، الا أنه لم يستطع ازالة كل العقبات القائمة بين الشرق والغرب حول مفهوم حرية الاعلام .

وقد برزت هذه الخلافات من جديد في مؤتمر بلغراد ، ثم بعد ذلك في لجنة الفضاء الخارجي التابعة للأمم المتحدة ، أثناء المفاوضات التي تناولت بشكل خاص استخدام الأقمار الصناعية في بث برامج التلفزيون .

(١) اعلان الأمم المتحدة الصادر في اول مايو (ايار) ١٩٧٤ .

(٢)

وهكذا نجد أن مشكلات حرية الإعلام - بمعناها الواسع - قد أصبحت - في وقت معا - في قلب العلاقات بين الشرق والغرب والعلاقات بين الشمال والجنوب . ولم يعد يكفي بدعوة الأمم المتحدة لمناقشة هذه المشكلات ، بل أصبحت أغلب المؤسسات المتخصصة والمنبثقة من هذه المنظمة الدولية ، تعني بها ، مثل اليونسكو والاتحاد الدولي للاتصالات السلكية واللاسلكية والمنظمة العالمية للملكية الذهنية والاتحاد الدولي للبريد . وإلى جانب هذه الهيئات الدولية قام في يونيو (حزيران) ١٩٧٧ ، المعهد الدولي للصحافة في مدينة أوسلو والجمعية الفرنسية للقانون الدولي في مدينة ستراسبورج الفرنسية بإجراء حوار حول حرية الصحافة والتداول الحر للأخبار ، كما قام المجلس الأوروبي من جهته بتناول هذه المشكلة .

إن قضية إقامة نظام دولي جديد للإعلام هي قضية واسعة ومعقدة ، في آن واحد ، لأنها إن لم تطرح بصراحة النظرية الكلاسيكية للإعلام التي أعدها الديمقراطيات الغربية وتبنتها اليونسكو منذ انشائها ، فاما طرحت - على الأقل - ممارسة هذه الحرية والاعتداءات التي وقعت عليها . . . ومن المعروف أن النظام السوفيتي قطع صلته ، منذ عام ١٩١٧ ، بالمبادئ الليبرالية التي تتعلق بالصحافة والإعلام . ومنذ ذلك الحين ، وباسم منطق مذهبي مختلف ، أعلن هذا النظام أن « لا حرية صحافة ولا حرية كلام لأعداء الاشتراكية » و أكد أن « الإعلام هو الأداة والنتيجة بواسطة الوقائع » وأغلق حدوده دون الصحف والكتب والأذاعات الأجنبية (٣) . وهكذا نجد أن الاتحاد السوفيتي قد طبق مفهومها لحقوق الإنسان والمحرريات الأساسية يختلف جذريا مع المفاهيم الغربية . وإذا تركنا جانبا البلاد المرتبطة مباشرة بالمعسكرين السوفيتي أو الصيني ، وجدنا أن الاعتراض منصب بالنسبة لعدد كبير من بلاد العالم الثالث ، على الإعلام وحرية ، لا من حيث العقيدة ، ولكن من حيث الواقع . فالأمم الفقيرة تشجب « الإعلام ذا الاتجاه الواحد » واحتكار البلاد الصناعية للوسائل الحديثة للاتصال ، مثل وكالات الأنباء ووسائل الاتصال الجماهيرية والأفلام الخ . . . إنها تطالب بتداول للأخبار في الاتجاهين أي تسمية « التداول المتوازن » ، وتعمل على إقامة وتعزيز أنظمة اتصال مناسبة لها وملبية لحاجاتها .

ويفرض هذا الموقف نظاما داخليا للإعلام يرتبط بالدولة ولا يشمل النقد الموجه من المعارضين المحليين ولأمن الصحف والأذاعات الأجنبية . وفي مواجهة المعسكر الشرقي الملتزم بالذهب الماركسي اللينيني من جهة ، وبلاد العالم الثالث التي لها اليوم أغلبية الأصوات في اليونسكو من جهة أخرى ، تلجأ الديمقراطية الغربية أن تضحي بمبادئ حرية الإعلام ، حسب مفهومها الليبرالي القائم على مبدأ « دعه يعمل دعه يمر » .

إن حرية تداول الأخبار ، على المستوى الدولي ، تصطدم ، بحاجز سيادة الدولة ، مما يثير مجموعة من الأسئلة ، هي في النهاية أسئلة سياسية تدور حول : هل ينبغي مبدأ الحرية أن يتغلب على مبدأ السيادة ؟ ما هو سلطان الدولة في مجال الإعلام ؟ وعلى سبيل المثال ، هل يستطيع القانون الدولي أن يسمح للدولة ، بحجة حماية نظامها الداخلي ، بأن تحرم شعبها من حقه في الحصول على إعلام حر ؟ ومن جهة أخرى ، هل يمكن اعتبار دولة من الدول مسئولة أمام دول

Voyenne, Bernard, La presse dans la société contemporaine, Librairie Armand Colin, Paris, 1962, p.218 et seq.

أخرى من مواقف اتخذتها وسائل اعلام حرة تعمل في أراضيها ؟ ان ثمة عدة نصوص أو تصريحات أو اتفاقيات أو قرارات تقدم رسميا هذا الحق البهيم ، « حق الاعلام » ، ولكن السياسات الاعلامية للدول تختلف باختلاف ايدولوجياتها . ويصعب التوفيق بين هذه وتلك . ذلك أن الحكومات تستند تارة الى نظام موجه ، وتارة أخرى الى نظام ليبرالي وتستخدم في الغالب مسميات ليست لها المعنى نفسه بالنسبة للناس جميعا . ان بعض الدول الغربية - ومنها فرنسا - انضمت بطيب خاطر الى الراي الداعي الى تعزيز تداول للأخبار أكثر توازنا . وهي من أجل ذلك تعترف بضرورة مساعدة البلاد النامية على التزود بأفضل وسائل الاعلام على الصعيدين الوطني والافريقي .

ان العالم يشهد ، منذ بضع سنوات ، مبادرات لدول نامية تنشذ بالتزود بأجهزة تقترب بالاعلام نحو التوازن . فالدول غير المنحازة - مثلا - توصلت ، في قمة مدينة الجزائر (سبتمبر - ايلول - ١٩٧٣) وفي قمة كولومبو (أغسطس - آب - ١٩٧٦) الى قرارات تسترعي الانتباه . وقد أنشأت دول عدم الانحياز في يوغسلافيا سنة ١٩٧٥ ، « الاتحادا لوكالات الأنباء » ويمكن أن نذكر أيضا وكالة الصحافة المستقلة للبلاد المتحدثة بالانجليزية في البحر الكاريبي التي بدأت تعمل منذ شهر يوليو (تموز) من عام ١٩٧٥ . وجرى التفكير في انشاء مكثي اتصال دائم على مستوى اتحاد وكالات الأنباء العربية واتحاد وكالات الأنباء الأفريقية (٤) . . .

ولكن هل تحقق التوازن المنشود ؟



كيف يمكن اذن معالجة عدم التوازن بين الأخبار وتحريفها وتشويهها ، ولا سيما الأخبار الدولية ؟ وما شروط الخبر المرسل في اتجاه واحد والذي يبتكره الغايضون على السلطة - سواء كانت هذه السلطة مؤسسة على المعرفة أو على المال أو على السلطة فقط - لكي تصبح له ابعاد اعلام ديمقراطي حقيقي مؤسس على حوار قائم بين الجميع ومن أجل الجميع ؟ ما المبادئ التي ينبغي أن يقوم عليها نظام عالمي للاعلام والاتصال يكون في الوقت نفسه أكثر توازنا وفعالية ؟ تلك هي بعض الأسئلة التي حاول الاجابة عليها الأعضاء الستة عشر الذين تكونت منهم عام ١٩٧٧ اللجنة الدولية لدراسة مشكلات الاتصال والتي قام بتشكيلها مدير عام اليونسكو برئاسة الاستاذ شون ماكبرايد كما رأينا (٥) .

ونكتفي في هذه الدراسة بتناول خلاصة التقرير الذي وضعت له اللجنة الدولية والمفترحات التي توصلت اليها والملاحظات التي أبدت بشأنها .

ان الاتصال يمكن أن يكون أداة في يد السلطة أو سلاحا ثوريا أو انتاجا تجاريا أو وسيلة تربوية وتعليمية . ويمكن أن يستخدم لأغراض تحررية أو طغيانية . ويمكن أن يشارك في تكوين شخصية الفرد أو في تجنيد الكائنات البشرية لتجهندا

متمائلا . وعلى كل مجتمع أن يختار أفضل الطرق لتحقيق المهمة المناطة بالبشرية جمعا وأن يجد وسائل تذليل الضغوط المادية والاجتماعية والسياسية التي تعطل التقدم^(١) .

ان دراسة الاتصال في جميع أنحاء العالم تظهر تنوع الحلول التي اتخذتها الدول المختلفة ، حسب التقاليد والأغاط المتنوعة للحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية ، وحسب احتياجات كل بلد وامكانياته . ان هذا التنوع ليبلغ الأهمية وينبغي المحافظة عليه . فيجب عدم التفكير في تعميم نماذج موضوعة مسبقا على الصعيد العالمي . ومع ذلك ، فانه ينبغي أن يكون من الممكن تحديد قيم وأهداف مشتركة في مجال الاتصال ، تقوم على مصالح مشتركة في عالم مترابط . ان الجنس البشري في مجموعه مهدد بسباق التسلح باستمرار عدم المساواة بين الشعوب . وكلاهما يؤدي الى التوتر الذي يعرض مستقبله للخطر ، لا بل وجوده ذاته . وان التطلع الى نظام اجتماعي أفضل وأعدل وأكثر ديمقراطية ، قائم على احترام الحقوق الأساسية للإنسان أصبح اليوم مطلب العالم كله . ولا يمكن تحقيقه الا بالتفاهم والتسامح اللذين يقومان على حد كبير باتصال حر ومفتوح ومتوازن .

ومن أجل ذلك لا بد من عدم الاستقلال والتنمية الذاتيين . فلكل فرد ولكل شعب الحق في التطلع الى حياة أفضل . وأيا كانت الطريقة التي يتصور بها هذا التقدم ، فينبغي أن تكفل حدا اجتماعيا أدنى على المستويين الوطني والعالمي . ويفترض هذا الهدف تقوية القدرات وإزالة اللامساواة التي من شأنها أن تهدد الرفاق الاجتماعي ، لا بل السلام العالمي . ولما كانت البلاد تبدأ طريقها الى النمو من مستوى الكفاف والتبعية . فينبغي أن تتطلع الى الاعتماد على الذات وإلى المزيد من المساواة . ولما كان الاتصال مرتبطا بكل أوجه الحياة ، فانه من الأهمية بمكان تضيق الشقة القائمة في هذا المجال توطئة لسلدها بالتدرج .

وقد أوصت اللجنة الدولية بعدم اعتبار الاتصال مرفقا طارفا يترك أمر تطوره الى المصادفة ، كما أوصت بتطوير الامكانيات النوعية لكل شكل من أشكال الاتصال ، ابتداء من الأشكال التقليدية وحتى الأشكال المتقدمة ، وبتوعية الشعوب بحقوقها وتميز تطوير الأفراد ومجتمعاتهم داخل اطار التنمية في عالم مترابط .

وقد رأت هذه اللجنة أن اللغة التي تجسد الخبرة الثقافية لشعب من الشعوب يجب أن تتطور بحيث تلي المتطلبات المعقدة والمتعددة للاتصال الحديث ، وهي لذلك توصي الشعوب النامية والمجتمعات متعددة اللغات بأن تضع سياسات لغوية تسهل تقدم كل اللغات الوطنية حتى لو اضطر الأمر الى اختيار لغة أو أكثر تستخدم في الاتصال والتعلم العالي والإدارة بصورة أوضح .

ان الهدف السياسي الاساسي لأي شعب هو قيامه بنشر التعليم الأولى فيه ومكافحة الأمية بواسطة طرق تدريب عملية تضاف الى نظام التعليم التقليدي ، وذلك في اطار تعليم مستمر ومناسب يتم من خلال الراديو والتلفزيون أو المراسلة .

وينبغي لكل بلد - في إطار السياسات الوطنية للتنمية - أن يرتب أولوياته أخذاً في الاعتبار أنه ليس بالإمكان الوصول إلى كل الأهداف في آن واحد . ومع ذلك فإن على سياسات الاتصال أن تعمل على تطوير كل وسائل الاعلام كما وكيفا .

وعلى البلاد النامية أن تقيم أو تطور العناصر الأساسية لنظمها الاتصالية ، مثل الصحافة المكتوبة والاذاعة والاتصالات السلكية واللاسلكية ، وأن توفر وسائل التدريب والانتاج المرتبطة بهذه النظم .

ولابد من إنشاء وكالات وطنية قوية للاتباء ، وذلك لتحسين الطريقة التي تغطي بها أخبار كل بلد بواسطة الصحافة الوطنية أو الدولية . كما يجب إقامة شبكات اقليمية دائمة من أجل زيادة انسياب الأخبار وخدمة كل الجماعات اللغوية المهمة في المنطقة . وعلى المستوى الوطني . ينبغي أن تشجع هذه الوكالات انتشار الصحف في الريف والمدن تحسينا لنظام جمع الأخبار وتوزيعها في الدولة .

كذلك يجب تشجيع الانتاج الوطني للكتب وذلك بإنشاء شبكات لتوزيع الكتب والصحف والمجلات وحث المؤلفين الوطنيين على الابداع الأدبي بمختلف اللغات .

وينبغي أن تعطي الأولوية لإقامة شبكات وطنية للراديو يصل إرسالها إلى الأقاليم المنعزلة . ويستحق التلفزيون - بدوره - التشجيع ما أن تسمح الظروف بذلك . كما ينبغي توجيه عناية خاصة للأقاليم التي تنتشر الأمية فيها . وعلى البلاد النامية أن تكون قادرة على أن تنتج عمليا برامج للراديو تمجنا للتنمية للخارج ولعدم تجاوز المستوى المطلوب فيما يتعلق بتبادل البرامج . ف ينبغي إذا إنشاء مراكز وطنية أو اقليمية لإنتاج برامج وأفلام ورواية وتسجيلية . كما ينبغي إنشاء شبكة للتوزيع .

ومن الضروري توفير التسهيلات اللازمة لتعليم وتأهيل العاملين في وسائل الاتصال ومؤسسات الانتاج ، وكذلك من أجل تكوين الإداريين والتقنيين والفنيين على صيانة الأجهزة . . . ويجب تشجيع التعاون بين البلاد المتجاورة أو الواقعة في المنطقة نفسها .

ورأي اللجنة الدولية ضرورة تمويل أجهزة الاتصال تمويلًا مناسبًا في كل مشروع من مشروعات التنمية باعتبارها جزءا لا يتجزأ من كل واحد من هذه المشروعات . وأن أوجه النشاط المعروفة بـ « الاتصال من أجل دعم التنمية » هي أساسية لتعبئة المبادرات وتقديم الاعلام الضروري للعمل في كل مجالات التنمية مثل الزراعة والصحة وتنظيم الأسرة والتعليم والدين والصناعة الخ . . .

ورأت اللجنة الدولية ضرورة توسيع خدمات البريد وشبكات الاتصالات السلكية واللاسلكية بفضل أنظمة للتبادل الالكتروني ذات أحجام صغيرة تخدم البيئة الريفية في الدول النامية . وإن استخدام الراديو المحلي والتلفزيون وأنظمة الفيديو ذات الأحجام الصغيرة والتكاليف القليلة وكذلك اللجوء لتكنولوجيات أخرى مناسبة ، من شأنها أن تسهل انتاج البرامج التي تدعم جهود التنمية داخل مجتمع القرية وتنشط المشاركة وتتيح تعبيرًا ثقافيًا متنوعًا .

وإن استخدام الاتصال لأغراض التعليم والاعلام ينبغي أن يكون على قدم المساواة لاستخدامه لأغراض الترفيه . وفي الوقت نفسه فإن الأنظمة التربوية يجب أن تؤهل الصغار للاستفادة من الاتصال . وإن تدريب تلاميذ التعليم

الابتدائي والثانوي على استخدام وسائل الاعلام مثل قراءة بعض الأبواب في الصحف والمجلات واختيار برامج الراديو والتلفزيون وتعلم استخدام التقنيات الأولى للوسائل السمعية والبصرية ، من شأنها أن تتيح لهم معرفة أوسع وأحاطة أكبر بمشكلات الساعة .

وتردود اللجنة قائلة بأنه لا يكفي التأكيد على وجوب أن يكون للاتصال الأولى في التنمية الوطنية ، بل يجب البحث عن مصادر للتمويل والاستثمار كفرض رسوم أكبر على الجماعات المتمتع بالامتيازات ، وبخاصة تلك التي تعيش في البيئات الحضرية كما يمكن التفكير في فرض ضريبة على الاعلانات التجارية للصرف من حصيتها على وسائل الاعلام .

ولكن ثمة صعوبات كبيرة تلغ حائلا بين تحقيق أي تقدم حقيقي في مجال الاتصال في البلاد النامية مثل قلة الوراق وارتفاع أسعاره وتكاليف ارسال الأخبار سلكيا أو لاسلكيا ونقل الصحف والمجلات والكتب والوسائل السمعية والبصرية . كل تلك العقبات تحول دون اقامة تيار اعلامي حر ومتوازن . ولا بد أن تقوم الدول الغنية بإزالة هذه العقبات ، أو على الأقل بالحد منها ، ان كانت جادة فعلا في تقريب المسافات بينها وبين بلاد العالم الثالث .

ولا بد لاستراتيجيات التنمية من أن تعتمد على سياسات اتصال تتماشى مع الاحتياجات والأولويات المتفق عليها . وفي هذا المضمون ينبغي أن يعتبر الاتصال عنصرا أساسيا للتنمية وعملا يسمح بمشاركة سياسية حقيقية عند اتخاذ القرارات ، ويوفر قاعدة للعلام المركزي تقوم بتحديد الاختيارات الكبرى وتساعد على الوعي بالأولويات الوطنية . وفي هذا السبيل ، لابد من أن تكون لمة الاتصال سهلة ومفهومة من الجماهير حتى تنبع قراراتها عن قاعدة حقيقية لاعن حماس منشو العاطفة لا العقل .

ان الانفجار التقني في مجال الاتصال يتيح امكانات واسعة ، ولكنه ينطوي على أخطار جسيمة . والأمر كله متعلق في النهاية بالقرارات التي سوف تتخذ وبالجانب الذي سوف تتخذ منه والذين سوف يتخذونها . لذا ترى اللجنة وجوب اعطاء الأولوية لعملية اتخاذ القرار على أساس المشاركة والوعي الكامل بالأثر الاجتماعي للاختيارات المختلفة .

وان إبراز الظروف التي تتوقف عليها المحافظة على الهوية الثقافية لكل مجتمع ، يتيح إقامة علاقات متبادلة ومنسجمة وخلاقة مع ثقافات أخرى . وإنه من الضروري أيضا تعديل وضع التبعية الثقافية التي تعاني منها عدة بلاد حققت تمتعتها أو أنها في سبيلها الى ذلك .

وان عازمت دولة على تقوية نظم الاتصال فيها . ويجب عليها أن تختار الأشكال غير التجارية للاتصال الجماهيري . وينبغي أن يرتبط تطوير هذه الأنماط من الاتصال بالتقاليد والثقافة وبأهداف التنمية والنظام الاجتماعي والسياسي لكل بلد . ويمكن رصد أموال عامة لهذا الغرض ، كما هي الحال بالنسبة للتعليم .

وان تيار الاعلام التقني داخل البلاد وعبر الحدود الوطنية يعتبر مصدرا من المصادر الأساسية للتنمية . وان الوصول الى هذا الإعلام الذي تحتاج اليه البلاد لاتخاذ القرارات على كل المستويات لا يقل أهمية عن الوصول الى مصادر الأخبار . وغالبا ما يتركز هذا النمط من الاعلام في البيئات التقنية الكبيرة . وتلاحظ اللجنة أن البلاد المتقدمة لاتقدم الى البلاد النامية ما يكفيها من هذا النمط من الاعلام الذي لا تحصل عليه في المادة بسهولة .

وإذا انتقلنا إلى الصحفيين وأوضاعهم ، نجد أن لجنة ماكبرايد الدولية تخصص لهم جزءا كبيرا من مشروعها ، فهي ترى أن الحرية والمسؤولية متلازمان بالنسبة لهم . فالحرية بدون مسؤولية تؤدي إلى شتى أنواع التعسف ولكن بدون حرية لا يمكن أن تكون هناك مسؤولية . وإن مفهوم الحرية المتناسقة مع المسؤولية يؤدي بالضرورة إلى الاهتمام بأداب المهنة التي تفترض بدورها تناولاً متوازناً للأحداث أو المواقف أو التحولات .

وتقرر اللجنة الدولية أن تقديم خبر يتناول بلداً أجنبياً تقديماً كاملاً وواقعياً هو مشكلة المشاكل ! وترى أن لذلك أسباباً عدة ، أهمها الظروف التي يعمل المراسلون فيها وأهليتهم واستعدادهم ومفهومهم المختلف لمعايير اختيار الخبر فضلاً عن مواقف الحكومات الخ . . وعليه فقد أوصت بأن تعمل الدول الأعضاء على قبول المراسلين الأجانب في أراضيتها وتسهيل جميعهم للأخبار وتوزيعها ، وبأن تحترم الالتزامات التي قبلها الموقعون على عقد هلسنكي^(٧) النهائي . أما وصول الصحفيين بحرية إلى مصادر الأخبار ، فهو ضروري لكتابة تقارير صحفية صحيحة وأمنية ومتوازنة . وتشمل حرية الوصول إلى مصادر الأخبار حرية الوصول إلى المصادر غير الرسمية أيضاً ، أي الوصول إلى كل الآراء .

وقد علّق الخبير السوفيتي سيرجي لوسيف على هذه التوصية قائلاً : « إن هذه الفقرة لا تتفق مع عقد هلسنكي النهائي وتناقض مصالح البلاد النامية . وهي في النهاية غير مقبولة ، وإنني أعترض على أن يتضمنها هذا التقرير . وأقترح أن يستبدل النص التالي : « على جميع الدول أن تتخذ إجراءات مناسبة لتحسين الظروف التي تسمح للمراسلين الأجانب بإتمام رسالتهم المهنية في البلد المضيف طبقاً لأحكام عقد هلسنكي النهائي ومع احترامهم للاستقلال الوطني للبلد المضيف وهويته » بهذه التوصية .

وبعد هذا التعليق أو الاعتراض الذي أثبت في التقرير على أنه تحفظ ، استأنف الخبراء الدوليون توصياتهم بطلب دراسة الضوابط المنبئة لاختيار الأخبار والتقارير الصحفية ، وذلك من أجل أن يكون القراء والمستمعون في العالم كله قادرين على تلقي تقرير أصدق وأكمل للأحداث التي تجري في البلاد المتقدمة والبلاد النامية . وإن تفسير الصحفيين للمواقف غير المألوفة بلغة مفهوم يجب ألا يحجب عنهم غمط التعصب لشعوبهم وأوطانهم . ويكفي اختيار بعض الأخبار على حساب أخبار أخرى لكي تنطبع في غيلة الجمهور صورة للعالم قد تكون ناقصة أو مشوهة . ومن الضروري إيجاد ضوابط مهنية تتيج للصحفيين تسليط الأضواء على مختلف ثقافات العالم الحديث ومعتقداته دون أن يتهموا بالانحياز أو التعصب . فيتوجب على الصحفيين الذين يعينون خارج بلادهم أن يتلقوا تعليمات يتناول لغة البلد أو المنطقة التي سوف يغطون أخبارها وتاريخها ومؤسستها واقتصادياتها ويبحثها .

وقد أوصت اللجنة صحافة العالم الصناعي وإذاعته بأن تخصص مساحة أكبر ووقتاً أطول للتقارير الصحفية عن الأحداث ولتنشر الأخبار الأساسية التي تتناول البلاد الأجنبية بعمامة ويلاذ العالم النامي بخاصة . إن وسائل الاتصال في الدول المتقدمة يجب أن تزداد تموداً على ثقافات الشعوب النامية وأحوالها . وهي مدعوة إلى المساهمة في تصحيح عدم التوازن الإعلامي بينها وبين العالم النامي .

(٧) عقد هذا المؤتمر في هلسنكي وتناول عقده النهائي الذي تم التوقيع عليه في أول أغسطس (آب) ١٩٧٥ التوازن في المجالات الإنسانية وغيرها وتحسين إذاعة الأخبار والوصول إلى مصادرهم وتحسينها . كما تناول تحسين ظروف عمل الصحفيين .

ومن أجل علاج الآثار السلبية للتقارير الصحفية غير الدقيقة أو الضارة ، ينبغي أن يكون حق التصويب والرد موضعاً لدراسة أعمق . وقد تكون الأخبار الكاذبة أو المحرفة ضارة^(٨) ، ولكن نشر التصويبات أو الردود عن رضي أفضل من وضع قواعد دولية يصعب تنفيذها . وقد أوصت اللجنة بأن تؤخذ في الاعتبار ممارسة الحق الدولي للرد والتصويب لكي يطبق عن رضي في كل بلد تبعاً للممارسات الصحفية المعمول بها والبيئات القانونية الوطنية . كما طلبت اللجنة بأن تقوم الأمم المتحدة ، بالتشاور مع الهيئات ذات العلاقة ، بدراسة الشروط التي بمقتضاها يمكن تعميم هذا الحق على المستوى الدولي ، مع الأخذ في الاعتبار صعوبات تطبيق اتفاقية ١٩٥٢ حول حق التصويب الدولي . ولاحظت اللجنة مع الأسف أن استخبارات عدة بلاد قد جندت في وقت ما بعض الصحفيين لكي يقوموا بنشاط تجسسي تخشع وراء عملهم الصحفي . وهي تشجب هذه الممارسة ، لأنها تضر بسمعة المهنة وتضع الصحفيين موضع الريبة وتعرضهم للمخاطر الجسدية . وتطلب اللجنة من الصحفيين والمؤسسات الصحفية أن يقاوموا كل محاولة من هذا القبيل . كما تلح على الحكومات بأن تمتنع عن استخدام الصحفيين في أعمال التجسس .

وفي كل يوم تصل من أنحاء العالم أخبار عن الاعتداءات التي تقع على الصحفيين أثناء ممارستهم لمهنتهم . وعلى العالم بأسره أن يحول دون وقوع هذه الاعتداءات على حقوق الإنسان . واهتمت الأوساط المهنية بحماية الصحفيين قبل لجنة ماكبرايد . ففي الحروب التي وقعت في الخمسينيات والتي قتل خلالها بعض المراسلين بدأ الكلام عن حماية الصحفيين الذين يكلفون بمهام خطيرة . وكانت هذه المهام الخطيرة ، في ذلك الحين ، في كوريا وفيتنام وفي بعض أنحاء أفريقيا وأمريكا اللاتينية .

واهتمت المنظمات المهنية بهذه المشكلة بالتعاون مع اللجنة الدولية لرجال القانون في نهاية الستينيات . وقد طلب رئيس جمعية الصحافة الأجنبية بسويسرة في سنة ١٩٦٧ إلى سكرتير عام اللجنة الدولية لرجال القانون ، شون ماكبرايد ، دراسة هذه المسألة واعداد مشروع أول لاتفاقية تكفل حماية الصحفيين المكلفين بمهام محفوفة بالخطر . وقدم المشروع الأول في بداية سنة ١٩٦٨ إلى حلقة دراسية عقدت في جنيف وأجرت عليه عدة تعديلات ومن جهة ثانية اتصل منظمو هذه الحلقة بإدارة جمعية الصليب الأحمر الدولية دعماً لتنفيذ هذا المشروع . وقد عرض بعد ذلك على منظمات مهنية تولت مناقشته .

وخلال عام ١٩٧٠ قتل عدد كبير من الصحفيين . فقد اختفى سبعة عشر مراسلاً أجنبياً في كمبودشيا وحدها في ذلك العام ، مما أدى إلى مضاعفة يقظة المنظمات المهنية وإلى إيجاد إجراءات لحماية الصحفيين . وقد اجتمع الاتحاد الدولي لناشري الصحف والمعهد الدولي للصحافة والاتحاد الدولي للصحفيين والمنظمة الدولية للصحفيين عدة مرات بهدف اعداد مشروع لحماية الصحفيين الذين يرسلون في مهام محفوفة بالمخاطر . وقد عرض هذا المشروع على الأمم المتحدة لاعداد وثيقة تتبناها الحكومات . وفي ديسمبر ١٩٧٠ وافقت الجمعية العامة لهذه المنظمة الدولية على مشروع قرار حول حماية الصحفيين المكلفين بمهام محفوفة بالمخاطر ، في النطاق التي يجري على أراضيها نزاعات مسلحة ، ودعت لجنة

حقوق الإنسان الى دراسة امكانية اعداد مشروع اتفاق دولي يكفل حماية الصحفيين وطلبت الى السكرتير العام للأمم المتحدة أن يقدم تقريراً عن هذا الموضوع الى الجمعية العامة في دورتها التالية .

واجتمعت المنظمات المهنية للصحفيين التي طرحت المشروع لدراسته للمرة الثانية وأعدت مخططاً لمشروع اتفاقية دولية لانشاء لجنة لحماية الصحفي ورفعت الى لجنة حقوق الإنسان التابعة للأمم المتحدة . وقد وافقت هذه اللجنة عليه في مارس (آذار) ١٩٧١ . وطلبت الى المجلس الاقتصادي والاجتماعي التابع للأمم المتحدة أن يقدمه الى الدورة المقبلة للجمعية العامة للأمم المتحدة .

وفي ١٦ سبتمبر (ايلول) ١٩٧٢ وافق الاتحاد الدولي للصحفيين الذي انعقد مؤتمره في استانبول على قرار أبدي فيه ارتياحه للجهود التي تبذل في الأمم المتحدة من أجل الموافقة على اتفاق حول حماية الصحفيين الذين يكلفون بمهام محفوفة بالمخاطر . وقد طالب المؤتمر الدول الأعضاء بعدم تسليم الصحفيين بطاقات هويتهم وبأن يترك هذا الأمر للجنة مهنية تتكون من أعضاء منتخبين أو معينين من قبل الأمم المتحدة بالتشاور مع المنظمات الصحفية (٩) .

وفي ديسمبر (كانون الأول) ١٩٧٢ قررت الجمعية العامة للأمم المتحدة أن تدرج هذا الموضوع في جدول أعمال دورتها الثامنة والعشرين . وقد تقدمت الدول الأعضاء خلال دراسة مشروع الاتفاقية بعدة مشروعات تعديل . وفي قرار اتخذ في ٢ نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٧٣ عبرت الجمعية العمومية عن أمتيتها في اقرار اتفاقية تكشف حماية الصحفيين الذين يكلفون بمهام محفوفة بالمخاطر ، في المناطق التي تقوم فيها منازعات مسلحة . وطلبت الى السكرتير العام أن يبلغ « المؤتمر الدبلوماسي حول تأكيد وتطوير القانون الدولي الانساني المطبق في المنازعات المسلحة » بمشروع الاتفاقية والتعديلات المقترحة والملاحظات التي ابلت خلال الدورة الثامنة والعشرين .

وبعد أن قام المؤتمر الدبلوماسي بدراسة الموضوع دراسة متأنية ، تولى اعداد مشروع مادة حول حماية الصحفيين تلحق بمشروع البروتوكول الإضافي رقم ١ لاتفاقيات جنيف التي أبرمت سنة ١٩٤٩ ، كما قام بوضع نموذج لبطاقة شخصية مخصصة للصحفيين المكلفين بمهام محفوفة بالمخاطر . وقد قامت الجمعية العامة للأمم المتحدة ، خلال دورتها الثلاثين المتعقبة سنة ١٩٧٥ بإدراج هذا الموضوع من جديد في جدول أعمالها وأكثفت باخذها علماً بتطور المشروع دون أن تتمكن من الوصول الى قرار نهائي فيه .

واهتمت اليونسكو بهذا الموضوع ابتداء من الدورة التاسعة عشرة لمؤتمرها العام المنعقد في نيروبي في اكتوبر ١٩٧٦ . وخلال مؤتمراتها الصحفية التي عقدت في نيروبي وباريس سنة ١٩٧٦ أكد مدير عام اليونسكو أهمية هذا الموضوع واقترح دراسة الاجراءات الواجب اتخاذها لحماية الصحفيين .

وفي شهر أبريل (نيسان) ١٩٧٧ دعت اليونسكو الى اجتماع لتبادل وجهات النظر حول هذا الموضوع خلال حلقة دراسية أقيمت في فلورنسا حول التبادل الحر والمتوازن للأخبار بين الدول المتقدمة والدول النامية . ولكن مبدأ حماية

الصحفيين أخذ مكانه لأول مرة في برنامج ١٩٧٩ - ١٩٨٠ الذي وافق عليه المؤتمر العام لهذه المنظمة الدولية في دورته العشرين بمقتضى فقرة عنوانها : « تحسين القواعد المهنية وظروف الصحفيين وحمايتهم » تنص على اجراء دراسات و تكفل للصحفيين الحماية الضرورية لممارسة مهنتهم تحت أفضل ظروف موضوعية » ، وكذلك بمقتضى فقرة عنوانها : « تقديم الاخبار الدولية تقدما مسئولا وكاملا » تنص على طلب تنظيم اجتماع للدراسة الوسائل التي بواسطتها يمكن تأمين حماية الصحفيين والمخبرين لكي يمارسوا مهنتهم بكل موضوعية » . هذا الى جانب أن الاعلان الخاص بالمبادئ الأساسية المتعلقة بإسهام أجهزة الاعلام في دعم السلام والتفاهم الدولي وتعزيز حقوق الانسان ومكافحة العنصرية والفصل العنصري والتحرير على الحرب - يتضمن فقرتين عن حماية الصحفيين . وقد تمت الموافقة على هذا الاعلان في الدورة العشرين للمؤتمر العام . فالقادة ٢ (الفقرة ٤) تنص على أنه « من الضروري أن يتمتع الصحفيون وغيرهم من ممثلي أجهزة الاعلام ، في بلادهم أو خارجها ، بحماية تضمن لهم أفضل الظروف لممارسة مهنتهم ، وتنص المادة ٩ على ما يلي : « يكون من حق للمجتمع الدولي ، بمقتضى هذا الاعلان ، أن يسهم في وضع شروط حماية الصحفيين ووكالات الأنباء أثناء ممارستهم لأعمالهم » .

ومن ناحية أخرى عقدت اللجنة الدولية لدراسة مشكلات الاتصال التي تم تشكيلها عقب المؤتمر العام في نيروبي ، اجتماعين لاجراء مشاورات حول حماية الصحفيين ، الأول في فبراير (شباط) ١٩٧٩ والثاني في مايو (أيار) ١٩٧٩ شاركت فيها عدة منظمات مهنية تعني بالاتصال . وقد خصص قسمان من التقرير النهائي لحماية الصحفيين .

والمراحل الأخيرة لتطور هذا الموضوع تمت في اجتماع لتبادل الآراء نظمتها اليونسكو في بنابر (كانون الثاني) ١٩٨٠ ، وفي اجتماع المنظمات الدولية والاقليمية للصحفيين الذي عقد في مكسيكو في أبريل (نيسان) ١٩٨٠ حيث تحقق تقدم على جانب من الاهمية .



ولكن ما الذي حدث منذ اعداد المشروع الابتدائي في سنة ١٩٦٧ وحتى اليوم ؟ لقد حدثت أمور كثيرة ومهمة . ففي البداية اقتصر الأمر على مشروع محدود للغاية يهدف الى حماية الصحفيين أثناء قيامهم بأعمال عفوفة بالمخاطر . أما اليوم فقد تجاوزنا هذه المرحلة وأصبحت نتحدث عن حماية الصحفيين خارج أوطانهم وداخلها . لأن المخاطر التي يتعرض لها الصحفيون ليست فقط في تغطية المنازعات المسلحة في الخارج ، ولكنها تكون في أحيان كثيرة في بلادهم ذاتها ! فنجد أن استشرت أعمال الارهاب والعنف في العالم أصبح الصحفي يتعرض للمخاطر نفسها أينما كان وأينما ذهب . فهو معرض للتهديد والتوقيف والاضطهاد والتعذيب وسوء المعاملة والضرب والحبس ، لا بل القتل . وهكذا أصبح العالم بأكمله منطقة نزاع وبالتالي منطقة خطر متزايدة الأطراف . ان الصحفي لم يعد يتمتع بالطمأنينة والامان في أي مكان يذهب اليه . وفي كثير من الاحيان يكون محروما من أي ضمان . ان قراءه ومستمعيه ومشاهديه يطلبون اليه أن يكتب وأن يقول الحقيقة ويظهرها ، دون أن يخفي شيئا منها أو يسهل . ولكن بأي ثمن ؟ وكيف نتخذ الاجراءات التي توفر له بعض الحماية ؟

ويجب حفظي تويوز^(١٠) على ذلك بقوله : ان كانت الحكومة هي التي ينبغي أن تتخذ هذه الاجراءات فقد يساء تفسير ذلك من قبل الصحافة التي تعتبره تدخلا في شئون الصحفي . واذا كانت المهنة نفسها هي التي ينبغي أن تقوم بذلك ، فانه يخشى أن تأتي اجراءاتها ناقصة الفاعلية بالنسبة للعديد من البلاد ، فالأمر يتعلق باختلاقيات المهنة ، ولا بد اذا من معالجته في اطار حقوق الصحفيين ومسئولياتهم ، على الرغم من أنها نسب ، في كل مكان ، مشكلات سياسية معقدة .

ومن جهة ثانية ، فانه من العسير إقامة حوار بين الصحفي الذي يصبح المشتكي ، وبين الأشخاص الذين يضعون العقبات في طريق المهنة واللذين يصبحون متهمين . فالموضوع شائك للغاية وعلاجه عسير جدا في بعض البلاد . وهو يؤدي - من الناحية القانونية - الى تعقيدات كثيرة . فهل من حق الحكومات أن تتخذ أي اجراءات لتنضيق نشاط الصحفيين ؟ والى أي حد يمكن أن تذهب هذه القيود ؟ ومن يكن الحكم في هذه الحالة ؟

ان موضوع حماية الصحفيين يجب أن يأخذ مكانه في اطار نظام عالمي جديد للاتصال والعلاقات بين الصحفي أثناء ممارسته لمهنته . ولكن كيف تكفل هذا الضمان وهذه الحماية ؟ ان الاجتماعات التي يعقدها رجال المهنة تميل الى دراسة هذا الموضوع بعيدا عن تدخل الحكومات . وتطلب الى اليونسكو أن يلعب دور المنسق بين المنظمات المهنية . ويكتفي لفترة اختيارية بمراقبة الحالة وجذب انتباه الأوساط المهنية والحكومية . ويمكن فيها بعد دراسة انشاء جهاز دولي مناسب ، اذا دعت الحاجة اليه .



واذا عدنا الى اللجنة الدولية ، وجدنا أنها لم تفعل الا ما من شأنه جمع الآراء المتباينة حول حل وسط يرضى عنه الجميع ، وقد اهتمت اللجنة بصورة خاصة بحقوق الانسان وأوصت كل الذين يعملون في خدمة أجهزة الاعلام بأن يسهموا في الدعوة الى احترام هذه الحقوق وبألا يقصروا هذا الاسهام على الدفاع عن هذه المبادئ . ان عليهم أن يكشفوا الانتهاكات أينما تحدث وأن يساندوا الذين انتهكت حقوقهم أو أنكروا عليهم . وطلبت اللجنة من الجمعيات المهنية والرأي العام مساندة الصحفيين الذين يعانون من ضغوط أو الذين يقعون ضحايا اخلاصهم لقضية حقوق الانسان . وناشدت اللجنة الدولية أجهزة الاعلام أن تسهم في مساندة القضايا العادلة للشعوب التي تناضل من أجل التحرر والاستقلال ، ومن أجل حقها في أن تعيش في سلام ومساواة دون أي تدخل تعسفي .

ان حاجات المجتمع الديمقراطي في مجال الاتصال يجب اشباعها بانشاء حقوق نوعية تمثل حق الانسان في أن يعلم (يفتح الياء واللام) وحقه في أن يعلم (يضم الياء وكسر اللام) وحقه في أن يحترم حياته الخاصة وفي المشاركة في الاعلام العام ، أي في الاعلام الذي تشرف عليه الدولة . ان هذه الحقوق تدخل كلها في اطار هذا المفهوم الجديد الا وهو الحق في الاتصال .

وترتقيا على ذلك أوصت اللجنة الدولية بلاد العالم جميعا بأن تعمل على توسيع الاخبار الضرورية للمواطنين في حياتهم اليومية ، وبأن تدقق في فحص القوانين واللوائح القائمة من أجل التخفيف من القيود المفروضة على الممارسات الاعلامية والحد من المنصوص السرية التي لا يعلم الصحفيون عنها شيئا . كما أوصت بإلغاء الرقابة والاشراف التنصفي على الاعلام . وعلق المندوب السوفييتي على هذه التوصية بقوله « ان مشكلة الرقابة والاشراف التنصفي على الاعلام تخضع للتشريع الوطني لكل بلد وينبغي أن تحل في هذا الاطار ، مع الأخذ في الاعتبار مصالح كل دولة » .

ويعد أن سجلت اللجنة هذا التعليق قالت أنه اذا كان هناك ما يبرر فرض قيود معقولة فإنه لا بد من النص على هذه القيود بقانون وأن يكون تطبيقه خاضعا لرقابة القضاء . وأن يلتزم بالمبادئ التي يتضمنها ميثاق الأمم المتحدة والاعلان العالمي لحقوق الانسان .

وأكدت اللجنة على ضرورة دراسة الموائع والقيود الناتجة عن تركيز ملكية أجهزة الاعلام سواء كانت عامة أم خاصة ، أو تلك الناتجة عن تأثير العامل التجاري على الصحافة وعلى الراديو والتلفزيون ، أو عن الاعلام الخاص أو الحكومي . كما أن الظروف المالية التي تفرض نفسها على أجهزة الاعلام والاجراءات التي تهدف الى دعم استقلال التحرير ، ينبغي أن تكون موضع دراسة دقيقة ومتأنية .

ورأت اللجنة الدولية ضرورة اتخاذ إجراءات قانونية فعالة لوضع حد لتفاقم ظاهرة التركيز والاحتكار ، بأخذ عهد على الشركات عبر الدول بأن تخضع لمعايير وشروط نوعية منصوص عليها في قوانين وسياسات التنمية الوطنية ، وبوقف الاتجاه نحو الاقلال من عدد الذين يتخذون القرارات في عالم زداد فيه فاعلية الاتصال وحجم الجماهير ، وبالإضعاف من تأثير الاعلان على سياسة التحرير وبرامج الراديو والتلفزيون ، وبدعم استقلال أجهزة الإعلام في مجال الإدارة وسياسة التحرير ، سواء كانت هذه الأجهزة تتبع القطاع الخاص أم العام أو الحكومي .

وقد علق ايلي أبيل الخبير الأمريكي على هذه التوصية بقوله إن التشريع المضاد للاحتكارات أيا كانت فاعليته ، لا يمكن قبوله إلا في البلاد التي يوجد فيها قدر من المنافسة . ويهي غامرا الاتحاد السوفييتي قائلا : « من نافلة القول أن تنصدي لاجراءات مضادة للتركيز والاحتكار في بلاد تتخذ وسائل الاتصال فيها شكل الاحتكار الحكومي أو تعمل كأداة لحزب سياسي واحد مسموح به . والمفروض في الشركات عبر الدول أن تخضع لقوانين البلاد التي تعمل فيها . فإذا أمكن إثبات وجودها أصبح من المناسب دراسة تأثير وكلاء الإعلان على مضمون الصحف أو برامج الراديو والتلفزيون دراسة متأنية . ولكن المطالبة بعبارة عامة بالإقلال من هذا التأثير دون وقفة لدراسته أو محاولة قياسه في ظروف نوعية ، إنما هي دليل على انحياز أيديولوجي » .

واتفق أعضاء اللجنة على أن التنوع والاختيار في مضمون الاتصال هما الشرطان اللذان تتوقف عليهما المشاركة الديمقراطية . لذا ينبغي تمكين المواطن من صياغة أحكامه بناء على أكبر قدر ممكن من الأخبار ومن الرسائل والآراء ،

ويجب أن نتاح له فرصة مشاطرة غيره الرأي . كما أن تطوير وسائل الاتصال المحلية وتنويعها يوسعان مدى امكانية المشاركة الحقة والمباشرة للسكان في تطوير الاتصال .

وتعني اللجنة بالمرأة وشؤونها وتطلب من أجهزة الاتصال الاهتمام بها ومطالبتها على قدم المساواة مع الرجل ، كما تدعوها إلى الحرص على عدم تشويه صورتها مباشرة او عن طريق الإعلان . فتدعو اللجنة كذلك إلى الاهتمام بالمشكلات التي تمس الأطفال والشبان والأقليات الوطنية واللاتينية والدينية واللغوية وسكان المناطق النائية وكبار السن والموقون ، فإن لهذه القطاعات من المجتمع حاجاتها الخاصة في مجال الاتصال .

وليكون الانسان قادرا على الاتصال داخل المجتمع المعاصر ينبغي أن توضع تحت تصرفه أجهزة مناسبة . إن التكنولوجيا الجديدة تقدم له عدة وسائل للإعلام والتسلية ، ولكنها تكون في الغالب غير قادرة على أن تضع تحت تصرفه وسائل اتصال تناسب الجماعة التي ينتمي إليها أو تجمعها الاجتماعي أو الثقافي . ومن أجل ذلك يصبح من الضروري في غالب الأحيان البحث عن وسائل جديدة للاتصال .

وقد أوصت اللجنة الدولية بدراسة استخدام وسائل الاتصال في بيئات العمل والحياة دراسة أعمق . فبدلاً من أن تعزل وسائل الاتصال الرجال والنساء بعضهم من بعض ، تعمل على إدماجهم في الجماعة . وقد لاحظت اللجنة أن القراء المستمعين والمُشاهدين يعاملون في الأغلب والأهم على أنهم يتلقون الإعلام بطريقة سلبية . لذا كان على المسؤولين عن وسائل الاتصال أن يشجعوا جمهورهم على القيام بدور اتصالي أكثر إيجابية ، وذلك بأن تفرد له مكاناً أرحب في الصحف أو في البرامج الإذاعية والتلفزيونية من أجل أن يتاح لأعضاء المجتمع والمنظمات الاجتماعية التعبير عن آرائهم . وإن إنشاء وسائل اتصال على كافة المستويات يسمح بالوصول إلى أشكال جديدة للمشاركة الجماهيرية في إدارة هذه الوسائل ، كما يتيح إيجاد وسائل أخرى للتمويل .

وعلى المسؤولين عن اتخاذ القرارات في مجال الاتصال أن يبذلوا جهداً أكبر حين يحددون الطريقة التي تجعل إدارة وسائل الاتصال أكثر ديمقراطية مع الحفاظ على التقاليد والمميزات الوطنية . إن عليهم أن يشركوا الفئات التالية وهي : (أ) مالكو وسائل الاتصال ومديروها (ب) الصحفيون ورجال الاتصال المهنيون (ج) منتجو البرامج (د) التقنيون (هـ) ممثلو الجمهور . إن إدارة وسائل الإعلام الجماهيرية إدارة ديمقراطية في حاجة لساندة وتفهم كل العاملين فيها ، بحيث يقومون ، بفضل هذا الأسلوب الجديد ، بدور أكثر إيجابية في سياسة التحرير والإدارة .

وأهم التوصيات التي توصلت إليها اللجنة الدولية هي الخاصة بتعزيز التعاون الدولي . فإن التفاوت في مجال وسائل الاتصال إنما يبعثه التباين الاقتصادي أو الاختلاف في الأنماط السياسية والاقتصادية أو الأهمال أو سوء الاستغلال الحضاري . ولكن أيّا كانت الأسباب ، فإن هذا التفاوت غير جائز ، لأن مفهوم النظام العالمي الجديد للإعلام والاتصال يفترض تشجيع التعاون الدولي القائم على المساعدة الدولية وعلى التفاهم الدولي . لقد أصبح للأبعاد الدولية

للاتصال معنى جديد بحيث أمسى من الضروري تنمية التعاون على الصعيد العالمي . وعلى الجماعة الدولية أن تتخذ الإجراءات المناسبة لإحلال علاقات التبادل والتكامل القائمة على المساواة بين الشعوب واحترام كرامتها على الهيمنة والتبعية واللامساواة . إن مثل هذا التعاون يتطلب مزيدا من الالتزام الدولي إذا أُريد تصحيح الوضع الحالي . وهو يشكل حاجة بالنسبة للدول النامية والجماعة الدولية في آن واحد باعتبارها كلا متكاملتا .

وبعد هذا العرض الرافى لأوضاع الإعلام الدولي ، دعت اللجنة الدولية إلى التدرج في إجراء أي تغيير بحيث يتم تشييد صرح نظام عالمي جديد للإعلام والاتصال بسهولة ويسر . كما أوصت بأن يكون لتطوير الإعلام والاتصال نصيب من المعونة الدولية مساويا لنصيب القطاعات الأخرى ، كالصحة والزراعة والصناعة والعلوم والتربية الخ . باعتبار أن الإعلام هو أيضا أساسي لتقديم الفرد والجماعة والتنمية الشاملة . ويمكن الوصول إلى هذا الهدف باستخدام الاعتمادات المنصوص عليها في الاتفاقيات الثنائية بين الحكومات أو الاعتمادات التي تخصصها المنظمات الدولية والإقليمية . وينبغي لهذه المنظمات أن تدرج المزيد من الاعتمادات لتطوير الاتصال في بنيتها التحتية والفوقية . وينبغي الحرص على أن تكون المعونة المقدمة متناسبة مع احتياجات البلاد النامية . كما ينبغي دراسة إمكانية تقديم معونة مرتبطة ببرامج عامة لا بمشاريع خاصة . وعندما توافق الأمم المتحدة على الخطة الدولية للتنمية يجب أن تعتبر قطاع الاتصال جزءا لا يتجزأ من هذه الخطة لا منفصلا عنها .

وفي رأي اللجنة الدولية أن البلاد النامية هي المسؤولة أساسا عن إجراء التغييرات الضرورية للتغلب على تعجزها لغيرها في مجال الاتصال . وتبدأ هذه الإجراءات على المستوى الوطني ، ولكن ينبغي إكمالها باتفاقيات فعالة ثنائية وإقليمية ودولية .

وترتيبا على ذلك أوصت اللجنة الدولية بإدخال البعد الاتصالي في برامج واتفاقيات التعاون الاقتصادي القائمة بين البلاد النامية . كما ينبغي زيادة تطوير النشاط المشترك في مجال الاتصال والاهتمام بوجه خاص بالتعاون بين وكالات الأنباء الوطنية وتقوية اتحاد وكالات الأنباء وهيئات الراديو والتلفزيون في البلاد غير المتحاذة والعناية بالتبادل المنتظم لبرامج الراديو والتلفزيون والإعلام بوجه عام . وفيما يتعلق بالتعاون في مجال الإعلام التقني ، فإن إنشاء بنوك للمعلومات ومراكز لمعالجة الأنباء وأخرى للتوثيق على المستوى الإقليمي^(١١) ، يجب أن يكون لها الأولوية الأولى .

وينبغي بذل جهود خاصة للتأكد من أن الإعلام عن سائر البلاد النامية ، داخل الاقليم الذي تنتمي إليه وخارجه يكون موضع عناية أكبر ، ويعالج مطولا في أجهزة الإعلام . ويمكن إنشاء مشروعات خاصة لتأمين تدفق مستمر لمواد شيقة ومهمة ، يتم اختيارها وفق معايير تضع في اعتبارها حاجات البلاد النامية .

كما يجب تشجيع قيام علاقات وعقد اتفاقات بين المنظمات المهنية من ناحية ، وبين الباحثين في مجال الاتصال في مختلف بلاد العالم من ناحية أخرى . ومن الضروري إقامة شبكات من المؤسسات ومن الاختصاصيين العاملين في حقل

(١١) راجع دراسة جندوى إنشاء مركز عالمي للبحث والتوثيق الاعلامي التي أجراها الخبير العراقي الدكتور مصطفى المحرو حسب اليونسكو (١٩٨٠) .

الاتصال ، وذلك من أجل تبادل التجارب والخبرات وتنفيذ مشروعات مشتركة ذات منفعة متبادلة يكون مضمونها ذا أثر ملموس .

إن التعاون في تطوير الاتصالات هو موضع اهتمام العالم أجمع ، وهو بالتالي موضع اهتمام المنظمات الدولية حيث يمكن لكل الدول الأعضاء أن تناقش بكل حرية المشكلات الناتجة عن هذا التطوير وأن تقرر الإجراء الدولي الواجب اتخاذه . وعلى الحكومات أن تفرص بعناية بنيات الوكالات الدولية وبرامجها في مجال الاتصالات وأن تشير إلى التغييرات التي من شأنها إشباع الحاجات المتنامية .

وأوصت اللجنة الدولية الدول الأعضاء في اليونسكو بمضاعفة مساندتها لبرنامج المنظمة في هذا المجال . وراى من المناسب التفكير في إنشاء قطاع متميز للاتصال ، ليس فقط لمجرد التأكيد على أهمية هذا القطاع ، ولكن إبرازا للعلاقات المشتركة بينه وبين التربية والعلوم والثقافة . ومن أهم التوصيات التي تقدمت بها اللجنة الدولية دعوة الأمم المتحدة إلى أن تنشئ لنفسها نظاما للإعلام أكثر فاعلية ، يشتمل على تجهيزات إذاعية خاصة بها - وعند الاقتضاء - إلى أن تستخدم قمرًا صناعيًا للاتصال . إن مثل هذا النظام يمكن أن يتيح للأمم المتحدة أن تكون على صلة إعلامية وثيقة بشعوب العالم وأن تتيح رسائلها لكل شعوب العالم بصورة أكثر فاعلية .

وأشارت اللجنة بإنشاء مركز دولي لدراسة الإعلام والاتصال في إطار اليونسكو يتولى تطوير الأنظمة الوطنية للاتصال في البلاد النامية وتميز تدفق الإعلام الدولي المتوازن وتبادل . ويعمل على توفير الوسائل اللازمة لتحقيق هذا الغرض وإدارة الأموال التي توضع تحت تصرفه ، ويكفل التنسيق بين الأطراف المهتمة بتطوير الاتصال وبرامج التعاون المختلفة ، ويقوم بناتج النشاط الثنائي ومتعدد الأطراف في هذا المجال . ويدعو إلى موائد مستديرة ومحاضرات ودوروس لاعداد المخططين والباحثين والصحفيين ، لا سيما هؤلاء الذين يعدون أنفسهم للعمل في المجال الدولي . كما يتابع عمليات نقل تكنولوجيا الاتصال بين الدول المتقدمة والدول النامية ، ويسهر على تنفيذ هذه العمليات في افضل الظروف الممكنة .

وتختتم اللجنة الدولية توصياتها بدياجة تؤكد فيها أن تدعيم السلام والأمن والتعاون الدولي وتخفيف حدة التوتر الدولي هي في صالح جميع الشعوب . وترى أن أجهزة الاعلام تستطيع أن تسهم في تحقيق هذه الأهداف إسهاما ذا شأن . فقد طلبت الأمم المتحدة ، خلال دورتها حول نزع السلاح ، إلى أجهزة الاعلام : أن تبذل مزيدا من الجهد لتعبئة الرأي العام للمطالبة بوقف سباق التسلح والدعوة إلى نزع السلاح . ومن جهة أخرى فإن إعلان اليونسكو الذي يتناول المبادئ الأساسية الخاصة بإسهام أجهزة الاعلام في تدعيم السلام والتفاهم الدولي ، وفي تعزيز حقوق الإنسان ومكافحة العنصرية والفصل العنصري والتحريض على الحرب ، ينبغي أن يكون الأساس لسياسات جديدة للاتصال تهدف إلى تعزيز التفاهم الدولي . إن نظاما إعلاميا جديدا للاتصال والاتصال يتطلب تعاونا سليا بين الشعوب وينبغي أن يصبح أداة لهذا التعاون .

وترتبط على هذه الديباجة ، أوصت اللجنة الدولية بأن تكون السياسات الوطنية للاتصال متماشية مع المبادئ المعتمدة في مجال الاتصال الدولي ، وأن تعمل على تهيئة جو من التضامن المتبادل والتعايش السلمي بين الشعوب .

كما ينبغي أن تشجع الدول الأجهزة الإذاعية وسائر وسائل الاتصال الدولي التي تمتلكها على الاسهام ما أمكن في بناء السلام وفي التعاون الدولي وأن تمتنع عن إثارة الكراهية الوطنية أو العنصرية أو الدينية وعن التحريض على الفصل العنصري أو العداوة أو الحرب .

وقد رأت هذه اللجنة أن مشكلات الحرب ونزع السلاح وحقوق الإنسان والتنمية والقضايا المتصلة بإقامة نظام جديد للاتصال ، يجب أن تال الاهتمام الذي نستحقه . وأن على وسائل الإعلام الكبرى ، سواء كانت مطبوعة أم سمعية بصرية ، التعريف بالوثائق المهمة التي صدرت أو تصدر عن الأمم المتحدة واليونسكو والحركات العالمية للسلام وسائر المنظمات الدولية والوطنية التي تعني بالسلام ونزع السلاح . وعلى مدارس الصحافة أن تعني في برامجها بدراسة هذه المشكلات الدولية وبالأراء التي تثار حولها في إطار الأمم المتحدة .

كما حثت اللجنة على تشجيع كل أشكال التعاون بين أجهزة الاعلام والمهنيين وجميعهم لأنه يسهم في تعريف الشعوب والثقافات بعضها بعضا ترميها أفضل . وإن على الصحفي الذي يكلف بتقديم تقرير عن أحداث دولية أو عن ثورات وأزمات قد تقع في هذا البلد أو ذاك ، أن يتوخى الحذر الشديد وأن يمتص شعوره بالمسؤولية ، ذلك أن أجهزة الإعلام تكون في مثل هذه الظروف الصلة الوحيدة الباقية بين الجماعات المتقاتلة أو المتعادية . ومن هنا يتضح الدور الخاص الواجب على هذه الأجهزة أدائه بحصافة وموضوعية .



ويقرا المشككون هذا المشروع ويخلصون إلى أنه حل وسط مليء بالمتناقضات وسوء الفهم ، ويقولون إنه يفترض - بحرفية نصه - أن الاتحاد السوفيتي وحلفاءه الاشتراكيين قد قبلوا إلغاء « الحواجز الداخلية والخارجية التي تحول بين التدفق الحر للإعلام » واعترفوا بضرورة « تعدد مصادر الاعلام وقنواته » . كما يزعمون أنه يفترض أن الدول الغربية - من جهةها - قد قبلت « إلغاء الآثار السلبية لبعض الاحتكارات العامة أو الخاصة والتركيزات المفرطة » أو بمعنى آخر ، فرض رقابتها على وكالات الأنباء الدولية والاحتكارات الكبرى لوسائل الاعلام .

وقد لوحظ ، قبل أخذ الأصوات على هذا المشروع الذي اعتبره البعض « ثورة » ، أن بعض الوفود صرحوا بأن النقص لا يمكن قبوله بسهولة ، ولكنهم لا يريدون رفض قرار رضى عنه دول العالم الثالث ، لأنه يعترف « بعدم توازن تدفق الأخبار » و « بحق كل شعب بأن يعلم (يضم الياء وكسر اللام) الرأي العام العالمي بمصالحه » .

ويواصل التشكيك تعليقهم على هذا المشروع قائلين : إن الأعضاء المعتمدين من قبل حكوماتهم للمؤتمر العام لليونسكو لن يتكلموا شيئاً إذا اتخذوا قرارات يعرفون مقدماً أنهم لن يلتزموا بها . فالبلاذ الاشتراكية يمكنها التحجج بمسؤولية الصحفي أو « باحترام القانون العام » لحذف خبر . أما حكومات الدول الغربية ، فانها لا تستطيع التدخل في تنظيم صحافتها - الوطنية والمتعددة الجنسيات - دون أن تخالف المبدأ نفسه الذي دافعت عنه طوال مؤتمر بلغراد ، وهو حق الصحفيين وأجهزة الصحافة في أن يضعوا بأنفسهم قواعد المهنة التي ينتمون إليها .

وكان رد فعل صحيفة « نيويورك تايمز » معبراً ، فقد أنكرت هذه الصحيفة عل كل مفاوض أمريكي حق التحدث باسم « الصحافة الحرة في الولايات المتحدة » ، ففي استطاعة الدبلوماسيين أن يلتقوا وأن يتباحثوا وأن يوقعوا على قرارات ، ولكن ليس هناك ما يجبر الصحافة الغربية على الخضوع لقواعد مخالفة للقواعد الأخلاقية التي مستها لنفسها .

إن الاتفاق الوحيد والحقيقي الذي توصلوا إليه في بلغراد هو أن كل دولة يجب أن تحتفظ بسيادتها داخل حدودها في مجال الاعلام . وسواء تعلق الأمر بالولايات المتحدة أو الاتحاد السوفيتي أو الصين أو كوريا ، فقد انتهت الوفود إلى قبول المبدأ الذي يقول : إذا اقتضى الأمر تطبيق قواعد تعتبر مخالفة للمصلحة الوطنية ، أصبحت كل دولة حرة في تنظيم أمورها بنفسها .

وهكذا يصبح النظام العالمي الجديد للاعلام التزاماً مفروضاً على الآخرين وأمثال يداغب الطوباوين ، مثله في ذلك مثل أغلب ما صدر عن الأمم المتحدة والمنظمات المنبثقة عنها .

وكان اللجنة قد توقعات أن يوجه إلى تقريرها مثل هذه الانتقادات فسبقت أصحابها إلى القول « إن النظام الجديد الذي نسعى إليه ليس هدفاً فحسب ، إنما هو مرحلة على الطريق . إنه جهد يحتاج إلى نفس طويل من أجل إقامة علاقات أكثر حرية ومساواة وعدلاً في كل المجتمعات وبين كل الأمم والشعوب . إن هذا التقرير يؤكد ما نعتقد أننا نحفظناه . وهذا ما نبتغي إيلاغه بصفة خاصة » .

ومهما يكن من أمر ، فإن أعمال اللجنة الدولية قد أتاحت ، في مجموعها ، فرصة لتحديد مفهوم النظام العالمي الجديد للاعلام وإبراز مبادئه الأساسية وفتح آفاق عريضة للاتصال ولتطوير وسائل الاعلام في العالم . وإن ما وصلت إليه اللجنة لا يعتبر ، بأي حال ، عقداً نهائياً . إنه قابل للتعديل والتطوير في عالم يشهد مزيداً من التفاهم بين شعوبه .



تقديم :

في المقالة الموسومة « حول أصول الحكم » من كتابه « المقالات : الاخلاق والسياسة والادب » والمنشور لأول مرة عام ١٧٤١ ، كتب « دافيد هيوم » يقول « ليس ثمة شيء يبدو مثيرا للدهشة في نظر من يتابع مجريات الحياة الانسانية بعين فلسفية أكثر من السهولة التي يتم بها لحظة من بنى الانسان أن تحكم الاكثرية ، والخضوع الضمني الذي يسلم معه الأفراد أحاسيسهم وعواطفهم لأحاسيس وعواطف من يحكمهم . وحين نمنع النظر في هذا الأمر ، فلسوف نجد أنه ما دامت القوة في جانب المحكومين ، فلن يجد الحكام شيئا يسأندهم سوى الرأي . لهذا يتأسس الحكم على الرأي فحسب ، يستوى في ذلك أكثر الحكومات استبدادا وأكثرها حرية » .

هكذا رفع هيوم رأى الجماهير المحكومة الى مرتبة الركيزة التي يعتمد عليها أى نظام حكم . وتبعه في هذا الخصوص كثرة من الفلاسفة والعلماء الاجتماعيين الذين نظروا الى الرأى العام بوصفه المصدر الأعظم للسلطة والجزاء غير المنظم لما حينها تخطىء . وذهب هؤلاء الى أن الرأى العام بوصفه كذلك يقترن أساسا بالديمقراطيات الغربية التي تكفل للمواطن حرية التعبير عن الرأى والمناقشة وتكوين التجمعات السياسية . . . الخ . وكان طبيعى ، والحالة هذه ، أن تزدهر دراسات واستطلاعات الرأى العام في الدول الديمقراطية الغربية أكثر من غيرها .

الرأى العام في الدول النامية بينه ومشاكل تسياسه

كمال المنوف

مدرس ، كلية الاقتصاد والعلوم السياسية
جامعة القاهرة .

أما المجتمعات غير الغربية ، وأهمها بالذات المجتمعات الأخذة في النمو ، فلا تعرف مسوح الرأى العام الا لما نظرا لما يواجهه إجراء المسوح هناك من مشاكل يفرضها التخلف بشق صورته .

هذه القضية تحاول أن تعرض لها من خلال تسليط الضوء على نقطتين : السياق المجتمعي للرأى العام في الدول النامية ، ثم تلمس المصاعب التى تجابه قياساته هناك .



أولا : بيئة الرأى العام

إن الرأى العام ، باعتباره وجهات نظر كل أو أغلب أفراد المجتمع حيال القضايا والأحداث والفاعلين في النظام السياسى ، لا ينشأ ولا يدور في فراغ . فهو أحد أنماط سلوك البشر الذين يعيشون في ظل أوضاع اجتماعية واقتصادية وسياسية وثقافية معينة . وبالتالي يتأثر من حيث تشكيله وإمكانية قياسه بهذه المتغيرات المجتمعية . وعلى هذا ، يبدو ضروريا ونحن بسبيل الحديث عن الرأى العام وإمكانية قياسه في الدول النامية ، أن نعرض لأطار الرأى العام في هذه الدول من جوانبه المختلفة .

١ - الأطار الاقتصادي - الاجتماعي :

تعرف الدول النامية بمخط إنتاجيا متخلفا قوامه الزراعة أو الاستخراج ، وينطوى على علاقات اجتماعية متخلفة وفنون إنتاجية هابطة . هذا الوضع يقترن بحالة فقر عام تعاني منها جبهة البلدان النامية على نحو ما يمثل في انخفاض متوسط نصيب الفرد من الدخل القومى . فطبقا لتقديرات تعود الى منتصف السبعينيات يقل هذا المتوسط في حوالى نصف الدول النامية عن ٥٠٠ دولار سنويا ، ويتراوح بين ٥٠١ ، ١٠٠٠ دولار في ١٤ دولة ، بينما يزيد عن ١٠٠١ دولار في أربع دول فقط كلها مصدرة للبترول .^(١)

هذا الفقر صاحبه ابنية طبقية يكاد ينعدم فيها بينها الحراك الاجتماعى وتعكس تفاوتنا شديدا في توزيع الدخل بين الطبقات . اذ تبعا لأحد الدارسين ، يقع في سفح الهرم الاجتماعى أشباه البروليتاريا الحضرية كما سعى الأجدية والخدم من ناحية والمعلمين في الريف من ناحية اخرى (نسبة هؤلاء المعلمين ٢٠٪ من جملة سكان الريف المصرى) ، ٦٠٪ من جملة سكان الريف الايرانى) . يل هذه الشريحة الحرفيون وعمال الصناعة . ويأتى بعد هؤلاء الطبقة الوسطى وهى طبقة صغيرة العدد تضم أساسا موظفى الحكومة وضباط الجيش . وترتفع على قمة الهرم الارستقراطيون والبورجوازيون : كبار ملاك الأرض الزراعية ، وكبار رجال الأعمال وأصحاب المهن الحرة كالطب والمحاماة والمهندسة . هذه الشريحة العليا ، التى تشكل ما يربو على ٢٠٪ من السكان ، تستأثر بأكثر من نصف الدخل القومى هذا في الوقت الذى يتراوح فيه نصيب الشريحة الدنيا بين ٣٪ ، ٥٪^(٢) .

(١) اعتمادا تي تقدير ذلك على المصدر التالي .

Arthur. S. Banks, ed., Political :

Handbook of the World; 1976, New York, Meegraw Hill, 1976.

R. Gandarme, "Reflections on the Approaches to the Problems of Distribution in Underdeveloped Countries", (٢)

Jean Marchal and Bernard Pucros, eds., The Distribution of National Income, London, Macmillan, 1968, pp. 361-388.

حقاً إن كثيراً من الدول النامية شهدت وضع وتنفيذ خطط التنمية استهدفت زيادة الناتج القومي الإجمالي . غير أن ما حدث في كل الحالات تقريباً هو « نحو غير مصحوب بعدالة » . إذا اقترن النمو الاقتصادي بتزايد التفاوت في الدخول الشخصية والدخول الإقليمية ، وتعاقد البطالة وتدهور الخدمات الاجتماعية ^(٣) .

إزاء ذلك الفقر المطلق والنسبي ، ليس غريباً أن يستبد القلق بسكان العالم النامي حول أوضاعهم المعيشية . ذلك ما أظهره استفتاء للرأى أجراه معهد جالوب في أواخر عام ١٩٧٦ . إذ ذكر أكثر من ثلثي الباحثين في أمريكا اللاتينية وأفريقيا وآسيا أن ما يشغل بالهم حقاً طوال كل أو أغلب الوقت هو كيفية مواجهة نفقات أسرهم . وأشار حوالي النصف إلى أنهم لا يستطيعون تدبير المال اللازم لشراء الطعام لأسرهم . بل إن نسبة عالية ذكرت العجز أحياناً عن شراء الملابس أو دفع تكاليف العلاج ^(٤) .

كذلك ، يمكن القول أنه مع الفقر والاستفراق في مشاكل الحياة اليومية ، يمتنع أو يتضاءل الاهتمام بالقضايا العامة . ولعله بالإمكان أن نجد ما يساعد هذا في التحقيقات التي أجريتها مجلة الطليعة مع نماذج مختلفة من المواطنين المصريين ونشرتها تباعاً في أعدادها الصادرة خلال الأشهر الأولى من عام ١٩٧٦ . فال مواطن « عبد التواب » نموذج لقطاع عريض من المصريين الذين يتقاضون الحد الأدنى للأجور . ليس في شقته جهاز راديو أو تليفزيون ، وإن كان يسمع الراديو أو يشاهد التليفزيون لدى أحد الجيران في بعض الأحيان . وباستثناء صحيفة « الأخبار » التي يطلعها بانتظام ، فإنه لا يكاد يقرأ شيئاً آخر لكثرة همومه الناجمة عن قسوة أحواله المعيشية . إنه يشعر بالفقر ويفقد الاحساس بالقدرة على التأثير في الحياة العامة ، ويتصور عدم جدوى إبداء الرأى في مشاكل المجتمع ^(٥) . أما السيد « أم محمد » فتمثل شريحة واسعة من المصريين اللاتي يقعن في الريف والحضر . فكروا وأفعلنا وردود أفعالنا تنحصر في دائرة أولادها وبناتها وكيف تعولهم . ولكنها خارج هذه الدائرة ، تعيش في حالة اغتراب كامل لا تتعرض لأي أداة إعلامية ولا تعرف شيئاً عما يجري في المجتمع رغم مضي عشرين عاماً على وجودها بالقاهرة ^(٦) . ويعتبر الفلاح الصغير « فتحى حمادة » نموذجاً لقطاع ضخم من فلاحي مصر . يمكن في الحقل طول النهار . فقير إلى درجة أنه لا يستطيع اقتناء أى وسيلة إعلامية حتى الراديو الترانزستور . لا يكاد يتعرض لوسائل الإعلام . ليس له دور يذكر في الحياة العامة لقرنته . معارفه ومعلوماته عن المؤسسات والشئون العامة وأوضاع الوطن العربي والعالم المحيط بنا تنسم بالضخلة المؤسفة . لا يستشعر في نفسه القدرة على التعبير عن مصالح الفلاحين ويرى ذلك من اختصاص « الناس الكبار الجامدين » ^(٧) .

إن الفقر زامله نفسى الأمة على نحو مخيف . يقول محبوب الحق المخطط الاقتصادي الأول في باكستان خلال الفترة ١٩٧١/٥٨ « لم يكن هناك قط طيلة سنوات الثلاث عشرة كمخطط اقتصادى في باكستان ما يشيط همى قدر

(٣) محبوب الحق ، سائر الفقر : عبارات أمام العالم الثالث ، ترجمة أحمد فؤاد بايع الحية المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٧ ، ص ٥٠

(٤) George Gallup, "What Mankind Thinks about Itself, Reader's Dist, October, 1976, pp. 132-136.

(٥)

(٥) هموم المواطن عبد التواب ، مجلة الطليعة ، يناير ١٩٧٦ ، ص ١٨ - ٤٣ .

(٦) « هموم السيد أم محمد » ، الطليعة ، فبراير ١٩٧٦ ، ص ٤٥ - ٥٧ .

(٧) « هموم الفلاح فتحى حمادة » ، الطليعة ، أبريل ١٩٧٨ ، ص ٥٣ - ٦٤ .

الاغفال المتحجر لقطاع التعليم في التنفيذ الفعل لخطط التنمية . فكليا كان وضع الموارد المالية صعبا - وكثيرا ما كان الحال كذلك - كانت خصصات التعليم في مقدمة المخصصات التي بناها التخفيض . ولذلك فلا عجب أن - انحدرت باكستان من مستوى كان فيه ١٨٪ من أبنائها يعرفون القراءة والكتابة في عام ١٩٥٠ ، وهو مستوى بالنسبة إليه الكفاية إلى مستوى ١٥٪ عام ١٩٧٠^(٨) - ولا شك أن ارتفاع نسبة الأمية معناه أن أغلبية السكان تكون بمنأى عن تيار المعلومات المتدفق من خلال الرسالة الاعلامية المكتوبة على الأقل .

كذلك يتميز البناء الاجتماعي في الدول النامية بظاهرة التعددية pluralism فهذه المجتمعات توصف بأنها مجتمعات فسيفسائية Mosaic حيث يوجد في كل منها جماعات عديدة متباينة في أصولها اللغوية والدينية والعرقية . فمن حيث اللغة يلاحظ مثلا أن سكان غانا ينقسمون إلى خمس مجموعات لغوية كبرى ، ويتوزع سكان الهند بين ثمان لغات وأكثر من ثمانمائة لهجة ، ويتحدث النيجيريون أربع لغات . ويغل الدين أحد مصادر الانقسام الاجتماعي . فالبنجابيون ينقسمون إلى ست مجموعات دينية رئيسية . ويضم سكان سريلانكا ، أغلبية بوذية وأقلية هندوسية . ويتوزع الهنود بين سبع مجموعات دينية . وعلاوة على التنوع اللغوي والديني ، تسود الاختلافات العرقية والقبلية : نيجيريا وزائير ، الأقليات الهندية في شرق أفريقيا والأقليات الصينية في ملايزيا وسنغافورة^(٩) .

والمهم أن هذه التعددية الاجتماعية تمثل مشكلة عند التصدي لدراسة الرأي العام لما تفرضه من صعوبات خاصة بصياغة الأسئلة حيث يمكن أن يفهم السؤال بعمان مختلفة من جانب مفردات العينة . ففي مصر مثلا ، ورغم عدم وجود جماعات لغوية ، توجد عبارات وألفاظ قد تفهم في الصعيد ولا تفهم في الدلتا أو تستخدم في المناطق الساحلية ولا تعرف في مصر العليا^(١٠) .

وبالإضافة إلى ما سبق ، توصف المجتمعات النامية بأنها مجتمعات فلاحية حيث يعيش أغلب السكان في الريف (حوالي ٧٣٪ حسب إحصاءات تعود إلى منتصف السبعينيات) وهناك يسود نسق قرابي محوره القبيلة أو العائلة الممتدة . ويعرف هذا النسق بناء سلطة تعتمد على السن والجنس فالصغير يخضع حتى للكبير والانشي تخضع للذكر . وحتى اتخاذ القرار وإبداء الرأي يزاوله فقط رب العائلة أو شيخ القبيلة . ولا يجوز لأي فرد أن يعبر عن رأيه إزاء كثير من الموضوعات ، حتى التي تتعلق بحياته الشخصية ، طالما كان يشغل وضعا اجتماعيا معينا يحكمه سنه أو نوعه^(١١) .

٢ - الإطار السياسي :

في البلدان النامية ، يصعب القول بوجود مجال سياسي متميز عن مجالات العلاقات الاجتماعية والشخصية . فإ

(٨) محبوب الحق ، مرجع سابق ، ص ٤٨ - ٤٩ .

(٩) للوقوف على مزيد من التفاصيل بهذا الخصوص ، يمكن الرجوع إلى :

Rupert Emerson, From Empire to Nation; The Rise to Self-Assertion of Asian African Peoples, Boston, Bacon Press, 1960.

(١٠) د صفوت فرج ، الإحصاءات المجهية والوطنية في قياس الرأي العام ، المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية ، جهاز قياس الرأي العام ، ص ١٠ .

(١١) د. تاهد صالح ، الثلاثي في قياسات الرأي العام بالدول النامية ، المجلة الاجتماعية للقومية ، يناير ١٩٨٠ ، ص ١١ .

هو سياسى يرتبط الى حد كبير بما هو اجتماعى وشخصى . بمعنى أن نمط العلاقات السياسية يتحدد بنمط العلاقات الشخصية والاجتماعية والصراع السياسى يتركز أساسا حول مسائل النفوذ والمكانة ، بل والشخصيات ، وليس حول بدائل العمل السياسى . ومثل الصفوة الحاكمة مجموعة متجانسة من حيث الخلفية الاجتماعية . ولا يتوقف الانخراط فى صفوف الصفوة على اعتبارات الأداء أو الكفاءة بقدر ما يتوقف على اعتبارات غير سياسية : الانتهاء العائلى أو القبلى أو الدينى أو العرقى ... الخ^(١٢) .

هذا الاطار الطائفى للسياسة يجعل من الصعب على الأفكار أن تكتسب تأثيرا فى حد ذاتها . فرد الفعل لفكرة أو وجهة نظر ما لا يتأثر بمضمونها قدر تأثره بالوضع الاجتماعى لصاحبها أو المدافع عنها . وعليه يصعب وجود سوق مفتوح يضمن لاختلاف الأفكار والآراء السياسية أن تتنافس بحرية فى سبيل الحصول على التأييد اعتمادا على مضامينها الخاصة . ومن ناحية أخرى ، يقيد هذا الاطار الطائفى من حرية تغيير الولاءات السياسية . اذ يتطلب ذلك التغيير تحولا فى الروابط الاجتماعية والشخصية .

كما تتسم البلدان النامية بغياب أو ضعف التجمعات السياسية التى يمكن أن تسهم فى تزويد المواطنين بالمعارف السياسية وبالتالي فى تشكيل وبلورة الرأى العام . اذ أن كثيرا من الأحزاب السياسية مجرد تنظيمات من خلق فرد وبالتالي تتحدد طبيعتها بشخصيتها أكثر منها بأرائه السياسية ، بل ويمكن أن تنتهى بمجرد وفاته أو فقدانه الاهتمام بالسياسة لأى سبب كان . وهناك أحزاب ذات اطار ايديولوجى ، ولكنها ضعيفة تنظيميا . وتعانى معظم الأحزاب من نقص الكوادر السياسية والادارية ، وقصور الموارد المالية ، فضلا عن أنها تعمل فى اطار غير تنافسى حيث يسود نظام الحزب الواحد فى كثرة من الدول النامية بدعوى أن التعدد الحزبى يؤدى الى تفاقم الصراع وتهديد وحدة الدولة . ومع أن بعض الدول تأخذ بنظام تعدد الأحزاب ، إلا أن الواقع يأتى من الناحية العملية بسيطرة حزب واحد على باقى الأحزاب ، الأمر الذى يعنى بالطبع سيادة رأى واحد هو رأى السلطة .^(١٣)

وفيما يتعلق بجماعات المصالح مثل نقابات العمال واتحادات الفلاحين وغرف التجارة ، والاتحادات المهنية ، يلاحظ أن منها من لا وجود له فى بعض الأحيان ، وفى حالة تواجدها ، فانها غالبا ما تعانى من ضعف يترد الى أكثر من سبب . اولها التبعية للحكومة أو الحزب الحاكم بما يعنيه هذا من استخدامها أساسا فى تعبئة قطاع من السكان لتأييد أعمال الصفوة الحاكمة . وثانيها صغر حجم أعضائها فنقابات العمال مثلا لا تضم سوى قطاع صغير من العمال (١٧٪ فى الجزائر ، ٢٠ ، ٢٠٪ فى الهند ، ١٣٪ فى كولومبيا ، ١٪ فى ايران والعراق ونيجاراوجوا) . ثالثها نقص مواردها المالية حيث لا يستطيع أغلب الأعضاء سداد الاشتراكات بانتظام .^(١٤)

Lucian Pye, "The Non-Western Political Process", H. Eckstein and D. Apter, eds., Comparative Politics, New York, (١٩٦٢) Free Press of glencoe, 1963, p. 657.

David Roth and Frank Wilson, The Comparative Study of Politics, Boston, Houghton, Mifflin Comp., 1976, pp. 207-211. (١٣)

Joseph La Palombara, Politics Within Nations, N. J., Prentice Hall, Inc., Englewood Cliffs, 1974, pp. 358-359. (١٤)

كذلك تشهد الحياة السياسية في الدول النامية غياب أو ماضية المعارضة السياسية^(١٥). فالقليات السياسية لا تفتأ تزعم أنها تمثل مصالح كل أفراد الأمة وتعمل في سبيل تحقيقها، وأن المعارضة معوق للتقدم. وبعيدا عن هذا الزعم، يمكن القول أن الحكم في بعض الدول انامية يعطون الأولوية المطلقة للحفاظ على السلطة. ويتورطون في أشكال عديدة من الفساد السياسي. ويعكسون مستوى هابطا من الأداء السياسي. ولهذا، فانهم يصرون على اسكات المعارضة حتى يتجنبوا أى انتقاد على تصرفاتهم ويضمنوا بالتالى استمرار وجودهم. وبهذا الخصوص، فانهم غالبا ما يحظرون قيام أحزاب معارضة. وإذا حدث وسمحوا بذلك، فانهم عادة ما يعرقلون نشاطها. كما يفرضون رقابة على أجهزة الاعلام بما يجعلها مجرد أداة الاعلان ومباركة سياسات وقرارات الحكومة. وطبقا لنتائج مسح عن مدى حرية وسائل الاعلام في ١٠٧ دول نامية اجري عام ١٩٧٦، تبين أنه في ١٩ دولة، تمتلك الدولة كل أدوات الاعلام. وفي ٥ دول فقط، توجد أدوات اعلامية خاصة تتمتع بحرية شبه تامة. وفي ٤٠ دولة، تتمتع الأدوات الاعلامية الخاصة بقسط كبير من الحرية في استقصاء ونشر الاخبار، وإن كانت تخضع لرقابة حكومية تضمن عرض وجهة نظر الحكومة على الشعب. وفي ٤٣ دولة، تتمايز أدوات الاعلام الخاصة جنبا الى جنب مع أدوات الاعلام الحكومية. غير أن الرقابة على الأدوات الخاصة شديدة مع اختلاف أسلوبها - وطبيعتها من دولة الى أخرى. فمثلا، يتمتع على دور الصحف الهندية أن تقدم نسخة من كل صحيفة قبل النشر الى اداة الرقابة. بل لقد أصدر البرلمان الهندي عام ١٩٧٦، حينما اشتد ضغط المعارضة على حكومة انديرا غاندى، قانونا يحظر بشرى أى مادة تسيء الى شخص رئيس الجمهورية ونائبه ورئيس الوزراء ورئيس البرلمان وحكام الولايات. وفي بيرو والمكسيك، تمارس الحكومة رقابة صارمة على دور الطباعة تكفى لمنع أى انتقاد لسياساتها وفي تانزانيا، يملك رئيس الدولة بموجب قانون صدر عام ١٩٦٨ حق فرض الحظر على أية صحيفة مادام ذلك من أجل الصالح العام. وفي أوغنده، يعتقل ويعذب الصحفى الذى يتعرض بالنقد للحكومة.

ويتصل بما سبق الافتئات المستمر على الحريات، فحسب بيانات تعود الى منتصف السبعينيات، اتخذت ٧٠ حكومة في دول نامية اجراءات تراوحت بين حظر نشاط أحد الأحزاب وبين حلها جميعا. وفي ٦٩ دولة، تم اعتقال أفراد بتهمة الإفصاح عن معتقداتهم السياسية. وفي ٦٥ دولة، فرضت الرقابة على أدوات الاعلام. وفي ٤٦ دولة، تم حل أو وقف البرلمان. وفي ٢٩ دولة تعرض المسجونون السياسيون للتعذيب الى حد لفت انتباه منظمة العفو الدولية. وفي ٩ دول صدرت وتنفذت أحكام بالاعدام ضد المناوئين لنظام الحكم.

كذلك يشيع في البلدان النامية ظاهرة مركزية اتخاذ القرار والانفصال بين الحكم والمحكومين، الأمر الذى يؤدي الى نقصان المشاركة السياسية^(١٦). ان الحكم يعتبرون أنفسهم الأعمل بمصالح الرعايا وبكيفية تحقيقها وأغلب ظنهم أن الرعايا لا يعرفون مصالحهم جيدا. إنهم جهلاء وقصر وبالتالي يحتاجون لأوصياء. من ثم يبدو عدم واقعية

(١٥) لغاميل أكثر راجع: Edward Shills, *Opposition in the New States of Asia and Africa, Government and Opposition*, Vol. I, No. 2, 1966, PP. 175-204; Hans Daalder, *Government and Opposition in the New States, Government and Opposition*, Vol. I, No. 2, 1966, PP. 205-226, and Arthur Banks, *Op. Cit.*

Lucian Pye, *op. cit.*, p. 661.

(١٦)

بعض العبارات التي رددتها قيادات كثيرة في العالم النامي من قبيل « الشعب المعلم » و « الشعب القائد » و « الشعب الذي يلقن طلابه الثورة » .

إن القرارات تصنع مركزيا وتفرض على الجماهير دون اعتداد بمطالبها الحقيقية ودون مشاركتها . وإذا كانت هناك حالات دعت فيها الجماهير الى المشاركة ، فقد كان ذلك بقصد التأييد والمساندة لا غير . لا عجب اذا في وصف الديمقراطية التي عرفتها بعض الدول النامية بأنها « ديمقراطية تأييد » وليست « ديمقراطية مشاركة » .

هذا الوضع يزامله غياب ما يسمى « التغذية المرتدة Feedback » حيث لا تعبأ القيادات السياسية عموما بمعرفة ردود أفعال الجماهير لما تتخذه من سياسات وقرارات .

وفضلا عن كل ما سلف ، تعاني الدول النامية من غياب الاتفاق العام حول غايات المجتمع وأفضل الأساليب لبلوغها . فالأهداف والأساليب ليست واحدة بالنسبة للحكام والمحكومين ، بل وقد تختلف في الدولة الواحدة بتغير الحكام .

٣ - الأطار الثقافي :

على الرغم من وجود قشرة خفيفة من الثقافة الحديثة ، ما زالت عناصر الثقافة السياسية تقليدية لدى السواد الأعظم من أبناء الدول النامية (١٧) .

فالإنسان العادي في هذه الدول يفتقر الى الاستعداد لتكوين آراء حول المشاكل والأحداث البعيدة عن حياته اليومية المباشرة . وفي كثير من الأحيان ، نراه يجيب « لا أعرف » اذا سئل عن هذه الأمور .

كما ينقصه الاحساس بالقدرة على مجابهة وتغيير الأطار المجتمعي الذي يعيش فيه . ان موقفه تجاه المحيط ، خصوصا في جانبه السياسي ، يعكس نوعا من القبول والتقليد والاستسلام ، والطاعة وليس المجابهة والتحدى . إنه يعتقد ، كما هو الحال في بعض الدول العربية ، أن الله خلق الدولة لحكمة يعلمها سبحانه وما عليه الا ان يطيعها ويحاربها مهما كانت . هذا الشعور بالعجز إزاء المحيط يدفع المرء الى الاعتماد على غيره في تقرير ما يعن له من أمور : كبير العائلة ، شيخ القبيلة ، وجهاء القرية . . . الخ .

(١٧) حول مكونات الثقافة السياسية في الدول العربية راجع مثلاً

د. سليم بركات ، « النظام السياسي بين القيم الحضارية التقليدية والحديثة » ، النظام السياسي الأفضل للأمم في العالم الثالث . آراء نحية من رجال الفكر . بيروت . مكتبة الفكر الجامعي ، ١٩٧١ ، ص ٨٠-٩٢ . د. كمال القرني ، الديمقراطية والثقافة السياسية للشعوب العربية دراسة للحالة المصرية . الباحث ، أكتوبر ١٩٧٩ ، ص ٢١-٢٣ .

وحول الثقافة السياسية في الدول النامية يراجع عام « النظر »

A. Inkeles and D. Smith, *Becoming Modern, Individual Change in Six Developing Countries*, Cambridge Mass, Harvard, 1974; Philip Hauser, "Some Cultural and Personal Characteristics of the less Developed Countries", J. Finkle and R. Gable, Eds., *Political Development and Social Change*, N. Y., John Wiley and Sons, 1968, PP. 58-60.

كما ينقص المواطن ما يسميه علماء السياسة الشعور بالاعتقاد السياسي political efficacy ، أى الاحساس بالقدرة على إبداء الرأى فى مختلف المسائل المحلية والقومية مع الاقتناع بأن هذا الرأى قيمة ويمكن أن ينتصه اليه . ولقد اتضح من بعض الدراسات الميدانية التى أجريت فى مدن مصر وقراها أن أغلب المبحوثين لا يجرأون على إبداء وجهات نظرهم فيما تفعله الحكومة دون خشية أو جزع .

إن جماهير العالم النامى تتميز بقدر كبير من اللامبالاة السياسية يعكس على الأرجح ، غياب الاقتناع بضرورة وجدوى المشاركة . وإذا كانت تشارك فى بعض الأحيان فأغلب الظن أنها تغفل ذلك خشية الوقوع تحت طائلة القانون ، أو بدافع الضغوط الاجتماعية أو تشييعا للغير .

والى ما تقدم ، يلاحظ غياب « التسامح الفكرى المتبادل » إذ لا يكاد يوجد اقتناع عام بأن اختلاف الآراء والاجتهادات إزاء أية مشكلة تواجه المجتمع ظاهرة صحية . إن الشخص عادة ما يتعصب لرايه ويعتبره جزءاً لا يتجزأ منه ، وينظر الى الرأى المضاد على أنه هجوم شخصى عليه . وهذا ما يجعل الصراع الفكرى يمتأى عن الموضوعية وأقرب الى المهاترات الشخصية . يتصل بذلك ضعف الميل عموماً الى الحوار الذى ينظر اليه على أنه مضية للوقت واستنفاد للطاقة طالما لن يثمر شيئاً ذا بال .

هذا النسق الثنائى هو فى الحقيقة نتاج للفقر الاجتماعى والسياسى الذى عانى ولا يزال يعاني منه انسان العالم النامى . وهو بدوره يعمل على تكريس أوضاع اجتماعية وسياسية متخلفة .



ثانياً : مشاكل قياس الرأى العام

لقياس الرأى العام ينبغى أن يوجد رأى عام متبلور إزاء موضوعات القياس ومراكز متخصصة لاجراء الاستطلاعات تتوفر لها الامكانيات المادية والباحثين الكفاء ثم استعداد وتعاون من جانب المبحوثين ، وأخيراً جسد من البحوث الاجتماعية والاحصاءات عن المجتمع موضع الاهتمام .

والواقع أن قياسات الرأى العام فى الدول النامية عملية تكتنفها صعوبات شتى تتعلق بطبيعة الرأى العام نفسه فى تلك البلدان ، ووضع مراكز دراسة الرأى العام هناك ، وخصائص المبحوثين ، ووضع البحوث الاجتماعية والاحصاءات الرسمية . ونعتمد فيما يلى الى مناقشة هذه الصعوبات .

١ - طبيعة الرأى العام :

فى ضوء ما ذكرناه عن واقع المجتمعات النامية اقتصادياً واجتماعياً وسياسياً وثقافياً ، يعكس الرأى العام فى تلك الدول جملة من الخصائص تمقد قياسه .

فالرأي العام يفترق إلى الضجيج وتعتريه السطحية ، الأمر الذي يسهل انتقاله من التقيض إلى التقيض .^(١٨) هذه السمة هي نتاج طبيعي لأوضاع الفقر والامية وشيوع قيم العاطفية والقومية التي تأتي المنهجية العلمية القائمة على الربط بين الأسباب والنتائج . كما أنها أيضاً نتيجة لاختفاء المناخ الديمقراطي ، ومن ثم غياب منطق الحوار ، وغياب أو عدم فاعلية القنوات التي تثير اهتمام الناس بمشكلة ما وتنذيرهم بالمعلومات التي تساعد على النقاش والجدل حولها . لقد سبق أن نوهنا إلى هامشية دور الأحزاب وجماعات المصالح في صياغة الرأي والتعبير عنه ، وكذلك إلى الرقابة الرسمية التي تخضع لها أدوات الإعلام بشكل يحد من دورها في إثراء النقاش حول قضايا المجتمع . وبقي أن نذكر في هذا المقام أن الصحف كأداة إعلامية محدودة التوزيع والتأثير بسبب الأمية وعدم وجود نظام سريع للنقل ، وتواضع الإمكانيات المالية اللازمة لإنشاء دور الصحف وتزويدها بالتجهيزات . كما أن وسائل الاعلام المسموعة عموماً والمرئية خصوصاً ليست في متناول قطاعات لا يستهان بها من السكان لا سيما في المناطق الريفية . كما أن قصور الإمكانيات المادية ونقص الأشخاص المهرة من مهندسين وثنين ومعدي ومتقذي البرامج يحدان من إمكانية تطوير الإرسال الإذاعي والتلفزيوني لتغطية المناطق الريفية والناحية . فالخطط الخمسية الهندية المتعاقبة مثلاً لم تخصص للانفاق على الإرسال الإذاعي والتلفزيوني سوى ٢٪ من جملة الاستثمارات وهو ما يمثل حوالي ١/٦ منخصصات التعليم^(١٩) . وحتى حينما تصل الرسالة الاعلامية إلى القرية من خلال قراء الصحف أو المستمعين إلى الراديو أو مشاهدي التلفزيون ، فلا توجد تقريباً تنفيذية عكسية . فالراديو يتحدث إلى القرويين ولا يتحدث معهم . كذلك فإن وسائل الاعلام تهتم أساساً بمتنصر الترفيه وتتجاهل إلى حد كبير عرض القضايا التي تهم الرأي العام ، بل وغالباً ما تقتصر على عرض وجهة نظر معينة ويتعمد عن أسلوب الحوار كلما أمكن^(٢٠) . ومن ناحية أخرى ، يتصف الرأي العام في الدول النامية بالتعصب الذي يعني عدم احترام الرأي الآخر المخالف^(٢١) . وليس هذا بالأمر الغريب إذا تذكرنا ما قلناه سلفاً عن اختفاء قيم التسامح الفكري نتيجة القهر السياسي وعدم التعود على المناقشة منذ الصغر داخل المؤسسات الأولية كالمدرسة والمدرسة .

وقضاً عن هذا وذاك ، تظهر في الدول النامية حالة « اللارأي » بشكل ملفت للنظر . إذ تنسج هنالك شريحة من لا رأي لهم سواء كانوا هم كذلك بالفعل ، أم غير راغبين في إبداء آرائهم أم لم تيسر لهم سبل المعرفة بالموضوع قيد الاستطلاع ، أم غير مباليين به أصلاً . هذه الظاهرة يوجد لها ويكرسها نقص المعلومات ، والشعور بالانحراب ولغط التنشئة الأبوي الذي يؤكد قيم الانصياع والتبعية وليس الاستقلال والحرية والاعتماد على النفس^(٢٢) .

(١٨) د. حامد ربيع ، مقدمة في العلوم السلوكية ، القاهرة ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٧٢ ، ص ٢٥٣ .

M. Irish and E. Frank, Introduction to Comparative Politics, N. J. Prentice-Hall, Inc., Englewood Cliffs, 1978, P. (١٩) 173.

(٢٠) تلك ما حصلت إليه إحدى الدراسات الكلية عن الحالة المصرية ، انظر : د. عبد الحليم عبد الحليم ، الاعلام وتزيف الوعي ، القاهرة ، دار الثقافة الجديدة ،

١٩٧٩ ، ص ٢٨ - ٩٨ .

(٢١) د. حامد ربيع ، مرجع سابق ، ص ٢٥٥ .

(٢٢) د. تاجد صالح ، مرجع سابق ، ص ٩ .

٢ - أجهزة قياس الرأي العام :

الدول النامية دول حديثة الاستقلال لم تفرغ بعد من حل مشاكل بناء الأمة والدولة . قياداتها السياسية بوجه عام في واد ، والجماهير في واد آخر . لاغرو إذن أن تخلو غالبية هذه الدول من أجهزة متخصصة لقياس الرأي العام بغية ترشيد السياسات والقرارات (٢٣) .

حقاً إن بعض هذه الدول راحت في السنوات الأخيرة تنشيء أجهزة لمسوح الرأي العام . إلا أن تلك الأجهزة لا تتمتع بأي استقلال عن الحكومة وإنما تتبع الجهاز الإعلامي الرسمي أو أي جهاز رسمي آخر . فعل سبيل المثال ، يعود إنشاء جهاز قياس الرأي العام في مصر الى عام ١٩٧٦ . وهو جزء من جهاز رسمي هو المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية . ويتبع مباشرة رئيس مجلس إدارته (٢٤) .

وليس يخفى أن تبعية أجهزة استطلاع الرأي العام ، على قلتها ، للحكومات إنما يجد من حرية حركتها في اختيار الموضوعات التي تستحق إجراء قياسات الرأي بخصوصها . فتراها تتناول أساساً الموضوعات الاجتماعية أو الاقتصادية ، وتتجنب قدر الامكان الموضوعات الحساسة من الناحية السياسية . وحتى إذا تصدت لموضوع من طبيعة سياسية فعادة ما يكون الهدف إعلان التأييد والمساندة لأفعال القادة على المستويين الداخلي والخارجي . وإذا حدث وتبين من معالجة استجابات المبحوثين وجود معارضة معقولة نسبياً لسلوك القيادة ، فإن نتائج الاستطلاع لا تجد سبيلها إلى الاعلان .

ومن جهة أخرى ، تعاني أجهزة قياس الرأي العام ، رغم ضآلة عددها ، نقصاً شديداً في خبراء الرأي العام والباحثين الميدانيين الأكفاء ، الأمر الذي يرتب قصوراً منهجياً في مسح الرأي العام سواء بالنسبة لاختيار موضوع الاستطلاع أو اختيار العينة أو تصميم صحيفة الاستطلاع ، وجمع البيانات من مفردات العينة وعرض وتفسير النتائج وكتابة التقرير النهائي . وللتدليل على هذا ، يكفي مثلاً استعراض جملة المثالب التي تعترض تقارير الرأي العام التي تعدها مراكز الإعلام الداخلي في مصر . فهذه التقارير تمد في المكاتب ولا تمثل رأي الجماهير الحقيقي بخصوص القضية أو الحادثة المثارة . ثم هي تمد بعد مضي فترة من الزمن على إثارة القضية بحيث يفقد التقرير قيمته . ويغلب عليها التطويل والأسلوب القصصي . وتستخدم لغة أقرب للعامة . وهي أخيراً تتسم بضعف المضمون (٢٥) .

(٢٣) د. ناهد صالح ، مرجع سابق ، ص ٧ .

(٢٤) جهاز قياس الرأي العام في ثلاث سنوات (١٩٧٦ - ١٩٧٩) المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية ، القاهرة ، ١٩٧٩ ، ص ٤ - ٥ .

(٢٥) سوسن مشرفة ، المطبات التي تواجه عملية جمع الرأي العام ، دورة إحصائي الرأي العام ، مركز النيل للإعلام ، القاهرة ، ١/١٠ - ٦/١٠ - ١٩٨١ .

٣ - المبحوثون :

يفترض قياس الرأي العام علائقية إبداء المبحوث لرأيه مع قيام الباحث بتسجيل هذا الرأي لا سيما في الدول النامية حيث تنتشر الأمية وحيث يستحيل استطلاع الرأي بالتلفون وذلك بطبيعة الحال ، يزيد من حساسية المفحوص مما قد يجعله على مجازاة السائل أو رفض الإجابة كلية .

إن المبحوث يرى في باحث الرأي العام شخصاً غريباً ، وربما رجل الحكومة . وإذا أخذنا بعين الاعتبار مشاعر الشك المتبادل التي تخيم على العلاقات الاجتماعية والسياسية في الدول النامية ، لا تعجب إذا ألفينا المبحوث يتحوط في الإجابة بقوله لا أعرف أو الادلاء برأي يتصور أنه يرضى الباحث بغض النظر عن اتساقه أو عدم اتساقه مع ما يعتقد ويؤمن به فعلاً .

ولما كان الفرد في الدول النامية ، خصوصاً في الريف قد نشيء على طاعة الكبار بصفتهم أهل الحكمة والرأي السديد ، ولم ينشأ على حرية إبداء الرأي ، فإنه قد لا يرى في نفسه الصلاحية أو لا يرى أن من حقه التعبير عن وجهة نظره إزاء العديد من القضايا . ففي دراسة حديثة أجراها كاتب المقال على عينة من الفلاحين في إحدى القرى المصرية يهدف التعرف على مكونات ثقافتهم السياسية ، كانت إجابة البعض ، وكلهم من الشباب ، على سؤال نصه « لو فرض وأن فيه مسئول جه البلد أنت حاضره فيه علشان مناقشة مشكلة هم البلد كلها ، وكان لك رأي ياترى حتقوله ولا حتفضل قاعد ساكت » كما يلي « ما يصحش الواحد يتكلم والناس الكبار قاعدين لأنهم هم اللي يقدروا يشوفوا المشكلة تحل إزاي » (٣٦) .

ونظراً لأن القيادة السياسية لا تأبه كثيراً بأراء الناس وتضع السياسات وتتخذ القرارات في غيبة من هذه الأراء فإنه تنشأ لدى الفرد قناعة مؤداها أن رأيه لا قيمة له فيعزف عن الإدلاء به . ففي الدراسة المشار إليها آنفاً ، أجاب البعض على السؤال المذكور بالآتي : « أنا راجل فلاح . وكلامي مش هيكون له نتيجة لأن الحكومة بتعمل اللي هي عايزاه في الآخر . وعلشان كده الواحد أحسن له يقعد ساكت » (٣٧) .

وبالإضافة إلى ما تقدم ، يميل الفرد في بعض البلدان النامية ، خصوصاً جنوب شرق آسيا ، إلى المجاملة (٣٨) . رشي مصر ، يسود نمط الشخصية الفلهوية على حد تصور عدد من الباحثين . وأحد المظاهر السلوكية للفلهوي يتمثل في

(٣٦) . د. كمال المتولي ، الثقافة السياسية المتميزة في القرية المصرية ، الأهرام ، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية ، القاهرة ، ١٩٧٩ ، ص ٨١ .

(٣٧) . د. كمال المتولي ، نفس المرجع ، نفس الصفحة .

(٣٨) . د. ناهد صالح ، مرجع سابق ، ص ١٢ .

القدرة على التكيف السريع لمختلف المواقف وإدراك ما تتطلبه من استجابات مرغوبة والتصرف وفقاً لمتطلباتها . وأحد جوانب هذا التكيف السريع هو المسيرة التي يواد منها إطفاء المعتقدات والمشاعر الحقيقية ^(٢٩) . والمهم أن الباحث المجامل أو الفهلوي يعد عبة في سبيل استطلاعات الرأي العام . وبيان ذلك أن نتائج الاستطلاع قد لا تعكس الرأي العام الحقيقي ، بل مجرد الآراء التي يظن المبحوثون أنها ترضي الباحث . كما قد تعكس ارتفاعاً في نسبة من لا رأى لهم إذ يحجم المبحوث عن إبداء رأيه إذا استشعر أنه قد لا يوافق هوى الباحث .

٤ - البحوث الاجتماعية والإحصاءات الرسمية :

لدراسة الرأي العام في مجتمع معين ، ينبغي أن يوجد مسبقاً تصور كامل ودقيق قدر الإمكان عن حالة هذا المجتمع إقتصادياً واجتماعياً وسياسياً . هذا التصور يساعد باحث الرأي العام في تصميم العينة ، وصياغة الأسئلة ، وإجراء المقابلة ، وتفسير النتائج . وتسهم في بنائه إلى حد كبير كل من الدراسات الاجتماعية التطبيقية الجادة والإحصاءات المفصلة والدقيقة .

والمؤسف أنه في الدول النامية بوجه عام ، لا يوجد ذلك التصور ، وإن وجد فبشكل جزئي ، ومعيب . هذا الوضع هو في الواقع نتاج لحالة البحث الاجتماعي والبيانات الرسمية ^(٣٠) .

فالدول النامية ليست لها تقاليد واضحة للبحث العلمي . وينقصها الإيمان بأهميته وتفتقر إلى سياسة عامة بخصوصه حتى وإن زعمت قياداتها خلاف ذلك . حقاً إن من بينها من شيد مراكز للبحث . غير أن هذه الأخيرة تخضع لإشراف وتوجيه الحكومة وتعاني من نقص التمويل وندرة الباحثين الملتزمين ، وتغيب الأداة البيروقراطية . كل هذا يعكس نفسه في قلة الدراسات الاجتماعية الجادة . وطول فترة إجرائها بل وتوقف بعضها أحياناً .

ورغم التسليم بأهمية الدراسات التي أجراها باحثون أجانب عن هذه الدول النامية ، إلا أنها محدودة من حيث العدد والموضوعات التي تصدت لها . كما أنها تعكس انحيازاً لقيم ومفاهيم وأطر فكرية مرتبطة بالتقاليد الغربية علاوة على رؤى باحث بعيد في الغالب عن المجتمع موضوع الدراسة مادياً وثقافياً ، الأمر الذي يفرض التحوط في الاعتماد على ما تقدمه تلك الدراسات من تحليل وما تخلص إليه من استنتاجات ^(٣١) .

(٢٩) د. حامد حسني ، في بناء البشر ، القاهرة ، دار المعرفة ، ١٩٦٨ ، ص ٨٩ - ٩٠ .

(٣٠) د. حامد ربيع ، مرجع سابق ، ص ٢٥٧ - ٢٥٩ .

(٣١) انظر مثلاً مرفداً للدراسات الأمريكية للسياسة الإيرانية في :

James Bill, The American Analysis of Iranian Politics, Iranian Studies, Vol X, No. 3, summer 1977. PP., 64-195.

وفي بعض الأحيان ، يتم إجراء بحوث بتمويل أجنبي ويتعاون بين باحثين أجانب وباحثين من أبناء البلد محل الدراسة . إلا أنه يلاحظ بصفة عامة أن الكلمة الأولى والأخيرة في تحديد موضوعاتها عادة ما تكون للنمصر الأجنبي بوصفه مصدر التمويل ، كذلك تدفع إليها اعتبارات سياسية من قبيل محاولة خطب ود المثقفين أو جمع بيانات معينة توضع تحت تصرف صانعي السياسة الخارجية في الدول المانحة . تنفى بعد هذا الدراسات التي قام بها باحثون من أبناء المجتمع المدروس بصفة فردية وتمويل ذاتي . فكل هذه الدراسات تقريباً أعدت لنيل درجات علمية مع ما قد يلابس ذلك من احتمال التضحية بالجودة لحساب الانجاز السريع خاصة إذا تذكرنا ما يعنيه الحصول على الدرجة من زيادة في المرتب ، وما لهذا من أهمية بالنظر إلى ظروف المعاناة الاقتصادية . كذلك فإن معظمها من طبيعة ميكروكترية حيث ينصب مجالها الجغرافي والبشري على مجتمع محلي واحد (قريه ، حي ، قسم) . فضلاً عن كل هذا ، يغلب عليها « النمطية » سواء من حيث الموضوع أم المنهج .^(٣٢) . وليس الوضع بالنسبة للإحصاءات الرسمية أفضل حالاً . ففي بعض الدول النامية لا تكاد توجد إحصاءات أصلاً . وفي دول أخرى ، قد توجد إحصاءات قديمة نسبياً وغير مفصلة مما يجد من إمكانية الاستفادة منها . وفي حالات عديدة ، قد تتضارب البيانات مما يشكك في مصداقيتها ويجعل الاعتماد عليها أمراً محفوفاً بالمخاطر . ففي مصر مثلاً ، قدرت النتائج الأولية لتعداد ١٩٧٦ نسبة الأمية في المجتمع ككل بـ ٥٦٫٥% ، هذا في الوقت التي قدرتها إحصاءات نشرتها اليونسكو عام ١٩٧٨ بـ ٨٨٫٩% (٣٣) . كما أظهرت نتائج التعداد المذكور عدد المسيحيين بـ ٣١٥٥٦٠ نسمة ، هذا بينما يقدر البابا شنودة الثالث عدد الأقباط بحوالي ٧ مليون نسمة . ويشكك في صحة الرقم الأول على اعتبار أن تعداد ١٩٦٦ بالعينة قدر عددهم بحوالي ٤ مليون . وبالتالي لا يعقل أن يكون هذا العدد قد انخفض بشدة كما يفيد تعداد ١٩٧٦ خاصة وأنه لا توجد أحداث تبرره أو تفسره (٣٤) .

ملاحظات ختامية :

١ - من العرض السابق ، وضح أنه بقدر تقدم المجتمع وديمقراطية نظامه السياسي بقدر إمكانية قياس الرأي العام فيه . فهذا القياس ليس مجرد مسألة فنية تتحقق بمجرد تواجد جهاز متخصص . ولكنها أيضاً مسألة سياسية وحضارية . وعليه فإن قضية استطلاع الرأي العام في الدول النامية بأبعادها المختلفة يحسن أن تناقش في إطار واقع هذه الدول . وكما رأينا ، يجد تخلف هذا الواقع من إمكانية إجراء مسح الرأي العام بصورة منهجية وموضوعية .

٢ - ولا يعني هذا أننا نرى إرجاء القيام بهذه الاستطلاعات حتى تتبني إمكانية ذلك تماماً ببلوغ الدول النامية مستوى عالياً من التطور الاقتصادي والاجتماعي والسياسي . إننا على العكس ، نعتقد أن الاستطلاعات ، حتى ولو

(٣٢) انظر : د . علي الدين هلال ، د . كمال الشوقي ، تقرير مدني من الدراسات الاجتماعية حول القرية المصرية ، (غير منشور) ، مشروع بحث الاحيايات الانصالية من أجل التنمية الريفية في مصر ، برنامج التخطيط التكنولوجي ، مركز التنمية ، جامعة القاهرة ، ١٩٧٨ .

(٣٣) جريدة الجمهورية ، ١٥/٧/١٩٧٨ ، ص ٢ .

Makram Samsan and Soheir Sukkary, "The Copts and Muslims of Egypt, Soud asseph and Barbara Phillipsbury, eds., (٣٣) Muslim-Christian Conflicts : Economic, Political and Social Origins, Colorado, Westview Press, 1978, P. 130.

كانت قليلة وحتى ولو كانت موضوعاتها من طبيعة غير سياسية ، يمكن أن تغيب بدرجة ما في ترشيد الجهود الانمائية إذ ما دامت المشاركة الشعبية إحدى مرتكزات التنمية ، تبدو أهمية نتائج الاستطلاع باعتبارها قياساً لرأي الجماهير .

٣ - إزاء المصاعب التي تواجه دراسة الرأي العام في الدول النامية باتباع التكنيكات التي تستخدم في دراسته في الدول الغربية ، ألا يمكن التوصل بطرق أخرى للوقوف على اتجاهات الرأي العام الحقيقي في الدول النامية ؟ سؤال اكتفي بطرحه للمناقشة . ولا أدعي في نفسي القدرة على تقديم إجابة مرضية عليه . كل ما أستطيع مجرد إثارة المزيد من علامات الاستفهام : ما مدى إمكانية الاستدلال بالمظاهرات والاضرابات وغيرها من أعمال العنف الجماهيري على الرأي العام في الدول النامية ؟ هل يمكن من خلال دراسة الشكاوي والالتماسات التي يرفعها المواطنون إلى المسؤولين معرفة اتجاهاتهم حيال المخرجات الحكومية ؟ ما مدى الاعتداد بحالات مخالفة قانون ونظام معين (الدورة الزراعية في مصر مثلاً) في الكشف عن رأي الجمهور في هذا القانون أو النظام ؟ هل حالات التهرب الضريبي يمكن الخروج منها بشيء عن اتجاه الجماهير إزاء النظام السياسي ؟ .



عندما نتكلم عن « المسرح السياسي » فإن أذهانتنا غالباً ما تنجس إلى ذلك النوع من المسرح الذي ازدهر في ألمانيا في أعقاب الحرب العالمية الأولى ، أو في أمريكا إبان أزمة ١٩٢٩ الاقتصادية ، وجاء عملاً بوعي سياسي ، متوسلاً بأساليب فنية جديدة سواء في أسلوب صياغة هذه الرسالة أدبياً ، أو في أسلوب عرضها على المسرح . غير أن هذا لا يعني أن المسرح لم يكن ، منذ بدايته ، يحمل رسالة سياسية في طيات رسائله الفكرية . بل إننا نخطئ إذا توهمنا أن الأدب في كل صوره ، وعلى اختلاف مذاهبه الفنية ، لم يكن يعبر ، في المقام الأول ، عن رؤيا سياسية .

لهذا ، ليس من الغريب أن نجد الدراما الاغريقية تخضع بسهولة للتحليلات التاريخية والسياسية . فنجد ناقدنا فلذا مثل جورج لوكاتش - ولعله القمة النقدية الشائعة التي أنتجها القرن العشرون على الإطلاق - يتحدث عن ضرورة ربط ظهور التراجيديات الاغريقية بالتحول التاريخي العالمي في تاريخ الجنس البشري ، ويقول :

المسرح السياسي

من المؤكد أنه ليس من باب الصدفة أن تنفق فترات التراجيديات العظيمة مع التنويرات التاريخية العالمية العظيمة في المجتمع الانساني . وقد رأى هيجل بالفعل في الصراع الذي ينشب في أنتيجون سوفوكليس ، رغم غموض رؤيته ، ذلك الصدام الذي نشأ بين تلك القوى الاجتماعية التي أدت إلى تحطيم الأشكال البدائية للمجتمع ، وإلى ظهور المدينة الاغريقية . وعلى الرغم من أن تحليل باتشوفين لاورستيا اسبيلوس يدفع بالاتجاهات الغامضة إلى مدى أبعد مما يفعل هيجل ، إلا أنه يضع صياغة لهذا

أمدع العيوطي

الصراع الاجتماعي بشكل أكثر تحديدا ، أي بصفته صراعا تراجيديا بين النظام الامومي الذي كان يحتضر والنظام الأبوي الجديد . . . (١)

على هذا الأساس يمكننا أن نتبين أن الدراما الاغريقية ، حتى في جانبها الغيبي ، انعكاس الصراع بين طبقة الأشراف وطبقة العامة . فحين اضطرت طبقة الأشراف في أثينا إلى تعبئة الشعب ضد الفرس ، لجأت إلى إصدار تعديلات ديمقراطية في الدستور تمنح الشعب حق الانتخاب ، بل حق شغل المناصب العليا . وبعد تحقيق النصر على الفرس تشكل في أثينا حزبان : الحزب الارستقراطي والحزب الديموقراطي . ومن ثم جاءت مسرحيات اسخيلوس ، من موقعه الارستقراطي ، تعبيرا عن موقف يناادي بالعدالة الاجتماعية والديموقراطية . يقول د . ابراهيم سكر في تحليله لمسرحية المستجيريات :

لقد أثار اسخيلوس في هذه التراجيديا بعض المشاكل الاجتماعية والخلفية السياسية . فهو يندد بالزواج القائم على الإكراه ، ويشيد بمبدأ حماية الصغار ، ورعاية المستجيرين ، كما أنه يناهي بضرورة أخذ رأي الشعب في كل أمر من أمور الدولة (٢).

والفرق بين موقف سوفوكليس السياسي وبين موقف يوريبيديس أمر معروف . هكذا يرد رأي جورج طومسون في سوفوكليس :

لقد جاء سوفوكليس من عائلة أرستقراطية . وفي حياته الواعية قبل وجهة نظر طبقة التقليدية . وهذا ما يظهر دعمه الفعال للدستور المعادي للديموقراطية ، الذي وضع قيودا على حق الانتخاب في السنوات الأخيرة من الحرب البلونيزية ٤١٢ ق . م ، كما يظهر موقفه من الموحى الدلني الذي كان يعاديه الديموقراطيون بسبب سياسته الرجعية (٣).

أما يوريبيديس ، الذي كان أول من يمزج في أعماله بين شخصيات من عامة الشعب ، وشخصيات نبيلة أسطورية ، فإنه ، كما يقول عنه جلبرت مري :

قدم في أعماله أناسا عاديين ، قريين في موقفهم الطبقي ، وأسلوبهم في الحياة ، وموقفهم منها ، من موقف الغالبية العظمى من رواد المسرح في ذلك الحين ، مما يؤدي إلى أن يرى جمهور المشاهدين أنفسهم ممثلين على خشبة المسرح ، ويزيد من تأثرهم ، وسهولة استقبالهم للأراء والأفكار التي يحملها يوريبيديس لشخصياته . . . (٤).

وما يقال هنا عن المسرح الاغريقي ينطبق أيضا على المسرح الايليزابيثي في أبرز كتابه : ويليام شيكسبير . فلم يكن في أعمال إثراء للمسرح العالمي على امتداد تاريخه فنيا فحسب ، بل إثراء لما يجمعه من فكر سياسي وتاريخي ، وهو

Georg Lukacs, The Historical Novel, Hannah and Stanley Mitchell, London, 1962, p. 97.

(١)

(٢) د . ابراهيم سكر ، الدراما الاغريقية ، المكتبة الثقافية ، العدد ٢٠٣ ، القاهرة ١٩٨٨ ، ص ٢٣ .

(٣) جورج طومسون ، اسخيلوس وأثينا ، ت . جواد الكاظم ، بغداد ، ١٩٧٥ ، ص ٤٨٢

(٤) جلبرت مري ، يوريبيديس ومصره ، ترجمة د . هبللمطي شرفوي ، القاهرة ب . ت ، ص ١٥٤ .

تلك العبقرية التي عاشت في فترة تميزت بالصراع التاريخي الحاد بين المجتمع الانقطاعي، وبين المجتمع الرأسمالي الذي كان يسعى لتأكيد ذاته، حتى وصل إلى الحكم من خلال الثورة الفرنسية في ١٧٨٩، أو من خلال الوسائل الدستورية في إنجلترا في ١٨٣٢، وعن تصوير شيكسبير لهذا الصراع التاريخي يقول جورج لوكتاش:

إن شيكسبير يتغلغل في الملك لير أعظم ما عرفه الأدب العالمي من التراجيديات وأشدّها ألرا عن انهيار الأسرة بصفتها مجتمعاً إنسانياً... إن شيكسبير يصور في علاقات لير وبناته، وجولستر وابنيه، الحركات والاتجاهات الخلقية النمطية التي تبرز بشكل قوي إشكالية العائلة الاقطاعية وانهيارها^(٥).

هذا الحس التاريخي عند شيكسبير هو الذي جعله هدفاً لتحليلات السياسة الليبرالية. هكذا نجد جورج برنارد شو يصور شيكسبير في مسرحيته الكوميديّة الخفيفة المسمّاة في أغاني شيكسبير، على أنه فنان ينمق الكلمات ولا يقدم فكراً، يهتم بإرضاء أولي الأمر، ويتماق السلطة، ويقف إلى جانب الديكتاتورية في يوليوس قيصر^(٦).

غير أن شاعراً وناقداً آخر، وهو الجرنون سوينين، يرى في شيكسبير رأياً مختلفاً. فهو يراه مفكراً حديثاً في نظرتة السياسية والاجتماعية، ويرى أن النعمة الأساسية في مسرحياته هي الدعوة إلى الثورة الاجتماعية. ويستشهد على ذلك بمسرحية يوليوس قيصر أيضاً، فيقول إن شيكسبير كان في أعماقه جمهورياً، وإنه في الملك لير ديمقراطي واشتراكي روحاً^(٧).

ولعلّ مما يعزز وجهة نظر سوينين في شيكسبير اختيار ايروين بيسكاتور، رائد المسرح السياسي، لمسرحية الملك لير لعرضها بأسلوب مسرحه السياسي، واختيار برتولت بريشت لمسرحية ماكبث وهاملت لإعدادهما للإذاعة، ومسرحية يوليوس قيصر وكوروليون لإعدادهما للمسرح، فضلاً عن استخدامه لأسلوب مسرحيات شيكسبير التاريخية في الأم شجاعة وجاليليو، بل وتأثر المسرح الملحمي عموماً بفن شيكسبير المسرحي.

بل لعلنا نستطيع أن نضيف إلى هذا الإدراك المبكر لوظيفة المسرح الاجتماعية والسياسية موقف النقد الكلاسيكي المتزمت في إنجلترا في القرن السادس عشر. فوسط كل تأكيد النقد الشكلي عند فيليب سيدني، وبين جونسون وغيرها على الالتزام بالوحدات الثلاث، والمحافظة على نقاء القوالب والتقاليد الفنية بحيث لا ننتج الكوميديا بالتراجيديا، أو النثر، بالشعر، نستطيع أن نتبين هدفاً سياسياً واضحاً، وموقفاً سياسياً محافظاً. كان مزج الكوميديا بالتراجيديا يعني، في التحليل النهائي، مزج أنماط سامية من الشخصيات والموضوعات التي لا يصح لها إلا القالب التراجيدي، بأنماط متدنية من الشخصيات والموضوعات لا تصلح لها إلا القوالب الكوميديّة الشعبية. أو بعبارة أخرى، كان مزج القالين التراجيدي والكوميدي يعني مزج الأشراف والعامة في إطار واحد.

كذلك كانت الدعوة إلى فصل اللغة الشعرية عن الحوار النثري واللغة الدارجة تهدف إلى فصل الأسلوبين، إذا أراد الكاتب المسرحي أن يحتفظ للأبطال الذين ينتمون إلى طبقات المجتمع العليا بتميزهم وسموهم فيها ينطقون به

(٥) Georg Lukacs, op. cit., p.93.

(٦) انظر جورج برنارد شو، السيرة الذاتية لشيكسبير، ترجمة د. هلال مزي، مجلة المسرح، العدد ١، النّشرة ١٩٦٤، وابهاج، ب. شو، الفصل من شيكسبير ١، مقدمة يوليوس قيصر، ت. د. هلال مزي، النّشرة ١٩٦٦.

See R. Wellek, A History of Modern Criticism, 1750-1950, vol IV, London, 1971 ed., p.388.

(٧)

ويعبرون عنه من عواطف نبيلة ، وأن يترك للعامة العواطف واللغة الأكثر تدنيا . كان الإصرار على الاحتفاظ بالقوالب المسرحية والتقاليد الشعرية « نغية » يعني في المحصلة النهائية ، المحافظة على القوالب الاجتماعية على الإطار العام للمجتمع الطبقي ، بحيث لا تتهدده أية مزاجات بين الطبقات العليا والطبقات الدنيا من المجتمع . بل إن أي إخلال بهذه القوالب والتقاليد الفنية كان في نظر الكلاسيكية المحافظة إخلالا بالقوالب الاجتماعية ، وجهديدا للنظام الاجتماعي السائد .

مثل هذا المعنى يتأكد في الدعوة إلى إحياء الكلاسيكية التي نادى بها ت. أ. هيوم ، وعزرا باوند ، وت. س. البوت في أوائل القرن العشرين . ففي مقاله عن « الرومانسية والكلاسيكية » يرى هيوم أن الرومانسية ترتبط بموقف سياسي محدد . فالرومانسية ، في رأيه ، دعوة إلى إعادة تنظيم المجتمع من خلال الإطاحة « بنظام غاشم » أي بالنظام الاجتماعي بطبيعة الحال . وهو يرى الرومانسية ترتبط بثورة الطبقة الوسطى في فرنسا ، ووصولها إلى الحكم في إنجلترا ، مما يعني الفوضى في نظره . أما الكلاسيكية فترتبط بالكنيسة والاقطاع ، ولذلك تعني النظام . وهكذا يقول : لو أنك سألت رجلا من مجموعة معينة ما إذا كان يفضل الكلاسيكيين أو الرومانسيين . لاستطعت أن تستدل من ذلك على اتجاهاته السياسية^(٨) .

نادى هيوم بهذه الدعوة السلفية قبل أن تنشب الحرب العالمية الأولى ، التي قوضت الكثير من الأسس الاجتماعية والفكرية التي كان المجتمع الإنساني يقوم عليها ، وقبل أن ترتفع الصيحة ضد المجتمع الطبقي في كل أشكاله ، وضد الرأسمالية التي جعلت الحرب ، والاستعمار ، واستغلال الشعوب ، واضطهاد الإنسان أمورا ممكنة . كانت تلك هي الصيحة التي أطلقها المسرح السياسي كما نعرفه اليوم . وقد جاءت من ألمانيا ، لتلحقها منها أمريكا ، ولتشارك على المسرح العربي الحديث بصمتها .



كان لهزيمة ألمانيا في ١٩١٩ آثارها المدمرة على المجتمع الألماني ، التي أدت إلى اهتزاز مؤسساته الاقتصادية ، والاجتماعية ، والثقافية . وجاءت ثورة ١٩١٩ الاشتراكية ، التي فشلت واغتيل كل زعمائها ، تعبيرا عن السخط عما أنزلته الرأسمالية والحرب بالشعب الألماني ، وعن الفوضى الاقتصادية التي أطاحت بكل الآمال المعقودة على نهاية الحرب من انتشار الأخوة والانسانية ولحب ، وعن خيبة الأمل التي تولدت عن هذا كله . ولم تلبث الأزمة التي ضربت الاقتصاد الأمريكي في ١٩٢٩ أن امتدت لتشمل آثارها العالم الرأسمالي كله بما في ذلك ألمانيا ، ولتنزل بكل فئات الشعب وعلى الأخص الطبقة العمالية التي انتشرت بينها البطالة ، مما أثار معارك في الشوارع بين العمال والشرطة ، ودفع بالبرجوازية إلى أن تحكم قبضتها على الأمور فأسلمت زمام السلطة إلى هتلر .

وسط هذا المناخ لم يعد المسرح الطبيعي ، بتركيزه على تصوير سطح الحياة اليومية وأساليب السلوك ، قادرا على التعبير عن آثار هذا الواقع الحاد على النفس البشرية وجدانيا وعقليا . وهكذا جاء المسرح التعبيري ، والمسرح السياسي ، وقد وضعنا نصب أعينها هدفا سياسيا محمدا ضد الرأسمالية والحرب ، والاستعمار ، والاستغلال . التقى

المسرحان على فكرة توعية الجماهير سياسيا ، وتوجيهها نحو فكرة مجتمع انساني يقوم على أسس اجتماعية وسياسية جديدة .

غير أن المسرح التعبيري اتبع في سبيل تحقيق هذا الهدف أساليب تختلف عن أساليب المسرح السياسي . ففي حين أن المسرح السياسي إلى أساليب مباشرة تستخدم هدف التوعية السياسية ، اتجه المسرح التعبيري إلى أساليب عاطفية تترجم أفكار الشخصيات وشيئالاتها وأحلامها ووقع العالم الخارجي على ذواتها ، وتدعو منحنى تجريدية ، جمالية ، في استخدام الديكور والأضواء الملونة والأداء التمثيلي ، حتى قال عنها بروتولت بريشت :

« إن التعبيرية التي أغنت وسائل تعبير المسرح كثيرا ، وجاءت بحصيلة لم تستند حتى الآن . كشفت عن عجزها التام في تفسير العالم كموضوع نشاط انساني ، ودمرت القيمة التعليمية للمسرح »^(٩).

لم تدم الحركة التعبيرية في المسرح ، على أية حال ، سوى فترة قصيرة من ١٩١٨ - ١٩٢٥ . كان ذلك لأن البرجوازية تنهت إلى أثر الحركة الثقافية في توير الفكر العمالي ، فأقامت العقبات في وجه أية عروض مسرحية يشتم منها رائحة معارضتها لها ومحاولة كشفها وتعريضها ، وأغلقت المسارح الكبيرة في وجه العروض « المشبوهة » . وهكذا تحول الكثير من أقطاب التعبيرية مثل فالتر هازنكلينغر ، وبروكتر ، وتسوكماير ، إلى تقديم عروض تستخدم أهداف البرجوازية وكانت تلك عروضاً تستهدف الإثارة الجنسية والتسلية لا غير .

غير أن المسرح السياسي تبني رسالة سياسية ، قبل أن يتبنى أساليب فنية . أو أنه ، بعبارة أخرى ، استنيط من الرسالة التي حددها لنفسه الأساليب الفنية التي تخدم هدفه لتوصيل رسالته . كانت هذه الرسالة مباشرة ، واضحة ، ترمي إلى التأثير في الجماهير من أجل توعيتها ، واجتذابها إلى جانب المعركة ضد المجتمع الرأسمالي الطبقي ، للوصول إلى مجتمع العدالة الاجتماعية والسلام . ولم يكن الأمر مجرد طرح أفكار ، بقدر ما كان استغزال الجماهير ، وتخريضها على الثورة .

وقد ارتبط بهذا المسرح اسم ابروين ييسكاتور . كان رأي ييسكاتور أن الاهتمام بالشكل الفني للعروض من الممكن أن يطمس ملامح الرسالة السياسية ، كما أن النص المسرحي لا يجب أن يكتفي بتصوير أحداث شخصية ، أو انعكاسات الواقع الاجتماعي على الذات الانسانية ، كما فعل التعبيريون . فلابد أن يكون العرض المسرحي ، بكل مقوماته ، تحليل للظروف الاجتماعية والاقتصادية والتاريخية . لهذا كان تأكيد على عرض الظروف التاريخية والاجتماعية عرضا مباشرا لا كمجرد خلفية للأحداث الشخصية . وهكذا فإن أي عرض لمسرحية روميو وجولييت ، مثلا ، لا يجب أن يؤكد خط قعة الحب ، بحيث تدبر الظروف الاقتصادية التاريخية التي تحكم التنافس والثأر بين عائلتي مونتاجيو وكابوليوت مجرد خلفية للأحداث ، بل أن تتأكد الخلفية ذاتها . ويصاحب تأكيد هذه الخلفية إسقاطات على شائسة سينما في خلفية الديكور للفظات من الحروب ، وإحصائيات للإنتاج الصناعي في بلدان العالم الرأسمالي ، ولعدد القتلى في الحروب ، ولاستغلال البشر في المستعمرات ، وما شابه ذلك . ومعنى هذا أن تحتل السياسة المستوى الأول ، وأن تتراجع القصة الشخصية إلى المستوى الثاني ، بهدف توضيح التناقضات الاجتماعية ، وإذانتها ، والدعوة إلى الثورة عليها وتغييرها .

(٩) بروتولت بريشت ، « حول المسرح التعبيري » ، مسرح التغيير ، مقالات في منهج بريشت الفني ، اختيار ومراجعة فوس القليدي ، بيروت ، ١٩٧٨ ، ص ١٨٢

وتتضح الخطة المسرحية التي يبنى عليها هذا المسرح في أسلوب عرضه لمسرحية واسبوتين تولستوي ، على سبيل المثال . وفي وصف البيئة النظرية لهذه المسرحية ، والوسائل التكنولوجية التي استخدمها بيسكاتور مزاجا بهذا بين الفن والعلم لخدمة أهداف مسرحه في عصر أصبح العلم والآلة فيه يحكمان تفكير البشر ، يقول سعد أردش :

كان الديكور بانوراما ضخمة من الجيش تمثل العالم ، وقد ركبت من أقسام ، تتيح للمخرج أن يفتح كلا منها على قطاع مختلف من خشبة المسرح ، يعرض عليه مشهد من العرض المسرحي ، بينما تعرض الأفلام السينمائية على البانوراما الأمر الذي تنشوء معه الأشكال بفعل ثبات الجيش . وكانت موضوعات هذه الأفلام الأحداث الكبيرة ، السياسية ، والعسكرية ، المرتبطة بفترة خدمة واسبوتين في بلاط رومانوف ، بشكل يؤدي إلى توضيح الخطوط التاريخية لقدر أوروبا . وقد لعبت السينما في هذا العرض ثلاث وظائف : التعليم ، والتفسير ، والمناخ الدرامي . فالوظيفة الأولى تتحقق بتوسيع دائرة الأحداث التي تجري على خشبة المسرح ، بحيث تبدو نتيجة منطقية لما كان يحدث في الماضي . والوظيفة الثانية تتحقق باستفزاز الجماهير إلى ممارسة النقد والاحتكام . أما الوظيفة الثالثة فإنها تتحقق باعتبار أن ما يقدمه الفيلم هو في الواقع بديل لما لا يستطيع الممثلون تقديمه على خشبة المسرح لأنه في هذه الحالة سيكون مصطنعا وغير مقنع^(١٠).

وإذا أضفنا إلى استخدامه للأفلام السينمائية كوسيلة لتوسيع مجال الحدث ، وربطه بالظروف التاريخية ، وإبراز دلالاته السياسية ، استخدامه لوسائل أخرى مثل اللافتات والشرائح الزجاجية ، والأفلام التسجيلية ، فإننا نبتين في أعماله الأخرى بداية فكرة المسرح الملحمي ، التي قام برتولت بريشت بعد ذلك بتطويرها لخدمة نفس المهدف السياسي التعليمي الذي بدأه بيسكاتور . ومن خلال استفادة بيسكاتور من إمكانيات التقدم التكنولوجي في العرض المسرحي ، فإنه ، كما يقول بريشت ، حول خشبة المسرح إلى قاعة آلات ، وحول صالة العرض إلى قاعة اجتماعات . ويضيف بريشت قائلا :

وبالنسبة إلى بيسكاتور كان المسرح برلمانا ، والجمهور هيئة تشريعية . وقد عرضت أمام هذا البرلمان بوضوح المسائل العامة الكبيرة التي هي بحاجة إلى قرار . وبدلا من خطبة النائب حول ظروف اجتماعية لا يمكن تفاديها ظهرت نسخة فنية لهذه الظروف . وطمع المسرح بدفع البرلمان - الجمهور - استنادا إلى الصور المسرحية والإحصائيات والشعارات إلى اتخاذ قرارات سياسية . ولم يستغن مسرح بيسكاتور عن التصنيف ، لكنه طمع أكثر من ذلك بالتفاه . ولم يمسح إلى تهيئة تجربة لمشاهدته ، وإنما دفعه إلى اتخاذ قرار عملي بالتدخل في الحياة بنشاط^(١١).

كان بيسكاتور مضطرا إلى ابتكار هذه الأساليب حين فشل في أن يجد مسرحيات تنطلق من موقف اشتراكي . غير أنه وجد أن الامكانيات التكنولوجية لحل هذه العروض التي تتلام مع أهداف مسرحه ، كانت تتطلب قويا لا يمكن للمسارح الشعبية أن تتحملها لذلك لم يكن أمامه إلا أن يعمل من خلال المسارح البرجوازية ، غير أن هذه الأجهزة

(١٠) سعد أردش : المخرج في المسرح المعاصر ، سلسلة عالم المعرفة ، العدد ١٩ ، الكويت ، ١٩٧٩ ، ص ١٩٨ .

(١١) برتولت بريشت : حول المسرح التجريبي ، سبق الاستشهاد به ص ١٨٨ .

بدأت تفرض عليه الدخول في مساومات أيديولوجية ، وتنازلات ، مما اضطره آخر الأمر إلى التخلي عن عروض مسرحية تستخدم آلات وتكاليف ضخمة ، والاتجاه إلى المنظمات العمالية ، وكانت هذه تتألف من فرق عمالية بسيطة ، و فرق هسوة تعمل بإمكانات متواضعة في مسارح النوادي . وقد أدى إغلاق المسارح البرجوازية الكبيرة في وجه مثل هذه العروض إلى أن يحاول فنان المسرح أن يلائم بين تقنيات العمل وبين الوسائل المتواضعة المتاحة للفرق العمالية ، كان هذا هو الدور الذي كان على برتولت بريشت أن يستكملة في مسرحه الملحمي .



من الأفكار الشائعة بيننا في العالم العربي أن برتولت بريشت بدأ حياته الفنية كاتباً تعبيرياً مسرحية طبول في الليل التي عرضت لأول مرة في ميونيخ ، ١٩٢٢ . وربما استند هذا التفسير إلى أن بريشت يتناول في هذه المسرحية نفس الموضوع الذي كان يتناوله تعبيريون آخرون مثل كايزر وتوللر ، وهو موضوع الجندي العائد من ميدان القتال ليجد حبيبته قد خطبها أحد أغنياء الحرب ، فينضم إلى الثوار ، لكن خطيبته تلتحق به ، فيهجر الثوار ويمضي معها . وربما تلقي هذه المسرحية مع المسرحيات التعبيرية في اهتماماتها السياسية ، وتعربتها للعلاقة بين الرأسمالية والاستغلال والحروب . كان هذا هو التفسير الذي أضفاه عليها إخراج مسرح الجيب بالقاهرة ، ١٩٦٦ . لكن المسرحية في الواقع لا تعالج التمزق الداخلي في الشخصية ، بل التمزق في العلاقات الإنسانية ، وتكشف طبيعة هذه العلاقات في مجتمع تسوده الثورة والانحلال الخلقي . بل إنها تحمل البذور الأولى لمسرح بريشت الملحمي^(١٢) من توجه بخطاب مباشر إلى الجمهور ، وتنبهه إلى أن ما يجري على خشبة المسرح ليس إلا تمثيلاً . وهكذا تحطم المسرحية الإيهام المسرحي ، وتدعو الجمهور إلى التفكير . كذلك يدخل بريشت العالم الموضوعي إلى مجال الحدث ، بحيث يؤكد عالم الثورة ، والعلاقات البشرية ، لا عالم الذات .

بل إن موقف بريشت من التعبيرية كان موقفاً واضحاً . فقد كان يكره ، كما يقول جون ويليت ، أن يصنف مع التعبيريين لما يطرحونه من أفكار طوباوية مجنحة ، في أشكال فضفاضة ، لإغراقهم في الذاتية التي لا تسمح للمسرح أن يخلق شعوراً جماعياً مشتركاً . ويورد ويليت قول بريشت عن مسرحيات إرنست توللر :
إنها في أحسن حالاتها كلام جرائد موزون . الرؤى فيها مسطحة ، يحسن بنا أن ننسأها على الفور .
الكون فيها مهمل .
والإنسان مصور على أنه مادة ، بيان سياسي ، لا على أنه إنسان . الإنسان مجردا ،
مفرد إنسان ، وأموره قد أوكلت إلى أيدي هزيلة^(١٣) .

(١٢) راجع لكاتب المقالة :

١ - برتولت بريشت عن العرض الملحمي ، مجلة المسرح ، العدد ٢٦ ، القاهرة ، فبراير ١٩٦٦ ، ص ٧١ - ٧٤ .

٢ - طبول لي الليل ، مجلة المسرح ، العدد ٢٢٩ ، القاهرة ، مايو ١٩٦٦ ، ص ٣٦ - ٣٥ .

٣ - المسرح الملحمي عند بريشت ، مجلة للمسرح ، العدد ٣٥ ، القاهرة ، نوفمبر ١٩٦٦ ، ص ١١ - ١٥ .

٤ - الإنسان الطيب ، مجلة للمسرح ، العدد ٣٨ ، فبراير ١٩٦٧ ، ص ٤٤ - ٤١ .

والواقع أن ما حققه بريشت في هذه المسرحية ، وفيما تلاها : بعمل (١٩٢٣) وفي ظلمات المدينة ، والإنسان هو الإنسان ، لم يكن إلا نوعاً من الواقعية الجديدة التي مهدت لمسرحه الملحمي كما نعرفه ، حتى في ملاحظها السياسية . ولم تكن محاولة بريشت تطوير الشكل المسرحي من المسرحيات الواقعية الجديدة ، مروراً بالمسرحيات التعليمية التي تبرز الجوانب السياسية من خلال مناقشة جدلية^(١٤) إلى المسرحيات الملحمية التي كتبها أو أعدها عن مسرحيات أخرى^(١٥) سوى محاولة للوصول إلى أكثر الأشكال دقة في توصيل رسالة مسرحه السياسية . ولقد قامت بعض المحاولات لعزل مسرحياته الملحمية عن المسرح السياسي نتيجة لعدم توحيه أسلوب الجدل المباشر فيها . وفي هذا يقول ماكس شريدر :

إن مسرح بريشت مرتب بمقدرة فائقة للحد الذي يحاول فيه أرباب الفن أن يقيموا الدليل على وجود تناقض بينه وبين المسرح السياسي . والحق أن مسرح بريشت قد وصل إلى تفوقه الفني واستطاع أن يخرج الحقائق السياسية إلى النور ، كما أنه يكرس كل ذكائه لإزالة الانقراض ولبناء مجتمع رجال سياسة الكوارث^(١٦) .

الحقيقة ، إذن ، أن بريشت قد وجد الشكل الدرامي التقليدي عاجزاً عن توصيل أية رسالة سياسية بشكل يضمن استفزاز المتفرج ، وتغريضه على أن يكون إيجابياً في العمل لتغيير الواقع الاجتماعي . لقد عرف أرسطو الدراما التقليدية بأنها عرض يحاكي حدثاً كاملاً بذاته ، وأن هذا الحدث لا يروي وإنما يعرض بواسطة الأشخاص المشتركين فيه . وهذا الحدث يثير الشفقة والرغبة ، وبذلك يظهر نفوس المتفرجين عن طريق إثارة إشفافهم على الشخصية التراجيدية ، وشوقهم من أن يجعل بهم نفس المصير .

ولنبداً هنا بالمحدث عن الفرق بين الأثر الذي يخلقه الشكل الدرامي والأثر الذي يخلقه الشكل الملحمي ، قبل أن نصل إلى تحديد مفهوم المسرح الملحمي .

إن المسرح الملحمي يمتنع على إثارة الشفقة والرغبة في نفس المتفرج ، بقصد تطهير عواطفه ، وعلى جذب المتفرج داخل الحدث بحيث يتوحد مع البطل وينسى ذاته نسياناً تاماً ، وعلى إثارة الإيثار بواقعية الأحداث في نفس المتفرج كوسيلة لتحقيق هذين الهدفين . فهو يرى أن المتفرج ، في مثل هذه الدراما التقليدية ، يفقد القدرة على التفكير فيما يجري أمامه ، ويسلب القدرة على مواجهة المشاكل السياسية وحلها بشكل فعال يقضي على أصل المشكلة المطروحة ، بعد أن تكون عواطفه قد تطهرت . وقد كان هدف بريشت الأول أن يجعل المتفرج يرى العالم الحقيقي ، ويفهمه ، أن يجعله يفهم كيف تدور الحياة في المجتمع الرأسمالي المعاصر بحيث يسعى إلى تغييره . كانت هذه هي الرسالة السياسية التي كرس لها مسرحه الملحمي . ولهذا فإنه راح يقيم مسرحه على أساس عقلاني يكاد يخلو من

(١٤) الرجل الذي يقول نعم والرجل الذي يقول لا ، الإجراء ، القاعدة والاستثناء .

(١٥) أوبرا بثلاث بسات ، امرأة الطبيعة من سبتوان ، دائرة الطباشير القوقازية . الأم شجاعة ، حيلة جاليليو ، القديسة جون .

(١٦) ماكس شريدر ، والأسلوب المسرحي عند بريشت و ترجمة محمد خليل عطيفة ، مسرح التغيير ، سبق الاستشهاد به ، ص ٨٨ - ٨٦ .

العاطفة في أداء الممثل ، أو في تلقي المتفرج ، بحيث لا يتوحد المتفرج مع الممثل فيفقد بهذا قدرته على إعمال عقله . فالمرح الملحمي لا يخاطب العواطف ، بل يخاطب العقل ، يهدف توجيهه إلى الأفكار الثورية التي تتضمنها المسرحية .

فقد كان هم بريشت الأول أن يركز المتفرج انتباهه على المضمون السياسي في مسرحه . كان هذا هو الهدف الذي سخر له كل عناصر العرض من ديكور ، وإداء ، وحرثية مسرح ، وموسيقى وإضاءة ، والمؤثرات الأخرى من شرائع وأفلام . كل هذه المقومات تخضع عنده لنوع من الواقعية الجافة ، واقعية عصر العلم والآلة بحيث تتحول وسائل التسلية إلى وسائل تعليم تشهد إمكانيات المتفرج العقلية ، وتحفزها إلى تغيير واقعه .

وكما هاجم بريشت فكرة التطهر ، كذلك هاجم فكرة الإيham في الدراما التقليدية . ففي رأيه أن المؤلف ، والمخرج ، والممثل الذين يهدفون إلى خلق إيham قوي بأن ما يجري على خشبة المسرح إنما هو أمر واقع فعلا الآن في لحظة المشاهدة ، إنما يتأثرون على المتفرج . فوحد الجمهور مع الشخصيات يجعل التفكير مستحيلا تقريبا ، لأن نفوس الجمهور التي ترحف إلى داخل نفس البطل ، ترى الحدث كلية من وجهة نظره . وبما أنهم يتابعون ما يجري أمامهم على أنه حقيقي ، فإنهم لا يتوقفون لكي يفكروا بروج نقدية في المعنى السياسي للمسرحية .

ورأى بريشت في هذا صريح . فالمرح لا بد من أن يحاول تعظيم أي إيham بالحقيقة . ولذلك لا بد من أن يكون واضحا لدى المتفرج أنه لا يشاهد أحداثا واقعية تجري أمام عينيه الآن ، ولكنه جالس في مسرح يسمع تقريريا حيا ، واضحا ، عن أحداث حدثت في الماضي ، في وقت ما في مكان ما . وعليه أن يسترخي في مقعده ، ويفكر في الدرس الذي يتلقاه عن هذه الأحداث الماضية . ومن هنا كان المسرح الملحمي مسرحا تاريخيا يذكر الجمهور بأنه يتلقى تقريراً عن أحداث حدثت في الماضي ، لا أحداث تجري الآن .

ثم إنه مسرح سياسي ، ينقل رسالة على المتفرج أن يستوعبها من خلال الانفصال عن الشخصيات والأحداث ، لا التوحد معها . وعلى المخرج أن يحاول بكل الوسائل خلق تأثيرات تحافظ على انفصال الجمهور وتغريبه عن الحدث ، كأن يجعل الشخصيات تقدم نفسها مباشرة إلى الجمهور ، أو أن تسقط أسماؤا على شاشة . ويستطيع أن يجبر الجمهور مقدما بنهاية المسرحية ، وبهذا يجر عقل المتفرج من التشتت الذي يفرضه التوتر في المسرح التقليدي . كما يستطيع أن يستخدم رواية يصف أفكار الشخصيات والدوافع التي تحركها . وبهذا كان بريشت يقول إن المسرح مسرح ، وليس الحياة ذاتها .

كذلك كانت عناصر العرض المختلفة تخدم نفس الهدف . ففي ديكور المسرح التقليدي يهدف المصمم أيضا إلى خلق إيham بحقيقة المكان . أما ديكور مسرح بريشت فيلغي الإيham بهذه الحقيقة . فمصمم الديكور لا يعمد بناء منظر واقعي ، بل يتجنب وضوح الطبيعة من خلال اختيار دقيق من تفاصيل الواقع . . فبدلا من غرفة كاملة يجتاز جانباً منها : مجرد حائط أو باب ، أو قطعة أثاث ، بأسلوب تلخيصي ، أو كما قال بريشت لمصمم ديكور الأم مورد خاي جورليك :

ليكن لدينا منصة ، وسوف نضع على هذه المنصة كراسي ، ومناضد ، وفواصل ، كل ما يحتاجه الممثلون ، ولكي نعلق ستارا أعطيني عامودا خشبيا ، أو قضيبا معدنيا . ولتعلق صورة أعطيني جدارا . وسوف أحتاج شاشة كبيرة للعرض . لتكون رشيقة ، ناعمة ، مثل الأعلام اليابانية ، هشة مثل الطائرات والمصابيح الورقية اليابانية ، وأعمل حسابك أن تجعلنا نذكر النسيج الطبيعي للخشب والمعدن . وسوف نضع ألتي يبانو بشكل واضح في جانب من منصة المسرح ، ويجب أن تكون للمرحية نوعية الكونسرت ونوعية الدراما . وسوف نبين وحدات الضوء وهي تضيء وتنطفئ ، وتتلاعب فوق المشهد^(١٧) .

كذلك يظل ستار المسرح مفتوحا حتى يرى المتفرجون إعداد المنظر ، وكيف يشيد ، وكيف يزال أمامهم ، ليظلوا وأعين بأنهم في مسرح ، وذلك لكسر الإيحاء . ولنفس السبب تظل مصادر الضوء مكشوفة ، ونظّل الإضاءة بيضاء صريحة حتى لا تستوعب أية إضاءة ملونة مبهرة .

أما الموسيقى كمعصر تغريب في العرض الملحمي فهي أشبه بوحدة مستقلة لها كيان قائم بذاته . فهي ليست كالموسيقى تصاحب الحدث ، وتكون عاصفة في المناظر العاصفة ، وهادئة في المناظر الهادئة . لكنها تضاد الحدث ، فنسمع الموسيقى الهادئة في المشاهد العاصفة ، في علاقة تضاد حدلية تفصل المتفرج عن الحدث .

وأسلوب أداء الممثل يعتمد على ألا يعتبر الممثل نفسه متقمضا للشخصية ، بقدر ما هو قصاص يسرد علينا أفعال شخصية أخرى في لحظة من الماضي . فهو أشبه برجل يعيد على مسامعنا حادثة رآها تحدث لشخص آخر . ويعيد علينا روايتها . فبما أنه لا يريد أن ينقل المتفرج إلى حالة غيبوبة يفقد فيها وعيه ، فلا بد أن يظل محفظا هو الآخر بحضوره ، وتلك حواسه ، وأن يتعد عن الإيماءات العصبية ، ويكتفي بالإيماءات التي تكفي لحكاية قصة ، أو كما جاء في كتاب همل المسرح لمسرح البرلينر انسابل : « أن التمثيل في المسرح الملحمي يعني سرد حكاية »^(١٨) .

ولعل هذا في التحليل الأخير ، ما يعنيه « المسرح الملحمي » . فهو ، عكس المسرح التقليدي ، ينقلنا إلى عالم الحكايات البعيدة ، عالم السرد التاريخي الملحمي . فمن الشائع عندنا أن نتكلم عن أساليب التغريب ، ونعني بها المسرح الملحمي . أما التغريب فليس في حقيقة الأمر سوى وسيلة لسرد ملحمية ، ولتصوير الأحداث على أنها حالة تاريخية تنتمي إلى الماضي ، حتى ولو كانت معاصرة . المسرح الملحمي ، إذن ، مسرح سردي تاريخي يحكي لنا قصة . والقصة هي تتابع أحداث تكون التجربة الاجتماعية ، وتصور تفاعل الشخصيات إحداها مع الأخرى . وهذا التفاعل هو الذي يبرز لنا مغزى التجربة الاجتماعي . ومن خلال التركيز على التعبير عن السلوك الاجتماعي لانسان تجاه آخر يحول بريشت الاهتمام من حياة الشخصيات الداخلية إلى الطريقة التي تسلك بها تجاه إحداها الأخرى ، أو بمعنى آخر إلى العلاقات الاجتماعية ، ومفزاها السياسي .

ولعل المشاهد لا يفقد في كل هذا المتعة التي يتوقعها من المسرح . هي بالتأكيد ليست المتعة العاطفية التي نستأثر بلبه في العرض الدرامي التقليدي . لكنها متعة جمالية حسية تصل إليه من خلال تأثيرات الديكور وبناء المشهد ، ومتعة جمالية عقلية من خلال جدليات الصراع في العمل نفسه ، والعلاقة الجدلية بين الوسائل المختلفة ، بين الموسيقى والمشهد الذي يؤدي مثلا ، وهي أيضا متعة اكتشاف المعنى ، وشحن القدرة على الفعل والتغيير .

هذه الأساليب كان بريشت يهدف إلى استخدام المسرح كوسيلة لخدمة المجتمع . فلقد كان مؤمنا بأن المسرح الملحمي يتركزه على تصوير الإنسان في علاقاته الاجتماعية ، كان قادرا على إيقاظ قدرات المتفرجين لإحداث تغيير في المجتمع . فهو لا يترك ، كما في المسرح التقليدي للمفرج أن يستخلص النتائج المتفرجة من العرض . بل إنه يزودنا بالخلفية الاجتماعية ، ويعلق عليها من خلال الراوي . فعن طريق إبقاء المفرج في حالة عقلية نقديه تمنحه من رؤية الصراع كلية من وجهة نظر الشخصيات ، ومن تغلب عواطفها ودوافعها على أنها محكومة بالطبيعة البشرية والمجتمع ، ولا يمكن تغييرها ، يستطيع المسرح أن يجعل المتفرجين يرون التناقضات الموجودة داخل المجتمع ، وأن يجعلهم يسعون لتغييرها .



لم يكن من الغريب أن يتأثر المسرح الأمريكي بموجة المسرح السياسي الألماني . فقد كانت بدايات الأزمة الاقتصادية الأمريكية محسوسة حتى قبل أن تقع في ١٩٢٩ ، حين وجد ثمانية عشر مليون عامل أنفسهم عاطلين . وبالتالي تأثر المسرح الأمريكي بالممارسات الفنية التي بدأها التعبيريون ورواد المسرح السياسي والملحمي ، خاصة وأن بيسكتاور نزع إلى أمريكا في ١٩٣٢ ، حيث عمل أستاذا بمعهد ومسرح ورشة الدراما ، وهناك أنشأ مسرحا تجريبيا ، وتعلم على يديه الكثير من الطلبة قبل أن يعود إلى ألمانيا في عام ١٩٥٠ . كما أن بريشت الذي بدأ مفاهي الاختياري في ١٩٣٢ ، انتهى به المطاف في أمريكا في ١٩٤٧ حيث كانت كتاباته في الصحف والدوريات الأوروبية قد سبقته ، وحيث وصل إلى قمة نضجه الفني في صياغة للمسرح الملحمي . وكان من بين من عملوا معه المصمم المسرحي مورديخاي جورليك الذي سبقته الإشارة إليه ، والذي سيرد ذكره فيما يلي :

وهكذا نجد بعض كتاب المسرح ، وعلى رأسهم جون دوس باسوس ومايكل جولد ، يتجهون في عام ١٩٢٧ إلى تأسيس مسرح جديد باسم « مسرح الكتاب الجلد » . كان هذا مسرحا يعكس وجهة نظر يسارية ، ويصنف إلى مزيد من مزيج من الفن والسياسة معا ، خاصة وأن من بينهم من كان ماركسيا مثل جولد ، أو متعاطفا مع الفكر الماركسي مثل أم جو باش . وقد تأثر هذا المسرح بحرفيات المسرح البتائي الروسي عند فيزفولد مايرهولد ، واسكندر تايروف ، كما تأثر بالمسرح التعبيري والسياسي في ألمانيا .

وقد أسهم كتاب هذا المسرح الجديد بالعديد من الأعمال^(١٩) ، كانت كلها أعمالا ثورية من نوع الدراما التحريضية ، على غرار الأعمال التي كانت تقدم في أوروبا ، تدور حول الحياة الأمريكية . لكنها كانت تختلف في أنها

(١٩) جون هارولد فوسون ، مكيرو الصوت (١٩٢٧) نقاشه المطلي ، (١٩٢٨) ، مايكل جولد ، انغام هويركين الحزينة (١٩٢٨) ، أم جويش ، الارض ، الفرون (١٩٢٧) ،

جون سيقون ، الحزام (١٩٢٨) ، إيزون سكلير ، السجورون الصالحون (١٩٢٨) ، جون دوس باسوس ، مؤسسة الخطوط الجوية (١٩٢٩) .

العملية، الأسلوب الطبيعي ، الذي رفضه التعبيريون ويسكاتور وبريشت ، في تصوير بلذخ حياة رجال الأعمال الرأسماليين ويبحثهم عن الجنس والسلطة ، وصراع نقابات العمال معهم ، والاستغلال الذي كان يتعرض له العمال والولايات من السود واليهود على حد سواء . غير أن العروض التي قدمها المسرح كانت عروضاً تتوخى البساطة دون الانزياح، فقد كانت الديكورات التي قام بتصميمها مورديخي جورليك ، وجون دوس باسوس تتوخى البساطة في التصميم ، بحيث لا تعدوان تكون تركيزات من الدرجات والنصائح الحشوية على خلفية عادية ، أو كتلتين خشبيتين كبيرتين أحدهما يمثل الطبقة المستغلة من الأثرياء ويحمل الأخرى ممثلو العمال ، ويفصل بينهما عم يرتفع في آخره برج . وكانت تشترك في العرض فرقة من موسيقى الجاز ، وكورس غنائي لمنح المتفرج من الاندماج في العمل والتركيز على القضية السياسية المطروحة (٢٠) .

غير أن هذا المسرح كان قد سبقه في ١٩٢٦ قيام المسرح العمالي ، الذي كان يتألف من اثني عشرة مجموعة تتحد في مجلس عمال درامي ، ويشرف على قيادتها مسرح العمال العملي . كانت هذه المجموعات مكونة على غرار المجموعات التي تأسست في روسيا بعد ثورة أكتوبر ١٩١٧ ، وكانت تقدم عروضاً نضالية في ساعات الراحة ، أو في أثناء الاجتماعات العمالية . كان الممثلون عمالاً يعرضون أمام زملائهم بهدف نشر الوعي الطبقي بين العمال . بل أنهم استلوا شعاراً لهم : « طبقة ضد طبقة » . ولما لم يكن لديهم مسارح مجهزة يعرضون عليها ، فقد كانت التجهيزات والأدوات التي تلتزمهم بسيطة . مثل هذا المسرح لم يكن يلزمه أعمال محبوكة تتألف من مادة معقدة عسرة المهضم بالنسبة للمشاهد . بل كان كله من بين العاملين من المحلات التجارية والمخازن الاستهلاكية والمصانع ولا يستطيع متابعة حدث معقد طويل ، أو هضم عمل لا يتوخى المباشرة . لهذا فقد اعتمد كلياً على لوحات من حواريات قصيرة عن موضوعات الساعة ، بهدف إلى الدعاية والتحريض .

وقد اتخذت أعمال المسرح العمالي شكل لوحات من أغان ورقصات تؤديها جوقة من العمال . وكانت كلمات الأغاني وحركات الراقصين تشبه أعمال جورج كايوزر واوست تولر التعبيريين الألمانين . غير أنها كانت تتخذ أحياناً شكل مسرحية هزلية قصيرة بين عامل يساري وصاحب العمل الذي يعضده وزير وزعيم عمالي ، في حوار يحاول فيه العامل أن يسمّق أعداء العمال ، وأن يدعو العمال إلى الانضمام في الحزب الشيوعي . وكانت المسرحية تنتهي بالشيد الوطني العالمي تؤديه الجوقة .

ولم يلبث هذا النوع من المسرح أن اتجه إلى نوع من الدراما التعليمية ، على غرار مسرحيات بريشت التعليمية ، تليق من الصياح ، والدعوة إلى الثورة ، والسبب ، والتصوير الكاريكاتيري للشخصيات ، وإن ظلت دعائية

See Malcolm Goldstein, The Political Stage, American Drama

(٢٠)

and the Theatre of the Great Depression, N. Y., 1974.

وقد اعتمد هذا الجزء من البحث الحالي في جمع الحقائق عن المسرح السياسي ، دون الرأي الذي خرجنا به من قراءة هذه الحقائق ، على هذا الكتاب .

تحريرية . بل ان الحركة عملت الى فتح استديو يقوم فيه ممثلون ومخرجون مشهورون بتدريب مجموعة من العمال ، كان من بينهم الكاتب السرحي الذي لم اسمه فيها بعد ، كليفورد اوديتس . وقد انضم الى العمل مع هذه المجموعة اعداد من العمال الذين كانوا يعملون عمالين غير متفرغين . ولم يلبث هذا الاستديو ان تحول الى « مدرسة المسرح الجديد » ، كما تأسست جمعية عمالية لتدريب العمال على الرقص . واتجهت الحركة الى تقديم عروض مسرحية ماركسية تدعو الى النضال ضد الرأسمالية والمجتمع الطبقي .

وكان من نتيجة هذا التطور ان قام بعض العمال بخلق اعمال درامية عبرة تقوم على تصوير موقف متصاعد تتغير فيه مواقف بعض الشخصيات العمالية التي تميل الى اليمين . كانت هذه المسرحيات تدور حول الصراع الطبقي ، واستغلال العمال . وقد اسفطت هذه الاعمال جانب الدعاية التحريضية المباشرة ودعت الى ما اسمنه « مسرح الفعل » ، وان لم يخل هذا المسرح تماما من العنصر الدعائي التحريضي .

ومن ابرز هذه الاعمال كانت مسرحية كليفورد اوديتس في انتظار ليفتي وتدور احداثها حول اضراب سائقي سيارات الاجرة . وقد قدمت المسرحية على مسرح عار ، حيث تجمع الممثلون في شكل عرض غنائي ، وراح كل واحد منهم ينهض من وسط المجموعة ليؤدي دوره ، ويشرح اسباب طرده من عمله ، مؤيدا الدعوة الى اضراب . وكانت اللحظة التي تقوم عليها المسرحية تجمع بين مشاهد من حياة العمال ، تتلوها فقرات من الحوار تكشف الطبقة المستغلة ، وتنتهي بتضامن العمال وتبنيهم الدعوة الى النضال . وربما كانت المسرحية تدور حول مشاكل فئة من الطبقة الوسطى الصغرى ، لكن الهدف كان بالفعل اجتذاب تماطف هذه الفئة مع طبقة العمال .

وقد اجتذب هذا النوع من المسرح عددا من الاكاديميين والكاتب من العناصر الليبرالية ، الذين وجدوا في هذا اللون شكلا جديدا يسمح بالتجريب . وهكذا انضم الى هذه الحركة اثنان من كانوا يقومون بتدريس الدراما ، هما هالي فلاناجان ومارجريت كليفورد ، بمسرحية هل تستطيع ان تسمع اصواتهم ، كانت المسرحية تنوعا على الدراما الدعائية التحريضية ، تقوم على الاسس الدعائية من ناحية تقسيم المسرح الى جانبين يمثل احدهما فئة تمثل السلطة والثراء ، ويمثل الجانب الآخر مجموعة تمثل العمال والفقراء والضعفاء ، ويتبادلان فيها بينها الشد والجذب .

ثم قام تشارلز ووكر ، وهو واثي وباحث في اقتصاديات العمل ، بانشاء اتحاد المسرح ، وقد ضم في عضويته كل اصحاب المبادئ ابتداء من الليبراليين الى اليساريين الثوريين ، بحيث لم يعد للمسرح هوية سياسية معينة . ولعلنا نستطيع ان نستخلص من هذا ان دخول المثقفين الى حركة العمال المسرحية قد ادى الى تجميع قضيتهم . ويتضح هذا في ان الدعوة الى الثورة فقدت دفعها ، وحللت محلها الدعوة الى الديمقراطية . هذا هو ما نلمسه في الجزء التالي من بيان المسرح ، رغم اللغة اليسارية التي صيغت بها اجزاؤه الأخرى ، أو تعقيبات أخرى أكثر ثورية . يقول البيان :

اننا نعرض مسرحيات تناول بجرأة الصراعات الاجتماعية الجارية ، والمشكلات الثقافية والعاطفية

والاقتصادية التي تواجه الأغلبية . ومسرحياتنا تغايب مباشرة هذه الأغلبية التي عادة ما يتجاهلها المسرح او يعثرها بشكل كاريكاتيري . ونحن لا نتوقع أن تتلام هذه المسرحيات مع الأنماط الاجتماعية المتعارف عليها . فهذا نوع جديد من المسرح الاحترافي ، يقوم على احتمالات وآمال الجماهير الفقيرة من العمال^(٢١) .

وعلى الرغم من أن هذا الاتجاه الجديد كان يضم جماعة من خريجي الجامعات الذين كانوا يؤمنون بالحل الاشتراكي ، واعين باستغلال الرأسمالية للعمال وبأن أصحاب الأعمال هم أصحاب المصلحة في إشعال نار الحروب التي يلغى العمال أنفسهم ثمنها ، وعلى الرغم من دعوة المسرح للعمال أن يتحدوا في وجه الحرب والطبقة الحاكمة ، الا ان همه الأول كان تحقيق توازن بين الدعوة إلى الفعل الثوري وبين أساليب مسارح برودوي في العروض . وهكذا راح يعرض مسرحيات تصور هزيمة شخصيات ذات نوايا طيبة تحاول النضال ضد السلطة القائمة ، كما تصور الصراع بشكل ميلودرامي ، أو بأسلوب طبيعي ، وهو الأسلوب الذي وجدده المسرح الملحمي عاجزا عن تصوير العلاقات في المجتمع الطبقي . ويتضح هذا تماما من قراءة مسرحيات وعلى الأرض السلام لجورج سكلاير والبرت مولتر ، وستيفدور لجورج سكلاير ويول بيرتز ، وبحارة كاتارولف لفرديريك وولف . وقد أوجز أحد النقاد الرأي في مسار المسرح السياسي بقوله من مسرحية الحفرة السوداء لألبرت مولتر :

لقد اتخذ ألبرت مولتر خطوة باتجاه آخر يختلف عن المسرحيات السابقة . فاهمية هذه المسرحية ترجع الى انها تدلل على نمط مختلف في اختيار المادة وفي تناولها . فاذا كانت مسرحيات مثل وعلى الأرض السلام ، وستيفدور ، وفي انتظار ليفي تصور الانسان وهو يقاوم هجمات الرأسمالية ، ويقاومها بلا هوادة ، ويقهرها ، على الأقل مؤقتا ، فان الحفرة السوداء تتناول انسانا مسحوقا . وكلا النوعين من المسرحيات يكشف قوى الظلم ، لكن النوع الأول يكشفها من خلال وسائل مباشرة ، والثاني بشكل غير مباشر . وكلا النوعين دعاية مؤثرة بالتساوي . لكن نظل هناك خاصية اخرى مميزة . ففي ستيفدور تصور افعال البطل تصورا دراميا ، لكن الحفرة السوداء لا تصور افعال البطل فقط بل الصراعات الخلقية والنفسية . وبعبارة اخرى ، اذا كانت ستيفدور تؤكد الفعل ، فان الحفرة السوداء تؤكد الشخصية وليس هناك بطبيعة الحال ما يستبعد كلا من الشخصية والفعل من أن يوجد في مسرحية بنفس الدرجة . وليس هناك ، فيما نرى ، أي شيء في تناول المادة التي تحدد الضغوط تناولها مباشرة ، أو غير مباشرة . وما زال أمامنا في امريكا أن نتج مسرحية ثورية تحقق توازنا فعالا بين الصراع الداخلي والأحداث الخارجية ، بين دراما الفرد ودراما طبقته^(٢٢) .

إنه في الحالين يؤكد على تخلي المسرح عن الرسالة السياسية كما نراها في المسرح السياسي او في المسرح الملحمي .

Ibid., p.59.

(٢١)

Ibid., p.74.

(٢٢)

كما أن هذا الاستعراض الذي أوردناه يؤكد أن المسرح السياسي في أمريكا بدأ يتجه - بدخول العناصر المثقفة فيه - إلى تصوير دراما الفرد أكثر من التأكيد على العلاقات البشرية في المجتمع الطبقي ، كما نراها في المسرح الملحمي . أو لعله ، في أحسن أحواله ، كان صيغة أمريكية أخرى مختلفة عن صيغة المسرح السياسية والمسرح الملحمي اللاتينيين اللذين حاولنا التعرف عليهما .

هذا الفرق الجوهرى يتضح في اتجاه المسرح الأمريكى ، في مرحلته الأخيرة في النصف الثانى من العقد الرابع ، إلى العروض المبهمة كما في فنو النسر الذهبى لسيلين ليفي ، أو في تبني أسلوب مسرح ستانيسلا فسكى الطبيعى ، وكذلك في استخدام الديكورات الفخمة الثقيلة ، والاستعراضات النسائية الراقصة المثيرة كما في البسطة المهذبة التي كتبها لوسون .

ولعل هذا التحول يمكن تفسيره في ضوء التحسن الاقتصادي الذي طرأ في منتصف الثلاثينات ، مما سمح للنزعة الفردية في المجتمع الأمريكى أن تستعيد توازنها مرة أخرى . كذلك كانت بقعة ألمانيا تهدد بحرب عالمية أخرى ، مما كان يدعو إلى تضامن كل القوى الاجتماعية للوقوف في وجه النازية ، مما أدى بالفعل إلى اتجاه اليسار إلى التحالف مع البرجوازية . كما ظهر اتجاه واضح ضد المسرحيات الدعائية التحريضية بحجة أنها « غير عصرية » وأنها حافلة بالشعارات . وهكذا لم تعد الدعوة إلى الثورة هي الصحيحة ، بل تحولت دعوة إلى الديمقراطية ، وإلى حق الطبقات المختلفة في عرض وجهة نظرها . من المؤكد ، على أية حال ، أن المسرح السياسي المحترف تحول إلى تقديم العروض المسرحية الموسيقية ، والاستعراضات الراقصة ، والكوميديا الاجتماعية الساخرة ، أي أنه ، بعبارة أخرى ، تحول إلى مسرح اجتماعي ، وفقد صيغته السياسية .



ولعلنا مما تقدم نستطيع أن نلمس أن المسرح السياسي هو في أساسه مسرح أزمات . فهو لا يزدهر إلا في ظل الأزمات الاقتصادية ، والسياسية ، والاجتماعية ، سواء في ألمانيا الهزينة والقهر النازي ، أو في أمريكا الأزمة الاقتصادية . ولهذا فلم يكن من الغريب أن يحفر المسرح السياسي ، والمسرح الملحمي أثرا عميقا في المسرح العربي في ظل الصراع العربي - الصهيوني الذي ألقى بظله الكثيب على الساحة العربية ، وعلى وجه الخصوص بعد هزيمة ١٩٦٧ بكل آثارها التاريخية والانسانية .

هكذا جاء اتجاه الفريد فرج إلى نوع من المسرح السياسي في النار والزيتون التي عرضت في المسرح القومي بالقاهرة في ابريل ١٩٧٠ . لم تكن بالضبط نفس المسرح السياسي الذي قلعه يسكاتور ، ولا المسرح الملحمي كما نعرفه عند بريشت . كانت نوعا له نفس اساليب العرض الفنية ، ونفس الرسالة السياسية . لكن رسالتها تجمي « بشكل أكثر مباشرة من خلال التسجيل الوثائقي لحقائق تاريخية سياسية ، الذي نجد شيئا له في المسرح التسجيلي عند بيتر فايس .

والنار والزيتون لا تعتمد على تصوير حدث شخصي ، أو عالم ذاتي ، أو تفاعل بين عالم الذات والعالم

الموضوعي . فهي مسرحية تتناول اساسا عالم الواقع الخارجي ، حيث صراع القوى الاقتصادية والسياسية التي تحاول تشكيل الواقع العربي المعاصر . والكاتب نفسه ينطلق من وعي بالغ الحدة بما ينبغي طرحه . فهو يريد ، في المقام الأول ، أن يطرح قضية عامة ، لا قضية شخصية . فالقضية ، في نهاية الأمر ، قضية شعب ، ربما كان له وجه فلسطيني ، لكنه وجه بلوح على كل الأفق العربي . هو وجه له امتداده الجغرافي ، وجذوره التاريخية . ازاء هذه الخاصية العامة لا يملك المفرد فرج أن يتصدى لهذه القضية ، كما يقول في مقدمة المسرحية ، من خلال اختيار « قصة شخصية » ، ذات دلالة شاملة ، لأحد الضحايا أو لأحد المناضلين في هذه القضية » ، فهو لا ينشد « أقل من طرح قصة شعب كامل » (٢٣) .

وإلى ذلك تظل القضية المطروحة ذات مستويات متعددة . فمن خلال طرح مؤامرة الرأسمالية العالمية ، والأمبريالية ، والصهيونية لاحتصاب فلسطين ، يتوسل الكاتب إلى طرح القضية على مستوى كوني ، بحيث تصبح الثورة الفلسطينية جزءا من الثورة العالمية في فيتنام ، أنجولا ، بوليفيا ، وغيرها ، ضد الأمبريالية في كافة وجوهها ، والتي اكتسبت في مرحلتها الأخيرة ملامح الصهيونية العالمية . وليس الهدف النهائي مجرد طرح القضية على هذا النحو ، بل استغراق الغضب ، والشحن ، والتعبئة ، والتحريض .

مثل هذه القضية ذات الامتداد التاريخي ، والجغرافي لا يمكن أن تصورها أطارا منظريا محيدا . ولذلك لا يملك المؤلف أن يطرحها على خشبة مسرح عار ، مستغلا كل وسائل المسرح السياسي والوثائقي ، وكل الوسائل التكنولوجية الممكنة . فهناك ستار من الضوء يفصل مقدمة المسرح عن عمقه ، وأقل ما يمكن من التجهيزات اللازمة لتصوير بيئة منظرية لمشهد درامي قصير ، وهناك شاشة عرض سينمائي في عمق المسرح . على هذه تسقط مشاهد فيلمية ، أو شرائع ثابتة ، لأرض التدريب في معسكر ، لعالم طريق جبلي يشقه الفدائيون في طريقهم لنسف مصنع ذخيرة في مستعمرة إسرائيلية ، لمشاهد الاعتقال الجماعي ، والقتل الجماعي في كفر قاسم ودير ياسين ، لمشاهد الهجرة الجماعية فوق جسر اللنبي ، كما تسقط أفلام تسجيلية إخبارية . وهذه الشاشة تكتسب نكهة عملية في استخدامها وسيلة لعرض من عروض خيال الظل تصور عربات تجرها بغال ، أو لوريات محملة بركاب عرب ، قبل أن يتجسم الركاب على خشبة المسرح أفرادا يخضعون للاعتقال ، والاعتصاب ، والتعذيب ، والقتل .

وبالإضافة إلى استخدام السينما ، هناك استخدام لوحات تحمل إحصائيات بتعداد فلسطين من العرب واليهود في ظل الانتداب الإنجليزي قبل ١٩٤٨ ، ويقدر مساحات الأرض التي كان يمتلكها العرب واليهود ، وبتعداد العمال الزراعيين العرب ، وظروف حياتهم وعملهم ، بالمقارنة إلى نظائهم من الاسرائيليين ، وإحصائيات عن المدارس وظروف التعليم ، ونسبة الطلبة العرب إلى الطلبة الاسرائيليين . وهناك أيضا لافتات بأسماء الشخصيات الصهيونية التي تشترك في أداء مشهد ، أو تلقي بمقولات تاريخية .

واستخدام هذه الوسائل لا يهدف فقط إلى نقل معلومات إخبارية تاريخية إلى المتفرج ، أو إلى نقل تقرير تاريخي . فهو يستخدم أيضا نفس هدف المسرح السياسي ، والملمحي ، في خلق مسرح آلي . والفريد فرج واع تماما بهذا ، إذ يقول في مقدمة مسرحيته :

انني اطمح بتأليف هذه المسرحية الى التقدم خطوة نحو المسرح الميكانيكي المركب ، مسرح الزينق الكامل ، المسرح الذي يعمل كالألات الدقيقة بقدرة وكفاءة ومهارة بحيث يكون لهذا الضيق الدائري الدقيق قوة تضفي على مهارات الخلق الفني الطلق أطوارها وإحكامها وجسنا استثمارها^(٢٤) .

كل هذه الخلفيات التقنية ليست الا وسائل لخلق مسرح شامل يقوم على تصوير مشاهد درامية تشخص صراعات إنسانية ، او معاناة إنسانية تكشف علاقات القوى المتورطة في الصراع السياسي والعسكري ، كما يقوم على حكاية عن مآسي الهجرة الجماعية ، وحياة اللاجئين في الحيام ، والكفاح ، والاستشهاد ، وعلى تصوير لقاءات صحفية تدور بمسرح الجريدة الحية ، وعلى الغناء الجماعي ، وتعليقات الجوقة ، والخطاب التقريري المباشر ، والتشيل الصادق ، والرقص التعبيري الذي يعبر بالحركة عن كلمات الممثلين على نحو ما نعرفه في مسرح بريشت .

المسرحية تستخدم إذن ، كافة الوسائل التي يتيحها المسرح الشامل لطرح قضية سياسية ، وخلق مسرح دعائم تحريري يستفز الجمهور الى فهم القوى السياسية ، الاقتصادية ، العسكرية ، التي تدور المعركة العربية الاسرائيلية ومن خلال هذا الفهم يستفز للمسرح الجمهور الى التحرك ضد الرأسمالية التي نسجت خيوط مؤامرة فلسطين ، وهدم الامبريالية ، والنازية الصهيونية الجديدة ، لتغير هذه الظروف بالقوة .

ولم يكن سعد الله ونوس في حفلة سمر من اجل هـ حزيران أقل طموحا . فالتجربة التي تعرضها المسرحية لا يمكن ان نحددها بحدود شخصية . ولم يكن في إمكان الفنان ان يعبر عن هزيمة ١٩٦٧ على امتداد العالم العربي من خلال دراما شخصية ، او مجموعة من الشخصيات ، او كما يقول عبد الغني الشاعر ، المؤلف المسرحي في هذه المسرحية : « . . المسرح . . اجل المسرح ، ولكن هذه المرة كم ان رفته اوسع من الخشبة الصغيرة التي يمثلها مسرحنا »^(٢٥) . حدث التجربة هنا ، واتساع رقتها ، فتجر في الكاتب تصورا لشكل مسرحي جديد يحكمه هدفه السياسي الذي لا ينحصر فقط في التوعية ذلك انه يدرك ان وعي الجماهير اكثر اصاله من ان يزيغ او ان يضاف اليه جديد ، بل في استحضار التجربة بكل ابعادها في لحظة حادة بهدف التبعة والتحرير .

اننا هنا امام نوع من المسرح الواقعي الحشن ، مسرح شخصياته بلا ملامح شخصية ، ولا هموم خاصة . هي ، كما يقول المؤلف :

(٢٤) المرجع السابق ، ص ٨ .

(٢٥) سعد الله ونوس ، حفلة سمر من اجل هـ حزيران ، بيروت ، ب . ت . هـ ، ١٩٨٠ .

أصوات ومظاهر من وضع تاريخي معين . ان الافراد بذاتهم لا يملكون اية ابعاد خاصة ، وملاحظتهم
ترسم فقط بما يضيفونه من خطوط او تفاصيل على صور الوضع التاريخي العام الذي هو شكل المسرحية
ومضمونها في آن واحد (٢٦) .

هذه الصفة التاريخية هي التي تسقط عن الشخصيات ، والحدث المسرحي ، اي مجاز ممكن ، او اسقاط ، او
رمزية . فهي شخصيات لا تميزها ملاحظتها ، وتتجاوز هذه اللامح الى صفات نمطية ، او رموز ، بل تميزها في الاساس
اتجاهاتها ، ومواقفها من الحدث الاكبر ، هزيمة حزيران . اننا بعبارة اخرى ، امام نوع من المسرح التاريخي الذي يتم
الى حد تبسيطه ليجل تصوير « كلية الحركة » (٢٧) ، او كافة الاتجاهات الممكنة التي تتجسم في لحظة تاريخية حاسمة في
حياة امة ، لئنصب على هذه اللحظة التاريخية . وهي شبيهة بمسرح بيسكاتور السياسي من حيث انها تركز على الخط
العام ، لا على الخط الشخصي .

وتصوير هذا الوضع التاريخي يأخذ شكل الصراع بين المسرح الرسمي وما يمكن ان نسميه بالمسرح الشعبي :
المسرح الرسمي الذي يحاول ان يبيد ولاءه للسلطة ، وان يساندها من خلال عروض تعتمد على خلق صور وتأثيرات
درامية تفرغ الوضع التاريخي من محتواه الانفعالي والفكري ، والمسرح الشعبي الأكثر تلقائية ووعيا . الصراع في جوهره
اذن ، صراع بين السلطة والماهر الشعبية .

واللحظة التاريخية التي تتناولها المسرحية تتجسم على المسرح من خلال اتجاهين اساسيين : اتجاه يمثل المخرج ،
واتجاه يمثل الناس . والاتجاهان يصطدمان حول الاسلوب الممكن لتصوير الكارثة . فالمخرج ، رغم ادراكه للظرف
التاريخي الصعب الذي يسمى لتجسيده على المسرح ، يرى ان « الذاكرة ليست اختصاص المسرح ، لعلها اختصاص
المؤرخ ، اما هنا فاختصاصنا الوحيد هو الفن . . . » (٢٨) وهو لذلك لا يزعم انه « يقدم نسخة وثائقية عما حدث . نحن
هنا في سياق عمل مسرحي . . . » (٢٩) ، ويسعى الى تصوير الهزيمة من خلال تأثيرات سمعية وبصرية جمالية ، في صور
لا تعبر عن الواقع ، بقدر ما تعبر عن تصور برجوازي مهتري ، يغلدر المتفرجين ، ويسلبهم القدرة على الفعل الايجابي
في مواجهة الواقع المهيمن .

ولما كان الحدث السياسي في حفلة سمر يتم من خلال منظور جدلي يقرم على تصوير الفعل ورد الفعل ، فان
تصور المخرج يدفع الجمهور الى الاحتجاج على هذا الاحتيال على اللحظة ، والتأثر على مشاعره وعقله : « نحن
عشنا الصورة الواقعية » (٣٠) ولهذا يتجه الجمهور الى احتلال خشبة المسرح لطرح صورة اكثر واقعية وحيوية وعفوية .

(٢٦) المرجع السابق ، ص ٣ - ٤ .

(٢٧)

(٢٨) سيد الله ونوس ، حفلة سمر ، ص ٨ - ٩ .

(٢٩) المرجع السابق ، ص ٢٧ .

(٣٠) المرجع السابق ، ص ١٠٢ .

ففي حين بدأت المسرحية بخشبة المسرح الرسمية مخاطب الجمهور ، تنقلب الآية بحيث تصبح الصالة هي التي توجه خشبة المسرح ، أو لنقل مخاطب خشبة المسرح .
المخرج : . . . الخشبة لنا ومقاعد الصالة لكم . تلك أبسط قواعد المنطق . وسيعلمك هذا كثيرا مما كنت تجهله .

المنفرج : قلت لك حاول مرة أن تكون منفرجا^(٣١) هكذا تتبادل خشبة المسرح والصالة مكانتهما . عندئذ تتحول خشبة المسرح إلى مسرح سوي ، يستعير الكثير من أدوات المسرح الملحمي ، يحكي عن الحرب ، والهجرة الجماعية والأكاذيب التي كانت تُلقي إلى الناس . هي حكايات تروي قصة اللحظة التاريخية من وجهة نظر شعبية . وهي حكايات تأخذ في لحظات شكل الخطاب المباشر الذي يوجه إلى الجمهور :

المنفرج ٤ - كانت تلك حرينا .

المنفرج ٣ - ضد الغاصبين والصوص .

المنفرج ٤ - كانت تلك حرينا .

المنفرج ٥ - ضد حماة اللصوص .

المنفرج ٤ - كانت تلك حرينا .

المنفرج ٦ - ضد الجوع والبؤس والموت كل يوم .

المنفرج ٤ - كانت تلك حرينا .

المنفرج ٥ - وقتينا جميعا أن نكون ذلك الذي الجندو يحمل بندقية ، لكنه لا يلبس ثيابا خضراء وعن الجنود يختلف^(٣٢) .

إن ما كان يقال سرا ، ينطلق الآن في أرجاء المسرح جهرا . فقد حول سعد الله ونوس المسرح إلى قاعة اجتماعات تسيطر عليها الجماهير . وفي هذا المسرح الاستفزازي التحريضي يبد المخرج طرحا لقضاياهم الجماهيرية يمجّزه إلى التحرك ضد الأعداء الذي يتأمرون عليه من الخارج ، والأعداء الذين يتأمرون عليه من الداخل ، ضد الهزيمة التي تمت ، والهزيمة التي مازالت مستمرة من خلال قوى القمع ، وهي القوى التي تنفض في نهاية المسرحية من بين الصفوف لتكتم الأصوات التي اندلعت من فوق خشبة المسرح .

وفي لبنان ، كان من الطبيعي أن ينبثق أيضا ، في ظل الظروف التي يمر بها ، نوع من المسرح له نفس الأهداف السياسية . ومن ثم كان مسرح الحكواتي . وهو مسرح ينطلق من موقف رائف للمسرح التجاري الاستهلاكي الذي تقوم البرجوازية بتحويله ، ويقوم على عروض تستهدف الإثارة والتسلية ، مثلها هورافض للمسرح الرسمي الذي تقوم الدولة بتحويله ، ويعبر عن وجهة النظر الرسمية ، ولا يسمح بالتعبير عن الرأي المعارض أو وجهة النظر الشعبية . مثل هذين المسرحين يتسمان ، من وجهة نظر مسرح الحكواتي ، بانعدام الأصالة ، كما يتسمان بقمع الرأي المعارض . فالمسرح السائد « مسرح غربي وقمعي في جوهره »^(٣٣) وهكذا يأتي مسرح الحكواتي مسرحا سياسيا في المقام الأول .

(٣١) المرجع السابق ، ص ١٣٥ - ١٣٦ .

(٣٢) المرجع السابق .

(٣٣) بيان مسرح الحكواتي ، لبنان ، العدد ١٦٣ ، الكويت ، أكتوبر ١٩٧٩ ، ص ١١ - ١٠ .

هذا الموقف السياسي يتضح في خطوات العمل التي يمجدها لانتاج عروض . فهو يبدأ من النقاش بين الاعضاء و من اجل الوصول الى وعي مشترك لمتطلبات الطرف والواقع .^(٣٤) والطرف والواقع ، اللذان ينطلق منهما النقاش ، يتسمان بالصراع بين البرجوازية والفئات الشعبية . وهو صراع يأخذ شكل تشابك مصالح البرجوازية والاستعمار والصهيونية من ناحية ، وتشابك مصالح القوى المحلية الوطنية التقدمية والمقاومة الفلسطينية من ناحية اخرى . لذلك كان « الوعي المشترك » الذي ينشد المسرح الوصول اليه ، وتوصيله ، وعيا سياسيا في المقام الأول .

هذه الهوية السياسية تتضح معالمها اكثر في توجه المسرح توجهها شعبيا . فهو يختار اعضاء الفرقة من خلال نوعية ارتباطهم بالجمهور الذي يمثلونه . وهو في هذا يؤكد على انتهاء الاعضاء الى « اصول شعبية »^(٣٥) كما يعتمد في اختياره لموضوعات من الحكايات الشعبية والتراث والتاريخ ، وهي ما يشكل في الاساس الذاكرة الشعبية ، وينتقل بعروضه الى مواقع الجماهير في الاندية ، والجمعيات المحلية ، والفروع الحزبية ، وينشد انتشار العمل المسرحي « بين اوسع الفئات الشعبية »^(٣٦) وربما كان مكان العرض وامكانيات التمويل ، هي ما يفرض على عروض هذا المسرح البساطة في الديكورات والتجهيزات والاضاءة والازياء . لكن الهدف الاساسي في هذا كله ، وهو الهدف الذي وضعه المسرح نصب عينيه ، هو تكوين اسلوب مسرحي شعبي .

وربما نلتصق في اسلوب العرض ، وامكانته ، والتوجه الشعبي شيئا من اصول المسرح السياسي الامريكي : مثلما نلمس في الموضوعات المطروحة ، واعتماد الحكاية الشعبية مضمونا واسلوبا ، بعض ملامح المسرح الملحمي . فشان المسرح الملحمي يعتمد العرض اساسا على الحكاية الشعبية التي تعيد الجمهور الى علاقته بواقعه ، كما يستخدم الراوي ، والادوات المسرحية البسيطة والمكشوفة لخلق التفرغ الذي يحقق الانفصال النقدي الذي يركز لدى المشاهد للدلول السياسي للحكاية المعروضة . والصفة الملحمية تتأكد في اعتماد مسرح الحكواتي على ان « يشترك الجميع في بلورة طبيعة العلاقات التي تربط بين شخصيات المشهد »^(٣٧) اي انه يؤكد على العلاقات البشرية ، لا على الطبيعة البشرية مثلما يحدث في المسرح الدرامي التقليدي . كما ان اعداد الممثل من خلال الاداء الازمعي الجماعي ، ثم المناقشة من اجل تحديد التركيب السرحي الصحيح للمشاهد وتحديد اسلوب الاداء المناسب^(٣٨) يذكروا مرة اخرى بأسلوب بريشت في الاخراج ، وهو الذي لم يكن يفرض على الممثل تأدية الدور ، في اطار الاداء الملحمي ، بشكل معين ، بل يطلب منه ان يكتشف ، من خلال الاداء الفعلي ، اثناء التدريبات ، طبيعة الشخصية التي يؤديها ، وطبيعة سلوكها ، قبل ان ينتقل الى مرحلة انفصاله عنها .

وربما دعا توفيق الحكيم من قبل الى استخدام الحكواتي كشكل شعبي ، اودعا يوسف ادريس بعده الى استخدام شكل السامر كشكل عربي شعبي ايضا . لكن الاضافة الحقيقية التي يضيفها مسرح الحكواتي اللبناني الى هاتين الدعوتين هي البعد السياسي بالتحديد ، واستفادته من تجارب المسرح الملحمي على وجه الخصوص ، من اجل نشر الوعي السياسي ، والدعوة الى تغيير الواقع من خلال الفعل الايجابي ، وهو ما كان على الدوام هدف المسرح السياسي .

٣٦) المرجع السابق ، ص ٩٠ .

٣٨) المرجع السابق ، ص ٩٠ .

٣٤) المرجع السابق ، ص ٩٠ .

٣٥) المرجع السابق ، ص ٩٠ .

٣٦) المرجع السابق ، ص ٩٠ .

١ - مقدمة :

يرى رجال الاعلام أننا نعيش الآن في سنوات الثورة الاعلامية الثالثة ، سنوات السينما والاذاعة والتلفزيون . (حدثت الثورة الأولى بظهور المطبعة ، والثورة الثانية بظهور وكالات الأنباء) وتتميز الثورة الثالثة بأنها أتاحت للجماهير فرص اختيار هائلة بين الاستماع ، أو القراءة ، أو للمشاهدة ، ولم تكن هذه الفرص متوفرة بهذا القدر من قبل .

ومن علامات الثورة الاعلامية الثالثة أن وسائل الاعلام احتلت مكان الوالدين والمدرسين في نقل العلم والمعرفة الى الأفراد ، فأصبح معظم التعليم يتم خارج الفصل الدراسي ، وأصبحت الكمية الفائلة من المعلومات التي تنقلها الصحف والمجلات والأفلام والاذاعة والتلفزيون في أيامنا هذه ، تفوق بكثير كمية المعلومات التي ينقلها مدرس الفصل ، وهذا التحدي حطم احتكار الكتاب كمساعد أساسي في العملية التعليمية ، وأحدث شرحاً في حائط الفصل الدراسي أدى الى إرباكنا . (٣ ص ٨٦ ، ١١ ص ١٦) * .

وخلال السبعينات من هذا القرن ، ظهرت مؤشرات جديدة تدل على تجدد واستمرار الثورة الاعلامية الثالثة ، فأتضح للعلماء أن هناك جوانب من السلوك الانساني تؤثر فيها وسائل الاعلام ، ولم يكن ذلك معروفاً لديهم قبل السبعينات ؛ كما بزغ عدد من الموضوعات الهامة التي أدت الى اتساع مفهوم « تأثير وسائل الاعلام » ، فازداد الاهتمام بموضوعات مثل دور النمو المعرفي عند الأطفال في فهمهم البرامج التلفزيونية ، وما اذا كان « المعنى » الذي يستخلص من الرسالة المطبوعة يترك بنفس الطريقة التي تستخلص من التلفزيون ؟ ثم دور وسائل الاعلام في النمو الاجتماعي والاقتصادي .

وسائل الاعلام

وأهداف تخصصية الفرد

عظماى احمد ركع

أستاذ مساعد - قسم علم النفس
جامعة الكويت

ويظهر تأثير وسائل الاعلام في عصرنا الحديث ، في هذه الجوانب ، ساد الاختناق بين الباحثين والمربين ، والسياسيين ، ورجال الاعلام ، ورجال الأعمال ، بأن وسائل الاعلام تؤثر في كل جانب من جوانب السلوك : كالسلوك السياسي ، والسلوك الاجتماعي ، وسلوك المستهلك ، والصحة والتعليم ، والمعارف المهنية . وسأبجاء أصبحت وسائل الاعلام لها دور حتى في تكوين الصور الذهنية عند الأفراد عن الدول والمواقف والأحداث ، بل يمكن القول انها تؤثر في الطريقة التي يدرك بها الناس الأمور ، والطريقة التي يفكرون بها ، وفي سلوكهم نحو عالمهم الذي يعيشون فيه . (١ ، ١٥) .

من هذه المقدمة السريعة عن مدى تأثير وسائل الاعلام في السلوك الانساني ، يتضح لنا أن هناك نوعين من التأثيرات التي تحدثها :

الأول على الأفراد الراشدين ، وهو ما سوف نطلق عليه في هذه الدراسة « التأثير المتعاصر » .

والثاني التأثير على الأطفال ، وهو ما سوف نطلق عليه « التأثير النمائي » . أما الأول فيحدث للأفراد وهم في مرحلة البلوغ والنضج ، أي بعد عبورهم مرحلة الطفولة ، والتأثير في هذه المرحلة العمرية يتم بالتفاعل بين شخصية الفرد الذي يتعرض للرسالة الاعلامية ، والرسالة الاعلامية ذاتها . وكانت الدراسات السابقة قبل الخمسينات تركز على هذا التأثير المتعاصر ، فدرس العلماء تأثير وسائل الاعلام على تغيير الاتجاهات ، وتوجيه وخلق الرأي العام ، وخاصة في الانتخابات والدعاية ، والاعلام السياسي ، والتجاري .

أما النوع الثاني من التأثيرات وهو التأثير النمائي ، فهو الذي يتم بدراسة أثر وسائل الاعلام في سلوك الأطفال خلال مراحل نموهم منذ الطفولة وحتى البلوغ ، وقد بدأت مثل هذه الدراسات بعد ظهور التلفزيون خاصة . وهذا النوع من التأثير هو موضوع الدراسة الحالية التي بين أيدينا .

وحق يتضح التمييز بين النوعين من التأثيرات نتحدث بأبجاء عن التأثير المتعاصر لوسائل الاعلام ، قبل أن نتنقل الى موضوعنا الرئيسي .

٢ - التأثير المتعاصر لوسائل الاعلام :

يمكننا القول ان التأثيرات الاساسية لوسائل الاعلام في التأثير المتعاصر هي تأثيرها في الجانب المعرفي عند الفرد أي اعطاه معلومات جديدة تختلف عن معلوماته السابقة ، وتغيير أو تعديل أو خلق صور ذهنية عنده عن الأحداث أو المواقف أو الدول أو الأشخاص . ويحدث تأثير الرسالة الاعلامية اذا كان مضمونها يتفق مع بعض جوانب شخصيته ودوافعه وقيمه ولذلك فان الرابطة الاساسية بين مضمون الرسالة الاعلامية والسلوك الاجتماعي للشخص الراشد تصاغ من خلال التفاعل بين المعلومات المنقولة من جهة وبين العمليات المعرفية عند الفرد الراشد ، وشخصيته بصفة عامة من جهة أخرى .

وهذا يعني أن استجابة الأفراد لهذه الرسالة تختلف من فرد الى آخر وأحد الاتجاهات الحديثة في مجال دراسات وسائل الاعلام ، الاهتمام بمعرفة الظروف والمواقف التي على ضوءها يستجيب الأفراد للرسالة الاعلامية .

ولأن الوسائل الاعلامية أصبحت في عصرنا أهم مصدر نستقي منه معلوماتنا ومعارفنا عن العالم المحيط بنا ، كما أوضحت ذلك الدراسة التي أجريت عام ١٩٧٧ على العينة القومية الأمريكية ، حيث تبين أن ٨٥٪ من أفراد العينة أجابوا على السؤال : من أين حصلت على معلوماتك حول ما يدور في العالم ؟ أجابوا بأنهم حصلوا عليها من وسائل الاعلام . فمن هنا يأتي تأثير وسائل الاعلام ، ويتضح مدى أهميتها في توجيه سلوك الفرد الراشد ، فيمكن مثلاً لوسائل الاعلام أن تثير ما تريد في ثنانيا المعلومات والمعارف والأخبار ، وبالتالي تحدث تأثيرها على الأفراد الذين يتلقونها بالطريقة المشهودة للطلب .

ونحن جميعاً في العالم العربي نستطيع ببساطة أن ندرك مدى استخدام وسائل الاعلام الأجنبية في إعطاء العالم المحيط بنا صورة مشوهة عن الفرد العربي ، وقد لا ندرك مدى الجهد المطلوب لازالة أو التخفيف من هذه الصور المشوهة هنا .

ومن التأثيرات الهامة لوسائل الاعلام على الفرد الراشد هو أن وسائل الاعلام تلعب دوراً أساسياً في خلق وتكوين ما يسمى « بيئة الرأي » ، فحيث ان الناس يتحاشون العزلة الاجتماعية ، فانهم يميلون لأن يعبروا عن الآراء التي تؤيد ما يدركون أنها آراء سائدة أو شائعة بين الجماعة ، ويقنعون الآراء التي يرون أنها « غير شائعة » ، وهذا يدعم بدوره رأي الأغلبية ، الذي يؤدي بالتالي الى قمع أكثر لرأي الأقلية . . . وهكذا . ويطلق العلماء على هذا الميكانيزم « لولب الصمت » وتلعب وسائل الاعلام المختلفة دوراً هاماً في هذا المجال ، ازاء القضايا المطروحة للجمهور وتتطلب رأياً عاماً .

ومن التأثيرات المتصاعدة الهامة لوسائل الاعلام أيضاً ، ويركز عليها علماء العلوم الاجتماعية حديثاً ، مساهمة وسائل الاعلام في نقل الثقافة ، أي نقل ثقافة مجتمع الى مجتمع أو مجتمعات أخرى . ففي دراسة أجريت عام ١٩٧٩ في كندا عن المناطق التي كانت معزولة في شمال كندا ، وبعد ادخال الارسل التلفزيوني اليها ، اتضح أن التلفزيون قد أسرع بنقل البناء الثقافي والقيمي الأوربي - الكندي الى المراهقين في هذه المناطق المخدومة حديثاً بالارسل التلفزيوني ، مما أدى الى زيادة الهوة الثقافية بين هؤلاء المراهقين وآبائهم الأكثر تمسكاً بتقاليدهم . (١٥) .

ونحن في العالم العربي نعيش خبرة من هذا النوع ، فالفرد العربي المثقف يكاد يعرف بدرجة كبيرة من الدقة عادات وتقاليد وقيم معظم الدول الأجنبية على الرغم من أنه قد لا يكون سافر الى تلك الدول ، وذلك بفضل وسائل الاعلام التي تحيط به . وما ظاهرة احتفال الأسر في علنا العربي « بعيد الأم » أو بعيد ميلاد الأبناء الا أحد الأدلة الواضحة على انتقال بعض العادات من ثقافة أخرى الى ثقافتنا العربية من خلال وسائل الاعلام المختلفة أيضاً .

هذه شواهد على مدى تأثير وسائل الاعلام في سلوك الأفراد وهم في سن الرشد . وننتقل الى النوع الثاني من التأثير وهو محور بحثنا هذا .

٣ - التأثير الثماني لوسائل الاعلام :

لكي نتحدث عن التأثير الثماني لوسائل الاعلام في شخصية الفرد وسلوكه ، من المفيد أن نعرف بقدر من الدقة والاختصاص معاً ما هي الشخصية ، وما معنى ثنائي في سياقنا هذا .

هناك تعريفات متعددة للشخصية ، ولكن معظم علماء النفس الآن يتفقون حول نوع من التعريفات ، والتعريف التالي للشخصية أحد التعريفات من هذا النوع الذي اتفق حوله العلماء ، فيعرف أحد العلماء الشخصية بأنها « التنظيم الدينامي الذي يكمن بداخل الفرد ، والذي ينظم كل الأجهزة النفسية والجسمية التي غلبي على الفرد طابعه الخاص في السلوك والتفكير » . وهذا التعريف يعرف شخصية الراشد السوي ، أن هذا « التنظيم » لا يصبح تنظيمياً بهذا المعنى المتكامل إلا في مرحلة البلوغ والنضج من حياة الفرد ، أما قبل ذلك أي خلال مرحلة الطفولة التي تمتد منذ الميلاد وحتى سن البلوغ فيكون الطفل في مرحلة نمو وارتقاء ، وهذا يعني أن شخصية الفرد لا تولد معه ، ولكنها تنمو بنمو الجوانب الأخرى ، كالجانب العرفي ، اللغوي ، العضلي العصبي ، والاجتماعي للطفل . ويمكن القول أن نمو شخصية الفرد هي محصلة نمو كل هذه الجوانب مجتمعة . وملاحظة هذه الجوانب ندرك أنها تتكون من جوانب فيسيولوجية (الجانب العضلي والعصبي) وجوانب نفسية اجتماعية (النمو الاجتماعي) ولذلك فالشخصية تشكلها العوامل الفسيولوجية والعوامل الاجتماعية ؛ الأولى موروثه أساساً والثانية مكتسبة ومتعلمة .

ودراسنا هذه تتعلق بالثانية ، حيث إن الأسرة والمدرسة والأصدقاء ووسائل الاعلام تكسب الطفل وتعلمه عاداته وقيمه وتقاليده ، أي تكسبه العوامل الاجتماعية في شخصيته .

وباندماج وتفاعل وتكامل العوامل الفسيولوجية والاجتماعية معاً منذ الميلاد وخلال مراحل النمو المختلفة وحتى البلوغ ، تنمو شخصية الطفل ثم تصبح تنظيمياً متكاملًا يوجه سلوكه عند البلوغ والرشد . وأثناء عملية النمو وعبر مراحلها المبكرة تأتي التأثيرات الاجتماعية المختلفة ومنها تأثيرات وسائل الاعلام ، ولذلك أطلقنا على هذا التأثير « التأثير النصائي » .

ومن القضايا التي يتفق حولها علماء النفس أن خبرات الطفل أثناء عملية النمو في مرحلة الطفولة هي أساس شخصيته في مرحلة البلوغ والرشد .

وهذه الدراسة تركز على دور وسائل الاعلام وخاصة التلفزيون كأحد العوامل الاجتماعية وأثرها في تشكيل سلوك الطفل ومن ثم شخصيته وهو راشد .

ولكن لماذا التلفزيون خاصة ؟

أولاً : لماذا التلفزيون فقط :

منذ بدأ الإرسال التلفزيوني في الانتظام لأول مرة في العالم في أواخر عام ١٩٣٦ * والتلفزيون يتقدم بخطا ثابتة

* منذ عام ١٩٣٠ بدأت الدول الكبرى وعاصمة الولايات المتحدة الأمريكية وإيطاليا وفرنسا وألمانيا والاتحاد السوفيتي سلسلة من التجارب ، ساعدت فيما بعد على ظهور الإرسال التلفزيوني وفي عام ١٩٣٦ كانت إنجلترا أول الدول في تقديم برامج تلفزيونية بصورة منتظمة ، وتبعها الولايات المتحدة الأمريكية ، وفي عام ١٩٣٨ انتشر جهاز التلفزيون في أكثر المنازل بالولايات المتحدة ، وفي سنة ١٩٤٨ أصبح عدد محطات التلفزيون في الولايات المتحدة ٢٤ محطة وفي عام ١٩٥٨ وصل عدد المحطات إلى ٢٩ محطة .

وفي مايو عام ١٩٥٨ بلغ عدد محطات التلفزيون في الاتحاد السوفيتي ٦٣ محطة .

أنظر : دكتور عبد اللطيف حمزة . الاعلام والصحافة . بغداد . مطبعة المطارب سنة ١٩٦٨ ص ٩٧ .

حتى أصبحت له مكانة متميزة بين وسائل الإعلام . فكثر الدراسات والبحوث حول مدى تأثيره في السلوك الانساني ، وقامت إحدى المؤسسات العلمية بحصر مثل هذه الدراسات فوجدت أنها تصل إلى ٢٣٠٠ دراسة ومرجع وهذا العدد يتفق بكثير عدد الدراسات التي أجريت على وسائل الإعلام الأخرى . وهناك عدد من العوامل التي تجعل للتلفزيون هذه المكانة ، والتي نجعلنا نركز في دراستنا على التلفزيون فقط دون وسائل الإعلام الأخرى من هذه العوامل ما يأتي :

أ - التلفزيون له دور في عملية التنشئة الاجتماعية للطفل :

إن التنشئة الاجتماعية للطفل من أهم مهام الأسرة وخاصة الوالدين ، فدورها الأساسي هو تحويل الطفل من كائن بيولوجي كل وظائفه تناول الطعام والنوم والاخراج ، إلى كائن بشري اجتماعي يستطيع التفاعل والتوافق مع غيره من البشر . وهذه هي عملية التنشئة الاجتماعية للأطفال . ومع أن هذه العملية من أهم وظائف الوالدين ، إلا أن التلفزيون أصبح له دور فيها وذلك بنقل عادات وقيم وتقاليده المجتمع إلى الأطفال في الأسرة ، وسوف نرى بعد قليل أن هناك عدداً من العوامل جعلت للتلفزيون مثل هذا الدور في الأسرة المعاصرة .

والحقيقة أن الوالدين لم يقفوا موقفاً سليماً أمام هذا الجهاز ولكنها ساهما بإيجابية في أن يكتسب التلفزيون هذه المكانة بين أفراد الأسرة ، فلقد قلت عدد الساعات التي يقضيها الوالدان مع أطفالهم ، وبعد أن كان الطفل ينال على حكايات وقصص الأم أو الجدة ، أصبح ينال وهو يشاهد التلفزيون ويراجع التي تحمل له غالباً قيماً وعادات وتقاليده لا تستطيع الأسرة التحكم في مضمونها ، ولا في مشاهدتها للأطفال لها .

بل إن بعض الأسر أصبحت على وعي بذلك ، بل وتشجعه . ففي دراسة أجريت في الكويت اتضح فيها أن ١٢٩٪ من أفراد عينة البحث وهم من آباء وأمهات الأطفال الذين يشاهدون التلفزيون بانتظام ، يرغبون في أن يشاهد أطفالهم بعض برامج التلفزيون لأنها « تكسب الطفل العادات والقيم المرغوبة » . كما اقترح معظم أفراد العينة من الآباء والأمهات (٨٤٫٣٪) إنتاج برامج خاصة للأطفال في مرحلة ما قبل المدرسة الابتدائية (٢ - ٦ سنوات) تتوافر بعض الصفات منها : « أن تنمي مهارات وعادات وانجاهات سليمة (١٩٫٣٪) . » (٥)

وهذه النتائج تدعم قولنا بأن معظم الأسر قد تنازلت عن بعض أدوارها في التنشئة الاجتماعية للتلفزيون ، وهذا العمل يجعلنا نهتم في دراستنا هذه بالتلفزيون اهتماماً خاصاً ، دون وسائل الإعلام الأخرى .

ب - التلفزيون أداة مسلية في تناول يد الطفل :

فضلاً عن أن التلفزيون وسيلة شيقة للتسلية ، فإنه كجهاز كهربائي ، سهل الاستعمال فيمكن للطفل في عمر سنتين ونصف أو ثلاث سنوات أن يجعله يعمل ثم يجلس لمشاهدته دون مساعدة من أحد من الكبار . فضلاً عن أن الجهاز متوفر في المنزل ولا يحتاج الطفل إلى الذهاب خارج المنزل بمصاحبة أحد الكبار كالسينما .

والتلفزيون وسيلة متوفرة أمام الطفل في جميع أوقات اليوم ، كما أن البرامج التلفزيونية لا تحتاج إلى معرفة القراءة مثل المجلات والصحف ، ولذلك يبدأ الأطفال في الانتباه والانغصات له منذ بداية إدراكهم للصوت والصورة .

ج - يجذب التلفزيون انتباه الأطفال :

يتميز الإرسال التلفزيوني عن وسائل الإعلام الأخرى ، بأن برامجه تجذب انتباه الأطفال في الأعمار المختلفة ، وذلك لعوامل جذب الانتباه التي تصاحب البرامج مثل : الموسيقى والألوان ، والأشكال الجذابة ، والتي تستعين بها البرامج عادة ، بالإضافة الى ألفة الأطفال بالمنيعين ومقدمي البرامج لتكرار مشاهدتهم مع البرامج الشيقة .

وقد أوضحت بعض البحوث أن الأطفال يبدأون مشاهدة المهادقة للتلفزيون من سن سنتين الى ثلاث سنوات وهي سن مبكرة جداً . (٥)

ولذلك يكاد يشترك التلفزيون مع الوالدين في الاتصال المبكر المستمر نسبياً مع الأطفال في الأسرة ، وبذلك يبدأ تأثير التلفزيون وارتباط الطفل به منذ بداية حياته .

د - يقضي الأطفال فترة طويلة يومياً أمام جهاز التلفزيون :

من العوامل الرئيسية التي تساعد على أن يكون للتلفزيون تأثير في سلوك الأطفال هو أن الأطفال لأسباب عديدة : منها ما يرجع الى برامج التلفزيون ، ومنها ما يرجع الى حاجة الطفل ذاته ، مثل حاجته الى الثمرات ، ومنها ما يرجع الى ظروف الأسرة في الحياة الحديثة تجعل الطفل يقضي وقتاً طويلاً أمام جهاز التلفزيون .

ففي دراسة أجريت في الكويت على عينة من الأسر الكويتية ، وكان بها أحد الأسئلة عن متوسط عدد الساعات التي يقضيها أطفال هذه الأسرة في مشاهدة التلفزيون ، اتضح من الإجابة على السؤال أن الأطفال يقضون ساعتين وربع تقريباً أمام التلفزيون يومياً طوال أيام الأسبوع ما عدا يوم الجمعة . أما يوم الجمعة فيزداد متوسط عدد الساعات المشاهدة الى ثلاث ساعات وثلاث تقريباً . وذلك بالنسبة للأطفال من عمر سنتين حتى ست سنوات . (٥)

وفي دراسة أجريت في مصر على عينة من أبناء الأسر التي تملك جهاز تلفزيون ، تتراوح أعمارهم من ٨ - ١٨ سنة ، اتضح أن حوالي ٥٤٪ من أفراد العينة يشاهدون التلفزيون لمدة ساعة على الأقل في اليوم أثناء شهور الدراسة بالمدارس . أما خلال العطلات الدراسية فاتضح أن ٩٤٪ من الأبناء يشاهدون التلفزيون ساعة على الأقل يومياً . (٧)

ويلاحظ من هذه الدراسات التي أجريت في عالمنا العربي ، أن الأطفال في أعمار مختلفة يقضون حوالي ١٦ ساعة أمام التلفزيون في الأسبوع . مما يجعل التلفزيون له فعالية وتأثير على الأطفال نظراً لعامل طول الوقت الذي يقضونه في مشاهدته .

كما نلاحظ من الدراسة التي أجريت في مصر أن معظم الأطفال (٨٢٤٪) يفضلون التلفزيون عن السينما أو المدياع أو القراءة أو اللعب .

أما لو انتقلنا الى خارج العالم العربي ، لوجدنا أن متوسط عدد الساعات اليومية يزداد بشكل ملحوظ ، ففي

دراسة أجريت في أمريكا اتضح أن الوقت الذي يقضيه الأطفال أمام التلفزيون في ازدياد مستمر منذ الستينات من هذا القرن . فأتضح بمقارنة ١٩٧٠ - ١٩٧٦ أن متوسط عدد الساعات التي يعمل أثناءها التلفزيونيون في المنزل ازدادت من ٦.٥ ساعة يومياً سنة ١٩٧٠ الى ٦.٨ ساعة يومياً سنة ١٩٧٦ ، وذكر بعض أفراد عينة الدراسة أن التلفزيونيون يعمل على الأقل ٩ ساعات في اليوم ، وفي بعض الأسر يعمل التلفزيونيون في المنزل معظم فترة بعد الظهر وخلال فترة العشاء ، ومعظم المساء .

ومما يدعم نتائج الدراسة السابقة ، اتضح من دراسة أخرى أجريت في أمريكا عام ١٩٦٩ ، أن الطفل الذي عمره من ٥ - ٦ سنوات يقضي أمام التلفزيون أربع ساعات يومياً . (١٥)

وفي دراسة ثالثة أجريت عام ١٩٧٢ اتضح أن الأطفال في سن السادسة يقضون أمام التلفزيون من ٣٠ - ٣١ ساعة في الأسبوع في المتوسط ، أما الأطفال في سن الثامنة فيقضون ٢٧ - ٢٨ ساعة في الأسبوع أمام جهاز التلفزيون . (١٣)

وأفضل تعليق على طول الوقت الذي يقضيه الأطفال أمام جهاز التلفزيون ذلك التعليق الذي قاله أحد الباحثين حين قال :

« عندما يحين وقت دخول الطفل الحضنة يكون قد قضى فعلاً ساعات عديدة يتعلم عن العالم أمام جهاز التلفزيون ، أكثر مما سيفضي في قاعة المحاضرات بالكلية للحصول على الشهادة الجامعية أو على درجة الماجستير » . (١١)

من كل ما سبق يمكن أن ندرك أهمية عامل الوقت الذي يقضيه الطفل أمام جهاز التلفزيون كأحد العوامل الهامة التي تجعل التلفزيون من أهم وسائل الإعلام تأثيراً في سلوك الأطفال .

هـ - ازدياد الاقبال على مشاهدة التلفزيون وانخفاض الاقبال على وسائل الإعلام الأخرى :

لاحظنا في البند السابق ازدياد اقبال الأطفال على مشاهدة التلفزيون ، وأصبحت هذه الظاهرة عالية لا تقتصر على بلد دون الآخر ، ولكن على الرغم من هذا الاقبال على مشاهدة التلفزيون نجد في مقابله انخفاضاً في الاقبال على وسائل الإعلام الأخرى . فلقد أوضحت الدراسة التي أجريت في مصر أن نسبة أفراد العينة الذين يقبلون على مشاهدة التلفزيون بعد الانتهاء من الاستدكار يفوق نسبة الذين يقبلون على الوسائل الاعلامية الأخرى . فأوضحت الاجابة على السؤال « أين يلعب الأبناء بعد الانتهاء من الاستدكار » اتضح ما يلي :

٨٪ يذهبون الى السينما .

٣١.٨٪ يستمعون الى الراديو .

٣.٥٪ يلجأون الى القراءة .

٢.٥٪ يلجأون الى الألعاب المختلفة .

٨.٢٪ يشاهدون التلفزيون .

ويلاحظ أن أعلى نسبة (٨٣,٤٪) من الأبناء تلجأ إلى التلفزيون ولو لبعض الوقت ، بعد الانتهاء من الاستذكار . وأن التلفزيون هو الوسيلة المشتركة السائدة بين معظم هؤلاء الأبناء . (٧)

وفي دراسة أجريت على قراء الصحف في أمريكا ، اتضح أن نسبة من يقرأون الصحف يومياً في انخفاض مستمر ، فالذين أعلنوا أنهم يقرأون الصحف كل يوم انخفض من ٧٣٪ في سنة ١٩٦٧ إلى ٦٦٪ في سنة ١٩٧٥ ثم إلى ٧٥٪ في سنة ١٩٧٨ . وعند سؤال أفراد عينة الدراسة عن تفسير هذا الانخفاض ، اتضح أن أهم تفسير ذكر هو : مشاهدة البرامج الاخبارية في التلفزيون ، مما لا يجعل هناك حاجة إلى الصحف اليومية . (١٥)

ونلاحظ من نتائج هذا البحث اعتماد عدد كبير من الأشخاص على مشاهدة البرامج الاخبارية في التلفزيون ، وترك قراءة الصحف اليومية ، ومن الملفت للنظر أن عينة هذه الدراسة كانت من الراشدين ، أي أن التلفزيون يجذب الراشدين كما يجذب الأطفال .

وفي دراسة حديثة نشرت بعض نتائجها بمجلة « أكتوبر » القاهرية الأسبوعية (العدد ٣٨ ، لسنة ١٩٨١ الصفحة الثالثة) أجريت في المجتمع الأمريكي ، وكان أحد الأسئلة بها عن : المؤسسات التي تحكم أمريكا فكان التلفزيون في المرتبة الرابعة من بين المؤسسات التي تحكم أمريكا . وذلك بعد « البيت الأبيض » (المرتبة الأولى) ، و « كبار رجال الأعمال » (المرتبة الثانية) و « مجلس الشيوخ » (المرتبة الثالثة) . أما « الصحافة » فجاءت في المرتبة الثالثة عشرة ، والراديو في المرتبة التاسعة عشرة ، أما السينما فجاءت في المرتبة الثلاثين والأخيرة !

وهذه الدراسة تكشف لنا موقع ومكانة التلفزيون ومدى تأثيره في أمريكا .

هذه العوامل المختلفة والمتعددة جعلت للتلفزيون مكانة خاصة في الأسرة والمجتمع ودوراً أساسياً في إمكانية التأثير على سلوك الأطفال خاصة . ولهذا ستقتصر دراستنا هذه على أثر التلفزيون في سلوك الأطفال .

ويمكن القول إن اهتمام العلماء قد تركز حول دراسة أثر التلفزيون في سلوك الأطفال ونموهم في جوانب محددة

هي :

- السلوك العدواني .
- الجوانب المعرفية .
- التنشئة الاجتماعية .

ونتحدث عن كل منها بقدر من التفصيل لتوضح لنا أثر التلفزيون في سلوك الأطفال بجوانبه المختلفة .

ثانياً : أثر التلفزيون في السلوك العدواني عند الأطفال :

منذ بدأ الإرسال التلفزيوني في العالم بدأت معه الدراسات حول أثره في المجالات المختلفة ، كمجال الاعلام ، والتسويق ، والتأثير في الرأي العام ، وتأثيره في سلوك الأطفال .

ومن المجالات التي بدأت فيها الدراسات منذ ذلك الوقت واستمرت حتى الآن مجال تأثير العنف في التلفزيون في سلوك الأطفال . ومعنى آخر هل عرض برامج العنف والعُدوان في التلفزيون يؤدي إلى السلوك العدواني عند الأطفال المشاهدين ؟

وتفوق عدد الدراسات في المجال الأخير ، كل البحوث والدراسات في المجالات الأخرى بنسبة ٤ - ١ وهذه النسبة تعطينا فكرة واضحة عن مدى اهتمام علماء العلوم الاجتماعية بهذا الموضوع ، وأيضا مدى اهتمام المجتمع بهذه المشكلة .

وعلى الرغم من الانخفاض في معدل الدراسات حول هذا الموضوع منذ بداية السبعينات إلا أن الدراسات لا تزال مستمرة فيه حتى وقتنا هذا ، لدراسة مختلف الظروف التي يمكن أن تتوسط بين مشاهدة الأطفال العنف في التلفزيون والعُدوان في سلوكهم .^(١٥)

ويمكننا القول ، بناء على ما نستمد من نتائج الكثير من البحوث في هذا المجال وآراء الآباء والباحثين ، أنه يكاد يكون هناك اتفاق بين المهتمين بهذه المشكلة على أن مشاهدة الأطفال العنف والعُدوان في التلفزيون يؤدي إلى السلوك العدواني عندهم .

ولكن إذا كانت هناك بحوث قد أبدت نتائجها هذه الخلاصة إلا أن هناك أيضا بعض البحوث عارضت نتائجها هذا المضمون ، ويمكن القول أن الذي أدى إلى هذا التعارض بين نتائج البحوث عدم دقة المنهج الذي يتبعه بعض الباحثين في دراسة هذه المشكلة ، وهذا يكشف عن النظرة السطحية غير الملائمة للسلوك الانساني ونموه . ولاهمية هذا الموضوع نعرض بتفصيل موضحين رأينا الخاص في نتائج البحوث المختلفة . ولكن قبل ذلك نعرض بعض صور العنف في التلفزيون حتى يتضح لنا معنى العنف والعُدوان الذي يشاهده الأطفال ، ونسبته ودلالته . حتى يمكننا متابعة الموضوع بعد ذلك .

١ - صور العنف في التلفزيون :

من أكثر الدراسات دقة وعمقا في هذا الموضوع الدراسة التي قام بها جربنر Gerbner عام ١٩٧٢ وركز فيها على تقدير مقدار العنف المعروض في برامج التلفزيون وتحليل نوع العنف المعروض . وقامت هذه الدراسة على منهج تحليل المضمون ، فقام الباحث بتحليل مضمون البرامج التي عرضت خلال ثلاث سنوات هي ١٩٦٧ ، ١٩٦٨ ، ١٩٦٩ واتضح من نتائج الدراسة ما يلي :-

أ - مقدار العنف الذي يعرض في برامج التلفزيون : وقد خرج الباحث بالنتائج التالية :

- ١ - يوجد أعلى مستوى للعنف في التلفزيون التجاري الأمريكي ، إذ تحتوي كل ٨ برامج من ١٠ على العنف .
- ٢ - انخفض معدل عرض العنف من سنة ١٩٦٧ إلى سنة ١٩٦٩ ، وظهر ذلك في انخفاض عدد الأشخاص المساهمين في العنف والقتل .

٣- فيما يتعلق ببرامج الأطفال ، وخاصة ما يسمى بالكارتون . ازداد فيها العنف ، فمن ٩٥ كارتونا عرضت في السنوات الثلاث للبحث ، اتضح أن اثنين فقط في سنة ١٩٦٧ ، وواحدا في كل من سنة ١٩٦٨ ، ١٩٦٩ لا تحتوي على عنف .

ب- نوع العنف ونمطه المستخدم في برامج التلفزيون : وينقسم ذلك الى ثلاثة عناصر هي :
الذي يقوم بالعنف ، وسيلة العنف أو العدوان ، نتائج العنف أو العدوان .

من الذي يقوم بالعنف : بتحليل مضمون البرامج في فترة البحث ، اتضح أن الذي يقوم بالعنف في ٧٠٪ من الحالات هم من البشر . أما الكارتون الذي به عنف فيحتوي على أعلى نسبة من القائلين بالعنف من غير البشر (حيوانات ، كائنات فضائية)

أما عن الأدوات المستخدمة في العنف : اتضح أنه ازداد استخدام الأسلحة من ٥٢٪ الى ٨٣٪ من سنة ١٩٦٧ الى سنة ١٩٦٩ في جميع صور العنف المعروض متضمنا ذلك الكارتون الخاص بالأطفال .

أما عن نتائج العنف والعدوان : فقد اتضح أنها الجروح أو الموت للشخص المعتدى عليه ففي سنة ١٩٦٧ و ١٩٦٨ كل عنف أدى الى جرح على الأقل للمعتدى عليه ، وفي سنة ١٩٦٩ قل ذلك بنسبة ١ : ٣ .

وبالنسبة للموت ، ففي سنة ١٩٦٧ ، ١٩٦٨ كل ٢ من ٣ برامج بها عنف ، كانت نتيجة العنف فيها الموت ، وفي سنة ١٩٦٩ كان معدل الموت ١ : ١٠ ، أي أنه في سنة ١٩٦٩ انخفضت نسبة حدوث الجروح ونسبة حدوث الموت كنتيجة للعنف في البرامج المعروضة .

وفي دراسة أخرى حديثة قام بها باركوس ١٩٧٥ Barcus على إحدى قنوات التلفزيون الأمريكي اتضح ما يأتي :-

أن ٥٩٪ من التمثيليات المعروضة لا يوجد بها عنف الا عرضا .

١٩٪ من التمثيليات مشبعة بالعنف .

٢٥٪ من التمثيليات بها عنف واضح .

أي أن ٤١٪ من التمثيليات بها عنف ، كما اتضح من نتائج البحث أن ٥٠٪ من البرامج التي بها عنف استخدمت فيها الأسلحة كأداة للعنف . (١٣)

ونخرج من نتائج هذه البحوث أن نسبة يعتد بها من البرامج التي تعرض في التلفزيون ومعظمها يشاهدها الأطفال بها عنف واضح . وهذه النتائج توجب على السؤل : هل هناك عنف في برامج التلفزيون ؟ بالإيجاب وبشكل حاسم وواضح . كما أوضحت هذه البحوث صور العنف كما يقدم في برامج التلفزيون المختلفة سواء تمثيليات أو كارتون خاص بالأطفال .

يتبقى بعد ذلك الاجابة على السؤل التالي : هل هذا العنف الذي يعرضه التلفزيون في برامجها المختلفة يؤدي الى السلوك العدواني عند الأطفال ؟

وللإجابة على هذا السؤال أجريت دراسات عديدة منذ الخمسينات من هذا القرن وحتى الآن ، وتعرض لبعض هذه الدراسات حتى نتعرف على الطريقة التي يتناول بها علماء العلوم الاجتماعية وخاصة علماء النفس هذه المشكلة ، وكيف يجهرون بحوثهم في السلوك الانساني ، وتوضح لنا المنهج الذي استخدمه الباحثون مما يساعدنا على الحكم على نتائج الدراسات عند تقييمها لها .

٢ - بعض البحوث التي لم تظهر نتائجها وجود علاقة بين العنف في التلفزيون والسلوك العدواني عند الأطفال :

في دراسة أجراها سايكل عام ١٩٦٥ Siegel ، على مجموعة من الأولاد والبنات (عددهم ٢٤) تتراوح أعمارهم بين أربع وخمس سنوات ، قسمت للمجموعة الى مجموعات أصغر كل مجموعة تتكون من طفلين ، على ان يمرض على كل مجموعة في أوقات مختلفة نوعان من أفلام الكارتون ، أحدهما عدواني جدا . والآخر غير عدواني . وكان يطلب من كل مجموعة أن تبقى في غرفة خاصة بها بعد مشاهدة الأفلام ، وتجترى هذه الغرفة على أنواع من اللعب بعضها عدواني (مثل خنجر من المطاط) وبعضها غير عدواني (مثل التليفون) وكان الباحث يلاحظ سلوك الأطفال في الغرفة الخاصة التي بها اللعب بعد مشاهدتهم الأفلام العدوانية ثم غير العدوانية وذلك لتسجيل مقدار العدوان الذي سيظهر على سلوك كل مجموعة بعد مشاهدتهم الأفلام ، وتسجيل أي علامات تظهر للعدوان ، أو الشعور بالقلق . ولم يكن الأطفال على علم بأنهم ملاحظون أو أن سلوكهم يسجل .

ولم توضح نتائج البحث وجود فروق في سلوك الأطفال بعد مشاهدتهم للأفلام العدوانية والأفلام غير العدوانية ، أي يمكن القول بناء على هذه النتائج ان العنف والعدوان في التلفزيون لم يؤد في هذه التجربة الى سلوك عدواني عند الأطفال . (٩)

وفي دراسة أجراها فيشباك وسنجر ١٩٧١ Feshbach & Singer على مجموعة من الأولاد (وعددهم ٣٩٥) في سن ما قبل المراهقة والمراهقة ، وطلب من الأولاد مشاهدة التلفزيون ٦ ساعات على الأقل في الاسبوع وذلك لمدة ستة أسابيع . وأجابت عينة البحث على مجموعة من الاختبارات النفسية قبل بداية التجربة ثم بعد انتهاء التجربة ، وذلك لمقارنة نتائج قبل وبعد مشاهدة التلفزيون .

والاختبارات النفسية التي طلب الى عينة البحث استيفاء بياناتها هي :

- مقياس للعداوة الصريحة .
- مقياس للعداوة المستترة .
- مقياس العصافية .
- مقياس للصراع .
- مقياس لقلق العدوان .

وتوضح أن من أهم نتائج البحث التي هممتا في دراستنا هنا ما يلي :

- أ - أن التعرض للبرامج التليفزيونية ذات المضمون العدواني لمدة ستة أسابيع لم يؤدي إلى زيادة في السلوك العدواني عند عينة البحث .
- ب - أن مشاهدة البرامج التليفزيونية ذات المضمون العدواني تقلل أو تنظم التعبير عن العدوان . (٩ ص ٥٥ - ١٤٠)

وفي دراسة ثالثة أجراها حملوت وآخرون عام ١٩٥٥ Himmelwiet et al. جمعت بياناتها من أربع مدن إنجليزية ، وذلك في بحث موسع عن « تأثير التليفزيون في الأطفال الصغار » . وتكونت عينة البحث من ٤٥٠٠ طفل مجموعة منهم تتراوح أعمارهم بين ١٠ - ١١ سنة ومجموعه أخرى تتراوح أعمارها بين ١٣ - ١٤ سنة . وتتكون عينة البحث من أطفال تموز أسرهم أجهزة تليفزيون في المنزل ويشاهدون البرامج بانتظام ، وأطفال لا تملك أسرهم أجهزة تليفزيون ولا يشاهدون البرامج التليفزيونية إلا نادرا . والمجموعتان متساويتان تقريبا في السن ، والنوع ، والذكاء ، والطبقة الاجتماعية . ويجب القائمون بالبحث على السؤال : هل البرامج البوليسية ، والقتل والجرائم المخيفة في التليفزيون تجعل الأطفال عدوانيين ؟ بأنهم لم يجدوا ما يبرهن على أن الأطفال الذين يشاهدون التليفزيون بانتظام أكثر عدوانية من الأطفال الذين لا يشاهدون التليفزيون إلا نادرا . فالتليفزيون في رأي هؤلاء الباحثين لا يؤدي إلى السلوك العدواني ، وإن كان يعمل به عند الأطفال المضطربين انفعاليا ، كما أن له جانباً يفرغ العدوان أيضاً ، أي أن مشاهدة العدوان في التليفزيون قد يقلل من ظهور سلوك عدواني عند الأطفال .^(١٣)

٣ - بعض البحوث التي أظهرت نتائجها وجود علاقة بين العدوان في التليفزيون والسلوك العدواني عند الأطفال :

في دراسة أجريت بكندا عام ١٩٧٧ تعتبر فريدة من نوعها ، حيث وجد الباحث فرصة نادرة وهي وجود مدينة ليس بها إرسال تلفزيوني ثم أدخل بها الإرسال ، فقارن الباحث بين هذه المدينة ومدينة أخرى كان بها قناة واحدة ، ومدينة ثالثة بها عدة قنوات . ودرس العدوان عند أطفال المدارس الابتدائية في المدن الثلاث في بداية الدراسة (وقبل بدء الإرسال التليفزيوني في المدينة المحرومة من الخدمة التليفزيونية) وأشارت النتائج إلى عدم وجود فروق في السلوك العدواني لأطفال المدارس الابتدائية في المدن الثلاث . وبعد سنتين وبعد إدخال الإرسال التليفزيوني في المدينة المحرومة درس الباحث مرة أخرى السلوك العدواني عند أطفال المدن الثلاث ، فوجد ازدياداً واضحاً في العدوان عند أطفال المدينة التي أدخل فيها الإرسال التليفزيوني حديثاً ، وأكدت هذه النتيجة المقارنات التفصيلية بين المدن الثلاث عند تقسيم عينة المدن الثلاث بناء على النوع والسن .

ويرى روبرت وباشن Roberts & Bachen أن هذه النتيجة ونتائج أخرى تمدنا بشواهد مقنعة نسبياً على أن هناك علاقة إيجابية سببية بين مشاهدة العنف في التليفزيون والسلوك العدواني عند الأطفال .^(١٤)

ولكن الباحث لم يفسر لنا لماذا لم يظهر فرق في العدوان بين أطفال المدن المخدومة لتليفزيونياً وأطفال المدينة المحرومة من هذه الخدمة قبل بدء دراسته ، وقبل الإرسال التليفزيوني في المدينة المحرومة .

ومن الدراسات التبعية الهامة ، تلك التي قام بها ليفكوفيتز وآخرون ونشرت نتائجها عام ١٩٧٢ Lefkowitz ، حاولوا فيها الربط بين وصف زملاء الفصل الدراسي لافراد عينة البحث (في سن ٨ سنوات) فيها اذا كانوا عدوانيين ام لا ، ومدى عدوانيتهم ، وبين وصف والديهم عن مدى تفضيل افراد عينة البحث للبرامج العدوانية . وبعد ذلك باحدى عشرة سنة وافراد العينة في سن ١٩ سنة ، اعدوا الدراسة مرة اخرى لنفس افراد العينة .

- ومقارنة نتائج البحث عن افراد العينة وهم في عمر ٨ سنوات ثم وهم في سن ١٩ سنة اتضح ما يلي :-
- أ - وجود ارتباط واضح بين تفضيل الطفل لبرامج العنف في التلفزيون وهو في سن ٨ سنوات ، ووصف الزملاء لهم كعدوانيين في سن ١٩ سنة .
 - ب - وجود ارتباط واضح بين وصف الزملاء لمدى عدوانية عينة البحث في سن ٨ سنوات وسن ١٩ سنة .
 - ج - وجود ارتباط بين تفضيل عينة البحث لبرامج العنف في التلفزيون ووصف الزملاء لهم عن مدى عدوانيتهم وهم في سن ١٩ سنة .
 - د - عدم وجود ارتباط بين وصف الزملاء لمدى عدوانية افراد عينة البحث وهم في سن ٨ سنوات ، وتفضيلهم العنف في التلفزيون في سن ١٩ سنة .

وتشير هذه النتائج وخاصة التي أوضحت العلاقة بين تفضيل برامج العنف في التلفزيون في سن ٨ سنوات ووصف الزملاء لهم كعدوانيين في سن ١٩ سنة ، مع وجود الارتباط بين وصف الزملاء لعينة البحث في سن ٨ سنوات ، وتفضيلهم برامج العنف في سن ١٩ سنة ، الى ان تفضيل مشاهدة برامج العنف في التلفزيون في سن ٨ سنوات مرتبط سببياً بالعدوان عند افراد عينة البحث ، كما ظهر في وصف زملائهم لهم وهم في سن ١٩ سنة . ان اهمية هذه الدراسة تكمن في انها تمدنا بأدلة واضحة وجيدة على التأثير المتراكم المستمر لمشاهدة برامج العنف في التلفزيون . (١٣)

وفي دراسة اجراها كل من ستين وفريدريك ١٩٦٦ على مجموعة من اطفال الحضانة لمدة ثلاثة اسابيع ، حيث جعل الاطفال يشاهدون ثلاثة انواع من البرامج التلفزيونية ، برامج عدوانية ، برامج محايدة ، وبرامج تعلم الاطفال القيم والعادات المقبولة اجتماعياً . وقسم الاطفال الى ثلاث مجموعات كل مجموعة شاهدت نوعاً من الافلام ، وبعد مرور الاسابيع الثلاثة للمشاهدة فحص الباحث درجة العدوانية عند كل مجموعة من المجموعات الثلاث ، فاتضح له ان المجموعة التي شاهدت الافلام العدوانية اكثر عدوانية من هؤلاء الذين رأوا الافلام المحايدة . (١٣)

٤ - نقد وتعليق على البحوث السابقة :

يبدو للغايه لأول وهلة ان هناك تناقضا في نتائج البحوث ، وبالتالي في موقف علماء النفس وعلماء العلوم الاجتماعية بصفة عامة فيما يتعلق بتأثير العنف في التلفزيون في سلوك الاطفال ، وما اذا كان العنف والعدوان في البرامج التلفزيونية يؤدي الى السلوك العدواني عند الاطفال ؟

والحقيقة الواضحة لنا الآن ، وبعد عرض بعض نماذج من الدراسات والبحوث التي أجريت للاستجابة على السؤال المطروح ، اختلاف طرق تناول الموضوع ودراسه . فبيد لنا واضحا من المجموعة الألى من البحوث - التي لم تظهر نتائجها علاقة بين التلفزيون وسلوك الأطفال - ان تناولها للموضوع يتسم بالبساطة وعدم الدقة ، فضلا عن النظرة السطحية للسلوك الانساني وكيف يتكون .

ففي الدراسة الأولى ، دراسة سايكل ١٩٥٦ مثلا ، يتوقع أن الأطفال عندما يشاهدون برامج عدوانية سوف يسلكون سلوكا عدوانيا بعدها مباشرة ، وهذا أمر لا يمكن توقعه ومن العسير أن يحدث ، ولو حدث فهو تقليد مؤقت قد لا يعمم على مواقف أخرى .

وهذا ما حدث أيضا في تجربة فيشباك وسنجر ١٩٧١ حيث توقعنا أن يظهر أثر البرامج التلفزيونية في المراهقين الذين يشاهدونها ٦ ساعات في الاسبوع لمدة ٦ أسابيع . وهذا تصور سطحي لكيف يتعلم السلوك ، وكيف يكتسب الطفل عاداته السلوكية . ان السلوك والشخصية ليس مكونا آليا من بعض العناصر اذا وضعتها معا تؤدي آليا الى منتج محدد جديد ، كما في بعض الصناعات أو المنتجات ، ان الأمر جد مختلف ، فالعوامل أو المؤثرات التي تؤثر أو تدخل الفرد أو مصطلح علم النفس يدرها الطفل أو الفرد تتفاعل داخله مع عوامل أخرى متعددة منها عوامل ذاتية خاصة بأدراكه الخاص لها ، - وعوامل خارجية أخرى ، وعوامل خاصة بالطفل ذاته ، وبعد هذا التفاعل يظهر نتائجها في سلوك الطفل بطريقة خاصة به أيضا وفي وقت لا نستطيع تحديده . وهناك ظاهرة - فريدة بالسلوك البشري - تعرف عليها كل من كاجان وموسن في الستينات من هذا القرن ، وهي ظاهرة «التأثير النائم» وتعني أنه قد تكون هناك مؤثرات معينة أحدثت تأثيرها عند الطفل ولكن نتائج هذا التأثير لا يظهر لنا مباشرة فيظل نائما فترة طويلة ينتظر عوامل - خارجية وداخلية في الطفل - توقعه ليظهر . فقد يظهر في مرحلة البلوغ أو المراهقة أى بعد حدوث التأثيرات بسنوات عديدة . ولذلك ليس من المتوقع أن نرى سلوكا عدوانيا عند طفل ما بعد مشاهدته فيلما كارتونيا فيه عنف وعدوان وإذا ظهر مثل هذا السلوك فمن العسير أن نرجعه الى الفيلم وحده ، لأن هناك عوامل عديدة تتوسط بين الفيلم وسلوك الطفل . (١٤)

وهناك عامل آخر هام يؤثر في تعلم الطفل للعادات السلوكية وهو التكرار ، فلا بد من تكرار حدوث المثير لمدة طويلة ومرات عديدة حتى يحدث تأثيره في الطفل أو يظهر في سلوكه .

ولذلك فمنطق غروتكوين السلوك البشري يختلف الى حد كبير عن منطق المنهج والطرق التي استخدمتها البحوث التي لم تجد علاقة بين برامج التلفزيون وسلوك الأطفال العدوانى .

هناك نقد آخر يمكن أن يوجهه كاتب هذا المقال الى بحث فيشباك وسنجر ، حيث كانت عينة بحثهم من الأولاد في سن ما قبل المراهقة والمراهقة أى من سن ١٠ - ١٢ سنة تقريبا ، ان المراهق في هذه السن يكون قد خضع احدي عشرة سنة تقريبا لتأثيرات أخرى في بيئته وأحدثت مفعولها قبل هذه التجربة ، فكيف نتوقع أن يتبدل سلوكه من مشاهدة

برامج تلفزيونية لمدة ستة أسابيع مثلا . فعمد الأطفال هام للغاية عند النظر الى مدى تأثير برامج التلفزيون في سلوكهم ، وهذا ما سيوضح فيما بعد ، فكلما اقتربنا من الطفولة وابتعدنا عن البلوغ والرشد كان ذلك أسلم منهجيا في سياقتنا هذا ، حيث يكون هناك فرصة أكبر لمساهمة التلفزيون مع العوامل الأخرى في احداث تأثيره . ولذلك يجب ألا نهول كثيرا على نتائج مثل هذه البحوث .

ويمكن القول في ضوء ذلك ان بعض بحوث النوع الثاني ، والتي أظهرت نتائجها علاقة واضحة بين برامج التلفزيون وسلوك الأطفال ، يتفق منهجها والعينة التي درستها وطول فترة التأثير مع منطق نمو وتشكيل السلوك ، ومثال على ذلك الدراسة التي أجريت في كندا عام ١٩٧٠ ، ويحث ليفكوتز وآخرين ١٩٧٢ ، الذي تتبع فيه الباحثون أفراد عينة البحث إحدى عشرة سنة ، فدرسوا الأطفال وهم في سن ٨ سنوات ثم درسوهم وهم في سن ١٩ سنة مرة أخرى . ومثل هذه البحوث تسير تبعا لمنطق تشكيل ونمو السلوك البشري ، ولذلك يمكن الاعتماد على نتائجها .

وبعد أن استعرضنا بعض البحوث التي عالجت موضوعنا وناقشناها ، نعرض للأساس العلمي لتفسير تأثير التلفزيون في سلوك الأطفال عامة ، والسلوك العدواني خاصة .

٥ - التفسير العلمي لتأثير التلفزيون في السلوك :

ان الأساس العلمي الذي يمكن أن نفسر به تأثير التلفزيون في سلوك الطفل وشخصيته فيما بعد يقوم على كيف يدرك الطفل - وهل هو قادر على ادراك محتوى برامج التلفزيون التي يشاهدها ، فأى تأثير قد يحدث من التلفزيون في الطفل - يعتمد الى حد كبير على معنى البرامج كما يدركها أو يفهمها أو يفسرها الطفل المشاهد . ومع ذلك لم يتم هذا الأمر الا القليل جدا من البحوث ، والتي ظهرت حديثا فقط ، والتي نتوقع أن يزداد عددها بشكل ملحوظ خلال العشر سنوات القادمة . وقد بدأ الاهتمام بهذا العامل مع بداية انتاج البرامج التعليمية في التلفزيون ، كما بدأت محاولات حديثة لبحث التغيرات المرتبطة بالعرض والتي تحدث في الادراك والانتباه لفهم محتوى رسالة التلفزيون وأثرها في الجوانب المختلفة للنمو المعرفي عند الأطفال .

ففي إحدى الدراسات المبكرة في هذا المجال أجريت على مستوى دولي عام ١٩٦٦ في خمس دول هي : إنجلترا ، ألمانيا ، فرنسا ، تشيكوسلوفاكيا والولايات المتحدة الأمريكية ، حول أحد البرامج التلفزيونية الخاص بالأطفال والذي يعرض في هذه الدول ، وخرجت كل دولة منها بتقرير خاص عن هذه الدراسة .

وفي التقرير الانجليزي الذي نشر عام ١٩٦٩ ركز على العلاقة بين المستوى المعرفي للأطفال وفهمهم لبرامج التلفزيون ، وأوضح أن الأطفال في عمر ٦ سنوات لم يفهموا تفاعل وتتابع أحداث الفيلم المروى ، ويدركون الفيلم على أنه أحداث غير مترابطة . كما توصلت الدراسة الى الأطفال قبل عمر ٦ سنوات يدركون كل شيء في التلفزيون كما لو كان حقيقة وصادقا .

وهناك خلاصة أساسية توصلت إليها البحوث في هذا المجال وهي أن الطفل في السنوات المبكرة من عمره ، يمر خلال مرحلة نمو مبكر للعمليات المعرفية تقيّد فهمه لمضمون الشيء المدرك ، أو الفيلم الذي يشاهده ، وفي عمر ٧ سنوات تحدث تغيرات كيميائية في نمو الطفل وغوّقدراته المعرفية تؤدّي به إلى البحث عن البناء المنطقي خلف التغيرات التي تحدث في مظهر الأشياء ، وبذلك يرجع عدم فهم الأطفال قبل سن سبع سنوات ، وفي الوقت نفسه الفهم الخاص بهم للاحداث الفيلم إلى عدم نمو القدرات المعرفية في السنوات المبكرة من حياة الطفل . (١٣ ص ٣ - ٤) كما برهنت بحوث حديثة أجريت عام ١٩٧٨ على أن الأطفال الصغار (٢ - ٦ سنوات) يختارون معلومات مختلفة من العرض الدرامي ، مما يفعله الأطفال الأكبر سناً . ويشكلون في ادراك الاطار الدرامي لتنظيم وفهم المناظر القصصية ، ولذلك يقومون بعمل القليل من الاستدلال حول معنى المضمون والعلاقات بين عناصر البرنامج ، أو الربط بين الأفعال والنتائج . ولذلك فالطفل في هذه السن يدرك ويفهم مضمون الفيلم التلفزيوني بناء على ادراكه هو ، وخبراته المحدودة القاصرة ، وعوامل ذاتية خاصة به ، وليس بناء على الادراك الموضوعي ، أو على المعنى الذي أراده المؤلف أو سياق العمل الدرامي .

ولذلك فتأثير التلفزيون يكون أعظم في أطفال ما قبل المدرسة الابتدائية . (١٥) وهذه النتائج تتفق مع ما توصل إليه علم نفس النمو ، حيث توصل العلماء إلى أن الطفل في سن الثالثة مثلاً يكون عاجزاً أيضاً عن التمييز الدقيق بين الشخص والموقف الذي يرجد فيه أو بين الشيء ومحيطه ، حيث لا يزال الأنا غير ناضج وفي مستوى منخفض من النمو ، ولذلك فكثيراً ما يعمم الطفل تجاربه على الآخرين ، وتجارب الآخرين على ذاته ، فيكون عنده خلط بين الحقيقة والخيال (بين الفيلم والواقع) . وفي هذه المرحلة يكتسب الطفل بعض الأنماط السلوكية الشائعة في مجتمعه ، والتي تؤثر فيه بعد في تشكيل شخصيته ، وذلك بفضل ومساعدة اللاتغيرات بين الأنا والآخر .

ويذكر لنا الدكتور مصطفى سويف في كتابه « الأمس النفسية للتكامل الاجتماعي » موقف ابنته عندما كان عمرها ستين وسبعة شهور ، ورات نموذج الذئب يأكل الحمل في المتحف الزراعي بالقاهرة ، فبكت وانزعجت انزعاجاً شديداً ويعلق الدكتور سويف على ذلك بقوله : إن هذا الانزعاج يتطوّر على نوع من الاتحاد بين ذات الطفلة والحمل ، أي خلط بين الحقيقة والخيال بين الذات والموضوع ، ويظل الطفل على ذلك حتى قرب نهاية السنة الثالثة من عمره . (١٢٢ - ١٣١) .

بل إن كتب التحليل النفسي تعلق على مواقف سوء الحظ التي قد تحدث في السنوات المبكرة من حياة أحد الأطفال ، حيناً يشابه تابع الخيال عند الطفل مع تابع السلوك الواقعي ، فعلى سبيل المثال ، انضج أن الطفل الصغير قد يلوم نفسه إذا توفي أحد الأقارب بعد فترة كان الطفل خلالها مشغولاً في عداة خيالي مع هذا الشخص وقد يشعر بتدبر كبير من الشعور بالذنب لما حدث .

وتعطينا هذه النماذج مدى الخلط عند الأطفال بين الحقيقة والخيال ، ويوضح لنا مدى القصور في الادراك والعمليات المعرفية عند الأطفال الصغار ، كما يعطينا مؤشرات إلى ادراك الطفل الصغير للمشاهد التي يراها في برامج التلفزيون ، فعدم التمييز الدقيق بين الخيال والواقع عند طفل ما قبل السادسة ، تجعل الأشياء الخيالية التي يعرضها

التلفزيون عالما حقيقيا واقعيا بالنسبة له ، ومن هنا يأتي تأثير المثيرات الخارجية ومنها التلفزيون في سلوك الأطفال ، فيصبح ما يسمع أو يشاهد جزءا من حياته الخاصة التي تؤثر فيه ، فالقصة المخيفة قد تؤدي الى التوتر والى الكابوس أثناء النوم ، وبما لا شك فيه أن تكرار واستمرار مثل هذه التوترات أمام الطفل يؤدي الى أن تصبح جزءا من مكوناته السيكولوجية في الطفولة وبالتالي جزءا من سلوكه وشخصيته في الكبر .

وإذا حاولنا أن نحلل الخيال ، حتى نتضح جوانبه المختلفة ومدى علاقته بالجوانب المزاجية والمعرفية الإدراكية ، لوجدنا أنه يتكون من ثلاثة جوانب أساسية هي :

الأول : أن الخيال (وخاصة الذى يكون مصدره خارجيا) يتضمن جوانب حسية ، منها أساسا السمعية والبصرية ، واحتمال أن يكون هناك احساسات أخرى مثل : الاحساسات الحركية وحتى السمعية .

ثانيا : يتضمن الخيال جوانب معرفية ، فالخيال يتعلق بأمور يكون الناس قادرين على التفكير فيها ، وقد يكون هذا التفكير معقدا أو بسيطا ، صحيحا أو خاطئا ، ولكن الخيال يتضمن أسسا يكون الفرد قادرا على تصنيفها بطريقة أو بأخرى .

ثالثا : الخيال له جانب انفعالي أو عاطفي ، أى له بطانة وجدانية ، وقليل من الأخيلة - وربما لا يوجد - محايد . فالخيال يتضمن الأمل ، المرح ، التوتر ، الراحة ، السرور ، الحزن ، الغضب ، ومشاعر أخرى .

ومن الضروري التمييز بين حدوث أو عرض العدوان الفعلي الواقعي ، وعرض أو تصوير العدوان الخيالي ، ولكن الأطفال الصغار - غالبا - لا يستطيعون القيام بهذه التفرقة ادراكيا ولذلك ربما يستجيبون للعدوان الخيالي بنفس الطريقة التي يستجيبون بها للعدوان الحقيقي الواقعي وبطريقة مماثلة أيضا للأفكار التي تدور حول إيذاء الآخرين ، ونمو الطفل وارتفاعه التدريجي يصبح قادرا على التمييز بين الحقيقة والخيال ، ولا يتصرفون لكل منها نفس التصرف وعندئذ لا يخاف الأطفال في هذه المرحلة من البرامج التلفزيونية التي كانت تخيفهم من قبل .

ومن المهم أن نذكر هنا وفي هذا السياق ، أن الأطفال عندما يصبحون قادرين على التمييز بين الحقيقة والخيال لا يتم ذلك بطريقة آلية ، وإنما على ميكانيزمات النضج فقط ، ولكن أيضا من خلال خبراتهم الخاصة اليومية وإدراكهم لنتائج أفعالهم المختلفة ، بالإضافة الى - وهو هام للغاية - التفسيرات المختلفة ، والمساعدة المباشرة للوالدين . ومن هنا يأتي دور الوالدين والبيئة المحيطة بصفة عامة في غو الإدراك والنمو النفسي عموما . فيعلم الوالدان الأبناء أنهم يجب أن يعملوا ليحصلوا على ما يريدون ، ويوضحون لهم من أن تلك المشاكل في حاجة الى حل وعمل ولا يمكن أن نرغب فيها فقط لكي نحمل ، ويتكرر تفاعل الأطفال بالأشخاص المحيطين بهم يصبحون قادرين على تمييز بين الحقيقة والخيال .

(٣٦ ص) .

يتضح لنا من المناقشة السابقة أن المرحلة العمرية التي يمر بها الطفل ترتبط بنموه النفسي الجسمي وتعمل كامال

فعال في تحديد ما يستطيع الطفل أن يدركه أو يتعلمه كما يتضح أن تأثير التلفزيون في سلوك الطفل يختلف درجته من مرحلة عمرية إلى مرحلة عمرية أخرى . وأن الأطفال في المرحلة العمرية ٦-٢ سنوات أكثر تأثراً بالتلفزيون من المراحل العمرية التالية .

وإذا انتقلنا من العوامل التي تساعد على أن يحدث التلفزيون تأثيره في سلوك الأطفال ، إلى الحديث عن النظرية التي وراء هذا ، لوجدنا أن النظرية التي يعتمد عليها معظم الباحثين في هذا المجال هي نظرية التعلم الاجتماعي : وترى هذه النظرية أن الأطفال يتعلمون من التلفزيون تماماً مثلما يتعلمون من أي عرض مرئي آخر ، فالطفل يتعلم أساليب وطرق العدوان أو العنف التي قد لا تأتي في مجال انتباهه ، فقد يتعلم كيف يستخدم السكين في شجار ، كيف يشق فرداً ، كيف يطلق بندقية ، أو قد يتعلم كيف يحصل على هذه الأدوات ، وذلك بالطريقة التي شاهدها في التلفزيون .

فضلاً عن أن الكثير من البرامج التلفزيونية لها تأثيرات لاثارة العامة ، والتي تجعل العنف والعدوان أكثر ترجيحاً . ويمكن تفسير ذلك بأن مناظر العنف في حد ذاتها مثيرة ، إنها ترفع من مستوى التوتر ومستوى النشاط عند الفرد ، والطفل النشط أكثر قابلية لأن يؤدي شخصاً آخر أكثر من الطفل الهادئ . ويتفق هذه النظرية إلى حد كبير مع نظرية أيزنك القائلة بأن الشخص المنبسط أكثر ميلاً لأن يكون عدوانياً وأكثر ميلاً إلى أن يقع في سلوك مضاد للمجتمع من الشخص المنطوي ، ومن صفات الشخص المنبسط أنه نشط وتفسير ذلك واضح ، إذ أن علاقاته الاجتماعية تكون أكثر اتساعاً ، وأكثر اندماجاً بالآخرين من الشخص المنطوي ، مما يزيد من فرص العدوان وفرص السلوك المضاد للمجتمع .

وقد يكون العنف والعدوان من بين الميول السلوكية الكثيرة التي يتعلمها الطفل من المشاهدة ، ويعتقد أن النشاط العدواني في برامج التلفزيون يثير خيال الطفل العنيف من خلال التوحد ، والتوحد عملية سيكولوجية تعني أن يدمج الطفل ذاته في ذات الشخص الذي يثير إعجابه ، فيدرك أنه هو هذا الشخص شخص واحد ، وخلال عملية التوحد هذه يكتبسب الطفل أخطاءاً واعدادات سلوكية كثيرة . فعلى سبيل المثال عندما يرى الطفل البطل وهو يقتل شريراً في التلفزيون ، قد يجعل ذلك الطفل يتخيل نفسه الفتى الخبير للعقاب الذي يعاقب أخاه السيء ، ويتكرر تعرضه لمثل هذه المواقف وهذه التخييلات تزداد فرصة أن يؤدي أخاه بطريقة ما وبذلك قد يرى الطفل نفسه ممثلاً للشخص - أو هو الشخص - الذي يرتكب العنف في برامج التلفزيون ، ويرى الشخص الآخر الذي يقوم بإذائه أنه الذي يستحق الإذاء . (٩٨- ١١- ١٢) ويقارن بنديورا Bandura ١٩٧٣ ، وهو من رواد نظرية التعلم الاجتماعي ، بين تأثير الإعلان التجاري على المشاهدين وخاصة الأطفال ، وبين تأثير العنف في التلفزيون على السلوك ، وهذه المقارنة ذات منطوق واقعي ، حيث اتضح في كثير من الدراسات أن الإعلان التجاري له تأثير فعال على سلوك المستهلكين وخاصة الأطفال منهم ، ففي إحدى هذه الدراسات تبين أن ٧٤٪ من أطفال العينة يفتنون أغاني الاعلانات التجارية ، كما أن الشركات التجارية لاحظت ازدياد مبيعاتها من السلع التي تعلن عنها في التلفزيون وخاصة عندما تكون هذه السلع خاصة بالأطفال .

كما يرى بنديورا ان السلوك الذي يتعلمه الطفل عن طريق المشاهدة لا يحتاج - لكي يتعلمه - لا الى مكافأة ولا الى عقاب . ويرد على المزاعم التي ترى ان التلفزيون ليس له تأثير على السلوك العدواني خاصة ، وان نتائج بعض البحوث اوضحت ذلك ، بقوله : ان عدم ظهور الاستجابة العدوانية عند الاطفال ، لا يعني ان الطفل لم يتعلمها ، فمن الممكن ان يكون الطفل قد تعلم هذه الاستجابة من الملاحظة ، او من مشاهدته لبرامج التلفزيون ، ولكنها لا تتحول الى سلوك ، ولذلك حتى اذا لم يقلد الطفل السلوك العدواني بعد مشاهدته مباشرة ، وهو ما حاولت بعض البحوث التحقق منه فظهرت نتائج سلبية ، ويرى بنديورا انه لا يوجد دليل على ان الطفل لم يتعلم الاستجابة العدوانية عندما لا تظهر مباشرة ، ان ظهور الاستجابة العدوانية في سلوك ملاحظ يحتاج الى وقت وبيئة سيكولوجية وموقف خارجي حتى يمكن ملاحظتها . وقد لا تظهر الا بعد سنوات ، كما سبق القول عند الحديث عن « التأثير التأميم » .

ويرهن بنديورا على ان الاطفال يتعلمون من الملاحظة اكثر مما يظهرون عادة في سلوكهم الظاهر .

ويمكن القول ان قبول نظرية التعلم الاجتماعي ، ونتائج بحوث بنديورا يؤكد المضمون القائل بأن التعرض للافلام العدوانية في التلفزيون يمكن ان يؤدي الى :

أ - ان يقلل من قدرة الاطفال على كف او منع الدفوعات العدوانية مما يؤدي بهم الى ارتكاب العنف والسلوك العدواني .

ب - المساهمة في تشكيل صورة وغط السلوك العدواني لدى الاطفال .

ج - ان يقلد الطفل السلوك الذي يكافأ فاهله ، اكثر من ان يقلد السلوك المعاقب فاهله .

د - ان يقلد الاطفال السلوك العدواني الذي يشاهدونه ، وخاصة حينما يثاب الشخص الذي يقوم بالعدوان (١٣ ص ٥ - ١٩) .

ويدلونا الآن ان معظم العلماء والمهتمين بمشكلتنا هذه يرون ان التلفزيون له تأثير واضح في سلوك الاطفال وان العنف والعدوان في التلفزيون يؤدي الى السلوك العدواني عند الاطفال . ولقد توصل لايسرت عام ١٩٧٣ و Liebert الى ذلك في قوله :

« هناك درجة ملحوظة من الاتفاق . . . على وجود ارتباط بين العنف المشاهد والسلوك العدواني عند الصغار ، فالدراسات المعملية والبحوث الارتباطية الحقلية اظهرت جميعها ان التعرض للتلفزيون يمكن - وغالبا ما يحدث - ان يجعل المشاهد اكثر عدوانية ، وذلك عندما استخدمت المقاييس والمعايير المختلفة للعدوان » . (١٣٠ ص ٩) .

ولكن مع هذا الاتفاق ، يجب ان نضع في اعتبارنا ان العوامل التي تؤثر في السلوك وتشكل الشخصية متعددة ، فهناك عوامل اخرى تشترك مع التلفزيون في احداث مثل هذا التأثير في السلوك ، فلاحظ مثلا ان تأثير التلفزيون في السلوك العدواني المكتشف قد يختلف من الذكور الى الاناث ، ويختلف من الراشدين الى المراهقين والاطفال . كما ان درجة العدوان الذي قد ينجم عن مثل هذا التعرض للتلفزيون قد يختلف باختلاف مقدار الوقت الذي يقضيه الفرد امام التلفزيون ، ونوع البرامج بالاضافة الى عوامل هامة اخرى خاصة بالفرد مثل : مستوى ذكائه ، ومستواه الاجتماعي الثقافي .

ففي دراسة مسحية امريكية ، اوضحت نتائجها ان الاطفال الذين من الطبقة الاجتماعية المتوسطة ، والذين يقضون وقتا طويلا امام التلفزيون اظهروا عدوانا ضد المجتمع اكثر من اطفال الطبقة المتوسطة والذين يقضون وقتا اقل في مشاهدة التلفزيون وقتا اطول في القراءة . ولم تبين نتائج البحث مثل هذه العلاقة عند الاطفال الذين من الطبقة الاجتماعية الاقتصادية الأدنى ، ويدوان خيال التلفزيون بالنسبة لاطفال الطبقة الوسطى يجعلهم يتعرضون لاحتكاكات اكثر مما يواجه اطفال الطبقات الاخرى ، كما يبدو انه يعكس قدرا كبيرا من الصراع مع الوالدين .

كما اوضحت بعض الدراسات المسحية التي اجريت في عامي ١٩٥٩ - ١٩٥٩ ان الشعور بالاحتكاك الشديد يرتبط بتفضيل برامج العنف ، كما ان استعدادات الشخصية العدوانية عند الاولاد ترتبط بتفضيل المضمون العدواني في برامج التلفزيون ، ما اتضح ان الاولاد الذين يفضلون مادة البطل العدواني يميلون الى ان يكونوا مضطربين انفعاليا ، ويأتون من اسر غير مستقرة .

كما اتضح ان الاولاد العدوانيين الذين في الصف الثالث (تسع سنوات) يفضلون برامج العنف في التلفزيون ، على الرغم من انهم قد لا يشاهدون التلفزيون كثيرا . (٩٥ ص ٣٣) .

ويمكن الاستناد الى هذه النتائج كشواهد على ان برامج التلفزيون العدوانية تعتبر مكافئة للاطفال المحيطين ، غير المتوافقين والعدوانيين . كما يمكن الاعتماد عليها كبراهين على ان العدوان عند الاطفال تثيره برامج العنف والعدوان في التلفزيون ، وهو ما يتفق مع الخلاصة التي خلصنا اليها .

ويبدو لنا واضحا الآن ان صفات المشاهد تتفاعل مع خصائص البرنامج عند تحديد التأثيرات النهائية للعنف والعدوان لبرامج التلفزيون .

وبعد الانتهاء من الحديث عن العلاقة بين برامج العنف في التلفزيون وتأثيرها في شخصية الاطفال ، نتنقل الى موضوع آخر هو علاقة برامج التلفزيون بالجوانب المعرفية عند الاطفال .

ثالثا : أثر التلفزيون في النمو المعرفي للأطفال :

كان حديثنا عن علاقة العدوان في التلفزيون بالسلوك العدواني عند الاطفال ، بعد حديثنا عن علاقة التلفزيون بالجانب المزاجي او الانفعالي من الشخصية ، اما حديثنا عن علاقة التلفزيون بالنمو المعرفي عند الاطفال فهو حديث عن الجانب المعرفي من الشخصية ايضا . وكلا الجانبين يكونان الشخصية ويتفاعلهما تتكون الشخصية ، وأي تأثير في احدهما يؤثر في الآخر وأي غم لأحدهما يغم للآخر ، وعندما نحدثنا عن أثر التلفزيون في السلوك العدواني قلنا ان ادراك الطفل لمعنى ومضمون البرنامج التلفزيوني هو الذي يحدد مدى تأثيره فيه ، والادراك جزء من الجانب المعرفي .

ولكن على الرغم من أن الجانبين هامين في تنظيم الشخصية ، وتحديد مدى تأثير التلفزيون في السلوك ، إلا أن العلماء كانوا أكثر اهتماما بتأثير التلفزيون في السلوك العدواني ، وبدأ هذا الاهتمام مبكرا جدا ، أي عندما بدأ الأرسال التلفزيوني ينظم في العالم . أما علاقة التلفزيون بالجانب المعرفي فلقد تأخر العلماء في الاهتمام به أو دراسته . حتى السبعينات من هذا القرن ، ويبدوان الاهتمام العلمي العملي بهذا الموضوع بدأ مع بداية انتاج البرنامج الأمريكي الشهير « شارع السمس » حيث يؤرخ العلماء بداية عصر التلفزيون التعليمي ببداية انتاج هذا البرنامج ، وما دنا نتحدث عن التعليم والتعلم فنحن نتحدث عن جزء من الجانب المعرفي .

ولم يعد عرض برنامج شارع السمس مقصورا على امريكا ، بل يعرض في ٤٨ دولة ، ويشاهده مرة كل اسبوع على الأقل ٨ ملايين طفل ، ويشاهده ثلاث مرات او أكثر في الاسبوع ٦ ملايين طفل . وصمم ونفذ البرنامج لكي يعلم اطفال ما قبل المدرسة الابتدائية وخاصة في سن من ٣ - ٤ سنوات الذين يعيشون في المناطق الفقيرة والمحرومة من الخدمات في المدن ، ولكن يبدو انه كان أكثر انتشارا من ذلك .

وبتحليل مضمون برنامج « شارع السمس » كما يقدم في امريكا ، وجد أنه يعلم الأطفال الجوانب التالية بالنسبة لقارئ كل منها :

النسبة المئوية	الموضوع
٤٠,٠%	أجزاء الجسم
١٣,٩%	حروف الكتابة
٢,٥%	الاشكال
٩,٩%	الأرقام
٤,٩%	العلاقات
١,٩%	الفسرز
٠,٧%	التصنيف

ومنذ بداية عرض هذا البرنامج الخاص بالأطفال بدأت الدراسات والبحوث حول تأثيره في الجانب المعرفي للأطفال . ومن أولى الدراسات في هذا المجال الدراسة التي أجراها مالكوم Malcolm ونشرت نتائجها عام ١٩٧٠ وأوضح الباحث أن برنامج « شارع السمس » له هدف أساسي هو تعليم أطفال ما قبل المدرسة المهارات التي يتعلمها الطفل في المدرسة مثل : الحروف الأبجدية ، الأرقام ، الاشكال ، العلاقات ، التصنيف ، وأجزاء الجسم . وتبين من البحث النتائج التالية :

١ - أن الأطفال المحرومين الذين يعيشون في الاحياء الفقيرة ويشاهدون البرنامج بانتظام قد تعلموا أكثر من الأطفال

الاحسن حالا من الناحية الاقتصادية والاجتماعية والذين يشاهدون بعض الحلقات فقط ، وذلك دون النظر الى العمر او السن او المنطقة الجغرافية .

٢ - ان الاطفال الذين في سن ٣ سنوات ويشاهدون البرنامج بانتظام يتعلمون اكثر من الاطفال الذين في سن ٤ او ٥ سنوات واقل انتظاما في مشاهدة ومتابعة البرنامج .

٣ - تبين ان الاطفال يتعلمون جيدا عندما يشاهدون البرنامج في المنزل او في المراكز الخاصة باطفال ما قبل المدرسة . كما تبين ان الاطفال الذين يتعلمون من البرنامج افضل من الآخرين ، شاهد امهاتهم البرنامج معهم وتناقش معهم حوله بعد عرضه .

واجريت دراسة اخرى عام ١٩٧١ وكانت عينة البحث من اطفال تتراوح اعمارهم بين ٥ - ٦ سنوات ، وتبين من نتائج البحث عدم وجود فرق واضح في المعلومات التي يثبها البرنامج بين الاطفال الذين يشاهدونه والاطفال الذين لا يشاهدونه كما لم يجد فرقا واضحا بين الاطفال الذين شاهدوه لمدة سنة واحدة والاطفال الذين شاهدوه لمدة سنتين .

وفسر البعض ان هذه النتائج متوقعة لان البحث اجري على فئة عمرية لم يصمم البرنامج لتعليمها ، فلقد صمم البرنامج لتعليم الاطفال الذين في سن من ٣ - ٤ سنوات فقط .

ثم تعاقبت ورشة تليفزيون الاطفال التي تنتج برنامج « شارع السمسم » مع احد مراكز البحوث التربوية لقيم فعالية البرنامج ، وقام المركز بدراسة مدى فعالية البرنامج ، وقدم تقرير البحث بنتائجه سنة ١٩٧٠ جاء فيه :

ان الاطفال من سن ٣ الى ٥ سنوات ، ومن مستويات اجتماعية واقتصادية متباينة ، ومن مناطق حضرية وريفية ، يكتسبون مهارات معرفية هامة ، وذلك نتيجة لمشاهدتهم البرنامج وتبين ان الذين شاهدوه اكثر تعلموا اكثر .

كما بينت الدراسة ان التليفزيون التعليمي كوسيلة ذات فعالية لتعليم مهارات معينة للاطفال الصغار بواسطة برنامج « شارع السمسم » قد برهنت عليها البحوث . كما اورد التقرير النتائج التالية :

- ١ - يحدث تحول للتعليم^(١) الذي يكتسب نتيجة لمشاهدة برنامج « شارع السمسم » مثل التعرف على الكلمات الكاملة ، أو قدرة الاطفال على كتابة أسمائهم ، مع أن هذه المهارات لم تعلم في البرنامج .
- ٢ - أن الاطفال في سن ٣ سنوات أكثر تعلما وتحصيلا من البرنامج ، من الاطفال الذين في سن ٥ سنوات .

(١) تحول التعلم يعني انه قد يكون لتعلم مهارة معينة احيانا تأثير في تعلم مهارة اخرى وقد يكون هذا التأثير ايجابيا . بمعنى ان تعلم المهارة الأولى يساعد تعلم المهارة الاخرى ويسمى هذا التأثير بنحول التعلم الايجابي ، وقد يكون للتأثير سلبا اي ان تعلم المهارة الأولى يعيق تعلم المهارة الاخرى سلبا ، ويسمى التأثير في هذه الحالة بنحول التعلم السلبي .

زيد من التفصيل من تحول التحول انظر : دكتور محمد عثمان نجاني ، علم النفس في حياتنا اليومية ، دار الفلم . الكويت . الطبعة الثالثة . ١٩٨٠ ص ١٧٨ ، ١٨٠ .

٣ - يتعلم الأطفال المهارات أفضل عندما تقدم هذه المهارات خلال البرنامج بطريقة مباشرة .
ونخرج من نتائج هذه البحوث بأن تأثير التلفزيون على الجانب المعرفي للأطفال يكون أكثر وضوحاً عند الأطفال من سن ٣ إلى ٤ سنوات ، وعندما تشارك الأم الأطفال في مشاهدة البرنامج وتتأقشهم في معلوماته ، فلقد أشار تقرير مركز البحوث التربوية الى أن البرنامج يكون أكثر فعالية وتأثيراً عندما تستجيب بيئة المنزل إيجابياً للمثيرات التعليمية التي يعرضها البرنامج .

ثم انتقل اهتمام العلماء الآن خطوة أخرى الى الأمام في مجال النمو المعرفي ، فبعد أن كانوا يهتمون بدراسة مدى تأثير التلفزيون على الجانب المعرفي للأطفال ، بدأوا يهتمون حديثاً جداً بمدى مساهمة التلفزيون في زيادة معدل النمو المعرفي عند الأطفال ، وانتقل هذا الاهتمام الى علم النفس ، وعلماء النمو النفسي خاصة ، لدراسته ما إذا كان من الممكن زيادة معدل النمو المعرفي ؟ وسوف تزداد بحوث المستقبل القريب حول هذا الموضوع .

(١٣ ص ١١٧ - ١٥)

وابعا : دور التلفزيون في التنشئة الاجتماعية للطفل :

سبق الحديث عن أهمية التلفزيون ومكانته المتميزة عن وسائل الإعلام الأخرى ، ومن العوامل التي ذكرت وجمعت له هذه المكانة أنه أصبح له دور في تنشئة الأطفال اجتماعياً في الأسرة .

ولأهمية عملية التنشئة الاجتماعية وخطورتها على المجتمع ، اهتم علماء العلوم الاجتماعية ، وخاصة علماء النفس بدراساتها ، وعندما اتضح أن التلفزيون له دور في هذه العملية بدأ العلماء يهتمون بتأثير هذا الدور على الأطفال ، ومدى قيام التلفزيون بدوره فيها ، ومدى تأثيره في السلوك الاجتماعي للأطفال .

فاهتم العلماء بأنماط عديدة من السلوك الاجتماعي للأطفال وأثر التلفزيون فيها مثل : مساعدة الآخرين ، التعاون ، الصراع ، الصداقة ، التعاطف ، الشفقة ، المثابرة في عمل الواجب ، طاعة القواعد التي تضمها الجماعة . ورغم أهمية موضوعنا هذا إلا أن الدراسات حوله قليلة بل تكاد تكون نادرة .

وتبين من إحدى الدراسات التي أجريت عام ١٩٧٠ أن البرامج الاجتماعية في التلفزيون تدعم وتقوي من تعلم السلوك الاجتماعي للأطفال الذين في سن ما قبل المدرسة .

كما أوضحت دراسة أخرى أجريت في بريطانيا عام ١٩٥٥ وجود عدد من الأدلة على تأثير التلفزيون في سلوك الأطفال الذين في سن من ١٠ - ١١ سنة ، حيث تبين وجود تأثير قليل ولكن متسق للتلفزيون في الطريقة التي يفكر بها الأطفال عن العمل ، كما اتضح أن الأطفال الذين يشاهدون التلفزيون يظهرون طموحاً أكثر في نظرتهم وقيمهم التي تتعلق بالعمل عن الأطفال الذين لا يشاهدون التلفزيون ، فلقد اقترحت قيم الأطفال الذين يشاهدون برامج التلفزيون من قيم الطبقة المتوسطة عن العمل .

وفي دراسة قامت على مضمون بعض المسرحيات التي تقدم للراشدين في التلفزيون البريطاني لا تتضمن هذه المسرحيات الفكاهية أو الاجرامية أو البوليسية) وحيث أن الأطفال يستمتعون بالعديد من المسرحيات التي تقدم للراشدين فيمكن أن تكشف لنا الدراسة عن محتوى هذه المسرحيات من قيم ، ومدى تأثيرها في الأطفال وقيمهم .

فاتضح من هذه الدراسة أن عالم الدراما في التلفزيون البريطاني يقدم قيم مجتمع أعلى الطبقة المتوسطة التي تعيش في المدن الكبرى ويتعرض لمهن الأفراد وعملهم في هذا المستوى الاجتماعي بشكل موسع . كما اتضح أن المسرحيات تقدم العمل اليدوي على أنه غير شيق ، وتعلم الأفراد أن الثقة بالنفس والصلاية لا بد من توفرها لكي تحقق النجاح ، ونادرا ما تجلب الفضيلة السعادة ، وأن العنف جزء من الحياة يتعذر اجتنابه ، والأفراد الطيبون غالبا ما يكونون ضحايا .

كما اتضح من هذه الدراسة أن أوصاف الأطفال الذين يشاهدون التلفزيون منازل الأغنياء تعكس علامات الثراء التي تصور في التلفزيون . وتوضح هذه الدراسة أن القيم الاجتماعية التي يعرضها إلتلفزيون يمكن أن تحدث تأثيرا اذا ما قدمت في شكل درامي وبطريقة مستمرة^(١٢).

ويرى أحد علماء النفس أن هناك اختلافات بين الطبقات الاجتماعية في أساليب تنشئة الطفل ، وحتى تظل هذه الاختلافات باقية يجب أن تنقل الى الأجيال القادمة عن طريق أنماط تنشئة الطفل الخاصة بكل طبقة اجتماعية ولقد وجد في أمريكا فروق ملحوظة بين الطبقات في أساليب تنشئة الطفل سنة ١٩٤٠ ، حيث وجد أن الآباء الذين من الطبقة الوسطى أكثر صرامة مع أبنائهم من الآباء الذين من الطبقة الدنيا ، ولكن في سنة ١٩٥٨ أوضحت إحدى الدراسات تقارب الفروق بين الطبقات وتغيرت نظرة المجتمع الى معاملة الطفل ، ويرجع بعض علماء النفس هذا التقارب بين الطبقات الاجتماعية في أساليب تنشئة الطفل الى التلفزيون ، فيقول أحد علماء النفس :

« وفي الحقبة الحديثة ، عندما حدث تغير في نقل المعايير من المجلات والكتب التي تتطلب قدرا عاليا من الثقافة والتعلم الى التلفزيون الذي ينقل أساسا وسائل متشابهة عن تربية الطفل الى كل من أمهات الطبقة الوسطى والطبقة الدنيا على السواء ، فإن فروق الطبقة التي كانت ملحوظة يوما ما أخذت تميل الآن الى الاختفاء كلية ، ومن المحتمل أيضا أن نفس عملية التقريب يمكن أن تحدث عبر الثقافات التي أصبحت أقل انتمالا بعضها عن بعض ومن ثم توثق الصلة أيضا بين الثقافة والشخصية »^(١٣).

هذا عن دور التلفزيون في التنشئة الاجتماعية بصفة عامة للأطفال ، ومنذ خمس سنوات فقط بدأ الباحثون يهتمون بموضوع محدد من موضوعات التنشئة الاجتماعية وهو تأثير التلفزيون في اكتساب دور النوع . ويقصد بدور النوع أن كل نوع (ذكر أو أنثى) له دور محدد في الأسرة والمجتمع ، وله مهن معينة يزاولها ويقبل المجتمع مزاولته لها ، وله حقوق وواجبات محددة وله مكانة معينة في الأسرة والمجتمع ، والذي يحدد كل هذا المجتمع والثقافة السائدة فيه والذي ينقل كل ذلك الى أبناء الأسرة ، فنحن لا نولد بهذا الدور ولكن نتعلمه ونكتسبه خلال عملية التنشئة الاجتماعية في الأسرة ، ويصبح جزءاً من شخصيتنا ، ويحدد سلوكنا في المواقف الاجتماعية المختلفة ، ولذلك يختلف دور الأنثى - ودور الذكر في الأسرة وفي المجتمع من مجتمع الى آخر .

فهل التلفزيون له دور في تعليم الأطفال دور نوعهم ؟

أوضحت إحدى الدراسات أن مجموعة من البنات في سن من ٥ الى ٦ سنوات شاهدن كارتونا تلفيزونيا لا يفرق بين الذكور والاناث في الدور الاجتماعي ، وبعد مشاهدته أظهرن في سلوكهن دور نوع أقل تميزا بين الذكور والاناث .

وعند تقسيم أحد البرامج المصممة لتقليل نط دور النوع بين الذكور والإناث من الأطفال الذين في سن من ٩ إلى ١٢ سنة ، وليوسع الوعي والاهتمام المهني للبنات في هذه المرحلة العمرية اتضح ما يلي :

أنه على الرغم من أن البرنامج كان له تأثير محدود في تعديل نط الاهتمام الفردي إلا أن المشاهدين من سيع مدن أمريكية أصبحوا أكثر تقبلا واستحسانا للبنات في أدوار غير تقليدية (أدوار كان الذكور يقومون بها عادة) وأصبحوا أقل تمسكاً في ادراكهم لدور النوع . وكان حدوث هذه التأثيرات أكثر يسرا عندما شاهد أفراد عينة البحث البرنامج في المدرسة ، مع مناقشته في الفصل الدراسي . كما تبين أن ٦٠٪ من تأثير البرنامج استمرت مع أفراد العينة لمدة ٩ أشهر بعد مناقشتهم للبرنامج^(١٥).

ويمكننا أن نختم حديثنا عن دور التلفزيون في التنشئة الاجتماعية للأطفال بالعبارة التي ذكرها رائد من رواد نظرية التعلم الاجتماعي ألبرت بندورا عام ١٩٧٧ حيث قال :

« انه بازدياد استخدام نماذج رمزية (التلفزيون) فان دور الوالدين والمدرسين والنماذج التقليدية الأخرى للأدوار ، سوف تحتل دورا أقل أهمية في التعلم الاجتماعي »^(١٦).

وإذا حاولنا في نهاية هذه الدراسة أن نستعرض مدى تأثير وسائل الإعلام وخاصة التلفزيون في سلوك الأطفال لوجدنا أن هذا التأثير حيوي وفعال ، وبرهنت عليه البحوث العلمية ، والملاحظات الخاصة الدقيقة ، وذلك في السلوك العدواني ، والجوانب المعرفية والتعلم الاجتماعي والتنشئة الاجتماعية ، وأن فعالية هذا التأثير تزداد عندما يكون الطفل عنده الاستعداد النفسي لمثل هذه التأثيرات ، وعندما تكون ظروف الأسرة هذه تساعد على ذلك . وعندما أيضا يكون الطفل في مرحلة عمرية تساعد على حدوث مثل هذا التأثير ، حيث اتضح أن عمر الطفل عامل هام في حدوث تأثير التلفزيون .

ويرى كاتب هذه الدراسة أنه إذا كانت الدول الأخرى قد اهتمت بدراسة تأثير التلفزيون في سلوك الأطفال فاننا في الدول العربية ، يجب أن نهتم اهتماما مضاعفا ، فيجب أن نهتم بتأثير برامجنا العربية ومضمونها في سلوك أطفالنا ، ثم وهذا هو الأهم أن نهتم بتأثير البرامج الأجنبية في سلوك واتجاهات وقيم وعادات أطفالنا في العالم العربي ، خاصة بعد أن اتضح مدى تأثير التلفزيون في الجوانب المختلفة لسلوك الأطفال وشخصياتهم في الرشد .



مراجع البحث

- ١ - دكتور سهرير كات . الإعلام ونظارة الصورة للتخطيط . مجلة العلوم الاجتماعية . المجلد الثالث . العدد الأول . ١٩٨٠ . ص ١٠٣ - ١١٩ .
 - ٢ - دكتور سيد فهم . سيكولوجية الشخصية . القاهرة : دار النهضة العربية . ١٩٧٣ .
 - ٣ - دكتور عبداللطيف حزة . الإعلام والدعاية . بغداد . مطبعة المعارف . ١٩٦٨ .
 - ٤ - لازاروس . (ترجمة دكتور سيد فهم) . الشخصية . القاهرة : دار الشروق . ١٩٨١ .
 - ٥ - دكتور عباس أحمد . أنشطة الطفولة والحركة لطفل ما قبل المدرسة الابتدائية : الطفل والتلفزيون . بحث مقدم إلى أسبوع التربية الثامن . الكويت . ١٩٧٨ .
 - ٦ - دكتور مصطفى سويلف . الأسس النفسية للتكامل الاجتماعي . القاهرة : دار المعارف . ١٩٧٨ .
 - ٧ - دكتور ناهد رمزي . المقابلة بين التلفزيون والرسائل الإعلامية الأخرى . للمجلة الاجتماعية القومية . المجلد ١ - ٣ . المجلد ١٦ . ١٩٧٩ . ص ٤٩ - ٦٨ .
 - 8 — Bandura, A. Social Learning Theory: New Jersey: Prentice — Hall. 1971.
 - 9 — Feshbach, S. & Singer, R. Television and Aggression. San Francisco: Gessey — Bass. 1967.
 - 10 — Frank, G. Television: How to use it wisely with children. Child study Association of America, INC. 1969.
 - 11 — Heinty, A. et al. Mass Media. Loyola university Press. Chicago: 1972.
 - 12 — Himmelwiet, H. et al. Television and the child. in: Berelson, B. & Gavowity, M. Reader in Public Opinion and Communication. New York Free Press. pp. 418 — 448.
 - 13 — Lesser, H. Television and the preschool child. London: Academic press. 1977.
 - 14 — Kagan, G. & Moss, H. Birth to Maturity. London: Wiley. 1962.
 - 15 — Roberts, D. & Bachen, C. Mass Communication Effects. Annual Review of psychology. V. 32, 1981, pp. 307 — 356.
- مصادر أخرى للبحث :
- دكتور أحمد الخطيب . دكتور أحمد النكلاوي . لدخول السيبرولوجي للإعلام . الاستكبرية : دار الكتب العلمية . (بدون تاريخ) .
- دكتور سيد محري . النمو الجسمي في مرحلة الطفولة . عالم الفكر . المجلد السابع . العدد الثالث . ١٩٧٦ . ص ١٣ - ٥٠ .
- دكتور سيد فهم . النمو النفسي من الطفل إلى الراشد . عالم الفكر . المجلد السابع . العدد الثالث . ١٩٧٦ . ص ٥١ - ١١٤ .
- دكتور فرام . ترجمة : محمد فتحي . أجهزة الإعلام والتنمية الوطنية . القاهرة : افقة ناصرية العامة للتأليف والنشر . ١٩٧٠ .
- دكتور عبدالرحمن المصري . النمو الروحي والنفسي وأنشطة الاجتماعية في مرحلة الطفولة والمراهقة . عالم الفكر . المجلد السابع . العدد الثالث . ١٩٧٦ . ص ١٧٤ - ١٩٠ .
- Bandura, A. Aggression: Asacial Learning analysis. New Jersey: prentice — Hall. 1973.
- Liebert, R. et al. The Early Window: Effects of Television on Children and youth. New York: pergamon press. 1973.

تقدم لنا الدول الإفريقية في مجملها وجهين متضادين فهي تمثل من جهة ظاهرة اقتصادية واجتماعية وسياسية وسكانية متشابهة عند مقارنتها بالدول المتقدمة ولكن ما أن ينظر الى هذه الدول بعزل عن بقية العالم حتى تبدو شديدة التنوع . وهذا التنوع لا يقتصر على الدول ذاتها بل إن في كل دولة منها تنوعا مذهلا يرجع الى مجموعة من العناصر المركبة . فهي تتكون أولا من سكان ذوى أصول قبلية متنوعة وفي داخل كل وحدة من هذه المجموعات تتمتع الجماعات التي تكونها بأصالة قوية . كما أن تنظيم هؤلاء السكان كان يقوم عند احتكاكهم بالغرب على أسس اجتماعية مختلفة . كما توصلت الدول الإفريقية في تطورها الى نظم اقتصادية واجتماعية شديدة التباين يمكن وصف خطوطها العريضة بأنها تتراوح بين التنظيم القبلي الذي يقوم على الشيوخ وبين النظم شبه الاقتصادية التي يتفاوت تنظيمها من بلد الى آخر بدرجات مختلفة . وفي معظم هذه البلاد تنميش أشد أشكال التنظيم تطورا مع أكثرها بدائية . وغالبا للدول المتقدمة التي تطورت بصورة ذاتية فان الدول الإفريقية لا يمكن تقييم أوضاعها الرفاهية اذا أخذنا النفوذ الأجنبي . فلقد تباينت النظم الاستعمارية كثيرا بتباين الأمم واختلاف المعصور وكذلك اختلفت وسائلها وأهدافها اذ تختلف بصورة واضحة نماذج كل من الاستعمار الإسباني والبرتغالي في القرنين ١٦ ، ١٧ عن تلك التي تقابل المهود الأولى من الثورة الصناعية (١) .

وقد يبدو من الضروري أن نستعرض بشكل موجز آثار الظاهرة الاستعمارية الأوروبية على الواقع الاجتماعي والاقتصادي والسياسي للمجتمعات الإفريقية ثم نتابع ردود الفعل الإفريقية التي تمثلت في حركة التحرر الوطني الإفريقي التي بدأت تفرض نتائج

الصحافة الإفريقية

بين السبعين والاربعين

عمر لطيف عبد الرحمن

كلية الاعلام - جامعة القاهرة

(١) جون هانلي : تاريخ إفريقيا بعد الحرب العالمية الثانية ترجمة عبد الحليم منسي - دار الكتاب العربي - القاهرة ١٩٩٩ - ١٣٢٧ - ٤٥٦ .

وجودها منذ نهاية الخمسينات . وعندما تتأمل قليلا الظاهرة الاستعمارية الأوروبية نلاحظ أنها انخفضت عن ثلاثة أشكال كان لكل منها أسلوبه المميز سواء في الحكم أو في الاستغلال الاقتصادي أو في إدارة الصراع مع القوى المحلية . فنلاحظ أن الرأسمالية التجارية الأوروبية قد أفرزت أقدم الأشكال الاستعمارية وأكثرها تحلقا وتمتلك في كل من الاستعمار الإسباني والبرتغالي في القرنين ١٦ ، ١٧ تليها في الترتيب الزمني الرأسمالية الصناعية الأوروبية التي أدى تطورها في القرنين ١٨ ، ١٩ الى ظهور كل من الاستعمار البريطاني والفرنسي والألماني والبلجيكي . أما الشكل الثالث والآخر فهو يتجسد في ظاهرة الاستعمار الاستيطاني الأبيض في بداية القرن العشرين وكان الجزء الجنوبي من القارة الأفريقية هو مجالها الحيوي ولقد ساهمت طبيعة المستعمر ودرجة تطوره في سلم الرأسمالية الأوروبية في تحديد شكل ومضمون الصراع مع شعوب المستعمرات . فنلاحظ أن كلا من الاستعمار الفرنسي والبريطاني قد خلق مناخا للصراع مختلفا عن ذلك المناخ الذي فرضه كل من الاستعمار البرتغالي والاستيطاني فقد اتسمت السلطة الاستعمارية الفرنسية بالطابع الأوتوقراطي أكثر من الاستعمار البريطاني الذي كان يعتمد على أساليب للحكم اتسمت بالمرور والليبرالية من حيث السماح بقيام أحزاب وطنية وبالتالي صدور صحف وطنية تعبر عن هذه الأحزاب . وقد ساعد هذا المناخ على نشوء حركات وطنية اتبعت الأسلوب السلمي في كفاحها ضد الاستعمار البريطاني . وقد حققت هذه الحركات السلمي أهدافها في الحصول على الاستقلال الكامل أو المشروط أو مجرد وعد بالاستقلال ووصلت الى ذروة نجاحها في نهاية الخمسينات وبداية الستينات . . هذا بينما نجد أن المستعمرات الأفريقية التي لجأت الى الكفاح المسلح هي التي خضعت للاستعمار الأكثر تحلقا والذي يتميز بروح القهر الصليبي حيث قام بتحويل الشعوب الأفريقية التي خضعت له الى مجموعة من الكادحين الملعين وبالتالي فقد جاءت ثوراتها الوطنية متأخرة عن سواها ولكنها تتميز بالعنف المسلح وتشتمل على مطالب كل من الثورتين الوطنية والاجتماعية معا .

هذا وقد تبلورت على أرض القارة الأفريقية في أعقاب الحرب العالمية الثانية وحتى أوائل الستينات ثلاثة اتجاهات رئيسية لتحقيق التحرر الوطني والحصول على الاستقلال يمكن إيجازها على النحو التالي : -

أولا : الاتجاه السلمي المعتدل الذي تمثل في اقتناع بعض الزعامات الأفريقية بفكرة العمل داخل النظام الاستعماري للحصول منه على الاستقلال من خلال العمل الدستوري وقد عبر عن هذا الاتجاه كل من نيجيريا والسنگال وساحل العاج .

ثانيا : الاتجاه السلمي الراديكالي وقد تبنته التنظيمات الشعبية التي تصدت للقوى الاستعمارية ووضعت أمام الاختيار بين منح الاستقلال السياسي لهذه التنظيمات الوطنية أو المواجهة الشعبية الحادة التي كانت تملك هذه التنظيمات القدرة على تفجيرها وقد عبر عن هذا الاتجاه كل من غينيا وغانا وتنجانيقا .

ثالثا : الكفاح المسلح وقد لجأت اليه الجماهير الأفريقية لمواجهة حكم المستوطنين الأوروبيين مباشرة إذ أنها لم تجد مفرًا من اللجوء الى الكفاح المسلح الذي واجهه عدة انتكاسات في روديسيا وصفي في كينيا ونجح في إطار الثورة الوطنية الشاملة في كل من الجزائر وأنجولا وموزمبيق وغينيا بيساو وزيمبابوي (٢) .

(٢) جاك وديسي : جلودر الثورة الأفريقية - ترجمة فؤاد بلح - المجلة المصرية العامة للتأليف والنشر - القاهرة ١٩٧١ - ص ٤٠٧ - ٤٠٨ .

وقد انقسم المجتمع الإفريقي أثناء الفترة الاستعمارية إلى ثلاثة قطاعات ، القطاع التقليدي وقطاع المهنيين وعمال المدن وفيما بينها قطاع الحرفيين الذي كان ينتمي بعض أفرادها إلى عائلات لها وزنها في المجتمع إذ كانت تتمتع بـسوخ مكانتها وراثتها النسبي . وقد كان للاستعمار الأوربي أثر على التركيب الاجتماعي للمجتمعات الإفريقية يتكون من عدة أبعاد أولها أنه أضعف الحكم القبلي بأن قلل من شأن طبقة المجتمع المستقرة وثانيها أنه خلق طبقة بورجوازية جديدة من المحامين والأطباء والمدرسين والتجار وثالثها أنه خلق طبقة بورجوازية صغيرة متمدينة ومتداخلة مع العمال وتتكون من العمال المهرة والكتبة وصغار المدرسين والتجار والصحفيين وهذه الطبقة تمثل غالبية سكان المدن كما كانت تعيش قريبة من القطاعات الواسعة من العمال الريفيين (٣) .

المتقنون الإفريقيون في مرحلة التحرير الوطني :

لقد لعب المتقنون الإفريقيون دورا قياديا في مرحلة التحرير الوطني سواء الرعييل الأول منهم والذين كانوا يتمتعون في غالبيتهم إلى الأوساط البورجوازية الأصلية وكانوا يهدفون في أفضل الأحوال إلى تحقيق التسويات مع السلطات الاستعمارية . أما الرعييل الثاني من المتقنين الإفريقيين فقد تميز بالأسلوب الراديكالي في مواجهة السلطات الاستعمارية مما ساعدهم على تحقيق الاستقلال الوطني وقد كان الحصول على الاستقلال نذيرا بحمل كثير من التغيرات الجهرية التي طرأت على موقع المتقنين الإفريقيين وأدوارهم في الدول الإفريقية المستقلة . إذ تنبى بعضهم فكر ومصالح الجماهير الإفريقية بينما انصرف البعض الآخر عن مواقع الريادة بأسا من الأوضاع التي نشأت بعد جلاء المستعمرين هذا في الوقت الذي تعلق فيه الفريق الثالث بأذيال الحكومات الإفريقية الجديدة كناطقين باسمها ومبررين لسياساتها . هذا هو التغير الذي طرأ على مواقع المتقنين الإفريقيين بعد الاستقلال . أما أدوارهم فقد تعرضت لتغيرات أساسية وذلك بسبب المهام والمسؤوليات التي أصبحت تواجهها الحكومات الإفريقية بعد الحصول على الاستقلال من ناحية وبسبب التغير الذي طرأ على علاقة المتقنين الإفريقيين بالسلطة السياسية من ناحية أخرى . فقد أصبحت المهمة الأولى أمام الحكومات الإفريقية هي إعادة بناء الدولة بصورة جذرية سواء على المستوى الاقتصادي أو السياسي أو الثقافي . وإذا كانت هذه المرحلة لا تحتاج بالدرجة الأولى إلى دعاة سياسيين وخطباء بقدر حاجتها إلى مهندسين وأطباء وخبراء فنيين في شتى المجالات فإن ذلك لا يعني انتهاء دور المتقنين بقدر ما يعنى التغير في نوعية هذا الدور إذ يبدأ دورهم في التراجع كطليعة سياسية ويفتح أمامهم إمكانيات وأفاقا جديدة لم تكن موجودة في المرحلة الاستعمارية وتبدأ أمام المتقنين مهمة إعادة بناء الثقافة الوطنية وبعث الجوانب الإيجابية في التراث الإفريقي . والواقع أن الدور القيادي للمتقنين الإفريقيين في مرحلة التحرر الوطني ذو طابع مؤقت ومحدود تاريخيا . ويظل هذا الدور ممكنا طالما أن هناك ضرورة موضوعية تفرضها أوضاع الدول الإفريقية للتحرر من السيطرة الأجنبية . ولكن في سياق تحول المجتمعات الإفريقية التي كانت خاضعة للسيطرة الاستعمارية إلى مجتمعات مستقلة تتطلع إلى التصنيع وإعادة البناء من خلال برامج طموحة للتنمية الاقتصادية والاجتماعية والثقافية هنا يتغير موقع ودور المتقنين الإفريقيين وتفرض عليهم المرحلة الجديدة مسؤوليات ومهام جديدة (٤)

(٣) هذه من العلماء السوفيت : التركيب الطبقي للبلدان النامية - ترجمة هادي حيدر ومصطفى الديباس - منشورات وزارة الثقافة - دمشق ١٩٧٤ ، ص ٣٧٧ - ٣١٧ .

(٤) عواطف هدارحين : مغلدة في المصالحة الإفريقية - منشورات الجمعية الإفريقية - القاهرة ١٩٨٠ ، ص ٤١ - ٤٢ .

الصحافة الأثريقية في مرحلة التحرر الوطني :

لم تشهد الدول الأفريقية نشوء صحف وطنية طوال المرحلة الأولى من وجود الاستعمار الأوروبي والتي امتدت حتى بداية القرن العشرين فيها عدا بعض الدول مثل غانا ونيجيريا اللتين شهدتا ظهور صحافة وطنية مزدهرة وقادرة على توجيه النقد للسلطات الاستعمارية وذلك منذ وقت مبكر يرجع الى نهاية القرن التاسع عشر . وتتميز منطقة غرب أفريقيا الناطقة بالانجليزية بأنها كانت مهدا لأول صحيفة أفريقية تصدر بالقارة ويملكها ويصدرها صحفي أفريقي هو شارل بانومان الذي أصدر صحيفة (أكرا هيرالد) منسوخة على اليد ١٨٥٧ . وقد تحولت فيما بعد الى صحيفة مطبوعة وتغير اسمها الى وست أفريكان هيرالد . ولا شك أن الاختلاف الأساسي بين السيطرة الفكرية والثقافية لكل من الاستعمار البريطاني والفرنسي علاوة على اختلاف نوعية ومعدل تطور الحضارات التقليدية في الدول الأفريقية التي خضعت لهذين النوعين من الاستعمار كان له تأثيره الواضح في ازدهار الكلمة المطبوعة في المناطق الناطقة بالانجليزية (الانجلوفون) عنها في المناطق الناطقة بالفرنسية (الفرانكوفون)

وقد ارتبط نشوء الصحافة الوطنية في أفريقيا بنمو النخبة الوطنية التي تصدت لقيادة الحركة الوطنية في الدول الأفريقية وقد تبلور نشاطها في شكل تجمعات أو تنظيمات شبه حزبية . وفي معظم الحالات الوطنية تنمحو حول الشبهة السياسية ثم يأتي بعد ذلك التجسيد المادي للحركة في شكل أعضاء أو كيان تنظيمي . وتبرز مصر كمثال واضح في هذا الصدد فمن الظواهر الجديرة بالذكر في تاريخ الحياة السياسية المصرية في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين هو أن أغلب الأحزاب قد بدأت خطواتها الأولى بتجمعات حول الصحف بمعنى آخر أنه بدلا من أن تنشئ الأحزاب صحفا ناطقة باسمها انشأت الصحف أحزابا كتجسيد مادي لأرائها فالحزب الوطني كونه مصطفى كامل مؤسس صحيفة اللواء وحزب الإصلاح على المبادئ الدستورية ترأسه الشيخ علي يوسف صاحب جريدة المؤيد كما أن حزب الأمة خرج أساسا من صحيفة الجريدة وكان لطفي السيد مدير تحريرها سكرتير الحزب والمعبّر الحقيقي عن آرائه . هذا وقد لعبت الصحافة الوطنية في أفريقيا عدة أدوار اختلفت وتنوعت باختلاف وتنوع مهام كل مرحلة من مراحل الكفاح الوطني من أجل الاستقلال . فإذا كانت الصحافة قد استندت في مرحلة الكفاح السلمي الى تنظيمات سياسية وأحزاب تمثل الشرائح المتوسطة أو الصغيرة من البورجوازية الوطنية . فإن الصحافة الأفريقية في مرحلة الكفاح المسلح قد عبرت عن ثورات وطنية يشكل الفلاحون الفقراء هيكلها النضالي وقد اقتصرت الصحافة الوطنية في مرحلة الكفاح السلمي على رفع شعار الاستقلال السياسي وانحصر دورها في طرح المطالب الوطنية فقط دون التعرض للأبعاد الاجتماعية . أما صحافة الكفاح المسلح فقد كانت تطالب بالاستقلال السياسي الشامل وتطرح رؤية كاملة للتغيير الاجتماعي . ولذلك فإن مضمون هذه الصحافة كان أكثر شمولا وريادكالية في طرحها لمختلف القضايا الاجتماعية والاقتصادية والثقافية من صحافة المرحلة الأولى وأبرز مثال لذلك صحيفة المجاهد لسان حال الثورة الجزائرية (١٩٥٤) - (١٩٦٢) التي لم تكن امتدادا للصحافة الوطنية السابقة عليها سواء من حيث الشكل أو المضمون أو كوادر المحررين . وقد عانت صحافة الكفاح المسلح من نقص الامكانيات وعدم وجود كوادر مدربة واعتمدت على الموهبات التي كانت تتلقاها من الدول الأفريقية المستقلة . والدول الاشتراكية وبعض الهيئات الأوربية المتعاطفة مع النضال الأفريقي . هذا بينما لم تعان صحافة الكفاح السلمي من نقص الامكانيات بقدر معاناتها من قيود السلطة الاستعمارية (المصادرة -

اعتقال المحررين - الغاء تراخيص الصحف) . وإذا كان التراث القبل والأمية وتعدد اللغات تمثل أبرز الصعوبات التي واجهتها الصحافة الإفريقية في المرحلتين فإن صحافة الكفاح المسلح قد نجحت في استخلاص أساليب جديدة للتغلب على أمية الجماهير وذلك بالاستعانة بالمثولين السياسيين الذين كانوا يقومون بقراءة النشرات الثورية للجماهير وإبلاغهم بنتائج المعارك علاوة على دورهم في مجال التعبئة السياسية والثورية هذا بينما اقتصرت الصحافة الوطنية في مرحلة الكفاح السياسي على التعامل مع شريحة صغيرة من الجماهير الملتفة حول النخبة الوطنية (٥) .

الصحافة الإفريقية في مرحلة الاستقلال :

لقد طرأ تغير شبه جذري على دور الصحافة الإفريقية في مرحلة بناء الدولة الوطنية بعد الحصول على الاستقلال إذ فقد النشاط الصحفي والدعائي أهميته السابقة وتغيرت طبيعة المهام التي كانت تقوم بها الصحافة أثناء مرحلة التحرر الوطني . كما كان للميراث الاستعماري تأثيره السلبي على مواقف الزعماء الأفريقيين من الصحافة بعد الاستقلال . فلعله من المثير حقا أن نعلم أن معظم هؤلاء الزعماء قد بدأوا نضالهم السياسي في الميدان الاعلامي كمحررين أو ناشرين لصحف أو نشرات وطنية وقد برز منهم كينياتا في كينيا ونيريري في تانزانيا ونكروما في غانا وازيكوي في نيجيريا . وانطلاقا من هذه البداية فإن معظم الزعماء الأفريقيين أصبحوا ينجشون الصحافة لانهم يدركون قدراتها التأثيرية على الجماهير وبالتالي قدرتها على تغيير النخبة الحاكمة . لذلك نجد أن كثيرا من الزعماء الأفريقيين قد توسعوا في الإطار القومي ليس فقط من أجل المحافظة على نفوذهم وبقائهم في السلطة في الأساس ولكن أحيانا من أجل أهداف وطنية مثل ربط مسؤوليات الاعلام بأهداف التنمية الوطنية .

ومن أبرز ما تتسم به الصحافة الإفريقية في مرحلة الاستقلال ذلك الانقسام القومي بين الصحف التي تكتب بالفرنسية وتتوجه الى العالم الناطق بالفرنسية وتلك التي تكتب بالانجليزية وتتوجه أحيارها الى المناطق الناطقة بالانجليزية . ان هذا الانقسام حاجز معترف به في أفريقيا المستقلة ويمثل عقبة في طريق الوحدة الإفريقية . وتعمل كثير من الصحف الإفريقية الوطنية بوعي للتغلب على هذا الحاجز عن طريق محاولة إيجاد اجراء تغطية اخبارية حقيقية تشمل القارة الإفريقية بأكملها ومن أبرز هذه الصحف (هوريا) في غينيا و (ليسور) في مالي وصحف تانزانيا والجزائر كذلك تتميز الصحافة الإفريقية في مرحلة ما بعد الاستقلال بعدم انتمائها للتسويات الأوربي خصوصا في المضمون إذ أنها تعد امتدادا لصحافة النضال ضد الاستعمار ولذلك غلب عليها الطابع الأيديولوجي والتربوي أكثر منه الطابع الاخباري والتثقيفي العام . كما استمرت كصحافة رأى تعتمد على المقال والريورتاجات التي تتضمن عخط الزعماء والحكام . بينما تضاهل اهتمامها بالنشاطات الأخرى التي تزخر بها الحياة اليومية في الميدان المختلفة مثل الاقتصاد والفن والخدمات والرياضة حتى كاد يتعلم في بعض الأحيان .

Rosalynde Alusile: The press in Africa communications past and present — New york, 1967.

(٥ أ)

Dennis Wilcox: Mass Media in Black Africa, philosophy and control. praeger publisher New york, 1976. pp 48 — 51. (٥ ب)

(٥ ج) عواطف عبدالرحمن : الدعاية الثورية في إفريقيا - دراسة تحليلية لصلصة حركات التحرر الإفريقية - مذكرات غير منشورة - كلية الاعلام جامعة القاهرة ١٩٧٧ .

وقد شهدت أفريقيا في السنوات التي تلت الاستقلال (خلال عقد الستينيات) عدة مؤتمرات تناولت تطوير وسائل الاتصال وانشاء وكالات أنباء وطنية وتطوير استخدام الاذاعة والتلفزيون في أغراض التنمية الاجتماعية والثقافة وتحقيق الوحدة بين شعوب القارة . وقد أسفرت ذلك عن انشاء ثلاثة تجمعات تتولى الاشراف على وسائل الاتصال الافريقية وهي اتحاد الصحفيين الافريقيين في باماكو ١٩٦١ واتحاد الاذاعات الافريقية في داكار ١٩٦٢ واتحاد وكالات الانباء الافريقية في تونس ١٩٦٢

واستطاعت هذه التجمعات الاعلامية من خلال العديد من الدراسات التي قامت بها للاعلام الافريقي أن ترصد أهم السبلات التي يعانى منها الاعلام الافريقي في المرحلة الراهنة وتتلخص فيما يلي :

- ١ - نقص الكوادر المتخصصة والمدرية ونقص الأجهزة الاعلامية الحديثة .
- ٢ - سيطرة وكالات الأنباء الغربية على أجهزة الاعلام الافريقية .
- ٣ - وقوع وكالات الاعلان الافريقية في أيدي الشركات الأجنبية .
- ٤ - ارتفاع أسعار الورق والمواد الطباعية وارتفاع قيمة الاشتراكات في وكالات الأنباء العالمية .

هذا علاوة على المشكلات التقليدية التي تعاني منها الصحافة الأفريقية مثل تعدد اللغات وانتشار الأمية بنسبة مرتفعة بين الجماهير الأفريقية .^(٦) ورغم مرور عقد كامل على نشوء هذه التجمعات وبدء ممارستها لنشاطها ولكن توقفت إنجازاتها عند حدود التوصيات والقرارات العامة .

وإذا كانت قضية الاعلام الوطني في أفريقيا قد نالت هذا الاهتمام المكثف على مستوى القارة من خلال المؤتمرات السابق ذكرها فلماذا لم تحسم داخل الدول الأفريقية إذ بدأت الضغوط تظهر وتتصاعد بعد الحصول على الاستقلال من أجل ألفة وسائل الاعلام سواء من حيث الملكية أو مضمون المواد الاعلامية الذي كان ولا يزال يدين بالتمعية للفكر الغربي . وقد حملت الستينات والسبعينات إجابات حاسمة على بعض التحديات التي يواجهها الاعلام الافريقي بعد الاستقلال ولكن لا يزال الانهيار الايديولوجي للاعلام الافريقي لم يتحدد بعد وهذا ما سوف نتناوله بالتفصيل .

ولعل أبرز ما يميز الستينات عن الخمسينات في مجال الاعلام الافريقي هو نشوء وانتشار وكالات الأنباء الوطنية . وتصبح أهمية ذلك إذا تذكرنا أنه حتى منتصف الخمسينات لم يكن يوجد بالقارة الأفريقية باكملها سوى وكالة أنباء جنوب أفريقيا التي أنشئت ١٩٣٨ كي تقوم بنزويد النصف الجنوبي من القارة الأفريقية بالأخبار المحلية والأجنبية ولم تكن هيئة حكومية . وقد كانت وكالة أنباء الشرق الأوسط أول وكالة أفريقية أنشئت في الخمسينات (١٩٥٦) ثم

MOHSEN TOURNI: la presse en Afrique. Rev ve Francaine d'etudes politiques Africaines No. 841 — Paris, Decembre, 1972 — pp. 50 — 52.

Ali MAZROUI: The press, intellectuals and the printed world in Mautthoughts. Kampala Makerere univ. press, (١٩٦٦) 1972. pp. 18 — 22.

تلتها وكالة أنباء غانا (١٩٥٧) وعند بداية السبعينات كان يوجد حوالي سبع وعشرين وكالة أنباء وطنية في أفريقيا بعضها رسمي والآخر شبه رسمي^(٧). ولا شك أن نمو السيطرة الحكومية على وسائل الاعلام الأفريقية وتزايد عدد الوزارات الاعلامية الوطنية وتأميم وسائل الاذاعة والتلفزيون وإنشاء وكالات الأنباء الوطنية كل هذه الانجازات وغيرها كانت كفيلة بإحداث مرحلة التحول الرئيسية بالنسبة لوسائل الاعلام الأفريقية حيث أصبحت في الغالب أدوات للدعاية في أيدي السلطة السياسية سواء كانت مثقلة في الحزب الواحد أو في النظم العسكرية كما استخدمت لدى بعض الأنظمة كأدوات للتغيير الاجتماعي ولتحقيق التنمية الوطنية .

هل توجد نظرية إعلامية لأفريقيا ؟

تواجهنا مجموعة من الصعوبات النظرية والتطبيقية عندما نحاول أن نضع تصنيفا يضم كل التعقيدات التي تسببها الواقع الاجتماعي والسياسي والثقافي والتي تسهم في صياغة شكل الصحافة الأفريقية ومضمونها . ومهما اختلفت الآراء حول الصحافة ودورها في الدول النامية فمن الضروري مراعاة الانصاف عند إجراء مقارنة بينها وبين الصحافة الغربية . فالتقدم الذي حققته الصحافة الغربية سواء في النواحي التقنية أو مجال حرية التعبير استغرق مئات السنين فضلا عن أنه كان نتاجا للتطور المادي والفكري الشامل للمجتمعات الأوربية الذي تحقق من خلال استغلال الشعوب الافريقية والاسيوية أثناء فترة السيطرة الاستعمارية .

ويرى الصحفي الاسترالي ليلود سومرلاند مؤلف كتاب (الصحافة في الدول النامية)^(٨) بأنه من غير اللائق أن نحاول تقييم الحكومات والصحافة في أفريقيا طبقا لنفس المعايير التي نستخدمها في تقييم المملكة المتحدة أو الولايات المتحدة الأمريكية فالدول الأفريقية تمر بمرحلة أنتقال حيث لا تزال تقوم بتجربة كثير من الصيغ والتنظيمات الجديدة . ففي الغرب لا يوجد تناقض بين قيام الحكومات بإصدار الصحف وبين قيام المؤسسات المستقلة عن الحكومات بإنشاء صحف خاصة بها بينما في الدول الأفريقية فإنه يعتبر من الطبيعي والمنطقي أن تقوم الحكومات بإصدار الصحف التي لا تختلف في أساليب عملها عن أجهزة الاعلام الأخرى مثل الاذاعة والتلفزيون .

لكل هذه الأسباب وغيرها فإنه لا يمكن تناول الصحافة الأفريقية وتقييمها طبقا للمعايير والفلسفات المتعارف عليها في الغرب وعند محاولة استخلاص الاطار النظري العام الذي يحكم الصحافة الأفريقية ينبغي تجنب الاعتماد على نظريات سابقة نابعة من واقع مختلف وتستند إلى قيم وأفكار غربية في معظمها . وسنحاول مناقشة التطبيقات المختلفة للنظريات الاعلامية أملا في التوصل إلى التصنيف النظري الذي يفسر لنا الواقع الاعلامي الأفريقي بكل معطياته وتناقضاته . . . وسنبداً بالتصنيف الذي وضعه وليور شرام وزملاؤه ١٩٥٦^(٩) ويتضمن النظريات الاعلامية الأربعة وهي نظرية السلطة والنظرية السوفيتية والنظرية الليبرالية ونظرية المسؤولية الاجتماعية .

(٧) مواطنو ميدلبرغ : وكالات الأنباء الافريقية - ملوكوة غير منشورة - كلية الاعلام - جامعة القاهرة - ١٩٧٨ - ١٩٧٩ - ص ١٥ .

Sommerlad, E.L. The press in developing Countries — Sydney univ. press — 1966.

(٨)

Schram, peterson and Sebert:

(٩) النظر :

The Four theories of Mass Communica tion URbana Univ. Newyork 1956

وترتبط نظرية السلطة بنشأة وتطور الصحافة الانجليزية منذ القرن السادس عشر وتقوم على وجوب إخضاع الصحافة ذات الملكية الخاصة لسيطرة الحكومة من خلال قوانين الرقابة ووسائل السيطرة الأخرى مثل التصريح الرسمي والرقابة السابقة على النشر وفرض رسوم باهظة على البريد . وتعكس هذه النظرية الأهمية المتزايدة لسلطة الدولة على حساب حريات الأفراد . والواقع أنها تهدف إلى قهر الرأي المخالف أكثر مما تهدف إلى استخدام الصحافة بشكل إيجابي لتطوير الحياة القومية وترقية مستوى المعيشة . والواقع أن الصحافة الأفريقية رغم وجود كثير من التشابه بين ظروفها العامة وبين بعض ملامح نظرية السلطة غير أنه لا يمكن تصنيفها داخل هذا الإطار . فالنظرية تفترض ضرورة وجود صحافة ذات ملكية خاصة وتخضع في ذات الوقت للقيود الحكومية بينما نلاحظ أن النمط السائد في أفريقيا هو ملكية الحكومة وإدارتها للصحف . كذلك النظرية السوفيتية التي قد تبدو في ظاهرها أنها أقدر على تفسير الوضع الاعلامي في أفريقيا إذ أن هناك بعض الدول الأفريقية التي تنتهج أسلوبا يماثل الأسلوب السوفيتي في ملكية الحكومة والحزب للصحافة وتخضوعها للسياسة التي يرضها الحزب الحاكم . كما أن معظم الدول الأفريقية تؤكد على ضرورة تعبئة وسائل الاعلام من أجل خدمة الأهداف القومية مثل قضايا التنمية والوحدة الوطنية . ورغم ذلك تظل النظرية السوفيتية قاصرة عن تفسير الأوضاع الاعلامية في أفريقيا فهي تستمد أساسها النظري من الفكر الماركسي اللينيني ولا يمكن تعميمها على الدول غير الاشتراكية التي تستخدم الصحافة كأداة للتنمية القومية فمن الواضح أن معظم الدول الأفريقية قد تحدت مواقفها من الصحافة طبقا لاختيارات سياسية واقتصادية وليس طبقا لاعتبارات أيديولوجية .

ومن الواضح أن النظرية الليبرالية لا تصلح للتطبيق على الواقع الأفريقي أو العالم الثالث ككل فهي مستمدة من التطور التاريخي للفكر الديمقراطي في أوروبا الغربية . ويكمن الجوهر الرئيسي لهذه النظرية في وجود صحافة مستقلة من الناحية الاقتصادية وقادرة على القيام بدور الحارس لمصالح من تمثلهم في مواجهة الحكومة . ولا تتلاءم هذه النظرية مطلقا مع واقع الدول الأفريقية حيث تسود الأمية والفقر وحيث يستحيل قيام صحافة مستقلة ماليا .

أما فيما يتعلق بالنظرية الرابعة والتي تعرف بالمسؤولية الاجتماعية فهي تجيز التدخل النسبي للحكومة كي تضمن أن جميع وجهات النظر سوف تأخذ طريقها للنشر . وتهتم هذه النظرية في الأساس بالمجتمعات التي تجاوزت مرحلة التصنيع ولذلك تتعدى علاقاتها بالمجتمعات النامية في أفريقيا . وتؤكد هذه النظرية على أهمية المسؤولية أكثر من تأكيدها على أهمية الحرية .

ومن الواضح أن النظريات الاعلامية الأربعة قد ركزت على متغير واحد هو علاقة الصحافة بالسلطة السياسية ولم تتعرض للبناء الاجتماعي والثقافي أو الواقع الاقتصادي الذي أفرز النظم الاعلامية القائمة في العالم الثالث وخصوصا أفريقيا . هذا فضلا عن أن جميع المحاولات الأخرى التي قام بها الباحثون الغربيون لحل الإشكالية النظرية للصحافة الأفريقية كانت في أغلبها محاولات ترقية حيث اعتمدت على اقتباس بعض جزئيات غير متسقة من النظريات الاعلامية السالفة الذكر مع إضفاء أسماء جديدة عليها . ومن أبرز هذه التصنيفات تصنيف رالف لوفنشتين^(١٠) الذي ركز على متغيرين هما الملكية والسلطة السياسية وقد خرج بتصنيف مقارب لتصنيف شرام مع اختلاف الأسماء فالنظرية السوفيتية

أطلق عليها اسم المركزية الاجتماعية ونظرية المسؤولية الاجتماعية أصبح اسمها الليبرالية الاجتماعية . وكذلك دبنيس ويليوكوس^(١١) الذي أجرى تصنيفا للصحافة الأفريقية طبقا لأنماط الملكية الإعلامية السائدة وحاول استخلاص مواقف الحكومات الأفريقية من الصحافة في ضوء هذا التصنيف . وقد خرج بمجموعة نتائج أولية لا يمكن اعتبارها نظرية عامة بقدر ما هي توضيح للملامح الرئيسية لصورة الصحافة الأفريقية بشكل عام من حيث ارتباط الالتزام السياسي بنمط الملكية وقد اتضح أن جميع الدول الأفريقية تمكس دون استثناء تداخلا واضحا بين مختلف الأنظمة والنظريات الإعلامية وخصوصا كلا من نظرية السلطة والمركزية الاجتماعية . كذلك تبين أن هناك الكثير من الدول الأفريقية التي لم تمتلك أو تمجد بعد النظرية أو الفلسفة التي تحكم علاقتها بالصحافة . ويلاحظ أيضا بالنسبة للدول الأفريقية التي أعلنت التزامها بنظرية إعلامية محددة بأن ذلك لم يتم بناء على تحديد نظري أو فلسفي مسبق بقدر ما يعد ذلك بمثابة رد فعل لمشكلات ما بعد الاستقلال .

نظرية التبعية ومردودها في المجال الاعلامي :

إزاء القصور الذي تتسم به النظريات الاعلامية الأربعة السالفة الذكر وقشل المحاولات التي قام بها بعض الباحثين الغربيين لاستخلاص النظرية الاعلامية التي تحكم الدول الأفريقية كجزء من العالم الثالث أو في مقابل هذه الاتجاهات النظرية ظهر اتجاه آخر يركز على علاقة التبعية التي تربط دول العالم الثالث اقتصاديا وسياسيا وثقافيا بالعالم الرأسمالي المتقدم . والواقع أن هذا الاتجاه قد ظهر كرد فعل للآزمة التي عانت منها التفسيرات الليبرالية أو بالأحرى النظرية الوظيفية للواقع الاجتماعي والاقتصادي والسياسي والثقافي في دول العالم الثالث . وكذلك كرد فعل لآزمة الفكر الماركسي الكلاسيكي في فهم البناء الاجتماعي السياسي لمجتمعات العالم الثالث . ولعل أول ما يمكن أن يقال في هذا المجال إن مفهوم التبعية قد ظهر من خلال الجدل الحاد الذي دار بين العلماء الاجتماعيين حول مفهوم التخلّف والتنمية فمفهوما التنمية والتخلّف بالمعنى الذي استخدمته النظريات التقليدية لا يمتنعان بقوة تفسيرية محيرة طالما أنها لا يشيران بدقة إلى لب المشكلة التي تعاني منها الدول النامية وهي التبعية . لذا فمن الواضح أن مفهوم التبعية يستطيع أن يفسر لنا سبب تبني دول العالم الثالث أسلوبيًا في التنمية يختلف عن ذلك الذي اتبعت الدول الرأسمالية المتقدمة . فمن الطبيعي أن تختلف الظروف التي مرت بها الدول المتخلفة عن تلك التي مرت بها الدول المتقدمة فالدول المتخلفة كانت تمثل المورد الرئيسي للمواد الخام التي تحتاج إليها الدول المتقدمة . كما كانت تشكل سوقا هائلا ضخما لمنتجات الدول الرأسمالية المتقدمة ومن شأن هذا الموقف أن يخلق تبعية مطلقة من جانب الدول المتخلفة . وسيطرة كاملة من جانب الدول الاستعمارية • فلا شك أن تخلف العالم الثالث أو تبعية بمعنى أدق يرجع إلى خضوعه للسيطرة الاستعمارية لعدة قرون و الشيء الذي لا يمكن تجاهله هو أن بقاء دول آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية في حالة التبعية هو من فعل التقسيم الدولي للعمل الذي يتسم بالظلم الامبريالي والذي فرض على دول العالم تفاوتًا اجتماعيا واقتصاديا شديدا . وقد

Dennis Wilson: Op. cit pp 101 — 105

(١١)

• لقد أوضح فرانك هذه القضية بآراءه إن تاريخ العالم ماضٍ إلا تاريخ واحد ومن ثم فإن التنمية والتخلّف وجهان لعملة واحدة من حيث إنها إنتاج لنفسه الرأسمالي الذي للخل في امتلاك أكثر القطاعات المزايا في المجتمعات المتخلفة . ومن ثم فإن ماركس من نظم اجتماعية وسياسية وثقافية في هذه المجتمعات بدءا من عصر رومانيا الاجتماعية في الربيع وحسب اعتد هذه الوجهات في تلك الظروف التاريخية للنظم الرأسمالي .

تشكلت الأنظمة السياسية والأوضاع الاجتماعية والثقافية في دول العالم الثالث من خلال وضعها كمجتمعات تابعة داخل النسق الرأسمالي العالمي . وتتسم القوة السياسية في المجتمعات التابعة بالتركيز في أيدي فئة قليلة تتحكم في مصادر القوة الاقتصادية والتعبير السياسي والثقافي . ويتميز الأجهزة السياسية والبناء الفوقي بصفة عامة في دول العالم الثالث (التوابيع) بالتضخم والبيروقراطية بشكل تقدمت فيه بصفة عامة على الأبنية التحتية التي تمثل امتدادا لمركز العالم الرأسمالي المتقدم . وإذا كان الدور المنوط بأجهزة الدولة في الفترة الاستعمارية هو إخضاع الطبقات المحلية لصالح علاقة التبعية الاستعمارية . فإن الوضع لم يختلف كثيرا في مرحلة ما بعد الاستقلال وفي ظروف تبعية ما بعد الاستعمار . إذ أصبحت الدولة بمثابة وسيط بين الرأسمالية العالمية والبرجوازية المحلية وملاك الأرض . والدولة هنا ليست أداة في يد طبقة واحدة وإنما تمثل هيكلًا مستقلا يقوم بالدفاع عن مصالح الطبقات المسيطرة سواء في المركز أو في المجتمع التابع (١٢) . ولا يقتصر دور الدولة على إنجاز المهام السياسية للمنطقة بها أو حماية المصالح الاقتصادية للرأسمالية العالمية والمحلية فحسب بل تخلق لنفسها إطارا أيديولوجيا يساعد على تعزيز هيمنتها الفكرية وترويج قيمها الثقافية من خلال أجهزة الاتصال والاعلام التي تركز على امتلاكها والسيطرة عليها . غير أن تفسير التبعية يجب ألا يقتصر على العوامل العالمية وحدها بل يجب تفسيرها في ضوء العوامل المحلية الخاصة بدول العالم الثالث . مما تستلزم ضرورة التعرف على طبيعة البناء الاجتماعي والقوى الاجتماعية التي تستفيد من عائد التنمية وذلك التي تتحمل أعباءها في دول العالم الثالث . ذلك أن الاحتكار العالمي وحده لا يستطيع أن يفسر لنا تبعية دول العالم الثالث إلا إذا حاولنا التعرف على آثاره على هذه الدول وردود أفعالها إزاءه . كذلك لا نستطيع أن نتجاهل التأثير الذي أحدثته ثورة الاتصال على النظام الدولي . فلقد خلقت هذه الثورة عالما جديدا أشبه بوحدة واحدة .

ورغم وجود بعض الاختلافات بين أنصار اتجاه التبعية إلا أنهم يلتقون حول مجموعة من العناصر الأساسية التي يمكن تلخيصها على النحو التالي :-

١ - وجود العلاقة الوثيقة بين البناء الاجتماعي - والاقتصادي والبناء السياسي والثقافي في المجتمعات التابعة في العالم الثالث وارتباط ذلك بالنسق الرأسمالي العالمي .

٢ - الدور الذي تلعبه البرجوازيات المحلية في دول العالم الثالث التابعة في توجيه النظام السياسي والثقافي والاعلامي لخدمة مصالحها واستمرار علاقة التبعية .

ويرتبط على ذلك غياب المناخ الديمقراطي الذي يسمح لجميع القوى الاجتماعية بحرية التعبير والمشاركة في الممارسات السياسية والثقافية والاعلامية وفي هذه الظروف لا تستخدم الديمقراطية إلا بالقدر الذي يسمح باستمرار علاقات التبعية والتخلف (١٣) .

ويتضح مما سبق أنه على الرغم من أن النصف الثاني من القرن العشرين قد شهد استقلال ٨٠ دولة في العالم الثالث وحصول اثنين مليار من البشر على حريتهم وتحلصهم من السيطرة الاستعمارية إلا أن الظروف العالمية الراهنة

(١٢) انظر : السيد الحسني : العالم الثالث تنمية أم تبعية - كتاب دراسات في التنمية الاجتماعية - القاهرة - دار المعارف ١٩٧٧ - ص ١٦٥ - ١٧٥ .

(ب) أحمد زاهد : الفضائل بين جامعات الصغرى القديمة والصلوة الجديدة في الزيف المصري - رسالة دكتوراة غير منشورة - جامعة القاهرة - فبراير ١٩٨١ - ص ١٦٠ -

١٦٦ .

(١٣) أحمد زاهد : مصدر سابق - ص ١٦٨ .

السياسية والاقتصادية والثقافية والتقنية والعسكرية تنبج إلى تأكيد سيطرة الدول المتقدمة وتبعية غالبية الدول النامية . فمع تعزيز الاستقلال السياسي بحلول الستينات أصبح واضحا بصورة مطردة أن الفضاء على الاستعمار السياسي لا بد وأن يستكمل بالفضاء على الاستعمار الاقتصادي والثقافي ذلك إذا ما كانت هناك رغبة في إحداث تغيير حقيقي في علاقات التبعية في دول العالم الثالث . فضلا عن ذلك فإنه نتيجة لخضوع دول العالم الثالث خلال المرحلة الاستعمارية للاستعمار الاجتماعي والثقافي علاوة على الاستعمار السياسي والاقتصادي فقد أدى ذلك إلى تحول القيم والأنماط السلوكية في جزء كبير من العالم الثالث كي تعكس قيم وسلوكيات الدول الاستعمارية وبعد الاستقلال لم يحدث أدنى تغيير بل تم تدعيم الأنماط المنقولة من خلال مجموعة متنوعة من الميكانيزمات . ومن ثم فبقدر ما يكون هناك إدراك لعدم إمكانية تحقيق الاستقلال السياسي بدون الاستقلال الاقتصادي لا بد أن يكون هناك أيضا إدراك بأن الاستقلال الشامل لا يتحقق إلا بالتححر الاجتماعي - الثقافي . ولذلك فإنه من المستحيل تصور استمرار السيطرة السياسية والاقتصادية على العالم الثالث بدون الدعم الماهل الذي يوفره نسق إعلامي فعال كداة للسيطرة الثقافية والأيديولوجية . لذلك توجد درجة ملحوظة من عدم التكافؤ في توزيع القوة على أساس أن وسائل الإعلام مصدر رئيسي من مصادر القوة والتفوذ إذ يوجد عدد قليل من الدول (الدول الرأسمالية المتقدمة على وجه التحديد) يتولى عملية الأرسال بشكل أساسي . أما غالبية الدول (من العالم الثالث) فهي تستقبل ما يرسل إليها . وينتج عن ذلك عدم توازن ملحوظ في تبادل المعلومات والأنباء بين العالم المختلف والعالم المتقدم بالرغم من أهمية ذلك الدور على المستوى الدولي إذ يرتكز عليه ضرورة إبلاغ الرأي العام العالمي بالمشاكل التي تهدد الإنسانية وخصوصا تلك التي لن تتوفر حلولها إلا بالتعاون بين الدول مثل مشاكل سباق التسلح وبطالة والفقر والجوع ونقص الخدمات الصحية وتلوث البيئة والعنصرية والانفجار السكاني واضطهاد المرأة . ومن هنا يمكن استخلاص مفهوم التبعية الإعلامية بأنها العلاقة التي تجسد عدم التكافؤ في الامكانيات المادية والمصادر الإعلامية بين الدول الغربية المتقدمة وبين الدول النامية كذا تجسد عدم التوازن في التغطية الاخبارية وتبادل المعلومات بين الشمال والجنوب . مما يترتب عليه تشويه الصورة الذهنية لشعوب العالم الثالث لدى الرأي العام العالمي فضلا عن إلحاق الضرر الجسيم بالثقافة القومية والقيم والأنماط السلوكية لدى هذه الشعوب وتعميق الاغتراب الثقافي . ويحتل وسائل الاتصال موقعا مزدوجا عند أي مستوى من مستويات التحليل للتخلف والتبعية . لذا يجب عند تحليلنا لوسائل الاتصال أن نأخذ في الاعتبار مستويين للتحليل :

١ - المستوى الأول : ويتعلق بالبعد الذاتي الذي يتمثل في الامكانيات المادية والبشرية وتشمل الوسائل التكنولوجية والمراسلين .

٢ - المستوى الثاني : ويمثل الاتجاه الاعلامي الذي يتقل بواسطة وكالات الأنباء أي صيغة الأنباء ومضامينها .

وفيما يتعلق بالمستوى الأول الخاص بالامكانيات المادية والبشرية فالواقع أن وكالات الأنباء الخمسة العالمية تحتكر أكثر من ٨٠٪ من الأنباء في العالم تخصص ما بين ٢٠ ، ٣٠٪ للدول النامية وهناك ٣٥ دولة في العالم ليست فيها أية وكالات أنباء منها ١٨ دولة أفريقية . كذلك يتميز التذلل العالمي للأنباء بعدم التوازن في توزيع المراسلين على النطاق العالمي ويتميز أيضا بالتغطية المنقطة لمناطق معينة على حساب مناطق أخرى . وتوضح إحصائيات (١٩٧٤) للتوزيع

العالمي لمراسلي وكالات الأنباء العالمية أن أوروبا وأمريكا الشمالية هما الموقعان الرئيسيان لمراسلي الوكالات وأن أمريكا اللاتينية والشرق الأوسط وأفريقيا هم أقل المناطق بالنسبة لعدد المراسلين العالميين .

والمستوى الثاني الذي يؤكد تبعية دول العالم الثالث وفي مقدمتها الدول الأفريقية في المجال الاعلامي هو وجود التباين السافر في نوع التغطية الاخبارية للأحداث الدولية فقد أجمعت الدراسات العديدة على أن الأحداث في الدول الغربية المتقدمة هي المستهدف الأول في التغطية الاخبارية باستثناء بعض الأحداث في الدول التابعة . وتشير هذه الدراسات الى أهمية الاعلام الاخباري الذي تنقله وكالات الأنباء العالمية في تشكيل صورة الحقيقة العالمية وأن أهميته تتفق على الصورة الذهنية المسبقة وذلك لانتظامه ومواظبته وانتشاره^(١٤) . كذلك نوع التغطية الاخبارية التي يقوم بها مراسلو وكالات الأنباء العالمية فهناك أسس وتعليمات لا يمكن أن يحيد عنها المراسل في تحديد الأولويات والأفضليات سواء في اختيار الأحداث أو تحريرها أو نشرها . ويؤكد ميلبيان (أن وسائل الاعلام الدولية وخصوصا وكالات الأنباء الغربية تقدم خدماتها الاعلامية وفقا لمخطط مدروس ولتحقيق أهداف عديدة وبشكل لا يخلو من التسلط والسيطرة وذلك من خلال إمكانياتها الماثلة وقدراتها على تكوين الأخبار بما يتفق مع مصالحها ولقد أثبتت وكالات الأنباء الغربية بصورة قاطعة أنها عنصر فعال تعتمد عليها المجتمعات الرأسمالية في نشر أفكارها ومعتقداتها ولا يمكن للوكالات أن تتخلى عن هذه الوظيفة^(١٥) .

جدول (١) التوزيع العالمي لمراسلي وكالات الأنباء العالمية لعام ١٩٧٤

أمريكا	٣٤٪	أوروبا	٢٨٪
آسيا وأستراليا	١٧٪	أمريكا اللاتينية	١١٪
الشرق الأوسط	٦٪	أفريقيا	٤٪

ونلاحظ من سياق هذا التصريح مدى أهمية وخطورة الدور الذي تلعبه وكالات الأنباء العالمية في الصراع الدولي وتشويه الصورة الحقيقية للأحداث وفرضها على الرأي العام العالمي كحقيقة إعلامية .

مظاهر التبعية الاعلامية (دور الشركات غير القومية) :

لا يمكن التطرق إلى قضية التبعية الاعلامية دون الإشارة إلى الدور الذي تلعبه الشركات غير القومية في هذا المجال وهو لا يتلخص فقط في ارسال التكنولوجيا ورؤوس الأموال بل يتسع ليشمل بيع العديد من المنتجات

(١٤) Phil Harris, International News Media Authority and dependence in Introduction to Mass communication in Niger- la, Lagos 1976, p.H10

Milliband, R. The state in the Capitalist Society, London Quarter books 1973, P.211

(١٥)

الاستهلاكية ذات الطابع الاجتماعي - الثقافي أو السوسيو-ثقافي التي تهدف في الغالب إلى نشر أفكار ومعتقدات تؤدي إلى تعميق الاغتراب الثقافي والاجتماعي لدى شعوب العالم الثالث التي تمثل دولهم الساحة الرئيسية لأنشطة هذه الشركات . هذا ومنحاحول أن نحدد أبعاد التأثير الذي تمارسه الشركات غير القومية من خلال الدور الذي تقوم به كاحزمة نافذة يتم من خلالها ترويج التفضيلات الاجتماعية - الثقافية (بل وأكثر من ذلك التفضيلات الاجتماعية - السياسية والاقتصادية) من البلدان الأصلية إلى البلدان الأخرى مما يؤدي إلى فقدان الخصائص القومية المميزة للثقافات الشعوب التي تتعرض لهذه التأثيرات . إننا سنحدد ملامح الدور الذي تقوم به الشركات غير القومية بوصفها نظماً للاتصال لدولي مما يستلزم تنفيذ المكونات الرئيسية للعمليات الاتصالية التي تتم عبر هذه الشركات وأنشطتها المتنوعة . وذلك سعياً للتعرف على مدى ما تسهم به هذه الشركات في تكريس تبعية الدول النامية للدول الرأسمالية المتقدمة وخصوصاً في مجالي الاتصال والأعلام . وتتحدد مكونات العمليات الاتصالية في ضوء المحددات الخمس المعروفة وهي :

- ١ - من منتج المادة الاتصالية ؟
- ٢ - قال ماذا (مضمون المادة الاتصالية) ؟
- ٣ - لمن (الجمهور المتلقي) ؟
- ٤ - كيف (الوسيلة الاتصالية) ؟
- ٥ - وما هو الأثر (الصدى) ؟

ويشير المحدد الأول إلى فصول المادة الاتصالية أو منتجها الأصلي فنلاحظ أن الشركات غير القومية (حوالي ٢٠ ألف شركة غير قومية تسيطر على نحو ٨٠ ألف شركة تابعة) توجد مقارها الرئيسية في كل من الولايات المتحدة الأمريكية واليابان وجمهورية ألمانيا الاتحادية وسويسرا والمملكة المتحدة وفرنسا . وأن الأغلبية الساحقة من الشركات الأجنبية التابعة لهذه الدول توجد في دول العالم الثالث التي كانت تابعة لها بشكل رسمي أو غير رسمي وخصوصاً المملكة المتحدة وفرنسا والولايات المتحدة الأمريكية . والأهم من ذلك هو أن هذه الدول هي موطن وكالات الأنباء العالمية الأربعة (الوكالات الأمريكية أسوشيتد برس ويونيتد برس وانترناشيونال ورويتر البريطانية وأجنس فرانس برس الفرنسية) وعليها تعتمد في الواقع كافة اقتصاديات السوق (ماعدا اليابان) اعتماداً كبيراً لأخبارها الخارجية . . . وبالمثل فإن نسبة عالية من البرامج التلفزيونية لمعظم دول العالم الثالث يتم استيرادها من الولايات المتحدة وفرنسا والمملكة المتحدة وأخيراً فمع بين أكبر الوكالات العالمية الخمسة والعشرين في العالم في الإعلان الدولي (وهو صناعة رئيسية بتصل الأمر بالتأثير الاجتماعي الثقافي) هناك ٢٠ وكالة أمريكية ومعظمها تحصل على إعلاناتها من الخارج^(١٦) .

المحدد الثاني (ماذا ؟) الخاص بمحتوى الرسائل المتقولة من الدول التي توجد بها المقار الرئيسية للشركات عبر القومية ولا سيما ما يتعلق بالثقافة التجارية لهذه الشركات والواقع أن الثقافة التجارية تتضمن مجموعة من العناصر يمكن

(١٦) انظر : كارل سولمان وبيرنارد بينس : الاستراتيجيات الاجتماعية الثقافية في نطاق الاقتصاد السبهي الدولي لبلاتل الشمال والجنوب - دور الشركات عبر القومية - مركز دراسات الشركات عبر القومية بالأمم المتحدة - نيويورك - يونيو - ١٩٧٩ .

تلخيصها في بعدين أساسيين: ولها يتعلق بالاتجاهات والقيم وأنماط السلوك وثانيها يتعلق بكل من أنماط التنظيم والانتاج والاستهلاك . ويتسع البعد الأول كي يشمل نطاقاً أكبر من نطاق الثقافة التجارية فيتضمن على سبيل المثال التفضيلات الأيديولوجية العامة أو الاتجاهات وأساليب الحياة وأنماط السلوك العامة ويتضمن البعد الثاني للثقافة التجارية ميكانزمات تشجيع أنماط وعمليات إنتاجية واستهلاكية لا تلمي احتياجات المجتمعات التابعة بل تؤدي إلى خلق الإحساس بالحاجة إلى التوسع الاستهلاكي . ويمكن أن يتم هذا بصفة خاصة من خلال العلاقات العامة والتسويق والاعلانات الباهظة التكاليف .

المحدد الثالث (لمن ؟) ويتضمن الجمهور المتلقي للرسائل الإعلامية والسوسيوثقافية . ويلعب العاملون في الشركات الأجنبية التابعة دوراً هاماً في نقل القيم وأنماط السلوك باعتبارهم نماذج حية تجسد خبرة الشركات الأجنبية التابعة ويركز هؤلاء على الطبقات العليا والثقافات العليا من الطبقة الوسطى في مجتمعات العالم الثالث . أما الشرائع الدنيا والطبقات الفقيرة الأمية التي تتكون منها أغلبية دول العالم الثالث فإنها معزولة عن التأثيرات المباشرة ولكن هذا لا يمنع من تعرضها لتأثير الإعلانات عبر الإعلام المرئي والمسموع (الإذاعة والتلفزيون) .

والمحدد الرابع (كيف ؟) الخاص بالقنوات التي يتم عبرها إرسال الرسائل الإعلامية والتي تسهم في تشكيل الأنماط الاستهلاكية . وهنا تلعب الإذاعة والتلفزيون دوراً رئيسياً ثم الصحف والمجلات والنشرات المهنية والكتب والاسطوانات وشبكات الفيديو ووكالات الأنباء . وثمة قنوات أخرى ذات صلة بالموضوع ألا وهي المعاهد التعليمية والمديرون والعاملون في الشركات الأجنبية التابعة بل وحتى اللغة وأساليب تدريسها وفضلها عن الإعلان وخصوصاً في سياق الثقافة التجارية فإن شبكات الشركات الأجنبية التابعة للشركات عبر القومية تعد بطبيعة الحال القناة الرئيسية للاستثمارات الاجتماعية الثقافية . وهذه العوامل مجتمعة بالإضافة إلى التكنولوجيا الحديثة للاتصال تجعل من شبكات الشركات الأجنبية التابعة في الواقع جهازاً عالمياً ديناميكياً للاتصال . أما المحدد الخامس والأخير فهو يتعلق بالتأثيرات التي تحدثها الرسائل الاجتماعية الثقافية لدى الجماهير المتلقية من شعوب العالم الثالث عبر الإعلانات وسواها من المواد الإعلامية والاتصالية سواء المنشورة في الصحف أو المذاعة والمروضة في كل من الإذاعة والتلفزيون . ومن الممكن قياس حجم التأثير ومداه من خلال توفر بعض الشروط الضرورية مثل مضمون الرسالة الإعلامية ومدى اختلافها عن البيئات الاجتماعية الثقافية للمتلقين أي اشتراط وجود فارق حضاري يعتد به . ومن المرجح على أساس هذا الشرط وحده أن يكون الأثر بالغ القوة في مجتمعات العالم الثالث . وثمة شروط أخرى تتعلق بالمضمون ألا وهي وضوح الرسالة وتكرارها ومدى قدرتها على الانتاع . كذلك عدد القنوات الإعلامية ومدى تنوعها يلعب دوراً هاماً في التأثير . وعندما يتعلق الأمر بالجمهور المتلقي فمن المعروف أنه كلما زاد تعرض أكبر عدد ممكن من الأفراد والمؤسسات للرسالة الإعلامية كانت الآثار أعظم وأعمق . ويبدو على وجه الإجمال أن مجموعة الشروط الرئيسية الواجب توافرها لحدوث التأثيرات تتحقق في عموميتها في معظم دول العالم الثالث وخصوصاً الدول الأفريقية التي تنتزع فيها لتأثيرات السوسيوثقافية طبقاً للشركات عبر القومية التابعة لها . فنلاحظ أن المناطق الناطقة بالفرنسية (الفرنكوفون) تعتبر مناطق نفوذ ثقافي فرنسي وذلك على عكس باقي المناطق الأفريقية الناطقة بالانجليزية والتي تعتبر مجالات حيوية للنشاط الثقافي الذي تمارسه الشركات عبر القومية الأمريكية والبريطانية من خلال وسائل الاتصال الحديثة .

وفي النهاية فإن التأثير الأساسي يتمثل في مدى استيعاب شعوب العالم الثالث للاستثمارات الاجتماعية والثقافية المرتبطة بالدول الرأسمالية من خلال الشركات عبر القومية والتي تؤدي إلى حدوث تغيير في الاتجاهات الاجتماعية والثقافية لمواطني العالم الثالث إزاء الصورة الاجتماعية والثقافية للدول الرأسمالية المتقدمة .

التبعية الإعلامية وحرية الصحافة في أفريقيا

لقد رأينا كيف أدى التطور الاقتصادي العالمي وما ارتبط به من تقدم تكنولوجي إلى التطور في وسائل الاتصال العالمية الأمر الذي جعل الحصول عليها واستيرادها وتصنيعها يحتاج إلى أموال طائلة وخبرات فنية متخصصة ووسائل تكنولوجية متطورة . مما أدى إلى سيطرة الدول الرأسمالية المتقدمة على وكالات الأنباء العالمية والأذاعات الدولية البارزة والصحف والمجلات الدولية وقررت على هذا الوضع ظهور ما يسمى بالاحتكار والتحكم في الاتصال الدولي أي احتكار قلة من الدول الرأسمالية المتقدمة لمصادر الأنباء في العالم في الوقت الذي لا يتجاوز العالم الثالث الحدود الدنيا في المصادر الاعلامية وتعتبر أفريقيا أفقر القارات في المصادر الاعلامية من حيث الصحف والأذاعات ووكالات الأنباء .

وقد اتضح لنا أبعاد الدور الذي تقوم به الشركات عبر القومية في تكريس تبعية الدول النامية للدول الرأسمالية المتقدمة ليس في المجالين الاقتصادي والسياسي فحسب بل في المجالين الاجتماعية والثقافية وذلك من خلال استخدامها لوسائل الإعلام الدولية السالفة الذكر (وكالات الأنباء العالمية - المجلات الدولية - الأذاعات - التلفزيون) . وتعد الاعلانات الأداة الرئيسية التي تستخدمها هذه الشركات لنشر الثقافة التجارية وتهديد الخصائص القومية للثقافة الوطنية في الدول الأفريقية . والواقع أن الإعلانات تلعب دوراً مزدوجاً في خلق عدة مستويات للتبعية الإعلامية والثقافية في الدول الأفريقية كما أنها تمثل خطراً مباشراً يهدد حرية الصحافة في أفريقيا . والدور الأساسي الذي تقوم به الإعلانات التجارية الحاصلة بالشركات عبر القومية وتوابعها في الدول الأفريقية هو الترويج للسلع الاستهلاكية المستوردة مما يؤدي إلى خلق أنماط للاستهلاك تتعارض مع خطط التنمية القومية ومستلزمات الاقتصاد الوطني .

وهكذا يتم تكريس واستمرار تبعية الدول الأفريقية اقتصادياً وسياسياً للسوق الرأسمالية العالمية ومثلها حيث تسهم الاعلانات التجارية في تقويض محاولات الاستقلال الاقتصادي بشكل غير مباشر من خلال ترويض العقول وتنمية رغبات استهلاكية جديدة لدى الجماهير الأفريقية .

ويتحقق ذلك في الغالب من خلال وكالات الإعلان الأجنبية التي تقوم باختراق وسائل الإعلام الأفريقية وتفرض عليها شروطها وأولوياتها بكل ما يجعل ذلك من تهديد لحرية الصحافة وللاقتصاد الوطني في آن واحد . وهناك أمثلة - لينة على وكالات الإعلان الأجنبية في أفريقيا منها الوكالة الفرنسية (وكالة هافاس للاعلانات) وهي تملك نفوذاً واسعاً في المنطقة الناطقة بالفرنسية (في غرب أفريقيا ومنغشقر) ولا تقل العقود التي توقعها مع الصحف الأفريقية عن خمسة أعوام تضمن خلالها نشر حد أدنى من الاعلانات وتحصل على ٤٠٪ عمولة على الاعلانات الأجنبية . ولها مساحات معجزة بصفة دائمة في هذه الصحف . ولا يخفى ما تمثله هذه العقود من تهديد سافر لحرية الصحافة إذ من خلالها تستطيع وكالات الإعلان التدخل في مضامين المواد الإعلامية التي تنشرها تلك الصحف . وقد بدأت بعض

الصحف الأفريقية تتحرر من سيطرة وكالة هافاس الاعلانية عندما بدأت تظهر للوجود وكالة غرب أفريقيا للاعلانات رغم أنها تقتطخ ٥٠٪ عمولة على الاعلانات . وقد أنشأت كل من مصر وتونس والجزائر وكالات إعلان حكومية في بلادهم ويتم من خلال هذه الوكالات تزويد الصحف بالاعلانات^(١٧).

أما الدور الذي تقوم به الإعلانات في تهديد حرية الصحافة في أفريقيا فهو يأتي أصلا من التمويل . إذ أن استخدام أو الاعتماد على الاعلانات كمصدر لتمويل الصحف يضع في أيدي المعلنين سلطة كبيرة تجعلهم يتحكمون في مضمون ما تنشره الصحف إلا إذا كانت هذه الصحف خاضعة لإشراف الحكومة ، وهنا يمكن تحييد موقف المعلنين رغم أن هذا لا يلغي احتمال المواجهة بين بعض المعلنين الأقوياء والحكومة حينما يحاول هؤلاء فرض ضغوطهم غير المباشرة على الصحيفة والتي تهدف في النهاية الى تخريب خطة التنمية القومية داخل الدولة . ويزداد الصراع بين المعلنين والحكومة عندما يكون هؤلاء المعلنون ممثلين للشركات الأجنبية .

وأخيرا فإذا كان لنا أن نلخص أنواع التبعية الإعلامية التي تخضع لها الصحافة الأفريقية فيمكننا أن نشير إلى ثلاثة أنواع من التبعية أولها التبعية للسلطة الحاكمة وثانها التبعية لرؤوس الأموال المحلية والدولية وثالثها التبعية لأحدى الفئتين العظميين وبخصوصا الكتلة الرأسمالية لأسباب تاريخية ورغم تفاوت درجات خضوع الدول الأفريقية لأنواع التبعية المذكورة إلا أنه يبقى التحدي الرئيسي أمام الصحافة الوطنية في أفريقيا وهو كيفية التخلص من كافة أشكال التبعية الإعلامية . وهذا الأمل لن يتحقق بالطبع إلا إذا تخلصت الشعوب الأفريقية من الصور الأخرى للتبعية الاقتصادية والسياسية التي يعني استمرارها منع عمر أطول للتبعية الاعلامية والثقافية .



الاسلام والابداع الشعري ، موضوع يفترض ان الحواشي قد تشعبت والتفت من حوله حتى كادت تفقده ملاحه الاساسية ولعلها فعلت . . .

ولكن أبواب البحث في أي موضوع توارب ولا تقفل مادام الحديث يس أصلا من أصول الثقافة لا يسهل هذه بما أنه يعتمد عل منظور معين ويسمى الى هدف محدد هو مناقشة هذه الغلالة التي أحاطت بفكرة الشعر فراح قول يصر على تلك الجفوة بين الاسلام والشعر وهي مفتعلة عند البعض وحقيقة عند آخرين وقد أصبح النظر مشلولوا الى حشد نصوص كثيرة تفري الكاتب باستعراضها ومناقشتها ومن ثم التعليق عليها . .

إن التأكيد واجب على ان هناك منفذا دائما التوقد للمناقشة العقلية والمقارنات الواقعية والتي تؤكد وتنفي ، تضيف وتدفع بالتعليقات المفيدة مادام مثل هذه الموضوعات تعني الكثير للمتأمل الذي يرى جدية الموضوع وأهميته ، خاصة حينما يكون طرفاء يمثل هذه الأهمية الخاصة بالتميز والدقيقة ، وتكون وثيقة الصلة ببلات الانسان في جانبها الروحي والعقلي والعملية بحيث يشكل الحائق الضرر والنقص باحدهما أو حتى وضع الحواجز بينها عطوبة واضحة ، حيثئذ يكون البحث والتناول المخلص جديراً بما يبذل فيه .

الاسلام والابداع الشعري

سليمان الشطي

العلاقة بين الدين والفن ليست بالأمر العابر أو الشكلي ، ولكنها من الدقة بحيث تستدعي المراجعة دائماً ، فالدين كمفهوم عام يتعلق حوله الفنانون لانه يقدم التشوق الروحي الذي يسعى اليه الفنان ، وهو من جهة اخرى ، ليس معنى غامضاً ولكنه حقيقة اجتماعية لا يمكن تجاهلها . لذلك تلاقيا منذ الأزل فأصبح تاريخ الفن يتلمس بدايته الحقيقية من خلال الدين تماماً كما ان اولئك الذين بحثوا في تاريخ العقيدة الدينية لم يجدوا غيراً من تلك التي احتضنها الفن . وحين دراسة التاريخ

الديني والفني، نلمس ذلك التلازم بين شعور التدين والفلق الروحي والاجتماعي الذي يجسده الفنانون .

هناك حشد طويل من الدراسات العلمية الدقيقة التي درست هذا التلازم من جانبه الإيجابي الواضح ، تؤكد وتبرهن وتوضح ولكن كل هذا لم يستطع ان يزيل من الأذهان الأقوال الشائعة التي تعهد سندها في بعض الأقوال للثائرة ، وكما يقول كاسيرر فانه « منذ افلاطون حتى تولستوي كان الفن ينهم بانه يثير مواطننا فيزعزع النظام والانسجام في حياتنا الاخلاقية » . وقد ذهب افلاطون الى أن الخيال الشعري يروي تجارب الشهوة والغضب والرغبة والالم فينا فيمكننا من النمو بدلا من أن يظلمنا ويغلبها تحف . أما تولستوي فقد رأى في الفن مصدرا للعدوى^(١) . وجمهورية افلاطون لا يباح فيها من قول الشعر الا أن يكون تسيحا لله ومدحا للصلاح ، وانه اذا أبحت تعظيم هرائس الشعر الغنائي القصص حيثئذ يتحكم الالم واللذة في دولتك بدلا من تحكم الشريعة والمبادئ^(٢) . وينفي أن يكون الشعر مفيدا ، وانه على أنصار الشعر أن يثبتوا أنه مفيد علاوة على كونه سارا^(٣) . ومثل هذه الأقوال سارت على شفاة عصور كثيرة دون أن تطامنها الأقوال الأخرى الجادة في اثبات مكانة الشعر البارزة . فقد ظلت كلمات الرئين باقية تطرب في جزائب لا حدود لها ، فليس القول القائل « أعذب الشعر أكذبه » الا واحدا من مقولات عديدة حرفت عن مقاصدها .

لقد تحول الخيال وتوسيع اطار المعرفة الانسانية والدور الإيجابي الى حيث خطير يهد المجتمع أو الدولة . وما يقوله ابن فارس هو أحد وجوه النظرة الافلاطونية فهو حين ينفي عن الرسول قول الشعر يستطرد متحدنا عن ذات الشعر حين يرى انه « للشعر شرائط لا يسمي الانسان بغيرها شاعرا . وذلك ان انسانا لو عمل كلاما مستقيا موزونا يتحرى فيه الصدق ومن غير أن يفرط أو يتعدى أو يمين أو يائي فيه باشاء لا يمكن كونه بته ، لما سماه الناس شاعرا ، ولكن ما يقوله غسولا ساقطا . وقد قال بعض العقلاء - وسئل عن الشعر - فقال : « ان هزل اضحك ، وان جد كذب » فالشاعر بين كذب واضحاك . . . الخ .

ويعد لواتنا لا تكاد ترى شاعرا إلا مادحا أو ضارها أو هاجيا ذا قلدح ، وهذه أوصاف لا تصلح لني^(٤) . « واذا وضعنا هذا القول بجانب ما ذهب اليه الأصمعي - وهو رواية الشعر المعروف - من ان طريق الشعر اذا دخلته في باب الخير لان^(٥) » وقد حاولت جهود كثيرة ان تزيل هذه الفكرة من الأذهان ، فموقف أرسطر الدقيق في دراسته للشعر ودوره ، اما هورد واضح على ما قاله سابقوه . وجاء بعد ذلك دفاع شيللي عن الشعر الذي رفع الشاعر الى مستويات عالية . وقد كان في دفاعه يرد ردا مباشرا على افلاطون حين طالب أن يكون الشعر مفيدا بجانب كونه سارا فقد نبه الى أن المنفعة ليست تلك التي تلبي غاية حيوانية وان اللذة منضعة حقيقية يجلبها لنا شعراء أو فلاسفة وشعراء .

(١) مدخل الى الفلسفة الحضارة الاسلامية : ص ٢٨٦ ، يقول الافلاطون ان الفن « يروي المواطن التي يجب ان تحب حطنا ، ويمدحها ويحكمها فيها ، وكان يجب ان نتحكم فيها

الذاما ان تكون اسعد وارقى بذل كوننا ادنى واشقى » الجمهورية ص ٣٨٩ .

(٢) جمهورية الافلاطون : ص ٣٨٩ .

(٣) السابق : ص ٣٩٠ .

(٤) الأصمعي : احدث بين فارس ص ٢٧٣ - ٢٧٥ .

(٥) امالي المرهضي : القسم الأول ص ٢٦٩ ، وانظر النص موسدا في الموضع ص ٩٠ ولما مره ٤

الكلمات قاسية وانها تبسط الأمور تبسيطاً غللاً ، وتُنظر الى التعبير الديني من جهة جد مسطحة ، ترى أن التدين يقتضي رفع لواء قاطع اللون أو انه طبول ودعابة وحديث فقهي عقائدي . وفي هذا منافاة لطبيعة الفن الشعري التعبيرية والذي هو ليس اداة رخيصة للقول . ولكنه يعمل في داخله المساواة الحقيقية للتوق الروحي والتأمل الباطني ، وحينما يلتصق بالواقع المبسط يقف موقف الراصد للحياة رصد رؤية متميزة لما تراه عينه وتلمسه يده فيصوغها صياغة تعمق وتجسد وتفاعل ، متخذاً طبيعة الفن والدين في الاصلاح والتغيير .

الشعر ليس أدلة سخرية ولكنه تعبير ، لذلك ليس ثيابه^(١) ثياب غيره ، واستعمل اداته ولم يستعمل وسائل غير وسائله ، ولم يحل ، ولا يريد ، مكان الكاهن أو الواظف أو المبشر اللهم إلا أن يكون الشاعر قد توحدت فيه هذه واختلطت حيث لا يكون هناك قول آخر^(٢) .

اذن ليست من مهمة الشاعر أن يكون رجل دين ، ولكن مهمته انه يعبر عن شعوره وموقفه العام ، وقد يزودنا ويغلبنا بالملجأ الروحي ، بل انه يسعى في حالات كثيرة الى قلب السكون الذي يرون على سطح الحالة الروحية فيحد من بروز تقلباتها ، وهذا ما نلمسه في كثير من الشعر ، فالتعبير الشعري في الجاهلية لم يَبْنيء أو يتجاوز عن حالة الشعور بالتدين وعلمه أو الحاجة اليه أو الاحساس بهذا الفراغ الذي يجري فيه النفوس ، وهذه طبيعة الاشياء ، فما نحن نرى في

واذا كان شيللي يَنتِج كلماته بان الشعراء هم شراح الالهام الالهي وانهم المحرك بل هم مشرعو العالم فان هذه الكلمات تذكرنا وتدخلنا عالم الفكر الاسلامي الذي لم يخلو من مثل هؤلاء ، فهذا جابر بن معدان يقول « كل حكمة لم ينزل فيها كتاب ، ولم يبعث بها نبي ، ذخرها الله حتى تنطق بها السن الشعراء »^(٣) .

ومن ذلك بقيت هذه الغلالة السوداء راسخة أو شبه راسخة . اذاً هي نشئة باقية في كل الآداب وعند كل الأمم ويبقى الجانب الاسلامي له خصوصية تستلزم التعرف والافاضة قليلاً .



ولنبداً من حيث يجب أن تكون البداية ، من العصر الجاهلي نرى طبيعة الدور الذي قام به الشعر فلعل فيها بعضاً من تفسير أوجه هذا الفهم الخاص . ان أكثر الكلمات قسوة على حقيقة الشعر العربي الجاهلي هي تلك المقولة التي ربط الدكتور طه حسين ومن قبله مرجليوت^(٤) بين انعدام الحس الديني الجاهلي في ذلك الشعر وصحته ، وقولها ان انتهاء هذا التعبير الديني - كما زعمنا - دليل حي على أن هذا الشعر ينتمي الى غير عصره .

ومع أن هناك شواهد كثيرة تكذب زعمها ، فالتعبير الديني المباشر موجود وغير خاف فأننا أيضاً نقول ان هذه

(١) بيعة الجعالي : ٣٨ / ١ .

(٢) رأي طه حسين مبسوطاً في كتاب « الادب الجاهلي » ، وعلى سبيل المثال نلاحظ قوله « فما هذا الشعر الذي يحال الى الجاهليين ليعبر لنا حياً فطرية جملة بريئة أو كالبرية من الشعور الديني القوي والمعاينة الدينية لفصلنا على النفس والمسيطرة على الحياة القسرية : ألا الذين نجد شيئاً من هذا في شعر امرئ القيس أو طرفة أو عترة أو ليس جميعاً ان يمجز الشعر الجاهلي كله عن تصوير الحياة الدينية للجاهليين ، ص ٧٣ - ٧٢ . ورأى مرجليوت المذكور في مقاله « أصول الشعر العربي » انظر على سبيل المثال ص ٧١ وما بعدها من ترجمة الدكتور يحيى الجبوري .

(٣) نجد على سبيل المثال شاعراً متديناً أو مجهول الى فكرة التدين مثل الهوت بنجيد يؤكد قتلاذ ان الشعر لا يمكن أن يحل محل الفلسفة أو الدين لأن له مهمة الخاصة ، ولا يمكن هذه المهمة فكرية بل شعورية كان من الصعب تعريضها تعريضاً يسهل على الفكر اندراكه ، وكل ما نستطيع قوله هو ان الشعر يزودنا « بالجزاء » - وهو مزنة غريب لانتا فكتنا ان تلك على حد سواء من شاعرين خفيتين كل الاختلاف مثل داني وشكسبير ، طائفة الفلسفة والشعر و ٦٠ من كتب حطرات من النقد الادبي المعاصر .

مساناة الغناط البطين
والبيض يرفان كالدسي
في السريط والمنهيب المصون
والكثر والخفض آما
وشرع المزهر الحنون
من لثة العيش والسقي
للدهر والدهر ذو فنون
واليسر كالعسر والغنى
كالعدم والحى للمنون^(٩)

ان هذه الايات تمثل هذا الموقف الانساني المعبر عن
تجربة شعورية واحدة وتعطي رؤية الانسان للحياة ،
وتصور قصة الانسان على الأرض ، فمتع ولذات الحياة
التي قدمها الشاعر لم تصرفه عن رؤية الحقيقة المخفية
وراء هذه المظاهر الخادعة وهو انه ملك للدهر يتصرف
فيه كيف يشاء . وعندما يأتي الموت يتساوى لدى
الانسان كل شيء فيصبح العسر كاليسر والغنى
كالعدم^(١٠).

ان هذين الشاعرين يؤكدان لنا انعدام التجاوب مع
الاحساس الديني السائد أو أن الشك تسرب الى هذه
النفوس فراحت تتحدى ، وهذا التحدي دليل على
الطرف الآخر الذي قام هذا التحدي في وجهه ، فهذا
الشك لم يأت من فراغ ولكنه ، كالعادة ، استجاب
لحالة التحدي هذه ، فهذه النفوس المتوثبة لم تجحد في
المألوف والسائد بين الناس ما يشفي غليل هذا التوثب
فيها . وهذا الاحساس يزداد كلما أحس بان الدين من
حواله عاجز مشلول .

اننا نخفل ان الشاعر هو عصره مجسدا من الناحية
الاجتماعية والنفسية والخلقية فهو لا يعيش جسدا ميتا أو

العصر الحديث حيث تمر حالة التدين بأزمة واضحة
فنرى مسح الشك والضياغ والقلق والخراب والرجال
الجوف ، وهذا احساس بوحدة الانسان ونشئته من أن
يكون وحيدا ، بل ان انتباهه لهذه الوحدة ، يثير في نفسه
الرعب فيكون لا مهرب له من القلق . ومادام ليس ثم
حائط يقف في وجه الظلم والألم والعزلة والموت ، فلا بد
من أن يعتمد على نفسه ، وهذا هو نفسه موقف الانسان
الجاهلي الذي غشي الخشية ذاتها ووقف الموقف نفسه ،
فها هو طوله تستبد به وحدته وخوفه فينمو تحديه :

فان كنت لا تستطيع دفع منيتي
فدعني ابادرها بما ملكتي يدي
فسلوا ثلاث هن من لثة الغنى
وجسدا لم أحفل متى قام عودي
..... الخ
وان القوة كل القوة ، والألم الذي لا حد له حينها :
نرى جشونين من تراب عليها
صفائح صم من صفيح منضد
ولا مفك من هذا ، فالأماسة الحقيقية انه يحس بهذا
« الطول المرعى وثيابه في اليد » وليس ثمة ما يحميه ،
فداخله هواء لم يعرف سكينه الاستقرار الذي يحققه
الايان .

وليس طرفة وحده ، بل ان شعراء ما قبل الاسلام
يعانون من هذه المعاناة ، كل بمقداره ويند باطن النفوس
الى الظاهر فيها هو سلمى بن ربيعة ينظر من المنظار نفسه
واشراف على الحقيقة التي عاناها طرفة ، يقول :
ان شرواه ونشوة
وخبب البازل الامون
يجمشها المرء في الموى

(٩) شرح الحاشية للمروزي ج ٣ ص ١١٣٧ .

(١٠) قطبا النقد الأدبي والإعلام . د . محمد زكي المشاوي ص ٢٠٨ .

الجوارف سمة مميزة للعصر الجاهلي لمن يحسن تأمل النصوص . وقد انتبه ابن سلام الى هذه القضية فركب غطين من الشعراء : شاعر يتاله وآخر يتعمر ، وعندما قدم الشاعر المثالي قال : « فكان من الشعراء من يتاله في جاهليته يتعفف في شعره ولا يستبهر بالفواحش ولا يتهمك بالفواحش^(١١) » ولم يشر الى شعراء حملوا دعوات معينة ولكن قدم الذين التمسوا المفهوم الخلفي الذي يكون عادة عمل احتفال ودعوة في احوال التفتك ، فالمشهور الخلفي هو البقية الباقية التي تستند عليها نواميس الحياة والا اختل كل نظام ، لذلك نرى ان أي مجتمع ، مهما تحطمت عنده القناعات الدينية تثبت بالمفاهيم الخلفية العامة بعد ان يقننها لصالحه . فالتأله ، إذن ، خلق وفرغ من حالة التدين .



ان هذه المقدمات الاولى عندما نسوقها لما لاننا نريد أن نؤكد أمراً أساسياً هو أن العلاقة بين التدين والفن ليست علاقة تنافر بل تناغم واضح حينما تبلور الحاجة . ونريد ، من جهة أخرى ، أن نشير الى ان هذا الميل القلق في الجاهلية والذي تبناه الشعر وجسده سيكون له دوره المتميز في الاسلام .

وأمر آخر نستخلصه مما سبق وهو ان صفة الشعر التي وصف بها رسول الله صلى الله عليه وسلم لما مبرراتها عندهم لانهم عرفوا دور الشعر ولم يدركوا عامتهم الفرق الدقيق بينه وبين القرآن ، لذلك كان القول انه : كامن ، شاعر . الخ . أما الذين تعمقت ثقافتهم فقد لمسوا الفارق بوضوح^(١٢) . وهذا الخلط عند البعض

حركة آلية . فهو ، وان كان صنعة هذا المحيط ، فاته بملك قدرة التجاوب والابتنائية التي يتجاوز بها السطوح فيشير الى أعماق الروح العامة ، بل يملؤها تشوقا لاستقبال الثمرة القادمة .

ان دلالة هذه المواقف واضحة ، فالهجر من القوة بحيث يدفعنا الى أن نقول ان حاسة الشعراء المخترقة لحاجز الظاهر نفلت الى ادراك الجليد القادم ، أو الحاجة الى ملء هذا الفراغ الذي بدأ يملأ النصوص ، فطره وسلمى بمكان هذا التشوق أو يفسدان هذا القلق . لذلك نجد أن التساؤل العقلي يتخذ الى الذين تجاوزوا ما أحاط بهم ، فما هو قس بن ساعدة نعرف حق المعرفة يطرح استلته ويشير الى هذا التلازم بين العيش والموت « من عاش فات ، ومن مات فات وكل ما هو آت » و « مالي ارى الناس يموتون ولا يرجعون ، ارضوا فاقاموا ، ام حبسوا فناموا »^(١٣) .

ان تساؤلات قس بن ساعدة - ان صحت - هي نفسها ما اثاره هذان الشعراء ، انها حاسة سادسة للامة ، ولكنها قائمة على أساس موضوعي ، لذلك نجد أن الشاعر سلمى في ابياته يبدأ من ذاته الى الحقيقة الكبرى التي تحيط به ، وكذلك فعل طرفة وهذا نفسه الذي دارت حوله تساؤلات قس بن ساعدة . لقد تحولت هذه الافكار الى هاجس يقلق الانسان الجاهلي ، ومن غير الشاعر يعبر عن مثل هذا ، وهو ما نلاحظه واضحا عند شاعر مثل أمية بن أبي الصلت الذي آمن لسانه وكفر قلبه .

ان هذه الحيرة قد لا نجد مثلها في عصور أخرى ، بعد الاسلام ، شهدت جدلاً عقلياً حاداً ، ولكن التوق

(١١) البيان والتبيين . الجاهلي ١ ص ٣٠٩ ط ٢٠٠٢ . ٢ .

(١٢) طبقات شعراء العرب : ٤١/١ .

(١٣) انظر تعليق النسي على صحيح مسلم وضمن على قوله الشعر لما يلزم على لسان أحد يعقبي : انه بعد ١٩٢٠ وكذلك ما ذكره الزبيدي عن لغويين لال : ما هو

بشاعر قد عرفه الشعر بجزءه وهزجه وقريحته وطيرته وبسيرة لها هو بالشعر . ٤ .

اليها من قبل وكذلك نص ابن فارس الى آخر تلك الأقوال . ولكن أهم هذه الآراء تلك العبارة التي انتصت بها ، جاءت تكملة لها أو متابعة فأصبحت جزءا منها ، ولقد أضاف أو علق ابن سلام على قول عمر السابق بقوله : « فجاء الاسلام فتشاغل عنه العرب وتشاغلوا بالجهاد وغزو فارس والروم ، ولغت عن الشعر وروايته » (١٤) .

وتتناقض الأقلام والالسن هذا الرأي ، لقد أصبحت هذه القضية مطروحة على بساط البحث . حتى ابن خلدون ، صاحب التصورات والنظرات الصائبة يؤكد ما ذهب اليه ابن سلام فقال « ثم انصرف العرب عن ذلك أول الاسلام ، بما شغلهم من أمور الدين والنبوة والوحي ، وما أدهشهم من أسلوب القرآن ونظمه ، فاعرسلوا عن ذلك وسكنوا عن الخوض في النظم والنثر زمنا ، ثم استقر ذلك وأونس الرشد في الملك ، ولم ينزل الوحي في تحريم الشعر وحظره ، وسمعه النبي صلى الله عليه وسلم وأثاب عليه ، فرجعوا حيث دل الى ديدهم منه » (١٥) .

ولا يفوتنا ان نشير الى هذه الفتنة الذكية من ابن خلدون حين فصل بين القول القاتل ان الاسلام حرم الشعر وضعف الشعر ذاته ، وهذا يدل على أن ابن خلدون لا يرى أن الاسلام هو الذي أضعف الشعر ، ولكن الشعر قد ضعف لأن الناس تشاغلوا بالدعوة الكبرى ، ومعنى أدق أن الشعر قد ضعف في تلك الفترة حقا ، ولكن ليس لأن الاسلام حرمه فظروف الحياة في تلك الفترة هي السبب ، وهذا الرأي ينسجم مع دراسة ابن خلدون للحضارة في مقدمته تلك .

مشروع ومقبول خاصة حينما نشير الى استغلال الكهان للايقاعات اللفظية في سجعهم فقد أقاموا من تأثير موسيقى الكلمة . وهذا الاستخدام لعب دورا خطيرا في العقائد القديمة . فإذا اختلطت الكلمة بسجعها وشعرها في الذهن مع السحر فإن المتلقين للقرآن الكريم لا بد أن تنبض في عقولهم مثل هذه المقارنة فيثور النقاش والجدل . ويضاف الى هذا كله ذلك الدور الذي لعبه الشعر سلاحا مشهرا في وجه الدعوة الاسلامية وكان سلاحا ماضيا .

ومادام هذا كله قائما فليس من الغريب ان تثار هذه العلاقة وان يخصص لها هذا الحيز الواضح لان الشعر قد دخل طرفا في الموضوع دخولا مباشرا عن طريق دوره الذي كان في الجاهلية وما تبقى منه في الذهن .

ولكن الذي يعنينا حقا هو نوعية المناقشة ومؤداها ، وطبيعة القضايا المثارة حول الموضوع لنرى مسارها أولا ، وهذه هي الخطوة الثانية التي نقترب بها من هذه القضية الكبرى : الاسلام والشعر وبعد ، فللموضوع تاريخ طويل متابع يحسن الالمام ببعض أطرافه . بدأت الحكاية بمقولة عابرة نعلق بها عصر بن الخطاب حين قال : « كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصبح منه » . وظاهره العبارة واضح ، فهي لا تتحدث عن أن الاسلام أضعف الشعر أو انصرف الناس عنه ، ولكنها تقرر واقعا كان معلوما خبره عمر بن الخطاب ، وهو أن الشعر كان أهم علوم الجاهلية وأصحها . وهذا الرأي يتناسب مع ثقافة عصر ودراسة التي تكشفها الاخبار والأقوال التي انحدرت عنه فشاعت وذاعت .

وقد جاء بجانب هذا مقولة الاصمعي التي أشرنا

(١٤) طبقات شعراء العرب ، ١/ ٢٥٠ .

(١٥) مقدمة ابن خلدون : ص ١١٢٢ .

آراء المحدثين :-

- ونستطيع أن نلخص أهم الإنكار فيما يلي :
- ١ - ان القرآن أخذهم بجمالهم وشريعته . .
 - ٢ - ربط المشركون بين التبره والشعر ، مما جعل القرآن يتره نفسه عنه ، وقد اعتبر الشعر تقليدا جاهليا بحيث انصرف الناس عنه . .
 - ٣ - محاربة اعداء الاسلام له بالشعر فاصبح الشعر كرتيا الى نفوسهم ، خاصة ما يتعلق من بهله الحرب .
 - ٤ - اتجهوا الشعر الى العقائد انزله عن مستواه ، وجعله في موقف المعادى للإسلام .

ويتابع هذا الرأى الاستاذ محمد الكفراوى في كتابه « الشعر العربى بين التطور والجموده الذى يؤكد هذا الاراء ، خاصة ما يتعلق بالشعر الذى قيل في الحرب التى دارت بين المسلمين والكفار ، ويؤكد ان الشعر كان شديد الوسطة على المسلمين بحيث استحضر الرسول دماءهم ، كما أن القرآن هاجم الشعراء ، إن اخلاقيات القرآن تختلف عن ما تعارف عليه الاقدمون فلم يعد هناك تعاطف بالأياه ، وقد حرم الخمر ويغفر من التعرض للناس . . الخ . .

ويختتم كلامه بقوله (ولقائل يقول فيما بال الشعراء لم يتجهوا الى الحديث عن المبادئ التى جاء بها الاسلام من زهد في الدنيا ، وعمل للأخرة وجهاد في سبيل الله .

والرد :

- ١ - ان المسلمين في الصدر الاول كانوا على العمل احرص منهم على القول . .
- ٢ - سلطان الكتاب على نفوسهم كان اقوى من أن يدع لهم فرصة للتفكير في سواه .
- ٣ - ان لغة القرآن كانت مقدسة ومعجزة ، ولعل الجيل الاول من المسلمين قد ظنوا أن مجرد التفكير في

ايد بعض الباحثين المحدثين الرأى القائل بضعف الشعر ، وقد لخص الاستاذ نجيب البهيتي أهم هذه الآراء قائلا : (ضعف الشعر في صدر الاسلام نظرية صحيحة - والحرب قوم ذوولسن وذوق قولى عتاز . فلم يلبثوا أن أخذهم القرآن بجماله كما أخذتهم بالدمشة تلك الشريعة الكاملة ، المبرأة من النقائص التى كانت تصيب الشرائع الاخرى . فشغلوا بالقرآن وسكت الشعراء ليستمعوا الى كلمة الله . .

ثم أن تشبيه مشركى قريش النبى بالشاعر ، ورفع القرآن نفسه عن هذا المعنى جعل الناس ينظرون الى الشعر على أنه تقليد جاهلى ، فاصابه ما أصاب جميع التقاليد الجاهلية التى حاربها الاسلام ، وكأنما كان الناس ينظرون اليه نظرتهم الى أثر وثنى لمصر ذهب بكل رجاله ويذكرياته الدامية الرهيبة . . .

وساعد على اضعاف الشعر ايضا أن اعداء الاسلام كانوا يحاربونه بالشعر ، فلما هم الاسلام - كانت كراهة هذا الشعر قوية في نفوسهم فتناسوه ، وامتنعوا عن رواية ما كان منه من هذا القبيل . وللمنى في ذلك احاديث مشهورة لا داعي لترديدها . كما ساعد على اضعافه ايضا أنه كان قد أخذ في العهد السابق للإسلام مباشرة يتجه الى نحو من التفكير جار حول العقائد والدين ، والشعر اما يذهب هذا المذهب في طور شيخوخته فأرخصه ذلك ، وحطه عن مستواه القديم من ناحية ، وأوقفه موقف المخالفة في الاسلام من ناحية أخرى .

وبذلك ذهب مع عصر التقاليد ملوك الشعر الذين كانوا . اثرا من آثار عهد النضج الفنى وخلصة عظمى لآزهر مقاييسه . . (١٦)

(١٦) تاريخ الشعر العربى حتى القرن الثالث . . . ص ١١٣ .

محاكاتها أو النسخ على منوالها يعد تحدياً لقوله تعالى (قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً)

سورة الاسراء - الآية ٨٨
وهذه الآراء تتكرر في كتب الادب التي تردّد هذا الرأي ولستنا بحاجة الى تكرار القول فالجوهر واحد وإن اختلفت الالفاظ (١٧).

وقفه للنقاش :-

وقبل أن نواجه القضية الاساسية ، احب انناقش قليلا بعض الاسباب التي أخذ يضيفها كل باحث معللا بها ضعف الشعر مثلاً :-

١ - يقولون ان القرآن قد أدخلهم بأسلوبيه فانصرفوا عن الشعر . وهذه دعوة لاتنهض الاكلة لتأييدها ، لان لدينا احتمالين لا ثالث لهما وهما : اما أن يكون الشاعر كافراً فليس هناك ما يدعوه الى ترك الشعر والا لكان قد آمن بالاسلام !! . . او يكون الشاعر مسلماً والادلة تثبت ان الشعراء المسلمين لم يبقوا عن نظم الشعر ، فهذا حسان بن ثابت ، وعبدالله بن ابي رواحة وكعب بن مالك ، ولم ينف من الشعراء الا الذين توقفوا عن العطاء الشعري منذ زمن ولم يكن الاسلام سبباً مباشراً ، ولتركنا لبيدا جانيا فقد ادرك الاسلام وهو شيخ كبير والا فالاسلام بحاجة الى شعره ، اما كعب بن زهير فما هو بلقي قصيدته وبانت سعاد . . امام الرسول ، ومن الظلم ان نقول انه توقف عن قول الشعر لان الاسلام قد منعه بينما هذا حسان بن ثابت ينشد قصائده في عاصمة الاسلام ونعني بها يثرب مدينة الرسول . .

ان القرآن الكريم كتاب عقيدة وليس وسيلة لسحر العقول بحيث تمنح الشعراء من ان يقولوا الشعر ، بل ان هذا القرآن خليف بأن يفتح ابواباً للشعراء ينفذون من خلالها الى آفاق رحبة فسيحة الارجاء . . وحسبنا الواقع فالشعراء الذين ضربنا بهم المثل شعراء مسلمون هز القرآن اعماقهم وتحركت نفوسهم فجاشت بشعر يعبر عن موقفهم ، اما القول في انهم لم يتأثروا بأسلوب القرآن فهذا قول يجهل منطلق الفن . شعراء تلك الفترة تأثروا بروح القرآن في بعض قصائدهم ولا يستطيعون ان يوجدوا تقاليد جديدة للشعر بهذه السرعة . . فالفن ليس ردة فعل سريعة لما تقاليد قد تأصلت بحيث تحتاج الى شاعر يحمل في شعره ثورة فنية ، وهذا النوع من الشعراء لا يوجد بهم الزمان الا بين فترة واخرى وليس ضربة لا زب ان يكون في صدر الاسلام شاعر من هذا الطراز ، وحسبهم اشارات تنم عن عقيدتهم . حتى الحطيفة ، الذي ينتم بأنه من اكثر المهاجرين فحشا ، نجد انه باستثناء بعض الابيات التي تساق للمبالغة ، نلاحظ بقية قصائده وفيها صفاء الفكرة وان كان الهجاء هو الطابع فلان الحطيفة شاعر ركب بهذه الصورة . فلا يستطيع ان يتخلص من اخلاقه التي جبل عليها ولو لم يكن هذا طبعه لكان هو احق الشعراء بتشثيل الاسلام ، ألم يكن استاذة زهير بن ابي سلمى ؟ ونحن نعرف عفة وكرم اخلاق ذلك الشاعر الجاهلي .

٢ - أما القول القائل ان انصراف المسلمين عن قول الشعر راجعاً الى اعتقادهم ان في هذا محاكاة للقرآن ، الذي لا يستطيع احد ان يحاكيه ، وانه تحدياً لقوله تعالى (قل لئن اجتمعت الانس والجن . . . الآية) . هذا الرأي في قولنا السابق رد عليه ، كما انه لم يقل

(١٧) بلاطع كتاب تاريخ الأدب العربي للاستاذ صبر فروح ، وكذلك تاريخ آداب اللغة العربية لبرجي زيدان وتاريخ الأدب العربي ، لأحمد حسن الزيات .

فكان ، كالمعهد به : مجليا موقفا ، وقد ادار رأيه حول ثلاث ركائز هي : أن الذي زهد بالشعر لا يخلو رأيه من أمور ثلاثة : -

الأول : أن يرفضه لما فيه من هزل وسخف وهجاء وسب وكذب وباطل على الجملة .

الثاني : لأنه موزون مقفي ويرى أن هذا بمجرد مقتضي الزهد فيه والتنزه عنه .

الثالث : يتعلق بأحوال الشعراء وانما غير جميلة في الأكثر وأعم ذموا في التنزيل .

ويقول أن الذي ذمه لما فيه من هزل وسخف فليلم الكلام كله فإن ما فيه في عصر واحد يربو على ما في الشعر كله ، وإنك تستطيع أن تختار ما لا يعاب عليك فيه ، وزاوي الشعر حاك وليس كل الحاكمي من عيب إذا لم يقصد بحكاية أن ينصر باطلا أو يسوء مسلما ، فانه قد حكى كلام الكفار ، وإن العلماء استشهدوا لغريب القرآن وأعرابه بالآيات الفاحشة ، وانهم لا تقرأ الحق تمثلوا بها وقد مثل لهذا بإحسن البصري وعمر بن الخطيب ، ويقول « وإذا كان الباطل في الشعر قد وضعه عندك فلماذا لم يرفعه في نفسك ما فيه من حق وصدق وحكمه وفصل خطاب » إلى آخر هذه الآثار .

وعيب على الذين هجروا بالحديث السالف الذكر « لأن يمثل وجوف احدكم قبحا فيريه خيرا له من أن يحتل شعرا » وتركوا قوله ﷺ : « أن من الشعر حكمه وأن من البيان لسحرا » وأن الرسول أمر بقول الشعر حينما قال لحسان : « قل وروح القدس معك » . وقد سمعه من الذين مدحوه ، واستشده طالبا السماع وهناك إخبار تشير إلى علمه عليه الصلاة والسلام بالشعر وارتياحه واستحسانه له .

احد من المسلمين أن القرآن شعر والآية رد على المشركين الذين تحداهم القرآن في أن يأتوا بمثله - أي القرآن - في أكثر من موضع لذلك نجد أن الشعراء استمروا ينظمون الشعر وموقف القرآن والرسول واضح منهم كما سنين بعد ذلك ولم يقل احد أن مسلك الشعراء هذا يتحدى القرآن .

٣ - أما القائلون بأن السب هو محاربة الكفار للإسلام بالشعر ، فالرد على هذا واضح لم يرد المسلمون كذلك عليهم بالشعر ؟ .

٤ - ما ذكره الأستاذ البيهقي من أن سب نزول الشعر عن مستواه هو انصرافه إلى العقائد فلا يؤيده الدليل فليس هناك إلا آية بن الصلت وإبيات قليلة لبعض الشعراء ويقابل شعر كثير لا تمت بصلة إلى ما ذهب إليه ، ولم يقل احد أن موضوع الشعر يضعفه ولكن الموضوعات كلها تشعبت أعطت الشاعر مجالاً مفتوحاً كي يعبر عن خلجاته ، لذلك نشطت - فيها بعد - المذائع النبوية وقصائد التصوف . هذه ملاحظة حصول بعض الآراء التي كانت تعمل - أو بلطف ادق تلمس التعليل لتضعف الشعر وقد تعرضنا لها مسرعين .



ولم تكن هذه الآراء وحدها في ساحة المناقشة ، فهناك أقلام كثيرة انبرت للدفاع عن حقيقة وضع الشعر في صدر الإسلام لذلك لا يحسن تجاوز هذا العرض دون الإشارة إلى بعضها .

يقف عبد القاهر الجرجاني في مقدمة المناهجين ، ففي تهذيبه لكتابه « دلائل الإعجاز » يناقش بمنطقه المحكم

وان بعضها قصد به زمانا وقوم معينين لأن الرسول سمعه واستشده وأمر به ، الى آخر هذه المناقشات .

ولكن المفيد في عرضه هو ذلك الربط بين الشعر والحكمة ، فان الرسول قال « ان من الشعر لحكما » وان الله عز وجل قال في القرآن الكريم في مدحه لداود عليه السلام قال : « وآتينا الحكمة وفصل الخطاب » . وقال عن لوط « ولوطا آتينا حكما وعليا » فجعل الرسول ﷺ بعض الشعر جزءا من الحكمة التي خص بها الأنبياء^(١٩) .



لنا ان نقف الآن امام القضية الرئيسية والتي تدور حول امرين :

١ - موقف الاسلام من الشعر .

٢ - ضعف الشعر في فترة صدر الاسلام .

وسنعرض لكل قضية على حدة .

أولا : موقف الاسلام من الشعر :

لنشر أولا الى أمر لا يصعب الاتفاق حوله ، ملاحظة أولى نلاحظها لتكون محور اهتمام خاص ، او لنقل انها تنبيه الى أمر ظاهر وبارز قد يخفي على بعض الاعين احيانا . نقول انه مهما كانت حصيلة نقاش الموقف الاسلامي وايضا امتدت دروبه ، فان هذا الموقف ان كان واقفا او مؤيدا او متوسطا او تتنازعته الافهام بين هذه

اما الذي ذم الشعر من حيث هو مؤزون مقفي وان الكلام اذا نظم تغيرت معالته فقد قال قولاً لا معنى له » انما الشعر كلام فحسته حسن وقبيحه قبيح » . واما الذي كره الوزن لأنه سبب للتغني ، فان الدعوة للشعر انما لما فيه من لفظ جزل وقول فصل ومنطق حسن الخ . وانه لا حجة لمن تعلق بقوله تعالى : « وما علمناه الشعر وما ينبغي له » فالرسول لم يمنع من الشعر من اجل انه كان قولاً فصلاً وكلاماً جزلاً ، فان هذا يقتضي ان الله قد منع الرسول من البيان والبلاغة مع انه كان افصح العرب . واذا قيل انه نزه الرسول عن الشعر فان هذا التنزيه يتوجه الى الشعر من حيث انه كلام بليغ وليس لانه مؤزون ، ولكن التنزيه منه كالتنزيه من الخلق وان الرسول لا يقرأ ولا يكتب حتى تكون الحجة ابر وأقهر .

ويبقى المتعرض الثالث والذي يكره الشعر لما يتعلّق باحوال الشعراء وليس هذا بسبب لذم الشعر وتبجيته ، لانه يلزم ان يحجب استشهد العلماء بالشعر مثل شعر امرئ القيس واهل الجاهلية في تفسير القرآن وغيره وغريب الحديث ، وان يدفع سائر ما ذكر من امر الرسول والشعر . وان من الواجب اذا ذم الشاعر على الشعر ان يستثنى كما استثنى الله عز وجل -^(١٨) .

ولا يفرض صاحب كتاب « نصرة الأعراس » من هذا الذي ذهب اليه عبدالقاهر الجرجاني ، وقد افرد صفحات كثيرة اورد فيها أخبارا وحوادث ونقاش موقف الاسلام من الشعر بعرضه ومناقشته لها ، وعرض للاممي الشعر ، ويرد الاحاديث التي تروي في تهجين الشعر ،

(١٨) انظر تفصيل هذا الرأي في كتاب (دلائل الإعجاز) ص ٨ الى ص ١٩ .

(١٩) نصرة الأعراس . ص ٣٥ وما بعدها .

واقفا كانت هذه الاشارات نظر رأي القدره وتقدم موقفهم المنطوق من موقف الاسلام للزيد للشعر فان المحدثين لم يتفقوا من التسامح في هذا ، وبلغنا الواجب الى التنبه بالكتاب الذي خصصه الأستاذ جيسى الجبوري فقد استغنى هذا كثيرا من النصوص وعرض لوقف القرآن والرسول والصحابة وبطلون ملأ الأثر لو استشهدنا بما قال . ونشير هنا الى الملاحظات الطيبة التي ذكرها الأستاذ شوقي شيف في كتابه (العصر الاسلامي) ص ٩ وما بعدها .

العملي ، وستأتي بعد ذلك سطور تالية تعرض لهذا الامر من الواقع لا التصورات .

عندما ننظر الى الاسلام نجد ان حقيقة موقفه العام تختلف عن بعض الاديان الاخرى - ككل المبادئ الكبرى - فهو لم يكن يدفع عنصر الدين الى ما تحت الستار الروسى والانضواء تحت مع مثاليات عامة وقيم خلقية متعارف عليها كما فعلت المسيحية ، دون ان نتجاهل دورها حينما قامت على مبادئها دول . وهو كذلك ليس كاليهودية انحصار ضمن حدود عرقية ضيقة . فمن الحقائق الثابتة ان الدعوة الاسلامية لامست الواقع مباشرة - فهو - وان قامت دعوته على الجانب الروسى تطهيرا واطمئنانا - فانه لم يركز على هذا الجانب فقط ، فقد اعطت الدعوة اهتماما ملحوظا لواقع الناس ، وكان التجاذب واضحا بين ثبات العقيدة وواقعية التشريعات لانه ارتبط بتكوين المجتمع واقامة دولة تفرع منها عدة وجوه اثناء جود صاحب الدعوة نفسه ، فصنعت لها وجها اجتماعيا وسياسيا وثقافيا . وهذا الوجه الثقافي تتمثل صورته الكبرى في الفن - الشعر خاصة - ومن ثم فالتلازم قائم بين هذا الفن والدعوة ، فلم يعد الشعر تعبيرا فرديا - وان تحقق - وانما وظيفة . مهددة داخل اطار دعوة كبرى شملت كل جزء من هذا المجتمع الوليد .

١ - القرآن الكريم : ان الموقف الاسلامي ينبع اساسا من القرآن الكريم - فهو اصل لكل الاراء - ثم تأتي السنة مفسرة وموضحة ومبينة لمحة ، ويبدأ بعد ذلك توالي الفهم بين الدارسين . وها نحن مع القرآن اولاً نبحث فيه الآيات التي تناولت الشعر عرضاً او على القصد الصريح ، فنجد أن كلمة « شعر » وما اشق منها قد وردت في عدة مواضع ها هي : -

كلها او بعضها ، ان كان هذا اذ كان فلا يشكل سببا وحيدا لضعف الشعر او تدينه كما ذهب الزاعمون . وتفصيل هذا ان الدين قد يأمر فلا يستجاب له وقد ينهى فلا يسمع له ، ومصداق هذا ما نلاحظه من ان الدين هدى وحث على مكارم الاخلاق المتوافقة عليها ، ودفع لمزاولة الحسن من الامور ، وهذا موقف تؤكد شواهد هي اكثر من ان تصف في سطور الصحائف . ولكن المؤكد ايضا ان هذا ليس بلازم او متحقق في الواقع للمموس والا لكائنات الارض هي اللجنة الموعودة ، فالامر المؤكد لم يثمر نتيجة واضحة في الواقع ، واثار الموقف الاسلام العام لم ينعكس على الحياة انكاسا تاما او لنقل انه لم يشمل واقع الحياة اليومية ، فالامر والنصيحة لم يثمر كما يجب الموقف الديني ان يثمر الا عند من رحم .

ومثل ذلك النبي ، فهو لا يجد كل الاذان صاغية له ، وما اكثر ما تجاوز الناس الامر المنهي واقتربوا ما غلظت الدعوات من حوله بل وقرنت بالروادع المبرحة في كثير من الاحيان ، وها هي اماننا النصائح العامة وقد كثر متجاوزوها ، فالحكم ، مثلا ، تواترت آيات محرمه له وقيل فيها ما قيل ، وقرن القول الزاجر بعقوبات مؤكدة ، ومع ذلك فالواقع والتاريخ يؤكدان لنا ان شاربها سلسلة متسالية تذكر الكتب انصارهم ويشاهدون المشاهد . ويستوي حولها من خفت جلوة اسلامه ومن امتحن تدينه بخضوعه لها .

ان سوقنا هذه الملاحظة اثما للنتيجه فقط ولتأكيد الامر الواضح من ان واقع الناس قد لا تكون استجابته مساوية للدعوة المرفوعة . وهذا يصدق على الشعر ايضا فقد ينهى ولا يتنهون وقد يأمر ولا يطعمون وعندما يتوسط ويشترط لا ينجح له الا البعض وهكذا . وليس هذا القول تقليلا من اهمية الموقف المقلندي واثره على الواقع

أن الآية رقم (٢) جاءت في سياق رد على ما كان يقولوه الكفار ، الذين قالوا عن القرآن المنزل انه قول شاعر تملمأ كما قالوا انه قول كاهن الى آخر اقوالهم ، فكان الرد القرآني ان هذا ليس بقول شاعر ، وهو ايضا ليس بقول كاهن .

واضح تماما ان هذا الرد يقرر حقيقة واضحة ، فلم يكن الرسول شاعرا ولا كاهنا تماما كما انه لم يكن ملكا او وزيرا .

اما الايتان الأخريان (٣ + ٤) فقد جاءتا حكاية على لسان الكفار ، فقد قالوا انه شاعر ، والشاعر انسان يخضع للموت ، ومن ثم ننظر موته ليهلك كما هلك غيره .

اما الآية الاخرى فنقتل وصفتهم للرسول من انه شاعر مجنون . . . وليس في هذه الايات مايس فن الشعر من حيث كونه فنا ، وهي كذلك لاقتل رأيا اسلاميا - ومن حقنا القول : .

● ان ماجاء حكاية عن الآخرين لايمثل موقفا انما ينقل الآراء والاقوال .

● ان ما جاء نافيا عن الرسول كونه شاعرا لايمثل اي موقف فهو رسول وليس بشاعر وهذا تقرير واقع ولايمثل اي اتهام .

● ان ما جاء صريحا في قول يحده الظرف المعين الذي ستحدثت عنه فيها بعد ويضاف الى هذا الاستثناء الواضح الذي لايجتاج الى تعليق .

يأتي متبع هذه المجادلة من طبيعة الدعوة الاسلامية ذاتها ، فعندما قلد الرسول (ﷺ) في سكن بيته رسالته وتلا آيات القرآن الكريم عليهم وقفوا متحيرين في أمرهم ، ماهذا الذي جاء به مؤثرا واضحا التأثير ، هاهي كلمات تميز سامعها وتحركهم دافعة الى الايمان به ، وما كانوا يعرفون من سحر الكلمات الا ما القوا من

١ - « وما علمناه الشعر وما ينبغي له ان هو الا ذكر وقرآن مبين » .

سورة يس - الآية ٦٩

٢ - « وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون » .

سورة الحاقة - الآية ٤١

٣ - « بل قالوا اضغاث احلام ، بل اغترابة ، بل هو شاعر ، فليأتنا بآية كما ارسل الاولون »

سورة الانبياء - الآية ٥

٤ - « ام يقولون شاعر نترصد به ويب الموتون »

سورة الطور - الآية ٣٠

٥ - « ويقولون اننا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون »

سورة الصافات - الآية ٣٦

٦ - « والشعراء يتبعهم الغاويون . لم ترانهم في كل واد يميمون . وانهم يقولون مالا يفعلون . الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا وانتصروا من بعدما ظلموا وسيعلم الذين ظلموا اي منقلب يتقلبون »

سورة الشعراء - الآيات ٢٢٤ - ٢٢٧

ست آيات ترددت فيها الكلمات : شعر . شاعر - شعراء :

الآيات ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ اوردت كلمة شاعر

الآية رقم (١) اوردت كلمة الشعر

الآية رقم (٦) اوردت كلمة الشعراء

واذا نظر نظرة سريعة سنلاحظ ان :

١ - الآيات (١) ، (٧) رد على الكفار الذي ادعوا انه شاعر

٢ - الآيات (٣) ، (٤) ، (٥) حكاية ماورد على لسانهم حينما ادعوا انه كان شاعرا .

٣ - الآية رقم (٦) وهي الوحيدة التي تتحدث عن الشعراء .

نلقي نظرة سريعة على الآيات ٢ ، ٤ ، ٥ ، فنلاحظ

قال انيس : لقد سمعت قول الكهنة ، فها هو بقولهم . ولقد وضعت قوله على اقراء الشعر (اى طريقه وانواعه) فها يلتئم على لسان احد بعلي انه شعر والله انه لصادق . وانهم لكاذبون (٢٢٢) .

ونضع بجانب الخيرين السابقين خير صمد فقد سمع سفهاء اهل مكة يقولون : ان عمدا بجنون . وكان يرقى من هذه الريح (اى يكتب التصاويذ التى تشفى من الجنون) فقال : لو اني رايت هذا الرجل لعل الله يشفيه على يدي . قال فلقية . فقال : يا عمدا اني ارقى من هذه الريح . وان الله يشفى على يدي من يشاء . فهل لك ؟ فقال رسول الله ﷺ : وان الحمد لله نحمده ونستعينه من يهده الله فلا مضل له . ومن يضل فلا هادي له . واشهد ان لا اله الا الله وحده لا شريك له ، وان عمدا عبده ورسوله . اما بعد . »

قال فقال : اعد على كلمائك هؤلاء . فاعادهم على رسول الله ﷺ . ثلاث مرات . قال فقال : لقد سمعت قول الكهنة وقول السحرة وقول الشعراء فها سمعت مثل كلمائك هؤلاء . وقد بلغن ناعوس البحر سمعت (٢٢٤) .

اشارة هذه الاخبار وغيرها الى هذه المقارنة بين القرآن الكريم والشعرى التى دفعت الى مثل هذا الحوار من طرفين ، ولقد ساعد على هذا ان اعتماد الشعرة على الكلمة المؤثرة المجزة والمقتمة وقيام الشعر على بعض هذه المقومات ، او دخول هذه في البناء الفني السائد عند العرب ، اى الشعر ، ان هذا هو الذي اوجد هذه

شعر ، لذلك بدأت اقوالهم تضطرب حول هذا المجال ، فنظروا الى اقواله هل انها اضغاث احلام ولكلهم يعلمون حتى العلم ان تماسك هذه الاقوال لا يصدر عن الاحلام ، فلجأوا الى القول انه اخترعه اختراعا وليس هذا القول بأكثر تماسكا من سابقه . انما لم يبق الا أن يبرز في دائرة الشعراء فهذا التميز جدير ان ينظر اليه من زاوية الابداع الشعرى . ولكن هل هذا حق تنطبق عليه كلمة شعر ؟ . حكى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : « خرجت اترعى رسول الله ﷺ قبل ان اسلم فوجدته . سبقي الى المسجد فعمت خلفه فاستفتح سورة الحاقة فعمت اعجب من تأليف القرآن : قال فقلت : هذا والله كسا قالت لريش . قال فقروا انه لقول رسول كريم وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون .

قال قلت كاهن قال : ولا يقول كاهن قليلا ما تذكرون تنزيل من رب العالمين ولو تقول علينا بعض الاقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين فما منكم من احد عنه حاجزين . الى آخر السورة . قال فوقع الاسلام في قلبي كل موقع . » (٢٢٥) وليس هذا فقط فها نحن نتزجج من اخبار كثيرة . مثل هذين الخبرين الكاشفين لمسار هذا الجبل والحوار حول دهوة الرسول والقرآن الكريم . روت كتب الصحاح خير انيس الذي عاد من رحلة الى مكة فقال لاختيه ابي ذر الغفاري : (لقيت رجلا بمكة على دينك (٢٢٦) يزعم ان الله ارسله . قلت فماذا يقول الناس ؟ قال : يقولون : شاعر ، كاهن ، ساحر (٢٢٧) وكان انيس احد الشعراء .

(٢٢٠) مسند الامام احمد ١/ ١٧٠ .

(٢٢١) ابي بن ابي في الذي كان قد ذكر الله صلى الله عليه وسلم ان يلقى الرسول ثلاث سنين وعسى قوله انه كان ينجح طريق الخلفه .

(٢٢٢) وهي مدلولهم نفسيا التي لورديا الآية الكريمة .

(٢٢٣) صحيح مسلم . كتاب فضل الصحابة عن ١٩٢٠ ، وانظر مسند الامام احمد ٥/ ١٧٤ .

(٢٢٤) السابق . كتاب الجملة . ص ٩٢ . وناعوس البحر وسطه او بلسه .

المقارنة من جانبهم ودعت القرآن الكريم الى نفي هذا الابعثه .

وعندما ننظر الى الآية الشالفة (بل قالوا اضغاث احلام .. الآية) نلاحظ فيها هذا الاجمال لموقفهم المتذبذب والذي يناقشه الفخر الرازي بعقليته الفلة ، فيقدم اقوالهم الخمسة التي ساقوها في حق الرسول والقرآن الكريم . :

قال : و فاعلم انه تعالى عاد الى حكاية قولهم المتصل بقوله (هل هذا الا بشر مثلكم افتاتون السحر) ثم قال (بل قالوا اضغاث احلام بل افتراء بل هو شاعر) فحكى عنهم ثم هذه اقوال الخمسة فترتيب كلامهم كماهم قالوا : (٢٥)

١ - ندعي ان كونه بشرا مانع من كونه رسولا لله تعالى . سلمنا انه غير مانع ولكن لانسلم ان هذا القرآن معجز .

٢ - ثم اما ان يساعد على ان فصاحة القرآن خارجة من مقدور البشر ، قلنا لا يجهز ان يكون ذلك سحرا .

٣ - وان لم يساعد عليه فان ادعينا كونه في نهاية الركافة قلنا انه اضغاث احلام .

٤ - وان ادعينا انه متوسط بين الركافة والفصاحة قلنا انه افتراء .

٥ - وان ادعينا انه كلام فصيح قلنا انه من جنس فصاحة سائر الشعراء وعلى جميع هذه التقديرات فانه لا يثبت كونه معجزا ، ولما فرغوا من تعديد هذه الاحتمالات قالوا « فليأتنا بآية كما ارسل الاولون » (٢٦)

ان الالام بهذا الموقف يجعلنا اكثر تصورا لطبيعة هذا الحوار ، فالقرآن لا يعرض للشعر من حيث كونه فنا او تمجيرا ، وهو لا يعرض لتصوره ابتداء ولكنه يعرض او

يعقب على الامر المعروف ، والذي يحس هذا الصراع الدائر بين الرسول ومنافقيه ، وهذا متعلق بجوهري الرسالة ، فنحن نلاحظ تصاعد اتهاماتهم والذي يسلمنا الى قمة التشكيك بالرسالة من خلال الطعن بانصع صفحاتها وابرز وجوهها وقد تصاعدت اتهاماتهم حتى وصلت قمته الى ان هذا نوع من الشعر ، وان الناطق به يمتلك موهبة الشعر القادرة على التحكم بمواضع الكلام فتحسنه ، مع علمهم انه ليس بشعر لانهم يعلمون حق العلم معنى الشعر ، ألم يضعه انيس على اقراء الشعر وقد تبينه عمر بن الخطاب والوليد بن المغيرة وآخرون . ولكن هذا الشكل اللغوي لا بد له من وصف يقترب منه ، لذلك كان الاضطراب والتصاعد من الادل الى الاعلى من اضغاث الاحلام الى الافتراء ثم الشعر بعد ان قالوا كذلك انه ساحر وكاهن ، ولما كان الشعر علوا وسموا في فن القول فليكن القرآن منه ، فهذا اقصى ما يمكن قوله بالنسبة لهم .

ليست مناقشة الامر وعرض حكاياتهم والتصدى لما تمثل اي موقف من الشعر ولكنها توضيح وتبيين الفارق بين أمور حاول الكفار ان يقيموا بينها علاقات لهدم اساسات الدعوة الاسلامية ، فقد قالوا ، فعرض موقفهم ورد عليها . بل انهم وصفوا الرسول بوصاف ليعتمدوا على نتائجها ، فهو « شاعر تريض به ربه المنون » ، اي انه سميت كما يموت الشعراء وتنفضي دعوته ، واضافوا كذلك انهم لن يتركوا آهنتهم لشاعر مجنون ، وهذا الجمع بين صفة الجنون والشعر يمثل غاية التردى العقلي والتوتر النفسي عندهم والا فكيف يجتمع قول الشاعر ودقته مع الجنون ؟ . .

لقد توترت العلاقة بين الدعوة والوسط المحيط

(٢٥) الترميم والتظيم لسا من الرازي وضحه للتوضيح .

(٢٦) التظيم الكبير . الفخر الرازي ج ٢٢ ص ١٤٣ .

لما طيعة الرُوحى عند النبى فهى مختلفة تماما ، بل ان النبوة فيها نزوع الى مخاطبة الواقع من جهة الاقتناع العقلى والروضى ، وقولها تنظير وتشريع ، اى ان الجانب العقلى المنطقى لازم لها ، داخل دخولها مباشرا لا يقبل الجدل ،

وتبقي كلمة « وما ينبغي له . » ، فالاية كانت تعرض امرين اولها : ان الله لم يعلم الرسول الشعر ،

(٣٠) الطبري : جامع البيان في تفسير القرآن ج ٢٣ ص ١٩ .

غيره من الناس في تعجب من هذه القدرة الخاصة التي يتمتع بها الشعراء فينبأ أن يستفسر ويعدو الشاعر إلى استخدامهما في سبيل نصرة الدين^(٣٢).

فليس في نفي الشعر عن الرسول عليه الصلاة والسلام أو أنه لا ينبغي له ، أية إشارة إلى فن الشعر من حيث هو فن ، وأخراجه من دائرة الشعراء أمر لا يمس الشعراء من حيث كونهم أهل فن وصناعة تماماً كما أخرج من دائرة القارئ الكاتبين دون أن يفض هذا من القراءة والكتابة .



إن أهم نقطة جديرة بالتوقف هي تلك التي تحرم حول آخر آية من سورة الشعراء ، تلك الآية التي برزت وتصدت فكائت أسياً للسورة كلها . ونعني هنا « والشعراء يتبعهم الغاوون » . الآية » .

عندما نستحضر ذلك التاريخ المتوتر بين كفار قريش والرسول ، وقد رأينا طعنهم للنسوة وتسمية الرسول بالشاعر ووصفهم القرآن بالشعر حين تمثل هذا كله ندرك أن هذه الآية من جنس السابق . ولكن ، مع هذا ، فإن هنا أمر متميز وخاص يحسن عرضه وإبرازه فالقرآن يذكر هنا « الشعراء » بالذات ولا يتحدث عن الفن ، بل يشير إلى هذه الذوات الحاملة للشعر ، أي الإنسان من جهة كونه شاعراً ، وقد وضع إزاءهم ما يلي : يتبعهم الغاوون في كل واد يبيمون وأهمهم يقولون ما لا يفعلون إلا الذين آمنوا .

. وبعد هذا كله يأتي الاستثناء :

فالنص محدد في متطوِّفه ، لذلك نجد الرازي يلمس بدقة هذا الجانب حينما يشير إلى أنه يجب حل « ما ينبغي له » على مفهومه الظاهر وهو أن الشعر لا يليق به ولا يصلح له ، وذلك لأن الشعر يدعو إلى تغيير المعنى لمعنى ، فالشعر يكون اللفظ تبعاً للمعنى ، والشاعر يكون المعنى تبعاً للفظ ، لأنه يقصد لفظاً به يصبح وزن الشعر أو قافيته فيحتاج إلى التحيل لمعنى يأتي به لأجل ذلك اللفظ ، وعلى هذا نقول : الشعر هو الكلام الموزون الذي قصد إلى الوزن . قصداً أولياً ، وأما من قصد إلى المعنى فيصدر موزوناً فلا يكون شاعراً^(٣٣).

ولنا أن نقبل هذا الرأي أو نذهب - كما ذهب قوم - إلى أنه لا يسهل على الرسول قول الشعر حفاظاً على مكانة الرسول وإشفاقاً وبجيباً من المقارنة ، وقد كانت قائمة وملموسة .

إن الاختبار يؤكد عدم درايته بفن الشعر ، وإن كان متلوفاً له ، فانتفاء الدراية بالفن تعني أنه ليس من أصحاب هذا الفن . إما تلذقه فلاته ابن بيته يدرك مواضع الحسن بالقول ، فقد أوتي جوامع الكلام ، وملك ناصية البيان حينما يتحدث أو يحظ .

تأتي الأخبار التي تؤكد تعجبه من هذه الملكة ، فهذا هو ابن أبي ربيعة يروي حادثة مؤكدة لهذا حينما مر على الرسول وهو جالس بين نفر من أصحابه فدعاه إليه ، يقول : « فانطلقت إليه مسرعاً فسلمت فقال : ها هنا » فجلس بين يديه فقال - كأنه يتعجب من شعري - : كيف تقول الشعر إذا قلت ؟ . قلت : انظر في ذلك فأقول . . قال فعليك بالمشركين^(٣٤) . فالرسول مثل

(٣٢) للغير الرازي : الضمير الكبير : ج ٢٦ ص ١٠٥ - ١٢٦ .

(٣٣) السويحي . المدخل المتصور ص ١٠٠ .

(٣٤) ويدخل في هذا الجانب ما روي من أنه لم يكن يحسن رواية الشعر والأخبار حول هذا الموضوع كثيراً .

الاستثناء الذي يحمي الآية مزبلا ليس الذي يمكن ان يرد على الذهن . والرسول ﷺ قد نبه اصحابه الشعراء الى هذا الاستثناء حينما جاءوا بكون خرقا من ان يشملهم القول .

ومن هذا الباب ما اشار اليه الطبري^(٣٦) من ان هذه الآية نزلت في رجلين تهاجيا على عهد الرسول ، كان احدهما من الانصار والاخر من قوم اخرين ، وكان مع كل واحد طوأة من قومه وهم السفهاء . وهذا التحديد الجديد لا ينفي ، بل يؤكد المعنى السابق ، فليس همجاء الرسول والمسلمين هو وحده الذي يمكن ان يوصف بالغواية ولكن كل شاعر يسعى الى اثاره الشقاق واظهار التنافر ، يدخل في هذا المقصود وتنبه تابعون معرضون ومن ثم تخرج الآية من خصوصية السبب الى عمومية الموضوع دون ان تمس الشعر في ذاته او الشعراء انفسهم تماما كطبيعة الكلام بوجهه الحسنه والسيئه ، وكما قال الزهري من ان الامر لا يزيد عن « القول فيه ان الشعر باب من الكلام فحسنة كحسن الكلام وقبيحة كقبح الكلام » .

وعندما ننظر الى الوجه الاخر من الموضوع بعيدا عن الملايسات التاريخية ، نجد ان دلالة النص تركزت على الهيام في اودية القول وتشميماته وعلى القول دون الفعل . ولما كانت الآية كلا واحدا لا يمكن الفصل بينه ، ويعضبه يفسر البعض الاخر ، فان السياق العام منصرف الى الحديث عن النص القرآني وانه تنزيل من رب العالمين ولم تنزل به الشياطين ، فاذا كان لكل شاعر شيطان ، كما وقر في ذهنهم ، فان هذا لا ينطبق على الرسول . وهو يفرق بين طبيعة التكوين القرآني والبناء الشعري الذي

ثلاثة اتهامات ، تتحدث عن امر محدد ، عن حالة متميزة ، تحمل معها جانب التأثير الذي يتركه الشعر عن الاخرين ، وانسحاب التهمة على التابع كما لصقت من قبل على المتبوع .

ولهذه القضية وجهان كلاهما جدير بالابراز ، اولها الوجه التاريخي والثاني دلالة النص القرآني . وسياقه . الجانب التاريخي والذي لا يمكن اغفاله ، فهو مفسر وموضح وجزء من فهم النص ، فالعلم بالوسط القرآني وحوادثه واشاراته وعلاقاته له اهمية قصوى في التدبر والفهم .

ثاني الاخبار الموثقة والتي لازمت هذه الآية لتحد من اي تاويل ، فقد قال ابن عباس^(٣٧) : « والشعراء عبيد الله بن الزبيري ، واصحابه يقولون الشعر ، وان الغاوين هم الراؤون يرون عنهم » « ألم تر » ألم تخبر يا محمد « ان الشعراء يميمون في كل فن ووجه يذهبون ويأخذون يذمون ومدحون ويقولون في شعرهم مالا يفعلون ، وكلاما غاويان كذا الشاعر والراوي الا الذين آمنوا وهم حسان واصحابه . ولقد تناقل المفسرون هذا النص ، فالزهري مثلا يقول : « وقيل هم شعراء قريش عبيد الله بن الزبيري وهيرة بن ابي وهب وسافع بن عبيد مناف وابو عزة الجمحي ، ومن ثقب امية بن ابي الصلت قالوا : نحن نفعل مثل قول محمد وكانوا يهجونهم ويشتتم الهمم الاحراب من قومهم يستمعون اشعارهم واهاجيهم^(٣٨) » . ومعنى هذا ان الآية نزلت في شعراء معينين ، اوفي موقف محدد متعلق بالصراع الدائر لتثبيت اركان الرسالة ، ومن ثم لا تنسحب على ذوات الشعراء على العموم من حيث كونهم اصحاب فن ، لذلك يكون

(٣٦) امية ابن عباس في مثل هذه الأمور لا يكتفي عند دراسي التفسير ، انظر النص في تفسير ابن جرير ، حاشى كتاب الدر المنثور للسيوطي ج ٤ ص ١٠٣ - ١٠٤ .

(٣٧) الكشاف : ج ٣ ص ٢٢٣ وانظر كذلك الطبرسي في تفسيره هذه الآية .

(٣٨) البصري : م ١٩ ص ٧٨ ونشر هذا في ان ابن كثير في تفسيره وذكر ان هذه الآية مكاة وليست خاصة بشعراء الانصار ، وقوله فقال : الا الذين أشرا . استثناء يدخل فيه شعراء الانصار وغيرهم .

فالموقف الاسلامي يأخذ شكله التطبيقي من تلك الاحكام القولية والممارسات العملية التي يسنها الرسول الكريم ، فهي المدخل الذي يساعد على ازالة اي اجهام وينحي اي شك ، وكما ان آيات القرآن الكريم احيطت باقوال واجتهادات كثيرة فان اقوال الرسول واجهت الامر نفسه ، فمع انها وردت متنافسة متكاملة ويحكمها منطق محكم فان الانفراد بخبر دون آخر او وصول ببعض الكلام دون البعض الآخر ، او النظر ليه من غير جهته عند البعض كل هذا قد يسحب عليه رداء يجب الرؤية السليمة فالاقوال الطائفة تنتشر وتأخذ شهرة ويبقى الحق يبحث عن الاقوال المدافعة .

ان الشيء المؤكد الذي نبدا به هو ان الاخبار المتحدرة عن الصدر الاول تقول ان الصحابة لم تضطرب مواقفهم حول هذا الموضوع ، فكان الشعر ديدنهم ومحل سماعهم واستشهادهم . ولما ذهب هذا الملعب من قام الاسلام على اكتافهم ولا نظن انهم علموا غير الواقع القابل للشعر والمؤيد له المدرك لابعاده .

بين أيدينا الآن أقوال الرسول (ﷺ) من اوثق مصادرها نضعها لنرى الوجهة التي يمكن أن نخرج بها .
أولا : « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٣٨) :
« ان من الشعر حكمة » (٣٩) .
ويجانب هذا الحديث نذكر هذا الخبر « قال النبي عليه الصلاة والسلام - للعلاء بن الحضرمي : هل تروي من البيت شيئا فأنشده :
حي ذوي الأضغان تسب قلوبهم

يستمد من الخيال اشياء كثيرة ، أما هذا القول القرآني فيطابق المنطوق وما يعمل من معنى .
وعندما ننظر الى كلمة « الشعراء » فان هذا لا يشمل كل جنس الشعراء ولكنها تنجس الى جهتها المعينة ، وهي لا تمس فوات الشعراء على العموم الا بعد ان دمجهم باهل الغواية واعتبرتهم كلا واحدا . فالشاعر الذي يستهوي اهل الغواية انما هو يقول او يعبر عن غوايتهم ، واذا هام في اودية الكلام دون تحديد لخدمة هذا الاتجاه وقال ما لا يفعل . كل هذا يضع الشعراء في الجانب المذموم دون ان يشمل الحكم فن الشعر من حيث هو فن . وليس في القرآن ما يتعرض لهذا الفن كما لاحظنا . ولم يلم هؤلاء الشعراء لانهم قالوا الشعر ولكن لمحاربتهم بشعرهم الدعوة او تزيينهم الباطل . ويمكننا القول ان الله عز وجل عندما قال « قتل الانسان ما اكفره » لا يتصرف هذا القول الى جنس الانسان كله ، فهناك عباد الرحمن الذين مدحهم وكلامهم بعينه .

٢ - بين يدي الرسول :

حلقة القول لا تكتمل في هذا الموضوع الا بالاحاطة بقول الرسول وفعله ، ففيها تجلية لاية غمامة تحجب النظر الصحيح الى الموضوع بسياج من شك ، فالرسول ادرى واعلم بديقات القرآن ، فهو الذي هذا حسانا وابن ابي ربيعة ومن معها حينما هزمهم القول القرآني حول الشعراء ، بل انه قال لكعب بن مالك حين سأل « ان المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه والذي نفسي بيده لكأنما يوجههم مثل نضح النبل (٣٧) .

(٣٧) الدر المنثور ٩٩/٥ .

(٣٨) حلفنا الأساقيد اكفاهم بالاشارة الى المصادر ففيها هذه الأساقيد .

(٣٩) البخاري : باب الادب ج ٨ ص ٤٢ ونظر سنن أبي ماجه : كتاب الادب ص ١٢٣ وهناك رواية أخرى : « ان من الشعر حكمة » ابن ماجه ص ١٢٣٦ وروى أبو داود :

« ان من البيان سحرا وان من الشعر حكمة » ج ٥ ص ٣٧٧ .

هذه هي أقوال الرسول واضحة ناطقة بمعناها ولا يمكن أن تحمل على غير وجهها الصحيح ، فالرسول في هذه الأقوال يقف بجانب الشعر ويرعى الشعراء ، وينظر إلى الفن نظرة متسامحة من جهة ومقدرة لدوره من جهة أخرى . وهو في تقديره هذا يضعه في صف الحكمة التي يتصف بها أهل النوبة والعقل .

فجعل صلى الله تعالى عليه وسلم بعض الشعر جزءاً من الحكمة التي خص الله تعالى بها أنبياءه ووصف بها أصفياه . وأمتن عليهم بذلك إذ جعلهم مخصصين بها من قبله^(٤٥)

ونجده في الحديث الآخر يرتبط الشعر عنده بالصدق ، والصدق هنا من جهته الدينية التي يحرص عليها الرسول . وقد رأى أي في الشعر مدخلا للتدين ، فالقلق الروعي المشع في شعر ابن أبي الصلت كاد أن يدخله في زمرة المسلمين ، وقد استخدم الرسول كلمة « كاد » في هذا الحديث ، يوشك أن يدخله لولا ذلك الصراع التاريخي . ويعزز ما نذكر ما ذهب إليه العيني حينما ذكر أن شعر أمية ينشد بين يدي النبي (ﷺ) وبحبه وإن كان يريد أن يؤمن لولا العصبية والحزن على الأهل الذين قتلوا في القليب^(٤٦) فالشعر هنا كان معبراً عن الأرواح القلقة والمتشوقة للتدين ، أو لاعطاء تفسير مقبول لمسار الحياة . وقد كان أمية من أبي الصلت مؤهلاً لكي تصله الدعوة ، فإرادة الإيمان كاشفة فيه ولكن التعصب ومبررات الصراع والحزن على من قتل في

فقال النبي عليه السلام : إن من الشعر لحكماً^(٤٧)
٢ - قال النبي صلى الله عليه وسلم : « أصدق كلمة قالها الشاعر كلمة لبيد ألا كل شيء ما خلا الله باطل . وكاد ابن أبي الصلت أن يسلم »^(٤٨) وفي رواية أخرى : « أشعر كلمة تكلمت بها العرب كلمة لبيد : « ألا كل شيء ما خلا الله باطل » .

٣ - قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « حسن الشعر كحسن الكلام وتيسر الشعر كتيسر الكلام »^(٤٩) .

٤ - عن عائشة رضي الله عنها قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يضع لساناً منيراً في المسجد فيقوم عليه ييجو من قال في رسول الله (ﷺ) فقال رسول الله (ﷺ) : « إن روح القدس مع حسان ما نافع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم »^(٥٠) .

٥ - روى الترمذي أن النبي (ﷺ) حينما دخل مكة في عمرة القضاء وكان مشي بين يديه عبدالله بن أبي رواحة - وقيل كعب بن مالك - وهو يقول :
خلوا بني الكفار عن سبيله اليوم نضربكم على تنزيله
ضرباً يزيل الهام عن مقيله . ويهلل الحليل عن خليله

فقال له عمر : يا ابن أبي رواحة بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي حرم الله تقول الشعر ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : خل عنه يا عمر فلهي أسرع فيهم من نضح الثبل^(٥١)

(٤٠) المشع في علم الشعر ص ٣٢

(٤١) البخاري : باب الأديب ج ٨ ص ٤٣ صحيح مسلم ص ١٢ وما بعده وقد أجروه مسلم بتأليفه هذلة ، وانظر مستدرك الإمام أحمد ٢/٢٤٨ و ٢٢٤٣ وورد بهذه أسانيد ٤٥٨/٢ ، ٤٧٠/٢ ، وانظر ابن ماجه ص ١٢٣٦ .

(٤٢) فتح المقيس : ٤ ص ١٢٤ وعلق القرطبي نقلاً عنه أنه روى إسحاق بن عبدالله بن حزن الشامي وصحبه عن أهل كلام صحيح .

(٤٣) سنن أبي داود ج ٥ / ٢٨٠ ، وانظر سنن الترمذي ٢١٦/٤

(٤٤) سنن الترمذي ٢١٧/٤

(٤٥) ونذكر هنا قوله تعالى : « ولقد أتينا لقمان الحكمة أن يذكر الله .. » سورة لقمان - الآية ١٢ .

(٤٦) حصة القرطبي ج ٢٧ ص ١٨٣

ينجلي في النص الثالث والذي أجمل الرأي في الموضوع ، حين يكون القياس قائما على أساس أن الشعر كالكلام ، من جهة الحسن والقبح ، فحسن الشعر كحسن الكلام وقبحه كقبحه . ومن ثم يكون النظر الى الشعر من حيث هو فن وقالب قابل لما يسكب الفنان فيه ، فان كان حسنا فهو حسن وهكذا . وهذا المنطق الشامل هو الجدير بالنظر ، فكون بعض الشعر لا يماشي الفكرة الاسلامية لا يستدعي اسقاط الفن ، كما ان وجود الكفر بين بني البشر لا يستدعي اسقاط الفن ، ووجود القبح في الكلام لا يعني اسقاط فكرة الكلام وهكذا . وعندما نتجاوز هذه النصوص الجامعة سنجد في النصين الآخرين اشارة الى التطبيق العملي لهذه الفكرة ، فالموقف الايجابي هو دخول الشعر دخولا مباشرا في الدعوة ، فهو يصنع له متبرا في داخل المسجد يقف فوقه حسان مدافعا ومناخا ، فالطرف الأول الذي شاهدناه حينها وظف الكفار الشعر لخدمة موقفهم المعاني ، هذا يستدعي ليس فقط التحذير من الشعر ولكن لا بد من مواجهته بمثله ، ما دام هذا هو السبيل لردعهم وإيلاهم فنجد أنه عندما مشى ابن أبي راحة منشدا ، في النص الآخر ، ويتهر سيدنا عمر نجد أن الرسول يوقفه مشيرا الى أثر هذا الفن على الآخرين : خل عنك يا عمر فلهي أسرع فيهم من نضح النبل . . ان هذه النصوص الواضحة ناطقة صريحة لا تحتاج الى بيان .

ثانيا : أمياري ومواقف

يضاف الى الأقوال السابقة تلك الأخبار الكثيرة التي تستند وتكمل الأقوال السابقة فهي تحمل مواقف متعاطفة مع الشعر نضحتها متتالية فهي ناطقة بنفسها عن دلالاتها ومدار اتجاهاتها .

معركة بدر . كل هذا كان حاجزا حجب الرؤى عنه لقد كان طلب الايمان يختلف تماما عن مواجهته على صعيد الواقع . ولعل الاضافة الأخرى يقدمها لنا النص الثالث ، حينما يسمع الرسول شعر أمية فالرسول كان يتذوق هذا الشعر ويستحسن سماحه ، ويستزيد منه لأنه يلامس ذوق الرسول فهو يدور حول أفكار كان يسعى الى اقترافها . ولم يقف عند السماع العابر ، ولم يكتف بالبيت أو البيتين ، ولكنه يطلب الزيادة حتى سمع مائة بيت . وليس في هذا النص ما يشير الى الازفراء أو التحقير ، ما دام الأمر لا يمس العقيدة الدينية أو يصادم أفكارا اسلامية أو يمس المسلمين ، فسماع شعره وترديده وتذوقه أمر مطلوب الا ما استثنى منه ، وقد روى أن الرسول قد سمح برواية شعر أمية الا قصيدته الخالية . بل ان الرسول ينتقل بنا الى خطوة أخرى فلا يكتفي بالسماع والتذوق ولكنه يتجاوز هذا الى الاستحسان بل ويصدق عليه ، فما هو ابن عباس يروي من أن الرسول (ﷺ) صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم أمية بن أبي الصلت في شعره ، وقال : وجعل ونور تحت رجل يمينه واليسرى للأخرى وليث مرصود فقال رسول الله (ﷺ) : صدق وقال : والشمس تطلع كل آخر ليلة حتى الصباح ولو بها يتورد يأي لها تطلع لنا في رسلها الا معنبة وان لا يخلد فقال رسول الله (ﷺ) : « صدق » (١٧) .

وهذا التصديق لأمية ، ولغيره ، إنما هو يخضع للمنطق العام الذي تخضع له الفكرة الاسلامية ، والتي تمثل الموقف المضطرب من الشعر وغيره ، وهذا المنطق

ورفع بها صوته : أيتها أيتها . »^(٥٦)

٤ - حدثنا ابن مرزوق قال : ثنا أبو الوليد قال : ثنا شريك ، عن المقدم بن سريخ ، عن أبيه قال : قلت لعائشة رضي الله عنها : أكان النبي (ﷺ) يتمثل بشيء من الشعر ؟ فقالت : نعم ، من شعر ابن رواحة ، وربما قال هذا البيت .

ويأتيك بالأخبار من لم تزود^(٥٧)

٥ - حدثنا ابن أبي داود ، قال : ثنا الملقمي ، قال : ثنا أبو معشر البراء ، عن صدقة بن طيلة قال : حدثني معن ابن ثعلبة والحري بعدة ، قال : حدثني أعشى المازني قال : أتيت النبي صلى الله عليه وسلم ، فأنشدته :

يا مالك الناس وديان العرب
أني لقيت ذريه من العرب
خرجت أتمبها الطعام في رجب
أخلفت العهد ولست بالذنب
وهن شر غالب لمن غلب

قال : فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « وهن شر غالب لمن غلب »^(٥٨) .

٦ - روى أن منبلا الخزاعي ثم المصطلق قال : شهدت رسول الله صلى الله عليه وآله - وقد أنشده منشد قول سويد بن عامر المصطلق :

لا تأمنن وإن أمسيت في حرم
إن المنابا بكفني كل انسان
واسلك طريقتك ثمشي غير محتشع
حق تبين ما يعني لك المناب

إن الأخبار الواردة عن مواقف مختلفة للرسول تجاه الشعر كثيرة جداً ، وإذا وضع بعضها بجانب البعض الآخر سيكون أبغ من أي حديث آخر ، فصاحبها هو حامل الرسالة الذي يردك غفائها ولا يمكن بأي حال من الأحوال أن يقول قولاً أو يسلك سلوكاً متافياً لجوهر الدعوة ، خاصة وأن المصادر التي روت هذه الأخبار من الأصول التي يعتمد عليها أو ما يقترب منها في الرتبة ، فلتنظر وتنتبه .

١ - حدث عمر بن الشريد عن أبيه قال : « ردف رسول الله (ﷺ) يوماً فقال : هل معك من شعر أمية بن أبي الصلت شيء . قلت نعم . قال هـ . فأنشدته بيتاً فقال : هـ . ثم أنشدته بيتاً . فقال : هـ . حتى أنشدته مائة بيت . »^(٥٩)

٢ - يخرج الرسول إلى الخندق والمهاجرون والأنصار يمحرون في غداة فیری ما بهم من النصب والجوع فيقول : اللهم أن العيش عيش الآخرة فاغفر للأنصار والمهاجرة ، فقالوا مجيبين له :

نحن الذين بايعوا محمداً
على الجهاد ما بقينا أبداً^(٦٠)

٣ - حدث البراء رضي الله عنه قال : « كان النبي (ﷺ) ينقل التراب يوم الخندق حتى اغمر بطنه أو أغمر بطنه يقول :

والله لولا الله ما أهدينا
ولا تصدقنا ولا صلينا
لأنزلن مكنة علينا
وثبت الأقدام إن لاقينا

(٥٨) صحيح مسلم وشرح النووي : ١١/١٥ وما بعدها . جزاء : قال إن كان لیسلم أو لفلان كاد یسلم في شجرة . ورواه ابن ماجه ص ١٣٣٦

(٥٩) البخاري ج ٥ ص ١٣٧ - ١٣٨

(٥٠) السابق ج ٥ ص ١٤٠ والآيات لابن أبي رواحة .

(٥١) شرح دعاء الآثار : لأمام الطحاوي ج ٤ ص ٢٩٧

(٥٢) المرجع السابق ص ٢٩٩ (الطحاوي)

ونضرب هام الدار عين وننتمي
إلى حسب من جلد غسان باهر
ولولا حبسب الله قلنا تكبرما
على الناس بالحنين هل من مفاخر
فأحيؤنا من خير من وطىء الحمى
وأموأتنا من خير أهل المقابر^(٥٤)

٨ - ومثها ، ما حدثنا أحمد بن داود ، قال : ثنا
إبراهيم بن المنذر بن الحزامي ، قال : ثنا معن بن
عيسى ، قال : حدثني عبدالله بن عمر رضي الله عنه ،
عن نافع ، عن ابن عمر رضي الله عنه قال : لما دخل
رسول الله (ﷺ) عام الفتح ، رأى نساء يلمطن وجوه
الحيل بالخمير فتبسم فقال : يا أبا بكر ، كيف قال
حسان بن ثابت ؟ فأنشد أبو بكر :

صلمت بنيتي إن لم تروها
تثير النقع من كنفي كداء
ينازعن الأئنة مسرجات
يلطمهن بالخمير النساء
هكذا حدثنا أحمد بن داود ، وأهل العلم بالعربية
يرون البيت الأول على غير ذلك .
(تثير النقع موعدها كداء)

حتى تستوي قافية هذا البيت ، مع قافية البيت الذي
بعده^(٥٥)

٩ - قال الجرجاني : « وكان عليه الصلاة والسلام
يذكر لهم بعض ذلك كالذي روى من أنه صلى الله عليه
وسلم قال كعب : « ما نسي ريك ، وما كان نسيا ،

فكسل ذي صاحب يوما يفارقه »
وكسل زاد وإن أبقيته فإنا
والخير والشر مقرونان في قرن
بكل ذلك يأتيك الجديان
فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لو أدركته
لاسلم » ، فيكي مسلم ، فقال له ابنه : يا أبه ، ما
يكيك من مشرك مات في الجاهلية ! فقال : يا بني ، لا
تفعل فإي رأيت مشركة تلفت من مشرك غيرا من
سويد^(٥٦) .

٧ - حدثنا محمد بن علي بن داود ، قال : ثنا هيد
الحميد بن جعفر ، عن عمرو بن الحكم ، عن جابر بن
عبدالله قال : قال الأقرع بن حابس ، لشاب من
شبابهم « قم فاذاكر فضلك وفضل قومك » فقال :

نحن الكرام فلا حي يمدلنا
نحن الكرام وفينا يقسم الربع
ونظمم الناس عند القحط كلهم
من الشريف إذا لم يؤنس القحط
إذا أبهنا فلا يمدل بنا أحد
أنا كرام وهند القحط نرتفع
قال : فقال رسول الله (ﷺ) « يا حسان أجبه »
لقال :

نصبرنا رسول الله والدين عنوة
صل رغم عات من بعيد وحاضر
بضرب كايغاز الخاض مشافة
وطمن كالفواه القلاح الصوادر
ألسنا نخوض الموت في حومة الوفي
إذا صار برد الموت بين العساكر

(٥٣) أمالي المرتضى ج ١ ص ٣٦٨ .

(٥٤) شرح معاني الآثار : ج ٤ ص ٣٠٠ .

(٥٥) السابق ص ٣٩٦ .

١٣ - وحديث سعيد بن المسيب فقال : مر عمر بجهان وهو ينشد في المسجد فلمحظ اليه فقال : قد كنت أتشد وفيه من هو خير منك . ع (١٠٧) .

١٤ - حدثنا سليمان بن شعيب قال : ثنا يحيى بن حسان ، قال : ثنا ابراهيم بن سليمان التميمي ، عن حماد بن سعيد عن الشعبي قال : كنا جلوسا بفناء الكعبة أحسبه قال « مع أناس من أصحاب رسول الله (ﷺ) ، فكانوا يتناشدون الأشعار .

لوقف بنا عبدالله بن الزبير ، فقال : في حرم ، وحول الكعبة ، يتناشدون الأشعار ؟

فقال رجل منهم : يا ابن الزبير ، ان رسول الله (ﷺ) ، انما هم عن الشعر ، الذي اذا أتيت فيه النساء وتزدي في الأموات . ع (١٠٨) .

حدثنا ابن أبي عمر ان قال : ثنا أبو ابراهيم الترمذي ، قال : ثنا ابن أبي الزناد ، عن هشام بن عروة عن أبيه ، عن عائشة أن رسول الله (ﷺ) وضع لحسان بن ثابت منبرا ، في المسجد ، ينشد عليه الشعر ع (١٠٩) .

١٥ - قال ابن كثير في تفسيره : « روى الأموي في مغازيه ان رسول الله (ﷺ) جعل لمشي بين القتل يوم

شعرا قلته » . قال وما هو يا رسول الله . قال : أنشده يا أبا بكر فأنشده أبو بكر رضوان الله عليه :

زعمت مسخينة ان مستغلب رجا
وليسخلسن مغالب الغلاب ع (١١٠)

١٠ - قال العيني : روى الترمذي وابن شيبة من حديث جابر بن سمرة رضي الله تعالى عنه . قال : كان أصحاب رسول الله (ﷺ) يتذكرون الشعر وحديث الجاهلية عند رسول الله (ﷺ) فلا يباهمون ويما يثمن ع (١١١) .

١١ - وقال أيضا : « ان شعر أمية ينشد بين يدي النبي (ﷺ) ويحببه وأنه كان يريد أن يؤمن لولا العصية والحزن على الأهل السلبين قتلوا في الغليب ع (١١٢) .

١٢ - حدث هشام عن أبيه قال : « ذهبت اسب حسان عند عائشة فقالت : ألا تسبه فانه كان ينافع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقالت عائشة : استأذن النبي (ﷺ) في هجاء المشركين ، قال : كيف ينسى . قال : لا سلتك منهم كما تسل الشعر من العجيين . »

وقالت أيضا : انه كان ينافع ، أو يباهي عن رسول الله (ﷺ) ع (١١٣) .

(١٠٧) دلائل الأحبار : ص ١٢ وقد أورد عدة أخبار لم قال والأخبار فيها شبه هذا كثيرا والآخر به مستطوع ص ١٩ .

(١٠٨) مسند القاري ج ٢٢ ص ١٨٢ .

(١٠٩) السابق ص ١٨٣ .

(١١٠) البخاري ج ٥ ص ١٥٥ .

(١١١) سنن أبي داود : ص ٢٧٩ ونظر مراجعته للهمة ، ونظر كذلك شرح معاني الآثار للطحاوي ص ٢٩٨ .

(١١٢) شرح معاني الآثار ٤ / ٢٩٧ .

(١١٣) المرجع السابق ص ٢٩٨ .

القضية من جهة أخرى

وسط هذا الحشد من الأقوال والأخبار التي قدمت لنا الرأي الإسلامي وأضحوا ومطبقات على صعيد الواقع ، نقول وسط هذا يبرز لنا خبران يناقضان ، أو يقدمان وجهة نظر أخرى تثبت بها كثيرون ، فدارا على اللسن لأحبا يقدمان لنا الوجه الآخر المقترض في كل قضية .

الحديث الأول ذكرته كتب السنة ، قالت . قال رسول الله (ﷺ) : « لأن يمتلئ جوف رجل قبحا يره غير من أن يمتلئ شعرا » (٦٥) .

وفي رواية أخرى تراقف هذا الحديث مناسبة معينة ، قال « عن أبي سعيد الخدري قال بينما نحن نسير مع رسول الله (ﷺ) بالمرج اذ عرض شاعر ينشد فقال رسول الله خلوا الشيطان أو امسكوا الشيطان لأن يمتلئ رجل قبحا خير له من أن يمتلئ شعرا » (٦٦) .

هذا هو الأول . .

أما الثاني فقد انفرد به من أصحاب كتب الأصول الإمام أحمد في مسنده قال « حدثنا عبد الله حدثني أبي ثنا هشيم ثنا أبو الجهم الواسطي عن الزهري عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال قال رسول الله (ﷺ) « امرؤ القيس صاحب لواء إلى النار » (٦٧) .

إن الحديث الأول ورد في أصح كتب السنة -

يدرو وهو يقول « نفلق هاما » ، فيقول الصديق رضي الله عنه متعيا البيت :

... من وجسأل أصوة

علينا وهم كانوا أصق وأظلم (٦٨)
إن هذه الأخبار التي سقناها تكفيها لتأكيد تلك الرعاية وذلك الاهتمام الذين كان يوليهم الرسول (ﷺ) للشعر والشعراء ولا غمك أيضا إلا أن تشير إلى تلك النصوص التي كانت تذكر أن الرسول قد انحدرت عنه أقوال تندرج تحت الشعر ، وقد جاءت متفقة مع ما أثر عن كثير من العرب الذين ربما قالوا البيت أو البيتين تمثلا أحيانا أو واقعة من غير قصد .

يقول ابن كثير « وكذا ثبت أنه (ﷺ) قال يوم حنين وهو راكب البغلة يقدم بها في نحو المدو :

أنا النسبي لا كذب

أنا ابن عبد المطلب
ويعلق إن هذا وقع اتفاقا لوزن شعر جرى على اللسان من غير قصد إليه . ومثل هذا ما ثبت في الصحيحين مما ذكر أن الرسول (ﷺ) كان في غار فسطب أصبحه فقال (ﷺ) .

هل أنت إلا أصبع دميت

وفي سبيل الله ما لقيت

وكل هذا لا ينبغي كونه (ﷺ) ما علم الشعر ولا ينبغي

له فإن الله تعالى لما علمه القرآن العظيم (٦٩) .

(٦٣) تفسير ابن كثير ٥٧٨ وانظر التاريخ ٢/ ٢٩٢ ويلاحظ هذا ما رواه القرطبي من أن الرسول قال :

إن تعذر إليهم تغلر جيا فلي جلدك ما لنا

القرطبي : ٧١/٧ وهو بيت جاهلي ورد على لسان (ﷺ) انظر ابن كثير ٤/ ٢٢٦ .

(٦٤) تفسير ابن كثير ٥٧٩ .

(٦٥) صحيح البخاري . باب الأدب ص ٤٥ . صحيح مسلم : كتاب الشعر ص ١٤ ابن ماجه ص ٣٦ ، ٧٢ ، ٣٧ . ورواية مسلم : « لأن يمتلئ جوف الرجل قبحا يره غير

من أن يمتلئ شعرا » وله رواية أخرى ... جوف أحمدكم قبحا يره . ص ١٥

(٦٦) صحيح مسلم . شرح الترمذي باب الشعر ص ٥ والخبر نفسه في مسند الإمام أحمد : ٤٦/٣٨/٢ مع عونه الرجل بدلا من رجل .

(٦٧) مسند الإمام أحمد ٢/ ٢٢٨ .

واضح السوء . ولانه معلم يهدي من معه لا بد أن يتهتز كل فرصة للتعليم والمداية ، وحيث نستطيع القول أن هذا التعليق ليس على فن الشعر ولكن للسوء الذي فيه ، فليس من تجاوز الحد أن نقول أن النبي عنه هو كل ما يحس الروح الاسلامية أيًا كان مصدره . والاحتمال الثالث أن يكون القول متوسطا لا يحمل خيرا مباشرا أو شرا واضحا فليس هناك من سبب يدعو الى مثل هذا التعليق الحد .

ونحن لا نقول هذا نقولا - وإن ارتضاء العقل السليم - ولكننا أيضا نجد بين أيدينا ما يؤيد ما نلعب اليه مباشرة ، حيث تضع هذا الحديث في موضعه الطبيعي ويسهل فهمه على وجهه الصحيح .

روى الامام الطحاوي قال : « قيل لعائشة رضي الله عنها ان أبا هريرة يقول « لأن يمتلأ جوف أحدكم قبحا ، خير له من أن يمتلأ شعرا » فقالت عائشة رضي الله عنها : يرحم الله أبا هريرة ، حفظ أول الحديث ، ولم يحفظ آخره ان المشركين كانوا يهاجمون الرسول ﷺ فقال : لأن يمتلأ شعرا ، من مهاجمة رسول الله ﷺ . »

هذا أول . .

أما الثاني « فقد » حدث على بن عبد العزيز البغدادي عن أبي عبيدة ، سمع يزيد عن القطامي عن الشعبي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لأن يمتلأ جوف أحدكم قبحا خيرا من أن يمتلأ شعرا » يعني من الشعر الذي يحجي به النبي ﷺ » (٦٨)

اذن فلهذا الحديث وجهته التي يتصرف اليها بعيدا عن التعميم الذي وضع فيه ، وحيث يصح لفن الشعر مكانته اللائقة داخل إطار المفهوم الاسلامي الخاص .

البخاري ومسلم - بجانب سنن ابن ماجة ومسنده أحمد ما يرفعه الى درجة عالية من الثبات . ولكن هذا لا يعني ان الأمر يتوقف عند هذا الحد ، فهذا يدعو الى النظر والتعميق قبيل التسليم بالأمر ، فنلجأ لتأمله في صورته الحالية نجد أن هناك ما يدعو الى التسؤل فنعبه مطلق عام قد ينصرف الى الشعر عامة « شاعر ينشد » و « لأن يمتلأ جوف الرجل قبحا يره خير من أن يمتلأ شعرا » .

وهذا النص المطلق الذي اذا أخذ على إطلاقه سيصدم - حتما - الاختيار والنصوص الكثيرة التي حشدناها والتي تناقضه ، لأنها تحترم بعض الشعر وتشجعه ونظر ، وهي قاطعة الثبوت أيضا ، وكثيرها تقع من أساقطها أو تقيدها بسهولة ، فالسؤال اذن يفرض نفسه هو : كيف كان الرسول ﷺ يشجع ويمتنع في مواقع متصلة ثم يأتي هنا لينفرد ويمنع ، اذا لم يكن في نفس الشعر المسموع ما يدفعه الى مثل هذا القول ؟ وحاشا أن يكون الرسول متناقضا مع أحكامه وأقواله وأفعاله السابقة .

اذن ، ما الأمر ؟

لننظر الى الحديث وما أحيط به من اخبار ، ومن حقا أن نربط بينه ومناسبة ورفع هذه للناسبة الى القرينة الموجبة لعنايه . لقد قالوا انه عندما كان الرسول يسير مع صحبه عندما سمع شاعرا ينشد ، ومن المفترض أن الأمر بين حالات ثلاث : أما أنه قد سمع شيئا حسنا ولا يمكن أن نقول أو نقبل أن يكون تعليق الرسول ﷺ على كلام حسن بأن القبح خير منه وهو الذي قال : ان من الشعر الحكمة . وقد يكون سمع ما يكره ، أو قولا سيئا

(٦٨) شرح معاني الآثار ٤ ص ٢٦٦ وانظر هذا الحديث ج ١٧٩/٢٢ .

وهذا حق من الحقوق ، فلكل دعوة أطرها التي تمحصر عليها .

ومع ذلك نقول ان هناك من حاول توجيه هذا الحديث حتى ضمن الاطار الأول الذي وضع فيه ، فان اصحاب النظر ابتدوا وجهة نظر بعيدة عن التوجيه الذي قدمه لنا تفسیر السيدة عائشة للحديث ، فقد قال أبو عبيدة : « ان وجهه ان يمثل قلبه حتى يشغله عن القرآن اذكر الله ، فاذا كان لقرآن والعلم الغالب فليس جوف هذا عندنا بمثلثامن الشعر » (٦٩) وانه لقول حسن !



ويبقى الحديث الآخر تعليق الرسول ﷺ بشأن امرىء القيس - وهذا ينضج لما ينضج له الحديث الأول من جهة أنه لا يمكن أن ينهض لفسط كل الأعبار السابقة ولا بد أن في نفس التعرض ما يدعو الى هذا القول .

ولكننا ننبه كذلك الى قضية عقائدية ، والاجابة عليها تشمل أسرار القيس وغيره . ان هذا الشاعر جاهلي ، لم يدرك الاسلام ، ومن ثم لم يبلغ بالدعوة ، فلا يختلف وضعه عن الجاهليين الذين ساءوا قبل الاسلام ، الذي لم يبرز نوره بعد ، فهل هؤلاء يصفون بنفس صفة الكفر ويلزمون بالاسلام مثلهم مثل الذين أدركوه أم أهم يصاملون على أساس الديانات السابقة ؟ . أو أنهم يمثلون أجيالا ما بين دينين ؟ .

على كل لن نخاطر بالاجابة على أسرار تلك علما فيه ، ولكن الذي نؤكد أنه الحكم على امرىء القيس

هنا ليس لكونه شاعرا ولكنه كائنات جاهلي ينضج لما ينضج له الجاهليون من أحكام - والله أعلم أين يضع خلقه .

أما هذا الحديث فان من حقنا أن نستعين بذوي العلم في شأن تخريجه ، ولنا كذلك أن نركن الى رجل يطعن اليه المؤمن حين تتحقق عنده شروط البحث العلمي الدقيق في دراسة الحديث وتحليله من الشواهد ، يقول الشيخ أحمد شاكر (٧٠) حين ذكر ابن قتيبة هذا الخبر !

« وقد ذكره النبي ﷺ فقال « وهو قائد الشعراء الى النار » وفي خبر آخر « معه لواء الشعراء الى النار »

« قال ابن الكلبي : أقبل قوم من اليمن يريدون النبي ﷺ ، فضلبوا ووقعوا على غير ماء فمكثوا ثلاثا لا يقدمون على الماء ، فجعل الرجل منهم يستلدي بغير السم والطلع ، فبينما هم كذلك أقبل راكب على بعير ، فأتشد بعض القوم يبيتين من شعر امرىء القيس : لما رأته . . . البيتين » ، فقال الراكب : من يقول هذا الشعر ؟ قال : امرؤ القيس ، قال : والله ما كذب ، هذا ضارح عندكم ، وأشار لهم اليه ، فأتوه فاذا ماء غدق ، واذا عليه العرمض والظل يفيء عليه ، فشربوا منه وأرتووا ، حتى بلغوا النبي ﷺ فأخبروه ، وقالوا : أحيانا بيتان من شعر امرىء القيس ، فقال النبي ﷺ : « ذاك رجل مذكور في الدنيا شريف فيها ، منسي في الآخرة خامل فيها ، يحى يوم القيامة معه لواء الشعراء الى النار » .

وقد علق الشيخ على هذا الحديث قائلا : - هذه القصة نقلها عن المؤلف أيضا في عيون الأخبار ١ :

(٦٩) سنن أبي داود : ٧٦/٥ .

(٧٠) لما أن تعطين لنا هذا الشيخ الجليل ، فما من رجل استطاع أن يقدم السنة كما عدها في إخراجها لسنة الإمام أحمد رحمه الله وجزاه خيرا .

يبين من شعره فيها ذكر ضارح - ماء من مياه العرب - فقال رسول الله ﷺ : ذلك رجل مذكور في الدنيا منسي في الآخرة يعني يوم القيامة معه لواء الشعراء بقودهم الى النار . رواء الطبراني في الكبير من طريق سعد بن فروة بن عفيف عن أبيه عن جده . ولم أر من ترجمهم . وانظر تمجيد المنفعة ٤٧٢ - ٤٧٣ ولسان الميزان ٣ : ١٨١ و٦ : ٣٥٩ والكنز والأسماء للدولابي ١ : ١٣٧ والمتنبي على الجوامع الصغير ٢ : ١٧٦ رقم ١٦٢٤ و١٦٢٥ . ورواه الخطيب في تاريخ بغداد ٩ : ٣٧ باسناده عن أبي هفان المهزومي عبد الله ابن أحمد بن حرب الشاعر عن الأصمعي عن ابن عون عن محمد - يعني ابن سيرين - عن أبي هريرة عن النبي ﷺ : « امرؤ القيس قائد الشعراء الى النار » وهو غير باطل ، كما قال الحافظ ابن حجر في لسان الميزان ٣ : ٢٤٩ - ٢٥٠ و٦ : ٤٤٩ . (٧١)

ان هذا التخریج يعني بفرض الباحث عن الحقيقة ، فقيه توضيح لما تريد على أساس من علم الحديث وتمييزه ونقد رجاله .

ثانيا : ضعف الشعر

كان حديثنا السابق عن العلاقة بين الشعر والاسلام ، وفي عرض هذه العلاقة كانت محاولة لتبيين رأي القرآن والرسول ﷺ في الشعر . وهذا الرأي على جلاله وخطورته لا يمنع من أن نضع السؤال الثاني أمامنا متساكين : هل حافظ الشعر على مستواه أم دب فيه الضعف بعد أن ظهر الاسلام ؟ !

من الواضح أن الآراء التي عرضنا طرفا منها فيما سبق

١٤٤ : ١٤٤ عن ابن الكلبي ورواها صاحب الاغانى ٧ : ١٢٣ في قصة أخرى باسناده عن عبد الله بن جعفر ، ونقلها ياقوت في البلدان ٤٢١ - ٤٢٢ ثم قال « هذا من أشهر الأخبار » . وهي مشهورة عند الأخباريين والأدباء ولكنها غير معروفة عند المحدثين ، وهم الحجة فيما ينسب الى رسول الله ﷺ من الأخبار ، فاني لم أجد أحدا منهم رواها أو أشار اليها . الأحديث « امرؤ القيس صاحب لواء الشعر الى النار » فقد رواه أحمد في المسند ٢ : ٢٢٨ من حديث أبي هريرة مرفوعا الى النبي ﷺ ، وهو حديث ضعيف جدا ، ذكره ابن كثير في التواريخ ٢ : ٢١٨ عن المسند وقال : « هذا منقطع ، وورد من وجه آخر عن أبي هريرة . ولا يصح من غير هذا الوجه » . ورواه أيضا الزبار ، كما في مجمع الزوائد ٨ : ١١٩ وجمع الفوائد ٢ : ١٦٨ واسبابه عند أحمد « ثنا هشيم ثنا أبو الجهم الواسطي عن الزهري عن أبي سلمة عن أبي هريرة « وأبو الجهم هذا يذكر في بعض كتب الرجال باسم « أبو الجهم الأيماني » وهو مجهول ، وضعفه أبو زرعة السرازي وقال ابن عدي : « شيخ مجهول لا يعرف له اسم ، وشيخه منكر ، ولا أعرف غيره » وقال ابن عبد البر « لا يصح حديثه » . وفيه علة أخرى أنه موقوف على أبي هريرة ، فقد رواه البخاري في كتاب الكنى المطبوع في حيدر آباد ١٣٦٠ ص ٢٠ برقم ١٥٤ قال : « أبو الجهم الأيماني ، قال مسدد : نا هشيم قال : نا شيخ يعني أبا الجهم عن الزهري عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال : صاحب لواء الشعراء الى النار امرؤ القيس ، لأنه أول من أحكم الشعر ، « وفي مجمع الزوائد ١ : ١١٩ » عن عفيف الكندي قال : بينا نحن عند النبي ﷺ إذ أقبل وفد من اليمن فذكروا امرؤ القيس بن حجر الكندي ، وذكروا

حجر ، طرفة بن العبد ، ليبد العامري وأسبأ أخرى كثير - معروف ، وبعض هؤلاء شهد أول هذه المرحلة وآخرها ، بل عاش بعضهم زمنا بطول ويقصر في الاسلام ، فهذا ليبد قد عاش حتى عهد معاوية ، ويلحق به أيضا شعراء آخرون ، ولكن من الواضح أن الأعشى هو آخر هؤلاء الاعلام ، وأنه يمثل استمرار هذه اللروة حتى وفاته سنة ٧ هـ .

نحن - اذن - أمام عصر فني تمتد حتى هذا التاريخ المحدد ، فوفاء الأعشى ثابتة معروفة وقد ظل يقول الشعر الجليل المنسجم في قيمه ونظامه ومنظومه مع العصر الجاهلي .

وهناك مرحلة أخرى يعتبرها الدارسون ومؤرخو الأدب القمة الثانية بعد العصر الجاهلي وانما مساوية له أو أعادت الشعر الى رونقه وهي المرحلة التي اصطلح على تسميتها بالعصر الأموي ، وهذا العصر - من منظور سياسي - يتبدى بسنة ٤٠ هـ .

ولا يختلف الأمر عند النظر الفني ، فان الاضطراب أو الثلاثة العظام في هذا العصر - قد ولد سنة ٢٠ هـ . وفي السنة نفسها ولد الفرزدق (٧٣) ، فهنا - اذن - بدأ يقولان الشعر حول هذه الفترة فأعادا - حسب الزعم السائد - للشعر رونقه وقوته .

يؤكد هذا تلك الحكاية المشهورة مع الامام علي حنينا أبي به والده اليه فقال الامام : من هذا مملك . قال : ابني ، وهو شاعر فقال له : « علمه القرآن ، فانه خير من الشعر » وقد كان الفرزدق يقول : « كنت أجيد الهجاء في أيام عثمان » . وهذه الاخبار تسبق تلك الفترة المحددة بسنوات خمس على الأقل .

قد وضحت المحورين الاساسيين اللذين دارت حولهما القضية : -
فراى يقول : ان الاسلام أضعف الشعر ، وهو يرى أن الشعر الجاهلي قد بلغ قمته قبيل الاسلام ثم دب فيه الضعف ليعود بعد ذلك في عصر بني أمية الى سالف عهده ...

ورأى آخر يقول : ان الشعر لم يضعف لان الاسلام وقف بجانبه ، وقد روى شعر كثير يؤكد هذا النمو في الشعر ...

ان كلا الرايين يربطان بين الشعر والاسلام ، متساينين حقيقة الشعر ذاته ودون تحقيق لما هو موجود فعلا من نصوص ، وقد تجاهلا أيضا النظر الى نوعية الترابط ، متساينين أو واضعين جانبها طبيعة الدين من جهة وطبيعة الفن ومراحله وتمايز هذه المراحل .

علينا أولا ، اذا أردنا أن ندخل للموضوع دخولا علميا سليما ، أن نحدد الأرضية التي يدور حولها الجدل لنعرف موقع اقدامنا على بساط الزمن المقصود ، ونتمسك حقيقة هذه الآراء لنرى صدق المقولة على صعيد الواقع الحقيقي لا المفترض ، فان تحديد هذه المرحلة هو الذي يحصر النقاش في عيطة الطبيعي .

هناك اتفاق لا يتسلل اليه الشك على أن العصر الجاهلي يمثل أحد للمراحل المعالية القيمة في الادب العربي ، ويزداد التركيز على المرحلة القرية والمتداخلة مع أول العصر الاسلامي ، ويعتبرونها هي ذروة ذلك العصر حيث اجتمع في زمن متقارب أعظم شعراء العصر فيما بين ٥٣٠ م الى ٦٢٠ م تقريبا عاش كل من امرئ القيس ، زهير ، والنايف ، الأعشى ، (وهؤلاء هم طبقة ابن سلام الأولى) ، وضع بجانبهم أوس بن

الشعر على سجيته وطريقته الى ما بعد استقرار الاسلام واستمرار دعوته . وهذا واضح عندما يستعرض المرء اسماء الشعراء الجاهليين الذين امتد بهم العصر بعده بقليل أو كثير .

ومن جهة أخرى فإن شعراء العصر الأموي العظام لم ينتظروا حتى سنة ٤٠ هـ فكثير منهم أئثرى المرحلة الأخيرة من هذه الفترة المعينة فليس من المعقول أن شاعرا مثل ابن قيس الرقيات والذي ولد سنة ١٢ هـ يتصور حتى يبلغ الثامنة والعشرين ليقول الشعر ، وكذلك آخرون .

إن إهمال هؤلاء وأولئك إنما هو إهمال متعسف بمعنى أن هذه الفترة الزمنية قد اختصرت من جهتين !! . . . وهناك تنبيه آخر واجب ذكره ، فنقول إنه ليس هناك في تاريخ الشعر من عطف مستور يحافظ فيه الشعر دائما على سوية واحدة من النضج ، ففي كل الآداب العالمية تسير الخطوط متعرجة بعضها يعطى بشاعر كبير أو أكثر فيرتفع مع هؤلاء من حورهم ، فإذا العصر كله على قمة سامقة تقاس بها العصور . هذه هي الأزمات التي تولد فيها العظام : أمروء القيس وصحبه واسخيلوس ويوريبليس وسوفوكليس . أو تبرز شخصية فلسفة مثل المتنبي وشكسبير ، حيث يرتفع هذا العصر الى المستوى الذي يصعب على الفترات الأخرى أن تصل اليه مهما كان فيها من نضج في أو شعر متميز . وعندما ننظر ونقارن نجد أن هذه التغيرات الطبيعية سائلة في كل عصر .

والأفضل نستطيع القول إن الفترة الناضجة الممتدة من بداية العصر العباسي وحتى زمن المرعي أي طوال ثلاثمائة عام ، هذه الفترة الناضجة - هل خلت من فترات أطول من هذه الفترة التي نتحدث عنه ، فتأخر الشعر عن مستواه السابق والملاحق ؟ (٧٣) .

ونضيف الى هذا أنه قد سبق هليل بن قيس الرقيات . ولد سنة ١٢ هـ ولحقها كل من عمر بن ربيعة سنة ٢٤ هـ وجبرير سنة ٣٠ هـ ، وجانب هؤلاء حشد كبير لا يحيط به الدارس عددهم إذا أراد فالعصر الجديد بدأ في هذا العام - سنة ٤٠ هـ - قريبا عينا الشعر من جديد ، هكذا قالوا ، وهذا حق ولكنه لا ينبغي أن هناك جفا آخر . .

أمامنا الآن تاريخان : الأول ٧ هـ

الثاني ٤٠ هـ .

وبينهما ثلاثون عاما هي السنوات العجاف في تاريخ الشعر العربي ، حيث انظرت الى الشعر الكثير والجيد وخلت من الشعراء الكبار ، فضحك الشعر وتأخر عما استبدى مثل هذا الجدل الكثير حول هذه القضية . من حقنا - أولا - ان نختصر الفترة الزمنية الى ما دون هذه المدة . فمن المفترض أن الشاعر الجاهل لم يتوقف عن قول الشعر بمجرد أن برزت الدعوة الاسلامية ، فمن لم ينضو تحت لواء الاسلام استمر على سجيته في قول الشعر تبعا للتقاليد الفنية التي اعتادها وألفها فليس ثمة سبب شخصي أو فني يدعو الى التغيير . وهذا ما نلمسه في القصائد التي قيلت في الرسول ﷺ - قصيدة الأعشى مثلا - أو بين يديه مثل قصيدة كعب بن زهير . وإذا كان المستوى العام أقل من أن يصل في مجموع شعر الشاعر الى سوية ذلك الشعر السابق فهذا خاضع لمؤثرات كثيرة لا لسبب معين ، وإذا كانت قصيدة الأعشى جيدة فلأن شاعرها كبير ، أما إذا كانت أقل من مستواه العام فقد تكون الأسباب كثيرة ، وإذا كان ثمة سبب فليس هو الاسلام حتما . وليس هناك من يشك في تميز قصيدة كعب بن زهير .

وهناك شعراء جاهليون آخرون استمروا ينظمون

(٧٣) لهذا بصورة رئيسة في هذا الترتيب على كتاب تاريخ الأدب العربي : لدم فروخ والسيدة الفريضة تلمي الأثرية .

الخنساء قبل سنة ٤٢/٢٤ - كعب بن مالك الأنصاري -
حسان بن ثابت ٦٠ هـ - الحطيئة سنة ٥٩ هـ - سويد بن
أبي كاهل سنة ٦٤ - ٦٥ هـ - النابغة الجعدي سنة
٦٥ هـ - وهناك أسماء أخرى اسمناها .

الثابت ان هؤلاء كانوا في قمة نشاطهم الفني في هذه
الفترة التي نتحدث عنها - اذن فهي حافلة بشعر كثير ،
ولا شك في هذا ، فهي مع قصرها تطاول انحصب
فترات الأدب الأخرى .

ومع ذلك ، فالكثرة لا تعني الجودة ، وهذا حق ،
فاذا سلمنا أولاً ان هناك شعراً كثيراً فنكون قد اجتزنا
عقبة الندرة فقط ، وهذا امر حسن ويبقى بعد ذلك
النظر في الجودة . وقد أكدت في تبهيي السابق ان بروز
القسم العالي مجد لا يظفر به الا في لحظات قليلة من
الزمن ولا نريد ان نتناقص فلتات الدهر . ولكننا نقبس
النظير بما يشابه فنحن ليس لدينا الا متني واحد مثلاً ،
وهل جادت عصورنا المتعاقبة بغير محري واحد . ان
هؤلاء العظام هم وحدهم الذين اعطوا عصورهم نورا
استضاء به شعراء اجيالهم ، ونعتقد ان المنتهي لم يقص
حل من حوله كما كان يقال ولكنه هو الذي وهبهم فرصة
الظهور الحقيقية . .

وعندما نعود الى هذه المرحلة التي نتحدث عنها
فسنجدتها تحوي أكثر من شاعر متميز وخالد لم يشك
احد في نباهة شعره ، ولنختر من القائمة السابقة بعض
الاسماء لنرى . اننا نلتقي بكل من : كعب بن زهير
الحطيئة والخنساء وحسان والنابغة الجعدي والشماخ
وعروة بن حزام ويتمم بن نويرة وابو ذؤيب . وهؤلاء
يمثلون مستويات عالية في كل تاريخ الادب العربي ، ولا
يرتفع الى مكانتهم شعراء كثيرون ينتمون الى فترات
عالية النضج . وإذا أضفنا اليهم شعراء الفترتين السابقة
واللاحقة نجد ان المرحلة نهضت بشعرائها وبأخريين
ايضا . .

فمن المقبول - اذن - بل من الطبيعي ان تتفاوت
الدقات الفنية بين المصور تبعاً لطروفت كثيرة ، وأحياناً
تكون متكررة . ومن ثم فلا يمثل هذا اي اخلال في
مسيرة الفن وتطوره ، ولا يعني هذا اننا نتلمس احذار
اولية ومشروعة للقول او التسليم التام بضعف الشعر
وتأخره فنحن لا نزاع نبحت عن منبع تلك الصورة
القائمة التي اسماها باحثون كثيرون وسرى ان كانت حقاً
أم ان القضية وجهاً آخر جديراً بالنظر .

بعد ان اختزلنا هذه السنوات الى حلما للمقول
ووضعناها في إطارها الخاص في خط سير التطور الفني لنا
الآن أن ننظر فيها من الداخل لنرى ان كانت فترة صدر
الاسلام غلت حقاً من الاسماء الجديرة بالاعتبار أو أن
النشاط الشعري تضاعف دون الحد المقبول بالنسبة
للمصور الفنية الأخرى .

لا نستطيع القول أننا ستقوم بدراسة فنية مستقصية
مقارنة كي نزيل اللبس والايهام ، فهذا امر يفوق طاقة
الفرد ، فحسبنا ان ننظر عتكمين الى امر سخف في الأذهان
عن بعض شعر هذه الفترة والمكانة التي حظوا بها
متفردين دون عصورهم . وسنكتفي بلفت النظر الى مثل
هذه الاسماء التي كانت تحمل على عاتقها اراء تلك
الفترة وهذه بعضها .

عبد الله بن أبي ربيعة سنة ٨ هـ - عبد الله بن
الزبيري سنة ١٥ هـ - أبو غراش الهذلي في خلافة عمر -
العباس بن مرداس سنة ١٨ هـ - الأغلب المجلي سنة
٢١ هـ - عسر بن معدني كرب سنة ٢١ هـ - زيد
الحليل - كعب بن زهير سنة ٢٦ هـ - حميد بن ثور -
ادرك خلافة عثمان - المفضل السعدي ت أيام عثمان -
أبو ذؤيب سنة ٢٨ هـ - أبو عجمن سنة ٢٨ هـ - أبو زيد
الطائي سنة ٣٠ هـ - عروة بن حزام سنة ٣٠ هـ - متمم
بن نويرة سنة ٣٠ هـ - الشماخ بين ٣٠ و ٣٢ هـ -
سحيم عبد بني الحسان قتل أيام عثمان على الأغلب -

لان شعره ، وطريق الشعر هي طريق الفحول ، مثل امرئ القيس وزهير والنايفة ، من صفات الديار والرحل ، والهجاء والمديح ، والتشبيب بالنساء ، وصفه الحمر والخيل والافتخار فاذا ادخلته في باب الخير لان (٧٤) .

لا نريد ان نقلل من أهمية هذا الرأي أو نعارضه ، إنما الرغبة قد تدفعنا الى فهم الاسباب الموضوعية والفنية التي تكمن وراءه ، مع اننا لا نسلم تسليما تاما بهذه المقولة بالنسبة لحسان بن ثابت على وجه الخصوص ، وقد تكون صحيحة بالنسبة لآخرين ، اما حسان فقد ظلم فيها ، فلم يكن شعره في هذه المرحلة بالسوء الذي يصور به ، فله أكثر من قصيدة جيدة تشي بشاعريته ومقدرته المستمرة . وإذا كان هناك خلل فمرده يعود الى هذا الطريق الجليل الذي راح يروده وحيدا يصنع فيه تقاليد جديدة نامية .

ونص الاصمعي نفسه يوضح توضيحا مباشرا هذا الضعف الذي لحقه ، حينما استشهد بالذين البادي في رثائه للرسول وحمزه وجعفر وغيرهم ، وأن الطريق هو طريق الفحول من أمثال امرئ القيس وزهير والنايفة ، في وصفهم للديار والرحل والتشبيب بالنساء وصفات الحمر الخ . فهذه المقارنة فيها كشف للامر كله . فمن المؤكد أن حسانا كان شاعرا كبيرا يحسن القول في فن المدح والرثاء ، فقد كان يكتب كما كانوا يكتبون ويعود كما لاحظنا في كثير من قصائده التي قالها في الجاهلية ، ليس هو صاحب القصيدة البتة أو البتارة التي برزت القصائد . فعندما سمع عمرو بن الحارث قصيدته الالامية :-

الله در عصابة نادمتهما
يسوما بجلق في الزمان الاول

وعندما نحتكم الى دارس متميز مثل ابن سلام في طبائعه التي استخلص فيها الفحول عتكبا الى علمه وذوقه وما اجمع عليه الدارسون نجد قد وضع هؤلاء في المقدمة ، فقد جاء كل من كعب والحطيطة في الطبقة الثانية من فحول الجاهلية . وجعل متمم بن نويرة اول طبقة اصحاب المراثي وثناه بالحنساء . وجعل حسان بن ثابت اول شعراء القرى والنايفة الجعدي اول رجال الطبقة الثالثة من فحول الجاهلية ، وفي الطبقة نفسها الشماخ بن ضمرار .

ولا تختلف النظرة عن غير ابن سلام من الباحثين وهي نفسها عند العصور المتلاحقة فهؤلاء لا تزال قصائدهم تمثل النماذج التي يعتد بها مهما اختلف الاتجاهات والمذاهب .

لنا إذن ان نطمئن الى حقيقتين :

الأولى : ان تلك المرحلة لم تخل من شعر كثير .

الثانية : ان بعض شعراء هذه المرحلة يفتقرون في مقدمة شعراء العربية على عر العصور .

فهل من حقنا - بعد ذلك - القول انها مرحلة ناضبة ضعف فيها الشعر ؟!



ويبقى بعد ذلك وجه آخر للقضية يمثل اقوال متناثرة تشير ، ليس الى ضعف الشعر في هذه المرحلة ، ولكنها تقارن بين مرحلتين في شعر الشاعر ، ويكون الدين طرفا فيه ، وهنا تلاحظنا كلمة الاصمعي المشهورة حينما علق على شعر حسان بن ثابت قال « وطريق الشعر اذا ادخلته في باب الخير لأن ، الا ترى ان حسان بن ثابت كان حلا في الجاهلية والاسلام ، فلما دخل شعره في باب الخير من مراثي رسول الله ﷺ وحمزة وجعفر وضمران الله عليها ،

فقال :- « هذا وأبيك الشعر لا ما يعلناني به منذ اليوم ،
هذه والله البتة التي قد برزت المداخل » (٧٥) .

هل تغيرت قدرته أم أن هناك أسبابا تحتاج إلى تفسير
أو أنها توضّح لنا هذا اللين الذي أشار إليه
الاصمعي ؟ .

قبل الإجابة على هذا السؤال لا بد من وقفة يفرضها
الواجب أمام هذا الحكم الخطير الذي طرحه
الاصمعي ، فليس من المقبول القول بتعارض الفن مع
الحقير ، فهذا خطأ من قيمة الأبداع الفني وهو حكم يفترض
إلى الدقة حينما يخرج من التخصيص المقبول إلى
التعميم ، وهو ، في الوقت نفسه ، يفسح المجال
للمتنبس : الشر . ولا نريد أن نستورد وراء الحديث
عن الفن ودوره الخلفي والاجتماعي الطليعي . بل أننا
نرد الاصمعي إلى نفسه حين نسأله عن دوره المتميز في
حمل الشعر ورواياته وإفاعته ، ألم يلمس ذلك الجانب
الداعي للخير الذي حمله بعض شعراء الجاهلية مثل
زهير بن أبي سلمى بل ونسأله عن وضعه لاصمعيته هل
هي حامله للشر ، الذي لا نشك فيه أن فيها خيرا
كثيرا . وهو أقدر من غيره على تبيينه .

إن دور الشعر المتميز يعني أنه يعمل في كثير من
الاحوال خيرا كثيرا وإن هذه قضية بدئية مناقشتها لا
تخلو من فائدة التفكير وإن أضاعت الوقت .

إن تفسير هذا اللين لا يأتي من هذا الحكم المتسرع
ولكنه يحتاج إلى النظر الدقيق إلى مثل هذه الأمور ،
والذي نعتقد أن سببه طبيعة التناول نفسها والجهة التي
تتبع منها قيم المدح ، فإذا كان للجاهلي في بعض
معتقداته . انصر أخاك ظلالا أو مظلوما ، أو :
لا يسألون إصاهم حين يسلبهم
في النشائبات على ما قال برهاتنا

فإن القيمة الإسلامية الجديدة أن تنصر أخاك المظلوم وإن
يكون نصرتك لأخيك الظالم هو فكك ليدبه عن الظلم .

هناك - إذن - تفاوت واضح بين منظورين ، تختلف
فيهما مواطن المدح والفخر ، فما يفخر به الجاهلي قد لا
يعتبره المسلم مدحا والمكس صحيح أيضا ، لذلك كان
شعر حسان في بعض مواضعه شديدا على الكفار لأن فيه
بقايا من قيم الجاهلية ونظام القصيدة في مدحها
وهجائها ، مع حذر واضح . بينما كان شعر عبد الله بن
رواحة مثلا لا قيمة له ولا تأثير له على الجاهلي ما دام
خارج الإسلام فإذا أسلم انقلبت الصورة .

وهذا الاحساس بتفاوت المنظورين والتنازع الباقي
سنلتقي به كثيرا في العصر الأموي حينما كان ينزع
ويرغب المدحون إلى أن يمدحوا بالقيم الجديدة بينما
كان بعض الشعراء يخضعون للموروث الفني المتبقي في
قصيدة المدح .

إذن نحن أمام طريقتين ، أولاهما قديمة ثابتة راسخة
بتقاليدها وقد مثلت الطريق المهد الذي يسلكه السالك
وهو آمن مجرود . والأخرى جديدة تحاول أن تجد سبيلها
وترسخ قيمها وتطوع فيها ، ومن طابع الأمور أن يكون
القديم الثابت أكثر رسوخا ، ومن يتبعه مجرودا فليس كل
الفضل يعود إليه ، فيعضه يرد إلى تلك الأرضية المهددة
أما الآخر فمهما كانت قدرته وإمكاناته فوعورة الطريق
وجدته تجد حتما من انطلاقة .

فليس الأمر مرده أن شاعرية حسان ناضبة أو لينه
ولكن طريقه الجديد هو السبب المباشر . فإن انشغال
الشاعر بين مرحلتين وطريقتين يمثل تغيرا نوعيا في فنه
وأمامه صعاب كثيرة تحتاج إلى تدليل . ولعل هذه النقطة
هي الأساس الذي يجب أن نعتد به في تقييمنا الفني وهو

صراع وتنافس وعودة العصبية الى سالف عهدها ،
خاصة وان العرب قد دخلوا في تنافس مع شعوب أخرى
وسيطر هذا فيما بعد حين تمكن الحياة العباسية هؤلاء
من التحرك . .

ان النظرة الطبيعية لشعر هؤلاء الشعراء اللين
يمثلون هذا التيار الفني القديم يجعلنا نعلم ان اهم غير
مثلين لفترة التصلة من قبل ظهور الاسلام حتى بروز
شعراء بني أمية العظام . ونحن نستطيع ان ندخل ضمن
هذا التيار اكثر شعراء هذه الفترة وخاصة اولئك الذين
عاشوا الفترتين من يطلق عليه بالمخضرمين ، و حين
نفحص شعر هؤلاء لن نجد به يختلف عن شعر
الجاهلية ، بل ان فيه تأكيداً للشعر الجاهلية نفسه
ولتقاليد الفنية والاعلاقيات التي جيلوا عليها
واعادوها ، وهذا الموقف من هؤلاء قد عرضهم لكثير
من الصعاب بل ان حياة اكثرهم تتمثل فيها بحنة الشعراء
في فترة صدر الاسلام .

وعندما نتأمل - على سبيل المثال - رثاء متمم بن نويرة
نجد به يستوحى القيم الجاهلية التي كان يفسر بها
الجاهليون ، وهي قيم انسانية مقبولة اسلامياً ايضاً فهذا
الاخ تمثلت فيه تلك القيم ، يقول :

فبق كان عذاباً الى السروع ركضه

سريعا الى الداهي اذا هو نفضها

وسا كان وقافاً اذا الخيل احجمت

ولا طائشا عند اللقاء مروها

وهذا الخطبة اختياره معروفة مع عمر ، وكذلك حياة ابي
محجن الذي ظل عاشقاً للخمر حتى انه قال تلك الابيات
المشهورة :-

اذا مت فادفني الى جنب كرمه

تروي عظمي بعد موتي عروقها

ولا تدفني بالفسلة ، لاني

اخاف اذا ماتت ان لا ادقها

الذي يدفنا الى تحديد الزاوية التي يجب ان ننظر من
خلالها الى هذه المرحلة .



والآن ، كيف ننظر الى هذه المرحلة الزمنية لتمييزها
عما عداها ولرد كل قول الى النقطة التي يعنها بالضبط لا
ان ندفع العصر كله بها ، ليس المقصد هو تسفيه تلك
الآراء التي لم تأت من فراغ ، فهناك اصل لها يجب الا
نتكره ، ورغبنا في الوصول الى تفسير معقول للحركة
الشعرية في ذلك العصر تسبق اي اعتبار آخر مهما يكن .
واذا كانت الآراء الايجابية صادقة لانها ركزت على
الجوانب المضطية فان الآراء السلبية اختطفها ما رأت من
ضعف فعممت القول .

ان ما ذكرنا من تفسير لتفاوت شعر حسان وصلابة
شعر غيره يشير الى اول مراحل الطريق ، فعلينا الآن ان
نحدد الزاوية التي ننظر من خلالها ، والتي يجب ان تكون
زاوية فنية تحترم اساسيات الفن دون الخضوع لاي اعتبار
آخر . . ومن هذا المنطلق نستطيع ان نقيم الحركة الفنية
على ضوء سيرها هي ، دون النظر الى عناصر خارجية
نستطيع ان نقول ان الحركة الشعرية في صدر الاسلام
تنقسم الى تيارين .

التيار الاول :

هو امتداد للشعر الجاهلي يمثل في الدرجة الاولى
الخطبة وكعب بن زهير وامثالهم الذين يمثلون الامتداد
الطبيعي والنامي للشعر الجاهلي ، وهذا التيار ظل
محافظاً على قوته الفنية كمكلا لمسيرة سابقة وقد كان تأثيره
بالاسلام تأثيراً خفيفاً برز هذا في بعض قصائد شعراء
هذه الفترة وان كانت تقاليده الفنية ظلت كما هي تنتظر
الظروف الحياتية التي سيوفرها عصر بني أمية بما فيه من

الى ان يستجيب له . ان الذين قاربوا عقين ولا شك - بين امرئ القيس والفرزدق وبين الاعشى والاعطل وهير وجير ، ان هؤلاء لو نظروا بعمق الى شعر كلا الشاعرين سيجدون حتما تلك التغيرات الحادثة ، فالفرزدق مثلا قد لا يكون ذلك المسلم الحق ، ولكنه ايضا ابن الثقافة الاسلامية والقيم الجديدة وريب هذه البيئة ، وهو يستند الى تغيرات فيه استجابت لواقعها الجديد ، فعندما استوحى المعصية الجاهلية وقب عند حدود الروح العامة فالذي يقول :

ان السلي سمك السباء بنى لنا
بيتا دعائمه اعز واطول
لا نحتاج كثير جهد لتحديد ثقافة قائل هذا البيت ، واذا كان هذا قول عام فماذا نقول في قوله :

ضربت عليك العنكبوت بنسجها
وقضى عليك به الكتاب المنزل
وعندما نصل الى دقائق الاشارات سنجد الكثير ، فعندما قارن القدماء بين تصوير النابغة لسلوة النعمان في قوله :

فانك كالليل الذي هو سدركي
وان خلت ان المشتاي عنك واسع
وقول الفرزدق في تصوير موقف مشابه حين يصور سلوة الحجاج وسطة يده حتى لا يفوته شيء (٧٦) .
وان لو ركبت الريح ثم طليستني
لكنت كشيء ادركته مقاديره
كلا الشاعرين بالغ وتجاوز الحد ، ولكن صاحب النظر الدقيق يعرف ان ثقافة الشاعر الثاني تختلف عنها عند الاول ، وهذا واضح من قوله ركبت الريح .
وقوله « ادركته مقاديره » .

وفي هذه الايات وغيرها رد على اولئك الذين يمتدقون ان الاسلام حينما دخل قلوب الشعراء غير كل احوالهم فالشعراء كغيرهم ، منهم من قوى اسلامه ومنهم من عاش على هامش الدعوة . فلم يخضع لذلك القول الشهير الذي يروونه مغللين ضعف الشعر ، ان هؤلاء الشعراء لم ينسوا بعد الاغراض الشعرية المعروفة ايام الجاهلية ، وساروا على الطريق نفسها مع مراعاة التطور الفني العام . وما اكثر الامثلة الشعرية التي تحافظ على ذلك النهج شكلا وموضوعا .

وهذه النقطة الاخيرة تحتاج الى وقفة توضيح لا بد منه ، فعندما نشير الى ارتباط شعر هذه الفترة بسابقة يجب الا نلغي التطور والتفاعل الطبيعي والمقبول ، فتطور الشعر لم يتوقف ، فمن الظلم والسذاجة ايضا ، ان نقبل القول القائل ان الشعر الاموي صورة للشعر الجاهلي أو أنه احياه له ، فالاحياء حودة الى اصل ، اما الشعر الاموي فنرى فيه امتدادا مستمرا لحركة فنية اوتيار لم يتوقف يضيق مجراه أو يتسع وقد ينفجر في بعض مواقفه ولكنه يستمر ناميا متدافعا ، لذلك نقبل ان نقول ان الشعر الاموي عند كثير من شعرائه يمثل استمرار تلك المدرسة الجاهلية .

ولكننا نضع هنا تنبيها مهما وهو أن هذا الشعر تفاعل مع هذا الوسط فكان لا بد ان يأخذ ويعطي يطور ويحدد ويغير يؤثر ويتأثر ، والا فمن يقبل ان الشاعر الانسان الاموي الذي لاحظت به حركة اسلامية باهرة وتغيرت ظروفه القبلية وامدت من تحته بساط الحكم حتى بلغ قمة تسكن في افئدة الحالمين ، هذا الانسان الفنان ، حتى لو خضع ، او تمسك واستطاب نضج الدفقة الشعرية الجاهلية ، فاننا لا نملك نزعته من التأثير المشروع الذي يفرضه عليه التفاعل بل يدعوه الوسط الذي يعيش فيه

حسن اسلامهم فارادوا ان يمتدوا عن ذلك التيار الذي القوه ، ويشقون طريقا جديدا دون التحل عن الاطار الفني العام وهناك آخرون سيتأخر ظهورهم قليلا ولكنهم سيمثلون اتجاهها جديدا كل الجدة . . اهم من يمثل هذا التيار اولئك الشعراء الاسلاميون الذي يقف على رأسهم حسان بن ثابت ومعه من امثال التابعة الجمعدى وعبد الله بن أبي ربيعة وآخرون يقرب فيهم المثل على ضعف الشعر .

من طبيعة الامور ان يكون هذا التيار اقل بكثير من الشعر الجاهلي او امتداده الذي يسير على هديه ، لقد حاول هؤلاء ان يربطوا بين التقاليد الفنية والاسس الدينية ، فهم قد تأقلموا مع الدين الاسلامي وحاولوا ان يعيروا عن اخلاقيات المثالية ، خاصة وحوهم رسول عظيم يحثهم على كل مكرمة ، فهذا التحول الاخلاقي جعلهم يبعدون عن العامل الفني في التطور ، لذلك نجد ان كليا اقرب الشاعر من مثاليات الاسلام بعد من النضج الفني وعبد الله بن ربيعة خير مثال على ما نقول فهو قد كان تقيا صالحا ، شعره كله يمتاز بالافكار الاسلامية الدقيقة ، فضعف ولان حتى ان الرسول كان يقول له : « انت شاعر كريم » . . كما ان شعره كان خفيفا على الكفار ولكنهم عندما يؤمنون يشتد شعره عليهم لانه كان يتحدث من وجهة النظر الاسلامية ، عكس حسان الذي كان شعره يقترب من طريقهم في المجاهد .

ان هذا التيار الجديد الذي بدأ على يد هؤلاء الشعراء الرواد كان يحتاج الى فرصته للظهور وكان الطريق امامه عسيرا فان الاسلام قد قفى على الجاهلي ولكن تقاليد الشعر الجاهلي ظلت مستمرة - وكان لا بد ان يسود التيار الاول بما كان يملك من مقومات فنية راقية وقد ساعدت

لا نريد الاستطراد ، فالانحياز الفني العام يفرض نفسه ، فهامهم متعلق الشعر يلقون بظلال ثقافتهم على الحركة الشعرية ، فعندما جذبت النزعة النوقية القديمة عبد الملك بن مروان الى ان يعجب بقول كثير عن الخلافة : -

فما تركوها صنوة من مودة
ولكن بسحد الشرقي استقالها
هنا يبري الاخطل - ولم يكن سليا - معلقا لقد قلت
فيك

احلوا من الشهر الحرام فاصبحوا
سواي ملك لا لطيف ولا غصيب
جعلته حقا وجعله غضبا (٧٧) .

بل ان عبد الملك نفسه في موقف آخر يته الى هذه الروح الجديدة فيقول للشعراء الذين اجتمعوا عنده « تشبهونا بالاسد والاسد ابخر ، والبحر والبحر اجاج ، والجبل مرة والجبل اوفر ، الاقلتم كما قال ابن بن خزيمة ابن فلتك ليني هاشم :

غاركم مكابدة وصوم
وليلكم صلاة واقتراء
أجعلكم واقوام سواء
ويشرككم ويسبهم هواء
وهم ارض لا رجلكم وانتم
لاعينهم وأرؤسهم سماء

وهناك امثلة لا حصر لها تلوح حول هذا المحور .

وهذا التداخل بين القديم والراخ والجديد المكتسب يصلنا الى التيار الثاني ، وهو هذا التيار الوليد هو الذي بدأ هذه الحركة الجديدة واراد ان يستهدي قيمها كاملة ويثقلها سائرا في ركابها ، وهذه الحركة مزيج من اتاس

وهذا لا يصرفنا عن القول أن الامتداد الثاني لهذا التيار موجود بقوة داخل الشعر الآخر فعندما تقدم الزمن تداخلت القم القديمة بالجديدة وهضم المجددون التيارين فخرج شعر يمثل هذه البيئات والعصور المختلفة فهو شعر اسلامي يعمل في داخله اثر هذه الحركة الكبرى .

ان هذه هي الخطوط العامة لهذا التيار الذي بدأ ضعيفا ثم اتخذ موقعة من حركة التطور الفني ، ومن خلال هذه النظرة نستطيع ان نقيم الحياة الادبية في صدر الاسلام على اساس في دون احوال الاحداث المؤثرة في تطور الفن .

من هذا المطلق والذي يميز بين الخطوط دون ان يصير حكما متمجلا هو وحده القادر على اعطاء الصورة الحقيقية المحتملة على الوقائع لا الاقوال ، ومن ثم يكون الشعر الاسلامي قد اتخذ موقعة بحق وابرز هويته بصدق ولا ضرر ولا ضرر .

ظروف العصر الاموي وما واكبته من صراع على الاستغاة من هذا النوع من الشعر فمزج بين المنظورين : الجاهلي بتكويناته القبلية وعلاقاته المتشابكة . والمنظور الديني الاسلامي . ولكن حتى هذا لم يمنع هذه النبتة من النمو والتطور ، فما نحن نلتقي به ميثا في شعر شعراء كثيرين ، بل انه يعكس لنا شعر حركة متميزة مثل الذي نراه في شعر الحارث ، ففيه تلك الروح التي عرفها عند الاسلاميين وكذلك روح الفداء والتضحية ، واذا كان هذا الشعر امتزج بالحركة السياسية ، فان هناك ثوبا آخر بدأ يتحرك على يد المتدينين والزهاد الذين يريدون ان ييشروا روح الدين عن طريق اشاعة الجانب الروحي . وهذا الجانب سيثمر ثمرة أخرى هي امتداد للشعر الديني بتنوع المظاهر وتعني هنا شعر المتصوفة ، فهذا الشعر ينبع من الاحساس الديني المرفه ، وقد يكون امتزج بتيارات عديدة الا ان هذا لا يصرفنا من ان نقول انه فرع من فروع هذا التيار الذي تشكل في صدر الاسلام ، ومن ثم فالشعر الديني والصوفي هو الفرع الذي انتصب منفردا يذكر بهذا الاصل الاول .

كانت جزيرة صقلية معبرا من المعابر الهامة للحضارة العربية الإسلامية الى الغرب الأوربي . وقد قام المؤرخ الصقل آماري Amari بجهود رائدة في دراسة تاريخ المسلمين ودورهم في هذه الجزيرة . وأصبحت مؤلفاته التي وضعها باللغة الإيطالية بمثابة حجر الأساس الذي اعتمد عليه من خلفه من الباحثين ، ومن أهمهم المؤرخ الفرنسي شالاندون Chalandon والمؤرخ الأمريكي هاسكنز Haskins . الا أن المكتبة التاريخية الحديثة لا تزال في حاجة ماسة الى مزيد من الأبحاث والدراسات التي توضح العديد من الجوانب والموضوعات التي يكتنفها الغموض .

وقد رأينا تخصيص هذا البحث لموضوع « المجتمع العربي الإسلامي في مدينة بلرمو » عاصمة الجزيرة ، حاجته لمزيد من العناية والايضاح ، محاولين تقديم دراسة تحليلية تبين الظروف التي قام فيها هذا المجتمع ومرآحل انتشاره ونشاطه ومدى تأثيره في البيئة التي وجد بها ، وذلك الظروف الأخيرة التي انتهت فيها وجود هذا المجتمع في المدينة المذكورة .

وللموضوع ينقسم الى قسمين أساسيين : الأول ويعالج المجتمع الإسلامي في عهد السيادة الإسلامية (٢١٦-٤٦٤هـ / ٨٣١-١٠٧٢م) والقسم الثاني ويعالج أوضاع هذا المجتمع في العهد النورماني بعد أن انتقلت السيادة الى النورمان .

العوامل التي أدت الى فتح العرب لصقلية :

لم يمض وقت طويل على بداية الفتوحات العربية الإسلامية الا وقد أخذ العرب يكتسبون خبرة في ركوب البحر وإنشاء السفن لمواجهة القوى البحرية التي كانت

المجتمع العربي الإسلامي في بلرمو
دراسة في الحضارة العربية الإسلامية في صقلية

عمر كمال توفيق
أستاذ تاريخ المصور الوسطى

وبحصلوا على الغنائم ، ولم تشهد هذه المرحلة استقرارا للمسلمين في الجزيرة .

وكان تأسيس دولة الأغلبية القوية في القيروان ، في باكورة القرن التاسع الميلادي ، من العوامل التي حددت بداية مرحلة جديدة في موقف العرب من صقلية . وقد بدأ فتح الجزيرة في عهد زياد الله ، ثالث حكام الأغلبية حيث أرسل حملة برية بحرية تحت قيادة وزيره أسد بن القرات للقيام بهذه المهمة : ونطلب الأمر من العرب نحو سبعين سنة (٨٢٧ - ٩٠٢ م) ليكملوا فرض سيطرتهم على الجزيرة ، وقد دام حكمهم لها بعد ذلك نحو قرن ونصف قرن من الزمان ، ليستمر حتى أخذ العرب يتراجعون أمام الغزو النورماني للجزيرة (١٠٦١ - ١٠٩١ م) .

صقلية تصبح جزءا من دار الاسلام :

نتيجة للفتح الاسلامي أصبحت جزيرة صقلية جزءا هاما من « دار الاسلام » بكل ما يعنيه هذا المصطلح حيث اعتبرت من بلاد الاسلام وسادها حكم الشريعة الاسلامية . ولا يعني هذا بطبيعة الحال أن جميع سكانها صاروا مسلمين . فالمسيحية لم تختف من الجزيرة ، بل أصبحت ديانة مسموح بها وأصبح مسيحيوها من أهل الذمة ، وذلك وفقا لمفهوم الشريعة الاسلامية ، هذا مع ملاحظة أن أعدادا منهم أخذت تترك المسيحية وتعتنق الاسلام .

هذا ويتحتم علينا أن نسجل في هذا الموضع ملاحظة أساسية ، مفادها وجود تباين واضح في المناطق التي انتشر فيها الاسلام والمجتمع العربي الاسلامي في

مسيطرة على الملاحة والمراكز البحرية في حوض البحر المتوسط . وقد استغلوا هذه الخبرة في مواصلة جهادهم في المجالين البري والبحري ، وحققوا منجزات هامة في مواجهة القوة البحرية للدولة البيزنطية التي كانت لها السيطرة على هذا البحر قبل ظهور قوة العرب . وكان من مظاهر قوة العرب البحرية أنهم أخذوا يتطلعون لد نفوذهم من الساحل الافريقي الشمالي الذي أصبح جزءا من دار الاسلام الى المراكز البحرية والسواحل الجنوبية لأوروبا .

وكان في هذه الظروف أن أخذ العرب يفكرون في فتح جزيرة صقلية ، أكبر الجزر في البحر المتوسط ، لاقامة الحكم الاسلامي بها وجعلها جزءا من الدولة العربية الاسلامية ، خاصة وأن صقلية كانت مركزا هاما للبحرية البيزنطية كما كانت موقعا شديدا يخطر على البحرية الاسلامية ، حيث كانت تخرج منها الأساطيل البيزنطية لمهاجمة السفن والمراكز الاسلامية المقابلة لصقلية في الساحل الافريقي الشمالي . وكان فتح المسلمين للجزيرة فيه تأمين للجانب الاسلامي . وفضلا عن ذلك فقد عرف المسلمون أن الجزيرة كثيرة الخيرات حتى وصفت بأنها « ابنة الأندلس » .^(١)

ومنذ فترة مبكرة من قيام القوة البحرية الاسلامية ، بدأت اغارات المسلمين على صقلية : فغلبت موقعة ذات الصواري في ٢٤ هـ / ٦٥٤ م التي انتصر فيها العرب التجأ الامبراطور البيزنطي قنسطانز الثاني الى صقلية فلما من الهزيمة ، وقد أسرع العرب بالاغارة على هذه الجزيرة . وتعددت هجماتهم عليها بعد ذلك ، الا أن عملياتهم العسكرية حينئذ كانت عبارة عن اغارات سريعة يعقبها الانسحاب بعد أن يوقعوا بقوة خصومهم

(١) ابن جبير : ص ٢٩٧ .

Val di Noto وقال دي ديتس Val di De- mone . والقسم الأول ويقع الى الغرب من الجزيرة وكانت له أهمية كبرى أثناء الحكم الإسلامي وقد أصبح الاسلام فيه لفترة من الزمان هو القوة الغالبة . أما ولاية نوتس فكانت نسبة المسلمين فيها أقل . وخلال العهد الإسلامي ظل سكان الولاية الثالثة ، الواقعة الى شرقي الجزيرة وهي ولاية ديون ، في أغلبيتهم من المسيحيين . وبهذا الشكل يمكن أن نقول إن ولاية مازر كانت تمثل مركز الثقل بالنسبة للوجود الإسلامي في الجزيرة .

ظاهرة اهتمام العرب بالاستيطان في المدن :

ومن الظواهر التاريخية الرئيسية لوجود المسلمين في صقلية كان اهتمامهم بإقامة مجتمعات عربية إسلامية في مدنها الهامة مثل مسينة وشيفالو ومازو وطرابنش وقطانية وبلرمو ، والأخيرة قد اتخذوا منها عاصمة لهم في الجزيرة . فالعرب وإن كانوا أصلاً من أهل البداية والرواحات في غالبيتهم ، إلا أنهم ، منذ فترة مبكرة من العصر الإسلامي ، اهتموا بالمدن ونزحوا للاقامة فيها واتخذوا مراكز إدارية واستراتيجية لهم . وقد انبثقت في فترة وجيزة من الزمان مدن جديدة أقامها العرب ، كما تمت المدن القديمة التي فتحوها وازدهرت في عهدهم . وكلما أمن العرب في الاستقرار ازدادت مدنها عدداً واتسعت حجماً ، وكان مقدراً لها أن تسهم بدور كبير في تطور الحضارة .

ويصور لنا المفكر العربي الشهير المؤرخ ابن خلدون في مقدمته اهتمام العرب بالمدن في قوله : « أن القبائل والعصائب إذا حصل لهم الملك اضطروا الى الاستيلاء على الأمصار لدفع ما يتوقع على الملك من أمر المنازعين والمشايخين فيعتصم (صاحب الأمر) في المصر ويفاليهم . ومغالبه المصر على غاية من الصعوبة

الجزيرة إبان حكم المسلمين بها . فالطابع الإسلامي كان شبه كامل في المنطقة الغربية من الجزيرة ، وتناقص مع التوجه الى شرقها حيث كان صمود العنصر المسيحي اليوناني أشد صلابة . كما نلاحظ أن الاسلام ، مع مجيء النورمان إلى الجزيرة ، قد زال من المنطقة الشرقية بشكل أسرع مما حدث في الجزء الغربي منها . فقد ظل الاسلام صامداً في هذا الجزء الغربي حتى بعد قيام الحكم النورماني ، واستمر نشاط المسلمين هناك خلال القرن الثاني عشر الميلادي بأكمله ولم ينقطع ذلك إلا في العقود الأولى من القرن الثالث عشر الميلادي على أثر الظروف التي تعرض لها المسلمون . وليس من السهل على الباحث تقديم تحليل تفصيلي دقيق لتفسير ذلك التباين في مناطق انتشار الاسلام في الجزيرة ، وذلك لقلة المعلومات التاريخية التي وصلت إلى أيدينا . وبما لا شك فيه أن شدة صمود العنصر المسيحي الاغريقي في شرق الجزيرة كان من العوامل التي تفسر ما حدث . هذا وكانت في الجزء الغربي من الجزيرة في منطقة مازر ، أعداد كبيرة من طبقة الرقيق المسيحيين ، وقد أقيمت نسبة كبيرة منهم على اعتناق الدين الإسلامي وهم يجذوهم الأمل في تحسين أوضاعهم والتحرر من رقة العبودية . والمرجح أن عدداً وافراً من نصارى المنطقة المعتدلة بين مدينتي مازر وبلرمو اعتنقوا الاسلام ، هذا ما تذهب اليه مستندين الى قول الجغرافي العربي ياقوت ، في أن أكثر نصارى هذه الجهة أسلموا ، ولكن مع عدم البالغة في تقبل هذه الرواية ، حيث أن ما في أيدينا من الروايات التاريخية يدل على وجود عدد غير قليل من المسيحيين في تلك المنطقة .

ويظهر أن صقلية عرفت أثناء العهد الإسلامي ثلاث ولايات هي ولاية مازر نوتس وولاية نوتس وولاية ديتس ، ويكون ذلك متشعباً مع أقسام الجزيرة الثلاثة وهي فال دي مازر Val di Mazara وفال دي نوتس

والمشقة . والمصري يقوم مقام العساكر المتعددة ، لما فيه من الامتناع ونكاية الحرب من وراء الجدران من غير حاجة الى كثير عدد ولا عظيم شوكه .^(٢)

وقد عمد العرب منذ مرحلة مبكرة في تاريخ فتحانهم الى الاستفادة من المدن القديمة التي وجدوها في البلاد التي فتحوها ، فنزلوا بها وسكنوها . وإن هذه المدن مع مضي الوقت ، وبفضل ما أضافه العرب اليها من اللغة العربية والروح الاسلامية ، وبشكل خاص انشاء المساجد ، تحولت الى مدن لها طابع عربي إسلامي لا يختلف عن المدن الاسلامية الانشاء الا اختلافا محدودا .

اتخاذ بلرمو عاصمة اسلامية :

وكان من الطبيعي أن يجلب مدينة بلرمو اهتمام العرب ويتخذوا منها عاصمة لحكمهم في صقلية . وكانت هذه المدينة من أهم مدن الجزيرة وكانت تتمتع بمكانة خاصة قبل الفتح الاسلامي ، فهي من أهم مدن الجزيرة وأقدمها . هذا وكانت بلرمو مدينة بحرية جيدة الميناء سهلة الاتصال بأفريقيا ، وكان في استطاعة المسلمين ، بإقامتهم فيها ، أن يؤمنوا خط إمدادهم من أفريقيا ليحصلوا على ما يحتاجون إليه من الرجال والمؤن . هذا وكانت المنطقة المحيطة بالمدينة خصبة ، ويمكن أن تزود ساكنيها بالمؤن اللازمة ، فضلا عن تسوفر المياه بها . وكانت بلرمو من أول المدن التي استولى عليها المسلمون ، وكانت تقع في المنطقة الغربية التي يكثر فيها المنصر الاسلامي . وكان هذا عاملا أساسيا آخر أدى الى تفضيل المسلمين لها على مدينة سرقوسة (سيراكوز) الواقعة في الجزء الشرقي

من الجزيرة والتي كانت مركزا للمنصر الاغريقي وقاعدة للدولة البيزنطية ، كما هيأ لها قربها الى القسطنطينية فرصة الحصول على امدادات ومساعدات منها ، الأمر الذي كان لا بد وأن يتسبب للعرب في متاعب كثيرة عقب استيلائهم عليها . ولهذا كله كان من الطبيعي أن يفعل العرب مثليا فعل الفينيقيون من قبل في العهد القديم ، ويتخذوا من بلرمو قاعدة لهم ويجعلوها عاصمتهم في صقلية .

وقد دام حكم المسلمين لمدينة بلرمو فترة طويلة امتدت من سنة ٢١٦ هـ الى سنة ٤٦٤ هـ . (٨٣١ م - ١٠٧٢ م) . وإبان ذلك قام بهذه العاصمة الاسلامية مجتمع عربي اسلامي له شأنه ومقوماته الحضارية . ونستطيع أن نتبين مدى تغلغل هذا المجتمع في بلرمو اذا ما لاحظنا أن الوجود الاسلامي استمر بها بعد نهاية الحكم الاسلامي وأثناء العهد النورماني ، بل لقد امتدت بعض آثاره الى ما بعد ذلك . وكان المسلمون قد نقلوا معهم عند نزولهم في بلرمو ما عرفوه من مقومات حضارتهم العربية الاسلامية . وإذا كانت هذه المدينة قد أصبحت عاصمة لجزء هام من دار الاسلام ، فلماذا قامت بدورها كمركز من أهم مراكز حضارية ، ومعبّر رئيسي للحضارة الاسلامية العربية الى الغرب الأوربي .

وقد عرفت بلرمو في العصر الاسلامي اخلاطاً من العناصر البشرية ومن أهم الروايات التاريخية التي نتحدث عن مجتمعها كانت تلك الرواية التي دونها الراهب ثيودوسيوس قبل زيارة الجغرافي ابن حوقل للجزيرة بنحو قرن من الزمان وقد جاء فيها أنها : « مكتظة بالناس من أهلها والأجانب حتى كأنه اجتمع فيها كافة المسلمين من شرق إلى غرب ومن شمال إلى

(٢) ابن خلدون : المقدمة ص ٢٧٣

ومرسى البحر بها وبها عيون جارية بينها وبين صقلية ومياه كالخند بينها ^(٤١) .

وكان المجتمع الأوروبي المسيحي في بلرمو معقدا بلوره ، خاصة اذا أخذنا في الاعتبار وجود العاصر الصقلية واللاتينية والبيزنطية . وبطبيعة الحال يواجه الباحث في هذا المجال صعوبة شديدة للتقدم بإحصائيات دقيقة عن عناصر السكان المختلفة في بلرمو والتفريات التي طرأت عليها ، وذلك لعدم توفر المادة التاريخية اللازمة في المصادر .

وصف الجغرافيين والرحالة العرب لبلرمو والخالصة :

وللجغرافيين والرحالة العرب فضل كبير في تزويدنا بمعلومات قيمة عن مدينة بلرمو وجمتمعها في العصرين الاسلامي والنورماني . وستظل كتابات ابن حوقل والادريسي وابن جبير ، من المصادر الأساسية في هذا المجال . فهي تمهدنا بتفاصيل هامة عن طوبوغرافية المدينة وخطوطها وأهم معالمها ونشاط المسلمين فيها .

وقد أدرك كل من ابن حوقل والادريسي الصلة بين بلرمو والخالصة . وإن كانت بعض المصادر تتحدث أحيانا عن الخالصة كمدينة مستقلة ، إلا أنها كانت بمثابة امتداد لمدينة بلرمو . والمعلومات التاريخية التي وصلتنا عن تأسيس الخالصة ونشأتها ضئيلة . ويبدو أن انشاءها كان وفقا للنهج الذي اتبعه الملوك والحكام المسلمون منذ أواخر القرن الثالث الهجري في إقامة مدن خاصة لاقامتهم وأتباعهم على مقربة من العواصم المعروفة . وعلى أية حال فإن المؤرخ العربي ابن الأثير أورث في كتابه « الكامل في التاريخ » عند ذكره لأحداث سنة ٣٢٥ هـ

جنوب . وبين قاطناتها من صقليين واغريق ولومبارديين ويهود ، تجدد العرب والبربر والفرس والتتار والزنج ، منهم من يلبس البعانة والعمامة ، ومنهم من يرتدي الجلود . وفيهم أنصاف عراة . وهناك وجوه مستطيلة ومربعة ومستديرة من كل شكل ، ولحي من كل لون ، منها الطويل والقصير ^(٣) .

لكن مع هذا التباين الواضح في عناصر السكان في بلرمو ، فالواضح أن هذه العاصمة التي اتخذت طابعا إسلاميا تميزا أصبح للمجتمع العربي الاسلامي شأنه وكميانه فيها . وتكون هذا المجتمع من العناصر التي جاءت أثناء فتح العرب للجزيرة ، وكذلك من المهاجرين المسلمين الذين وفدوا بعد ذلك ، من الحرفيين والجنود واللاجئين . كما تألف المجتمع من العرب والمعجم والبربر . وكان العرب ينقسمون الى قحطانيين وعدنانيين أو بعبارة أخرى الى مينة وقيسية . وإن الخلاف القائم بين هذين العنصرين في بلاد المشرق والمغرب ، قد انتقل معها إلى صقلية ، هذا بخلاف التنافس المعروف بين العرب والبربر ، الأمر الذي تسبب في قيام النزاع والتصادم بينهم . كما أضاف أمراء الأغلبة عنصر الزنج إلى هذا الخليط البشري ، وذلك لما اتخذوا العبيد السود حراسا لهم . هذا وقد أحاط الخلفاء الفاطميون وعصامهم الكليوبون أنفسهم بالممالك البيضاء الذين كثيرا ما كانوا من الصقلية ، وكان النخاسة بجلبوبهم وهم صفار السن . وفي بلرمو حارة خاصة نسبت الى هذه العناصر وعرفت باسم حارة الصقلية ، وكان لها شأنها وقت زيارة ابن حوقل لبلرمو . وهو يقول في ذلك : « حارة تعرف بحارة الصقلية وهي أعمر من المدينتين اللتين ذكرتهما وأجل ،

(٣) انظر S D M, II, 49

(٤١) ابن حوقل ص ١١٤

معلومات هامة عن بلرمو والخالصة . وبما ذكره في ذلك : « وهي على قسمين قصر وريض ، فالقصر هو القصر القديم المشهور فخره في كل بلد وإقليم وهو في ذاته على ثلاثة أسطحة ، فالسماط الأوسط يشتمل على قصور منيفة ومنازل شاهقة شريفة وكثير من المساجد والفنادق والحمامات وحوانيت التجار الكبار . والسماطان الباقيان فيها أيضا قصور سامية ومبان فاخرة عالية وبها من الفنادق والحمامات كثير ، وبه الجامع الأعظم الذي كان بيعة في الزمن الأقدم ، وأعيد في هذه المدة على حالته في سالق الزمان . . . فاما الربيض فمدينة أخرى تحديق بالمدينة من جميع جهاتها وبه المدينة القديمة المسماة الخالصة التي كان بها سكن السلطان والخاصة في أيام المسلمين^(٧) »

وقد استفاد التجار المسلمون من موقع جزيرة صقلية المتوسط بين شرق البحر المتوسط وغربه لممارسة نشاطهم من ميناء بلرمو ، مما كان له أثره في تحقيق الازدهار التجاري لها . وهنا يقول ابن حوقل « وهذه المدينة مستطيلة ذات سوق قد أخذ من شرقها الى غربها ، يعرف بالسماط مغروش بالحجارة عامر من أوله الى آخره بضروب التجارة »^(٨)

كما يتحدث ابن حوقل عن النشاط التجاري والحرفي في المجتمع الاسلامي في بلرمو ، فيعدد أنواعا كثيرة من الحرفيين والتجار ويبين كيف كان لكل حرفة سوق خاص ، فيقول : « واكثر الأسواق فيها بين مسجد ابن

(٩٣٦ - ٩٣٧ م) معلومات مفيدة عن نشأة الخالصة ، وذلك لما كان يتحدث عن الفتن التي قامت بجزيرة صقلية ضد ولايتها الفاطميين وقال ابن الأثير إن الخليفة الفاطمي ، المقيم في المغرب ، أرسل قائدا من أتباعه يعرف باسم خليل بن اسحق على رأس قوة لاقامة النظام في صقلية ، كما أضاف هذا المؤرخ أن القائد المذكور هو المسئول عن بناء الخالصة . وقد جاء في « الكامل في التاريخ » ما يلي : « فشرع خليل في بناء مدينة على مرسى المدينة - بلرمو - وحصنها ونقش كثيرا من المدينة وأخذ أبوابها وسمها الخالصة . ونال الناس شدة في بناء المدينة » .

وقد زار ابن حوقل بلرمو بعد إنشاء الخالصة بوقت غير بعيد^(٩) وترك هذا الجغرافي وصفا له أهمية ، حيث أنه كان شاهد عيان ومن أقدم من وصف بلرمو من الكتاب العرب . ويقول عنها في سياق حديثه عن صقلية : « ومنها المدينة الكبيرة المسماة بلرم وعليها سور عظيم من حجارة شامخ منيع ، ويسكنها التجار . وفيها مسجد الجامع الأكبر ، وكان بيعة للروم قبيل فتحها ونجماها مدينة تعرف بالخالصة ذات سور من حجارة . وليس كسور بلرم ، يسكنها السلطان وأتباعه ، وفيها حمامان ، ولا أسواق فيها ولا فنادق ، وفيها مسجد صغير مقتصر ، وبها جيش للسلطان ودار صناعة للبحر والديوان . . . »^(١٠)

ويقدم الادريسي ، الذي أقام في بلرمو في بلاط الملك النورماني روجر الثاني (١١٣٠ - ١١٥٤ م) ،

(٥) يراعى في تحديد تاريخ زيارة ابن حوقل لصقلية وبلرمو أنه بدأ رحلته من لشرف في سنة ٨٣١هـ (٩١٢ - ٩١٣ م) وكان دخوله إلى أنطلس في ٣٣٧هـ ، وبعدما كانت زيارته لصقلية وذلك وفقا لما ورد في كتابه المذكور هذا وقد ذكر ابن الأثير اختيار رئيس مدينة الخالصة في أحداث سنة ٣٢٥هـ .

(٦) ابن حوقل ص ١١٣ - ص ١١٤ .

(٧) الادريسي ص ٢٨ - ص ٢٩ .

(٨) ابن حوقل ص ١١٧ .

كما يضيف الى ذلك إحصائية لعدد المساجد التي وجدها في بلرم وضواحيها أثناء زيارته لها فيقول : « ويصقلية من المساجد في بلرم والمدينة المعروفة بالخالصة والحدارات المحيطة بها من وراء سوريتها عامرة ، أكثرها قائمة على عروشها بحيطانها وأبوابها نيف وثلاثمائة مسجد يتوسطها أهل الحيرة منهم في علمها ويتسولون في معرفتها وعددها . . . » (١٦)

ثم يبدى ابن حوقل ملاحظته على كثرة المساجد في بلرم ويقارنها بغيرها من مساجد المدن الإسلامية فيقول : « ولم أر هذه العدة من المساجد بمكان ولا بلد من البلدان الكبار ، التي تستولى على ضعف مساحتها ، شيئا ، ولا سمعت من يدعيه الا ما يتذكره أهل قرطبة من أن بها خمسمائة مسجد ، ولم أقف على حقيقة ذلك من قرطبة وذكرته في موضعه على شك مني فيه ، وأنا محققه بصقلية لأن شاهدت أكثره . » (١٧)

ولا ريب أن سبب اهتمام المسلمين بإنشاء هذه المساجد كان لتدعيم الإسلام ونشره في بلرمو حيث كانت المسيحية راسخة فيها . فضلا عما تبتهه إقامة المساجد من طمأنينة في نفوس المسلمين في بلد يقوم أعداؤهم من غير المسلمين على مقربة منه . هذا ويروى ابن حوقل سببا آخر رآه مسؤولا عن جعل ذوى المقدرة من المسلمين يكثرون من انشائها ، وهو في رأيه سبب يرتبط بنوع من الفروخ وحسب البهاة . فهو يقول أثناء زيارته لبلرمو ما يلي : « لقد كنت واقفا ذات يوم بها في جوار دار أبي محمد عبد الواحد بن محمد المعروف

سغلاب والحارة الجديدة : كسوق الزينتين بأجمعهم والدقاقين والصيارقة ، والحدادين والصياغة ، وأسواق الفمخ والطرازين والسماكين والأيزاريين ، وطائفة من القصابين وباعة البقل ، وأصحاب الفاكهة والريحانيتين والجرايين والخبازين والجدايين ، وطائفة من العطارين والجزاريين والأساكفة والدباغين والتجارين والمضائرين واخشاشيين خارج المدينة ، ويبلرم طائفة من القصابين والجرايين والأساكفة ، وها للقصابين دون المائتي حانوت لبيع اللحم ، والقليل منهم في المدينة برأس السباط ويحاورهم القطنون والحلاجون والحدادون وها غير سوق صالح . . . » (١٨)

سياسة نشر الطابع الاسلامي العربي في بلرمو :

وكان من الطبيعي أن يحرص المسلمون على إعطاء مدينتهم روحا وطابعا إسلاميا . من أهم ما اهتموا به في ذلك كان توفير المساجد في المدينة ، جريا على عاداتهم فيما كانوا يفعلونه عند اتخاذ المدن القديمة مراكز لهم . وقد ورد ذكر الجامع الكبير في المدينة الذي كان أصلا كنيسة للمسيحيين قبل فتح بلرمو (١٩) ويذكر ابن حوقل قدر الازدهار في هذا الجامع فيقول : « ويدل على قدرهم وعددهم صفوة مسجد جامعهم ببلرم ، وذلك أنني حضرت المجتمع فيه اذا غص بأهله بلغ سبعة آلاف رجل ونيفا لأنه لا يقدم فيه أكثر من ستة وثلاثين صفيا للصلاة ، وكل صف منها لا يزيد على مائتي رجل » (٢٠).

(١٦) المصدر نفسه ص ١١٤ .

(١٧) المصدر نفسه ص ١١٣ .

(١٨) المصدر نفسه ص ١١٤ .

(١٩) المصدر نفسه ص ١١٤ .

(٢٠) المصدر نفسه ص ١١٤ .

صقلية ، الا أنه نزع في عدة مواضع للتحامل على أهالي هذه البلاد ونسب اليهم العديد من الخصال السيئة ، وكان مرير الكلام بالنسبة لهم ، لوأما وتقادا لهم . فقد كتب في ذلك : « وأكثرت عنه وعن ابن مطر وجماعتهم وأصفا قلة فطنتهم وكلال أفهامهم ، وحدة جهلهم وسرعة طيشهم ، وموت يقتظهم وبراعة لؤمهم مع دوام غفلتهم ، وشيعة تعاطيهم ، وكثرة معائبهم ، وسخف أغذيتهم المؤكدة جهلهم ، وسوء تخليهم في كتاب جعلته أبوابا عشرة . . . ولم أترك لهم من فضيلة ورفيلة الى جميع ما خصوا به ومنعوه وأعطوه وما حرموه ، الى غلظ طباعهم وسوء أخلاقهم ، وما انصرفوا به من المطاعم المنتنة ، والأعراض القدرة الدرنه ، وغلبة كثرة الخجاف وطول المراد ؛ وسميت جميع معلمهم الى ما وصل الى من إختيارهم ومحلهم في الرفاعة . . . » (١٧)

وابن حوقل يعتبر أن كثار أهالي بلرمو وصقلية في أكل البصل التي هو المسئول عن كثير من الخصال السيئة التي نسبها اليهم ويسلم بأن « خاصة البصل إحداث فساد في الدماغ ثم يقول عن أثر أكل البصل : « وهذه قضية عقلية ، فأما نتيجتها فليس في البلد عاقل ولا فاضل ولا عالم بالحقيقة يقن من فنون العلم ، ولا ذو مروءة ولا متدين ، والغالب عليه الرعاع وأهله سقاط أوضاع لا عقول لهم ولأدين كامل » . (١٨)

وان هذا التحامل الظاهر من جانب ابن حوقل على أهالي بلرمو الذين أقام بينهم ، وأهالي صقلية الذين اتصل بهم ، يحتاج الى وقفة منا لمحاولة تحليله وتفسيره . وربما كان مما يفسر ذلك كون ابن حوقل غريبا على البلاد

بالقصص القبيح الوثائقي ، فرأيت من مسجده في مقدار رمية سهم نحو عشرة مساجد يتركها يصره ، ومنها شيء تجاه شيء ، وبينها عرض الطريق فقط ، فسألت عن ذلك فأخبرت أن القوم لشدة انتفاخ رؤوسهم كان يجب كل واحد منهم أن يكون له مسجد مقصور عليه ، لا يشركه فيه غير أهله وغاشيته ، وربما كان اخوان منهم متلاصقة دارهما متصالية الحيطان وقد عمل كل واحد منها مسجدا لنفسه يكون جلوسه فيه وحده » . (١٩)

ويبدو أن هذه المساجد كانت تبقى لمدة لا تزيد عن عمر انسان ، ولهذا فانها لم تسلم من الهلاك ، وقد اندثرت شأنها شأن العديد من الآثار الاسلامية المعمارية التي أقامها المسلمون في عصور سابقة .

وتلاحظ في بلرمو اهتماما بالتعليم . وقد اهتم أهلها بالمدارس ، ويذكر ابن حوقل أنه وجد بها نحو ثلاثمائة معلم وأنها تفوق في ذلك غيرها من البلدان (٢٠) هذا وسجل ابن حوقل تقدير المسلمين للمعلمين قائلا : « إن جميع أهل صقلية ، يمتدنون أن هذه الطائفة أعيانهم ولبابهم وفهاؤهم ومصلوهم وأرباب فتاويهم وعدولهم ، وبهم عندهم يقوم الحلال والحرام وتعقد الأحكام وتنفذ الشهادات وهم الأدباء الخطباء . . . » (٢١)

تحامل ابن حوقل على أهالي بلرمو ومناقشة آرائه : -

حقيقة أن ابن حوقل أمدنا بمعلومات قيمة وتفصيل دقيقة عن بلرمو والمجتمع العربي الاسلامي فيها وفي

(١٧) المصدر نفسه ص ١١٥ .

(١٨) المصدر نفسه ص ١٢٠ .

(١٩) المصدر نفسه ص ١٢١ .

(٢٠) المصدر نفسه ص ١٢٢ - ص ١٢٣ .

(٢١) المصدر نفسه ص ١١٨ .

تفاصيل المنجزات الحضارية الغضة التي حققها المسلمون في بلرمو وصقلية بصفة عامة . وعلى أية حال فان هذه القومات الحضارية التي أوجدها المسلمون في بلرمو قدمت تراثا له شأنه استفاد منه النورمان فائدة كبرى عندما انتهى الحكم الاسلامي في بلرمو سنة ١٠٧٢ م (٤٦٤ هـ) وقامت على انقاضه دولة النورمان في صقلية .

المجتمع العربي الاسلامي في العصر النورماني :

غزو النورمان لصقلية كجزء من الحركة الصليبية

كان جزء النورمان الى صقلية وتأسيسهم لدولة جديدة بها ، يعني ظهور عنصر بشرق جديد على مسرحها التاريخي وكان لهذا العنصر اثره على مجتمعاتها المتعلقة . ويتعين على الباحث في هذا الموضوع أن يوضح السياسة التي اتبعها هؤلاء النورمان في حكمهم للبلاد وموقفهم على الخصوص من المجتمع الاسلامي في بلرمو التي اتحلوا منها عاصمة لهم على النحو الذي فعله العرب من قبلهم . ولا ريب أن السياسة التي اتبعها النورمان في حكمهم للجزيرة قد شكلتها الظروف التي أحاطت بغزوها لها ، وطبيعة العنصر النورماني وفكره ، وكذلك أوضاع المجتمعات التي وجدها النورمان في الجزيرة من مسلمين ومسيحيين .

وفي تحليل طبيعة الغزو النورماني لجزيرة صقلية ، يربط المؤرخ العربي المعروف ابن الأثير ما بين هذا الغزو وبين الهجوم الأوربي على البلاد الشامية المعروف بالحركة الصليبية وكذلك قيام النصارى في الأندلس لطرد المسلمين من البلاد هذه الحركة التي تعرف باسم حركة الاسترداد أو . Reconquista وتفصيل ذلك أن

وأنه لم يجد التقدير الذي يتوقعه كعالم من المشرق . ومن الجائز أنه كان ذا حساسية خاصة في المعاملة التي صادفها من أناس كانوا غريباء بالنسبة له . وربما أساءه أنه وجد في صقلية أفرادا يشتمون أهل العراق الذين يتسبب اليهم وينالون منهم بالقول . وربما تسببت العصبية الاقليمية في وقوف ابن حوقل هذا الموقف من أهل صقلية وعاصمتها . هذا ولا ريب أن بلرمو كمدينة كبيرة شأنها شأن غيرها من المدن الكبرى عبر التاريخ ، كانت تمثل الحضارة بكل مقوماتها الصالحة والطالحة . هذا وكانت بلرمو تتكون من عناصر مختلفة من المسلمين ، وكذلك من أهالي البلاد الأصليين . ومن المحتمل أن بعض الذين أسلموا من الآخرين لم يأتوا اسلامهم عن إيمان حقيقي بل لمصالح خاصة ، وقد يكون ذلك من أسباب استياء ابن حوقل .

وعلى أية حال ، فان هذه النزعة التي اتجه اليها ابن حوقل في الحكم على المجتمع في صقلية وعاصمتها ، ولا يقره عليها عدد من المؤرخين والجغرافيين والرحالة الغدامي الذين تركوا لنا انطباعاتهم عن تلك البلاد ومن مجتمعها يشيدون فيها بنظامها وبأناقة أهلها وأخلاقهم الفاضلة وغير ذلك من الخصال الحميدة .^(١٩)

وقضلا عما جاء في هذه المصادر ، فان واقع الحضارة التي أقامها المسلمون في صقلية يشهد بوضوح بعدم صحة آراء ابن حوقل وما كان يخلب عليه من تحيز وتمصّب . وإن المستوى الحضاري الرفيع الذي حققوه يتمثل في نشاطهم الفكري والعلمي وفي النظم المالية والإدارية التي أدخلوها على البلاد ، وكذلك في التقدم الاقتصادي الذي أحرزوه في الزراعة والصناعة والتجارة ، ولا يتسع المجال في هذه الدراسة للوقوف في

(١٩) الأديسي : نزعة المشتاق في احراق الاناق ص ٢٩ (المكتبة العربية الصقلية ، كتاب هيئة : اذكال الأرض (في المكتبة العربية الصقلية ص ١٢) .

المؤرخ المذكور في معالجة أخبار سنة ٤٩١ هـ (١٠٩٧ - ١٠٩٨ م) يقول : « كان ابتداء ظهور دولة الفرنج واشتداد أمرهم وخروجهم الى بلاد الاسلام واستيلائهم على بعضها ، سنة ٤٧٨ هـ ، فملكوا مدينة طليطلة وغيرها من بلاد الأندلس . . . ثم قصدوا سنة ٤٨٤ هـ جزيرة صقلية وملكوها ، وقد ذكرته أيضا . . . ثم لما كان سنة ٤٩٠ هـ خرجوا الى بلاد الشام » (٢٠) .

حقيقة أنه هناك قدر أساسي من التشابه بين غزو النورمان لصقلية ، ومحاربة المسيحيين للمسلمين في الأندلس ، والمهجوم الأوربي على البلاد الشامية ، حيث أن كلا من هذه الحركات كان يتسم بطابع الهجوم الذي قامت به عناصر أوربية مسيحية لمحاربة المسلمين والقضاء على حكمهم في البلاد التي كانوا فيها . لكن هناك كذلك اختلافات بينه في التفاصيل والجزئيات التي تخص كل حالة من تلك الحالات ، وكذلك اختلاف في الطريقة التي عامل بها المسيحيون المسلمين في البلاد التي أخضعوها . ومن أبرز أوجه الاختلاف ، أنَّ الحركة الصليبية الغربية التي بشر بها البابا أوربان الثاني سنة ١٠٩٥ م ، أي عقب استيلاء النورمان على صقلية بسنوات معدودة . قد قامت تحت اشراف وتوجيه البابوية وانتقل المشتركون في هذه الحركة من غرب أوروبا الى المنطقة العربية الاسلامية في شرق البحر المتوسط ، بهدف الاستيلاء على الأراضي المقدسة وإقامة دولة صليبية فيها . أما حركة الاسترداد الاسبانية ، فقامت بها عناصر وطنية من شبه الجزيرة اليبيرية ، وإن كانت قد ساعدها بعض المتطوعين من خارجها ، وهدفها كان استرجاع اسبانيا من العرب بعد القضاء على الحكم الاسلامي فيها . وكثيرا ما اتسمت حركة الاسترداد هذه

بطابع التعصب في معاملة المسلمين عقب إخضاعهم ، والمصادر التاريخية مليئة بأخبار الاضطهاد الذي تعرضوا له على أيدي القوى المسيحية . أما مجيء النورمان الى جنوب إيطاليا وصقلية فله ظروفه الخاصة . فالنورمان لم يكونوا أصلا من أهالي تلك البلاد ، بل كانوا غرباء عنها . فقد كانوا جماعة من الغامرين الذين تحركوا أصلا من شبه الجزيرة الاسكندنافية الى اقليم نورماندي في فرنسا . ويعد تعرفهم على جنوب إيطاليا وصقلية ، وما كان من ظروف الانقسام السياسي والتطاحن ما بين القوى الأوروبية المسيحية بما فيها البابوية ، والاضطراب في الاحوال السياسية في صقلية نتيجة لانقسام المسلمين على أنفسهم ، طمع النورمان في استغلال هذه الظروف لإقامة مملكات لهم . وكان النورمان أقلية بالنسبة لسكان جزيرة صقلية من المسلمين وكذلك من المسيحيين الذين كانوا من أصول متعددة . وفي هذه الظروف كان من الحكمة بالنسبة لهم أن يتبع النورمان سياسة تسامح نسبي مع تلك العناصر السكانية في الدولة التي أقاموها ، وخاصة مع العناصر العربية الاسلامية التي كانت على ما يبدو تمثل النسبة الغالبة في عدد السكان فضلا عن تميزها في المضممار الحضاري وما كانت عليه من خبرات متعددة ومتنوعة .

موقف الحكام النورمان من الرعايا المسلمين في بلرمو :

والنورمان لم يكن لديهم بعد قدر رفيع من الحضارة ، وكانوا على استعداد للاستفادة من الحضارات التي وجدوها في البلاد المختلفة التي نزلوا بها . وهذا وقد أدرك النورمان منذ بادئ الأمر أن المسلمين كانوا العنصر البناء المنتج بين عناصر السكان في صقلية (٢١) وكان

(٢٠) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج ١٠ ص ٧٧٢

(٢١) Haskins C. H.: Normans in European History. p. 225. انظر

من ماشية . ولم تكن أعيار هذه الأحداث بالتي تجعل المسلمين يطمثون الى التطورات التي صاحبت مجيء النورمان . وكانت هذه الأحداث هي التي تفسر حدوث أول موجة للهجرة الاسلامية من صقلية الى دولة الزيريين في أفريقية .

على أية حال فسرعان ما انتضحت للمسلمين سياسة النورمان في إيجاد منافع من التسامح والتواجد لهم في ظل الحكم النورماني . فقد حرص روجر (رجار) الأول (١٠٦١ - ١١٠١ م) أول الحكام النورمان في صقلية على كسب مشاعر المسلمين وخاصة أهالي المدن ، وكان على استعداد لإبرام اتفاقيات معتدلة الشروط عند موافقة هذه المدن على الخضوع لحكم النورمان . وقد جاء في كتابات المؤرخين المسيحيين وإليام الأبوي **Gug-Lielmo puglia** وما لا تراه **Malaterra** أن روجر عند غزوه لمدينة بلرمو وعد المسلمين بعدم التعرض لهم ، وأنه لن يكره أحداً على تبديل دينه . وجاءت في بعض المصادر الاسلامية روايات مشابهة في مضمونها . ومن أهم ما يؤكد هذه السياسة التي اتبعها النورمان كان الادريسي وابن جبير ، وكلاهما كانت له اتصالاته بالأحداث في بلرمو وعلى دراية بأخبارها وتاريخها . فيقول الادريسي في كتابه « نزهة المشتاق » عن سياسة روجر الأول في صقلية : « ولما صار أمرها اليه واستقر بها سريره ملكه ، نشر سيرة العدل في أهلها وأقرهم على أديانهم وشرائعهم وأمنهم في أنفسهم وأموالهم وأهلهم وذرائعهم . ثم أقام على ذلك مدة حياته الى أن وفاه الأجل المحتوم وتقصاه يسومه العلوم » (٢٣) . وقد اتبع خلفاء روجر الأول من الحكام النورمان بشكل عام تلك السياسة التي وضعها في معاملة

الملوك في حاجة للمسلمين للاستفادة من خبراتهم الحضارية ، والاستعانة بهم في شؤون الحكم والادارة ، وخاصة في مواجهة أمرائهم الانقطاعيين الذين دأبوا على محاولة التخلص من النفوذ الملكي على النحو المعروف في النظام الانقطاعي الذي ساد في غرب أوروبا في تلك الآونة . كما كان النورمان في حاجة للقوات العسكرية الاسلامية للاستعانة بها لمواجهة خصومهم في إيطاليا سواء أكان هؤلاء ممثلين في البابوية أو الامبراطور الألماني أو الامبراطور البيزنطي أو الأسراء اللومبارديين أو غيرهم . وكان من المنطق أن تؤدي كافة هذه العوامل الى أن يحرص الملوك النورمان على حسن معاملة المسلمين والتسامح معهم . ولكن هذا التسامح لا بد وأن يكون نسبياً ويقدر ، حتى لا يؤدي ذلك الى تأليب العناصر المسيحية في الجزيرة ضد الملوك النورمان أنفسهم ، أو الى اشتراة المسيحيين ضد المسلمين . ويعني آخر كان على النورمان أن يوجدوا نوعاً من التوازن بين السلطات المختلفة في دولتهم ، وقد اضطرهم ذلك في بعض الاحيان لاجراء بعض التعديلات في مدى التسامح الذي كانوا يطبقونه مع المجتمعات الخاضعة لهم بما في ذلك المجتمع الاسلامي الذي استمتع في العهد النورماني بقدر من التسامح ، إلا أنه عانى كذلك من أنواع كثيرة من القيود والمسايفات في العديد من مظاهر نشاطه مما جعله يشعر بمعاناة شديدة على النحو الذي سوف ننبه فيها بعد .

لم تكن الآثار الأولى لظهور النورمان حسنة بالنسبة للمجتمع الاسلامي فمن ناحية كان النورمان يتحدون السيادة الاسلامية على الجزيرة كما هدد مجيئهم بتحويل المسلمين هناك الى اتباع لهم . وفضلا عن ذلك ، فكانت العمليات العسكرية التي صاحبت مرحلة الغزو النورماني ، لحقت الخسائر بالمسلمين سواء أكان ذلك في أشخاصهم أو في ممتلكاتهم وأراضيهم الزراعية وما عليها

الاسلامية . فال مؤرخ الفرنسي شالاندون Chalandon يرى أن وصف الملك النورماني روجر الثاني بصفة « السلطان الممد » يحمل مبالغة في تقدير المؤثرات الاسلامية في عهد هذا الملك ، ويرى أن في الأمور الدينية والسياسية والإدارية لدى النورمان في صقلية ، كان النفوذ الاغريقي البيزنطي هو الغالب^(٢٤) . وعلى أية حال ، فنحن مع قولنا بأن البلاط النورماني كان يمثل التعايش بين المؤثرات العربية والاغريقية واللاتينية ، لا بد وأن نسجل أهمية المؤثرات الاسلامية وتغلبيها على العديد من النواحي في دولة النورمان في صقلية .

وكانت اللغة العربية إحدى اللغات الثلاثة الأساسية التي استعملتها دولة النورمان في صقلية ، الى جانب اللاتينية والاغريقية . كما أن اللباس والأوامر التي أصدرها بلاط روجر الثاني كانت تكتب بالعربية أو العربية والاغريقية الى جانب كتابتها باللاتينية . وفي حالة عدم توقيع الملك عليها كانت تحمل علامته أو رمزه الرسمي . وكانت علامة الملك وليام الأول (١١٥٤ - ١١٦٦) الحمد لله شكر الأنعمه وعلامة وليام الثاني « غليسم ٢ » (١١٦٦ - ١١٨٩) « الحمد لله حق حمده »^(٢٥) . كما حصل النورمان عملة ضربت عليها كلمات عربية مشتملة على رمز للاسلام وكذلك رمز للمسيحية ، وهذه لا بد وأنها صدرت على نفس النمط الذي ظهر به « الدينار الصوري » في الإمارات الصليبية في الشام . والغرض في كل من الحالتين كان كسب ثقة المسلمين في المعاملات التجارية التي أراد المسيحيون أن يقوموا بها سواء مع المسلمين النابغين لهم أو التجار المسلمين في خارج الممتلكات المسيحية .

المجتمع الاسلامي بالجزيرة ، وإن كانت هذه السياسة قد تراوحت بين الزيادة في التسامح وفرض القيود والضغط على المسلمين ، وفقا للظروف التي مرّ بها الحكم النورماني في الجزيرة . وعلى أية حال فإن ابن جبير الذي زار صقلية وعاصمتها بلرمو في عهد الملك النورماني وليام الثاني (١١٦٦ - ١١٨٩ م) يسجل ملاحظاته الهامة عن أوضاع المسلمين في بلرمو يقول : « وللمسلمين بهذه المدينة رسم بان من الإيمان ، يصمرون أكثر مساجدهم ويقومون الصلاة بأذان مسموع ، ولهم أرباض أنفردوا فيها يسكنهاهم عن التصارى ، والأسواق معمورة بهم وهم التجار فيها ، ولا جمعة لهم بسبب الخطية المحظورة عليهم ، ويصلون في الأعياد بخطبة دعاؤهم فيها للعباسي ، ولهم بها قاض يرتفعون اليه في أحكامهم ، وجامع يجتمعون للصلاة فيه ويغفلون في وقته في هذا الشهر المبارك . وأما المساجد فكثيرة لا تحصى ، وأكثرها محاضر لمعلمي القرآن »^(٢٦) .

واجتذبت مظاهر التحضر والتقدم في المجتمع العربي الاسلامي في بلرمو انتباه النورمان وأثرت في كثير من مظاهر حياتهم ونظمهم ، بل لقد اقتبس ملوكهم من المسلمين الكثير من نظمهم وخبرتهم واستفادوا منها .

مظاهر استعراش نشاط المجتمع الاسلامي في العصر النورماني :

يختلف بعض المؤرخين الحديثين في بيان مدى التأثير الاسلامي على النورمان ، وينادي البعض الآخر بتغليب قوة المؤثرات البيزنطية على المؤثرات

(٢٤) ابن جبير ص ٢٠٥ - ص ٢٠٦

(٢٥) انظر F. Chalandon., II, p. 721.

(٢٦) ابن جبير ص ٢٩٨

وطنه»^(٣١). ولا شك أن ما فعله روجر الثاني مع الجغرافي العربي الادريسي كان حالة واضحة من تلك الحالات التي حرص فيها ملوك النورمان على اجتذاب العلماء من المسلمين وغيرهم وعموما فالحياة التي عاشها وليام الثاني، كان ابن جبير يراه يقلد فيها حياة الحكام المسلمين وادارتهم لشئون دولتهم، فهو يقول: «وليس في ملوك النصارى أثر في الملك ولا أنعم وأرفه منه. وهو ينشبه في الانغماس في تميم الملك وترتيب قوانينه، ووضع أساليبه وتقسيم مراتب رجاله وتفخيم أبهة الملك وإظهار زينته بملوك المسلمين...»^(٣٢).

وكان الأمراء المسلمون، وكبار الموظفين الذين يحملون لقب «الغنيمة» Logothete البيزنطي، وكبار المسؤولين النورمان، وكبار رجال الكنيسة، يعملون جنباً إلى جنب في المجلس الملكي النورماني Curia Regis وهو الهيئة العليا في الحكومة النورمانية. ومن بين أعضاء هذا المجلس كان الملك النورماني يختار أكثر المستشارين قرباً إليه وهم يعرفون باسم familiares. وفي بعض الوثائق النورمانية يجد الباحث أسماء لمسلمين مثل أبي القاسم الذي كان عضواً في المجلس الملكي وأحد أفراد جماعة familiares^(٣٣) ولكن ليس في الإمكان تحديد إذا ما كان هؤلاء الأشخاص قد أبقوا على إسلامهم أو أنهم تحولوا إلى المسيحية.

هذا وكان روجر الثاني يرتدي عبادة الشهيرة على غط الأمراء المسلمين وكانت تزين هذه العبادة نقوش بالخط العربي. وعموما فإن بلاط روجر الثاني في بلرمو يتميز بوضوح المؤثرات الاسلامية. ويذكر المؤرخ ابن الأثير عن روجر الثاني «فسلك طريق ملوك المسلمين من الجنائب والحجاب والسلاحية والجنندارية وغير ذلك وخالف عادة الافرنج فأنهم لا يعرفون شيئا منه...»^(٣٤) ومثلاً كان عليه الخلفاء والفاطميون في القاهرة والعباسيون في بغداد، فقد اتخذ النورمان في بلرمو «الغنيمة» في قصورهم وادارتهم^(٣٥). وكان هؤلاء الغنيمة مكانة خاصة لدى ملوك النورمان، فيذكر عنهم ابن جبير في عهد وليام الثاني: «وأما غنيمة الذين هم عيون دولته وأهل عمارته في ملكه فهم مسلمون»^(٣٦).

ولقد استمرت المؤثرات الاسلامية في البلاط النورماني في عهد كل من وليام الأول ووليام الثاني. ويقول ابن جبير عن وليام الثاني ومعرفته للغة العربية: «ومن عجب شأنه المتحدث به أنه يقرأ ويكتب العربية»^(٣٧) ثم يتحدث عن جواريه وحظاياه في قصره وأنهن من المسلمين^(٣٨). كما يذكر اهتمامه بالعلماء وحرصه على استقطابهم فيقول: «وله الأطباء والمنجمون، وهو كثير الاعتناء بهم، شديد الحرص عليهم، حتى أنه مذكّر له أن طبيباً أو منجماً اجتاز ببلده أمر بامساكه وأدّر له أرزاق معيشته حتى يسليه عن

(٣١) ابن الأثير: الكامل ج ١٠ ص ١٩٨.

(٣٢) ابن جبير ص ٢١٧.

(٣٣) المصدر نفسه ص ٢٩٩.

(٣٤) المصدر نفسه ص ٢٩٨.

(٣٥) المصدر نفسه ص ٢٩٩.

(٣٦) المصدر نفسه ص ٢٩٨.

(٣٧) المصدر نفسه ص ٢٩٨.

(٣٨) انظر: Cusa, I, 484.

وبلاحظ ان التأثير بالمجتمع العربي الاسلامي لم يقتصر على الملوك النورمان وحدهم ، بل امتد الى عناصر مسيحية اخرى في بلرمو . فقد سار النبلاء النورمان واعيانهم على غط الحياة التي عاشها ملكهم والتي اخذت من حياة المسلمين ، وقد كثرت القصور الفاخرة التي اقاموها في ضواحي بلرمو^(٣٦) . اما السيدات المسيحيات فقد اعجبتهن ازياء المسلمين وقلدن في لباسهن . ونفس الشيء فعلته المسيحيات بالنسبة لطريقة التزين عندما اقتدين بزينة المسلمين . وقد سجل ابن جبير هذه الظاهرة ذاكرا : « وزَيَّ النصرانيات في هذه المدينة (بلرمو) زَيَّ نساء المسلمين : فصيححات اللسن ، ملتحفسات ، متقبات ، خرجن هذا العيد وقد لبسن ثياب الحرير المذهب ، والتحفن اللحف الرائعة ، وانتقبن بالنقب الملونة ، وانتعلن الاخفاف المذهبة ، وبرزن لكتنائسهن او كنسهن ، حاملات جميع زينة نساء المسلمين من التحلي والتخضب والتعطر »^(٣٧) .

متاعب المسلمين في بلرمو في العصر النورماني - اسبابها ومظاهرها :

حقيقة ان المجتمع العربي الاسلامي في بلرمو نال قدرا ظاهرا من الحرية في عهد النورمان . كما تمايش مع العناصر المسيحية . بل لقد وجد من المسلمين من احتلوا مراكز مرموقة في المدينة ، الا ان هذه الصورة يجب ألا تحجب الجانب الآخر الذي عاشه المجتمع الاسلامي في هذه الفترة . فان المسلمين بعد ان كانت

وكان لقب أمير *Amiratus* من الانقلاب التي منحتها الأمير روبرت جيسكاردي عدد من المسؤولين في دولته وفي الجهاز الاداري البيروقراطي في بلرمو النورمانية كان لا يزال لقب أمير الامراء هو اللقب المخصص لأكبر موظفي النورمان ، وظل استعماله لفترة طويلة^(٣٨) .

وكان العنصر الاسلامي واضحا في الادارة المالية في بلرمو عاصمة النورمانيين ، ويتفوق في هذا المجال على العنصر الاغريقي . ويدلوان النورمان ابقوا على الادارة المالية العربية المعروفة باسم « ديوان تحقيق المعمور » الذي عرفوه باسم *dohanna de secretis* ، وتعني هذه الادارة بشؤون الاراضي والاقتان المرتبطتين بها . ويرى المؤرخ الشهير اماري ان النورمان اخلوا هذه الادارة عن المسلمين^(٣٩) . وكان هذا الديوان يسجل اعماله في سجلات عرفها النورمان باسم *de-fari* وهي مشتقة من كلمة « دفتر » التي عرفها العرب من قبلهم . وكثير من الوثائق التي وصلت الى ايدينا ترجع الى عهد وليام الثاني وقد كتبت بالعربية كما كتب بعضها بالاغريقية .

وترجع بداية استعمال النورمان لقوات عسكرية اسلامية الى عهد روجر الاول . وبخاطلاط النورمان مع المحاربين المسلمين اخذ الاولون عن الاخيرين بعض فنون القتال . وقد عمل المهندسون العسكريون المسلمون في خدمة النورمان وصنعوا لهم ابراجا ومتناجق متحركة ليستعملوها في عمليات الحصار .

(٣٦) انظر 109، Falcandus

(٣٧) انظر 327، III، SDM، Amari

(٣٨) 2، 740، II، Chalandon

(٣٩) ابن جبير ص ٣٠٧ .

ارجاعها الى اصلها . وكان هذا العمل من اول ما اهتم به روجر الاول مؤسس دولة النورمان ، ويذكر الادريسي كيف ارجع هذا الحاكم الجامع الكبير في بلرمو الى كنيسة^(٣٨) . ويطيعة الحال لم تكن سياسة تحويل مساجد الى كنائس بالامور التي رضى عنها المسلمون او يطمنون اليها .

ومن ناحية اخرى اعلنت البابوية عن رغبةها في تنصير المجتمع الاسلامي ، ونادت بذلك في عدة مناسبات . فالابا اوريان الثاني ، المشغول عن قيام الحركة الصليبية وتوجيهها الى الاراضي المقدسة ضد المسلمين ، قد زار صقلية سنة ١٠٨٨ م ، وكان راغبا في التبشير بالمسيحية بين المسلمين ، وان لم يصادف تجاوبا من جانب روجر الاول الذي كان يجهد ذلك ، لاعتماده على العنصر الاسلامي في مواجهة خصومه من المسيحيين .

وفي عهد وليام الاول تعرض المسلمون لمضايقات من جانب البارونات النورمان . فان المسلمين بالرغم من ولائهم الظاهر للملك النورماني قد أصبحوا موضعاً للوم والمؤاخلة عندما انتصر الموحدون على النورمان عند المهلية ، وقام النورمان بترع السلاح من المسلمين . وبعد نزاع سلاحهم أصبحوا فريسة سهلة امام التلذذ الغاضبين من النورمان واللومبارديين سنة ١١٦١ م . وتم اعدام عدد من الفتيان العاملات في البلاط الملكي ، وعدد من كبار الموظفين المسلمين وفي الاحداث التي تلت ذلك تمسك مسلمو بلرمو بالتدريس في الاحياء الخاصة بهم في المدينة ، الا ان المسيحيين تمكنوا من توجيه ضربات شديدة اليهم تسببت في إلحاق اصابات

لهم السيادة في المدينة أصبحوا تحت سيطرة حكام غرباء يدينون بغير دينهم . ولا بد وان ذكريات ماضيهم المجيد قد اخذت تلاشيهم وهم في وضعهم الجليل كرهايا هؤلاء السادة الغرباء . هذا ولم تكن الحرية التي سمح لهم بها النورمان كاملة بل كانت منقصة بقيود عانى منها المسلمون . وقد تعرضوا كذلك لعدد من المنقصات والمضايقات والمناصب التي يمكن ان نستخلصها بتحليلنا للمصادر التاريخية . هذا وقد ظهرت كذلك عوامل واحداث اسفرت عن تهديد كيان المجتمع الاسلامي في بلرمو واضعاف شأنه بل والقضاء عليه في نهاية الامر .

ومن ابرز هذه العوامل التي ادت الى توالي المناصب والمشاكل بالنسبة للمسلمين كان التغيير في الخريطة السكانية لصقلية على اثر تدفق عناصر المهاجرين المسيحيين اليها من نورماندية وشمال فرنسا واستقرارهم في هذا الوطن الجديد . واصبح الباحث يجد في تاريخ صقلية اسماة فرنسية لعدد من الاقطاعيين وكبار رجال الدين . هذا وقد جاءت كذلك اعداد غفيرة من التاجرين من ايطاليا ، وقامت مستعمرات لومباردية كبيرة في صقلية^(٣٨) . كما هاجر الى صقلية تجار من البندقية وجنوة واملقي وغيرها من المدن الايطالية . واستمرت هذه الموجرات خلال القرن الثالث عشر الميلادي . ويطيعة الحال لم يكن المسلمون وهم في وضع التبعية الجديد ، يشعروا بالطمأنينة امام تدفق هذه العناصر من المهاجرين الذين كان لا بد وان يؤدي ظهورهم الى مضايقة المسلمين في ارضاتهم وتهديد كيانهم .

وان الكنائس التي كان المسلمون قد حولوها الى مساجد عند مجيئهم الى البلاد ، عمد المسيحيون الى

(٣٨) انظر 3- 32- P. 1951 G. Masson: Frederic Hohenstaufen. London 1951

(٣٩) الادريسي ص ٢٨ .

بالمطالبة حتى اظهر فراق دين الاسلام والانغماس في دين النصرانية ، ومهر في حفظ الانجيل ومطالعة سير الروم وحفظ قوانين شريعتهم ، فماد في جملة القسيسين الذين يستقون في الاحكام النصرانية . وربما طرأ حكم اسلامي فسيتقي ايضا فيه لما سبق من معرفته لاحكام الشريعة ، ويقع الوقوف عند فتياه في كلا الحكمين وكان له مسجد بازاء داره اعاده كنيسة ، نعوذ بالله من عواقب الشقاوة وخواتم الضلالة ، ومع ذلك فاعلمنا بانه يكتم ايمانه ، فلمعله داخل تحت الاستثناء في قوله (الا من اكتره وقلبه مطمئن بالايمان)^(٤٣) .

وما ازعج ابن جبير اثناء زيارته كان ما بلغه من ميل بعض المسلمين الى ترك الدين الاسلامي للتخلص من المسؤوليات والروابط الاسرية فيقول : « ومن اعظم ما مني به اهل هذه الجزيرة ان الرجل ربما غضب على ابنه او على زوجته او تغضب المرأة على ابنتها فتلحق المغضوب عليه انفة تؤديه الى التطارح في الكنيسة فيتصرع ويعتمد ، فلا يجد الاب لابن سيلا ولا الام لبلت سيلا . فتخيل حال من عني بمثل هذا في اهله وولده ويقطع عمره متوقعا لوقوع هذه الفتنة فيهم ! فهم الدهر كله في مداراة الاهل والولد خوف هذه الحال »^(٤٤) .

ويصور ابن جبير حرص احد اعيان المسلمين النصارى على مستقبل بناتهم ورغبتهم في تجنبين مستقبل غير سليم بالبقاء في الجزيرة ، ولذا فهو يقدم ابنته الصغيرة الى احد الحجاج المارين بالجزيرة ، آملا ان

بألفة بهم . واضطر المسلمون للهرب الى الغابات والجبال والمدن الواقعة الى الجنوب ، حيث كانت لا تزال توجد جماعات كبيرة من المسلمين^(٤٥) . كما تعرض المسلمون في يلرمو لشعاب اخرى بسبب العناصر المسيحية وذلك في عهد وليام الثاني .

ويزودنا ابن جبير بمعلومات هامة عن معاناة المسلمين وعدم اطمئنانهم على انفسهم في العهد النورماني . وهو اذا كان قد بين ذلك القدر من التسامح الذي عاش في ظله المجتمع الاسلامي في يلرمو ونشاط المسلمين هناك ووصول بعضهم الى مراكز رفيعة في دولة النورمان ، الا ان ابن جبير كان دقيقا في ملاحظاته وتحليله للاوضاع ، ولم يبهو الظاهر المشرق ويشغله عن ملاحظه متاعب المسلمين وقلقهم .

وفي عدة مواضع هامة يذكر ابن جبير كيف اضطر المسلمون لكتنم اسلامهم وعدم الجهر به . فهو يتحدث عن فتيان الملك وليام الثاني ويقول : « وكلهم او اكثرهم كاتم ايمانهم متمسك بشريعة الاسلام »^(٤٦) . ويذكر كذلك جوارى الملك وحظاياه المسلمين ، وما يقمن به من جهود في التبشير بالاسلام بين النصرانيات ويعلق بقسولته : « ومن عسى تكتنم من ملكنهن في ذلك كله »^(٤٧) .

ويذكر ابن جبير رواية هامة عن رجل من اعيان يلرمو وهو احد فقهاها المعروفين ، واسمه الفقيه ابن زرعة ، الذي تعرض لضغط من جانب عمال الملك وليام الثاني ، ويقول ابن جبير في ذلك : « ضغطة العمال

(٤٠) انظر 95- 440, Falcandus, Amari SDM, III.

(٤١) ابن جبير ص ٢٩٧

(٤٢) المصدر نفسه ص ٢٩٩ .

(٤٣) المصدر نفسه ص ٣١٣ .

(٤٤) المصدر نفسه ص ٣١٥ .

ويجمل ابن جبير تصوير حالة المسلمين التي رآها في مدينة بلرمو بقوله : « واجلملة فهم غرباء عن اخوانهم المسلمين تحت ذمة الكفار ولا امن لهم في اموالهم ولا في حرمهم ولا ابناءهم ، تلافاهم الله بصنع جميل منه »^(١٧) .

نهاية المجتمع الاسلامي في بلرمو :

وما يدل على نقصان مكانة المسلمين في بلرمو مع مضي الوقت تلك الظاهرة التي نلاحظها عند دراسة الوثائق والأوامر الملكية النورمانية التي كانت تصدر باللغة العربية . ففي عهد روجر الاول وروجر الثاني كانت اعدادها تتسارع مع اعداد تلك الوثائق التي اصدرت باللغة اللاتينية او الاغريقية . ثم تغيرت هذه النسبة في عهد وليم الاول واصبحت نسبة عدد الوثائق العربية السبع . ثم في عهد وليم الثاني اصبحت العشر اما في الفترة القصيرة التي استغرقها حكم تانكريد اصبحت الوثائق لاتينية في جعلتها^(١٨) .

ولقد تلاشى الوجود الاسلامي في بلرمو وغيرها من البلاد الصقلية عن طريق هجرة من استطاع من المسلمين الى بلاد اسلامية اخرى خارج الجزيرة وكذلك عن طريق تحول بعضهم الى المسيحية هذا بالإضافة الى من هلك في الاضطرابات التي قامت بين المسلمين والمسيحيين . ومع ضعف النفوذ الملكي في نهاية العصر النورماني اصبح بقاء المسلمين متملدا ، حيث ان الطبقة الانتاعية التي استحوذت على السلطة الفعلية تقاربت

باخذها معه الى خارج الجزيرة ليتزوجها او يزوجها لمن يختاره لها . ويعرب ابن جبير عن اشفائه على الاب الذي يفارق ابنته في مثل هذه الظروف^(١٩) .

وان الرواية التي اوردها ابن جبير عن عهد المسيح ، وهو من فتان وليم الثاني واعيان دولته ، لتلقي ضوءا على مشاعر المسلمين في هذا العصر . وهو يقول عنه : « لقينا منهم كمسيسة فقي اسمه عيالمسيح . من وجوههم وكبرائهم ، بعد تقدمه رغبة منه البنا في ذلك ، فاحتفل في كرامتنا وبرنا وياح لنا بسره المكتون بعد مراقبة منه في مجلسه ازالها كل من كان حوله عن يثمه من خدامه عافطة على نفسه . فسألنا عن مكة قدسها الله وعن مشاهداتها المعظمة وعن مشاهد المدينة المقدسة ومشاهد الشام ، فأخبرنا وهو يلذب شوقا وتحرقا ، واستهدى منا بعض ما استصحبنا من الطرف المباركة من مكة والمدينة قدسها الله ورغب في ان لا نبخل عليه بما امكن من ذلك . وقال لنا : انتم مدلون باظهار الاسلام ، فالزور بما قصدتم له رابعون ان شاء الله في متجركم . ونحن كاثلون ايماننا ، خائفون على انفسنا متمسكون بعبادة الله واداء فرائضه سرا معتقون في ملكة كافر بالله ، قد وضع في اصفاننا ريقة الرق ، ففانينا التبرك بلبقاء امثالكم من الحجاج ، واستهداء ادعيهم ، والاختياط بما تلقاه منهم من تحف تلك المشاهد المقدسة ، لتخذلها عدلة للامان ، وذخيرة للاكفان فتعطرت قلوبنا اشفاقا ودعونا له بحسن الخاتمة ، واخففناه بعض ما كان عندنا مما رغب فيه . وابلغ في عجزاتنا ومكافئاتنا ، واستكتمنا سائر اخوانه من الفتان^(٢٠) » .

(١٥) المصدر نفسه ص ٣١٦ .

(١٦) المصدر نفسه ص ٢٩٩ - ص ٣٠٠ .

(١٧) المصدر نفسه ص ٣٠٦ .

(١٨) انظر 417، Curia .

واستحوذت على قدر هائل من الثراء ، بسبب نشاطها التجاري بشكل خاص ، حي ان دخلها أصبح اكبر من دخل مملكة انجلترا النورمانية باكملها . وقد استغلت بلرمو هذه الثروة في اقامة مجموعة من المنشآت والمباني الفاخرة حتى أصبحت اجمل مدن الغرب الاوروي ، وكان من بدائع آثارها المعمارية ، القبة Cubola التي اقيمت وسط الحدائق الجميلة ، وهي تشهد بتأثير الطراز العربي الاسلامي ، وهناك ايضا قصر القبة La Cuba الذي يبين هو وغيره من الآثار الجميلة المؤثرات الاسلامية .

وعندما يكتب ابن جبير مقبلا أهمية بلرمو ، قائلا عنها : « هي هذه الجزائر ام الحضارة »^(٥٠) فيجب ان نتذكر ماضيها ودورها كميّدة للقاء الحضاري على مر العصور . كما يجب ان نسجل للمجتمع العربي الاسلامي الذي قام بها زمنا طويلا ، ما كان له من افضال ومآثر كمجتمع حضاري معطاء .

عن ذلك ، فانه مما يبرز أهمية الدور الذي قام به المسلمون انه كان في قلب جزيرة صقلية ، التي تعتبر بحق معبرا من المعابر الاساسية للحضارة العربية الاسلامية الى الغرب الاوروي في العصور الوسطى .

مع الكنيسة ، وكانت هذه ترى في العمل على تحويل المسلمين الى المسيحية عملا صالحا^(٥١) . كما تعرض المسلمون لمذابيح في سنة ١١٨٩ - سنة ١١٩٠ . وان الامبراطور فريديريك الثاني ، مع تقديره للثقافة الاسلامية ، الا انه وجه ضربه الاخيرة الى العناصر الاسلامية التي اعتبرها مصدر شغب ، ونفى معظم المتبقين الى مدينة لوجارة Lucera في أبوليا (سنة ١٢٤٩م) وبذلك وضع نهاية لوجود المسلمين في صقلية في منتصف القرن الثالث عشر الميلادي .

الا ان هذه المتاعب والشعور بالامس والقلق بل والاضطهاد الذي عانى منه المجتمع العربي الاسلامي في بلرمو في العهد النورماني ، يجب الا تحجب عنا ذلك الحطاء الحضاري الذي قدمه هذا المجتمع للغرب الاوروي . فان للمجتمع المذكور بالرغم من تبعيته السياسية لحاكم اجنبي ، ظل نشطا وسخيا في عطائه الحضاري على ما تشهد به المصادر التاريخية . وقد اسهم بدور كبير في الوصول لمدينة بلرمو بعد ان أصبحت عاصمة للنورمان ، الى ما وصلت اليه من مكانة رفيعة . فقد أصبحت مركزا فكريا غنيا بعلمائه ونشاطه العلمي . كما حققت بلرمو تطورا اقتصاديا كبيرا

(٤٩) انظر "L'a politique Arabe", Gabrieli, 92.

(٥٠) ابن جبير ص ٣٠٩

المراجع العربية :

- ماري (ميخائيل) ، المكتبة العربية المصغلة (جمع وتحقيق) ، ليسك ١٨٥٧ - بغداد ، طبعة الاوفست ، مكتبة المنى .
- ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ، بيروت ١٩٦٤ .
- ابن جبير ، رحلة ابن جبير ، بيروت ١٩٦٤ .
- ابن حوقل ، كتاب صورة الارض ، بيروت ، منشورات مكتبة الحيلة .
- ابن خلدون ، عبدالرحمن ، المقدمة ، تحقيق علي عبدالواحد وافي ، القاهرة لجنة البيان العربي (ط ٢) ١٩٦٥ .
- عاشور سميد اوريا المصور الوسطى ، ج ٢ النبطيات والحضارة والنظم - القاهرة ، مكتبة الانجلو ١٩٧٨ .
- عباس احسان ، العرب في صقلية ، دراسة في التاريخ والادب ، القاهرة ١٩٥٩ .
- والاس هادويل : اوروبا في صدر المصور الوسطى (تعريب وتقديم وتعليق د . حياة الحجي) الكويت ، مؤسسة الصباح ، ١٩٧٩ .

المراجع الاجنبية :

Amari, Michele,

— Storia dei Musulmani di Sicilia. 3 vols.

cura di Nallino, Seconda edizione, Catania, 1933-1939.

— Le Epigrafi Arabiche di Sicilia, Palermo, 1875-85.

Chalandon, F., "La Diplomatique des Normands de Sicile et de Itali, meridionale, "Meienges d'archeologie et d'histoire, Ecole Francaise de Rome, XX, Rome 1900.

— Histoire de la domination normande en Italie et en Sicile, Paris 1907.

Curtis, E., Roger of Sicily and the Normans in Lower Italy 1016-1154. New York 1912.

Cusa, S., Diplomi gerici e arabi di Sicilia, Palermo 1860-1882.

Daniel, N., The Arabs and Medieval Europe, New York 1979.

Falcandus, H., La Historia o regno Siciilie e la Epistola ad Petrum Panormitane Ecclesie these ... Rome 1904.

Haskins, C.H.,

—The Normans in Europe'n dilstory, Boston 1915.

—Norman Institutions.

— "Science at the Court of Frederick" in Studies in the History of Medieval Science, Cambridge 1927.

Setton, K., (ed.) A History of the Crusades, vol I & II, Philadelphia 1958.

Waern, C., Medieval Sicily, 1910.

منذ نهاية الحرب العالمية الثانية بدأت الدراسات المستقبلية تأخذ الطابع العلمي الذي حدا بالبعض إلى الدعوة إلى قيام علم جديد هو علم المستقبل Futurology ، أو علم دراسة المستقبل - Disci- pline of Studying the Future . وقد شهدت ثلاثة العقود الأخيرة بالذات طفرة في هذا المجال تمثلت في عقد العديد من الندوات والمؤتمرات على المستوى القومي والاقليمي والعالمي ، حيث تخطت طرح صور مستقبل العالم ومستقبل المجتمعات إلى مناقشة المناهج والأساليب العلمية التي تكفل أكبر قدر من الموضوعية في رسم هذه الصور وفي تحديد أبعادها ، كما تطلت هذه الطفرة أيضا في إنشاء العديد من الهيئات والمؤسسات العلمية المعنية بالبحوث المستقبلية ، وفي توافر علماء ومفكرين مختلف تخصصاتهم وتجمع بينهم النظرة العلمية على تطويع مناهج البحث المعروفة لكي تلائم البحوث المستقبلية ، بل وعمل لإبداع مناهج وأساليب بحث تنفق وطبيعة البحث العلمي الذي يشكل المستقبل موضوع اهتمامه .

المنهج في البحوث المستقبلية

ورغم هذا ، فلا يزال الاهتمام بموضوع المنهج - وموضوع النظرية أيضا - في البحوث والدراسات المستقبلية لا يحظى إلا بالنزر اليسير من الجهد العلمي إذا قيس بالجهد الموجه أساسا إلى إجراء البحوث والدراسات المستقبلية في حد ذاتها^(١) .

ناهر صيلح

مستشار بالمركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية - القاهرة

وقبل أن نتناول مناهج وأساليب البحث المستخدمة في الدراسات والبحوث المستقبلية نعرض للمداخل approaches المختلفة لهذه الدراسات والبحوث نظرا لأن المنهج الذي يختاره الباحث ، وأساليب البحث

الذي يتقيه أو يبدعه لدراسة موضوع ما يتوقف إلى حد كبير على مدخله في تناول هذا الموضوع .

المدخل في البحوث المستقبلية :

البحوث المستقبلية تمثل مجال اهتمام وأرضا مشتركة لتخصصات علمية متنوعة ، لذلك كان من الطبيعي أن نتوقع أن يختلف مدخل الباحث باختلاف تخصصه الأكاديمي ، وكان من الطبيعي أن يختلف مدخل عالم الرياضيات عن مدخل عالم الاجتماع عن مدخل عالم الطبيعة عن مدخل عالم السياسة . . إلخ . بل إن الانتماء الأيديولوجي للباحث في داخل التخصص الواحد يفرض عليه مدخلا يتفق ورؤيته المستقبلية لحركة المجتمع . بل إننا لا نكون مغالين إذا قلنا إن انتماء الباحث - أيما ما كانت الأيديولوجية التي يأخذ بها - إلى دولة متقدمة أو دولة نامية يلعب دوره في تحديد مدخله في الدراسة المستقبلية أو البحث المستقبلي الذي يجريه . ويكفي أن نرجع إلى الدراسات والبحوث المستقبلية في كل من أوروبا وأمريكا لتكتشف كيف أثر الاختلاف الثقافي في المدخل السائد في هذا النوع من البحوث والدراسات ، حيث تتبع دول أوروبا مدخلا نظريا *theoretical approach* ، بينما يوصف المدخل الذي يتبع في أمريكا بأنه مدخل براجماتي *Pramatic approach* .

وعموما فإنه نظرا لأن هناك أكثر من عامل يحدد مدخل الباحث أو منحاه للتوصل إلى تكمهاته أو تنبؤاته التي تتناول المستقبل ، فإنه يمكننا أن نصف هذه المداخل وفقا لأكثر من معيار :

أولا : المدخل المحافظ Conservative في مقابل المدخل الراديكالي Radical .

ثانيا : المدخل الكمي Quantitative في مقابل المدخل الكيفي Qualitative .

ثالثا : المدخل الموضوعي Objective في مقابل المدخل الذاتي Subjective .

رابعا : المدخل الجزئي في مقابل المدخل الكلي .

أولا : المدخل المحافظ في مقابل المدخل الراديكالي :

إذا استعرضنا التراث العلمي في مجال الدراسات المستقبلية فإنه يمكننا أن نصنفه إلى دراسات هي بمثابة إسقاطات *Projections* ، وأخرى يمكن اعتبارها من قبيل التنبؤات *Predictions* ، كل منها يعكس رؤية مختلفة ويعبر عن اختيار مختلف للمدخل الملائم لرسم صورة المستقبل .

يقوم المدخل الأول على أساس أن عالم الغد هو امتداد لعالم اليوم الذي هو بدوره امتداد لعالم الأمس ، وإن اختلاف المستقبل عن الحاضر عن الماضي القريب هو اختلاف في الدرجة لا اختلاف في النوع ، فالتغير الذي سيحدث بالنسبة للمستقبل هو تغير كمي أساسا أكثر منه تغيرا كيفيا . هو تغير في الكم ، في الحجم ، في السرعة . . إلخ . . فالمتقبل سيكون مشابها للحاضر وللماضي إلى حد كبير ، ولكنه سيكون أكثر منه تشبها بالنزعة العلمانية ، بزيادة درجة التحضر ، بزيادة النمو الاقتصادي ، بامتداد السيطرة التكنولوجية على

في الحاضر ، يكون من شأنه إحداث تغير كيمي ، من شأنه ألا يصبح المستقبل مجرد امتداد للحاضر . بل يجب النظر إلى المستقبل على أنه يمثل نقبضا للحاضر إن لم يكن نقبضه في كافة جوانبه فغي بعضها .

وأصحاب هذا المدخل يرون أن أسلوب التنبؤ بالمستقبل يقوم على أساس نوع من التخيل imagination إلا أنهم يرفضون التخيل المنطقي Logical imagination السائد في أغلب أساليب البحث التي يعتمد عليها الذين ينجحون مدخلا عافظا في دراستهم للمستقبل ، هذا النوع من التخيل الذي يحاول تغطي الفجوة بين ما هو معروف في الحاضر وما هو مجهول في المستقبل عن طريق نوع من الاسقاط العقلاني rational projection ، وهم في رفضهم لهذا المدخل يرفضون كافة أساليب البحث التي يتبعها أصحاب المدخل المحافظ ، فيرفضون أبسط أنواع هذه الأساليب التي تقوم على التقدير الاستقرائي ، والتي تمتد إلى التخيل المنطقي مثل مد المنحنيات ، كما يرفضون الأساليب الأكثر تطورا وتعقيدا مثل أسلوب تحليل النظم System Analysis والأسلوب المعروف في الدراسات المستقبلية باسم الأسلوب المورفولوجي The Morphological technique وأسلوب بناء النماذج Models كما يستخدمها أصحاب المدخل الاستطلاعي .

وهم يرون أيضا أن محاولات التنبؤ المعياري التي تقوم على أساس رسم صورة معيارية normative للمستقبل المرغوب في تحقيقه والتي قد تبدو ظاهريا أبا غير مرتبطة بالحاضر ، هي في الواقع مرتبطة به بحيث يمكن تتبع الخطوات المنطقية التي من خلالها تنتقل من الحاضر إلى المستقبل المعياري هذا .

الطبيعة ، بارتفاع متوسط الدخل الفردي ، بتزايد استهلاك الطاقة ، بالتوسع في إحلال الأساليب والنظم الآلية والالكترونية محل الوظائف الانسانية . . إلخ . فهو مدخل يرى أن كل شيء في المستقبل سيكون في جوهره أو أساسه كما هو حاليا ، وأن ما سوف يميز المستقبل عن الحاضر هو التغير الكمي . فالمنحنيات تستمر في ارتفاعها ، والمستقبل سلسلة لا نهائية من المخترعات الانسانية ، والتحسين في الانتاج والخدمات يسير في الخطوط التي حدد الحاضر مسارها الفعلي .

هذا المدخل يقوم إذا على أساس رؤية المستقبل كتقدير إسقاطي لما يكشف عنه الحاضر والماضي القريب . فالتنبؤ بالمستقبل يتم على أساس استقراء للماضي والحاضر .

ولا يشترط أن تتسم نظرة أصحاب هذا المدخل المحافظ بالنظرة المتفائلة ، بل إنه يضم أيضا هؤلاء الذين يغلب التشاؤم على نظرتهم للمستقبل . فهم إذ يركزون مثلا على مشكلة استنزاف الموارد الطبيعية ، ونقص الطاقة وزيادة تلوث البيئة . . إلخ إنما يتجهون في تنبؤاتهم هذه نفس المدخل المحافظ ، فهم يرون أن موارد اليوم هي موارد الند وأن مشكلات المستقبل توجد بدايتها في الحاضر^(٣) .

وفي مقابل هذا المدخل الذي يمكن اعتباره مدخلا عافظا ، والذي ينظر إلى المستقبل كامتداد للحاضر ، ويبنى رؤيته له على أساس أنه نتاج لتغير كمي ، يوجد مدخل أكثر ثبوت رؤيته المستقبلية على أساس تصور انبثاق تكنولوجيا جديدة فعالة ، أو تنظم اجتماعي جديد ، أو مختلف تماما عن التنظيم الاجتماعي الموجود

ولقدوته الحدسية والابداعية مثل الأسلوب المعروف باسم أسلوب دلفي Delphi technique وأسلوب السيناريو Scenario وغيرها من الأساليب .

ثانيا : المدخل الكمي في مقابل المدخل الكيفي :

يمكن أن تصنف البحوث والدراسات المستقبلية وفقا لمعيار آخر هو طبيعة المدخل الذي اعتمدت عليه . هل هو مدخل كمي ، حيث يعتمد الباحث في رؤيته للمستقبل على بيانات كمية يقوم بتحليلها ؟ أم هو مدخل كيفي يستند فيه الباحث إلى استبصارات وقيم وإلى أحكام كيفية . هذان المدخلان مختلفان تماما ويمكسان أسلوبين للتفكير متضادين كلية . فالعالم أو الباحث الذي يأخذ بالمدخل الكمي يتم في رؤيته المستقبلية بأشياء مختلفة تماما عن العالم أو الباحث الذي يأخذ بالمدخل الكيفي . بحيث إننا قد نأخذ انطباعا بأن كلا منهما لم يستمع إلى الآخر أو حتى سمع به .

أصحاب المدخل الكمي يصلون إلى تنبؤات مبنية على أساس كمي ، مستندة إلى حقائق وأرقام عن السكان ، قوة العمل ، الدخل القومي ، الناتج الزراعي ، استهلاك الطاقة ، درجة التحضر ، توقعات الحياة . . . إلخ . . . ويعتمدون على قياس اتجاهات التغيرات والعلاقات بينها ، ثم يحاولون رسم صورة للمستقبل في ضوء هذه الحقائق والبيانات الكمية ، أو يقول أدق الحقائق التي يمكن التعبير عنها ومعالجتها كميًا .

فأصحاب المدخل الراديكالي يشنون تنبؤاتهم عن المستقبل على أساس التخيل الإبداعي - Creative imagination الذي يعتمد على إسقاط الحاضر على المستقبل ، أو على تجميع للاتجاهات trends الموجودة في الحاضر أو اتخاذ مسار معاكس لها ، وإثما هو يعني صورة المستقبل على أساس بداية راديكالية بداية لا تستند إلى الحاضر وإلى ما هو متوقع بناء على استقراره . ويرى أصحاب هذا المدخل أن استقرار تاريخ العلم وتاريخ الفن وتاريخ الحضارة يؤيد مدخلهم هذا^(٤) .

ومن هنا فإن أصحاب هذا المدخل يرون أن أي شيء يمكن للمعقل البشري أن يتصوره فإنه يمكن تحقيقه طالما أنه لا يتعارض مع القوانين الطبيعية ، وهم في هذا لا يفرقون بين الممكن Possible وبين المتوقع أو المحتمل Probable إذ هم في تصورهم للمستقبل اليوتوبي Utopian Future يتجاهلون كافة الصعاب والمشكلات التي قد تحول دون إمكانية تحقيقه . إنهم لا يهتمون بتحديد كيف تنتقل من الوضع الحالي إلى المستقبل المتخيل هذا . إنهم يتغاضون عن كافة الديناميات المعقدة التي تسم عالمنا الواقعي الأمر الذي جعل البعض يرى أن أصحاب هذا المدخل لا يختلفون كثيرا عن أصحاب الأدب العلمي الخيالي^(٥) .

وإذا كان أصحاب المدخل المحافظ يحكم طبيعة مدخلهم يعتمدون في تنبؤاتهم المستقبلية على أساليب بحث ترتكز إلى بيانات واقعية وتستند إلى الحاضر ، فإن أصحاب المدخل الراديكالي يحكم طبيعة مدخلهم أيضا يعتمدون على أساليب بحث تطلق العنان لخيال الباحث

Robert Jungk, "Imagination and the future" Int. Social Science Journal, Vol. XXI, No. 4, (٤) 1969, pp. 559-561.

Robert U. Ayres, op. cit., p. 5

(٥)

فيهمم بالاغتراب واللامبالاة ، والجريمة والتفكك الاجتماعي والانحدار الأعلاقي . . الخ . .

وعلى الرغم من أن أصحاب هذا المدخل يتمتعون بعوامل على جانب عظيم من الأهمية قد يفتلها غمما أصحاب المدخل الكمي ، إلا أن تفاضلهم في تنبؤاتهم المستقبلية عن تقدير اتجاهات بعض المتغيرات الكمية الهامة التي تؤثر فعلا على العوامل الكيفية التي يقصرون اهتمامهم عليها ، تعيب تنبؤاتهم هذه ، فاما كما يعيب تنبؤات أصحاب المدخل الكمي إغفالهم للعوامل الكيفية . ويمكن تفسير كلا الموقفين بأنه عدم إدراك للعلاقة بين التغير الكمي والتغير الكيفي ، والتي مؤداها أن التغيرات الكمية تحدث تغيرات كيفية كما أن التغيرات الكيفية من شأنها أن تحدث تغيرات كمية^(٨) .

ثالثا : المدخل الموضوعي في مقابل المدخل الذاتي :

المعيار الثالث الذي يمكن أن تصنف بناء عليه الدراسات والبحوث المستقبلية هو معيار الموضوعية والذاتية . هل مدخل الباحث في تصوره للمستقبل مدخل علمي ، مدخل موضوعي ، أم أن مدخله مدخل غير علمي مدخل ذاتي أقرب إلى العمل الفني منه إلى العمل العلمي ؟

إذا كان من الممكن التأكد من توافر الموضوعية ، التي هي جوهر العلم وأساس المنهج العلمي ، في البحوث والدراسات التي تتخذ من الحاضر مجالاً لها ، إلا أن صعوبة ذلك تبدو واضحة للغاية بالنسبة للبحوث

وأصحاب هذا المدخل هم عادة من العلماء المتمكنين من الأساليب الرياضية ، من العلماء المتوسمين على بناء النماذج وعلى كيفية الاستفادة من الحاسبات الالكترونية ، بحيث تصبح عملية بناء النموذج وإدخال التحسينات عليه هي شغلهم الشاغل ، ويصبح النموذج وما يشتمل عليه من متغيرات هو المسيطر على رؤيتهم المستقبلية . علما بأن النموذج هو بمثابة تمهيد لبعض المتغيرات التي يمكن بحكم طبيعتها ، وليس بحكم الأهمية التي تمثلها في العالم الحقيقي ، إدخالها في بناء النموذج . ومن ثم فإن العوامل التي تقبل التكيم هي فقط التي تحكم تنبؤات العلماء والباحثين الذين يأخذون بالمدخل الكمي أما المتغيرات الأخرى الكيفية والتي تتعلق بالتنظيم السياسي ، والبناء الاجتماعي ، والعلاقات الاجتماعية ، والاحتياجات النفسية . . والتي قد لا تقبل للمعالجة الكمية لأنها تستبعد من جانب أصحاب هذا المدخل^(٩) .

في الطرف المقابل يوجد المدخل الكيفي الذي يرى أصحابه أن المدخل الكمي يقدم صورة ناقصة للمستقبل نظرا لأن طبيعة وخصائص المستقبل تحد إلى حد بعيد بالتغيرات الكيفية لا الكمية^(١٠) .

وأصحاب المدخل الكيفي يتمتعون فاما في رؤيتهم للمستقبل عن النماذج والبيانات الكمية ، سواء بمحض اختيارهم أو نتيجة لعدم قدرتهم على استخدام الأساليب الرياضية . وهم يركزون على الجوانب الكيفية كنوعية الحياة Quality of life وإمكانيات التكنولوجيا لحل المشكلات ، ومنهم من تغلب عليه النزعة التشاؤمية

Ibid, pp. 11-12

Robert Jungk, *Imagination and the future*, p. 558.

Ibid., pp. 13-14.

(٦)

(٧)

(٨)

هنا أن يذكر مسبقا ، ويقدر من الدقة احتمال الصحة المتوقعة للتنبؤ . وهذا يعني أن النظرية أو الاطار النظري الذي يستند اليه التنبؤ ذو طبيعة تصادفية Stochastic حيث تدخل بجانب المتغيرات المحددة ، المتغيرات العشوائية التي يمكن اعطاؤها سلسلة من القيم كل قيمة تكون لها درجة احتمالية معينة .

هذه هي أهم المتطلبات التي حرص العلماء على ابرازها والتي يمكن بناء على الالتزام بها الحكم على مدخل الباحث في تنبؤ هل هو مدخل موضوعي أم مدخل ذاتي . فالحد الأدنى من الموضوعية يستلزم أن توضح الخطوات والاجراءات والأساليب التي اتبعها الباحث في التوصل الى صورة المستقبل ، وأن يحدد الاطار النظري الذي استند اليه لذلك ، والفترة الزمنية التي يشملها تنبؤه ، والاحتمالات المتوقعة لصحته ، والشروط اللازم توافرها لذلك . كل هذا استنادا الى معلومات وملاحظات بحيث يمكن في النهاية أن تقوم التنبؤات التي يتوصل اليها تقديما علميا . أما الدراسات المستقبلية التي توصف بالذاتية فهي تلك التي تقتصر الى كل هذه المتطلبات العلمية أو أغلبها ، وفيها يعجز القاصم بها عن شرح كيف توصل الى تنبؤاته فهي عادة تنبئ عن رؤية جشطنية حدسية ، تعكس ذاتية الفرد وخبراته الخاصة ، وبالتالي فهي أقرب الى العمل الفني منها الى العمل العلمي .

وقد تمثلت طبيعة المدخل من حيث كونه مدخلا موضوعيا أو ذاتيا في طبيعة أساليب البحث المستخدمة في الدراسات المستقبلية والتي يعتمد عليها الباحث في التوصل لتنبؤاته ، فبينما نجد بعضها يتصف بكونه

والدراسات التي يشكل المستقبل موضوعا لها . ورغم ذلك فقد حاول العلماء من المهتمين بتقويم الدراسات المستقبلية وضع بعض المتطلبات التي يحقق توافرها الطابع العلمي لهذه الدراسات والتي يلتزم بأغلبها ان لم يكن بها كلها أصحاب المدخل الموضوعي . من أهم هذه المتطلبات ما يلي^(٩):

أ - يجب أن يكون التنبؤ قابلا للتحقق من مدى صحته . وهذا يستلزم أن تتميز المفاهيم المستخدمة بالدقة العلمية وأن تحدد بوضوح الفترة الزمنية التي يشملها التنبؤ تماما ، بحيث يمكن بعد مرور هذه الفترة أن نحدد بدقة تحت أي ظروف تحققت صحة هذا التنبؤ ، ولي أي ظروف ثبتت عدم صحته .

ب - تستلزم الموضوعية أن يتمكن باحثون آخرون غير الباحث الذي قام بالتنبؤ بتتبع الخطوات التي وصل بمقتضاها الى تنبؤاته عن المستقبل ، خطوة خطوة أو بقول آخر معرفة الميكانيزم الخاص بالتنبؤ . وهذا يستلزم أن يستند التنبؤ الى نظرية أو على الأقل الى اطار نظري إلهاما كانت درجة بساطته . وهذا يعني في رأي البعض أن اسلوب التنبؤ لابد وأن يبدأ بتكوين نموذج نظري Theoretical Model يكون بمثابة تجريد للعمليات التي تحدث في الواقع خلال فترة زمنية محددة .

ج - لكي تصنف الدراسة المستقبلية والتنبؤات المبنية عليها بالموضوعية والعلمية ، ولا بد وأن تستند الى معلومات أي الى ملاحظات ، حتى ولو كانت درجة دقتها منخفضة .

د - يجب أن يحدد ثبات reliability التنبؤ ، ومعناه

التنبؤات التي تتناول نواحي معينة في المجتمع مثل النمو الحضري ، التعليم ، الصحة ، الفن ، الفنانين ، الأخلاق والأثار المترتبة على التقدم العلمي والتكنولوجي ، لانتزال متخلفة بالنسبة للتنبؤات الاقتصادية نظرا لأنها تعتبر ، وفقا لهذا الاتجاه جانباً فرعياً أو ثانوياً بالنسبة للجانب الاقتصادي في المجتمع^(١٠) .

وفي مقابل الاتجاه السابق ، يوجد فريق من العلماء يرى أن التنبؤات الاقتصادية ما هي الا جانب واحد من التنبؤات الاجتماعية وأنه يجب ادراك وفهم العمليات الاجتماعية في أوسع معنى لها كعمليات تشمل كافة الأنشطة الخاصة بالمجتمع الانساني الذي يمثل النشاط الاقتصادي جانباً واحداً منها فقط .

وإذا كان الاهتمام عموماً بالجانب الاقتصادي في رسم صورة المستقبل قد مهد الطريق لادخال أبعاد اجتماعية أخرى في هذه الصورة ، فان طرح فكرة المستقبل المرغوب في تحقيقه Desirable Future في مقابل الاكتفاء بالمستقبل المتوقع أو المحتمل محققه Probable Future ، يفرض الاهتمام ببعد اجتماعي له أهميته وهو الخاص بالقيم ، Values ، طالما أن القيم هي جوهر الصورة التي ترسم للمستقبل المرغوب فيه . ومن هنا اتسع الاهتمام - رغم أنه لا يزال محدوداً - بكافة أبعاد البناء الاجتماعي ومكوناته الثقافية نظراً لأن القيم تمثل المحيط الذي يمتد بين كافة هذه الأبعاد والمكونات ويربط بينها .

واليوم أصبح يوجد مدخل واضح يبنه عدد من العلماء المهتمين بالبحوث المستقبلية والذين يتميزون

أسلوباً علمياً نجد البعض الآخر يوصف بأنه أسلوب فني أكثر من كونه أسلوباً علمياً .

رابعا : المدخل الجزئي في مقابل المدخل الكلي :

المعيار الأخير الذي يمكن أن تصنف وفقا له الدراسات والبحوث المستقبلية من حيث مدخلها في الدراسة ، هو مدى محدودة أو شمول هذا المدخل . هل هو مدخل جزئي يعني رؤيته المستقبلية على أساس الاهتمام بالتغير في جانب واحد من المجتمع ، بالتغير التكنولوجي أو التغيرات الاقتصادية مثلا ؟ . أم هو مدخل يعني تصوره للمستقبل على أساس ادراك لطبيعة المجتمع ككل متشابك ، حيث لا يمكن تصور تغير تكنولوجي أو اقتصادي في عزلة عن كافة أبعاد البناء الاجتماعي ومكوناته الثقافية ؟

إذا تتبعنا التاريخ القصير للتنبؤات العلمية عن المستقبل ، نجد أن الاهتمام كان منصباً منذ البداية على تلك التنبؤات التي ترسم صورة المستقبل باعتبار أنه نتاج للتقدم العلمي والتقدم التكنولوجي . ثم بدأت التنبؤات العلمية والتكنولوجية بالتدرج تفسح مجالاً للتنبؤات الاقتصادية . وهنا نشعت هذه التنبؤات المتجاهين . اتجاه يرى أصحابه أنه في مجال التنبؤات الاجتماعية فان التنبؤ يكون ممكناً فقط بالنسبة للجوانب الاقتصادية ، أما الجوانب الاجتماعية الأخرى فهي بحكم طبيعتها ، وفقاً لرأيهم ، لا يمكن تناولها الا في حدود ارتباطها بالجوانب الاقتصادية . فالتنبؤات الاجتماعية بما في ذلك التنبؤات الديموجرافية التنبؤات التي تتناول الجوانب المتعلقة ببناء المجتمع وثقافته ،

Igor Bestuzhev-Lada, "Forecasting an approach to the problem of the future", Int. Social Science Journal, Vol. XXI, No. 4, 1969, pp. 530-531.

أنماط البحوث المستقبلية :

إن اختيار الباحث للمدخل الذي يتخذه في دراسته المستقبلية سواء كان مدخلا محافظا أو راديكاليا ، مدخلا اسقاطيا أو تنبؤيا ، مدخلا كميا أو كيفيا ، مدخلا موضوعيا أو ذاتيا ، مدخلا جزئيا أو كليا يعكس رؤية الباحث للمستقبل ونطاق خبرته العلمية ، كما ينعكس بدوره على نمط الدراسة المستقبلية التي ينتهي إليها .

ويمكننا أن نميز بين نمطين أساسيين من الدراسات المستقبلية ، النمط الأول هو النمط الاستطلاعي أو الاستكشافي Exploratory Type ، ويهدف أساسا إلى استكشاف صورة المستقبل المتوقع أو المحتمل Probable Future أو المستقبل الممكن تحقيقه Possible Future . ويقابل هذا النمط النمط المعياري Normative Type وفيه يتخطى الباحث المستقبل المتوقع الممكن تحقيقه ، إلى رسم صورة المستقبل المرغوب في تحقيقه Desirable Future (١٤)

في النمط الأول من الدراسات التنبؤية يتميز مدخل الباحث عادة بأنه مدخل محافظ ، مدخل اسقاطي ، مدخل كمّي ، مدخل يتحقق فيه قدر كبير من الموضوعية . في النمط الثاني يتميز مدخل الباحث عادة بأنه مدخل راديكالي ، مدخل كيفي يعتمد على الحدس والخيال والأبداع ، مدخل يتميز بقدر أعلى من الذاتية حيث تتدخل القيم والأهداف في رسم صورة المستقبل المرغوب في تحقيقه .

بالرؤية الكلية الشاملة ينظر إلى المستقبل باعتباره كلا متكاملًا ، مدركًا أن اتساع النظرة وشمولها ليس مرادفاً لعمقها ، فمجرد ادخال كافة العوامل أو مجرد التراكم في البيانات ليس يكافئ لادراك ديناميات المكونات المختلفة ، والعلاقات المتبادلة بينها ، والتفاعل بين العوامل الموضوعية والذاتية ، هذا الإدراك الذي هو لب المدخل الشامل الحق في التنبؤ بالمستقبل . (١٥)

وعموما فقد انعكس هذا المدخل بصورة مباشرة على أساليب البحث المستخدمة في رسم صورة المستقبل بحيث أصبحت لاكتفي بالدعوة إلى ضرورة وجود العالم الذي يتميز بالرؤية العامة generalist (١٦) بل أصبحت تعتمد على عمل الفريق البحثي وعلى التفاعل ، سواء المباشر أو غير المباشر ، بين آراء الخبراء والتخصصين في كافة المجالات ، وعلى الأساليب المتقدمة في تحليل النظم وفي بناء النماذج وخاصة نماذج المحاكاة Simulation Models ، فضلا عن استخدام امكانيات الحاسبات الالكترونية ، وابداع أساليب تحليل تتيح امكانية الربط بين الرؤية النظرية ، وبين النتائج المستخلصة من الدراسات الواقعية (١٧) ، كل هذا بهدف تحقيق رؤية شاملة ودقيقة ، على قدر الامكان ، لصورة المستقبل سواء المستقبل المتوقع أو المستقبل الممكن أو المستقبل المرغوب في تحقيقه .



Radovan Richta and Ota Sulc, op. cit., pp. 564-565.

(١١)

Ibid., p. 565.

(١٢)

Ibid., pp. 570-571.

(١٣)

Robert Jungk, "Breakthrough to tomorrow", op. cit., pp. 12-14.

(١٤)

والبيانات جميعها في التوصل الى تنبؤاته المستقبلية ،
مستعينا في ذلك بأساليب التحليل الرياضية والاحصائية
وامكانيات الحسابات الالكترونية ، وبأسلوب تحليل
النظم System Analysis ، وبيحوث العمليات
Operation research فضلا عن تكوين
النماذج .

ومن أمثلة أساليب البحث التي تعتمد عليها البحوث
الاستطلاعية المستقبلية ، الأسلوب المسمى باسم
Contextual Mapping وهو يعتمد على كل من
العناصر الكيفية والكمية ، ويضع التفاعل المتبادل بين
اتجاهات المتغيرات والعلاقات السببية ، والفرص
المحتملة للنمو تحت ظروف معينة ، كامكانيات
تكنولوجية جديدة ، في إطار أو سياق عمليات النمو
الاجتماعي المتوقع في المستقبل وأبنية هذا المستقبل
(١٧) . ويشجع استخدام هذا الأسلوب بالذات في مجال
الصناعة وفي مجال الدفاع . كذلك فان الأسلوب

في النمط الأول يكون سؤال الباحث هو : ما هي
صورة المستقبل المتوقع ؟ أو بقول آخر ، أين
سنذهب ؟ بينما في النمط الثاني يكون السؤال هو : ما
هي صورة المستقبل التي ينبغي تحقيقها ؟ أو بقول آخر ،
أين ينبغي علينا أن نذهب ؟ (١٥) .

كان من الطبيعي أن تختلف الى حد كبير الخطوات
المنهجية في النمط الاستطلاعي من الدراسات
المستقبلية ، عن الخطوات المنهجية في النمط المعيارى ،
الأمر الذي حدا بالبعض الى تقسيم أساليب البحث
المستخدمة في البحوث والدراسات المستقبلية الى
أساليب بحث استطلاعية أو استكشافية وأساليب بحث
معيارية . ويستند أساس هذا التقسيم الى طبيعة
البيانات والمعلومات التي يعتمد عليها الأسلوب وعلى
أساس مدى انتشار أو شيوع استخدامه في نمط دون
الأخر ، وإن كان هذا لا يمنع من أن كثيرا من الأساليب
تستخدم في كل من البحوث الاستطلاعية والبحوث
المعيارية .

المعروف باسم الأسلوب المورفولوجي The Mor-
phological technique الذي وضعه عالم الفلك
السويسرى Fritz Zwicky منذ أكثر من ربع قرن ،
وإن كان لم يستخدم في مجال البحوث المستقبلية إلا
حديثا ، يمثل هذا الأسلوب مكانة خاصة في مجال
البحوث الاستطلاعية . وجوهر هذا الأسلوب تلخيصه
ثلاثة أمثلة : ما المصادر التي نحتاج اليها للحصول على
كافة المعلومات عن مركب مفترض للظاهرة أو المشكلة

تستند الخطوات المنهجية في البحوث الاستطلاعية
التي تهدف أساسا الى استكشاف الصور الممكنة
للمستقبل Futuribles على التقدير الاستقرائي . إذ
يعتمد الباحث في ذلك على البيانات والمعلومات ، وعلى
تحليل اتجاهات المتغيرات ، وعلى معرفته بالتجديدات
innovations العلمية والتكنولوجية والاقتصادية
والاجتماعية بالإضافة الى التجديدات المتوقعة في
المستقبل القريب (١٦) . ثم يعتمد على هذه المعلومات

Fred. Polak, op. cit., p. 244.

(١٥) — Igor V. Bestuzhev-Lada, "A Soviet scientist looks at Futurology". Courier, UNESCO, April 1971, p. 24.

Robert Jungk, "Breakthrough to tomorrow", op. cit., p. 13.

Fred. Polak, op. cit., p. 399.

(١٦)

(١٧)

بحث معينة يأتي في مقدمتها الأسلوب المعروف باسم **Brainstorming** وأيضا أسلوب **Delphi Method** وذلك بهدف تنظيم الاستفادة من تعدد الخبرات والاستبصارات والاستفادة من القدرة على التخيل والإبداع^(٢٠) ويعتمد كل من هذين الأسلوبين على مجموعة من الخبراء يطلب منهم أن يصفوا صورة المستقبل أن يختاروا المستقبل **Invent the Future** بأن يتنبؤا عن طريق الحدس بتطورات المستقبل في ميادين محددة مثل التعليم، الصحة، الطاقة، القيم، في الأسلوب الأول تتم هذه العملية في جلسات جماعية حيث تتاح الفرصة لأن يتأثر الفرد بأراء غيره من المشاركين بصورة مباشرة، بينما لا يتوافر عنصر التأثير والتأثر المباشر في الأسلوب الثاني.

والانحياز الحديث حاليا في النمط المعيارى من البحوث والدراسات المستقبلية يتخطى التنبؤ الحدسى، الذي يكتفى برسم صورة المستقبل، الى التشكيل الواعي للمستقبل المرغوب في تحقيقه عن طريق وضع معايير وأهداف، ومحاولة التوصل الى أفضل

الأساليب للعمل على تحقيق الصورة المعيارية لهذا المستقبل. وقد أوضح أولاف هيلمير **Olaf Helmer** أحد من أسهموا في وضع أسلوب من أهم أساليب البحث المستخدمة حاليا في البحوث والدراسات المستقبلية والتي يقذف عليها الطابع المعيارى والمعروف باسم أسلوب **Delphi** - ان المفهوم القدرى للمستقبل الذي تستحيل معرفته، أو لا يمكن تجنبيه، لم يحل دون ادراك

محل البحث؟ ما هي كافة تأثيرات سبب معين **GQUSE**، وماهو تسلسل هذه التأثيرات؟ وما هي كل الطرق والحلول الممكن تطبيقها بالنسبة للمشكلة محل البحث؟

وتتكون خطوات هذا الأسلوب من تحديد المشكلة بدقة، وتحليل المعالم **Parameters** الهامة لها، والكشف عن ابعاد، ومدى، وعدد القيم بالنسبة لكل معلم من هذه المعالم. تحديد عدد ونوع الحلول. ثم اختياراً نقرهم هذه الحلول واختيار الحل الأفضل^(١٨).

وقتل هذا النوع من الدراسات الاستطلاعية أصديق تفصيل الدراسات التي تجري اليوم عن التنبؤ بزيادة السكان، بازدياد تلوث البيئة، بازدياد المخزون من الأسلحة النووية وما إليها من دراسات والتي تعد بمثابة نظام لـ **early warning system** لـلتأنيب المبكر يساعدنا على العمل على الحد من بعض الانحيازات الخطيرة والعمل على زيادة سرعات بعض الجوانب الإيجابية^(١٩). وهنا تلعب المؤشرات الاجتماعية **Social Indicators** دورا هاما في مضمنا هذا النوع من البحوث الاستطلاعية.

وأذا انتقلنا الى النمط الثاني من البحوث والدراسات المستقبلية، ونعني به النمط المعيارى، وجدنا أنه بدأ في شكل تنبؤ حدسى **intuitive for — casting** بصورة المستقبل، سواء المستقبل المتوقع أو الممكن أو المرغوب في تحقيقه. هذا التنبؤ الحدسى يستمد من الخبرة والتخيل والبصيرة. واستحدثت لذلك أساليب

Ibid., pp. 396-397.

Robert Jungk, "Breakthrough to tomorrow" op. cit. p. 13

Ibid., P. 14.

Ibid., p. 12.

(١٨)

(١٩)

(٢٠)

هذا الهدف الى الحاضر ، وتبحث في البدائل المختلفة لتحقيق هذا الهدف ، وأفضل مسار ممكن للانتقال من أسفل الشجرة الى أعلاها ، ومن الحاضر الى المستقبل .

وقد يبدو هذا الأسلوب في ظاهره أنه أسلوب بسيط يسهل اتباعه إلا أننا اذا تتبعنا العمليات المنهجية التي تستلزمها كل خطوة من خطواته تبين لنا أنه أسلوب يجمع بين الشمول والدقة . فتبدأ أولى خطوات هذا الأسلوب بترتيب الأهداف الأساسية وفقا لأهميتها ترتيبا تسلسليا . وهنا تتدخل القيم والأيدولوجيات في تحديد هذه الأهداف ومدى أهمية كل منها . ثم تحدد العمليات الأساسية اللازمة لتحقيق كل من هذه الأهداف ، ثم يحدد العمل الذي تتطلبه كل عملية من هذه العمليات ، ومتطلبات هذا العمل أيضا ، ثم تحدد مكونات هذه الوسائل جميعها .

الخطوة التالية في هذا الأسلوب تحديد المعايير التي بناء عليها تحدد درجة لمختلف العناصر الواقعة على كل فرع من فروع هذه الشجرة ، ثم تعطي أوزانا هذه المعايير . الأوزان والمعايير يكونان معا السيناريو Scenario الخاص بالمستقبل - هذه الدرجة تكون بمثابة مؤشر يدل على قيمة كل عنصر بالنسبة لكل معيار من المعايير التي وضعت في الاعتبار . ثم باستخدام المعالجات الرياضية تحدد القيم الخاصة بالوسائل - والتي توجد في أسفل الشجرة - في علاقتها المباشرة بالأهداف - والتي يحدد وضعها في قمة الشجرة وفقا لأوليائتها . هذا الأسلوب يمثل تقدما في منهجية الاختيار كما يتميز هذا الأسلوب -

أن هناك عددا كبيرا من صور المستقبل المحتمل تحقيقها وأن الاجراء الواحد قد يؤثر على هذه الصورة بطرق مختلفة . ومن ثم فلا بد من استكشاف الأشياء المقبلة ومحاولة التأثير فيها في اطار من المسؤولية الاجتماعية . وانه اذا كان علينا أن نأخذ على عاتقنا هذه المسؤولية فينبغي أن نكف عن أن نكون مجرد متأملين لتاريخ العالم ، بل يجب أن نؤثر في هذا التاريخ بأن نهدف الى تشكيل أو تعديل شكل المستقبل ^(٢١) . حقا لقدتركتنا العصر الذي كان الممكن هو الذي يطبق ، ووصلنا الى عصر الاختيار ، وبداننا نسال أنفسنا ما هو المرغوب فيه وكيف نحققه ؟ وهذا هو جوهر النمط المعاري للبحوث المستقبلية . ^(٢٢)

هذا النمط من البحوث استحدثت أساليب بحث تتفق وطبيعته والهدف الذي يسعى الى تحقيقه . بحيث تتيح أساليب البحث هذه وضع الصورة المعيارية للمستقبل ، ووزن كل الأهداف الممكنة في مقابيل بعضها البعض ، وتحديد أولوياتها - وهنا يستعان بالنظريات الحديثة في اتخاذ القرار - Decision Mak ing وكيفية تحقيقها . وتتميز أساليب البحث بأنها يمكن

وصفها بأنها أساليب للتخطيط المعكوس reverse Planining techniques ^(٢٣) من ذلك مثلا أسلوب البحث المعروف باسم The Relevanc Tree ويطلق عليه أيضا The Family tree Method ^(٢٤) ويقوم هذا الأسلوب على أساس تحديد هدف معين للمستقبل يمثل قمة الشجرة ، وننزل من

Ibid., p. 14-15

Pierre Piganiol, "Introduction: Futurology and Prospective study" *Inf. Social Science Jour.* Vol. XXI No. 4. UNESCO, 1969, P. 518.

Robert Jungk, "Breakthrough to tomorrow," op. cit., p. 14.

Fred Polak op. cit. p. 396.

(٢١)

(٢٢)

(٢٣)

(٢٤)

كان هذا لم يمنع من أن بعض أساليب البحث يستعان بها في كل نخط منها .

وإذا كان أغلب البحوث والدراسات المستقبلية يمكن إدراجها تحت أحد هذين النمطين من البحوث المستقبلية ، إلا أن هناك اتجاهًا حديثًا يرى أن مستقبل البحوث المستقبلية ، وقيام علم للمستقبل ، يتوقف على الجمع بين هذين النمطين في شكل تغذية مرتدة feedback من كل منها للأخر . فإذا كان تنبؤنا بالمستقبل المتوقع والمستقبل الممكن تحقيقه أمرًا لا غنى عنه ، فإن تحديد صورة المستقبل المرغوب في تحقيقه أمر لا بد منه ، متى كان هناك اقتناع بقدرة العلم والقدرة البشرية على تحقيق ذلك . وقد أثمرت دهشة العلماء الذين يتبنون هذا الاتجاه الحديث في البحوث المستقبلية والذي يجمع بين البحث الاستكشافي أو الاستطلاعي والبحث المعياري ، والذي يدعو إلى الاستناد إلى بيانات وحقائق واقعية مع الاعتماد على الخبرة والاستفادة من الخلدس والتخيل والقدرة الإبداعية ، أثمرت في تحديد بعض العالم المنهجية للبحوث المستقبلية الحديثة^(٢٧) .



بعض العالم المنهجية للبحوث المستقبلية :

١ - البعد الزمني :

إذا كان المستقبل هو موضوع الدراسة فليس معنى هذا أن يدرس المستقبل على إطلاقه . وإذا كان هذا هو الوضع الذي درج عليه الفلاسفة في تصورهم للمجتمع

ويشاركه في هذا أيضًا أسلوب تحليل التكلفة والعائد Cost — benefit Analysis - في أنه ينتقل من الكيفي إلى الكمي ، من الكيفي الذي يتمثل فيما نرغب فيه بالنسبة للمستقبل ، إلى الأولويات التي تحدد على أساس كمي . وعموماً فهو يضعف في اعتباره واقع حاضرنا والمستقبل المرغوب في تحقيقه ، وأفضل الوسائل لتحقيق ذلك^(٢٨) .

وإذا كان هذا الأسلوب قد ثبتت كفاءته في ميدان التنبؤات العسكرية وفي مجال البيولوجي وفي مجال الطب ، فإن تعقيدات العالم الاجتماعي حدثت من كفاءة هذا الأسلوب بحيث بلغ العلماء إلى الاستعانة بتحليل النظم وتكوين النماذج التي تعتمد على أساليب رياضية على درجة عالية من التقدم ، والتي مهدت الطريق لإنشاء النماذج الاجتماعية Social Models التي تعتمد على المؤشرات الاجتماعية Social Indicators سواء ذات الطبيعة الكمية أو الكيفية ، والتي يفترض أن كلا منها يعكس جانباً من جوانب المجتمع^(٢٩) .

من العرض السابق يتبين لنا أنه بينما تبدأ الخطوات المنهجية في البحوث الاستطلاعية أو الاستكشافية من الحاضر ومنه تسقط صورة المستقبل المتوقعة أو الممكن تحقيقها . فإن الخطوات المنهجية للبحوث المعيارية تبدأ من رسم صورة المستقبل المرغوب في تحقيقه ومنها تنتقل إلى الحاضر . ومن هنا كان من الطبيعي أن يخصص كل نمط من أنماط هذه البحوث بأساليب بحث معينة ، وإن

Pierre Piganiol "Introduction: Futurology and prospective" op. cit. p. 519.

(٢٥)

- Robert Jungk "Braekthrough to tomorrow," op. cit. pp. 14-15.

- Fred. Polak, op. cit. p. 395.

Pierre Piganiol. "Pondering the Imponderable" Courier UNESCO April 1971 p. 30.

(٢٦)

Fred Polak ibid. pp. 246-266.

(٢٧)

والاحصائية في رسم صورة المستقبل التوقع والممكن فإن الاعتماد على الخدس والخيال Fantasy المبني على العلم على قدر الامكان ، والذي تصاحبه الرؤية العلمية والتخيل والابداع امر لا غنى عنه في رسم صورة المستقبل المرغوب فيه ، وفي التوصل الى افضل البدائل لتحقيقه . وقد رأينا كيف تجمع بعض أساليب البحث بين كلا الجانبين الكمي والكيفي .

٣ - القيم كمعصر أساسي في منهجية البحوث المستقبلية :

نظرا لأن البحث المستقبل لم يعد يكتفى برسم صورة المستقبل المتوقع بناء على التنبؤ باتجاهات النمو والتغير بل تخطى هذه المرحلة الى محاولة رسم صورة المستقبل المرغوب فيه ، وكيفية العمل على تحقيقه ، فإن تحديد القيم values وما يرتبط بها من أهداف أصبحت خطوة أساسية من الخطوات المنهجية للبحث المستقبل . وربما لم تحظ أى خطوة أخرى بمثل ما حظي به موضوع القيم من اهتمام لم يقتصر على المناقشات الفلسفية والأيدولوجية بل أجرى العديد من البحوث المستقبلية عن هذا الموضوع ، وتوقش من جانب الاتجاهات الأيدولوجية المختلفة ومن جانب علماء الاجتماع والسياسة وواضعي السياسات والمخططين ، ومن جانب الفلاسفة والمفكرين حيث ان دراسة المستقبل في حد ذاته ، تثير أسئلة قيمة هامة ، كما أن قيام علم المستقبل أو اجراء بحوث ودراسات عن المستقبل تتطلب دراسة تغير القيم والتنبؤ بالقيم التي ستمود في المستقبل (٢٩) . وهذا ما حدا ببعض العلماء الى القول بأن صديق علم المستقبل

اليوتوبي ، والذي تأثرت به الى حد ما الدراسات المستقبلية المعيارية ، فإنه نتيجة للتقارب والمزج بين هذا النوع من الدراسات وبين الدراسات الاستكشافية أو الاستطلاعية ، التي تركز على تحديد مدى زمني لتنبؤاتها ، وهو عادة مدى قصير ، بدأ عنصر الزمن ينظر اليه كبعد قائم بذاته . وفي الوقت الذي بدأت فيه الدراسات الاستكشافية تمد الفترة الزمنية التي درجت على أن تقصر عليها تنبؤاتها ، بدأت الدراسات المعيارية تعمل على التحديد الدقيق للبعد الزمني في تنبؤاتها . ومن ثم فإن أحد المعالم الأساسية للبحوث المستقبلية سواء كانت معيارية أو استطلاعية أو كانت تخرج بين النمطين هو التحديد الدقيق للزمن أو التاريخ الذي ترتبط به هذه التنبؤات . (٢٨)

٢ - التوازن بين الكم والكيف :

قد يبدو أن التنبؤات التي تحظى بتقدير علمي هي التنبؤات التي تعتمد على أحدث تقدم أحرزته الرياضيات والنظرية الاحصائية الحديثة ، وبالتالي فهي تلك التي تعتمد على أساليب البحث الكمية الا أن الاتجاه الحديث بين العلماء المهتمين بمناهج البحث وأسابيه في مجال البحوث المستقبلية هو ضرورة الجمع بين المدخل الكمي والمدخل الكيفي للتوصل الى التنبؤات المستقبلية التي تتصف بالدقة والشمول ، ومن ثم حرصوا على وضع الضوابط التي تساعد على تحقيق التوازن بين المدخلين وعلى اضعاف الطابع العلمي على الرؤية الكيفية التي لا غنى عنها ، طالما أن انسان المستقبل وبمجتمع المستقبل هما محور التنبؤات المستقبلية . ومن ثم فيجانب الاعتماد على الأساليب الرياضية

Igor Bestuzhev-Lada "Forecasting an approach to the problem of the future" op. cit. p. 529. (٢٨)

Pierre Piganiol "Introduction: Futurology and Prospective Study" op. cit. p. 523. (٢٩)

يتوقف على اكتشاف وسائل تدمج البعد القيمي كبعد أساسي في منهجية البحث المستقبلي (٣٠) .

٤ - التكامل في البحوث المستقبلية :

إذا كان المزج بين البحوث الاستكشافية أو الاستطلاعية والبحوث المعيارية يحقق نوعاً من استمرارية البحث المستقبلي ، حيث يقوم البحث الاستكشافي بتحديد صور المستقبل المتوقعة والممكنة ، والتي يكملها البحث المعيارى بتحديد صورة المستقبل المنشود ومن ثم كيفية تحقيقها ، فإن الاتجاه الحديث في البحوث المستقبلية هو أنه سواء اكتفيينا بالبحث الاستطلاعي أو البحث المعيارى أو جمعنا بينهما فلا بد من أن ننظر إلى المستقبل ككل . حقا ان اقتصر التنبؤ على جانب دون الآخر ، على الجانب الاقتصادي مثلا أو الجانب التكنولوجي يساعد في رسم صورة المستقبل الا أنها تظل صورة ناقصة . هنا نود أن نشير إلى نقطة هامة وهي أن تجميع التنبؤات في المجالات المختلفة وتراكمها لا يكفي للوصول إلى تنبؤات بالمستقبل ككل ، بل لا بد من أن يكون لدى القائم بالتنبؤ أيما ما كان تخصصه العلمي رؤية شاملة ، بحيث يأتى توصله إلى التنبؤات في مجال معين ، في المجال التكنولوجي مثلا ، في ضوء ادراكه للعلاقات والتأثيرات المتبادلة بين الجانب التكنولوجي وبين غيره من جوانب الحياة الاجتماعية .

وقد أدرك العلماء أن عالم المستقبل مثله في ذلك مثل عالم الحاضر ، كل معقد من الصعب الاحاطة بكافة

جوانبه وبالعلاقات المتبادلة والمتفاعلة التي تسود فيها بينها . ومن ثم حرصت المؤسسات المعنية بالبحوث والدراسات المستقبلية في تشكيلها لفريق البحث أن يمثل تخصصات عدة : علم الطبيعة والرياضة ، والتاريخ ، والجغرافيا والاجتماع ، وعلم النفس ، والسياسة ، والاقتصاد ، والاثولوجيا ، والتكنولوجيا . الخ (٣١) وأبدعت أساليب بحث تتيح الاستفادة من كافة هذه التخصصات والخبرات - كأسلوب دلفي مثلا - . كما أدركت أن الفعل البشري يقصر عن الاحاطة بالكم الهائل من المعلومات التي لا بد من الاحاطة بها لتكوين صورة المستقبل ، ومن ثم لجأت إلى الاستعانة بأساليب بحث تساعد على تنسيق هذه المعلومات وحل تحليلها مثل أسلوب تحليل النظم وأسلوب النماذج .

وقد وجد الاتجاه إلى تحقيق التكامل في البحوث المستقبلية صدها في الدعوة إلى قيام علم للمستقبل ، علم يضم النظرية والمنهج في مجال المستقبل ، يضم القوانين العلمية وطرق ومناهج وأساليب التنبؤ . علم يرى أنه إذا كان كل علم من العلوم له تنبؤاته فهناك تنبؤات اقتصادية وأخرى سوسولوجية وديمقراطية

ونفسية . الخ فان هذه التنبؤات جميعها يمكن أن تتكامل في تنبؤ اجتماعي social forecasting حيث يجمع بينها قوانين ومناهج وأساليب للبحث مشتركة ، وأن ارتباط هذه التنبؤات بعضها ببعض لا يقل عن ارتباط كل منها بالعلم الذي تنتمي إليه (٣٢) .

Irene Tavis "Futurology and the Problem of values" *Int. Social Science Journal*, Vol. xli, (٣٠) No. 4. 1969, p. 576.

Robert Jungk, "Breakthrough to tomorrow," op. cit., p. 12.

(٣١)

Igor V. Bestuzhev-Lada, "A Soviet scientist looks at futurology," op. cit., p. 24.

(٣٢)

- Igor V. Bestuzhev-Lada, "Forecasting an approach to the problem of the future" op. cit., p. 532 .

التكنولوجية إلى مجال التنبؤات الاجتماعية ، وخاصة تلك التي تحاول الربط بين المتغير التكنولوجي والمتغير الاجتماعي والثقافي .

وقد نما هذا الأسلوب من ملاحظة بسيطة مؤداها أننا عندما يكون علينا أن نتنبأ بالمستقبل البعيد فإتينا عادة نستعين بمجموعة من الخبراء في المجال المرتبط بموضوع التنبؤ ، ونطلب منهم أن يبلّغوا أقصى جهدهم في الوصول إلى تنبؤات هي في الواقع من قبيل التخمينات المستندة إلى الخبرة *informed guesses* وهذا هو نفس الأساس الذي يقوم عليه الأسلوب المسمى *Brainstorming* ، والذي يعد أسلوب دلفي تطوراً علمياً له (٣٤) .

والفكرة الأساسية التي يقوم عليها أسلوب دلفي هي التوصل إلى صورة المستقبل الممكن أو المرغوب فيه ، استناداً إلى آراء عدد من المتخصصين الذين يجمعون بين الخبرة في موضوع اهتمام البحث والقدرة على الاستيعاب والحدس *intuitive powers* ، والقدرة على التخيل الإبداعي *creative imagination* . ونشم التفاعل بين آراء هؤلاء الخبراء بطريق غير مباشر ومن خلال عدد من « الجولات » *Rounds* . ويمكن أن نحدد الخطوات المنهجية التي يتبعها هذا الأسلوب عادة على النحو التالي (٣٥) :

١ - يقوم فريق البحث أو الفريق الذي يحرص البعض على تسميته ، بالنسبة لهذا الأسلوب ، بفريق المراقبة أو الضغط *Monitor team* بتحديد أبعاد

أسلوب دلفي Delphi Method كأحد أساليب البحث في البحوث المستقبلية :

في أثناء تناولنا لأنماط البحوث المستقبلية عرضنا بإيجاز بعض أساليب البحث المستخدمة في هذه البحوث . وقد رأينا أن نعرض بشيء من التفصيل لواحد من أهم أساليب البحث المستخدمة حالياً في البحوث المستقبلية والتي تعكس إلى حد كبير المعالم المطلوبة في البحث المستقبل الحديث ، والذي تتيح طبيعته إمكانية الاستفادة منه في التوصل إلى تنبؤات سواء في مجال العلم والتكنولوجيا أو في مجال الحياة الاجتماعية والثقافية . هو أسلوب يتيح لغة مشتركة بين التنبؤات التكنولوجية والتنبؤات الاجتماعية (٣٦) ، كما أنه أسلوب يعتمد عليه في التنبؤ بصورة المستقبل المتوقع والمستقبل الممكن وقبل كل شيء بصورة المستقبل المرغوب في تحقيقه .

إن تسمية هذا الأسلوب بأسلوب دلفي تمثل رؤية حديثة للمور الذي كان يلعبه كهيئة معبد دلفي في الحضارة الإغريقية بالنسبة للتنبؤ بالمستقبل . ورغم حداثة هذا الأسلوب كأسلوب علمي للبحث - إذ لا يزيد العمر الزمني له على ربع قرن - ورغم أنه بدأ في مجالات التنبؤ باستخدام الأسلحة الحربية أو الآثار لثرتية على استخدامها - إلا أنه أحرز تقدراً كبيراً من التقدم بحيث أصبح من أكثر أساليب البحث استخداماً وتطوراً في مجال البحوث المستقبلية ، التي لا تقتصر على التنبؤ الاستطلاعي بل تدخل أساساً البعد المعيارى في اعتبارها ، كما امتد مجال استخدامه من مجال التنبؤات

Radovan Richta and Ota Sulc, op. cit., p. 563 .

(٣٣)

Alvin Toffler, "Value impact forcaster: Aprofession of the future, in "Values and the future, Baier and Reschered. The Free Press, Toronto, p. 7.

(٣٤)

Robert Jungk, "Breakthrough to tomorrow," op. cit., pp 12— 13

(٣٥)

ونظرا للأهمية المنهجية التي يشغلها هذا الأسلوب في مجال البحوث والدراسات المستقبلية ، والتي تتمثل في الاعتماد المتزايد على هذا الأسلوب ، بل وفي امتداد استخدامه الى مجالات اخرى من البحوث التي تتناول الحاضر بل الماضي أيضا ، توافر الباحثون من المهتمين بمنهج البحث بتقويم هذا الأسلوب بمحاولة الاجابة على سؤالين : لماذا يستخدم هذا الأسلوب ؟ أو يقول آخر ما هي الوظيفة التي يؤديها هذا الأسلوب في مجال الدراسات المستقبلية بالذات ؟ وكيف يستخدم هذا الأسلوب ؟ أو يقول آخر تقويم عملية الاعتماد على هذا الأسلوب .

الواقع أن أسلوب دلفي يعبر عن الحاجة الى تنظيم عملية اتصال جماعي group communication process يتم من خلالها الحصول على نتائج ذات قيمة مرتفعة بالنسبة للمهدف من البحث . وهو يستند على افتراض مؤداه أنه من الممكن عن طريق الاتصالات المنظمة إيجاد أو خلق نوع من قدرة الذكاء الانسان الجماعي collective human intelligence cabability . وإذا كانت البحوث لم تقدم اجابة مباشرة بصحة هذا الافتراض الا أن اتباع هذا الأسلوب يتضمن تسليما ضمنيا به من جانب المستخدمين له . (٣١)

وعموما فإن الحاجة تلبوامة الى استخدام أسلوب دلفي في البحوث المستقبلية متى كان الموضوع محل البحث لا يصلح لتطبيق اساليب التحليل الدقيق ، في حين يمكن الاستفادة من الأحكام الذاتية المبينة على

الموضوع على التنبؤ ، ثم توضع الاسئلة التي قد تأخذ عادة شكل استمارة احصائية questionnaire تحتوى عددا من الاسئلة .

٢ - يطلب من كل خبير على حدة الاجابة على الاسئلة واطافة المعلومات التي يرى بناء على خبرته أنها ذات صلة وثيقة بموضوع التنبؤ .

٣ - يقوم فريق البحث باستخلاص كافة الآراء التي قدمها الخبراء بتخصصاتهم وانتباهاتهم المختلفة ويتم طرحها على فريق الخبراء كل على حدة بحيث يمكن لكل واحد منهم أن يقوم بمحضر آرائه وإجاباته وتعديلاتها في ضوء معرفته بآراء الآخرين ، اذا رأى ذلك ، ودون أن يحدث تفاعل مباشر أو مواجهة بين الخبراء بعضهم وبعض .

٤ - يقوم فريق البحث بدراسة ما أسفرت عنه نتائج هذه الجولة ، التي يكتفى بها في رسم صورة المستقبل الممكن أو المرغوب فيه وفقا لمهدف البحث ، أو قد تكرر العملية في جولات اخرى بأن يتم استخلاص الآراء وطرحها مرة ثانية على نفس الخبراء وهكذا .

٥ - يتم تقويم كافة البيانات واستخلاص صورة المستقبل بناء على ما أجمعت عليه الآراء .

وقد يبدو من الظاهر أن هذا الأسلوب أسلوب بسيط يسهل على أي باحث اتبعه ، وهذا ما أدى الى أن يصدم الكثيرون عن اتبعه بالنتائج التي أسفر عنها . في حين أنه أسفر عن نتائج لها قيمتها العلمية والتنبؤية عندما اتبعه باحثون آخرون .

المستقبلية على تحقيق هذه المعالم لم يجعلهم يكتفون بتطوير أساليب البحث وإضافة أبعاد جديدة لها. يكفي أن نتبع التصديلات التي أدخلت على أسلوب دلفي منذ بدء استخدامه حتى الآن. وإنما حثهم على استخدام أكثر من أسلوب في البحث الواحد، وأساليب تتيج النظرة الشاملة والخيال المبدع، وأساليب تقدم البيانات والوقائع، أساليب تكفل حرية الرؤية الفلسفية وأخرى تشدنا إلى الواقع، أساليب تتيح شمول المعالجة وأخرى توفر عمقها. أساليب تعتمد على آراء الخبراء والمختصين وأخرى تنزل إلى الجمهور لتستطلع آراءه وتعرف على مطامحه وتطلعاته. بحيث يمكننا القول إن التنبؤات بما فيها التنبؤات الاجتماعية تستند على مجموعة من الأساليب: أولاً أساليب تقوم على أساس الاستمارة بآراء الخبراء والمختصين وإحيانا آراء الجمهور العام. ثانياً، الأساليب المتقدمة للتقديرات الاسقاطية والتي تستخدم أساليب متقدمة في مجال الرياضيات الحديثة، والسبرناتيقا، ونظرية المباريات، ونظرية الاحتمالات، ونظرية اتخاذ القرار، والمداخل الوظيفي في البحث. ثالثاً، أساليب النماذج وتحليل النظم^(٣٨).



إذا كان نطاق هذا المقال لم يسمح إلا بإعطاء صورة سريعة عن المنهج في البحوث المستقبلية من حيث المداخل المتنوعة في الدراسة العلمية للمستقبل، والنماط البحوث المستقبلية، ومعالم المنهج في البحوث المستقبلية

أساس جمعي. كذلك عندما يتطلب موضوع البحث الاستمارة بعدد كبير من الخبراء يصعب معه الاتصال المباشر وتبادل الآراء وجها لوجه، أو إذا وجدت اختلافات حادة بين الخبراء. كذلك إذا كان صدق البيانات يستلزم إخفاء المشاركين لاعتبارات سياسية مثلاً، أو كان يستلزم حرية تولد الأفكار سيطرة تفرضها ما يتمتع به البعض من قوة شخصية أو تفرضها القوة العددية، أو بقول آخر نجيب التأثير المعروف باسم Bandwagon effect وهو سالا يمكن تجنبه إلا بصعوبة في حالة المناقشات الجماعية^(٣٧).

هذه هي بعض الاعتبارات العلمية والعملية التي تستدعي استخدام هذا الأسلوب. إلا أن قيمة النتائج التي تأخذ شكل تنبؤات تتوقف من حيث دقتها ووثاقها ومدى موضوعيتها على عاملين: العامل الأول هو الاختيار الدقيق لجماعة الخبراء المشاركين في عملية التنبؤ بحيث تتوفر لديهم الخبرة التي تستند إلى بيانات واقعية وحقائق، مع القدرة على الرؤية المستقبلية التي تستلزم قدراً من الخيال والإبداع العلمي. العامل الثاني سعة أفق فريق البحث مع تحليه بالأمانة العلمية وحرصه على الموضوعية، بحيث ينعكس ذلك في معالجته للآراء بعد كل جولة. وفي التقدير النهائي الذي يعرض بأمانة التنبؤات التي توصل إليها بناء على اتباع هذا الأسلوب.

إذا كان أسلوب دلفي يعد نموذجاً لأساليب البحث التي تحقق المعالم الأساسية للبحث المستقبل الحديث، إلا أن حرص العلماء المهتمين بالمنهج في البحوث

Ibid., p. 4.

Igor V. Bestuzhev-Lada, "A Soviet Scientist looks at futurology," ibid, op. cit., p. 24.

(٣٧)

(٣٨)

والمدى البعيد ، هذا التخطيط الذي لا بد وإن يستند إلى مناهج وأساليب بحث تتبع إمكانية التفاعل بين الرؤية الابداعية للمستقبل والواقع السياسي والاقتصادي والاجتماعي للحاضر ، وتوضح مسار الانتقال من الحاضر إلى المستقبل المرغوب في تحقيقه .

الحديثة ، والاشارة الى أحد أساليب البحث التي تحتل مكانا بارزا في هذا المجال ، فلنأمل أن تجري دراسات جادة وتقوية تناول هذا المجال البكر من البحث العلمي ، الذي لا يمثل ترفا علميا بل يمثل حاجة إلى التخطيط العلمي للمستقبل على المدى القريب



رغم أن المسرح ظهر منذ العصور القديمة كظاهرة دينية أولاً . ثم كظاهرة فنية وأدبية بعد ذلك ، إلا أنه لم يتوقف دائماً عند هذه الصفات ، وإنما تحطفاها في أحيان كثيرة وفي عصور متعددة ليمس المجتمع في جوانبه المختلفة تصورياً تارة ونقداً تارة أخرى . ومع ذلك فإن العلاقة بين المسرح والمجتمع لم تصبح مجالاً للدراسة العلمية المحددة أو للتطبيق الذي يعي هذه العلاقة ويتخذها أداة في مجال التوجيه والتثقيف إلا منذ فترة وجيزة لا تكاد تصل إلى ما قبل العشرينيات من هذا القرن . ومنذ ذلك الوقت ظهرت قضايا عديدة وتساؤلات كثيرة حول إمكانية دراسة المجتمع من خلال المسرح . وتطورت وظيفة المسرح بحيث أصبح متبراً للدعوة إلى الأفكار والأيديولوجيات الجديدة واتخذ يعبر عن قيم وطنية تارة ، وقيم اجتماعية أو طبقية تارة أخرى . وفي صدد هذا النوع من المسرح نجد أن الاتصال العضوي بين المسرح والتغير الثقافي للمجتمع المطور ، وصل في وضوحه إلى درجة جعلت عدداً من المشتغلين بالمسرح بجوانبه المختلفة يعبرون عن مدى أهمية هذا التأثير بشكل واضح ومحدد . ففي عام ١٩٢٧ نجد إرنست توللر Ernest Toller يذكر في إنشاء مظاهرات في برلين أمام مسرح الشعب Volksbühne « أن العمل المسرحي هو الصراع ، هو أن تغيراً كبيراً كاملاً أو لا يكون » . وفي إطار هذا المعنى نجد بريخت Brecht يتحدث عن « مسرح يتقدم الجمهور بدلاً من أن يجري وراءه »^(١) . ولعل غير تلخيص لوصف العلاقة العضوية بين المسرح الأيديولوجي والتغير الثقافي في المجتمع هو ما ذكره بيسكاتور عن أن « وظيفة المسرح

المسرح السياسي

تأليف : إرفيند بيسكاتور *
عربية محمد علي : أم الفضل حركة

(١) ظهر الكتاب في صورته الأصلية في ١٩٢٩ تحت عنوان Das Politische Theater من دار نشر Adalbert Schultz Verlag في برلين . ثم أعيد نشره في هامبورج في ١٩٦٢ ، ثم ظهرت الترجمة الإنجليزية التي قام بها هيو هاريسون Hugh Harrison في إنجلترا من دار نشر آير ميثوين Byre Methuen في لندن عام ١٩٨٠ . وقد زُيد المترجم هذه الطبعة بفصل تقديمي وصليد من الخواص.

Jean Duvignaud: Sociologie du Theatre, Presses Universitaires de France, Paris 1965, p489.

تلمذ عليه عدد من الشخصيات التي برزت في مجال العمل المسرحي مثل تينيسي ويليامز ومازلون براندو . وفي عام ١٩٥١ عاد الى برلين الغربية وعمل في اخراج مسرحيات متعددة الى ان عين مديرا فنيا للمسرح الشعبي الحرّ في برلين - **Berlin Freie Volk sbuhne** في عام ١٩٦٢ ، وبقي في منصبه هذا حتى توفي عام ١٩٦٦ .

والكتاب الموجود بين أيدينا عن المسرح السياسي وهو من تأليف ارفين بيسكاتور يعتبر نوعا من السيرة الذاتية ، ويقع الكتاب في ثلاثة وعشرين فصلا ، يمكن تقسيمها الى اربع مراحل . يتكلم بيسكاتور في المرحلة الأولى عن الفن والسياسة حيث انه اعتبرهما طريقتين منفصلتين وانها سارا بشكل متواز لمدة طويلة ، وبعبارة أدق حتى ١٩١٩ ، وشعر بيسكاتور ان الفن في حد ذاته لم يكن كافيا لارضائه . ومن ناحية اخرى لم يجد نقطة التقاء بين هذين الحقلين ، وكان لابد في رأيه من نظرية جديدة لتلاقيهما ، فوجد ان الثورة هي التي تستطيع ان توجد له هذه النظرية . وحين قامت الثورة في روسيا في اكتوبر (تشرين الأول) ١٩١٧ رأى فيها بيسكاتور الحل الذي كان يتصوره لهذه القضية . ولقد تشبع هذا الفكر بالسياسة وغرق فيها الى حد كبير وحاول ايجاد نظرية تجمع بين الفن والسياسة ، فاكشف ان الفن كان وسيلة لغاية : كان وسيلة سياسية ووسيلة دعائية ووسيلة تربية .

وينتقل بيسكاتور الى الكلام عن تطور المسرح السياسي في تلك الفترة ، فيجد ان هذا المسرح ليس اختراعا شخيصيا ولا نتيجة لاعادة التجميع

بصفته مؤسسة فنية قد تعدلت ، فالمسرح يصل الى نهايته الحقيقية في الحياة الاجتماعية .

وفي مجال المسرح الايديولوجي ، نستطيع ان ندخل المسرح الموجه ، سواء اكان هذا المسرح موجها من قبل الحكومة أم من قبل مجموعات لها التزامات فكرية أو سياسية أو اجتماعية خاصة بها ، وهو اتجاه بلغ من انتشاره انه تخطى حدود الدائرة التقليدية للدول المتقدمة ليشيع في دائرة تتسع لعدد من الدول النامية في العصور الاخيرة من القرن الحالي^(٢) .

ومن بين رواد المسرح الذين ظهورا مع بداية القرن الحالي واسهموا بادخال نظريات وايديولوجيات جديدة اليه ارفين بيسكاتور Erwin Piscator الذي ولد في المانية عام ١٨٩٣ ودرس في الجامعة في ميونيخ ، ثم انتقل - بعد ان خدم في الحرب العالمية الأولى لمدة سنتين - الى برلين ليعمل ممثلا ثم خرجا . لقد انشأ بيسكاتور المسرح البروليتاري في عام ١٩٢٠ ، وقدم حتى عام ١٩٢٩ عروضاً مسرحية كثيرة على مسرح الشعب Volksbuhne ثم اتخذ من مسرحه الخاص Piscator-Buhne مسرحا سياسيا هادفا . انتقل بعد ذلك الى الاتحاد السوفيتي حيث بقي هنالك حتى عام ١٩٣٦ ، واخرج ثلاث مسرحيات سياسية في مناخ سياسي في الستين الأولين ، ثم غادر الاتحاد السوفيتي فجأة الى باريس ومنها الى الولايات الامريكية المتحدة في عام ١٩٣٨ ، وهناك اصبح مديرا لمركز الاعمال الدرامية الذي عرف تحت اسم - **Dramatic Work shop** في المدرسة الجديدة للبحث الاجتماعي ، حيث New School of Social Research ، حيث

الممثلين الهواة ، بينما كان بيسكاتور وقلة آخرون من المحترفين . وكان هدف بيسكاتور هو كسر الحاجز القائم بين المحترفين والعمال وتمويل المجموعة بأكملها الى فريق له نفس القناعات السياسية . ولقد قوبل هذا المسرح في البداية بشيء من الفتور ، بالرغم من ان الثمن التذاكر كانت رخيصة وكانت تقدم بالمجان للمعطلين عن العمل ، وكان الهدف من المسرحيات المعروضة ان تكون ذات تأثير على الأحداث الجارية ، وان تتخذ شكلا من النشاط السياسي . ولقد حاول بيسكاتور من خلال هذا المسرح ان يقابل الجماهير على ارضهم ، وان يتعامل مع أفراد الطبقة الكادحة وحاول الابتعاد قدر المستطاع عن التعامل مع افراد الطبقة الوسطى من الممثلين . ولقد وجد بيسكاتور ان مسرحه هذا قد حقق كسبا ايجابيا مهما ، وان يدا صغيرا قد اتخذ له مكانا مرموقا في الحركة البروليتارية ، وأخذ مكانه كعامل مهم في وسائل الاتصال للحركة الثورية ، وكان آخر عرض قدمه في ابريل ١٩٢١ .

وبعد اخلاقي مسرح الطبقة الكادحة انتقل بيسكاتور الى مسرح جديد هو المسرح المركزي ، وكانت مهمة هذا المسرح هي معارضة مسرح الشعب .



ويتنقل بيسكاتور بعد ذلك الى المرحلة الثانية من الكتاب وهي التي يتحدث فيها عن انتقاله الى « مسرح الشعب » . ففي عام ١٩٢٤ احتاج مسرح الشعب الى مدير لاجراء مسرحية « الاعلام » مؤلفها الفونس باكيه Alfons Paquet وكان بيسكاتور جاهزا للوظيفة فحصل عليها . وفي هذه الفترة برز اسمه في مجال الاخراج المسرحي في برلين فأخرج احلى عشرة

السوسيولوجي في عام ١٩١٨ ، وانما تمت جذوره في عمق القرن الأخير . ووجد ان الوضع الثقافي للمجتمع البروجوازي قد تأثر بشكل كبير بقوى كانت موجودة ، هذه القوى أتت من اتجاهين : الأدب والبروليتاريا (الطبقة الكادحة) ، ومع التقائها ظهر مفهوم جديد وهو : المذهب الطبيعي Naturalism ، ونشأ شكل جديد للمسرح هو « مسرح الشعب » .

ويبدي بيسكاتور دهشته في هذا المجال من منظمات العمال الذين لم يتخذوا موقفا ايجابيا من المسرح بشكل سريع . ويقول انهم استخدموا جميع وسائل الاتصال التي قدمها المجتمع البروجوازي ، وأوجدوا صحافة خاصة بهم ، ودخلوا البرلمان وكان لهم موقف خاص من شئون الدولة ، ولكنهم أهملوا المسرح . ويعزو بيسكاتور هذا الى ان الصراع السياسي قد اخذ كل جهدهم بحيث لم يتبق للشئون الثقافية أي مجال . من ناحية اخرى كان المسرح ، في مفهومهم ، مقصورا على من يرتدي رباط عنق ابيض ولباس سهرة كاملا ، كذلك اعتقدوا ان المسرح هو للأيام المتأخرة والعطلات السعيدة ، وانه من المستحيل ان يناقش الأمور اليومية من كلام عن الأجور وساعات العمل والصراع الطاحن الذي يعانونه . أي جانب ان تذاكر المسرح كانت تباع بأثمان مرتفعة خارج مقدور العمال .

من هنا اتجه بيسكاتور نحو إنشاء « مسرح الطبقة الكادحة » Proletarisches Theater بمعاونة هيرمان شولر Hermann Schüller خريف عام ١٩٢٠ . وكانت هذه هي المحاولة الأولى من نوعها من قبل مفكري الجناح اليساري لتنظيم الشئون الثقافية للجماهير . وكان معظم العاملين في هذا المسرح من

مسرحية على مسرح الشعب ، وقدم التين للحزب الشيوعي ، مع تقديم بعض المسرحيات الأخرى في أماكن متفرقة : برلين وهامبورج وميونخ .

وكانت مسرحية « الاعلام » من أشهر المسرحيات التي قدمت في تلك الفترة وكانت البداية لديه ميكنة المسرح وجعله « أداة » لتوصيل المعلومات وسلاحا للدعاية . ويعتبر يسكاتور أنه باخراج هذه المسرحية قد بدأ بتطوير ما سمي بعد ذلك بالمسرح الملحمي أو البطولي ، Epic Theater . وبالسهرم من الانتقادات الكثيرة التي تقول بها هذا العرض فإن يسكاتور قد وصل عن طريقه الى الموقع الذي احتله كمخرج معروف .

بعد هذا العرض قدم يسكاتور أول اخراج مسرحي يعتمد على الوثائق السياسية فقط وكان بعنوان « رغم كل شيء » وذلك في يوليو (تموز) ١٩٢٥ . ثم قدم مسرحية « موجة غامرة » وكانت تدور حول انتصارات الثورة في روسيا ، وانتقل بعد ذلك الى تقديم عرض « اللصوص » لمؤلفها شيلر Schiller . ويعتبر هذا العرض جزءا من محاولة مستمرة نحو أسلوب حديث أو متطور للكلاسيكيات في جمهورية فايمار Weimar Republic . وتعليقا على هذه المسرحية يقول يسكاتور : انه لا يشعر بأنه جانب التواضع حين يقول ان الازدهار في الدراما الثورية هو إحدى النتائج لأعماله التي قدمها . واعتبر ان مسرحه كان أول من قدم الدراما التي تعالج مشاكل العصر Topical Drama ، الدراما التي تؤمن برسالة اجتماعية معاصرة ، والتي لا بد ان تشكل بندا هاما لا يمكن تجاهله في أي مسرح يحترم ما يقدم .

وجاء اخراج يسكاتور لمسرحية « عاصفة على جوتلاند » لمؤلفها ايم فلك Ehm- Welk الفصل في الصراع بين فريقين مسرح الشعب من المحافظين (الداعين للفن من أجل الشعب) والجناح اليساري (اصحاب المسرح السياسي الملتزم) . ففي أواخر عام ١٩٢٦ كانت الدوريات الأدبية والجرائد اليومية تناقش باستمرار موضوعي « الحرية الفكرية » و « انقاذ الفن البحث » حتى أصبحت هذه المناقشة على أشدها في فبراير (شباط) ١٩٢٧ ، وأصبحت مسألة المسرح السياسي التي كانت قد أثرت بسبب اخراجه لبعض المسرحيات هي الحلبة التي يدور فيها الصراع السياسي اليومي ، وهندل اضطهر مسرح الشعب ان يبين موقفه من مشاكل المسرح السياسي ، أي مسألة وجوده . وفي هذا الوقت ظهرت مسرحية « عاصفة على جوتلاند » لتتحل الاشكال وتخرج للجهمور في اطار سياسي ، وكان أثرها من طبيعة سياسية . وهكذا خرج المسرح السياسي من حدود وقود المسرح التقليدي ، كما تحورت الدراما من القيود التي كانت مفروضة عليها من المؤلف . وهنا ثار المحافظون على يسكاتور وأكدوا ان هذا المسرح يجب ان يكون بعيدا عن السياسة ، وطالبوا بحذف بعض المشاهد ، فاعتبر هذا التصرف نوعا من الرقابة التي كانت قد ألغيت في عام ١٩١٨ . ومن جراء هذا التصرف استقال يسكاتور من وظيفته في مسرح الشعب ، وبذلك انتهت العاصفة التي أثرت حول هذا الموضوع ، ولكن بعد ان حولت الصراع الذي دار حول هذه المسرحية الى صراع سياسي انتشر في جميع الأوساط العامة ، وليس عند المهتمين بالمسرح فحسب .



وبذلك تنتهي المرحلة الثانية وتبدأ المرحلة الثالثة

المسرح . ولقد طوّر بيسكاتور هذه الفكرة فأنشأ مجموعة تجريبية تعمل داخل مجموعة أكبر منها ، وهذا ما كان قد فعله راينهارت في « المسرح الألماني » من قبل .

حين عمل بيسكاتور كمدير لمسرح الشعب ، كانت المسرحيات التي تقدم في برلين لانت للعصر بصلة ، فكان همه الأول في تلك الفترة ، هو إعادة تشكيل هذه المسرحيات في اطار جديد بحيث تناسب العصر من وجهة النظر الشيوعية والاجتماعية واعطاء هذه المسرحيات عمقا . وحين انتقل بيسكاتور الى مسرحه طوّر ما يقدّمه على المسرح بحيث قدّم مفاهيم جديدة للمسرح أهمّها نظرية أسماها « وجهة النظر الجديدة » ، نقطة الارتكاز الأساسية فيها تعتمد على وظيفة الانسان في الحياة وتمثل في : وضع الانسان ، مظهره ، وظيفته في اطار المسرح الشيوعي ، الانسان وانفعالاته ، علاقاته : الخاصة أو العامة التي يفرضها عليه المجتمع ، موقفه ازاء القوى الحارقة : الله ، المصير ، القدر أو أي شكل آخر تتخذ هذه القوى في مجال التطور . وكانت مهمة المثقفين القائمين على المسرح - في رأي بيسكاتور - هي : اظهار الانسان في أنقى صوره وتعبير أدق : حذ ذاته ، ليس كمركز أساسي للدراما فقط ، بل للمسرح ككل . وبذلك يكون مبدأ « الفن من أجل الشعب » قد تحول عنده الى مبدأ « سيطرة الفن » عن طريق « عظمة الانسان » .

هذه النظرية الجديدة التي قدمها « المسرح السياسي » لبيسكاتور ، تقوم على افتراضات وظيفية جديدة كل الجدة ، لأن الانسان قد بدأ يتعامل مع تغير قوئل منذ الوهلة الأولى بالظروف الاجتماعية الطارئة التي تمثل

والأهم في حياة بيسكاتور والتي تعتبر نقطة التحول في مستقبله مع انتهاء مسألة مسرح الشعب في ٢٧ مارس (آذار) ١٩٢٧ . فبعد استقالته مباشرة من هذا المسرح استطاع عن طريق المساهي الحميدة للممثلة تيلادوريه Tilla Durieux ان يقيم مسرحه الخاص بمساعدة مالية غير مشروطة لموسم كامل ، فحصل على مسرح « تياتر أم نولندورف بلاتز - Theater am Nollen-dorf Platz » ، ويقع هذا المسرح في الضاحية الغربية من المدينة . ولقد أخذوا على بيسكاتور انه أدار ظهره الى مناطق الطبقة الكادحة ، فكان رده المباشر انه : لا يهدف إلى التبشير لصنف هذه الطبقة التي تحولت فعلا الى الشيوعية وإنما يهدف الى ان يكتسب البورجوازيين الأقل التزاما في بورجوازياتهم ، وان هذا المسرح هو المكان الوحيد الذي أمكنه الحصول عليه .

ورعلّق بيسكاتور على مسرحه هذا فيقول : إن هذا المسرح لا يرتبط ولا يلتزم بأي حزب من الأحزاب وأنه قام بدون مساعدة من أي حزب ، ولكنه من الناحية السياسية والفلسفية يقترب كثيرا من الحزب الشيوعي الألماني دون ان يربط نفسه حزبيا بأي جانب . ولقد كان هذا المسرح مسرحا ثوريا ، ترك صدى واسعا في نفوس الجماهير العامة مما دلّ على مدى الفتنة الداخلية للمجتمع البورجوازي . ولقد فتح مسرح بيسكاتور Piscator- Bühne أبوابه للأطباء والمحامين والمعلمين والكتّاب ، مما جعل الصحافة الحرة تفتح صفحاتها ليعرضوا آراءهم .

وفي ١٦ أكتوبر (تشرين الأول) من عام ١٩٢٧ افتتح بيسكاتور ستوديو في مسرحه ، وهي فكرة أخذها من مسرح الشعب الذي كان قد أنشأ « الأقسام الخاصة » والتي كانت عبارة عن تنظيم مستقل داخل هذا

نصور الإنسان ككائن يتسامى بعظمته في عصر بنطوي على عوامل تؤدي الى تشويه هذا الإنسان - بعبارة وجيزة ، ان مهمتنا ليست استخدام المسرح كمؤثر مثالي . ان المهمة الحقيقية للمسرح الثوري هي ان يتخذ من الحقيقة نقطة انطلاق ، يبدأ بعدها في توضيح الفوضى الاجتماعية ، وبذلك يجعل منها عنصرا من عناصر اهتمامنا للمجتمع السائد ، كمقدمة لثورتنا ونظامنا الجديد » .

وبما ان لكل عصر من العصور قيمه التي آمن بها وأبرزها من خلال الأعمال المسرحية ، وان هذه القيم قد اختلفت من عصر لآخر ، وما كان يهيم العصر الكلاسيكي او المثالي او الأخلاقي فانه لا يمتنا ، فان قدرنا ، حسبا يرى بيسكاتور ، قد وقع في علم الاقتصاد وعلم السياسة ، لأن نتيجة هذين العلمين معا هو المجتمع او النسيج الاجتماعي . وبأحد هذه العوامل الثلاثة في الاعتبار ، سواء بتأكيدها أو بالعراق ضدها ، نصل الى المظهر التاريخي للقرن العشرين .



بعد ان شرح بيسكاتور نظريته الجديدة والتي قام عليها موضوع الكتاب ، وهو ما أبرزه في جميع أعماله المسرحية فيها بعد ، والتي قدمها على مسرحه الخاص Piscator - Bühne انتقل للحديث عما قدمه هذا المسرح . وأول ما قام به بيسكاتور في مسرحه الجديد ، هو انشاء مكتب مستقل للعمل الخاص بالتأليف المسرحي dramaturgic office ، واعتبر ان هذا المكتب غير كاف ليحقق ما يصبو اليه ، فاعمل المسرحي في نظره ، عمل جماعي ، يحتاج الى مشاركة ومعاونة تامة مع الآخرين ، ويحتاج هذا العمل الى

في الحرب والثورة . هذه العوامل غيرت الإنسان من حيث بنائه الثقافي وموقفه من المجتمع بوجه عام . والإنسان الذي يتعامل معه المسرح مغزاه بالنسبة للقاتمين على العمل المسرحي : انه وظيفة اجتماعية ، والنقطة التي يجب ان نهم هؤلاء هي علاقته بالمجتمع وليس علاقته بنفسه أو بالله . وعندما يظهر على خشبة المسرح فان طبقة (بمعنى شريحة الاجتماعية) Social Stratum تظهر معه ، وصراعاته الأخلاقية والروحية والجنسية تعتبر صراعات مع المجتمع . قد يكون الغدواء قد ركزوا على علاقة الإنسان بالقدر ، وربما ركزوا في العصور الوسطى على علاقته بالله ، وفي عصر العقلانية Rationalism ركزوا على علاقته بالطبيعة ، وفي عصر الرومانسية ركزوا على القوة الكامنة في العواطف . وعلى ذلك فان العصر الذي تظهر فيه على السطح العلاقة بين الأفراد في المجتمع والذي يشهد مراجعة للقيم الإنسانية وإعادة تنظيم للعلاقات الاجتماعية - لا يمكن الا ان ينظر للجنس البشري من خلال المجتمع والمشاكل الاجتماعية للعصر ، بعبارة أخرى لا بد ان ينظر للإنسان ككائن سياسي - ان التركيز على وجهة النظر السياسية في معالجة الإنسان (وهو أمر ناتج عن عدم التماسق والانسجام في الاحوال الاجتماعية في العصر الحالي) ربما يؤدي الى نظرة مشوهة للمثل العليا الانسانية ، ولكن هذه النظرة المشوهة لها ميزة واحدة على الأقل وهي أنها تتفق مع الحقيقة .

ويقول بيسكاتور : اننا كثوريين ماركسين لا نستطيع ان نعتبر مهمتنا اذا أتممت اذا أنتجنا نسخة غير نقدية للمجتمع معتقدين أن المسرح هو مجرد مرآة للعصر ، كذلك فان مهمتنا ليست ان نغطي عدم التماسق الموجود في المجتمع بحجاب من اللبابة ، كما انه لا يمكننا ان

الجماعية والتعبير عنها ، عليه أن يتعد قدر المستطاع عن إبرازة لحيولة الشخصية أو اتجاهاته الفلسفية ، بل يجب أن يبرز أشخاص مسرحياته من حيث تكوينهم الثقافي وأن يوضح معنى أعمالهم ويبين قيمة هذه الأعمال ، ويعيد عن الذات ، فعصر التعبير عن الذات ، قد ولى في نظره .

ومع ارتفاع الستار عن العرض الأول في « مسرح بيسكاتور » في ٣ سبتمبر (أيلول) من عام ١٩٢٧ ، قدم البرنامج بعض الملاحظات التي كانت ذات أهمية بالنسبة للقاتلين على المسرح . وكانت عبارة الانتصاح « هذا المسرح لم يقم ليقدم سياسة ، ولكنه قام ليحرر الفن من السياسة » ، ولقد اعتبرت هذه الجملة من الجبض « خيانة للمبدأ » ، وتوجيها لاتهام لبيسكاتور وجماعته ، بينما كان القصد منها في حقيقة الأمر استباقا للهدف ، والذي أساءوا فهمها كانوا في الواقع - حسبما يذكر بيسكاتور - هم الذين فشلوا في أن يدركوا أننا قبل أن نصل إلى هذا الهدف لابد وأن نشارك في الصراع السياسي . ثم يذكر لنا أن هدفه هو وجماعته كان تقديم عمل مسرحي عظيم ، ولكن هذا العمل تحول إلى حدث سياسي ، فمجرد نزول الستار على آخر مشهد في المسرحية ، اشترك الجميع في غناء النشيد الوطني ، ولم يكن في ذهن أحد من القاتلين على هذا المسرح أن تنتهي هذه الليلة بليل أو برهان سياسي ، وهكذا انتهت الليلة الأولى في مسرح بيسكاتور بظهور المسرح السياسي .

لما العرض الثاني الذي قدمه « بيسكاتور » ، فقد كان مسرحية « راسبوتين » وفي هذه المسرحية يقوم القيصر بدور كامل ، ويظهر على مدى مشهدين كاملين ، ويتكلم على خشبة المسرح لمدة طويلة . وهنا

مجموعة متألفة ، تفكر بطريقة متشابهة حتى يظهر العمل بشكل متكامل ويصل إلى النجاح . وهذا ما تم لبيسكاتور ، فقد انتقل إلى مسرحه مجموعة كانت تعمل معه حين كان مديرا لمسرح الشعب ، فانتقل العمل الجماعي معه ، وأصبح العمل بسيطا وواضحا وجماعيا في كل شيء ، بحيث كان جميع المشتغلين معه يعرفون آخر فكرة وردت على ذهنه كمنخرج ومن ثم يستطيعون أن يتعاونوا معه ويقدموا أفضل ما عندهم . والجماعة التي تعاونت مع بيسكاتور كانت تتكون من رفقاء يشتركون في نفس روح الثورة الواحدة ويتمون بالمسائل الفنية ويشرفون عليها وتحملون المسؤولية الجماعية في « مسرح بيسكاتور » . وتحدثت المسؤولية في هذا المسرح ، وتوزعت الأعمال بناء على لائحة داخلية خاصة بهذا المسرح بحيث وصل إلى ما حققه من نجاح فيها بعد

ويتنقل بيسكاتور ليتكلم عن أهم ما قدمه على مسرحه من عروض ، فكان أول عرض « هكذا الحياة » لارنست توللر Ernest Toller ، وفي هذه المسرحية حاول بيسكاتور إضفاء أساس من الواقع على هذا العرض ، وذلك حين كانت فكرة المسرحية هي : احضار ثائر كان قد أمضى ثمان سنوات في مستشفى للأمراض العقلية ، ثم مجابهته بهام ١٩٢٧ ، بهام الثورة . ويعتبر بيسكاتور أن كلا من العواطف والوقائع السياسية تلعب دورا أساسيا في الدراما ، وهذا ما حاول باستمرار إبرازة في معظم عروضه . فلنشاعر يجب إبرازها جيدا في الإطار العام للعمل المسرحي ، على ألا تلعب دورا حاسما ، وألا تأخذ شكلا مستقلا بحيث تبعد عن الهدف المقصود إبرازة للجمهور . وجهة نظره هذه ، تنبع من قناعاته هو وزملائه من الناحية السياسية ، فإن على المؤلف أن يلتزم بإبراز وجهة النظر

ويعتبر بيسكاتور أن مسرح قضايا الساعة لا يمكنه أن يقوم بدوره الفعال لو اقتصر هذا الدور على إبراز القضايا التاريخية فقط ، دون أن يذكر أو يبين الدروس التي يجب علينا الاستفادة منها في الحاضر لتجنب الوقوع في أخطاء مماثلة ، ولا يكفي أن نعتبر المسرح مرآة للعصر ، بل يجب أن يكون وسيلة لتغيير شئون العصر . إن إبراز فكرة أى تعمق فلسفي تاريخي ناتج عن حقائق تاريخية صرفة هو مرادف عند بيسكاتور للمتطلبات النهائية للفن . وبهذا المعنى في الزمن ، يصبح الهجوم الجذلي على شخص بغيره ، حتى وإن كان هذا الفرد هو القيصر السابق نفسه ، شيئا تأفها ولا طائل من ورائه .

ومع ذلك فإن المحكمة قد أصدرت حكمها ضد « مسرح بيسكاتور » بطلب حذف الجزء الخاص بظهور القيصر ميلهلم الثاني على المسرح . ويقدر ما ضايق هذا القرار بيسكاتور والثامنين على المسرح ، ضايق الممثل الذي يقوم بدور القيصر ، والذي كان يشبهه في الشكل بدرجة كبيرة ، وكان قد أثقن دوره وحاول أن يكون شيئا له في الكلام والتصرفات .

بعد هاتين المسرحيتين انتقل بيسكاتور إلى موضوع آخر في مسرحه وهو : مجال الصراع الدولي السياسي الصناعي ، فقد خاض مغامرة هذا الصراع من خلال مسرحية « ازدهار » . ولكن التقية من خلال هذه المسرحية ، كانت قضية حساسة للغاية ، على حد تعبيره ، لأنها كانت تمس موقف الاتحاد السوفيتي في صراعه السياسي والاقتصادي في مجال أسواق النفط ، كما تمس علاقة الاتحاد السوفيتي بأمريكا والشركات الانجليزية التي تنتج وتبيع النفط ، وتمس موقف السوفييت كمنافس في مجال الاقتصاد الدولي

تدخلت المحكمة لالغاء الجزء الخاص بظهور القيصر في هذه المسرحية . وعلى هذا الاجراء يرد بيسكاتور بالرفض على هذا الطلب ، ويعتبر أن المسرح الذي يعالج قضايا الساعة Topical Theater ، يجب أن يقوم بدور فعال وإيجابي في مجرى الأمور الراهنة ، ويظهر تطور التاريخ كما هو ، وفي هذه المحاولات لا يقبل المسرح أية قيود عليه ، بل يرى أن من حقه اظهار جميع الأشخاص الذين قاموا بدور معين في التطور التاريخي لفترة معينة ، وخاصة إذا كانوا من القوى المؤثرة في النزاح الاجتماعية والسياسية لهذه الفترة ، والمقيد الوحيد الذي يعترف به هذا النوع من المسرح هو مراعاة الدقة التامة واطهار الحقيقة التاريخية كما هي .

ويضيف بيسكاتور ، أنه حين يحاول إبراز نقطة من نقط التحول في تاريخ أوروبا فإنه يتوخى الدقة ، وكان عليه حينئذ أن يظهر شخصية القيصر الألماني السابق على المسرح بين الشخصيات الأخرى التي لعبت دورا في ذلك الوقت ، دون أن يكون في ذهنه اظهار صورة مشوهة لهذه الشخصيات . ولقد حاول أن يكون دقيقا قدر المستطاع في إبراز جوانب هذه الشخصية من واقع الأوراق الرسمية التي أمكنه الوصول إليها ، ومن هذا الواقع استطاع أن يثبت أن مقاليذ الأمور قد وضعت بين يدي من لا يستطيع القيام برأياته على أحسن وجه ، ومع ذلك فإنه (أى بيسكاتور) لا يستطيع أن يضع اللوم على القيصر شخصيا ، ولكن على الجهاز المحيط به ككل لحظتهم في اختيارهم لقائدهم . ولقد كان جل اهتمام بيسكاتور هو اعطاء صورة واضحة عن كل القوى التي أدت للاهيار الذي حدث بين عامي ١٩١٤ و ١٩١٨ ، وهي فترة لا مثيل لها في تاريخ أوروبا السياسي .

مسرحية للجمهور . وبالرغم من أن هذه العروض قد قلعت شخصيات بروليتارية ، إلا أنها لم تقدم جديدا في المجال الاقتصادي والاجتماعي اللذين يعتبران الدعائم الأساسية لأعمال بيسكاتور .

وبالرغم من أن أعمال الاستوديو كانت عاملا مشجعا بالنسبة لمعنويات الأعضاء الشباب ، إلا أن هذه الأعمال لم تكشف أرضا جديدة في هذا المجال ، ولكنها قلعت للمدى البعيد المستقبلي الطريق إلى المنشأة المسرحية التي أسسها بيسكاتور فيما بعد في عام ١٩٣٨ في نيويورك وأطلق عليها اسم « مركز أو مصنع الأعمال الدرامية » Dramatic Workshop



ونأتي الآن إلى المرحلة الرابعة والأخيرة في هذا الكتاب وهي الفترة التي تلت فترة ازدهار مسرح بيسكاتور ، أو إذا أردنا تمبيرا آخر « ما بعد » مسرح بيسكاتور . وتبدأ هذه الفترة حين افتتح بيسكاتور مسرحا آخر إلى جانب « مسرح بيسكاتور » وذلك ليتسنى له عرض جميع المسرحيات التي كان قد وعد الجمهور بتقديمها . وهنا تصاعدت الفسرابات عليه ، فلم يستطع المسرح أن يدفع ما عليه للدولة ، فأشهر إفلاسه وأغلق المسرحان . ولكن بعد مدة من الزمن ، وبمساعدة بعض الأصدقاء استطاع أن ينشئ له مسرحا من جديد ، وشرع لاصدقائه أنه يحتاج لمساعدتهم لتقديم النظريات التي يؤمن بها ، والتي أشرنا إليها سابقا ، على المسرح ، فأشار عليه دوروس Durus ، الناقد المسرحي للمجموعة ، بأن ينضم إلى « رابطة مسرح العمال » وتقع تحت نفوذ الحزب الشيوعي ولكن بيسكاتور رفض ذلك .

الرأسمالي . ولكن الموقف لم يتنه عند هذا الحد ، فإن الجزء الثاني من المسرحية يظهر الاتحاد السوفيتي يظهر من يثير الفتن ويحرض على الثورات من أجل الاستيلاء على أسواق النفط . وهذا موقف عرج بالنسبة للقائمين على « مسرح بيسكاتور » ولا يمكنهم إتمام العرض . بالأسامة إلى الاتحاد السوفيتي الذي يبدو مدافعا عن حقوق العمال من ناحية ، بينما هو يحرض على الثورات من أجل النفط من ناحية أخرى هذا الموقف أدى إلى تأجيل تقديم العرض عدة أيام حتى يتسنى لبيسكاتور تغيير بعض الأدوار حتى يخفف من حدة الموقف قبل تقديم مسرحية « ازدهار » . ولكن الصدى الذي تركه هذا العرض في نفوس الجمهور كان مليشا بالتناقضات كغيره من العروض التي قدمها هذا المسرح في ذلك الموسم . هل أن الشيء للدهش حقيقة ، على حد تعبير بيسكاتور ، هو أن صحافة اليمين التي لم تكن تحمل من وصف عروض هذا المسرح بأنها غلة ومثيرة للضجر وجافة قد بدأت الآن فجأة تهاجم هذه المسرحية والتي احتلت المكان الأول ، على مسارح برودواي .



وبعد ذلك انتقل بيسكاتور إلى الكلام عن الاستوديو الذي افتتحه مسرحه في أكتوبر (تشرين الأول) عام ١٩٢٨ ، والذي يعتبر إسهاما في مجال تطوير المسرح السياسي ، حيث كان هذا الاستوديو يقدم دروسا نظرية وتجارين عملية في هذا المجال . وكان هذا الاستوديو تحت إشراف بيسكاتور نفسه ، وكان يغطي معظم جوانب التمثيل ، كما أن فصوله فتحت لجميع أفراد المجموعة وللمهتمين بالموضوع من خارجها . ولقد طغى الإخراج المسرحي على جميع النشاطات الأخرى للاستوديو بحيث قدم في نهاية الموسم أربعة عروض

المسرحية ممتدة على ثلاث مراحل ، المرحلة الأولى : المرحلة المأساوية Tragic (وبروليتاريا) ، المرحلة الثانية : المرحلة التراجيكميدية Tragicomic أو التي تجمع بين المأساة والملهة (الطبقة الوسطى) ، والمرحلة الثالثة والأخيرة : المرحلة البشعة -Grotes- que (الطبقات العليا والعسكرية) . ولقد قدم يسكاتور هذه المسرحية معبرا بها عن تقسيم سوسيولوجي عرضه بمساعدة السلام والجسور ، وكل طبقة من الطبقات اتخذت لنفسها مرحلة من المراحل . ولكن المشاكل التي قابلت يسكاتور في تقديمه هذه المسرحية ، هي أن البطل كان يهوديا راسماليا ، وكان هدف يسكاتور هو معالجة رأسمالية ، وليس معالجة عنصرية ، ولكنه وقع في خطأ ازدواجية ، وهذا ما أثار النقد المر من حوله .

وهنا يتساءل يسكاتور بعد هذه المشاكل الكثيرة التي واجهته في تقديم هذه المسرحية : هل يستطيع الاستمرار في تقديم المسرح السياسي الذي ارتبط اسمه به ؟ ورده على ذلك هو : نعم ! فمهما حدث ومهما اكتنف الغموض مسرحه في بعض الأحيان وعدم تفهم الزملاء في أحيان أخرى ، فإنه سيستمر في نفس الخط الذي اتخذه لنفسه منذ البداية مهما كلفه ذلك .

ومن مسرحيات يسكاتور التي قدمها في هذه الفترة أيضا مسرحية « نساء في عنة » لمؤلفها كارل كريدييه Carl Crede ، وتقديمه لهذه المسرحية كان في إطار محاولاته الأخيرة لكي ينشئ لنفسه مسرحا ذا مكانة مرموقة في جمهورية فايمار Weimar Republic وتناقش هذه المسرحية فقرة من القانون المدني الذي يعتبر الاجهاض مجريها عملا غير قانوني . ويبين من خلال هذه المسرحية كيف أنه بإمكان الأغنياء الذهاب الى

بعد إغلاق « مسرح يسكاتور » ظهرت بعض الظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي تركت أثارا هامة في المجتمع الأوروبي . ففي عام ١٩٢٩ بدأ العالم في التسلح من جديد وبدأ الخوف من اليمين يظهر عند الكثيرين ، واشتد التعاطف مع اليسار ومع المجتمع البروليتاري العمالي ، وبدأ التوتر في كل شيء بوضوح . ومن ثم فقد تأثر للمسرح بهذه العوامل التي كانت تسود العالم فهو ليس بمسرح عا يدور حوله . فالمسرح البورجوازي اتخذ له موقفا من مشكلات العصر ، والمسرح الفني بدأ ينقرض ، فلم يعد هناك مسرح من أجل الفن في حد ذاته . فالجمهور - حتى البورجوازي منه - لم يعد يهتم بمثل هذا النوع من المسرح ، بل بدأ التساؤل يظهر عن المشكلات السياسية والاجتماعية ، وأخذ الناس يبحثون عن حل لمشكلاتهم من خلال المسرح الذي أخذ يتجه نحو اليسار بشكل واضح في جميع مسارح برلين .

وبعد ذلك ، لم يعد المسرح السياسي هو آخر صيغة في عالم المسرح ككل ، بل اضطر القائلون على المسارح إلى إدخال التجديدات على الأساليب الفنية ، فالحقيقة أن تداخل الثورة الفكرية في المسرح مع التجديد في الأصول الفنية لم يكن محض صدفة ، بل إن التطور الفني كان يشكل تطورا عضويا من التطور الفكري .



في هذه المرحلة من أعمال يسكاتور ، قدم للجمهور عدة مسرحيات أشهرها (تاجر برلين) والتي عالج فيها : التضخم المالي والاقتصادي . ولكن عرضا واحدا لم يكن يكفي في نظر يسكاتور ، للالام بهذا الموضوع فقرر تقديمها في عدة عروض متصورا هذه

الاجتماعي « New School for Social Research ، كما ذكرنا سابقا ، وذلك بعد وصوله الى هناك عام ١٩٣٨ . ولقد عمل بيسكاتور مع بعض زملائه حتى عاد الى جمهورية المانيا الاتحادية في عام ١٩٥١ ، وهناك عين بعد سنتين مفضية من العمل الشاق مشغولا عن مسرح الشعب الذي أنشئ هناك حديثا وذلك في برلين الغربية . وبدأ بيسكاتور باخراج مسرحيات وثائقية عديدة كانت قد احتجت في فترة جمهورية فيمار ، وظل يعمل في منصبه هذا حتى توفي في ٣٠ مارس (آذار) ١٩٦٦



قدم بيسكاتور للمسرح الحديث ما يزيد على الأربعين مسرحية ، بعضها أوبرات ، وبعضها روايات مسرحية ، وبعضها مسرحيات المانية مصاصرة ، ومسرحيات تاريخية ألمانية ، والبعض الآخر تاريخية روسية ، ومسرحيات عالية تعالج قضايا الساعة ، الى جانب تقديمه لبعض المسرحيات الكلاسيكية . كذلك أسهم بيسكاتور في تقديم موضوعات اجتماعية صاغها في قالب مسرحي ليعرضها على الجمهور . من هذه الموضوعات : الزواج ، الصحافة ، الرياضة ، مشكلة الدواء ، نظام البنوك ، كما قدم بعض الموضوعات التي عاصرت هذه الفترة مثل موضوع : الثورة الفرنسية ، مناقشات لينين ، وقضية الاستعمار وغيرها من الموضوعات .

كذلك لاحظ بيسكاتور أن الأهمية التي افترضتها الحرب في الأدب ، وخاصة في العقد الأخير الذي عاصر مسرحه ، تمكس بوضوح الضغوط الكبيرة في التطور الاجتماعي والثقافي لأوروبا . كذلك وجد أن كثيرا من

أطباء لاجراء عملية الاجهاض يدفع أتعاب هؤلاء الاطباء ، بينما لا تستطيع النساء الفقيرات ذلك فيضطرون للجوء الى بعض الأشخاص الذين يقومون بهذه العملية في الشوارع الخلفية وبطريقة غير مأمونة ، مما يؤدي بالكثيرات منهن للوفاة أو ان الكثيرات يتعرضن لمتاعب صحية كثيرة تحتاج لرعاية طبية طويلة المدى ، وغالبا ما يحدث هذا بين الفقيرات من زوجات العمال .

ولقد قدمت هذه المسرحية في عروض خاصة للأطباء والمحامين وبعض الشخصيات المحلية ، وأثير حولها جدل كثير ، ونوقشت هذه الفقرة من القانون المدني وقامت بشأنها دراسات كثيرة ومتعددة .



وبعد هذه الفترة انتقل بيسكاتور للعمل في مسرحيات متفرقة ومتعددة لم تلاق النجاح الذي لاقته المسرحيات الأولى ، وانتهى به العمل في جمهورية فايمار الى الانتقال الى مسرح قديم ، في ضاحية آهله بالسكان من الطبقة العاملة ، وعزل بسبب ذلك من قبل الجمهور البورجوازي ومن صحافته .

وفي عام ١٩٣١ ذهب بيسكاتور الى الاتحاد السوفيتي ليقدم هناك فيلما عن رواية لأنثا سيجهر Anna Segher وعنوانها « ثورة صياد سانت باربرا » ، ولقد بقي هناك حتى عام ١٩٣٦ . وبعد ذلك ذهب في رحلة الى الغرب لم يعد منها الى الاتحاد السوفيتي أبدا . وفي ١٩٤٢ أخرج ، بمساعدة ألفريد نيومان Alfred Newman « الحرب والسلام » مؤلفها تولستوي في نيويورك ، حيث بقي هناك وأنشأ ما أسماه « مركز الأعمال الدرامية » في « المدرسة الجديدة للبحث

جذور الثورة الروسية والقوى التي كانت خلفها والتي
حركتها في مسرحية « واسبوتين » ، وأما في رواية شفايك
Schwejk فقد ألقى الضوء على عقدة الحرب بوجه
عام .

المؤلفين يفتنون في محاولة لاتخاذ موقف معين من هذه
الحرب ، وهذا ما حاول هو وجماعته إبرازه في عدد من
مسرحياته . فعلى سبيل المثال وضع تصميمها لعقد كامل
من تاريخ ألمانيا في مسرحية « هكذا الحياة ! » ، وعرض



حين ظهر كتاب « نوم تشومسكي » Noam Chomsky « التراكيب النحوية » Syntactic Structures عام ١٩٥٧ لم يكن أحد يتوقع مدى الأثر التي يمكن أن يجدها مؤلف هذا الكتاب في الفكر المعاصر ، فمنذ ذلك الوقت أصبح تشومسكي علامة بارزة في العالم الأكاديمي ، فقد شد الانتباه الى ما سماه بالأشكال العامة غير المحددة للغات - والتي كانت تعالج حتى الوقت الذي ظهر فيه بطريقة مختلفة تماماً ، وعلى الرغم من أن كتاباته الأكاديمية اهتمت بمعالجة القضايا الفلسفية والسيكولوجية - إلا أنها جاءت في قالب علمي خالص ، عبرت بصورة واضحة عن مقدرته العلمية الفذة ، فلم تكون نظريته عن « العموميات اللغوية » نتاجاً لبعثه في طبيعة اللغة ، وإنما كانت محاولة جديدة تماماً على الأوساط العلمية لفهم طبيعة العقل البشري ، وطبيعة العلاقة بين العقل والجسم ، فمن هنا أحدثت أفكاره أثراً هاماً في ميادين أبعد ما تكون عن علم اللغة ذاته كالفلسفة والاندشورولوجيا وعلم النفس والبيولوجيا ، وأصبح بذلك أول عالم في كل تاريخ علم اللغة ينتشر اسمه كل هذا الانتشار .

وتشومسكي الذي يشغل حالياً منصب استاذ في معهد ماساتشوستيس للتكنولوجيا M.I.T. لا ترجع شهرته فقط الى علم اللغة - بل ترجع الى صلته القوية بحركة اليسار الجديد New Left في أمريكا ، وهي الحركة التي أعادت تقسيم المذهب الماركسي Marxism ، فهو يعتبر من أبرز متحدثي اليسار الأمريكي الجديد ، نتيجة لكتاباته النقدية للسياسة الأمريكية الخارجية وبخاصة التدخل الأمريكي في فيتنام ، ونتيجة لمعارضته القوية لتشجيع الحكومة الأمريكية الاحتلال اليهودي الفلسطيني ، فقد نشرت له

الحرية واللغة

تأليف جيمس ماسون
عربية وتحليل محمود محمد عبد الغني

it والسابع الخلاصة Conclusion، هذا بالإضافة الى ثلاثة ملاحق، خصص المؤلف للمحق الأول لملاحظاته عن الدراسة ، والثاني للمراجع التي استعان بها في دراسته والثالث للدليل الأساء التي وردت بالدراسة . وستتناول فيما يلي بعض فصول هذا الكتاب :

المقدمة :

يعرض المؤلف في مقدمته الهدف من الكتاب ، ويبدأ هذا العرض بمناقشة دقيقة للأثار التي تركتها النزعة العلمية التي تغلغلت في مختلف مظاهر الشؤون الاجتماعية والانسانية ، فلقد كان نتيجة تزايد استخدام المنهج العلمي أن طبق في مجالات لم تكن تسمح بهذا التطبيق ، وهي المجالات المرتبطة بالطبيعة البشرية ، فلقد أظهر هذا التطبيق ردود أفعال عنيفة وموجة من المناقشات - تبلورت في أوضاع صورها في رفض الشباب للتقدم العلمي والتكنولوجي المعاصر - حيث كان رفضهم موجهاً أساساً الى نوع الحياة الناتج عن تطبيق المنهج العلمي ، فالكتاب يتناول أفكار تشومسكي وذلك لأنه من أبرز العلماء الذين اهتموا بالادعاءات العلمية الكاذبة السائدة في العالم المعاصر ، ويعرفنا المؤلف في مقدمته على فكر تشومسكي الذي يتميز بجانبين - الجانب الأكاديمي الذي يعبر عن مقدرته العلمية الفذة ، والجانب السياسي الذي كان نتيجة مباشرة لنظريته الجديدة لطبيعة البشرية التي حققها في أبحاثه الأكاديمية الخاصة بطبيعة اللغة . والمؤلف يحاول في هذا الكتاب الكشف عن مدى ارتباط فكره السياسي بفكره الأكاديمي - فعم أن تشومسكي لم يشر لاية صلة بين جانبي فكره - الا أنه مال في السنوات الأخيرة الى ربط نشاطه السياسي والأكاديمي معاً ، ويذكر المؤلف أنه يعتمد في تحقيق هدفه على مفهوم الإبداع

كثير من المقالات في سلسلة World Readers في الولايات الأمريكية ، وفي سلسلة Modern Mass ters في بريطانيا ، فقد أدى ذلك أن يحتل مكانة عالية في أسواق السياسة العالمية .

والكتاب الذي نقوم بعرضه هو كتاب « الحرية واللغة » Liberty & Language ومؤلفه هو جيفري سامبسون G. Sampson (أحد أعلام علم اللغة المعاصرين) يعتبر أحد الكتب العديدة التي ظهرت لتعبر عن مدى الأثار التي أحدثها تشومسكي في الفكر المعاصر ما يقرب من ربع قرن ، والموضوع الرئيسي لهذا الكتاب هو تشومسكي ذاته ، يتناول فيه المؤلف أفكاره السياسية - تلك الأفكار التي انبثقت عنها نظريته اللغوية ، وهذا في الحقيقة يشير الى مدى الصعوبة والتعقيد والعمق التي تميزت بها أفكاره ، ويقع الكتاب في ٢٥١ صفحة من القطع المتوسط ، وقامت بطبعه جامعة أكسفورد عام ١٩٧٩ ، ومع أن كتابات تشومسكي تزرع بالكثير من المصطلحات العلمية الفنية ، بحيث أننا لا نكاد نرى كتاباً له أو مقالاً يخلو من هذه المصطلحات وبخاصة كتاباته الأكاديمية ، الا أن الكتاب الذي بأيدينا قد جاء بعيداً عن هذه المصطلحات ، والسبب في ذلك أن المؤلف يقدمه للقارئ العادي قبل التخصص . ويحتوي الكتاب على سبعة فصول أساسية ، الفصل الأول مقدمة ، والثاني بعنوان : من علم اللغة حتى القوضوية From Linguistics to Anarchism والثالث الليبرالية والابداع Liberalism & Creativity ، والرابع علم اللغة يواجه الليبرالية Linguistics Versus Liberalism والخامس تشومسكي - السلالة والسياسة الخارجية & Chomsky, Race Foreign Policy والسادس ماذا نعرف وكيف نعرفه What We Know & How We Know

كانت حتى ذلك الوقت تعالج بالإشارة الى اعتبارات مختلفة تماماً ، لقد تناول المؤلف شرح الصيغة النهائية لنظرية العموميات اللغوية . وخاصة العموميات النحوية التي حددها تشومسكي بالقوانين اللاشعورية التي تعمل مع التنظيم التصاعدي للجمال في أية لغة انسانية وذلك بالمقارنة مع اللغات الصناعية التي لا تحتوي البناء التصاعدي بنفس الطريقة ، لقد أبرز المؤلف ما ذهب اليه تشومسكي بأن تلك القوانين قد تبيأت بفعل الميكانيزم الوريثي ، وهذا ما دفعه للقول بأن اللغة مقدرة فطرية عنها مكتسبة ، وقال المؤلف ان ذلك يجيء على النقيض لما تذهب اليه الفلسفة التجريبية . فمن هنا انتقل المؤلف لمناقشة أسس الفلسفة التجريبية فقد ظهرت أفكار تشومسكي كاعتراض مباشر على الاتجاه التجريبي ، ولقد تناول المؤلف كلا الاتجاهين بالمناقشة وانتهى الى أن كليهما ليس كاف على حدة . فقد ناقش آخذاً في الاعتبار أهمية القدرات الفطرية والتجريبية في اكتساب المعرفة الانسانية ككل . لقد ناقش المؤلف أفكار تشومسكي السياسية - وعرض كيف أن هذه الأفكار كانت نتاجاً لنقد تشومسكي للأفكار التجريبية التي تستند اليها كثير من الحكومات (من بينها الحكومة الأمريكية) في تدبير المكائد . فقد ناقش تشومسكي

كسياسي كيف أن الحضارة الصناعية تؤدي الى استخدام ارادات الأفراد وتؤدي الى تابعيتهم وفقدانهم راحتهم فللمجتمع الرأسمالي يشجع على ذلك . فمن هنا مال تشومسكي للقول ان التصور السياسي يجب أن يكون شكلاً من الاشتراكية الديمقراطية . وتركز هجومه على الحكومات المعاصرة لاستخدامها نفوذها الزائد للتأثير في طريقة حيلة الأمم الضعيفة (مثال التدخل الأمريكي في فيتنام) - لقد ناقش المؤلف كيف أن هذه الأفكار دفعت تشومسكي لتفسير علم نحو اللغات الانسانية موضحاً بأننا لغة حرة تماماً . فقد اعترف

Creativity فلقد تناول هذا المفهوم باعتباره أهم مصطلح في المذهب الليبرالي ، وفي أعمال تشومسكي الأكاديمية . . ويشير المؤلف أن هدفه هو تنفيذ آراء تشومسكي ، فعل الرض من أنه ناقش آراءه السياسة بدقة وجذارة وشد الاعجاب لتلك المناقشات ، الا أن كتاباته الأكاديمية أظهرت نقصاً يبعث على الحلاك ، فلقد استخدم تشومسكي مصطلح الابداع استخداماً أوسع من استخدام الليبراليين له - ومع ذلك فقد ظهر مفهومه مختلفاً عن المعنى الليبرالي للمصطلح لفهم الحيلة ، فلقد سلم تشومسكي بالظهور الضيق للغة الانسانية (النحو - التسمية) وهذا في رأي المؤلف يدل على قصور فهم تشومسكي لهذا المصطلح - فامثال تشومسكي للجانب الدلالي من اللغة وادعاءه بأن (علم النحو) يفند الليبرالية أدى الى عدم صمود هذا الادعاء - حيث أن علم الدلالة يؤيد تماماً المذهب الليبرالي . على أية حال فان المؤلف يقول ان الكتاب عديد من المهدف يبدأ من الهجوم على القالب القديم للمذهب الليبرالي - وينتقل لابرار الاسهامات التي قدمها هذا المذهب في دراسة اللغة ، وإظهار أن هذه الاسهامات تحيى على النقيض لتلك المعتقدات التي سلم بها تشومسكي .

من علم اللغة الى الفوضوية :

يتناول المؤلف في هذا الفصل فكر تشومسكي الأكاديمي ، وانتقل ليناقش فكر تشومسكي السياسي وذلك بالإشارة الى المذهب الليبرالي ، وتناول أسس الفلسفة العقلانية (التي اتجه اليها تشومسكي) والفلسفة التجريبية في تفسير المعرفة الانسانية ، فقد تناول تشومسكي طبيعة اللغة ، ولقد قوبلت مناقشاته بسوء فهم وخاصة تحليله الفلسفي لمفهوم اللغة ، ورغم ذلك فلقد جذب تشومسكي الانتباه الى ما سماه بالأشكال العامة غير المحددة للغات الانسانية - والتي

حيث أنه نتاج لوصل مفهوم الابداع بالمناهج العلمية - وهذا هو أكبر دليل على زيف الاتجاه العلمي المعاصر - فالمرء أن تقدم أي اقتصاد يعتمد في المحل الأول على الحرية العقلية - ومن خطأ الاعتقاد أن الحرية العقلية يمكن أن تعيش بطريقة ما في مجتمع متسلط اقتصادياً . فقد يكون المجتمع حراً ولكن العقل الانساني للفرد لن يأتي بأي فكرة ذات قيمة بينما هو في انفصال عن مجتمع العقول الكلي - فالفكر الخلاق غير منسوب بالتعريف - والحرية العقلية لا تظهر في مجتمع متسلط يقيم أهمية لاقامة خطة لتحريم الأفكار غير الفانونية (كالأمة السوفيتية مثلاً) . لقد تناول المؤلف أفكار تشومسكي عن الاشتراكية وفرقه بين النوعية الحرة والنوعية غير الحرة من الاشتراكية - حيث تظهر قيمة تلك التفرقة نتيجة جهلنا بطبيعة التضاعلات التي تظهرها الوحدات الاقتصادية المحكومة ذاتياً وتحول المؤلف لتناول ما أشار اليه تشومسكي بالمجتمع النقابي - ولقد ناقش المؤلف كيف أن الاقتصاد لا يعتبر قوة سياسية - ولكنه قوة اقتصادية - وقوة للتنظيم السياسي والاقتصاد النقابي لا يمكن أن يؤدي وظيفة الا عندما يتم تبني النقابة كنظام سياسي في المجتمع الذي يتبناه تنظيمه الاقتصادي بقوى السوق ورغم ذلك أشار المؤلف ان مثل هذا النظام السياسي لا يمكن له الاستمرار حيث ستبدأ في الظهور مشاكل جديدة .

٤ - علم اللغة في مواجهة الليبرالية :

بعد أن كشف المؤلف عن الاختلاف القائم بين الليبرالية والاشتراكية الذي يرجع أساساً الى اختلاف النظرة الى الطبيعة الانسانية (فالليبرالية تبدو انها قائمة على التجريبية ، والاشتراكية قائمة على العقلانية) يتناول المؤلف في هذا الفصل تشومسكي باعتباره فليسوناً عقلائياً ، وباعتباره ميسياً رفض قيام نموذج

تشومسكي بتلك الحرية وتناولت ملاحظاته أساس التطور المعرفي لقوانين الطبيعة البشرية والحالات التي تتطلب إشباعها فقد أدى ذلك الى استغلال بعض المفكرين تلك الحرية كأساس لرفض كتاباته - على اعتبار أن علم اللغة وعلم النفس علمان شكلان في جانبها الأكبر - ولقد اتجه المؤلف الى اظهار أن مفهوم العقل والتصور السياسي مفهومان مختلفان عن المفاهيم التي قدمها تشومسكي - فلقد رفض تشومسكي الليبرالية مفضلاً عليها اشتراكية قائمة على سوء فهم لاكتشافاته اللغوية الخاصة ، واكتشافاته الأخرى الخاصة بالطبيعة البشرية .

الليبرالية والابداع :

يتناول المؤلف في هذا الفصل بالتحليل الاتجاه الليبرالي وذلك بهدف التمهيد للهجوم على أفكار تشومسكي السياسية . لقد رفض المؤلف مفهوم مصطلح « ليبرالي » كما يعبر عنه في الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا بمتوسط ما يمثل مفهوم رجل الشارع عنه ، فالليبرالية تشير الى حرية انتاج الانتاج وتوزيعه (بعيداً عن المظاهر غير الاقتصادية للحياة الاجتماعية) - وليس أمام الحكومة سوى المحافظة على حرية السوق على ما هي عليه وحماية الأفراد في تمتعهم بالمشاركة في السوق - ولكن المؤلف لا يتناول الأمر من هذه الزاوية - فقد انتقل لمناقشة مفهوم الليبرالية في ضوء مفاهيم الابداع الانساني والجهل الانساني ، فالابداع هو خاصية تميز المهارة الانسانية عند اختراع الأشياء الجديدة ومسح ذلك فليس كسل الأمثلة الجديدة للاختراعات تعبر عن الابداع ، فالابداع ليس له دور في اختراع الآلات الجديدة - فكثير من الأمثلة الجديدة هي نماذج جديدة لأمثلة موجودة ومعروفة من قبل . فالوضع الذي يدع فيه الانسان هو نتيجة للجهل الانساني -

حقيقة نقول ان النشاطات التي لها قوانينها التي تحكمها ببعض الاعتبارات قد لا تكون نشاطات ابداعية بالاعتبارات الاخرى . مثال : مسألة الشعر أو النثر فمع انها تعتبر نشاطات خلاقة الا ان القوانين التي تحكمها هي ليست كذلك . لقد أظهر المؤلف ان تشومسكي قد اساء استخدام مصطلح ييدع - فقد استخدم المصطلح بالمعنى الذي يتصارع فيه مع استخدامه القياسي ، فقد كتب تشومسكي رايه في الابداع الانساني وقال بأنه ظاهرة غير خاضعة للتحقيق العلمي ، ولقد أظهر المؤلف كيف أن هذه الفكرة العقلانية التي عبر بها تشومسكي عن الانسان تعتبر فكرة غير نموذجية - وأوضح المؤلف كيف ان البشر لا يستطيعون تنمية قدراتهم دون حدود - لأنهم لن يربوا من ارتباطهم الثابت بطبيعتهم البيولوجية - فقد اهتم تشومسكي بتعريف الخاصية القواعدية وتجاهل الخاصية الراجعة - ولقد انتهى المؤلف الى ان تشومسكي وانصاره لم يقدموا أي اسهام لتفسير الانسان - فلم تكن اسهاماتهم سوى بداية لسلسلة من المناقشات العلمية ضد الليبرالية .

تشومسكي السلالة والسياسة الخارجية :

يتناول المؤلف في هذا الفصل موقف تشومسكي من الاتجاه التجريبي وخاصة قضية السلالة ، وذلك لظهور خطأ تشومسكي في هجومه على هذا الاتجاه ، فقد ربط تشومسكي بين الاتجاه التجريبي وظهور الأفكار العنصرية وأشار الى ان الاتجاه التجريبي يمثل الاساس الفكري للنظام السياسي الفاسد ، فمن هنا لم يصدد - نموذج السياسي لهجوم التجريبيين ، لقد ناقش المؤلف اسس الاتجاه العقلاني - ابتداء من المذهب الثنائي الديكارتي ، واطهر ان ادعاءات تشومسكي الخاصة

السياسي على الفلسفة العقلية القديمة التي ترجع لافلاطون ، وأقامها على عقلانية جديدة ظهرت نتاجا لتزايد المعرفة العلمية الخاصة بعالم الانسان الداخلي ، ولذلك فالمؤلف في تناوله للاستنتاجات السياسية يأخذ في الاعتبار الحقائق التي كشفت عنها دراسات الظواهر الانسانية واللغوية الحديثة ، لقد حاول المؤلف الكشف عن الطريقة التي قدم بها تشومسكي أفكاره المناهضة لليبرالية ، وأظهر أن هذه الأفكار ذات ارتباط وثيق بالفلسفة العقلانية ، فقد هاجم تشومسكي في المستوى الفلسفي الفلسفة التجريبية كنظرية لها تأثيرها ولم يبد في الجانب السياسي الاحترام لليبرالية - فقد اعتقد تشومسكي ان الليبرالية انتهت فالكسر الليبرالي الكلاسيكي لا يستطيع ان يعيش عصر الرأسمالية الصناعية ، ولقد أظهر المؤلف كيف أن تشومسكي نقد نفسه في مناقشته للنظرية السياسية ، ولم يكن صريحا في تعريفه لمفهوم التقدم - فقد هاجم تشومسكي مفهوم التقدم ، ولقد أظهر المؤلف أن هذا الهجوم لا يعتبر هجوما ضد الليبرالية . لقد ارجع المؤلف كل الأحكام التي اصدرها تشومسكي ضد الليبرالية - الى سهولة رفضها - فلقد ادخل تشومسكي نفسه مع مختلف الأحكام بامتدادها ولم يكن لديه أي تاحصيل في مناقشته لها . لقد تناول المؤلف أهم الأحكام الصادرة ضد الليبرالية التي تناولت مفهوم الابداع الانساني - فقد كان هذا المفهوم المصطلح الاساسي في نظير تشومسكي اللغوي - حيث كان أحد النقاط الأساسية التي هاجمها تشومسكي واتباعه ولدى اسلافه من علماء اللغة والنفس الاكاديميين . لقد أظهر المؤلف كيف أن تشومسكي مال الى استخدام كل ما هو غريب وشاذ لمصطلح الابداع ، وأشار الى أن المفهوم الذي استشهد به تشومسكي لا يشير للنشاط الابداعي للانسان - فقد أخذ المؤلف على تشومسكي عدم تقديمه ارضية لقبول هذا النقد - وهناك

ولقد كان الأمر عند تشومسكي مختلفا ، فقد كان الهدف من البحث اللغوي هو إيجاد نسق ثابت من المقولات الاصطلاحية التي يمكن بها وصف أي لغة انسانية ، ولذلك فقد رفض المحتويات العنصرية لترتيب النحوي للغات ومال لتأكيد الميكانيكية السيكولوجية الفطرية التي يفترض أنها خاصة لدى النوع البشري ، فمن هنا ادعى أن قدرة الفرد العقلية اكتسبت تماما مثل فسيولوجية الإنسان عن طريق ميكانيزمات الوراثة ، لقد نقد المؤلف هذه الفكرة على اعتبار لو أن طبيعة القدرات العقلية قد صممت بالفعل للتوارث البيولوجي ، فإن التباين بين الأفراد سيعتبر امتدادا استاتيكا للإسهامات العقلية التي تؤدي أيضا للاختلافات التي توجد بين السلالات ، ولقد ناقش المؤلف أفكار تشومسكي بالاشارة إلى قياس مستوى الذكاء العام ، وأشار إلى أن وراثة تشومسكي التي مارست المذهب العقلي تعتبر حالة مختلفة عن ديكرات ، فممن هنا لم يوافق المؤلف على أفكار تشومسكي ، وذهب إلى أن هذه الأفكار تقودنا إلى الاعتقاد في الاختلافات العقلية الموروثة ، وإلى التسليم بأن الاختلافات العقلية هي اختلافات كمية موروثة وليست اختلافات كيفية ، وأن هذه الأفكار تقودنا لافتراض أن شكل الحكومة يعتبر امتدادا جزئيا لعلم وراثة الحكومة ، وتدفعنا لضرورة التسليم يتجنب الأهم كل منها الأخرى لأن ما يعتبر سيئا بالنسبة لنا - قد يكون حسنا بالنسبة لهم ، ونحن غير مناسين لتقييم ذلك .

معرفتنا وكيفية معرفتها :

يتناول المؤلف في هذا الفصل بشيء من التطويل الاتجاه السلوكي التجريبي ، وبالأذات أفكار سكينر B.F.Skinner أشهر علماء النفس المعلمين في جامعة هارفارد ، فقد تصارعت أفكاره عن الطبيعة

بإرتباط الاتجاه التجريبي والاتجاه العنصري غير صادقة ، حيث كان هذا الارتباط تاريخيا فقط . لقد تناول المؤلف أفكار جون لوك J.Lucke وهيوم Hume فقد أشار بيركلين Braken إلى أن أفكارهم تميزت بالمقاعدة العنصرية الوراثة ، وأضاف تشومسكي أفكاره بناء على هذا الإدعاء ، لقد أشار المؤلف إلى أن هؤلاء الفلاسفة كانوا في وضع يختلف عن الوضع الذي نعرف فيه اليوم أن كل اللغات الانسانية تمتلك سيادتها كلغات خاصة ، حيث كان نطق اللغات البدائية غير معروف لعلماء ذلك الوقت ، وقد انتشرت القصص الخرافية ، ومن ثم فإن أفكار « لوك » لم تكن نتاجا لأفكاره ومبادئه الفلسفية ، ولكنها كانت نتاجا لجهله بحقيقة هذه اللغات . ولقد أظهر المؤلف أن الاتجاه التجريبي يسلم باستحالة مقارنة وترتيب السلالات على أساس كونها سلالات سامية وسلالات منحطة لمجرد اختلافها ، وأشار إلى أن فكرة التطور لا يمكن ممارستها على الوضع البيولوجي للإنسان - فنحن نمتلك الاسم القوي لاعتبار نوعنا الانساني نوعا ساميا على كل الأنواع البيولوجية الأخرى ، أما الاختلافات العقلية القائمة بين الجماعات البشرية المختلفة فهي تشير للاختلافات الثقافية وليست الاختلافات البيولوجية ، وليس لدينا مبررات تجعلنا نشير إلى تراث ثقافي معين على أنه تراث اسمي أو اذن من تراث ثقافي آخر في أي زمن ، فالالاتجاه التجريبي لا يجد أي معنى في مقارنة الثقافات ذلك لأنه ليس هناك نسق متعادل يمكننا من وصف الثقافات ، ولقد استشهد المؤلف بأفكار فرانتز يواس F.Boas الذي ذهب إلى ضرورة وصف كل ثقافة بمصطلحات النسق التصوري المناسب ، وإلى أنه لا يمكن استخدام المقولات الاصطلاحية الفنية التي تستخدم في وصف اللغات المتشابهة في وصف اللغات الهند وامريكية الآخذة في الزوال .

فقد أظهر المؤلف كيف عانى تفكير تشومسكي في قضاياها الأكاديمية والسياسية من القشل في تحقيق التميز المنطقي بين ماهو صواب ، وما يعتقد الناس فيه على انه صواب ، وأظهر أيضا كيف كانت السمة المبكرة لتشومسكي متناقضة ، فقد اعتقد ان البيانات التي يقدم عليها النحو ليست هي المنطوقات ، ولكنها للمعتقدات الحدسية كما تملأها خاصيات اللغة الوطنية ، لقد اعترض المؤلف على ذلك وأظهر كيف ان الحال في اللغة تعتبر حالة مختلفة فبالرغم من أننا جميعا لنا آرائنا الناصجة في موضوع لغتنا الوطنية ، إلا أن ذلك لا يعطي هذه الآراء أية مكانات خاصة للباحث اللغوي . حيث ان عمل العالم اللغوي هو عمل لتحسين نظريات الرجل العادي الناصجة عن لغته وليس التسليم بها . ولقد اظهر المؤلف خطأ تسليم تشومسكي بذلك الحالات باعتبارها حالات يمكن تفسيرها وليست فرضيات يمكن فحصها تقديرا لقد تناول المؤلف كيف أن هذا المفهوم يعكس مفهوما ريكيا وسادجيا للمنهج العلمي . وأكد ضرورة وضع المنهج التجريبي مكان المنهج العقلي في بحث النحو . لقد تناول المؤلف تشومسكي من علم اللغة وحتى علم السياسة وأظهر كيف كانت أفكاره منهارة . وتناول منهجية تشومسكي والمنهج الاميريقي مظهرا خطأ اعتقاد تشومسكي . ومظهر ان كتابات تشومسكي الأكاديمية اهتمت بدرجة كبيرة بالقضايا الفلسفية والسيكولوجية أكثر من اهتمامها بالتحليل القواعدي التفصيلي للغة الانجليزية أو أي لغة اخرى . وانتقل لنقد آرائه السياسية مظهرا خطأ تشومسكي بين الصواب وما يعتقد الناس فيه على انه كذلك . مؤكدا ان البحث في علم السياسة لا يخلص بتفسير المعتقدات السياسية المزيفة التي توجد في العالم ولكن تغييرها . فلقد قدم تشومسكي أفكاره العقلانية في الدفاع عن الاشتراكية . واعتقد

الانسانية والمجتمع النموذجي بحدسة وعنف مع معتقدات تشومسكي العقلانية الذي استمر لمدة طويلة يهاجم بشراسة الاتجاه السلوكي ، ولقد قابل المؤلف ببراعة بين تشومسكي / سكينر ، لقد كان سكينر عالما اميريقيا شاذا ، وقد كان خطؤه المنطقي فادحا ، وقد كان تشومسكي في هجومه لسكينر أقرب للحقيقة . ذلك لأن مناقشاته كانت من أكثر المصادر الخصبة والمثمرة في احداث التغييرات . ورغم ذلك فقد كان تشومسكي (في نظر المؤلف) آخر عالم يمكن تفويضه لنقد سكينر . وخاصة خطؤه المنطقي ، فقد كان هذا الخطأ يقع ايضا في قلب بناء تفكير تشومسكي ذاته ، فقد كان خطأ سكينر واضحا بدرجة كافية . حيث كانت نظريته عن السلوك قاصرة - فقد خلط بين المنهج والنظرية . واعتقد بإمكانية وصف السلوك الانساني بصيغة من المصطلحات التي لا تناسب سوى سلوك القشران والحمام ، ولقد انتقل ذلك الى تصوره للنموذج الاجتماعي المثالي . فقد تصدى للاعتراض الليبرالي على المجتمعات المخططة ، ولم يعتقد في العقل الانساني وأشار الى أن الاعتقاد في الحرية يعتبر وهما .

فمع أن النموذج الاجتماعي لسكينر والنموذج الاجتماعي لليبرالية يعتبران اغصانا للمذهب التجريبي . إلا ان الليبرالية توافق تشومسكي كعماض لسكينر في عدم اعتقاده في العقل الانساني . وفي تعليقه على تصدع الاستدلال المنطقي لسكينر ، ويظهر المؤلف كيف ان تشومسكي قد اقرت نفس هذا الخطأ ، فقد انتقل سكينر بطريقة غير شرعية من الاتجاه التجريبي كمنهج الى الاتجاه التجريبي كنظرية . وأظهر المؤلف كيف تحرك تشومسكي في الاتجاه العاكس بطريقة غير شرعية . من المذهب العقلي كنظرية . الى تأييد المنهج العقلي معتمدا على الاستبطان كمنهج للبحث ، ولذلك

بشيء ما يزال أقل ، فقد كنا في نظره عقولا الكترونية ثابتة الى حد ما - ولقد طُفح هذا اللبث الكلامي من محاضراته الاكاديمية الى محاضراته السياسية وأشار الى ان المجتمع الاصيل الكائن الحي البدع هو المجتمع الحر ، ولكنه ناقض نفسه بمجتمع منقول عن النماذج الليبرالية - حيث ان الحياة التي تقتصر على اي هيكل بني بالقرارات الانسانية ليست حرة . لقد فشل تشومسكي في فهم مصطلحات الابداع والحرية وامتزاجاتها - وهي مصطلحات معروفة جيدا للمؤلف - ولجأ لطبيعة اللغة لمناقشة صيغة مجذبة للابداع - ولذلك فقد تبخرت مناقشاته اللغوية ضد الليبرالية ، وهذا موقف سيء بالنسبة له ، فاللغة (في نظر المؤلف) تعطينا جانباً من أكثر الجوانب الايجابية والقاطعة التي تقول بأن الانسان مبدع بالمعنى الفني ونحن عن جدارة شماس حرية حقيقية ، وليس من بيننا من يدين ذلك . ولذلك فنحن نستطيع ان نستعيد حريتنا ليس بالعصيان العنيف ، ولكن بالمناقشة الصبورة المتأنية غير المنتهية وعن طريق الاقتناع ، ونحن نستطيع ان نكون أحراراً مرة أخرى لو اخترنا ، ولو تم الاختيار نستطيع ان نعطي احفادنا امكانية نقض الحضارة التي جعلتنا نبدو برابرة بالمقارنة .

هل سنختار العبودية ؟

وهل سنجبر ذريتنا حقيقة في اتجاه الوضع المعجمي الذي عانينا منه طويلاً لكي نبعث من جديد ؟

بخطأ المذهب الليبرالي - وبصواب المذهب الاشتراكي ، على الرغم من تسليم كثير من الاشتراكيين بتوارث الافتراضات الامبيريقية المسبقة للمعرفة الانسانية . لقد أشار المؤلف الى عدم قدرتنا على التأكد من خطأ الاتجاه الليبرالي عن طريق الاستبطان . حيث ان هذا التأكيد لا يأتي الا عن طريق المناقشة التجريبية ، ولقد أظهر المؤلف خطأ معتقدات تشومسكي ، فما يعتبر صواباً وما يعتقد الناس فيه على انه كذلك تعتبران قضيتين منفصلتين تماماً . فقد استدعت مناقشة تشومسكي للاشتراكية استخدام مفهوم العدل - ولقد أظهر المؤلف استحالة مناقشة هذا المفهوم عقلانياً ، ولقد انتهى المؤلف الى ان الاشتراكية العقلانية لتشومسكي تقود الى التناقض - فالبشر عليهم العمل عادة بما يبدو لهم الاحسن - وذلك بعد المحاولات الجادة لفهم المواقف بقدر الامكان .

الخلاصة :

يوجز المؤلف في خلاصته المهدف من الكتاب ، وهو اظهار أن افكار تشومسكي المسبورة الاعماق بدقة عن الطبيعة الانسانية تعني بالفعل شيئاً جيئاً على نقيض ما ظهرت لتعبر عنه - وهذا هو ما جعل كتاباته أكثر خطورة فلقد وصفنا تشومسكي بالمبدعين وقد استحسنا قوله . ولكن لقد انتقل ليعني شيئاً يطلق عليه الكثير منا اللاابداع - فقد ناقش تشومسكي وجهة نظره عن العقل

فريدريك جرونفلد ناقد فني ، كان يعمل مراسلا لكل من مجلة Horiton (الاق) التي تصدر في نيويورك ، ومجلة Queen (الملكة) في لندن . وقد أصدر سلسلة من الكتب عن أهم المدن الكبيرة ، كان آخرها كتابه عن مدينة « برلين » كما صدر له كتاب عن التاريخ الاجتماعي للنازية بعنوان « ملف هتلر » . وكتب أيضا عن موضوعات مختلفة في مجالات الفن والموسيقى والحضارة . وهاهو كتابه الأخير « أنبياء بلا كرامة » - موضوع هذا المقال .

يمرض فريدريك جرونفلد في كتابه « أنبياء بلا كرامة » موضوعا مازالت له أهميته من الناحيتين العلمية والثقافية - وهو موضوع اضطهاد الألمان لليهود ، أو ما عرف بمشكلة العداء للسامية . يستند جرونفلد في عرضه الى قائمة ضخمة من المراجع والمصادر ، قد يعجز أي باحث بمفرده عن الاطلاع بها . ونظرا لأهمية الموضوع فإننا نجد أن المراجع عنه في تزايد مستمر فمثلا ظهرت في السنوات الأخيرة (بين ١٩٧٨ و ١٩٨١) بدار النشر فيليب ريكلام مدينة لينز بالمانيا الشرقية سلسلة من سبعة أجزاء بعنوان « الفن والأدب في المهجر المعادي للفاشية من ١٩٣٣ حتى ١٩٤٥ » . وحول نفس الموضوع يدور كتاب جرونفلد مع اختلافه في التيوب وطريقة العرض .

انبياء بلا كرامة

اختار جرونفلد لكتابه المتع عنوانا رئيسيا هو « أنبياء بلا كرامة » مستندا في اختياره الى كلمات من انجيل متى (« وأما يسوع فقال لهم ليس نبي بلا كرامة الا في وطنه وفي بيته ٥٧/١٣ » ثم وضع للكتاب عنوانا هو « خلفية عن زيجموند فرويد ، فرونس كافكا ، ألبرت أينشتاين وديهايم » الا ان جرونفلد لم يقتصر في عرضه على هؤلاء « الأنبياء » بل أخذ يقص في اسهاب وتحليل وتشويق وتفصيل وقائع من حياة وأعمال ثلاثة عشر آخرين من معاصري أولئك « الانبياء » من الشخصيات اليهودية ذات المكانة العلمية والفنية آنذاك .

عزيمه وتحليل كتاب عن انبياء

المصير : عاشت بعد ١٩٣٣ في عزلة تامة فرضها عليها المجتمع . ومع ذلك أبت أن تهاجر ، وصمدت الى جانب أبيها الى أن سافره عام ١٩٤١ - وهو في الثمانين من عمره - الى معسكر الاعتقال . ثم سخروها للعمل بأحد المصانع الى أن تمّ ترحيلها هي الأخرى الى المعتقل في أوشفيتس ، ومنذ ذلك الوقت « لا ندرى عن أياها الأخيرة شيئا (ص ٢٦٣) .

ان عرضا لحياة وأعمال ستة عشر من رجال الفكر والفن في ٣٠٠ صفحة يمكن أن يكون عرضا مفككا يقرم على مجرد سرد لسيرتهم وتجميع أعمالهم . لكن جرونفلد نجح في الربط بينهم ، بحيث أضفى على الصورة ألوانا قشبية وعمل الكتاب عنصر التشويق . وهو إذ يتتبع فكرة الانتاج العلمي والفني الضخم الذي قامت به الجالية اليهودية الألمانية في القرنين التاسع عشر والعشرين ، فهو يبدأ الفكرة بالشاعر هاينريش هاينه (١٧٩٧ - ١٨٥٦) أو بمعنى أدق يستمدّها من فكر الشاعر ، والذي كان يدور حول « تلك العلاقة الوثيقة المتأصلة بين مذهبي هاتين الأمتين : اليهود والألمان . فقد كتب عليهما سوياً أن يعمل على خلق قدس جديدة في ألمانيا . . . تصلح لأن تكون مواطن الفلسفة ومبنت النبوءات وقلة الروحانيات الصرّفة » (ص ١) .

ويتابع جرونفلد تطوير هذه الفكرة في دأب وحزم والتزام فيقول : « ان التقاء التيارين الفكريين للألمان واليهود لمدة تزيد على نصف قرن نتج عنه سيل جارف من الأدب والموسيقى والفكر . ولولا نهايته المشينة ، لتناوله الآن مؤرخو الثقافة على أنه العصر الذهبي الثاني بعد عصر النهضة الإيطالية » (ص ١) . ثم يكفّف المؤلف على تصوير ذلك « العصر الذهبي » المهّد في سلسلة من الصور المذلة ، جعل بدايتها سيمفونيات جوستاف مالر وقصيدته الشعرية بعنوان « أغنية من الأرض »

وختمها برواية هيرمان بروخ « موت فريجل » . كما يوضح في نفس الوقت كيف أن القومية والفاشية باعتبارهما أذّ الأعداء للفكر الحر والانتاج للحرر - قد

يتناول جرونفلد اذن ستة عشر شخصية - أربعة عشر رجلا وسيدتين - مؤرخا لحياتهم وتحللا لانتاجهم ، ومعلّفا على ظروف يبتهم والمناخ الفكري والاجتماعي بل والسياسي الذي عاشوه . كانوا جميعا من اليهود الألمان والنمساويين ، عاشوا بين عام ١٨٥٦ (مولد رائد الطب النفسي الحديث زيجموند فرويد) وعام ١٩٥٧ (وفاة الروائي الكبير ألفريد دوبلين) . جمعت

بينهم المعاناة من ظاهرة العداء للسامية ، مع اختلاف في درجة المعاناة وعنّف التبعات : فمثلا أحسن الموسيقار النمساوي جوستاف مالر باضطهاد الجالية اليهودية عند نهاية القرن التاسع عشر ، ويستدل جرونفلد على ذلك من واقعة من حياة مالر ، فيقول « كان الأمل الكبير الذي راود مالر لسنوات طويلة هو أن يصبح مديرا لدار الأوبرا في فيينا ، لكن قيل له بكل الوضوح إنه لن يشغل هذا المنصب الحكومي الهام شخص غير كاثوليكي .

وبناء عليه فقد استعد مسالرا للتعميد ليصبح كاثوليكيًا . . . (ص ٤٧) وفي الصفحة التالية يعلّق جرونفلد قائلا « ولو اعتنق مالر المسيحية لكان قد تحطّى أضخم عقبة تعترض الطريق الى وظيفة عامة في عهد آل هابسبورج حكام النمسا » . أما الكاتب المسرحي كارل شترنهايم - الذي يصغر مالر بثمانية عشر عاما - فقد

سلك مسلكا آخر : ابتداء عام ١٩١١ من إصدار سلسلة من الكوميديات بعنوان « من حياة المواطنين الأبطال » - سخر فيها من مسلك المواطنين آنذاك ، وانتقد جهيم للظهور وأخلاقياتهم الكاذبة . ونتيجة لذلك كثر أعداؤه أيام القيصر ، بل وأثناء جمهورية فايمار (١٩١٩ - ١٩٣٣) . هاجر شترنهايم عام ١٩٣٠ وبقي حتى وفاته عام ١٩٤٢ ، وكان حتى النهاية شديد الاعتداد بنفسه وما قاله عن هتلر « ومن يكون هو ؟ أنه مجرد شخصية ثانوية في إحدى كوميديات كارل شترنهايم . . . » (ص ٩٥) .

وأما الشاعرة جيرترود كولار (من مواليد ١٨٩٤) فقد اختلفت حياتها عن الآخرين لكنها شاركتهم

الضخم - علميا كان أو فنيا - لتلك الفئة من « الانبياء أمثال زيموند فريد ، الزى لاسكر شولر ، ألبرت أبشتاين ، جيرترود كولار . ومن المؤكد أن الكثيرين منهم آنذاك لم يتدروا خطورة الموقف ولا احتمالات تصميده ، لدرجة أن « بعض العائلات اليهودية من أعيان الطبقة الوسطى » قلقت من شأن تلك الظاهرة ، فها هو العالم اليهودي الألماني ابرنست كاسير - أثناء سنواته الأخيرة في منفاه بأمریکا - يقول لتلاميذه في جامعات ييل وكولومبيا « إن هذا المحتل غلطة من غلطات التاريخ - فهو لا يسمي الى تاريخ ألمانيا على الإطلاق وينشاء عى ذلك فسوف يهلك ويغى » (ص ١٧) . ورغم أن هذه الكلمات وأمثالها تدل على شجاعة في الكفاح وتغافل تاريخي ، لكنها لا تمس الجذور الحقيقية لتاريخ الفاشية الألمانية فلم تكن الفاشية وليدة الصدفة بلئي حال ، ولم تكن ظاهرة نبتت من فراغ في قلب التاريخ الألماني إذ ترجع جذورها - على الأقل - الى الحقبة الأخيرة من الرايخ الألماني ومطامعه التوسعية أي منذ نهاية القرن الماضي .

ثم جاءت جمهورية فايمار (١٩١٩ - ١٩٣٣) بسطرتها المترددة ، فافسحت للفاشية المجال أكثر وأكثر ، الى أن اختير أدولف هتلر مستشارا للجمهورية فقادها الى الهلاك والهاوية . وهذا التطور التاريخي - بأبعاده الاقتصادية والاجتماعية وأبعاده سياسته الداخلية والخارجية لا يتضح بالقدر الكافي من عرض جرونفلد للموضوع . صحيح أنه أوضح أن الفاشية لم تستطع تحوّل الشعب الألماني كله الى أعداء للسامية ، لكنه لم يلق الضوء الكاشف على جوهر ذلك العداء ومقوماته وأسباب انتشاره في ألمانيا والنمسا ، واكتفى بضرب أمثلة لأنواع من الاضطهاد . منها الى أن الكثيرين من الألمان نظروا الى كل ما هو « غريب » على « أنه يهودي » لأنهم - أي الألمان كانوا يعيشون في عزلة (ص ٢٩ ، ٣٠) .

ويبدو أن جرونفلد كان يشعر بأنه لم يتناول موضوع

تفشيا في ألمانيا ودفعنا بتجزم الفكر فيها الى المهجر (والمضى) وإلى الموت . وينتقل جرونفلد على أن العداء للسامية في كل من ألمانيا والنمسا كان يقف بالمرصاد لانتاج اليهود من نمساويين وألمان ، واستمر ذلك العداء حتى وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها .

يتناول جرونفلد في الباب الأول من كتابه بحث فكرة « التشابه بين المثقفين من اليهود الألمان وإسهامهم في ثقافة عصرهم ، ويهدت واة » من وجهة نظره - في تركيزهم الجبار على ما قاموا به من أعمال وعلى المشاكل التي أرادوا حلها ، والتي عبر عنها مثلاً زيموند فريد في كتابه « العاطفة المقدسة » محاولاً شرح السلوك الانساني وأصوله وطبيعته (قارن ص ٩) . وتتجلى هذه الفكرة الأساسية ، أمام القارئ في صور كثيرة ، مدعمة بخلفية حضارية عن تاريخ الفكر في القرن التاسع عشر . ويعرض المؤلف دائماً على أن يعرض قضية الألمان واليهود من زاويتين : زاوية الاحترام المتبادل بينهما بل والتعاون أحياناً (كما في حالة برتولت بريشت وزميله فايل في وضع « أوبرا القروش الثلاثة » ص ٢٦) . ومن زاوية أخرى يعرض المؤلف ظاهرة العداء للسامية منذ نشأت الى أن بلغت ذروة الاضطهاد . وعصف تيارها ؛ أنباء الكتاب أمثال فريد وكافكا وأبشتاين ، حتى أصبحت أعمالهم مجالا للسخرية والمار وذلك بلصق لفظة يهودي لها ، فمثلاً تحدثوا عن « السيكولوجية اليهودية » ، « الأدب اليهودي » ، « علم الطبيعة اليهودي » (ص ٢٠) .

ويرجع نجاح جرونفلد في عرض هذه الأمور الى مهارته في ربط الخطوط العريضة للتطور الثقافي بوقائع من سير هؤلاء الأشخاص في أسلوب قصصي شيق يترك لدى القارئ انطباعاً بالحيوية والعمق الفني .

ثم يتساءل جرونفلد عن سبب ذلك العداء للسامية وتطوره الى تصرفات « بربرية » بالرغم من ذلك الانتاج

وزميلها في مملكة الشعر : أبريش موسام وايرنست تولر (وأحياناً تكون همزة الوصل عبارة عن صلة خارجية نابعة من ظروف الحياة وصلاباتها ، كما في الباب السادس حيث يعرض القصصي العبقري فرانس كافكا ومعه الكاتب الساخر كورت توفولسكي ، ويحكى قصة لغائها في براغ في منزل ماكس برود (ناشر أعمال كافكا فيها بعد) .

وغالباً ما يدهش القارئ لتلك الخيوط الكثيرة وشبكة الاتصالات والمعارف التي يوردها المؤلف : وكأنه في مسرح المرائس ، يسلك بيده بكل خيوط ويمرر منها ما يتلام مع الموقف وفي نفس الوقت يتبع القارئ ويده بالجلد من المعلومات عن أولئك « الانبياء » ومثال ذلك ما نجده في الباب الخامس ، حيث يقول جرونفلد في معرض حديثه عن أينشتاين وشونبرج : « كان كل منهما رجلاً عصرياً ، يعشق الفنون والعلوم السياسية والاختراعات العلمية . وسجل أينشتاين اختراعه لأحدى الكاميرات ، واخترع شونبرج آلة كاتبة بالموسيقى ، وأعاد تنظيم وتوزيع موسيقى عصر الباروك كما عزف أينشتاين من موسيقى باخ بير ، تارتان ، كوريللي » (ص ١٥٨) .

وكان من الطبيعي أن تتسع دائرة خيوط الربط لتشمل أناساً آخرين خارج نطاق الشخصيات المعروضة . فنلتقي في الباب الثاني مثلاً - وهو مخصص لكل من مالر وفرويد - بشخصيات أخرى أمثال الكاتب النمساوي الكبير كارل كراوس ، صاحب مجلة « الشعلة » التي قدم فيها نقداً ثقافياً وملتقى بالأديب النمساوي أيضاً آرثور شستلر وهو من كبار كتاب المسرح في فيينا عند نهاية القرن الثامن عشر (ص ٥٦) - وعيناسية عيد ميلاده الستين كتب إليه زيجموند فرويد مهتاً : « أظن أنني نقاديتك نتيجة لنوع من المقاومة حتى لا أرى نسخة مني ... » (ص ٥٦) ، ذلك لأن فرويد كان يجد تشابهاً كبيراً بينه وبين بعض الشخصيات

العداء للسامية بما يستحبه من عمق وبحث فصيح في ص ٣٤ في كتابه قاتلاً « ان بعض ما هدفت اليه بوضع هذا الكتاب هو أن أعطي القراء الانجليز والأمريكان فكرة بسيطة عما ضاع بانحيار عصر النهضة في جمهورية فايمار ، وان ألح الى مدى ما طواه النسيان منه حتى اليوم » ورغم أن التعبير « عصر النهضة في جمهورية فايمار » لا يغطي سوى فترة جمهورية فايمار (١٩١٩ - ١٩٣٣) - وهي فترة بسيطة إذا ما قورنت بما يعرض الكتاب من أحداث وإنجازات أدبية وفنية على مدى ستين عاماً (من نهاية القرن الماضي حتى منتصف القرن الحالي) - نقول رغم ذلك فإنه لا بد من التأكيد على أن جرونفلد قد نجح في تحقيق ما هدف اليه في الكتاب . فقد أفاد وأمتع كثيراً من قرائه في أنحاء العالم .

وبما يستحق التنويه والاستكمال جملة يقول فيها « اذا أراد أحد أن يبحث عن معنى في المأساة الألمانية اليهودية ، فلنأتي أخشى أنه لن يجد غير درس واحد تحب الاستفادة به والتعلم منه ، وهو أن الصراع الدائم بين الرأس والمفكر وهراوة الحاكم ينتهي غالباً لصالح الهراوة ، على الأقل في المدى القصير » (ص ٣٥) . وهنا نقول للمؤلف إنه بلأ الى التعميم والتبسيط وليست القضية بهذه البساطة ، فقد اكتفى بتزويد مفهوم التاريخ لدى أحد الوجوديين وهو : تيودور ليسنج الذي وضع كتاباً بعنوان « التاريخ (هو) إيجاد معنى للمجرد من المعنى » .

يضم كتاب جرونفلد ثمانية أبواب ، يتناول فيها عرضاً مثيراً لحياة وأعمال ستة عشر من الشخصيات الأدبية والفنية ، مكثفياً في كل باب منها بتقديم شخصيتين أو ثلاثة ، حسب ما تراهي أمامه من عوامل الربط والارتباط بينهم : فأحياناً تكون الأرضية المشتركة بينهم عبارة عن صلة داخلية - مثل اشتراكهم في وجهة النظر أو في أي رأي أو موقف - (ومثال ذلك نجله في الفصل الرابع الذي يجمع بين الرزي لاسكر شولر

الكتاب . متتهزا للحفلات المناسبة : فهو يفعل ذلك عند المقارنة ، فمثلا يقول عن الشاعرة جيرترود كولر أنها كانت على شاكلة الشاعر الأديب كافكا « تعرف تماما أنها تعيش وسط شارع القفلة » (ص ٢٦٠) . وهو يحاول الربط عندما يستعرض رأي شخص آخر ، كما في حالة الحكم الذي أصدره فالتر بنيامين (ص ٢٢٧ بالباب السابع) على كل من كافكا وجيرترود . وهو يحاول الربط أيضا عندما يذكر القارئ بالموضوع الأساسي ، فيربط مثلا بين آراء الشاعر هاينريش هاينه وبين وجهة نظر الأديب كورت توخولسكي رغم تباعد الفترة الزمنية بينهما (ص ٣٠٧) وعموما يمكن القول بأن الكتاب - رغم اتساع دائرة العرض فيه وزعم توزيع مراكز ثقته - يحافظ بلا شك على وحدته الفنية والعملية وجبته الروائية .

وبما يزيد طريقة السرد قيمة ويضفي عليها جاذبية : تلك النصوص الشعرية الألمانية التي أوردها جرونفلد بنصها الألماني ثم أتيها بترجمة أدبية وإعاهة الى الإنجليزية ، تساعد القارئ غير الملهم بالألمانية على استكمال صورته عن المؤلف المتوط به الحديث .

كما يجب التنويه أيضا بالجزء الخاص بالصور الفوتوغرافية لتلك الشخصيات ، فهو رغم قلة حجمه يحوي صورة معبرة عن كل منها ، فنجد مثلا صورة للكاتب المسرحي كارل شرتهيلم مكتبا فيها على مائدة فائقة ، وإثقا من نفسه ومفتخرا بترأله . وفي صورة أخرى وقف الشاعر العاطفي الشاعر إيرنست تولر في فناء المعتقل حيث حكم عليه بالسجن مدى الحياة . وليس من قبيل الصدفة أن يضع جرونفلد صورة الروائي فرانس كافكا في مقابل صورة الأديب كورت توخولسكي ، فالأول يبدو خجولا خائفا من الحياة ، بينما الثاني يمثل حيوية واقداما . وهم جميعا « أنبياء بلا كرامة » جمع بينهم هذا الكتاب الذي يضم أيضا بيلينجرافيا شاملة وفهرست بالاسماء ورؤوس الموضوعات .

التي يعرضها شستلر في مسرحياته وفي نفس الوقت نلتقي أيضا بالعالَم النفسي السويسري كارل جوستاف يونج الذي انطلق من نظريات فرويد وأسس علم النفس التحليلي ، الا أنه تبرأ فيها بعد من فرويد خوفا من الفاشية ولترك الحديث للمؤلف جرونفلد :

« عندما أحرق النازيون مؤلفات فرويد واعتدوا حملة عليه لتشويه سمعته ، ارتاح يونج لذلك وأعلن أن الوقت قد حان لتوضيح الفرق بين علم النفس الألماني وعلم النفس اليهودي » (ص ٥٨) .

وعلى هذا المتوال يضي جرونفلد - ملقيا الضوء على بعض العلاقات أو معلنا بعض التناقضات والخلافات - يقدم في عرضه بأبواب الكتاب صورة واضحة المعالم والسمات لأولئك « الأنبياء » في إطار التاريخ الفكري آنذاك . وكما تطلع القارئ في كثير من المواضع إلى عمق في المعلومات أو إلى أسباب واضحة لبعض الخلافات ، فمثلا في الباب الثالث وفي معرض الحديث عن الشاعر كارل فونفسكيل لم تتضح مدى علاقته بملدرسه شتيفان جشورجي (ص ٦٩) ، ومع ذلك فإن القارئ يكتسب على أي حال صورة حية من الشخصيات الوارد ذكرها . لأن جرونفلد يتفادى سرد المعلومات جافة مجردة ، فيغذيها بوقائع من سيرة حياة الشخص المعني في ثوب يجلب القارئ والمؤلف لا يسعى الى الكمال ، بل يكفي بتقديم أهم جوانب الصورة .

فها هو مثلا في الباب الثامن يتحدث عن كتاب « موت فرجيل » - ذلك العمل الفني الضخم بلغته العملاقة وعمقه الفكري ، وفي ثنايا العرض نجده يضيف كثيرا من الوقائع عن حياة هيرمان بروخ مؤلف الكتاب .

ويحاول جرونفلد خلق روابط فكرية بين أبواب

وفي الفصل الثامن المخصص للروائي أفريد دوبلين وزميله النمساوي هيرمان بروخ نجد جرونفلد يمس سنوات ما بعد الحرب العالمية الثانية ، فيحكى عن عودة الكثيرين (أمثال برتولت بريشت وغيره) من المنفى الى ألمانيا ، ويحكى عن بعض الصعوبات والمشاكل التي واجهت العائدين ، إلا أننا لا بد وأن نسجل على المؤلف أن استعراضه لفترة ما بعد الحرب يعتبر عرضاً مختصراً تمام الاختصار ، إذا ما قورن بالأسهاب والاعطاب في

الأبواب السابقة ، ونقطة أخرى لا بد من أخذها عليه ، وهي أنه لم يتم كثيراً بالقوى المناهضة للفاشية في ألمانيا ، فهي قوى فعالة تتزايد يوماً بعد يوم ، ولعل هذه النقطة تعتبر انطلاقة لبحث جديد .

ولعلنا نختم الحديث بكلمة المؤلف عن الشاعر كارل فولفسكيل والتي يقول فيها « إن فولفسكيل شعر بالتزامه تجاه الماضي ويمسؤوليته نحو المستقبل » وتنطبق هذه المقولة على جرونفلد نفسه .



أن الخبر ، وما ينضج عنه من كتابات ، يشكل المادة الخام الأساسية التي تعتمد عليها الإذاعة والتلفاز والصحافة . وتعد كتابة الخبر الصحيح والدقيق فنا رفيحا ليس من اليسر إتقانه ، كما يجتنب لبعضهم . ويتناول الكتاب الذي^(١) بين أيدينا ، وقد صدر منذ أعوام في الولايات المتحدة باللغة الانكليزية ، فن الخبر المقروء والمسموع والمرئي ، وهو يقع في ١٨٤ صفحة من القطع المتوسط ، ويعد مقيدا بالنسبة للمبتدئين المهتمين بتعلم مهنة كتابة الأخبار ، لأنه يلمح على الطريق الصحيح ويشرح لهم القواعد الأساسية المتصلة بالمهنة المذكورة . يبدأ المؤلف (دافيد داري) بإلقاء بعض الأمراء التاريخية على نشأة الخبر ووسائل الإعلام . وهذا يعد نهجا علميا ملبيا لأن الكتاب الراقي عندما يتناول مشكلة ما ، يبدأ عادة بسبر أغوارها التاريخية وكشف الثقب عن تطورها عبر المراحل الزمنية المختلفة . فالتقريب التاريخي المنظم يعد من أهم أسس الكتابة العلمية الناجحة .

يرجع الكتاب تاريخ التقرير الاخباري الى عام ٤٥٤ قبل الميلاد ، أي الى أيام حكم يوليوس قيصر ، حينما كانت هذه التقارير تكتب بواسطة اليد . وفي عام ٧٧٠م عُرف في الصين فن الطباعة بالخشب . وكان الصينيون آنذاك يحفرون الكلمات والصور على الصفائح الخشبية ، باليد .

أما بالنسبة للصحافة ، فإن المؤلف يشير الى بعض الصحف الأولى في العالم . . ففي الصين ظهرت أول صحيفة ، وهي صحيفة (تسنج باو) ، في عام ٥٠٠ بعد الميلاد . وفي أوروبا صدرت أول صحيفة في نوفمبر في ألمانيا في عام ١٤٥٤ في أعقاب نجاح جوهان جوتنبرغ في اختراع الحرف المتحرك في عام ١٤٤٠ .

كيف تكتب الأخبار للإذاعة والتلفاز والصحافة

تأليف دافيد داري
عربية تحليل إسرائيل

فالمصداقة تقدم للقارئ المادة الخام التي يكون منها آراءه وأفكاره ويبنى وجهات نظره ويصوغ مواقف تجاه الأحداث والتطورات المختلفة .

أما التطبيق العملي الثاني لايصال الخبر فيتمثل بالاذاعة . . وهي تعد من أفضل الوسائل في هذا المجال ، نظرا لأنها تقوم بمهمتها بسرعة كبيرة ، ومن المعلوم أن الخبر نقل أهميته مع مرور الزمن ، بل أنه في بعض الأحيان يفقد قيمته بصورة كاملة خلال ساعتين ، مثلا . لذلك فإن السرعة في نقل الخبر تنطوي على أهمية حاسمة ، وإذا كانت الاذاعة هي أسرع وسيلة في هذا المجال ، فإن التلفاز يأتي في المرتبة الثانية ، تليه الصحافة .

ويتحدث المؤلف عن حرية الصحافة ، مؤكدا أنها الشرط الأساسي الذي يجعل الصحافة قادرة على تقديم الأخبار الصحيحة الزبينة الحالية من الخطأ أو الانحراف أو التحامل . ولنا هنا وقفة . . لأن الموضوع هام لدرجة تجعل من غير المناسب المرور به دون تعليق . . . وفي أي حديث عن الصحافة يجمع كافة المفكرين ، دون استثناء ، على أن حرية الصحافة هي الشرط الأول الذي بدونها لا يمكن أن تقوم للصحافة قائمة ، فتغدو أشبه ما تكون بالجلطة الهامدة التي لا حراك فيها .

وفي الدول الديمقراطية لا خوف على حرية الصحافة . . . ولكن المشكلة تصبح حادة عندما يتعلق الأمر بنا نحن العرب . . . فحرية الصحافة عندنا قد اغتيلت منذ سنوات طويلة وأكثر من ذلك ، ليس هناك أي أمل في بعثها في المستقبل المنظور ، لسبب بسيط ، هو أن أصحاب السلطة في الأقطار العربية يتصورون أن قتل حرية الصحافة هو صمام أمان كبير بالنسبة لهم . ونحن نختلف مع هؤلاء في هذه النظرة ، لأن ما يعتقدون أنه في صالحهم إنما هو كذلك على المدى القصير فقط ، ولكنه ضد مصالحهم على المدى البعيد ، فمنع

وفي عام ١٦٢٢ ظهرت صحيفة لندن الأولى باسم (الأخبار الأسبوعية) .

أما في أمريكا فكانت صحيفة (الوقائع العامة) التي ظهرت في عام ١٦٩٠ هي أول صحيفة أمريكية . وبالنسبة للمجلات فإن أول النموذج لها هو المجلات الاخبارية التي ظهرت في بداية العشرينات كالتايم والتيزويك .

ويتنقل المؤلف بنا بعد ذلك من الصحافة الى الاذاعة ، فيرجع بلمه استخدام جهاز الراديو لأول مرة الى العشرينات . وكانت الاذاعات في ذلك الوقت تحصل على الأخبار بشرائها من الصحف وباعتماد على مراسليها . أما التلفزيون فقد أنشئ للمرة الأولى في عام ١٩٣٩ ، ولكنه لم يزدهر بلدجة كافية الا بعد الحرب العالمية الثانية .

ويعد هذا الاستعراض التاريخي السريع الذي أوجزنا بعض خطوطه الرئيسة ، يطالعنا فصل (ما هي الأخبار) ، وفيه يرجع المؤلف كلمة (خبر) الى أصل لاتيني معناه (الشيء الجديد) ويعرفه بأنه (أي تقرير مكتوب أو مسموع أو مرئي ، يركز اليه ، عن حادث يتضمن معلومات غير معروفة تؤثر في حياة القراء أو المستمعين أو المشاهدين ، وسعادتهم ومستقبلهم) . وبالطبع فإن هذا ليس أفضل التعريفات . ولابد ان توجد تعريفات أكثر منه دقة . وأول تطبيق عملي لنشر الخبر يتجلى في الصحافة . وهناك تعريفات عديدة للصحافة ، إلا أن المؤلف يختار منها تعريفا خاصا وهو (أن الصحافة هي جمع الأخبار وكتابتها ونشرها) . ويبدوننا أن هذا التعريف ناقص ، لأنه يربط الصحافة بالخبر وحده ، مع أنها تتضمن أشياء أخرى كثيرة كالمقالة والدراسة والشعر وغير ذلك ، وإن كان الخبر يشكل عمودها الفقري الأساسي فإن نقل الخبر هو من أهم أدوار الصحافة . إلا أنه ليس الدور الوحيد ،

الخاصة . وهكذا فإن الخبر مهما كان هاماً أو مشيراً ، ليست له قيمة على الإطلاق إذا لم يكن صحيحاً ومطابقاً للواقع . ومن هنا فإننا نضع صحة الخبر وصدقه في رأس شروط الخبر الجيد .

ويتضمن الكتاب فصلاً بعنوان (جمع الأخبار) يتعرض فيها للصفات التي يجب أن يتحل بها المراسل الناجح الذي يقوم بجمع الأخبار وتنقيتها وصياغتها الصياغة السليمة لنشرها أو إذاعتها . ومن بين هذه الصفات الأمانة والأخلاص والمسؤولية والموضوعية .

ويشير المؤلف إلى ضرورة كون المراسل كاتباً يتقن فن الكتابة ومفكراً قادراً على التحليل والاستنتاج وحائزاً على درجة كافية من التعليم . وحول سؤال ما إذا كان المراسل يحتاج إلى الدراسة الصحفية أم إلى الموهبة كىما يكون قادراً على القيام بمهمته على خير وجه ، يقدم الكتاب أجوبة وآراء مختلفة ، فيض النقاد يرون أن الأساس في الموهبة ، وبعضهم الآخر يمنحون الأولوية للدراسة الصحفية . إلا أننا نتفق مع وجهة نظر المؤلف التي ترى أن موهبة القدرة على الإبداع والكتابة هي الشرط الأول الأساسي . أما الدراسة الصحفية فأنها تغني هذه الموهبة وتشدبها وتصلقها وتضيف إليها أبعاداً مفيدة .

وبين المؤلف طرق الحصول على الأخبار ومن بينها : الاتصال المباشر - المؤتمر الصحفي - المقابلة - الاستعانة بالهاتف - السبق الصحفي الشخصي .

ومن واجب المراسل ، مهما كانت طريقة حصوله على الخبر ، أن يتحقق من صحته ولا يأخذ على علاته ، لأنه كثيراً ما تحدث محاولات مفرضة لإعطاء أخبار غير صحيحة .

وهناك فصل بعنوان (فلسفة كتابة الأخبار) ، ويتحدث فيه المؤلف عن صعوبة كتابة الخبر . فهذه تعد فناً معقداً وحرفة صعبة ، على عكس ما يعتقد

الصحافة وأجهزة الإعلام من كشف الأخطاء والانحرافات يؤدي إلى تراكم هذه الأخطاء وإلى ازدياد التدهور والانحطاط في الأوضاع العامة . وهذا ينعكس في نهاية المطاف على مصلحة السلطة ويقود إلى أزياتها . وإذا كنا لا نستطيع أن نتوقع من السلطة أن تجود بحرية الصحافة كاملة من تلقاء ذاتها ، فإن بوسعنا على الأقل أن نطالب بقسط نسبي من هذه الحرية كتخفيف القيود على بعض الأفكار والآراء البناءة التي لا تنطوي على إثارة مباشرة ضد السلطة .

وفي فصل (ما هي الأخبار) يتحدث المؤلف عن سيكولوجية الخبر وعن أسباب اهتمام القارئ بهذا الخبر أو ذاك . فالقارئ يهتم حافة بالخبر الذي يهتمه أو يثير فضوله أو يرتبط بمصالحه أو الذي يوفر له مكافأة نفسية لا شعورية ، آتية أو بعيدة المدى . ولا شك أن جودة الخبر تؤثر في مدة استجابة القارئ له . ويذكر المؤلف من بين الشروط التي يجب توافرها كي يكون الخبر جيداً :

١ - حداثة الخبر .

٢ - كون المراسل (أي كاتب الخبر) قريباً من موقع الخبر ، لأن ذلك يزيد من مصداقية الخبر وموثوقيته .

٣ - ارتباط الخبر بشخصيات أو أماكن أو أشياء بارزة ، فالخبر الذي يروي تحركات رئيس دولة ما ، أهم بكثير من الخبر الذي يتعرض لشخص عادي أو أكثر من العادي بقليل .

٤ - كون الخبر ذات تأثير في أوضاع الناس ومستقبلهم .

وعلى الرغم من كثرة الصفات التي يتسم بها الخبر الجيد ، فإننا نرى أن أهم هذه الصفات يجب أن تكون (صحة الخبر) . فنحن اليوم نعيش في عصر تكثر فيه الدعايات المغرضة والترويجيات المضللة ، فوكالات الأنباء والمراسلون وأجهزة الإعلام ، كثيراً ما تلجأ إلى تشويه الأخبار وتحريفها خدمة لمصالحها وإيديولوجياتها

جميع الحقائق الأساسية لثلاثا يكتفي به المستمع أو القارئ .

ويعد ذلك يأتي فصل (متن الخبر body) أي الجزء الرئيسي منه ، بتفاصيله الكاملة . وهنا يستحسن تقديم الحقائق حسب أهميتها ... فالأولوية للأكثر أهمية ثم للمهم ثم للأقل أهمية ، وهكذا . وهذه العملية ليست سهلة وهي تستلزم من كاتب الخبر الكثير من الحصافة والدقة والقدرة على الموازنة .

ومن الفصول الهامة في الكتاب فصل يتعلق بأوجه الشبه والاختلاف بين أخبار الصحافة والأذاعة والتلفاز . وتشارك هذه الأخبار في سمات واحدة ، كالحاجة إلى تماسك الجمل في الخبر ، ووضع الكلمات في الجملة بطريقة مناسبة ومؤثرة ، وقصر الفقرات ، وضرورة حذف الكلمات والعبارات والأجزاء الزائدة التي يمكن الاستغناء عنها دون أن يتأثر المعنى . ولا ننسى طبعاً الموضوع والبساطة والاختصار . فهذه الصفات جميعها يجب أن تتوفر للخبر أيما كان نوعه . ولكن طالما أن الخبر الصحفي يكتب كي يقرأ والخبر الإذاعي والتلفازي كي يسمع ويشاهد ، فلا بد أن تكون هناك اختلافات في كتابة هذه الأخبار . وتتسع فجوة الاختلاف عندما يتعلق الأمر بالخبر التلفازي ، فالقصص الاخبارية المرئية يجب أن تكون قصيرة والكلمات قليلة إلى حد كبير ، لأن الصورة هنا تعوض عن الكلمة ... فمن المهم جداً اختصار القصة وتقديمها في أقل وقت ممكن ، مما يستلزم قدرة فنية كبيرة . ولا مجال في الخبر التلفازي للكلمات الأدبية لأن الجمل ينبغي أن تكون قصيرة وتقريرية . ويقدم المؤلف إلى كاتب الخبر التلفازي نصيحتين :

١ - ضرورة عدم حشو الفلم التلفازي بالتفاصيل الكلامية ، لأن المشاهد لن يستطيع في هذه الحالة متابعة ما يعرض من صور ، وما يقوله للذبح في آن واحد . وفي

بعضهم ، فكاتب الأخبار ، مثلاً ، خلافاً لكاتب القصة أو المسرحية لا يملك الخيار في ترتيب الحوادث والتباينات مما يفرض عليه قيوداً صعبة ، كما أن عليه أن يتقيد بشكل حاسم بعامل السرعة ، لأن التأخر في كتابة الخبر أو إيصاله إلى الجمهور ، يفقده كثيراً من جوهرة ورونقه .

ومن الفصول الأخرى فصل (لغة الأخبار) ويوضح فيه المؤلف بعض النواحي المتعلقة باللغة التي يجب أن يستعملها كاتب الأخبار . وأهم شرط في هذا المجال أن تكون اللغة مفهومة واجملى قصيرة . ويستحسن أن يتضمن كل خبر فكرة واحدة لا فكرتين . ويقدر المؤلف أن اللغة الانكليزية ، مثلاً ، تضم زهاء (٦٠٠) ألف كلمة . ومن بين هذه الكلمات هناك فقط (١٠٠) ألف كلمة مفهومة . وعلى كاتب الأخبار أن يستعمل الكلمات المفهومة دون غيرها إذا أراد أن تكون كتابته واضحة في متناول فهم جميع القراء .

ويقدم الكتاب أمثلة على بعض القصص الاخبارية المنشورة في الصحافة الأميركية ويتقدها ويبين كيف أن بالامكان استخدام كلمات أخرى بدلاً من الكلمات المستعملة حتى تصبح الأخبار أكثر وضوحاً وأقرب إلى فهم جميع القراء على مختلف مشاربهم .

وهناك فصل خاص بمقدمة الخبر (lead) ، أي خلاصته . ويعلق المؤلف أهمية كبيرة على هذه الخلاصة لأنها هي التي تحمل القارئ يستمر في قراءة الخبر ويوغل في تفاصيله أو يدبر عنه . ويبدو أن اهتمام المؤلف بالمقدمة له ما يبرره ، فكلنا نعرف مدى اهتمام الناس بسماع موجز الأنباء الذي يزودنا بالنقاط الرئيسية البارزة في النشرة . وكثيراً ما يقرر هذا الموجز ما إذا كنا سنمضي قدماً في سماع بقية النشرة أو أننا سنوقف عن ذلك . ولكن على الرغم من أن موجز الخبر يجب أن يعطي فكرة واضحة عن مضمونه العام ، إلا أنه ينبغي ألا يوضح

الإخبارية الجادة : فكلما تضمنان مقدمة (lead) ومتنا (body) ولكن الخبر الترفيهي يمتاز بأن له نهاية (ending) .

والفصل التالي في الكتاب هو بعنوان (تحرير القصة الإخبارية) . والتحرير ، كما هو معروف ، يعني إعداد المادة الكتابية المناسبة للنشر في الصحافة ، أو البث بالإذاعة ، أو العرض بالتلفاز ، والمحرف في الصحيفة أو المجلة الإخبارية الراقية يكتب عادة الخبر ثم يعيد سبكه ويصحح أخطائه . وبعد ذلك يسلمه لمحرر آخر يتأكد من صحة صحته ويصدق من حيث التهجئة والتنقيط والنحو ، ثم يقوم بتكليف الجمل وتوضيحها ويجعلها ملائمة لنوع الصحيفة ، مسيرة لحظها ، كما أنه يصحح ما يرى أنه يستوجب التصحيح . وبعد ذلك يرسل الخبر إلى المطبعة وتجري مطابقة البروفات مع الأصل من أجل تصحيح كل خطأ مطبعي . وهذه كلها كما نعلم معلومات مهنية يعرفها كل من مارس الصحافة والتأليف . أما بالنسبة لتحرير الخبر الإذاعي ، فإن المذيع ، في معظم الأحوال ، هو الذي يحرر الخبر . لذلك فإن عليه أن يكون حلوا وحريصا إلى أبعد الحدود ، وأن يراجع كل ما يكتبه مراجعة كاملة لتصحيح وتعديل ما يجب تعديله في النحو والأسلوب والتهجئة وغير ذلك .

وبصورة عامة فإن التحرير الإذاعي أبسط من التحرير الصحفي ، حتى أنه من الممكن الحذف والإضافة في أثناء البث الإذاعي ، بصورة مباشرة وبدون تحضير مسبق ، اعتمادا على خبرة المذيع . وهذا غير ممكن بالنسبة للصحافة ، إذ أن أي تعديل هناك ينبغي أن يتم قبل نشر الخبر بوقت طويل . ويحتوي الكتاب على فصل هام بعنوان (القانون وكاتب الأخبار) وبين المؤلف فيه ضرورة تقيد كاتب الأخبار بالمقتضيات القانونية . وعلى الرغم من أن الدول الديموقراطية توفر

التلفاز ليست هناك حاجة كبيرة للإيضاح ، كما يقتضي الحال في الصحافة والإذاعة ، لأن الصورة هي التي تقوم بدور التوضيح .

٢ - ينبغي ربط الكلمات بالصور ربطا مناسباً بمعنى أن رواية المذيع يجب أن تسير جنباً إلى جنب مع الصورة . ويلفت المؤلف النظر إلى أنه في الأوقات التي يعمل فيها التلفاز دون أن تكون هناك صورة بحيث لا يظهر إلا المذيع ، تصبح الكتابة إلى التلفاز كالكتابة إلى الإذاعة ولا فرق بينهما .

ويقارن المؤلف أيضا بين ما يكتب للصحافة وما يكتب للإذاعة أو التلفاز ، في الصحيفة ، مثلا ، يمكن للكاتب عند الإشارة إلى الأشخاص أو الأماكن أو الأشياء ، أن يقول (الأول والثاني والثالث والأخير) ولكن هذا غير جائز في الإذاعة والتلفاز ، لأن المستمع أو المشاهد لا يستطيع على الأغلب العودة إلى الجمل السابقة . وفي الصحيفة يمكن بدء موجز خبر ما باسم شخص غير معروف ، إلا أن هذا غير وارد في الإذاعة إلا إذا كان اسم الشخص مشهورا جدا .

وفي الصحيفة يبرز إيراد أسماء ثلاثية في حين أن الاسم المتوسط يحدف في الإذاعة والتلفاز .

وفي الإذاعة والتلفاز نجد أن الاستشهاد أكثر منه في الصحافة ، فغالبا ما نسمع فيها عبارات مثل (صرح فلان . أضاف قائلا . أوضح . أشار ، ثم استدرك قائلا . . . الخ) . وكثيرا ما تُعاد صياغة أقوال المستشهد بهم .

ويتحدث المؤلف في فصل خاص عن (القصة الإخبارية الترفيهية) . وهذا النوع من القصص يتمتع بالقدرة على التسلية والامتناع دون أن يكون له تأثير في حياة القراء والمستمعين والمشاهدين ، أو مساعدتهم أو مستقبلهم .

وبين الكتاب العناصر المشتركة بينه وبين القصة

الى ان اختيار الأخبار ينبغي ألا يتم جزافاً بل على أساس تقييم الكاتب لها تبعاً لأهميتها ومغزها . وتطلب المادة الرابعة من كتاب الأخبار أن يلتزم بالاحترام الانساني وبكرامة الأشخاص الذين تتعلق بهم الأخبار وحقوقهم في السرية . وتوصي المادة السادسة بتقديم الأخبار التي تخدم المصلحة العامة ، وهنا يجب لنا أن نتساءل عما اذا كان مضمون هذه المادة يعني انتقائية الخبر وبالتالي التناقض مع الموضوعية وعدم التحيز . ولكن ربما يكون المقصود منها : عدم إيراد الأخبار التي قد تضر بمصالح الأمة وسلامة المواطنين . وعلى كل ، فإن هذه المادة قابلة للجدل .

ومن الفصول المتعة في الكتاب فصل بعنوان (مقاييس الصحفية الجيدة) ومن بين المقاييس التي يرى المؤلف ان على الصحفية الناجحة أن تلتزم بها : تقديم الأخبار والمعلومات الهامة والمفيدة للقراء دون لغو أو حشو لا لزوم له . العناية بالانتاحية التي توابك وتساور أحدث التطورات - تقديم المادة المثيرة للاهتمام - النزاهة والالتزام بمعايير الأمانة والابتعاد عن المحاباة والعاطفية - مراعاة الدقة والموضوعية والتقيد بالحقيقة ومكافحة الأهمال والتحريف والحذف - اختيار الأخبار ذات المغزى والفائدة ومراعاة حق السرية - الإشارة الى مصادر الأخبار - التحلي بالجرأة والوقوف في وجه الدماغوجية والمصالح الأنانية وعدم الخوف من النقد البناء لممارسات الدولة .

ويسد لنا أن المؤلف قد اقتصر على ذكر بعض المقاييس التي يجب أن تعتمد عليها الصحفية الجيدة في حين أهمل مقاييس أخرى كثيرة كانت جديرة بأن يذكرها . ومن بين هذه المقاييس : ضرورة اعتماد الصحفية على مبدأ الجودة في النشر بصرف النظر عن الاعتبارات المصلحية والمزاجية - ان تجمع مادتها بين عنصر القائلة وعنصر الامتناع - تنوع الموضوعات

حرية الخبر في مختلف أجهزة الاعلام فإن هذا لا يتم بدون حدود ، لأن هناك حقوقاً واعتبارات وامتيازات تحمي الجمهور ، وعلى الكاتب أن يحترمها ويلتزم بها . وفي أميركا وأوروبا بشكل خاص هناك مشكلة الحياة الخاصة للناس وحقوقهم في حماية سريتها . وكثيراً ما يتسكك الصحفيون هذه الحرية ، لذلك نجد المحاكم تفص بالدعاوى المتعلقة بهذه الأمور ، وقد تناقشت هذه المشكلات وازدادت حدة عندما تمسدت الصور التلفزيونية في كشف أسرار الناس . وبين المؤلف أن القانون في الدول الراقية يعين الحالات التي يحق فيها للصحفي أو كاتب الأخبار أن يتحدث بحرية ، ففي أثناء المحاكمات الرسمية في القضايا مهم للقانون للكاتب أن يكتب ما يحدث فعلاً حتى لو كان فيها يكتبه أساءات تمس بسمة بعض الناس ، ولكن شريطة أن تكون روايات الكاتب صحيحة وغير مزورة أو مفترضة ، وان تكون كاملة وغير محايية . وأن تخلو من التعليق .

وإذا أورد كاتب أخباراً تشوه سمعة شخص ما أو توقعه في مشكلات (سواء من داخل المحاكم أو من خارجها) ثم ثبت أن الأخبار غير صحيحة ، فإن من حق المساء إليه إقامة الدعوى وطلب معاقبة الكاتب قانونياً .

وهناك فصل يتضمن مجموعة المبادئ التي تبنتها جمعية مديري الأخبار الإذاعية والتلفزيونية الأميركية . وهذه المبادئ هامة ، لأنها تتسم بصفة الشمولية ، ويمكن لجميع المسؤولين عن تصميم سياسات الأخبار الافادة منها . وقد وردت مجموعة المبادئ هذه على شكل مواد ، فاللادة الأولى منها ، مثلاً ، تبين الهدف الرئيسي من الخبر ، وهو اعلام الجمهور بالحوادث الهامة . أما المادة الثانية فتوصي بضرورة عدم الاكتفاء بتقديم المعلومات الدقيقة ، اذ لابد من تقديمها في ضوء ظروف مناسبة تكسيها معنى ومغزى . وتشير المادة الثالثة

٦ - أنه يتضمن كثيراً من الأمثلة العملية والصور التوضيحية . وهذه الطريقة أفضل من الطرق النظرية التي يحف فيها ماء الحياة وتفتقر إلى الجانب التطبيقي .
وأخيراً يجدر بنا التنويه بأن المكتبة العربية تفتقر اليوم بصورة واضحة إلى كتب الاعلام والصحافة . لذلك لا بد لنا من الاستعانة بالكتب الأجنبية في هذا المجال .
ونحن نأمل أن يؤدي تقدم علوم الاتصال إلى تشجيع المؤلفين العرب على طرق باب الاعلام وفتح الطريق أمام نهضة اعلامية عربية .

ويعاني الاعلام العربي اليوم من مشكلات كثيرة كغياب حرية الكلمة ، والاتجاه نحو الدعاية ، وعدم وجود قوانين وتشريعات اعلامية تحدد العلاقات بين الكتاب وأجهزة الاعلام ، والحاجة الى تقنيات صحفية وإذاعية حديثة سواء على الصعيد الفني أو على الصعيد الادبي المتعلق بكتابة الاخبار والنصوص والتحقيقات ، أو على الصعيد الاداري وغير ذلك . ونضرب مثلاً على إحدى المشكلات السابقة ، ولكن مشكلة الانقراض الى التشريعات الاعلامية : فهل يحق للكتاب الاذاعي مثلاً أن يبيع حديثاً ما في أكثر من محطة اذاعية ؟ أو هل يحق له أن يذيع الحديث ثم ينشره في الصحافة ؟ أو أن ينشره في الصحافة ثم يقدمه اذاعياً ؟ مثل هذه الأسئلة وغيرها ليست لها أجوبة واضحة في التشريعات الاعلامية العربية . ولا شك أن صعوبة المشكلات التي تواجه الاعلام العربي يجعل من واجب المؤلفين العرب أن يولوا موضوع الصحافة والاعلام اهتماماً أكبر . وبما يوجب ذلك أيضاً حاجة المعاهد الاعلامية وكلية الصحافة العربية التي تخرج الكوادر المختصة في الصحافة والاعلام الى كتب علمية حديثة في هذا المجال ، ترصد أحدث التطورات في حقل الاتصال . ومن الضروري أن يعتمد المؤلفون على المراجع الأجنبية اعتماداً واسعاً

للتشورة وتكاملها فيها بحيث يكون هناك توازن بين المواد الثقافية والعلمية والأدبية . . الخ مع منح الأولوية للمادة السياسية - عدم اختصار الصحافة على المواد القصيرة السريعة بل رغبها أيضاً بالدراسات المطولة ، حتى يكسبها ذلك عمقا وروصاة ويعدّها عن كونها مجرد وسيلة لنقل الأخبار السريعة .

وهناك طبعاً الكثير من القاموس الأخرى التي يمكن إيرادها في هذا المجال .

وهكذا تنتهي جولتنا السريعة بين فصول كتاب (كيف تكتب الأخبار للإذاعة والتلفاز والصحافة) ، وهو كتاب هام دون ريب لأنه يتصل بموضوع الاعلام الذي يزداد تأثيره في حياتنا المعاصرة باضطراد . ويتمتع الكتاب بعدة مميزات نذكر منها :

١ - أن الكتب التي تتناول كتابة الأخبار تقتصر عادة إما على كتابة الأخبار للإذاعة والتلفاز أو على كتابتها للصحافة . ولكن هذا الكتاب الشامل يعد من الكتب النادرة جداً التي تملأ مساحات موضوع الأخبار المقروءة والمسموعة والمرئية جميعها دون استثناء .

٢ - يتسم الكتاب بالعالمية فهو ليس كتاباً محلياً يختص بالصحافة الأميركية وحدها بل إن المعلومات الواردة فيه عامة ويمكن الاستفادة منها في أي مكان .

٣ - أنه يعتمد في عرضه لتطور وسائل الاعلام على المنهج العلمي التاريخي .

٤ - أن مبادئ وقواعد كتابة الأخبار التي يتضمنها ثابتة لا تتأثر بالزمن ويمكن الركون إليها في أي وقت لأنها ترتبط بأساسيات في كتابة الخبر .

٥ - الكتاب مفيد للمبتدئين والكتاب المتمرس على حد سواء وهو وإن كان لا يعلم الكتابة لمن لا يستطيعون الكتابة أصلاً ، إلا أنه يساعد الذين يمارسون الكتابة على الارتقاء بمقدراتهم وعلى اتقان أصول فن كتابة الخبر .

والتقنيات الطباعية والاذاعية والتلفازية ، مثلا ، فاننا نستطيع الاعتماد على المؤلفات الأجنبية .
ونعتقد أن الكتاب الذي اخترناه هنا (كيف نكتب الأخبار للاذاعة والتلفاز والصحافة) يتضمن الكثير مما يمكن الاستفادة منه في الكتابة لوسائل الاعلام المختلفة ، فهو يعرض لنا الطرق العلمية التي تكفل انتاج الخبر الصحيح النزيه . ولكن الكتاب لا يغفل بالطبع عن بعض النقص ، فهو يقتصر على موضوع الخبر . . ولا يتحدث مثلا عن كتابة البرامج العلمية والتربوية للاذاعة والتلفاز والصحافة . ولو أنه فعل ذلك لكان مضمونه أشمل وأكثر فائدة .

نظرا لتقدم علوم الاتصال في الدول المتطورة . ولكن من غير الممكن الاستفادة من المؤلفات الأجنبية في جميع المشكلات التي يعاني منها الاعلام العربي ، فمثلا بالنسبة لحرية الكلمة والغاء الدعائية ، ليس بالامكان الاستفادة في ذلك من الخبرات الأجنبية لأن هذه المشكلات لا تخضع للمقاييس العلمية وحدها بل انها ترتبط قبل أي شيء آخر بالسياسة وحلها وهين بالسيادة الديموقراطية السياسية أكثر من معرفة الأسس العلمية المتصلة بالخريات .

أما في مجالات الإدارة والتشريع الاعلامي ،



العدد التالي من المجلد

العدد الاول - المجلد الخامس عشر
ابريل - مايو - يونيو
قسم خاص عن
الشعر والدراما
بالإضافة إلى الابواب الثمانية

العدد الاول - المجلد الخامس عشر
ابريل - مايو - يونيو
قسم خاص عن
الشعر والدراما
بالإضافة إلى الابواب الثمانية

ليرات ٣	سُورِيَا	٥	فلسطين
٢٥٠	المتاهة	٥	سعودية
٢٥٠	السودان	٤٠٠	بحرين
٢٥	ليبيا	٥	يمن الشمالية
٤٠٠	مستط	٤٠٠	يمن الجنوبية
٥	الجزائر	٣٠٠	عراق
٥٠٠	تونس	٢٥	سبنا
٥	المغرب	٢٥٠	دردن

لاشتراكات :

ليالاد العربية ٢٥٠٠ دينار

ليالاد الاجنبية ٢٠٠٠ " "

مولد تير الاشراف بالربنا الكويتي لمساهمة وزارة الاعلام بموجب مواءمة مصرفية خالصة المصاريف
الى بنك الكويت المركزي، وترسل صورة من المواءمة مع ابرام وعنوان المشترك الى ١٠

وزارة الاعلام - المكتب الفني - ص.ب. ١٩٣ الكويت

Biblioteca Alexandrina



0535822